مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَة التَّفْسِيرِ البَلَاغِي

المُجَلَّدُ السَابِعَ عَشَرَ

سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ العَاشِرُ

سُورَةُ التَّوبَةِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِن ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٢٣﴾ [التَّوبة: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين الجزاء الأبديّ لمَن والَى الله، والنَّهيُ عن موالاة الكافرين به

لـمَّا ذكَرَ اللّهُ تعالى العاطِفَةَ بِمَحاسِنِ الأَعْمالِ؛ شَرَعَ في بيانِ العاطفةِ بالأنسابِ والأَمْوالِ، وقَدَّمَ الأَعْمالَ؛ إيماءً إلى أنَّ التَّجانُسَ فيها مقدَّمٌ على المجانسَةِ في جميعِ الأحوالِ، ثُمَّ إنَّه لـمَّا كان محطُّ الموالاةِ هي المُناصَرَةَ، وكانَ الانتِصارُ بالآباءِ والإِخْوانِ أَعْظَمَ مِنَ الانْتِصارِ بغَيْرِهِم؛ اقتصرَ عليه، فقال سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتَّخِذُوٓاْ﴾: (الهمزةُ والخاءُ والذّالُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَى حيازَةِ الشَّيءِ وجَمْعِه[2]، وهذا المعنى يكونُ تارةً بالتَّناوُلِ، كقولِ اللّه ﷻ: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقَهْرِ والغَلَبَةِ، كقولِ اللّه سبحانَه: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾[3] [البقرة: 255]، ومِن هذا البابِ وُرودُ المادَّةِ مُرادًا بها التَّحصيلُ، كقولهم: اتَّخذَ فلانٌ مالًا، أي: كَسَبَهُ، وفِعْلُ (اتَّخذَ) هو افتعالٌ مِنَ الأخذِ، والمرادُ به: الأخذ للنَّفْسِ[4]، والاتِّخاذُ الوارِدُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، يُرادُ به: الجَعْلُ والتَّصْييرُ، أي: لا تُصيِّروهم ولا تَجْعَلوهم أولياءَ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أخذ).
(3) الرَّاغب، المفردات: (أخذ).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أخذ).

2) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، ﴿يَتَوَلَّهُم﴾: (الواوُ واللَّامُ والياءُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى القُرْبِ، ومنه: الوَلْيُ، وهو القُرْبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعْدَ ولْيٍ، أي: بَعْدَ قُرْبٍ، وجلسَ ممَّا يَليني، أي: يُقاربُني. ومنه: المَوْلَى، وهو يُطْلَقُ على معانٍ؛ منها: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنَّاصِرُ، والجارُ، وفي كلِّها مَعْنَى القُرْبِ، كما هو بيِّنٌ[1]، ومن أسماءِ اللّهِ سبحانَه: الوَليُّ، ومَعْناهُ: النَّاصِرُ، أو هو المُتولِّي لأمورِ الخلائقِ، القائمُ بها[2]، و﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، أي: بطانَةً وأنْصارًا، و﴿يَتَوَلَّهُم﴾ بمعنى: يتَّخِذْهُم أولياءَ.

3) ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾: (الحاءُ والباءُ) تدلُّ تصاريفُها على معنى تَجمُّعِ شيءٍ دقيقٍ أو لطيفٍ، ومنه: الحُبُّ، وهو ضِدُّ البُغْضِ؛ وهو راجِعٌ إلى معنى التَّجمُّعِ والتَّلازُمِ، لِكَوْنِ الحُبِّ تَعَلُّقَ القَلْبِ بالمَحْبوبِ، ومُلازمَتَهُ إيَّاه، مادِّيًّا أو فِكْرِيًّا[3]، والفِعْلُ منه: أَحَبَّ، يُقالُ: أَحْبَبْتُ الشَّيءَ، فهو مُحَبٌّ، والفاعِلُ: مُحِبٌّ، واسْتَحَبَّ مِثْلُ أَحَبَّ، والاِسْتِحْبابُ: الاستحسانُ[4]، وهو المرادُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، فإنَّ معناهُ: آثروهُ، والشَّيءُ يُؤْثَرُ على غَيْرِه: إذا استحْسَنَهُ المُؤْثِرُ.

4) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: (الظَّاءُ واللَّامُ والميمُ): تدلُّ تصاريفُها على حَجْبِ ما يَنْبَغي أو ما يُسْتَحقُّ؛ أي: مَنعِهِ أو انتقاصِهِ[5]، ومنه: الظَّلامُ؛ لحَجْبِهِ الرُّؤْيَةَ، والأرضُ المظلومةُ: التي لم ينلْها المطرُ[6]، والظَّالمُ: المُتَّصِفُ بالظُّلْمِ، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوْضِعه المُخْتَصِّ به، إمَّا بنُقْصانٍ أو بزيادَةٍ، وإمَّا بعدولٍ عن وقْتِه أو مكانِه[7]، ومنه: وصفُ الظُّلْمِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لكونِهِمْ قد وضعوا الولايَةَ في غيرِ مَوْضِعِها.

---

(1) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (حب).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (حب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ظلم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ظلم)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (ظلم).
(7) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ظلم)، والرَّاغب، المفردات: (ظلم).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

نداء المؤمنين لنبذ المُعاندين بالكُفر، وترك موالاتهم، ولو كانوا أولي قُربى

يا أيُّها الذينَ صَدَّقوا اللّهَ تعالى ورَسولَهُ ﷺ، وعَملوا بِشَرْعِه، لا تَتَّخِذوا أَقْرباءَكُمْ مِنَ الآباءِ والإخْوانِ وغَيْرِهم، بطانَةً وأَصْدقاءَ، تُفْشونَ إليهم أَسْرارَكُم، وتُطلِعونَهُم على عَوْرَةِ الإسْلام وأَهْلِه، وتَسْتَشيرونَهُم في أمورِكُم، وتُؤْثِرونَ الـمُكْثَ بينَ أَظْهُرِهم على الهِجْرَةِ إلى دارِ الإسْلام، ما داموا قَدِ اخْتاروا الكُفْرَ باللّهِ سبحانَه على التَّصْديق به والإقْرارِ بتَوْحيدِه، ومَن يتَّخِذْهُم مِنْكُم بطانةً وأَصْفياءَ فَقَدْ ظلَمَ نَفْسَهُ ظُلْمًا عَظيمًا، بِوَضْعِه الوِلايَةَ في غيرِ مَوْضِعِها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصلِ قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ عمَّا قَبْلَهُ:

تقريعُ أَهْلِ النِّفاقِ ومَن يَتَوَلَّاهُمْ، ملمحٌ ضروريٌّ لكفِّ شرورهم

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه استئنافًا ابتدائيًّا، بِقَصْدِ افْتِتاح غرضٍ آخَرَ مِنَ القَوْلِ، وهو تقريعُ أهلِ النِّفاقِ ومَن يتولَّاهُمْ، وذلك لأنَّهُ لـمَّا كانَ أوَّلُ السُّورةِ وارِدًا في طريقة التَّعامُلِ مع مَنْ أظهَرَ الكُفْرَ؛ تهيَّأَ المقامُ للكلامِ عن طريقَةِ التَّعامُلِ مع مَن أبطَنوا الكفْرَ، وأظْهَروا الإيمانَ[2].

نُكْتَةُ النِّداءِ بِـ(يا)، في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إظْهارُ العِنايَةِ بالنَّهيِ عَن تَوَلِّي غَيْرِ أَهْلِ الإيمان

جاء النِّداءُ بـ (يا)، في قول اللّه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهي في الأصل لنداء البَعيدِ، ونداءُ اللّهِ سُبحانَه لعبادِهِ نداءٌ مِنَ الخالقِ إلى الـمَخْلوقين، فَجديرٌ أَنْ يَكونَ بأداةِ النِّداء لِلْبَعيد، وفي التَّعبير بأداة النِّداء لِلْبَعيد نِكاتٌ؛ أولاها: بُعْدُ ما بينَ الخالقِ والـمَخْلوق مِنَ الـمَكانة. وثانيها: أنَّه نِداء مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العُلُوِّ وأبعدَهُ. وثالثها: عِظَمُ شأنِ موضوعِ النِّداءِ، وإظهارُ العنايَةِ به، والـمُبالَغةُ في حَثِّهِم على الـمُحافظَةِ عليه.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/175 - 176، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/150.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

النِّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في قولِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيهِ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ (أَيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ منه إلَّا باسم بعَدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هَذا نَوْعُ توكيدٍ، وفي اقترانِهِ بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصلِ يُرادُ به التَّنبيهُ.

الإنْتِقالُ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، مِنْ مُقَوِّيّاتِ المَعاني

دلالةُ النِّداءِ بِاسْمِ الإيمانِ:

وقَعَ النِّداءُ باسْمِ الإيمانِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ إيذانًا بأنَّ ما سيُلْقَى إليْهِمْ مِنَ الوصايا، هو مِنْ مقتضَياتِ الإيمانِ شرعًا، ومِنْ شَعائِرِهِ ومعالِمِه(1)، وفي التَّعبيرِ باسْمِ الإيمانِ مناسبَةٌ لطيفَةٌ؛ وهي أنَّ وصفَ الإيمانِ مُشْعِرٌ بِالإسْتِعدادِ لامتثالِ ما يأمرُهُم اللهُ تعالى به؛ وذلك لأنَّهُ أخصُّ أوصافِهِمْ تُجاهَ أوامرِ اللهِ ﷻ، كما قالَ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ [النّور: 51].

أَخَصُّ أَوْصافِ أَهْلِ الإيمانِ، امْتِثالُهُمْ أوامِرَ اللهِ تعالى ونَواهِيَهُ

نُكْتَةُ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

جاءتْ جملَةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، هو ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والحدوثِ؛ حثًّا لِلْمُخاطَبين على تَجْديدِ إيمانِهِم والاستمرارِ عليه، وفي الإتْيانِ بها فِعْلًا ماضيًا هاهنا إشعارٌ بأنَّ وَصْفَ الإيمانِ ثابتٌ لَهُمْ، وأنَّهُمْ مُتَحَقِّقونَ به.

حَثُّ أَهْلِ الإيمانِ عَلَى تَجْديدِ إيمانِهِمْ والثَّباتِ عَلَيْهِ

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ (آمَنوا) مِنْ قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكانِ؛ أحدهما: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ، وهُمْ مُقِرّونَ بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ بِهِ

---
(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.

به؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ لَهُ حقيقةٌ شَرْعيَّةٌ مَعْروفةٌ، فإذا أُطْلِقَ لفظُ الإيمانِ، انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلكَ الحَقيقةِ، مِن غَيْرِ افتِقارٍ إلى التَّنصيص على مُتَعَلَّقِه. والآخر: إرادَةُ العموم؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤْذِنٌ بالْعُموم، والمعنى: آمَنوا بِجَميعِ ما يجبُ الإيمانُ به شرعًا.

غَرَضُ النَّهْيِ في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾:

تَحْريمُ اتِّخاذِ الكُفّارِ أَوْلياءَ، مِنْ مُقْتَضَياتِ الإيمانِ باللهِ ﷻ

النَّهيُ في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، باقٍ على أصله في الدّلالَةِ على الإلْزام بالتَّرْك؛ إذِ التَّباعُدُ عنِ اتِّخاذِ الكُفّار أولياءَ وأصْفياءَ ممَّا شاع عِلْمُهُ في دين الإسلام، وهو مِن مقتضياتِ الإيمانِ باللّهِ تعالى، فكان النَّهْيُ عنِ اتِّخاذِ الكُفَّارِ أولياءَ يُرادُ به التَّحريمُ، ومُفادُه: "لا تتَّخذوا أقرباءكم - مِنَ الآباء والإخوان وغيرِهم - أولياءَ، تُفْشون إليهم أسرارَ المسلمين، وتستشيرونهم في أموركم، ما داموا على الكفر معادين للإسلام، ومَن يتَّخِذْهم أولياءَ، ويُلْقِ إليهم المودَّة، فقد عصى اللّهَ تعالى، وظلم نفسَه ظلمًا عظيمًا"(1).

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالاتِّخاذِ:

وُجوبُ إجابَةِ داعي الإيمانِ، ولَو تَعارَضَ مع داعي غرائز الإنسان

في التَّعبير بالاتِّخاذِ في قول اللّه سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾، إيماءٌ إلى وجوبِ التَّباعُدِ عن منازعَةِ النُّفوس، إلى ما تدعو إليه الطِّباعُ مِنَ الرُّكون إلى الآباء والإخْوانِ؛ إذ معنى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ﴾: لا تتعَمَّدوا وتتكَلَّفوا ذلك(2)؛ لما يتجاذَبُهُ نداءُ الإيمانِ مِنْ عدمِ تولّيهم، وما يدعو إليه الطَّبْعُ مِنَ المَيْلِ إليهم.

نُكْتَةُ تَخْصيصِ الآباءِ والإخْوانِ بِالذِّكْرِ:

خُصَّ الآباءُ والإخوَةُ بالذِّكرِ في قول اللّه ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ

(1) نخبة مِن أساتذة التَّفسير، التَّفسير الميسَّر: ص 190.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

النَّهْيُ عنِ اتِّخاذِ الكفرة مِنَ القرابة أَوْلياءَ، ناهيكَ عَنْ غَيْرِ القرابة

﴿ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾؛ لأنَّه لا قرابَةَ أقربُ منها(1)، فإذا نُهيَ عنِ اتِّخاذِ هؤلاءِ أولياءَ؛ فالنَّهْيُ عنِ اتِّخاذِ غَيْرِهِمْ مِن بابِ أَوْلَى وأَحْرَى، ولَمْ يُنَصَّ على الأبناءِ مع شدَّة قُرْبِهم؛ إذِ الأبناءُ تبعٌ لآبائِهم، ولهذا السَّبَب - كذلك - لَمْ يُذْكَرِ الأزواجُ؛ لكونِهم تابعينَ لأزواجِهم، والتّابِعُ لا يَقْعُدُ بَعْدَ مَتْبوعِهِ(2).

دلالَةُ جَمْعِ الآباءِ والإِخْوانِ:

النَّهْيُ عَنْ موالاةِ أَهْلِ الكُفْرِ أَفْرادًا وجَماعاتٍ

جُمِعَ الآباءُ والإِخْوانُ في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾؛ لِمَكانِ الجَمْعِ في صدرِ الآيةِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ ليَكونَ النَّهْيُ متوجِّهًا لكلِّ فَرْدٍ من أفرادِ المخاطَبينَ عَن موالاةِ كُلِّ فَردٍ من أفرادِ المشركينَ، ووجهُ ذلك: أنَّه قد قُوبِلَ الجَمْعُ في الآباءِ والإِخْوانِ بالجَمْعِ في (آمَنوا)، والمتقرِّرُ في القواعدِ: أنَّ مقابلَةَ الجَمْعِ بالجَمْعِ، تقتَضي القِسْمَةَ آحادًا، فلا يُرادُ بالنَّهْيِ في الآيةِ، النَّهْيُ عن موالاةِ طائفَةٍ مِنْهُمْ؛ فإنَّ هذا وإن كان صحيحًا في ذاتِه، إلَّا أنَّ الآيةَ إنَّما تدلُّ عليه بالدّلالَةِ لا بالعِبارَةِ(3).

دلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بالحرف (إن):

دِقَّةُ اختيارِ أَدَواتِ الشَّرْطِ بِما يُناسِبُ سياقاتِها

عُلِّقَ الشَّرْطُ بـ ﴿إِنِ﴾ في قول اللهِ ﷻ: ﴿إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ﴾، لِكَوْنِ (إِنْ) مَوْضوعةً في الأصلِ لِعَدَمِ الجَزْمِ بوُقوعِ مَدْخولِها(4)؛ وذلكَ لأنَّ اسْتحبابَ الآباءِ والإِخْوانِ الكُفْرَ على الإيمانِ ليس مقطوعًا بأنّه يقعُ منهم، بَلْ قد لا يقع منهم، ويكونونَ مِنْ كُمَّلِ أَهْلِ الإيمانِ.

دلالَةُ تَقْييدِ النَّهْيِ بِالشَّرْطِ:

قُيِّدَ النَّهيُ عنِ اتِّخاذ الآباء والإِخْوانِ أولياءَ، بحالِ اسْتِحْبابِهِمُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/94.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/236.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.

(4) بهاءُ الدِّين السُّبكيّ، عروس الأفراح: 1/323.

المَنْعُ مِن اتِّخاذِ الآباءِ والإخوانِ أوْلياءَ، مَشْروطٌ بإيثارِهِمُ الكُفْرَ على الإيمانِ

الكُفْرَ على الإيمان، فقال سبحانَه: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ إذْ لا يُرادُ المَنْعُ مِن اتِّخاذِهم أولياءَ مُطلقًا، وإنَّما المَنْعُ مقيَّدٌ بالشَّرْطِ المذكورِ، فإن لم يفعلوا ذلك؛ لم يكُنِ اتِّخاذُهم أولياءَ ممنوعًا منه، بل إنَّ ذلك حَسَنٌ[1].

دلالَةُ السِّينِ والتَّاءِ في ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾:

إغْراقُ الكُفَّارِ في كُفْرِهِمْ وتَعَنُّتُهُمْ، في عَداوَةِ أهْلِ الإيمانِ

في قولِه: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، السِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾، يجوزُ أن يكونَ المرادُ بها التَّأكيدَ، كالّتي في نحو: استَبْشرَ، واستجابَ[2]، ويجوزُ أن تكون بمعنى الطَّلبِ، على ما هو الغالِبُ فيها، والمَعنَى: طلبوا محبَّةَ الكُفْرِ، حتَّى أدركَوا هذه الطِّلْبَةَ، والمرادُ: أنَّهم أحبُّوه بشدَّةٍ وتعصُّبٍ، فكانوا مُغْرقِينَ في الكُفْرِ، مُتعنِّتِينَ فيه وفي عداوَةِ أهلِ الإيمانِ[3]، ولا تعارُضَ بينَ الدّلالَتينِ، بَلْ إنَّ إحداهُما تُقَوِّي الأُخرَى وتُؤَيِّدُها.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾:

كَثْرَةُ فَضائِلِ الإيمانِ وظُهورُ مَحاسِنِهِ وقوَّةُ أدِلَّتِهِ

في التَّعبيرِ بصيغَةِ الاستفعالِ: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾ دونَ (أحبّوا)، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ لكثْرَةِ فضائلِهِ وظهورِ محاسنِهِ، وقوَّةِ أدِلَّتِه، محبوبٌ بالطَّبْعِ، فلا يكادُ يَتْرُكُه أحدٌ إلَّا بضَرْبٍ مِن ضروبِ المعالَجَةِ والتَّكلُّفِ والمكابرَةِ، لما تقتضيه العقولُ السَّليمَةُ[4].

دلالَةُ التَّضمينِ:

مغبَّةُ استِحْبابِ المعانِدينَ الكُفْرَ، وعاقبةُ تَفْضيلِهِمْ له على الإيمانِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أسلوبُ تَضمينٍ؛ حيثُ ضُمِّنَ الفِعْلُ: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ﴾، معنى: فضَّلوا واختاروا

(1) مكِّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النِّهاية: 4/2955 - 2956.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

وآثَروا، ولذا عُدِّيَ الفِعْلُ بِحرف الجرِّ (على)، فصار المعنى: استحبُّوا الكُفْرَ وفضَّلوه على الإيمانِ، أو آثَروه عليه، أو اختاروه عليه[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ التَّفَعُّل: ﴿يَتَوَلَّهُم﴾:

مــوالاةُ مَن عادى دينَ الله ورسولَه ظلمٌ وحسرةٌ وضياع

في التَّعبير بصيغة التَّفَعُّل ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، دلالةٌ على التَّكَلُّف، وإشْعارٌ بأنَّ موالاةَ القريبِ المُعادي للدِّينِ، المنابِذِ لأهلِه، على خلافِ الأمرِ السَّهْلِ الموافِقِ لِشريعَةِ الإسْلام، مِن اعتبارِ الدِّينِ أصلًا في الوَلاءِ والبَراءِ، فقولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾، أي: يتكلَّف أن يَفْعَلَ في شأنِهم ما يفْعَلُهُ القَريبُ مع قريبِهِ[2].

نُكْتَةُ إفْرادِ الضَّميرِ في ﴿يَتَوَلَّهُم﴾:

المُبالَغَةُ في الزَّجْرِ عَـن تَـوَلِّي مَن جاهرَ بالكُفْرِ، احتراسٌ ووقاية

أُفْرِد الضَّميرُ في ﴿يَتَوَلَّهُم﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ومَنْ يتوَلَّوهُم)؛ مراعاةً لِلَفظِ (مَنْ)، وإنَّما اختير مراعاةُ لَفْظِ (مَنْ) دونَ مُراعاةِ معْناها؛ للإيذانِ باستقلالِ كُلِّ فَرْدٍ منهُم، في الاتِّصافِ بالظُّلْمِ[3]، وهذا أَبلَغُ في الرَّدْعِ والزَّجْرِ عن تَوَلِّي أهلِ الكُفْرِ.

دلالَةُ (مِنْ) في ﴿مِّنكُمۡ﴾:

تَرْكُ وِلايَةِ الحَقِّ إلى وِلايَةِ الباطِلِ ضلالٌ وتيه

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في ﴿مِّنكُمۡ﴾، من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، يُرادُ بِها الجِنْسُ لا التَّبعيضُ[4]، وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ فيه تَرْكَ ولاية الحقِّ إلى ولاية الباطِل، وذلك لأنَّ ﴿مِّنكُمۡ﴾ تُومِئُ إلى أنَّ الأصل هو ولايتُهم لَكُمْ لا العَكْسُ[5].

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/17 - 18، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.

(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.

تَوْجيهُ المتُشابِهِ اللَّفْظيِّ:

بَراعَةُ استعمالِ حُروفِ المعاني في مَواضِعِها المُناسِبَةِ لِسياقاتِها

قال الله ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [التوبة: 23]، وقال سُبْحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: 9]، والاختِلافُ بينَ الآيتينِ في زيادَةِ ﴿مِّنكُمْ﴾ في آية التَّوبَة، ووجهُ ذلك: أنَّ آيةَ التَّوبة، صُدِّرت بقوله سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾، فلمَّا كانت قرابَةُ هؤلاءِ شديدةً؛ كان الأنسبُ مزيدَ تنبيهٍ وتخصيصٍ بذِكْرِ ﴿مِّنكُمْ﴾، بخلاف آية الممتحنة، فقد صُدِّرت، بقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ [الممتحنة: 9]، فلمَّا بُدِئَ بأداة الحصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾، وكانتِ القرابَةُ معدومةً، والعداوةُ بيِّنَةً، اكتُفيَ بذلك التَّنبيهِ عن ذِكْرِ ﴿مِنكُمْ﴾.

دلالةُ التَّعْبيرِ باسمِ الإشارَةِ:

انفصالُ المُتَولِّي لِأهلِ الكُفرِ عن جماعةِ المُسلِمين ومُبايَنتُه لهُم

في التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ من قول اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ نُكاتٌ[1]؛ أولاها: تَمييزُ المشارِ إليهِمْ أشدَّ تَمْييزٍ. وثانيها: التَّنبيهُ على أنَّ استحقاقَهُم الحُكْمَ المَذْكورَ بَعْدَ اسْمِ الإشارةِ، إنَّما هوَ بسبَبِ استحبابِهِمُ الكُفْرَ على الإيمانِ. وثالثُها: الإيماءُ إلى انْفصالِ المُتَوَلّي لأهل الكُفْرِ، عَن جماعَةِ المُسْلمينَ ومبايَنَتِهِ لَهُمْ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِإشارَةِ البُعْدِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

خَطَرُ تَوَلِّي مَن يحادّ الله ورسولَه، باعتباره مِنَ الظُّلْم العَظيم

في اختيارِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وهوَ دالٌّ على البُعْدِ؛ إشعارٌ بذَمِّهِمُ المفيدِ بُعْدَ مكانَتِهِم في الظُّلْمِ، وأنَّهم متوغِّلونَ فيه غايةَ الإيغالِ، وأنَّهُمْ مُبْعَدونَ عَنِ الحَضَراتِ الإلهيَّةِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/152، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3262.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/420.

دلالَةُ ضَميرِ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾:

ضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، لا يُرادُ به دلالتُهُ على القَصْرِ، وإنَّما المرادُ به: تأكيدُهُ وتقويتُهُ؛ لأنَّ القصرَ مستفادٌ مِن تعريفِ طَرَفَي الإسنادِ، وأُكِّدَتِ الجملةُ بإيرادِها اسميَّةً؛ لأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ، آكَدُ مِنَ الفعليَّةِ، وأدلُّ على الثُّبوتِ واللُّزوم، ففيه إيماءٌ إلى اسْتِمْرارِ المذكورين على الظُّلْمِ، ما داموا مُقيمينَ على تَوَلِّي أهلِ الكُفْرِ، ولو كانوا أُولي قُرْبَى.

تَلَبُّسُ العَبْدِ بِالظُّلْمِ نِتَاجُ تولِّيه غيرَ اللهِ ورسولِه

بَلاغَةُ القَصْرِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، أُسْلوبُ قَصْرٍ، وهو مِن قصرِ الصِّفَةِ على الموصوفِ، وطريقُه: تعريفُ جُزْأَي الإِسْنادِ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، ففيه قصْرُ الظُّلْمِ على أولَئِكَ المَذْكورينَ؛ لأنَّ المقصورَ بتعريفِ طرفَي الإسنادِ هو المُعرَّفُ باللَّامِ، سواءٌ أكان مُقدَّمًا أم مؤخَّرًا، وهذا القصرُ ادِّعائيٌّ؛ إذ إنَّ ظاهرَ قولِه سبحانَه: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، يَقْتَضي نفيَ كونِ غَيْرِهم ظالـمًا، وليس الأمرُ كذلك؛ فإنَّ الظُّلْمَ مراتبُ ودرجاتٌ وأَصْنافٌ، فدلَّ هذا على أنَّ القصرَ ادِّعائيٌّ، وليس حقيقيًّا تَحْقيقيًّا، والمعنى: إنَّهم هُمُ الظَّالمونَ البالغونَ في الظُّلْمِ غايتَهُ، حتَّى كأنَّ ظُلْمَ غيرِهم بالنِّسبةِ إلى ظُلْمِهم ليس بشيءٍ؛ وفي هذا مِنَ الزَّجْرِ والرَّدْعِ عَن موالاةِ الكفَرَةِ ما فيه[1].

زَجْرُ أهْلِ الإِسْلامِ ورَدْعُهُمْ عن موالاةِ أعداءِ الله وأعوانِهم

دلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾:

اللَّامُ في ﴿ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾، تدلُّ على الكَمالِ، أي: هُمُ الكاملونَ في الظُّلْمِ، الغارِقون فيه، والمعنى: أولئك المتوَلّون هُمُ الظَّالمون، بوضعِهِمُ الموالاةَ في غير موضعِها، كأنَّ ظُلْمَ غيرِهم كَلَا ظُلْمٍ عند ظُلْمِهم[2]، حيث ارتكبوا الظُّلم البَواح،

تَـوَلِّي أَهْلِ الجحودِ مِنْ أَعْظَمِ الظُّلْمِ، بِحُكْمِ رَبِّ الوجود

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/264، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/151.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54.

بممالأة الكفر الصُّراح، فأشار اللّهُ تعالى إلى عِظَم ذلك الظُّلم، وكانوا مشارًا إليهم بوصفهم بذلك، فقال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

بَراعَةُ التَّذْييل:

تَهْديدُ مَنْ يَتَوَلَّى الكُفّارَ ووَعيدُهُ حِكْمةٌ مِنَ الله وعدلٌ

قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المَثَلِ؛ لعَدَمِ استقلالِه، وعَدَمِ فَهْمِ تمامِ المرادِ مِنْهُ إلَّا بما قَبْلَهُ، والمرادُ بجملَةِ التَّذييلِ: وعيدُ مَن يَفْعَلُ ذلك وتهديدُهُ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التَّوَلِّي، والموالاة:

التَّولّي أخصُّ من الموالاةِ، وكلُّ تولٍّ موالاة، وليست كُلُّ موالاة تولّيًا

التَّولِّي أخصُّ مِنَ الموالاةِ مُطْلَقًا، فكلُّ تَوَلٍّ موالاةٌ، وليسَتْ كُلُّ موالاةٍ تَوَلِّيًا، ووَجْهُ هذا الخُصوصِ: أنَّ التَّوَلِّي يُفيدُ معنى الاتِّخاذِ والالتزامِ الكاملِ، بِمَنْ يتولَّاهُ، بخلافِ الموالاةِ، فهيَ دالَّةٌ على المحبَّةِ والمتابَعَةِ، بدرجاتٍ متباينَةٍ، فإن قَوِيَتْ واشتَدَّت صارَتْ تَولِّيًا[2]؛ ولذا يُطْلِقُ جماعَةٌ مِنْ أهلِ العِلْمِ على التَّوَلِّي: الموالاةَ الخاصَّةَ، وعلى الموالاةِ: الموالاةَ العامَّةَ[3].

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/236.

(2) البدرانيّ، الولاء والبراء والعداء في الإسلام، ص: 38 - 40.

(3) محماس الجلعود، الموالاة والمعاداة في الشَّريعة الإسلاميَّة: 1/33.

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التّوبة: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأمر بترْك موالاةِ غير الله، والتَّنديد بمَن آثَر القرابةَ والمتاعَ، على حُبِّ الله ورسوله

لـمَّا توعَّد اللهُ سبحانَه مَن وضَعَ المَوْلاةَ في غَيْرِ مَوْضِعِها، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وكانتِ النُّفوسُ مختلفَةَ الهِمَمِ، متبايِنَةَ الشِّيَم، ليسَتْ في الانقيادِ إلى الشَّرْعِ على طريقَةٍ واحدَةٍ، وكان ذلك التَّهديدُ قد لا يَرْدَعُ أصنافًا مِنَ النَّاسِ؛ أتبعَهُ بتهديدٍ أبلَغَ مِنْهُ وأشَدَّ، فقال ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾[1]، "فهدَّدهم بأن يتربَّصوا أمرَ اللهِ فيهم، وينتظروا عقابَه ونَكالَه بهم، واللهُ تعالى لا يهدي الفاسقين الخارجين عن طاعته سواءَ السَّبيل"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾: (العَيْنُ والشِّينُ والرَّاءُ): تدورُ اشتقاقاتُها على أصْلَيْنِ؛ أحدهما: عَددٌ معلومٌ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه غيرُهُ مِنَ المعاني، والآخَرُ: المخالَطَةُ والمُداخَلَةُ[3]، ومنه: العِشْرَةُ، وهي المخالَطَةُ، ويُطْلَقُ العشيرُ على زَوْجِ المرأةِ؛ لكونِهِ يُخالِطُها، ومَعْشَرُ الرَّجُلِ: أَهْلُهُ، والمَعْشَرُ: الجماعَةُ والنَّفَرُ الذين تَجْمَعُهُم رابطَةٌ ما[4]،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/421.
(2) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 1260.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عشر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤَّصل: (عشر).

وعشيرةُ الرَّجلِ: بنو أبيه الأقربون، أو قبيلته وأهلُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشّعراء: 214][1]، وسُمِّيت عشيرةُ الرَّجلِ: لمعاشرة بعضِهم بعضًا[2]، والعَشيرَةُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾، هُمُ الأَهْلُ الأَدْنَونَ؛ لكونِهم يُعاشِرون المَرءَ[3].

2) ﴿ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾: (القافُ والرَّاءُ والفاءُ): تدورُ اشتقاقاتُها على مخالَطَةِ الشَّيءِ وملابَسَتِه[4]، ومنه: مُقارفَةُ الخطيئَة، وهي مخالَطَتُها بالتَّلبُّسِ بها فِعْلًا[5]، ومنه: قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾ [الأنعام: 113]، أي: ليَعْمَلوا ما هُمْ عامِلونَ مِنَ الآثام والذُّنوبِ[6]، ومِن هذا المعنى: يَرِدُ الاقْتِرافُ بمعْنَى الاكْتِسابِ، وذلكَ لأنَّ مَنِ اكتسَبَ شيئًا كأنَّه لابَسَهُ وادَّرَعَهُ[7]، وهو المعنى المُرادُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾؛ فإنَّ المقصودَ: وأموالٌ اكتسَبْتُموها[8].

3) ﴿تَخۡشَوۡنَ﴾: (الخاءُ والشِّينُ والحرفُ المعتلُّ): تدلُّ تصريفاتُها على معنى الخَوْفِ والذُّعرِ[9]، ومنه: الخشْيَةُ، وهي الخَوْفُ، وخَصَّ الرَّاغبُ الخَشْيَةَ بالخوفِ المَشوبِ بالتَّعظيم، وأَكْثَرُ ما يَكونُ ذلك عَن عِلْمٍ بما يُخْشَى منه[10]، ويقال: هذا المكانُ أخشى من ذلك، أي: أشدُّ خوفًا، ومِنَ المجاز قولُهم: خشيتُ، بمعنى: علمت. قال الشَّاعر[11]:

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الْهُدَى *** سَكَنَ الْجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

ومِن هذا المعنى: الخشيةُ الواردَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا﴾؛ فإنَّ المرادَ: تَخافونَ إذا هاجَرْتُم عنها أن تَكْسُدَ ولا تروجَ[12].

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللُّغة العربيَّة المعاصرة: (عشر).
(2) الخليل، كتاب العين: (عشر).
(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/341.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرف).
(5) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (قرف)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (قرف).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (قرف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قرف).
(8) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/297.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خشي).
(10) الرَّاغب، المفردات: (خشي).
(11) البيت بلا نسبة، الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُغة، ومجمل اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (خشي).
(12) الشَّنقيطيّ، العذب النَّمير: 5/361.

4) ﴿كَسَادَهَا﴾: (الكافُ والسِّينُ والدَّالُ): تدلُّ اشْتِقاقاتُها على الشَّيءِ الدُّونِ الذي لا يُرْغَبُ فيه[1]، والمعنى الجامعُ لِتَصاريفِ الكلِمَةِ: يدورُ حولَ جُمودِ الأشياءِ المُتَفَرِّقةِ الأَفْرادِ وتكدُّسِها، بحيثُ لا تَتَسَيَّبُ ولا تَنْصَرِفُ، ومنه: يُقالُ لِلْمَتاعِ الذي عُرِضَ للبيْعِ فَلَمْ يَنْفُقْ: كاسِدٌ[2]، والكسادُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، يُرادُ به عدَمُ الرَّواجِ[3].

5) ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: (الرَّاءُ والباءُ والصَّادُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى الانتِظارِ، ومنه: التَّربُّصُ[4]، وحقيقَتُهُ: الانتظارُ بالشَّيءِ؛ سلْعَةً كانَت يُرادُ بها الغَلاءُ أوِ الرُّخْصُ، أو أَمْرًا يُنتظَرُ حصولُهُ أو زوالُهُ[5]، ومنه: قولُهُم: تَرَبَّصْتُ بالرَّجُلِ، بمعنى: انتظارِ خَيْرٍ أو شَرٍّ يَحُلُّ بِهِ[6]، كقوله سبحانَه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [المؤمنون: 25]، والتَّربُّصُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، يُرادُ بِهِ: الانتظارُ والتَّمهُّلُ.

6) ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾: (القافُ والواوُ والميمُ): تدلُّ تصريفاتُها على معْنَيَيْنِ كُلِّيَّيْنِ؛ أحدهما: جماعةُ ناسٍ، والآخرُ: انتصابٌ أو عَزْمٌ[7]، والقَوْمُ عند جمعٍ من عُلَماءِ العربيَّةِ: اسْمٌ يشمَلُ الرِّجالَ والنِّساءِ[8]، وخَصَّهُ آخرونَ بالرِّجالِ؛ إِذْ لَفْظُ (القَوْم) في الأصل: مَصْدَرٌ وُصِفَ به، ثُمَّ غَلَبَ على الرِّجالِ دونَ النِّساءِ؛ لِكَوْنِهِم قوَّامينَ عليهِنَّ بالأمورِ التي ليس لَهُنَّ أن يَقُمْنَ بها[9]، ويُؤَيِّدُ هذا: أنَّ لفظَ (القوم) يُقابَلُ بلفظ (النِّساءِ)، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11]، وفي قول زُهيرِ بن أبي سُلْمى[10]:

وَما أَدْري، وسَوْفَ إِخالُ أَدْري *** أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ؟!

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كسد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (كسد).
(3) الجرجانيّ، دَرْج الدُّرر: 2/868.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ربص).
(5) الرَّاغب، المفردات: (ربص).
(6) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (ربص).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوم).
(8) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (قوم).
(9) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (قوم).
(10) ديوان زهير بن أبي سُلمى، ص: 17.

وإذا ذُكِرَ القومُ على جهةِ الانفرادِ دخل النِّساءُ فيه، ليس بِمُقْتَضَى الوَضْع، وإنَّما على سَبيل التَّبَع؛ كما في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

7) ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾: (الفاءُ والسِّينُ والقافُ): تدلُّ على خُروجٍ عن مُحيطٍ، كالْكِمام لِلثَّمَرَة، والجُحْرِ لِلْفَأْرَة[1]، ومنه أُطْلِقَ الفِسْقُ على الخُروجِ عَنِ الطَّاعة[2]، وتقول العربُ: فَسَقَت الرُّطَبَةُ؛ إذا خرجت مِنْ قِشْرِها[3]، والغالِبُ فيما يُستعْمَلُ فيه لفظُ الفاسق، إطلاقُهُ على مَنِ التزَمَ حُكْمَ الشَّرع وأقرَّ به، ثُمَّ خرَجَ عنه قليلًا كان خُروجُهُ أو كثيرًا، أمَّا الكافِرُ الأصليُّ فَيُقالُ عنه فاسقٌ باعتبارِ إخلالِه بما اقتضتْهُ الفِطْرَةُ ودلَّ عليه العقلُ[4]؛ لأنَّ هذَين هُما اللَّذانِ يَصِحُّ أن يُقال خرجَ عَنْهُما، أمَّا الشَّرْعُ فلم يدخُلْ فيه حتَّى يقالَ: إنَّه قد خرج عَنْهُ، اللَّهُمَّ إلَّا إذا أُريدَ بالخروجِ عَنِ الشَّرع ما أخذهُ اللّهُ تعالى مِنَ الميثاقِ - على بني آدَمَ وهُمْ في صُلْبِ أبيهم - الواردِ في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: 172].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

دعوةٌ إلى الهجرة، وعدمِ جَعْلِ القرابةِ ومتاعِ الدُّنيا أحبَّ مِنَ الله ورسوله ودينه

قُلْ يا أيُّها الرَّسولُ الكريمُ ﷺ لِلْمُتَخَلِّفينَ عَنِ الهِجْرَةِ إلَى دارِ الإسْلام، المُقيمينَ بدارِ الشِّرْك: إنْ كانَ مُقامُكُمْ مَعَ آبائِكُمْ وأَبْنائِكُمْ وإخْوانِكُمْ وأَزْواجِكُمْ وقرابَتِكُم، وكانَتِ الأمْوالُ التي اكْتَسَبْتُموها والتِّجارَةُ التي تخافونَ عدَمَ رواجِها، والبيوتُ الفارِهَةُ التي أقَمْتُمْ بها؛ أَحَبَّ إلَيْكُمْ مِنَ الهِجْرَةِ إلى اللّهِ تعالى ورَسولِهِ ﷺ، ومِنَ الجِهادِ في سَبيلِهِ؛ فانْتَظِروا حتَّى يَحُلَّ بِكُمْ

(1) المُناويّ، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، ص: 260.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فسق).
(3) الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/120.
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن الكريم، ص: 636.

عقابُ اللّهِ تعالى وغضَبُه، واللّهُ سبحانَه لا يوفِّقُ لِلْخَيْرِ الخارِجينَ عن طاعَتِه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

وُجوبُ تَحَمُّلِ مَضارِّ الدُّنْيا، مِنْ أَجْلِ سَلامَةِ الدِّينِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ جوابًا عن سُؤالٍ، وذلك أنَّ اللّهَ سبحانَه لمَّا بيَّنَ وجوبَ البراءَةِ مِنْ أهلِ الكُفْرِ، ولو كانوا أقربَ الأقرباءِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ أورَثَ ذلك سؤالًا في نفوسِ جماعةٍ مِنَ المُسْلِمينَ، فقالوا: كيفَ تتأتَّى البراءَةُ منهم بالكلّيَّةِ، وهذه البراءَةُ تقتَضي انقطاعَنا عن آبائنا وإخواننا وعشيرتنا، وكسادَ تجارَتِنا، وخَرابَ ديارِنا؟ فبيَّنَ اللّهُ ﷻ في هذه الآيةِ، أنَّ الواجبَ تحمُّلُ جميعِ المضارِّ الدُّنيَويَّةِ مِنْ أجْلِ إبقاءِ الدِّينِ سالِمًا، وذكَرَ ﷻ أنَّهُ إذا كانت رعايةُ المصالِحِ الدُّنيويَّةِ أَوْلَى عِنْدَكُم من طاعةِ اللّهِ سبحانَه وطاعةِ رسولِهِ ﷺ، ومِنَ الجهادِ في سبيلِ اللّهِ تعالى؛ فانتَظروا عقوبَةَ اللّهِ سبحانَه، إن عاجِلًا أو آجِلًا[2].

نُكْتَةُ تَنْويعِ الأُسْلوبِ:

الانْتِقالُ مِنْ أُسْلوبِ الإقْبالِ إلى مَقامِ الإعْراضِ، مُشْعِرٌ بِالزَّجْرِ والتَّرْهيبِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ الآية، تنويعٌ لِلْخِطابِ؛ وذلكَ أنَّ اللّهَ سبحانَه وجَّه الخطابَ أوَّلًا إلى المؤمنينَ، في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾، ثُمَّ خاطبَ نبيَّهُ ﷺ آمرًا إيَّاهُ أن يُخاطِبَهُم، فكانَ في هذا انتقالٌ مِنْ أُسلوبِ الإقْبالِ، إلى مقامِ الإعْراضِ المُشْعِرِ بزَواجِرِ الغَضَبِ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/177، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/17.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/421.

أَهَمّيَّةُ الخِطابِ وتقريع المخاطب، بغرض التّخويف من العواقب

دلالَةُ تَصْديرِ الخِطابِ بِ ﴿قُلۡ﴾:

صُدِّر الخِطابُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ بـ ﴿قُلۡ﴾؛ للإشارَةِ إلى أهمِّيَّتِه وغِلَظِه، ولإرادَةِ التَّوبيخ بمضْمونِه[1]، وهو يقول له: قُلْ يا أكملَ الرُّسل للمؤمنين الذين يقصدون موالاةَ أنسابِهم، إن كانَ أولئكَ الأقربون، وتلكَ المحيزات الفاتنة، والمتاعُ الغُرُور، أحبَّ إليكم مِنَ اللّه وأَجْرِه، ومِنَ الرَّسول وهَدْيِه، فانتظروا سُوءِ العُقبى، وشَرَّ المصير.

الاسْتِرْسالُ في إيثارِ المحابِّ الدُّنْيَويَّةِ على مَحابِّ اللهِ تعالى صَنيعُ المُنافقينَ

دلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِ ﴿إِن﴾:

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾، بـ ﴿إِن﴾؛ لِكَوْنِ المخاطَبينَ جماعةَ المؤمنينَ، الذين قَصَّروا في بعضِ ما وجبَ عليهم، أو الذين يُتوقَّعُ منهم التَّقصيرُ، ولذا عُلِّقَ الشَّرْطُ بِحَرْفِ الشَّرط ﴿إِن﴾، المفيدِ الشَّكَّ في وقوعِ مدخولِه، ويُفْهَمُ منه أنَّ المسْتَرْسِلَ في ذلك، المُلابِسَ له هو مِنْ أهلِ النِّفاقِ، وهُمُ الذينَ وقعَ عليهم التَّهديدُ في خاتِمَةِ الآيةِ، في قول اللّهِ تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾[2].

تعظيمُ الآباءِ في بابِ التَّوْقير والاحْترام، أمرُ اللهِ وشَرْعُه

نُكْتَةُ تَقْديمِ الآباءِ على الأَبْناءِ:

قُدِّمَ الآباءُ على الأبناء في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾؛ لِكَوْنِ الآباءِ أشدَّ المذكوراتِ في بابِ التَّوقير[3].

سِرُّ ذِكْرِ الأَبْناءِ في مَوْضِعٍ وعَدَمِ ذِكْرِهِم في المَوْضِعِ قَبْلَه:

ذُكِرَ الأَبْناءُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ دونَ الآيةِ التي قَبْلَها، وهي قولُه سبحانَه:

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/152.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/152.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/421.

رُقيُّ البَيانِ القُرآنيّ، في ذِكْرِ الألفاظِ وحَذْفِها، بما يُلائِمُ المعاني

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ وذلكَ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، ذُكرَتْ فيه المحبَّةُ؛ والأَبْناءُ أَعْلَقُ بالنَّفْس، بخلافِ الآيةِ الأُخْرَى، فإنَّ الأَبْناءَ لَم يُذكَروا فيها؛ لكونِ المقصودِ منها الرَّأْيَ والمشورَةَ[1].

نُكْتَةُ ذِكْرِ الأَزْواجِ في مَوْضِعٍ، وعَدَم ذِكْرِهم في مَوْضِعٍ قَبْلَه:

لِلأَزْواجِ مَدْخَلٌ عَظيمٌ في بابِ المَحَبَّةِ الدَّاعيَةِ لموالاتِهِم

نصّ على الأزواج في قولِه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ ولَم يُنصَّ على الأزواجِ في الآيةِ المتقدِّمَة، وهي قولُهُ ﷻ: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾؛ لِكَوْنِ ذلكَ وارِدًا في الأولياءِ، وهُمْ أهلُ المشورَةِ والرَّأْيِ، والأزواجُ تَبَعٌ في هذا ولَيْسوا أَصْلًا، ثُمَّ إنَّ مولاتَهُمْ غيرُ معتادَةٍ، بخلافِ هذه الآيَةِ ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ﴾؛ فإنَّها وارِدَةٌ في المحبَّةِ، والأزواجُ لهم مدخَلٌ عظيمٌ فيها[2].

بلاغة مُراعاةِ النَّظيرِ:

اشْتِراكُ القَراباتِ في أَصْلِ المَحَبَّةِ، مَعَ التَّفاوُتِ في مِقْدارِها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾ مراعاةُ النَّظيرِ؛ حيثُ جُمِعَ بينَ الآباءِ والأَبْناءِ والإِخْوانِ، وهُم كُلُّهُم مِنَ القَراباتِ، فالآباءُ أصولٌ، والأبناءُ فروعٌ، والإِخْوانُ حَواشٍ، وجميعُهم مِمَّن لَهُمْ في المَحبَّةِ مِقدارٌ عَظيمٌ، على تفاوُتٍ بينَهُمْ فيها.

نُكْتَةُ اخْتيارِ لَفْظِ (العَشيرَة):

دِقَّةُ اخْتيارِ المُفْرَداتِ المُناسِبَةِ لِلْمَقامِ مِن بلاغة البيان

اخْتيرَ لفظُ العَشيرَةِ دونَ القَبيلَةِ مثلًا، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ﴾؛ لِكَوْنِ العشيرَةِ أَقَلَّ جماعَةٍ مترابِطَةٍ تُوصَفُ، وذلك أنَّ أكبَرَ الجَماعاتِ هي

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/264.

الشُّعوبُ، ثُمَّ القبائِلُ، ويتفرَّعُ عَنِ القبائِلِ فروعٌ، بعضُها أخصُّ مِن بعضٍ، وآخِر ذلِكَ: العَشيرَةُ، فـ "ليسَ بعدَ العَشيرَةِ جَماعَةٌ تُوصَفُ"[(1)]، فاختيارُ لفظِ العَشيرَةِ: إشعارٌ بشدَّةِ القُرْبِ الذي لا يَنْبَغي أن يكون محبوبًا حُبًّا أشدَّ مِنَ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ، فغيرُها مِن فُروعِ القبائِلِ البُعْدَى مِنْ بابٍ أَوْلَى وأَحْرَى.

سِرُّ تَأْخيرِ ذِكْرِ المالِ:

الــفَــرْق بين صِلات القَرابَةِ والأمْــــوالِ، كــالــفـرق بين المادَّة والمعنى

أُخِّرَ ذِكْرُ المالِ على ذِكْرِ جُمْلَةِ الصِّلاتِ، في قولِه سبحانَه: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ لِكَوْنِ الصِّلاتِ المذكورةِ أَوْلَى بالمُراعاةِ، عِنْدَ أهلِ الهِمَمِ العَوالي، مِنَ الأموالِ[(2)].

دلالَةُ وَصْفِ الأَمْوالِ بالاقْتراف:

مكانة الأَمْوالِ في قُلوبِ أَصْحابِها، لا تُوجِبُ إيثارَها على مَحابِّ اللهِ تعالى

وُصِفَتِ الأموالُ بالاقْتِرافِ، وهوَ الاكْتِسابُ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ للإيماءِ إلى عِزَّتِها في قُلوبِهم؛ لكونِهم قَدْ حصَّلوها بِكَدِّ اليَمينِ وعَرقِ الجبينِ، وإذا كانَ هذا الضَّرْبُ مِنَ المالِ الحاصِلِ بالجُهْدِ والتَّعَبِ لا يجوزُ أن يُفضَّلَ على محابِّ اللّهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ، فغَيْرُهُ مِن أَنْواعِ المالِ الحاصِلِ دونَ ذَلِك مِنْ بابٍ أَوْلَى[(3)].

دلالَةُ تَنْكيرِ الأَمْوالِ والتِّجارَةِ والمَساكِنِ:

مكانة الأَمْــوالِ والــتِّــجــارات والمَساكِنِ، مَظِنَّةٌ لِركونِ النُّفوس إلَيْها ومَحَبَّتِها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، نُكِّرَتِ الأموالُ والتِّجارَةُ والمساكِنُ لبيان وصفِها بما يخصِّصها؛ تكثيرًا وتعظيمًا وتفخيمًا لشأنِها، فهيَ أموال كثيرةٌ، وتجارَةٌ عظيمَةٌ، ومساكِنُ فَخمَةٌ، وكُلُّ ذلكَ موجِبٌ لِلرُّكون

---

(1) العسكريّ، التَّلخيص في معرفة أسماء الأشياء، ص: 104 - 105.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/421.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/265.

إليها ومحبَّتِها، إلَّا أنَّه لا يَنْبَغي أن تُقدَّم هذهِ المَحْبوباتِ على مَراضي اللّهِ ورَسولِه ﷺ.

دلالَةُ الأَوْصافِ للأموالِ والتِّجارة والمساكن:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، وُصِفَت كُلٌّ مِنَ الأموالِ والتِّجارَةِ والمساكِنِ بالأوصافِ المذكورةِ؛ فالأموال وُصِفت بالاقتراف، وهو الاكتساب، وذلك "إيماءٌ إلى عزَّتها عندهم، لحصولها بكدِّ اليمين، والتِّجارة وُصِفت بالخشية على كسادها؛ لتعلُّقها بتقلُّبات السُّوق، والرَّواج والكَسَاد، والمساكنُ وُصِفت بأنَّها مرضيَّة؛ لأنَّ بناءها وحيازتها كانت بغرض الاطمئنان فيها، والرِّضى عنها، إذا كانت مُحقِّقَة للغاية، مُوفيَة بالغرض[1]، وذلك للإعْلام بأنَّ اللَّوْمَ على محبَّتِها ليسَ لتناسي ما تشْتَمِلُ عليهِ مِن مبادئِ المحبَّةِ، ومقتضَياتِ الرَّغبَةِ فيها، وإنَّما للتَّنبيه على أنَّ ما فيها مِن ضُروبِ المحاسنِ وموجِباتِ المحبَّةِ، لا يجوزُ أن يَطْغَى على العَبْدِ، فتغلِبَ محبَّتُها على محابِّ اللّهِ سبحانَه ورسولِه ﷺ[2].

لا يَنْبَغي أَنْ تَطْغَى الأُمورُ الدُّنْيَويَّةُ بما فيها مِنْ مغرياتٍ على المؤمن

بَراعَةُ التَّرْتيبِ والتَّرقِّي في المعاني:

جاءَ التَّرتيبُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، في غايَةِ البَراعَةِ؛ حيثُ صُدِّرَ بالآباءِ لكونِهِمْ أشدَّ المذكورينَ في بابِ التَّوقيرِ، ولأنَّ الواجبَ برُّهُم وإكرامُهُم وحبُّهُمْ، وثُنِّيَ بالأبناءِ؛ لكونِهم أَعْلَقَ بالقلوب، ثُمَّ ثُلِّثَ بالإخوانِ؛ لأنَّه بَعْدَ اسْتيفاءِ طَرَفَي النَّسَبِ بذِكْرِ الأصولِ والفروعِ؛ ناسَبَ أن يُذْكَرَ الحواشي، وأقْرَبُهُم: الإخوةُ، ثُمَّ ذُكِرَ الأَزْواجُ، وهُنَّ

تَحْصيلُ المَساكِنِ الفارِهَةِ، هوَ غايَةُ أَسْبابِ الاسْتِزْواحِ والتَّجَمُّلِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54 (بتصرُّف).

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/54 - 55.

في الحُبِّ والإيثارِ بِمَنْزِلَةِ الأَبْناءِ، ثُمَّ ذُكِرت العَشيرَةُ، وهي جامِعَةٌ للذُّكورِ والإناثِ، وهي أَبْعَدُ في القرابَةِ مِنَ المذكوراتِ قَبْلُ، ولمَّا ذَكر اللّهُ سبحانَه هذه القراباتِ؛ أتبعَهُ بذِكْرِ المالِ الحاصِلِ في اليَدِ؛ لأنَّ المخالَطَةَ المتقدِّمَةَ تُوصِلُ إلى إبقاءِ هذا الضَّرْبِ مِنَ الأموالِ، وأعقبَهُ بذِكْرِ صِنْفٍ آخرَ مِنَ الأَمْوالِ، وهي الأموالُ غيرُ الحاصِلَةِ، وإنَّما التي يُتَوقَّعُ رِبْحُها بالتِّجارَةِ، وخُتِمَ ذلكَ بذِكْرِ المَساكِنِ؛ وهي الغايَةُ؛ لكونِ ما تقدَّمَ مِنْ أَسْبابِ الاِسْتِرْواحِ فيهِ والتَّجمُّلِ بهِ[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ التَّفْضيل ﴿أَحَبَّ﴾:

التَّحْذيرُ مِنَ التَّساهُلِ في واجِباتِ الدِّيانَةِ أَوِ التَّهاوُنِ بها

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أفادَ اسْمُ التَّفضيلِ: ﴿أَحَبَّ﴾، مِنْ أنَّه إذا حصلَ تعارُضٌ بينَ مرادِ اللّه تعالى، وما تَجُرُّ إليهِ العلائِقُ المذكورَةُ قَبْلُ في الآيَةِ؛ فالواجبُ على أهلِ الإيمانِ قطْعُ هذه العلائِقِ، وإرضاءُ اللّهِ سبحانَه، ووَجْهُ إفادَةِ اسْمِ التَّفضيلِ ﴿أَحَبَّ﴾ هذا المعنى: أنَّ اسْمَ التَّفضيل في المحبَّةِ يقْتَضي إرضاءَ أقْوَى المحبوبَيْنَ، فكان التَّعبير بهِ تحذيرًا مِنَ التَّساهُلِ في واجباتِ الدِّيانَةِ أوِ التَّهاوُنِ بها، مع الكِنايَةِ عن جعْلِ ذلك التَّساهُلِ والتَّهاوُنِ مسبَّبًا عن تَقْديم محبَّةِ تلكَ العلائِقِ على محبَّةِ اللّهِ سبحانَه[2].

نُكْتَةُ تَعْليقِ الوَعيدِ على تَفْضيلِ المَحَبَّةِ:

لا تستوي مَحَبَّةُ اللهِ ورسولِه ﷺ، مع مَحَبَّةِ غَيْرِهما

عُلِّقَ الوعيدُ والتَّهديدُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، على تَفْضيلِ المحبَّةِ دونَ المساواةِ فيها، مع أنَّ تعليقَ الوعيدِ على المُساواةِ قَد يكونُ أبْلَغَ في الرَّدْعِ؛ لاقتضائِهِ الوعيدَ على التَّفضيلِ، بطريقَةِ الأَوْلَى والأجدرِ،

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/18، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/153.

وذلك لأنَّ محبَّةَ اللّهِ سُبحانَهُ، ليسَ بينَها وبينَ محبَّةِ غيرِهِ مساواةٌ أصلًا، بخلافِ مَن سواهُ، فقد تَستَوي المحبَّةُ فيه، أمَّا في هذا المقامَ فلا تُتَصَوَّرُ المُساواةُ أصلًا؛ وذلك لأنَّ العَبْدَ إذا رجَّحَ الجهادَ، فقد رَجَحَت محبَّتُهُ للّه تعالى على محبَّةِ غيرِهِ، وإن رَكَنَ إلى القعودِ وتَرْكِ الصَّلاةِ؛ فقد رَجَحَت محبَّتُهُ غيرَ اللّه تعالى[1].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالِاسْمِ الأَحسن ﴿ٱللَّهِ﴾:

شَناعَةُ تَقْديمِ العَلائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ، على مَحَبَّةِ اللهِ العُلْوِيَّة

جاءَ التَّعبيرُ بالِاسْمِ الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهِ﴾، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لزيادَةِ المهابَةِ، وبيانِ عِظَمِ جُرْمِ تقديم العلائقِ الدُّنيويَّةِ على محبَّةِ اللّهِ سبحانَه؛ إذْ كَيْفَ يجرُؤُ أحدٌ على تقْديمِ محبَّةِ أمرٍ ما، على محبَّةِ اللّهِ سبحانَهُ، الجامِعِ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وهو المُنْعِمُ بتِلْكَ المحابِّ الدُّنيويَّةِ على الحقيقَةِ؟![2].

نُكْتَةُ الإِضافَةِ في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

عِظَمُ جُرْمِ مُخالفَةِ مَحابِّ النَّبيِّ الأُسوةِ ﷺ، ومخالفةِ سنَّته وهَدْيِه

أُضِيفَ الرَّسولُ ﷺ، إلى الضَّميرِ العائِدِ على اللّهِ سبحانَه، في قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ والتَّشريفِ، وهذهِ الأغراضُ راجِعَةٌ إلى المضافِ، لا إلى المضافِ إليهِ، وفي ذلك إدخالُ المهابَةِ على النُّفوسِ، وإيماءٌ إلى شناعَةِ مخالفَةِ محابِّه ﷺ.

دلالَةُ الإيجازِ بالحذف:

مَحَبَّةُ امْتِثالِ أوامِرِ اللهِ سبحانَه، مَحَبَّةٌ لله ﷻ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: أحبَّ إليكُم مِنِ امتثالِ أوامرِ اللّهِ سبحانَه، وأوامرِ رسولِه ﷺ، في تَرْكِ دارِ الكُفْرِ إلى دارِ الإسْلامِ[3]، وفي هذا الإيجازِ تفخيمٌ لهذا الأمْرِ، وتعظيمٌ

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/299.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/391 - 392.

لشأنِه، حيثُ جُعِلَتْ محبَّةُ امتثالِ أمرِ اللّهِ تعالى محبَّةً للّه سبحانَه؛ ليكونَ ذلك أبْلَغَ في إدخالِ المهابَةِ على قلوبِ المُتَلقِّينَ لِلْخِطابِ.

بَراعَةُ الإطْنابِ:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ مقاومي المعتدين، وما فيه من تضحيةٍ ونُبل

في تَخْصيص الجهادِ في سبيل اللّهِ تعالى - على القول بتقديرِ محذوفٍ - بالذِّكْرِ، من جُملَةِ ما يُحبُّه اللّهُ ﷻ مِنْهُمْ في قولِه: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾؛ تنويهٌ بشأنِ الجهادِ، وتفخيمٌ لأمْرِه، وذلك لأنَّ ما فيه مِنَ المخاطِرِ على النَّفْسِ، ومِن إنفاقِ المالِ، ومفارَقَةِ المحبوباتِ، مظِنَّةٌ للقُعودِ عنه، خصوصًا وأنَّ هذه الآياتِ نزلَتْ عَقيبَ غَزْوَةِ تبوكَ، التي تخلَّف عنها المنافِقونَ، وبعضُ أهلِ الإسلامِ[1].

نُكْتَةُ الإضافَةِ في المركَّب الإضافيِّ ﴿سَبِيلِهِۦ﴾:

سُلوكُ سَبيلِ اللهِ تعالى موصِلٌ إلى رَحْمَتِهِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، جاءت إضافةُ السَّبيلِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ لِقَصْد تَعْظيمِ السَّبيلِ وتَفْخيمِه، والإعلام بأنَّ مَن سلَكَهُ فَقَدْ وصَلَ إلى رَحْمَةِ اللّه سبحانَه، ولازِمُ ذلك: تعظيمُ المُجاهِدينَ السَّالكينَ هذا السَّبيلَ، المُؤْثِرينَ إيَّاهُ على سائِرِ المَلاذِّ الدُّنيَوِيَّة.

سِرُّ ذِكْرِ النَّفير مع مَحبَّةِ اللهِ ورَسولِهِ ﷺ:

مَحبَّةُ المنافحة عن دين الله، راجعةٌ إلى مَحبَّةِ الله تعالى، ومحبَّةِ رَسولِهِ ﷺ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ﴾، يَجوزُ أن يكونَ باقيًا على دلالَتِه الظَّاهِرَةِ في عدم تقديرِ محذوفٍ، ويكونُ ذِكْرُ الجهادِ مع حُبِّ اللّهِ تعالى ورسولِه ﷺ؛ لتفخيم أَمْرِه، والإيماءِ إلى أنَّه يجبُ أَنْ يُحبَّ، وأنَّ محبَّتَهُ تَرجِعُ إلى محبَّتِهما؛ وذلك لأنَّ الجهادَ عبارةٌ عَن قِتالِ أعدائِهما؛ لأجلِ عداوَتِهِمْ لَهُما، فمَنْ أحبَّهُما فإنَّه يجبُ أن يُقاتِلَ مَن ينْصِبُ لَهُما العداءَ[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/153.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/55.

دلالَةُ الأَمْرِ في قولِه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾:

تهديدٌ مَن يؤثِرُ المحابَّ الدُّنيويَّةَ، على مَراضي اللهِ الشَّرعيَّة

فِعْلُ الأمْرِ ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ﴾، لا يُرادُ بهِ حقيقتُهُ من قَصْدِ الإلْزام والوجوب، وإنَّما هو خارِجٌ عن أصلِه، إلى معنى التَّهديدِ والتَّخويف[1]، والقَرينَةُ الصّارِفَة عنِ الإلْزام والوُجوب: ظُهور أنْ ليس المُرادُ طَلَبَ انْتظارِهِم العذابَ؛ والعَلاقَةُ بين المعنى الحَقيقيِّ والتَّهْديدِ هي التَّضادُّ، وذلك لأنَّ الأصل في المَأمورِ به أن يَتَحَتَّم فِعْلُه، وأمَّا المُهَدَّدُ عليه فهو الممنوعُ فِعْلُهُ[2].

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَمِيَّةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

إدْخالُ المَهابَةِ في القُلوبِ، تَخْويفًا مِنْ عَذابِ اللهِ الشَّديد

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلميَّةِ ﴿ٱللَّهُ﴾، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ﴾، لزيادَةِ إدخالِ المهابَةِ في القُلوب، ترهيبًا وتخويفًا من عذابِ اللّهِ ﷻ وعقابِهِ؛ إذ هو عقابُ اللّهِ سبحانَه الذي جمعَ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، ولا يصدُرُ مِنَ العظيمِ إلَّا عَظيمٌ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالْأَمْرِ:

الإبْهامُ في التَّهْديدِ أَدْخَلُ في التَّهْويلِ مِنْ تَعْيينِه

جاءَ التَّعبيرُ بالأمْرِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ﴾، دونَ العذابِ ونحوِهِ؛ لكَوْنِ لفظِ الأَمْرِ مُبْهَمًا، يُرادُ به الشَّيْءُ والشَّأْنُ، فكان في ذلك صلاحيَّةٌ لِقَصْدِ التَّهويل؛ لتذهَبَ نفوسُ المُهَدَّدين كُلَّ مذهَبٍ، في تصوُّرِ ما هُدِّدوا بِهِ، فيَهْجُم على أذهانِهم إرادَةُ العذابِ أو القتْلِ أو نحوِهما مِنَ المُخَوِّفاتِ، فهوَ أمرٌ لا تبلُغُه أوصافُ المهدَّدينَ ولا تحتَمِلُهُ قواهُم[3].

بَراعَةُ الإيجازِ:

مُصادَمَةُ الهِدايَةِ ومُنابَذَتُها، مُفْضِيَةٌ إلى أعْظَمِ العَذابِ وأشَدِّهِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ﴾ إيجازٌ، والتَّقديرُ: فتربَّصوا حتَّى يأتيَ اللّهُ بأمْرِه، فيُصيبَكُم بقارِعَةٍ لا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422، والخازن، لباب التَّأويل: 2/344.

(2) عبد الله المعزبيُّ اليمانيّ، تشحيذ الأفهام في إطلاقات الأمر والنّهي والاستفهام، ص: 56 - 57.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/154.

تُطيقونَها، أو عذابٍ لا تهتدون إلى دَفْعِهِ وصَدِّهِ؛ لكونِكُم قد اختَرْتُمْ لأنفُسِكُم مصادَمَةَ الهدايةِ ومنابَذَتَها[1].

بَلاغَةُ وضْعِ المُظْهَرِ في مَوْضِعِ المُضْمَرِ:

مِــنْ أَعْــظَــمِ الحرمان، عَدَمُ تَحْصيلِ الهِدايَةِ مِنَ الدَّيَّان

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، إظهارٌ في محلِّ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وهو لا يَهْدي القومَ الفاسقين)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسم الأعظم ﴿وَٱللَّهُ﴾، في قوله سبحانَه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، ونُكْتَةُ الإظْهارِ: تعظيمُ شأْنِ هذه العقوبَةِ، وهو عَدَمُ هدايةِ الفاسقين؛ لكَوْنِها صادرةً عمَّن جمعَ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وفي الإظْهارِ نُكْتَةٌ أُخْرَى، وهي أن تخرُجَ الجملَةُ مَخْرَجَ التَّذْييلِ الجاري مجْرَى المثَلِ.

دلالَةُ مَجيءِ المُسْنَدِ فِعْلًا مُضارِعًا:

الإقــامَــةُ على الــفِــسْــقِ والاسْــتِــمْــرارُ فــيــهِ، مُـقْـتَـضٍ عَـدَمَ اسْتِحْقاقِ الهِدايَةِ الرَّبّانيَّة

جيءَ بالْمُسْنَدِ ﴿يَهۡدِي﴾ فِعْلًا مضارِعًا، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، لإرادَةِ التَّجدُّدِ والاستِمْرارِ، فما داموا مُقيمين على فِسْقِهم فإنَّ اللّهَ ﷻ لا يَهْديهم، وجيءَ به مؤخَّرًا لقصْدِ التَّأكيدِ، وذلك لما في تأخيره من تَكْرارِ النِّسْبَةِ، ووَجْهُ ذلكَ: أنَّ فِعْلَ الهدايَةِ أُسْنِدَ إلى الاسم الأحسَنِ (اللّه)، وأُسْنِدَ أيضًا إلى الضَّميرِ المسْتَتِرِ فيهِ، الرَّاجِعِ إلى اللّه سبحانَه، وفي هذا تقويَةٌ للإِسْنادِ، وتأكيدٌ لمضمونِ هذه الجُمْلَةِ المشتمِلَةِ على هذا التَّهْديدِ العظيم، وزادَها قوَّةً إيرادُ الجملةِ اسميَّةً، فإنَّ الجملَةَ الاسميَّةَ آكَدُ مِنَ الجملةِ الفعلِيَّةِ.

دلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

تَرْكُ التَّعَرُّفِ على الحَقِّ، والمروقُ مِنَ الالتزام به فسقٌ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، دالَّةٌ علَى الكَمالِ، والمعنى: واللّهُ لا يَهْدي القومَ الكاملين في الفِسْقِ، المُسْتَمِرِّينَ عليه، لا أَرَبَ لَهُمْ في معرفَةِ الحقِّ واتِّباعِه.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/422.

بَلاغَةُ التَّذْييلِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، تذييلٌ جارٍ مَجْرَى المثَلِ؛ لاستقلالِهِ بالإفادَةِ، وعَدَمِ افتقارِهِ إلى ما قَبْلَهُ في فَهْمِ تمامِ المرادِ مِنْهُ، والغرضُ مِنْ جملَةِ التَّذْييلِ: زيادَةُ التَّهديدِ بعدَ التَّهديدِ السَّابقِ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ﴾، وفي جملةِ التَّذْييلِ تعريضٌ بِمَنْ آثرَ محبَّةَ القراباتِ والأموالِ، على محبَّةِ اللّهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ بأنَّهُمْ مِن جُملَةِ الفاسقين[1].

مِنَ الفِسْقِ: إيثارُ مَحَبَّةِ الأَمْوالِ والقَراباتِ، على مَحَبَّةِ ربِّ الكائنات

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/154.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ٢٥﴾ [التّوبة: 25]

العلاقة بين النَّهي عن إيثار غيرِ محبَّة الله، وامتحانِ الانكسارِ بدايةَ يومَ حُنَين

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا هدَّدَ اللّهُ ﷻ مَن آثَرَ القراباتِ والأموالَ على محبَّةِ اللّهِ سُبحانَهُ ومحبَّة رسولِه ﷺ، وكانَت بعضُ النُّفوسِ قد يَعْتَريها مِنَ الغُرورِ بالْكَثْرَةِ ما يَجْعَلُها تَغْفَلُ عن هذا التَّهديد؛ ساقَ اللّهُ تعالى قصَّةَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ دليلًا على المُبْهَمِ مِنَ التَّهديدِ، وأنَّ من جملَةِ ما هُدِّدوا به الهَوانَ والانكسارَ، وصورةُ ذلك: أَن يُسلِّطَ اللّهُ سبحانَه عَلَيْهِمْ - وإِنْ كانوا عددًا كثيرًا - أَقْوياءَ غَيْرَهُمْ، فقالَ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصَرَكُمُ﴾: (النُّونِ والصَّادِ والرَّاءِ): تَدورُ حَوْلَ معنى إِتْيانِ خيرٍ وإيتائِه، بما فيه زيادةٌ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[2]. ومنه سُمِّيَ المطرُ نَصْرًا[3]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخَصْمِ عليه في حَرْبٍ أو غيرِها؛ بقوَّةِ النَّاصرِ وغَلَبَتِه[4]، واستنصره على عدوِّه: سأله أن ينصُرَه عليه، وتناصَرَ القومُ: نَصَرَ بعضُهم بعضًا، و(انتصر) منه: انتقم[5]، وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّـهُ﴾، أي: أعانَكُم اللّهُ على عدوِّكُمْ، فظَفِرْتُمْ في حَرْبِكُمْ إيَّاهُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (نصر).
(3) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(4) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(5) الرَّازيّ، مختار الصّحاح: (نصر).

2) ﴿حُنَيۡنٍ﴾: اسمُ وادٍ بينَ مَكَّةَ والطَّائفِ، كانَتْ بِهِ وقْعَةُ أَوْطاسٍ[1]، و(حُنَيْنٌ): يُذكَّر ويُؤنَّث؛ فإن أُريدَ به البَلْدَةُ والبُقْعَة فهو مؤنَّثٌ، ويُمْنَعُ مِنَ الصَّرف لِلْعَلَميَّة والتَّأنيث، وإن أُريدَ بِهِ الموضِعُ والبَلَدُ فهو مذكَّرٌ، ولا موجِبَ لمنعِهِ مِنَ الصَّرف حينَئذٍ[2]، وقال السُّهيلِي: عُرِفَ هذا الموضعُ بحُنَين بنِ نائبَةَ بنِ مهليائل، مِنَ العمالقة، بينَه وبينَ مكّة بضعةَ عشرَ ميلًا، وقيل: سُمِّي بأخي يثربَ حُنين[3]، قال الشَّاعر[4]:

نَصَرُوا نَبِيَّهُمُ وَشَدُّوا أَزْرَهُ *** بِحُنَينَ، يَوْمَ تَوَاكَلَ الأَبْطَالُ

3) ﴿تُغۡنِ﴾: (الغَينُ والنُّون والحَرْفُ المعتلُّ): تدور كثيرٌ مِن اشتقاقاتِها على مَعْنَى الكِفايَةِ، ومِنْهُ قولُهم: فلانٌ لا يُغْني غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفي كفايَتَهُ[5]، والغَناءُ: الكفايَةُ والإِجْزاءُ[6]، يقال: لي عن هذا غُنيَة، وأنا عنه غنيٌّ، (وهو أغنى عنه مِنَ الأقرع عنِ المِشْط)، وقد تغانَوا، قال الشَّاعر[7]:

كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ *** وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

ومعنى قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾: لَمْ يُجْزِئْ عنكُمْ ولَمْ تَنْفعْكُمْ.

4) ﴿رَحُبَتۡ﴾: (الرَّاءُ والحاءُ والباءُ): تدلُّ تصريفاتُها على معنى السَّعَةِ، ومنه قولُهُم: مكانٌ رَحْبٌ، أي: واسِعٌ، وقولُهُم: مَرْحَبًا، أي: أَتَيْتَ سعَةً[8]، ومِن هذا قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾، أي: بِما اتَّسَعَتْ[9].

5) ﴿مُّدۡبِرِينَ﴾: (الدَّالُ والباءُ والرَّاءُ): تدلُّ تصريفاتُهُ على آخِرِ الشَّيءِ وخَلْفِهِ[10]، ومنه: الدُّبُرُ؛ وهو نَقيضُ القُبُل مِن كُلِّ شَيْءٍ[11]، ومنه: أدبارُ السُّجودِ؛ وهي أواخرُ الصَّلواتِ، وإِدْبارُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حن)، وياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 2/313.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حنن).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حنن).
(4) البيت لحسَّان بن ثابت الأنصاري ﷺ، ينظر: الجوهريّ، الصّحاح، والرَّازيّ، مختار الصّحاح: (حنن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غني).
(7) الرَّازيّ، مختار الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غني).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحب).
(9) أبو عُبيد الهرَويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (رحب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دبر).
(11) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (دبر).

النُّجوم: عند الصُّبْحِ في آخِرِ اللَّيْلِ[1]، ووَلَّاهُ دُبُرَهُ: كِنايَةٌ عَنِ الهزيمَةِ والفِرارِ مِنَ المعرَكَةِ[2]، ومنه قولُ اللهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكير بانكسار المؤمنين في حُنين، رغم كثرة العَدَدِ، وقُوَّة العُدَدِ

يقول: لقد نَصَرَكُمُ اللهُ سبحانَه أيُّها المُؤمِنون، في مواقِعَ كَثيرَةٍ، حين أَخَذْتُم بالأسبابِ، ووَطَّنتُم أَنْفُسَكُم علَى لِقاءِ عَدوِّكم، وتَوَكَّلتُم على اللهِ ﷻ، وفي يوم حُنَيْنٍ غَرَّتكُمُ الكَثْرَةُ فلم تَنْفَعْكُمْ، وظَهَرَ عَلَيْكُمْ عَدوُّكُم، فلم تَجِدوا مَلْجَأً في الأَرْضِ على سَعَتِها، فَفَرَرْتُم مُنْهَزِمينَ[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تَسليطُ الهَوانِ والإنْكِسارِ على المُخالِفين للأوامر، مِن عَدْلِ اللهِ القاهر

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لكونِهِ واقعًا استئنافًا ابتدائيًّا، وذلك أنَّ الآيَةَ مسوقَةٌ لبيانِ شواهدِ ما تقدَّم مِنْ نَصْرِ اللهِ سبحانَه أهلَ الإيمانِ في مواطنَ كثيرةٍ، وتذكيرٍ باقترانِ التَّأييدِ الرَّبَّانيِّ لحالِ الامتثالِ لأمرِهِ سبحانَه[4]، ويَجوزُ أن تكونَ عِلَّةُ الفَصْلِ كونَ الآيةِ واردَةً جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الأُولَى، وذلك أنَّ اللهَ سبحانَه لـمَّا هدَّدَ الـمُؤْثِرينَ القراباتِ والأموالَ على محابِّ اللهِ تعالى ورسولِه ﷺ، وأَبْهَمَ ذلكَ التَّهديدَ في قولِه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أَوْرَثَ ذلك سؤالًا وهو: ما الأَمْرُ الذي يُتَرَبَّصُ لإتيانِه، ويُخْشَى مِنْهُ؟ فكأنَّه قيلَ جوابًا عن ذلك: هو الهَوانُ والانكسارُ، فبَعَثَ هذا سُؤالًا آخَرَ في نفسِ الـمُتَلَقِّي، وهو: وكيف يكونُ ذلك؟ فجاءَ الجوابُ: بأنَّ اللهَ سبحانَه يُسَلِّطُ

(1) الخليل، العين: (دبر).
(2) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (دبر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/178 - 179، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/154.

عليكُمْ أقوياءَ غيرَكُمْ، وإنْ كانَ عددُهم قليلًا، كما سلَّطَكُمْ - وكنتُمْ كذلكَ - حتَّى صِرْتُمْ إلى ما آلَ إليهِ أمرُكُمْ[1].

نُكْتَةُ التَّوْكِيدِ:

تَحْقيقُ النَّصْرِ والتَّذْكيرُ بِهِ، دليلٌ على ألطافِ اللهِ تعالى وعَظَمَتِه

في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾، اللَّامُ في ﴿لَقَدۡ﴾ مُوطِّئةٌ للقسَم، والتَّقدير: واللّهِ لَقَدْ نصرَكُمُ[2]، و(قَدْ) مِنْ جملَةِ مؤكِّداتِ الجملَةِ الفِعْليَّة، فاجتَمَعَ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ ثلاثةُ مؤكِّداتٍ؛ وهي: القسَمُ، واللَّامُ، وقَدْ، والنُّكْتَةُ في هذا التَّأكيدِ: تحقيقُ هذا النَّصْرِ؛ وذلك أنَّ القَوْمَ كانوا كأنَّهُمْ نسُوهُ، فنُزِّلوا منزلَةَ مَن يحتاجُ إلى توكيد الخبَرِ وتقويَتِهِ[3].

سِرُّ تَعْرِيفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَمِيَّةِ:

مِنْ صوَرِ عَظَمَةِ نَصْرِ اللهِ: النَّصْرُ مَعَ ضَعْفِهِمْ، وقوَّةِ أعْدائِهِم

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ، في قول اللّه سبحانَه: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾؛ لبيانِ قوَّةِ هذا النَّصْرِ وعَظَمَتِه، فهو نصرٌ مِنْ عِنْدِ مَن جمَعَ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، والصَّادرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ، ومِنْ أَوْجُهِ عظَمَةِ هذا النَّصْرِ: وقوعُهُ مَعَ شدَّةِ ضَعْفِ المَنْصورينَ، وقوَّةِ المَنْصورِ عليهم[4].

نُكْتَةُ الإِظْهارِ فِي مَوْضِعِ الإِضْمارِ:

محبَّةُ اللهِ تعالى آثر وأولى، ومَن تخلَّى عنِ الله تخلَّى اللهُ عنه

في قول اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ إظْهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لقدَ نصرَكُمْ في مواطِنَ كثيرةٍ)، بإسْنادِ الفعل إلى الضَّمير المسْتَتِرِ فيه؛ وذلكَ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسمِ الأحسَنِ (اللّه)، في قوله سبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، ونُكْتَةُ الإظْهارِ: تعظيمُ شأْنِ هذا النَّصْرِ، ولإظهار أنَّ إيثار محبَّةِ اللّهِ سبحانَه، وإن كان قد يُفَوِّتُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.

شيئًا مِنَ الحظوظِ الدُّنيويَّةِ، إلَّا أنَّ فيه حَظَّ الآخرةِ، وحُظوظًا أُخرَى مِنَ الدُّنيا، كالنَّصرِ، وما يتْبَعُهُ مِنَ المغانمِ، وصيانَةِ بَيْضَةِ الإسْلامِ من اعتداءِ أعدائِه[1].

بَراعَةُ تَلْوينِ الكَلامِ:

﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾، مَعْطوفٌ على محلِّ: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾، وصيغَ الأوَّلُ بذِكْرِ المكانِ ﴿مَوَاطِنَ﴾، والآخَرُ بذِكْرِ الزَّمانِ، ونُكْتَةُ تَلْوينِ الكلامِ وتغْييرِه: الإيماءُ إلى ما وقعَ في يومِ حُنَيْنٍ من قِلَّةِ الثَّباتِ في باديءِ الأَمْرِ[2].

الإيماءُ إلى ما وقَعَ في يومِ حُنَيْنٍ، مِنْ قِلَّةِ الثَّباتِ أوَّلَ الأَمْرِ

نُكْتَةُ العَطْفِ بالواوِ في: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾:

عُطِفَ ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ من قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ على محلِّ: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾، والتَّقديرُ: ونصَرَكُم يومَ حُنينٍ، وهو من جملَةِ المواطِنِ التي نُصِرْتُم فيها؛ وذلك لأنَّ مواطِنَ الحَرْبِ تسْتَلْزِمُ زمانًا تقعُ الحَرْبُ فيها، فلفظُ المواطِنِ دالٌّ على الأيَّامِ، ولَفْظُ الأيَّامِ دالٌّ على المواطِنِ، فلمَّا أُضيفَ اليومُ إلى مكانٍ وهوَ حُنَيْنٌ؛ دلَّ على أنَّه من جُملةِ مواطِنِ النَّصْرِ، ولذا عُطِفَ عليه بالواوِ، ولو لَمْ يُعْطَفْ لَتُوُهِّمَ أنَّ المواطِنَ كُلَّها كانَتْ في يومِ حُنَيْنٍ، وليس الأَمْرُ كذلك[3].

مَواطِنُ الحُروبِ تَسْتَلْزِمُ زمانًا تَقَعُ فيه الحَرْبُ، وتخلَّد به على المدى

سِرُّ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

يَجوزُ أن يُعتبَرَ الحذْفُ في جانبِ المعطوفِ عليه لا المعطوفِ، وهو قولُه تعالى: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾، والتَّقديرُ: لقد نصرَكُمُ اللّهُ في أيَّامِ مواطِنَ كثيرَةٍ، ويكونُ على هذا الوَجْهِ: عطفُ ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ مِنْ بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذْ إنَّ يومَ حُنَيْنٍ مِنْ جُملَةِ أيَّامِ

ظَفَرُ المؤمنين يوْمَ حُنَيْنٍ بَعْدَ يَأْسٍ، وحُلولُ الفَرَجِ عَلَيْهِم بَعْدَ شِدَّةٍ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/55، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/266.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.

المواطِنِ التي نُصِروا فيها، ونُكْتَةُ هذا العَطْفِ: التَّنويهُ بشأْنِ الفَرْدِ الخاصِّ، وهو يومُ حُنَيْن؛ لكونِ أَمْرِهِ عجيبًا، والواقعِ فيه غريبًا، وهو الظَّفَرُ بعدَ يأسٍ والفرَجُ بعدَ شدَّة[1]، فَتَخْصيصُ يوم حُنَيْن بالذِّكْرِ لما فيهِ منَ العِبْرَةِ بِحُصولِ النَّصْرِ، عِنْدَ امْتِثالِ أوامرِ اللّهِ ورَسولِهِ ﷺ، وحصولِ الهزيمَةِ والانكسارِ عند إيثارِ الحظوظِ الدُّنيويَّةِ على امتثالِ الأوامرِ الشَّرعيَّةِ، وليسَتْ نُكْتَةُ تخصيصِهِ عِظَمَ الثَّوابِ وكَثْرَتَهُ؛ لأَنَّ يومَ بَدْرٍ أعْظَمُ مِنْهُ وأَفْخَمُ[2].

بلاغة الِاحْتِباكِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ احتباكٌ، وذلك لأنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ﴾ دالٌّ علَى المَكانِ صراحَةً، ويُشْعِرُ بالزَّمانِ لزومًا، وقولَهُ سُبحانَهُ: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ﴾ دالٌّ على الزَّمان صراحَةً، ويُشْعِرُ بالمكانِ لُزومًا، فمجموعُ الجُملَةِ يُفيدُ حذفًا مُتقابِلًا، والتَّقديرُ: لقَدْ نصرَكُمُ اللّهُ في مواطنَ كثيرةٍ وأيّامِها، وفي يَوْمِ حُنَيْنٍ ومَوْطِنِه، فحُذِفَ مِنْ كُلِّ موضعٍ ما دلَّ عَلَيْهِ مُقابِلُهُ[3].

> من روعة القرآن، التَّفَنُّنُ في الحَذْفِ وما يدلّ عليه من سياق البيان

نُكْتَةُ إِضافَةِ الإِعْجابِ إلى الجميع:

أُضيفَ فِعْلُ الإعجابِ إلى الجَميعِ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾، مع أنَّ الإعْجابَ صادِرٌ عن بعضِهِم، أو واحدٍ مِنْهُمْ؛ وذلك للإيماءِ إلى أنَّهم لِعُلُوِّ قَدْرِهم ومكانَتِهِم يَنْبَغي ألَّا يكونَ منهم مَن تصدُرُ منه مِثْلُ تلكَ المقالَة[4].

> عُلُوُّ قَدْرِ الصَّحابَةِ ورَفيعُ مَكانَتِهِمْ، خلّدهم في القرآن

دلالة موقعِ قولِه: ﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾:

لِقَوْلِ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ﴾ موقِعٌ عَجيبٌ بديعٌ، وذلك أنَّهم في أثناءِ المجابهةِ للكافرِ المعتدي، وهذا من جليلِ

> خَطَأُ التَّعْويلِ على الكَثْرَةِ، وعواقِبُ الإعجابِ بها

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/266.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.

(3) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/4994 - 4995.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/392، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/424.

الأعمالِ الصَّالحَةِ، عاوَدَ بعضَهُمْ إيثارُ شيءٍ مِن حظوظِ الدُّنيا، على امْتِثالِ أمر اللّهِ ﷻ وأَمْرِ رسولِه ﷺ، فاقْتَرَنَ ضِدَّانِ: إيثارُ أَمْرِ اللّه سبحانَهُ بالجهادِ، وإيثارُ الحظوظِ الدُّنيويَّةِ، فجاءَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، تنبيهًا على خطئِهِمْ في هذا الإعجابِ، وأنَّه ما كان ينبغي لهم أن يُعَوِّلوا على الكثْرَةِ[1].

دلالَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾:

التَّحذيرُ مِنَ الاعْتِدادِ بِالْكَثْرَةِ الغُثائيَّة، وأنَّها لا تُغْني مِنَ الأمرِ شيئًا

نُكِّرَتْ كلِمَةُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾؛ للدّلالَةِ على التَّقليلِ والتَّحقيرِ، أي: لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ كثرَتُكُم شيئًا قليلًا حقيرًا، فنَفْيُ إغناءِ الكثرةِ عنهم فوقَ ذلك مِن بابٍ أَوْلَى وأَحْرَى، "فولَّوا مُدْبرين، حتَّى ضاقت عليهِمُ الأرض على سعتها، مِن شدَّة فَزَعهم، فلم يهتدوا إلى النَّجاة سبيلًا، ولم يثبت منهم إلَّا عددٌ قليل مع الرَّسول ﷺ، وكان ذلك ابتلاء مِنَ اللّه لهم على عُجْبِهم بكثرتهم"[2]، فكان في هذه الدّلالَةِ إفادَةٌ للعُموم، وذلك لأنَّ النَّكِرَةَ في سياقِ النَّفْيِ تُفيدُهُ.

دلالَةُ الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

أَثَرُ حروفِ المعاني في إثْراءِ البيانِ القُرْآنيّ

الباءُ في ﴿بِمَا﴾، مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ للمُلابَسَةِ، والتَّقديرُ: (ضاقَت عليكُمُ الأرضُ حالَ كوْنِها مُلابسَةً لرُحْبِها وسعَتِها)، أي: لا ضيقَ فيها[3]، ويحْتَمِلُ أن تكونَ الباءُ بمعنى (معَ)، أي: ضاقَتْ عليكُم الأرضُ مع اتِّساعِها[4]، وهذا يَرْجِعُ إلى معنى الملابسَةِ، كما أَوْمأَ إليه الآلوسيُّ[5]، ويجوزُ أن تكون الباءُ بمعنى (في)، فيُقال: ضاقَت الأرض برُحْبِها، وضاقَتِ الأرضُ في رُحْبِها[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/156.

(2) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 261.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/424، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/55.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.

(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/246.

بَلاغَةُ الِاسْتِعارَةِ:

إِبْرازُ المَعْنَويِّ في صورَةِ المَحْسوسِ، أَوْضَحُ لِلذِّهْنِ وأَبْلَغُ في التَّصْويرِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ استعارَةٌ، حيثُ شُبِّهَ عَدَمُ وُجْدانِ مكانٍ يسْتَقِرُّونَ فيه مطمئِنِّينَ بالضِّيق؛ لأنَّ الموضِعَ الضَّيِّقَ لا يُستَقرُّ فيه، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ[1]، وغرض الاستِعارَةِ هنا: إبْرازُ المَعْنَويِّ في صورةِ المحسوسِ؛ لِكَوْنِه أوضَحَ لِلذِّهْنِ، وأعْلَقَ بالقلْبِ، وأبْلَغَ في التَّصويرِ، وقد يُلْمَح فيها تمثيلٌ لِحالِ المُسْلِمينَ، عند اشْتِداد البَأْسِ عليهم، واضْطِرابِهم في حُنَيْنٍ، وعدَمِ اهْتِدائِهم لِطَريقِ دَفْعِ عَدوِّهم عَنْهُم، بِحالِ مَن يَرى الأَرْضَ الواسِعَةَ الرَّحْبَةَ ضَيِّقَةً، فالضِّيقُ مجازيٌّ غيرُ حقيقيٍّ، بقرينة قوله تعالى: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾، أي: مع كونِها في واقعِ الحالِ رَحْبَةً واسعةً، فالآية استعارةٌ تمثيليَّةٌ لحالِ مَن لا يَقْدِرُ على الخَلاصِ مِنْ شدَّةٍ ما، بسببِ اختلالِ التَّفكيرِ، بحالِ مَن كان في مكانٍ ضيِّقٍ يُريد الخلاصَ بِالْخُروجِ مِنْهُ، فلا يقدِرُ علَى مجاوَزَتِه أو الانتقالِ منه[2].

دلالَةُ حَرْفِ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

تَوْلِيَةُ الأَدْبارِ فِرارًا مِنَ الحَرْبِ، مِنْ أَعْظَمِ الشُّرورِ

حرفُ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، دالٌّ على التَّراخي، وهو تراخٍ رُتْبيٌّ، والتَّقديرُ: وأعْظَمُ ممَّا نالَكُمْ مِنَ الشَّرِّ أنَّكم ولَّيتُم مُدْبِرينَ[3]، وفيه أيضًا: إيماءٌ إلى البُعْدِ المَعْنَويِّ، بينَ إرادَةِ النَّصْرِ والفِرارِ[4].

بلاغة الكِنايَةِ:

معنى تَوْلِيَةِ الأَدْبارِ: الفِرارُ مِنَ العَدوِّ قَبْلَ الانتصار

تَوْلِيَةُ الأَدْبارِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، كنايَةٌ عَنِ الفرارِ مِنَ الأعداءِ، بقرينَةِ ذِكْرِه في سياقِ ذِكْرِ الحَرْبِ وما فيها مِن ملاقاةِ العَدوِّ؛ فتَوْلِيَتُهُمْ مُدْبِرينَ: مستعمَلٌ في لازِمِ مَعْناهُ، مع

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3266.

بعضِ معناهُ الأصليِّ؛ وذلك لأنَّ صَرْفَ الظَّهْرِ إلى العَدوِّ بعْدَ النَّصْرِ، للانْصِرافِ إلى المعسكَرِ مِنَ الضَّروراتِ، وإلَّا لَزِمَ مِنْهُ أن يَبْقَى المُسْلِمونَ مواجِهينَ جيشَ عَدوِّهِمْ مواجهةً دائمَةً، فدلَّ هذا على أنَّ المرادَ بتوليَتِهِم مُدْبِرينَ فِرارُهُم مِنْ عُدوِّهِمْ قَبْلَ النَّصْرِ.

نُكْتَةُ إِسْنادِ التَّوَلِّي إلى الجميع:

علُوُّ شَأْنِ الصَّحابَةِ، يقْتَضي تَرَفُّعَهُمْ عَنْ وُقوعِ التَّوَلِّي منهم

أُسْنِدَ فِعْلُ التَّوَلّي إلى الجميع، في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، مع أنَّ التَّولِّي صادِرٌ عَنْ أَكْثَرِهِم[1]؛ للإيماءِ إلى أنَّهم لِعُلوِّ شأنِهم ومكانَتِهم، يَنْبَغي ألَّا يصدُرَ منهم هذا التَّولِّي، لا سيَّما وأنَّه يترتَّب عليهِ انكشافُ ظَهْرِ رسولِ اللّهِ ﷺ للأَعْداءِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالْإِدْبارِ بَعْدَ ذِكْرِ التَّوَلِّي:

اسْتِبْعادُ الانْكِسارِ اتِّكالًا على الكَثْرَةِ والقُوَّةِ، مِن سُوءِ التَّقديرِ

جيءَ بالإدبارِ بعدَ ذِكْرِ التَّولِّي، في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، تحقيقًا لمعنى الانْهِزامِ والانْكِسارِ؛ للإيماءِ إلى ما كان لديهم مِن استبْعادِهِ اتِّكالًا على الكَثْرَةِ والقُوَّةِ[2]، والمعنى: "﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾، أي: الكفَّارَ ظهورَكم، على أنَّ (ولَّى) متعدِّية إلى مفعولين، وقوله تعالى: ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ حالٌ مؤكِّدة، وهو مِنَ الإدبار، بمعنى الذَّهاب إلى خلف، والمراد مُنهزِمين"[3]، وقد كانت الهزيمة نتيجةً منطقيَّة للغُرور بالكَثْرة الكاثرة، والقُوَّة الظَّاهرة، حتَّى: "ضاقت عليكم الأرض برُحْبِها وسعتها، فلم تجدوا لكم فيها مذهبًا ولا مُلْتَحدًا، ثمَّ ولَّيتُم مُدْبرين، أي: ولَّيتم ظهوركم لعدوّكم مدبرين، لا تلوون على شيء"[4].

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/393.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.

(4) محمد رضا، تفسير المنار: 10/220.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التَّوبة: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بينَ حيثيَّاتِ الانكسار، ومآلاتِ التَّثْبيت والانتصار

لـمَّا ذكر اللّهُ سبحانَه حالَ المؤمنينَ في غزوةِ حُنَيْنٍ أوَّلَ الأمرِ مِنَ الانكسارِ والانْهِزامَ، وكان ذلك رُبَّما يُوهِمُ أنَّ هذه الحالَ هي آخِرُ أحوالِهم؛ ذَكَرَ في هذه الآيَةِ ما آلَ إليه أَمْرُهُم مِنَ النَّصْرِ والتَّأييدِ والظَّفَرِ، وما آلَ إليهِ أَمْرُ أعدائِهم مِنَ الهزيمَةِ والتَّعْذيب، "فأذْهَبَ روعَهم، وأزال حيرتَهم، وأعاد إليهم شجاعتَهم، واستنصر الرَّسولُ ربَّه، فأنزل اللّهُ جنودًا مِنَ الملائكة، لم يرها المسلمون بأبصارهم، بل وجدوا أثرَها في قلوبهم، بما عاد إليها مِن رباطة جَأْشٍ، وشِدَّة بأس"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾: (السِّينُ والكاف والنُّونُ): تدورُ اشتقاقاتُها على ضدِّ الحركَةِ والاضْطِراب[2]؛ فهي دالَّةٌ على الاستقرار[3]، ومنه: قولُهم لكُلِّ شيءٍ ماتَ: قد سَكَنَ[4]؛ لذَهاب حركتِه، ومنه: سُمِّيت النَّارُ سَكَنًا؛ لأنَّها مُعِيْنَةٌ على الاسْتِقْرارِ والإقامة؛ إذْ بِها يُعدُّ الطَّعامُ ويُستَدفأُ ويُستضاءُ[5]، وسكَنَ بالمكانِ: أقامَ فيهِ[6]، والسَّكِينَةُ: الأَمْنُ

(1) حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 262.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سكن).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سكن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سكن).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (سكن).

والطُّمَأنينَةُ[1]، وزَوالُ الرُّعْبِ[2]، وذلك لما في الرُّعْبِ والخَوْفِ مِنَ الاضْطِرابِ الحاصِلِ في القَلْبِ، ومِن هذا قولُ اللهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾.

2) ﴿جُنُودًا﴾: (الجيمُ والنُّونُ والدَّالُ): تدورُ تصاريفُها على مَعْنَى التَّجمُّعِ والنُّصْرَةِ، ومنه: الجُنْدُ؛ وهُمُ الأعوانُ والأنْصارُ[3]، وذهبَ بعضُ أهلِ العِلْمِ بالعربيَّةِ، إلى أنَّ أصلَ المادَّةِ دالٌّ على صلابَةِ الشَّيءِ وغِلَظِه، ومنه: الجَنَدُ، وهي الأرضُ الصَّلْبَةُ، ومنه: سُمِّيَ العسكَرُ جُنْدًا؛ لِما فيهِم مِنَ الغِلْظَةِ[4]، والجُنودُ جَمْعُ جُنْدٍ؛ إذِ الجُنْدُ يُجْمَعُ على جُنودٍ وأجنادٍ[5].

3) ﴿جَزَآءُ﴾: (الجيم والزَّاي والياءُ): تدلُّ اشتقاقاتُها على قيام شيءٍ مَقامَ غيرِه، ومكافأتِه إيَّاهُ[6]، ومنه قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الأَمْرَ، أَيْ: قَضاهُ[7]، والجَزاءُ: ما فيه الكِفايَةُ مِنَ المُقابَلَةِ، خيرًا كان ذلك أو شرًّا[8]، ومنه قولُ اللهِ سبحانَه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وجزيتُ فلانًا بما فعل جزاءً، إذا كافَأْتُه، قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝٣٦﴾ [فاطر: 36][9]، وقد جَرَى على ألسُنِ العربِ: (جَزاء سِنِمَّار)، يقال ذلك للرَّجل قد عمل خيرًا فكُوفِئَ بالشَّرِّ، قال الشَّاعر[10]:

جَزَاني جَزَاهُ اللهُ شَرَّ جَزَائِهِ *** جَزَاءَ سِنِمَّارٍ بِمَا كَانَ يَفْعَلُ

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

خاطب اللهُ تعالى المؤمنين فقال: ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ما ضاقَتْ عليكمُ الأَرْضُ مع سَعَتِها،

(1) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ص: 136.
(2) الرَّاغب، المفردات: (سكن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جند).
(4) الرَّاغب، مفردات ألفاظ غريب القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جند).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جند).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (جند).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (جزي).
(8) الرَّاغب، المفردات: (جزا).
(9) نشوان الحميريّ، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (جزيت).
(10) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللُّغة: (باب ما جاء على فعلال). والسِّنِمَّارُ، بِكَسْر السِّين والنُّونِ وشَدّ المِيم، يُنظر: الزبيدي، تاج العروس: 12/95، ونقل الأزهري في تهذيب اللّغة: 13/108، وابن منظور في اللسان: 4/382، قولَ أبي عبيد فيه أنّ سِنِمَّارَ اسمُ إسْكافٍ بَنَى لبعض الملوك قَصْرًا؛ فلمّا أَتَمَّهُ أشرف به على أعلاه، فرماه منه غَيْرَةً منه أَنْ يَبْنِيَ لغيره مثله، فضُرب ذلك مثلًا لكلّ مَنْ فَعَل خيرًا فجوزيَ بضدّه.

وتَوْلِيَتِكُمُ الأعْداءَ أَدْبارَكم؛ كشَفَ اللّهُ سبحانَه ما نزَلَ مِنَ البلاءِ عليكُم، فأنزلَ الأَمْنَ والطُّمأنينَةَ على رسولِه ﷺ وعلى المُؤمِنين، فثَبَتوا، وأمدَّهُم اللّهُ ﷻ بجنودٍ مِنَ الملائكَةِ لَمْ يروْها، فنصرَهُم علَى أعدائِهِم، وعذَّب الجاحدينَ وحْدانيَّتَهُ ورسالَةَ رسولِه مُحَمَّدٍ ﷺ، وهذا الذي فعلَه اللّهُ تعالَى بِهِمْ، هو عقوبَةُ الصَّادِّينَ عَنْ دينِه، المكذِّبينَ رسولَهُ ﷺ[1].

نزولُ السَّكينة على المؤمنين، وإمدادُهم بالملائكة والنَّصرِ المبين

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ﴾:

عَظَمَةُ الثَّباتِ الذي أَنْزَلَهُ اللهُ سبحانَه على المؤمنينَ في حُنَيْنٍ

﴿ثُمَّ﴾ مِنْ قولِ اللّه ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، حرفُ عطْفٍ دالٌّ على التَّرتيب والتَّراخي، وفي العَطْفِ بِهِ إشارَةٌ إلى عُلوِّ مَنْزِلَةِ ذلك الثَّباتِ، واسْتِبْعادِ أَنْ يَقَعَ نظيرُهُ في العادَةِ[2]، والتَّراخي في ﴿ثُمَّ﴾ على أَصْلِهِ؛ لأنَّه كانَتْ ثَمَّتَ مُدَّةٌ بينَ الاضْطِرابِ وحُلولِ السَّكينَةِ، وهي وإنْ لَمْ تكُنْ شديدةَ الطُّولِ إلَّا أنَّه قد نُزِّلَ هذا الفاصِلُ الزَّمَنيُّ - لِعظَمِ الشِّدَّةِ الواقعَةِ فيه، وهَوْلِ المُصيبَةِ - مَنْزِلَةَ مَن طالَتْ مُدَّتُها؛ إذْ زَمَنُ الشِّدَّةِ يُخيَّلُ طويلًا وإنْ قَصُرَ[3].

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْهِ بالْعَلَمِيَّةِ:

تتجلَّى عَظَمَةُ النَّصْرِ في ضَعْفِ المَنْصورينَ وقُوَّةِ المدحورين

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ، في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ لبيانِ عِظَمِ هذهِ السَّكينَةِ وجليلِ مَنْزِلَتِها، فهيَ سكينَةٌ من عند الذي لَهُ الإحاطَةُ بِصفاتِ الجَلالِ والكمالِ والجَمالِ[4]، وما صدَرَ مِنَ العَظيمِ عظيمٌ، ومِنْ أَوْجُهِ عَظَمَةِ هذا النَّصْرِ: وقوعُهُ مع شدَّةِ ضَعْفِ المَنْصورينَ، وقوَّةِ المَنْصورِ عَلَيْهِمْ، وقد كان الرَّسولُ ﷺ في حاجةٍ إلى هذه السَّكينةِ؛ لأنَّه أصابَه الحزنُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/189، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.

(3) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/20، والتَّحرير والتَّنوير: 10/158، وزهرة التَّفاسير: 6/3268.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.

والأسى، للفرار الجماعيِّ الذي حصل لأصحابه، حين مالتِ الكِفَّةُ لأعدائهم، وزُلزِلوا بالمفاجأة بِبَوادر الانكسار، وكان المؤمنون الّذين ثَبتوا مِن حوله في حاجةٍ إلى هذه السَّكينة؛ ليزدادوا ثباتًا على ثباتهم، وإيمانًا على إيمانهم[1].

بَلاغَةُ وَضْعِ المُظْهَرِ مَوْضِعَ المُضْمَرِ:

تَعْظيمُ شَأْنِ السَّكينَةِ وتَفْخيمُها، دليلٌ على أهميّتها

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، فيه إظْهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظّاهِرِ أنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ أَنْزَلَ سكينَتَهُ على رسولِه ﷺ)، بإسْنادِ الفِعْلِ إلَى الضَّميرِ المُسْتَتِرِ فيه؛ وذلك لتقدُّم ذِكْرِ الاسْمِ الأعظم (اللّه) في قوله سبحانَه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، ونُكْتَةُ الإظْهارِ: تَعْظيمُ شأْنِ هذه السَّكينَةِ وتَفْخيمُها؛ إذْ في إسنادِ الفِعْلِ إلى صريحِ الاسْمِ الأحسَنِ مِنَ المهابَةِ والجلالِ، ما ليس في إسنادِهِ إلى الضَّميرِ العائِدِ إليه.

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾:

التَّنْويهُ بِشَأْنِ السَّكينَةِ، والإيماءُ إلى خُروجِها عنِ المألوفِ المعتادِ

في إضافةِ السَّكينَةِ إلى الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى اللّهِ سبحانَه، في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، تنويهٌ بشأنِها وبرَكَتِها، وإيماءٌ إلى أنَّها سكينَةٌ خارِجَةٌ عن مألوفِ العِبادِ؛ لكونِها ممَّا ليسَ لهُ سببٌ ظاهرٌ، ولا مُقَدِّمَةٌ بيِّنَةٌ، وإنَّما حصَلَتْ بمحضِ تقديرِ اللّهِ ﷻ وتَكْوينِه[2].

بَراعَةُ الإظْهارِ في مَحَلِّ الإضْمارِ:

وَصْفا الرِّسالَةِ والإيمانِ، عِلَّتانِ في الانْتِصارِ وحُلولِ السَّكينَةِ

في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إظْهارٌ في محَلِّ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهرِ أنْ يرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ أَنْزَلَ سكينَتَهُ علَيْهِمْ)، فيعود الضَّمير في

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/242، (بتصرّف).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.

(عَلَيْهِم)، علَى المذكورينَ قَبْلُ، في قوله ﷻ: ﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾؛ ونُكْتَةُ الإظْهارِ: الإعْلامُ بأنَّ وَصْفَي الرِّسالةِ والإيمانِ عِلَّتانِ في الانتصارِ بَعْدَ الفِرارِ، وحلولِ السَّكينَةِ بَعْدَ الخَوْفِ والرُّعْبِ[1].

بلاغة الكِنايَةِ:

الأَمْـنُ مِـن مـوجِـبـاتِ الـسَّـكـيـنـةِ، والخَوْفُ جالِبٌ لِلاضْطِرابِ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كِنايَةٌ؛ وذلك أنَّ العَبْدَ إذا خافَ فَرَّ ورجَفَ، وقَلْبُهُ مضْطَرِبٌ متحرِّكٌ، فإذا أَمِنَ سَكَنَ وثَبَتَ قَلْبُهُ، فلمَّا كان الأَمْنُ موجبًا للسُّكونِ؛ جُعِلَت السَّكينَةُ كنايةً عَنْهُ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ ﷺ:

تـأْيـيـدُ مُـدَّعـي الـرِّسـالَـةِ مِـنْ عَلاماتِ صِدْقِهِ في دَعْواهُ إيَّاها

في قولِهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ عُبِّرَ بالرَّسولِ دونَ النَّبيِّ؛ لأنَّ المقامَ لـمَّا كان للرِّسالَةِ، وكان تأييدُ مُدَّعيها مِنْ علاماتِ صِدقِهِ في دَعْواهُ إيَّاها، وأنَّ مُرْسِلَهُ قادِرٌ على ما يُريد، خصوصًا إذا كان تأييدُهُ على وجْهٍ مخالفٍ لما جرَتْ بِهِ العادَةُ؛ جاءَ التَّعبيرُ بوصفِ الرِّسالَةِ دونَ وصفِ النُّبوَّةِ[3].

نُكْتَةُ ذِكْرِ الرَّسولِ ﷺ:

النُّفوسُ أَمْيَلُ إلى ما أُعْطِيَهُ الـرَّسـولُ ﷺ، والـقُـلـوبُ عليه أَقْبَلُ

ذُكِرَ الرَّسولُ ﷺ في سياقِ إنْزالِ السَّكينَةِ، في قوله سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يصْدُرْ منه ما يُخالِفُ الثَّباتَ؛ وذلكَ زيادَةٌ في تعظيمِ الامْتِنانِ بهِ؛ لأنَّ النُّفوسَ أَمْيَلُ إلى ما أُعْطِيَهُ رسولُ اللّهِ ﷺ، والقلوبَ عَلَيْهِ أَقْبَلُ؛ لاعتقادِ عظيمِ منزِلَتِهِ ورفيعِ شرَفِهِ[4]، ويَجوز أن يكونَ المرادُ إنزالَ سكينَةٍ زائدةٍ، على ما كان مستقِرًّا في قَلْبِهِ الشَّريفِ ﷺ.

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/209.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/19، والخازن، لباب التّأويل: 2/348.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.

(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

سِرُّ تَقْديمِ ذِكْرِ الرَّسولِ الأكرم على المؤْمِنينَ:

تَكْريمُ النَّبيِّ ﷺ ورَفْعُ شَأْنِهِ، مقرونان بكثرة ذِكْرِه في القرآن

في قَوْلِه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، قُدِّمَ ذِكْرُ الرَّسولِ ﷺ على ذِكْرِ المؤمنينَ في هذه الآية الكريمة؛ تكريمًا لنبيِّه ﷺ، وإجابةً لندائِه النَّاسَ[1]، ولِكَوْنِه أشْرَفَ المؤمنينَ، ومِنْ مُقتضَياتِ التَّقديمِ تقديمُ الأشْرَفِ.

دِلالَةُ تَكْرارِ حَرْفِ الجَرِّ (عَلَى):

السَّكينَةُ النَّبويّةُ سَكينَةُ اطْمِئْنانٍ عَلَى أَهْلِ الإيمانِ الذين مَعَهُ

أُعيدَ حَرْفُ الجرِّ ﴿وَعَلَى﴾، بعد حرفِ العَطْفِ، في قوله سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإيماءِ إلى ما بَيْنَ السَّكينَتَيْنِ مِنَ التَّفاوُتِ، فسَكينَةُ رسولِ اللّهِ ﷺ سكينَةُ اطمئنانٍ على أهلِ الإيمانِ الذين معه، وسكينةُ ثقةٍ بالنَّصْرِ، بخلافِ سكينَةِ المؤمنينَ، فهي سكينَةُ ثباتٍ وشَجاعَةٍ، بعد الخَوْفِ والجَزَعِ[2]، وفي تَكرارِ حرف الجرِّ أيضًا: إشْعارٌ بأنَّ السَّكينَةَ عامَّةٌ وليسَتْ خاصَّةً[3]، وأُكِّدَتْ في جانِبِ المؤمنينَ؛ لكونِهم أَحْوَجَ إلى السَّكينَةِ، للخَوْفِ الطَّارئِ عَلَيْهِم، بخلافِ رسولِ اللّهِ ﷺ، فلم تغادِرِ السَّكينَةُ قَلْبَهُ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِوَصْفِ الإيمانِ:

إيمانُ القُلوبِ، واطْمِئْنانُ النُّفوسِ بِالإيمانِ، عِلَّةٌ لِإنْزالِ السَّكينَةِ

في التَّعبيرِ بوصفِ الإيمانِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إشْعارٌ بِعِلَّةِ إنزالِ السَّكينَةِ، وهو الإيمانُ[4]، وعُبِّرَ بوصفِ المؤمنينَ دونَ المُسْلِمينَ للإيماءِ إلى أنَّ هذه السَّكينَةَ اختصَّتْ بِمَنْ آمَنَتْ قلوبُهم، واطمأنَّت نفوسُهُم بالإيمانِ[5].

سرُّ العدولِ عن ذكر الضَّميرِ المتَّصل إلى الاسم الظَّاهر:

الاحْتِرازُ مِن وجودِ المنافقين في صفوفِ المؤمنين، احتياطٌ وتحفُّظٌ

وإنَّما قالَ: ﴿وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولم يَقُلْ: (وعَلَيْكُم)؛ لأنَّ الْخِطَابَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/56، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3268.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/56.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3268.

لِلْجَمَاعَةِ، وفيهم بَقِيَّةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَضُعَفَاءِ الْإِيمَان، فيَاللّٰهِ الْعَجَبُ مِن هَذِهِ الدِّقَّةِ في بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ[1].

دِلالَةُ تَنْكِيرِ ﴿جُنُودًا﴾ وجَمْعِها:

عَظَمَةُ الجُنودِ التي أَنْزَلَها اللهُ سُبْحانَهُ، دليلُ عظمتِه

نُكِّرت كَلِمَةُ ﴿جُنُودًا﴾ مِنْ قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾؛ للإيماءِ إلى عَظَمةِ هذه الجُنودِ، فإنَّ الجُنودَ كانوا ملائكةً[2]، وقد يُفيد التَّنكير مع التَّعظيم التَّنويع؛ فتشمل غيرَ الملائكة، نحو تكثيرهم في أعين أعدائهم[3]، وجُمِعَت للإشْعارِ بكثْرَتِهِمْ، دونَ تحديدٍ لعددهم[4].

دلالة جملة: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

فضلُ اللهِ ورحمتُه في تثبيت أوليائه المصطَفَين

وقعت جملة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ نعتًا للجنود، فأفادت إظهارَ فضلِ اللّٰه تعالى، وبيانَ عظيمِ رحمته في تثبيت المؤمنين، وفيها إعطاءُ العُذر لكلِّ من لم يرَ، ويكفي أنَّ اللّٰه قال؛ ليكون هذا حقيقةً واقعة، والحقُّ ﷻ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: 31][5]، أي: وأنزل مع هذه السَّكينة جنودًا مِنَ الملائكة لم تروها بأبصاركم، ولكنَّكم وجدتم أثرَها في قلوبكم، حيث عاد إليكم ثباتُكم وإقْدامُكم[6].

سرُّ الجمع في قوله: ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾:

عدمُ رؤيةِ الغيبيَّاتِ في الكون، لا يعني عدمَ وجودِها

الدّلالَةُ على نفي رؤيتهم تلك الجنود في حالة اجتماعهم، أي: لم تروْها مجتمعين، فهناك مَن لمحها، وهناك مَن لم يرها[7]، "وهناك أشياءُ كثيرةٌ في الكون، موجودةٌ وتزاول مهمَّتها، ونحن لا نُدْرك كيفيَّة هذا الوجود، وليس معنى عدمِ إدراكنا لها، أنَّها غيرُ موجودة،

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/221.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.
(3) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/350.
(4) فقد ذَكَر جَمْعٌ مِنْ أهل العِلْمِ - مِنْهُم سعيدُ بن جُبيرٍ - أنَّهم كانوا خَمْسَةَ آلافِ مَلَكٍ، ينظر: الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/350.
(5) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويِّ: 8/5005.
(6) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/242.
(7) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويِّ: 8/5007.

وكلُّ الاكتشافات التي قدَّمها لنا العِلْمُ المعاصر كانت موجودةً، ولكنَّنا لم نكن نُدركُ كيفيَّة وجودِها من قبل، ... ويكفي أنَّ اللّه قال؛ ليكون هذا حقيقةً واقعةً"[1].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالِاسْمِ المَوْصول:

الكُفْرُ من أسبابِ اسْتِحْقاقِ العَذابِ

في التَّعبير بِالِاسْم المَوصولِ مِن قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، إيماءٌ إلى عِلَّةِ استحقاقِهِم التَّعذيبَ، وهو الكُفْرُ، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ هم المقصودون بالعذاب، "ولقد ساقوا أموالَهم كلَّها ليَثورَ حماسُهم برؤيتها، فَغَنِمَها المسلمون جميعَها، فكأنَّهم ساقوها ليأخذَها المسلمون غنيمةً باردةً، وساقوا نساءَهم وأولادَهم؛ ليزدادوا حماسةً برؤيتهم، فسباهُمُ المسلمون، وأذلُّوهم بسببِهم، فكأنَّهم كانوا يُعِدُّون المائدةَ للمؤمنين"[2].

عِلَّةُ إيرادِ الِاسْمِ المَوْصولِ جَمْعًا:

دليلُ قُدْرَةِ اللّهِ سبحانَه، وشَديدِ بَطْشِهِ بمن عاداه

إيرادُ الِاسْمِ المَوصول جَمْعًا، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، فيه إشْعارٌ بِكَثْرَةِ أهلِ الكُفْرِ الذينَ وقعَ عَلَيْهِمُ التَّعذيبُ، وذَلِكَ يقْتضي عظيمَ قُدْرةِ اللّهِ سبحانَه، وشديدَ بَطْشِهِ بأعداءِ دينِه.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضِيًا:

تَحَقُّقُ وصْفِ الكُفْرِ في أَعْداءِ الدِّينِ، مِنَ المنكرينَ والجاحِدين

جيءَ بجملة صِلةِ الموصولِ، مُصَدَّرةً بفعلٍ ماضٍ، وهو﴿كَفَرُواْۚ﴾، من قولِه سبحانَه: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾؛ للدّلالَةِ على تحقُّق وصْفِ الكُفْرِ في أعداءِ دين اللّهِ سبحانَه، وأعداءِ رَسولِه ﷺ، وأنَّهم يستحقُّون ما نزل بهم، "فكان تعذيبُهم بالهزيمة والقتل، واستيلاءِ المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم"[3]، وفي التَّعبير بالصِّلَة فِعْلًا، إشْعارٌ بأنَّ فيهِمْ مَن آمَنَ بَعْدَ ذلِكَ، ولم يسْتَمِرَّ على كُفْرِه[4].

(1) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويِّ: 8/5005.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3269.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الكُفْرِ:

إغْراقُ أهْلِ الكُفْرِ في الباطِلِ، بِتَكْذِيبِهِم جَميعَ ما أَوْجَبَ اللهُ تعالى الإيمانَ بِهِ

حُذفَ متعلَّقُ الفعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ من قول اللّهِ سبحانَه: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وهو المَكْفورُ بِه؛ لإرادةِ العُمومِ؛ وذلك لِأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مؤذِنٌ بذلك، والمعنى: كفَروا بجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤْمنوا بِهِ شَرْعًا، والكفرُ مناوأةٌ للّه العليّ، بإنكار شَرْعِه النَّقيِّ، والتَّنكُّب عن هديه الجَليِّ، والتَّصدِّي للرَّسول ﷺ والمؤمنين، بالحرب الضَّروس، وتأليب النُّفوس، ومحاولةِ استئصال شَأْفَة الدِّين، والمسارعة إلى إطفاءِ نورِه المبين، وقد كان عذابهم كبيرًا ؛ لاتِّساع دائرةِ كُفرِهم، وتفاقُم أذاهم، في ذلك الأوانِ.

سِرُّ تَعْرِيفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِشَارَةِ:

تَمْييزُ جَزاءِ الكافِرينَ أَكْمَلَ تَمْييزٍ وأَبْيَنَهُ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالإشارَةِ، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ليتميَّزَ جزاؤُهُمْ أكملَ تمييزٍ؛ إذِ الإشارَةُ في (ذَلِكَ)، إلى ما حلَّ بهم مِنَ التَّعذيبِ، فإذا تميَّزَ جزاؤُهُم؛ تبيَّنَ موجِبُ ذلك مِنَ الكُفْرِ المذكورِ بَعْدُ، أَبْلَغَ بيانٍ.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الإِشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ:

شِدَّةُ العَذابِ الحالِّ بِالكافِرينَ، مِن عدلِ الله في عقابِهِم ورَدْعِهِم

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أُوْثِرَ التَّعبيرُ فيه بِاسْمِ الإشارَةِ، الدَّالِّ على البُعْدِ ﴿وَذَٰلِكَ﴾، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ العذابِ الذي حلَّ بِهِمْ، وإيذانًا بِبُعْدِ درجَتِهِ في الشِّدَّةِ والفظاعَةِ؛ والإشارَةُ راجِعَةٌ إلى العذابِ المُستفادِ مِنَ الفِعْلِ ﴿وَعَذَّبَ﴾[1].

بلاغةُ التَّذْييلِ:

بَيانُ جَزاءِ مَنْ كانَ عَريقًا في الكُفْرِ، موغِلًا فيهِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مَجْرى المَثَلِ؛ لعَدمِ استقلالِه، ولافتقارِهِ إلى ما قبله، في الكَشْفِ عَنْ تمام المرادِ منه، وقد ورَدَت جُملَةُ التَّذييلِ تعميمًا لحُكْمِ عذابِ الكافرينَ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.

وذلك أنَّ اللّه سبحانَه لـمَّا ذَكَرَ ما عذَّب بِه الكَفَرَةِ في حُنيْنٍ؛ أَتْبَعَهُ ببيانِ جزاءِ كُلِّ مَنْ كان عريقًا في الكُفْرِ، موغِلًا فيهِ[1].

دلالَةُ الخَبَرِ:

التَّهديدُ البَليغُ، والوعيدُ الأَكيدُ، على مُطْلَقِ الكُفْرِ

الجُمْلَةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، جُمْلَةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بِها إعلامُ المخاطَبِ بالحُكْمِ الذي تضمَّنَتْهُ، معَ ضميمَةِ مَعْنًى آخرَ، وهو التَّهديدُ البليغُ على الكُفْرِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّه إذا كانَ هَذا الوعيدُ والتَّهديدُ بالعذابِ، على مَن أَوْجدَ كُفْرًا في زمنٍ ما، فكيفَ بِمَن رسَخَ فيه؟![2].

دلالَةُ اللَّامِ في لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

مَـن لا يَـديـنُ بـالإسْلامِ - وقد بلغتْهُ الدَّعوةُ - فجزاؤُه العذابُ في الآخِرةِ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ من قول اللّهِ سبحانَه: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، يُرادُ بِها الاستغْراقُ، أي: أنَّ لكلِّ الكُفَّارِ الجزاءَ المَذكورَ؛ لما تَقرَّر في الشَّريعَةِ من أنَّ كلَّ مَن لا يَدينُ بدينِ الإسْلامِ - وقد بلغتْهُ الدَّعوة بصورة صحيحة - فإنَّه مُعَذَّبٌ إذا ماتَ على ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النّساء: 48]، ويجوزُ أن تكون اللّامُ لِلْكَمالِ، والمعنى: وذلك جزاءُ الرَّاسِخينَ في الكُفْرِ، الكامِلينَ فيه، الذين آثَروا محبَّةَ الأقاربِ والأموالِ، على محبَّةِ اللّهِ سبحانَه ومحبَّةِ رسولِه ﷺ[3]، ولا تعارُضَ بينَ المَعْنَيَيْنِ، بل يَجوزُ إرادَتُهُما معًا، ويكون المعنى: وذلكَ العذابُ جزاءٌ للكافرينَ الكامِلينَ في الكُفْرِ كلِّهِمْ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/427.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/426.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧﴾ [التَّوبة: 27]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين جزاء الكافرين، وقبول توبة مَن شاء، لله ربِّ العالمين

لمَّا ذكر اللهُ تعالى في الآيات السَّابقة، ما جرى على الكافرين مِنَ الخُذلان، بقتلهم وأَسْرهم، وأَخْذِ أموالهم، وسَبْيِ ذراريهم، بقوله: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ جزاءً وفاقًا لكفرهم، جاءت هذه الآية لتُبيِّن أنَّ الله ﷻ تفضَّل عليهم، بأن وفَّقهم للإسلام، وأزال دواعيَ الكراهيةِ مِن قلوبهم. وممَّا يُذكَر في المناسبة أيضًا، أنَّه لـمَّا بيَّن اللهُ سبحانَه في الآية السَّابقة أنَّ العذابَ هو جزاءُ الكافِرينَ المعدُّ لهم، في قوله ﷻ: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ بيَّن هنا أنَّه يتوبُ على مَن يشاءُ منهم، هم وكُلُّ مَن عَلِمَ اللهُ تعالى منه قابليَّةَ الإيمانِ، وإنْ كان شديدَ الكُفْرِ عظيمَه، فقال جلَّ وعلا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتُوبُ﴾: (التَّاءُ والواوُ والباءُ): تدلُّ تصريفاتُه على معنى الرُّجوعِ، تقول: تابَ مِن ذَنْبِه؛ أي: رجع عنه[2]، وأصلُ التَّوب: تركُ الذَّنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوهِ الاعتذار؛ لأنَّ الاعتذار على ثلاثة أوجهٍ؛ منها: فعلتُ وأسأتُ وقد أقلعتُ، وهذا المعنى موافقٌ لمعنى التَّوبةِ في الشَّرع؛ لأنَّها تعني: تَرْكَ الذَّنب لِقُبْحه، والنَّدمَ على ما فَرَطَ منه، والعزيمةَ على تَرك المعاودة، وتداركِ ما أمكنه أن يتدارك مِنَ الأعمال، بالإعادة على وجهها الصَّحيح[3]، وتابَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/427.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (توب).
(3) الرَّاغب، المفردات: (توب).

العَبْدُ إلى اللّهِ تعالى: عادَ إليه بالطَّاعَةِ بعدَ المَعْصيةِ[1]، وتَوْبَةُ اللّه سبحانَه على العِبادِ، الوارِدَةُ في قولِه ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، تعني: الرُّجوعَ إليهم بالهدايةِ إلى الإسلامِ، والمَغْفِرَةَ لذنوبِهِم[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

توبةُ اللهِ مِن بعدِ الهزيمةِ والنَّكالِ، على بقايا هَوَازِنَ في هدايتِهم إلى الإسلامِ

بيَّنت هذه الآيةُ تفضُّلَ اللّهِ ﷻ، بتوفيقِ مَن يشاءُ، فيَهْديه إلى الإسْلامِ، ويَقْبَلُ منه إنابتَهُ وَتَوْبَتَهُ، مِن بَعْدِ عذابِهِ الذي نزل بِهِ في الدُّنيا، واللّهُ سبحانَه يستُرُ ذَنْبَ مَن تابَ إليه، ويتجاوَزُ عنه؛ رَحيمٌ بِهِ فلا يُعَذِّبُهُ بَعْدَ تَوْبَتِهِ، ولا يُؤاخِذُهُ بِهِ بعْدَ إنابَتِهِ[3]. والسِّياقُ يذكر هنا التَّوبَةَ على مَن بقي مِن قبائلِ هَوازِنَ، فيهديهم إلى الإسلامِ، وقد قَدِموا على رسولِ اللّهِ ﷺ مُسْلِمين، ولَحِقوا به في مكَّة، في مكانٍ يُعْرَفُ بالجِعرانة، وذلك بعد الموقعة بعشرين يومًا[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ ﴿ثُمَّ﴾ في الآيَةِ:

شَتَّانَ ما بَيْنَ الكُفْرِ المُفضي إلى العَذابِ، والتَّوْبَةِ الموسومةِ بالمَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ

حَرْفُ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، عَطَفَ هذه الجملةَ على قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾، وهو دالٌّ على التَّراخي الرُّتْبيِّ[5]، وذلك للإشارةِ إلى إسلامِ هَوازِنَ، بعد تلك الهزيمة النَّكراء الَّتي أصابتهم، وجاؤوا لرسول اللّه مسلمين تائبين، وفيه إيماءٌ إلى البُعْدِ ما بينَ الكُفْرِ المتوعَّدِ عليه قَبْلُ، والتَّوبَةِ الجالِبَةِ رحمةَ اللّهِ سبحانَه ومغفرتَهُ[6].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (توب).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (توب)، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332، والهرريّ، حدائق الرَّوْحِ والرَّيحان: 11/200.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/190، ونخبةٌ مِنَ العلماء، التَّفسير المُيسَّر، ص: 191.

(4) حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 1263.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/158.

(6) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3269.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالْفِعْلِ المُضارِعِ:

عُمومُ تفضُّلِ اللهِ بالتَّوبة على كُلِّ مَن أخلص له الأَوْبةَ

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، جاءَ فيه التَّعبيرُ عَنْ توبةِ اللّهِ سبحانَه على مَن يشاءُ بالفِعْلِ المُضارعِ؛ للإيماءِ إلى تجدُّدِ التَّوبَةِ على كلِّ مَنْ صَدَقَ في توبَتِه إلى اللّهِ سبحانَه، ولا يختصُّ ذلكَ بهَوازِنَ، وذلكَ لأنَّ توبةَ هوازنَ، قَدْ عَلِمَها المُسْلِمونَ، فكانَ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ تابَ اللّهُ مِنْ بعد ذلكَ)، إلَّا أنَّه عُدِلَ عَن ذلك، لِلْإِعْلام بأنَّه سبحانَه يُعامِلُ بمِثْلِ ذلكَ كُلَّ مَن تابَ وأنابَ إليه[1]، وفيه إشْعارٌ بأنَّ ما وقعَ في حُنَيْنٍ، مِن إيمانِ أكْثَرِ مَن بَقِيَ مِنَ الذين غُلِبوا؛ سيقَعُ مثلُهُ، وشواهِدُ الحالِ تُؤيِّدُ ذلكَ؛ فإنَّهُ ما مِن حربٍ مِن حروبِ المسلمينَ الدِّينيَّةِ المَشْروعَةِ إلَّا كانَ مآلُها كذلك[2]، ويُضاف إلى ذلك أنَّ التَّعبير بالفعل المضارع، يدلُّ على امتداد زمن التَّوبة في الحال والاستقبال، وهذا دليلٌ على حُبِّ اللّه تعالى لتوبة عباده، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الغرض هو تحصيل التَّوبةِ مِن غير تقييدٍ بزمنٍ ترغيبًا فيها، فبابُ التَّوبة لا يُغْلَق حتَّى تطلع الشَّمسُ مِن مَغربها.

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَمِيَّةِ:

عَظَمَةُ تَوْبَةِ اللهِ سبحانَه؛ لِصُدورِها مِنَ العَظيمِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ في قولِ اللّه سبحانَه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ هذهِ التَّوبَةِ وشرَفِها، إذْ هي توبَةٌ مِن عندِ مَن لَهُ صفاتُ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ، وله الإحاطَةُ عِلْمًا وقُدْرَةً، وما يَصْدُرُ مِنَ العظيم عظيمٌ[3]، وعَظَمَةُ الخالق أنَّه يفتح البابَ دائمًا لعباده، وهذه مسألةٌ منطقيَّةٌ؛ لأنَّ الذي يَكفر، والذي يَعصي، لا يَضُرُّ اللّهَ شيئًا، ولكنَّه يُؤذي نفسَه، ويحاولُ أن يَفتريَ على نواميس الحقِّ، وحين يعلمُ العاصي أنَّه لا مَلْجَأَ له إلَّا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/221.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/427.

اللّه، فاللّه ﷻ يفتح له بابَ التَّوبة على مِصْراعِيه؛ ليعودَ إلى مولاه، ويلتزِمَ نورَه وهُداه[1].

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمار:

توبَةُ اللهِ تعالى على العِبادِ، مِن فواضلِ كَرَمِه المعتاد

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، فيه إظْهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ثُمَّ يتوبُ مِنْ بَعْدِ ذلكَ علَى مَنْ يشاءُ)، بإسْنادِ فِعْلِ التَّوبَةِ إلى الضَّميرِ المُستَتِرِ فيه؛ وذلكَ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسمِ الأعظمِ (اللّه)، في قوله سبحانَه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾، وعُدِلَ إلى الإظْهارِ: تعظيمًا لشأْنِ هذه التَّوبَةِ.

دلالَةُ ﴿مِنۢ﴾ في الآية:

أَثَرُ تَنَوُّعِ دِلالاتِ حُروفِ المَعاني في إثْراءِ ما في القرآنِ من المَعاني

﴿مِنۢ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، أفادَتْ مَعْنَيين؛ أحدُهُما: تَوْكيدُ المعنى وتَقْويَتُه، وهذا هو المعنى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مَعَ (قَبْلُ) و(بَعْدُ)، والآخَرُ: الإيماءُ إلى أنَّ توبَةَ أحدٍ مِنَ العبادِ، لا يُمكِنُ أن تستغْرِقَ الزَّمانَ المستَقبَلَ المُشارَ إليهِ بـ (بَعْد)[2]، وتحديد الزَّمن بالبَعْديَّة، دليلٌ على أنَّ التَّوبة كانت بَعْدَ تلاحق الأحداث، وأنَّها فُرضَت عليهم فرضًا، وأنَّهم تابوا بعد أن قَهَرتهم قوَّةُ اللّه، التي جاءت نصرًا للمؤمنين، وسَحقًا للكفَرَة المحاربين، "لقد كان أهل الطَّائف مِن ثَقيفٍ وهَوازِنَ، أشدَّ النَّاس اغترارًا بقوَّتِهم ومالِهم، وكانت فيهم غِلْظَةٌ وجفوةٌ دونَ غيرِهم مِنَ العرب، فلمَّا عَضَّتهم الحربُ، فَكَّروا في أمرِهم مُسْترشِدين"[3]، واللّهُ يقبل التَّوبةَ عن عباده، ويتوبُ على مَن يشاء من بعد ذلك.

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/5008 (بتصرُّف).
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/428.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3270.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الإِشَارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، عنِ العذاب:

شِدَّةُ العَذابِ النَّازِلِ بِالكافِرينَ، مَظْهَرٌ مِن مظاهِرِ عدلِه المَكِين

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، جاءَ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الآية الكريمة؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ العذابِ[1]، الذي حلَّ بِهِمْ من قَبْلُ على أيْدي المُؤمنينَ، وإيذانًا ببُعْدِ درجَتِهِ في الشِّدَّةِ والفظاعَةِ، وفيه إشارةٌ إلى عدم التَّصريح بذِكْر العذابِ مرَّةً ثانيةً؛ لأنَّ التَّوبة تمحو المعصية وأثرَها، وهذا مِنَ الجمال النَّفسيِّ الذى فيه مُراعاةٌ لمجيء إسلام هَوَازِنَ، بعد تلك الهزيمة النَّكراء.

بَلاغَةُ الإيجازِ بالحذف:

طَيُّ الكَلامِ الذي دَلَّتِ القَرينَةُ عليه؛ لونٌ مِنَ الاقْتِصادِ في الأَلْفاظِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، فيه إيجازٌ بالحذْفِ، حيثُ حُذِفَ مفعولُ المَشيئَةِ، والتَّقديرُ: (ثمَّ يتوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذلك على مَن يشاءُ أَن يَتوبَ عليه)، وإنَّما حُذِفَ اكتفاءً بدلالَةِ صَدْرِ الآيَةِ عليه، ذلك أنَّ مآل النَّاسِ في التَّوبة أو تَرْكِها مرتبطٌ بالمشيئة، والمعنى: أن يتوبَ عليه منهم لحكمةٍ تقتضيه، أي: يوفِّقَه للإسلام[2]، ومُفادُ ذلك: أنَّ اللّه يقبل توبةَ مَن يشاء من عباده، فيغفرُ له زلَّتَه، ويمحو حَوْبَتَه، إذا رجع عن ذنبه ذلك مُخلِصًا، لأنَّ اللّه عظيم المغفرة، واسع الرَّحمة[3].

سِرُّ التَّعبير بلفظ (التَّوبة)، عن دخولهمُ الإسلامَ:

الإسلام توبةٌ إلى اللّه، بالانصراف الكليِّ عمَّا سواه

في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، آثَر القرآنُ الكريم التَّعبير بالتَّوبة، عن هدايته لهم للإسلام؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك كان بتوفيق اللّه تعالى لهم؛ فهو الذي فتح لهم البابَ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/428.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/56.

(3) لجنةٌ من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 262.

ولـمَّا كان «الإسلام يَجُبُّ ما قبلَه، والتَّوبةُ تَجُبُّ ما قبلَها»[1]، عبَّر بالتَّوبة للقاسم المشترَك بينَها وبينَ الإسلام، ولأنَّ الإسلامَ رجعةٌ من الكفر إلى اللّه، والتَّوبةَ رجعةٌ مِنَ الذَّنب إليه، وكلاهما لا معنى له إلَّا مع صِدْق التَّوجُّه، ومع قبول الطَّرف المرجوع إليه، كان هذا التَّشاركُ في المعنى هو علَّة استخدام لفظ (التَّوبة)، دليلًا على معنى الدُّخول إلى الإسلام، "وحين يعلمُ العاصي أنَّه لا مَلجَأَ له إلَّا اللّهُ، فاللّهُ ﷻ يفتح له بابَ التَّوبة"[2]، ولا شَكَّ أنَّ أكبر معصيةٍ يُطلَب منها التَّوبةُ، إنَّما هي الكفر، وأكبرَ توبةٍ تتجلَّى في الاعتقاد والعمل، إنَّما هي الإسلام.

دلالة التَّعبير بالحرف ﴿عَلَىٰ﴾:

بــابُ الـلـهِ في القبول لا يُغْلَق عـلى طـالـب السُّول

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، آثر التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ الَّتي تُفيد الاستعلاءَ على غيرها؛ للإشارة إلى امتنان اللّه تعالى على مَن تاب عليهم، وللدَّلالة على أنَّ أمر التَّوبة شرعٌ علويٌّ، ليس مِن اختصاصات البشر، والتَّوبةُ تتجدَّد بتوبة مَن تاب إلى اللّه في كلِّ الأزمنة، وهو قانونٌ سماويٌّ، يعامِلُ به اللّهُ البشرَ، وعطاءٌ لا حولَ لهم فيه ولا قوَّة، ولكنَّ اللّه يُفيضُه عليهم من عليائه، ولا يستثني من ذلك أحدًا، وقد رُوِيَ عن أبي هريرة ﵁، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «قال اللّهُ ﷻ: عَبْدِي عِنْدَ ظَنِّهِ بِي، وَأَنَا مَعَهُ إذا دَعاني، وَإِنْ ذَكَرَني في نَفْسِه، ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَني في مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ في مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ وَأَطْيَبَ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِراعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ ذِراعًا، تَقَرَّبْتُ باعًا، وَإِنْ أَتاني يَمْشِي،

(1) عن عمرو بن العاص ﵁، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «يا عمرو بايع، فإنَّ الإسلام يَجُبُّ ما كان قبلَه، وإنَّ الهجرة تَجُبُّ ما كان قبلَها» أحمد، المُسْنَد، برقم: (17812)، وعند مسلم في صحيحه: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبلَهُ، وَأَنَّ الهجرَةَ تَهدمُ مَا كَانَ قبلَها، وأَنَّ الحَجَّ يَهدِمُ مَا كانَ قبلَهُ»، برقم: (121).

(2) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/5008.

أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1]، واللّهُ تعالى يُعامِل بمثل ذلك كلَّ عبدٍ كان على الكفر فأسلم، أو كان على الذَّنب فأحجم، فهو يتوب عليهم، ويتوبُ على مَن يشاء إذا شاء.

دلالة التَّعبير بـ ﴿مَن﴾:

الموصولُ الدَّالُّ على العمومِ، يُعَمِّم به معنى صلتِه بعدَه

آثر القرآن التَّعبير بـ ﴿مَن﴾، في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾؛ لإفادة العموم في أمر التَّوبة؛ فهي عامَّة، وليست قاصرةً على مَن أسلم مِن هَوازنَ وثَقِيفٍ، بل هي شرع الله لكلِّ مَن خرج مِن شِرْكه وكُفْره إلى الإسلام، واللّهُ يتوب على مَن يشاء، فهو "يعفو عنِ الذُّنوب العظيمة للتَّائبين، ويرحمُهم بتوفيقهم للتَّوبة والطَّاعة، والصَّفحِ عن جرائمهم، وقبولِ توباتهم، فلا ييأسَنَّ أحدٌ مِن مغفرته ورحمته، ولو فعل منَ الذُّنوب والإجرام ما فعل"[2].

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

تَفْخيمُ صِفَتَي المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ الصَّادِرَتَيْنِ عن اللهِ سبحانَه

في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، إظهارٌ في محلِّ الإضْمارِ، وذلكَ أنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وهو غفورٌ رحيمٌ)؛ لتقدُّم ذِكْرِ الاسْمِ الأعظمِ (اللّه)، في قولِه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وظاهرٌ أنَّ غُفرانَ اللّهِ متاحٌ في زمانه، وفي كلِّ عصرٍ مِنَ العصور، فصفاتُه تعالى صفاتٌ أزليَّةٌ خالدةٌ، لا تَحُوْلُ ولا تزول، والآية تُؤكِّد ذلك بِرُسوِّ المعنى وخلوده، وما فيها مِن معنى الكمال والبقاء والعَظَمَة.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بصيغَتَي المُبالَغَةِ:

لا نهاية لعَظَمَةِ اللهِ ﷻ وغُفرانِه، ولا حدودَ لتسامي رحمتِه وإكرامه

في بناءِ اسْمَي اللّهِ تعالى: (الْغَفورِ)، و(الرَّحيم)، مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، على أمثلَةِ المبالغَةِ دَلالَة على قوَّة المغفرَة وسَعَةِ الرَّحمَة وكثرَتِهما، فبِناءُ المبالَغَةِ مستعمَل باعتبار كثرَة المخاطَبينَ، وعِظَم المغفرَةِ والرَّحْمَة.

---

(1) أحمد في المُسْنَد، برقم: (10229)، وابن حبَّان في الصَّحيح، برقم: (812).

(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 332.

دَلالَةُ خَتْمِ الآيَةِ بِاسْمَي: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

خُتِمَتِ الآيَةُ باسْمَي اللّهِ سبحانَه: (الغفور) و(الرَّحيم)، فقال سبحانَه: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وذلك لمناسبَةِ الاسْمَيْنِ لِسياقِ التَّوبةِ[1]، وللإعْلامِ بأنَّ من آثارِ تَوبةِ اللّهِ ﷻ على عبادِه، أنْ يغفِرَ لهم ويرحمَهم.

من آثارِ توْبَةِ اللهِ تعالى على العبادِ: غلبةُ مَغْفِرَتِهِ، وعمومُ رَحْمَتِه

بلاغةُ أسلوب التَّذْييلِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، تذييلٌ جارٍ مَجْرَى المثَلِ؛ لاستقلالِه وعَدَمِ افتقارِه إلى ما قبلَهُ، والنُّكْتَةُ في ذلك: تعظيمُ شَأنِ الوَصفَينِ اللَّذَينِ دَلَّ عَلَيهما اسمَا اللّهِ: (الغفورُ) و(الرَّحيمُ)؛ وهُما المغفِرَةُ والرَّحمةُ، فَفُخِّمَ حالُهُما وَقَدرُهما؛ إذ هُما صادِران ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ، وفيهِ إيماء إلى عِظَم مغفرة اللّهِ تعالى؛ لكونِها مغفرةَ شَديدِ الغُفرانِ، الرَّحيم بعبادِه، والجملَةُ وارِدَةٌ - أيضًا - تأكيدًا لما تقدَّمَ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾، ولإفادَةِ أنَّ مَغْفِرَتَهُ من شَأنِهِ سبحانَه، وأنَّه رَحيمٌ بِالْعِبادِ، إنْ رجعوا إليهِ وَأنابوا وترَكوا مساخِطَهُ[2].

مَغْفِرَةُ اللهِ تعالى وَرَحْمَتُهُ بِالْعِبادِ، منوطةٌ بالرُّجوعِ إليه، والإقْلاعِ عن مَساخِطِهِ

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَغْفِرَةُ والرَّحْمَةُ:

الفَرْقُ بينَهما من أَوْجُهٍ؛ **أَوَّلُها**: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغَةِ: السَّتْرُ[3]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[4]. **وثانيها**: أنَّ أحدَهما سبَبٌ في الآخَرِ، ومَالَ ابنُ عَرفةَ إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ تُوجبانِ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[5]، إلَّا أنَّ ظاهرَ القرآنِ الكريم

ظاهِرُ القرآنِ الكريمِ، أنَّه غالبًا ما يَستعمِلُ المغفرةَ سببًا في الرَّحمة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/428.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435، 2/258.

عكسُه؛ وهو كونُ المغفرةِ سببًا في الرَّحمة، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل: 46]. **وثالثُها**: أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ إذا جُمِعا في محلٍّ واحدٍ؛ انصرفَتِ المغفرةُ لسَتْرِ ما مضى مِنَ الذُّنوبِ، والرَّحمةُ للِعِصْمة مِنْها فيما يُستقبَلُ[1]، إذا كان ذلكَ جزاءً في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخرةَ لا يُتصوَّرُ فيها ذُنوبٌ، حتَّى يُحتاجَ إلى العصمةِ منها. **رابِعُها**: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المَكْروه مِن آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المَطْلوب[2]. **خامسُها**: أنَّ المغفرة تخليةٌ، والرَّحمةَ تحليَةٌ، وأيضًا لأنَّ المغفرةَ سلامةٌ، والرَّحمةَ غنيمةٌ، وبهذا يكون للمغفرة معنًى يُميِّزها عنِ الرَّحمة.

(1) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلَّتها، ص: 19.

(2) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٨﴾ [التّوبة: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بينَ دَحر أعداء الله، وبينَ صيانة المسجد الحرام عن نجس الشِّرك وأهلِه

لـمَّا ذكر اللّٰهُ في بَدْء السُّورة الكريمة البراءةَ مِنَ الكفَّار، وشَدَّد في ذلك بذكر بعضِ فضائحِهم وقبائحِهم الَّتي تُوجِبُ البراءةَ منهم، بيَّن في هذه الآية العِلَّة الَّتي دعت إلى هذه المباينة وهذه المقاطعة، أنَّهم نجسٌ.

ومِنَ المناسبة - أيضًا - أنَّه بعد أن أبطلَ اللّٰهُ ﷻ شُبْهَتَين مِنَ الشُّبَهِ الَّتي يُبْديها مَن ضَعُفَ عَنِ امتثالِ أمرِه، بِمُبايَنَةِ أهلِ الشِّرْك والبراءةِ منهم؛ ذكرَ سبحانَه إبطالَ شُبْهَةٍ ثالثةٍ، وذلك أنَّ النَّبيَّ ﷺ لـمَّا أمرَ عليَّ بنَ ابنَ أبي طالبٍ رضي الله عنه، أَنْ يَقرأَ على مُشْركي مكَّةَ أوَّلَ سورةِ التَّوبةِ، وما تضمَّنَتْهُ مِنْ نَبْذِ عَهْدِهم إليهم، وأنَّ اللّٰهَ بريءٌ منهم ورسولُه ﷺ؛ قال ناسٌ: يا أهلَ مكَّةَ سَتَعْلَمونَ ما تلقَوْنَهُ مِنَ الشِّدَّةِ؛ لانقطاعِ السُّبُلِ، وفَقْدِ الحُمولاتِ، فقالَ اللّٰهُ سبحانَه ردًّا على هذه الشُّبْهَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾: (الشِّينُ والرَّاءُ والكافُ): تدورُ اشْتِقاقاتُها على لُزومِ شَيءٍ شَيْئًا؛ إمْساكًا بِجامِعٍ دَقيقٍ، ومنه: شِراكُ النَّعْلِ؛ لكونِهِ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/20 - 21.

ملازِمًا للنَّعْلِ، مُمْسِكًا إيَّاها، وكذا شَرَكُ الصَّيْدِ، ومِنْ هذا التَّلازُم: الشَّرِكةُ؛ وهي خُلْطَةُ المِلْكَيْنِ[1]، والإشراك باللّه جلَّ وعلَا: مصدرُ أشركَ إشراكًا، وهو أن يدعوَ للّه شريكًا[2]، ودخلتِ (الباء) في قول اللّه تعالى: ﴿أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 151]؛ لأنَّ معنى (أشرك باللّه): قرن باللّه غيرَه، وفيه إضمارٌ، والباءُ للإلصاق والقِران[3]، وحقيقةُ الشِّرْكِ شَرْعًا: تَسْوِيَةُ غَيْرِ اللّهِ باللّهِ، في شيءٍ مِن خَصائِصِ اللّهِ تعالى، وهو الشِّركُ العظيم، والـمُشْرِكونَ هُمُ الـمُتلبِّسونَ بهذا الشِّرْكِ[4]، يقال: أشرك فلانٌ باللّه، وذلك أَعْظَمُ كفرٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: 48].

2) ﴿نَجَسٌ﴾: (النُّونُ والجيمُ والسِّينُ): تدورُ تصريفاتُها على ضِدِّ الطَّهارَةِ، يُقال: شيءٌ نَجِسٌ - بِفَتْحِ الجيم وكَسْرِها - هو القَذَرُ[5]، والنَّجاسَةُ: القذارَةُ؛ وهي نوعان؛ أحدهُما: ما يُدْرَكُ بِالْحَواسِّ. والآخَرُ: ما يُدْرَكُ بِالْبَصيرَةِ، ومِنْ هذا قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[6]، وثوبٌ نَجِسٌ، بالكسر: اسمُ فاعل، وبالفتح: وصفٌ بالمصدر للمُبالغة، وفي اللِّسان: النَّجْسُ والنِّجْسُ والنَّجَس: القَذِرُ مِنَ النَّاس ومِن كُلِّ شَيءٍ[7]، والجمع: أنجاس، وقيل: النَّجَس يكون للواحد والاثنين والجمع والمؤنَّث بلفظ واحد، فإذا كَسَروا ثَنَّوا وجمعوا وأنَّثوا، فقالوا: أنجاسٌ ونجسة[8].

3) ﴿ٱلْحَرَامَ﴾: (الحاءُ والرَّاءُ والميمُ): تدورُ تصريفاتُها على الـمَنْعِ والتَّشديد، ومنه: الحَرامُ وهوَ ضِدُّ الحَلالِ[9]؛ وذلك أنَّ الحلالَ مأذونٌ في إتْيانِه، بخلافِ الحرام فيُمْنَعُ منه، ومنه قولُهُم: ذو رَحِمٍ مُحَرَّم، وهو الذي لا يَحِلُّ نِكاحُهُ، ومنه سُمِّيَ مَسْجِدُ الكَعْبَةِ: الـمَسْجِدَ الحَرامَ، كما في قوله سبحانَه: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾؛ لكَوْنِه لا يحِلُّ انتهاكُهُ[10].

(1) الرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (شرك).
(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (شرك).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (بوأ).
(4) ابن قاسم العاصميّ، حاشية كتاب التَّوحيد: ص 15، ومحمد الخميِّس، شرح الرِّسالة التَّدمريَّة، ص: 89.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نجس).
(6) الرَّاغب، المفردات: (نجس).
(7) الشَّافعيّ، المسند: 1/21.
(8) ابن سيده، المحكم: (نجس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حرم).
(10) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (حرم).

4) ﴿عَيۡلَةٗ﴾: (العَيْنُ والياءُ واللَّامُ): تدلُّ اشْتِقاقاتُها على معنى الحاجَةِ والفَقْرِ والفاقَةِ[1]، ومنه قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8]، وقولُ النَّبيِّ ﷺ في حَديثِ جبريلَ المَشْهورِ: «وأَنْ تَرَى الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشّاءِ، يَتَطاوَلونَ في البُنْيانِ»[2]، فالعالَةُ: الفقَراءُ، وهيَ جَمْعُ عائِلٍ[3]، ومنه قولُهُم: عالَ الرَّجُلُ؛ إذا افْتَقَرَ[4]، ومِنْ هذا البابِ: العَيْلَةُ، في قول اللّه سبحانَه: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، وهيَ الفَقْرُ[5]، قال الشَّاعر[6]:

فَمَا يَدْري الفَقِيرُ متى غِناهُ *** وما يَدْري الغَنِيُّ متى يَعِيلُ؟

وفي آخر حديث وصيَّة سعدِ بن أبي وقاص رضي الله عنه، مرفوعًا قال: «**إِنَّكَ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِياءَ**، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عالَةً يَتَكَفَّفونَ النّاسَ»[7]، والعالة: جمع عائل، وهو الفقير، يقال: عال يعيل عَيْلَةً، أي: افتقر.

5) ﴿يُغۡنِيكُمُ﴾: (الغَينُ والنُّون والحَرْفُ المعتلُّ): تدور كثيرٌ مِن اشتقاقاتِها على معنى الكِفايَةِ، ومنه قولُهم: فلانٌ لا يُغْني غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفي كفايَتَهُ[8]، والغَنَاءُ: الكِفايَةُ والإِجْزاءُ[9]، وقولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ﴾ أي: يكْفيكُمْ حاجاتِكُمْ، فلا يقَعُ عليكُمْ الفَقْرُ؛ إذِ الفقْرُ ملازِمٌ لِلْحاجَة.

6) ﴿فَضۡلِهِۦٓ﴾: (الفاءُ والضَّادُ واللَّامُ): تدور اشتقاقاتُها حولَ الزِّيادة في الشَّيء[10]، واسْتِعْمالُ هذا الأصلِ: في الخَيْرِ[11]، فالفَضْلُ: الزِّيادَةُ في الخَيْرِ[12]؛ حِسِّيَّةً كانتِ الزِّيادةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عيل).
(2) مسلم في صحيحه، الحديث برقم: (8).
(3) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عيل)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عيل).
(4) ابن الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/141.
(5) أبو عُبيد الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: (عيل).
(6) البيت لم يُعْزَ لقائل، وقيل: هو لأحيحة بنِ الجلَّاح، من قصيدة في جمهرة أشعار العرب، ص: 647، وفي معاني القرآن: 1/255، وينظر: ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (علي).
(7) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (2591).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غني).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فضل).
(11) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/302.
(12) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 2/45.

أو معنويَّةً[1]، وذهب الرَّاغبُ إلى أنَّ الفضلَ لا يختصُّ بالخيرِ، بَلْ يقعُ الفضلُ محمودًا ومذمومًا، واستعمالُهُ في المحمودِ أكْثَرُ وأغْلَبُ[2]، وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، معناهُ: يتفضَّلُ عليكُم بِما هو أَوْسَعُ وأكْثَرُ[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مَـنْـعُ المشركين مِـن دخـول الـحَـرَم، مع عـدم الـخـوف مِنَ الفقر؛ لأنَّ الله تعالى هو المُغْني

في هذه الآية نادى اللّهُ تعالى على أهل الإيمان؛ يا مَعْشَرَ مَن آمَنَ بِاللّه تعالى، وصدَّق رسولَه ﷺ، ما المشركونَ إلَّا نجسٌ وقَذَرٌ، فلا تُمكِّنوهُم مِنَ الاقترابِ مِنَ المسجِدِ الحرام، بدخولِهم الحرَمَ بعدَ الذي نادَى فيهِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه بسورةِ براءَة، وهو العامُ التَّاسعُ مِنَ الهِجْرَةِ، وإن خِفتُم فاقةً وفقرًا، بسَبَبِ مَنْعِ المُشْركينَ مِنْ أَنْ يَقْرَبوا المَسْجِدَ الحرامَ؛ فإنَّ اللّهَ ﷻ سَيُعَوِّضُكُم عنها، ويَكْفيكُم من فَضْلِهِ إنْ شاءَ، إنَّ اللّهَ سبحانَه عَليمٌ بِحالِكُمْ، حَكيمٌ في تَدْبيرِ شُؤونِكُم[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ والاستئناف:

التَّنْصيصُ عَلى عِـلَّـةِ إقْـصـاءِ الْـمُـشْـرِكـيـنَ عنِ المَسْجِدِ الحَرامِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾ عمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئنافًا بقَصْدِ الرُّجوعِ إلى غَرَضِ إبْعادِ المُشْركين عنِ المسجِدِ الحرام، الذي دلَّ عليه قولُ اللّهِ سبحانَه قَبْلُ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ﴾ [التَّوبة: 17]، ولتأكيدِ الأَمْرِ بإقصائِهِم عنِ المسجِدِ الحرام، مع التَّنْصيص على عِلَّةٍ أُخْرَى تقتضي هذا الإقْصاءَ؛ وهيَ كَوْنُهُم نجَسًا، وحيثُ إنَّ المسجد الحرام رمزٌ للطُّهر والقداسة، وقد قال

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (فضل).

(2) الرَّاغب، المفردات: (فضل).

(3) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/356.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/190 - 192، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.

تعالى لإبراهيم ﷺ: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]، ولمَّا أُنزل فيه الوحيُ الخاتم، وعمَّ الإسلام شِبْهَ الجزيرةِ العربيَّة برُمَّتها، وطُهِّرت الكعبةُ مِن رجس الأصنام، وطُهِّر الحرمُ مِن نجس الطُّقوس الّتي كانت تُمارَس في الجاهليَّة، أُنزِلَ الحُكمُ بمنع المشركين مِن ارتياد المسجدِ الحرام، بعد نزول هذه الآية.

سِرُّ اختلافِ التَّعبير في الموضوع الواحد:

تنوُّعُ الأسلوبِ القرآنيِّ في التَّعبير عن الأحكام، ثراءٌ وإيضاحٌ وبيانٌ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾، وقوله تعالى السَّابق: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾ [التّوبة: 17]، اختلف التَّعبير فيهما، مع كونهما في موضوع واحد، هو منع المشركين مِن دخول المسجد الحرام، ففي كلا الموضعين منعٌ للمشركين مِنَ المسجد الحرام، وإن اختلفت صورةُ المنع؛ ففي الآية الأولى: منعٌ مِنَ العِمَارة، وفي الثَّانية: نهيٌ عنِ القُرْب، مع اختلاف العلَّة في كلٍّ منهما؛ ففي الموضِع الأوَّلِ: عُلِّلَ إبعادُهُم بكونِهم شاهدينَ على أنْفُسِهم بالكُفْر، فلَمْ يكونوا أهلًا لعِمَارةِ المَسْجِدِ الحرام، الذي بُنِيَ أَصالةً لإقامَةِ التَّوحيد[1]، وعلى هذا فلا يَجوز تمكينُهم مِنْ عمارَته؛ لطهارَته، وعُلِّلَ في الثَّاني: بأنَّهم نجسٌ، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ فلا يقربوه فضلًا عن عمارته، فالنَّهي عن القرب، يَلْزَم منه النَّهيُ عنِ العمارة.

نُكْتَةُ النِّداءِ بِـ(يا):

إظْهارُ العِنايَةِ بالحثِّ على تطهير المَسْجِدِ الحَرامِ مِنَ المُشْركِينَ

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، جاءَ النِّداءُ بـ (يا) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهي في الأصل لِنِداء البَعيدِ، ونداءُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.

اللّهِ سبحانه لِعبادِهِ، نِداءٌ مِنَ الخالِقِ إلى المَخْلوقين، فَجديرٌ أَنْ يَكونَ بأداةِ النِّداءِ لِلْبَعيدِ، وفي التَّعبير بأداة النِّداءِ لِلْبَعيد نكاتٌ؛ أولاها: بُعْدُ ما بين الخالِقِ والمَخْلوقِ مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نِداءٌ مِنَ الخالِقِ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العلوِّ وأبعدَهُ. وثالثها: عِظَمُ شأنِ موضوعِ النِّداءِ، وهو الحَثُّ على إبعادِ المُشْرِكينَ عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

الإنْتِقالُ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، مِنْ مُقَوِّياتِ المَعاني

النِّداءُ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فيه ضَرْبٌ مِن تَقْوِيَةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلك: أنَّ لفظَ (أيّ) لا يُفْهَمُ المرادُ مِنْهُ إلَّا باسم بعْدَهُ يُزيلُ غُموضَهُ، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وفي هذا نَوْعُ توكيدٍ، وفي اقترانِهِ بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأصْلِ يُرادُ به التَّنبيهُ.

بَراعَةُ النِّداءِ بِوصْفِ الإيمانِ:

الإيمانُ يقتضي الالتزامَ الصَّارمَ بالأوامِرِ، والاجتنابَ القاطعَ للنَّواهي

وقَعَ النِّداءُ بوصْفِ الإيمانِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لكَوْنِه يَقْتَضي تَعْظيمَ شعائِرِ الإسْلامِ، ومنها: الشَّعائِرُ الزَّمانيَّةُ والمَكانيَّةُ، ومِن أَعْظَمِ معالِمِ الإسْلامِ المَكانيَّةِ المَسْجِدُ الحَرامُ، فالنِّداءُ بوصْفِ الإيمانِ تحريضٌ على تعظيمِه وتوقيرِه، ومِن صوَرِ تَعْظيمِه: إبعادُ المُشْرِكينَ عنه؛ وذلك لما يُشْعِرُ به وصفُ الإيمانِ مِنَ الاسْتِعدادِ لامتثالِ ما يأمرُهُم اللّهُ تعالى به؛ وَذلك لأنَّهُ أخصُّ أوصافِهِمْ تُجاهَ أوامرِ اللّهِ ﷻ، كما قالَ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النّور: 51].

نُكْتَةُ مَجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

حَثُّ أَهْلِ الإيمانِ على ترسيخِ إيمانِهِمْ، والثَّباتِ عليه

جاءتِ جملَةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا، في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ حثًّا لِلْمُخاطَبين على ترسيخِ إيمانِهِم، والاستمرارِ عليه، وفيه: إشعارٌ بأنَّ وصْفَ الإيمانِ ثابتٌ لهم، وأنَّهُمْ مُتَحَقِّقونَ

به، وإشارةٌ إلى انصرام زمنِ المغالبة، بالحَرْب الضَّروس، والكَيْدِ المتلاحِقِ، الذي كان عند الكفَّار يملأ النُّفوس، وقد جاء الفتحُ، فانبجس عهدُ التَّمكين للإسلام وأهلِه، فكان طبيعيًّا أن تُصانَ حُرْمةُ الحَرَمِ، وأن يُطَهَّر المسجدُ الحرامُ مِنَ الدَّنس، باعتبار ذلك إيذانًا بعهدٍ جديدٍ، طُويتْ بمقْدَمِه صفحةُ الماضي المرير.

فائِدَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

حَقيقَةُ الإيمانِ مُسْتَقِرَّةٌ في نُفوسِ المؤْمِنينَ، وَهُمْ مُقِرُّونَ بِجَميعِ ما تقتضيه

حُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ (آمَنوا)، مِن قول اللهِ سبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وهو المُؤْمَنُ به، وفي ذلك مَسْلَكانِ؛ أحدهما: ظهورُ أفرادِ المؤمَنِ به؛ وذلك لأنَّ الإيمانَ له حقيقَةٌ شَرْعيَّةٌ مَعْروفةٌ، فإذا أُطْلِقَ لفظُ الإيمانِ، انصرَفَ الذِّهْنُ إلى تلك الحَقيقةِ، مِن غَيْرِ افتقارٍ إلى التَّنصيصِ على مُتَعَلَّقِه. والآخَرُ: إرادَةُ العُمومِ؛ وذلك لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤْذِنٌ بالعُمومِ، والمعنى: آمَنوا بِجَميعِ ما يَجِبُ الإيمانُ به شَرْعًا.

بلاغَةُ القَصْرِ بِلفظ: (إنَّما):

نَجاسَةُ المُشْرِكينَ أَمْرٌ بَيِّنٌ، لا يَنْبَغي جَهْلُهُ أو التَّغاضي عنه

القَصْرُ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾، قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ مجازيٌّ؛ لِعَدَمِ وجودِ القَصْرِ الحَقيقيِّ في قَصْرِ المَوْصوفِ على الصِّفة، والقصْدُ منه: المبالغَةُ في نجاسَةِ المُشْرِكينَ، فكأنَّه لا صفَةَ لهم إلَّا النَّجاسَةَ، وأمَّا قولُ الرَّازيِّ: "كَلِمَةُ (إنَّما) لِلْحَصْرِ، وهذا يَقْتَضي أن لا نَجَسَ إلَّا المُشْرِك"[1]؛ فمَحَلُّ نَظَرٍ؛ لأنَّ هذا الكَلامَ، إنَّما يَرِدُ لَوْ كانَ القصْرُ قصْرَ صفةٍ على الموصوفِ، بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إنَّما النَّجَسُ المُشْرِكونَ)، والواقِعُ أنَّ قولَهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾، مِن قَصْرِ المَوْصوفِ على الصِّفَةِ، وليس فيه نفيُ النَّجاسَةِ عن غيرِ المُشْرِكينَ، وقد عبَّر القرآنُ الكريم بأداة القصْرِ (إنَّما) في قوله سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/22.

نجاسَتَهُمْ أمرٌ واضحٌ بيِّنٌ، لا يَنْبَغي لِأَهْلِ الإيمانِ أن يجْهَلوهُ؛ لأنَّ أصلَ استعمالِ (إنَّما)، هو في الشَّيءِ الذي لا يجْهَلُهُ المخاطَبُ ولا يُنْكِرُهُ[1]، ولا يتردَّد فيه؛ فكأنَّهم لا وَصْفَ لهم إلَّا النَّجاسة.

دلالَةُ (ال) في لفظ: ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾:

اتِّصافُ جَميعِ المُشْرِكينَ بالنَّجاسَةِ المَعْنَويَّةِ، حكمٌ مُستوعِبٌ لكلِّ مَن أشرك

اللَّامُ في ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مِن قول اللهِ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، يُرادُ بها الاستغْراقُ، أي: أنَّ جميعَ أهلِ الشِّرْكِ نجَسٌ في كلِّ دينٍ وملَّةٍ؛ لأنَّهم يَجمعون بينَ الكفر والشِّرك، ولذلك يرى بعضُ العلماء أنَّ المشركين في سورة التَّوبة يُراد بهم الكفَّار، ويَجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ دالَّةً على تماديهم في الشِّرك، فصار عنوانًا لهم، بِدَليلِ اسْتِمرارِهِم عليه[2]، فيَخْرُجُ منه ما ليس متماديًا فيه، وهو كُلُّ مَن تلَبَّسَ بشيءٍ مِن أفرادِ الشِّرْكِ الأصْغَرِ، ولا تَعارُضَ بينَ المَعْنَيَيْنِ، بل تَجوزُ إرادَتُهُما معًا، ويكونُ المعنى: إنَّما المُشْرِكونَ الذين تمادَوا في الشِّرْكِ نَجَسٌ كُلُّهُمْ.

سِرُّ إيرادِ الوَصْفِ مَصْدَرًا:

لُزومُ النَّجاسَةِ للمُشركين، وعَدَمُ انْفِكاكِها عَنْهُمْ في كلِّ حينٍ

ورَدَ الوصْفُ ﴿نَجَسٌ﴾ بصيغَةِ المَصْدَرِ، في قول اللهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾؛ مبالغَةً في اتِّصافِهِم بالنَّجاسَةِ، فكأنَّهم عَيْنُها، ويَجوزُ أن يكون ذلك على حذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: إنَّما المُشْرِكونَ ذَوو نجَسٍ، وذلك لِخُبْثِ بواطِنِهِم، وفسادِ عقائِدِهِم[3]، ويَحْتَمِلُ أن تَكونَ كلمَةُ ﴿نَجَسٌ﴾ صِفَةً مشبَّهَةً، وهي اسمٌ لما كانت النَّجاسَةُ صفةً ملازِمَةً له، لا تَنْفَكُّ عنه بحالٍ[4]، ولا تنافيَ بينَ هذهِ الدّلالاتِ؛ إذْ كُلُّها دالٌّ على لُزومِ النَّجاسَةِ لَهُمْ، ولصوقِها بِهِمْ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/269.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.

دلالة التَّعبير بالمصدر ﴿نَجَسٌ﴾ بصيغة المفرد:

الدِّينُ رمزُ الطُّهر والنَّظافة، والانسلاخُ منه خبثٌ ونجاسةٌ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالمصدر: ﴿نَجَسٌ﴾، دونَ الجمع: (أنجاس)، مع سبق ما يدعو لذلك مِنَ السِّياق، في قوله: ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، وباللَّحاق في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ﴾ بصيغة الجمع؛ لأنَّ التَّعبير بالمصدر أبلغ، ولأنَّه يشمل المفردَ والمثنَّى والجمع والمذكَّرَ والمؤنَّثَ، وقد "وُصِفُوا بالمصدر مبالغةً، كأنَّهم عينُ النَّجاسة، أو همُ ذَوو نجسٍ لخُبث باطنِهم، أو لأنَّ معهم الشِّركَ الذي هو بمنزلة النَّجَس، أو لأنَّهم لا يتطهَّرون ولا يغتسلون، ولا يجتنبونَ النَّجاساتِ"[1].

بَلاغَةُ التَّعبير بينَ الحقيقة والمَجاز:

الشِّركُ نجسٌ كلُّه، لا فرقَ فيه بينَ ظاهرٍ وباطنٍ

في قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، ذهب بعضُ العلماء، إلى أنَّ النَّجاسَةَ نجاسَةٌ معنَويَّةٌ، وليسَتْ حسيَّةً، بقَرينَةِ تعليقِ هذا الوصْفِ بهم بوصْفِ الشِّرْكِ[2]، وفي هذا مجازٌ بالاستِعارَةِ؛ حيثُ شُبِّهَ خُبْثُ الباطِنِ وفسادُ الاعْتِقاد، بالنَّجاساتِ القَذِرَة، بجامِع الفسادِ وعدَمِ الصَّلاحِ في كلٍّ، فيكون هذا استعارَةً تصريحيَّةً أصليَّةً، إذا كان لفظُ النَّجَسِ مصدَرًا، أو تبعَيَّةً إذا كان صفةً مشبَّهَةً[3]، وجوَّزَ بعضُ أهلِ العِلْمِ أن تَكونَ النَّجاسَةُ حقيقيَّةً، وذلك لكونِهم لا يتطَّهرونَ، ولا يجتَنِبونَ النَّجاساتِ، فكانَتِ النَّجاساتُ ملابِسَةً لهم[4]، ولهذا نهى اللّهُ ﷻ المؤمنينَ عن نكاح المشركات، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ﴾ [البقرة: 221]، وعن إنكاح المُشركين في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ﴾ [البقرة: 221]، كما نهى عن تناول طعامهم.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/159.
(3) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/374.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/269.

براعَةُ التَّصْويرِ في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾:

براعَةُ تَصْويرِ القُرْآنِ الكَريمِ لِلْمَعاني، مِن أرفعِ التَّصوير

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، تصْويرٌ بديعٌ، حيثُ جُعِلَ المُشْرِكونَ كأنَّهم بأرْواحِهم وماهيَّاتِهم، نَجَسٌ يمْشي على الأرضِ، فيتجنَّبُهُ المتطَهِّرونَ ويتَحاشَوْنَهُ[1]، والعلماءُ في نجاسة المشرك على مذهبين؛ الأوَّل: أنَّ المشرك نَجِسُ الذَّات، كما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما، والحسن البَصريِّ رحمه اللّه، وذهب إليه بعض الظَّاهرية والزَّيديَّة، وقد استدلُّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. والثَّاني: وهو قول الجمهور مِنَ السَّلف والخَلَف، ومنهم أبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ بنُ حنبل، إلى أنَّ الكافر غيرُ نَجِس الذَّات، ودليلُهم على ذلك: أنَّ اللّه تعالى أحلَّ للمؤمنين أكل طعامهم، في قوله: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: 5]، وثبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ ما يفيد عدمَ نجاسة ذواتِهم، حيث إنَّه أكلَ في آنيتهم، وشَربَ منها، وتوضَّأ فيها، وأنزلهم في مسجده، وما وَجَدَ في ذلك حرجًا[2].

دلالَةُ الخَبَرِ في الآية:

تَحْقيرُ المُشْرِكينَ وَإِهانَتُهُمْ، بِإِبْعادِهِمْ عَن مَجامِعِ الخَيْرِ

قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ جُمْلَةٌ خبريَّةٌ، يُرادُ بها مَعَ الإعلامِ بمَضْمونِها، تحقيرُ المُشْرِكينَ وإهانَتُهُم، بإبْعادِهِم وإقصائِهِم عَن مَجامِعِ الخَيْرِ، وذلكَ لأنَّ خُبْثَ الاعتِقادِ، أَقْرَبُ لِتَحْقير صاحبِها مِن قَذارةِ الذَّاتِ[3]، ويُذْكَر أنَّ "النَّبيَّ ﷺ أَمَرَ أبا بكر رضي الله عنه، إذ أَمَّرَهُ على الحَجِّ سنةَ تسع، أن يُبَلِّغ النَّاسَ أنَّه لا يَحُجُّ بعدَ ذلك العام مُشْرِكٌ، ثمَّ أَمَر عليًّا رضي الله عنه أن يَتْبَعَ أبا بكر، فيقرأَ على النَّاس أوائلَ سورةِ براءَة، يومَ الحَجِّ الأكبر، وأن يُنادِيَ بألَّا

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير البسيط: 6/244.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/399.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.

يَحجَّ بعدَ ذلك العامِ مشركٌ، وقد كانت هذه الآيةُ أبلغَ مِن مَنْعِ المشركين مِنَ الحَجِّ"[1].

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿نَجَسٞ﴾، دون: (يَتَنَجَّسونَ):

الشِّركُ نجسٌ، يخوض في وَحْله سفهاءُ العقائد والعقول

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾، نجد أنَّ التَّعبير آثرَ لفظ ﴿نَجَسٞ﴾، دونَ (يتنجَّسونَ) أو (ينْجَسونَ)؛ لأجل عقيدة إشراكه، فالنَّجَس وَصْفٌ لازم له، بملازمة الشِّرك له؛ فلا ينفكُّ عنه إلَّا بزوال الشِّرك، أمَّا الفعل: (ينْجَسون) أو (يتَنَجَّسونَ)، فلا يؤدِّي هذا المعنى؛ لأنَّه قد يكون جسُده نظيفًا لا يُسْتَقْذر، وقد يكون على غير ذلك، بأن يكون جسدُهُ مُلطَّخًا بالنَّجاسات، فهذا يناسبه الفعليَّة؛ لأنَّه أوقع النَّجاسةَ على نفسه، أو اكتسبها مِن خلال عوائدِهم وبيئتِهم.

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ﴾، دون: (فَلا يَدْخُلوا):

تدقيقُ استعمال اللَّفظ في السِّياق، يَعكِس سُموَّ الإعجازِ البيانيِّ

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾، آثر سياقُها التَّعبير بالنَّهي عنِ القُرب دون الدُّخول؛ لأنَّه أبلغ، فلو جاء التَّعبير بالنَّهي عنِ الدُّخول، لكان مقصورًا على أمر الدُّخول فقط للمسجد الحرام، وهذا غيرُ مُراد، بل المرادُ ألَّا يَحُجُّوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهليَّة، وبعضُ شعائرِ الحجِّ ليست داخلةً في المسجد الحرام، بل هي خارجة عنه؛ كالوقوف بعرفة، والمبيتِ بالمزدلفة، ورمي الجمرات، ونحو ذلك، ولهذا فتعبيرُ القرآنِ بالنَّهي عنِ القُرب هو الأبلغ، وفيه دلالة على أنَّه يجب تطهيرُ ما حولَ المسجدِ مِن مظاهر الشِّرك، فضلًا عنِ المشركين.

دلالَةُ (الفاءِ) في قولِه: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ﴾:

الشِّرْكُ باللهِ تعالى سَبَبُ إبْعادِ المشركين عنِ المَسْجِدِ الحَرامِ

الفاءُ في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ تَفْريعيَّةٌ؛ لترتيبِ ما بَعْدَها على ما قَبْلَها، فقدْ فُرِّعَ على

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/240.

نجاسَتِهم النَّهْيُ عَن قُرْبانِ المَسْجِدِ الحرام، والمعنى: إذا كانوا نَجَسًا بسَبَبِ شِرْكِهم؛ فلا يَنْبَغي لهم دخولُ المَسْجِدِ الحرام(1).

دلالَةُ النَّهْيِ في قولِه: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ﴾:

المُبالَغَةُ في مَنْعِ المُشْرِكينَ مِن قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرامِ

(لا) في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾ ناهيَةٌ؛ بدَليلِ جَزْمِ المُضارعِ بَعْدَها، والمرادُ بالنَّهي: المبالغةُ، أو المنعُ مِن دخول الحَرم، أو النَّهي عنِ الدُّخول مطلَقًا، أو المنعُ عنِ الحَجِّ والعُمرة(2).

نُكْتَةُ إخراجِ صورة النَّهي للمسلمين في صورة نَهيِ المشركين:

تلوينُ الأساليبِ في الخطابِ القرآنيِّ يُؤكِّد إعجازَه وتَفَرُّدَه

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، هذا النَّهْيُ الواردُ في هذه الآية الكريمة، ظاهرُهُ أنَّه للمُشْرِكينَ عن قُرْبِ المَسْجِدِ الحرام، إلَّا أنَّ هذا الظَّاهِرَ غيرُ مرادٍ، والمقصودُ: نَهْيُ المسلِمينَ عن تَمْكينِهم مِنْ ذلك، كما يَدلُّ عليه سياقُ الآيَة، فإنَّها قَدْ صُدِّرت بنداءِ المؤمنينَ، فقال سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، والغرضُ مِن هذا النِّداء، المبالغَةُ في النَّهي، بأن يَمْنَعوهُمْ مَنْعًا باتًّا قاطِعًا، ووجهُ ذلك: أنَّهُمْ جُعِلوا مُكلَّفينَ، بانْكِفافِ المُشْرِكينَ عَنْ قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرام، فهو مِن بابِ قولِ العَرَبِ: (لا أرَيَنَّكَ هُنا)(3).

النَّهْيُ عَن قُرْبِ المَسْجِدِ الحَرامِ بَيْنَ الحَقيقَةِ والمَجازِ:

نَهْيُ المُشْرِكينَ عن دُخولِ المَسْجِدِ الحَرامِ، هو نَهْيُ مُقارَبَتِهم له

قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، فيه النَّهْيُ عَن قُرْبِ المشْركينَ مِنَ المسجدِ الحرام، يجوزُ أن يُرادَ بهِ حقيقتُهُ، وإنَّما جاءَ النَّهْيُ عَنِ المقاربَةِ خوفًا مِنَ المواقعَة، كالذي في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/269، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3273.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/376، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160 - 161، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3273.

[الإسراء: 32]، ويجوزُ أن يكونَ النَّهيُ عَن قُرْبِ المَسْجِدِ الحرام مُرادًا بِهِ النَّهيُ عَنِ الحجِّ والاعتمارِ، فمَعْنَى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾، أي: لا يَحُجُّوا ولا يعتمِروا، وعلى هذا: يكونُ في الآيةِ مجازٌ مُرْسَلٌ علاقتُهُ الملزوميَّةُ، فقد أُطْلِقَ المَلْزومُ وأُريد لازِمُهُ(1)، والأوَّلُ أَظْهَرُ؛ لأنَّه الأَنْسَبُ لِمَقامِ تَحْقيرِهِم، والأَنْسَبُ لِبَيانِ مكانَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ.

دلالَةُ الوَصْفِ فِي الآية:

بَيانُ عَظَمَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ، وخصوصيَّتِهِ عندَ العظيم العلَّام

وُصِفَ المسجدُ بـ ﴿ٱلۡحَرَامَ﴾، في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾؛ لإرادَةِ تَبْيينِهِ وتَمْييزِهِ عن غيرِه؛ إذِ الحُكْمُ بالنَّهْيِ ليس عن قُرْبِ المساجِدِ كُلِّها، بَلْ عن قُرْبانِ مَسْجِدٍ خاصٍّ، وهو مسْجِدُ الكَعْبَةِ، ويُضافُ إلى ذلك معنى المَدْحِ والتَّعظيم، فلا يَنْبَغي أن يَقْرَبَ هؤلاءِ الأَنْجاسُ هذا المَسْجِدَ العظيمَ القَدْرِ، الجَليلَ المكانَةِ، وإن كان بعضُ العلماءِ ذهب إلى مَنْعِهم من كلِّ المساجد، ولكنَّه خِلافُ الأولى؛ لأنَّ الرَّسول ﷺ، لَقِيَ وَفدَ نَصارَى نَجْرانَ في المسجد، وهم على شِرْكهم.

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾:

الكعبة المشرَّفة هي البيتُ الحَرام، والمسجد الحَرام ما يُحيط بالكَعْبَة

في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾، آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بقوله: ﴿ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾، دونَ: (البيت الحرام)، مع استعماله للبيت الحرام في قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: 2]، وفي قوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]؛ لأنَّ المسجد الحرام أعمُّ في الاستعمال مِنَ البيت الحرام؛ فالبيتُ الحرام يُطلق على الكعبة المشرَّفة، بما فيها مِنَ الحِجْرِ الشَّريف؛ بخلاف المسجد الحرام، فإنَّه يُطلق على المكان المحيط بها، مِن كلِّ الجهات، بل ويجوز إطلاقُه على كلِّ حدود الحَرم، والدَّليل على ذلك أنَّ موضع التِّجارات ليس في

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/261.

داخل المسجد، فلو كان المقصودُ المنعَ مِنَ المسجد خاصَّةً لما خافوا بسبب هذا المنع مِنَ العَيْلَة، وإنَّما يخافون مِن وقوع العَيْلة إذا مُنِعوا مِن حضور الأسواق والمواسم، وهذا يدلُّ على أنَّ المسجد الحَرام أوسع نطاقًا مِنَ البيت الحَرام، وممَّا يُؤكِّد ذلك توسعتُه بهذه المساحات الكبيرة؛ فالمسجدُ الحَرام أعمُّ مِنَ البيت الحَرام، وهذا هو المناسبُ لسياق الآية، في نَهْي قُربان المشركين عنِ المسجد الحَرام، في كلِّ معالمه وشعائِره.

نُكْتَةُ حَذْفِ حَرْفِ الجَرِّ:

الـمَـنْـعُ مِـن قُـرْبِ المُشْرِكينَ المَسْجِدَ الحَرامَ، يستغرق جَميعَ الزَّمن بإطلاق

حُذِفَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) مِن قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (فلا يقرَبوا المَسْجِدَ الحرامَ مِنْ بَعْدِ عامِهِم هذا)؛ لئلَّا يُخَصَّ بزَمانٍ مُعيَّنٍ، فإسْقاطُ الجارِّ يَقْتَضي اسْتِغْراقَ الزَّمانِ[1]، وفيه إشارةٌ إلى تحديد المدَّة، بمعنى أنَّه بعد انقضائها لا يجوز للمشركين أن يقتربوا مِنَ المسجد الحرام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بلفظ (عام) دونَ لفظ (سنة):

أهـمـيَّـةُ دِقَّـةِ البَيانِ القُرْآنيِّ، في اخـتـيـارِ الألْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

جاءَ التَّعبيرُ بالعام دونَ السَّنَة، في قول اللّه ﷻ: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، تَنْبيهًا لهم على حُسْنِ الزَّمانِ، واتِّساعِ الخَيْرِ؛ إذْ لَفْظُ العام مُشْعِرٌ بالخَيْرِ ورَغْدِ العَيْش، بخلافِ لَفْظِ السَّنَةِ[2]، وعبَّر بالعام دونَ السَّنة؛ لأنَّ المراد به موسمُ الحجِّ؛ فأُمْهِلوا إلى بقيَّة العام؛ لأنَّ نهايته بانسلاخ ذي الحِجَّة؛ لأنَّ هذه الآية نزلت في العام التَّاسع مِنَ الهجرة، والمشركون قد حضروا موسمَ الحَجِّ فيه، وأُعْلِنَ لهم فيه أنَّهم لا يعودون إلى الحَجِّ بعد ذلك العام؛ لذلك كان التَّعبير بالعام هو المناسب لهذا المعنى.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429.

دلالَةُ إضافَةِ لفظ (عام) إلى الضَّمير العائد على (المشركين):

الحُكْمُ القطعيُّ منذ ذلك العامِ، بمنع المشركين من دخول المسجد الحَرام

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، أُضِيفَ العامُ إلى الضَّمير الرَّاجِعِ إلى المُشْرِكِينَ، لِمَزيدِ اختصاصِهِمْ بِحُكمٍ عظيمٍ هائلٍ في ذلك العامِ، وهو إبعادُهم عَنِ المَسْجِدِ الحَرامِ وإقصاؤُهُم عنه[1]، ودلَّت هذه الإضافةُ على أنَّ الزَّمن كان قبل ذلك للمشركين، وهذا الإعلان مرحلةٌ فاصلة بانتهاء عهد الشِّرك في مكَّة ؛ فلم يَعُد لهم بعدَ هذا العام تَعلُّقٌ بموسم الحَجِّ، وأصبح التَّاريخ بعد ذلك للمسلمين، وفيه دلالة على سماحة الإسلام، في تعامله معَ المشركين بإعطائهم فرصة، وإلَّا كان مِنَ الممكن أن يُنَفَّذَ النَّهيُ في نفس العام، وقد يُعْقِب ذلك إراقةٌ للدِّماء، وانتهاكٌ لحُرمة المكان، وهذا ما لا يريدُه الإسلامُ.

دلالَةُ اسْمِ الإشارَةِ (هَذا):

الأحْكامُ العَظيمَةُ تَحتاجُ مَزيدَ بَيانٍ، لِتَحْقيقِ الأَمْرِ وَإزالَةِ اللَّبْسِ

اسْمُ الإشارَةِ (هذا) من قول اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ﴾، في محَلِّ جَرٍّ، عَطْفُ بَيانٍ لِـ (عام)، أو بَدَلٌ مِنْهُ، ونُكْتَةُ إيرادِهِ زيادَةُ تمييزِهِ وبيانِهِ، وَتحقيقُ الأَمْرِ وإزالَةُ اللَّبْسِ[2]، وكأنَّه صار مرحلةً جديدةً في الزَّمن، يَتميَّز فيها عنِ الزَّمن السَّابق.

دلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ (إنْ) دونَ (إذا):

الجَزمُ بِأنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللهِ تعالى، يُنافي الخَوْفَ مِنَ الفقر

عُلِّقَ الشَّرْطُ في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ بـ (إنْ) الدَّالَّةِ على الشَّكِّ في وقوعِ مَدْخولِها، دونَ (إذا) المُقْتَضِيَةِ تحقُّقَ وقوعِ الشَّرطِ، مع أنَّ خَوْفَهُمُ العَيْلَةَ أمرٌ كانَ حاصِلًا؛ للإشْعارِ إلى أنَّ هذا الخَوْفَ لا يَنْبَغي أنْ يقعَ مِنْ أهلِ الإيمانِ؛ لِيَقينِهِم بأنَّ الرِّزْقَ مِنَ اللّهِ سبحانَه وَحْدَهُ، ولا يَصِحُّ أن يُرادَ بِها مَعْنَى (إذْ)، على أنَّ المقصودَ: وإذْ خِفْتُمْ عَيْلَةً، لِعَدَمِ وُرودِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/429، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/160.

هذا المعنى في لسان العرب، حتَّى إنَّ ابنَ عطيَّة قال عَمَّن زَعَمَ فيها هذا المعنى: "وهذه عُجْمَةٌ، والمعنى بارِعٌ بِـ (إِنْ)"(1).

سرُّ التَّعبير بالخوف:

لا يُغلَق بابُ الله، إذا بخلَ بالعطاء سواه

آثر السِّياقُ التَّعبير بالخوف، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ دون غيره؛ لأنَّ الخوفَ تَوَقُّعُ المكروهِ في المستقبل، وذلك مِن خلال مَنْعِ المشركين الذين يَفِدون إلى موسم الحَجِّ للتِّجارة، وهذا يُؤدِّي إلى الكساد وعدم تبادلِ المنافعِ بينَهم وبينَ المسلمين؛ فَراعَى القرآنُ الكريم الجانبَ النَّفْسيَّ عند المؤمنين بهذا التَّعبير؛ ليُطَمْئِنَ قلوبَهم بأنَّ اللّٰه ﷻ يعلم ما يختلج في صدورهم، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فقرًا وحاجةً مِن منع المشركين مِن قُربان المسجد الحَرام، بأن تنقَطِعَ الأسبابُ الّتي بينَكم وبينَهم مِنَ الأُمور الدُّنيَويَّة، فاعلموا أنَّ اللّٰه سوف يُغنيكم مِنْ فَضْلِهِ الواسع، ويرزقُكُم مِن عطائه الذي لا ينقضي(2).

دلالةُ التَّعبير بالجَمْع:

التَّذكيرُ الجماعيُّ للأُمَّة يُصَوِّبُ النَّهْجَ، ويُصَحِّحُ العقيدةَ

دلَّ التَّعبيرُ بالجَمْع، في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾، على أنَّ أهل مكَّة أصبحوا جميعًا مسلمين، ولا مكانَ للشِّرك فيها، وأنَّ النَّهيَ مُوجَّهٌ فيها للقبائل الّتي كانت تَفِد إلى الحَجِّ، وما يحملونه مِنَ التِّجارات والمنافع، "قال ابن عبَّاس: كان المشركون يَجيئون إلى البيت، ويَجيئون معهم بالطَّعام، يتَّجِرون فيه، فلمَّا نُهُوا أن يأتوا البيتَ، قال المسلمون: فمن أينَ لنا الطَّعام؟ فأنزل اللّٰه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾الآيةَ، قال: فأنزل اللّٰهُ عليهم المطرَ، وكَثُر خيرُهم حين ذهبَ المشركون عنهم، وأسلمَ أهلُ اليمن، وجاءَهم النَّاس مِن كُلِّ فَجٍّ"(3).

دلالة التَّعبير بالماضي:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، عُبِّر بالماضي الذي يُفيد

(1) ابن عطيّة، المحَرّر الوجيز: 3/21.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/21، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 2/654.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/89.

لا خوفَ مِن تأخُّرِ الأرزاقِ، فاللهُ هو الضَّامِنُ الرَّزَّاقُ

تَحقُّقَ الوقوعِ؛ لأنَّ المؤمنين خافوا بانقطاع المشركين عن دخول الحَرم، انقطاعَ تجارتِهم، وقالوا: مِن أينَ لنا الإتيانُ بالطَّعام؟ فكان التَّعبير بالماضي مخبرًا بالخاطر النَّفسيِّ وإن لم ينطقوا به، وهو أيضًا إخبارٌ بخبايا الأنفس، وهواجسِ الأوهام، والخوفِ مِنَ الزَّمان وتقلُّباته وأحواله.

سِرُّ التَّعبير بلفظ (العَيْلَة) دونَ لفظ (الفقر):

انتقاءُ المفردَةِ الأكثرِ ملاءَمَةً للمعنى، مِن بيانِ القرآنِ الأسمى

قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾، آثَر السِّياق فيه التَّعبيرَ بـ (العَيْلَة) دون (الفقر)، وإن كان بينهما اشتراكٌ في المعنى؛ لأنَّ العَيْلَة أخصُّ مِنَ الفقر؛ فيُقال: عال الرَّجل، إذا افتقر، يقال: يَعيل عَيْلَةً، فهو عائل؛ فكأنَّ الحاجةَ هنا جاءت مِن كثرة ما يَعيل، وأيضًا أنّه يأتي بمعنى فقدان القُدْرة على الإنفاق، بخلاف الفقر، فمعانيه متعدِّدَةٌ؛ فيُطلق على عدم المقتنيات، وعلى فَقْر النَّفس، وعلى عدم وجود الحاجة الضَّروريَّة، وإلى الافتقار إلى الله ﷻ، كما في قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤﴾ [القصص: 24]، وهذه المعاني لا تتأتَّى معَ العَيْلَة.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿عَيْلَةً﴾:

قَصْدُ تَعْظِيمِ العَيْلَةِ؛ تَهوينًا لِشَأْنِ ما دُونَها

نُكِّرت كلمَةُ ﴿عَيْلَةً﴾ في قول اللهِ ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لقصدِ التَّعظيم، أي: وإن خِفْتُم عَيْلَةً عظيمةً، فسَوْفَ يُغْنيكُمُ اللهُ تعالى مِنْ فضْلِه، فكَيْفَ إذا كانَتِ العَيْلَةُ المَخوفَةُ دونَ ذلكَ؟! وفيه دلالة على العموم في أمر العَيْلَة، قليلةً كانت أو كثيرةً، كانت بسبب وُفُود المشركين للحَجِّ، أو بسبب فقدانِكُم لكَسْب المال بمنعهم مِن ورود المسجد الحَرام؛ فاللّهُ يُغْنيكم مِن فضله.

سِرُّ اقْتِرانِ الجَوابِ بِلفظ: (فَسَوْفَ):

اقْتِلاعُ الخَوْفِ مِنْ قُلُوبِ المُؤْمِنينَ، مِن رَأْفَةِ الله بهم

جوابُ الشَّرطِ في قول اللهِ سبحانَه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾، جملَةٌ خبَريَّةٌ، اقْتَرَنَتْ بحَرْفِ الاستقبالِ ﴿فَسَوْفَ﴾،

وهو دالٌّ على تأكيدِ وُقوعِ مَضمونِ الخَبَرِ في المُستَقْبَلِ[1]، وهو إغْناءُ اللّهِ تعالى إيّاهُمْ مِنْ فضْلِه، ونُكْتَةُ التَّأكيدِ: اقْتِلاعُ الخَوْفِ الذي ألقاهُ الشَّيطانُ في قلوبِهِمْ، مِنْ أَصْلِه.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ دون (السِّين):

وعد الله بالتّكفّل بالإغناء من فضله، يسع الزّمان كلّه

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، آثر السّياق التّعبير بلفظ (سوف) دون(السّين)، وإن كانت للقرب ؛ لأنّ قوله: ﴿فَسَوْفَ﴾ تدلّ على وجود زمن يمرّ ولكنّه زمن قريب؛ لأنّ الإغناء الّذى سيأتى، له أسباب كثيرة، كفيلة بتحقيقه، كأن يعوّضهم اللّه عمّا كان يأتي به الكفّار، من نزول الماء من السّماء، فينبت به النّبات، وهذا يحتاج إلى زمن، أو أن تحمل إليهم التّجارات من بعض القبائل الّتي أسلمت وحملتها إلى مكّة، وحدثت بعد ذلك الفتوحات الإسلاميّة، فكان التّعبير بقوله: ﴿فَسَوْفَ﴾، للدّلالة على امتداد زمن العطاء.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾ دون (يَكْفِيكُمْ):

الغنى مِن فضل اللّه مَديدٌ، واللهُ هو الغنيُّ الحميد

في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾، آثَر التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾ دون (يَكْفِيكُمْ)؛ لأنَّ الغنى يُقال على ضروب مُتعدِّدة؛ أحدها: عدمُ الحاجات، وليس ذلك إلَّا للّه تعالى، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15]، الثّاني: قِلَّةُ الحاجات، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ٨﴾ [الضّحى: 8]، الثّالث: كَثْرَةُ المقتنياتِ بسبب ضروب النَّاس، قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [النّساء: 6]، وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273]، أي: لهم غنى النَّفس، أمَّا الكفاية: فتُطلَق على ما فيه سَدُّ الخَلَّة، وبلوغُ المرادِ في

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3274.

الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: 25]، والكُفْيَةُ مِنَ القُوت: ما فيه كفايةٌ[1]، ومِن خلال هذه المعاني يتَّضِحُ أنَّ لفظ الغنى أعمُّ، والكفايةِ أخصُّ؛ لذلك آثرَ القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالغنى في قوله تعالى: ﴿يُغْنِيكُمُ﴾، لما يحملُه من هذه المعاني الّتي تُطَمْئِنُ نفوسَ المؤمنين؛ وهذا ما حدث لهم، حيثُ أرسل اللّهُ السَّماء عليهم مدرارًا، وفتحَ أبوابَ العطاءِ، وَوَفَّق أهلَ نَجْدٍ وتَبَالةَ[2] وجُرَشٍ[3]، فأسلموا وحملوا إليهم الطَّعامَ، وما يحتاجون إليه في معاشهم[4].

دلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ (الله) بِالْعَلَمِيَّةِ:

إغْناءُ اللهِ تعالى لِعِبادِهِ عَظيمٌ، لا يَطَالُهم مِن بَعْدِه الفَقْرَ الفقرُ الذَّميم

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّةِ، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ هذا الإغْناءِ وفخامَتِه، فهوَ إغناءٌ لا فَقْرَ ولا عَيْلَةَ بَعْدَهُ؛ إذْ هوُ إِغْناءٌ مِنْ عند ذي الجلالِ والإكْرام[5]؛ مَن لَهُ صفاتُ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ، والصَّادِرُ مِنَ العَظيمِ عظيمٌ.

دلالَةُ (مِنْ) في قوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾:

أَثَرُ مَعاني الحُروفِ في بَيانِ الدَّقائِقِ القُرْآنيَّةِ

يُحْتَمَلُ في (مِنْ) في قولِ اللّه سبحانَه: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾ ثلاثَةُ أَوْجُهٍ[6]؛ أحدُها: أن تكون ابتدائيَّةً. ثانيها: أن تكون تبعيضيَّةً، وهذانِ المَعْنيانِ يَتأتَّيانِ إذا حُمِلَ الفَضْلُ في قوله ﷻ: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، على معنى العَطاءِ، والمعنى: يُغْنيكُمُ اللّهُ سبحانه غناءً مِنْ جُملَةِ ما عِنْدَهُ مِنَ العطاءِ الكثيرِ، أو أنَّ هذا الإغْناءَ مُبتدَأٌ وصادِرٌ مِنْ عِنْدِهِ سبحانَه. ثالثُها: أن تكون سَبَبيَّةً، إذا حُمِلَ الفضْلُ

(1) لرَّاغب، المفردات: (غنى، كفي).
(2) موضع ببلاد اليمن. يُنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان: 2/9.
(3) من مخاليف اليمن من جهة مكَّة، وهي في الإقليم الأوَّل، وقيل: إنَّ جُرَش مدينة عظيمة باليمن وولاية واسعة. ياقوت الحموي، معجم البلدان: 2/126.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/77.
(5) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/270.

في قوله تعالى: ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ على معنى التَّفضُّل، والمرادُ: يُغْنِيكُمُ اللّهُ سبحانَه بسبَبِ تفضُّلِه عليكم بوجهٍ آخرَ مِنْ أَوْجُهِ الرِّزْقِ، وهذهِ المعاني متكامِلَةٌ غيرُ مُتَنافيَةٍ، فيجوزُ أن تُحمَلَ الآيَةُ عليها جميعًا، مِنْ بابِ حَمْلِ اللَّفْظِ على جَميعِ مَعانيه التي دلَّ عليها.

سِرُّ التَّعبير بالفضل:

فضلُ الله عطاءٌ ومَـدَدٌ، ينالُه صاحبُه وإن طال الأَمَد

أُوثِر التَّعبيرُ بالفضل في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾؛ لأنَّه يحمل معنى العطاء، ويأتي بمعنى الإحسان بلا عِوض؛ وفي هذا تكريمٌ للمؤمنين، وإعلانٌ بسعة العطاء؛ حتَّى تندحر وساوسُ الشَّيطان مِن نفوسهم. وفضلُه تعالى له أشكال مِنَ العطاء اللَّامحدود، وهو رزقٌ بالأسباب، أو رزقٌ مِن حيثُ لم يحتسبوا، والواقع أنَّهم لـمَّا خافوا انقطاعَ الرِّزق بمنع المشركين مِن دخول الحَرم، طمأنَهم على مصيرهم، "فوعدهم اللّهُ بأنْ يغنيَهم مِن فضله، قال الضَّحَّاكُ: ففتح عليهم بابَ أَخْذِ الجزية مِن أهل الذِّمَّة، وقال عِكْرِمَةُ: أغناهم بإدرار المطر عليهم، قال القاضي أبو محمَّد: وأسلمتِ العربُ فتمادى حَجُّهم وتَجْرُهم، وأغنى اللّهُ مِن فضله بالجهاد والظُّهور على الأمم"[1].

دلالَةُ الإضافةِ:

اخْتِصاصُ رِزْقِ العِبادِ بالله سبحانَه، ضمانٌ للرِّزق مَدى الحياة

أُضيفَ الفَضْلُ إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّهِ ﷻ، في قوله سبحانَه: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾؛ لِلْإشْعارِ بأنَّ مَن أَلْقَى هذهِ الشُّبْهَةَ، وهذا التَّشْكيكَ والخَوْفَ في قلوبِكُمْ لا يَرْزُقُكُم، وإنَّما الرَّزَّاقُ هو اللّهُ سبحانَه؛ يَرزُقُ العبادَ مِن فضْلِه وعَطائِه وإحسانِه[2]، والرِّزقُ مسطور في القَدَر، قال الشَّاعر[3]:

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/21.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3274.
(3) البيت منسوب للإمام الشَّافعيّ، ينظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم: 3/371.

لا تَعْجَلَنَّ فَلَيْسَ الرِّزْقُ بِالعَجَلِ *** الرِّزْقُ في اللَّوْحِ مَكْتوبٌ مَعَ الأَجَلِ
فلَوْ صَبَرْنا لَكانَ الرِّزْقُ يَطْلُبُنا *** لَكِنَّهُ خُلِقَ الإِنْسانُ مِنْ عَجَلِ

دلالَةُ الجملة الخَبَرِيّة:

إزالَـةُ الـخَـوْفِ وإحْـلالُ الطُّمَأْنينَةِ على قُلوبِ العِبادِ، من رحمة الله عليهم

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، جملةٌ خَبَرِيَّةٌ، يُرادُ بها إعلامُ المخاطَبِ بما تضمَّنَتْهُ هذه الجملَةُ مِنَ الغَيْبِ المستقبَلِ على جِهَةِ الجَزْمِ في أمرٍ عظيم، ويُرادُ بها أيضًا: إزالَةُ الخَوْفِ وإحلالُ الطُّمأنينَةِ على قلوبِ العِبادِ، فكانَتِ الجملَةُ جارِيَةً على مَعْناها الأَصْليِّ، مع ضميمَةِ مَعْنًى فَرْعيٍّ، فهي بالاعتبارِ الثَّاني مجازٌ مرسَلٌ مركَّبٌ، وقد وقع الأمرُ مطابقًا للخَبَرِ، فكان ذلكَ مِنَ الإعْجازِ(1).

نُكْتَةُ تَعْليقِ الإِغْناءِ بِالْمَشيئَةِ:

تَعْليمُ العِبادِ رِعـايَـةَ الأَدَبِ، وأن يـتَّـقـوا ويُـجْـمِـلـوا في الطَّلب

عُلِّقَ إغناءُ اللهِ ﷻ إيَّاهُمْ على مشيئَتِه، فقال سبحانَه: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، مع أنَّ تعليقَ ذلِكَ على المشيئَةِ قد يَمْنَعُ مِن إفادَةِ غرضِ الخبَرِ، وهو إزالةُ الخَوْفِ مِنَ الافْتِقارِ، وفي ذلك نِكاتٌ(2): أَوَّلُها: التَّنْبيهُ على أنَّ ذلكَ محضُ تفضُّلٍ منه سبحانَه على عبادِهِ الـمُؤمِنينَ. وثانيها: لأجلِ أَنْ يقطَعوا النَّظَرَ عن غيرِ اللهِ تعالى، وتَنْقَطِعَ الآمالُ إلى اللهِ ﷻ، فيكون العبدُ دائِمَ التَّضرُّعِ إلى اللهِ سبحانَه في طلب الخَيْراتِ ودَفْعِ الشُّرورِ والآفاتِ. وثالثُها: الإيماءُ إلى أنَّ هذا الإغناءَ، ليس مُطَّرِدًا بحسَبِ الأفرادِ والأحوالِ والأزمانِ. ورابعُها: تعليمُ العبادِ رعايَةَ الأدبِ مع اللهِ ﷻ، كالوارِدِ في قوله تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: 27].

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/23.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/23، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/57، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/270.

دلالَةُ إيجازِ الحَذْفِ:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، إيجازٌ بالحذْفِ، حيثُ حُذِفَ مَفْعولُ المشيئَةِ، والتَّقديرُ: فسوفَ يُغْنيكُمُ اللّهُ مِنْ فضلِه إن شاءَ إِغْناءَكُمْ؛ وإِنَّما حُذِفَ اكتفاءً بدلالَةِ صَدْرِ جُملَةِ الشَّرْطِ عليه.

طَيُّ الأَلْفاظِ الَّتي دَلَّتِ القَرائِنُ عليها، نوعٌ مِنَ الاقْتِصادِ في الكَلامِ

عِلَّةُ الفَصْلِ فِي الآيَة:

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لوقوعِه تَعْليلًا لإِظْهارِ عِلَّةِ ما قَبْلَهُ[1]، وذلك أنَّ الإِغْناءَ بَعْدَ انقطاعِ أسبابِهِ المألوفَةِ المادِّيَّةِ قد يكونُ مُسْتَبْعَدًا، فاحتيجَ إلى بيانِ العِلَّةِ زيادَةً في تَطْمين قُلوبِ العِبادِ.

عَظيمُ فَضْلِ اللهِ تعالى بِالنَّصِّ على العِلَّةِ؛ زيادَةٌ في تَطْمين قُلوبِ عِبادِهِ

سِرُّ تَأْكيدِ الجُمْلَةِ:

أُكِّدَتِ الجملَةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بـ (إِنَّ)، وأوردت اسميَّةً، وصُدِّرت بالاسم الأعظم (اللّه)؛ تقويَةً لوَعْدِ اللّهِ سبحانَه[2]، وترسيخًا لأَثَرِ هذينِ الاسمَيْنِ الحُسْنَيَنِ في قلوبِ العبادِ، وإزالَةً لِما قَدْ يعرِضُ في قلوبِهِم مِنَ الشَّكِّ والتَّرَدُّدِ في إِغناءِ اللّهِ تعالى إِيَّاهُم بعد انقطاعِ الأسبابِ الظَّاهِرَةِ.

تَرْسيخُ أَثَرِ اسْمَي اللهِ تعالى: (العَليم) و(الحَكيم) في قُلوبِ العِبادِ

نُكْتَةُ الإِظْهارِ في مَوْضِعِ الإِضْمارِ:

في قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، إظهارٌ في مَوْضِعِ الإِضْمارِ، وذلك أَنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (إِنَّهُ عليمٌ حكيمٌ)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسْمِ الأعظمِ (اللّه)، في قولِه: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾، والنُّكْتَةُ في ذلك: تعظيمُ شَأْنِ الوَصْفَيْنِ اللَّذَيْنِ دَلَّ عَلَيْهِما اسْما اللّهِ: العليمُ والحكيمُ؛ وهُما: العِلْمُ والحِكْمَةُ، فَفُخِّمَ حالُهُما وَقَدْرُهُما، بإسنادِهِما إلى صريحِ

تَفْخيمُ صِفَتَيِ العِلْمِ والحِكْمَةِ، ودلالَةُ وَصْفِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهما

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/433.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3274 - 3275.

الاسْمِ الأَعظم دونَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إليه، فَهُما وصْفانِ عظيمان؛ لصدورِهما ممَّن جمعَ صِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكمالِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَتَي المُبالَغَةِ:

اللهُ ﷻ واسِعُ العِلْمِ، وعظيمُ الحِكْمَةِ، وفي ذلك نفعُ البشر

في بِناءِ اسْمَي اللّهِ تعالى: (العَليم) وَ(الحكيم)، من قولِ اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، علَى أمثلَةِ المبالغَةِ، دِلالَةٌ على سعَةِ العِلْمِ وعِظَمِ الحِكْمَةِ وكثْرَتِهما، ومن رحمة اللّه بالعباد، أنَّه عليم بأحوالهم، وبما يصلح لهم، ومتصرِّف بحكمته في تسيير القدر، وفي العطاء والمنع لما يحتاجه البشر، وذلك محض اللُّطف بهم، وقد قيل: "من أناخ بعقوة[1] كرم مولاه، واستمطر سحابَ جُوده، أغناه عن كلِّ سبب، وكفاه كلَّ تعب، وقضى له كلَّ سُؤْلٍ وأرَب، وأعطاه من غير طلب"[2].

بَراعَةُ التَّذْييلِ:

سَعَةُ عِلْمِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ سبحانَه، يستوعبان العطاءاتِ والألطافَ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذْييلٌ جارٍ مجرَى المثَلِ؛ لاستِقْلالِهِ بالإفادَة، وعَدَمِ احتياجِهِ إلى ما قبلَه في فهمِ تمامِ المُرادِ منه، وفيه إشْعارٌ بِسَعَةِ عِلْمِ اللّهِ ﷻ ودَقيقِ حِكْمَتِهِ سبحانَه، فقولُهُ تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضَعُ الأُمورَ في مَواضِعِها اللَّائقَةِ بها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العامُ والسَّنَةُ:

العامُ والسَّنَةُ بِمَعْنًى مُتَقارِبٍ؛ إذْ كلاهُما دالٌّ علَى مُدَّةٍ مَخْصوصةٍ مِنَ الزَّمَنِ، تَسْتَغْرِقُ اثْنَيْ عشَرَ شهْرًا، إلَّا أنَّه يُغايَرُ بينَهُما في غَلَبَةِ الاسْتِعْمالِ، فالغالِبُ اسْتِعْمالُ السَّنَةِ في الحَوْلِ الذي فيه الجَدْبُ والشِّدَّةُ، ولِذا يُطْلَقُ على الجدْبِ: السَّنَةُ، كما

(1) العَقْوةُ والعَقَاةُ: السَّاحة وما حوْلَ الدَّارِ والمَحَلَّة. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (عقا).
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 6/3274 - 3275.

تُستخدم (السَّنَةُ) للتَّعبير عنِ الجَدْبِ والشِّدَّةِ، ويُستعمل (العام) للسَّعة والخِصب

قالَ اللهُ سبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، أي: بالقَحْطِ والجَدْب، والغالِبُ في لفظِ العامِ استعْمالُهُ في الرَّخاءِ والخَيْرِ والخِصْب[1]، ويَجْمَعُ ذِكْرَ العامِ والسَّنَةِ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ۝٤٧ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ۝٤٨ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: 47 - 49]، فعُبِّر بالسِّنينَ عن زَمَنِ الاجْتِهادِ في الزَّرْعِ، مَعَ عَدَمِ الاسْتِمْتاعِ الكامِلِ بما حُصِدَ منه، استِعْدادًا للأَزْمِنَةِ القادِمَةِ، ثُمَّ عُبِّر عنِ الأَزْمِنَةِ الشِّدادِ بالسِّنينَ أيضًا في قوله: ﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾، أي: سَبْعُ سِنينَ؛ لحذْفِ التَّاءِ في العَدَدِ، فذلكَ مُقْتَضٍ أنَّ مفرَدَ المعدودِ مؤنَّثٌ، وهو لفظُ سنَةٍ، ثُمَّ عُبِّر عنِ الزَّمَنِ الذي يكونُ فيه الفرَجُ بالعام، فقال سُبحانَهُ: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾، وقد اجتَمَعَ ذِكْرُ العامِ والسَّنَةِ أيضًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: 14]، فعُبِّر بلفظِ السَّنَةِ ذَمًّا لأيّامِ الكُفْرِ والتَّكذيبِ، وبلفظِ العامِ في الاسْتِثْناءِ إيماءً إلى أنَّ زمَنَ حَياةِ نوحٍ عليه السلام بَعْدَ إغْراقِهِمْ؛ كانَ عيشًا رَغيدًا واسِعًا حَسَنًا، بإيمانِ المُؤمنينَ، وخِصْبِ الأرضِ[2].

(1) الرَّاغب، المفردات: (عوم)، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/368، والهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 21/356.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 14/404.

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين أحكام المعاملة مع المشركين، والمعاملة مع أهل الكِتاب

مناسبةُ هذهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها، مِن وَجْهين؛ أحدُهُما: أنَّ اللّهَ ﷻ لـمَّا ذكر في الآيات السَّابقة حُكْمَ الـمُشْرِكينَ في المعاملَةِ بينَهُمْ وبينَ المسلمينَ؛ مِن إِظْهار البراءَةِ منهم، وإقصائِهم عنِ المَسْجِدِ الحَرام؛ أَعْقَبَهُ في هذه الآية ببيانِ حُكْمِ المعاملَةِ بينَ الـمُسْلمينَ وبينَ أهلِ الكِتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى؛ وهو: أن يُقاتَلوا إلى أَنْ يُعْطوا الجِزْيَةَ لأهلِ الإسْلام[1]. والآخَرُ: هو أنَّ اللّهَ ﷻ لـمَّا ذَكَرَ أنَّه يُغْني أهلَ الإسْلامِ مِنْ فضْلِه، وكان ذلك مَوْضِعَ تَعجُّبٍ؛ لِورودِه بَعْدَ ظنِّهِمُ انقطاعَ أسبابِ الإغْناءِ الحسِّيَّةِ؛ بيَّنَ أنَّ مِن جُملَةِ طُرُقِ إغْناءِ اللّهِ تعالى إيَّاهُمْ، ما يُحصِّلونَهُ مِنَ المغانمِ عِنْدَ قِتالِ الكَفَرَةِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَدِينُونَ﴾، ﴿دِينَ﴾: (الدَّالُ والياءُ والنُّون): تدورُ اشتقاقاتُها على معنى اللُّزوم، وتأتي في العربيَّةِ على أَوْجُهٍ تَرْجِعُ كلُّها إلى شيءٍ يَلْزَمُ الإنسانَ أو يَلْزَمُه الإنسانُ[3]، وأَرْجَعَ ابنُ فارسٍ هذهِ المادَّةَ إلى جِنْسٍ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ[4]، وهذا والذي قبلَهُ مُتَلازِمانِ، والدِّينُ: يقال للطَّاعةِ والجزاءِ، واستُعير للانقيادِ للشَّريعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، وأُطلق لفظُ الدِّين في القُرآنِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/162، والزُّحيليّ، التَّفسير المنير: 10/173.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434.
(3) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 217.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دين).

الكريمِ علَى أَوْجُهٍ، بلغَ بها ابنُ الجَوْزيِّ إلى أَحَدَ عَشَرَ وجْهًا[1]، وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: لا يَخْضَعونَ لِدينِ الحقِّ، ولا ينقادونَ له، ولا يُطيعونَ طاعَةَ أهلِ الإسْلامِ[2].

2) ﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾: (الجيم والزّاي والياءُ): تدلُّ تصْريفاتُها على معنى قيامِ شيءٍ مَقامَ غيرِهِ، ومكافأتِهِ إيَّاه[3]، ومنه قولُهم: جَزَى عنِّي هذا الأَمْرَ، أي: قَضاهُ[4]، ومنه: الجِزْيَةُ؛ وهي ما يُؤْخَذُ مِن أهلِ الذِّمَّةِ، وسُمّيَتْ بذلك لِلاجْتِزاءِ بِها عن حَقْنِ دِمائِهم، وإقامَتِهم بديارِ الإسْلامِ[5]، وقيل: "الجِزْيَة: ما يأخذُه الإمامُ مِن أهل الذِّمَّة في كلِّ عام، والجمع: جِزَى، بكسر الجيم. قال اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾"[6]، قال الرَّاغب: سُمِّيت بذلك، للاجتزاء بها عن حقن دمهم، وقال ابن الأثير: "الجزية عبارة عنِ المال الذي يَعْقِد الكتابيُّ عليه الذِّمَّة"[7].

3) ﴿صَٰغِرُونَ﴾: (الصَّادُ والغَيْنُ والرَّاءُ): تدورُ تصاريفُها على معنى القِلَّةِ والحقارَةِ، ومنه: الصِّغَرُ وهو خلافُ الكِبَرِ[8]، والصِّغَرُ قد يُطْلَقُ باعتبارِ الذَّاتِ، وتارةً باعتبار القَدْرِ والمكانَة[9]، فالأوَّلُ: صِغَرٌ حسِّيٌّ، والآخَرُ: مَعْنَويٌّ، ومِنَ المَعنويِّ: الصَّغارُ؛ وهو الذُّلُّ والهَوانُ[10]، يقال: قُمْ مِن غير صُغْرِك وصَغَرِك، وقُمْ غير صاغر، قال اللّه تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 124][11]، وقال سبحانَه: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، أي: أذِلّاءُ حَقيرونَ[12].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّنَتْ هذه الآيةُ أمرَ اللّه تعالى للمؤمنين بقوله: يا مَنْ آمَنَ باللّهِ سبحانه وصدَّقَ رسولَهُ

---

(1) ابنُ الجوزيّ، نُزهة الأعين النَّواظر، ص: 297 - 299.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/51، والواحديّ، التَّفسير الوسيط: 2/489.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جزي).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (جزي).
(5) الرَّاغب، المفردات: (جزي)، والعاصمي، حاشية الروض المربع: 4/302.
(6) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 2/1079.
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جزي).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صغر).
(9) الرَّاغب، المفردات: (صغر).
(10) ابن الأثير، النِّهاية: (صغر).
(11) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (صغر).
(12) أبو عبيدةَ، مجاز القرآن: 1/256، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صغر).

الأمرُ بالمنافحة عنِ الإيمان، ومواجهةِ أهلِ العُدْوان، أو معايشتِهم معَ دفعِ الجزيَة

ﷺ قاتلوا الذين لا يُؤمِنونَ باللّهِ تعالى، ولا يُصدِّقونَ بجنَّةٍ ولا بِنارٍ، ولا يَجْتَنِبونَ ما نَهَى اللّهُ ورسولُه عنه، ولا يَلْتَزِمونَ أحكامَ الإسلام، حتَّى يَدْفَعوا الجِزْيَةَ لِلْمُسْلِمينَ وهُم أذِلّاء مَقْهورونَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ في الآية:

المغانم مَوردٌ مشروعٌ للانتفاع والحيازة، بعد أن تَضَعَ الحربُ أوزارها

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ عمَّا قبلَه؛ لوقوعِهِ اسْتِئنافًا بيانيًّا، وذلك لأنَّ الإغناءَ لـمَّا كان مع انْقِطاعِ أسبابِهِ الظَّاهِرةِ موضعَ تعجُّبٍ؛ أورثَ سُؤالًا في نفوسِ المُخاطَبينَ، وهو: مِنْ أينَ يكونُ الغِنَى؟ فجاءَ الجَوابُ: بأنَّ من جُمْلَةِ ما يحصُلُ بهِ الإغْناءُ، ما يُحصِّلُهُ المُسْلِمونَ مِنَ الغَنائمِ عند مقاتَلَتِهِمُ الكُفَّارَ، فقال سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2]. وممَّا يُذْكَر في سبب الفصل: وقوعُ الجُمْلَةِ استِئْنافًا ابتدائيًّا، فلا يَكونُ ثَمَّتَ سُؤالٌ مُقدَّرٌ، فالكلامُ جاءَ انتقالًا من غرضِ نبذِ العَهْدِ مَع أَهْلِ الشِّرْكِ وأحْوالِ المُعامَلةِ بينَهُمْ وبينَ أهلِ الإسْلام، إلى غَرَضِ المعاملةِ بينَ أهلِ الإسْلامِ وبينَ أهلِ الكِتابِ[3].

دلالَةُ الأَمْرِ:

مواجهةُ مَن بَدَرَ منهم ما يُوجب القتالَ، حمايةً للدِّين والأُمَّة

﴿قَٰتِلُواْ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فعلُ أَمْرٍ، جارٍ على أصْلِهِ في الدّلالَةِ على الإلْزامِ والإيجابِ، وهو أَمْرٌ لأهلِ الإسْلامِ بقتالِ الكَفَرة، إن بَدَرَ منهم ما يُوجِب القتالَ، بنقضِ عَهْدٍ، أو إثارةِ العدو ومعاونته على المسلمين، حتَّى يُسْلِمُوا أو يعطوا الجزية. والمعنى: أنَّهم لا يؤمنون باللّه الإيمانَ الذي يعطي اللّهَ جلالَ الصِّفات وكمالَها، كما يختلف إيمانُهم باليوم الآخِر عنِ الإيمانِ الحَقِّ به؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/199 - 200، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/162.

لأنَّه إيمانٌ لا يتَّفق مع مُرادات اللّه تعالى[1]، ولذا نجدُهم يصادمون المسلمين، ويحاربون اللّهَ ورسولَه، ويسعون في الأرض فسادًا، والإسلام يُسَالِمُ مَن يُسَالمه، ويحمي مَن يحتمي به، ولكنَّه لا يتساهل معَ مَن يَكيد له كَيدًا، ويُعلن الحربَ عليه علانيَةً، ويريد أن يستأصِلَ شأفَتَه.

سرُّ التَّعبير بلفظ: (القتال) دونَ (الجهاد):

القتالُ ما كان حمايَةً للأُمّة، مِن كلِّ سَطْوٍ جائرٍ، أو فتنةٍ مُلِمَّة

في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالقتال دونَ الجهاد؛ لوجود فَرْق بينهما؛ فالجهاد والمجاهَدَة: استفراغُ الوُسْعِ في مُدافَعَة العَدُوِّ، وهو على أضرب: مجاهدةُ العَدوِّ الظَّاهر، ومجاهدةُ الشَّيطانِ، ومجاهدة النَّفس، وتدخل هذه الثَّلاثةُ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التَّوبة: 41]، والمجاهدة تكون باليد واللِّسان؛ أمَّا القتل فهو إزالة الرُّوح عنِ الجسد، فهو جزءٌ مِنَ الجهاد، وعلى هذا: فلفظُ الجهادِ أعمُّ والقتالِ أخصُّ، والمناسبُ هنا التَّعبير بالقتال؛ لحماية بيضَة الإسلام مِنَ العَدُوِّ الخارجيِّ الذي يُهَدِّد كيانَ الدَّولة المسلمة، وممَّا يُذْكَر في هذا المقام أنَّ لفظ الجهاد بمفهومه الشَّرعيِّ مِن مبتَكَرات القرآن الكريم، فلم تكن العربُ تعرفه بهذا المعنى.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالموصولِ وصِلَتِهِ:

قِتالُ الذين لا يؤمنون بالله ومجابهتهم؛ لِلإخْلالِ بِحَقِّ اللهِ، والاعتداءِ على عباده

جاءَ التَّعبيرُ بالموصولِ وصِلَتِهِ في قول اللّه سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ بيانًا للذَّنْبِ الذي أَوْجَبَ العقوبَةَ المذكورة، ولذا أَعقَبَهُ ببيانِ عَدَمِ إيمانِهم باليوم الآخرِ، تأكيدًا للذَّنْبِ في جانب الاعتِقادِ، ثُمَّ ذكرَ ذنبًا يتعلَّقُ بمخالفَةِ الأعمالِ في قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، ثُمَّ أشارَ إلى تأكيدِ عصيانِهِم بالانحرافِ والعِنادِ في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾[2]، فالتَّعبيرُ

---

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/5024.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/110.

بالاسْمِ الموصولِ قائمٌ مقامَ التَّعْليلِ للأَمْرِ بالعقوبَةِ، فكأنَّ المعنى: قاتِلوا هؤلاءِ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ باللّه ولا باليومِ الآخرِ، إلى آخر ما ذُكِرَ، وفي ذلك أيضًا إغراءٌ شديدٌ بقتالِهم وجِهادِهم؛ حيثُ أخلُّوا بأعْظَمِ الحقوقِ.

سِرُّ إيرادِ الصِّلَةِ فِعْلًا مُضارِعًا:

استمرارُ أَهْلِ الكُفْرِ في الغُلوِّ في اعْتِقاداتِهِمُ الزَّائغة، مَفْسَدَةٌ وضلالٌ

جيءَ بجُمْلَةِ الصِّلَةِ فعْلًا مضارعًا، في قول اللّه ﷻ: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾؛ للإيماءِ إلى اسْتِمرارِهِم في هذِهِ الطَّريقَةِ الفاسدَةِ والاعتقاداتِ الرَّديئَة، وأنَّهُمْ مُتوغِّلونَ في ذلك، غالونَ فيه، لا يَرْعَوونَ ولا يَرْتدِعونَ، وفيه دلالة على أنَّهم دُعُوا إلى الإيمان باللّه ورسوله واليوم الآخر ومع ذلك ما استجابوا، فكان التَّعبير بالمضارع دليلًا على توجيه الدَّعوة لهم بالإيمان، ولكنَّهم أَصرُّوا واستمرُّوا على عدم إيمانهم.

سِرُّ العُدولِ عن قولِه: (قاتِلوا الكُفّارَ)، إلى قولِه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

الدَّعوة بلِين القَول، تنفتح لها القلوبُ، ويكون أثرُها أمكنَ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بوصْفهم بعدم الإيمان، بدلًا من وَصْفهم بالكُفر؛ مِن باب الملاطفة في الدَّعوة، ولحِثّهم على الدُّخول في الإسلام، ولأنَّ الكلام في سياق أهلِ الكتاب، وهم في زعمهم أنَّهم مؤمنون، فجاراهم على زعمهم ترغيبًا لهم في الإسلام.

نُكْتَةُ تَعْليقِ الإيمانِ باسم الجلالة (اللّه):

تَركُ الإيمان باللّه ﷻ من أشنعِ الفعل وأبشَعِه

عُلِّقَ فِعْلُ الإيمانِ باسم الجلالة (اللّه)، في قولِه سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ تعظيمًا للإيمان الذي كَفَرَ بِه هؤلاءِ، وهذا يقتَضي شناعَةَ صنيعِهم، وبشاعَةَ فِعْلَتِهم في تَرْكِهِمُ الإيمانَ الصَّحيح، بِمَنْ له جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمال[1]، فقد وَصَفوا اللّهَ بصفاتٍ تُنافي صفاتِ الأُلوهيَّة، مِن قولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434.

مَغۡلُولَةٌۚ﴾ [المائدة: 64]، وقولِهم: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 30]، وقولِهم: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التّوبة: 30]، ونحوِ ذلك مِن صور تحريف الإيمان[1].

بلاغة المجاز المرسَل:

تَوَسُّعُ العَرَبِ في تَسْمِيَةِ أَجْزاءِ الأَزْمِنَةِ، من بابِ: تسميَةِ الشَّيءِ باسْمِ مُجاوِرِه

المُرادُ بِاليوم الآخِرِ، في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، يومُ القيامَةِ، وسُمِّيَ بذلك لكونه آخِرَ أيَّام الدُّنيا، بمعنى أنَّهُ مُتَّصِلٌ بآخِرِ أيَّامِها؛ إذْ إنَّه ليس منها حتَّى يُجْعَلَ آخِرَها، فيكونُ في تَسْمِيَةِ يوم القيامَةِ باليوم الآخِرِ، مجازٌ مرسَلٌ بعلاقَةِ المجاوَرَة[2]؛ لأنَّه تسميةٌ للشَّيءِ باسْمِ مُجاوِرِه، وذلكَ أنَّ طريقةَ العَرَبِ في الأزْمِنَةِ التي لها جُزْآنِ: أنَّهم رُبَّما سَمَّوْا أوَّلَ الجُزْءِ الثَّاني باسْمِ الجُزْءِ الأوَّلِ؛ لأجلِ المقارَبَةِ والمجاورَة، ومنه قيلَ عن صلاةِ المَغْرِبِ: «وِتْرُ النَّهارِ»[3]، مع أنَّها في زَمَنِ اللَّيلِ؛ لِلْعِلَّةِ المذكورَةِ قَبْلُ.

نُكْتَةُ تَكْرارِ حَرْفِ النَّفْيِ (لا):

شِدَّةُ انْحِرافِ إيمانِ أَهْلِ الكِتابِ باليومِ الآخِرِ، مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ كُفْرِهِمْ بِهِ

كُرِّرَ حرفُ النَّفْيُ (لا) في قول اللّهِ ﷻ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾؛ لتأكيدِ كُفْرِهم باليوم الآخِرِ، وذلك لأنَّ أهلَ الكِتابِ صدَّقوا باليومِ الآخرِ في الجُملَة، على ما في إيمانِهم مِنَ الانحرافِ بما نسجوه مِن أكاذيب وتخيُّلات تُنافي حقيقةَ الإيمان باليوم الآخر، بقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]، فلمَّا كانت عَقيدَتُهُم باليوم الآخر شديدَةَ الانْحرافِ؛ جُعِلوا بمنزلَةِ مَنْ لا يُؤمِنُ بِهِ أَصْلًا[4].

سِرُّ التَّنصيص على عدم إيمانهم بالله وباليوم الآخِرِ:

الإيمانُ بالله واليومِ الآخرِ لا يُقْبَلُ أحدُهما دونَ الآخَرِ

نصَّ القرآنُ الكريم على عدم إيمانهم باللّه واليوم الآخر؛ لأنَّها

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 10/163.

(2) عبد الله النَّبراويّ، حاشيَة على الأربعين النَّوويَّة، ص: 39.

(3) أخرجه التِّرمذي في سننه، برقم: (552) عن ابن عمر رضي الله عنهما، وقال: حديث حسن.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3275.

المقصود الأعظم مِنَ الإيمان، فمن آمن باللّه واليوم الآخر، آمنَ بكُتبه ورسله وشرائعه؛ لعلمه بمصيره في هذا اليوم، وفيه دلالة على عدم إيمان أهل الكتاب بالنَّبيِّ ﷺ وبشريعته، وعلى هذا، فإيمانُهم لن يكون صحيحًا إلَّا بالإيمان بنبوَّته ﷺ.

دلالةُ اقترانِ (الباء) بلفظ الجلالة وباليوم الآخر:

الإيمـان بالله واليـوم الآخـر مُـتـلازمـان، ولا يكتمل أحدُهما دونَ الآخر

في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، دلَّ اقترانُ (الباء) في كلٍّ منهما، على أصالة كلِّ ركنٍ منهما في أصل الإيمان؛ فلمَّا نُفِيَ عنهم زال وصفُ الإيمان بكامله؛ لأنَّهم فقدوا المقصود الأعظم مِنَ الإيمان، ومعنى العبارة يُفهَم منه عدمُ إيمانهم، مع أنَّ أهل الكتاب مؤمنون، فهل في ذلك تناقض؟ والجواب عليه من وجهين؛ "أحدهما: أنَّهم لا يُؤمنونَ باللّه والْيَوْم الآخر كَإِيمانِ الـمُؤمنِينَ؛ فَإِنَّهُم قالوا: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾، وقالوا: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾، وقالت اليَهود: "لا أكْلَ وَلا شُرْب في الجنَّة". والجَواب الثَّاني: أنَّ كُفْرهم ككُفر مَن لا يُؤمن باللّه والْيَوْم الآخِر، فِي عِظَم الجُرم"[1].

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ الإيمانِ بالرَّسول ﷺ:

لا سـبـيـلَ إلى الله في الاعتقاد والـعـمـل، إلَّا باتِّباع هَدْيِ آخرِ الرُّسل

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، لم تَنُصَّ الآيةُ صراحةً على عدم إيمانهم بالرَّسول ﷺ؛ لدلالة الجملةِ عليه لزومًا؛ فالإيمان باللّه واليوم الآخِر لا يكون صحيحًا وكاملًا إلَّا إذا توفَّر فيه مَلْمَحُ الإيمان برسول اللّه، ولا بلاغَ للإيمانَين إلَّا بهما، والرَّسولُ مُبَلِّغٌ عنِ اللّه، ومع عدم الإيمانِ به ينعدم الإيمانُ باللّه واليوم الآخر، لأنَّه أوَّلُ المؤمنين، ولأنَّه الشَّهيد على الأُمَّة في إيمانها ذلك.

تَوْجيهُ المُتشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

النَّظرُ إلى التَّشابه اللَّفظيِّ بينِ قول اللّه ﷻ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التَّوبة: 29]، وقولِه سبحانَه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ

---

(1) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/301.

﴿يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ [التَّوبة: 123]. ووجهُ التَّغايُرِ بينَهُما: أنَّ الآيةَ الأولَى تَقَدَّمها قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وكان ظاهرُ السِّياق أن يَرِدَ النَّظْمُ القُرآنيُّ: (قاتِلوا المُشْرِكين)، لكن لمَّا ذَكَرَ كَوْنَهُم نجَسًا؛ ناسبه أن يُذكَرَ سبَبُ ذلك، بذِكْرِ صفاتِهم، فقال تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾، ولمَّا كانَ أَهْلُ الكِتاب أكثرَ المُشْرِكينَ عِلْمًا؛ ناسبَه أن يُخصُّوا بالذِّكْرِ بقوله سبحانَه: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، وأمَّا الآيةُ الأُخرَى: فتقدَّمها قولُ اللّهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌۚ﴾ [التَّوبة: 120]، فلمَّا خُصَّ الكَفَرَةُ بالذِّكْرِ، وكان قِتالُ مَن قُرُبَ أَوْلَى مِن قتالِ مَن بَعُد، ناسبَهُ قولُه ﷻ: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾.

دِقَّةُ انْتِقاءِ البَيانِ القُرْآنيِّ لِلْأَلْفاظِ المُلائِمَةِ لِسياقاتِها، مِن بَديعِ الاستعمال

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾:

عدمُ الإيمانِ يؤدِّي إلى الجُرأةِ على شرعِ اللهِ، وانتهاكِ محارِمِه

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ عاطفةٌ؛ لأنَّها عطفت هذه الجملةَ على قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾؛ لأنَّ عدمَ الإيمان ينتج عنه الجُرأة على شرع اللّه، بتحليل ما حرَّم اللّهُ ورسولُه، مثل: تحليلِهم للرِّبا والخَمْر، وهما مُحرَّمان عندهم، وكونُهم لا يُحرِّمون ما حَرَّم اللّهُ؛ "أي: ما ثبت تحريمُه بالوحي مَتلوًّا أو غيرَ متلوٍّ، وقيل: المرادُ بـ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ الرَّسولُ الذي يزعُمون اتِّباعَه، أي: يُخالِفون أصلَ دينهم المنسوخ، اعتقادًا وعملًا"(1).

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/58.

سِرُّ ترتيب صفة عدمِ تحريم المحرّمات، بعد نفي الإيمان عنهم:

من أكبر الجُرم انتهاكُ ما حَرَّم اللهُ، وعدمُ الانتهاء عن مَنهيّاتِه

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، ذكر القرآنُ الكريم هذه الصِّفة، بعد نفي الإيمان عنهم؛ لشِدَّة التَّلازم بينَ الوصفَين، وذلك لأنَّ الوصف الأوَّلَ ناتجٌ عن عدم توحيدهمُ الكاملِ للّه ربِّ العالمين، وذلك بقولهم: (عزيرٌ ابن اللّه)، و(المسيح ابن اللّه)، وجاء الوصف الثَّاني، ليُؤكِّد عدمَ إيمانهم؛ لأنَّهم اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أربابًا مِن دون اللّه، يُحِلُّون ويُحَرِّمون كما يشاءون.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (ما):

من أكبر الآثام تجاوزُ الحدودِ، بعدم تحريمِ ما حرَّمه اللهُ على النَّاس

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بـ (ما) دونَ غيرها؛ لإفادة العموم، وفي هذا دليلٌ على أنَّهم لا يكترثون بأحكام اللّه في التَّحليل والتَّحريم في القرآن والسُّنّة، أو في التَّوراة والإنجيل، فكلُّ ما حَرَّمَه اللّهُ يفعلون نقيضَه بالتَّحليل، وهذا دليلٌ على جُرأَتهم على شَرْعِ اللّه، ثمَّ إنَّ معنى الجملة: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾: "أنَّهم يجعلونه غيرَ حرام، والمراد: أنَّهم يجعلونَه مباحًا، والمقصود من هذا تشنيعُ حالِهم، وإثارةُ كراهيَتِهم لهم، بأنَّهم يستبيحون ما حَرَّمَه اللّهُ على عباده"[1]، فكلُّ ما حرَّمَه اللّهُ ورسولُه في الكتاب المتلوِّ والسُّنَّة الصَّحيحة، فهو حرامٌ، ومَنِ انتهكَهُ بالإتيان، أو قارفَهُ بالعصيان، فقدِ اعتَدَى على حدود اللّه، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [الطلاق: 1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارع:

انتهاكُ المحرَّمات مُتَجَدِّدٌ ومُستَمِرٌّ في كلِّ الأوقات

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالفعل المضارع الذي يفيد التَّجدُّد والحدوث؛ للدّلالة على أنَّ انتهاكهم لما حرَّم اللّهُ أمرٌ مُتَجَدِّدٌ عندهم ومستَمِرٌّ، وفي هذا إشارة إلى أنَّ هذه الصِّفةَ صارت مِن طبائعهم؛ لتَجَدُّد فعلِهم لها، علمًا بأنَّ معاصي

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 10/165.

أهل الكتاب كانت منذ القديم، لايَنفكُّونَ عنها، ولا تَنفَكُّ عنهم، فهم عريقون في العصيان، وذلك ما يَتَجَدَّد بتَجَدُّد أحوالِهم وأخلاقِهم وحاجاتهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿حَرَّمَ﴾:

تشريعُ اللهِ قديمٌ أزلًا، وهو يُبرِزه إلى النَّاس، بإرادته الحكيمة

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالفعل الماضي: ﴿حَرَّمَ﴾، الذي يدلُّ على تحقُّق الوقوع؛ لأنَّ أمر التَّحليل والتَّحريم قَدَّرَه اللّٰهُ أزلًا، لعلمه بمصالح العباد، وليس أمرًا طارئًا، كما يفعل البشرُ عندما تَجِدُّ أحداثٌ في حياتهم، ويحتاجون فيها إلى تشريع التَّحليل والتَّحريم.

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَمِيَّةِ:

تَشْنيعُ صَنيعِ الكَفَرَةِ بِمُحادَّتِهِمُ اللهَ تعالى في أحْكامِهِ

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ في قول اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ ما حرَّمَهُ اللّٰهُ سبحانَه، فهو تحريمٌ صادرٌ مِن عند المَلِكِ الأعْلَى، الذي له الأمرُ كُلُّهُ، وله جَميعُ صفاتِ الجَلالِ والجَمالِ والكَمالِ[1]، ولازِمُ ذلِكَ: تشْنيعُ صنيعِ الكُفَّارِ بمحادَّةِ اللّٰهِ تعالى في أحكامِهِ، وإظْهارُ عظيمِ جُرْمِهِم.

بَديعُ الطِّباقِ:

كلُّ ما حَرَّمَهُ اللهُ سبحانَه قَبيحٌ مُنْكَرٌ؛ لا يستَحِلُّهُ إلَّا سفيهٌ فاسدُ الرَّأيِ

في قول اللّٰهِ سبحانَه: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ طباقٌ بينَ قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ﴾، وقولِه: ﴿مَا حَرَّمَ﴾، وهو طباقُ سَلْبٍ، ونُكْتَةُ إيرادِهِ: بيانُ شِدَّةِ مُصادَمَةِ هؤلاء الكفَرَةِ لِلْأَحْكام الإلهيَّةِ، ومضادَّتِهم لها، فكانَ المَقْصودُ مِن بناءِ الجُمْلَةِ على الطِّباقُ تشنيعُ حالِهِم وإثارَةُ كراهيَّتِهم لهم، وذلك لأنَّ ما حرَّمَهُ اللّٰهُ ﷻ لـمَّا كان قبيحًا مُنْكَرًا؛ كانَ مَنِ استباحَهُ فاسِدَ العَقْلِ، وكانَ أَهْلًا لِرَدْعِهِ عن هذا الباطِلِ[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/165 - 166.

دِلالَةُ الإضافَةِ:

تشريعُ رسولِ اللهِ ﷺ، تشريفٌ له، وتكريمٌ لمقامه

في قولِه ﷻ: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، أُضيفَ الرَّسولُ إلى الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى اللهِ سبحانَه؛ تشريفًا لَهُ وتكريمًا، وللإيماءِ إلى صَدْقِ تَبْليغِهِ ما أَوْحاهُ اللهُ تعالى إليه، والدّلالَةِ على أنَّ اللهَ سبحانَه لَمْ يُحرِّمْ على لِسانِ رسولِهِ ﷺ إلَّا ما هو جديرٌ بالتَّحريم، فالإضافةُ عَهْديَّةٌ؛ وذلِكَ لما تَقرَّر مِنْ أنَّ الإضافَةَ تنقَسِمُ إلى ما تنقسِمُ إليه اللَّامُ، ولا تتعيَّنُ الإضافَةُ لِكَوْنِها لِلْعُموم.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ مُفردًا:

الإشارة إلى أنَّ تشريع الرَّسول ﷺ وَحيٌ يُوْحى

في قوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ دون (ورسله)؛ لأنَّ المراد هُنا سيِّدُنا مُحَمَّدٌ ﷺ، كما هو مُتعارَفُ القرآنِ الكريم، إذْ لو أُريدَ غيرُهُ مِنَ الرُّسُلِ؛ لَجمعَ ذلك فقال: (وَرُسُلُه)[1]، ولِنَعلمَ "أنَّ كلَّ رسولٍ جاء بالعقائد الثَّابتة، وبالأحكام التي تناسب الزَّمان، إلى أن بَعَثَ اللّهُ محمَّدًا ﷺ، فكان النَّبيَّ الخاتمَ إلى أن تقوم السَّاعةُ، ولا بدَّ أن يكون الحقُّ الذي جاء به هو الحقُّ الثَّابت الذي لا يتغيَّر؛ لأنَّه خاتَمُ الأنبياء والمرسلين، فلا رسولَ بعدَه"[2]، فلا عجبَ أن يُذْكَر بصفته مُشَرِّعًا، لأنَّ ما جاء به وَحيًا، وما قَرَّرهُ سُنَّةً، هو الحقُّ المبين، الذي لا مِريَةَ فيه.

بَلاغَةُ الإدْماجِ:

التَّشْنيعُ على حالِ أَهْلِ الكِتابِ، وَبَيانُ انْحِرافِهِم في الدِّين

قولُ اللهِ سبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ إدْماجٌ؛ وهو أن يُضَمَّنَ الكلامُ الذي سِيقَ لمعنًى، مَعْنًى آخرَ غيرَ مُصَرَّحٍ بِهِ، فالمَقْصودُ: هو الأمرُ بِقِتالِ أَهْلِ الكِتابِ، وأمَّا الصِّفاتُ الأَرْبَعُ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/166.
(2) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/5028.

المذكورةُ فسِيقَتْ تشنيعًا لحالِهِمْ، وليس لبيانِ أنَّ القِتالَ مقتصِرٌ على مَنِ اجتمَعَتْ فيهم هذهِ الصِّفاتُ الأربَعُ كُلُّها(1).

دلالة (الواو) في قوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾:

مَن أعرض عنِ الدِّينِ الحقِّ، عُومِلَ بما يَستَحِقُّه بالحقِّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ عاطفةٌ، حيثُ عطفت هذه الجملةَ على ما سبقها مِنَ الصِّفات، وذلك لما بينَها مِن شِدَّة الاتِّصال؛ فهي صفاتٌ متعدِّدةٌ لموصوفٍ واحد، إن تجمَّعَتْ فيه هذه الصِّفاتُ وجبت مقاتَلَتُه، والصِّفاتُ المذكورةُ عِلَّةٌ للأمر المبسوط في السِّياق، واجتماعُها مع بعضها متواليَةً يزيد الحُكمَ وضوحًا ووثوقًا، حتَّى لا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ في الأمر مبالغةً أو تحاملًا؛ لأنَّهم يَستحقُّون ما أُمِرَ المؤمنون أن يَفعلوه بهم، ويَصدُق عليهم قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: 44]، وفي المثل العَربيِّ: (يداكَ أَوْكَتا، وفُوكَ نفخ).

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾:

مَن دانَ بغير ما أراد اللهُ، ضَلَّ عن سَواء السَّبيل وتاه

جاءَ التَّعبيرُ بنفي التَّديُّن عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾ دون غيره؛ لأنَّ المقصود ذَمُّ هؤلاء بعدم الانقياد والاستسلام لشَرْع اللّه تعالى، فضلًا عنِ الاعتناق له، وفيه دلالةٌ على أنَّهم لا يُلْزِمُونَ أنفسَهم بأيِّ شرعٍ أو تكليفٍ. وهناك معانٍ لقوله: ﴿وَلَا يَدِينُونَ﴾، منها؛ أوَّلًا: أنَّهم لا يدينون اللّه بدينه الحقِّ الكاملِ الأخيرِ المُكَمَّلِ، والمبيِّنِ لما اختلفوا فيه مِن قبل، والنَّاسخِ لما لا يصلُحُ للبشر منه فيما بعد، وهو الإسلام. وثانيًا: أنَّ الدِّين الذي يتقلَّدُه كلٌّ منهم، إنَّما هو دينٌ تقليديٌّ، وَضَعَهُ لهم أحبارُهم وأساقفتُهم، بآرائهم الاجتهاديَّة، وأهوائِهم المذهبيَّة، لا دينَ اللّهِ الحقَّ الذي أوحاه إلى موسى وعيسى عليهما السلام(2).

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/164.

(2) محمّد رضا، تفسير المنار: 10/253.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمضارع:

> إخبارُ القرآن عن الغيب المتجدِّدِ، مِن إعجازه القاهِرِ الباهِر

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، يدلُّ على أنَّهم سيَظلُّون على هذا المسلَكِ، في عَدَم تَدَيُّنِهم بالدِّين الحَقِّ، وهذا ما أَكَّدَه الواقعُ في عدم إيمانهم بالرَّسول ﷺ وبرسالته، وفيه إشارةٌ إلى تحليل القرآن لنَفسيَّة هؤلاء، بأنَّهم لا يَتْبَعون الدِّينَ الصَّحيحَ، بل يَتَّبِعون أهواءَهم.

نُكْتَةُ إضافَةِ الدّين إلى الحقّ:

> لازِمُ تَعْظيمِ دِينِ اللهِ تعالى وَتَشْرِيفِهِ، شَناعَةُ تَرْكِ الالتزام بدينه

أُضيفَ الدِّينُ إلى الحَقِّ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾؛ تعظيمًا لهذا الدِّين، وإبرازًا لشَرَفِه، حيث كان منسوبًا إلى الحَقِّ، سواءٌ أَحُمِلَ ذلك على معنى الحقِّ الذي هو خلافُ الباطِلِ، أَمْ على إرادَةِ كونِهِ اسمًا من أسماءِ اللهِ سبحانَه، ولازِمُ هذا التَّشْريفِ والتَّعظيم بيانُ شناعَةِ عَدَمِ التَّدَيُّنِ به، وفيه تَعْريضٌ بأنَّ ما هُم عليه مِنَ الدِّينِ، دينٌ باطِلٌ؛ وذلك أنَّهم لـمَّا عدَلوا عَنِ الحقِّ وقعوا في الباطِلِ؛ إذ ليس بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال.

سِرُّ التَّعبيرِ بقوله: ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، دون: (الدِّين الصَّحيح):

> الدِّينُ الحقُّ وَحْيٌ صدوق، وما خالَفَه فباطلٌ زَهوق

جاءَ التَّعبيرُ بالدِّين الحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، دونَ الصَّحيح؛ لأنَّ الحقَّ يُقابَلُ بالباطل، وعلى هذا: فمَا هُم عليه مِن دين، حُكِمَ عليه بالبُطلان، بخلاف التَّعبير بالصَّحيح الذي يقابله السَّقيم، وهو غير مُراد في هذا السِّياق، ولأنَّ أَمْرَ الصِّحَةِ مَحلُّ خِلافٍ في الحُكم عليه؛ نظرًا لتَعَدُّدِ الفُهُوم في الحُكم على الشَّيء، مِن ناحية الصِّحَّة وعَدَمِها.

بلاغَةُ الإطْنابِ:

> انحرافاتُ أَهْلِ الكِتاب مُتعدِّدَةٌ، تَطَالُ عمومَ أَبْوابِ الدِّيانَةِ

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ عَطْفٌ للعامِّ على الخاصِّ، في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؛ لكَوْنِ التَّدَيُّنِ أَعَمَّ مِن تحريمِ الحَرامِ، وذلك لأنَّ تحريمَ الحَرامِ

مِن جُملَةِ أُمورِ الدِّيانَةِ، والنُّكْتَةُ في ذلك: إبرازُ تَعَدُّدِ انحرافاتهم، فبُـيِّنَ أوَّلًا انحرافُهُم في بابِ التَّحريمِ، ثُمَّ بُيِّنَ انحرافُهُم في الدِّيانَةِ بِرُمَّتِها.

دلالَةُ الحرفِ (مِنْ) في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الإيماءُ إلى تَمَرُّدِ أَهْلِ الكِتابِ عَنِ الحَقِّ، تصويرٌ لواقعِهِم عبرَ العُصور

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، الحرفُ (مِنْ) بيانيَّةٌ، وهي التي تُبيِّنُ الموصولَ الذي قَبْلَها[1]، وعلى هذا يكونُ المعنى: قاتِلوا الذين أُوتوا الكِتابَ، وإنَّما أُورِدَ الكلامُ مُعرَّفًا بأوصافِ مَنْ يُقاتَلونَ، ثُمَّ بُيِّنَ بعدَ ذلكَ بـ (مِنْ)؛ للإعْلامِ بأنَّ هذهِ الصِّفاتِ موجِبَةٌ للكُفْرِ والعِنادِ أوَّلًا، وللإشارةِ إلى تمرُّدِهِم عَنِ الحقِّ ثانيًا، ولِكَوْنِ البيانِ بَعْدَ الإجْمالِ يُرَسِّخُ المعنى فَضْلَ تَرْسيخٍ ثالثًا[2].

نُكْتَةُ بِناءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعول:

بَيانُ هَوانِ أَهْلِ الكِتابِ على اللهِ سبحانَه، وَبَراءَتِهِ منهم

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿أُوتُواْ﴾ لِلْمَفْعولِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ إشْعارًا بِهَوانِهِمْ عِنْدَ اللّهِ تعالى، وبراءَتِهِ سبحانَه منهم[3]، فلم ينسِبْ فِعْلَ الإيتاءِ إلى صريحِ الاسمِ الأَجَلّ، أو الضَّميرِ الرّاجعِ إليه، بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (مِنَ الذينَ آتاهُمُ اللّهُ الكتابَ)، أو (مِنَ الَّذين آتَيْناهُم الكتابَ)؛ لما في نِسبَةِ فِعْلِ الإيتاءِ إلى اللّهِ تعالى مِنَ الكرامَةِ لهم؛ والمقامُ لا يُلائِمُهُ.

سِرُّ البَيانِ في قوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

تَوْبيخُ أَهْلِ الكِتابِ على تَرْكِهِمْ دينَ الحَقِّ، وَتَدَيُّنِهِمْ بِما حَرَّفوهُ منه

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، بيانٌ لِلْمَوْصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وفائدَةُ ذِكْرِ هذا البَيانِ: التَّنديدُ عليهم بأنَّهم أُوتوا الكِتابَ، ولكنَّهم لم يَدينوا دينَ الحقِّ الذي جاءَهُمْ بِهِ كتابُهُمُ الذي أُوتوه، وإنَّما دانوا بما حرَّفوهُ مِن هذا الكتابِ[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/58، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/163.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3277.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/434 - 435.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/165.

سِرُّ التَّعبيرِ والتَّقييد بقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، دون: (أهل الكتاب):

مَلْمَحُ إيتاءِ الكِتابِ يُحدِّدُ الحكمَ ونوعَ المعاملة معَ المعتدين مِن أهل الكتاب

النَّاظر في آيات القرآن التي تتحدَّث عن بني إسرائيل، يجد عباراتٍ متعدِّدة؛ منها: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، ومنها: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 65]، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وكلٌّ وَصْفٍ له سياقُه؛ فإذا أراد بيانَ نسبِهم قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، كما يقال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: 26] نسبةً إلى أبي البشريَّة، وإذا أراد دعوتهم إلى الإسلام خاطبهم بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 71]، وهذا وارد في آيات كثيرة، مِن باب التَّرغيب في دخولهم الإسلام، قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ الآيةَ [آل عمران: 64]، وقد يَرِد التَّعبيرُ بـ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: 71] من باب ذَمِّهم وتقريعهم على التَّقصير والتَّحريف، والآياتُ في هذا كثيرة؛ منها: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾ [آل عمران: 65] الآية، وقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: 71] الآية، ويشترك معه في هذا التَّعبير: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فغالبُ استعمالاته تأتي في ذمِّهم وتوبيخهم، على كتمانهم لصِفَة نُبوَّته ﷺ، ودلَّ التَّقييد بقوله: ﴿أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على تمييزهم عنِ المشركين في الحُكم؛ لأنَّ الواجب في المشركين القتالُ أو الإسلامُ، أمَّا مع أهل الكتاب: فالحُكم القتالُ أو الإسلامُ أو الجزيَةُ[1].

دلالَةُ (حتَّى):

معاملةُ أَهْلِ الكِتابِ على حسب ما يصدر منهم، محاربةً أو مُسالمةً

(حتَّى) في قولِ اللّه ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾، حرفٌ دالٌّ على الغايَة، والمرادُ: أنَّ الأمرَ بقتالِ أهلِ الكِتابِ مستمِرٌّ وُجوبُه إلى أن يُعطوا الجِزْيَةَ[2]، وفيه دلالة على أنَّه "إذا وُجِد من أهل الكتاب

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/241.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/166.

مَن يؤمن باللّه واليوم الآخر، ويُحرِّم ما حَرَّم اللّهُ ورسولُه إليهم، فإنَّهم لا يدخلون في هذا الحُكم"[1].

سِرُّ التَّعبير بلفظ: (الإعطاء)، دون: (الإيتاء):

الإعطاءُ تعبيرٌ عنِ المنح في المعتاد، ويكون العطاءُ معَ الرَّغبة أو مِن دُونها

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ: (الإعطاء) دونَ (الإيتاء) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾؛ لوجود فرق بينهما، فالإعطاء يكون للقليل، وهو المناسب لمقدار الجزيَة هنا، كما أوضَحَتْهُ السُّنَّةُ وكتبُ الفقه، وأيضًا لأنَّ الإعطاء لا يكون عن حُبٍّ غالبًا، بل قد يكون عن عدم رغبة، وهذا مناسب لموقف أهلِ الكتاب مِنَ الجزية، وفيه دليلٌ على تحليل القرآن لنفسيَّة أهلِ الكتاب في إعطائهم الجزية على غير رغبتهم؛ والإيتاءُ بخلاف ذلك كلِّه.

دلالَةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾:

الجِزْيَةُ مالٌ يُؤْخَذُ مِن أَهْلِ الكِتاب، مُقابِلَ حمايتهم وحَقْنِ دِمائِهِمْ

(ال) في لفظ ﴿ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾، لِلْعَهْدِ العِلْميِّ؛ وهو مقدارٌ مِنَ المالِ يُؤْخَذُ من أهلِ الكتابِ، مقابلَ إقامَتِهم في بلادِ الإسلام، وحَقْنِ دمائِهم، وهي مشتقة من (جَزَى يَجْزِي): إذا قضى ما عليه، وفي هذا إشارة إلى أنَّ ذلك حقٌّ ينبغي الالتزامُ به في مقابل ما يكون له مِنَ الدِّفاع عنه، والحمايةِ له، والاستفادةِ ممَّا تُقَدِّمُه دولةُ الإسلام لأهل الذِّمَّة من خدمات، وقد شرع اللّهُ الجزية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾، من باب إعطائهم فرصةً للتَّأمُّل في محاسن الإسلام، والنَّظر فيه، لعلَّهم يؤمنون.

سِرُّ تخصيص إعطاء الجزيَة بأهل الكتاب:

الجزيَة حمايةٌ مِنَ الأذى، ومعايشةٌ دونَ حَربٍ ولا عِداء

خَصَّ اللّهُ أهلَ الكتابِ بالجزيَة في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾؛ لأنَّهم في الظَّاهر ألصقوا أنفسَهم بموسى وعيسى عليهما السلام، وادَّعَوا أنَّهم يعملون بالتَّوراة والإنجيل؛ فلأجل

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/249.

تعظيم هَذَين الرَّسولَين المُعَظَّمَين وكتابَيهما، وتقديرًا لأسلاف هؤلاء اليهود والنَّصارى؛ لأنَّهم كانوا على الدِّين الحقِّ، لكلِّ ذلك حَكَم اللّهُ بقبول الجِزيَة منهم[1]، وممَّا يُذْكَر في هذا أنَّ الجِزيَةَ لم تكن ضَربًا مِنَ التَّحكُّم، ولا نَزْعةً مِن نَزَعات القَهْر والتَّسلُّط، إنَّما هي دعوةٌ حكيمَةٌ مِن دعوات الإسلام، مِن أجل التَّفكُّر في محاسن الإسلام كما سبق.

بَلاغَةُ المَجازِ المُرسل:

الجِزْيَةُ مِنْ أَهْلِ الكِتابِ، نفعُها مردودٌ إليهم

في التَّعبير بـ (اليَدِ) في قول اللّهِ ﷻ: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾، مجازٌ مرسَلٌ، وفي ذلكَ مَسْلَكانِ؛ أحدُهما: أن يكون ذلك مجازًا عنِ قُوَّة دولة الإسلام وسَطْوَتها؛ لكونِ اليَدِ آلَةَ البَطْشِ، والمُرادُ: حتَّى يُعْطوا الجِزْيَةَ عَن قَهْرٍ منكم لهم، والآخَرُ: أن يكون ذلك مجازًا عنِ الإنْعامِ، ووَجْهُ ذلكَ: أنَّ قبولَ الجِزْيَةِ والكَفَّ عن قَتْلِهم، إنْعامٌ مِنَ المُسْلِمينَ عليهم[2]، ولا تنافي بينَ الدّلالَتَيْن، ويَصِحُّ أَنْ يُجْمَعَ بينَهما، والمعنى: حتَّى يُعْطوا الجِزْيَةَ عن قَهْرٍ مِنْكُم لهم في أَخْذِها، وهذا الأخذُ منكُم عَيْنُ الإنعامِ عليهم؛ لأنَّ الغرض مِن ذلك ليس التَّعالي والتَّكَبُّر مِنَ المسلمين عليهم، وإنَّما هو إثارةٌ لدوافع الإنسانيَّة عندهم، بتحريك رغبتِهم نحوَ التَّخلُّص مِن هذا الوضع الذي هم فيه، وذلك بمراجعة معتقدِهم من جهةٍ، والنَّظر في محاسن الدَّعوة الإسلاميَّة من جهةٍ أُخرى.

بلاغة الكِنايَة في قوله: ﴿عَن يَدٖ﴾:

عدمُ الإنابة في دفع الجِزيَة، وتكليفُ صاحبها بدفعها لأهمِّيَّتها

قولهُ سبحانَه: ﴿عَن يَدٖ﴾، يجوزُ أن يكون كنايةً عَنِ النَّفْسِ، وذلك لأنَّ المقصودَ مِنَ الجِزْيَةِ المالُ؛ واليَدُ أَعْظَمُ أسبابِه، فكان المعنى: حتَّى يُعْطيَ كُلُّ واحدٍ منهم الجِزْيَةَ عن نفسِهِ، أي: أنَّهُمْ

(1) ابن عادل الدِّمشقيّ، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/70.
(2) السَّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/52.

يُعْطونَها بأيديهم لا بأيْدي غيرِهم، فيُمْنَعونَ مِنَ التَّوْكيلِ فيها؛ لمنافاتِه الغرضَ مِن فَرْضِ الجِزيَةِ[1].

دِلالَةُ إيرادِ جُمْلَةِ الحالِ اسْميَّةً:

مُـلازمَـةُ الـذُّلِّ والصَّغارِ لِمن كان مِن أهلِ الكِتابِ مِنَ الكفَّار

الواوُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ حاليَّةٌ، والجملَةُ بعدَها: في محلِّ نصْبٍ حالٌ، وقد جيءَ به جُمْلَةً اسميَّةً للإشْعارِ بأنَّ صَغارَهُمْ لازِمٌ لهم، ما داموا مُقيمينَ على الكُفْرِ باللّه تعالى واليوم الآخِرِ، وأنَّه لا عِزَّةَ لهم إلَّا بالانقِطاعِ عن مُوجِبِ الصَّغارِ، وهوَ الكفرُ، والإسلامُ يريد منهم ألَّا يكونوا مُتمرِّدين على دولته، بل يعيشون منقادينَ مُؤتلفين، غيرَ مُجاهِرين بالعداوة، وليس مرادُ المسلمين امتهانَ أهلِ الذِّمَّةِ وإذلالَهم، كما يتصوَّرون، بقدر ما هو تحريضٌ للمسلمين على اكتساب القُوَّة والاحتفاظِ بها، حتَّى لا يكونوا يومًا ما في منزلة المغلوب النَّازل على حُكم غالبه، وهذا يعني: أن يحتفظ المسلمون دائمًا بتلك القوَّة التي مكَّنت لهم ما هم فيه[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ: (الصَّغار)، دون: (الذِّلَّة):

يُسـتـعـمَـل (الـصَّـغـار) في الـقـرآن الكريم في معنى المهانة والإذلال، و(الذّلُّ) يقابل العِزَّ

في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾، جاء التَّعبيرُ بالصَّغار دونَ الذُّلِّ؛ لوجود فرقٍ بينهما، فالصَّغار: لا يقع في القرآن إلَّا في موضع المهانة، كما قال في حَقِّ إبليسَ: ﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]، وممَّا يدلُّ على أنَّ الصَّغار يُستعمل بمعنى الإذلال والمهانة؛ كلام امرأةِ العزيزِ في حقّ يوسفَ ﵇، قال تعالى: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ٣٢﴾ [يوسف: 32]، واستعمالُه مَعَ الجِزيَة في هذه الآية يُدلِّل على ذلك، أمَّا الذُّلُّ فَضِدُّ العزِّ، وهو: خضوعُ الإنسانِ لغيره على سبيل القَهْرِ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ﴾ [النَّمل: 34]، وقد يكون الذُّلُّ محمودًا؛ كما في قوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54]. وعلى هذا:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/271.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/738.

فالصَّغارُ يفترق عنِ الذُّلِّ؛ لأنَّه يُعَبِّر عنِ الإهانة والضَّيم والاستعباد، وسُمِّيَ بذلك لأنَّ الإنسان يُصَغِّر نفسَه، وممَّا يُؤكِّد الفرقَ بينَهما وقوعُ الذُّلِّ والصَّغار حالَين لسياق واحد، قال تعالى: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٣٧﴾ [النَّمل: 37]؛ فجُمِعَ بينَهما للدّلالة على أنَّ الصَّغار يدلُّ على معنًى زائدٍ عنِ الذُّلِّ، حيث يكونُ عن قَهْرٍ واستعباد[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإيتاء والإعْطاء:

الإيتاءُ أقوَى مِنَ الإعطاء، والإيتاءُ لم يُستعمَلُ إلَّا للشَّيءِ العظيمِ الشَّأْنِ

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ من أَصْحابِ المُعْجَماتِ[2]، وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثَةِ أوجهٍ[3]؛ **أَحَدُها**: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعلِه، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ، فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعطاني، مطاوعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إثْباتِ مَفْعولِه، مِمَّا لا مطاوِعَ له. **وثانيها**: أنَّ الإيتاء يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ، فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقِلُ منه بعد قضاء الأَرَبِ منه. **وثالِثُها**: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّك بخلاف الإيتاء.

وأمَّا في خصوصِ الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ لِلَفْظَتَي: (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا مِن جِهَتَيْنِ[4]؛ إحْداهُما: أنَّ الإيتاءَ لَم يُستعمَلْ إلَّا لِلشَّيْءِ الكَثير والعظيم الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريم، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمة، بخلاف الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِد الإعطاءُ مُرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثْرَةِ. والأُخْرَى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ، يكون عن طيبِ نَفْسٍ، بخلاف الإعْطاءِ فهوَ مُطْلَقٌ.

---

(1) محمَّد ياس الدُّوري، دقائق الفروق اللُّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 180.
(2) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (أتى).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 87، والكَفويّ، الكلِّيَّات، ص: 212.
(4) محمَّد داود، معجم الفروق الدّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠﴾ [التوبة: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ بواعث تأديب الظّالمين مِن أهل الكتاب، وبينَ مقولاتهِمُ المشركَةِ بالله سواه

لـمَّا أمَرَ اللّهُ ﷻ بِقتالِ المعتدين مِنَ اليهودِ والنَّصارَى، وَوَصَفَهُمْ بالأوصافِ الباعِثَةِ على ذلك القِتالِ في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ عطَفَ عليه بعضَ مقالاتِهِمُ الـمُهَيِّجَةِ للمُؤْمِنينَ الذين يغارونَ لربِّهم سبحانَه ولدينِهِ على قِتالِهم وبذْلِ الوُسْعِ في ذلك، فقال سبحانَه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾(1).

ولـمَّا حكم اللّهُ في الآية السَّابقة على أهل الكتاب بأنَّهم لا يؤمنون باللّه، جاءت هذه الآية لإقامة الدَّليل على ذلك؛ فذكرت هذه الآية أنَّ اليهود والنَّصارى ادَّعوا لله الولدَ، بقولهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾، ومن فعل ذلك فهو في الحقيقة غير مؤمن باللّه.

ومن المناسبة أيضًا: أنّه لـمَّا تكلَّمتِ الآيةُ السَّابقة عنِ المشركين، وما يتعلَّق بهم مِن أحكام، بيَّن اللّهُ تعالى في هذه الآية لحاقَ اليهودِ والنَّصارى بهم؛ لأنَّهم اشتركوا معهم في الشِّرك، وإنِ اختلفت طُرقُه؛ فلا فرق بينَ عابد وَثَنٍ وصنمٍ، وبين عابدٍ للمسيح عليه السلام؛ فالكلُّ شِرْكٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/437، والسَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: (الميمُ والسِّينُ والحاء): تدُلُّ تصريفاتُها على معنى إمْرارِ شيءٍ على شَيْءٍ بَسْطًا[1]، ويُطْلَقُ المَسْحُ على إزالَةِ الأثَرِ[2]، ومنه قولُهُمْ للمريض: مسحَ اللّهُ تعالى ما بك، أي: أزالَ عنكَ المرضَ[3]، والمَسيحُ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التَّوبة: 30]، هو عيسَى ابنُ مَرْيَمَ عليه السلام، سُمِّيَ بذلك لأنَّه كان لا يَمْسَحُ على ذي عاهَةٍ إلَّا بَرِئَ بإذْنِ اللّهِ تعالى[4]، وذُكِرَ في سببِ تَسْميَتِه بذلك أَقْوالٌ عديدَةٌ[5].

2) ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾: (الضَّادُ والهاءُ والياءُ): تدورُ اشْتِقاقاتُها على معنى مشابَهَةِ شيءٍ لشيءٍ[6]، أو هي: خُلوُّ الشَّيءِ عمَّا يتميَّزُ بِهِ عن غَيْرِه، ثُمَّ استُعْمِلَ في معنى المشابهَةِ؛ لكونِ ذلكَ لازِمًا لعَدَمِ التَّمْييزِ[7]، ومنه: قولُ النَّبيِّ ﷺ: «أَشَدُّ النّاسِ عَذابًا يَوْمَ القيامَةِ الَّذينَ يُضاهونَ بِخَلْقِ اللّه»[8]، ومعناهُ: يُعارِضونَه، ويُشَبِّهونَ أَنْفُسَهُمْ باللّهِ تعالى في صُنْعِها أو صَنْعَتِهِمْ لَها[9]، والمُضاهاةُ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ﴾، بمعنى: المُشابَهَةِ والمُحاكاة.

3) ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾: (القاف والتَّاء واللَّامُ): تدُلُّ تَصاريفُها على معنى الإذْلالِ والإماتَةِ[10]، ومن الثَّاني: القَتْلُ؛ وهو إزْهاقُ النَّفْسِ، ومِنَ الأوَّلِ على جِهَةِ الاستعارةِ قولُهُم: قتَلَ المسألَةَ بحْثًا؛ إذا استَوْعَبَها، كأنَّه ذلَّل كلَّ ما فيها مِنْ مُعضِلاتٍ وألغازٍ[11]، وقولُهُ: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ بمعنى: لَعَنَهُمْ، وليس مِنَ القتالِ الذي هو المحاربَةُ[12]، والمُرادُ: أنَّهم صاروا بمنزِلَةِ مَنْ يُحارِبُ اللّهَ تعالى، ومَن قاتَلَ اللّهَ فهو مَقْتولٌ، ومَن غالبَهُ فهوَ مغلوبٌ[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مسح).
(2) الرَّاغب، المفردات: (مسح).
(3) الخليل، العين: (مسح).
(4) الأنباريّ، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس: 1/388.
(5) اليَفْرَني، الاقتضاب في غريب الموطأ وإعرابه على الأبواب: 1/242.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ضهي).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ضها).
(8) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (5954)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2107).
(9) ابن قُرْقول، مطالع الأنوار على صحاح الآثار: (ضه).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قتل).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (قتل).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (قتل).
(13) الرَّاغب، المفردات: (قتل).

4) ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾: (الهمْزةُ والفاءُ والكافُ): تدورُ اشتقاقاتُها علَى معنى قَلْبِ شيْءٍ وصَرْفِه عَن وَجْهِه[1]، ومنه قولُهُم: أَفَكَهُ عَنِ الشَّيءِ، بمعنى: صرَفَهُ وقلَبَهُ وغيَّر وِجْهَتَهُ إليه[2]، وقولُ اللّهِ تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ معناهُ: مِن أَيْنَ يُصْرَفونَ عَنِ الحَقِّ؟![3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

استنكارُ مشابهةِ أهلِ الكتابِ للمُشركين، وتقريعُهم على زَعْمِهم بُنُوَّةَ عُزَيرٍ والمسيحِ لله

بيَّن اللّهُ في هذه الآية أنَّ اليهود أشركوا باللّه عزَّ جلَّ، عندما زَعَموا أنَّ عُزَيْرًا ابنٌ للّه تعالى، وأشْرَكَ النَّصارَى عندما ادَّعوا أنَّ المسيحَ عيسَى ابنٌ للّه سبحانَه، وهذه المقالَةُ اختلَقوها مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِم، لا بُرْهانَ لهم عليها، وهم بذلك يُحاكونَ قولَ المُشْرِكينَ قبلهم، الزَّاعمينَ أنَّ الملائكَةَ بناتُ اللّهِ سبحانَه، قاتَلَ اللّهُ المُشْرِكينَ كُلَّهُمْ وأَهْلَكَهُمْ، كيفَ يَعْدِلونَ عَنِ الحقِّ ويُصْرَفونَ عنه إلى الباطِلِ؟![4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ (الواوِ) في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾:

انْخِراطُ أَهْلِ الكِتابِ في سِلْكِ أَهْلِ الشِّرْكِ، سفاهةٌ منهم وضلالةٌ

الواوُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾، عاطفَةٌ ما بَعْدها على جملَةِ: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، والتَّقديرُ: قاتلوا أهلَ الكتاب؛ لأنَّهم كفروا بما وصفناهم به، وقالتِ اليهودُ منهُم: عُزيرٌ ابن اللّهِ! وقالتِ النَّصارى منْهُم: المسيحُ ابنُ اللّهِ! تَشْنيعًا على قائلِ ذلكَ من أهلِ الكتاب، بأنَّهم قَدْ بلغوا الغايَةَ في الكُفْرِ، حتَّى اسْتَوَوْا في كُفْرِهِمْ مَعَ المُشْرِكينَ[5]. ويجوزُ أَنْ تكونَ الواوُ اسْتِئنافيَّةً، والجملَةُ بعْدَها مبتدأَةً، سِيقَتْ لتقريرِ ما تقدَّم ذِكْرُهُ، من عَدَمِ إيمانِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (أفك).
(3) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب في تفسير الغريب، ص: 137.
(4) نخبة من العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/167.

أهلِ الكِتابِ بِاللّهِ ﷻ، وانْخِراطِهِم بذلك في سِلْكِ أهلِ الشِّرْكِ[1]، وعلى ذلك تكون هذه الآية مُبَيِّنَةً لحالهم، بأنَّهم بمنزلة المشركين في الشِّرك.

كُلُّ قولٍ ينكرُه العقلُ، ويخالفُهُ الوحيُ، فهو باطلٌ وضلالٌ

سِرُّ التَّعبير بـ (القول) دون غيره:

في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى﴾، أُوْثِرَ التَّعبيرُ بلفظ: ﴿وَقَالَتِ﴾ دونَ غيره؛ لأنَّه أعمُّ، فيُقال: للمُتَصَوَّر في النَّفس قبلَ الإبراز باللَّفظ، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة: 8]، فجَعَلَ حديثَ النَّفس قولًا، ويُقال للاعتقاد نحو: (فلانٌ يقول بقول أبي حنيفة)، ويقال: للدّلالة على الشَّيء، ويقال: للعناية الصَّادقة بالشَّيء، إلى غير ذلك مِنَ المعاني التي ذكرها الرَّاغب في مفرداته، وكلُّها مناسبةٌ لسياق الآية؛ فقول اليهود والنَّصارى قبل الإعلان باللَّفظ كان حديثًا في النَّفس، ثمَّ تَحوَّل ذلك إلى اعتقاد، وحاولوا إقامةَ الدَّليل عليه، وبذلوا من أسباب العناية للحفاظ على زَعْمِهم الكَثيرَ والكَثيرَ، من أجل صِحَّة اعتقاد قولهم.

التَّقاعُسُ عن إنكارِ الأقْوالِ الباطِلَةِ، هو بِمَنْزِلَةِ قولِها واعْتِقادِها

دلالَةُ إسناد القول إلى عموم اليهود:

نُسِبَ القولُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ إلى عمومِ اليهودِ، مع أنَّ قائِلَ هذا القولِ جَماعَةٌ، أو واحدٌ مِنْهُم، وإنَّما أُسْنِدَ القولُ إلى الجميع تجوُّزًا، كما تقولُ العرَبُ: (فلانٌ يَرْكَبُ الخيولَ)، وقد لا يكون له إلَّا فرسٌ واحدةٌ[2]، فهو مجازٌ مُرْسَلٌ، علاقَتُهُ: العموميَّةُ؛ إذْ أُطْلِقَ اللَّفْظُ العامُّ، وأُريدَ بعضُ أفرادِهِ. ويَجوزُ أن يكون نُسِبَ القولُ إلى جميعِهِم، معَ أنَّ القائلَ بعضُهُم؛ لكونِ هذا القولِ فَشا فيهم، ولَمْ يُنْكِروهُ على قائلِه، فكانوا بمنزِلَةِ مَن قالَهُ.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/59، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/390.

(2) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 10/368، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/28، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/438.

سِرُّ العُدُول عن عبارة: (الَّذِينَ أوتوا الكِتابَ):

لم يَلتَزِمِ اليهودُ ولا النَّصارى بمتطلَّبات وَصْفِهم بأهل الكتاب

عَدَلَ القرآنُ الكريم عن عبارة: (الَّذِينَ أوتوا الكِتابَ)، كما في الآية السَّابقة، إلى ذِكْر الفريقين: ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾ و﴿ٱلنَّصَٰرَى﴾، ومجموُعُهما: (أهل الكتاب)؛ لبشاعة الجُرْم الذى ارتكبه كلُّ فريقٍ منهم؛ فهم وإن جمعهم وَصْفُ الكتاب، إلَّا أنَّ بينهما خلافًا في المعتَقَد؛ فاليهود يقولون: عزيرٌ ابن اللّه، والنَّصارَى يقولون: المسيح ابن اللّه، وفي هذا دليلٌ على أنَّ كلَّ فريق يتحمَّل عاقبة جُرْمِه.

تَوْجيهُ القِراءاتِ في قوله: ﴿عُزَيۡرٌ﴾:

التَّكامُلُ الدّلاليُّ لِلقِراءاتِ القُرْآنيَّةِ، مفيدٌ في تجلّيَة المعنى ودقَّتِه

قُرِئَتْ كلمَةُ: ﴿عُزَيۡرٌ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ بوجْهَيْن؛ أحدهُما: بالتَّنوين، وقد قَرأَ بهذا عاصِمٌ والكِسائيُّ وَيَعْقوبُ. والآخَرُ: بحذفِ التَّنوين، وقرأَ بِهِ باقي العَشَرَة[1].

فتَرْكُ تَنْوينِ ﴿عُزَيۡرٌ﴾ على أنَّ كلِمَةَ ﴿ٱبۡنُ﴾ صفةٌ، والخبرُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: قالتِ اليهودُ عُزَيْرُ ابنُ اللّهِ معبودُنا[2]، وعلى تنوينِه، يكونُ ﴿ٱبۡنُ﴾ خبَرًا، ولا حذْفَ في الجُمْلَة، وحُذِفَ الخبَرُ على الوَجْهِ الأوَّلِ؛ لشَناعتِه، كما ذكَرَ أهلُ العِلْمَ نظيرَ ذلك في قول اللّه سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ﴾ [الأعراف: 152]، أيْ: معبودًا، وحُذِفَ لبشاعَتِه وشناعَتِه.

سِرُّ تقديمِ مقولةِ اليهود على مقولة النَّصارى:

مراعاةُ التَّرتيب الزَّمانيِّ في سرد الأحداث وتحليلها

قدَّم القرآنُ الكريم مقولةَ اليهود الشَّنعاء، في زعمهم بُنُوَّة عُزَير للّه، على مقولة النَّصارى في بُنُوَّة عيسى للّه، مع اشتراكهما في هذا الزَّعم الكاذب؛ مراعاةً للتَّرتيب الزَّمنيِّ، لأنَّ اليهود أسبق في الوجود مِنَ النَّصارى.

(1) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/279.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/29.

شُبهَةُ اليهودِ في زعمهم بُنوَّة عُزَير لله:

إلصاقُ وَصْفِ البُنوَّة بالله، يتناقض مع تنزيهه عن مشابهة المخلوقين

قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾، تعدَّدت أقوالُ المفسّرين في سبب زعم اليهود هذا؛ فمنهم مَن قال: إنَّ اللّه بعثه مِن بين الموتى، بعد أن أماته مئةَ عام، يُشير إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ﴾ [البقرة: 259]؛ فاعتَبَروا هذه المعجزةَ دليلًا على بُنوَّته، ومنهم مَن قال: إنَّ التَّوراة قد ضاعت أيّام الأسر البابليِّ، وضاع أكثرُها مِن علمائهم، ووقعوا في حَيْرة وقلق، بعد أن أعادوا بناء الهيكل، وكان الهيكل في نظرهم أشبَهَ بجسدٍ لا رُوحَ فيه، وهم في هذه الحيرة، طلَعَ عليهم عزيرٌ، وقال لهم: إنَّ اللّه قد ملأ صدرَه نورًا، فإذا التَّوراةُ محفوظةٌ في قلبه، تجري كلماتُها على لسانه، ثمّ جمع أحبارَهم، وأملى عليهم التَّوراةَ مِن حِفْظِه، إلى غير ذلك من الرِّوايات[1].

بطلانُ زَعْمِ النَّصارى بُنوَّة عيسى لله:

ميلادُ عيسى معجزةٌ باهرةٌ، ولكنَّها لا تستعصي على قدرة الله القاهرة

أخبر اللّه تعالى عن مقولة النّصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾، فقد زعم النَّصارى بُنوَّةَ عيسى ابن مريم للّه؛ لأنَّه وُلِدَ مِن رَحِم امرأةٍ لم تتَّصل برَجُل، وجهلوا أنَّ هذا الميلاد، وإن كان عجيبًا خارجًا على مألوف الحياة، فإنَّه ليس خارجًا عن قدرة اللّه التي لا يُعجِزُها شيءٌ، ولا يُقيِّدها قيد[2]، وهم قد قالوا ذلك بأفواههم، و"لم يقيموا عليه حجَّةً، ولا برهانًا، ومَن كان لا يُبالي بما يقول، لا يُستَغْرَب عليه أيُّ قولٍ يقولُه، فإنَّه لا دِينَ ولا عقلَ يحجزُه، عمَّا يريد مِنَ الكلام"[3].

سِرُّ التَّعبير بلفظ: (الابن)، دون: (الولد):

لا يَصِحُّ التَّعبيرُ في حَقِّ اللّه سبحانه وتعالى، بالابن أو الولد؛ لتَنزُّهِه عن كلِّ

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/245، والخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/440.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/245، والخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/440.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.

ذلك، أمَّا زَعْمُهم في اختيار لفظ البُنوَّة، باعتبار أنَّ لفظ (الابن) يُذْكَر على سبيل التَّشريف، فهذا زعمٌ باطل؛ لأنَّ التَّشريف الحقيقيَّ في تنزيه المولى سبحانه عنِ الابن والولد والصَّاحبة؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشُّورى: 11].

تتجلَّى قُدسيَّة مقامِ الألوهيَّة، في تنزيه اللهِ تعالى عنِ الولد

عِلَّةُ فَصْلِ قوله: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ عمَّا قبله:

فُصِلَ قولُ اللَّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾ عمَّا قبله؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، وذلك أنَّ اللّهَ سبحانَه لـمَّا حكَى مقالَةَ اليهودِ والنَّصارى، في قوله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ﴾؛ أَوْرَثَ ذلك سؤالًا في نُفوسِ المُتَلَقِّينَ، وهو: فما حقيقَةُ هذه المقالَةِ؟ فجاء الجوابُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾؛ للإشْعارِ بأنَّها مقالَةٌ قالوها مِن قِبَلِ أنفُسِهم، ليس لها وَجْهٌ مِنَ الصِّحَّةِ والاعتبارِ.

شَناعَةُ مَقالَةِ أَهْلِ الكِتابِ في جَراءَتِهِمْ على مَقامِ الأُلوهيَّةِ

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالْإِشارَةِ:

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالإشارَةِ، في قول اللَّه ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾؛ لتَتميَّزَ مقالَتُهُمْ أَكْمَلَ تَمْييزٍ؛ إذِ الإشارَةُ في ﴿ذَٰلِكَ﴾، إلى ما تقدَّمَت حكايتُهُ عَنْهُمْ، مِن مقالَةِ الكُفْرِ، ونِسْبَةِ الولَدِ إلى اللّهِ سبحانَه، فإذا تميَّزَتْ مقالَتُهُم؛ تبيَّنَ ما ترتَّب عليه مِنَ الجزاءِ المذكورِ بَعْدُ، أَبْلَغَ بيانٍ.

تَمْييزُ مَقالَةِ أَهْلِ الكِتابِ؛ لإحقاقِ الحقِّ، وإبطالِ الباطلِ

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإِشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ:

جاءَ التَّعبيرُ بِاسْمِ الإشارَةِ الدَّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ﴾؛ للإشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمتين؛ (وهما القول بِبُنوَّة العُزَير، وبُنوَّة عيسى عليه السلام للّه سبحانه)، وفيه إيماءٌ إلى عظَمَةِ مقالَتِهِم في الكُفْرِ وشَناعتِها، وإيذانٌ ببُعْدِ درجَتِها في الفظاعَةِ، وبُعْدِها مِنَ العُقولِ، وتكذيبِها لِلْمَنْقولِ(1).

مَقالَةُ أَهْلِ الكِتابِ بعيدةٌ عنِ المعقولِ، مُناقِضَةٌ لِلْمَنْقولِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/438، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/59.

مَقالَةُ أَهْلِ الكِتابِ قولٌ بالأفواه، مُجرَّدٌ مِنَ البُرْهانِ على ألوهيَّة غيرِ الله

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالْأَفْواهِ:

جاءَ التَّعبيرُ بالأَفْواهِ في قوله سبحانَه: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ مع أنَّ كل قولٍ إنَّما يُقالُ بالفَم، وَفي ذلكَ نِكاتٌ[1]؛ إحْداها: الإيماءُ إلى بُطلانِ هذهِ المقالَة، وأنَّها مقالَةٌ لا تُجاوِزُ في حقيقَتِها الأفواهَ إلى العقولِ؛ لأنَّه لا يَتَصوَّرُها أيُّ عاقلٍ؛ فهي مجرّد كلام يُلْقَى على عواهنه، مِن غير أن يُحتَكَمَ فيه إلى عقل أو منطق. وثانيها: سُقوطُ هذه المقالَة، وأنَّها مقالَةٌ مُهْمَلَةٌ مجرَّدَةٌ عنِ البُرْهان، فهي بمنزِلَةِ أصواتِ البهائِمِ العُجْم، فلا يتحقَّقُ لها أيُّ معنًى. وثالثُها: تأكيدُ نسبَةِ القَوْلِ المذكورِ إليهم، وأنَّه صادرٌ منهم حقيقةً، فلم يَحْكِه أحدٌ عنهم، أو ينطق به شاهد الحال عليهم، إنَّما هو قولٌ قالوه بأفواههم، لا يستطيعون دفعَه أو إنكاره[2]. ورابِعُها: الإشْعارُ بأنَّ هذا القولَ مختارٌ لهم قَصْدًا، وأنَّه قد بلَغَ بهِمُ الإجْرامُ إلى أنَّهُم لا يتحاشَوْنَ التَّصريحَ به، وذلك أنَّ المَرْءَ رُبَّما يُنبِّهُ على مَذْهَبِهِ كِتابَةً أو كنايَةً، فإذا صرَّحَ وذَكَرَهُ بلسانِه؛ كان ذلك غايةً في التَّنويه، باختيارِهِ وقَصْدِهِ إليه. وخامِسُها: الإشارَةُ إلى أنَّهُمْ دَعَوُا الخَلْقَ إلى قولهم هذا، حتَّى تداولَتْهُ الأفواهُ والألسِنَةُ.

التَّعبيرُ بلفظ: (الأفـواه) على (الألسن)، مِن دِقَّة السِّياق

بلاغة المجاز المُرسل:

مَن يقرأ القرآنَ الكريم، يجد في بعض الآيات إسنادَ القولِ للألسُن، كما في قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح: 11]، وفي بعضها يُسْنَد للأفواه، كما في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [آل عمران: 167]، وكما هنا في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾، ومعلوم أنَّ اللِّسان جزءٌ مِنَ الفَم، فأَطْلَقَ الأفواهَ وأراد

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/264، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/29 - 30، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/438 - 439، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/59، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/275، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3281.

(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 5/741.

الأَلسُن، وهذا مجاز مرسلٌ علاقتُه الكليَّة، حيث أُطلِق الكلُّ، وهو الأفواه، وأُريدَ الجزءُ، وهو الألسُن، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك إبرازُ حرصِهم على ما يقولون، ومحاولةُ إظهارِ أنَّهم على الحقِّ، فيستجمعون هذا القولَ الكاذبَ في جميع أفواههم؛ فكأنَّ كلَّ جُزءٍ مِنَ الفَم عند كلِّ فَرْدٍ منهم، يتكلَّم بهذا الكذبِ، وليس اللِّسانُ وحدَه.

دلالةُ (الباء) في قوله: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾:

مَـــن أوغـــلَ في الــضَّـــلال وأســـرفَ، صار يَـهْـرِف بـمـا لا يَعْرِف

دلَّتِ الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾، على شِدَّة الالتصاق؛ فكأنَّ أفواهَهم لا تنطِق إلَّا بهذا القول، وفي هذا تصويرٌ لشِدَّة التِصاقِ اللِّسان بالأفواه، وما يردِّدُونَه هو "قول تُردِّدُه أفواهُهم بألسنتهم، ولا يُدركونَ له حقيقةً يتصوَّرُونها، فهم يُردِّدُون: الواحدُ ثلاثةٌ، والثَّلاثةُ واحدٌ، وإذا سألتَهم عن مميِّزات كلِّ واحدٍ، وكيف يجتمعون، لم يَحِيْرُوا جوابًا إلَّا أن يقولوا: هذه غيبيَّاتٌ يُصَدِّقُها العقلُ الدِّينيِّ، ولا يُصَدِّقُها العقلُ والمنطقُ"[(1)].

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عمَّا قبلَه:

انْـحِـرافُ أَهْـلِ الـكِـتـابِ، مع نَـصاعةِ الهُدى وبُروزِه

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ عمَّا قبلَه؛ لوقوعِهِ استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجُملَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، ووَجْهُ ذلك: أنَّ قولَ اللهِ سبحانَه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ يَبْعَثُ في نَفْسِ المُتَلَقِّي سؤالًا، وهو: ما لهم إذا كان هذا حالَهُم فيما قالوه؟ فجاء الجوابُ في قوله ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

التَّشبُّهُ بالضَّلال مَـفْـسـدةٌ في الأقوال والأفعال

عبَّر القرآنُ الكريم بالفعل: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّهُم قومٌ طُبِعوا على التَّشبُّهِ بِمَنْ يَفْعَلُ المفاسدَ، كما أنَّهم حاكَوْا عبدَةَ الأَوْثانِ، فانحرَفوا عَنِ الهُدَى، والأنبياءُ بينَ أظْهُرِهم، يَدْعونَهُمْ إلى الحقِّ،

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 5/741.

وكتابُهُم يُنادي بمثل ذلك[1]، "ولا شَكَّ أنَّ وصفَ الذين كفروا ينطبق عليهم، وهم يشابهونهم في أنَّهم أشركوا في العبادة غير اللّه، كما أشرك أولئك الأوثان"[2].

دلالَةُ الإيجازِ بالحذف:

مُبالَغَةُ أهلِ الكِتابِ في مُحاكاةِ ضلالاتِ المُشْرِكينَ

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، والمعنى: يُشابِهُ قولُهُم قولَ الذين كفَروا؛ لظهورِ أنَّ المقصودَ ليس مشابَهَةَ ذواتِهِم لمقالَةِ الكُفَّارِ، وإنَّما مشابهَةُ القولِ القَوْلَ، فحُذِفَ المضافُ وأُقيمَ المضافُ إليه مُقامَهُ[3]، ونُكْتَةُ الإيجازِ: الإيماءُ إلى مبالغَتِهِمْ في محاكاةِ طريقةِ المُشْرِكينَ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِجُملة الصِّلَةِ:

أهلُ الكِتابِ سائرونَ في طَريقِ الكُفْرِ، غالونَ في مسالكه ودُروبه

في التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ وصِلَتِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، زيادَةُ تشنيعٍ لمقالَةِ أهلِ الكتابِ، وأنَّ الذي حمَلَهُمْ على تلك المقالَةِ، هو الكُفْرُ ومُشابَهَةُ أهْلِه، وأنَّهُمْ سائِرونَ في طريقِ الكُفْرِ، غالونَ فيه.

سِرُّ مجيءِ جُمْلَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا:

ثُبوتُ كُفْرِ أَهْلِ الكِتابِ، بالأَقاويلِ والمضاهاةِ والغِلَابِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، جاءَتْ جملَةُ الصِّلَةِ فِعْلًا ﴿كَفَرُواْ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ للدّلالَةِ على تجدُّدِ الكُفْرِ فيهم، وأنَّ كُفْرَ أهلِ الكِتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى الذين قالوا تلك المقالَةَ الشَّنيعَةَ، متجدِّدٌ فيهم كَتَجَدُّدِه فيمَنْ ضاهَوْهُ، وفي الإتيانِ بجملَةِ الصِّلَةِ فِعْلًا ماضيًا إشعارٌ بأنَّ وَصْفَ الكُفْرِ ثابِتٌ لهم، مُتَحَقِّقٌ فيهم.

نُكْتَةُ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الكُفْرِ:

مُنتَهى الكُفرِ التَّكْذيبُ بجميعِ ما أَوْجَبَ اللّهُ تعالى الإيمانَ به

حُذِفَ مُتَعلَّقُ الفعلِ (كَفروا) مِن قولِ اللّهِ سبحانَه: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ وهو المَكْفورُ به؛ لإرادَةِ العُمومِ؛ وذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/439.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3281.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/59، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/275.

لأنَّ حَذْفَ المَعْمولِ مُؤذِنٌ بذلك، والمعنى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤْمِنوا به شَرْعًا.

دلالَةُ المراد باسْمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الكُفْر ما يَرِثُه أغرارٌ مِنَ الأخلافِ، عن سُفَهاءَ مِنَ الأسلافِ

تَعَدُّدُ المرادِ باسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من قول اللّهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾؛ فذهب قومٌ إلى أنَّها لِلْعَهدِ، والمرادُ به: ناسٌ مَخْصوصونَ، وهُمْ مُشْرِكو أهلِ مكَّةَ وأمثالُهم؛ الذين زعموا أنَّ المَلائِكَةَ بناتُ اللّهِ تعالى، أوِ المُرادُ بهم: قُدَماءُ أهلِ الكتابِ، والمعنى: أنَّ اليهودَ والنَّصارى الذين كانوا في عصرِ النَّبيِّ ﷺ شابَهَ قولُهم في عُزَيْرٍ وعيسَى، قولَ آبائِهم الأقْدَمينَ، فورِثوا الكُفْرَ كابرًا عَنْ كابرٍ، وذهب بعضُهم: إلى أنَّها لِلْجِنْسِ الدَّالِّ على العُموم، والمرادُ: جميعُ الأممِ التي ضلَّتْ وانحرفَتْ عنِ الهُدَى والحقِّ، وأشْرَكَت مع اللّهِ تعالى غيْرَهُ، وهذا الوَجْهُ أَوْلَى[1].

دلالَةُ (مِنْ)، في قوله: ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾:

تَغييرُ مُشْرِكي العَرَبِ دينَ إبْراهيمَ عليه السلام، حقيقةٌ لا ريبَ فيها

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾، (مِنْ) أفادَتْ مَعْنَيين؛ أحدُهُما: توكيدُ المعنى وتَقْوِيَتُهُ، وهذا هو المعنى الغالِبُ على (مِنْ) الواقِعَةِ مع (قَبْلُ) و(بَعْدُ). والآخَرُ: الإيماءُ إلى كُفْرِهم لم يسْتَغْرِقِ الزَّمَنَ السَّابقَ، فمعنى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: الذين كَفَروا مِن قَبْلِ أَنْ يحْدُثَ منهم هذا القولُ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ مُشْرِكي العرَبِ قد غيَّروا دينَ إبراهيمَ عليه السلام[2].

دلالَةُ الخَبَرِ في قوله: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

الدُّعاءُ على أَهْلِ الكِتابِ بِالإهْلاكِ، والتَّعَجُّبُ مِن شَناعَةِ مَقالَتِهِم

جُمْلَةُ: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، خَبريَّةٌ في لَفْظِها، والمُرادُ بها: الدُّعاءُ، ثمَّ كَثُر استعمالُهم لها، حتَّى قالوها على جهة التَّعجُّب في الخير والشَّرِّ، وهم لا يريدون الدُّعاء، فالجُمْلَةُ مجازٌ مُرسَلٌ مُركَّبٌ، وفيها

---

(1) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/259.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/439.

دعاءٌ عليهم بالإهْلاكِ وأنواعِ الشُّرورِ، وتعجُّبٌ من شناعَةِ مقالَتِهِمْ وفظاعَتِها(1)، فهم أحقَّاء بأن يُقال لهم هذا، وصيغَةُ المُفاعلَة: ﴿قَٰتَلَهُمُ﴾ يُرادُ بها المُبالَغَةُ في الدُّعاء، والمُراد: قَتَلَهُم اللّهُ قَتْلًا شَديدًا(2)، فهي ليست من باب المفاعلة(3).

نُكْتَةِ تَعْرِيفِ المُسْنَدِ إليه بالعلميَّةِ:

الدُّعاءُ بمقاتلة اللهِ للمارقين، يُفْضِي إلى مصيرٍ مَهين

عُرِّفَ المسنَدُ إليه بالعلَميَّة، في قولِ اللّه ﷻ: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾؛ لبيانِ عَظَمَةِ هذه المُقاتَلَةِ وشِدَّتِها، إذْ هي مقاتَلَةُ المَلِكِ الأَعْظَم الذي جمع صفاتِ الجَلالِ والكَمالِ، وله الإحاطَةُ عِلْمًا وقُدْرَةً؛ ومَن قاتَلَهُ لَمْ يَنْجُ(4).

دلالَةُ الِاسْتِفْهامِ:

التَّعجُّبُ والتَّعْجيبُ مِنْ حالِ أَهْلِ الكِتابِ في اتِّباعِ الباطِلِ

قولُ اللّهِ سبحانَه: ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ جملَةٌ إنشائيَّةٌ استفهاميَّةٌ، ولا يُرادُ بها حقيقَتَها؛ من طَلَبِ العِلْمِ بشيءٍ لم يكُنْ معلومًا من قبلُ، فإنَّ اللّهَ ﷻ محيطٌ بكلِّ شيءٍ عِلْمًا، وإنَّما خرجَ هذا الاسْتِفْهامُ عن أصْلِه إلى معنى التَّعجُّب والتَّعجيب من حالِهِم في الاتِّباعِ الباطِلِ، حتَّى كأنَّ المكانَ الذي يُصْرفونَ إليه بعَقيدَتِهم الفاسدَةِ، بمنزِلَةِ المكانِ المجهولِ الذي من شأنِه أن يُسأَلُ عَنْهُ باسْمِ الاستفهام عَنِ المكانِ(5).

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ دون (يُصْرَفون):

استخدم القرآنُ لفظَ: (الإفك) في الذَّمِّ والتَّقريع والتَّوبيخ

جاء التَّعبيرُ بلفظ: (الإفك) دون (الصَّرف)؛ لأنَّ الإفكَ كَذِبٌ يقلِبُ الأوضاعَ ويقلب الحقائق، ويُقال: أَفِكَ الرَّجلُ عن كذا، إذا عَدَلَ عنه، ومنه: الأفَّاكُ الذي يصرِفُ النَّاسَ عنِ الحقِّ، بخلاف الصَّرف، فيُستعمَلُ في القرآن في مطلق التَّحويل والتَّنقُّل مِن حالٍ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/403، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/275 - 276.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/169.
(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/32.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/441.
(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/403، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/169.

إلى حالٍ، وعلى هذا، فالإفكُ يختلف عنِ الصَّرف، في أنَّه مِن فصيلة الكذب، وهذا هو المناسبُ لسياق الآية؛ لأنَّ اليهود والنَّصارى كذبوا في زَعْمِهم هذا، بل وقلبوا الحقائقَ، فجعلوا ما للبشر مِنَ الولد للّه سبحانه، وهذا كُفْرٌ بَواحٌ، وممَّا يؤكِّد الفرقَ بينهما، أنَّ القرآن استخدم الإفكَ في مواضع الذَّمِّ والتَّقريع والتَّوبيخ، وهذا واضحٌ في آيات القرآن الكريم؛ بخلاف الصَّرف[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أَفَكَ وصَرَفَ:

الإفْكُ أَخَصُّ مِنَ الصَّرف؛ وهو صَرْفٌ وتحويلٌ، باستغمال الإفك وسيلةً لذلك

وَرَدت مادَّة (أفك) في السِّياقاتِ القرآنيَّةِ، في ذَمِّ الكفَّار والمكذِّبين، كما في قولِ اللّه سبحانَه: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: 75]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: 30]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ [الذاريات: 7 - 9]، ووردَت هذه المادَّةُ كذلك في موضعٍ واحدٍ، حكايةً لقولِ الكُفَّار في مخاطبتهم هودًا عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأحقاف: 22]، وذلك لكونِهمْ كانوا مُكذِّبين له، كما يَدلُّ عليهِ آخِرُ الآيةِ: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾، في حين أنَّ الصَّرْفَ استُعمِلَ في القرآن الكريم لمُطْلَق التَّحويل والرَّدِّ، وأُسْنِدَ ذلك إلى اللّهِ سبحانَه، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن

(1) الرَّاغب، المفردات: (أفك، صرف).

يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران: 152]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: 24]، وفي هذه المواضِعِ وغيرِها لا يجوزُ أنْ يَرِدَ فيها لَفظُ الإفِكِ بدلًا مِنَ الصَّرْفِ؛ لأنَّ المقصودَ في جميعِها ردُّ الشَّيءِ مِنْ حالٍ إلى حالٍ، أو إبدالُهُ بغَيْرِهِ، وليس فيهِ تَقْييدُهُ بوصفِ الكذبِ، كالتي وردَ فيها لفْظُ الإفْكِ[1].

(1) محمَّد داود، معجم الفروق الدلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 62 - 64.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التَّوبة: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بينَ بشاعةِ نسبةِ الولد إلى الله تعالى، واتّخاذهم الأحبارَ والرُّهبان أربابًا

لـمَّا ذكر اللّهُ تعالى في الآية السَّابقة المقالةَ الشَّنيعة التي قالها اليهودُ والنَّصارى، في زَعْمِهِم أنَّ للّه تعالى ولدًا، وعَجَّبَ مِن صنيعِهم كيف يُصرَفون عنِ الحقِّ إلى الباطِلِ، ذكر في هذه الآية بيانَ سَبَبِ هذا الضَّلالِ، وهو أنَّهم اتَّخذوا أحبارَهُم ورهبانَهُم بمنزِلَةِ الأرباب، في تحليلِ الحرام وتحريمِ الحلالِ، وتشريعِ الأقوالِ المنافيَةِ لدِينِ الرُّسُلِ عليهم السلام، فيتَّبِعونَهُمْ ويَتْرُكونَ الحقَّ الذي جاءَتْ به الرُّسُلُ[1]. وممَّا يُذكَر في المناسبة أيضًا، أنَّه لـمَّا ذَكَرتِ الآيةُ السَّابقة شِركَ أهلِ الكتاب في عبادتهم للمسيح عليه السلام، جاءت هذه الآيةُ بلونٍ آخَرَ مِنَ الشِّرك في أحكامه، حيث اتَّخذوا علماءَهم وعُبَّادَهم أربابًا مِن دون اللّه؛ في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾: (الحاءُ والباءُ والرَّاءُ): تدورُ اشْتِقاقاتُها على أَثَرٍ في حُسْنٍ وبهاءٍ، ومنه: الشَّيءُ المُحَبَّرُ؛ وهو المُزيَّنُ، والحِبْرُ: هو المِدادُ الذي يُكْتَبُ بِهِ؛ لما فيه مِن أثَرٍ على الورَقِ ونَحْوِه، ويُقالُ لِلَّذي يكْتُبُ بالحِبرِ: حِبْرٌ وحَبْرٌ، وهو العالِمُ، وجَمْعُهُ: أحبارٌ[2]، وسُمُّوا أحبارًا لما يَبْقَى مِن أثرِ علومِهِم وآثارِ أفعالِهم الحسَنَةِ المُقْتَدَى بها

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حبر).

في قلوب الخَلْق، ومنه قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1]، والـمُرادُ بِهِم هُنا: عُلَماءُ اليَهودِ[2].

2) ﴿وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾: (الرَّاءُ والهاءُ والباءُ): تدلُّ تَصريفاتُها على أَصْلَيْنِ؛ أحدهُما: الخَوْفُ، والآخَرُ: الدِّقَّةُ والخِفَّةُ[3]، ومِنَ الأوَّلِ قولُهُم: رَهِبْتُ الشَّيءَ أَرْهَبُهُ رَهْبَةً ورَهَبًا، أي: خِفْتُهُ[4]، والرَّهْبَةُ: هي الخَوْفُ المقرونُ بالعَمَلِ[5]، ومنه: الرَّاهِبُ؛ وهوَ عابِدُ النَّصارَى[6]، وسُمِّيَ بذلك لأنَّ الذي حَمَلَهُ على الانْقِطاعِ إلى العبادَةِ، هو الخَوْفُ مِنَ اللّهِ تعالَى، ويُجْمَعُ على: رُهْبانٍ، ورهابينَ، ورَهابِنَة، ورَهْبانين[7].

3) ﴿أَرۡبَابٗا﴾: (الرَّاءُ والباءُ): تَدورُ تَصاريفُها على مَعانٍ، منها: إِصْلاحُ الشَّيءِ والقيامُ عليه، ومنه يُقال: رَبَّ فلانٌ ضَيْعتَهُ؛ إذا قامَ على إِصْلاحِها[8]، ومنه: التَّربيَةُ؛ وهي إنشاءُ الشَّيءِ حالًا بعْدَ حالٍ إلى حَدِّ التَّمام، ولا يكونُ ذلكَ إلَّا بإصْلاحٍ وعنايةٍ[9]، ومنه: سُمِّي الرَّبَّانيُّونَ بِهَذا الاِسْمِ؛ لقيامِهِم بتَدْبيرِ أُمورِ النَّاسِ وإِصْلاحِها[10]، ويُطْلَقُ الرَّبُّ بِمَعْنَى: المعبودِ؛ وذلك لما فيه مِن وَصْفِ إِصْلاحِ عابديه، وقيامه على تدْبيرِ شؤونهم، ولا يُطْلَقُ مُعرَّفًا باللَّامِ إلَّا على اللّهِ سبحانَه، ومِنْ هذا المعنى: قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ معناهُ: اتَّخذوهُمْ معبوداتٍ يَلْتَزِمون أوامرَهُمْ ونواهيَهُم.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

أخبر اللّهُ تعالى في هذه الآية أنَّ اليهود والنَّصارى اتَّخذوا العلماءَ والعُبَّادَ أربابًا، يَشْرَعونَ لهم مِنَ الشَّرائعِ والأقوالِ الـمُنافيَةِ لدينِ الرُّسُل، فَيَتَّبِعونَهُم عليها ويتْركون

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (حبر).
(2) الخضيريّ، السّراج في بيان غريب القرآن، ص: 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رهب).
(4) الخليل، العين: (رهب).
(5) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلتها، ص: 59.
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (رهب).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (رهب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(9) الرَّاغب، المفردات: (رب).
(10) نَشوان الحِمْيَريّ، شمس العلوم: (رب).

الشَّرْعَ المُنزَّلَ، واتَّخذوا المسيحَ عيسَى عليه السلام إلَهًا، فعَبَدوه مِن دون اللّهِ سبحانَه، وقد أمَرَهم اللّهُ عز وجل بعبادَتِه وَحْدَهُ دونَ ما سواهُ، فهو الإلَهُ المستحِقُّ للعِبادَةِ، لا إلهَ إلَّا هوَ، تَنَزَّه وتَقَدَّس وتَعالَت عَظَمَتُهُ عَن شِرْكِهم وافْترائِهم[1].

بيانُ اتِّخاذِ النَّصارى واليهود أربابًا مِن دون الله المعبود

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ عمَّا قبلَه:

فُصِلَ قولُ اللّهِ عز وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِه استِئنافًا بيانيًّا، فبيْنَ الجُملَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلكَ أنَّ اللّهَ سبحانَه لـمَّا حكَى مقالةَ أهلِ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنَّصارى، في زَعْمِهِم أنَّ للّه تعالى ولدًا؛ أَوْرَثَ ذلك في نفوسِ الـمُتَلقِّين سؤالًا؛ وهو: فما سَبَبُ اتِّفاقِ أُمَّةٍ كبيرةٍ كثيرةِ العَدَدِ على هذا القَوْلِ البَيِّنِ البُطْلانِ؟ فبيَّن اللّهُ سبحانَه سبَبَ ذلكَ، وهو أنَّهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ يَشْرَعونَ لهم مِنَ العقائدِ والأعمالِ والأقوالِ الـمُنافيَةِ لما جاءَتْ بِه الرُّسُلُ، فَيَتَّبِعونَهُم عليها[2].

سَبَبُ ضَلالِ أَهْلِ الكِتابِ، اتِّخاذُهُمُ الأَرْبابَ مِن دون العليِّ الوهَّاب

دلالَةُ الخَبرِ في قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾:

الجملةُ الخبريَّةُ في قولِ اللّهِ عز وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾ وارِدَةٌ مُرادًا بها زيادَةُ التَّشْنيعِ عليهم، وبيانُ شِدَّةِ جراءَتِهِمْ على الباطِلِ، وفيها: زيادَةُ تقريرٍ لما سلَفَ مِنْ كُفْرِهِمْ باللّه تعالى[3].

زيادَةُ التَّشْنيعِ على أَهْلِ الكِتابِ؛ لجَراءَتِهِم على الباطِلِ

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالِاتِّخاذِ:

عُبِّرَ بالاتِّخاذِ في قولِ اللّهِ عز وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ومعناه: حَوْزُ الشَّيءِ وتحصيلُه، وهو بصيغَةِ الافْتِعالِ التي تَدُلُّ على التَّكلُّفِ في فعلِ الشَّيءِ، وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ فِعْلَهُمْ

شِدَّةُ انْحِرافِ أَهْلِ الكِتابِ، بالرُّكونِ لمشرِّعين سواه

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 191.

(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 334.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/169.

مناقِضٌ لِلْفِطْرَةِ السَّليمَةِ، ومخالِفٌ للشَّرائعِ المستَقيمَةِ؛ حيثُ إنَّهم قَدْ كَلَّفوا أنفسَهُمُ العدولَ عن توحيد اللّٰهِ تعالى وعبادته، القادرِ على كلِّ شيءٍ، إلى مَن هو مِنْ جِنْسِهم في الخِلْقَةِ[1]، وهذا يدلُّ على أنَّ الأَتْبَاعَ تمسَّكُوا بأحبارهم ورُهبانهم، وجعلوا لهم الكلمةَ فيهم، والعقلَ المُدَبِّرَ لهم؛ فكلامُهم وأحكامُهم لا مُعَقِّبَ عليها عندَهم، وهذا دليلٌ على فساد عقيدتهم، وشدَّةِ انْحِرافِهِمْ، وعظيم مُعانَدَتِهم؛ حيثُ إنَّ داعيَ الفِطْرَةِ يَدْعوهُم إلى الحقِّ، والشَّرائعَ تُنَبِّهُهُم على مواطِنِ الخَيْرِ، ومع ذلك نازعَتْهُمْ نفوسُهُم الخبيثَةُ إلى مخالفَةِ ذلكَ ومُنابذَتِهِ.

فَدَاحَةُ صَنيعِ أَهْلِ الكِتابِ، جَعَلَتْهُمْ مُستَحِقِّين للذَّمِّ والتَّوْبيخِ والعِتاب

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ الماضي:

عُبِّر بالفِعْلِ الماضي: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، مِن قولِ اللّٰهِ سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإيماءِ إلى تحقُّق هذا الفِعْلِ الشَّنيعِ منهم، وأنَّهم حَقيقونَ بالذَّمِّ والتَّوبيخ.

حكمةُ البيانِ وروعتُه، في رَدِّ كلِّ معنًى إلى موضعه مِنَ السِّياق

بلاغة اللَّفِّ والنَّشْرِ:

في قول اللّٰهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لَفٌّ ونَشْرٌ مُرتَّبٌ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ لفظَ الأَحْبارِ، يختصُّ في عُرْفِ الاِسْتِعْمالِ بعلماءِ اليهودِ، ولفظَ الرُّهْبانِ بعُبَّادِ النَّصارى[2]، فكانَ قولُ اللّٰهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ راجعًا إلى اليهودِ والنَّصارى المذكورين قبلُ، في قوله سبحانَه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾، على إرادَةِ التَّوزيعِ، والمعنى: اتَّخذَ اليهودُ أحبارَهُمْ أربابًا مِنْ دونِ اللّٰهِ سبحانَه، واتَّخذَ النَّصارَى عُبَّادَهُم أربابًا مِنْ دونِ اللّٰهِ تعالى، وتُرِكَ بيانُ ذلكَ ثِقَةً بأنَّ السَّامِعَ يَرُدُّ كُلَّ مَعْنًى إلى موضِعِهِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/441.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/30 - 31، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/441.

دلالةُ التَّعبير بضمير الجماعة:

دلَّ التَّعبير بضمير الجماعة في ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ على أنَّ هذا الشِّركَ في أمر الأحكام، من ناحية التَّحليل والتَّحريم، هو مسلكٌ جماعيٌّ تبنَّاه جميعُ أهلِ الكتاب، وهذا يدلُّ على فساد طبيعتهم، فضلًا عن عقيدتهم؛ لغياب مَن يأمر بالمعروف وينهى عنِ المنكر، قال تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: 79].

لايُحلِّل ويُحرِّم إلَّا الخالقُ البصير، لأنَّه أعلمُ بمن خلق، وهو اللَّطيف الخبير

دلالةُ تَقديمِ الأَحْبارِ على الرُّهْبانِ:

قُدِّمَ ذِكْرُ الأَحْبارِ على الرُّهْبانِ، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُناسِبَ ذلكَ تقديمَ اليهودِ على النَّصارَى، المذكورَ قَبْلُ؛ وذلك لما عُلِمَ من أنَّ الأحبارَ عُلماءُ اليهودِ، والرُّهْبانَ عُبَّادُ النَّصارى، وفي تقديم الأَحْبارِ - وهُمُ العلَماءُ - زيادَةٌ في تشنيعِهم وتوبيخِهم؛ لأنَّ الأَصْلَ أنَّ العُلَماءَ أَعْرَفُ الخَلْقِ بالحقِّ، فلا تَقعُ مِنْهُمْ منافاةٌ له، وهؤلاء الأحبارُ قد صَدَرَ منهم ما يُخالِفُ أصلَ التَّوحيدِ، بِنِسْبَتِهم الولدَ للّه تعالى، فكان فِعْلُهم أقْبَحَ، وصنيعُهم أشْنَعَ، وفيه دلالة على أفضليَّة العلماء على العُبَّاد، إذا هم قاموا بدورهم في الإرشاد والبيان.

مُخالَفَةُ العُلَماءِ لِلحَقِّ المبين، مُنتَهى القُبْحِ والنُّكوصِ المهين

دلالةُ الإضافةِ في (الأحبار) و(الرُّهبان):

دلَّتِ الإضافةُ في أحبارهم ورهبانهم، في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ﴾، على أنَّهم همُ الذين صنعوهم، وأَعْطَوْهم هذه المكانةَ؛ فهي إضافةُ اكتسابٍ ومنافع، وليست من باب الاصطفاء والاختيار، وليُفَرَّق بينَ مَن كان على المنهج الصَّحيح، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: 44]، وبينَ مَن كان على الباطل.

كانت الرَّهبنَةُ قَداسَةً، فانقلبت إلى تزييفٍ وخساسةٍ

كلُّ مَن ادَّعَى الرُّبوبيَّة العليا مِن بني الإنسان، هَلَكَ وتوارى في تلافيف النِّسيان

سِرُّ التَّعبير بلفظ: ﴿أَرۡبَابٗا﴾:

قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، عبَّر ضِمنَه بلفظ: ﴿أَرۡبَابٗا﴾ ليُشيرَ إلى ما كان لهم مِن دَوْرٍ واضح، وسلطانٍ مبسوط على أتباعهم، بحيث جَعَلُوا إلى أيديهم أمرَ هؤلاءِ الأتباع، فيما هو من صميم العقيدة، فيَغْفِرون لمَن شاؤوا مِنَ المذنبين، ويَحْرِمُون مَن شاؤوا مِن هذا الغُفران، وقد أدَّى ذلك إلى أن أصبح الأحبارُ والرُّهبان آلهةً، يُطْلَبُ رضاها، ويُتَقَرَّب إليها بالقُرُبات، حتَّى تُنَال منهم المغفرةُ والرِّضوان، ولمَّا كان هذا الوضع يُشبِهُ الوضعَ بينَ المؤمنِ وربِّه، عُبِّرَ عنهم بالأرباب؛ نظرًا لهذه الحالةِ، أو لهذا الوضع الذي يكون بينَ الأحبار والرُّهبان وأتباعهم[1].

سِرُّ تَقْديم لَفْظِ: ﴿أَرۡبَابٗا﴾ في الآية:

هنالك فَرْقٌ بينَ ربوبيَّة التَّعاليم، وربوبيَّة العبادة

قُدِّمَ لفظُ ﴿أَرۡبَابٗا﴾ في قولِ اللّٰه سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، فَلَمْ يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (اتَّخَذوا أَحبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْبابًا مِنْ دونِ اللّٰه)؛ لئلّا يُفْهَمَ مِنْ ذلك أنَّ الرُّبوبيَّةَ التي اتَّخذوها كانَت واحدةً في الجميع، والواقِعُ أنَّ اتِّخاذَهُم المسيحَ ربًّا، كانت رُبوبيَّةَ عبادَةٍ، بخلافِ اتِّخاذِهِم الأحبارَ والرُّهْبانَ أربابًا، فهيَ ربوبيَّةُ تعاليمَ[2]، كما قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على المسيح؛ للإشارة إلى أنَّهم اتَّخذوه بمرتبةٍ مِنَ الرُّبوبيَّة التي نحلوها له، غيرَ ما اتَّخذوه مِن أربابهم، فما نحلوه له من ربوبيَّةٍ كان عبادةً له، وما اتَّخذوا مِن أحبارهم مِن ربوبيَّة كان أخذًا للتَّعاليم منهم[3]، قال عديُّ بنُ حاتم: "أتيتُ رسولَ اللّٰهِ ﷺ وهو يقرأ سورةَ براءة، فلمَّا انتهى إلى قوله تعالى:

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ للقرآن: 4/443.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3284.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3283.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قلتُ: يا رسولَ اللّه، لم يكونوا يعبدونهم، فقال ﷺ: «أليس يُحرِّمون ما أحلَّ اللّهُ فتُحرِّمونَهُ، ويُحِلُّون ما حَرَّم اللّه فتَستَحِلُّونَه؟»، فقلتُ: بلى، قال: «ذلكَ عبادتُهم»"[1].

دلالَةُ تَخْصيصِ عيسَى عليه السلام بالذِّكْرِ:

اخْتِصاصُ النَّصارَى بالانْحِرافِ؛ لاتِّخاذِهم الأربابَ مِنْ دونِ اللهِ تعالى

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، خُصَّ فيه عيسَى عليه السلام بالذِّكْرِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ اليهودَ لم يفعَلوا ذلك بِعُزَيْرٍ[2]، وللتَّفريق بينَ اتِّخاذِ اليهودِ واتِّخاذ النَّصارى؛ فكلٌّ منهم مختلفٌ عنِ الآخرِ؛ فربوبيَّةُ المسيحِ عند أَتْبَاعِه لها وضعٌ خاصٌّ غيرُ الوضعِ الذي للأحبار عندَ اليهود، والرُّهبانِ عند النَّصارى، فهؤلاءِ الأحبارُ والرُّهبانُ ليسوا أربابًا عند أَتْباعِهم بصورته القاطعة، وإنَّما هم أشبهُ بالأرباب، أمَّا المسيحُ فهو عند أتباعه رَبٌّ بمعنى الكلمة.

نُكْتَةُ تَأْخيرِ ذِكْرِ عيسَى عليه السلام:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في التَّصَرُّفِ في الألْفاظِ تَقْديمًا وَتَأْخيرًا

أُخِّرَ ذِكْرُ عيسى عليه السلام في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، مع أنَّ اتِّخاذَهُم لعيسى عليه السلام ربًّا معبودًا أقوى مِن مُجرَّدِ الطَّاعةِ في تحليلِ الحرام وتحريم الحلالِ؛ لكَوْنِهِ مُخْتصًّا بالنَّصارى، لم يشْرَكْهُم في ذلك اليَهودُ[3].

دلالَةُ نِسْبَةِ عيسى عليه السلام إلى أُمِّهِ:

إبطالُ ألوهيَّة عيسى عليه السلام، وأنَّه عبدُ الله ورسولُه

نُسِبَ عيسى عليه السلام إلى أمِّه، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾؛ للإشارَةِ إلى كَوْنِه

(1) قال الرَّبيع: "قلتُ لأبي العاليَة: كيف كانت تلك الرُّبوبيَّةُ في بني إسرائيلَ؟ قال: إنَّهم ربَّما وجدوا في كتاب الله تعالى ما يخالف أقوالَ الأحبارِ، فكانوا يأخُذون بأقوالهم، ويترُكون حُكمَ كتابِ الله".
يُنظر: أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60.

إنسانًا، وأنَّهُ قد وُلِدَ كما وُلِدَ غَيْرُهُ مِن بني آدَمَ، وإنِ امْتازَ عنهم بكونِهِ من غَيْرِ أَبٍ، فكان في ذلك إشْعارٌ بكونِهِ مَرْبوبًا، والمربوبيَّةُ منافيَةٌ للرُّبوبيَّةِ، وفي هذا كُلِّه إيذانٌ بكمالِ سخافَةِ عقولِهِم، والحُكْمِ عليهم بغايَةِ الجَهْلِ والحُمْقِ(1).

دلالَةُ الإيجازِ في الآية:

طَيُّ الألْفاظِ التي دَلَّ الكَلامُ على تَعْيينِها اقْتِصادًا في اللَّفْظِ

﴿وَٱلۡمَسِيحَ﴾ من قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، معطوفٌ على ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾، ومفعولُه الثَّاني بالنِّسْبَةِ لِلْمَسيحِ محذوفٌ، والتَّقديرُ: اتَّخذوهُ ربًّا مِنْ دونِ اللهِ تعالى(2)، وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لدلالَةِ المذكورِ عليه.

نُكْتَةُ بناءِ الفِعْلِ لِلْمَفْعولِ:

مُخالَفَةُ اليَهودِ والنَّصارَى لِلأَحْكامِ الشَّرْعيَّةِ، استخفافٌ بالبَراهينِ النَّقْليَّةِ والعَقْليَّةِ

بُنِيَ الفِعْلُ ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ لِلْمَفْعولِ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾؛ للعِلْمِ به، وتعظيمًا لشَأْنِه، والمعنى: فَعَلَ اليهودُ والنَّصارى ما فعَلوه، والحالُ أنَّ الذي له كُلُّ الأمْرِ مِنَ الأدلَّةِ النَّقليَّةِ والعقليَّة، قَدْ أَمَرَهُمْ أَنْ لا يَعْبُدوا إلَّا الإلَهَ الواحِدَ الحقَّ(3).

سِرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ، في قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾:

التَّوحيدُ مأمورُ اللهِ لجميعِ العابِدينَ، في كلِّ حينٍ

عُبِّرَ بالضَّميرِ دونَ الظَّاهِرِ، في قوله تعالى: ﴿أُمِرُوٓاْ﴾؛ لإفادةِ العمومِ، لأنَّه يعودُ إلى اليهودِ والنَّصارى والأربابِ الذينَ اتَّخذوهم، مِنَ الأحبارِ والرُّهبانِ والمسيحِ ابنِ مريمَ، فهؤلاءِ جميعًا مأمورونَ أن يعبدوا إلهًا واحدًا، لا إلهَ إلَّا هو، سبحانَه عمَّا يشركونَ.

دلالَةُ القَصْرِ:

تَوحيدُ اللهِ ﷻ أَعْظَمُ ما بُعِثَتْ بِهِ الرُّسُلُ لِصَلاحِ البشريَّةِ

في قَوْلِ اللهِ جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، قصرُ أَمْرِهِمْ على عبادَةِ الإلَهِ الواحِدِ، وهو من قصرِ الصِّفَةِ على الموصوفِ،

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/60، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3284.

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/262.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/442.

قصْرًا حقيقيًّا ادِّعائيًا، كأنَّهم لم يُؤمَروا إلَّا بأمْرٍ واحدٍ، ومع ذلك فقد أخلُّوا بهِ إخلالًا عظيمًا، وجاءَ القَصْرُ بالنَّفْيِ والاسْتِثْناءِ، وهو مُسْتَعْمَلٌ في الأَصْلِ لما يُنْكِرُه المُخاطَبُ، مع أنَّ أمرَ اللّهِ تعالى لهُم بالتَّوحيدِ لا يَخْفَى عليهم؛ لِكَونِه أعظمَ ما بُعِثَتِ الرُّسُلُ بِهِ؛ تَنْزيلًا لهم مَنْزِلَةَ المُنْكِرينَ بِعُدُولِهِم عنه إلى الشِّرْكِ باللّهِ تعالى.

دلالَةُ جُمْلَةِ الحالِ:

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، في محلِّ حالٍ مِنَ الواوِ في ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾، وهذِهِ الجُمْلَةُ هي محطُّ التَّشْنيعِ والإنْكارِ عليهم، بأنَّه لا عُذْرَ لهم فيما زَعَموه؛ وذلك لأنَّ وصايا كُتُبِهِم مَليئَةٌ بالتَّحْذيرِ مِن عِبادَةِ غيرِ اللّهِ سبحانَه[1].

لا عُذْرَ في الشِّرك لأَهْلِ الكِتابِ؛ وكُتُبُهُمْ طافِحَةٌ بالتَّحْذيرِ منه والعتاب

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ عمَّا قبلَهُ:

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئنافًا بيانيًّا، فَبَيْنَ الجُمْلَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، والغرضُ: تَعْليلُ الأَمْرِ بِعِبادَةِ اللّهِ تعالى وحدَهُ؛ لكونِهِ سبحانَه الإلَهَ الحقَّ، وهو المُسْتَحِقُّ لِلْعِبادَةِ شرعًا وعقلًا[2].

اللّهُ ﷻ مُسْتَحِقٌّ لِلْعِبادَةِ، بالأدلَّة الشَّرعيَّة والعقليَّة

دلالَةُ القَصْرِ:

في قولِ اللّهِ جلَّ وعلا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ قصرُ الألوهيَّةِ الحقَّةِ على اللّهِ سبحانَه، وذلك لأنَّ خبَرَ (لا) النَّافيةِ للجِنْسِ محذوفٌ، والتَّقدير: (لا إلهَ حقٌّ إلَّا هوَ)، فالقَصْرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ، وقَدِ اسْتُعْمِلَ فيه أقوى طُرُقِ القَصْرِ، وهو النَّفْيُ والاسْتِثْناءُ؛ لِكَوْنِ الجُمْلَةِ تَقْريرًا لِأَعْظَمِ حَقيقةٍ في الكَوْنِ، وهي تَوْحيدُ اللّهِ ﷻ.

أعْظَمُ حَقيقَةٍ في الكَوْنِ، هي توحيدُ اللهِ ربِّ الكون

سِرُّ التَّعبيرِ بالضَّميرِ (هو):

في قولِه تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، عُبِّرَ بالضَّميرِ ﴿هُوَۚ﴾ الذي يعود

اليقين باستحقاق اللهِ للعبادة ممَّا اقتضته الفطرة، وأجمعت عليه الشَّرائع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/170.

(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 6/262.

على اللّه تعالى؛ للدّلالة على حضوره ﷻ؛ فلا يغيب عن شيء، وهو حاضرٌ في كلِّ شيء، وفيه تأكيدٌ لمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾.

تَوْجيهُ المتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

وُجوبُ العُدولِ عن إرْضاءِ المَخْلوقينَ، إلى إرْضاءِ اللهِ ربِّ العالَمين

قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [التَّوبة: 31]، وقال سبحانَه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البيِّنة: 5]، ووجه المغايَرة بينهما: أنَّ آيةَ التَّوبةِ صُدِّرت بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾، فلمَّا كان في هذا إيماءً إلى تعَدُّدِ مَعْبوداتِهم؛ ناسَبَهُ بيانُ أَمْرِهِم بقَصْرِ العُبوديَّةِ على إلَهٍ واحِدٍ، وهو اللّهُ سبحانَه بقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾، وأُكِّدَتْ وَحْدانيَّتُهُ بقوله ﷻ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾، أمَّا آيةُ سورةِ البَيِّنَة، فتقَدَّمَها قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، فناسبَ ذلك الإرشاد إلى تصفية العمل من النفاق لئَلا يقع التَّفرُّقُ، فقالَ تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾.

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ عمَّا قبلَهُ:

اتِّخاذُ الأربابِ هو عَيْنُ الشِّرْكِ لدى أهلِ الكتاب

فُصِلَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عمَّا قبلَهُ؛ لوقوعِهِ استِئنافًا يُرادُ به تَنْزيهُ اللّهِ سبحانَه، والتَّبرِّي ممَّا افتراهُ أهلُ الكتابِ عليه، والتَّصريحُ بأنَّ صنيعَهُم عَيْنُ الشِّرْكِ المناقِضِ للتَّوحيد[1].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالفعلِ المُضارِعِ:

إيغالُ أهْلِ الكِتابِ في الشِّرْكِ، وَوُلُوغُهم فيه حالًا بَعْدَ حالٍ

جاءَ التَّعبيرُ بالْفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾، مِن قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ للدّلالَةِ على اسْتِمْرارِهِم في هذا الشِّرْكِ، وإيغالِهِم فيهِ، وإِحْداثِ أَصْنافٍ منه حالًا بَعْدَ حالٍ.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/171.

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في التَّصَرُّفِ في الأَلْفاظِ، بِما يُلائِمُ المعاني

تَوْجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ:

قال اللّهُ سبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٣١﴾ [التَّوبة: 31]، وقالَ ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٨﴾ [القصص: 68]، ووجهُ المغايَرةِ بَيْنَهُما: أنَّ آيةَ التَّوبةِ، تقدَّمها قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ﴾، فلمَّا كان ذلك هو اللّهَ سبحانَه؛ ناسَبَهُ أَنْ يَعودَ الضَّميرُ عليه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، بِخِلافِ آيةِ القَصَصِ؛ فقد صُدِّرتْ بِقَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ﴾، فكانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القُرْآنيُّ: (ﮂ)، ولَكِنْ لمَّا كانَتِ الرُّبوبيَّةُ أَكْثَرَ تَعَلُّقًا بالعَطاءِ والإنْعامِ والتَّربيَةِ، وكان الاسْمُ الأَعظم (اللّه) جامِعًا لِصِفاتِ الجلالِ والجَمالِ والكَمالِ؛ ناسَبَهُ العدولُ عنِ التَّعْبيرِ بِالمُضْمَرِ، إلى التَّصْريح بِالاسْمِ الأَعظم (اللّه)، فَقالَ سبحانَه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٣٢﴾ [التوبة: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استمرارُ عداوةِ الكافرين، وإتمامُ اللهِ هذا الدِّين

لـمَّا أخبَرَ اللّهُ عن جِنايةِ اليهودِ والنَّصارى في إفسادِ دِينِهم؛ باتِّخاذِهِمْ أحبارَهُم ورُهبانَهم أربابًا مِن دون اللّه، وغُلُوِّهم في عُزَيرٍ وعيسى عليهما السلام، وباستغراقِهِم في خِصالِ الشِّرك، أخبرَ هنا في هذه الآيةِ عن جِناياتِهم في محاولةِ إبطالِ دينِ الإسلام، الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ، فلمَّا أفسدوا دينَهُم انتقلوا لإفسادِ دينِ الـمُسلمين؛ حَسَدًا مِنْ عند أنفُسِهم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾: أصلُ (طفأ) خُمُودُ النَّارِ، بانقطاعِ ما يَخْرج منها مِن لَهَبٍ وحرارةٍ؛ حتَّى ينقطعَ تأثيرُها مِنَ الإشراقِ والإحراق، والمرادُ به هنا: إبطالُ دِينِ الإسلام، بمواجهتِه ومُكايَدَةِ رسولِه وأتباعِه؛ لإزالةِ أنوارِه وانتِشارِه، كما تُزالُ أنوارُ النَّارِ النَّافعة بإطفائها وإبطالِ إسْراجِها[1].

2) ﴿وَيَأۡبَى﴾: مِنَ الإباء، وهو أشدُّ الامتناع، ويدور معناه حول الامتناع عنِ الشَّيء امتناعًا تامًّا؛ كراهةً له، أو إحساسًا بالاستغناء عنه وعدم الحاجة إليه، والمراد بقوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي: يمتنع بكلِّ السُّبل ألَّا يَتِمَّ نورُ اللّه، أي: إنَّ اللّه سبحانَه يَعْظُم ويَجِلُّ سلطانُه عن أن يَعُوقَ تمامَ نورِه عائقٌ، ولا يَقدِر شيءٌ ولا يتأتَّى لشيء أو أمرٍ ما، أن يَمْنَعَ إتمامَ اللّهِ نُورَه[2].

(1) ابن منظور، اللِّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (طفأ).
(2) الرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (أبى).

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

يُتِمُّ اللهُ أمرَ دينِه، ويُبْطِلُ كيدَ الكافرين

يريدُ أهلُ الكتاب والمشركون أنْ يُفسِدوا دينَ الإسلام، ويَمْحُوْهُ مِن قلوبِ أتباعه؛ بِعزْمِهم على التَّكذيبِ والمُكايَدةِ لرسولِ الإسلام؛ بالقدْحِ في براهينِه، وإذهالِ العقولِ عنه بالشَّهواتِ والشُّبهات؛ حتَّى يَنْطَفِأَ برقُه، وتزولَ أنوارُه من قلوبِ المُصَدِّقين به، واللّهُ لا يريدُ ولا يرضَى إلَّا أن يُتِمَّ نورَه بإظهارِ دلائلِه، والاستمرارِ في كَشْفِه وتجليته للنَّاس؛ لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عن بيِّنةٍ، ويَحْيَى مَن حَيَّ عن بيِّنةٍ، ولو كَرِه ذلك المُعْرِضون الجاحدون.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى وعْدِ اللّه تعالى للمؤمنين بإظهار دينِهم وإعلاءِ كلمتهم؛ لكي يمضوا قدُمًا إلى تنفيذ ما كلَّفهم اللّه به بدون إبطاء أو تَثاقل، وهي في الوقت نفسِه تتضمَّن في ثناياها الوعيدَ لهؤلاء الضالين وأمثالِهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع جُملة ﴿يُرِيدُونَ﴾ ممَّا قبلَها:

الكافرون متشابهون في أحوالهم، وإنْ تعدَّدَتْ مِلَلُهم

قولُه: ﴿يُرِيدُونَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ يُقرِّرُ وصفًا آخَرَ، ينضمُّ إلى أوصافهم السَّابقة، في سياقِ تعديد أفعالِهم القبيحة، فَقَرَّر آنفًا انحرافَهم في اعتقادِهم في ربِّهم، وانحرافَهم في اعتقادهم في رسُلِهم، وقَرَّر هنا انحرافَهم في المُكايَدةِ لدينِ الإسلام؛ لزيادةِ إثارةِ غيظ المسلمين على أهلِ الكتاب، بكشفِ ما يضمرونه للإسلام من الممالاة، والتألُّبِ على مناوأةِ الدِّين، حين تحققوا أنه في انتشارٍ وظهورٍ، فثار حسدُهم وخشوا ظهورَ فضله على دينهم، فالضميرُ في قوله: يريدون عائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [التوبة: 29][2]، فيكون معنى الاستئناف جاريًا على جهةِ التَّعديدِ والتَّفصيل والتَّنقُّل في

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/264.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/171.

أحوالهم. ويَصِحُّ أن يكونَ الاستئنافُ جاريًا على جهةِ التَّعليلِ لِما قبلَهُ مِن أقوالهم وأفعالِهم، أي: فعلوا ما فعلوا، وقالوا ما قالوا، مِن خصال الشِّرك والغُلُوِّ؛ لأنَّهم يريدون إبطالَ الدِّينِ الحقِّ، وزوالَ سُلطانِه وهيمنته على الدِّينِ كلِّه، وعليه: فيجوزُ إجراؤه استئنافًا بيانيًّا ممَّا قبلَه، كأنَّه قيل: ما غرضُهم مِن شِرْكِهم وغُلُوِّهم في أحبارهم ورهبانِهم؟ فأُجيبَ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

لِلمشركين عزمٌ مستمِرٌّ في مُدافعةِ الحقِّ ومعارضته

مجيءُ قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾ بصيغة المضارع يُصوِّر أنَّهم ذَوُو عمَلٍ وعزْمٍ متواصِلٍ في مُدافَعةِ الحقِّ ومُعارضتِه، فالمُضارعةُ في فِعل الإرادةِ يُوحِي بأنَّها إرادةٌ فاعِلةٌ مُوظَّفَةٌ في مقاصِد الإفساد، وليستْ إرادةً حبيسةَ الصُّدورِ لا تتعدَّاها بشَرٍّ أو أذًى، فالتَّجَدُّدُ الزَّمنيُّ الذي أفاده المُضارع، مُؤذِنٌ بتوالي حصولِ فِعلِ الإرادة فيما تعلَّقتْ به، وهذا التَّوالي عبارةٌ عنِ التَّصميم والعَزْم، وعبارةٌ عن ظهور أَثرِه في السُّلوك والعمل، بالتَّدبير والكَيْد، وعبارةٌ عن عدم انقطاع المُحاوَلاتِ في سبيل ذلك، بل تبايُنِها وتكرارِها، وتجريب كافَّة أنماطِها وطرائقِها، فأفادت المضارعةُ في ﴿يُرِيدُونَ﴾ بأنه ما تزالُ نفوسُهم مُنْفَعِلَةً بإرادة السُّوء، واجتراحِ المكْرِ والزُّور.

نكتةُ العدولِ عنِ المصدر الصَّريح إلى المؤوَّل:

فَشَلُ الكافرين في النَّيلِ مِن دين الله وعَرْقلةِ مسيرته

قولُه: ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ أبلغُ في موقعِ النَّظم مِن قولِ: (يريدون إطفاءَ نورِ الله)؛ لدلالة المصدر المؤوَّل على ذَواتِهم، في واو الفاعلين في: ﴿يُطۡفِـُٔواْ﴾، فحصل بذلك أن دَلَّ على ذواتهم مَرَّتين؛ مَرَّةً في ﴿يُرِيدُونَ﴾، ومَرَّةً في ﴿يُطۡفِـُٔواْ﴾، ولو قال: (يريدون إطفاءَ) لكان استحضارُهم بأشخاصِهم في الإرادة دونَ أثرِها مِنَ العمل، وهو الإطفاء، واستحضارُهم بذواتهم في حال الانفعال بالإرادة وفي

---

(1) ابن عادل، اللُّباب: 10/75، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/443، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 5/158.

حال إنفاذِها بالفِعل ﴿يُطْفِـُٔواْ﴾، مُعتَبَرٌ في التَّسجيلِ عليهم بقُصور ذَواتِهم في القَصدِ والكَسْبِ الذَّاتيِّ، فيما هم بصدده مِنَ الخُصومةِ مع الحَقِّ، بالإضافة إلى ما في المصدر المؤوَّل مِنَ الدّلالة على استمرار محاولاتهم الفاشلة.

غرضُ الاستعارة التَّصريحيَّة:

نـورُ اللـهِ غالِبٌ علـى كـلِّ سعي بـاطِـلٍ يـحـاولُ طَمْسَه

في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ استعارة تصريحية تبعية وأصلية، وهي على النحو الآتي:

أوَّلًا: الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في الإطفاء، حيثُ شَبَّهَ معارضتَهم وكُفرانَهم بالإطفاء، بجامع الإزالة والطَّمْسِ في كلٍّ.

ثانيًا: الاستعارة التَّصريحية الأصليَّة في النُّور، حيثُ شَبَّهَ الحُجَجَ والبراهينَ اليَقينيَّةَ بالنُّور، بجامع الوضوح وشِدَّة الظُّهورِ في كُلٍّ، أو معنى الدّلالةِ في كلٍّ، أو لأنَّ كليهما - المشبَّهَ والمشبَّهَ به - ظاهرٌ في نفسه، مُظْهِرٌ لغيره، والسِّرُّ في ذلك انحصارُ إمكانِ الإزالةِ في نورها. والمرادُ بنور الله سبحانَه: إمَّا حُجَّتُه النَّيِّرةُ الدَّالَّةُ على وحدانيَّتِه وتَنزُّهِهِ عن الشُّركاء والأولادِ، أو القرآن العظيمِ النَّاطقِ بذلك، أي: يريد أهلُ الكِتابَيْن أن يَردُّوا القُرآنَ ويُكَذِّبوه فيما نطَق به مِنَ التَّوحيد والتَّنزُّه عنِ الشُّركاء والأولادِ والشَّرائعِ، التي مِن جُملتها ما خالفوه مِن أَمْرِ الحِلِّ والحُرمَة[1].

وغرضُ الاستعارةِ التصريحيةِ في هذا القولِ هو التهكُّم والسُّخريةُ من المكذِّبين بدين الله، وإظهارُ تناقضِهم وعجزهم عن إبطال نور الإسلامِ وإشراقِه وهداياته، فمَثَلُهم في ذلك كمَن يريدُ أن يُطفئَ شعاعَ الشمسِ بنَفْخه عليه، وهذا أمرٌ مستحيلٌ دونه خَرْطُ القتاد.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61.

ثالثًا: المجاز المرسلُ في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾، حيثُ ذَكَر المحلَّ (الأفواه)، وأراد الحالَّ فيها، مِن أقوال الشِّرك والتَّكذيب والإثم[1]، والغرضُ مِنَ المجاز هنا: أنَّ أقاويلَهم الباطلةَ، الخارجةَ مِن أفواههم، ليس لها مِصْداقٌ تنطبقُ عليه، أو أصلٌ تستند إليه[2].

براعة الاستعارة في مجموع التَّركيب:

الاستعارةُ التَّمثيليَّةُ إذا أمكَنَتْ كانت أَولى مِن إيراد غيرها

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ في تشبيهِ حالٍ بحالٍ وهيئةٍ بهيئة، فَشَبَّه حالَ مَن يحاول إبطالَ دين الإسلام بالتَّكذيب والكيد، بحالِ مَن يَنفخُ بِفِيْهِ في نورٍ عظيمٍ مُشِعٍّ في الآفاق، يريد أن يُطفِئَهُ بنَفَسِه الضَّعيف[3].

فائدةُ المقابلة المعنويّة بينَ المشبَّه والمشبَّه به:

كلُّ الحِيَل لا قيمةَ لها أمامَ إرادةِ اللهِ العزيز

التَّركيبُ التَّمثيليُّ في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ مُقابلةٌ بينَ أجزائه، فمِن حيثُ سَمَّى الوَحْيَ نُورًا سَمَّى محاولةَ إفسادِه إطفاءً، فالمقابلةُ بينَ النُّور وإطفائه، والإطفاءُ بالفَمِ يُناسِبُ الأنوارَ الضَّئيلةَ مُقابِلَ النُّورِ العظيم التَّامِّ، الذي زادَه اللهُ وأظهرَه، وهيئتُهم في النَّفخ ومحاولةِ الإطفاء حيلةٌ ضعيفةٌ تُعبِّرُ عنِ التَّفريطِ، مُقابِلَ إفراطِ النُّورِ وقُوَّةِ سُطُوعِه وانتشارِه، فالإفراطُ مقابلَ التَّفريط[4].

نكتةُ المجازِ في إسناد الإطفاء إلى النُّور:

اللهُ يُخرِج ما ينفع ممَّا يَضُرُّ ويُؤذي، فلولا النَّارُ المُحرِقةُ ما كان الضَّوءُ والنُّورُ

في إسناد الإطفاء إلى النُّور في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ؛ لأنَّ حقيقةَ الإطفاء في إخماد ضَوءِ النَّارِ، ثمَّ استُعمِل

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/79، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/209، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/333.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/79، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/209.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/405، والشِّهاب الخفاجيّ، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرّاضي على تفسيرِ البيضاوي: 4/321.

في كلِّ نُورٍ وضَوءٍ، ولو كان مِن غير النَّار؛ تغليبًا للغرضِ الشَّائعِ مِن إطفاء النَّار، وهو إذهابُ نورِها، فاستُعمِلَ في كلِّ نُورٍ[1].

وجهُ الكناياتِ في مجموعِ التَّركيب:

في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ كناياتٌ لاستعمال اللفظِ في معنى غير معناه الأصليِّ، بناءً على دليلٍ يربطُ بينهما، فَذِكْرُ الأفواهِ كنايةٌ عنِ التَّقوُّلِ بما لا بُرهانَ عليه، وكنايةٌ عن قِلَّةِ الحِيْلة وضَعْفِ النُّفوذ إزاءَ ما لا طاقةَ لهم بدَفْعِه، كَمَن يُحاوِل أمرًا جسيمًا بسَعْيٍ ضعيف، وجميعُها كناياتٌ عن صفةٍ في الموصوف[2]. فالنورُ هو الكنايةُ عن الإسلام والهُدى، والمعنى أنهم يريدون أن يبطلوا الإسلامَ والهُدى بأقوالهم الباطلة، والدليلُ هو الشَّبهُ بين النور والإسلام في الإنارة والبيان.

لو تَعَوَّدتِ الأفواهُ الصَّمتَ لاحتَجَبَتْ عنِ الزُّورِ والبُهتان

دلالة تقييدِ الإطفاء بالأفواه:

إسناد الإطفاء إلى الأفواه لتضمينه معنى النَّفْخ، وهو مِن بابِ إسنادِ الفِعلِ إلى آلَتِه التي يقع بها غالبًا، وإلَّا فالإطفاءُ قد يَحصُل بغير الفَم. والكلامُ تمثيلٌ لمحاولةِ نصارى الشام الهجومَ على المدينة بحالِ مَن يحاولُ إطفاءَ نورٍ بنفخِ فمه عليه، فهذا الكلامُ مركبٌ مستعمل في غير ما وضِعَ له على طريقة تشبيه الهيئة بالهيئة، ومن كمال بلاغته أنه صالح لتفكيك التَّشبيه بأن يشبَّه الإسلام وحده بالنور، ويشبَّه محاولو إبطاله بمريدي إطفاءِ النور، ويشبَّه الإرجافُ والتكذيب بالنفخ، ومن الرشاقة أنَّ آلةَ النفخ وآلةَ التكذيب واحدةٌ وهي الأفواه[3].

فَاهُ الإنسانِ - على ضَعفِه - قد يُورِدُهُ مواقعَ الخطَر

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ (الإطفاء) دونَ (الإخماد):

الإطفاء أبلغُ مِنَ الإخماد، فهو إزالةُ عينِ النَّار بِذهاب لَهبها

إطفاءُ النَّار أبلغُ مِن إخمادها، فالتعبيرُ به دلالةٌ على بلوغهم الغايةَ في الحِيْلة

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/405.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/171.

واشتعالها، مع زوال جَذْوتِها الكائنةِ في الجَمْر المُتَّقِد، وأمَّا الإخماد: فهو إزالة اللَّهَبِ فقط، فكأنَّه عَبَّر بالإطفاء ليَدُلَّ على بلوغهم الغايةَ في الحِيْلة، ومع ذلك فهم قاصِرون صاغِرونَ عن إنفاذِ إرادتِهم[1].

دلالة إضافةِ النُّورِ إلى اسم الجلالة:

الإضافةُ إلى الله تعالى تشريفٌ ورفعة للمضاف

إضافة النُّور إلى الاسم الجليل تعظيمٌ للنُّور؛ لكونِه مُضافًا إلى الذاتِ الإلهية، وهي ذاتُ اللهِ الكامِلةُ، التي لا يُضافُ إليها ناقصٌ أو ضئيل، ولا يُضافُ إليها شيٌ إلَّا كَمُلَ وتَمَّ، وازدانَ واستقام.

براعةُ التَّعبير بالإباء دونَ نفي الإرادة:

لله على أعدائِه فِعلٌ بالقَهْرِ والإرغام

معنى التَّركيبِ في قوله تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ﴾، أي: (لم يُرِد إلَّا كذا)[2]، ومع ذلك عَبَّر بالإباء دون الإرادة؛ للإيذانِ بمعنى الامتناع الذي يُشعِر بالمُغالبةِ والإرغام، فالتَّعبيرُ بالإباء أفاد ثلاثَ دلالات؛ الأُولى: أنَّ هناك إرادةً مُضادَّة، واللهُ يمنعها، ويُنفِذُ إراداتَه، وهذا المُضادُّ الممنوعُ مذكورٌ في صَدرِ الآية: ﴿يُرِيدُونَ﴾. الثَّانية: المبالغة في نفي الإرادة، فإنَّ قولك: أبيتُ أن أفعل كذا، ليس كقولك: لم أُرِدْ أنْ أفعل، فالإباء يُصَوِّر معنى العَزم والتَّصميم في نفي الأمر ودَفْعه، ونفيُ الإرادةِ مُجرَّدُ نفيٍ للقَصْد. الثَّالثة: الإيجاز اللَّفظيُّ مع كَثرةِ المعنى، ذلك أنَّ ﴿وَيَأۡبَى﴾ لفظٌ واحد، و(لم يُرِد) لفظان، فَعُبِّر بالأوجزِ لفظًا الأكثرِ معنًى، وعُدِلَ عنِ الأقلِّ معنًى الأكثرِ لفظًا.

غرضُ مقابلةِ الفِعل الأدنى بضدِّه الأعلى:

في مقامِ المُغالبَةِ: القويُّ يَأْبى، والضَّعيفُ يُريد

في قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ جاء التَّعبير عن قَصْدهم بفعل الإرادةِ المُوجَب، وقابَل إرادتَهم بإرادةِ الله، ولكن لم يُعبَّر عن إرادة اللهِ بنفس اللَّفظ، ولا بتركيبه المُوجَب في معناه، فلم يَقُل: (يريدون كذا، ويريد اللهُ كذا)، بل قابل إرادتَهم بفعل الإباء المُتَمَحِّض في

---

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/335.

(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/433، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/26، والزَّمخشريّ، الكشاف: 2/149، 6/469، والهمدانيّ، الفريد في إعراب القرآن المجيد: 2/462.

المنع، وجاء به موجَبًا لفظًا؛ ليوافِقَ فِعلَ ﴿يُرِيدُونَ﴾ في صورته الموجَبة، وإن كان ﴿وَيَأۡبَى﴾ منفيًّا معنىً، بقرينة تفريغ الاستثناء الذي لا يكون مُفرَّغًا إلَّا بنفي أو ما في معنى النَّفي، فقوله: ﴿وَيَأۡبَى﴾ أي: يمنع كذا أو ينفي كذا، أو (لم يُرِد كذا)، فثبتَ بذلك أنَّ جملة: ﴿يُرِيدُونَ﴾ قُوبلَتْ بما هو أعلى منها في الدّلالة والمعنى، فالإباءُ أعلى مِنَ الإرادة، وقُوبِلَت بما هو أمكَنُ منها وأثبتُ لفظًا؛ لأنَّ تركيب الاستثناء المُفَرَّغ يتضمَّن ثبوتَ الشَّيء بنفي ما سواه ثبوتًا حصريًّا، أي: لم يُرِد في شأن تلك الخصومة، أو في شأن تقرير الدِّين إلَّا تمامَ نورِه، فقولُكَ: فلانٌ يريد كذا، وأنا في ذاتِ الشأن لا أريد إلَّا كذا، كانت إرادتُك في التَّعبير أثبتُ مِن إرادته؛ لأجل تفاوتِ التَّركيب في التَّعبير عنِ الإرادتين. والخلاصةُ: أنَّ مُقابل ﴿يُرِيدُونَ﴾ اجتمع فيه: عُلوُّ المعنى، وعُلوُّ اللَّفظ، وعُلوُّ التَّركيب في نظيره المقابل، وهو قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾[1].

نُكْتَةُ المُغايرة بينَ التَّعبير عن إرادتهم، والتَّعبيرِ عن إرادة الله:

المُغايرةُ بينَ التَّعبير عن إرادتهم والتَّعبير عن إرادة اللّه في التَّركيب؛ لأنَّ إرادة اللّهِ واقعةٌ موقِعَ صَدِّ الخصومة ورَدِّ الكيْد، المفهوم مِن ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾، فصِيغَ بما هو أعلى في معناه منه؛ لتقعَ إرادةُ اللّهِ موقعَ الحسم والبَتِّ والتَّحدِّي لمُشاكسَتِهم وسُوء فِعالِهم، فقُوبِلَتْ إرادتُهم بما يقطعُها ويُزيلُها من إرادة اللّه العالية، والمغايرة أيضًا: إعراضًا عن مُتابعةِ إرادتهم بمُقابلٍ من لفظها، فكأنَّه لم يقل: (يريدون كذا ويريد اللّه كذا)؛ ليدلَّ على أنَّ إرادة اللّه كما هي بعيدةٌ عن إرادتهم معنىً ورتْبةً، فهي بعيدةٌ كذلك بإزائها لفظًا.

اللّهُ يُعرِضُ عنِ الكافرين، فلا يُجري أفعالَه على غِرارِ لفْظِ أفعالِهم

الفرق بينَ قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾، و﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾:

قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ المصدر المؤوَّلُ مفعول الإرادة، أي:

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/172.

مَن يُعادِي اللهَ يُبَدِّدُ نفْسَهُ على غير طائل

يقصدون إطفاءَ نورِ اللّه، فإرادتهم مُتَّجهةٌ إليه أصالةً وابتداءً، وأمَّا قولُه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ [الصف: 8] فإرادتُهم فيه ليستْ متوجِّهَةً للإطفاء رأسًا، بل متوجِّهةً لأمرٍ يتوسَّلون به للإطفاء، فمفعولُ الإرادة محذوفٌ، وجملةُ ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ مُعلَّلةً عنِ المفعول المحذوف، أي: يريدون ردَّ الرِّسالة لأجل أن يُوصلَهم ذلك لإطفاء نورِ اللّه، فإطفاءُ نورِ اللّه ليس مقصودًا أوليًّا، بل هناك مقصود سابق عليه، وجيءَ بهذا التركيبِ هنا لشِدّةِ مماحكةِ أهلِ الكتاب وتصلُّبِهم في دينهم، ولم يجَأ به في سورة الصف إذ قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصّف: 8]؛ لأنَّ المنافقين كانوا يكيدون للمسلمين خِفيةً وفي لين وتملُّق(1).

الغرضُ السِّياقيُّ لصيغةِ التَّركيب:

اختيارُ أقوى التَّركيبين لأصعبِ الطَّائفتين

إنَّما جاء قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ على هذا النَّسق التَّركيبيِّ، بجعلِ إبطالِ الدِّين غايةً أصيلةً، بإيقاعها مفعولًا مباشرًا لإرادتهم؛ لأنَّ السِّياق هنا في أهل الكتاب، والسِّياق في سورة الصَّفِّ للمنافقين والمشركين، وأهلُ الكتاب أَشَدُّ مُجادلةً ومنازعة مِنَ المنافقين، لِأَثَارةِ العِلْم التي عندهم، بما يحملُهم على الكِبْرِ والإعجاب بما لديهم من الدراسةِ والعلم، وأمَّا المنافقون والكافرون فأُمِّيُّونَ لا عِلْمَ لهم، فهم أَخَفُّ وأخْفَى في نزاعِهم مِن أولئك؛ إذِ المنافقون يَكيدون في تَمَلُّقٍ واستتار، فاختارَ أقوى التَّركيبين لأصعبِ الطَّائفتين(2).

دلالة التَّعبير بالإتمام دونَ الإبقاء:

إتمامُ الشَّيءِ أبلغُ مِن إبقائه

عبَّر في قولِه تعالى: ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بالإتمام، لا بالإبقاء ونحوه، مع أنَّ الكلامَ جارٍ فيما يريدون إزالتَه وإبطالَه، وهو ما عَبَّر عنه بالإطفاء، وعَكْسُ إزالةِ الشَّيءِ إبقاؤُه وتثبيتُه، ومع ذلك لم يقل: (إلَّا

(1) الرَّاغب، المفردات: (طفى)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/172.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/172.

أنْ يُبقِي نورَه أو يُديمَه أو يَصُونَه)؛ لأنَّ الإتمامَ زيادةٌ على الإبقاء، فقد يُبقيه ولا يُتمُّه، لكنْ لا إتمامَ بغير إبقاء، ذلك أنَّ الإتمام مُؤْذِنٌ بِالزِّيادَةِ والِانْتِشارِ، ويُفيد الزِّيادة على الموجود، فهو إبقاء الشَّيء في أرفع حالٍ له، وهو حال التَّمام(1).

بلاغة المصدر المؤوَّل:

أفادَ التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّلِ في قوله: ﴿أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، الدّلالةَ على المعنى الجُمَلِيِّ التَّركيبيِّ الحاصلِ بالإسناد، ويَتَضَمَّن ذلك الدّلالةَ على الزَّمن بصيغةِ الفعل، والدّلالةَ على الفاعل والمفعول، وأمَّا المصدرُ الصَّريح فهو مُفردٌ يَدُلُّ على مُجرَّد الحدث، فدلالةُ المصدر المؤوَّل أوسع مع نيابته عنِ المصدر الصَّريح، ونُكْتَةُ التَّعبير به هنا: استحضارُ الصُّورةِ الزَّمنيَّة لفعل الإتمام، التي تُلْقِي في القلوب شُهودَ عَمَلِ اللّٰهِ في أقدارِه وتدبيره، بإتمام دِينِه في الزَّمان والمكان، فهو سبحانَه يُتِمُّه بِحسْبانٍ مُتَجَدِّدٍ في الأزمان، مِن خلال مُجريات هو يُدبِّرُها، وأحداثٍ هو يُقدِّرُها، وليكون فِعلُ الإتمام جاريًا في الزَّمنِ بحسبِ كلِّ جيلٍ، فيشهدُه كلٌّ في زمانه، ويَرى مَظاهره وأسبابَه، ولو عَبَّر بالمصدر كأن يقال: (إلَّا إتمامَ نوره) لم يكن دالًّا على حركةِ الفعلِ في الزَّمن الذي هو أدلُّ على آثارِ اللّٰهِ، وسُنَنِه المتجَدِّدَةِ في خَلْقِه(2).

نورُ اللهِ تامٌّ في نفسِه، ويَستمِرُّ إظهارُ تمامِه إلى يومِ الدِّين

موقعُ جملةِ الاستثناء المُفَرَّغ ممَّا قبلَها:

قوله تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿يُرِيدُونَ﴾، كأنَّه ردَّ إرادتَهم لإرادته، فوصَل الإرادتين بالعطف على جهة المُغايرة، بينَ ما لِذواتِهم وذاتِ اللّٰه من صفة الإرادة، فالصِّفات على قَدْرِ الذَّوات، والأدنى مردودٌ للأعلى ومشمولٌ بهيمَنَتِه وآثارِ صِفَتِه(3).

الصِّفاتُ على قَدْرِ الذَّوات، وإراداتُ البشَر جميعًا راجعةٌ إلى إرادةِ الله

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/172.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 3/146.

(3) صافي، الجدول: 10/326.

نورُ اللهِ مُستَمِرٌّ في الظُّهور، وظُلماتُ أهلِ الكتابِ والمشركينَ إلى أُفُول

الموقع البلاغيُّ لجملة الاستثناء ممَّا قبلَها:

جملةُ: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ ترشيحٌ للاستِعارة التَّمثيلِيَّةِ في قوله قبلَه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ لأنّ قوله: ﴿يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ مُتَضَمِّنٌ لوصفٍ يُناسِبُ المشبَّه به في الاستعارة ويُلائمه، وهو تمامُ النُّور، بزيادته وانتشاره، وهو تفريعٌ على المشبَّهِ به، وترشيحٌ للاستعارةِ فيه(1).

لا شيءَ أرضَى عندَ اللهِ، مِن تَجليةِ شرعِه ودينِه لِخَلْقِه

دلالَة حَذْفِ مفعولِ الإباء:

تفريغ الاستثناءِ وحَذْفُ مفعولِ الإباء، فلم يقل: (ويأبى اللّهُ كذا)؛ للمبالغة في تأكيد معنى الخبر، وهو الوعد بالإتمام، ويكفي في هذا التَّأكيد ما أوحاه الاستثناء المُفَرَّغ مِنَ المعنى، فكأنَّ اللّهَ فَرَّغَ إرادتَه في هذا الشَّأن لشيءٍ واحد فقط، وهو إتمامُ نورِه، فلم يجعل رِضاه وإرادتَه تتعلَّق إلَّا به(2).

تمامُ الأشياءِ موكولٌ إلى الله، لا تَتِمُّ إلَّا بإرادته سبحانه

سرُّ الإظهار في مقام الإضمار:

في كلمة (النُّور) مِن قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ عدولٌ عن الإضمارِ للإظهار، فلو اطَّرد السِّياقُ لقيل: (يُريدون أنْ يُطفِئوا نورَ اللّهِ بأفواهِهم ويأبى اللّهُ إلا أنْ يُتِمَّه)، ولكنْ أظهَرَهُ لِثلاثِ نِكات: الأولى: إعادةُ إضافتِه لضميرِ العَظَمَةِ ﴿نُورَهُۥ﴾؛ لتأكيدِ تعظيمِ النُّور في حقيقته، وتعظيمه في نِسْبَتِه، للإشعار بعِلَّةِ الإتمام والظُّهور، وهو كونُ هذا النُّورِ مُضافًا إلى اللّه ومنسوبًا إليه، وفيه زيادةٌ في الاعتناء بشأنه. الثَّانية: مِن بديع المعنى وشَرَفِ النَّظْم عدمُ الاكتفاء بإظهار النُّورِ في جانبِ النَّقص، وهو جانبُ محاولةِ إطفاءِ الكافرين له، فأظهَرَهُ - أيضًا - وصرَّح به في جانب الكمال، وهو الإخبار بإتمام اللّه له؛ لِيَدُلَّ بذلك على أنَّ نُورَه ظاهِرٌ على كلِّ حالٍ، فأيَّدَ ذلك

---

(1) ابن التّمجيد، حاشيته على تفسيرِ البيضاوي: 9/210، والشِّهاب، عِنايةُ القاضِي وكِفايةُ الرّاضِي على تفسيرِ البيضاوي: 4/321.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/337.

بإظهارِه اللَّفظيِّ في التَّركيب أيضًا. الثَّالثة: أنَّ إظهارَ النُّورِ في مقام الإضمار يتَّسِقُ ويأتَلِفُ مع مقصود اللّهِ في إظهارِ نورِه على الدِّيْنِ كلِّه، وهو المفهوم مِن إتمامه، ومِن قوله في الآيةِ بعده: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فكما هو ظاهِرٌ في الحقيقةِ والواقع، ناسَبَ إظهارَه في تركيب الكلامِ عنه؛ ليستحضِرَ السَّامِعُ والقارئُ ظهورَ نُورِ اللّه في الذِّكْرِ والفِكْرِ والخبَرِ والواقِع. وهذا مِن موافقاتِ الأسلوب التَّعبيريِّ لمقاصِد المعنى، ومُرادِ المُتكلِّم.

دلالةُ الشَّرط بـ(لو)، وأثرُها في رَبْط الكلام:

إرادةُ اللهِ نافِذةٌ لا يُؤثِّر فيها كُرْهُ مُبْغِضٍ أو مُوالاةُ مُحِبٍّ

(لو) في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ له دلالَتان؛ الأُولى: المبالغة في الأحوال؛ ولذا كانت الواو في ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ حاليَّةً، أي: لا يرضى اللّهُ إلَّا أن يُتِمَّ نورَه، ولو في حالِ كَرِه الكافرون ذلك، والمبالغةُ مُتوجِّهَةٌ لجملة الشَّرط بعد ﴿وَلَوۡ﴾. الثَّانية: أنَّ (لو) أفادتِ الوَصْلَ والرَّبطَ بينَ ما قبلَها وما بعدَها، أي: بين قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾، وقولِه: ﴿كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، والرَّبطُ هنا في مقامِ تأكيدٍ ومبالغة كما سبق، ولذا يَصِحُّ تخريجُ معنى الواوِ على أنَّها للعطف على محذوفٍ في موضع الحال، والمعطوفُ على الحالِ حالٌ، والتَّقديرُ: يُتِمُّ اللّهُ نورَه على كلِّ حالٍ، ولو في حالِ كُرْهِ الكافرين له، وفائدة ﴿وَلَوۡ﴾ على هذا التَّقدير: استقصاءُ الأحوالِ، واستقصاءُ غايَةِ ما يُتوقَّعُ معهُ انتفاءُ حُكْمِ ما قبلَها، فيَذْكُرُه المتكلِّمُ لِقصْدِ تَحقُّقِ الحُكم في جميع الأحوال التي تعترِضُه أو تطرأُ عليه(1).

معنى الكُرْهِ وبلاغتُه:

الكَراهِيَةُ: كنايةٌ عن لوازِمها مِن أعمالِ العدوانِ والكَيْدِ

الكَراهِيَةُ في قوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ليستِ الكَراهِيَةَ السَّاذَجةَ التي هي ضِدُّ الحُبِّ، بل هي الكراهِيَةُ بجميع لوازِمِها

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 2/504، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/277، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/306، 9/273.

الدَّاعيةِ لـمَنْع إتمام ظهورِ دينِ اللّه وانتشارِه، بمقاومتِه بضِدِّه مِنَ الكافرين، فكأنَّ المعنى: إنَّ اللّهَ يُتِمُّ نورَهُ وإن قَاوَمَ الكافرون ذلك بمحاربته، الـمُعَبَّرِ عنها بمحاولةِ إطفائه. فالكراهيَةُ هنا كنايةٌ عن لوازمِها، أمَّا مجردُ الكراهيَةِ مِن غير مُحاربةٍ فمعناها غيرُ واردٍ هنا؛ لأنَّها جُعِلَتْ غايةً بالِغةً لنفوذِ إرادة اللّه فيها، فكيف يُتَحَدَّى بإرادةِ اللّهِ على غايةٍ مُجرَّدة لا خَطَر فيها ولا أثَر؟ فثَبَتَ أنَّ الكراهِيَةَ المذكورةَ هي التي لا تكون عن مُسالَمَةٍ ومُصالحة، بل عن محاربةٍ ومقاومةٍ وإفساد[1].

بلاغةُ الختْمِ بمضمون جملة الشَّرط:

إرادةُ الله تشمَلُ ما يـرضَى عنه وما لا يَرضاه سبحانه

الختْمُ بقوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ مُشْعِرٌ بمعنى المقابلةِ مع الجملة قبلَه، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، فقوله: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ﴾ تذييلٌ على جملة الاستثناء، التي هي ترشيحٌ للاستعارةِ في الجملة قبلَها، وهذا التَّذييل جاء في مُقابلةِ قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾؛ إذْ هو مُبيِّنٌ للإرادة المفهومة مِنَ الفعل (يأبَى)، وأنَّها إرادةٌ خاصَّة على وجْهِ الرِّضا، وليست الإرادةَ العامَّةَ، وذلك بقرينة التَّذييل بكراهِيَةِ الكافرين: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، فقد دَلَّ بمفهومه: على أنَّ إتمامَ نورِ اللّه محلُّ رضًا ومحبَّةٍ مِنَ اللّه؛ إذْ جُعِلَ محلًا لكراهِيَةِ الكافر[2].

علَّةُ اصطفاء لفظ الفاصلة:

الكُفرُ ظُلُماتٌ في النَّفس، يحملُها على كُرْه النُّور

لفظ الفاصلة: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، خِتامٌ لُوحِظَ فيه مَطلَعُ الآية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾، فلَفْظُ الكُفرِ يُناسِبُ لفظَ الإطفاءِ في السَّتْر والإزالة، وهذا سِرُّ مجيءِ جملةِ الفاصلة تذييلًا على ترشيح الاستعارة، فجاءَ تركيبُ هذه الآية يُسْلِمُ بعضُه إلى بعضٍ في تناسُبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/273.
(2) الشِّهاب، عِنايةُ القاضِي وكِفايةُ الرَّاضي على تفسيرِ البيضاوي: 4/321.

أجزائه[1]، وتناسبُ معنى السَّتْر والإزالة في بداية الآيَة وآخِرها نوعٌ مِنَ التَّوشيح[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإطفاء والإخماد:

الإطفاءُ أتَمُّ مِنَ الإخماد

الإطفاءُ والإخمادُ: مِن أطْفَأ وأخْمَد، وأصلُهما: طَفِئَ وخَمَدَ اللَّازِمَيْن، وأصلُ استعمالِهما في النَّار، وإطفاءُ النَّارِ: هو إذْهابُ لَهَبِها وزوالُ الحرارةِ عن جَمْرِها، وإخمادُ النَّار: إِسْكانُ لَهَبِها مع عدمِ انطفاءِ جَمْرِها، فالأصل في الإخمادِ: سكونُ حركةِ النَّارِ، وسقوطُ عمودِها، وهي شُعْلَتُها المُمْتَدَّة، مِن غير أن يَبْرُدَ جمْرُها، فإذا بَردَ جمْرُها وزالَتْ حرارتُه كانت مُنْطَفِئةً لا خامدةً، وعليه: فالخُمُودُ هو مُقدِّمَةُ الانطفاء، فلا يكون الانطفاءُ إلَّا بعدَه، ولذا فالإطفاءُ أتَمُّ مِنَ الإخماد[3].

الإباء والامتناع:

الإباءُ أَخَصُّ مِنَ المَنْع، ولا يكون إلَّا بعَزْمٍ وعَمْدٍ وكَراهِيَةٍ للفعل

أصل الإباءِ: شِدَّةُ الامتناعِ معَ كراهيته، والامتِناعُ مِنَ المَنْع، وأصلُه: الحَجْزُ بينَ شيئين، ولذا يُستعمَل في خِلافِ الإعطاء؛ لأنَّه حَجْزٌ بينَ المُعطَى والعَطيَّة.

وحاصِلُ الفَرْقِ بينَهما: أنَّ الإباء أَخَصُّ مِنَ المَنْع، في كونِه منْعًا مُوصوفًا بالشِّدَّة، التي تُعَبِّر عنِ العزيمةِ في القَصْدِ لِمَنْعِ الشَّيء، فالإباءُ لا يكون إلَّا بعزْمٍ وعَمْدٍ، وأمَّا الامتناعُ فقد يقع من غير قَصْدٍ وعَمْدٍ، ولا تَحرٍّ لِمَنْعِه. والإباءُ يقترنُ بكراهِيَةِ الشَّيءِ الذي يُمْتَنَعُ عنه، ولذلك سَمَّوا النَّاقةَ بالآبِيَةِ؛ إذا كانت تَعافُ الماءَ، أي: تمتنِعُ عنه

(1) ابن التَّمجيد، حاشيته على تفسيرِ البيضاوي: 9/210، والشِّهاب، عِنايةُ القاضي وكِفايةُ الرَّاضي على تفسيرِ البيضاوي: 4/321.

(2) سُمِّيَ هذا البابُ توشيحًا لكون معنى أوَّل الكلام يدلُّ على لفظ آخره، فيتنزل المعنى منزلةَ الوِشاح، ويتنزَّل أوَّل الكلامِ وآخرُه منزلةَ العاتقِ والكَشْح، اللَّذَين يجول عليهما الوِشاح.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خمد)، وابن منظور، اللِّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (خمد، طفأ).

لكَراهِيَتِه، ويقولون: فلانٌ أخَذَهُ أُبَاءٌ مِنَ الطَّعام، على وزن فُعَال، أي: كَراهَةٌ، وأمَّا الامتناعُ فأعمُّ مِن ذلك، فقد يَمْنَعُ الإنسانُ شيئًا لا يَكرَهُهُ، فلا يُشترطُ فيه اقترانُ الكراهِيَةِ به؛ لأنَّه مُطلَقُ الحَجْزِ بينَ شيئين[1].

(1) الرَّاغب، المفردات: (أبى)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفَّاظ: (منع)، والفيروزاباديّ، القاموس، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (أبى).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التَّوبة: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

من أعظم آيات إتمامِ هذا الدِّين بِعثةُ خاتمِ النَّبيِّين محمَّدٍ ﷺ

لـمَّا أخبَرَ اللّهُ في الآيةِ السَّابقةِ عن قَصْدِ الكافرين وإرادتِهم في إزهاقِ الحقِّ والنُّور الذي جاء به الرَّسولُ ﷺ، وأنَّه سبحانَه يأبَى إلَّا أن يُتِمَّ نورَه، بيَّنَ هنا في هذه الآيةِ كيفيَّةَ هذا الإتمام، وأنَّه سبحانَه قَضَى بالأسبابِ الظَّاهرة والمعجزاتِ الباهرة إظهارَ هذا الإتمام لخلْقِه، بأن أرسلَ رسولَه بالهُدى ودِينِ الحقِّ؛ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾: أصلُه من (ظهر)، ويدلُّ على قُوَّة وبُروز وانكشاف، ولذلك سُمِّيَ وقتُ الظُّهر والظَّهيرةِ بذلك؛ إذ هو أظهرُ أوقاتِ النَّهار وأضوؤُها، والأصل في ذلك كلِّه: ظَهْرُ الإنسان، وهو خِلاف بَطْنه، وهو يَجْمَع البُروزَ والقُوَّة والظُّهور، والظَّهيرُ: العَوْنُ والمعينُ، والمرادُ هنا: أرسلَ رسولَه لِيُعلِيَهُ بدينِه على سائر الأديان، فيَبْرُزَ ويَظْهَرَ عليها ظهورَ الغالِبِ المؤيَّد(2).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إرسالُ اللهِ رسولَه محمَّدًا ﷺ إعلاءٌ وإظهارٌ لهذا الدِّين

اللّهُ ﷻ هو الذي أرسل رسولَه محمَّدًا ﷺ بالقرآن العظيم، الذي اشتملَ على البيِّناتِ الهاديَةِ والدَّالَّةِ على دين الحقِّ الإسلام، وقد فعل سبحانَه هذا الإرسالَ لِيُعلِيَ رسولَه على سائر أهلِ الأديان، ويُظْهِرَ دِينَهُ بما فيه من الحُجج والبراهينِ والأحكام

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (ظهر).

على سائرِ الأديانِ كُلِّها، رَغْمَ أَنْفِ المُشركين وكراهَتِهم لذلك بالمُناوَئَةِ والمُعاداة.

وترشد الآية الكريمةُ إلى انتشارِ الإسلامِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربها، وقد جاءت أخبارٌ كثيرةٌ تدلُّ على هذا المعنى، كقولِ النبيِّ ﷺ: «إنَّ الله زَوى لي الأرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي مِنْها»(1). وإلى أنَّ ما بَعَث الله به نبيَّه وخاتمَ رسلِه محمدًا ﷺ مشتملًا على بيانِ الحقِّ من الباطل في أسماء الله وأوصافِه وأفعالِه، وفي أحكامِه وأخبارِه، والأمرِ بكلِّ مصلحةٍ نافعةٍ للقلوب والأرواحِ والأبدانِ، من إخلاص الدِّين لله وحده، ومحبةِ الله وعبادته، والأمرِ بمكارم الأخلاقِ ومحاسن الشِّيَم، والأعمالِ الصالحة، والآدابِ النافعة، والنهيِ عن كلِّ ما يضادُّ ذلك ويناقضُه من الأخلاقِ والأعمالِ السيئةِ المضرةِ للقلوبِ والأبدانِ والدنيا والآخرة(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة فَصْلِ جملة: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ﴾ عمَّا قبلَها:

بيانُ كيفيَّةِ الإتمامِ المذكور قبلَها، بخاتمة الرِّسالات، والشَّرائع الإلهيَّة المُنَزَّلة

قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ بيانٌ وتقريرٌ لمضمون جملة: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، وفَصْلُها عمَّا قبلَها لِكمالِ الاتِّصال بينَ المُبَيِّنِ والمُبَيَّن، والمراد بالبيان: بيانُ كيفيَّةِ الإتمام المذكور في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، ووجْهُ البيان: تفسيرُ الإتمام المذكور بأنَّه ليس الإتمام الذي ينشأ عن قِلَّةٍ ونقْص، فدُفِع بهذا التَّفسير هذا الإيهامُ؛ لأنَّ نورَ اللهِ المَضافَ إليه هو تامٌّ في نفسه، فلا يحتاج لإتمام بمعناه المعروف، فعُرِفَ أنَّ إتمامَه هو إظهاره ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، والإظهارُ: ليس

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2889).
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 192.

تكميلًا، بل هو دليلٌ على الكمال، والذي يُعينُ على هذا التَّوجيهِ أنَّه قال: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾، ولم يقل: (ليُتِمَّه)، ويَصِحُّ حمْلُها على الاستئناف البيانيِّ كذلك، باستحضار سؤالٍ: كيفَ أتمَّ اللّهُ نورَه؟ فيُجاب: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾. وعلى اعتبارها استئنافًا بيانيًّا فبَيْنَ الجُملتين شِبْهُ كمالِ اتِّصال؛ لأنَّ الاستئناف البيانيَّ مَشوبٌ بالانقطاع؛ لأنَّ السُّؤال إنشاء، والجوابَ خبر، فبينَهما انقطاعٌ، ولكنْ بالنَّظر إلى المعنى فالسُّؤالُ والجوابُ متَّحِدان في المعنى، إذْ هما واردانِ على معنًى واحد، فكانت جملةُ الاستئنافِ البيانيِّ أقربَ إلى كمال الاتِّصال؛ لِكونِ اتِّصالِ المعنى أقوى مِن انقطاع اللَّفظ[1].

بلاغةُ الاستِهلالِ بالضَّمير والموصول:

توفُّرُ النَّظْمِ على تعظيمِ شأنِ الرَّسولِ ﷺ

افتتاحُ الجملةِ بضمير الجلالة ﴿هُوَ﴾، والموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾، أفاد القَصْرَ في الحُكم، أي: هو الذي أرسل وحدَه لا غيرُه، والقَصْرُ يُفيد تفخيمَ أمْرِ الإرسال، وأنَّه شأنٌ عظيم لا يَصِحُّ إمْكانُه إلَّا للّه وحدَه، ولذا استَحَقَّ قَصْرَه عليه، والإتيانُ بالموصول ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ أفاد أنَّ مضمون الصِّلة - وهو الحُكم بالإرسال - مُترتِّبٌ على الحُكم بالإتمام في قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، فالموصولُ مُشْعِرٌ بعلِّيَّة الحُكم، والعِلِّيَّة بينَ تلك الجملةِ وما قبلَها، ليستْ مُستفادةً مِنَ الموصولِ استقلالًا، بل الموصولُ مُشْعِرٌ بها، بمعونةِ أنَّ جملةَ الإرسالِ بيانٌ لجُملةِ الإتمام.

ووجْهُ استفادةِ العِلِّيَّة مِنَ الموصول: دلالةُ الموصولِ على تفخيم الذَّات، وأنَّها لعظَمَتِها وهيْمَنَتِها مَنوطةٌ بأسبابِ القُدْرةِ التي يتوقَّفُ عليها إتمامُ الدِّين، فكأنَّ العِلِّيَّةَ مُستفادةٌ مِنَ التَّفخيم الذي أفادَه الموصول، فكان الموصول دالًّا على كِلَيْهما[2].

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/61، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/211، والدُّسوقيّ، حاشيته على مختصر المعاني: 2/504.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/173.

نُكْتَةُ العُدُول عنِ اسم الذَّاتِ الظَّاهر إلى الضَّمير:

الضَّميرُ رابطٌ بينَ الجُملتين، وفيه استنهاضُ الفِكْرِ لتَدَبُّرِ السِّياق

في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ﴾ افتَتَحَ الآيَةَ بضمير الجلال، دونَ الاسم الظَّاهر، فلم يَقُل: (اللّه الذي أرسل)؛ لكمالِ الرَّبطِ بينَ الجُملتين، هذِه وما قبلَها، لأنَّه لو افتَتَحَ بالاسم الظَّاهرِ لأوهَمَ انقطاعًا بينَ الجُملتين، فلِكَمالِ الاتِّصال بدأ بالضَّمير، لوصلِه بمرجِعِه في الجملة التي قبلَها: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ﴾، وفي التَّعبير بالضَّمير (هو) استنهاضٌ للفكر؛ لتدبُّر السِّياق، إذ إنَّ إرسال اللّه رسولَه أَمَارةٌ مِن أَمَارات إرادةِ اللّه في إكمال الدِّين وشرائعِه وإتمام نُورِه وانتشاره في العالمين، على الرُّغم مِن محاولات الكافرين.

بلاغةُ جِناسِ الاشتقاق:

الـرِّسـالـةُ هي أشـرفُ وَصْـفٍ للرَّسول ﷺ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾، جاء لفظُ الرَّسولِ - وهو المفعول - مِن مادَّة الفِعل: (أرسل)، ولم يقل: (أرسل مُحمَّدًا، أو نبيًّا، أو عبدَه)؛ لإجراء وَصفِ الرِّسالةِ عليه، لِتعيينِ أنَّه مُرسَلٌ لتلك الوظيفة، لِدفعِ أن يكون إرسالُه إرسالًا عامًّا، فلا يَلزَمُ منه أن يَختصَّ بوصْفِ الرِّسالة، وفيه نوعُ إلزام واحتجاج على أهل الكتابِ السَّابق ذِكْرُهم، فمَجِيءُ التَّركيب: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ مِن أصل الاشتقاقِ هو من المحسِّنات البديعيَّة، وفيه تأكيدُ معنى الإرسالِ، المؤكِّدِ معنى الواسطة بينَ اللّهِ والخَلْق.

دلالةُ إضافةِ لفظ (الرَّسول) لضمير الجلالة:

الـلـهُ يُـضـيـفُ رسـولَـه إلـيـه؛ لِـيُـخـبِرَ بتأييدِه وَوِلايتِه له

أضافَ اللّهُ سبحانه الرسولَ إليه بقوله: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ وذلك للنَّصِّ على معنى انتساب الرَّسول ﷺ إلى اللّه سبحانه، وللتَّنويه على ما يَستَتْبِع ذلك مِن ولايةِ اللّهِ له، ونُصرته إيَّاه، كأنَّ المعنى: أرسلَه لِيَنصُرَه ويُؤَيِّدَهُ، إذْ هو رسولُه، وما أفادَتْه الإضافةُ مِن معنى الانتساب الـمُستَلْزِم للتَّأييد، لازمٌ مِن لوازم الإباء المذكور في قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، وتابعٌ له، ومترتِّبٌ عليه، ولا يخفى أنَّ

إضافةَ لفظِ الرَّسولِ لضمير الجلال، تشريفٌ لشأن الرَّسول، وتعظيمٌ لقدْره، وتنويهٌ بمكانته، إذِ المضافُ للعظيم لا يكونُ إلَّا عظيمًا[1].

دلالةُ تعدِيَةِ الإرسال بالباء:

تعظيمُ شأنِ الرَّسول بوصْفِ الرِّسالة ووظيفةِ الهدايةِ وإبلاغ الحقِّ

الباء في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للمصاحبة، أي: مصاحبةِ الهُدى واشتراكه معَ الرَّسول في الإرسال، ولا يلزمُ مِنَ المصاحبةِ والمعيَّة التَّزامُنُ بينَ الهُدى والرَّسول حالَ الإرسال، أو الباءُ للإلصاق، فيكون الهُدى حالَ إرسالِ الرَّسولِ لَصِيقًا به[2].

سِرُّ تعديَةِ الإرسال إلى (الهُدى)، دونَ (النُّور):

نورُ اللهِ مِنْ صِفَاتِه، والدِّينُ والهُدى مِن آثارِ نوره

تعديَةُ الإرسالِ للهُدى في قوله: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، ولم يَقُل: (أرسل رسولَه بالنُّور)؛ اطِّرادًا مع قوله قبلَه: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾؛ للدّلالةِ على عموم النُّور وخُصوصِ الهُدى، ولذَا أُضيفَ النُّور لاسم الذَّات ﴿ٱللَّهُ﴾، فالهُدى بعضُ هذا النُّورِ، ودِينُ الحَقِّ أثَرٌ مِن آثار هذا النُّور، فالهُدى ودِينُ الحَقِّ مِنَ النُّور، لا أنَّهما النُّورُ[3].

معنى العطف:

الدِّينُ الحَقُّ لا يكون إلَّا هاديًا

عَطْفُ الدِّين الحَقِّ على الهُدى في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ من باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ، وعطفِ الشَّيءِ على صِفَتِه، فالدِّينُ الحَقُّ لا يكون إلَّا هاديًا، ولا يتّصِفُ بالهُدى إلَّا الدِّين الحَقُّ، والعطفُ لتعديدِ الصِّفات، فكأنَّه قيل: (أرسل رسوله بدينِ الهُدى ودِين الحَقِّ)، أي: الدِّينِ المُتَّصِفِ بهما[4].

نُكْتَةُ تقديمِ (الهُدى) على ﴿دِينِ ٱلۡحَقِّ﴾:

تقديمُ الدَّرْءِ والتَّخْلِيَةِ على التَّحسينِ والتَّحلِيَة

جاء الهُدى مُقَدَّمًا على الدِّين الحَقِّ، تسجيلًا على اليهود والنَّصارى أنَّهم على ضلالة فيما زَعَمُوه بشأنِ عُزَيْرٍ وعيسَى عليهما السلام،

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/211.

(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.

فكأنَّهُ يقول لهم: لسْتُم على الهُدى فيما افترَيْتُمُوه، ثمَّ قرَّرَ لهم ما ينبغي أن يكونوا عليه، وهو الدِّين الحَقُّ، فكأنَّه يُخاطبُهم باستدفاع ضلالتِهم بالهُدى أوَّلًا، ثمَّ اعتناق الحَقِّ ثانيًا، فهو من بابِ تقديم الدَّرْءِ والتَّخْلِيَة، على التَّحَقُّقِ والتَّحْلِيَة.

بلاغةُ اصطفاءِ التّركيب:

في جملة: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ مُراعاةٌ لتكوين الفطرةِ في الإنسان، فإنَّ الإنسانَ لا يعتنِقُ الدِّينَ الحَقَّ، ولا يَثْبُتُ عليه، إلَّا بالاهتداءِ إليه بِحُسْنِ التَّوجيهِ والدّلالة، وتَبَيُّنِ الجهةِ المستقيمة، فالهُدى: هو العلمُ النافعُ، الذي هو آلةُ الوصول للدِّين الحَقِّ، ففي التَّركيبِ جمْعٌ بينَ الدَّليل (الهُدى)، والمدلولِ عليه: (دين الحقِّ)، الذي هو العملُ الصالحُ، وفي التَّركيب - أيضًا - جمْعٌ بينَ ما يُورِثُ سَكِيْنَةَ الباطنِ بالهُدى، وثباتَ الظَّاهِر بالحَقِّ، وفيه: تعليمٌ بأنَّ الحقَّ مُلْتَمَسٌ بأسبابِه الهادِيَة مِنَ الحُجَجِ والبراهين المستقيمة، ومَجيءُ التَّركيب على تلك الصُّورة فيه إيماءٌ إلى توافُقِ الباطنِ مع الظَّاهر، فالهُدى ألصقُ بالباطن، والدِّينُ الحَقُّ ألصق بالظَّاهر، والذي يُعينُ على هذا التَّوجيه: أنَّ الهُدى يَنْبني في أصله على اتِّباع الدّلالةِ، وموافقةِ الاتِّجاه، ولا يكون ذلك إلَّا باتِّجاه الدَّاخِلِ نحوَ المُراد، وأمَّا الدِّينُ الحَقُّ: فهو الثَّابت، والثُّبوتُ: صِفةٌ ظاهرةٌ، والمُتَّصِفُ به مُتلَبِّسٌ به على نحوٍ ظاهر، وهيئةٍ ظاهرة، ولذا قد يُرَى الشَّخْصُ على الدِّين الحَقِّ، وهو غيرُ مُهْتَدٍ به في حقيقةِ الأمر[1].

التَّدَيُّنُ الحقيقيُّ ما يَجتمعُ فيه سكينةُ الباطِن مع صَلاح الظَّاهِر

دلالة اللَّام في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾:

جُملة: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ تعليليَّةٌ لِما قبلَها، وهي بيانٌ لِلغايةِ مِن إرسال الرَّسول، واللَّامُ الجارَّة للتَّعليل أو للعاقبة، وعلى أنَّها للتَّعليل يكون

إذا أراد اللهُ شيئًا هيَّأ أسبابَه، وحَقَّقَ عواقِبَه

(1) الماورديّ، النُّكت والعيون: 2/355، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/32، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.

المعنى: أنَّه أرسله لِيُظْهِرَهُ على الدِّين، فإرسالُ الرَّسولِ عِلَّةٌ للإظهار، ومعنى أنَّها للعاقبة، أي: جَعَلَ عاقبةَ الإرسالِ أن يُظهِرَه على الدِّين كلِّه. والفَرْقُ بينَ اللَّامَيْن: أنَّ لام العاقبة أَعمُّ، فقد يكون ما قبلَها سببًا لمدخولها، وقد لا يكون، ولامُ التَّعليلِ لا يكون ما قبلَها إلَّا سببًا لمدخولها[1].

معنى تَعْدِيَةِ الإظهارِ بحرف ﴿عَلَى﴾:

الدِّينُ الحقُّ يَغلِبُ غيرَه في صِدْقِ حُجَجِهِ وسلامَةِ دلائله

تَعْدِيَةُ الإظهارِ في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ بحرف ﴿عَلَى﴾؛ لِتضمينه معنى النَّصر والتَّفضيل والغَلَبَةِ والهَيْمَنَة، بما أفاده حرف ﴿عَلَى﴾ مِنَ الاستعلاء المجازيِّ، فهو دينٌ يَغلِبُ غيرَه مِنَ الأديان في صِدْقِ حُجَجِه، وسلامة دلائلِه، وفي التَّعدِيَة بحرف الاستعلاء بُشرى للمؤمنين بالإسلام، إذِ الإخبارُ باستعلاء الدِّيْن مِنْ شأنه أَنْ يُفرِح أَتْباعَه، والخبَر مِنَ اللّٰه بما يقع في المستقبل وَعدٌ مُحَقَّقٌ، يُقوِّي الرَّجاء، ويُثَبِّتُ القلوب[2].

دلالةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل:

اللهُ وعَدَ عبادَه أنْ يُريَهُم آياتِ إظهارِ دينِه

تركيبُ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ مُكوَّنٌ مِن: لام التَّعليل الجارَّة، و(أَنْ) المصدريَّةِ المحذوفة جوازًا، والفعلِ (يُظْهِر)، والمصدرُ المؤوَّل من (أَنْ والفعل) في محلِّ جَرٍّ باللَّام، ونُكْتَةُ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل - هنا - تخليصُ الفعلِ للاستقبال، فـ (أَنْ) إذا دخلَتْ على المضارع خَلَّصَتْهُ للاستقبال، وفائدةُ ذلك: تنزيلُه منزِلَةَ الوعد، وغَرَضُ التَّركيب: إرادةُ الزَّمَنيَّة؛ ليستحْضِرَ المؤمنُ حركةَ المعنى جاريةً في الزَّمن، وهو أحضُّ على الاعتبارِ وزيادةِ الإيمان، بشهودِ الوعدِ يتحَقَّق ويَسْتَمِرُّ، بخلافِ المصدر الصَّريح (الإظهار)، فإنَّه دَالٌّ على مجرَّد الحَدَث، فدلالتُه مُصمَتَةٌ، وأمَّا المصدر المؤوَّل فذو حيويَّةٍ في عمَلِه وجريَانِه[3].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3287.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/173.

(3) صافي، الجدول: 10/327، والخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 5/161.

مَرجِعُ الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾:

الرِّجالُ وسائطُ اللهِ في تبليغ دينه

الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ إمَّا أن يعود على أقرب مذكور: ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، وإمَّا أن يعود على (الرَّسول) على قول ابْنِ عَبّاسٍ ﵄، والأَوْلَى أنْ يعود على (الرَّسول)؛ لأنَّه مفعول الإرسال، والدِّين معَه، فبإظهاره يَظهر الدِّين، ولا يكون إظهارُ الدِّين إلَّا به، ولا يخفى أنَّ الدِّين يظهر بالرِّجال، فلا بدَّ مِن أنْ يَظهرَ بواسِطةٍ لا بنفسِه، فثبَتَ أنَّ أصل الظُّهور للواسِطةِ لا له.

وأمَّا عَوْدُ الضَّمير على (دين الحقّ) فيُلاحظُ فيه أنَّ الدِّين معطوفٌ على (الهدى)، فكلاهما مع الرَّسول في إرساله، وقد تقرَّر أنَّهما متغايران، فالرَّسول جاء لإظهار الهدى، وإظهارِ الدِّين كذلك، فكلاهما مقصودٌ بالإظهار، ولم يقل في الآية: (لِيُظهرَهما)، وليس عَوْدُ الضَّمير على أحدهما بأَولى مِن عَوْده على الآخر، فلو قيل: إنَّ الضَّمير عائد على دين الحَقِّ، فلِمَ لا يُقال: إنَّه عائد على لفظ (الهدى)، فكان عَوْدُه على (دين الحقِّ) قلقًا في موضِعه، فكان عَوْدُه على لفظ: ﴿رَسُولَهُۥ﴾ أَولى[1].

بلاغة التَّركيب في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى﴾:

الإسلامُ دينٌ مَنيعٌ لا يُغالَب

التَّعبير بالظُّهور في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى﴾ أفاد أنَّه يُغالِبُ طرَفًا آخَرَ موجودًا حاضِرًا، وهو سائر الأديان، ونُكْتةُ ذلك: أنَّه لا يَلزمُ مِن ظهور الإسلام أنْ يَنْتَفِيَ نُفُوذُ الأديانِ الأُخرى وانتشارها، فضلًا عنِ انقراضِها وزوالِها، بل المفهومُ أنْ يُغالِبها الإسلامُ في نفوذِها بنفوذِه، ويَدحرَ سلطانَها بسلطانِه وبُرهانِه، فتَخُورُ أمامَه ليَظْهرَ عليها أو يَصمدَ أمامَ نفوذِها، فلا تَظهَرُ هي عليه[2].

---

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/254، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/406.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/174.

دلالة (ال) في قوله: ﴿ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾:

(ال) في قوله: ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لاستغراق الجنس، والاستغراقُ هنا استغراقٌ حقيقيٌّ، بمعنى: أنَّه ما مِن دينٍ إلَّا والإسلامُ يَعلوه، ولأجل هذه الاستغراقيَّةِ جُعِل اسمُ الدِّين خالصًا في مُسمَّاه وحقيقتِه في الإسلام، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: 19]، كأنَّه بِظهورِه على سائرِ الأديان لم يُبْقِ لِدِيْنٍ منها حظًّا في اسمِه، فسَلَبَ منها معنى الدِّيْن في الاسم والمُسمَّى، والمراد بالدِّين: إمَّا الدِّينُ نفسه، أو أهلُ الدِّين، على حَذْفِ مضاف، والتَّقدير بحذف المضافِ مُتوجِّهٌ على اعتبار عَوْدِ الضَّمير في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ على (الرَّسول)، أي: أرسل الرَّسولَ لِيُظْهِرَهُ على أهلِ الأديانِ الأُخرى فيَخْذُلَهم، فتُخْذَلَ بخِذْلانِهم أفكارُهم وأديانُهم، فيكون ظهورُه عليهم ظهورًا على الدِّينِ كلِّه[1].

ما مِنْ دينٍ إلَّا ودِينُ الإسلام يَعلوه

بلاغة التَّوكيد وأثرُه في المعنى:

التَّوكيدُ بلفظ (كلِّه) في قوله: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ للمبالغة في الاستغراق الحاصل مِن (ال) في ﴿ٱلدِّينِ﴾، ونُكْتَةُ الإتيانِ بالتَّوكيد مع حصولِ الغُنْيَةِ عنه باستغراق الجنس في لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ لِسببَيْنِ؛ الأوَّل: لِدَفْعِ توهُّم أن تكون (ال) في ﴿ٱلدِّينِ﴾ لغير الاستغراق، كأن تكون للعَهْد، فتفيدُ الخصوصَ وليس العمومَ، فلمَّا أكَّد ذلك بصيغةِ العموم، ثبَتَ أنَّ (ال) للاستغراق من غير إيهام. الثَّاني: أنَّ لفظ ﴿كُلِّهِۦ﴾ جعل لفظَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ يتناولُ الأديانَ جميعًا، فيدخلُ فيه كلُّ دين له أصلٌ صحيح، كالشَّرائع السَّماويَّة كافَّة، ويدخل فيه ما ليس دِيْنًا في أصلِه، ولا أصلَ له، بل هو دِيْنٌ بحسَب اعتبارِ مُعتَنِقيه له؛ كالأديان الوضعيَّة التي تملأ الأرض، ولا صِلةَ لها

لا غُنْيَةَ في دين وضعيٍّ أو كِتابيٍّ عن الإسلام الدِّينِ الحقّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/277.

بمصادرِ الدِّين الحقيقيَّة، فجاء التَّأكيدُ ليتناولَ الأديانَ في معناها الشَّرعيِّ والوضعيِّ.

دلالة تكرارِ جملةِ الشَّرط:

مَنْ يُعادِي اللهَ لا يُحتَرَم

تكرارُ جملةِ الشَّرط: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، بعد قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ﴾؛ مُراعاةً لِمضمون السِّياق، فهو مُشتَمِلٌ على التَّحدِّي والـمُغالبَة، والوعدِ بإظهار الإسلام على سائر الأديان، وإظهارِ الرَّسول ﷺ على رؤساء المِلَلِ وأتباعِها، وفي هذا ما يستدعي كراهِيَةَ الخصوم، ويَستفِزُّ فيهم مشاعرَ الغيظِ والبُغْض، فأُعِيدَ الشَّرطُ بنحوِه السَّابِق في الآية السابقة في قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لتوفُّرِ دَاعِيْه الذي يَقتضيه، إتْباعًا لحُكم الإظهارِ المذكور، بدَفْعِ ونقْضِ ما هو مَظِنَّةُ نَقْضِه واعتراضِه، وهو حال كَراهِيَة الخصومِ لذلك.

بلاغة خَتْمِ الفاصلة:

الـمُشْرِكُ أَعْنَدُ مِنَ الكافِرِ وأظهرُ خصومةً؛ لكون الآيـةِ في معنى الغَلَبةِ والدَّفْع

في خَتْم الفاصلةِ بلفظِ: ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ثلاثُ دلالات؛ الأُولى: اطِّرادًا معَ السِّياق في تقرير ما تضمَّنَه مِن معنًى، فالآياتُ وارِدةٌ في الحديثِ عن أنماطِ الشِّرك وأصناف الـمُشركين، فهناكَ المشركون الوثنيُّون الذين لا أصلَ لدينِهم، فوثنيَّتُهم أشْبَهُ بالدِّيانات الوضعيَّة اليوم، وقد قال اللّه فيهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، وهناكَ المشركون مِنَ اليهود والنَّصارى، الذين وَصَفَهم بالشِّرك فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقال هنا: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، أي: أصحاب تلك الدِّياناتِ مِنَ الوثنيِّين المشركين، الذين يُمثِّلون الأديانَ التي لا أصلَ سَماوِيَّ لها، واليهودُ والنَّصارى المشركون الذين يُمثِّلون الدِّين ذا الأصلِ السَّماويِّ. الثَّانية: إنَّما اختارَ هنا وَسْمَهُم بوَصْفِ الشِّرك دونَ لفظ

الكُفر، كما في جملة الشَّرط السَّابقة: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، أو لم يجعل أحدَ الوصفَين مكانَ الآخَر؛ لأنَّ لفظ الكُفْر عامٌّ، فختَمَ به المرادَ العامَّ، وهو قوله: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، فإتْمامُ اللّهِ لنُوره حاصِلٌ رَغْمَ أَنْفِ كلِّ كافرٍ، كَرِه ذلك أو لم يَكْرَهْ، وأمَّا الـمُشرك فهو أَخَصُّ مِنَ الكافِر؛ لأنَّ الكافِر قد يَجْحدُ ويُنْكِر من غير أنْ يَتَّخِذَ معبودًا آخَرَ يُشركُه معَ الله، ولذا كان الـمُشْرِكُ أكثرَ عِنادًا، وأظهرَ خصومةً، لأنَّه يكفر بالرَّحمن، ثُمَّ يَتّخِذُ نِدًّا يَعْبُدُهُ، فكأنَّه يُعانِد بهذا النِّدِّ، وكان الختْمُ به أنسبَ هنا؛ لأنَّ الآية في معنى الغَلَبةِ والدَّفْع، الذي تضمَّنَه قولُه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فلا بُدَّ لهذا المعنى مِن مَغلوبٍ، كان يُخاصِم ويُعانِد ويتَصَدَّر كَطَرَفٍ مُنازِعٍ، حتَّى يُظْهَرَ عليه ويُغلَبَ، فاصطفى الوصفَ بالإشراك للدّلالة على هذا المعنى.

الثَّالثة: أنَّ وَصْفَهم بالشِّركِ بعدَ وَصْفِهم بالكُفرِ، للدّلالة على أنَّهم ضَمُّوا الكفْرَ بالرَّسولِ إلى الكفرِ بالله، وهو الإشراك[1].

علَّةُ ذكر المشركين، واختصاص الآية السابقة بذكر الكافرين:

مناسبة كراهة المشركين لظُهور الدِّين، وكراهةِ الكافرين لإتمام نورِ الله من قديم الدَّهر

وخُصَّ الـمُشرِكونَ في قولِه: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ بالذِّكرِ؛ لأنّها كَراهَةٌ مُختَصَّةٌ بِظُهورِ دين مُحَمَّد ﷺ، وخُصَّ الكافِرونَ قبلُ؛ لأنَّها كَراهَةُ إتمام نورِ اللّه في قَديم الدَّهرِ وباقيه، يَعُمُّ الكَفَرَةَ من لَدُن خَلقِ الدُّنيا إلى انقِراضِها، ووقعتِ الكَراهَةُ والإتمامُ مرارًا كثيرَةً[2].

الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

لِيُظْهِرَهُ ولِيُعلِيَهُ:

الظُّهور: خِلافُ الخفاء، والعُلُوُّ: خِلافُ السُّفْل

إعلاءُ الشَّيءِ: جَعْلُه بمقام العُلُوِّ، وإظهارُه: جَعْلُه بمقام الظُّهور، والعُلُوُّ: هو ارتفاع الشَّيءِ فوقَ شيءٍ تَحتَه أو أدناه، والظُّهور: هو بُروزُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/445، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/62.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/407.

الشَّيء عنِ الشَّيءِ، بحيثُ يكون ظاهرًا منه ومُنْكَشِفًا عنه، فالشَّيءُ الظَّاهِر: هو الذي حصَلَ جِهةَ الظَّهْر، بحيث لا يَخفَى، سواء كان مُرتفعًا أم غيرَ ذلك، والشَّيء العالي: هو المرتفعُ، سواء كان ظاهرًا أم مُستَتِرًا، فالجِهةُ بينَ العُلُوِّ والظُّهور مُنْفَكَّة؛ لِكونِ الظُّهورِ خلافَ الخفاء، والعُلُوِّ خِلافَ السُّفْلِ، إلَّا أنَّ (ظَهَرَ) إذا عُدِّيَ بـ (عَلَى) ضُمِّنَ معنى العُلُوِّ والارتفاع، مع دلالتِه الزَّائدةِ على الظُّهور والانكشاف والبُروز، فمعنى: (ظَهَرَ عليه) إذا علاه عُلُوًّا لا يَخفى، بل ينكشفُ ويَبْرُز، والظُّهور مِن هذه الجِهةِ الخاصَّةِ أَخَصُّ مِنَ العُلُوِّ، إذِ الأَخيرُ لا يَلزَمُ عنهُ انكِشافٌ أوِ اسْتِتَارٌ، معَ اشتراكِ كُلٍّ مِنَ الظُّهور والعُلُوِّ في الجانب المعنويِّ والحسِّيِّ، فالعُلُوُّ منه حِسِّيٌّ ومعنويٌّ، والظُّهور كذلك[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (ظهر، علو).

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤﴾ [التَّوبة: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كثيرٌ مِن علماء اليهود ورُهبان النَّصارى يبيعون دينهم بدنياهم محاولينَ إطفاء نور الله

هذه الآيةُ مُتّصِلةٌ بسياق الكلامِ في أهلِ الكتابِ؛ وقد تَقَدَّم في هذا السِّياقِ أنَّ اليهود والنَّصارى اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا مِن دون الله، وأنَّهم أشركوا باللّهِ فعبَدوا غيرَه مِنْ دونه، وأنَّهم يريدون أنْ يُطفئوا نورَ الله الذي أفاضَه على عبادِه برسالةِ محمَّدٍ ﷺ، وأنَّ اللّهَ يأبى إطفاءَه؛ بل يُريد إتمامَه وقد فَعَل، فناسَبَ هنا أنْ يُبيِّن مع هذا شيئًا مِنَ السِّيرةِ العمليَّة لجُمهورِ هؤلاءِ الرُّؤساءِ الدِّينيِّين؛ لِيعرفَ المسلمون حقيقةَ حالِهم، والأسبابَ التي تَحمِلُهم على محاولةِ إطفاءِ نُورِ اللّه تعالى، وأنَّ أكثرهم يعبدون أهواءَهم وشَهواتِهم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكۡنِزُونَ﴾: مِنَ الكَنْزِ، وهو اسمٌ على المال العظيم، ويأتي مصدرًا، بمعنى: تَخْبِئَةُ النَّقْدَين (الذهب والفِضّة) وادِّخارُهما، فَلَفْظُ الكنْزِ يَدُلُّ على الجَمْعِ والادِّخارِ والتَّخْبِئَة؛ ولذا يُقال الكنْزُ للمالِ المَدفونِ تحتَ الأرض، ثُمَّ استُعمِل في كلِّ مَخْبُوءٍ في حِرْزٍ، وإن لم يكنْ في الأرض، والمراد هنا: يجمعون الأموال ويُخْفونَها في الادِّخار، ولا يُنفِقونَها في مصارفِها المستحقَّة(2).

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/343.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفَّاظ: (كنز).

تنبيهُ المؤمنين وتحذيرُهم مِنَ الاغترار بعلماء أهل الكتاب وعُبَّادِهم

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُنادي اللهُ عبادَه الذين آمنوا، شاهِدًا لهم بالإيمانِ مادِحًا لهم به، مُخبِرًا إيَّاهم - على جهةِ التَّنبيهِ والموعظة - أنَّ كثيرًا مِن علماء أهل الكِتابِ وعُبَّادِهم لَيَأْخذونَ أموالَ النَّاس بغير حَقٍّ، باسم مناصِبِهم الدِّينيَّة؛ كالرِّشْوَةِ لتخفيفِ الأحكام، والرِّبا، وغيرِهما، ويمنعونَ النَّاس مِنِ اتِّباع النَّبيِّ ﷺ؛ ليبقى نفوذُهم على أَتْباعِهم، وهناك كذلك الذين يُمْسِكون المالَ، ويَدَّخرونَهُ ولا يُنفقونه في مَصارِفِه الواجبةِ والمُسْتَحَقَّة، فأولئكَ مُبشَّرونَ بالعذاب الموجِع الأليم[1].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى ألَّا يَثِقَ المؤمنون بأحبار اليهودِ ورهبانِ النَّصارى بما يلبَسونه من طُقوسٍ ومُسوحٍ يُلْقون بها بين الناس المهابةَ منهم والثقةَ، فيبيِّن اللهُ للمؤمنين أنهم يَتَّجرون بعلمهم، ويأخذون الرِّشا وسُحتَ المالِ، والاتجارُ بالعلم في ذاته غيرُ جائزٍ، فكيفَ إذا كان الثمنُ رِشًا وبراطيلَ وسُحتَ المال؟

لا عُذرَ للتَّابع في تقليدِه أئمَّةَ السُّوءِ

وتحذِّرُ مَن يتعلمون أحكامَ الإسلام ويعلِّمونه بألَّا يتخذوه متجرًا يتَّجرون به، فدينُ الإسلامِ أعلى ما ورثهُ العلماءُ من نبيِّهم ﷺ، فلا يبيعونه ويشترون به ثمنًا قليلًا من الدنيا؛ كي لا يكونوا من علماء السُّوءِ وعبَّادِ الضَّلالِ، كما قال سفيان الثوري: مَن فَسَد مِن علمائنا كان فيه شَبَهٌ من اليهود، ومَن فَسَد من عُبَّادنا كان فيه شَبَهٌ من النَّصارى[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ جملةِ النِّداء ممَّا قبلَها:

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ غرضُه إنشاءُ التَّحذيرِ والنَّذير، بتقريرِ حالةٍ مِن أحوالِ الانحرافِ المادِّيِّ عند رؤساء أهل الكتاب، مِنَ الأحبار والرُّهبان بعد تقريرِ حال العَوامِّ

(1) نخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 192.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/138، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3286.

والأتباع، في اتِّخاذِهم أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا مِن دون اللّه؛ لِيسْتَتِمّ بتلك الجملةِ حالَي الأتباعِ والمتبوعين، فالأتباعُ غارِقون في إذلالِ أنفسِهم وإضلالها بالشِّركِ وعبوديَّةِ الإنسان، والمتبوعون راغبون عنهم، مُستخدِمين لهم في تحصيل الأموال والمنافعِ وتعزيزِ النُّفوذ، فكلٌّ فريقٍ يبتغي مِنَ الآخَرِ منفعتَه، بطريق الباطل والدَّنِيئةِ والزُّور[1].

سِرُّ مَجيء التَّركيبِ على أسلوبِ الإنشاء الطَّلَبيِّ:

كـلُّ خـبَرٍ عـنِ انـحـرافِ غـيرِ المـؤمـنين، هو تحذيرٌ للمؤمنين مـن هـذا الانحراف

جاء الإخبار عن حالِ أكثر علماءِ أهل الكتابِ - في القرآن الكريم - مُصَدَّرًا بأسلوب النِّداءِ للمؤمنين لأغراضٍ أربعة؛ الأوَّل: إطْلَاعُ المؤمنين على أحوالهم؛ ليَحْذَروهم عند مُخالطتهم، لِئَلَّا ينخدعوا أو يُغْبَنوا فيهم[2]. الثَّاني: نَهْيٌ ضِمْنِيٌّ للمؤمنين عنِ التَّورُّطِ في مِثْلِ مَزالِقهم ونقائصِهم؛ ليحفظوا على أنفسِهم مقامَ الإيمان الذي ناداهُمُ اللّهُ به. الثَّالث: إجراءُ وَصْفِ الإيمان على المُخْبَرِ عنه بالأسلوب المباشر، وهو النِّداء لهم مباشرةً مِنَ اللّه دون واسطة تشريفًا لهم، ولذا لم يقل: (قل للذين آمنوا) تعريضًا بأهل الكتاب الذين اتّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم وسائطَ شِركيَّةٍ بينَهم وبينَ اللّه، فكأنَّ اللّه هنا يُنادي المؤمنين ليقولَ: إنَّ اللّه ينادي عبيدَه بما يشاء مِن غير واسطة، فأَوْلَى بهؤلاء المنحرفين أن يقصِدوه مِن غير وسائطهم التي اتَّخذوها أربابًا مِن دونه. الرَّابع: تضمينُ الخبرِ الذي سيُتْلَى عليهم معنى الإنشاءِ؛ لأنَّ النِّداء إنشاءٌ طلبيٌّ بما استوجبه مِن معنى طلَبِ الإقبال، فإذا كان الطَّلبُ المذكور لأجْل الإخبار بما له تعلُّقٌ بالأحكام التَّكليفيَّة، كان النِّداءُ حينَئِذٍ إنشاءً طلبيًّا، اقترن بما يستلزِم تكليفًا، والتَّكليفُ إمَّا أمرٌ أو نَهيٌ، وذلك إنشاءٌ، فكانتِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/445، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/279، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/174.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 5/279.

الجملةُ الخبريَّة ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ الواقِعة جوابًا للنِّداء، مُتضمِّنَةً معنى الإنشاء، أي: لا تكونوا مِثْلَهم في أَكْلِ الحَرام.

نُكْتَةُ تخصيصِ المؤمنين بالخِطاب:

المؤمنون خيرُ النَّاس اتِّباعًا لدِينِهم

افتُتِحَ الخَبرُ عن علماءِ أهل الكتابِ وعُبَّادهم بنداء المؤمنين، دون أن يأتيَ مُجرَّدًا عنِ النِّداء بالكُلِّيَّة، فلم يقل: (ولو كره المشركون، إنَّ كثيرًا مِنَ الأحبار)؛ لِمناسبةِ المقامِ الذي يُخبِر عنِ الأتباع الذين كان انحرافُهم ذريعةً لرؤساءِ دينِهم، أنْ يأكلوا أموالهم بالباطل، فلمَّا كان كلُّ المؤمنين أتباعًا لدين الإسلام، وقَع ذِكْرُهم بالنِّداء في هذا السِّياق لمُحاكاتِهم المَذكورين في مقامِ الاتِّباع، فقيل لهم: كونوا أتباعًا لدينِكم، لا كَهؤلاءِ الأتباعِ لِدينِهم.

دلالةُ الموصول وصيغةُ الماضي في جملةِ النِّداء:

النِّداءُ بالصِّفة المحمودة تزكيةٌ للمُنَادَى بها

قولُه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نُودِيَ على المؤمنين باسم الموصول: (الذين)؛ تمييزًا لذواتِهم المتَّصِفَة بمضمون الصِّلةِ تمييزَ تشريف، فهو أبلغُ في المعنى مِن أن يُقال: (يا أيّها المؤمنون)؛ لأنَّ في الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وصِلته بالفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، تزكيةً لذواتِهم، وتزكيةً لأعمالِهم، فقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عَبَّر فيه بالاسم الموصول؛ لِيَدُلَّ عليهم بذواتهم، فيُجرِي وصفَ الإيمان عليها، وفيه إشعارٌ بعِلَّةِ تشريفِهم بالنِّداء الإلهيِّ، وهو أنَّهم ذواتٌ مؤمِنة، والتَّعبير بتركيب ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أبلغُ مِن اسم الفاعلين (المؤمنون)؛ لدلالته على الذَّات والفِعلِ بطريق المنطوق المتعدِّد (الموصول وصِلَتِه)، لا الصِّيغةِ الأُحاديَّة (اسم الفاعل)؛ جريًا على التَّفصيل والإطناب الذي اقتضاه المقام، في سَردِ الأوصافِ وذِكْرِها مُحقَّقَة، وإيرادِ فِعلِ الإيمانِ بصيغةِ الماضي، مِن دلائل تحقيقِ وصفِهم بالإيمان؛ لِتَقَع تزكيَتُهم بالإيمان موقِعَ الجزم واليقين.

أحكامُ اللهِ عادلةٌ مع خَلْقِه، ودليلٌ على فشوِّ هذا المسلك فيهم وانتشارِه بينهم

عِلَّةُ إسنادِ الحُكم إلى كثيرٍ مِنَ الأحبار والرُّهبان دونَ جميعِهم:

أسندَ هذه الجريمةَ إلى الكثير من الأحبار والرُّهبان دونَ جميعِهم، اتِّباعًا لِمَسْلَكِ التَّحرِّي والمطابقةِ، والإنصاف في إطلاق الأحكام، تنزُّهًا عن شوائبِ الجَوْرِ، وهذا مبدأٌ قرآنيٌّ تقرَّر على وجه العموم في قوله: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ [المائدة: 8]، وتقرَّر على وجه الخصوص في أهل الكتابِ بقوله تعالى: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ [آل عمران: 113] فاللّه لا يحكم على الأمَّة الكبيرة بفساد جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم؛ بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر، أو يطلق اللَّفظ العامَّ ثمَّ يستثني منه، فمِن الأوَّل: قولُه تعالى في اليهود: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: 62]، ومِنَ الثَّاني: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ٤٦﴾ [النساء: 46]، وأيضًا: لأنَّهم لم يَخْلُوا من وجودِ الصَّالحين فيهم، مِثْلِ عبدِ اللّه بنِ سَلَام ﵁، وفي التَّعبير بالكَثْرة إلماحٌ لِصفاتِ اللّهِ العُليا، مِنَ العدل والعِلْم والحِكْمة(1).

وفي التعبيرِ بكثرةِ الأحبارِ والرهبانِ الذين يأكلون أموالَ الناسِ بغير حقٍّ شرعيٍّ، دليلٌ على فشوِّ هذا المسلك فيهم وانتشارِه بينهم، وفيه الإلماحُ إلى عدم قَصْرِه في زمن دون زمنٍ من عهودِهم، بحيث كان مستديمًا فيهم ومتطاولًا حُقُبًا متعاقبةً، وكأنَّ هذا القبضَ الماليَّ المشبوهَ أصبح سائغًا لهؤلاء العلماءِ والعُبَّادِ - مع علمهم بحُرمته وبَشَاعته - لطولِ العهد وقلَّةِ التقوى فيهم، والرغبةِ منهم في التصدُّر والرئاسة الدينية، ولكثرةِ إلْفِ من يُعطيه لهم من الأتباعِ الرِّعاع، بحيثُ غدا منهم حقًّا مشروعًا مقتطعًا من أموالِهم - من

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/344، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/175.

غير نَكارةٍ له منهم - لهذه المجموعةِ القابضةِ بالظُّلم والعُدوانِ، وفيه التحذيرُ منهم ومن شرِّهم المستطيرِ ومن ضلالهم الكبير.

دلالة التخصيص بلَقَبي الأحبار والرُّهبان:

الوصفُ بالمَنْصِبِ الكريم إذا اقترنَ بسُوءِ الفِعل يكون قَدْحًا لِصاحبِه

اقتُصِرَ النَّظمُ الكريمُ في الذِّكر على الأحبار والرُّهبان، دونَ التَّعبير باليهود والنَّصارى؛ لِقصدِ التَّخصيص، لأنَّه أراد طائفةَ الرُّؤساء من العلماءِ والعُبَّاد منهم، ولو قال: (اليهود والنَّصارى)؛ لدخَلَ فيهم العوامُّ والأتباع ومَن تُؤكَلُ أموالُهم؛ إيذانًا بأنَّ هؤلاء الرؤساءَ كانوا يرتكبون النَّقائصَ ويأكلون الحرام، بِمُوجَبِ ما يقتضيه وَصْفُهم بالأحبار والرُّهبان، فكونُهم موصوفين بذلك هو ذريعتُهم التي بها "يأخذون من أموال أتباعهم، ضرائبَ وفروضًا باسمِ الكنائس والبِيَع وغيرِ ذلك؛ ممَّا يُوهِمونَهم أنَّ النَّفقةَ فيه مِنَ الشَّرعِ والتَّزلُّفِ إلى اللّه"[1].

وفي إيرادِ تلك التَّسميَةِ إشارةٌ إلى تحقيرهم؛ لأنَّه وَصَفَهم - بين أقوامهم - بأرفعِ المناصِب التي يَتوسَّلون بها لِأَخَسِّ المطالب، فانحطُّوا مِن رُتْبَةِ المقامِ العالي الذي أقاموا فيه أنفسَهم، بشُؤمِ ما اجترحوه من خِصالِ الضَّعَةِ والخِسَّة[2].

نُكْتَةُ تقديم الأحبار على الرُّهبان:

مُراعاةُ قواعدِ السِّياقِ والمقام مِن مقاصِد البيانِ العالي

قدَّمَ الأحبارَ على الرُّهبان اطِّرادًا مَعَ السِّياق المقالي والسِّياق المقامي، فوافَقَ السِّياقَ السَّابقَ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا﴾، ووافَقَ السِّياقَ الواقعيَّ الخارجيَّ، وهو كونُ الأحبارِ مُتقدِّمين على الرُّهبانِ زمَنًا؛ لِكونِ اليهودِ قبل النَّصارى.

دلالة تسميتهم بالأحبار والرُّهبان:

تسمِيَتُهُم بالأحبار دليلٌ على قُدرتِهم المتفوِّقَة في تحبيرِ المعاني

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/27.

(2) القرطبيُ، الجامع لأحكام القرآن: 8/122، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/446.

لا خيرَ في العالِم إذا لم يعمل، ولا في العامِل إذا لم يَعلَم

بِحُسْنِ البيانِ عنها، فهم يُنتِجونَ في العِلمِ آثارًا حسنةً، تدلُّ على مَلَكَتِهِم العلميةِ الرَّاسِخةِ، والرُّهْبان: جمْع راهِب، واشتقاقُه مِنَ الرَّهْبَة، وهو وَصْفٌ يدلُّ على حال التَّنَسُّكِ والزَّهَادة والاعتزال في الصَّوامع[1]، وعليه: فيُؤخَذ من هذينِ اللَّفظَينِ عِدَّة دلالات؛ أوَّلًا: أنَّ الغالب في اليهود أنَّهم أعلَم، والنَّصارى أعبَد. ثانيًا: أنَّ معنى اللَّفظينِ ممدوح، فلمَّا اقترنا بما يَسُوء ويَشِيْن، وهو أَكْل أموالِ النَّاس بالباطِل، صار اللَّفظانِ أمْكَن ما يكونُ في الذَّمِّ، كقولك: فلانٌ الغَنِيُّ يَسْرِق، وفلانٌ القَوِيُّ يُؤذِي الضَّعيف. ثالثًا: أنَّ تسميَتَهما بذلك (أسماءُ مَملَكَةٍ في غَيرِ مَوضِعِها)[2]، وهي تسميةٌ مُعطَّلَة فارِغة، وليستْ على معنى التَّحَقُّق، فهي لهم كَمَنْ اسمُهُ: (صالِح)، ويُفسِدُ في الأرض.

دلالة دخول اللَّام على الفعل المضارع:

الانحرافُ المادِّيُّ إذا لم يُداوَ تَفقِدُ معه النَّفسُ استشعارها لِحُرمتِه

اللَّام في قوله: ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾ لامُ الابتداء التي تزحلَقتْ لتتَّصلَ بالخبر[3]؛ لوجودِ مؤكِّدٍ آخَر اقترن بالمبتدأ، وهو (إنَّ)، فانفردَ به عنِ اللَّام، ووظيفتُها معنويَّةٌ، وهي: تأكيد العلاقةِ الإسناديَّة بينَ المبتدأ والخَبر، والمبالغةُ في معنى الخَبر وتوكيده، و(يأكلون) خبر (إنَّ)، و﴿كَثِيرٗا﴾ اسمُها، وهو المبتدأ، وتأكيدُ الخبر باللَّام يُفيد تمكُّنَ الفِعلِ منهم، وشِدَّة إدمانِهم له.

بلاغة الإخبار عنهم بلفظ الأكل:

التَّفرُّغُ لإشباعِ فضولِ الغرائز مَنْقَصَةٌ قادِحة

الإخبارُ عن الأحبارِ والرهبانِ بلفظِ الأكل فيه إيماءٌ إلى تحقيرِهِم وتهوينِ ذَواتِهِم، ووجْه ذلك: أنَّه أخبر عنهم بفِعلٍ من أفعالِ الأفواهِ والبُطُون، وهو (الأكل)، فكأنَّه يقول: وَصْفُهم بالأحبار

(1) الرَّاغب، المفردات: (حبر، رهب)، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/276.
(2) اقتباسًا من بيت أبي الحسن علي بن عبد الغني الفِهْري الحُصْريّ، الشاعر الأندلسي المشهور رحمه الله.
(3) درويش، إعراب القرآن: 4/93.

والرُّهبان الذي يقتضي العِلمَ والعبادة، والتنزَّهَ عن الشُّبهات والمحرَّمات لم ينفعهم في شيء؛ لأنَّهم قومٌ مُتفرِّغون لشهواتِهم، وما تَؤُزُّهم إليه غرائِزُهُم، ومجيءُ الخبر بصيغة المضارع (يأكلون) يُصوِّر شراهتَهم وهيئَتَهم القبيحة، في نزوعِهم الـمُتكرِّر والمستمرِّ في استباحةِ أموالِ طبقاتِ مجتمعهم ونسيجه المتنوِّع بالباطل.

بلاغة إسناد الأكْل إلى الأموال:

الأكْـلُ هو أكثرُ ما تُنْفَقُ الأموالُ فيه

إسناد الأكل إلى الأموال مجازٌ مرسل في الأخْذ والتَّناول، علاقتُه الـمُسَبَّبيِّة؛ إذِ الأخْذُ سببُ الأكل، فَذَكر الـمُسَبَّب وأراد السَّبب، أو عَبَّر عنِ الشَّيء بأعظم مقاصده؛ لأنَّ الأكل هو المقصود الغالب مِن جمْع الأموال، أو التَّركيبُ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، حيثُ شبَّه أَخْذَهُم وتعاطيهم للحرام مِن غير تمييز، بمَن يأكلُ ما ليس له مِن غير تمييز[1].

دلالةُ إضافة الأموال إلى النَّاس:

تحصيلُ الانتفاعِ مِنَ الـمِلْكِيَّاتِ بـغـير رِضَا أصحابِها إثْمٌ وعُدوان

إضافة الأموال للنَّاس في قوله: ﴿أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾ لتعريف الأموالِ، فهي أموالٌ خالِصةٌ لأصحابها، اكتسبوها بعَرَقِ جَبِينهم وبأنواع الصَّفَقِ المختلفة، فهي مُتعيِّنةٌ لهم، داخِلةٌ في حيازتِهم، فالإضافة لإظهار معنى السَّطوِ والاستيلاءِ عليها مِن قِبَل الأحبار والرُّهبان، ولِنفْيِ أيِّ شُبهةٍ مُحتَمَلة لأحقِّيَتِهم فيها.

معاني الباء في قوله: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾:

مسؤوليَّةُ تناولِ الشَّيءِ بالباطل لازِمَةٌ في الذِّمَّة

الباء في قوله: ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ هي باءُ الحال، وهي مع مدخولها تتعلَّق بمحذوف حال، ومعناها الإلصاقُ والملابسة: أي يأكلون مُتلبِّسينَ بالباطل، فأكْلُهم ملاصِقٌ للباطل لا ينفكُّ عنه. أو الباء للاستعانة، أي: يأكلون مُستعِينِين بالباطل،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/266، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/62، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/34، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/279، والشِّهاب، عِنايةُ القاضِي وكِفايةُ الرّاضِي على تفسيرِ البيضاوي: 4/322.

وهذا يتوجَّه باعتبار أنَّهم كانوا يأكلون أموال النَّاس بعد أن يُروِّجوا لهم الأكاذيبَ التي تُغْريهم على دَفْع أموالِهم لهم، فالباطِلُ آلَتُهُم ووسيلتُهم وأداتُهم في انتزاع المال مِن غير حَقِّه. أو الباءُ للسَّببيَّة، أي: أنَّهم يتَّخذون الباطلَ سببًا للأكل. والفَرْق بينَ هذه المعاني: أنَّ القَصْد والتَّعمُّد ظاهِرٌ على معنى الاستعانة والسَّببيَّة، غيرَ لازم على معنى الإلصاق والمُلابسة؛ لأنَّ الاستعانة بالشَّيء واتِّخاذَه سببًا للغَرَض يجعلهم قاصدين مُتعمِّدين لركوب الباطلِ، وتحرِّي طرائقِ الحرام لكَسْبِ المال، أمَّا الملابسةُ والإلصاق فلا يلزم منه التَّعمُّد، بل يَلْزم منه عدمُ الاكتراث فقط، فهو يأكل من غير تمييز، وهذا يُوَرِّطُه في الباطل، وقد لا يُوَرِّطُه إذا لم يُصادِف باطلًا، ولكن هنا نُكتةٌ فريدة: وهو أنَّ الملابسة والإلصاق وإنْ لم يَلْزم منهما التَّعمُّد والقَصْد في اتِّخاذ الباطل كأداة، إلَّا أنَّ إفادةَ ذلك لعدم الاكتراث وعدمِ التَّمييز هو أكلٌ بالباطِل، فَعَدمُ التَّمييز نفْسُه هو مِنَ الباطل، سواء صادَفَ باطلًا أم لم يُصادِف؛ لأنَّ تَحرِّيَ الحرامِ والحلالِ في تناول الشَّيء واجبٌ، وتناولُه كيفما اتَّفق حرامٌ.

لطيفةُ تقديمِ أكل الأموال على الصدِّ عن سبيل الله:

قدَّمتِ الآية الكريمةُ انتهابَ الأحبارِ والرُّهبانِ أموالَ الناس على الصدِّ عن سبيل الله؛ دلالةً على إفادة الاختصاص والأهمية، أي: إنَّ كثيرًا من الأحبار والرُّهبانِ يختصُّون ويَعْتنُون ويَحْرِصُون ويهتمُّون بأكل أموال الناس بغير طريقٍ سائغٍ مقبولٍ، بحيث يكون إدخالُ الأموالِ والمكتسباتِ في حوَزْتهم والانتفاعُ بها في أيِّ مجالٍ؛ ولذا ورد لفظ (الباطل) في السِّياق الكريمِ عامًّا ليشملَ كلَّ ما يتصوَّر دخولُه فيه، بحيثُ يتناولُ وجوهًا كثيرة، منها تغييرُ الأحكامِ الدينية لموافقةِ أهواءِ الناس، ومنها القضاءُ بين الناس بغيرِ إعطاءِ صاحبِ الحقِّ حقَّه المعيَّن له في الشريعة، ومنها جحدُ الأماناتِ عن أربابها أو عن

إفادةُ الاختصاص والأهمية، وإدخالُ الأموالِ والمكتسباتِ في حَوْزتهم والانتفاع بها في أيِّ مجالٍ

ورثتِهم، ومنها أكلُ أموالِ اليتامى، وأموالِ الأوقافِ والصَّدَقات[1]، وتنوُّعُ هذه المقبوضاتِ من عموم الناسِ يدلُّ على شناعةِ فعلِ الأحبارِ والرُّهبانِ وخطورةِ صنيعهم القبيح.

سرُّ حَذْفِ المفعول:

حَذَفَ المفعولَ في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾، فلم يُحدِّد مَنْ يَصدّونَ لغرضَين؛ الأوَّل: لإرادة التَّعميم وعدم التَّعيين، فهم يَصدُّون كلَّ أحَدٍ يَقْدِرون على صَدِّه، فيَصُدُّون المؤمنَ بردِّه عن دينِه، ويَصُدُّون الكافرَ بتثبيتِه على ضلالِه، وفي التَّعميم المذكور إيذانٌ بتنويع وسائلِهم في الصَّدِّ، واتِّساعِهم في استخدام أدَواتِه. الثَّاني: لاحتمالِ أنْ يكون (يصدُّون) لازِمًا غير مُتَعَدٍّ، على معنى: (يُعرِضون)، فهم الذين يَصُدُّون ذَواتَهم، ولعلَّ هذه نُكْتَةُ مجيءِ المضارع مضمومَ العينِ من: صدَّ يَصُدُّ؛ لأنَّه وإن كان الفعل لازمًا إلَّا أنَّه في معنى المتعدِّي؛ لأنَّ الفاعل يَصُدُّ نفسَه ويمنع ذاتَه، ولذا جاء الفعل مضمومَ العينِ، بناءً على أنَّ القياس في المُتعدِّي ضَمُّ العين[2].

الكافِرُ عَدُوُّ نفْسِه قبلَ أن يكون عَدُوًّا للمؤمنين

دلالةُ صيغة المضارع:

التَّعبيرُ بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ﴾ يُفيد تَفَرُّغَهم للصَّدِّ، واستمرارَهُم عليه، وتكرارَهُ منهم، وهو مُؤْذِنٌ بصَبْرِهم على مُزاوَلَةِ الشَّرِّ، وإدمانِهم لارتكابه[3].

لا يَنفَكُّ الكافرون عن مُزاوَلةِ الصَّدِّ عن دينِ الله

علةُ إضافةِ السَّبيل إلى الاسم الجليل:

أفادت إضافةُ السَّبيل إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ أنَّ صُدُودَهم أو صَدَّهم غيرَهم، كان عن خصومتِهم معَ اللّٰه جلَّ وعلَا، وكراهيتِهم لكلِّ ما له نِسبَةٌ إلى اللّٰه، والإضافةُ قرينةٌ للاستعارة، فسبيلُ اللّٰهِ

سبيلُ الله هو كلُّ ما يُوصِلُ إليه ممَّا يُحبُّه ويرضاه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/175.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/27، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/411، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/212، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/279، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/175.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/348.

مُستعارٌ لِدِيْنِه، وهي استعارةٌ أصليَّةٌ تصريحيَّةٌ، والإضافةُ إلى اسم الذَّات تُفيد أنَّ مُحاولةَ صَدِّهم عبَثٌ لا يُفيد، وسَعْيٌ على غير طائل، فهم يُمانِعون شيئًا مُضافًا إلى القادرِ القاهِرِ الجبَّار، الذي لا يُمانِعُه أحدٌ إلَّا وغَلَبَتْه قدرةُ الجليلِ وردَّتْهُ صاغِرًا[1].

دلالة عطفِ: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾على ما قبلَها:

فِعلُ السُّوءِ دعوةٌ إلى كراهيَةِ الحقِّ

جملة: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ معطوفةٌ على جملة: (يأكلون)، ونُكْتَةُ الوصلِ بالواو: تحقُّقُ الجامعِ السَّبَبِيِّ أو اللُّزومِيِّ بينَ المتعاطِفَين، فالصَّدُّ عن سبيل اللّٰه مُتَرتِّبٌ عن أكلِهم أموالَ النَّاس بالباطل، كأنَّه قال: يَصُدُّون عنه بأَكْلِهم الأموالَ بالباطل، فأَكْلُهُمُ الباطلَ أدَّى إلى تنفير النَّاس وصَدِّهم عن دين اللّٰه. أوِ الجامِعُ بينَ المتعاطفَين: هو جَمْعُهم بينَ الشَّغَفِ بالمالِ، والشَّغَفِ بالجاه، فالأوَّل: يُبيِّنُه قولُه: ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، والثَّاني: يُبيِّنُه قولُه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾، فإنَّهم بعد استيلائهم على الأموال باسم مناصبِهم الدِّينيَّة، يمنعونَ النَّاس مِنِ اتِّباع الرَّسولِ ﷺ؛ لِكَونِ ذلك سيَحْجُبُ عنهم غنائمَ المالِ الباطلةِ، ويُذهِبُ عنهم سُلْطةَ الرُّتْبَة، ونفوذَ المنصِب[2].

موقع جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ ممَّا قبلَها:

الافـتِـتـانُ بالمادِّيات مُؤذِنٌ بِخرابِ الدِّين

جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ معطوفة على ما قبلَها، عَطْفُ القِصَّة على القِصَّة، والخبرِ على الخبر، أي: حالهم كذا وكذا، فيكون قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ من تمام أوصاف الأحبار والرُّهبان، أي: يأكلون المالَ بالباطل، فيَتَرَتَّبُ على ذلك صَرْفُ النَّاس عن دين اللّٰه، ويَترتَّبُ عن ذلك اكتنازُهم للمال بعدَ جمعِه وأخْذه، ويظهر في هذا الوجْهِ قُوَّةُ المناسبةِ بينَ الأفعال المذكورة: (يأكلون، ويصدُّون، ويكنزون). أوِ الواوُ للاستئناف النَّحويِّ، وسببُ الاستئنافِ: تضمينُ الموصولِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/175.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/34، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/212.

معنى الشَّرطِ، لإدخال الفاء في جوابه في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، فهو استئنافٌ ابتدائيٌّ، وَوَصْلُه بالواو مع ما قبلَه لِحُسْنِ المناسبة، لا لِمُوجِبٍ يُشْتَرَطُ معه الوصلُ، ووجْهُ حُسْنِ المناسبةِ في النَّظْم: أنَّه لـمَّا كان حالُ مَنْ أَمْسَكَ مالَ نفسِه بالباطل كذلك، فما ظَنُّكَ بحالِ مَن سَعَى في أَخْذِ مالِ غيرِه بالباطلِ والخديعة[1]؟

دلالة التَّعبيرِ بالموصول دونَ اسم الفاعل:

فَضْحُ ذَوِي الجناياتِ العظيمةِ بأوصافهم؛ للوقايةِ والتَّحذيرِ منهم

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾، جاء التَّعبيرُ بالموصول دونَ اسم الفاعل، فلم يقل: (والكانِزونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ)؛ للدّلالةِ عليهم بذَواتِهم، فكأنَّه يُحدِّدُهم ويُعَرِّفُهُم ويُمَيِّزُهم أكملَ تمييزٍ، تجسيدًا للخطاب، وتهوينًا لذواتهم، فكأنَّ الاسم الموصول (الذين) جَعَلَهم أجسامًا بلا أرواحٍ، وأشخاصًا بلا أسماء، وأفرادًا بلا اعتبارٍ، فلا يستحقُّونَ ذِكْرَ أسمائِهم، أو نَسَبِهم، أو صفاتِهم، بل يكفي ذِكْرُ حالتِهم الجَشِعَة، وتصويرُ نفوسِهم المَوتورةِ الهائجة حينَ اكتَنزوا المالَ، "فالموصولُ مُرادٌ به قومٌ معهودون، يعرفونَ أنَّهم المرادُ مِنَ الوعيد، ويَعْرِفُهم المسلمون"[2]، وأيضًا للإشارة إلى عِلَّة الحُكم، ووجْهِ بناءِ الخبر في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، فالموصولُ ضُمِّنَ معنى الشَّرطِ ورُبطَ خبرُه بالفاء؛ لإفهام التَّسبيبِ والعِلّةِ بينَ الكنْزِ والعذاب، ولو قال: (والكانِزُونَ) لخَلا التَّركيب من تلك المقاصد، ولخلا عن تصوير ذواتِهم وهي ترتكب الفِعلَ وتُزاوِلُه.

نكتةُ العُدولِ مِنَ الفعليَّة إلى الاسميَّة:

وَصْفُ الجاني بجريمتِه يُنبِئُ عن عَراقتِه فيها، وإدمانِه على مُزاوَلَتِها

لم يَطَّرِد السِّياقُ مع ما قبلَه في الفعليَّة، فلم يقل: (ويكنزون الذَّهب)، كما قال: ﴿لَيَأۡكُلُونَ﴾، و﴿وَيَصُدُّونَ﴾، بل عدلَ إلى الاسميَّة في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾؛ لبيانِ ثُبوتِ ذلك الوَصْفِ

---

(1) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/460، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/212.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/176.

ودَوامِه، بإيراد التَّركيب على الاسميَّة، معَ اشتِمال الجملة الاسميَّة على صِلَة الموصول، وهي الجملة الفعليَّة في قوله: ﴿يَكۡنِزُونَ﴾، فاجتمع في التَّركيب اتِّحادُ دلالةِ الاسمِ مع دلالة الفعل[1].

الدّلالةُ المعنويَّة للموصول:

حمْلُ الخطابِ في المقامِ الخاصِّ على العموم أولى؛ فيما يَصلُح عمُومُه

الاسم الموصولُ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ يُرادُ به العمومَ، فيدخلُ فيه أهلُ الكتابِ وغيرُهم مِنَ المسلمين، "لأنَّه لو أراد أهلَ الكِتاب خاصَّة، لقال: (ويكنزون)، بغير (والذين)، فلمَّا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ فقد استأنف معنًى آخرَ، يُبَيِّن أنَّه عطفُ جملة على جملة"[2]، وهذا أَولى مِن اعتبار التَّعريف في الموصول للعهْد الذِّكْريِّ، والمعهودُ إمَّا الأحبارُ والرُّهبان، أو الذين آمنوا، المخاطَبون بالنِّداء.

وجهُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَكۡنِزُونَ﴾ دون غيره:

جمْعُ المالِ من طرقه المشروعة مُباحٌ، وكَنْزُه مذمومٌ

لو عَبَّر بغير الكَنْز، فقال: (يجمعُون) أو (يَحوزُون)، لَمَا لزِمَ عنه عدمُ الإنفاق، فلمَّا قال: ﴿يَكۡنِزُونَ﴾ أفاد جمْعَ الذَّهب والفضة مع إمساكِها وعدم إنفاقها، والحرصَ على عدم وصولِه إلى غيرهم، فالمعنى المصدَريُّ للكَنْزِ هو حِفْظُ الشيء في باطن يُمسكه ويستُره، ومنه اسمُ الكَنْز، وهو المالُ المدفونُ تحتَ الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: 82]؛ لأنَّ الذي يَكنِزُ شيئًا يُخفيه عن الأنظار، ويُطِيلُ حِفْظَه في مُستودَعِه المُدَّخَرِ فيه، ولِهذِه الإطالة فهو لا يُؤدِّي حَقَّه، ولذا سَمَّوا المالَ الذي لا تُؤَدَّى زكاتُه كنْزًا لهذا المعنى المفهوم، ومنه حديث المصطفى عليه صلواتُ اللّه وسلامُه: «إنَّ الَّذي لا يُؤدِّي زَكاةَ مالِه يُمثَّلُ له يَومَ القيامَة شُجاعٌ أقرَعُ له زَبيبَتانِ قال: يَلْزَمُه، أو يُطَوِّقُه قال: يقولُ له: أنا كَنْزُكَ، أنا كَنْزُكَ»[3].

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/212.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/123.

(3) أخرجه أحمد في مسنده، برقم: (6209)، وإسناده صحيح على شرط مسلم، وبنحوه الترمذيُّ في سننه، برقم: (3012) مطوّلًا، والنسائيُّ في سننه، برقم: (2441)، وابن ماجه في سننه، برقم: (1784).

وعليه: فقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ تأكيدٌ لهذا المضمون؛ للمبالغةِ في وَصْفِ حالِهم مِنَ الشَّرَهِ والنَّهَم.

نُكْتَةُ تخصيصِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ بالذِّكْر دونَ غيرهما، وتقديمِ الذَّهب:

الذَّهبُ والفِضَّةُ قِيَمٌ ثابتةٌ، وبهما تقدَّرُ أصولُ أثْمانِ الأشياء، والذَّهبُ أكثرُ نُدرةً وقيمةً

خَصَّ اللهُ سبحانَه الذَّهَبَ والفِضَّةَ بالذِّكْرِ من بين سائرِ الأموالِ؛ لأنَّهما أصولُ أثْمانِ الأشياء، وغيرَهما مِنَ الأموال يُقَدَّرُ بهما مِن غير عكس، ولأنَّ امتلاكَهُما يَدُلُّ على امتلاك الأموال، ولا يَلْزَم عن امتلاك الأموال امتلاكُهما، فهما دليلٌ على وجودِ غيرِهما، ولأنَّ الكَنْزَ يكون فيهما غالبًا؛ لأنَّهما ممَّا لا يُطَّلَعُ عليه، فيكون امتلاكُهما في خفاء، بخلافِ سائر الأموال[1]. وهما مصدرٌ للزِّينة والثَّروة، وكان الذَّهبُ يستخدمُ في النِّظام النَّقْديِّ الدوليِّ معيارًا للعُملات الورقيةِ، إلَّا أنَّ هذا النظامَ عُدِل عنه الآن، بحفظِ المصارفِ المركزيةِ والحكوماتِ للذَّهبِ بوصفهِ مالًا احتياطيًا للحمايةِ من الاضطراباتِ الاقتصاديةِ العالمية.

والذهبُ والفضةُ يعتبران من المعادن الثمينةِ التي لها قيمةٌ عاليةٌ واستخداماتٌ متعددة، إلَّا أن الذَّهبَ أكثرُ ندرةً واستقرارًا وقيمةً من الفضة، وهو ما يشير إلى سبب تقديمِه في الآية الكريمةِ على الفضة.

عِلَّةُ تسميةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ بهذا الاسم:

ساعٍ إلى الذَّهَبِ ليس كَسَاعٍ إلى الفِضَّة

سُمِّيَ الذَّهَبُ ذهَبًا لأنَّه يَذْهَب، ووجْهُ ذَهابه: أنَّه يَذهبُ من هيئتِه التي وُجِدَ عليها فيتحَوَّلُ إلى سبائكَ وحُلِيٍّ، أو "لِذَهَابِه في الأرض، أي: غيابِه فيها قبلَ التقاطِه، أو لذهابِه بينَ النَّاس، أي: جَريانِه بينَهم لقبولهم إيَّاه، أو لذهابه في الحَجَر امتدادًا"[2]، أي: الحَجَر الذي يُستخرَجُ منه، والفِضَّة لأنَّها تَنْفَضُّ فتتَفَرَّق، ووجْهُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/123.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (ذهب).

انفضاضِها: أنَّها تُوجَد في الأرض على هيئة قِطَعٍ متفرِّقَةٍ، وشَذَراتٍ مُتناثِرة، فأجزاؤها مُنْفَضَّةٌ ومُقَسَّمَة، أو لأنَّ النَّاس إذا اختاروا بينَها وبينَ الذَّهَبِ، انفضُّوا عنها إلى الذَّهَب.

مَرجِعُ الضَّمير في: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾، وأثرُه في المعنى:

كَنْزُ الذَّهَبِ والفِضَّةِ دليلٌ على استكثارِ أصحابِها من أنواعِها وامتلائِهم

الضَّميرُ في قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ للجمْع، وفي ذلك عدولٌ عن التَّثنيَة، فلو اطّردَ السِّياق على ظاهِرِهِ لقال بضمير التَّثنية: (ولا ينفقونهما)، عَوْدًا على المكنوزَيْن الاثنين: الذَّهب والفِضَّة، ولكن عَبَّر بضمير الجمع عَوْدًا على المدلول المعنوي، والمراد: أنواعُ الذَّهَبِ والفِضَّة، أو الكُنوزُ أو الأموالُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّة، ونُكْتَةُ العدولِ عن ضمير التَّثنيَة: استحضارُ الصُّورةِ الواقعيَّة الدَّالَّة على الجَمْع، فإنَّه عَبَّر بالجمع فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾ فكلُّ فَرْدٍ مِنَ الجماعةِ المذكورة يَكْنِزُ ذهبًا وفِضَّة، فصار المُكتَنَزُ جمْعًا في الواقع وفي المعنى، بالنَّظر إلى أفراد الكانزين وأفرادِ الشَّيء المكنوز، فاعتُبِر المعنى فَجُمِعَ الضَّمير، ولم يُلْتَفَتْ إلى صورة التَّركيب اللَّفظيّة الواردة على اثنين، وأيضًا: "المراد بالذَّهَبِ الدَّنانيرُ، وبالفِضَّة الدَّراهمُ، المضروبةُ مِن كلٍّ منهما، لا جِنسَ الذَّهَبِ والفِضَّة ومَعدِنِهما، الذي يَصدُقُ بالحُلِيِّ المباح وغيره، فإنَّ الدَّراهم والدَّنانير هي المُعَدَّةُ للإنفاق، وكلُّ مَثنًى له أفرادٌ لكلٍّ مِنْ نَوْعَيْه، يجوز إرجاعُ الضَّمير بعدَه إلى جملةِ الأفراد مِن نَوْعَيْه"[1].

بلاغةُ عدمِ تثنيةِ الضَّمير: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾:

مَنْ يَبْخَلْ بأَحَدِ الكَنْزَيْنِ يُعاقَبْ عليه، وإن لم يمتلكْهُما معًا

ثمَّتَ نُكْتَةٌ دلاليَّة في عدم تثنية الضَّمير في قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾؛ وهو دفْعُ توهُّم أن يكون الوعيد المذكور مشروطًا باجتماعهما في عدم الإنفاق، فيكونُ الوعيدُ لِمَن امتلكَ الاثنين وأمْسَكَ الاثنين، وهذا غير مراد؛ لأنَّ الواو في قوله: ﴿يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ أفادت الجمْعَ بيْنَ الذَّهَبِ والفِضَّة في حُكْمِ الكَنْز، وليس الجمعُ بين أعيانهما في

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/350.

الكنْز، فالتَّقدير: يكنزون الذَّهبَ ويكنزون الفِضَّة، فلو كُنِزَ أحدُهما دون الآخَر، لاستُحِقَّ الوعيدُ على المكنوز منهما[1].

نكتةُ حَذْفِ (مِنْ) مع فعل الإنفاق:

لم يقل: (ولا يُنفِقون منها)، كما قال: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ [التوبة: 103]، وكما قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3]، لثلاثة وجوه؛ الأوَّل: أنَّ الذَّهب والفِضَّة في الآية موصوفان بأنَّهما مِنَ الكُنوز، فهم يَكتَنِزُونهما، والكَنْز: فائضٌ يَفضُل عن أصول الأموال، فأموالُهم باقية، ليس فيها هنا إنفاق، فأمَرَ بإنفاق الفائض جميعًا، واستبقاءِ الأصول لِنفَقَته ومتاعِه. الثَّاني: على مراعاة المُناسبة بينَ الصِّفات المذكورة، فالكَنْزُ المذكور هنا: هو من أموال النَّاس المأكولة بالباطل، في قوله: ﴿لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾، أي: والذين يكنزون الذَّهبَ والفِضَّة مِنْ أولئك الذين يأكلون أموال النَّاس، فهو يَكْنِزُ من مالِ النَّاس بالباطل، وما كُنِزَ بالباطلِ والحرام فلا بُدَّ أن يُنْفَقَ جميعُه، لا أن يُنْفَقَ منه، ولذا لم يقل: (ولا يُنفِقون منها). الثَّالث: أنَّ قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3]، وقولَه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [التوبة: 103] أي: البعضَ الذي يفيض مِنَ الرِّزق، والبعضَ الذي يفيض مِن أموالهم، فبَقِي بعضٌ في الرِّزق غيرُ فائضٍ، وبعضٌ في أموالهم كذلك، وأمَّا قولُه: ﴿يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ فجميعُه فائضٌ لا بعضُه.

المالُ الذي اكتُسِبَ مِنَ الحرام يُخْرَجُ كُلُّه، فالانتفاع بشيءٍ منه باطلٌ

دلالة إسناد الإنفاق إلى سبيل الله:

أفاد إسنادُ الإنفاق إلى سبيل الله في الآية، تقييدَ النَّفي في: ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾، فمفهومُه: إثباتُ أنَّهم يُنفِقون، لكنَّ نفقتَهم في غير سبيل الله، فالتَّركيبُ ينفي عنهم الإنفاقَ على جِهَة التَّقييد، فيُثبِتُ لهم إنفاقَ المعاصي وأغراضِ النَّفْس، وينفي عنهم إنفاقَ التَّعبُّدِ والاحتساب[2].

المالُ الذي لا يُنْفَق في سبيل الله سيُنْفَقُ حتمًا في غير سبيلِه

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/447.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/279.

تبشيرُهم بالعذاب مِن جنسِ استبشارِهم بالمال لمَّا كَنَزُوه

موقعُ جملة: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ ممَّا قبلَه:

جملة: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ خبرُ الموصولِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ﴾، والفاءُ رابطةٌ بينَ جملةِ الابتداء والخبر؛ لِتَضَمُّن الموصولِ معنى الشَّرط، وجملةُ الفاء ومدخولُها جوابُ ما يُشبِه الشَّرطَ، ومعناها السَّببيَّة، أي: فبِسَبَبِ ذلك بَشِّرْهم بعذاب، فَضَميرُ الجمعِ في (بشِّرهم) عائدٌ على (الذينَ يَكْنِزُون). ويَصِحُّ أن تكون الفاءُ فصيحةً؛ وهي لِعطفِ مدخولِها على شرطٍ مُقدَّر، ويكون ضميرُ الجمع في (بشِّرهم) عائدًا على جميع المذكورين السَّابقين، أي: الذين يأكلون الأموال بالباطل والذين يصدُّون عن سبيل اللّٰه والذين يكنزون، والتَّقدير: إذا علمتَ أحوالَهم واطَّلعتَ على نُعوتِهم، فبشِّرهم بعذابٍ أليم[1].

لا يكون الكَنْزُ مَذمومًا إذا رُوعِيَ فيه حَقُّ اللهِ وحَقُّ النَّاسِ

بلاغة جملة الفاصلة في دلالتها على مفهوم المخالفة:

قولُه: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه تفريعُ بِشارةِ العذاب على الكَنْز وعدمِ الإنفاق، ومفهومُ ذلك أنَّه لا بأس بالكَنْز لو أَنفقَ منها في سبيل اللّٰه ما وَجَبَ فيها، إمّا وُجُوبًا مُسْتَمِرًّا كالزَّكاة، وإمّا وُجُوبًا عارِضًا كالنَّفَقةِ في الحَجِّ الواجِب، والنَّفَقةِ في نَوائِبِ المُسْلِمينَ مِمّا يَدْعُو النّاسَ إلَيْهِ وُلاةُ العَدْلِ[2].

الحكم بالعذاب على مُعيَّنٍ من أعمالِ الغَيْب، فلا يَثْبُتُ إلَّا بوحي

غرضُ الالتفات في قوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ التفاتٌ مِنَ الغَيْبَة لخطاب رسولِ اللّٰه ﷺ، إذ لم يقل: (والذين يكنزون ولا ينفقون فيُبَشَّرون)؛ لأنَّ الحُكم بالعذاب مِن أعمالِ الغَيْب، فلا يُباشِرُه النَّاسُ إلَّا بوحي، وليس في النَّاس غيرُ الرَّسولِ يُوحَى إليه[3].

(1) صافي، الجدول: 10/329، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3228.

التَّبشير بالعذاب استعارةٌ تهكُّميَّةٌ لعلاقة التّضادّ، أو مجازٌ مرسلٌ لعلاقة الإطلاق والتَّقييد

وجهُ إجراءِ البِشارة على المجاز والحقيقة:

التَّعبير بالبِشارة في جانب العذاب، استعارةٌ تهكُّميَّةٌ للتَّنبيهِ على أنَّ أَسَرَّ وأفْرَحَ ما يَسمعُونَه مِنَ الأخبار الخبرُ بما يَنالُهم مِنَ العذاب، فشَبَّه انتشارَ الحَزَنِ والغَمِّ على بَشَرَةِ المُخْبَرِ بالعذاب انقباضًا، بانتشار الفَرحِ والسُّرورِ على بَشَرَةِ المتفائلِ بالخَبر السَّعيد انبساطًا، بجامعِ الظُّهورِ والتَّغيُّرِ في البَشَرَةِ عند كليهما، ووجْه التَّهكُّم: استعمالُ البِشارةِ في ضِدِّ حقيقتِها، إذِ استعمالُها في الأصل فيما يُفرِحُ، والإخبارُ بالعذاب ضِدُّ ذلك، وتشبيهُ الضِدِّ بضِدِّه لا يَروج في عقلِ أحدٍ إلَّا على معنى التَّهكُّم، وغرضُ التَّهكُّم مِن جَعْلِ عذابِهم مَحلًّا للبُشْرَى: الزِّيادةُ في تعذيبِهم وإذْلالِهم، بابتداء الخَبر بما يُطمِعُهم ويُرَجِّيهم بقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾، فإذا انتبهوا للبِشارة وتوقَّعوها، انتهى بهم إلى اليأسِ والقُنوط، بجَعْلِ العذابِ مَضمونَ البُشْرى، على غِرار قولِه تعالى: ﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ﴾ بأيِّ شيءٍ؟ ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [الكهف: 29]، فيُجْمَعُ عليهم عذابَان، عذابٌ عند إخبارِهم بالعذاب، وعذابٌ عند ملابستِهم له، واستعمالُ البُشْرى في جانب العذابِ قد يجري على معنى الحقيقة لا المجاز باعتبار أمرين؛ الأوَّل: أنَّ الأصل في البُشْرى كلُّ ما يُؤثِّر في البَشَرة مِنَ القَبْض أو البَسْط، وهذا في الخير والشَّرِّ، واستعمالُه في الخير على سبيل التَّغليب فقط. الثَّاني: مُلاحظةُ القيد، فمتى أُطلِقتْ البِشارة كانت في الخير، ومتى قُيِّدتْ بما يَسُوء كانتْ على حقيقتِها؛ للاحتراز بالقيْد عن الإلباس الذي يقضي بقول المجاز فيها[1].

دلالةُ التَّنكير:

التَّنكير في قوله: ﴿بِعَذَابٍ﴾؛ لتهويل العذابِ وتعظيمِ أَمْرِه،

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (بشر)، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/28، ومحمد رضا، المنار: 10/137، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/207، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويِّ: 8/4868.

ولِتهوينِ ذَواتِهم وإذلالِهم، فتنكيرُ اللَّفظِ مُشْعِرٌ بإهانتِهم وإخزائِهم أبلغَ إهانةٍ وخِزْيٍ.

نُكْتَةُ وَصْفِ العذابِ بـ ﴿أَلِيمٍ﴾:

تنكيرُ لفظِ العذابِ مُؤْذِنٌ بحقيقتِه المُنْكَرَة

وَصْفُ العذابِ بالأليمِ دون غيرِه؛ لاقتضائِه ما بعدَه، وهو قولُه: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾، فالإحماءُ والكَيُّ ممَّا يُغْرِقُ الأجسامَ أَلَمًا وإيجاعًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

يَكْنِزُون ويَجْمَعون:

قُيِّدَ الكَنْزُ بتَخْبِئةِ الأموالِ في أوعِيتِها بغَرضِ ادِّخارِها

أصلُ الكَنْزِ: تَجَمُّعٌ في شيءٍ، وأصل الجَمْعِ: تَضامُّ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، والفَرْق بينَهما: أنَّ الكَنْزَ جمْعُ الأشياءِ بعضِها إلى بعضٍ في وعاءٍ وحِرزٍ أو نحوِهما، ولذا قُيِّدَ الكنْزُ بتَخْبِئةِ الأموالِ في أوعِيتِها، بغرضِ ادِّخارِها والمُحافظة عليها، ولذا وَصَفَ اللهُ الكانِزينَ بعدمِ الإنفاقِ؛ لأنَّ كنوزَهم مخبوءةٌ محفوظةٌ للادِّخارِ فلا تُنْفَق، وأمَّا جمْعُ المالِ: فهو مُراكَمَةُ أجناسِه وضَمُّ نقودِه، بتقريبِ بعضِها إلى بعضٍ، ولا يَلْزم عن ذلك ادِّخارُه أو إيداعُه في حِرزٍ، أو تَخْبِئَتُه في وِعاءٍ، أو عدمُ إنفاقِه للمحافظةِ عليه، فَقَيْدُ الادِّخارِ والإخفاءِ غيرُ لازمٍ في جَمْعِ المالِ، ولذا قال تعالى - فيمَن كان همُّه جمعَ المالِ وتَعْدادَه -: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢﴾ [الهمزة: 2] أي: ضَمَّ بعضَه إلى بعضٍ، ثمَّ أحصى عدَدَه قليلًا كان أو كثيرًا. هذا، والجَمْعُ لا يُقالُ للمالِ إلَّا إذا أُسنِدَ إليه أو قُيِّدَ به، كأن يُقال: جَمَعَ المالَ، أو جَمْعُ المالِ، وإلَّا فهو عامٌّ في كلِّ جمْعٍ من مالٍ أو ناسٍ أو أغراضٍ، ونحو ذلك، وأمَّا الكَنْزُ: فهو اسمٌ على المالِ الكثيرِ المَخبوءِ في مُستودَعِه للادِّخارِ، فيَصْدُقُ على المالِ ولو لم يُسنَد إليه، والجمْعُ ليس كذلك، وإذا قيل: جمَعَ مالًا، فقد يتناولُ ذلك القليلَ والكثيرَ، وأمَّا إذا قيل: كَنَزَ مالًا، فلا يُقالُ إلَّا للكثيرِ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (جمع، كنز)، وابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كنز).

﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥﴾ [التَّوبة: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

كانِزُ المالِ يُعذَّب بالنَّار يومَ القيامة بما يتناسب وعملَه السَّيِّءَ في الدُّنيا

لـمَّا أخبر اللّهُ جلَّ وعلَا في الآية السَّابقةِ عن جرائم كثيرٍ مِن رؤساء أهل الكتابِ، في أَكْلِ أموالِ النَّاسِ بالباطل والصَّدِّ عن سبيل اللّه، وأخبرَ عن كانِزي الذَّهبِ والفِضَّةِ منهم ومِن غيرهم، الذين يبخلون بإنفاقها ويَكْنِزونها، وبَشَّر في الدُّنيا هؤلاء الكانزين بالعذاب الأليم؛ أخبر هنا في هذه الآية عن كيفيَّةِ ومَشْهَدِ تعذيبِهم بهذه الكُنوزِ في الآخرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحۡمَىٰ﴾: مِنَ الحَمْي، وهي الحرارةُ الـمُتوَلِّدَةُ مِنَ الجواهِر الـمَحميَّة، كالنَّار والشَّمس، ومنه الإحماءُ على الحديدِ والمعادن، أي: الإيقادُ عليها بالنَّار حتَّى تَسْخَنَ، فيصيرَ لها حَمْوٌ أو حَمْيٌ، أي: حرارةٌ شديدة تمنع مِنَ الاقتراب منها، والمراد هنا: إدخالُ الكُنوزِ النَّارَ لِيُوقَد عليها، حتَّى تَحمَى وتشتدَّ حرارتُها للعذاب[1].

2) ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾: مِنَ الكَيِّ، وهو إحراقُ الجِلْدِ بحديدةٍ ونحوها، وهو مِنَ الألفاظ التي تَخْتَصُّ بالنَّار وما في معناها مِنَ الأجرام السَّاخنة، والكَيُّ هنا بالكُنوز يعني: إلصاقَها وهي مُلْتَهِبَةٌ حاميَةٌ بجِلودِهم، حتَّى تَصِلَ إليها حرارتُها وتؤثِّرَ فيها؛ للتَّعذيب[2].

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان: (حما)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (حمو).
(2) ابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كوي).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

كيفيةُ عذابِ الله يومَ القيامة لِمن كَنزَ الذهبَ والفضةَ من غير إنفاق

بَشِّرْ - أيُّها الرَّسولُ الكريمُ - هؤلاءِ الكانِزينَ الأشِحَّاءَ بما آتاهمُ اللهُ من فَضْلِه، بعذابٍ أليمٍ، يُعذِّبُهمُ اللهُ به في يوم يُوقَدُ فيه بالنَّارِ على تلك الكُنوزِ حتَّى تَحْمَى وتشتَدَّ حرارتُها، فيُحرقُونَ بها على جِباهِهم ونواصيهم التي هي أشرفُ أعضائهم، كما تُحرَقُ بها جُنوبُهم وظهورُهم وسائرُ أجسادِهم، ويُقال لهم تحسيرًا وتوبيخًا: هذا المالُ الذي تُعذَّبونَ به، هو ما كَنزتُمُوه لأنفسِكم وخَصَصْتُمُوها به فلم تُنفقوه؛ ظَنًّا منكم أنَّ كَنْزَه نافِعٌ لكم، ولكنَّه صار أضرَّ شيءٍ يكون على صاحبِه، فأنتُم اليومَ تُعذَّبونَ به، فذُوقوا ألَمَه وعقوبتَه، كما ذُقتُم لَذَّتَه وهَناءَتَه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقع قولِه: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ﴾ ممَّا قبلَه:

إهانَةُ الكانزينَ في الدُّنيا بِبِشارة العذاب، وتعذيبُهم في الآخِرةِ بما كَنَزوه بُخْلًا وما كَسَبوهُ نَهْبًا

الظَّرْفُ في قوله: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ﴾، مُتَعلِّقٌ بقوله: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، كأنَّه قال: يُعذَّبُون يومَ يُحمَى، ولا يُقال: إنَّه مُتعلِّقٌ بقوله: ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾؛ لأنَّ البِشارةَ لا تكون في ذلك اليوم بل في الدُّنيا، ويُستَفادُ مِن هذا: أنَّ مُتَعَلَّقَ البِشارةِ محذوفٌ للتَّعميم والاختصار، فلم يُحدَّد في أي مكانٍ أو زمنٍ تكون البِشَارةُ، وعليه: فقوله: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ﴾ ليس مُتَعَلَّقًا له[1].

براعةُ استِهلالِ الآيةِ بالظَّرف:

يومُ القيامةِ عظيمٌ في أحداثِه وشؤونِه

استهلَّتِ الآيةُ في قوله: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ﴾ بالظَّرفِ الدَّالِّ على اليوم الآخِر، تعظيمًا لشُؤونِه التي تكون فيه، وهو الوعيدُ بتعذيبِهم بِما اكْتَنَزُوا، فتعظيمُ المظروفِ لازِمٌ عن عَظَمَةِ الظَّرفِ الذي وقَع فيه.

دلالةُ الفِعل بصيغة المبنيِّ لِمَا لم يُسَمَّ فاعِلُه:

سِيقَ الفِعلُ ﴿يُحۡمَىٰ﴾ بصيغة المبنيِّ للمفعول؛ لتَوفُّر العنايةِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/229.

الفاعلُ الحقيقيُّ لآثارِ الأشياء هو اللهُ الذي أعطى كلَّ شيءٍ خلْقَه

والغَرَضِ على الفعلِ ومفعولِه الذي وقع عليه دونَ الفاعِل، فالغَرَضُ: هو الإخبارُ بأداةِ التَّعذيب والمُعذَّب بها، وأمَّا الفاعِلُ: فعِرفانُه يُغني عن تعريفِه في التَّركيبِ بإظهاره، فالذي يُحمِي النَّارَ هو اللهُ ﷻ أو خزَنَةُ النَّارِ بإذنٍ مِنَ اللهِ، وإسنادُ الإحماءِ إلى النَّار مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ النَّار لا تَحمَى بنفسِها، بل لا بُدَّ مِن فاعِلٍ يُحمِيها ويُذْكِيهَا.

دلالةُ تذكيرِ الفعل:

زيادةُ إحماء النَّارِ من مضاعفة العذابِ التي تقابلُ كنزَ الأموالِ ومنعَ نفقته الواجبة

الذي يَحمَى هو صفائحُ الذَّهب والفِضَّة التي اكتنزوها، والإحماءُ هو الإيقاد، فالنَّارُ تُوقَدُ، أي: تشتعلُ بالحرارةِ والسُّخونةِ والإحراق، فينتقِلُ أثرُها إلى الأجسامِ التي تَلتَصِقُ بها، فتَحْمَى تلك الأجرامُ وتَسْخُن، فجُمْلَةُ: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾ أصلُها: يوم تُحمَى الكُنوزُ بالنَّار، بدليل التَّأنيث بعدَها في قوله: ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾ أي: بالمعادن المَكنوزة، ولكنَّه هنا عدَلَ عن تأنيث الفِعل (تُحمَى) إلى تذكيره ﴿يُحۡمَىٰ﴾؛ لأنَّه جعلَ الإحماءَ للنَّارِ مبالغةً، فكأنَّه قال: يومَ يُحمَى على النَّار، "فليس المرادُ أنَّ تلك الأموال تَحمَى على النَّار، بل المراد أنَّ النَّار تَحمَى على تلك الأموال التي هي الذَّهب والفِضَّة". فكأنَّ هناك نارًا تُحمي النَّارَ التي تُحيطُ بما اكتنزوه، ووجْه المبالغة في إسناد الإحماء إلى النَّار: أنَّ النَّار أصلًا ذاتُ حَمْيٍ، فهي حاميَةٌ في ذاتِها، فإذا قلتَ: إنَّكَ أحمَيتَها على ما فيها، ولم تقل: إنَّك أحمَيْتَ ما فيها بها، كان ذلك في معنى قوله: أشعلتُ المشتَعِلَ، ولَيْلٌ أَلْيَل، وظِلٌّ ظليل؛ لأنَّه إذا كانت مادَّة الإحراقِ هي التي تُحمَى، فكيف بما فيها؟! ووجْهُ العدولِ مِن تأنيث الفعل إلى تذكيره: أنَّه حَذفَ النَّارَ وأسندَ الفِعلَ ﴿يُحۡمَىٰ﴾ إلى الجار والمجرور ﴿عَلَيۡهَا﴾؛ تنبيهًا على أنَّ المقصود مِنَ المبالغة في إحماء النَّارِ، هو إحماءُ ما فيها مِنَ الكنوز والأموال الباطلة، فانتقل مِن صيغة التَّأنيث إلى صيغة التَّذكير؛ لأنَّ النَّار تأنيثُها لفظيٌّ، والفعلُ غيرُ مُسنَدٍ في الظَّاهر إليها، بل إلى قوله: ﴿عَلَيۡهَا﴾

فذكَّر الفِعلَ مع جواز الوجهين، لئَلَّا يَطّرِدَ مع تأنيث الفعل في قوله: ﴿فَتُكۡوَىٰ﴾، لِتبْقَى الدّلالةُ على إحماء النَّار مع إحماء الكنوز؛ لتهويل المنظرِ، كأنَّه قال: النَّارُ تَحمَى والكُنوزُ كذلك، فهو إحماءٌ مُغلَّظٌ لا يتعلَّق بالكنوز فقط، ولو قال: (تحمَى) لدَلَّ على إحماءٍ واحد، هو إحماءُ الكنوزِ، دونَ اقترانِه بمعنى المبالغة بإحماء النَّار كذلك[1].

معنى الجارِّ والمجرور، ودلالتُه:

الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾، يعود على الأموال المكنوزة مِنَ الذَّهب والفِضَّة، والجرُّ بـ (على) أفاد الاستعلاءَ المجازيَّ الـمُتَضَمِّنَ لمعنى استيلاءِ الحَمْيِ، وهو شِدَّة الحرارة على معادِن الكُنوز، فكأنَّ النَّارَ لـمَّا أحاطتْ بها مِن كلِّ جانبٍ بحَمْيِها وحرِّها، وغابت تلك الكُنوزُ في باطنِها، كانتْ كالـمُطبَقِ عليه الذي لا يَجِدُ مَنْفَسًا ولا بَحبُوحَة، ممَّا قد استولى عليه وأطبَقَ[2].

النَّـارُ تَعلُو كُنُوزَهُم التي اسْتَعلَوا بها في الدُّنيا على الخَلْق

نُكْتَةُ مجيءِ الضَّمير على معنى الجَمْع:

جاء الضَّمير في قوله: ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾ على معنى الجَمْع، والمراد به: كنوزُ الذَّهبِ والفِضَّة، ولم يَقُل: (يُحمَى عليهما) بالتَّثنيَة، أي: الذَّهَب والفِضَّة، فهما شيئان؛ لأنَّ المرادَ بهما دنانيرُ ذهبٍ ودراهمُ فضةٍ كثيرة، كما قال علي رضي الله تعالى عنه: "أربعة آلاف وما دونها نفقة وما فوقها كنز"[3]؛ و"لأنَّه ليس المرادُ بهما مِقدارًا مُعيَّنًا منهما، ولا الجنسَ الصَّادقَ بالقليل والكثير، بل المرادُ الكثيرُ مِنَ الدَّنانير والدَّراهم، لأنَّه الذي يكون كَنْزًا، فأتى بضمير الجَمْع للدّلالةِ على الكَثْرةِ، ولو أتى بضمير التَّثْنية احتمَل خلافَه"[4].

يَغلِبُ إطلاقُ (الكَنْزِ) على الكَثْرةِ الكاثِرة في النُّقود

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 2/268، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/39، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/79، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/237، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/215، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/280.

مَآلُ الكانزينَ مع كنوزِهم إلى تغييبِهم في جهنَّم، بعد ظُهورِهم وشُيوعِ صِيتِهم في الدُّنيا

دلالة حرفِ الوِعاء (في):

في قوله: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ تصويرٌ لاستغراقِ النَّارِ بإحراقِها وحَرِّها كلَّ جُزءٍ مِن أجزاء الذَّهب والفِضَّة التي اكتنزوها، استغراقِ المُستولي على مَن يَنْتَهِبُه، فالنَّار تنتَهِبُ أموالَهم وتستولي عليها، وذلك بدلالة حرفِ الاستعلاء، ثمَّ يزداد الموقِفُ هَوْلًا، بدلالة حرف الوعاء (في)، من قوله: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، فلم يقل: (يُحمَى عليها فتكوى بها)؛ لِظُهور أنَّ الإحماء والاكتواء لا يكون إلَّا بالنَّار، فلمَّا عبَّر بحرف الوعاءِ (في) أفاد أنَّ الإحماء عليها حاصِلٌ، وهي مشمولةٌ في النَّار، والنَّارُ وِعاءٌ لها يستوعبُها، والكنوزُ بداخِله غائبةٌ في باطِنه، وهو مُبالغةٌ في وَصْفِ درجةِ التَّعذيب الذي سيقَعُ بها؛ لبلوغِها الغايةَ في إحمائِها[1].

تَحوُّلُ الكانزينَ مِن بُعْدِ المنزلةِ في الدُّنيا إلى بُعدِ القَرارِ في قَعْرِ جهنَّم

بلاغةُ المُبالغة في إضافة النَّار إلى جهنَّم:

وَرَدَ السِّياق بإضافة النار إلى جهنَّم، إذ لم يقل: (يُحمَى عليها في النَّار)، بل أضاف المُسَمَّى إلى الاسم، مِن بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفسِه عند اختلافِ اللَّفظين، فالنَّارُ وجهنَّم شيءٌ واحد، إلَّا أنَّ اختلاف لفظَيهما أنزلَهُما منزلةَ المُتغايرَين، فَحَسُنَتِ الإضافةُ لذلك، وهي إضافةٌ شبيهةٌ بالمَحضة، وغرضُها: المبالغةُ في حقيقةِ النَّار وإحمائِها، ومِن بديع النَّظم: اختيارُ إضافةِ النَّار إلى (جهنَّم) خاصَّة، دون غيرها مِن أسماء النَّار؛ لدلالة جهنَّم على بُعدِ القَعْر وعُمْقِ الجوف، الذي يُؤذِنُ بمعنى الإطباق والإحاطة، وغيابِ الشَّيء في باطنها، بما يتَّفق ويُناسِبُ مدلولَ حَرْفَي الاستعلاءِ والوعاءِ في: ﴿يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا﴾، و﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، فسبحانَ مَن أجرى كلامَه بحسابٍ وميزان[2].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/178.

(2) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/55، والهرويّ، إسفار الفصيح: 1/215، والأنباريّ، الإنصاف: 2/436، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 3/10، وابن مالك، شرح الكافية: 2/242، وابن مالك، شواهد التوضيح، ص: 248، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (جهنم).

موقعُ جملةِ: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ ممَّا قبلَه:

جملة: ﴿فَتُكْوَىٰ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾، فالفاء عاطفة، وسببُ الوصل بالفاء دون غيرها: الإسراعُ بتعذيبِهم بها فورَ إحمائها، وهو مِنَ الاستطراداتِ المُتتابِعة في هذه الآيةِ، التي تتوفَّر على المبالغة في العذاب، في كلِّ مرحلةٍ من مراحله، بكلِّ لفظٍ من ألفاظها، والعياذ بالله. واصطفاءُ العطفِ بالفاء؛ لِلإشعار بأنَّ الكَيَّ مُترتِّبٌ عنِ الإحماءِ تَرتُّبَ النَّتيجةِ عن سببِها، فكأنَّ المعنى: أُحميَ عليها لِكَيِّهم بها، فالإحماءُ جُعِلَ سببًا للكَيِّ، ولا يَخفى ما فيه مِنَ التَّهويل والتَّرهيب العظيم[1].

الـكَـنْـــزُ كـان سببًا في بَسْطَةِ أجسادهم، فآلَ سببًا في إتلافِها

مرجِعُ الضَّمير في قوله: ﴿بِهَا﴾، وأثرُه في المعنى:

الضَّمير في قوله: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا﴾ يعودُ على الكنوزِ التي أُحْمِيَ عليها، أو على أقرب مذكورٍ، وهو ﴿جَهَنَّمَ﴾[2]. وعلى الأوَّل: فالباء للتَّعديَة والنَّقل؛ لأنَّ الكيَّ مُضَمَّنٌ معنى الإحراق، فهو في معنى: أحرقَهم بها، فالباء تُحاكي همزةَ التَّعدِيَة، أو الباءُ بمعنى الاستعانة؛ لدخولها على الواسطة التي حصل بها الفعل، فآلَةُ الكَيِّ هي الكُنوزُ التي دَلَّ عليها الضَّمير. وعلى الثَّاني: فالباء بمعنى الظَّرفيَّة، أي: تُكْوى في جهنَّم، وعلى كلا المعنيين أفادتِ الإلصاقَ الحقيقيَّ؛ لأنَّ الكَيَّ بالشَّيء، يعني: إلصاقَه بأجسادهم حتَّى تَحترِقَ، والعِياذُ بالله.

لا خيرَ في مُعِيْنٍ وظَـهيرٍ عاقِبَتُه إلى النَّار

نُكْتَةُ إسنادِ الكَيِّ إلى الأعضاء المذكورة دونَ غيرها:

تخصيص الجِباه والجُنُوب والظُّهور بالذِّكْر دون غيرِها؛ لأنَّ كلَّ عضوٍ من تلك الأعضاء له مَدخَلٌ في عدم الإنفاق، وكلَّ عضوٍ منها يُصوِّر هيئةً من هيئاتِ الكانزِ المُمْسِك في إعراضه عن الإنفاقِ بإخراج حَقِّ المال، فَعَذَّبَهم بما كان سببًا في مَنْعِهم وإعراضِهم[3]، وتفصيلُه ما يلي:

بِـئْـسَ الـظُّـهْـرُ إذا اسـتـقْـوى بـالـحـرام، وبِئْسَتِ الجِباهُ إذا استشْرفَتِ الباطِلِ

(1) صافي، الجدول: 10/331.
(2) الخطيب، التَّفصيل في الإعراب: 5/166.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 8/5069.

أوَّلًا: أنَّ الأعضاء المذكورة تستغرق الجهاتِ الأربعَ، فأخبر أنَّ العذاب مُحدِقٌ بهم مِن جميع الجهات، فالجِباهُ كنايةٌ عنِ الأمام، والظُّهور كنايةٌ عنِ الخَلْف، والجُنُوب كنايةٌ عنِ اليمينِ واليسار؛ فهي أصولُ الجهاتِ الأربعِ التي هي مقاديمُ البدنِ ومآخيرُه وجنباه[1].

ثانيًا: أنَّ هذه الأعضاء هي مَجْمَعُ كمالِ الجسدِ في جمالِه وقُوَّته، "فإذا وقع الكَيُّ في الجَبْهة، فقد زال الجمالُ بالكليَّة، وأمَّا القُوَّة فمَحَلُّها الظَّهْرُ والجَنْبان، فإذا حصل الكَيُّ عليها فقد زالتِ القُوَّة عنِ البدن، فالحاصل: أنَّ حصول الكيِّ في هذه الأعضاء الثَّلاثة يُوجِب زوالَ الجمال وزوالَ القُوَّة، والإنسانُ إنّما طَلبَ المالَ لحصول الجمالِ ولحصول القُوَّة"[2]، و"لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة فإنها المشتملة على الأعضاء الرئيسية التي هي الدماغ والقلب والكبد"[3].

ثالثًا: أنَّ هذه الأعضاءَ تَحكي هيئة الغنيِّ الكانز، وهو مانعٌ شحيح، فالجَبَهة يَستقبل بها الفقيرَ، فإذا سأله أعرَضَ بها عنه، وهو في إعراضه على هيْئَتين، فهو إمَّا أن يُعرِضَ بِجَنْبه، كما يَفْعَلُ مَنْ عنده مُسْكَةٌ مِن اكْتِراث؛ لأنَّ الجَنْبَ يُعبِّر عنِ الاستدارةِ الجُزئيَّة، وإمَّا أن يُعرِضَ بظَهرِه، وهي استدارةٌ تامَّة وإعراضٌ مُشين، يُصوِّر المبالغة في عدمِ رعايتِه واكتِراثِه. فهي تحكي ازْوِرارَهم عن السائل وإعراضَهم عنه وتوليتَه ظهورهم.

رابعًا: أنَّ الأعضاء المذكورة هي أساسُ الجسد ومركزُ بنائِه، فلا يقوم الجسدُ إلَّا بها، فهي معظمُ الجَسَد وأظهَرُ ما فيه، ولا وجودَ للجسد إلَّا بِها، بخلاف سائر الأعضاء، فلا جسدَ بدون جَبْهة، ولا جسد بدون ظَهْر، ولا جسدَ بدون جنْب، بخلاف الأيدي والأرجُل، فلا يَنحلُّ الجسدُ بانحلالِها عنه.

خامسًا: أنَّ هذه الأعضاءَ كنايَةٌ عنِ الأحوال الظَّاهرة والباطنة، التي تتحصَّل للمَلِيء الشَّحيح، بقُوَّةِ كَنْزه ومالِه، فالجَبْهةُ تعلوها المَسَرَّةُ والنَّضْرَة، والظَّهْر يَقوى ويشتدُّ بِمَسْنَدِه مِنَ المال المكنوز، والجَنْبُ يتقلَّبُ ليلَ نهارٍ في النَّعيم والتَّرف، أي: إنَّ جَمْعَهم وإمساكَهم للمال كان لطلبِ الوجاهةِ بالغِنى والتنعُّمِ بالمطاعمِ الشَّهية والملابس البهيَّةِ[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/39.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80.

الـتَّرقِّـي في التَّحـذيـر، والتَّـنبيه على تدارك الأمرِ قبلَ فواتِ الأوان

سِرُّ ذِكْرِ هذه الأعضاء على هذا التَّرتيب:

نَلْحَظُ في الآية الكريمة ترتيبَ الأعضاء التي كانت سببًا في عذاب صاحبها، ولو استدركَ أمرَه قبلَ حلول العذاب، لكان أسعدَ النَّاسِ بها، والكلامُ وإن كان عن كثير مِنَ الأحبار والرُّهبان، ولكنَّ المؤمنين مقصودون؛ بقرينة ندائهم قبل ذلك، فلْيَحذروا أن يكونوا مثلَ هؤلاء الكانزين، ولْيَتداركْ كلُّ واحدٍ منهم أَمْرَه، فإن فاته استقبالُ الفقيرِ، وعَبَسَ في وجهه، فلا يَفُوتَنَّه عدمُ الإعراض عنه بجنبه أو بالكلِّيَّة، وإن فاتَهُ الإعراضُ عنه، فلْيَتداركْ أَمْرَه قبلَ لقاءِ رَبِّه، فالذي ضَيَّع وفَرَّط في حياته الماضية ينبغي عليه أن يُفيق؛ فإنَّ العُمُرَ يمرُّ كما تَمُر هذه الأيامُ والشُّهور، ولا يبقى للإنسان إلَّا عملُه الصَّالح. وقُدِّمَتْ الجِباهُ لِشرفها، ولكونِها مُقَدَّمَ الجسدِ، وأوّلُ ما يُلْمَحُ عند استقبالِه، وأُخِّرَتِ الظُّهورُ لِموضِعِها المُؤَخَّرِ في الجسد، فهي في الخَلْف، وهي آخِرُ ما يُلمَحُ مِنَ الإنسانِ إذا وَلَّى، وجاءتِ الجُنُوب بينَهما لِتَوسُّطِها بينَ المُقدَّم والخَلْف، أو لِتَوسُّطها في الجسد، أو أنَّه رُوعِيَ حال إعراضِ الغَنِيِّ عنِ الفقير السَّائل، فإنَّه يُعرِض عنه بوجهه، ثمَّ بجنبه، ثمَّ يولِّيهِ ظَهْرَه؛ "لأنَّ كل جارحة مِن هذه الجوارح لها مَدْخَلٌ في عدم إنفاق المال في سبيل اللّه، ولذلك لا بدَّ أن تُعذَّب؛ فَتُكْوَى الجباهُ والجُنوبُ والظُّهور"[1]. وفي ذكْر الأعضاء على هذا التَّرتيب مراعاةٌ لانتظام الإيقاع الصَّوتيِّ للتَّركيب، فقدَّمَ ما تشابه مخرجًا وصَوتًا، وهو الجِباه والجُنوب، وأخَّر ما تبايَنَ معهما، وهو الظُّهور، بخلاف ما لو أتى التَّركيبُ على غير هذا التَّرتيب، لكان ثَمَّةَ نَفْرةٌ في الإيقاع، وتَعَثُّرٌ في سلاسةِ الصَّوت.

تـصويرُ أنـواعِ العذابِ المتعدِّدة في كـلِّ عـضوٍ مذكور

بلاغةُ الإطناب في تعديدِ مواضع الكَيِّ:

جاء قولُه تعالى: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْۖ﴾

(1) الشَّعراويّ، خواطر الشَّعراويّ: 8/5069.

على جهةِ الإطنابِ، في تعديد وسرْدِ مواضع التَّعذيب، دونَ الإيجاز والاكتفاء بأنْ يقول: (فتكوى بها أجسادُهم)؛ لِيستَطرِدَ النَّظْمُ في رَصْدِ العذابِ في جميع أحواله ومراحله، مُبالغةً في التَّرهيب منه، ووجْه المبالغةِ في الإطناب بالتَّعديد هنا: إخبارُ السَّامع أنَّ تلك الأعضاء متفاوتةٌ في إحساسها بالألم، فيَتصوَّر أصنافًا متعدِّدةً مِنَ الألمِ مع كلِّ عضوٍ منها؛ ليَذْهَل بخاطرِه ووجدانِه مع كلِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ التَّعذيب، فيَنفَعِلَ لها مَرَّاتٍ وكَرَّات[1].

موقع جملة: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾:

إذا سِيْقَ القولُ لِمَنْ يَعلمُه، فهو إمَّا تذكيرٌ أو تَحسِير

جملة: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ﴾ في محلِّ رفع نائبُ فاعلِ مَقولِ قولٍ محذوف، وفِعلُ القولِ المحذوفِ متعلِّقٌ بالظَّرف، والتَّقدير: (يُقالُ لهم يومَ يُحمَى عليها: هذا الذي تُكوون به ما جمعتم لأنفسكم وبَخلتم به عن حقِّ اللّه)، وإضمارُ القولِ كثيرٌ في القرآن الكريم[2].

معنى اسمِ الإشارة، ودلالةُ افتتاحِ جملة مَقولِ القول به:

يحصُل العذابُ بالقول والفِعل، كما تتألَّم النَّفْسُ بالقولِ والفِعل

قوله: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ مقولُ القولِ مُفتَتَحٌ باسم الإشارة للقريب؛ إيماءً إلى حضورِ المُشارِ إليه وقُربه، وهو مع قُربِه منهم ونزولِه بهم يُشير إليه تبكيتًا لهم، وإمعانًا في تعذيبهم بالقولِ بعد تعذيبهم بالفِعل؛ لِيَجْمعَ إلى تعذيبِهم الجسديِّ تعذيبَهم النَّفسيَّ، بالإشارةِ إلى ما هم مُتلبِّسينَ به، كَمَن يُذَكِّر إنسانًا بعيبٍ فيه لا يَخْفَى عليه، فيَزيدُه حسرةً، واسم الإشارة يعود إلى الكنوز المَحْمِيِّ عليها، أو يعود إلى الفعل النَّازِلِ بهم، وهو التَّعذيبُ بالكَيِّ[3].

دلالة التَّعبير بصيغة الماضي:

تذكير الجاني بسَببِ عقوبتِه لإقامةِ الحُجَّة عليه وانتهاره

مجيءُ صِلة الموصول على تركيب الماضي ﴿كَنَزۡتُمۡ﴾، مُشْعِرٌ بفواتِ الفُرصة وانقضاء الأمْر، وتصويرٌ لعمَلٍ مُحقَّقٍ فعلوه وفَرَغوا منه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/179.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/404، وصافي، الجدول: 10/331.
(3) صافي، الجدول: 10/331.

وخِطابُهم بتلك الصيغة جارٍ مجرى إشهادِهم على أنفسِهم بما تحقَّقَ عندهم؛ تذكيرًا للمُجرِم بأنَّ ما استحقَّه مِنَ العقوبة هو من جَرَّاء ما ارتكبه عمْدًا، وهو مُحقِّقٌ له، مُتمكِّنٌ منه، وفي قوله: ﴿كَنَزْتُمْ﴾ على الماضي إشعارٌ بأنَّهم لم يتوبوا، وأنَّهم ماتوا على هذا الفِعل.

بلاغة الإطناب بذِكْر المتعلّق:

قد يَضِرُّ الإنسانُ نفسَه أبلغَ الضَّرر مِن حيثُ يريد نفْعَها

لا يَنْفَكُّ النَّظمُ الكريم في هذه الآية الجليلة عن مُتابعةِ أولئك المُسيئِينَ في إدارةِ أموالِهم، بالتَّبكيتِ والتَّحسير في كلِّ لفظةٍ مِن ألفاظه، فقوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ زيادةٌ في جُرعةِ العذابِ والألَم، وفيه: مُقابلةٌ بديعةٌ بينَ قصدِهم مِنْ فِعلِهم، وما آلَ إليه حالُهم، فتركيبُ ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ اللَّام فيه لِتعليلِ قَصْدِهم مِن فِعلِهم، وأنَّهم ما كَنَزُوا إلَّا بقصدِ نفْعِ أنفسِهم وإمتاعِها، والسَّعي في لَذَّتِها وراحتِها، ولكنَّهم جلَبوا لِهذه الأنْفُس عاقبةَ الألَم بعدَ اللَّذَّة، والعناءَ المُقيمَ بعدَ الرَّاحة الواهِمَة، فقولُه: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ يستدعي حالَين متقابلتَين؛ أحسنُهما مَضَتْ وانقضتْ، وأسوأُهما ما هُم فيه مِنَ العذاب والألم، وهو تنديمٌ وتجزيعٌ وفسْخٌ لعزْم النَّفْس، حين تُوضَع بينَ تصوُّر حالِها القديمة العزيزة، وحالِها الحاضرةِ البائسة، ويزدادُ الألمُ حين تكون نفْسُ الإنسانِ هي التي جَنَتْ عليه بذلك، وأنَّه المُتسبِّب والمُباشِر في هذا التَّحوُّل المشؤوم، الذي لا رجوع فيه ولا تَدارُك، والعياذُ باللّه. ويَصِحُّ أن تكون اللَّام في قوله: ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ هي لامُ العاقبة والصَّيرورة، باعتبار أنَّ هذا القول ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ يُقالُ لهم يومَ القيامة، وما كَنَزُوه تحوَّل عن صُورته مِن أداة إمتاعٍ إلى أداة تعذيب، فكأنَّه يقول لهم: هذا ما كنزتموهُ لإضرارِ أنفسِكم، تمامًا كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: 8][(1)].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/80، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 7/239، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/179.

موقع جملة: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾:

إيكالُ الجاني إلى مُلابَسَةِ عِقابِه تَيْئِيسًا له

الفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ هي الفصيحة، وهي لِرَبْطِ مَدْخولِها بشرطٍ محذوفٍ تقديره: (إنْ كَنَزتُم ولم تُنفِقوا فذوقوا...)، فقوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ في محلِّ جزم جوابُ الشَّرط المُقدَّر، أو الفاء عاطفةٌ لرَبطِ المُسبَّبِ بالسَّبب، فهي تفريعٌ عن جملة: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾، فهو عطفُ توبيخٍ على تنديم[1].

براعةُ الاستعارةِ:

انفعالُ الجوارح لما تَحُسُّه تَذوُّقٌ له بما يُناسِبُ وظيفتَها في الشُّعور

أصل الذَّوق: الإحساسُ بطعم الشَّيء، وهو في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ﴾، مُستَعارٌ للإحساسِ بالألَم، حيث شَبَّه إحساسَه الأليم بسُوء عاقبتِه، بِذَوقِ الطَّعام الكريهِ الذي لا يُسِيغُه الآكِل، على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة، فالمشبَّه به محذوفٌ، ولازمُ المُشبَّه به - وهو ذَوقُ الطَّعم - مُثْبَتٌ للمُشَبَّه على جهة الاستعارة التَّخَيُّليَّة، فكأنَّه قيل لهم: ذُوقوا طَعمَ ما كنتم تَكْنِزون[2].

دلالةُ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كُنتُمۡ﴾، وأثرُها في المعنى:

أصعبُ ما يُواجِهُ الجاني أنْ يتَذكَّرَ جنايتَه، ويَعْجِزَ عن تَدارُكِها

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ اسمُ موصول، أو حرفٌ مصدريٌّ يُؤَوَّل مع مدخولِه بمصدر، وجملة: ﴿مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾؛ على الأوَّل: صِلةُ الموصول الاسميِّ، والعائدُ محذوفٌ، والمعنى: ذُوقوا ما تَكنِزونَه. وعلى الثَّاني: صِلة الموصول الحرفيِّ، ولا عائدَ، والمعنى: ذوقوا كَنْزَكُم. وعلى اعتبار أنَّ ﴿مَا﴾ موصولةٌ، يكون الغَرضُ مِنَ الموصول التَّنبيهَ والدّلالةَ على غَلَطِهم فيما كَنَزوا، وأنَّهم غُبِنُوا فيه؛ وذلك بقصد تحسيرِهم وإيلامِهم، تتْميمًا لمعاني التَّوبيخ المُتَسَلْسِلَةِ في تركيب النَّظم الجليل. وعلى اعتبار أنَّ ﴿مَا﴾ مصدريَّةٌ، ففائدةُ المصدرِ المؤَوَّل منها ومن مدخولها: إرادةُ

(1) صافي، الجدول: 10/331، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/179.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/281، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/180.

المَصدريَّةِ مع الفعل؛ إذِ الموصولُ الحرفيُّ ﴿مَا﴾ وُصْلَةٌ معنويَّة بينَ المصدر والفعل؛ لإرادةِ مَدلولَيْهما معًا، مِن إفادةِ مجرَّد الحَدَث، وثُبُوتِ العِبْرةِ وديمومتِها المستفادةِ مِن معنى المصدر، وهو كونُهم كانزين، وإفادةِ زمانِه لاستحضارِ هيئتِهم العامِلَة؛ لأنَّه عمَلٌ استَحَقُّوا جزاءَه، فَرُوعِيَ فيه الزَّمَن ﴿كُنتُمۡ﴾، و﴿تَكۡنِزُونَ﴾، والفعليَّةُ والاسميَّةُ كلاهما مُرادٌ مِنَ المصدر المؤوَّل الذي تُوسِّلَ إليه بالحرف المصدريِّ، ولو عَبَّر بالمصدر الصَّريح لخلا التَّركيب مِنَ الدِّلالة على الزَّمنيّة، ولَمَا حصل الاحتمالُ في كون ﴿مَا﴾ موصولةً، فيَضِيْقُ المعنى بالمصدر الصَّريح[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ المضافِ:

الأعيانُ المَكنوزة تَنقلِبُ أداةً للألَم بعدَ أنْ كانت أداةً لِلَّذَّة

الكلام في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ على حذف مضافٍ يقتضيه المقام، والتَّقدير على موصوليّة ﴿مَا﴾: فذوقوا جزاءَ الذي كنتم تكنِزون، والتَّقدير على مصدريَّة ﴿مَا﴾: فذوقوا جزاءَ كَنْزِكُم، أو جزاء كونِكم كانزين. ونُكْتَةُ حذفِ المضاف وعدمِ التَّصريح به: الإيجازُ؛ لِوضوحِه وعدمِ خفائه، ولِلإسراعِ بهم في اقتحامِ ما يُعذَّبونَ به مِنَ الكَنْزِ ومُلابستِه، فلا يُفْصَلُ بينَهم وبينَه بلفظِ المُضاف، أو لإرادةِ المالِ المكنوزِ نَفْسِه مِن غير تقدير مُضاف؛ لأنَّهم يتذوَّقونَ هذه الأعيانَ المكنوزةَ نفْسَها، وهم يُعذَّبون بها، فهي مَذُوقَةٌ لهم حين تَنْقَلِبُ عليهم في الآخِرةِ وبالًا ونَكالًا[2].

سرُّ دخولِ فِعلِ الكونِ: ﴿كُنتُمۡ﴾:

لا فُرصَةَ للجاني في الإنكارِ؛ إذا وُوْجِهَ بما يُحقِّقُ جِنايتَه

جاء بفِعل الكون ﴿كُنتُمۡ﴾ في قوله: ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾، وكان يَصِحّ أن يُقال: (فذوقوا ما تكنِزون)؛ للدّلالة على ثبوتِ

(1) السُّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 180، 186، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/157، والسّمين الحلبي، الدُّر المصون: 5/559، وصافي، الجدول: 9/174.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/281، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/217، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/180.

خبرها لاسمها[1]، ولِتحقيقِ وَصْفِهم بالعمل الذي استحقُّوا الجزاءَ عليه، فَحَقَّقَ اتّصافَهم بالعمل لِتأكيدِ استحقاقِهم لِعقابِه، وفي إيراد ﴿كُنتُمْ﴾ بصيغة الماضي مع ﴿تَكْنِزُونَ﴾ بصيغة المضارع نُكْتَةٌ بديعة، وهو الجمْع بين الدّلالة على تحقيقِ أفعالِهم في الماضي بدلالةِ لفظ ﴿كُنتُمْ﴾، والدّلالة على استحضار هذه الأفعال وهم يُزاوِلونَها ويُكَرِّرونها، ويُجَدِّدون وقوعَها مَرَّةً بعد مَرَّةٍ، بدلالة المضارعة في ﴿تَكْنِزُونَ﴾، ففي هذا التَّركيب البديع دَمْجٌ للحال الماضية مع الحال الحاضرة وقتَ حدوث الفِعل، قبلَ أن يَمضِيَ وينقضِيَ، ولا يَخفى ما في التَّعبير بـ ﴿كُنتُمْ﴾ في هذا التَّركيب مِنَ الدّلالة على ذواتِهم، واستحضارِ هيئَتِهم وهم يَكنِزون.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإحماء والإيقاد:

الإحماءُ هو نتيجة الإيقاد

الإحماءُ: هو الإيقادُ والإشعالُ على الشَّيء بالنَّار حتَّى يَلْتَهِبَ ويَحمَى، فيَصيرَ ساخِنًا شديدَ الحرارةِ مُحرِقًا، وأمَّا الإيقاد: فهو مِنَ الوَقود، وهو مادَّة حياةِ النَّار، أي: اشتعالها، ولذا يُقال على الحطَب، الذي يكون سببًا في تكوُّنِ الاشتعالِ وإنتاجِ اللَّهَب، ويُقال على اللَّهَب ذاتِه، والشُّعلَةِ نفْسِها، فالإحماءُ هو نتيجةُ الإيقاد، كما أنَّ تولُّدَ الحرارةِ هو نتيجة التَّسخين، فلا إحماءَ للأجرام مِن غير إيقادٍ عليها. هذا، والوَقودُ له حرارة وحَمْيٌ في ذاتِه؛ لأنَّه مادّة النَّار، إلَّا أنَّه ذُو اشتِعالٍ أيضًا، وأمَّا الحَمْيُ فلا يلزم أن يكون مُشتعِلًا، بل قد يكون حارًّا مَحمومًا مِن غير اشتعال[2].

(1) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 8/336.
(2) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (حمى، وقد).

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التَّوبة: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

جرائمُ أهل الكتاب كثيرةٌ، وقد ضاهاهم المشركون في بعضها

لـمَّا أُخْبِرَ في الآياتِ السَّابقة عنْ جناياتِ أهلِ الكتاب في العقيدةِ والسُّلوك، وكان منها ما يتعلَّق بالتَّاريخ والتَّقويم؛ كالجِزْيَةِ، والكَنْز الذي يُطلَق شرعًا على ما لم تُؤَدَّ زكاتُه، وكانت تَنْبَنِي في مجموعها على عدم الإيمان باللّه، وعدمِ تحريم ما حرَّم اللّهُ ورسولُه، أخبر هنا أيضًا عن جنايةٍ مِن جنايات المشركين، تتعلَّق كذلك بالتَّاريخ وبتغيير أحكام اللّه فيه، وعدمِ تحريم ما حرَّم اللّهُ ورسُولُه، فمُشْركو العربِ - الذين تقدَّم الأمرُ بالبراءةِ منهم - قد أحدَثوا في الأشهرِ بالنّسِيءِ الذي أُمِروا أن يُنادُوا في الحَجِّ بإبطاله، مِمَّا نَتَجَ عنه تغييرُ السِّنين عن موضعها الذي وضعَها اللّه عليه، فضَاهَوا بذلك فعلَ أهلِ الكتاب في دينِهم، بالتَّحليل والتَّحريمِ مِن رؤسائهم كما أرادوا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِدَّةَ﴾: العِدَّةُ: هي الشَّيءُ المعدود، فإذا أُضيفَتْ للمعدودِ، فمعناها: العددُ المنسوبُ لهذا الشَّيء، فهو عددٌ مضبوطٌ بِحُكْم ما أُضيف إليه، ولذا "تأتي العِدَّةُ مَلْمُوحًا فيها المُمَاثِل في العَدَد"، فهي القيمةُ المُماثِلة للعدد، وليست مُجرَّدَ الوحداتِ الحسابيَّة مِنَ الآحاد والعَشَرات والمئات[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/449.
(2) الرَّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (عدد).

2) ﴿كَآفَّةً﴾: مِنَ الكَفِّ، وهو المَنْعُ، ولفظ (كافَّة): يُطلَقُ على الجماعةِ التي تتَّصِف بالكَفِّ، فتَكُفُّ نفسَها عنِ الزِّيادةِ عليهم أو النَّقْصِ منهم - لِما في الكَفِّ مِن معنى القبْضِ والانقباض - وتَكُفُّ غيرَها عنِ العُدوان عليها أو الإضرارِ بها، ولهذا صَحَّ اعتبارُه اسمَ فاعِل، وتاؤه للمبالغة، أي: كافِّين، فهي جماعةٌ أفرادُها كافِّين لغيرهم، ولِمعنى الاجتماعِ صَحَّ اعتبارُه مَصدرًا، أي: جميعًا، والمراد هنا: قاتلوا المشركين جميعًا على جِهةِ الكَفِّ والرَّدْعِ لهم[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانٌ مِنَ الله بعِدَّة الشُّهورِ، وتغليظُ النَّهي عن مخالفة أَمْرِ اللهِ في الحُرُم منها

يُقرِّر اللّهُ في هذه الآيةِ حُكْمًا بعدد الشُّهور القمريَّة التي يتألَّف منها العام، ويُخبِر أنَّه حُكْمٌ ثابتٌ عندَه في تقديره وعِلمه، ومستقِرٌّ فيما كَتَبَ في اللَّوح المحفوظ، بأنَّها اثنا عشرَ شهرًا، يومَ خلق السَّماواتِ والأرضَ، منها أربعةٌ حُرُم - ثلاثةٌ متصلةٌ وواحدٌ فَرْدٌ - وهي: (ذو القعدة، وذو الحجَّة، والمحرَّم، ورجب)؛ حرَّم اللّهُ فيهنَّ القتال، ذلك هو الدِّين المستقيم، فلا تظلموا فيهنَّ أنفسَكم بإيقاعِ القتالِ فيها، وهتكِ حرمتها؛ لزيادةِ تحريمها واختصاصِها بالتَّفضيل على سائر الشُّهور، وكَوْنِ الظُّلْم فيها أَشَدُّ منه في غيرها، لا أنَّ الظُّلْمَ في غيرها جائز، وقاتلوا المشركين جميعًا، كما يقاتلونكم جميعًا، واعلموا أنَّ اللّه معَ أهل التَّقوى بتأييده ونَصْرِه[2].

وترشدُ الآيةُ إلى مضاعفةِ السيئاتِ في الأشهرِ الحرم، وإلى قبحِ الذُّنوب فيها، والحرصِ على تقوى اللّهِ في السرِّ والعَلن، خصوصًا عند قتال الكفارِ؛ لأنَّ المؤمنَ يتقي اللّهَ في كلِّ أحواله، وبالتقوى ينالُ صفةَ المعيةِ للّه تعالى، وهي معيةٌ خاصةٌ بالنصرِ والتأييدِ لأهل تقواه.

---

(1) الرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (كفف، كفكف).

(2) نخبة من العلماء، التفسير الميسَّر، ص: 192.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئنافِ الابتدائيِّ:

جرائمُ المُخالِفين مُتَّفِقَةٌ في نقْضِ أحكامِ الله

جملة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ استئنافيَّةٌ ممَّا قبلَها؛ لِبَدءِ التَّمهيد لِجنايةٍ جديدة تتعلَّق بالمشركين، في إخلالِهم بنظامِ الأشهر ومواقيتِها الـمُستقرَّة، وابتداعِهم النَّسيء في الشُّهور لتغيير أحكامِ اللّه التي تتعلَّق بها، فالجملة الكريمة تمهيدٌ لِنوعٍ آخَر مِن جرائمِ المشركين، بعدَ الفراغ مِن تعديد قبائحِ اليهود والنَّصارى، فالاستئنافُ متَّصِلٌ بما قبلَه في نوع الـمُناسبة، مُنفصِلٌ عنه في المضمونِ والموضوع[1].

نُكْتَةُ الاستِهلال بحرف التَّوكيد:

أحكامُ اللهِ حَرِيَّةٌ بالتَّوكيدِ والتَّشديدِ

استُهِلَّ الكلامُ بحرف التَّوكيد في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾؛ للاهتمام بمضمونه، وإيقاظِ الأسماع إليه، وأخْذِ ما فيه بقوَّةٍ في العمل والامتثال، كما سِيقَ لَفْظُه بقُوَّةٍ في التَّقرير والتَّوكيد[2].

دلالةُ التَّعبير بوزن: (فُعُول) دونَ (أفْعُل):

مُراعاةُ صِيَغِ الألفاظِ يُفيدُ في الفَصْلِ بينَ المعاني

آثر السِّياقُ التَّعبيرَ بجَمْعِ الكَثْرة: (فُعُول)؛ لكونِ الأشهرِ المذكورة في عددٍ كثيرٍ تجاوَزَ العَشَرة، وهي الواردةُ في قوله: ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾، ولذا لـمَّا نَزَلَتْ عنِ العَشَرةِ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ [التوبة: 5] عَبَّر بوزْنِ (أَفْعُل) الدالِّ على القلَّة.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظ: (العِدّة) دونَ (العدد):

لفظُ العِدَّة يُلْحَظُ فيه نِسبَةُ العددِ إلى الشيءِ المعدود وحُكمه

لم يقل في السِّياق الكريم: (إنَّ عددَ الشُّهور)؛ لِلفرق بينَ العدد والعِدَّة، فالعَدَدُ: هو الوَحَداتُ الحسابيَّةُ المجرَّدَةُ، التي يُقاس بها حسابُ الأشياء، وأمَّا العِدَّة: فهي الشَّيء المعدود، الذي قُيِّم بالعدد، فالعِدَّة يُلاحَظُ فيها نِسبَةُ العددِ إلى الشَّيء المعدود، فيُلمَحُ فيها مُماثِلُ العددِ

(1) صافي، الجدول: 10/334، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/217.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/180.

الذي قُدِّر به، فالعَدَدُ هو مِقياسُ العِدَّة، والعِدَّةُ هي المَقِيس، فلمَّا قال الله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ عُرِفَ من ذلك أنَّ الله يريد منَّا مُلاحظة القيمةِ والحُكم الذي تعلَّق بتلك الشُّهور عند ذِكْرِ عَدَدِها، وليس مُجرَّدَ الإخبارِ بالعدد، فالعِلْمُ في العِدَّة مُتَّجِهٌ إلى المعنى الذي تعلَّق بالمعدود عند نِسبتِه لِلعدَد، وليس مُتَّجِهًا إلى مجرَّد العِلْم بالعدد[1]، كما وردَ الأمرُ بإتمام صيام شهر رمضان كاملًا، ولئلَّا يتوهَّمَ متوهمٌ أنَّ صيامَ رمضانَ يحصلُ المقصودُ منه بصيام بعضِه، دفعَ هذا الوهمَ بالأمرِ بتكميلِ عِدَّته بقوله: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185].

معنى العِندِيَّة، وبلاغةُ المجازِ فيها:

ما كانَ عِنْدَ الله فهو معصومٌ مِنَ الخَلَلِ والزَّيْغ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ظَرْفُ العِندِيَّة مُتعلِّقٌ بعِدَّةِ الشُّهور، والعِندِيَّة مجازٌ في الحُكم والتَّقدير والعِلْم، أي: عِدَّةُ الشُّهور في حُكْمِه وعِلمِه[2]. وفائدة التَّقييد بالعِنديَّةِ وإضافتها للّه، تعظيمُ الحُكم بعِدَّة الشُّهور، وإبطالُ مفهوم التَّركيب، وهو عِدَّةُ الشُّهور عند غير اللّه[3]، مِنَ المشركين الذين أخَلُّوا بتلك العِدَّة، وحَرَّفوا فيها، ففيه تعريضٌ بانحراف المشركين في شأنها، وإهدارُ فِعلِهم فيها. ويَصِحُّ حَمْلُ الظَّرف على الحقيقة، باعتبار قولِه بعده: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الحُكم ثابتٌ في الكتاب، وهو اللَّوحُ المحفوظ، والكتابُ عند اللّه، ويكون المرادُ من عِدَّة الشُّهور: الحُكْمُ بِعدَّتِها، الثَّابتُ في الكتاب الذي هو عند اللّه، مُستقِرًّا وحاضِرًا عنده على وجْهٍ لا يعلمه إلَّا هو سبحانَه.

نُكْتَةُ تقديم الظَّرف على العَدد:

توطئَةُ النُّفوس بمعرفة مَصْدرِ الحُكم، أَدْعَى إلى قَبولِ الحُكْم وطَرحِ ما سِواه

لم يَقُل في السِّياق الكريم: (إنَّ عِدَّة الشُّهور اثنا عَشَر شهرًا عند اللّه) فقدَّم الظَّرف على الخبَر؛ إسراعًا في تقرير أنَّ الخبَر المحكومَ

(1) الرَّاغب، المفردات: (عد)، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (عدد).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/182.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويِّ: 8/5075.

به هو حُكْمٌ مِنَ اللّه، لِتَتَهيَّأ النُّفوسُ للإذعانِ له، ففي تقديم الظَّرف تقديمٌ لِمصْدَر الحُكم وجِهتِه على الحُكم ذاتِه؛ ليُعلَم أنَّ الحُكْمَ الذي سيُقَرَّر لا مُعقِّبَ له، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الغاية مِنَ الحُكْم ليستْ إحصاءَ عَدَدِ الأشهر، أو العِلمَ بعددها، بل المُراد هو إقامةُ الحُكْم الذي تَعلَّق بهذا العدد والامتثال به لأنَّه مِن عند اللّه.

نُكْتَةُ التَّمييز:

تمييزُ الشَّيء قد يَتعلَّقُ بإبهامٍ لازمٍ عنه، أو إبهامٍ ذاتيٍّ فيه

جاء قولُه: ﴿شَهۡرٗا﴾ تمييزًا للعدد المذكور، وهو تمييزٌ مؤكِّد لصِحَّة الاستغناء عنه؛ لِدلالة مضمون جملةِ: ﴿عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ عليه، فَلَفْظُ: (الشُّهور) يُبيِّنُ أنَّ المعدودَ المقصود بالعددِ هو الشَّهر، لكنَّ التَّمييزَ هنا سِيْقَ لِنُكْتَةٍ بديعةٍ في النَّظم، وهو بيانُ أنَّ الشُّهور المعدودةَ باثْنَيْ عشَرَ مُتمايزةٌ فيما بينَها، فكلُّ شهرٍ منها ليس كنظيرِه في سائر الشُّهور، بل كلُّ شهرٍ له خَصِيْصَتُه ونظامُه وهُويَّتُه، التي يتمايزُ بها عن سائر الشُّهور، بدليل أنَّ لكلِّ شهرٍ منها اسْمًا مستقِلًّا به، ولو قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ﴾ مِن غير التَّمييز بلفظ: ﴿شَهۡرٗا﴾؛ لَأَوْهَمَ أنَّها اثنا عشر شَهرًا بنظامٍ واحدٍ، يَتكَرَّر اثْنَتَيْ عَشْرَة مَرَّةً مِن غير مُمايزةٍ بينَها. فلمَّا جاء بالتَّمييز بَعْدَ العَدَد، عرفنا أنَّها إذا تجاوزتِ الاثْنَي عَشَرَ، صار ما زاد على هذا العدد مُماثِلًا لنظيره السَّابق في وقت حُلُولِه، فاعتُبِر شيئًا مُكَرَّرًا، ولذا لم تَزِد على هذا العدد[1].

دلالة توالِي الجارِّ والمجرور:

ما وُصِفَ بأنَّه مِن عِنْد الله، فهو مَشْمُولٌ في عِلْمِه وتقديره

قوله: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمحذوفٍ، صِفةٌ للخبر، وهو قولُه: ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ﴾، أي: اثنا عَشَر شهرًا ثابتةٌ في كتابِ اللّه، أو مكتوبةٌ في كتاب اللّه، أو الجار والمجرور مُتعلِّقٌ بظرف العِنديَّة، على أنَّه بدَلٌ منه، ونُكْتَةُ الإتيانِ بهذه الجملة: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، رَغْمَ أنَّه أخبر

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/183.

قبلَها باستقرار هذا الحُكم عند الله؛ لأنَّ الإخبار بكونه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يَلْزم منه كونُه في كتابه، فكثيرٌ "مِنَ الأشياء يُوصَفُ بأنَّه عندَ الله، ولا يُقال: إنَّه مكتوبٌ في كتابِ الله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34]"[1]، فأخبر بالعِنْديَّةِ دونَ ثُبوتِه في كتابِه، ولا يخفى ما في الجمْع بينَ الأمرين هنا، في الظَّرف والجارِّ والمجرورِ، مِنَ المبالغة في تقرير الحُكم وتثبيتِه مِن جميع الوجوه.

أثرُ مُتعلَّق الظَّرفِ في تعيين معنى الكتاب:

يُطلَقُ كِتابُ اللهِ على حُكْمِ الله؛ لإجـراء الحُكْم مَجرى المكتوبِ في ثُبوتِه

الظَّرف في قوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مُتعلِّقٌ بمعنى الثُّبوتِ، الذي تعلَّق به الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: ثابتةٌ في كتابِ الله في ذلك اليوم، وهذا على اعتبار أنَّ الكتاب اسمُ عَيْنٍ على اللَّوح المحفوظ، أو مُتعلِّقٌ بالكتاب إنْ جُعِل الكتابُ معنًى لا عينًا، فيكونُ مصدرًا لا اسمًا، أي: الشُّهور اثنا عَشَر شَهرًا في حُكمِ اللهِ الذي أوجبَه في ذلك اليوم[2].

نُكْتَةُ التَّعقيب بالظَّرف الزَّمنيِّ:

أزليَّةُ حُكْمِ اللهِ في ضَبْطِ نظامِ التَّكاليف قبلَ الزَّمَنِ والخَلْق، واستمرارُه بعدَ الزَّمَنِ والخَلْق

جاءت جملة: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إطنابًا، بعد الجارِّ والمجرور، وظَرفِ العِنديَّة في جملة: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، وجملة: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، وغرضُ الاستطراد بالظَّرف الزَّمنيِّ: ﴿يَوْمَ خَلَقَ﴾ من جهتين؛ الأُولى: الدَّلالة على أنَّ هذا الحُكم حُكمٌ أزليٌّ قديمٌ؛ لثُبوتِه عند الله، وفي كتابِه قبلَ الخَلْق، غيرَ مُقيَّدٍ بزمان، ولهذا جعله منوطًا أوَّلًا بقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقولِه: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُستفادَ منهما أنَّه حكمٌ ثابتٌ في نفسِه. الثَّانية: الدَّلالة على استمرار هذا الحُكم بتعلُّقِه بحيِّز الزَّمَن، ولكي يَدُلَّ على معنى استمراره الزَّمنيِّ أتى بقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فثبتَ مِنَ التَّراكيبِ الثَّلاثة

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/132.

(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/80، وصافي، الجدول: 10/333.

الدّلالةُ على أزليَّة الحُكم قبلَ الزَّمنِ والخَلْق، واستمرارِه بعدَ الزَّمن والخَلْق، ولا يَخفى ما في هذا الإطناب مِنَ التَّشديدِ على مضمون الحكم الذي اقتضى ضبْطَ نِظامِ الشُّهور بما قضاه اللهُ؛ لتَرتُّبِ ضَبْطِ نظامِ الأحكام والتَّكاليف وكافَّة المصالحِ والمقاصدِ عليه(1).

وجهُ عطفِ الأرض على السَّماوات:

الشُّهورُ القَمريَّة حاصلةٌ مِن مجموع نِظامِ السَّماوات ونظامِ الأرضِ معًا

لم يَقْتَصِر في النَّظْم الكريم على ذِكْر السَّماواتِ دون الأرض؛ لكون نظام الشُّهورِ القَمريَّة حاصلًا مِن مجموع نِظامِ السَّماوات ونِظامِ الأرضِ معًا، فالشُّهور التي تبدأ وتنتهي بحسب دورةِ القَمر، وتأثيرِ الشَّمسِ فيه بانعكاس ضوئها عليه في الجِهةِ التي يُقابِلُ فيها الأرض، فتلك الحركةُ العُلْويَّة لهذه الأفلاك والأجرام السَّماويَّة، إنَّما تحصُل بحسبِ نِسبتِها وتأثيرها في الأحوال الأَرضيَّة، وليستِ الشُّهور إلَّا حالٌ زمنيَّة للوضعِ الأرضيِّ، فالشُّهور جاريةٌ أصلًا على نظامِ الأرضِ ومَن فيها، فلا جرَمَ أنْ عَطَفَ الأرضَ على السَّماوات، وقرنَهما معًا في الذِّكْر لاقترانِهما معًا في إنتاجِ حركةِ الزَّمَن(2).

دلالةُ التَّقييد:

الأشهر الحُرمُ مُعظَّمَةٌ بتحريم انتهاكها، ومضاعفةِ الحسنةِ والسيِّئةِ فيها

وَصْفُ الأربعةِ الأشهرِ بأنَّها حُرُمٌ في قوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾، دليلٌ على اصطفائِها وتفضيلها على سائرِ الشُّهور، فلفظُ: ﴿حُرُمٞۚ﴾ جمع حرام، فهي ذاتُ حُرمَة، ووَصْفُها بذلك: لتحريم القتالِ فيها، ولأنَّ العبادةَ فيها مُعظَّمةٌ، والحسناتِ والسَّيئاتِ فيها مُضاعَفَةٌ، فهي مُحترَمَةٌ بِفعلِ القُرُبات، ومُحرَّمَةٌ بمنْعِ اقترافِ الجنايات.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ، ومعنى مَرجِعِه:

الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ تعود إلى مجموع الكلام السَّابق، وهو الحُكْم بعِدَّة الشُّهور وتحريمِ أربعةٍ منها، واسمُ الإشارةِ

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/218.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/183.

تـوافُـقُ الـسُّـنَّـةِ الـكَـونـيَّـةِ مـعَ السُّنَّةِ الشَّرعيّة في خِطابِ الدِّين

بما اقترن به مِن لامِ البُعدِ وكافِ الخطابِ للدّلالة على بُعدِ المُشارِ إليه في المنزلة، ففي الإشارة تعظيمٌ لحُكْم الله المذكور، وتفخيمٌ لشأنه، وإيذانٌ بِخطَرِه، بما يُحرِّضُ على الإذعانِ له، والتَّحذير مِن تحريفِه أو تبديله[1].

معنى لفظِ الدِّين، وبلاغةُ المجازِ فيه:

الفـرعُ يـأخُذُ اسـمَ أصـلِه الـذي يَـنْـضَـوي تحتَه مُبالغةً في تعظيمِه

المرادُ بـ (الدِّين) في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ أي: المِلَّةُ التي تُطاعُ أحكامُها، ويُدانُ لشَرعِها، أوِ الحُكْمُ والتَّشريع المستقيم، أوِ الحسابُ المستقيم، لا حسابُ المشركين مِنَ النَّسيء، وعُبِّرَ عنِ الحُكْم المذكور بأنَّه الدِّين - رَغم أنَّه بعضُ الدِّين - مُبالغةً في تعظيمِه، لِكوْنِ الدِّين لا يَتِمُّ إلَّا بإقراره، وهو مجازٌ مُرسل علاقتُه الكُليَّة؛ حيث أُطْلِق الكُلُّ وأُرِيدَ الجُزءُ، أو التَّعبيرُ عنه بالدِّين لكونِ كلِّ حُكمٍ مِن أحكام الدِّين يُسمَّى دِينًا؛ لانضوائِه تحتَ مُسمَّى الدِّين، والفَرْعُ يأخذُ اسمَ أصلِه، وعَبَّر بالدِّين، ولم يقل: (ذلك الحُكْمُ القَيِّمُ)؛ لِتضمينه معنى العقيدةِ، التي لا تُقبَل الأعمالُ إلَّا بإقرارها، ولم يَقُل: (ذلك الحسابُ القيِّم)؛ لِكونِه حسابًا يَترتَّبُ عليه تشريعٌ وتكليفٌ، وليس مُجرَّدَ سَردٍ للحسابِ والعَدَد[2].

دلالة التَّعبير بالصِّفة المُشَبَّهة:

دِيْـنُ الـلـهِ مـسـتـقـيـمٌ في ذاتِـه، وتستقيمُ بــه أحــوالُ الآخِذين به

قولُه: ﴿ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ نعتٌ لـ ﴿ٱلدِّينُ﴾، و﴿ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ صفةٌ مُشبَّهةٌ بمعنى اسم الفاعل، أي: المُستقيم أو القَويم، أو بمعنى اسم المفعول، أي: المُقَوِّم لأحوال المؤمنين به، ومجيءُ اللَّفظِ على بناءِ الصِّفة المشبَّهة هو مبالغةٌ في وصف الدِّين بالاستقامة؛ للدّلالة على ثُبوت ذلك الوصفِ ولُزومه للدِّين في جميع الأحوال؛ فلا يَنْفَكُّ عنه ولا يُفارِقه، فهو لُزومٌ ذاتيٌّ، فالدِّين في ذاته قويم ومستقيم، ومقوِّمٌ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/283.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3300.

لأحوال مَن تمسَّك وأخذ به بصِدْق، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦﴾ [النساء: 66] ولا يكون الدينُ إلَّا كذلك[1].

نُكْتَةُ الاستئناف:

الأخبارُ إذا ترتَّبَتْ عليها الأحكام تضمَّنتْ معنى الإنشاء

جملة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ استئنافيَّةٌ ممَّا قبلَها، وهو استئنافٌ نحويٌّ في الصِّناعةِ دونَ المعنى، وغَرضُ الابتداء بها بعدَ قولِه: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ تقريرُ الجَعلِ التَّشريعيِّ بها للحُكم المذكور، أي: ذلك الحُكم هو وَضْعٌ شَرعيٌّ دِينيٌّ، بعد أن كان حُكْمًا كونيًّا ثابتًا بأصل الخِلْقة، فقولُه: ﴿يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ لتقرير ثُبوته بالوضع الكَونيِّ الوجوديِّ، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ لتقرير ثُبوته بالوضع الشَّرعيِّ التَّكليفيِّ[2].

دلالةُ الفاء في: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾:

وظيفةُ الشرطِ المُقَدَّر الدّلالةُ على استثمار شَرفِ الزَّمانِ في تزكيَةِ النَّفْس

الفاءُ في جملة: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ هي الفصيحةُ؛ تَعطِفُ مدخولَها على شرطٍ مُقدَّر محذوف، يدلُّ عليه ما قبلَه، أي: إنْ عَلِمْتُم تفضيلَ اللهِ للأشهر الأربعةِ بتحريمها، فلا تظلموا فيهنَّ أنفسَكم، فهي تفريعٌ على مضمون قوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾[3].

مَرجعُ الضَّمير وبلاغتُه:

تخصيصُ الأزمانِ بالتَّفضيل يقتضي تخصيصَها بالتَّكليف

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، الضَّمير في ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ على الاثني عشَر شهرًا، في قولِ ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى: لا تجعلوا حلالًا حرامًا، ولا حرامًا حلالًا كفعل النَّسيء، ويؤيِّدُه كونُ الظلم منهيًّا عنه في كلِّ وقتٍ لا يختصُّ بالأربعِ الحُرم[4].

---

(1) فاضل السَّامرائيّ، الأبنية العربيَّة، ص: 66.

(2) صافي، الجدول: 10/334، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/186.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/97.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/415.

والأرجحُ أن يعود الضميرُ إلى جملة: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾، وليس عائدًا إلى الأشهر الاثْنَي عَشَر؛ لأنَّه لو عاد إلى ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ لكان كأنَّه قال: (فلا تظلموا أنفسَكم أبدًا)، أو (لا تظلموا أنفسكم)، فلا يكون لإقحام الضَّمير فائدة؛ لأنَّه سيكون نهيًا مطلقًا؛ لأنَّ النَّهيَ المطلق كائنٌ في كلِّ الشُّهور، فلا حاجةَ لِضميرٍ يعود عليها؛ إذ لا معنى له، فضلًا عن أنَّ وصلَ الجملة بالفاء في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ عَقِب قوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ مؤذِنٌ بأنَّ النَّهيَ مُتَرتِّبٌ عن تفضيلها بالتَّحريم، فتحريمُها عِلَّةٌ في النَّهي، وعليه: فالنَّهيُ في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ﴾ نَهيٌ خاصٌّ، مُفرَّعٌ عن سببٍ خاصٍّ[1].

نكتةُ العدول عن إفراد الضَّمير إلى جَمْعِه:

جَمْعُ الضَّميرِ قد يُـؤذِنُ بأفضليَّةٍ في مَرجِعِه

في قوله: ﴿مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ جاء الضَّميرُ العائدُ على عِدَّة الشُّهور الاثْنَى عَشَر بالإفراد التَّأنيثيِّ، ولكنَّه عدَلَ عنه إلى الجمع التَّأنيثيِّ في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ﴾، وسببُ العدولِ: أنَّ الضَّمير في الموضع الأوَّل يعود إلى جمع الكَثْرة، وهو ما كان فيما زاد عنِ العَشَرة، وهي الشُّهور الاثْنَى عَشَر، ولذا أُفْرِدَ الضَّمير لِتناسُبِ إفرادِ الضَّمير مَعَ الكَثْرةِ الجمعيَّة؛ لأنَّ جَمْعَ الكَثْرة غيرُ محدودٍ، أو شبيهٌ بغير المحدود، وجمْعُ الضَّمير العائدِ عليه يُحدِّدُه ويُوحِي بِقِلَّتِه وحَصْرِه، وأمَّا الضَّمير ﴿فِيهِنَّ﴾ في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ فعائدٌ على الأربعة الحُرُم، وهو جمعُ قِلَّة، فيُجمَعُ ضميرُه لعكسِ السَّبَبِ السَّابق[2].

بلاغة التَّعبير بالظُّلم دونَ الفِسْق:

الظُّلمُ أنسب للسِّياق وأَعمُّ مِنَ الفِسْق

لم يَقُل في السِّياق الكريم: (فلا تفسُقوا فيهنَّ)؛ لإجراء الظُّلْم على الأنْفُس، لأنَّه لا يُقال: (فلا تَفْسُقوا أنفسَكم أو على أنفسِكم)؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/240.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/416، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/451، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويِّ: 8/5081.

لأنَّ الفِسْقَ يكون مِنَ الإنسان على نفسِه لا على غيرِه، وأمَّا الظُّلْم فمُتضَمِّنٌ معنى الاعتداءِ الذي يكون مِنَ الإنسانِ على نفسِه وعلى غيره مِن أَنْفُسِ النَّاس، فعَبَّر بالظُّلْم ليتناولَ الاثنين معًا، وأيضًا لأنَّ الظُّلْمَ ألصقُ في معناه بالأشهر الحُرُم الأربعة، لأنَّها محرَّمٌ فيها القتالُ والعُدوان، فكأنَّه بالتَّعبير بالظُّلم يَنْهَى عن ضِدِّ معناها، كأنَّه قال: فلا تَنْقُضُوا حُرمَتَها بالاعتداء فيها.

دلالة إضافةِ الأنفُس إلى كافِ خطابِ الجماعة:

الأصـــلُ في الـعـلاقـاتِ الالـتـزامُ بحقِّ الأمـنِ لجميع أطرافِها

أَسْنَدَ النَّهيَ عنِ الظُّلْم إلى الأنفسِ المُضافة إلى كافِ خطاب الجمع؛ ليشملَ ذواتَهم وذواتَ غيرِهم، وللتَّنبيه على أنَّ المسلمين جميعًا كالجسد الواحد؛ إذ جميعُهم مِن نفْسٍ واحدة، فلا فرقَ بينَهم في حَقِّ أمانِهم مِنَ الظُّلْم والاعتداء عليهم، إلَّا مَن اعتدى منهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: 61]، وقال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء: 29]. فقولُه: ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ يدلُّ على أنَّها أنفسٌ غيرَ ظالِمة، ولذا نَهَى عن ظُلْمِها بالاعتداء عليها، ومِثْلُ هذا تقرَّر في قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 7]، وقولِه: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: 194][1].

موقع قولِه: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾:

حُـرمَـةُ الإنسان فـوقَ حُـرمَـةِ الزَّمان

الواو في جملة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لعطفِ مدخولها على مضمون النَّهي السَّابق، وَوُصِلَتْ بما قبلَها للاحتراس مِن تَوَهُّم أنَّ النَّهيَ عنِ الظُّلْم والعُدوان على الأنفس في الأشهر الحُرُم قد يكون مانِعًا مِن قتال المشركين إذا اعتدَوا فيها، ولذا علَّقَ الإذنَ في قِتالِهم على قوله: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/186.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/186.

دلالةُ التَّقييد بلفظ: ﴿كَآفَّةً﴾، وأثرُها في المعنى:

لا تُسَمَّى الجماعةُ (كافّةً) إلَّا إذا كانت مَنيعَةً في نفسِها، وعلى مَنْ سِواها

لفظ: (كافَّة) مِنَ الألفاظ الواسعة في معناها، فيَصِحُّ أن تكون مصدرًا - بوزن اسم الفاعل - كالعاقِبة والعافِية، والمعنى: قاتِلوهم جميعًا، ولم يأتِ النَّظْمُ بلفظِ (جميعًا)؛ لدلالةِ ﴿كَآفَّةً﴾ على جَمْعيَّةٍ خاصَّة، وهي التي تَتَضَمَّن معنى الكَفِّ والمَنْع، أي: قاتلوهم جميعًا بِكَفٍّ ومَنْعٍ، وهي حال مِنَ الفاعل: أي: قاتلوهم حالَ كونِكُم جميعًا، أو حالٌ مِنَ المفعول، أي: حالَ كَونِهم جميعًا، أو حالٌ مِن الفاعل والمفعول معًا، أي: قاتلوهم حالَ كَونِكُم جميعًا وكَونِهم جميعًا، أي: في حالِ كان كُلٌّ منكم على هيئة الاجتماع. ويَصِحُّ أنْ تكون (كافَّة) اسمَ فاعلٍ، أي: (كافٌّ)، والتَّاءُ فيه للمبالغة، كلفظِ: (رَاوِيَة) و(ساقِيَة)، أي: راوٍ وساقٍ، وتاءُ التَّأنيث للمبالغة، والمعنى: قاتلوهُم حالَ كَونِكُم كافِّينَ ورادِعين لهم، كما يقاتلونكُم كافِّينَ لكم. أو تكون (كافَّة) اسمًا بمعنى الجماعة، أي: جماعةٌ كافَّة، وسُمِّيتِ الجماعةُ بذلك، لأنَّها تَكُفُّ غيرَها وتمنعُه مِن استِباحتِهم، وتَكُفُّ أفرادَها عنِ الانشقاقِ والافتراق، ولم يُعَبَّر بلفظ الجماعة في النَّظْم لتخصيصها بمعنى الكَفِّ والمَنْعِ، فكَافَّة جماعةٌ خاصَّة[1].

براعةُ الإطناب:

مُجابَهةُ الخُصومِ في الدِّيانةِ بنظيرِ أفعالِهم

تَكَرَّر لفظُ (كافَّة) في الآية مرَّتين، وفي غير النَّظم الجليل كان يمكن أن يُقال على سبيل الإيجاز: (وقاتِلوا المشركين كافَّة كما يُقاتِلونكم كذلك) مِن غير تَكْرَارٍ لِلَّفظِ، ونُكْتَةُ ذلك: أنَّه لو جاء التَّركيب بالإشارة: (كما يقاتلونكم كذلك) دونَ تَكْرَارٍ لِلَّفظِ، لكانَ مُوهِمًا؛ لاحتمال أنْ يُراد: قاتلوهم كافَّة كما يقاتلونكم، فيُفْهَمُ عَوْدُ الإشارةِ على القتال فقط، كأنَّه قال: قاتِلوهم كافَّة كما يُقاتِلونكم

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/436، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/41، والشِّهاب الخفاجيّ، عِناية القاضِي وكِفايةُ الرَّاضي على تفسيرِ البيضاوي: 4/325.

كذلك مُتَفرِّقين أو مجتمعين، فلمَّا صَرَّح باللَّفظِ مرَّةً ثانيةً في جانِبِهِم، عُلِمَ أنَّ التَّماثُل ليس في الفِعل فقط، بل في الفِعل والهيئة.

معنى (الكاف) في قوله: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ وبلاغَتُها:

المعلولُ يُشْبِهُ عِلَّتَه لوقوعه على مِثالِه

أصلُ (الكاف) في جملة: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ للتَّشبيه، فهي اسمٌ بمعنى: (مِثْل)، وهي مُستعارةٌ هنا لِتَعليلِ التَّشبيه، فهي في معنى السَّببيَّة مع لزوم معنى التَّشبيه لها، أي: قاتِلوهم بسببِ قتالِهِم لكم، فجاء بكاف التَّشبيه لِكونِ المُسبَّبِ يُشْبِه سَبَبَه، لوقوعه على مِثالِه، فلِمعنى التَّناظُر والمُماثَلة بينَهما رُبِطَ بالكاف[1].

بلاغة (ما) وأثرُها في المعنى:

الموصولُ الحَرفيُّ وُصْلَةٌ معنويَّةٌ بينَ المصدر والفعل

المصدر المؤوَّل مِنْ (ما) ومدخولِها في قوله: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ في محلِّ جرٍّ بالإضافة إلى الكاف، أي: مِثْلَ قِتَالِهِم لكم، وفائدة (ما) في النَّظْم الجليل: الرَّبْطُ بينَ معنى المصدريَّة ومعنى الفِعليَّة، وإرادةُ مَدلُولَيْهِما معًا في التَّركيب؛ لِيُجْمَع بينَ ثُبوتيَّةِ المصدر بدلالته على معنى الحَدَثِ المجرَّد، وزَمَنيَّةِ الفِعل وحركتِه المُتَجَدِّدة، فتَركيبُ ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ تَوالَى عليه معنيانِ في آنٍ؛ معنى المصدر بتأويل: (كقتالِهم)، ولفظ الفِعل: ﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾، لِيُفيدَ امتزاجُ المعنيين معًا أنَّ قِتالَ المشركين للمسلمين أمرٌ ثابتٌ لن يتغيَّر، وهو مُؤذِنٌ بثُبوت العداوةِ والخُصومَة بينَ الفريقين، ويُفيدَ أنَّه أمرٌ مشهودٌ يَظهر في أعمالهم وأفعالهم ويتكرَّرُ منهم، ولو عَبَّر بالمصدر الصَّريح لضاقَ المعنى عن ذلك[2].

موقع جملة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾:

مَنْ حازَ مَعِيَّةَ اللهِ فلا يَضرُّه أحدٌ

جملة: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، وسِيقَتْ بعدها للتَّثبيتِ والإعانة على ما أُمِروا

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/188.

(2) السُّهيليّ، نتائج الفكر، ص: 180، 186، وابن القيم، بدائع الفوائد: 1/157، والسّمين الحلبي، الدُّر المصون: 5/559، وصافي، الجدول: 9/174.

به في شأنِ القِتال، فكأنَّه دَلَّهم على السَّببِ الذي يدفع عنهم الوَهَنَ والخوفَ، إذا باشروا ما هو مَظِنَّةٌ ذلك، ولا يخفى ما في الابتداء بـ (اعلموا) مِن قرعِ الأسماعِ وإيقاظِ القلوب؛ للانتباه إلى مضمون ما سَيُلَقى بعدَه؛ إيذانًا أنَّ الوعدَ بالمعيَّة أمرٌ عظيم يجب الاهتمام به والإصغاء له[1].

مَعيَّةُ اللهِ الخاصَّةُ مشروطةٌ بالعِلْم والعمل

فائدةُ استِهلال الجملةِ بِفعل اليقين:

افتتَحَ الكلامَ بقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ تأكيدًا لحصولِ المعيَّة المذكورة متى تحقَّقَ شرطُها، وإيذانًا بأنَّ تلك المعيَّةَ هي مَعيَّةُ تأييدٍ ونَصرٍ ومعونةٍ خاصَّة، فلا ينبغي أنْ يُرتابَ فيها، وإيماءً إلى أنَّ تلك المعيَّة حاصِلةٌ بشرطِها مِنَ اليقينِ والعِلم، كما هي حاصلة بشرطها مِنَ التَّقوى، فكأنَّه جعل شرطين للمعيَّة؛ الأوَّل: العِلْمُ واليقين، والثَّاني: العمَلُ بالتَّقوى[2].

التَّقوى هي أشرفُ الأحوالِ وأثْمَنُ المكاسِب

دلالة إطلاق المعيَّة، وعدمُ تعيينِ مَجالِها:

تذييلُ الآية الكريمةِ بمعية اللّهِ لأهل التقوى منبَهَةٌ للحرص على استعمالِ تقوى اللّه في سرِّكم وعلنِكم وعندَ القيام بطاعته، خصوصًا وقت قتالِ الكفارِ؛ فإنه في هذه الحالِ ربما ترك المؤمنُ العملَ بالتقوى في معاملةِ الكفارِ الأعداءِ المحاربين[3]، إلَّا أنَّ السِّياقَ الكريم لم يُحدِّد مجالَ المعيَّة، فلم يقل: اللّهُ معَ المتَّقين في أيِّ شيء؟ أو أيِّ زمن؟ أو في أيِّ شأن؟؛ لِيُفيدَ العمومَ في كلِّ الأحوال، وللدّلالةِ على أنَّ الأمر بالتَّقوى أعمُّ مِنَ الأحداث والشُّؤون، فهي حالٌ مأمور بها في كلِّ وقت، وتُجْنَى آثارُها الطَّيِّبةُ في كلِّ شأن[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/64، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/188.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/285، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/188.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 192.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/285.

بلاغةُ وَضْعِ المُظْهَر موضِعَ المُضمَر:

الـمُـتَّـقـونَ هـمُ الرَّابِحون

لو اطَّرَد الكلامُ على سياقِه لجَرى على ضمير الخطاب، فيُقال: (وقاتلوا المشركين كافَّة كما يقاتلونكم كافَّة واعلموا أنَّ اللَّه معكم)، ولكنَّه عَدَل عنِ الضَّمير للاسم الظَّاهر (المتّقين)، لِوجوه: الأوَّل: لإجراء وَصْفِ التَّقوى في الكلام مَدْحًا لهم بها، فكأنَّه يَشْهَد لهم بالتَّقوى. الثَّاني: تحريضُ القاصرين عن هذا الوصف أن يَنهضوا ويتَّقُوا ويفوزوا بمضمون الوعد؛ ليستأهِلوا معيَّةَ اللَّه. الثَّالث: لِقطع تَوَهُّم الـمُحاباةِ بينَ اللَّه وخَلْقِه، فلو قال: (واعلموا أنَّ اللَّهَ معَكُم) لأوهَمَ أنَّ المعيَّةَ قد تحصُل بغير شرطِها مِنَ العمل، فلمَّا قال: ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، عُلِمَ أنَّ المعيَّةَ لها شَرْطٌ ينبغي أنْ يُعلَمَ ويُعمَل به، فلو قال: (معكم) لخلا التَّركيب عنِ الشَّرط، وأيضًا: لـمَّا قال: ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، دَلَّ على أنَّ الـمُمْتَثِلَ منهم فقط بمضمون الأوامر السَّابقة في قوله: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾، وقولِه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ﴾ هو الـمُتَّقي الذي يستحِقُّ المعيَّةَ، ومَن لم يمتثِل ويعمل فليس بمُتَّقٍ ولا مَستَحِقٍّ للوعد. الرَّابع: لإجراء هذا التَّركيب: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مجرى المَثَلِ السَّائر، والقانونِ الـمُطَّرِد الذي يَعُمُّ الأحوالَ والظُّروفَ، ولا يَختَصُّ بواقع مُعيَّن أو حالةٍ مُحدَّدة، بل يَعْمَلُ في كلِّ واقعٍ ووَضْعٍ، ولو قال: (واعلموا أنَّ اللَّهَ معَكُم) لم يُفِد هذا العُمُومَ، ولم يَجرِ مَجْرى السُّنَّة الثَّابتة[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِدَّة والعَدَد:

الـعِـدَّةُ: هي عَـدَدُ الأعيـان، والـعَـدَدُ: الـوَحَـدَاتُ الرَّقْـمَـيَّـةُ التي تُحسَبُ بها

العِدَّةُ هي الشَّيءُ المعدود، والعَدَدُ: هو الوَحَدَاتُ الرَّقْمَيَّةُ التي تُحسَبُ بها الأشياءُ وتُحصَى أفرادُها، وهذه الوَحَداتُ هي المكَوَّنَةُ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/64، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/285، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/188.

مِنَ الآحاد والعَشَرات والمئات...، والفَرْقُ بينَهما كالفَرْقِ بينَ الميزانِ والموزون، والعِدَّة لا تُطلَقُ على العَدَد إلَّا إذا اقترنَ بها الشَّيءُ المعدودُ، فيقال: عِدَّةُ الشُّهور، يعني: عددَ الشُّهور، فهي عَدَدٌ مَلحُوظٌ فيه ذاتُ الشَّيءِ المعدود ومعناه، فلا تُطْلَق على العَدَد مِن غير إضافة، وأمَّا العَدَد: فيأتي مُجرَّدًا ومُضافًا، وحاصل ذلك: أنَّ العِدَّة هي الشَّيءُ بعدَ عَدِّه، ولا تُقالُ قبل العَدِّ، والعَدَد: المعيار في قِياس ذلك[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرَّاغب، المفردات، وابن منظور، اللِّسان، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ: (عدد).

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التّوبة: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين حرمة الأشهر الحرم، وإشعار المؤمنين بأنّ التّقوى في تحريم القتال فيها

لَمَّا دلَّتِ الآيةُ السَّابقةُ على عِدَّة شهورِ السَّنة عند اللّهِ، وأنَّ منها أربعةً حُرُمًا، فُهِمَ من هذا إبطالُ النَّسيءِ؛ لأنَّه فِعلُ أهلِ الجاهليَّة، فكأنَّه قيل: أفما في النَّسيءِ تقوى؟ فإنَّ سببَهُ إنَّما هو الخوفُ مِن انتهاك حُرمةِ اللّهِ بالقتال في الشَّهر الَّذي حرَّمه، فقد كانوا أصحابَ غاراتٍ وحروبٍ، ويحترمونَ الأشهرَ الحُرُمَ في عدم القتال، حتى لو رأى الإنسانُ قاتِلَ أبيه لم يعرِض له، وكان يشقُّ عليهم تَرْكُ ذلك ثلاثةَ أشْهرٍ متواليةً، فجعلوا النَّسيءَ لذلك، فصرَّحَ هنا بما أفهَمَهُ ما مضى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾: المعنى المحوريُّ: دفْعُ الشَّيءِ المقبِل عن محضَرِه تأخيرًا إلى أثناءٍ، يجتمع فيها[2] والنَّسْءُ: تأخيرٌ في الوقت، ومنه: نُسِئَتِ المرأةُ؛ إذا تأخَّر وقتُ حيضِها، فرُجِيَ حَملُها، يقال: نسأَ اللّهُ في أجلِكَ، ونسأَ أجَلَكَ، والنَّسيءُ: بيعُ الشَّيءِ بالتَّأخير، وهو فعيلٌ بمعنى مفعول، والنَّسيءُ الذي كانتِ العربُ تفعَلُه: هو تأخيرُ بعضِ الأشهر الحُرُم إلى بعضٍ آخرَ، فيُحِلُّون المحرَّمَ، فيقاتِلون فيه، ويحرِّمون بدلَه صفرًا[3]، وهو المراد هنا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/308.
(2) جبل: المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نسأ).
(3) الرّاغب، المفردات، ومجمع اللغة العربية بمصر، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (نسأ).

2) ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾: وَطَأَ: الواو والطَّاء والهمزةُ: كلمةٌ تدلُّ على تمهيدِ شيءٍ وتسهيلِه، ويواطِئوا: يطابقوا[1]، والمعنى المحوريُّ: الدَّوسُ بِثِقَلِ الحِمْلِ كلِّه على الشَّيءِ، ويلزمُ ذلك انخفاضُه، ومنهُ استُعمِلَ الوطْءُ في الغزوِ والقتْلِ؛ لأنَّ مَن وَطِئَ الشَّيءَ بِرِجْلِه، فقدِ استقصى في إهلاكِهِ وإهانتِه، ومنهُ: واطَأَهُ على الأمرِ: وافقَهُ، كأنَّ كلًّا منهما وطِئَ ما وطِئَهُ الآخرُ[2]. والمواطأةُ: الموافقةُ على أمرٍ يوطِّئُهُ كلُّ واحدٍ لصاحبِه[3]، وهو المرادُ هنا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

جرأة العربِ في الجاهليّة على تحريمِ القتالِ في الأشهُرِ الحُرُم، بأهوائهم

تخبر الآيةُ الكريمة عمَّا كانتِ العربُ تفعله في الجاهلية من تحريم القتالِ في الأشهُر الحُرُم، فإذا احتاجوا إلى القتال فيها؛ قاتلوا فيها، وحرَّموا غيرَها، فإذا قاتلوا في المحرَّم؛ حرَّموا بدلَه شهرَ صَفَرٍ، فيؤخِّرون بعضها أو يقدِّمونه ويجعلون مكانه من أشهر الحلِّ ما أرادوا حسب حاجتهم إلى القتال، فكان ذلك نوعًا من زيادة كفرِهم؛ إذ كانوا يُحلُّون الشَّهرَ الحرامَ عامًا بإبدالِه، ويحرِّمونهُ عامًا؛ ليوافقوا العددَ من تحريم أربعة أشهر من السَّنة في الشُّهور المحرَّمةِ، وهذا من تزيينِ الشَّيطان لأعمالهم، ومنها ما ابتدعوه من النسيء؛ لأنَّ الَّذي يُحَلِّلُ، ويُحَرِّم هو اللهُ وحدَه[4]، والله لا يوفِّق الكافرين المُصرِّين على كفرهم.

وترشد الآيةُ الكريمة إلى ما في التحليل والتحريم للأشهر من المحاذير؛ منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه. ومنها: أنهم قَلبوا

(1) مجمع اللّغة العربيّة بمصر، معجم ألفاظ القرآن الكريم: (وطأ).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وطأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وطأ).
(4) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/358، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 2/69.

الدِّين، فجعلوا الحلالَ حرامًا، والحرامَ حلالًا. ومنها: أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبَّسُوا عليهم دينَهم، واستعملوا الخداع والحِيلَة في دين الله. ومنها: أن العوائدَ المخالفةَ للشرع مع الاستمرار عليها، يزولُ قبحها عن النفوس، وربما ظُنَّ أنها عوائدُ حسنة، فيحصل من الغلط والضَّلال ما يحصل، ولهذا قال: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلُّوا ما حرَّمَ الله[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الاستئنافُ البيانيُّ ودلالتُه:

بيانُ المقاصدِ يحتاجُ إلى مقدِّماتٍ

الآيةُ الكريمةُ استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فإنَّه كالمقدِّمة إلى المقصودِ، وهو إبطالُ الشَّيء، وتشنيعُه[2]، كأنَّ الآيةَ السَّابقةَ أثارت تساؤلًا: ماذا فعلوا فيما شرعَهُ اللهُ في تحريم الأشهرِ الأربعِ؟ فجاءتِ الآيةُ مجيبةً عن قُبحِ ما فعلوهُ.

وجوهٌ أُخَرُ مِنَ الاستئنافِ البيانيِّ في الآيةِ:

الأوَّلُ: لَمَّا ذكرَ اللهُ في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ أمرَهُ الكونيَّ بعدَّة الشُّهورِ عندَه، وأمرَهُ الشَّرعيَّ بتحريم أربعةٍ منها، هو الدِّين القيِّمُ، وكان ذلك دينَ محمَّدٍ ﷺ وأُمَّتِه؛ أبانَ أنَّ النَّسيءَ إلحادٌ فيه، فهو زيادةٌ في الكُفرِ تخليصًا للدِّين ممَّا شابوهُ، وتبرئةً له ممَّا عابوهُ.

الثَّاني: أنَّه لما نَهى عن ظُلْم المؤمنين أنفسَهم في الأشهرِ الحُرُم؛ أبانَ أنَّ ما عليهِ المشركون - وقتذاك - مِنَ النَّسيءِ هو من أضرِّ الظُّلم وأشدِّه، وأنهكه وأهتكه، وأرداهُ وأخزاهُ.

الثَّالث: أو أُريدَ بيانُ أنَّ معيَّةَ اللهِ للمؤمنين - أي: المعيَّةُ الخاصَّةُ بالنَّصرِ والتَّأييدِ والتَّوفيقِ والتَّسديدِ - المتَّقين المذكورة تذييلًا للآية

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/188.

المتقدِّمة، تبلغُ أوجَ كمالِهَا إمدادًا إرفادًا وإسعادًا إنجادًا للمزدادين إيمانًا على إيمانٍ وتقوًى إلى تقوى، فقُوبِلَ ذلك لتمليَتِهِ وتجليتِهِ بصورةٍ من صورِ الزِّيادة في الكفر انتكاسًا وارتكاسًا، وتوغُّلًا وتسفُّلًا على ما بالأوَّل مِنَ التَّحفيز، وما في الثَّاني مِنَ التَّقزيز.

الرّابع: الاستئنافُ البيانيُّ في الآية معجِزٌ، وأنَّه لا حدَّ لإعجازه، وليس شيءٌ ممَّا قيل فيه، وتقدَّم بأولى من شيءٍ لم يقل بعد قَد يُقال، فإنَّه لمَّا ذكر بآخِرِ الآية يُعْلِمُهُم أنَّ الله مع المتَّقين؛ ذكر بأوَّل تاليتها ما هو أدخلُ في التَّقوى من باب عدَّة الشُّهور الَّذي تقدَّم، وما هو أجمعُ للعقل والقلبِ والجوارح على التَّقوى، وأبعدُ عن النَّزَقِ والخَرَق والتَّهاوي في الضَّلال المزِلِّ والانفلات المشين المُهين المُردي المخلِّف الآلامَ الجسام بتقَحُّم العِظام.

الخامس: ومن غريب نظمِ هذه الآيةِ الطَّريفِ المعجب، اللَّطيفِ المطربِ الملهب؛ أن يُرتِّب استهلالًا بخبرٍ يعطي الفائدةَ إفادةً على تذييلِ بخبرٍ يعطي لازمُها إجادةً، بما يخرِقُ مألوفَ البلغاءِ عادةً، أن يتقدَّم مفيدُ الفائدة إعلامًا، ثم يتلوهُ مفيدُ لازمِها إتمامًا، لكنَّه قال هنا مقدِّمًا: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أتبعَهُ بقوله مُتمِّمًا: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، فَسَدَّدَ السِّهامَ، وَطَيَّشَ الأحلامَ، وأبْدعَ في الإعلامِ.

السَّادسُ: وهو - ﷻ جلَّ وعزَّ - إذِ اقتضاهُمُ العملُ تأسيسًا على لازم فضيلةِ العلمِ، فبلغَ بهمُ الإلهابُ الغايةَ، والاستحثاثُ النِّهايةَ حتى بلغَ بهم الحماسُ مبلغَ احتماءِ الأنفاس، ومعَ توجيههم لنبْذِ عوائدِ النَّسيء الفاسدةِ، وردم أخاديدِهِ البائدةِ، ومنْعِ تعاطيهِ وإبطالِ تناديه، والصِّياح المُجلِب على أهليه ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، فانكفُّوا، وعلى الدِّين القيِّم ائتلفوا، والْتَفُّوا.

وهي صُوَرٌ تمثِّلُ الاستئنافَ البيانيَّ في الآيةِ، ولا تستوفيهِ، وتقُصُّ منه، ولا تستقصيه، وأنَّى للواقف على الثَّرى أن يلمسَ الثُّريَّا؟ وفضلُ كلامِ الله على سائر الكلام، كفضلِ الله على خلقِهِ.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾، عبَّر بأسلوبِ القَصْرِ بطريق الأداة ﴿إِنَّمَا﴾ الَّتي تُستخدم فيما لا يجهلُه المخاطَبُ، ولاينكرهُ، وفيه تعريضٌ بغباءِ الكافرين،

وفضْحٌ لتصرُّفاتهم، وكشْفٌ عن مقاصدِهم وسوءِ مَغَبَّتِهم، "وصيغةُ القصرِ تقتضي أنَّه لا يُجاوز كونَهُ من أثرِ الكفرِ لمحبَّة الاعتداءِ والغارات، فهو بهذا قصْرٌ حقيقيٌّ، ويلزمُ من كونهِ زيادةً في الكفرِ: أنَّ الذين وضعوه ليسوا إلَّا كافرين، وما هم بمصلحين، وما الَّذين تابعوهم إلَّا كافرون كذلك، وما هم بمتَّقين"[1].

حصْرُ الضَّلالاتِ والمنكَراتِ، في حكمٍ واحدٍ أبلغُ في رفْضِها

نكتةُ إيثارِ أسلوب قصرِ النَّسِيءِ على الزِّيَادَةِ فِي الْكُفْرِ:

ومن الملامح المهمَّةِ المطامِنةِ أنفسَ المؤمنين، هذا القصْرُ الحقيقيّ الجاري تدفُّقًا في أسلوبِهِ في الآية يَكبِتُ النَّاسِئَ المجترِئَ، فإنَّه لما كان لا يقدِمُ عليه إلَّا وهو ممتلِئٌ كِبْرًا وعُجْبًا بالنَّفس وغرورًا؛ قمَأَهُ اللّه، وأخزاهُ لينفيَ عنه ما تنفجِرُ بِهِ مِنَ الأَشَرِ والبَطَرِ، ورآهُ لنفسه مِنَ الزَّعامة والصَّدارة، فجعلَه يبدو متلطِّخًا بحمَأِ فِعْلَتِهِ الوضيعةِ الشَّنيعةِ ذامًّا افتخارَهُ بإجرامِهِ دالًّا على تَمحُّضِ فعله للذَّمِّ، والتَّثريب، والهدْمِ والتَّعييب، فكفى اللّهُ المؤمنين المقاولةَ والمنازلةَ بهذهِ المساجَلَة.

كـفـايـةُ الـلـه المؤمنين، وغيرتُهُ عـلى عـبـادِهِ الصَّالحين

تفضيلُ أداةِ القصرِ ﴿إِنَّمَا﴾:

وإنَّما فُضِّلتْ ﴿إِنَّمَا﴾ - هنا - بافتتاحِها بالتَّوكيد، وإيجازِ الاختصار، فهي أقلُّ كلماتٍ وأخصرُ عبارةٍ، ولِما فيها من إيثارِ البِدارِ إلى المبادَأَةِ بالحُكم العُلويِّ من اللّهِ العليِّ، ولما تشير بِهِ من أَخْذِ المنذَرين بالحكْم على غِرَّةٍ، ودلالتُها أنَّ المقامَ مقامُ فرضٍ لا عَرْضٍ، واستغناءِ الأسلوبِ عن التَّعليل، وقصدِ المقام عن التَّطويل؛ وذلك أدخلُ في التَّهويل وأنكى في التَّنكيل.

وجـوهٌ بلاغيَّةٌ رائقةٌ فائقةٌ، في أداة القَصْر

إعجازُ اللَّفظِ المُنتقَى بعنايةِ الواقعِ مقصورًا أو محصورًا:

والمقصورُ هنا هو لفظ ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ بما يدلُّ عليهِ من كلِّ معناه، وهو يعني تأخيرَ حكمِ الشَّهرِ الحرامِ المنسوءِ، فيكون دالًّا على

كلماتُ القرآنِ لا يسدُّ غيرُها مسدَّها، ولايؤدِّي مؤدَّاها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/191.

المصدر، والمصدرُ هو اللَّفظ الَّذي تجتمِعُ فيه مادَّةُ الحدثِ مجرَّدةً عنِ اعتبار الزَّمن، وعدمُ اعتبار الزَّمن في الحدث المذْموم أدلُّ على ثباتِ القدْحِ فيه واستقرارِ ذمِّهِ كيفما كان، وأينما كان، فهذا يجعلُ الحكمَ كالقاعدةِ القانونيَّة عند الحكَّام والشُّرَّاحِ المقابِلة بالفقهاءِ علماء الشَّريعة عند جلاوِزَةِ النُّظُم وجهابذةِ القانون، والكلامُ هنا بيانٌ إلهيٌّ موحٍ عن تجاوز حدودِ الكفر؛ إذ هو المنطلقُ لهذا الإجرام والتَّجاوز، إلى ما ليس إلَّا زيادةً في لُجَّةِ الكفرِ وسويدائه، وعن غلظِ قلبِهِ وقساوته، وفسادِ طبعهِ وشقاوتهِ، ينبعثُ شَقيٌّ مُشْقٍ إلى ما لا رادَّ له ولا صادَّ، هائجًا كالثَّور، حتى يلقى حتفَه، فهذا وحدَه الَّذي يكفّه بانقطاع وَتينِهِ، وانقماع يمينهِ.

أو يكونُ (فَعِيل) هنا على معنى (مَفْعول)، فهو إذًا المنسوءُ، وذلكم المؤخَّرُ الَّذي بُغِيَ عليه، فأُرجِئَ حكمُ تحريمهِ عبثًا عاريًا عن الحكمة، وفسادًا جائرًا عن الصِّحَّة، وهوًى فارضًا، ضاربًا أطنابَهُ، تغلغُلًا في الأحناء والأطواء، فما لقائلٍ أن يقولَ في معنيَين كبيرين لا يؤدِّى أيٌّ منهما إلَّا بمزيدِ عباراتٍ تُبسَطُ، وجملٍ تُمَهَّدُ، وخزائنَ تُفتَحُ، قد أدَّاهما التَّنزيل العزيزُ بكلمة في جملتها كانت مع الاقتصادِ والاعتصادِ جامعةً مؤدِّيةً على غاية الإفصاحِ والإيضاح والاستملاحِ والاستنصاحِ؟

القراءاتُ المتواترةُ لـ ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، وأثرُها في المعنى:

القراءاتٌ حافلةٌ بالمعاني الدَّالَّةِ، على أنَّها تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ

ومن لطيفِ ما يُتَأَمَّل في كلمة ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أنَّها وإن عنَتْ بأصلِ معناها: التَّأخيرَ والمؤخَّرَ؛ فإنَّ الحاملَ على هذا التأخير تعجُّلُ النَّهبِ والسَّلبِ والغارة، والإيقاعُ بالمعتدَى عليهم، فجاءتِ القراءتانِ المتواترتان مُعبِّرَتَينِ عنِ الأمرَين أصدقَ تعبير، فالقراءةُ الأولى لورشٍ وأبي جعفرٍ بإبدال الهمزةِ ياءً وإدغام الياء الَّتي قبلَها فيها، فيصيرُ اللَّفظُ بياءٍ مشدَّدٍ دالًّا - كلفظه - على الإنهاء السَّريع دونَ تريُّثٍ ولا أناةٍ هكذا: ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، بينما تشير القراءةُ الأخرى لقالونَ وابنِ كثيرٍ وأبي عمرو

ويعقوبَ وابنِ عامرٍ وعاصم وحمزةَ والكسائيِّ وخلفٍ بالهمزةِ والمدِّ المتَّصلِ الواجبِ دالَّةً بأدائها الصَّوتيِّ على الامتدادِ الرَّائعِ البيانِ بامتدادِ الصَّوت بحرْفِهِ الجوفيِّ الهوائيِّ المتسفِّلِ على التَّأخير الكامن في اللَّفظ المؤدِّي، الجليِّ في المعنى المؤدَّى عنه بأبلغِ الأداء الذي لا تملكُ العباراتُ الوفاءَ بِه على هذا النَّحوِ إلَّا بعضَ هذا الوفاءِ من غير اعتبارِ مقارنةٍ، وإلَّا فالقرآنُ يعلو، ولا يُعلى عليه، وهو يَحْطِمُ ما تحتَهُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالخبرِ نكرةً:

التَّعبيرُ بالتَّعبيرُ بالزِّيادةِ تقبيحٌ للقبيحِ

التَّعبيرُ بالخبرِ بلفظ ﴿زِيَادَةٌ﴾ فيه زيادةُ تشنيعٍ عليهم، وبيانٌ لقُبحِ الكفر، إذ هو الحاملُ على فعل الشَّنائعِ، والتَّنكيرُ يفيدُ التَّضخيمَ والتَّهويلَ بقرينةِ السِّياق المقالي القائمِ على تقبيحِ النَّسيءِ.

ويدلُّ على أنَّ الزِّيادةَ المذكورةَ هنا مطلقةٌ، لا تنتهي إلى حدٍّ معيَّنٍ تقفُ عندَهُ، فهي مطَّرِدَةٌ لاتزالُ أبدًا، وهذا الوصفُ مطابقٌ أتمَّ مطابقةٍ للواقع، وهو من أبلغِ ما يُعبَّر بِه، لما أنَّ النَّسيءَ لا حدَّ لمفاسدِه، بما يتجدَّد به من سفك الدِّماء، وقطْعِ الطُّرقِ وإخلالِ الأمْنِ، وترويع الكافَّة، وإشاعةِ الذُّعر، وانتهابِ الأموال، وسبيِ النِّساء في الغارات، إلى ما لا يكادُ ينحصِرُ منَ المثالبِ والعواثرِ المتجدِّدةِ والآلام المبرحَةِ والمصائب المقيمة، والمفاسد المتتابعةِ المتتايعة، فكان هذا التعبيرُ كُفُؤًا للدَّلالة عليها أبلغَ ما يؤدَّى به عنها إفصاحًا يتضمَّنُ التَّكريهَ والتَّفنيد، ترهيبًا منها وترغيبًا عنها، فَجمَعَ جَنَاحَيِ الدَّعوةِ في كلمةٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾:

الزِّيادةُ حينما تكونُ من جنسِ الشَّيءِ، تخالطُهُ مخالطةَ الأصلِ

عبَّرَ بحرفِ الوعاءِ ﴿فِي﴾ بدلَ حرفِ الاستعلاءِ (على)؛ تنبيهًا إلى نوعِ الزِّيادةِ وقبحِها، فإنَّ الزِّيادةَ إذا كانت داخلَ الشَّيءِ تلبَّستْ بهِ، ولم تنفصِل عنْهُ، واختلطَتْ بهِ اختلاطًا أصيلًا، وهو ما يتَّسقُ معَ سياقِ التَّقبيح، ولو عبَّرَ بـ (على) لما أدَّى هذا المعنى لما فيهِ من الاستعلاءِ الموهِمِ الالتصاقَ بأعلى الشَّيءِ.

دلالة لفظ ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾:

تشرُّبُ الكافرين لارتكاب المعاطِب، هو سجيَّةٌ في قلوبِهم

ولأنَّ النَّسيءَ حامِلُ أهلِ الجاهليّة على ارتكاب المفاسدِ والمعاطب والفظائعِ والانتهاباتِ والانتهاكاتِ الَّتي لولاهُ ما كانت، ولا قامت، فهو فيهم بمكانِ القلبِ الحامل على الفعل، واللُّبِّ المنفعل بجرثومته، وذلك ملمحٌ فيهم إلى شَبَهٍ بهم ممَّن أُشرِبوا في قلوبِهم العجلَ بكفرِهم، حُبَّهُ وعبادتَهُ، وأيضًا؛ فللدِّلالةِ على أنَّهم استبطنوا هذه الزِّيادةَ، وأيضًا؛ فللدِّلالةِ عِبءٌ عليهم إذ ماتتِ الضَّمائرُ، وفسدتِ القلوبُ والسَّرائرُ، وأنَّها حاملتُهم على ما يسيلُ عليه لُعابُهم منَ الشَّرِّ، لا أنَّهم حاملوها على ما بِهم منَ الضُّرِّ.

وجوهٌ أُخَرُ مِن كونِ النَّسيءِ زيادةً في الكفر:

ومع ما تبيَّنَ من دقَّةِ معنى الخبر: ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ وبلاغةِ مطابقتِهِ أتمَّ مطابقةٍ للواقعِ، وحُسْنِ موقعِهِ من نفسِ المتلقِّي إشباعًا للمعنى وإقناعًا وإمتاعًا به، فإنَّ هناك وجوهًا أُخَرَ تبدو للمتأمِّل من فائدةِ ورودِهِ خبرًا هكذا دونَ الاقتصادِ على كونِهِ كفرًا، ومن تلكُمُ الوجوه:

تظافرُ المظروفين (النسيء) و(في) يُجلِّي زيادةَ الكفرِ

إنَّ العاملَ والعملَ مظروفان، وإنَّ الزَّمانَ ظرفُهُ، والنَّسيءُ تحكُّمٌ في الظَّرفِ، وهو أشدُّ افتراءً، وأعظمُ اجتراءً من التَّحكُّم في المظروف، فإن يكنِ المتحكِّمُ قدِ اتَّبعَ هواهُ بغير هدًى مِنَ اللَّهِ، فتحكُّمُه في المظروفِ على هذا النَّحوِ كفرٌ، وفي الظَّرف أشدُّ كفرًا؛ فهو زيادةٌ في الكفرِ.

العبثُ بالشَّعائرِ الزَّمانيَّةِ، خطرُه جَللٌ

وأنَّه ظاهرُ المضادَّةِ للَّه، والمحادَّةِ له في مُلكِهِ وحُكمِه، وقد نَزَّلَ الشَّارعُ مَن سبَّ الدَّهرَ منزلةَ مَن سبَّ اللَّه تعالى إذ ليس الأمرُ لأحدٍ غيرِه ﷻ ولذلك جاء في الحديثِ المتَّفق عليه، قالَ رسولُ اللَّه صلَّى اللَّه عليه وآلِه وسلَّم: «قال اللَّه ﷻ: يُؤْذِيني ابنُ آدمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»[1].

(1) البخاريّ في صحيحه، برقم: (4791، 4826)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2246).

"وحُرمةُ الأزمانِ والبقاعِ إنَّما تُتَلَقَّى عنِ الوحي الإلهيِّ؛ لأنَّ اللّهَ الَّذي خلقَ هذا العالمَ هو الَّذي يَسُنُّ له نظامَهُ، فبذلك تستقرُّ حُرمَةُ كلِّ ذي حُرمةٍ في نفوسِ جميعِ النَّاس، إذ ليس في ذلك عملٌ لبعضِهم دونَ بعضٍ، فإذا أُدْخِلَ على ما جعلَهُ اللّهُ من ذلك تغييرٌ؛ تَقَشَّعتِ الحرمةُ من النُّفوس؛ فلا يرضى فريقٌ بما وضعه غيرُهُ من الفِرَقِ، فلذلك كان النَّسيءُ زيادةً في الكفر؛ لأنَّهُ منَ الأوضاعِ الَّتي اصطلح عليها النَّاسُ، كما اصطلحوا على عبادةِ الأصنام"[1].

ثُمَّ إنَّ الكُفْرَ ضلالٌ مبينٌ، والنَّسيءُ قَدْرٌ منْهُ زائدٌ عليه؛ إذ لا يصدرُ إلَّا مِن كافرٍ متجذِّرِ الكفرِ، فلذا قال اللّه في وصفه: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ومِمَّا يفيدُه وصفُ النَّسيءِ بأنَّه ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ القَطْعُ بأنَّ أهلَهُ أدخلُ في العقابِ والعذابِ، وأكثرُ استنزالًا لهُ على أنفسِهم، وأشدُّ استحقاقًا لهُ من غيرِهم، إذِ الكفرُ وحدَهُ موجبٌ، فكيفَ بما زادَ عليه من أفعاله؟

دلالةُ ذِكْرِ ﴿ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ دونَ غيرِه:

بـلـوغُ أولـئـكَ الكافرين مبلغًا بعيدًا، لا نظيرَ لـه في العـتوِّ الكبيرِ

آثر السّياقُ الكريمُ التّعبيرَ بالكفر دونَ غيرِه مِنَ الألفاظِ كالفِسقِ والظُّلمِ والضَّلالِ ونحوها، مع نكتةِ تعريفِ الكفرِ هنا باللَّامِ دونَ تعريفِه بالإضافةِ إليهم ألَّا يقتصِرَ فيما يُسَجَّلُ عليهم منه ما يُتَحَدَّثُ عنهم بهِ، ويبقى في ذاكرة الرُّوَّاة والوعاة، إذًا لذهبَ عنهم وَصْمتُهُ وعارُهُ بأكثرِ ما اجترحوهُ، وأفجرِ ما اقترفوهُ، من جهةٍ، ولكانَ كُفرُهم محدودًا بهم مقيسًا بما يُظَنُّ بهم من الطوْقِ والاقتدار؛ إذ يكونون آنئذٍ هم المعروفين بالكفر، بينما الأسلوبُ القرآنيُّ يجعلُ الكفرَ المطلقَ المتصاعِدَ في الشَّرِّ، معروفًا بهم لا يقفُ أحدٌ على حدِّ ضلوعِهم فيه، واستزادتِهم منه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

ولأنَّ هذا اللفظَ المنتخبَ أجمعُ لوصف الظُّلم والفسقِ والفجورِ والضَّلال، ولأنَّ تلكمُ المعاني الَّتي تدلُّ عليها هذه الأسماءُ قد توجدَ من غير الكافر، على حين أنَّ الكفرَ لا يوجدُ أبدًا بدونِها، فهي لازقةٌ له؛ لذا كان ذكرُ الكفرِ مغنيًا عن ذكرها جميعًا، بدلالتهِ عليها كلِّها، حيثُ لا تَطَّرد دلالتُها جميعُها عليه، فأوثِرَ بالمقام على أنَّ الضَّلالَ مذكورٌ تَبَعًا بعدُ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

بيانُ استحقاقِهم، بتبشيعِ أحوالهم

جملةُ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيها وجوهٌ إعرابيَّةٌ ثريَّةٌ، بالإثاراتِ الفكريَّةِ، للدُّرَرِ البلاغيّة، فمن ذلك أنَّها خبرٌ ثانٍ عن ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، والتَّعبيرُ بالمضارع دلالةٌ على تجدُّدِ ضلالهم، واستمرارِه[1]، وفي هذا بيانٌ ثانٍ لقُبح النَّسيء، وتشنيعٌ زائدٌ عليه، وفي وقوع هذه الجملةِ خبرًا ثانيًا تشنيعٌ على التَّشنيع السَّابقِ في وصفهِ بأنَّهُ زيادةٌ في الكفرِ، وفيه تحوُّطٌ شديدٌ لأجل صيانةِ الدِّماء، وحرمةِ الشَّهر الحرام؛ إذ النَّسيءُ مدخلٌ لسفكِ الدِّماء، وهو بابٌ إلى الضلالِ كبيرٌ. وكم في الآية من خبرٍ بعد خبرٍ! وكم فيه من صريحٍ ومن مستنبطٍ مقدَّرٍ! تُستخرَجُ ضِمنًا من قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾، وفيها تهوُّكٌ مُزِلٌّ، وتخبُّطٌ مضِلٌّ، وتناقضٌ صارخٌ، ومن قوله: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾، وما ترتَّبت عليه، وفيها مجازفةٌ عمياءُ ومسارعةٌ خرقاءُ، ومغامرةٌ باسِرةٌ، وكَرَّةٌ خاسِرةٌ، تظنُّ أن يُفعَلَ بها فاقرةٌ، ومن قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾، وفيها: تضليلٌ طائشٌ وتخييلُ أباطيلَ، وأخيرًا فمن جملةِ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وفيها: خِذْلانٌ لازمٌ وحرمانٌ دائمٌ، ونحوُ ذلك.

أثرُ تعدُّدِ الخبرِ في المتلقِّين:

القرآنُ الحكيمُ يهدف من توالي الإخبار عن الشَّيء الواحدِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/192، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/98.

مزيدُ الأخبارِ تُجلِّي رحمةَ الهدايةِ، وهداية الرَّحمةِ

إخباراتٍ متعدِّدةً مزيدَ الهداية بالإبانة، وفي الإبانة نوعُ إعانةٍ ليقيمَ الحُجَّةَ، ويقطعَ المعذرةَ، ويأخذَ بيد من يتلمَّسُ هدايةَ اللّهِ، وليزلزلَ العقائدَ الفاسدةَ، والتَّقاليد البائدةَ، والأفكار المنحرفةَ، وليخلِّصَ أسرى الوهْم من طوامِّ الأوهام وخرافاتِ الأوباشِ والطَّغام، وليُزادَ المؤمنون يقينًا على يقينهم، وليربطَ على قلوبِهم، ويثبِّتَ به الأقدامَ.

أثر إعرابِ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ حالًا:

الكافرُ في ضلالٍ دائمٍ، واضطراب مطّرد

ومِن تعدُّدِ معاني القرآنِ العظيم الخالدةِ الباقيةِ تِلكُمُ المعاني القيِّمَةُ النَّاشئةُ عن تعدُّدِ وجوه إعرابِه في جُمَلِه وكلماته، فمِنَ الوجوهِ الإعرابيَّةِ المثريةِ في جملةِ ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إعرابها حالًا؛ لما يؤولُ إليه الخبرُ من معنًى مقدَّرٍ من جملةِ مدلوله، إذ تقديرُ ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ يؤولُ إلى أنَّه (كفرٌ أكبرُ) فهذا كالمطابقةِ لمضمونِ الخبرِ الَّذي هو (أكبر في الكفر) وعليه، فالضَّلالُ لازمٌ مصاحبٌ، والإضلالُ لا ينفكُّ؛ لأنَّه مقيمٌ غيرُ متعاقِبٍ.

فهذا ضربٌ من البيانِ يجلِّي لنا ما يكون عليهِ الكافرُ من تخبُّطٍ؛ لأنَّ الكفرَ ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، وإذ لم يجعلِ اللّهُ له نورًا فما له من نورٍ، فهو في ضلالٍ مديمٍ وعذابٍ مقيمٍ، كما قال سبحانه وبحمده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [النّحل: 104].

تنوُّعُ القراءاتِ في ﴿يُضَلُّ﴾ وأثرهُ في المعنى:

القراءاتُ كاشفةٌ عن كونهم ضالّين مُضِلّين

قرأَ من العشَرةِ: حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿يُضَلُّ﴾ بالبناءِ للمفعولِ، وقرأ نافعٌ وأبو جعفرَ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ وشعبةُ بالبناءِ للمعلوم ﴿يَضِلُّ﴾[1]، وقرأ يعقوبُ: ﴿يُضِلُّ﴾ من (أضلَّ) الرُّباعي المتعدِّي بهمزةِ التَّعديةِ، فمضارعُهُ ﴿يُضِلُّ﴾ بضمِّ أوَّلِه وكسرِ الضَّاد[2].

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/379.

(2) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 13/367، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/47.

وهي قراءاتٌ مُتعاضِدةٌ تنمو بالنَّصِّ القرآنيِّ إلى علوِّ كعب البيان والفصاحة، فقراءة جمهور القرَّاء: ﴿يَضِلُّ﴾ المسوقةُ للمفعولين توَضِّحُ وُقوعَ الضَّلال عليهم، وإجراءَهُ فيهم فتنةً لهم، وتبصِرَةً لدنوِّ حيلتِهم، وقراءةُ يعقوبَ: ﴿يُضِلُّ﴾ المبنيَّةُ على الرُّباعي (أضل): كاشفةٌ عن تشبُّعهم بالإضلال وانفعالِهم بهِ، حتَّى صاروا من حبِّهم له يُضِلُّون غيرَهم، فالأُولى كاشفةٌ عن السَّببِ، والثانية كاشفةٌ عنِ الأثرِ، وفي ذلك حمْلُهم أوزارَ غيرِهم.

وفي تنوُّعِ القراءات تشنيعٌ على النَّسيء ما بعدَهُ تشنيعٌ، وللقراءتين ببناءِ الفعلِ للمفعول تارةً، وللفاعل أخرى فيما تواترَ، نظائرُ في تتمَّة الآية، كما جاء: ﴿زُيِّنَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ، و﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾ ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ﴿فَيُحِلُّواْ﴾ مبنيًّا للفاعل.

أمَّا قراءةُ البناءِ للمفعول الَّتي يقرأُ بها حفصٌ وموافقوه: ﴿يُضَلُّ﴾ فالمعنى: أنَّ الضَّلالَ يقصدُهم، فإذا انتهى إليهم؛ وقفَ عندَهم، فلم يجاوِزْهم إلى غيرِهم، فَهُم مكامِنُهُ ومعادِنُهُ، وكأنَّهم في حيِّزِ المُتَلَعَّبِ بهم غيرِ المُبالَى بهم بَالَةً، وهكذا نطقَ الوحيُ: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 15، 16]، وكما قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: 183، القلم: 45].

سرُّ تقديمِ الجار والمجرورِ:

العنايةُ ببيانِ ضررِ العملِ القبيحِ يدفعُ للإقلاعِ عنهُ

قدَّمَ الجارَّ والمجرور ﴿بِهِ﴾، على ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، زيادةَ عناية بالمقدَّم لبيان أثرِهِ في الكافرين، فقدَّمَ المؤثِّرَ على المتأثِّر، ويقوِّي ذلك جرُّه بباءِ السَّببيَّةِ، فيكونُ ذلك تعظيمًا لدور السَّبب، وكان حقُّهُ التَّأخيرَ.

دلالةُ مجيءِ الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

وفي التَّعبير بالاسم الموصول اجترارٌ لإيرادِ جملةِ الصِّلة فعلًا ماضيًا إعلانًا عن تجذُّرهم في الكفرِ واستقرارِهم فيه وإطباقِهم

عليه، ولو قيل: يُضَلُّ به الكافرونَ؛ لما ألاحَ لهذا المعنى، وإيثارُ التَّنزيلِ العزيزِ إيرادَ الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بجمع المذكَّرِ الدَّالِّ على الجمع بين الآمرين والمأمورين، وبينَ ابتداءِ الأمرِ وانتهائه؛ ليفيدَ معنى تقديرِ الجُرم، وملاحقةِ المجرمين ومطاردتِهم، وتقديرِ المسؤوليَّةِ، وأنَّ المشايعةَ فيه أو الاجتماعَ عليها لا يمنعُ الإحصاءَ، ولا يُوقفُ العقابَ، وأنَّ اللهَ يعلمُهم أينما كانوا مهما تفرَّقتْ بِهِمُ السُّبُلُ، وانقطعت بهمُ الحِيَلُ، وتقطَّعت بهم الأسبابُ: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾. [مريم: 94، 95].

بيان معنى تقدير الجرم النّاتج عن الكفر، واستحقاقهم ذلك لكنودهم

بلاغةُ كمالِ الاتِّصال:

وقعت جملةُ ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا﴾ ممَّا قبلَها موقعَ كمالِ الاتِّصال، إذ هي مُبيِّنةٌ لِما قبلَها، شارحةٌ له، وفي هذا الموقع البديع تفصيلٌ لقُبحِ النَّسيء، وتفصيلُ القبيحِ دعوةٌ للإقلاع عنه، وعلى هذا "فهي تفسيريَّةٌ للضَّلالِ"[1]، ويمكن أن تكونَ جملةً حاليَّةً[2]، وعليه فلا كمالَ اتِّصالٍ، ويكونُ المعنى على الحاليَّة: مصاحبةُ مضمونِ الجملة معناها؛ لمعنى سابقتِها، مصاحبةٌ لازمةٌ، فهي لها كالهيئة، وتلكم منها كالذَّات، وبهذا تُفارِق الاعتبارَ الأوَّلَ الَّذي هو كمالُ الاتِّصال، إذ فيه لا تكون الثَّانيةُ كالقيد اللَّازم، وإنَّما تكونُ عينَ الأولى، عُبِّر عنها بتعبيرٍ آخرَ، والتعبيران المتعدِّدانِ هما عن حقيقةٍ واحدةٍ بوجهيها، والحالُ فَضْلَةٌ عند أكثرِ النُّحاة، وكمالُ الاتِّصال قائمٌ مقامَ سابقه فيما يكون فيه، فإن كان عُمدةً؛ فعمدةٌ، وإن كان فضلةً؛ فهو بمنزلتِه، فمن ثَمَّ كان الذَّهابُ إليه أقوى في الكلام رصفًا، وفي الإفهام وصفًا، ولا سيَّما إذا طاب مَنْزِعُه، ولذَّ موقعُه، والقولُ هنا بالحاليَّةِ فائقٌ رائقٌ وعذْبٌ زُلالٌ.

التَّفاصيلُ في بيانِ القُبحِ، تحريضٌ على الإقلاعِ عنهُ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/48، وابن عادل، اللّباب: 10/88.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/48.

والأَولى أن تكون كمالَ اتِّصالٍ؛ لأنَّ العنايةَ هي ببيان أثرِ النَّسيءِ، وبيانِ آثارِهِ الَّتي من أهمِّها، وأبشعِها تنزيلُ النَّاسئِ نفسَه منزلةَ الإلهِ الخالقِ في التَّحليل والتَّحريم.

تجديدُ الجريمةِ المستمرُّ يبشِّعُ أصحابَها

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارعة:

قوله: ﴿يُضَلُّ﴾ ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾ ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾، نجد اختيار السِّياق الكريم، صيغة المضارعِ لهذه الأفعال؛ لدلالتهِ على التَّجدُّد والاستمرار، أي: هم في ضلالٍ متجدِّدٍ مستمرٍّ بتجدُّدِ سببِه، وهو تحليلهُ عامًا، وتحريمُهُ عامًا، ومواطأةُ عدَّةِ ما حرَّمَ اللّهُ[1] بتحليلهم ما حرَّمَ اللّهُ.

وقوعُ الحُكْمَين المتناقِضين على محلٍّ واحدٍ بالهوى آيةٌ على الضَّلالِ

علةُ التَّعبيرِ بالضَّمير:

في قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾، تعبيرٌ بالضَّميرِ العائدِ على النَّسيءِ في الفعلين، كاشفٌ عن تناقُضِ أفعالِهم، وإيقاعِهم الحُكْمَين المتناقِضَين على محلٍّ واحدٍ بالهوى، وذلك من أضلِّ ما يكونُ. وإضمار الاسم وهو النسيءُ فيه الإشارة إلى نَكارته، والتحقير منه، فهو صنيعٌ مذموم ومحرم في الإسلام.

التَّناقضُ المستمرُّ إصرارٌ على الباطلِ، يدعو أولي العقلِ بالعودةِ إلى الأصل

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ:

في قوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾، تعبيرٌ بالطِّباق، أبرزَ التَّناقضَ وبيَّنَهُ بيانًا يدعو للعَجَبِ، فكما قيل: وبضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ، وكأنَّه تناقضٌ ظاهرٌ للعِيان، وفي ذلك تبشيعٌ لارتكابه، وإقامةُ الحجَّةِ على مرتكبِهِ من ذات صنيعه، فإنَّه إن يكنِ النَّسيءُ - وهو بمعنى المفعول هنا - مُسْتَحِقًّا التَّحليلَ، ففيمَ حرَّمَ؟ أو قمينًا بالتحريم فعلامَ أُحِلَّ؟ فهذا في الآية توبيخٌ معنويٌّ، وتسفيهٌ للعقول البلهاءِ الَّتي أقدمت على تقحُّم ذلك وتجشُّمه دون مقتضى، وحطٌّ من رتبةِ متَّبعِ هواهُ، بغير هدًى مِنَ اللّهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/192.

علَّةُ الإجمالِ في ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾، دونَ التفصيلِ:

ما عُصِيَ الله بِهِ لا يستحقُّ الإطنابَ فيه

ممَّا يؤدِّب القرآنُ به المؤمنين: بسْطُ القولِ في الفضائلِ الَّتي تنفرِجُ لها الأساريرُ، وتتبشبشُ لها الوجوهُ، ويحلو وقعُها في الأسماع، والاقتصارُ على ما تحصلُ به العِبرةُ من المخالفاتِ والمساءات، فهذا الَّذي هنا كذلك. وأيضًا؛ فإنَّ عمومَ العلمِ بكيفيَّة النَّسيء، وشيوعِ خبرِه، والقصَّةِ بِهِ مغنٍ عن ذكرِهِ لعدمِ الحاجَةِ الماسَّةِ وقلَّةِ الفائدة المرتقبةِ، ولأنَّ النَّاسئين خرَّجوهُ مَخرجَ المباهاةِ والتَّفخُّر تمدُّحًا به في الأشعارِ، وتبجُّحًا به في الوقائعِ، فكان الإعراضُ عن تفصيلهِ غضًّا له، وإزراءً به، ومعاملةً لباغي الشَّرِّ بنقيض مقصوده، وفيه أدبُ القرآنِ في الإغضاءِ، وميلهِ إلى الاقتصارِ في ذكرِ المُنكَرِ على ما يحصل بِهِ الانكفافُ عنه، والكراهةُ له، وليدلَّ على أنَّ سائرَ ما أدَّى إلى النَّسيء؛ فهو سواءٌ في الجُرمِ، وله حكمُه؛ لأنَّ كلَّ ما أدَّى إلى الحرامِ؛ فهو حرامٌ مأثمًا ومَغرمًا، وليتقرَّرَ الاعتناءُ بنبْذِه في الجملةِ دونَ توقُّفِ نظرٍ إلى التَّفاصيل.

سرُّ تنكيرِ المفعولِ فيه ﴿عَامٗا﴾:

التَّنويعُ دالٌّ على المراوغةِ

"التَّنكيرُ في قوله: ﴿عَامٗا﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: يحلُّونه في بعضِ الأعوامِ، ويحرِّمونهُ في بعضِ الأعوام"[1]. فإنَّ ناسئَهم كان يجعلُ بعضَ الشُّهور في غير موقعهِ بين شهريهِ، ويسمِّيه بغير ما عُرِفَ بهِ، فإذا أرادَ أن ينزِعَ عن المحَرَّم ما ألبَسَهُ اللّٰه من ثوبِ الحُرمةِ - استطالةً أن تتوالى عليهم أشهرٌ ثلاثةٌ حُرُمٌ - سمَّاه باسم شهرٍ حلالٍ، فقال: هو رمضانُ أو صفرٌ أو ربيعٌ أو جُمادى إلى غير ذلك، ثم جعل اسمَهُ الأصيلَ (المحرَّم) على شهرٍ آخرَ من عامِهِ نفسِه، ليتَّفِقَ له في عامهِ أربعةُ أشهرٍ حُرُم، لا بدَّ عندَهم من هذا، وهذه موافقةُ العددِ الَّتي سمَّاها القرآنُ مواطأةَ المُدَّةِ. وبالنَّظرِ إلى مجموعِ الأعوامِ يُلحَظُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/193، 192.

اختلافُ مواضعِ الأشهرِ الحُرُمِ، وتنقُّلُها من مواضعها تبعًا لأهواءِ مَن يُحلُّون، ويُحرِّمون ناسئين.

وعبارةُ ابنِ عاشورٍ: "والتَّنكيرُ والوحدةُ في قوله: ﴿عَامًا﴾ في الموضعَيْن للنَّوعيَّة، أي: يُحلِّونه في بعضِ الأعوام، ويُحرِّمونه في بعض الأعوام. ليس المرادُ أنَّ النَّسيءَ يقع عامًا غبَّ عامٍ، كما ظنَّه بعضُ المفسِّرين"[1].

إنَّ (عامًا) الثَّانيةَ، هي الأولى نفسُها مُعادَةً، ما دامَ التَّنكيرُ والوحدةُ في الموضعيْنِ للنَّوعيَّة، لأنَّ "قولهم: النَّكرةُ إذا أُعيدت نكرةً؛ كانت غيرَ الأولى، يريدون بِه التَّنكيرَ المقصودَ منهُ الفردُ الشَّائعُ، لا التَّنكيرُ المرادُ بِه النَّوعيَّةُ"[2].

فالنَّسيءُ كلُّهُ مِن تحليلِ أشهرٍ حُرُمٍ وإلباسِ ثوبِها أشهرًا حلالًا وموافَقَتِهِمُ العَدَدَ أنَّ السَّنةَ اثنا عشرَ شهرًا، منها أربعةٌ حرُمٌ كلَّ عامٍ؛ ليوافقوا عددَ الأشهرِ الحُرُمِ فيه نفسِه، وإن غيَّروها، وبدَّلوها، فكلُّ عامٍ قائمٌ بنفسِهِ مستقلٌّ بعددِهِ من أشهرٍ حُرمٍ وحلالٍ، هذا المعنى لا معنى غيرُهُ، وهو الصَّوابُ، هُدِي إليهِ من هُدِيَ، وضلَّ عنهُ من ضلَّ، والحمد للهِ ربِّ العالمين.

سرُّ اقترانِ الفعلِ ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ باللَّامِ:

رَبْـطُ الأفعـالِ بِعِلَلِها بيانٌ للحقائقِ والدَّواعي

اللَّامُ للتَّعليل، والمعنى: ليوافِقوا، ويشابِهوا، وفي اللَّام وجهانِ أنَّها متعلِّقةٌ بـ ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ﴾، أو أنَّها متعلِّقةٌ بـ ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾[3]، والذي يقتضيه العقلُ والعلمُ أنَّ اللَّام متعلِّقةٌ بِهما جميعًا، لما يقتضيهِ العَطْفُ من إدخال المعطوفِ في حُكمِ المعطوفِ عليه؛ إذ العطفُ مِنَ التَّوابعِ كالنَّعتِ والتَّوكيد، فلا ينفردُ بالتعلُّقِ أحدُ الفعلين سيَّما وهما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/193.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/128.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون 6/48، وابن عادل، اللّباب 10/89.

متماثلان في المضارعةِ، والعاطِفُ بينهما الواوُ الدَّالَّةُ على مطلق الجمعِ مع المشاركةِ في الحُكم كما لا يخفى.

وفي استخدام اللَّام مقترنةً بالفعلِ كَشْفٌ عن البواعثِ والدَّواعي الخبيثاتِ، وهو فَضْحٌ لهم، وبيانٌ لعنايتهم بالشَّكل دونَ المضمون، وأنَّ الاتِّجاه هو إلى التَّوافق في العددِ دونَ حقيقةِ الأشهرِ.

بلاغةُ تأكيدِ الذَّمِّ بما يُشبِهُ المدحَ في المواطأة:

ظاهرُ حرصِهم يترتَّبُ عليه ما ذُكِرَ بعدُ، من مزيدِ إجرامِهم في التّحريم

مِن محاسنِ القرآنِ إنصافُ الخُصوم - ولو كانوا كفَّارًا - حتى إنَّهُ لَيَذْكُرُ مناقبَ أهْلِ المثالِب والمعائِب، وإنْ آلُوا إلى المعاطب.

وظاهرُ قوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أنَّ بأنفسِهم حِرْصًا على توفيةِ الأشهر الحرُم عددَها المُخبَرَ عنه، المنصوصَ عليه، المعهودَ للبشريَّة منذ وجِدَت، فكأنَّ الكلامَ مُخرَّجٌ مَخرجَ ذِكْرِ عذرِهِم بما يشبَهُ التأوُّلَ لهم بذكرِ القصدِ الحسن بما يخرجُه عن أن يكونَ مشنَّعًا به عليهم، أو مُثَرَّبًا، على حين أنَّه مذكورٌ ليترتَّبَ عليه ما ذكرَ بعدُ من مزيدِ إجرامِهم في قوله: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾، فقد احتفظوا بعددِ الأَشْهُرِ الحُرُم الَّذي هو تَبَعٌ تابعٌ لتحريمها، وترَكوا الأصلَ الأصيلَ، وهو وقوعُ تعظيمِ الحُرمَةِ على أعيانها وذواتها، لا على أعدادِها من غيرِها، وزادوا على ذلك من غَلْواءِ الجريرةِ، وفسادِ السَّريرةِ، وتهوُّرِ الانتهالِ، وتصدُّرِ الارتباك تحريمَ الأشهرِ الحلالِ بعدَّةِ ما أحلُّوا من أشهُرٍ حرامٍ، فقد احتفظوا بالعددِ، وأفسدوا المعدودَ[1].

والذي يستوقِفُ المتدبِّرَ - ولا ينقضي منه العجَبُ - حُسنُ مرامي القرآنِ، منه: إجراءُ ذمِّهم مجرى المدحِ؛ ليقرِّرَ مبادِئَهُ من تشبُّثِهِ بإقرارِ العَدلِ، ولو كان فيه مُنْتَهَضٌ بإنعاشِ الخصومِ، استحثاثًا للتَّوبة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/193.

والمراجعةِ، وإشعارًا بتقريبِه العفوَ من المُقلِعين عن الذُّنوب - وإن عَظُمت - المُنيبين وإن كانوا بعدَ ذهابِ القوَّة وذبولِ العنفوانِ، وسقوطِ التَّماسُكِ، وتأكيدُ علم اللهِ بالمغيَّبات، ومنها بواطنُ الأنفس، وتقريرُ العدل الإلهيِّ الَّذي لا يظلم مثقالَ ذرَّةٍ، ولو كانت هاجسًا حابسًا أو محبوسًا، والفضلُ الإلهيُّ بمضاعفةِ الحسنةِ، ولو كانت قليلةً يسيرةً، وضئيلةً نزيرة، وقوَّةُ دينِ اللهِ الَّذي لا يخشى ذِكْرَ مناقبِ أهلِ المثالبِ، فإنَّها لا تضيرُه، ولا تُشغِّبُ على أنَّ له الحجَّةَ البالغةَ الدَّامغةَ، فإذا الباطلُ زاهقٌ، ومكبوبٌ على أُمِّ رأسِه من شاهقٍ.

فهل رأى أحدٌ أو سَمِعَ قبلَ هذا التَّنزيل العزيز مثل هذا الجلالِ، ولو كان في وحيٍ سابقٍ، أو بعدَهُ من بَدْعٍ مُنمَّقٍ مزوَّقٍ إنسيٍّ أو جنِّيٍّ لاحقٍ؟

فائدةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به:

العنايةُ بالشَّكلِ وحدَهُ لا تُجدي، والسِّرُّ في اللُّبِّ لا في القشور

قوله تعالى: ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، جاءَ المفعولُ به بلفظ ﴿عِدَّةَ﴾؛ لبيان أنَّ عنايتَهم اتَّجهت بالحُرمةِ للعددِ، وهو أنّهم يريدون أنْ يوافقوا عددَ الأشهر الأربعة التي حرَّمها الله تعالى في السَّنة، وانصرفت عن حقيقة اعتبارِها للمعدودِ أعيانِ الأشهر الحُرُم.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضافِ إليهِ اسمًا موصولًا:

الـجـرأةُ على تحريمِ ما أحلَّ الـلـهُ، أبشعُ الجرائمِ عنده

قوله تعالى: ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، جاء المضافُ إليهِ اسمًا موصولًا عامًّا - هو أدخلُ الموصولاتِ في الإبهام، وأعمُّها - زيادةَ تبشيعِ لجرمِهم، وبيانًا لنهجِهم في الجرأةِ على التَّحريم، ويزيد عملَهم قبحًا إسنادُ الفعلِ إلى الاسم الجليلِ الأعظم؛ لبيان اعتدائِهم على المقام الجليل، كما أنَّ "الإتيانَ بالموصول في قولِه جلَّ وعزَّ: ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ دونَ أن يعبِّرَ بنحو: عدَّة الأشهرِ الحُرُم؛ للإشارة إلى تعليلِ عملِهم في اعتقادِهم بأنَّهم حافظوا على عدَّة الأشهرِ الَّتي حرَّمها اللّه تعظيمًا، ففيه تعريضٌ بالتَّهكُّم بهم"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/194.

معنى التَّعبيرِ بالفاء ودلالة الفعل ﴿فَيُحِلُّواْ﴾:

تتابعُ الجرائمِ، يَزيدُ من قُبح صورةِ المجرمِ

الفاءُ هنا هي فاءُ التَّعقيب، العاقبةُ التي تطوي الزَّمنَ دلالةً على سُرعة ظهورِ الأثرِ، وفي التَّعبير بالمضارعِ تجديدٌ مستمرٌّ للاعتداء على حدود اللّهِ في تحليل ما حرَّم اللّهُ، وفي إسناد الفعل إليهم تجريمٌ لعملِهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ:

الجريمةُ تظهرُ في صورة كاملةٍ ببيانِ ضدِّها

في قوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّواْ﴾، ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ طباقٌ، وقد أسهمَ إسهامًا كبيرًا - هاهنا - في الكشْفِ عن الجريمةِ ممَّا زادَها قبحًا وشناعةً.

ويُجلِّي ذلك أنَّ الطِّباق بينَ مضارعٍ يَحْدُث ويتجدَّدُ، ففيه الاجتراءُ وعدمُ الارعواءِ، وبين ماضٍ تقدَّمَ حُكمهُ، واطَّرد، وكان عليه الخلقُ كلُّهم، ممَّا يُبرزُ خروجَ المخالفِ عنِ السَّنَن المرضيِّ والنَّاموس الأزليِّ الأبديِّ، وقلَّة حيائهِ وشديدِ تبلُّدِه، وتقحُّمِهِ المهالِكَ دون اضطرارٍ، فالكونُ كلُّهُ من قبلِ استحداثِ النَّسيءِ بما فيه من الخليقةِ لا يرون حاملًا عليهِ ولا داعيًا مقتضيًا لَهُ، فكيفَ بالتَّبجُّحِ والتَّوقُّع والتَّفخُّر به؟

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

التَّصريحُ بالتَّشنيع أظهرُ في بيانِ القُبْح

"والإظهارُ في قوله: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ دون أن يقال: فيحلُّوه، لزيادةِ التَّصريح بتسجيل شناعةِ عملِهم، وهو مخالفتُهم أمرَ اللّه تعالى وإبطالُهم حرمةَ بعضِ الأشهرِ الحُرمِ، تلك الحُرمةُ التي لأجلها زعموا أنَّهم يُحرِّمون بعضَ الأشهرِ الحلالِ حفاظًا على عدَّةِ الأَشهُرِ الَّتي حرَّمها اللّهُ تعالى"[1]، والمعنى: "فيحلُّوا بمواطأةِ العدَّةِ وحدَها من غير تخصيصِ ماحرَّمَ اللّهُ مِنَ القِتالِ، أو مِن ترْكِ الاختصاصِ للأشهرِ بعينِها"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/194.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/516.

شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ في: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ﴾ ممَّا قبلَهُ:

تتابعُ فضحِ القَبائحِ دعوةٌ للتَّساؤلِ والعَجَبِ

"لمَّا انهتكت (انفضحت) بهذا البيانِ قباحةُ فعلِهم، كأنَّه قيل: إنَّ هذا لعجبٌ ما حملَهم على ذلك؟ فقيل: زُيِّن.."[1]، فالجملةُ واقعةٌ ممَّا قبلَها موقعَ شِبهِ كمال الاتِّصال، غرضُه بيانُ العلَّة في ارتكابهم هذهِ المرتكباتِ، "وفي هذا الاستئنافِ معنى التَّعليلِ لحالهم العجيبة، حتى يزولَ تعجُّبُ السَّامعِ منها"[2]، والتَّزيينُ تخييلُ القَبيحِ حُسنًا، وذلك من جرأتِهم على تقحُّمِ ما تقحَّموه من مضادَّة اللّهِ، وتجشُّمِ ما تجشَّموه من محادَدَتِه جلَّ في علاه.

سرُّ التَّعبيرِ بالبناءِ للمفعولِ:

لا سبيلَ إلى ارتكابِ القُبْحِ إلَّا بالتَّزيينِ، وتخيُّلِه حَسَنًا

أجمعتِ القراءاتُ المتواترةُ على قراءةِ ﴿زُيِّنَ﴾ مبنيًّا للمفعول، والفاعلُ محذوفٌ هو الشَّيطان؛ استئناسًا بما ذُكِرَ صريحًا في أكثرَ مِن موضعٍ في الكتاب العزيز بإسنادِ التَّزيين إليه، ويكونُ في البناء للمفعول إشارةُ اشتهارِ الفاعلِ بهذا الفعلِ، كما في سورة الأنعام: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأنعام: 43] وقوله: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال: 48][3]، والتَّزيينُ تلبيسٌ؛ لأنَّه لا يغيِّرُ الشَّيءَ عن حقيقتهِ، وفي وقوعِ ﴿سُوٓءُ﴾ نائبَ فاعلٍ زيادةُ تقبيحِ لفعلهم، وفي إضافته إلى ﴿أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ تقبيحٌ على تقبيحٍ؛ لأنَّ العملَ القبيحَ أقبحُ من القولِ السيِّئ.

بلاغةُ الكنايةِ والإيجازِ:

مِن إعجازِ القرآنِ تضمُّنُ الكلماتِ القصارِ للمعاني الكبار

في قوله: ﴿سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ﴾ لطيفةٌ دقيقةٌ، وهو أنَّ الآيةَ جعلت التَّعبيرَ بسوء أعمالِهم المُزيَّن كنايةً عمَّا أرادت ذمَّهُ، وهو النَّسيءُ، فأظهرتِ المعنى بدليلِه، ولم تقفْ بلاغتُها عند هذا الحدِّ، بل إنَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/309.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/194.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/49، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/309، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/194.

إطلاقَ القولِ المشعرِ بالعمومِ في جميعهِ والمُطلقِ في سائرهِ بسوء أعمالِهم المضافةِ إليهم قد جمعَ بين المؤثِّرِ: وهو النَّسيءُ، وبين أثرهِ الممتدِّ غيرِ المحدودِ جُرمًا وغُرمًا وإثمًا؛ إذ القولُ بالنَّسيءِ قصدَ منه نفسَهُ، وما يترتَّبُ عليه من جرائمِ القِتالِ والإغارةِ، والنَّهبِ والسَّلبِ والتَّرويعِ وإزهاقِ الأرواحِ وتأييمِ النِّساءِ وتيتيمِ الأطفالِ واعتلالِ الأبدانِ بالجروحِ والأشلاءِ واختلالِ الأوضاعِ واضطرابِ الأمنِ وفشوِ الأمراضِ وكثرةِ ذوي العاهاتِ وكثرةِ العالةِ في المجتمعِ وانتهاكِ الأعراضِ بسبي النِّساءِ وتشرُّدِ الفارِّين والفارَّاتِ، فجمعَ القرآنُ الحكيمُ في جملةٍ من أربعِ كلماتٍ لخَّصَت كلمتانِ منها هذهِ المأساةَ وتوابعَها في إيجازٍ رائعٍ عجيبٍ.

وجهُ العطفِ بحرف (الواو):

بيانُ أنّ ما طُبِعَ عليه بعضُ خلقِهِ، مؤكِّدٌ لاستحقاقِهم قبحَ المآلِ

عُطِفَت جملةُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ما قبلَها لتأكيد أنَّهم أهلُ استحقاقٍ للعذاب؛ إذ فُطِروا على الضَّلال لقبحِ طينتِهم، فقد "فعلَ اللّٰهُ بِهم ذلك لما عَلِمَ من طبعِهم على الكفرِ، فلم يهدِهم"[1].

لطيفةُ تقديم المسند إليه، على خبرِهِ الفعليِّ:

مَن أضلَّهُ اللهُ؛ فلا هاديَ لَهُ

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الجليلِ إدخالًا للمهابةِ على النُّفوس تناسبًا مع السِّياق الذي بيَّن اجتراءَ المشركين على مقامِ الألوهيَّة في التحليل والتحريم، وقدَّم الاسمَ الجليلَ على الخبر الفعليِّ لقصرِ عدمِ هدايةِ الكافرين على اللّٰهِ وحدَهُ؛ إذ أمسك عنهم اللُّطفَ والتوفيق، اللذين بهما يتفطن الضالُّ لضلاله فيقلعُ عنه، جزاءً لهم على ما أسلفوه من الكفر، فلم يزالوا في دركاتِ الضلال إلى أقصى غاية[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/309.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

سرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

"الإظهارُ في مقامِ الإضمارِ بقولِه: ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لقصدِ إفادةِ التَّعميم الَّذي يشمَلُهم وغيرهم"[1]، فاللَّام في لفظي: ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ و﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للجنسِ، وعبَّر بالجمع لبيانِ أنَّ كُلًّا منهم يُعينُ الآخرَ على الكفرِ والبقاءِ عليه.

القصدُ التّعميم فهذا شأنُ اللهِ مع جميعِ الكافرين

ومِن ذلك الممالأةُ والمتابعةُ والمشايعةُ والمواضعةُ، ومنه الرِّضا بما هم عليه، وعدمُ معارضتهم فيما يظهرون من الكفرِ ومخالفةِ الدِّين، واللّهُ تعالى قد أمرَ المؤمنين بالدَّعوة إليه وبيان شرعهِ وحُكمهِ بالحِكمةِ والموعظة الحسنةِ، وإقامة الحجَّةِ، وتحبيبِ الناسِ في شرعِ اللّه ودينه.

براعةُ ختمِ الآيةِ:

خُتِمَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بهذا الختمِ؛ لبيان أنَّ منشأَ كلِّ قُبْحٍ يكون مِنَ الكافرين الَّذين عَلِمَ اللّهُ منهم أزلًا عدمَ الهداية، فطَبَعَ على قلوبِهم؛ فقد انصبغَ الكفرُ والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كلُّ حجة ودلالة، لم يؤمنوا.

عــدمُ هدايـةِ الكافرين حكمٌ عـامٌّ يشملهم جميعًا

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

عام، وسنة، وحول:

أمَّا (حول)؛ فلا تنضبطُ بعددٍ قطعيٍّ ثابتٍ، بل تقريبيٍّ، فلا تؤدِّي أداءَ عام منضبطٍ بشهورهِ المعدودةِ، فلم يبقَ إلَّا النَّظرُ بين (سنة) و(عام)، وقد كان أصلُ الاستعمالِ تبعًا للحقيقة العرفيَّةِ - أوَّلُ الوضعِ ومُدَدًا بَعْدَه - أنَّ السَّنةَ تُستعَمَلُ في العام الجدْبِ، وأنَّ العامَ يُذْكَرُ في السَّنة الرَّخاءِ، ثمَّ تُنوسيَ هذا الأصلُ، وتعاورَ اللَّفظان في الكلام، وساعدَ على ذلك استملاحُ التَّضمين،

السَّنةُ تُستعمَلُ في العام الجدْبِ، والعامُ يُذْكَرُ في السَّنة الرَّخاءِ، ثمَّ تُنوسيَ هذا الأصلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

واعتبارُ النِّسبيَّةِ فيما يعبَّرُ عنه بأحدِهما، واستحسانُ المجاز، والاعتدادُ بما يَستبطِنُ من المعاني.

وجاء في التّنزيل العزيزِ ذِكْرُ السَّنةِ والعام، في الشِّدَّة والرَّخاء على حدٍّ سواء، فمِنَ السَّنةِ في الجدْبِ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، ومنها في الرَّخاء: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥﴾ [الشعراء: 205]، و﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47].

ومن استعمال العام فيما يسوءُ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: 126]، وفيما يُبهجُ ويُسِرُّ: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ۝٤٩﴾ [يوسف: 49].

ومِن استعمالِهما جميعًا استعمالًا واحدًا: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ [الكهف: 11]، وتفسيرُها بآخرِ القصَّةِ: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف: 25] مع قوله: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259].

ومن التَّعبيرِ عنِ الجدْبِ والرَّخاء، والسَّارِّ والضَّارِّ كلِّهِ جمعَهُ معًا بتعبيرٍ واحد، قولُهُ جلَّ وعزَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ [يونس: 5].

فجازَ إذًا على هذا استعمالُ السَّنةِ والعام - أيٍّ منهما - دونَ غضاضةٍ ولا استكناهٍ، بَيدَ أنَّ القرآنَ العظيم له مرام بعيدةٌ حِسانٌ كاشفةٌ عن أسرارٍ مثريةٍ للعقل والوعي والإدراك، وإذ هو يُبطِلُ النَّسيءَ عودًا بالسَّنة على بَدءِ الزَّمان، فإذا هي اثنا عشر شهرًا منها أربعةٌ حرُمٌ: ثلاثةٌ سَرْدٌ، وهي: ذو القعْدة وذو الحِجَّة والمُحَرَّمُ، وواحدٌ فردٌ، وهو: رجبُ مُضَرَ الَّذي بين جُمَادَى وشعبانَ، وذكر رجبَ مضافًا إلى مضرَ احترازًا من رمضانَ، فقد كانت ربيعةُ تسمِّيه رجبًا وتحرِّمه، وإنَّما هو رمضانُ، فلمَّا أرادهم على العود إلى الأصل، ونبذِ ما اتَّبعوه ممَّا ابتدعوه؛ ناسبَ أن تكونَ كلماتُه المختارةُ للتعبير بها عن ذلك، مُرَاعًى فيها الأصلُ، فاختارَ (العام) هنا، ودلالتُه بأصل الاستعمال على اليسرِ والخير والخصبِ والنَّماءِ، كأنَّهُ يعلِّمُنا بما هو كالتَّصريح: أنَّ أولئك النَّاسئين لم يكن ليحمِلَهم على النَّسيءِ

تلبُّثًا ولا تلوُّثًا، ولا تلبُّسًا ولا تَهَوُّسًا؛ فاقةٌ أو ضُرٌّ يضطرُّهم لَذْعُهُ وأساهُ أن يُحِلُّو ماحرَّم اللّهُ من حرمةِ الأشهرِ ليُتاحَ لهم الانتهابُ، ويراحَ بهم على الاستلابِ، إنَّما هو الْأَشَرُ والبَطَرُ، والتَّرَف والسَّرَف والمَخِيلةُ، والطَّبعُ الظَّالم، والفَجْع الغاشم.

فخصَّ العامَ بالذِّكر هنا تنبيهًا على ذلك، واستدعاءً له. فالقرآن يَقرِنُ بين التَّشريعِ، والتَّطبيع، ويوردُ طرَفًا من الطِّباع ونُبَذًا من الاجتماعِ؛ لأنَّه وعاءُ العلم وذاكرةُ الأُمَّة إلى أن يرثَ اللّه الأرضَ ومَن عليها، حتى تعلمَ أبعادَ هداياتهِ في حنايا الرُّوح آمادَ الحياةِ، ومن أُوليات ذلك دواعٍ ومقتضياتٌ: "ذمُّ ما يحصل في عمل النَّسيء من تغييرِ أوقات الحجِّ المعيَّنة من اللّه في غير أيَّامها في سنينَ كثيرةٍ، ومن تغيير حُرمةِ بعضِ الأشهر في أعوامٍ متطاولةٍ"(1).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/193.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين تصحيح انحرافهم العقائديّ، وعتاب المتخلّفين عن غزوة تبوك

لَمَّا قبَّح اللّهُ سبحانه فعلَ المشركين، بتحريمهم وتحليلهم بما يخالفُ أمرَ اللّه، وأبانَ سبحانه بآية: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ﴾ [التوبة: 36]. أنَّ الجهادَ لا يَختصُّ به شهرٌ دونَ شهرٍ؛ عاتبَ المؤمنين الذين شغلَهم حبُّ الدُّنيا عن اتِّباع أمرِ الرَّسول ﷺ في الخروج للجهادِ في غزوة تبوكَ، وكان ابتداؤها في شهرِ رجبٍ سنةَ تِسعٍ"[1]، وأيضًا " أنَّه تعالى لَمَّا شرحَ معايبَ هؤلاءِ الكفَّارِ، وفضائحَهم عاد إلى التَّرغيب في مقاتلتِهم"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنفِرُواْ﴾: النُّونُ والفاءُ والرَّاءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تجافٍ وتباعُدٍ، ويومُ النَّفْرِ: يومَ ينفِرُ النَّاسُ عن مِنى[3] والنَّفْرُ: الانزعاجُ عنِ الشَّيءِ وإلى الشَّيءِ، كالفزع إلى الشَّيءِ وعنِ الشَّيءِ، والنَّفْرُ: مفارقةُ مكانٍ لمكانٍ، لأمرٍ هاجَ على ذلك[4]، والاستنفارُ: حثُّ القومِ على النَّفَرِ إلى الحربِ[5]، وهو المرادُ هنا.

2) ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾: من (ثَقُلَ) والثَّاء والقافُ واللَّام: أصلٌ واحدٌ يتفرَّع منه كلماتٌ متقاربةٌ، والثِّقَلُ كـ(العِنَب): ضدُّ الخفَّةِ، ولذلك

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/60.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(5) الرّاغب، المفردات: (نفر).

سمِّي الإنسُ والجنُّ: الثَّقَلينِ لكثرة العدَدِ. وأمَّا الثَّقَلُ فمتاعُ السَّفرِ وحشمُهُ، وكلُّ شيءٍ نَفيسٍ مَصونٍ، وجمعُهُ: أثقالٌ(1). والثِّقَلُ والخِفَّةُ مُتقابِلانِ، فكلُّ مايترجَّحُ على مايُوزَنُ بِهِ، أو يُقدَّرُ به، يقال: هو ثقيلٌ، وأصلُه في الأجسام، ثم يُقالُ في المعاني، نحو: أثقلَهُ الغُرْمُ والوِزْرُ، والثَّقيلُ يُسْتَعْمَلُ في الأجسام المرجَّحةِ إلى أسفلَ، ومن هذا الثِّقَلُ قوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾(2)، والثِّقَلُ هنا يعني: الرُّكونَ"(3)، واثَّاقلتُم هنا معناها: تباطأْتُم وتكاسَلْتم.

3) ﴿أَرَضِيتُم﴾: رَضِيَ: الرَّاءُ والضَّادُ والحرفُ المعتلُّ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على خلافِ السُّخْط، وأرضيتُه عنِّي، ورضَّيتُه فرَضِيَ(4). والمعنى هنا: آثرتم حُظوظَكم.

۞ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

حثُّ المؤمنين وتقويةُ عزائمهم على قتالِ أهلِ الكتاب والمشركين، دون تخلٍّ عن ذلك

يا أيُّها الّذين اتَّصفْتُم بالإيمان، واهتديْتُم بالقرآن الكريم، ما لكم حينَ قال لكم رسولُكم الأمينُ: اخرجوا إلى الجهاد في سبيل اللّه لقتال أعدائكم تكاسلْتم ولزمتم مساكنَكم؟ ماذا عرضَ لكم ممَّا يتنافى مع الإيمان وكماله؟ أتباطأْتم عنِ النُّهوض وحرصتم على البقاءِ في الأَرض التي أَنتم بها، وراحتِها ولذَّتِها مائلين إلى لذائذ الدنيا وشهواتها السريعة الفناءِ، وكرهتم مشاقَّ الغزو ومتاعبه، وتعلَّلتم للتخلف بِأَعذار ليس من شأْنها أَن تمنعكم من شرف الجهاد؟ هل آثرتم حظوظَكم الدنيويةَ ولذَّتَها الفانيةَ وَعَرَضَها الزَّائلَ بدلًا من سعادةِ الآخرةِ ونعيمها المقيمِ؟ إن كان الأمرُ كذلك؛ فقد استبدلْتُم الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا المشوبُ بالهمِّ والحُزنِ في جانب الآخرة ونعيمها

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقل).
(2) الرّاغب، المفردات: (ثقل).
(3) الكبيسيّ، الكلمة وأخواتُها في القرآن الكريم: 3/306.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضي).

الدَّائم والرُّضوانِ الإلهيِّ العظيم فيها إلَّا شَيءٌ قليلٌ لايُعْبأُ به، ولا ينبغي أن يحرص عليه[1].

وسببُ نزول هذه الآية وما بعدها: أَنَّ النبي ﷺ استنفَر أَصحابَه ليَخرجوا معه في غزوةِ تبوكَ، وكان الحرُّ شديدًا وبالناس عُسرٌ وقَحْط، وقد نضِجَت ثمارُ المدينة وطابت ظلالُها، وكانت تبوكُ بعيدةَ المسافة عن المدينة، والعدوُّ قويٌّ وكثيرٌ، فشقَّ عليهم ذلك وتباطؤوا في الاستجابة[2].

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى وجوبِ الخروجِ إلى الجهاد إذا دعا الإمامُ بما يعرف بالتعبئةِ العامَّة، أو النفير العام، وإلى أنه يجبُ أن يكون النفيرُ في سبيل الله وحدَه، وإلى بيانِ حقارةِ الدنيا وضآلتها أمامَ الآخرة[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ افتتاحِ النِّداءِ بصيغة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

تجَلِّي اللُّطفِ الإلـهـيِّ في عتابِ المؤمنين، بأسلوب مشفق لطيف

في الافتتاحِ بالنِّداء تلطُّفٌ بطلبِ الإقبال على اللهِ، وخلْعِ ما سواهُ؛ تحريضًا للمؤمنين على الجهادِ "بطريقةِ العتاب على التَّباطؤ بإجابةِ دعوةِ النَّفير إلى الجهادِ"[4].

علةُ وصفِ المُنادَى بالاسمِ الموصولِ:

الإغراءُ بالتَّحلِّي بما وُصِفوا به

وُصِفَ المُنادَى (أيُّ) بالاسم الموصولِ؛ لينبني عليهِ جملةُ صِلةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بصيغةِ الماضي، زيادةَ تلطُّفٍ بهم بوصفِهم بالوصفِ الغالي ممَّا يحثُّهم على الاستمساكِ به والاجتهادِ في العمل بمقتضاهُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ المجازيِّ:

في قولهِ: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ﴾، وفيه ﴿مَا﴾: استفهامٌ إنكاريٌّ،

---

(1) حجازيّ، التّفسير الواضح: 10/72، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/1701.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/153.

(3) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/370.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.

الإنكارُ والتَّوبيخُ من طرائق العتابِ، المؤدّية للمراد بدقّة

والمعنى: أيُّ شيءٍ، و﴿لَكُمْ﴾: خبرُ الاستفهام، أيْ: أيُّ ثبْتٍ لكم؟[1] أو استفهامٌ معناهُ: التَّقريرُ والتَّوبيخُ، التَّقديرُ: أيُّ شيءٍ يمنعُكم عن كذا؟ كما تقول: ما لكَ عن فلانٍ مُعرِضًا؟[2]، ويؤيِّده أنَّ الآيةَ نزلت في عتابِ من تخلَّفَ عن رسولِ اللّٰه في غزوةِ تبوك[3]، والاستفهامُ المجازيُّ من سُبُلِ العِتابِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿إِذَا﴾ في: ﴿إِذَا قِيلَ﴾:

تعليقُ التَّباطُؤِ على مجرَّدِ القولِ، أقذعُ العِتابِ

"إذا: ظَرْفٌ تَعَلَّقَ بمعنى الاستفهامِ الإنكاريِّ، على معنى أنَّ الإنكارَ حاصِلٌ في ذلك الزَّمانِ الذي قيل لهم فيه: انفروا"[4]، "وبُني (قيل) للمفعول، والقائلُ هو الرَّسول ﷺ وإن كان المُبَلِّغُ عنه بعضَ أصحابِهِ، لم يُذْكَرْ إغلاظًا، ومخاشنةً لهم، وصونًا لذكرِهِ؛ إذ أَخْلَدَ إلى الهُوينى والدَّعَةِ مَن أخلدَ، وخالفَ أمرَهُ ﷺ"[5].

وجهُ التَّعبيرِ بفعل الأمر بمقولِ القول:

الاستجابةُ لأمرِ اللهِ بجدٍّ ونشاطٍ، يدلُّ على صدقِ الإيمانِ

قوله: ﴿ٱنفِرُواْ﴾، أي: اخرُجوا مسرعين بجدٍّ ونشاط جماعاتٍ ووُحْدَانًا، إمدادًا لحزبِ اللّٰهِ ونصرًا لدينه؛ تصديقًا لدعواكم الإيمانَ"[6]، وذلك لما في دلالة الفعل من الانتقالِ من مكانٍ إلى مكان.

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الوِعاءِ ﴿فِي﴾ بدلَ حرفِ الانتهاءِ (إلى):

الانغماسُ في الجهادِ في سبيلِ اللهِ، مرغوبٌ فيهِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالظَّرفِ ﴿فِي﴾، والفعلُ (نفر) يتعدَّى بـ (إلى)؛ لأنَّه انتقالٌ من مكانٍ إلى مكانٍ على سبيلِ الإهاجةِ، إلَّا أنَّ التَّعدِّيَ بالظَّرفِ هنا ألاحَ إلى ضرورةِ تلبُّسهم بالجهادِ تلبُّسَ مَن أحاطَ بهِ الشَّيءُ من كلِّ جانبٍ، ولو عبَّر بـ (إلى) لما أدَّى هذا المعنى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/206.
(3) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 13/369.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/44.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة:

بروز معاني الدّين ومعالمه كاملة، في مقارعة العِدا

النفرة في سبيل اللّه هو الجهادُ[1]، ويمكن أن يكون قوله: ﴿ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مرادًا به الدِّينُ كلُّه على سبيل الاستعارةِ التصريحيَّة؛ باستخدام اللفظ في غير معناه الأصلي، بناء على وجود علاقة مشابهة بين المعنيين، بجامع تحمُّل المشاقِّ في تَحْصِيل الْمَطْلُوب، تظهر فيها دلالةٌ على فوائدَ كثيرةٍ، منها: تنزيهُ المؤمنين عن إرادة الدُّنيا بجهادِهم من متاعٍ أو رياشٍ أو استكثارٍ، وذِكْرُ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا إلهابٌ وتحميسٌ، واستهانةٌ بما يلاقونَ من ظمأٍ ونَصَبٍ ومخمصةٍ وتعبٍ وعَنَتٍ، وما ينفقون في ذلك من نفقاتٍ، ويقطعونَ من وديانٍ وبرارٍ وقِفارٍ، ويعانون من مكابدةِ الحرِّ الشَّديد أو البرد القارسِ، وما يفارقون أهليهم وأبناءَهم المُدَدَ الطِّوالَ.

كما أنَّه يشعرُهم بمراقبةِ اللّه لهم واطِّلاعهِ ومعيَّتِهِ، فيعوِّدُهم الانضباطَ رعايةً لحدوده، ووفاءً بعهدِه، واتِّباعًا لشرعِه، ويقوِّي فيهم رابطةَ الأخوَّةِ الإيمانيَّة، ويستخرجُ منهم مواقفَ الانفعالِ بها، والاعتمال لها، بما يعوِّدهم الإيثارَ والتَّضحية، والتَّعاونَ على البرِّ والتَّقوى، ويليِّنُ قلوبَهم وطباعَهم لقبولِ التَّناصحِ وإبدائه، ويجمعُ آمالَهم على الرَّغبِ إلى اللّه وطلبِ ماعندَهُ من منازلِ الآخرة، ويُرَخِصُ الدُّنيا في أعينِهم، فتتساقطُ زهرتُها ذابلةً عن إغرائِهم وإغوائِهم، فيحيونَ للقِيَم ومكارمِ الأخلاق التي بعثَ رسولَهم ليتمِّمَها، ويرونَه ﷺ إمامَهم في ذلك كلِّه، يتقدَّمُهم في الجهادِ، حتَّى إنَّهم ليتَّقوا بهِ، وإنَّ الشُّجاعَ منهم لَلَّذي يحاذي به، فتَحْلُوا لهمُ الأسوةُ فيه والامتثالُ له، كلُّ ذلك وتضاعيفُ أضعافهِ ممَّا يندرجُ تحتَ قولهِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في موضعِها من الآية.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/458.

الـتَّـقـاعـس والـسُّـكـونُ إلى الـرَّاحـةِ، وتـرْكُ الـجـهـادِ من أعظم المذامِّ

غرضُ التَّعبيرِ بالمجازِ:

قوله: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، وفيه صيغة ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ التي تجسِّدُ بمعناها الصَّوتي وإيقاعِها الجَرْسيِّ المعنى الَّذي تحملُه، وهو المعنى الحسِّيُّ الذي يكون فيه الجسمُ متراخيًا ثقيلًا، وقد عُدِّي التَّثاقلُ بـ(إلى)، والأصل فيه أن يتعدَّى بـ(عن)، وهذه اللَّطيفةُ تفيدُ تضمينَ (اثَّاقل) معنى (مالَ)، كأنَّ المعنى: (مِلتُم إلى الأرضِ مع تباطؤٍ شديدٍ)، فكأنَّهم من تقاعسِهم يطلبونَ الوصولَ إلى الأرضِ للقعودِ والسُّكونِ بها، مائلين إلى الدُّنيا ولذائذِها كارهين الجهادَ ومشاقَّهُ، "والتَّثاقلُ: تكلُّفُ الثِّقلِ، أي: إظهارُ أنَّه ثقيلٌ لايستطيع النُّهوضَ، والثِّقَلُ: حالةٌ في الجسم تقتضي شدَّةَ تطلُّبِهِ للنُّزول إلى أسفلَ، وعُسْرَ انتقالِه، وهو مُستعملٌ هنا في البُطْءِ مجازًا مرسلًا"[1]؛ بما حلَّ فيهم من جُبْنٍ وخَوَرٍ وإخلادٍ إلى الأرض المعبَّرِ عنها في السُّورةِ في قوله: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: 24].

أو باعتبارِ ما جذبَهم من برد الظِّلال وطيبِ الهواء ونضْجِ الثِّمار وظلال المساكنِ حتى (كانوا أرضيِّين في سفولِ الهِمَم لا سمائيِّين في طهارة الشِّيم) على حدِّ عبارةٍ للبقاعيِّ رحمه اللّه[2].

أو باعتبارِ ما كانَ من ثِقَلَةٍ وتشبُّثٍ، وقَعْدَةٍ وتلبُّثٍ، أو باعتبارِ ما سيكونُ المعبَّرُ عنهُ تفسيرًا بالجمعِ بينَ الآيةِ، وما يزيدُ في ثناياها للتَّفسير بقول عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بدلًا، وبالذُّلِّ والهوان من العزِّ خلَفًا[3]؟ أو أنَّ ذلك كنايةٌ عن عدمِ الانبعاث بما يُخلِّف من جثومِ همومٍ وإحاطةِ غمومٍ وارتخاءِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(3) ابن الأثير، الكامل في التّاريخ: 2/698.

أعضاءٍ وخذلان قوًى، وعن خَوَرِ النَّفس وثِقَلِ الأوزارِ والأكدار بسوءِ الظَّنِّ بالنَّبيِّ وأتباعهِ المجاهدين معه على نحو ما في سورة الفتح: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ١٢﴾ [الفتح: 12]، أو تكونُ استعارةً تمثيليَّةً من تشبيهِ معافًى بمريضٍ خانتْهُ قواه، وأخلفتْهُ سابقَ عهدِهِ ومألوفِهِ منها رِجلاهُ.

"وفيهِ تعريضٌ بأنَّ بُطْأَهم ليس عن عجزٍ، ولكنَّه عن تعلُّقٍ بالإقامةِ في بلادِهم وأموالِهم، ومجموعُ قولِه: ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تمثيلٌ لحال الكارهين للغزوِ المتطلِّبين للعذرِ عن الجهاد كسلًا وجُبْنًا بحال من يُطلب منه النُّهوضُ والخروجُ، فيقابِلُ ذلك الطَّلبَ بالالتصاقِ بالأرضِ، والتَّمكُّنِ من القعودِ، فيأبى النهوضَ فضلًا عن السَّير"[1].

حُسنُ موقعِ الجِناسِ اللَّفظيّ:

التّثاقلُ عن الجهاد في سبيل الله خسران، والتّمسُّك بالدّنيا ذُلٌّ وهوان

قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم﴾، فيها الجناس، وقد أعانَ القرآنُ الكريمُ - بحلاوةٍ له، وطلاوةٍ عليه، وعذوبةِ ألفاظِه، وخلابةِ ألحانِه، وجمالِ تَهَدِّيه، وجلالِ تَمَشِّيه في الأسماع، واستهوائهِ العقولَ، وخلْبِهِ الألبابَ - أُمَّةَ النَّبيِّ، ولا سيَّما المتذَوِّقين منهم للبيان، العالمين بأسرارهِ إلى ترديدِهِ والتَّغنِّي بهِ، والتَّلذُّذِ بترتيلهِ؛ ممَّا جعَلَهم يتشبَّعون بهداياته، ويتَملَّؤُونَ بحقِّهِ، وتسطعُ عليهم لائحةُ أنوارِهِ، ومِن ذلك خصائصُهُ اللَّفظيَّة والصِّياغيَّةُ الَّتي لا يقدِرُ على مثلِها، وإن اجتمعَ لها مصاقيعُ الأقوال الحسانِ من الإنسِ والجانِّ. وفي السِّياق الكريم ورد التعبيرُ بلفظين متشابهين في النطق ومختلفين في المعنى، وهما: ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم﴾، وهو جناسٌ لفظيٌّ غير تامٍّ بين كلمتي: ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ و﴿أَرَضِيتُم﴾، فهما متفقتان في نوع الحروف وهيئتها، ومختلفتان في معناها؛ فكلمة ﴿ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تعني: الراحةَ وشهواتِ الدنيا الفانية، والإقامةَ بالدِّيار، وكراهةَ الجهاد في سبيل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/469.

اللّه مع أنه ذِرْوة سَنام الإسلام، وكلمة ﴿أَرَضِيتُم﴾ فعل ماضٍ يدلُّ على الرضا والتباطؤِ عن الجهاد، والتعجيبِ من ركون المخاطبين إلى الدّنيا، مع أنَّ إيمانَهم يتنافى مع ذلك، والمعنى البلاغيُّ من هذا الجناس هو التنبيهُ على أنَّ من تثاقلَ عن الجهاد في سبيل اللّه وتمسَّك بالدنيا، فقد رضي بالذُّلِّ والخُسْران.

لطيفةُ الاستفهامِ المجازيِّ:

التَّوبيخُ بابٌ مِن أبوابِ العِتابِ، واستخدامُ الاستفهامِ في النّهي تلطُّفٌ

قوله: ﴿أَرَضِيتُم﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ توبيخيٌّ[1]، فلا يليقُ بالمؤمنين أن يرضوا بالدُّنيا بدلًا عنِ الآخرةِ، ويمكنُ أن يكونَ معناهُ النَّهيَ، فكأنَّ التقديرَ: لا ترضوا بها، فإنَّ ذلك أسفهُ رأيٍ وأفسدُه[2]، ويؤيِّد هذا المعنى قولُه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾؛ فإنَّه تعليلٌ لهذا النَّهي، وإهاجةٌ على التَّرك.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإظهارِ، في مقامِ الإضمارِ:

التَّقريرُ وتثبيتُ المعنى، يؤدِّي إلى الإقلاعِ عن غيرِ المرغوبِ فيه

قولُه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، إذ مقتضى ذكرِ الحياة الدنيا في السِّياق الكريم بقوله: ﴿بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، أن يكونَ التركيبُ على وجه الإضمار: (فما متاعُها)، لكنه عَدَلَ إلى الإظهار في هذا المقام؛ لزيادةِ التَّقرير، أي: فما التَّمتُّعُ بلذائذِها في جَنْبِ لذائذِ الآخرة إلَّا قليلٌ، والمرادُ بهذا الأسلوب الاستفهامُ عن قيمة المتاعِ وقِلَّته وزواله، والغرضُ منه التحقيرُ والتنبيهُ والتحذيرُ من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، كما أنَّ في الإظهار توجيهًا للعناية بالمعنى، وإبرازًا له.

معاني حرفِ الجرِّ:

تنوُّعُ الدّلالةِ ثراءٌ في المعنى، وتصويرٌ للخِسَّة في الاختيار

تظاهرَتْ أقوالُ المعربينَ والمفسِّرين على أنَّ ﴿مِنَ﴾ في الآية الكريمة: ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بمعنى (بدلَ)، كقولهِ: ﴿لَجَعَلۡنَا مِنكُم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/198.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.

مَّلَٰٓئِكَةً﴾ [الزخرف: 60] أي: بدلَكم[1]، وفي معنى البدليَّة إشارةٌ إلى استبدالهم الخسيسَ بالنَّفيس، والغَارَّ الفاني بالخالدِ الباقي، ويمكنُ أن تكونَ لابتداء الغايةِ، كأنَّ المعنى: أنَّ إقبالهم على الدُّنيا كأنَّه مبتدئٌ من إعراضِهم عن الآخرة، كأنَّه قيل: أرضيتُم بالميلِ إلى الدُّنيا مبتدئينَ مِنَ الإعراض عن الآخرة[2]؟

موقعُ قولِه: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ممَّا قبلَهُ:

التَّعليلُ يُعينُ النَّفسَ على التَّركِ، ويُلْهِبُها على الإقلاعِ

وقعتْ هذهِ الجملةُ ممَّا قبلَها موقعَ التَّعليلِ؛ لما أثارَهُ الاستفهامُ الإنكاريُّ التَّوبيخيُّ المفيدُ النَّهيَ، كأنَّ الجملةَ جاءتْ بمنزلةِ التَّعليل للنَّهي السَّابق، والتَّعليلُ عقيبَ النَّهي يُهيِّجُ النَّفسَ إلى الإقلاعِ عن المنهيِّ عنهُ وتركِه.

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَمَا﴾:

وظيفةُ الفاءِ الفصيحةِ الإبانةُ عن شرطٍ مقدَّرٍ

الفاءُ هنا للإفصاحِ عن شرطٍ مقدَّرٍ؛ لأنَّها تُفْصِحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ تقديرُهُ: إذا كنتُم رضيتُم ذلك؛ فما متاعُ الحياةِ الدُّنيا في الآخرةِ إلَّا قدرٌ قليلٌ ضئيلٌ.

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصرِ:

تمكينُ المعنى وتقويتُهُ، يقنِعُ العقولَ، ويُعلي الحُجَّةَ

قولُهُ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، جاءت فيه الجملةُ التّعليليَّةُ في ثوبِ أسلوبِ القصرِ، واصطفى النَّظمُ من طُرُقِ القصرِ النَّفيَ والاستثناءَ، وهما يساقانِ في مواجهةِ إنكارِ المخاطَبِ، لذا عدَّهُ البلاغيُّون مِن أقوى طُرُقِ القصرِ، واصطفاءُ أسلوبِ القصر في هذا السِّياق هو الملائمُ للمقامِ؛ لما فيه من توكيدِ المعنى وتمكينِه في النَّفس، فقياسُ متاعِ الحياة الدُّنيا بالحساب إلى الآخرةِ قليلٌ، وهو من أساليب الحِجاجِ؛ لأنَّه تضمَّنَ في طيَّاته مقايسةً وطباقًا بين الحياةِ الدُّنيا والآخرةِ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/518، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/207، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/50.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.

دلالةُ حرفِ الجرّ على المقايسةِ:

مـن أسـاليـبِ الإقـنـاعِ في الحوارِ: الظَّرفيَّةُ المجازيَّةُ

اصطفى النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿فِي﴾؛ ليدلَّ بهِ على المقايسة، وقد جعلوا المقايسةَ من معاني (في) - كما في التَّسهيل[1] والمغني[2] واستشهدوا بهذه الآية - وهو في التَّحقيق من معاني، أي: متاعُ الحياةِ الدُّنيا إذا أُقحِمَ في خيرات الآخرةِ؛ كان قليلًا بالنِّسبةِ إلى كثرة خيرات الآخرة. فالتَّحقيقُ أنَّ المقايسةَ معنًى حاصلٌ لاستعمال حرفِ الظَّرفيَّة، وليس موضوعًا له حرفُ (في)[3]، لذا قالوا: قولُهُ: ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ من حيثُ المعنى، تقديرُهُ: فَما متاعُ الحياةِ الدُّنيا محسوبًا في الآخرةِ[4].

وعبارة ابن مالك رحمه اللّه بأن المقايسةَ هي: "الدَّاخِلَةُ بَين مفضول سَابق وفاضل لَاحق"[5]، نَحْو الآيةِ الكريمة، فهي مثالٌ على المقايسة الخفيَّة؛ إذ وازن اللّه تعالى بين الحياة الدنيا - وهي المفضول السَّابق - والحياة الآخرة - وهي الفاضل اللّاحق - في معنى المتاع أو النعيم، وأظهرَ الفرقَ الشاسعَ بينهما، والتفضيلَ البيِّنَ للآخرة على الدنيا. والغرضُ من هذه المقايسةِ هو التنبيهُ والتحذيرُ من الانشغال بالدنيا عن الآخرة، والترغيبُ والتشويقُ للآخرةِ وما عند اللّه للمتقين في جنانه.

بلاغةُ استخدامِ الطِّباقِ:

التَّـضـادُّ: جهةٌ جامعةٌ في مباني الـعـقـولِ، وهو أنسبُ للحجاجِ

اقتضى أسلوبُ المقايسةِ في قولهِ: ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، - وهو أقوى أساليبِ التَّعليل، وأعلى وسائلِ الإقناعِ في الحِجاج - استخدامَ الطِّباقِ هاهنا، وكلُّ ذلك يعاونُ في بيان قلَّةِ متاعِ الدُّنيا، ويناصرُ النَّهيَ عنِ الإخلادِ إليها، والطِّباقُ بين الدُّنيا والآخرةِ، لكنَّه ذكرَ

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/156.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 225.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/198.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/51.
(5) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/156.

الدُّنيا وصفًا للحياة، ولم يَذكُرْ في المقابلِ الحياةَ موصوفًا للآخرة، تسليطًا على المدَّةِ القصيرة ذكرَ الحياةَ موصوفًا للدُّنيا، وحذفَها في الآخرة إلماعًا إلى عدمِ ارتباطِها بالزَّمن، فهي دارُ الخلودِ، ولم يذكر "متاعَ الآخرةِ لكثرتهِ، ولأنَّ الإيمانَ بها في ذاتهِ سعادةٌ غيرُ محصورةٍ، فهي علوٌّ في إدراكِ النَّعيم المقيم الثَّابت الدَّائم"[1].

دلالةُ التَّنكيرِ:

القلَّةُ والحقارةُ وصفانِ ملازمانِ للحياةِ الدُّنيا:

التَّنكيرُ في لفظ ﴿قَلِيلٌ﴾ يفيدُ التَّقليلَ والتَّحقيرَ مُدَّةً، وهو استعمال اللفظ في صورة النكرة بدل المعرفة، أي أنَّ متاع الدنيا لا يستحقُّ أن يعرَّف بالألف واللام، بل هو قليلٌ حقيرٌ صغيرٌ سريعُ الزوال، لا يقاس بمتاع الآخرةِ الذي هو خير وأبقى وأعظم. وكيفَ وهو مناسبٌ لسياق التَّزهيدِ في الدُّنيا وذمِّ الإخلادِ إليها؟

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

رضي، وآثر، وفضَّل:

الرِّضا خلافُ السُّخطِ، والإيثارُ تقديمُ الشَّيءِ، والتَّفضيلُ الزِّيادةُ في الفضل والخير

آثرَ: آثرْتُكَ: أي: فضَّلْتُك، وقوله تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨﴾ [النازعات: 38]: فضَّلها، أي: تمسَّك بها واستبقاها[2]، "والإيثارُ في اللُّغةِ: تقديمُ الشَّيءِ، واختصاصُه بالفضل"[3].

التَّفضيلُ في اللُّغةِ: الزِّيادةُ في الفضل والخير، وقد راعى القرآنُ الكريمُ السِّماتِ الدِّلاليَّةَ الخاصَّةَ لكلا اللَّفظين، فاستعملَ الإيثارَ بمعنى: تقديمِ الشَّيءِ على غيرِه، سواءٌ استحقَّ التَّقديمَ أم لم يستحقَّ، فممَّا يستحقُّ التَّقديمَ ما وردَ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: 91]، وممَّا لا يستحقُّ التَّقديمَ ماورد في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3306/6.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أثر).
(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 31.

ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: 37 - 39]، فهذا من تقديم الأَدْنى على الأعلى، أمَّا التَّفضيلُ؛ فقدِ استُعمِل – حيثُما وردَ في القرآن الكريم – بمعنى الزِّيادة في الفضل والخيرِ، ومن ذلك قولهُ تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ﴾ [البقرة: 253]، ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ﴾ [النساء: 95][1].

رضي: المعنى المحوريُّ: تشبُّعُ النَّفسِ، وامتلاؤها بَلَالًا، ورِقَّةً أخذًا مِن (رضض)، ومِن مِثل: أراضَ: شرِب علَلًا بعدَ نَهَلٍ حتى نَقَع رِيًّا، والرِّضا خلافُ السُّخطِ: رضيتُ به، ورضيتُ عنه[2]، وقد اختيرَ فعلُ ﴿رَضِيتُم﴾ هنا دون (آثرتم) مبالغةً في الإنكارِ؛ لأنَّ الفعلَ (رضي) يدلُّ على انشراحِ الصَّدرِ[3] وتشبُّعِ النَّفْس وامتلائِها، أمَّا الإيثارُ؛ فتفضيلٌ وتمسُّكٌ.

ولم يكونوا؛ ليؤثروا الدُّنيا على الآخرةِ، فيما يُدْعَون إليه – واستجاب الخُلَّص له – ولأن الرضا بالحياة الدنيا من شأن الكفار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس: 7 - 8].

(1) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 32، 31.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (رضي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/198.

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: 39]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ترغيبُ النُّفوس في دواعي الجهاد، والتّلويح عند التّخلف، بالاستبدال وسوء المآل

"لمَّا رغَّبَهم في الآية الأولى في الجهادِ بناءً على التَّرغيبِ في ثواب الآخرةِ؛ رغَّبهم في هذه الآية في الجهاد بناءً على أنواعٍ أُخَرَ من الأمور المقوِّية للدَّواعي"(1)، ويرى البقاعيُّ الانتقالَ من الوعدِ والتَّرغيب إلى الوعيدِ والتَّرهيب(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ﴾: من (بدل): الباءُ والدَّالُ واللَّام أصلٌ واحدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مقامَ الشَّيءِ الذَّاهب، يقال: هذا بدلُ الشَّيءِ وبديلُهُ، ويقولون: بَدَّلْتُ الشَّيءَ؛ إذا غيَّرتُهُ، وإن لم تأتِ له ببدلٍ، قال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15](3) "الإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبدُّل والاستبدالُ: جعْلُ شيءٍ مكانَ آخرَ، وهو أعمُّ مِنَ العِوَض، فإنَّ العِوضَ هو أن يَصيرَ لك الثاني بإعطاءِ الأوَّل، والتَّبديل: قد يقال للتَّغييرِ مطلقًا، وإن لم يأتِ ببدَلِه"(4)، والمرادُ هنا: إهلاكُهم والإتيانُ بقومٍ غيرِهم.

2) ﴿تَضُرُّوهُ﴾: من (ضرَّ): الضَّادُ والرَّاءُ ثلاثةُ أصولٍ؛ الأوَّلُ: خلافُ النَّفع، والثَّاني: اجتماعُ الشَّيءِ، والثالثُ: القوَّةُ... فالآيةُ من الأوَّلِ، الضَّرُّ ضدُّ النَّفع، ويقال: ضَرَّهُ يضرُّهُ ضَرًّا، ثمَّ يُحمَلُ على هذا كلُّ ما جانسَهُ أو قاربَهُ، وأمَّا الأصلُ الثَّاني: فضَرَّةُ الضَّرْعِ: لحمَتُه، وضَرّةُ الإبهام:

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 14/63.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/319.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(4) الرّاغب، المفردات: (بدل).

اللَّحمُ المجتمع تحتها، وأمَّا الثالثُ؛ فالضَّرير: قوَّةُ النَّفس، ويقالُ: فلانٌ ذو ضريرٍ على الشَّيءِ، إذا كان ذا صبرٍ عليه ومقاساةٍ[1]، والضُّرُّ: سوءُ الحالِ، إمَّا في نفسِه، وإمَّا في بدنِه، وإمَّا في حالةٍ ظاهرةٍ من قلَّة مالٍ وجاهٍ، يقال: ضرَّهُ يضرُّه: جلبَ إليه ضُرًّا، وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ ينبِّههم على قلَّةِ ما نالهم من جهتهِم، ويؤمِّنُهم من ضررٍ يلحقُهم"[2]، والمعنى المرادُ هنا: أنَّ اللّهَ لا يضرُّه شيءٌ، ولا أيُّ نوعٍ من أنواعِ الضَّررِ، ولارسولَهُ حينما يعذِّبُكم، ويهلِكُكم، ويأتي بآخرين.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّهديدُ لمَن يتركون الجهاد، لأنَّه ضمانٌ للحفاظ على الدّين، وحماية الأمّة

هذا إنذارٌ عامٌّ خالدٌ يشمَلُ العصورَ كلَّها منَ اللّه لكلِّ الذين يتركونَ الجهادَ، ولاينفِرون في سبيل اللّهِ؛ فقد أنذرَ في هذه الآيةِ بالعذاب والسُّخط والهلاكِ، وبإتيانه بقوم آخرين ينفِرون إذا استُنْفِروا، ويطيعون اللّه ورسوله، وأنَّه لا ضررَ على اللّه ورسوله[3] شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد؛ فهو الغنيُّ عنكم وأنتم الفقراء إليه، فهو - جلَّ وعزَّ - على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ سُنَّةَ اللّه مَضَتْ بأنه لا بقاءَ للأمم التي تتثاقلُ عن الدفاع عن نفسها، وحفظِ حقيقتِها وسيادتِها، ولا تتمُّ فائدةُ القوة الدفاعية والهجومية إلا بطاعة الإمام، فكيف إذا كان الإمام والقائدُ هو النبيُّ الموعود من ربه بالنصر[4]؟

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ الآيةِ ممَّا قبلَها ودلالتُه:

تعقيبُ اللَّومِ بالتَّهديدِ، أكبرُ زَجْرٍ عنِ العودِ للمَنهيِّ عنهُ

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لتاركِ النَّفير[5] "هذا وعيدٌ وتهديدٌ عَقِبَ الملامِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضر).
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3307/6.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 595/10.
(5) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/93.

السَّابق؛ لأنَّ اللَّومَ وقعَ على تثاقُلٍ حصلَ، ولمّا كان التَّثاقلُ مُفضيًا إلى التَّخلُّف عنِ القتالِ؛ صرَّح بالوعيدِ والتَّهديدِ إن يعودوا لمثلِ ذلك التَّثاقل، فهو متعلِّقٌ بالمستقبلِ، كما هو مقتضى أداةِ الشَّرط، فالجملةُ مستأنفةٌ لغرض الإنكارِ بعدَ اللَّوم"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الشَّرط:

العـذابُ سببُهُ ممَّن وقعَ بهِ لا مِن غيرِه

قوله: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾، وفيه اصطفاءُ أسلوبِ التَّعليقِ في التَّهديد بيانٌ لهم أنَّ العذابَ الذي سيقعُ بهم سيكونونَ هم سببُه؛ لأنَّهم أخلُّوا بالشَّرط، فتسبَّبوا في إيقاعِ العذابِ بأنفسِهم، كما أنَّ في استخدامِ أسلوب الشَّرط تخفيفًا لوطأةِ التَّهديد لما في التَّعليق من عدمِ المعاجَلَة.

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الشَّرطِ ﴿تَنفِرُواْ﴾:

لا يُزيلُ اللَّومَ إلَّا فِعلُ ضدِّ ما أدَّى إليه

اصطفاءُ النَّظم الكريم فعلَ الشَّرطِ ﴿تَنفِرُواْ﴾ ينادي على آيةِ اللَّوم؛ ليتناسبَ اللَّومُ مع التَّهديد، وليكونَ ضدَّ التَّثاقلِ موطنِ اللَّوم السَّابق، وفيه إلماعٌ إلى أنَّه لا يُزيلُ اللَّومَ ترْكُ الفعلِ موطنِ اللَّوم فحسبُ، ولكن بالعملِ بضدِّه، وهو ما يحقِّقُ المطلبَ الشَّرعيَّ.

وجهُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، في طرفي جملةِ الشَّرطِ:

الجهادُ عظيمُ الشَّأنِ، ويناسبُه تجديدُ الوعيدِ، بتركه واستمرارُه

في قولِه: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾، جاءَ التَّعبيرُ بالمضارعِ في طرفي جملة الشَّرطِ من الفعلِ والجواب؛ دلالةً على تجدُّدِ عذابِ اللّه في الدنيا بإنزال المصائب بكم، وفي الآخرة بنار جهنم كلَّما تجدَّد عدمُ النَّفير للجهاد، وهو ألصقُ بمقام التَّهديد، ويؤيده حديث المصطفى - ﷺ المبيِّن لمعاني الذكر الحكيم - بقوله: «إذا تبايَعْتُم بالعِينة، وأخذتُم أذنابَ البقرِ ورضِيتُم بالزَّرعِ، وتركتُم الجهادَ، سلَّط اللّهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه حتى ترجعوا إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/199.

دينِكم»[1]، كما أنَّ أسلوب الشرط في الآية أَبَرُّ بسياق الحثِّ على الجهادِ في سبيلِ اللّهِ.

سرُّ تنكيرِ لفظ ﴿عَذَابًا﴾:

التَّنكيرُ المفيدُ التَّنويعَ والتَّهويلَ، ألصقُ بمقامِ التَّهديدِ

وقعَ لفظُ ﴿عَذَابًا﴾ مفعولًا مطلقًا؛ لبيان أنَّه عذابٌ حقيقيٌّ لا مجازيٌّ، و"ذكر العذابَ منكَّرًا مطلقًا، والتَّنكيرُ لتعظيم هذا العذابِ، وأنَّه شديدٌ يتطابقُ في شدَّتِهِ مع التَّثاقلِ عن الجهادِ عند وجودِ موجبِه، ودعوةِ الإمامِ الحقِّ إليه، وإطلاقُهُ يفيدُ تعدُّدَهُ، وكثرَتَهُ، فهو يشمَل الغزوَ من الأعداءِ، والذِّلَّةَ والمهانةَ والصَّغارَ، هذا في الدُّنيا، أمَّا يومُ القيامةِ، فنارُ الجحيم وغضبُ اللّهِ، وسخطُه، وبعدُه عنهُ"[2]، ففي التَّنكيرِ شمولٌ وعمومٌ لكلِّ أنواعِ العذابِ في الدُّنيا والآخرة.

نكتةُ وصفِ العذابِ بـ ﴿أَلِيمًا﴾:

المبالغةُ في التَّهديدِ، تدعم الإقلاعَ عنِ المنهيِّ عنهُ

وصْفُ المفعولِ المطلقِ المنكَّرِ الذي أفادَ التَّهويلَ والتَّنويعَ بالألَم؛ زادَ في التَّهديد وأعلى منهُ، وهو فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، وهو مجازٌ عقليٌّ حيثُ أسندَ الإيلامَ إلى العذابِ، والمجازُ العقليُّ هاهنا يفيدُ قوَّةَ المعنى والمبالغةَ فيه، فالمعنى: العذابُ - المهدَّدُ به - كلُّه هولٌ، وأنواعُه كثيرةٌ، وكلُّها مؤلمٌ، وهذا مما يُلهِبُ على الإقلاعِ عنِ المَنْهيِّ عنهُ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستبدال بقوم آخرين:

تنويعُ أساليبِ التَّهديدِ محفِّزٌ ومُعينٌ، على الإقلاعِ عنِ المنهيِّ عنهُ

بقوله: ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾، عُطِفَت هذه الجملةُ على ما قبلَها، إشعارًا بأنَّ الإهلاكَ لا يكونُ إلَّا بعدَ العذابِ بصنوفٍ وألوانٍ في الدُّنيا، ثمَّ يكونُ المحوُ والتَّبديلُ والتَّغيير، والسِّين والتَّاء للتَّأكيد، وللانتقاء الَّذي يُعبَّر عنه بالاختيارِ، والاصطفاءِ والاستخلاصِ

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (3462)، والبزّار في المسند، برقم: (5887)، وصحّحه الألبانيُّ بمجموع طرقه، السّلسلة الصحيحة: (11).

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3307/6.

والاصطناعِ، والبدلُ هو المأخوذُ عوضًا، كقوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: ويستبدلْ بِكم غيرَكم.

فضلُ معنى عطْفِ الجملتين بالواو:

نفاذُ التَّهديدِ إلى كلِّ فردٍ بعينه، كأنَّه موجَّهٌ إليه خاصَّة

التَّهديدُ بعدم الإهمال بالاستئصالِ بعدَ التَّعذيبِ قاضٍ باستيفائِهم آجالَهُم فيه، وهذا لا شكَّ مختلفٌ متفاوتٌ، وكلٌّ منهم بحسْبِهِ فيما قدَّرَ له، لينفِّذَ التَّهديد إلى كلِّ فردٍ فيهم، فإفادةُ الواو مطلقَ الجمعِ معَ المشاركةِ في الحكم قاضٍ باستيعابِهم على التَّنويعِ فيهم.

سرُّ عدمِ ذِكْرِهم في الاستبدال:

عدمُ الذِّكرِ أجمعُ للبَلاغِ، وأرعى لمقامِ الخطابِ، وأبلغُ في غرضِهِ

لم تقلِ الآيةُ: (ويستبدل"بكم" قومًا غيرَكم) فكانَ عدمُ ذِكرِهم على هذا النَّحوِ مفيدًا معنى أنَّ اللّهَ لا ينظرُ إلى صورِهم وأجسامِهم، ولكنَّه ينظر إلى قلوبِهم وأعمالِهم وأحلامِهم، وهذهِ قد عُلِمَ فسادُها، فلم يَعُدْ لها أثرٌ يستحقُّ النَّظرَ، وفي هذا من التَّهديدِ أنَّهُ لم يبالِ بهم، وأنَّ التَّهديدَ هو بعذابٍ يعمُّهم، لا يغادرُ منهم أحدًا، وفيه الإيماءُ إلى مسؤوليَّة مخالطيهم - وليسوا منهم - عن وعظِهم وتذكيرِهم وزجرِهم.

علةُ اختصاصِ الآيةِ لفظَ ﴿قَوْمًا﴾:

القرآنُ كتابُ الحقِّ والعدلِ، يضع الشَّيءَ في موضعِهِ بدقَّةٍ وإحكامٍ

ذكرَ السِّياقُ الكريم ﴿قَوْمًا﴾ دون (أمَّةٍ) ودونَ الاكتفاءِ منه بوضعهِ ﴿غَيْرَكُمْ﴾، بل جمع بين اللفظتين؛ لأنَّه لو ذكرَ (أمَّةً)، أو أغفلَ ذكرَ القوم؛ لدخلَ بالذِّكر، واحتملَ بالتَّرك دخولُ النِّساء والأطفال والعجَزَةِ المعذورين؛ إذ ليس على النِّساء جهادٌ بالاستنفارِ في تلك الغزوة، ولا فيما يكفي فيه الرِّجال، لما أنَّ (قومًا)، تعني: (جماعةَ الرِّجالِ) كما تقرَّرَ، وكانوا هم المقصودين دونَ غيرِهم بالوعيد خصَّهم القرآنُ بهِ، فلم يُعَدِّهم إلى غيرِهم؛ حرصًا منه على إقامةِ العدلِ ووضع الجزاءِ موضعَهُ دونَ تزيُّدٍ ممَّا يفعلُه الفجَرَةُ المتغطْرِسون، فهذا دليلٌ آخرُ أنَّه من عندِ اللّه.

وثَمَّ فائدةٌ أخرى لذلك تستحقُّ التَّأمُّلَ: أنَّ القرآنَ لا يبغي للبشريَّةِ حُوبًا، ولا من شأنه أن يسارعَ إلى العقوبةِ تشفِّيًا، بل إنَّه ليفرَحُ بالتَّوبةِ، ويسارعُ إلى المنيبِ يتلقَّفُه بتودُّدٍ، وفتَّح مغاليقَ أبوابِ الأملِ في وجهه، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النِّساء: 147].

ومن هذا القبيل يُنَوِّعُ الإشاراتِ والإلماحاتِ للعصاةِ المتقحِّمين ليراجِعوا أنفسَهم وما هُم عليه قبلَ فوات الأوان، ومن هذا القبيلِ ما ألمَحَ لهم هنا بذكرِهِ ﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾، وهم رجالٌ، فالمعنى المستبطِن: أنَّهم سيخلِّفونكم على نسائِكم وأبنائِكم وأموالكم، فيكون أمضى في الإلهابِ وَأحَدَّ في التَّحفيز، وأجَدَّ في الانبعاث، وأدخلَ للكآبة والهمِّ على المُرتابَةِ قلوبُهم، فَهُم في ريبِهم يتردَّدون.

سرُّ تنكيرِ المفعولِ بِهِ:

التَّنويعُ والإبهامُ والوصفُ بالغيريَّةِ، تهديدٌ لمن لم يستجبْ للنَّفيرِ في سبيلِ الله

وقعَ لفظُ ﴿قَوۡمًا﴾ مفعولًا به منكَّرًا لإفادةِ التَّنويعِ، أي: نوعًا آخرَ، وتقديرُ المعنى: "يستبدلْ بكم قومًا غيرَكم خيرًا منكم وأطوعَ"[(1)]، كما أنَّ في التنكير إبهامًا لتذهبَ النَّفسُ، فيمن يكون خيرًا منهم كلَّ مذهبٍ، وقد وُصِف المفعولُ به بـ ﴿غَيۡرَكُمۡ﴾ "أي: ذوي بأسٍ ونجدةٍ مخالفين لكم في الخِلالِ الَّتي كانت سببًا للاستبدالِ لولايتِهِ ونصرِ دينِهِ"[(2)]، وفي ذلك تأكيدٌ أنَّهم لن يكونوا منهم، وهو المناسبُ لسياقِ تهديدِ مَن لم يَنْفُر إلى الجهادِ في سبيلِ اللّه.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـًٔاۗ﴾:

تأكيدُ القدرةِ على الضَّررِ وإيقاعِ الهلاكِ بهم

والواو يمكنُ أن تكونَ حاليَّةً "أي: يعذِّبْكم، ويستبدلْ قومًا غيرَكم في حالِ ألَّا تضرُّوا اللّهَ شيئًا بقعودِكم"[(3)]، والأعلى أنَّها للعطفِ، و"(لا تضرُّوه) عطفٌ على (يستبدِلْ) والواوُ فاعلٌ والهاء مفعولٌ به،

(1) الثعلبيّ، الكشف والبيان: 10/373.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/200.

وشيئًا: مفعولٌ مطلق، أي: شيئًا مِنَ الضَّرر"[1]، والمناسبةُ بين هذه الجملة وما عُطِفَت عليه أنَّه "لمّا هدَّدهم بما يضرُّهم؛ أخبرَهم أنَّهم لايضرُّون بفتورِهم غيرَ أنفسِهم"[2]، وقد عبَّرَ بـ (لا) دلالةً على نفي وقوعِ أيِّ ضررٍ حالًا أو استقبالًا، ولو عبَّرَ بـ (لن)؛ لأوهمَ أنَّ النَّفيَ متَّجِهٌ للمستقبل، وعبَّرَ بالفاعل ضميرًا تحاشيًا من ذكرهم صراحةً، بُغضًا لفعلِهم واستقباحًا لوصفِهم، فَهُم متثاقلونَ مخلَّدون إلى الأرض، راكنونَ إلى الدُّنيا.

ووجهٌ ثانٍ دالٌّ على إعجازِ القرآنِ، وأنَّه من عند الله: ذلك أنَّ عدمَ المستجيبين للنَّفْرِ العامِّ مع رسولِ اللهِ وصفوةِ المؤمنين به الخارجينَ معَهُ، قد أسرُّوا في أنفسِهم أنَّ قعودَهم عن الخروجِ لنصرتهِ وتكثيرِ سوادِ مَن مَعَهُ، أمكنُ للأعداءِ منهُ، أن يُوقَعَ الضَّررُ به من جرَّاء ذلك، فأفصحَ القرآنُ بنفي ما أسرُّوهُ، وأبطنوهُ بقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ﴾، وإذا أُريدَ بالضَّمير النَّبيُّ - كما يرى الزَّجاجُ - بأنَّ اللهَ أعلمَ أنَّه يستبدل لِنَصْرِ دينه ونبيِّه قوماً غيرَ مُتَاقِلِين عنِ النَّصْرِ إلى أعدائه؛ إذ أعلمهم اللهُ ﷻ أنهم إن تركوا نصره فلن يَضُرَّهُ ذلك شيئاً، كما لم يضرره إذ كان بمكةَ لا ناصرين له[3].

ويمكن أنه أُريدَ بهِ اللهُ، فقد نزَّل اللهُ منزلَهُ إرادةَ الضُّرِّ بنبيِّه أنَّه إرادةُ ذلكَ لَهُ، على حدِّ قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأحزاب: 57]، وقوله في الحديث الشَّريف: «قال الله ﷻ: يؤذيني ابنُ آدمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ: وأنا الدَّهْرُ، بيَدِي الأمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهارَ»[4]. وكون النِّداء في صدرِ الآية السَّابقةِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مع ما هم عليهِ من إخلاءٍ ذُمُّوا به، ونيَّاتٍ سيِّئةٍ هُدِّدوا عليها، هو بحَسَبِ ما أظهروهُ من ذلك، فعُوملوا بهِ، وخُوطِبوا على أساسه.

تنوُّعُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالتُه:

الضَّميرُ (الهاء) في ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ إمَّا أن يعودَ إلى الاسم الجليلِ، وهو أقربُ مذكورٍ في الآية السَّابقة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وإمَّا أن يعودَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ[5]، وهو حاضرٌ في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/101.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/317.
(3) الزجَّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/448.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (7491)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2246).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/210.

نفوس المخاطبين، وفي ذلك إشارةٌ إلى ظهورِ أمرهِ ﷺ ونصرته، ودحرِ أعدائهِ، وعدمِ وصولهم إلى ضررهِ، والمعنى: متعانِقٌ، وفي ذلك تعظيمٌ لقدرِ رسولِ اللّه ﷺ فمَن أرادَ ضرَّهُ، كمَن أرادَ الضُّرَّ باللّه، وهو محالٌ.

لا يستطيعُ أحدٌ إلحاقَ أدنى ضررٍ باللهِ ولا بِرسولِه

لطيفةُ تنكيرِ المفعولِ المطلقِ:

نكَّرَ المفعولَ المطلقَ ﴿شَيۡـٔٗاۗ﴾، أي: شيئًا مِنَ الضَّررِ، وفي هذا التَّنكيرِ تعميمٌ وشمولٌ للإعلانِ عن طلاقةِ القدرةِ، فاللّهُ هو الَّذي يملِكُ النَّفع والضُّرَّ ويوقِعُهما وحده سبحانه، واحتجبَ عن خلقه بعزِّه، ووصلت إليهم نعمُهُ برحمتِه، وبلغت نقمتُه وسخطُه من أغضبَه.

عمومُ النَّفي مُعلِنٌ عن طلاقةِ القدرة

وجهُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل (اللهِ)، مسندًا إليه:

عبَّر بالاسمِ الجليلِ (اللّه) وهو أهيبُ أسماءِ اللّهِ ﷻ إدخالًا للمهابةِ على النُّفوس، وسياقُ السِّباقِ واللَّحاقِ في التَّهديد والوعيد يناسبُهُ التَّعبيرَ بالاسمِ الجليلِ مسندًا إليه.

إدخالُ المهابةِ يلائِمُ سياقَ الوعيدِ والتَّهديدِ

علةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ، على الخبرِ في السّياقِ:

قدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾على الخبرِ ﴿قَدِيرٌ﴾ لبيانِ إحاطةِ القدرةِ الإلهيَّةِ وشمولِهَا، مع ما في ﴿عَلَىٰ﴾ من معنى الاستعلاءِ والقهرِ، وما في ﴿كُلِّ﴾ من العمومِ، ووافي لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ من العمومِ، وكلُّ ذلك مع التَّقديمِ ينصرُ الدِّلالةَ على شُمولِ القدرةِ الإلهيَّةِ وإحاطتِها، ويدخُلُ في ذلك دخولًا أوَّليًّا إيقاعُ المهدَّدِ بهِ على وجهِ الواردِ المخوفِ، ونصرِ نبيِّه، وإعلائه، وحفظه، وكلاءتِهِ على النَّحوِ المستنفرِ له المؤمَّلِ، وهو الملائمُ سياقَ التَّهديدِ والوعيدِ.

القدرةُ الإلهيَّةُ لايحدُّها حدٌّ، ولايُعجِزُها شيءٌ

سرُّ الختْمِ بإقرارٍ لله بالقدرةِ:

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، والمناسبةُ بين هذه الجملةِ وسابقتِها أنَّه "لمَّا أثبت بذلك قدرتَهُ على ضُرِّه لهم، وقصورَهم عن

الختْمُ ببيانِ عمومِ القدرةِ، ملائِمٌ سياقَ التّهديدِ والوعيدِ

الوصولِ إلى ضُرِّهِ؛ كان التَّقديرُ: لأنَّه قادرٌ على نَصرِ دينِهِ ونبيِّهِ بغيرِكم، فعطفَ عليه تعميمًا لقدرته؛ ترهيبًا من عظمِ سطوتِهِ"[1].

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّة:

يضرُّونَ، ويؤذونَ:

الضَّررُ أعمُّ من الأذى، والأذى يقع غالبًا بالقولِ، وعلى اليسيرِ مِن الأشياءِ

يؤذونَ: "الإيذاءُ يكونُ معنويًّا بالقولِ المؤلِمِ، ويكونُ حسِّيًّا بالضَّربِ ونحوِهِ، وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ مِنَ الأذى والإيذاء، فمعناهُ الإيلامُ النَّفسيُّ (التَّكرُّهُ) أو البدنيُّ غيرُ المبرِّحِ، إلَّا ما ذكرَ اللَّهُ تعالى مرادًا به، فمعناه: المخالفةُ عن أمرِهِ، ومضادَّةُ حُكمِهِ، وإيذاءُ رسولِهِ صلى الله عليه وآله وسلم، وكونُ الأذى البدنيِّ غيرَ مبرِّحٍ يناسب التَّهوينَ من شأنِ مكروهِهِ بالنِّسبة للضَّررِ، كما قد يُؤخَذُ مِن قولِهِ تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ﴾ [آل عمران: 111] والأذى: هو المكروهُ اليَسيرُ، والشَّرُّ الخفيفُ"[2].

تضرُّوه: الضُّرُّ: ضدُّ النَّفعِ، وهو يعمُّ في الشَّأنين المادِّي والمعنويِّ: فضرَّه: ألحقَ بِهِ أذًى، أو مكروهًا، وكذا ضرَّ به، وأضرَّهُ، وأضرَّ به، وضارَّهُ سبَّبَ له نقصًا أو ضيقًا، ومن الضُّرِّ في القرآنِ: الحاجةُ إلى الطَّعامِ والميرةِ، والمرضِ وخوفِ الغرقِ والهلعِ والفزعِ ونحوه، وليس في الاستعمالات القرآنيَّةِ للتركيبِ مايخرجُ عن معنى الضِّيقِ وما يلزمه، "وما جاء في القرآن، من قولِهِ سبحانه وبحمده: ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [آل عمران: 176 - 177، محمد: 32] وقولِهِ جلَّ وعزَّ الَّذي معنا في الآية: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ﴾، وقولِهِ تعالى وتقدَّس: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [هود: 57] فالمعنى: لن تبلغوا بُغْيتكم من القضاء على دينه بل هو باقٍ إلى يوم القيامةِ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21][3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/318.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أذى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضرَّ).

والظَّاهِرُ من الفَرْقِ بينهما أنَّ الضَّررَ أعمُّ من الأذى، وأنَّ الأذى يقع غالبًا بالقولِ، وعلى اليسيرِ مِنَ الأشياءِ، أمَّا الضَّررُ؛ فيكونُ بالفعلِ والقولِ والكبيرِ والصَّغيرِ، واليسيرِ والكثيرِ، فاصطفى النَّظمُ القرآنيُّ ما هو ألصقُ بسياقِ التَّهديدِ وعمومِ النَّفي الَّذي يقوِّيهِ ما بعدَهُ مِن تنكيرِ المفعولِ المطلقِ ﴿شَيْـًٔاۗ﴾.

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة: 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ترغيبُ المؤمنين ثانيةً في الجهاد في سبيل الله، والذّبّ عن دينه وحماه

هذا ذكرُ طريقٍ آخرَ في ترغيبهم في الجهاد، وذلك لأنَّه تعالى ذكرَ في الآية الأولى أنَّهم إن لم ينفروا باستنفار رسول اللّه لهم، ولم يشتغلوا بنُصرته؛ فإنَّ اللّهَ ينصرهُ بدليلِ أنَّ اللّهَ نصرَهُ، وقوَّاهُ حالَ ما لم يكن معهُ إلَّا رجلٌ واحدٌ(1)، ولمَّا وصف سبحانه نفسَه العليَّةَ بما هو أهلٌ له من شُمولِ القدرةِ، وعظيمِ البأسِ والقوَّةِ، أتبعَ ذلك بدليلٍ يتضمَّنُ أنَّ المستنفِرَ لهم، وهو نبيُّه ﷺ غيرُ محتاجٍ إليهم، ومتوقِّفٍ نصرُهُ عليهم، كما لم يَحْتَجْ إليهم - بِحياطةِ القادرِ له - فيما مضى من الهجرةِ التي ذكرها(2).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنصُرُوهُ﴾: نَصَرَ: النُّونُ والصَّادُ والرَّاء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائه، ونصْرُ اللّهِ المسلمين: آتاهم الظَّفَرَ على عدوِّهم ينصُرُهم نصْرًا، وانتصر: انتقمَ، وهو منهُ(3)، و"النَّصرُ والنُّصْرةُ: العونُ. ونُصرةُ اللّهِ للعبد ظاهرةٌ، ونُصرةُ العبدِ للّه هو نُصرته لعبادِهِ، والقيامُ بحفظِ حدودهِ، ورعايةِ عهودهِ، واعتناقِ أحكامه،

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/64.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 3/319، 318.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).

واجتنابِ نهيهِ. والتَّناصرُ: التَّعاونُ ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥﴾ [الصافات: 25]"[1]. والمعنى هنا: اللّه ناصرٌ نبيَّه على كلِّ حال.

2) ﴿أَخۡرَجَهُ﴾: خَرَجَ: "الخاءُ والرَّاءُ والجيمُ أصلانِ، وقد يمكنُ الجمْعُ بينهما، إلَّا أنَّا سلكْنا الطَّريقَ الواضحَ، فالأوَّلُ: النَّفاذُ عن الشَّيءِ، والثَّاني: اختلافُ لونين. والخروجُ: خروجُ السَّحابة"[2]، وخرجَ خروجًا: برزَ من مقرِّهِ أو حالهِ سواءٌ كان مقرُّهُ دارًا أو بلدًا أو ثوبًا، وسواءٌ كان حالُه حالةً في نفسِهِ، أو في أسبابِهِ الخارجةِ، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾. والإخراجُ: أكثرُ ما يكونُ في الأعيانِ نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾، ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾[3]، وهو المرادُ هنا.

3) ﴿ٱلۡغَارِ﴾: غَار: الغينُ والألفُ والرَّاء، والألفُ في هذا البابِ لا تكونُ إلَّا مبدلةً، ويُطلَقُ على معانٍ متعدِّدَةٍ، فالغارُ: نباتٌ طيِّبٌ، والغارُ لغةٌ في الغَيرة، والغارُ: الجيشُ العظيمُ، والغارُ: غارُ الفَمِ، والغارُ: أصلُ الرَّجل وقبيلتُه، والغارُ: الكهف"[4]، والأخير هو المعنى المرادُ هنا.

4) ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾: صَحِبَ: الصَّاحبُ الملازِمُ، ولا فرقَ بين أن تكونَ مصاحبتُهُ بالبدنِ، وهو الأصلُ والأكثر، أو بالعنايةِ والهمَّة، ولايقال في العُرف إلَّا لمن كَثُرت ملازمتُهُ، ويقالُ للمالِكِ للشَّيءِ هو صاحبُه، وكذلك لمن يملك التَّصرُّفَ فيه... والمصاحبةُ والاصطحابُ أبلغُ من الاجتماعِ؛ لأجلِ أنَّ المصاحبةَ تقتضي طولَ لُبْثِه، فكلُّ اصطحابٍ اجتماعٌ، وليس كلُّ اجتماعٍ اصطحابًا"[5]، والمرادُ هنا سيِّدُنا أبو بكر رضي الله عنه لكثرة ملازمتِهِ الرَّسولَ صلى الله عليه وسلم.

5) ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾: قال اللّه عز وجل: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ﴾ فعَّلتُ مِنَ الأَيْدِ، أي: القوَّةُ الشَّديدةُ، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يُكثِرُ تأييدَهُ[6]. وقد ورد التأييد في القرآن الكريم تسع مرات، وُصِل ثلاثَ مرات بروح القدس، وكانت بشأن سيدنا عيسى

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).
(3) الرّاغب، المفردات: (خرج).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة:، والرّاغب، المفردات: (غار).
(5) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(6) الرّاغب، المفردات: (أيد).

عليه السلام، وثلاثًا بنصر الله بشأن سيدنا محمد ﷺ وعلى جميع النبيين[1]. والمعنى هنا: قوَّاه الله ونصره.

6) ﴿كَلِمَةَ﴾: كَلَمَ: الكاف واللّامُ والميمُ أصلان: أحدُهما يدلُّ على نطقٍ مُفْهِم، والآخرُ على جراحٍ، ثم يتَّسِعون فيُسَمُّون اللَّفظةَ الواحدةَ المُفهِمَة: كلمةً، والقصَّةَ كلمةً، والقصيدةَ بطولها كلمةً، ويجمعونَ الكلمةَ كلماتٍ وكَلِمًا[2] وقد وردَ لفظُ (كلمة) عدَّةَ مرَّاتٍ في الذِّكرِ الحكيمِ، ومعنى ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: الشِّركُ، ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾: التَّوحيدُ.

7) ﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾: سَفَلَ: "السِّين والفاءُ واللَّام أصلٌ واحدٌ، وهو ما كان خلافَ العلوِّ، فالسُّفل سُفْلُ الدار وغيرها، والسُّفول: ضدُّ العلوِّ، والسَّفِلةُ: الدُّون من النَّاس، يقال: هو من سَفِلَة النَّاس، والسَّفال: نقيضُ العَلاء"[3] السُّفْلُ: ضدُّ العلوِّ، وسُفُلٌ، فهو سافلٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وأسفلُ ضدُّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ وسفُل: صارَ في سُفْلٍ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾[4]. والمعنى هنا: حقيرةً مَقهورةً.

8) ﴿ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾: عَلَوَ: العَينُ واللَّام والحرفُ المعتلُّ ياءً كان أو واوًا أو ألفًا أصلٌ واحدٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاع، لايشذُّ عنه شيءٌ، ومن ذلك العلاءُ والعلوُّ، قال الخليل: أصلُ هذا البناءِ العُلُوُّ، فأمَّا العَلاءُ؛ فالرِّفْعةُ، وأمَّا العُلوُّ؛ فالعظمةُ والتَّجبُّرُ، ويقال لكلِّ شيءٍ يعلو: علا يعلُو، فإن كان في الرِّفْعة والشَّرفِ، قيل: عَلِيَ يَعْلَى، ومن قهَر أمرًا؛ فقدِ اعتلاه، واستعلى عليه، وبهِ... والسَّموات العُلَى الواحدة عُلْيا[5]، العلوُّ: ضدُّ السُّفْل، والعُلْويُّ والسُّفليُّ: المنسوبُ إليهما، والعلُوُّ: الارتفاعُ، وقد علا يعلو علوًّا، وهو عالٍ[6]. والعليا: ضدُّ السُّفلى. والمعنى هنا: الغالبةُ المنصورةُ على الشِّركِ وأهلِه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).
(4) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(6) الرّاغب، المفردات: (علا).

تكفُّل اللهِ بنصرة رسولِه الأكرم، على أعداء دينه، وإظهاره عليهم

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

تخاطبُ الآيةُ الكريمةُ أصحابَ رسول اللّه ﷺ إن لم تنصروهُ، ولم تطيعوه للجهادِ في سبيل اللّه، فسينصرهُ اللّهُ بقدرته وتأييده، كما نصره وقتَ أن أجمع المشركون على الفتكِ به، أو إخراجهِ من بلده أو حبْسِه؛ نصرَهُ اللّه في ذلك الوقت، ولم يكن معه أنصارٌ ولاجيشٌ، بل حالُ كونهِ ثانيَ اثنين وواحدًا منهما هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، إذ هما في الغارِ المعروفِ في جبل ثورٍ؛ إذ يقولُ لصاحبه أبي بكرٍ رضي الله عنه حين فزِعَ لمّا رأى المشركِينَ، وقال يارسولَ اللّه: واللّهِ لو نظر أحدُهم تحتَ قدمِه لأبصرَنا، يقول له النَّبيُّ ﷺ: «**لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنا**»[1]، فأنزل اللّهُ الطمأنينةَ في قلب رسول اللّه ﷺ، أو على أبي بكرٍ حتى هدأَ روعُه، وقد أيَّد اللّهُ نبيَّه ﷺ بجنودٍ من عندِه - وهم الملائكة - لم يرها أحدٌ من البشر، وجعلَ اللّهُ كلمةَ الكافرين ودولَهُم سفلى حقيرةً مَقهورةً، وكلمةُ اللّهِ ودولتُهُ الغالبةُ المنصورةُ على الشِّرك وأهْلِه، واللّهُ عزيزٌ غالبٌ لايغلبُه أحدٌ، وحكيمٌ يضعُ الأمورَ في نصابِهَا[2].

وترشد الآيةُ الكريمةُ إلى مَنقبةٍ عظيمةٍ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإلى علوِّ منزلته، وقوةِ إيمانه، وشدةِ إخلاصه للّه تعالى ولرسوله ﷺ، وأظهر الصدِّيقُ رضي الله عنه خلالَ مصاحبته للرسول ﷺ الكثيرَ من ألوان الوفاء والإخلاصِ وصدقِ العقيدة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

النُّصرةُ الفارطة بلا نفيرٍ ولا رجالٍ، تؤكِّد النُّصرةَ لدين اللهِ ورسولِه في كلِّ الأحوال

دلالة الاستئناف البيانيّ:

هذا استئنافٌ بيانيٌّ لقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ﴾ لأنَّ نفيَ أن يكونَ قعودُ أصحابِ رسول اللّه ﷺ عن النَّفير مُضِرًّا باللّهِ ورسوله؛ يثيرُ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (3652)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2009).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203، وحجازيّ، التّفسير الواضح: 10/74، 73.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/290.

في النَّفس سؤالًا عن حصول النَّصر بدونِ نصير، فبيَّن بأنَّ اللّهَ ينصرهُ كما نصرَهُ حين كان ثانيَ اثنين لاجيشَ معهُ، فالَّذي نصرهُ حين كان هو وأبو بكر الصديق ﵁ في الغار وحدهما قديرٌ على نصرهِ، وهو في جيشٍ عظيم، فتبيَّن أنَّ قعودَهم عن النَّفيرِ لا يضرُّ اللّهَ شيئًا[1]، والظَّاهر أنَّ الآيَةَ الكريمةَ ممَّا قبلَها تشبهُ موقعَ تأكيدِ تهديدِ المتثاقِلين بطريقٍ آخرَ، وهو نصرتُه ﷺ مِن غيرِ حاجةٍ إلى رجال، والاستدلالُ بالماضي من حالهِ ﷺ حين الهجرةِ، ولم يكنْ معه سوى أبي بكرٍ، وقد أجلبَ المشركون بخيلِهم ورَجِلِهم، وجدُّوا في طلبه، ولم ينالوا شيئًا، والغرضُ من ذلك تأكيدُ حصولِ ذلك مستقبلًا، فليس النَّفيرُ للجهاد بعائدٍ خيرُهُ على دين اللّه ورسوله، وإنَّما عوائدُهُ على من استُنْفِرَ، فنفَرَ، ولبَّى.

بلاغةُ التَّعبيرِ بجملةِ الشَّرطِ:

تعليقُ حصولِ النَّصرِ على عدمِ نصرتِهم إيَّاه، جعْلٌ للعدمِ سببًا للوجودِ

افتُتِحَتِ الآيةُ الكريمة - كسابقتها - بأسلوبِ الشَّرط، في مقام التَّهديد والوعيد باصطفاء أسلوبٍ حجاجيٍّ بالغِ القوَّة، وهو الارتكازُ على الماضي من التَّاريخ في تأكيدِ تحقيقِ النُّصرة بلا حاجةٍ لنفير ولارجال، وقد جاءَ فعلُ الشَّرط مضارعًا منفيًّا بـ (لا)، واقترنَ جوابُه بـ (قد)، تأكيدًا لحصول النَّصرِ مِنَ اللّهِ عند عدم مناصرتهِ منهم، وهو ربْطٌ عجيبٌ للوجود بالعدم، فقد جُعل أسلوبُ الشَّرط عدمَ نصرِهم رسولَ اللّه ﷺ سبيلًا لنصرةِ اللّهِ له، فنصْرُه هو الأعلى، وعونهُ وتأييدُه لنبيِّه هو الأوفى.

فائدةُ حذفِ جوابِ الشَّرط:

تأكيدُ تحقيقِ النَّصرِ بحذفِ الجوابِ، لتوفيرِ العنايةِ على الدَّليل

الشَّرطُ في الآيةِ جوابُه محذوفٌ، واكتُفي بما يدلُّ عَليهِ وهو قوله: ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا تنصروهُ؛ فسينصرُهُ اللّهُ، أو التَّقدير: إلَّا تنصروهُ؛ فهو غنيٌّ عن نصرتِكم بنصرِ اللّه إيَّاهُ؛ إذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/201، 200.

قد نصرَهُ في حين لم يكن معَهُ إلَّا واحدٌ، فكما نصرَهُ يومئذٍ ينصرهُ حين لا تنصرونهُ، فالمذكورُ عِلَّةٌ للمحذوف؛ لأنَّ المذكورَ ماضٍ ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ﴾، ولا يصلح جوابًا للمستقبلِ ﴿تَنصُرُوهُ﴾[1]، ففي حذفِ الجواب، والاكتفاءِ بنصب الدَّليل عليه تأكيدٌ لتحقُّق النَّصرِ، كما تحقَّقَ من قبلُ، وشَدَّهٌ لعقولِ المثَّاقلين.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ فعلٌ مضارع، زمنه هو الزمن الحالي، ولكن الحقَّ يتبع المضارع بفعلٍ ماضٍ هو: ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، فهل يكون الشرط حاضرًا أم مستقبلًا، والجواب ماضيًا؟ المعنى: إلَّا تنصروه فسينصرُه اللّه؛ بدليل أنه قد نصره قبل ذلك. وهذا ليس جوابَ شرطٍ، وإنما دليلُ الجواب، فحين يكونُ دليلُ الجوابِ ماضيًا، فهو أدلُّ على الوثوق من حدوثِ الجواب، فحين دعاهم اللّهُ لينفِروا فتثاقلوا، أوضحَ لهم سبحانه: أتظنون أن جهادَكم هو الذي سينصرُ محمدًا وينصرُ دعوتَه؟ لا؛ لأنه سبحانه قادرٌ على نصره بدونكم، والدليلُ على ذلك أنَّ اللّه قد نصرَه من قبلُ في مواطنَ كثيرةٍ، وأهمُّ موطنٍ هو النصرُ له في الهجرة، وقد نصره برجلٍ واحدٍ هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه على قريشٍ وكلِّ كفار مكة، وكذلك نصره في بدرٍ بجنود لم تروها، فسابقةُ النَّصر من اللّه لرسوله سابقةٌ ماضيةٌ[2].

دلالةُ اقتران جوابِ الشَّرط بـ (قد)، وإسنادِ الفعل للاسمِ الجليل:

عدمُ النُّصرةِ من النَّـاس، سبيلٌ لنصرِ اللـهِ لهُ بيقين

الفاءُ للرَّبط، وقد دخلت (قَدۡ) على الفعلِ الماضي؛ تأكيدًا لتحقيق حصولِ ذلك سابقًا، ممَّا يؤكِّد حصولَه لاحقًا، وممَّا يستدعيه المقامُ، وإن كان تصديقُه راسخًا عند الكافَّة؛ لأنَّ النُّفوسَ تُقبلُ عليه كلَّما جاء ذكرُه؛ لأنَّه مذهلٌ من فرط ما فيه من خرقِ العادةِ، وما

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/519، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/45 والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/64، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/94، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/51، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/201.

(2) االشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 8/5124.

تَرتَّبَ عليه من عِظَمِ الأثرِ، وما تخلَّله من مفاجآتٍ تحبِسُ الأنفاسَ، فلا يزال المستمِعُ مصغيًا للملقي إليه خبرَها وتفاصيلَه أبدًا.

وقد أُسنِدَ الفعلُ إلى الاسم الجليلِ إدخالًا للمهابة والجلالِ على نفوس المتثاقِلين، وإعلانًا لتفرُّدِه سبحانه بالنُّصرة، وكلُّ ما في الدليل تعودُ فائدتُه على المدلول عليه المحذوفِ.

سرّ تتابع ظرفِ الزَّمان، ودلالتُهُ:

التَّذكيرُ بالأوقاتِ الثّلاثة، مؤكِّدٌ حصولَ النُّصرة مِنَ اللهِ بلا حاجةٍ للنَّاس

اصطفى النَّظمُ القرآنيُّ ظرفَ الزَّمان (إذ) ثلاثَ مرَّاتٍ ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ﴾، ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾، ﴿إِذۡ يَقُولُ﴾، يفيدُ الظَّرفُ هاهنا استرجاعَ زمنِ النُّصرة، والظرفُ الأوَّلُ يصفُ حالَه ﷺ وقتَ الخروجِ لا أحدَ معه سوى أبي بكرٍ، والظَّرفُ الثَّاني يُذكِّرُ بأصعبِ حالٍ حين كان سويًّا في غارٍ ضيِّقٍ لا مخرجَ له سوى من طريق الأعداءِ، ولامهربَ منه، والظَّرف الثَّالثُ تذكيرٌ بوقتِ قولِه لأبي بكرٍ حين استشعرَ رضي الله عنه الحزنَ، والملحوظُ أنَّ ترتيبَ هذه الظروفِ بدأتْ مِنَ الأوسعِ (وقتُ الخروجِ) إلى الأضيقِ (وقتُ البقاءِ في الغار) إلى الأضيقِ منه (وقتُ وصولِ الكفَّار ووقوفِهم على فمِ الغار) وكلُّ ذلك ممَّا يجلِّي فضلَ اللهِ في نصرةِ أوليائهِ، ودحْرِ أعدائهِ.

بلاغةُ القيدِ بظرفِ الزَّمانِ (إذ):

التَّذكيرُ بالأوقاتِ الثّلاثة العصيبة يجلِّي عظمةَ التَّأييدِ الإلهيِّ لأوليائهِ وقتَ الشَّدائدِ

الظَّرفُ متعلِّقٌ بالفعل ﴿نَصَرَهُ﴾، ومضافًا إلى الجملة ﴿أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ﴾، يعني: قد نصرَهُ اللهُ في الوقتِ الَّذي أخرجَهُ الذين كفروا من مكَّة، وهذا الظَّرفُ يسترجعُ زمنَ إخراجهِ ﷺ من مكَّة، والجملةُ فعليَّةٌ فعلُها ماضٍ؛ ليتضمَّن ما مضى من فعلِهم الشَّنيعِ من إخراجهِ مِن مكَّةَ، وأعظمُ الفتَنِ الإجبارُ على تَرْكِ الوطنِ، فقد جعلَهُ اللهُ عِدْلَ قتلِ النَّفسِ، ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ [النّساء: 66] وقد جاء المسندُ إليه اسمًا موصولًا لتنبنيَ عليه جملةُ الصِّلةِ الدَّالَّةِ على القسوةِ والغِلَظِ

وشراسةِ العداءِ في استحكامِ المفارقةِ والمنافاةِ بين الطَّرفَين بما لا يقبلُ المجامعةَ في بلدٍ، وقدَّم المفعولَ به، الضَّميرَ في ﴿أَخۡرَجَهُ﴾ على الفاعلِ لبيانِ أنَّ عنايتَهم انصبَّت عليه في التَّخلُّص منه بأيِّ سبيلٍ، ممَّا يَبِينُ عن عَداوتِهم، وكلُّ ذلك ممَّا يصوِّرُ عظمةَ عونِ اللّه له، ونصرتِهِ إيَّاه في مقابل تلك العداوةِ، "وأسندَ الإخراجَ إلى الكفَّارِ، كما أسندَهُ إليهم في قولِه: ﴿مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ [محمّد: 13]؛ لأنَّهم حين همُّوا بإخراجِهِ أَذِنَ اللّهُ له في الخروج - كرامةً لِنَبيِّه بصيانته عن المطاردةِ، وإظهارًا لما له عندَهُ من الحِفظ، وليكونَ أوَّلَ بادرَةِ إيناسٍ في هجرته، لإظهارِهِ إحباطَ كيدِهم لهُ، وإفشالَ سعيهم ضدَّهُ، بتولِّيه أَمرَه - فكأنَّهم أخرجوه"[1]، فهو إسنادٌ مجازيٌّ[2]، وفيه أيضًا بيانٌ لجريمتِهم، فمن كان سببًا في الفعل؛ تحمَّلَ وِزرَهُ.

لطيفةُ قيدِ المفعولِ به بالحالِ:

تأكيدُ نصره ﷺ فردًا بلا ظهيرٍ

قولُهُ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ نصْبٌ على الحال من الضَّميرِ في ﴿أَخۡرَجَهُ﴾، والثَّاني: كلُّ مَن كانَ بِهِ العددُ ثانيًا، وهو اسمُ فاعلٍ مضافٌ إلى الاثنين على معنى (مِنْ) أي: ثانيًا مِن اثنين، ولا ثالثَ لهما[3]، والمعنى: أخرجوهُ منفردًا من جميعِ النَّاس إلَّا مِن أبي بكرٍ، أي: نصرَهُ منفردًا، ونصرَهُ أحدُ اثنين[4]، وهذه الحالُ تصوِّرُ انفرادَهُ ﷺ مع قوَّةِ المُطارِدِ ممَّا يؤكِّدُ أنَّ نصرَ اللّهِ له كانَ مؤزَّرًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بظرفِ الزَّمانِ بدلًا:

اللّهُ ناصرٌ نبيَّه والصّديق، مهما كانت الشِّدَّةُ والضِّيق

قولُهُ: ﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾، والغار: نقْبٌ في أعلى جبلِ ثورٍ، والظَّرفُ بدلٌ من ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ﴾ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[5]، وقد أُضيفَ الظَّرفُ إلى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/520.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 13/373، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/202.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/211.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/520، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/66.

جملةٍ اسميَّةٍ دلالةً على الاستقرار والثُّبوت، وزمنُ الخروجِ مُتَّسِعٌ، وهذا الموقعُ الإعرابيُّ بديعٌ؛ إذ يصوِّر التَّدرُّجَ في المشقَّةِ، ويربطُ مسارَها بأوَّلِهَا، وجمعُ المشاقِّ - في سياقٍ واحدٍ - له أثرٌ بالغٌ في الكشْفِ عن قيمةِ النَّصر.

نكتة الجمعِ بينَ النَّبيِّ والصِّدِّيقِ في ضميرٍ واحدٍ:

منـزلـةُ أبـي بـكـرِ الـصِّـديـقِ وفضيلتُهُ على الـخـلـيـقـةِ، بـعـد الـنَّـبـيـيِّـنَ والمرسلين

أظهرَ جمعُ الضَّميرِ في قوله: ﴿هُمَا﴾ منزلةً سَنيَّةً، ورفعةً حظيَّةً لأبي بكرٍ الصِّدِّيق ﷺ وكونُ المتكلِّم بهذا هو اللّهُ تعالى له شأنٌ أعظمُ، ومقامٌ أفخمُ، وأكرمُ، ذلك أنَّ جمْعَ الضَّمير بين النَّبيِّ المتبوعِ المطاعِ الآمرِ، وبين أبي بكرٍ التَّابعِ الطَّائعِ المستجيبِ، لا يظهرُ منه تقدُّمُ الرَّسولِ على أبي بكرٍ، والواقعُ أنَّه مقدَّمٌ، فهذهِ تزكيةٌ مِنَ اللّه لأبي بَكرٍ، إذ لو عَلِمَ اللّهُ منه أنَّ ذلك سيرتفعُ بأبي بكرٍ في نفسِهِ ليرى نفسَهُ بمحاذاةِ رسولِ اللّهِ في الفضلِ ما أنزلَ ذلك، لكن لَمَّا كان لأبي بكرٍ من قوَّةِ اليقينِ وصحَّةِ الاعتقاد وحُسْنِ التَّوقير لرسولِ اللّه ﷺ وكان مأمونًا عليهِ الفتنةُ؛ أنزلَ اللّهُ هذا الثَّناءَ عليه.

ومأْخَذُ ذلك ومَلْحظه من حديثِ عديٍّ بنِ حاتمٍ ﷺ أنَّ رجلًا خطبَ عندَ النَّبيِّ - صلّى اللّه عليه وآله وسلَّم - فقال: "من يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ؛ فَقَدْ رَشَدَ، ومن يعصهما؛ فقد غَوَى"، فقالَ رسولُ اللّهِ ﷺ: «بِئْسَ الخطيبُ أنتَ، قل: ومن يعصِ اللّهَ ورسولَه»[1]. فهو إنَّما أنكرَ عليه لتشريكهِ في الضَّمير المقتضي للتسويةِ، وأمرَهُ بالعطفِ تعظيمًا للّه تعالى بتقديم اسمهِ، قالَهُ النَّوويُّ نقلًا عن القاضي عياضٍ وجماعةٍ[2].

وهذا لا يُعارَض بكلامِ الشَّارعِ في نحوِ حديث: «أن يكونَ اللّهُ

(1) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (870)، وأبو داود في سننه، برقم: (4981)، والنّسائيّ في سننه، برقم: (3279).

(2) النّوويّ، شرح صحيح مسلم: 6/159.

ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما»[1]؛ لأنَّ كلامَ الشَّارِعِ غيرُ كلامِ المكلَّفين، كما أقسمَ اللّهُ بمخلوقاتِه، وليس لأحدٍ أن يَحْلِفَ إلَّا باللّهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بظرفِ الزَّمان بدلًا ثانيًا:

التَّذكيرُ بأحْلَكِ المواقفِ، مع انتفاءِ المدافعِ، بيانٌ لعظيمِ نصرِ اللهِ نبيَّهُ

قولهُ: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بدلٌ ثانٍ، وهو بدلُ اشتمالٍ[2]، وقد أُضيفَ إلى الظَّرف جملةٌ فعليَّةٌ، وعبَّرَ بالفعل المضارعِ بدلَ الماضي، استحضارًا للحالةِ الماضيةِ؛ كشفًا لنعمةِ المَعُونةِ الإلهيَّةِ، وفيها تذكيرٌ بأشدِّ الحالات في طريقِ الهجرةِ، ووقوع الظَّرفِ بدلًا ثانيًا لربطِ أوَّلِ الشِّدَّةِ بأعقدِها حالةً وأشدِّها ضيقًا، والمسندُ إليه ضميرٌ مستترٌ لحضورِه في القلوب والأذهانِ، وعبَّر بقولِه: ﴿لِصَٰحِبِهِۦ﴾، والتَّعبيرُ عن أبي بكرٍ رضي الله عنه بهذا الوصفِ، ألمَعَ إلى بعضِ العلماءِ أن يقولَ: من أنكرَ صحبةَ أبي بكرٍ؛ فقد كفرَ، لإنكارِه كلامَ اللّهِ تعالى وليس ذلك لسائرِ الصَّحابةِ - رضوان اللّه عليهم[3]. والحقُّ أنَّ الكنايةَ عن أبي بكر بالصحبةِ بيانٌ لعظيم مكانه، وعلوِّ قَدْرِه عندَ ربِّه، "فإن قيلَ: إنَّ اللّهَ تعالى وصفَ الكافرَ بكونِه صاحبًا للمؤمن في قولِه: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ﴾ [الكهف: 37]، فالجوابُ: أنَّ هناك وإنْ وصفَه بكونِه صاحبًا إلَّا أنَّه أردَفَهُ بما يدلُّ على الإهانةِ والإذلالِ، وهو قوله: ﴿أَكَفَرۡتَ﴾؟ أمَّا ههنا؛ فبعد أن وصفَهُ بكونِه صاحبًا ذكرَ بعدَهُ ما يدلُّ على الإجلالِ والتَّعظيم، وهو قولهُ: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، فأيُّ مناسبةٍ بينَ البابَين؟"[4].

غرضُ التَّعبيرِ بمقولِ القولِ، بجملةٍ إنشائيَّةٍ:

البِشارَةُ بذهابِ المؤثِّرِ، عن طريقِ الانتهاءِ عن الأثرِ

في قوله: ﴿لَا تَحۡزَنۡ﴾، عبَّرَ بمقولِ القولِ بجملةٍ إنشائيةٍ في صورةِ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (16)، ومسلم في صحيحه، برقم: (43).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 5/520 وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/51، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/95.

النَّهي بـ (لا)، وقد توجَّهَ النَّهيُ لِلْفِعْلِ الَّذي لا يمكنُ الانتهاءُ عنه؛ لأنَّ الحُزْنَ أمرٌ وجدانيٌّ لا شعوريٌّ يحدُثُ جبْرًا بسببٍ خارجيٍّ لا اختيارًا، وما لا يقعُ اختيارًا لا يمكنُ الانتهاءُ عنهُ، فيكون المرادُ: لا تجعلْ لِلحزنِ إليك سبيلًا؛ لأنَّ اللّهَ سيُزيلُ أسبابَهُ، فيكونُ نهيًا بطريقِ الأبلغِ، فهو نهيٌ عنِ الأثرِ يُنبَّه بِهِ على ذَهابِ المُؤَثِّر.

نكتةُ تعليلِ النَّهي، بكونهما بمعيّة الله تعالى:

التَّعجيلُ بإزالةِ آثارِ الحُزْنِ، بعدَ الإخبارِ بمعيَّةِ اللهِ لهما

نلحظ أنّه أعقبَ النَّهيَ بجملةٍ تعليليَّةٍ مؤكَّدةٍ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾؛ بيانًا لسببِ النَّهي عمَّا لا ينتهي عنه عادةً، وفي ذلك بشارةٌ كُبرى بتأييد اللّهِ ونصرِهِ، وقد بُنِيَ التَّعليلُ بأسلوبٍ بليغٍ؛ إذ أُكِّدَ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ تنزيلًا لأبي بكرٍ رضي الله عنه منزلةَ المتردِّدِ ممَّا يحثُّه سريعًا إلى إزالةِ آثارِ الحُزنِ، ولإنهاءِ البِشارة بأوكدِ الأساليبِ لطرافة البِشارة وغرابتِها، وفضلِ ما فيها على ما ماثلَها مِنَ البِشاراتِ، وإحلالِ السَّكينةِ والطُّمأنينةِ محلَّ الحُزنِ، ولتعليلِ النَّهي أثرٌ بالغٌ في إزالة المنهيِّ عنهُ، فكلَّما كان التَّكليفُ مُعلَّلًا؛ كان أقنعَ للمُخاطَبِ، "والمعيَّةُ هنا: معيَّةُ الإعانةِ والعنايةِ، كما حكى اللّهُ تعالى عن موسى وهارونَ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: 46]، وقوله: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ [الأنفال: 12]"(1).

علوُّ معيَّةِ اللهِ للنَّبيِّ وأبي بكرٍ، عَلَى معيَّتِهِ لموسى عليه السلام:

انفرادُ موسى بالمعيَّةِ دونَ أمَّتهِ، وإشراكُ النَّبيِّ أمَّتَهُ معَهُ فيها، دليل الخصوصيّة

جاءَ في التَّنزيل العزيزِ الخبرانِ: الخبرُ عن معيَّةِ اللّهِ لموسى عليه السلام والخبرُ عن معيَّةِ اللّه لمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم أمَّا معيَّةُ اللّهِ لموسى؛ فقد كانت حينَ أسرى موسى بقومِهِ ليلًا، فأتبعهم فرعونُ بجنوده مُشرِّقًا: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾ [الشُّعراء: 61، 62]

على حين أنَّ معيَّةَ اللّهِ لسيِّدنا محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم حين كانَ - وأبو بكر معَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.

- في الغارِ، وجاء المشركونَ، فصعِدوا الجبلَ، وارتقوا فوقَ الغارِ، وكانت فتحةُ بابِ الغارِ تحتَ أقدامِهم، فقال أبو بكرٍ ﵁: "يا رسولَ اللّه، واللّه لو نظر أحدُهم تحتَ قدمَيهِ لأبصرَنا". فقال لهُ النَّبيُّ ﷺ: «يا أبا بكرٍ ما ظنُّكَ باثنينِ، اللّهُ ثالثُهما؟ يا أبا بكرٍ، لا تحزنْ إنَّ اللّهَ معنا»، وقد روى القرآنُ لنا هذا الحديثَ الشَّريفَ في معرضِ الإدلالِ به والإنعامِ والإكرامِ، يخبرُ اللّهُ به عَنْ مقولِ نبيِّه تخليدًا وتمجيدًا، وتأكيدًا وتأييدًا، فما الفارقُ بين المَعيَّتَينِ منَ العبارَتَينِ؟

إنَّ الفارقَ بينَ المعيَّتَينِ غيرُ منحصرٍ، فلنجتزِئْ منه بعضَ المعالمِ، فمِن ذلك:

أنَّ موسى قدَّم ذكرَ نفسِه، فقال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، ومحمَّدٌ ﷺ قدَّم ذِكْرَ رَبِّهِ فَقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، وأنَّ موسى ﵇ أفردَ نفسَهُ بالمعيَّة، فقال: ﴿مَعِيَ﴾ ومحمَّدٌ ﷺ جمعَ صاحبَه وأمَّتَهُ، فقال: ﴿مَعَنَاۖ﴾، وأنَّ موسى ﵇ ذكرَ اللّهَ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ الدَّالِّ على الرِّعايةِ والنَّجاةِ من ملاحقةِ فِرعونَ ومَن مَعهُ من الجندِ، ومحمَّدٌ ﷺ ذكرَ اللّهَ باسمه الأجلِّ الَّذي يستدعي جميعَ الأسماءِ الحُسنى والصِّفاتِ العُلا صفاتٍ لهُ، وأنَّ موسى ﵇ خصَّ المعيَّةَ بالهدايةِ، وسيِّدُنا محمَّدٌ - صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم - جعلَها مطلقةً غيرَ مقيَّدةٍ بوصفٍ، وأنَّ موسى ﵇ محّضَ المعيَّةَ للاستقبالِ بالمضارعِ والسِّين، أمَّا سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ فقد جعلَها عامَّةً كلَّ وقتٍ في الحالِ والاستقبالِ، وأنَّ موسى ﵇ جعلَ المعيَّةَ متجدِّدةً بالفعل ﴿سَيَهۡدِينِ﴾، ومحمَّدٌ ﷺ جعلَها اسميَّةَ الجملةِ، فهي ثابتةٌ لا تنقضُّ، ولا تنقضي.

فما أسعدَ هذهِ الأمَّةَ الآخرةَ بنبيِّها صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم!

نزولُ السَّكينةِ طوى زمنَ الشَّدائدِ، وعجَّلَ بإزالةِ المخاوفِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

طوتِ الفاءُ الأحداثَ طيًّا، وابتلعتِ المخاوفَ والقلقَ، والشَّدائدَ والضِّيقَ، وكأنَّها لم يكن لها وجودٌ أصلًا، وللفاءِ أثرٌ بالغٌ في بيانِ

هذه المعاني، وهو مؤذِنٌ بأنَّ السَّكينةَ أُنزلت عَقِبَ الحلولِ في الغارِ وأُنزلت مترتِّبةً على قول النَّبيِّ لصاحبه الصِّدِّيق: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾، "وتلك السَّكينةُ هي مظهرٌ من مظاهرِ نصرِ اللهِ إيَّاهُ، فيكونُ تقديرُ الكلام: فقد نصره الله فأنزل السكينةَ عليه وأيَّده بجنود حينَ أخرجه الذين كفروا، وحينَ كان في الغار، وحينَ قال لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾"[1].

وجهُ البلاغةِ في تعلُّقِ الظُّروفِ الثَّلاثةِ بـ ﴿نَصَرَهُ﴾:

ذِكْرُ الأوقاتِ الحوالكِ تعظيمٌ لمنَّةِ الله على نبيِّه ﷺ

يمكنُ أن تكونَ الظُّروفُ الثَّلاثةُ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ﴾، ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾؛ متعلِّقةً بفعلِ ﴿نَصَرَهُ﴾ على التَّرتيب المتقدِّم، "وهي كالاعتراض بين المفرَّعِ عنه والتَّفريع، وجاء نظمُ الكلامِ على هذا السَّبكِ البديعِ للمبادَأَةِ بالدِّلالةِ على أنَّ النَّصرَ حصلَ في أزمانٍ وأحوالٍ ما كان النَّصرُ يحصلُ في أمثالِها لغيرهِ لولا عنايةُ اللّهِ به، وأنَّ نصرَهُ كان معجزةً خارقًا للعادةِ"[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي مسندًا إلى الاسمِ الجليلِ:

التَّعجيلُ بالبشارةِ يُزيلُ كلَّ المتاعبِ

في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾، نلحظ أنّ الله عبَّرَ بالماضي، والمقامِ للمضارعِ، تناسبًا مع ما سبق ﴿يَقُولُ﴾، ﴿لَا تَحْزَنْ﴾؛ لتحقيقِ الوقوعِ عقيبَ القولِ، وعبَّر بـ ﴿فَأَنزَلَ﴾ لبيانِ علوِّ قدْرِ السَّكينةِ، وتفرُّدِ الحقِّ بتحقيقِ ذلك؛ لأنَّ النَّصرَ من عندِ اللّه وحدَهُ، وأسندَ الفعلَ إلى الاسمِ الجليل لبيان قدْرِ المُنَزَّلِ من السَّكينة، فهو ممَّن تفرَّد بالألوهيَّةِ فهي سكينةٌ متفرِّدةٌ عظيمةُ الأثرِ بالغةُ القدْرِ، وقدِ ازدادَ القدْرُ قدْرًا بإضافة السَّكينةِ إلى الضَّميرِ العائدِ للاسم الجليل، ففي الإضافةِ تشريفٌ ومضاءُ أمرٍ وتعظيمُ أثرٍ وإشعارٌ بالحمايةِ والوقايةِ والحفظِ والتَّأييدِ والإغناءِ والكفايةِ وسَعةِ الفضل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/204.

تنوُّعُ مرجعِ الضَّميرِ ﴿عَلَيۡهِ﴾ ودلالتُهُ:

طولُ الصُّحبةِ، والملازمَةِ توحّدُ النُّفوسَ

"الضَّميرُ عائِدٌ على صاحبِه، أو على الرَّسولِ ﷺ قاله الجمهورُ، أو عليهما، وأفردَهُ لتلازمِهما"[1]، وقد رجَّح بعضُ المفسّرين أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا على أبي بكرٍ؛ لأنَّه أقربُ مذكورٍ، ولئلَّا يلزمَ خوفُ الرسولِ ﷺ وهو ممَّا لا يليقُ به[2]، ولا يمنعُ هذا من أن يعودَ الضَّميرُ إلى رسولِ اللّهِ ﷺ لأنَّ ذِكْرَ أبي بكرٍ رضي الله عنه جاء عَرَضًا، وذِكْرُهُ ﷺ هو الأصلُ، وذلك بمراعاةِ تعلُّقِ الظَّرف ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ بالفعل الأوَّلِ ﴿نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾"[3].

دلالةُ عطفِ الجملةِ بالواو:

تعدُّدُ مواقفِ نصرِ الله لنبيِّه الأكرم، يُجيزُ كلَّ وجوهِ العَطْفِ

قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾، نجد أنّه اختُلِفَ فيما عُطِفت عليه هذه الجملةُ، "فيجوز أن تكونَ الجملةُ معطوفةً على جملة ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ عطفَ تفسيرٍ، ويكونَ المرادُ بالجنودِ الملائكةَ الذين ألقوا الحَيْرَةَ في نفوس المشركين، فصرفوهم عنِ استقصاءِ البحثِ عنِ النَّبي ﷺ وإكثارِ الطَّلبِ وراءَهُ والترصُّدِ له في الطُّرق المؤدِّيةِ والسُّبل الموصلةِ. ويجوز أن تكونَ معطوفةً على جملة ﴿أَخۡرَجَهُ﴾ والتقديرُ: وإذ أيَّدهُ بجنودٍ لم تروها، أي: بالملائكةِ يومَ بدرٍ، ويومَ الأحزابِ، ويومَ حُنينٍ"[4]، وجُلُّ المفسِّرين على أنَّ الجملةَ معطوفةٌ على ما قبلَها، غيرَ أنَّهم ذكروا أنَّ الضَّميرَ في ﴿وَأَيَّدَهُۥ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ ﷺ كما ذكروا أنَّ المرادَ بالجنودِ الملائكةُ الَّذين كانوا يومَ بدرٍ، وينصرُ رأيَهم ما جاء في سورتَي آل عمران والأنفال مِنَ التَّأييد بالملائكة يومَ بدرٍ، وبأنَّه سمَّاهُ يومَ الفرقانِ، بهِ فرَّق اللّهُ بين الحقِّ والباطلِ، وجعل كلمتَهُ هي العليا، وكلمةَ الَّذين كفروا هي

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/45.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/204.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/205، 204.

السُّفلى[1]، وكلُّ هذه الوجوهِ لاتتعارَضُ لكونِهَا مجتمعةً في مواقفَ أيَّد اللّهُ فيها نبيَّهُ ﷺ ونصرَهُ، وفي سياقاتِ الذِّكر الحكيمِ ما يؤيِّدُ كلَّ ذلك، وهذا من بلاغة توجيهِ العطف.

سرُّ التنكير والوصف بالجملة:

جنودُ اللهِ لا حصرَ لهم، ولا يمكنُ رؤيتُهم، ولا الإحاطة بهم

قوله: ﴿بِجُنُودٍ﴾، الغرضُ مِنَ التَّنكيرِ التَّكثيرُ والتَّعظيمُ، وقد وصفَهم النَّظمُ الكريمُ بجملة فعليَّةٍ ﴿لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾، وقد دلَّت هذه الجملةُ على أنَّ من خصائصِ هذه الجنودِ أنَّها غيرُ ممكنةِ الرُّؤيةِ للبَشرِ، ممَّا يجعلُها أكثرَ تأييدًا، وأقوى نُصرةً، وهذه الجملةُ حملت المفسِّرين على تفسيرِ الجنودِ بالملائكة. ويؤيِّدُ هذا المعنى ما ورد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله عن يوم بدر: «بيْنَما رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمينَ يَومَئذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكينَ أَمامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الفارِسِ يقولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ، فَنَظَرَ إلى المُشْرِك أَمامَهُ، فَخَرَّ مُسْتَلْقيًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ فإذا هو قدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فاخْضَرَّ ذلكَ أَجْمَعُ، فَجاءَ الأنْصارِيُّ، فَحَدَّثَ بذلكَ رَسولَ اللهِ ﷺ، فَقالَ: صَدَقْتَ؛ ذلكَ مِن مَدَدِ السَّماءِ الثّالِثَةِ، فَقَتَلُوا يَومَئذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ»[2].

وفائدةُ قولِه: ﴿لَّمۡ تَرَوۡهَا﴾ يردُّهم إلى تصديق المخبِر، فلم يبقَ لهم إلّا الانقيادُ له في جميع ما أمرَ، ومنه النَّفْرُ خِفافًا وثِقالًا، كما سيأتي عقيب هذه.

براعةُ التَّعبيرِ بعطف النّتيجة، وبالفعل الماضي:

الوقائعُ تقلبُ أفكارَ النَّاسِ، لِتعلُّقِ الأقدارِ بربِّ البشرِ

قوله: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾، هذا العطفُ يشبهُ أن يكونَ عطفَ نتيجةٍ، والتَّعبيرُ بالفعل (جعل) ماضيًا يفيدُ حتميَّةَ

(1) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/206، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/521، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/36، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68 وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97، 96، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/321.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (1763).

سُفول كلمةِ الكافرين، حتَّى وإن بدا للنَّاس كثرةُ عَددِهم، وعُددِهم ممَّا يؤدِّي وجودُه في فِكرِ البَشَرِ إلى الغَلبَة، لذا عبَّر بالفعلِ ﴿وَجَعَلَ﴾ تعبيرًا عن تحويل مُعتقدِهم المُتَّكئ على كثرةِ العَدد والعُددِ؛ "لأنَّ أمْرَ المشركين كانوا مَظِنَّة القوَّةِ والشِّدَّة"(1).

دلالةُ وقوعِ ﴿كَلِمَةَ﴾ مفعولًا بِهِ أوَّلَ، مضافًا إلى الاسم الموصولِ:

سُفُولُ الكلمةِ دليلٌ على سُفُولِ أصحابِها

وقعَ لفظُ كلمةٍ التي للكفار (والمراد به هنا كلمةُ الشِّركِ) مفعولًا به أوَّلَ؛ للدِّلالة على تمامِ الهزيمةِ وتدنِّي السُّفول الذي تخطَّى المؤمنين بها، إلى قولهم الذين يؤمنونَ بهِ، ويحارِبونَ دونَهُ، وهذا أبلغُ ممَّا لو قيل: (وجعل الذين كفروا سافلين)، فالتعبيرُ الذي في سياق الآية الكريمة أبلغُ، فلم يبقَ لكلمتِهم شأنٌ، فكيف بأصحابِها؟ فقد كنَّى عن سُفول الكافرين بسُفول كلمتِهم، وقد زاد من تحقيرِ الكلمة إضافتُها للاسم الموصولِ الذي اقتضى بناءَ جملةٍ صلةٍ تؤكِّد استحقاقَهم الهزيمةَ والسُّفول، وفيه المناداةُ على ذِلَّتهم وهوان شأنِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمفعول به الثّاني، معرَّفًا باللّام:

السُّفولُ كلُّه مآلُ كلمةِ الكافرين، لأنّ الكفر هوانٌ وضعةٌ

﴿ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾، أي: الحقيرةُ المقهورةُ الساقطةُ؛ لأنَّ السُّفلَ يُكنَّى به عن الحقارة، وقد عبَّر بها معرَّفةً باللام، فلم يقل: وجعل كلمة الذين كفروا سُفلى، وإنَّما جعل السُّفولَ كلَّه لها، وصرفَهُ إليها تناسُبًا مع حقارةِ مَن أُضيفت إليهم الكلمةُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فأذل اللّٰه الشرك وأهله، وخذلهم ودحرهم.

معنى الواوِ الاستئنافية:

الاستئنافُ آيةٌ على استقلالِ المعنى

في قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾، الواوُ استئنافيَّةٌ، وليست عاطفةً، ويؤيِّده أنَّ الجملةَ اسميَّةٌ، وما قبلها جملةٌ فعليَّةٌ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ كلمةَ اللّٰهِ هذا شأنُها أبدَ الآبدين، ويؤيِّد ذلك قراءةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/205.

العشَرةِ ما عدا يعقوبَ بالرَّفعِ[1] وقولُهم: إنَّه الأوجَهُ، أي: الأليقُ بالمعنى لما فيهِ مِنَ الإطلاقِ، وهذا الاستئنافُ " بمنزلة التَّذييلِ للكلامِ؛ لأنَّه لمّا أخبرَ عن كلمة الذين كفروا بأنَّها صارت سُفلى؛ أفادَ أنَّ العَلاء انحصرَ في دينِ اللهِ وشأنِه"[2]، وعلى قراءة يعقوبَ بنصب تاء التَّأنيثِ هو تذكيرٌ للمؤمنين بالنَّصر، وتعييرٌ ومُراغمةٌ للكافرين بالهزيمة في واقعةِ الهجرة.

دلالةُ إضافةِ الكلمةِ للاسمِ الجَليل، ووضعِ المُظهَرِ موضعَ المُضْمَر:

أشرفُ كلمةٍ هي الّتي أُضيفَتْ لله، فاكتسبت الوقار والعظمة

أُضيفَتْ ﴿وَكَلِمَةُ﴾، ومعناها هنا: كلمةُ التَّوحيدِ، ودينُه الذي شرعه لعباده إلى الاسم الجليل في مقابلِ إضافةِ نظيرتِها للذين كفروا، إيذانًا بالمبايَنَةِ التَّامَّةِ بين الكلمتين، وتشريفًا بالإضافة، وزيادةَ تشريفٍ بـ "وضْعِ المظهَرِ موضِعَ المُضْمَرِ؛ إذ الوجهُ أن يقولَ: وكلمتُه"[3]، فقد أدخلَ إظهارَ الاسمِ العظيم المهابةِ والجلالِ على الكلمة.

سرُّ التَّعبيرِ بأسلوب القصرِ؛ بتعريفِ الطَّرفين:

العلوُّ مخصوصٌ بكلمةِ (التّوحيد) دونَ غيرِها

قوله: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾، الضَّميرُ ﴿هِيَ﴾ من الآية الكريمة، ضميرُ فصلٍ أو مبتدأ، "وفيها تأكيدُ فضْلِ كلمة الله في العلوّ، وأنَّها المختصَّةُ به دونَ سائرِ الكلم"[4]، فقولهُ: ﴿هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريقِ تعريف الطَّرفين، فقد قصرَ العلوَّ على كلمةِ اللّهِ وحدَها دونَ غيرِها، ومن اتَّبع العلوَّ؛ علا، وأتباعُ كلمةِ التَّوحيد في علوٍّ ما قامُوا بحقِّها، والتَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة يفيدُ الثُّبوتَ والدَّوام والاستعلاء على الزَّمنِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ:

الصُّورةُ لا تظهر إلّا ببيانِ ضدِّها

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/521، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/279، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/205.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/97.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/522.

﴿ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾، بين (السُّفلى والعليا) طباق، والطِّباقُ هنا - في الجمع بين الشّيء وضدِّه في الكلام - يصوِّرُ التَّصادُمَ بينَ أتباعِ كلمةِ الشِّرك وأتباعِ كلمةِ التَّوحيدِ، وقد بدأ ببيان شأنِ الأدنى، وثنَّى ببيانِ شأنِ الأعلى إلماعًا إلى عموم النُّصرة، وعلوِّ كلمةِ التَّوحيد وأهله.

وقد جعل الطِّباقُ أهلَ كلمةِ التوحيد، وأهلَ كلمةِ الشِّرك في صورةٍ واحدةٍ جامعةٍ للمتباينَيْن؛ فأذلَّ اللّه الشرك وأهله، وخذلَهم ودحرَهم، وأعلى كلمةَ التّوحيدِ: لا إله إلا اللّه، ودينَه الذي شرعه لعباده، وجعلها هي الغالبةَ المنصورةَ على الشّرك وأهله.

براعة التّذييل، وسرُّ الختْمِ بالعزة والحكم:

العــزَّةُ غلبةٌ، والحكمةُ تحقيقُ مرادٍ، لمن بيده نواصي العباد

خُتِمَت الآيةُ بهذه الجملة: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وقد جاءت اسميَّةً مستعليةً على الزَّمن، خاليةً من أيِّ توكيدٍ شأنَ سَوقِ الحقائق المقرَّرةِ، والبيِّناتِ الواضحة، فهو "المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا، الغالبُ لكلِّ شيءٍ، لايُنْقَضُ شيءٌ من مرادِه، لما يُنصَبُ منَ الأسباب التي لا مطمحَ لأحدٍ في مقاومتها، فلا محيصَ من نفوذِها"[1]، وهي "تذييلٌ لمضمون الجملتين ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ﴾...﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ العزيزَ لا يغلبُه شيءٌ، والحكيمُ لايفوتُه مقصَدٌ، فلا جرمَ تكون كلمتُه العليا، وكلمةُ ضدِّه السُّفلى"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أيَّد، ونصر، وآزَر، وأعانَ:

النَّصر نتيجةٌ، والمـــؤازرة، والمـعــاونـة والتَّأييد سبيلٌ للنَّصر

هذه الكلماتُ متقاربةُ المعاني، وكلُّها وردت في الذِّكر الحكيم، ولكلٍّ منها خصوصيَّةٌ، نبيِّنها فيما يلي:

أيَّدَ: فعَّل مِنَ الأيْدِ، أي: القوَّةِ الشَّديدةِ، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: يُكثِرُ تأييدَه[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/321.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/206.
(3) الرّاغب، المفردات: (أيد).

ونصرَ: النَّصْرُ والنُّصرةُ: العونُ، ونصرةُ اللّهِ للعبد ظاهرةٌ[1]، النُّون والصَّاد والراءُ: أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إتيان خيرٍ وإيتائه، ونصرُ اللّهِ المسلمين: آتاهم الظَّفرُ على عدوِّهم[2].

آزرَ: آزرَه: أعانَه، وقوَّاه، وأصلُهُ مِن شَدِّ الإزارِ، وآزرْتُهُ: قوَّيتُ أسافلَه، وآزرْتُه ووازرْتُهُ صرْتُ وزيرَهُ[3].

وأعانَ: عَوَنَ: العونُ المعاونةُ والمظاهرةُ، يقال: فلانٌ عوني، أي: مُعيني، والتَّعاونُ: التَّظاهرُ[4]. ويتَّضِحُ من بيان هذه المعاني أنَّ النَّصرَ نتيجةٌ، وأنَّ المؤازرةَ، والمعاونة والتَّأييدَ سبيلٌ للنَّصر، وأنَّ التَّأييدَ أقوى معاني أسبابِ النَّصرِ، كما يتبيَّن مِنَ المعنى اللُّغوي، ويتبيَّن من ذلك أنَّ الآيةَ الكريمة بدأت بالنَّتيجةِ معبِّرةً عنها بالفعل الماضي إلماعًا إلى تحقُّقِها ﴿فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾، ثمَّ ذكرَ أسبابَها في قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ﴾.

السُّفلى والدُّنيا:

السُّفلى من السُّفل: ضدُّ العلوِّ، والدُّنيا: من الدّنوّ، وهو القربُ بالذَّاتِ أو بالحكمِ

السُّفلى: يقال: سَفُل فهو سافلٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وأسفلُ ضدُّ أعلى، قال تعالى: ﴿وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾، وسَفَلَ: صارَ في سُفْلٍ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ﴾[5].

الدُّنيا: دنا: الدنوُّ القربُ بالذَّاتِ أو بالحكمِ، ويستعملُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، ويُعبَّر بالأدنى عن الأصغرِ والأرذلِ، وعن الأقربِ، فيُقابَلُ بالأقصى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ﴾ [الأنفال: 42][6].

(1) الرّاغب، المفردات: (نصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(3) الرّاغب، المفردات: (أزر).
(4) الرّاغب، المفردات: (عون).
(5) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(6) الرّاغب، المفردات: (دنا).

وواضِحٌ مِنَ المعنيَينِ أنَّ السُّفلى ملازمةٌ لمعنى الحقارةِ، وهذا بيِّنٌ مِن سياقاتِ الاستعمالِ القرآنيِّ، لكنَّ الدُّنيا أوسعُ استعمالًا، فاصطفى النَّظمُ الكريمُ تسميةَ الأحقرِ في مقابلةِ الأوفى علوًّا.

العليا والقصوى:

لفظ العليا لفظ يدلُّ على سموِّ المكانة، ولفظ القُصوى على بُعد المكان

العليا: عَلَوَ: العينُ واللامُ والحرفُ المعتلُّ ياءً كان أو واوًا أو ألفًا أصلٌ واحدٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاع لايشذُّ عنه شيءٌ، ومن ذلك العلاءُ والعلوُّ، قال الخليل: أصلُ هذا البناءِ العُلُوُّ، فأمَّا العَلاءُ فالرِّفْعةُ، وأمَّا العُلوُّ؛ فالعظمَةُ والتَّجبُّرُ(1).

والقُصوى: القَصَا: البُعدُ، والقصِيُّ: البعيدُ، وأقصيتُ: أبعدْتُ، والمكانُ الأقصى والناحيةُ القصوى من هذا المعنى(2).

وواضحٌ أنَّ الصِّيغةَ هذه خاصَّةٌ بالمكانِ والمسافةِ، أمَّا الأُولى؛ فخاصَّةٌ بالمكانةِ والقيمةِ، فاصطفى النَّظمُ ما هو ألصقُ بالسِّياق وأبرُّ بالمقامِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(2) الرّاغب، المفردات: (قصا).

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [التّوبة: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين العتاب على التّثاقل، والاستنهاض للنّفرة بالأموال والأنفس في سبيل الله

الآيةُ الكريمة ناظرةٌ نازلةٌ إِثْرَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ مُعقِّبَةٌ عليها، فإنَّ ماجاء بعدَها من الآيات مُنبنٍ عليها ذِكْرًا، مُفرَّعٌ لها مَعْنًى، حيث بدأ المعنى في الآية الأولى بالتَّوبيخ على التَّثاقُلِ عنِ الخروجِ، ثمَّ أتبعه في الآية الثَّانية ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ﴾ بالوعيد والتَّهديد، ثم انتقل هنا إلى الأمر الصَّريح بضِدِّ ما تَوَعَّدَ عليه، و"لمّا توَعَّد اللّه تعالى مَنْ لا ينفِر مع الرَّسول ﷺ لِتَبوكَ، وضرب له من الأمثال ما فيه أعظَمُ مُزْدَجَر؛ أتبعه بهذا الأمر الجَزِم، فقال سُبحانه: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾"[1]، ذلك أنَّهُ "لمَّا بلغت هذه المواعظ من القلوب الواعية مَبْلَغًا؛ هيَّأها به للقبول؛ أقبل عليها سبحانه بالأمر"[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿خِفَافٗا﴾: مِنْ "خفَّ، ويُطْلَقُ الخفيف بإزاء الثَّقيل، ويُقال ذلك باعتباراتٍ، مِنْها: المُضايفَة بالوزن وقياس شيئين أحدهما بالآخر، نحو قولِهم: درهمٌ خفيفٌ، ودرهمٌ ثقيل، وقولهُ تعالى: ﴿خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، وقوله سُبحانه: ﴿ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾. ومِنْها: المُضايفَة بالزَّمان، كقولهم: فرسٌ خفيفٌ، وفرسٌ ثقيلٌ إذا عُدَّ أحدهما أَكْثَرَ عَدْوًا، وأسرعَ بلوغًا من الآخر في زمان واحدٍ، ويُقال:

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/420.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/321.

خفيفٌ فيما يستخفُّه النَّاسُ، وثقيلٌ فيما يستَرْذِلُه النَّاسُ، فيكون الخفيف مدْحًا، والثَّقيل قَدْحًا، ويُقال: خفيفٌ فيمن يطيشُ، وثقيلٌ فيما فيه وَقارٌ أو رزانَةٌ أو رجحان"[1]، وقَد تعني ﴿خِفَافًا﴾: رُكبانًا؛ لأنَّ ما يركبونه يُخفِّف عنهم[2]، و﴿خِفَافًا﴾ أيضًا، أي: شُبَّانًا، و﴿خِفَافًا﴾، أي: من المال[3]، والمراد من ﴿خِفَافًا﴾ في الآية، أي: واجدين ما تُحملونَ عليه، وأنتُم غيرُ أولي ضررٍ مُعيقٍ أو جهدٍ مُنْهِك حائلٍ، ﴿وَثِقَالًا﴾ عكسُهُ في وجدانِ ما يُحمَلُون عليه، إذا وجدوا ما يعْتِقبونَه من دوابَّ ورواحِلَ، انفروا أصحَّاء؛ نُشَّاطًا وكسالى، فصار المراد بـ ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا على كلِّ حالٍ، قادرين أو غير قادرين دون عجزٍ بدنيٍّ أو اعتلالِ جِسْمٍ، راغبين أو راغمين.

2) ﴿ثِقَالًا﴾: الثَّاء والقاف واللَّام أصل واحدٌ يتفرَّع منه كلماتٌ متقاربة، وهو ضدُّ الخفَّة، ولذلك سمِّي الجنُّ والإنس الثَّقَلين، لكثرة العَدَد، ولخفاء الجنِّ، فإنَّ ﴿ثَقُلَتْ﴾ [الأعراف: 187] معناها: خَفِيَتْ، بلغة قريش[4]، وأثقالُ الأرض: كنوزها، وأصله: دفائِنُها، فالكنوزُ بعض الدَّفائن، إذْ أثقالُ الأرضِ: كنوزها وأمواتها.

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾: أجسادكم، ويُقال: ارتحل القومُ بِثِقَلِهم، أي: بأمتعتهم[5]، والثِّقَلُ والخفَّةُ متقابلان، فكلُّ ما يترجَّحُ على ما يُوزنُ به، أو يُقدَّرُ به، يُقال: هو ثقيلٌ، وأصله في الأجسام، ثُمَّ تُحْمَلُ عليه المعاني.

وقوله ﷺ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، قيل: شُبَّانًا وشيوخًا، وقيل: فقراء وأغنياء، وقيل: غُرَباء ومُستوطنين، وقيل: نُشَّاطًا وكُسالى، وكل ذلك ممَّا يحتَمِلُهُ لفظُ الآية.

وقد فسَّر الدَّامغانيّ الثِّقال هنا قائلًا: "الثِّقال: الشُّيوخ، وأصحاب العيال، قوله تعالى في سورة التَّوبة: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ يعني بالثِّقال: الشُّيوخ"[6].

(1) الرَّاغب، المفردات: (خف)، بِتصرُّفٍ قليلٍ.
(2) فوزي الهابط، معاجم ألفاظ القرآن الكريم: 1/362.
(3) الدَّامغانيّ، الوجوه والنّظائر: 1/321.
(4) ابن سلَّام، لغات القبائل في القرآن الكريم (بهامش الجلالين): 1/163.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(6) الدَّامغانيّ، الوجوه والنَّظائر: 1/215.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوة المؤمنين خفافًا وثقالًا، للتّضحية بالأموال والأنفس، توخّيًا لما هو خير

الَّذي عليه أكثرُ أهل العلم بالتَّفسير أنَّ هذه الآيات في غزوة تبوك، وقد كانت هذه الغزوة هي الرَّدع للرُّوم، لكيلا يضطهدوا المؤمنين في أرضهم، وأراد النَّبيُّ ﷺ أَنْ يكون العددُ كثيرًا، ولذا دُعِيَ الجميع: أَنِ انفروا في سبيل الله، وجاهدوا بالأموال والأنفس ما استطعتُم إلى الجهاد سبيلًا، لا فرق بين غنيٍّ حِمْلُه خفيفٌ، أو فقير مُثقَلٍ بالعيلة والأولاد، ولا فرقَ بين شابٍّ وشيخٍ، ولا فرق بين حال مَنْشَطٍ أو مَكرهٍ، وحال إقبال وحال إثقال واستكراه، انفروا جميعًا غيرَ متعلّلين بأيَّة علَّةٍ، وابذلوا وُسْعَكُم بالنَّفس والمال، فالخير كلُّه في النَّفير[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ بلاغةِ تصدير الآيةِ، بالأمر الصَّريح:

استنهاضُ الهِمَمِ، يُناسبه الصَّراحةُ والوضوح

اصطفى النَّظمُ الكريمُ من صُوَر الأمر صورةَ الفعل الصَّريح، فهو "تجريدٌ للأمر بالنُّفور بعد التَّوبيخ على تركه، والإنكار على المُساهَلة فيه"[2]، وفي ذلك ترقٍّ من التَّوبيخ والتَّهديد إلى الاستنهاض الصَّريح بهذا الفعل الدَّالّ على النُّهوض والحركة والنَّشاط.

واقتصار الآية هنا على البدء بالأمر الصَّريح استهلالًا دون مُقَدِّمات، ودون التَّمهيد له مجدَّدًا بندائهم بالإيمان، مناسبٌ غايةَ المناسبةِ لمقام الإنهاء والبلاغ، المتضمِّن في طيِّه النُّذُر والزَّواجر، المُعْرِض قَصْدًا عن ذكرهم بالإيمان، تحقيقًا لمفاد علم الله به من كلٍّ بحسبِه، على وجه الحقيقةِ المستقرَّة في الضَّمائر والأغوار، وبما يشبه التَّغاضي الحكيم عن ذِكْرِه، طلبًا لأثره، وتنبيهًا على أنَّ حيثيَّة إثباته تعود على المتَّصِفِ به على وجه الكمال، بحيث يكون أثرُ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3312، وحجازي، التّفسير الواضح: 10/75.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.

ذلك في نفسه التَّحفيزَ والاستفزاز للانبعاث والخروج، فلم يُذكر ثانية، وباعتبار جَعْلِ المبادرة لامتثال الأمر، كأنَّها هي المحِدَّة في اعتبار صِدقهِ من عدمه، وليكون الخطابُ بذلك في أشدِّ الحالات تحفيزًا، ولا يخفى أيضًا ما في ذلك مِنَ الإشعار بالعجلة وضيق المقام عن التَّلبُّث والتَّريُّث، والإيذان بدنوِّ الرَّحيل في النَّفير الذي أظلَّتْهُم ساعتُه، وليبقى عَدَمُ ذِكْرِهم بالإيمان في هذا الأمر داعيًا إلى استحضارِه واستقرائه فيما سبقَ تنزُّلِه فيه، فيُلْجِئُهم ذلك إلى ضميمة هذا النَّصِّ مع ما قبله، فيكون درسًا أوَّلَ لهم مِن دروس الجهاد: أنَّ الأوامر الميدانيَّة تَراتُبيَّةٌ؛ ينبني تاليها على بادئها، وأَنْ لا شيءَ منها يقبلُ الإغفالَ وإن تقادم ذِكْرُه، أو يناله الإهمال وإن تناهى أمرُه، وأنَّ العمل بها أوَّلًا ابتداء، غير مُغْنٍ عن إعمالها دَوْمًا وآخرًا وانتهاءً.

سِرُّ اختيارُ فِعْلِ الأمر:

إحاطةُ اللَّفظ بالبدايات والنِّهايات، والمُنطلقات والغايات، شهادةٌ على التَّفرّد المعجِز

اختيرَ للمقام فعل الأمر ﴿ٱنفِرُواْ﴾، وهو دالٌّ على تجافٍ وتباعد، وللتَّجافي والتَّباعد اعتباران اختُصَّا بمصدرين على التَّقسيم بحسب ما يُرادُ من المعنى، فالفعلُ (نَفَر) وأَمْرُهُ الواردُ في الآية ﴿ٱنفِرُواْ﴾، إذا رُوعي فيه التَّجافي باعتبار البداية؛ قيل: (نَفَرَ نُفورًا)، فهو مُدْبِرٌ نازعٌ عن مكانه، وإذا لوحظ المنطلَقُ إليهِ والغاية بحسب ما يَنْزِعُ إليه، ويرنُو له؛ قيل: (نَفَرَ نَفيرًا)، فاستعمل القرآنُ أمرًا واحدًا؛ لِيَدُلَّ على حَفْزِهم أن يخفُّوا للتَّجافي عمَّا هم فيه، بغاية الكُره للمقام في أطاييه من ظلالٍ، ومساكن، وطيب ثمار، ونحو ذلكَ، وذلك ما لا يتحقَّق لأحدهم إلَّا باستحضار مقارنةِ بين هذا المتاع وبين نعيم الآخرة، الَّذي لا يعجله إلَّا الظَّفرُ بالشّهادة.

وانظر إلى أثر الفعل عليهم من جهة دلالتهِ على النَّفير، وهم يعلمونَ اشتطاطَ الوِجهة، وتنائي المقصد، ودون ذلك سَفَرٌ مُكِدٌّ

مُرهِق، لا سبيل إلى صدِّ الهواجس المخذِّلة عنه إلَّا أن يستشعرَ الواحدُ منهم - ممَّا نزل، وممَّا لم ينزل بعدُ - المعانيَ المحفِّزاتِ، المالِئاتِ الأنفسَ يقينًا.

وإذ قدَّمنا بعضًا من إعجاز اختيار فعل الأمر من جهة إيحائهِ الحاثِّ على الانخلاع ممَّا هم فيه مِن عاجل المتاع انخلاعًا تامًّا عامًّا إلَّا ما لا بدَّ لهم مِنِ استصحابه مِن وسائل أوَّلًا، ثمَّ من جهة إيحائهِ بالتشوُّق لبلوغ الغاية حيث تعلَّقت نفوسُهم بالنَّيل من العَدُوِّ وتكبيدِه مرارات الفَجْع واللَّوع في سبيل اللّٰه إعزازًا لدينه وإعلاءً لكلماته ونصرًا للّٰه ورسوله، وإسلام أنفسهم للّٰه في ميدان الشَّرف والكرامة تمنِّيًا للشَّهادة وتشهِّيًا لمنازلها ومراتبها، تصديقَ ما بايعوا عليه وعاشوا من أجله ثانيًا، فإنَّنا نقدِّم ضربًا ثالثًا من إعجاز هذا الفعل منْ حيثُ تمحُّضُه بكل معناه للدِّلالة على الغزو دون غيرِه من المعاني على الحقيقة النَّاصَّة المُساوية؛ إذْ هكذا هو في لغة هُذَيْل، وكنانة، فبهذا أخبر أبو عُبيد القاسم بن سلَّام وغيرُهُ[1]؛ ليبقى ما استُعمل فيه الفعلُ (نفر) ومادَّتُه - من وراء الدِّلالة على الغزو - ضربًا من المجاز فيه روعة التَّشبيه، وحسن الاستعارة، وبلاغةُ الإيجاز. فالفعل إذًا مناسبٌ من جهة أنَّ غيرَهُ لا يقوم مقامَهُ، ولا يؤدِّي مؤدَّاه؛ إذ هو مختصٌّ بالغزو حقيقة، وبما استَصْحَبَ حالهُ من المقامات التي يُطلب لها التَّجرُّدُ من حظوظ النَّفس، والإخلاصُ في الطَّلب، وإيثارُ المطلوب بالنَّفقة والبذل، والتَّضحية بكثيرٍ من الضَّروريات قدرَ الاستطاعة كالشِّبَع والنَّوم، فيستعملُ فيه تقريبًا له من أجواء الجهاد وروحانيَّته، كطلب العلم الشَّرعيِّ وجميع ما يحقِّق لأمَّة الإسلام الغِنى والكفاية، إقامةً لنصيح الدِّين وأداء واجب النُّصح والاحتياط للمسلمين، كما في آية: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: 122]، فهي إذًا روحُ الرُّجولة والشَّهامة والتَّضحية والفدائيَّة والبسالة وأخلاق الفرسان شجاعةً وإقدامًا، وتعفُّفًا عن المطامع، وترفُّعًا على الحطام، وتنزُّهًا عن المُغريات.

وملمحٌ آخر من إعجاز الفعل ما فيه من المصارحةِ والمفاتحةِ بالغاية والغرض، من غير

(1) ابن سلَّام، لغات القبائل في القرآن الكريم (بهامش الجلالَيْن): 1/178، والسُّيوطيّ، الإتقان: 2/93، وابن حنُّون، اللُّغات في القرآن، ص: 29.

تكنية ولا تورية، وما يدلُّ الفعل عليه، ويشير إليه، لمن تلبَّس به ألَّا يبارحَ هيئتَهُ، وما دام قد تلبَّث؛ فلا عليه أن يتشبَّث؛ إذ في الجهاد الرِّزقُ الوفير والعِزُّ الكثير.

فلا حرج على النَّبِيِّ صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم ولا جناح، جرَّاء الإفصاح؛ تنبيهًا للمُستَنْفَرين بالاستعداد الممكن، والتَّأهُّب المكين.

مغزى إسنادِ الفعل إلى واو الجميع:

استنفارُهم كافَّةً، ومن جهَّز غازيًا في سبيل الله؛ فقد غزا

كان من هَدْي اللّه وحكمته أن يقعَ الاستنفارُ بصيغة مُسنَدةٍ إلى الجميع؛ ليتحقَّق الإعلامُ بالقصد على سواء، فلا يكون الإعلامُ موجَّهًا لذي صفةٍ دون صفة، ولا لموصوف دون موصوف، وليكون الجميعُ مخاطَبًا مأمورًا، وليقع الإبهامُ من كُلٍّ بحسَبِه، وإنَّ اللّه ليُدخل بالسَّهم الواحد ثلاثةَ نفرٍ الجنَّة: صانعَه يحتسب في صنعته، ومُنَبِّلَه، والرَّاميَ به، وفي الحديث أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللّهِ؛ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ بِخَيْرٍ؛ فَقَدْ غَزَا»[1].

وفي إغفالِ الاعتباراتِ الخاصَّة لكبرائهم من صَفْوة المهاجرين والأنصار وفرسانهم يُعْلَم بأنَّهم يكتسبون حيثيَّات تُقدَّر إيمانيًّا بقدر بلائهم في إجابة الدَّاعي، وبلائهم المتتابع في السَّفر وفي الجهاد.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستعارة:

وجوبُ النُّهوضِ للجهاد في سبيل الله على كلِّ حال

في قوله تعالى: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ "حالان من ضمير المخاطَبين، أي: على أيِّ حال كان من يُسر وعسر"[2]، "والخِفَاف والثِّقالُ هنا مستعاران لما يشابههما من أحوال الجيش وعلائقه، فالخفَّة: تُستعار للإسراع إلى الحرب، وكانوا يتمادحون بذلك لدلالتها على الشَّجاعة والنَّجدة، فالثِّقل الذي يناسب هذا هو الثَّبات في القتال، كما في قول أبي الطيِّب:

(1) رواه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (2843)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1895)، واللفظ له.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.

ثِقَالٍ إذا لاقَوا، خِفَافٍ إذا دُعوا

وتُستعار الخفَّة لقلَّة العدد، والثِّقل لكثرة عدد الجيش، وتُستعار الخفَّة لقِلَّة الأزواد، أو قِلَّة السِّلاح، والثِّقَلُ لضِدِّ ذلك، وتُستعار الخفَّة لقلة العيال، والثِّقل لضدِّ ذلك، وتُستعار الخِفَّة للرُّكوب؛ لأنَّ الرَّاكبَ أخفُّ سيرًا، والثِّقل للمشي على الأرجُل، وكلّ هذه المعاني صالحةٌ للإرادة من الآية"[1]، وهذا من الإيجاز والبلاغة بمكان؛ إذ يَصْطَفِي النَّظمُ الكريمُ أقصرَ لفظ لأوسعِ عبارة.

ودلالةُ هذه المعاني المتنوِّعة المتعدِّدة الماثلة في أشخاص ذويها على المعنى: بأنَّ اللّه يريد أن تجتمع كلمةُ المستجيبين له مهما كانوا أضدادًا في التَّنوع والصِّفات أو متقابلين فيها؛ فإنَّ الخطر يُوَحِّدُهم مستهدفين له متآزرين لصدِّه وردِّه، وأن يكونوا صفًّا واحدًا، قد زال منه التَّفاوتُ بفضل ظهور خِلالِ المناصحة والصَّفاء والحبِّ والإيثار، والتَّعاضد والتَّساند لإعلاء كلمة اللّه، وإعزاز دينه، ودحض عدوِّه؛ إذ لا ينبغي لأحد منهم مهما بلغت درجةُ التَّباينِ بينه وبين أخيه، أَنْ يدعَ حظَّه ونصيبه من ذلك لغيره.

وهذا الاستنفارُ على هذا النَّحو البالغِ الدَّرجةَ القُصوى في التَّعبئة والحشد ممَّا لا يُسمح في مثله بالتَّخلُّف، وكلُّ ذلك فيه مِن أمارات النُّبوَّة ودلائلها ما فيه.

وأيضًا فإنَّ التَّعبئة العامَّة - بالاصطلاح العسكريِّ الحديث - يُراد منها استصحاب معنى الذَّود عن النِّساء والأطفال، وعن الحرمات الدِّينية والأرواح والأعراض والمُقدَّرات والأموال وعن استباحة البيضة وانتهاك الحُرْمة وسطوة العدوِّ إنْ تغلَّب، فيجاهد المؤمنون لئلَّا يقعَ بهم ذلك، وذلك يتطلَّبُ بذْلَ الغالي والرَّخيص، وإنفاق المضنون به المدَّخرِ، وذلك كنايةٌ عَن بذل كلِّ شيءٍ في سبيل اللّه.

دلالةُ عطفِ الأمرِ على الأمرِ:

العطفُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ من باب عطفِ الصَّريح على الضِّمْنِيِّ؛ إذِ الفعل ﴿ٱنفِرُواْ﴾ يتضمَّن الأمر بالجهاد، لكنَّ الفعل (جاهدوا) تصريح بالمطلوب، فكأنَّ النَّظم الكريم أمرهم مَرَّتين؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/207، 206.

التَّأكيدُ على طلبِ الخروجِ للجهاد في غزوة تبوكَ

الأولى: ضِمْنًا، والثَّانية: صراحةً، وهذا يُكسب المطلوبَ الشَّرعيَّ أهمِّيَّةً بالغة، ويُكسبه التَّأكيد على المطلوب، وهذا ملائم للمقام؛ لأنَّ الآياتِ في غزوة تبوك التي سُمِّيت ساعة العسرة.

ويجوزُ أن يكون قد أَوْعَبَهُم جميعًا بالبلاغ، كُلًّا بلهجته وبلُغَتِه، إذِ ﴿ٱنفِرُواْ﴾ تعني: اغزوا في لغة كِنانة وهُذيل، فذكرها ولم يقف عندها، وجاء بعدها بما هو من الجُهْدِ - بالضَّمِّ - على لغة الحجاز، وبفتح الجيم: على لغة غيرهم، ومعناها: الطَّاقة، فأمر بالجهاد، والتعليلان ماضيان ومتساوقان.

سرُّ الجمعِ بين الجهاد بالأموال، والجهاد بالأنفُس:

الجهادُ مطلوبٌ على كلِّ حالٍ ممكنةٍ

الجمع بين الجهاد بالأموال والجهاد بالأنفُس، في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ "إيجابٌ للجهاد بهما إن أمكن، وبأحدهما عند إمكانه وإعْوازِ الآخر، حتَّى إنَّ مَن ساعدَه النَّفسُ والمالُ يجاهدُ بهما، ومَن ساعدَه المالُ دونَ النَّفس يُغْزِي مكانَه مَن حالُه على عكس حالِه"[1]، فيجهِّزه، ويحقِّق أُهْبَتَهُ، ويَخْلُفُه في أهله ليَغْزُوَ عنه.

سرُّ تقديمِ الأموال على الأنفُس:

المالُ به قوامُ الأنفُس، وبه يحصُلُ التَّجهيز والتَّحصين

في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، "قدَّمَ الأموالَ في الذِّكر؛ إذ هي أوَّل مَصرِفٍ وقتَ التَّجهيز، فرتَّب الأمرَ، كما هو في نفسه"[2]، و"لأنَّ النَّظر إليه من وجهَيْن:

أوَّلهما: بُعْدُ خُطورِه بالبال وعدم تَوارُدِه على القلب عند سماع الأمر بالجهاد، فلذلك أُحْضِر.والآخَرُ: قُوَّة تعلُّق النَّفس به وبذلُها الجِدَّ لِكَسْبِه.ومِنْ صور التَّعلُّقِ به: "محبَّة الإقامة في الحدائق؛ إيثارًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف، 3/523. وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/225.

للتَّمتُّع بها وخوفًا من ضياعها، مع أنَّ بها قوام الأنفس، فصار النَّظر إليها هو الحاملَ على الشُّحِّ بالأنفُس"[1].

سِرُّ العود إلى ذِكْرِ جُملة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

مَفاداتٌ بَليغةٌ، مِن وراء التَّذكير بالهدف الأسمى

أعاد ذِكْرَ جُمْلَةِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ هنا مع الجهاد، وكانت ذُكِرَتْ قبلُ مع الأمر بالنَّفير المُضَمَّن صريحَ التَّقريع على التَّثاقل عنه في قوله: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التّوبة: 38]، ولا ريبَ أنَّ علاقة الجهاد بالنَّفير في سبيل الله علاقةُ تلازم ومصاحَبَة، فاقتضى أحدُ الأمريْن المتلازمين المتصاحبَين ما اقتضاه مُلازمُه؛ مِنَ التَّصريح فيه بما صُرِّح في نظيره، ممَّا يدلُّ على الإخلاص لله، ومشروعيَّة العمل المبذول لأجله، وضرورة الاحتساب فيه، وتجريد النِّيَّة وتجديدها لإعلاء كلمةِ الله، وحطِّ كلمة الكفر، وتعاهد ذلك من النَّفس. ثُمَّ إنَّ الأمر بالنَّفير كان مطلقًا في النَّصِّ متروكًا لمعهودهم من تحقيق مثلهِ؛ أمَّا هنا فمُقَيَّدٌ بما يُعَظِم المؤونةَ، ويُحْضِر المشقَّة، ويزيد الكُلْفة؛ إذْ ذُكِر فيه أموالُهم وأنفسُهم وسائلَ للغاية المجيدة والعاقبة الحميدة، فلمَّا ذُكِرَتِ الجملةُ فيما سبيلُ تحقيقِه حاصلٌ بالمشاركة مع القصد؛ لَزِمَ ذِكْرُها فيما لا يتحقَّق على جهة الكمال إلَّا مع الإحفاء في الاستقصاء ولتقوية حضور الاحتساب في الجهد والنَّفقة وطاقة النَّفس الذِّهنيَّة والبدنيَّة واستثمار العلاقات الاجتماعيَّة والحسب والجاه في تحقيق هدف الجهاد مِن النَّصر وقذف الرُّعْبِ في قلب العدوِّ. وليَلْفِتَ نظرَهم لفتًا يستحقُّه المقامُ أن يتطلَّعوا إلى الله وحده برجاء أَجْرِه تعالى ومثوبته في جميع ما يجرون من الحقِّ، وما يجري عليهم من مقدور يُقابَل بالصَّبر، وألَّا يدخلَ عليهم الرِّياء ولا السُّمعة، فلا يكون شيء من جهادهم حميَّة أو نخوةً أو رياء، أو ليُرى مكانه، أو ليتمدح به،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/322.

أو ليصيب ثأرًا له؛ لَحِقَهُ عِبئُه في الجاهليَّة إلى غير ذلك. والأهمُّ أنَّ القتال مظنَّة القتل، والقتيلُ مُلاقٍ ربَّه، فَلْيَتملَّأ بهذا التَّذكير بأخلاق مُلاقي الله من الثَّبات والتَّضحية والقتال مُقبلًا غير مُدبرٍ، والحرصِ على الشَّهادة، والبلاءِ الحسن في قتاله، والصَّبر حين البأس، واستشفافِ روح التَّأسِّي بالنَّبيِّ ﷺ، وترقُّب النَّصرِ مِنَ اللّه.

موقعُ قولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، ممَّا قبلَهُ ودلالته:

التَّعليلُ الحسنُ للأمر الصَّعب، يُكسبه قبولًا

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ يُشْبِهُ أن يكون تعليلًا لطلب الجهاد بالمال والنَّفس، ردًّا على ما يَجْري في بعض العقول أنَّ الجهاد يترتَّب عليه نقصٌ في الأموال والأنفس، ووظيفَةُ هذه الجملة تصحيحُ المفاهيم، والتَّذكير بآثار النَّصر المرتقب مِنَ العزَّة في الدِّين والتَّمكين في الأوطان للعبادة وتبليغ الرِّسالة ونشر العلم وكفِّ المطامع عن الاعتداء، وتجديد الوعد الإلهيِّ تلويحًا لهم بعظيم الثَّواب المُعَدِّ للمجاهدين، والأهمُّ مِن ذلك: ما فيها من رَدِّهم إلى اللّه يتحاكمون إليه، ويرجعون لبيانه.

سرُّ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ الموضوع للبعيد:

منزلةُ الجهادِ في سبيل الله، أشرفُ المنازل، وأسمق المراتب

المشارُ إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ هو الجهادُ المستفاد، من قوله: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾، وقد أفادَ اسمُ الإشارةِ أمريْن:

أحدُهما: تعيينُ المقصودِ بالإشارةِ بإحضاره في الذِّهن؛ ليتمثَّل جرَّاء مثوله، ولينظر فيه مقرونًا بحسن عاقبته، ومجيدِ عائدته، وكريم منزلته، فيذهب عنه ما بهم له من الكراهة، كما قال المولى سبحانه وبحمده: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 216].

والآخَرُ: ما أفادتْهُ اللَّامُ مِنْ معنى البُعْدِ المؤذِنِ ببُعْدِ منزلته في الشَّرفِ[1]، وفيه إعلامٌ بأنَّ المتَّصفين بوصفِ الجهادِ لهم حظوةٌ وقربٌ عِنْدَ اللّهِ سُبحانه وحسنُ جوار في الآخرةِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/67.

وقَرْنُ اسمِ الإشارةِ بالحرفِ الدَّالِ على المخاطَبين ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ يُرادُ به التَّخصيص، أي: خاصٌّ بكم، وقيمةُ ذلك أن يعلموا أنَّ التَّنويه بالجهاد إغراءٌ لهم به لفرط حاجتهم إليه، وتوقُّفِ عزَّتهم وكرامتهم في الدُّنيا عليه، وأنَّ الدَّرجاتِ العُلا من الجنَّة أُعدَّت لأصحابه، فلا يَقِفَنَّ بأحدهم هِمَّتُهُ عند حدود إسلامهِ وإيمانه دونه، وفائدةٌ أخرى هي أعظم: أنَّهم لَمَّا كُفُّوا عن الحديث عن الجهاد تورُّعًا عن الرِّياء وقطعًا لمداخل الشَّيطان إليهم فيه؛ زكَّاه اللهُ لهم على الوجه المأمورِ به، لِيُغْنَوا بثناء الله عن ثنائهم، وليتبارَوا متنافسين في إيقاعهِ على الوجه الذي يُحقِّق مرادَ الله، فيحصل لصاحبهِ رضوانُهُ جلَّ وعزَّ.

سِرُّ تنكير المُسنَد ﴿خَيۡرٌ﴾ والإخبار به:

الإبهامُ يفتح الآفاقَ، لتوَقُّع الخير بطريق أفسح وأرحب

الغرضُ من التَّنكير الإبهامُ؛ "لقصد توقُّع خير الدُّنيا والآخرة من شُعَبٍ كثيرة أهمُّها الاطمئنانُ من أن يَغْزُوَهم الرُّوم"(1)، فبهذا تسكن أنفسُهم إلى مزاولة أعمالهم ومعالجةِ شؤونهم في التِّجارة والحرث؛ إذ المدينة بلدُ زراعةٍ وحرثٍ وحوائطَ وبساتينَ، ومنابع مياه من آبارٍ مشهورة، ولِيَأْمَنوا في عمارتهم مساجدَهم وأداءِ عباداتهم وتعلُّم دينهم ونشر دعوتهم، وكلُّ ذلك من ثمار خروجهم لملاقاة الرُّوم؛ بُغْية تأديبهم وَكَسْرِ شوكَتِهم وفَلِّ حَدِّهم، سواءٌ أتحقَّق لقاءٌ، أم لم يتحقَّقْ كما هو واقع الحال.

وإنَّما صحَّ أن يُقال: إن الجهادَ خيرٌ من القعود عَنْهُ، معَ أنَّه لا خيرَ في القعودِ؛ لوجهينِ: "الأوَّل: أنَّ لفظَ (خير) يُستعملُ في شيئين؛ أحدهما: بمعنى: هذا خيرٌ من الآخر، والثَّاني: أنَّه خيرٌ في نفسه، كقوله تعالى ذاكرًا دعاءَ موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: 24]، وعلى هذا سقط السُّؤال. والثَّاني: سلَّمنا أنَّ المرادَ كونُه خيرًا من غيره، إلَّا أنَّ التَّقدير: أنَّ ما يُستفاد من نعيم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/208.

الآخرة بالجهاد خيرٌ ممَّا يَستفيده القاعدُ عنه مِن الرَّاحة والتَّنعُّم بها، ولذلك قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾"[1]، بمعنى: أنَّ العِلْمَ مُفضٍ إلى إدراك أنَّ الجهادَ يحقِّق الأمْرين؛ فهو خير في نفسه بما يكسب من صفاتِ القوَّةِ والجلَدِ والشَّجاعة في مواجهة الأعداء، ونحو ذلك، ومِنْ جِهَة ما يعود به المنتصرُ مِنَ الأسلاب والغنائم والأجور الأخرويَّةِ، وهو خيرٌ مِنَ القعودِ؛ لِما فيه من الرُّقيِّ إلى سُدَّةِ العزِّ والسُّؤدد، وما يكون له من الهيبة بما كان له من العلوِّ.

مَغْزَى ذِكْر المتعلِّقِ ﴿لَّكُمۡ﴾، مع كونه ليس قيدًا على الخيريَّة:

في الجملةِ تلويحٌ بحُبِّ الله لهم، وتولِّيه جميعَ أمورهم، بما فيها إرشادُهم

الجهاد عَلَمٌ بالغَلَبَةِ على المشروع منه، وهو خير كلُّه، فهو من دفع اللَّه النَّاس بعضَهم ببعض، المنصوص في آياتهِ على منافعه وعظيم آثاره، وقد خَصَّتْ هذهِ الآيةُ المؤمنين المخاطَبين بالنُّبوَّة الخاتمة وبوحْيَيْها الخالدَيْن: القرآن الكريم، والسنَّة المشرَّفة، إرادةَ إعلامِهم أنَّهمُ المَعْنيُّونَ أصالةً، وسائر مَن وراءهم، فهو يَليهم؛ إذْ هُمُ الأعلون بإيمانهم، وللإفضاء إليهم بحُبِّ اللّٰه لهم، وتشريعه الجهادَ - على ما فيه - لِرِفْعَةِ درجاتهم في الدُّنيا والآخرة، وليرُدَّهُم إلى طلب العلم بكلِّ ما يُتطَلَّعُ إلى العلم به منه سبحانه، فهو أعلم بهم من أنفسهم وأحكم لِما يُصْلِحُهم، ولذلك شرع الجهاد لِما تقدَّمَ ذِكْرُهُ من فائدته وعائدته عليهم في الدُّنيا والآخرة.

وفيه لفتُ نظرٍ إلى أنَّ العناية في تحقُّق الفائدة بتحصيل الثَّمرة هو بالنَّظر إلى المجموع لا إلى الجميع، فقد يكون منهم أفراد يُضارُّون من الجهاد بأنواع الأذى والجراحات ممَّا لا يجب أن يلتفتوا إليه، ولا أن يُضارُّوا بالتَّخلِّي عن الجهاد باعتباره.

وفيه استثمار غريزة حبِّ الخير للنَّفس المركوزة في الطِّباع

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 10/99.

بطريقة فاضلة تَتبرَّأ من المثالب، وتتنزَّهُ عن المعايبِ، وتخلو من المعاطب مُستَعِدَّةً مستقيمةً بالغة إلى المناقب خالصةً إلى المراغب.

وفيه التَّلويح لهم بغِنى الله عنهم؛ إذِ الخيريَّةُ كلُّها لهم، وقد قال سبحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ [الفتح: 17]. وقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة: 56]؛ ليبقوا على رَغَبٍ ورَهَبٍ، وليَتضرَّعوا لربِّهم خوفًا وطمعًا في قَبول أعمالِهم وحفظِ دينهم عليهم وتقواهم له.

سرُّ ختْمِ الآية بجملة شَرْطٍ محذوفِ الجوابِ:

العلمُ النَّافع يحثُّ على العمل، مع صدق النِّيَّةِ، وعلوّ الهمّة

خُتِمَتِ الآيةُ الكريمة بجملةِ شرطٍ محذوفِ الجواب، ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، وتقدير المعنى: إن كنتم تعلمون أنَّه خيرٌ؛ فجاهدوا بأموالكم وأنفسِكم، وفي هذا الختم استنهاضٌ للنُّفوس نحوَ الخير، والتَّعريض بمن لا يُدْرِكُ أنَّ الخير هو في تلبية دعوة الجهاد في سبيل الله، وفيهِ تعريضٌ بغباوة القاعدين "وفي اختيار فِعْلِ العلم دون الإيمان مثلًا؛ للإشارة إلى أنَّ من هذا الخير ما يخفى، فيحتاج متطلِّبَ تعيين شُعَبِهِ إلى إعمال النَّظر والعلم"[(1)]، كما أنَّ فيه "إشارةً إلى أنَّ هذا الأمر وإن كان عامًّا؛ فإنَّما يَنتفع به ذَوو الأذهانِ الصَّافية والمعالم الوافِيَة، فإنَّ العلم - ولا يُعدَّ علمًا إلَّا النَّافع - يحثُّ على العمل وعلى إحسانه بإخلاص النِّيَّة، وتصحيح المقاصد، وتقوية العزم، وغير ذلك، وضدُّه يورثُ ضدَّه"[(2)].

تخريجُ (إن) الشَّرطيَّةِ مخرجَ (إذ) الظَّرفيَّة:

من روائعِ التَّفنُّن الآخذ بمجامع القلوب، أنْ يُؤدِّي الحرفُ مؤدَّى الاسم

من جمال اللُّغة العربيَّة وأسباب استعلائها على التَّآكل واستعصائها على فشو اللَّحن قواعدُها الصَّارمة ومرجعيَّتها الدَّقيقة المحكمة إلى الاستقراء التَّامِّ للأساليب الفصيحة على الفطرةِ أو السَّليقة والبداهة، وأعلاها شأنًا القرآنُ العظيم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/208.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/322.

وقد عُلِمَ بالاستقراء التَّامِّ، والاستقصاء العامِّ؛ أنَّ لكلِّ لفظٍ معنًى أصليًّا إذا جرى استعمالُه على القاعدة، ويخرج عن معناهُ الأصليِّ إلى معانٍ تبعيَّةٍ لعلاقة، إن توفَّر سببٌ من خروج، وظهرت قرينةٌ على الاتِّساع في الاستعمال.

ومن ذلك (إن) الشَّرطيَّةُ التي لا تُستعمل عندَ النَّحاة إلَّا فيما كان مشكوكًا في وجوده[1].

ولأنَّها جامعت (إذ) في دخولها على الماضي - والأصل أنَّها للاستقبال - وفي إفادتها التَّحقيقَ مغايَرةٌ للأصل، وفي اقتران جوابها عن تحقُّق شروطهِ بالفاء؛ استُعْمِلت (إن) بمعنى (إذ) عند الكوفيِّين قاطبةً، ووافقهم بعضُ نُحَاةِ البصرة، لا سيَّما أنَّ (إذ) تأتي للتَّعليل، وفي الشَّرط الَّذي في (إن) معنى التَّعْليل.

والمسألةُ طويلةُ الذُّيول، والَّذي يقتضيه السَّدادُ إعمالُ (إنْ) عملَ إذْ، وتخريجها عليها فيما خولِف فيه بعضُ شروط إعمالِ (إنْ)، ومِن ذلك ما نحن بصَدَدِهِ مِنَ الجملة الأخيرة في الآية، فبعد ما قدَّم اللَّهُ تعالى دليلَ جزاءِ الشَّرط المحذوف بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ ذكَر الشَّرْطَ وفِعْلَهُ، فإن قيل باقْتِصار الخطاب على الشَّاكِّين تغليبًا؛ فلم يكونوا الأغلبَ، ولا يكون الَّذي أخبر اللَّه بخيريَّته خيرًا لهم في حالِ تلبُّسهم بشَكِّهم؛ لأنَّ الشَّكَّ فيما أخبر اللَّه مُخْرِجٌ مِن المِلَّةِ.

لهذا تعيَّن القولُ بأنَّ (إنْ) الشَّرطيَّةَ جاءت بمعنى (إذ) الظرفيَّةِ في هذا المقام، أي: ما داموا قد حصَلَ لهم العلمُ الذي يقتضي مِنهم الاستجابةَ لكلِّ ما دعتهم إليه الآيَةُ.

ومن فوائد ذلك: أنَّ فيه إشراكَهم في استخلاص النَّتيجة، والتَّسليم بحتميَّة المخبَرِ بهِ من الخيريَّة.

وفيه المفارقة بين العِلْمَين؛ إذ اللَّه سبحانه يَعْلَمُ ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وفي ضِمْنِ ذلك عِلْمُه بالمآلات والمصائر كُلِّها، على حين أنَّ عِلْمَهُم مُخْتَصٌّ بنتائج التَّجارب ومستخلَص ما جرَّتْهُ عليهم الحوادثُ، وما أثروه من مواقفها مِن حِكَمٍ وأمثال.

---

(1) المبرّد، المقتضب: 1/126. وابن يعيش، شرح المفصّل: 5/113. والزّركشيّ، البرهان: 6/220.

دقّةُ البيانِ القرآنيِّ في التّصرُّف بمواقع الألفاظ بما يلائم سياقاتها

تَوْجيهُ المُتشابهِ اللَّفْظِيِّ:

قال اللّهُ تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التّوبة: 41]، وقال سُبحانَهُ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الصَّفّ: 11]، وبين الآيتين الكريمتين ملامحُ اتِّفاقٍ ومعالِمُ اختلافٍ، أمَّا الاتِّفاقُ؛ فقد خُتِمَتِ الآيتان بختامٍ واحدٍ هو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وأمَّا معالمُ اختلاف النَّظم بين الآيتين؛ ففي مَحَلَّين اثنين:

أوّلهما: قُدِّم في آية التَّوبة ذكرُ ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ على قوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، وعكس ذلك في آية الصَّفِّ؛ فقدَّم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾.

والآخَرُ: أنَّ اللّهَ تَعالى قال في آية التَّوبة: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾، على حين قال في آية الصَّفِّ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾ [الصّف: 11].

ووجهُ هذا التَّغايُرِ؛ أنَّ آية التَّوبة قد سُبِقَتْ بآياتٍ تناولتْ موضوعَها بدْءًا من قولِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾ [التّوبة: 38]، وفيها ذُكِرَ الإيمانُ صلةً للموصول الَّذي نودوا به، وقُدِّمَ ذِكْرُ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فانْبَنى ما هاهنا عليه، وكان ذِكْر ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: 38] متعلِّقًا بمحذوفٍ صفةً للمفعول المطلق المبيِّن للنَّوع، وجاءت ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ - هنا - بيانًا للنَّفير من حيث كان معناه الغزوَ، ثُمَّ أُعيد ذِكْرُ ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ عَقيبَ ذِكْرِ الأموال والأنفس اللَّذَيْنِ صارا محوطين بين يديْهما تسديدًا وتصويبًا، وبإثرهما تأييدًا وتعقيبًا، وكان ذلك فيه حسنُ الختام، وهو الأليقُ هنا بالمقام.

أمَّا سورةُ الصَّفِّ؛ فإنَّهُ لَمَّا كان المقام مُفتتحًا بالتَّلطُّف، توصُّلًا باللِّين إلى الإعلام والإفهام، المعبَّر عنه بالدَّلالة، وهي من التَّوجيه والإرشاد، جاء بها مرتَّبة مقدِّمًا فيها ذِكْرَ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أوَّلًا؛ لأنَّه من الإخلاص وتصحيح النِّيَّة، ثُمَّ ذُكِرَتِ الأموالُ والأَنْفُس؛ لأنَّها المسالك العمليَّة والوسائل العضويَّة التي تؤدَّى بها الكيفيَّة، وهكذا ترتَّب العمل التَّعبُّديُّ على الإخلاص العقديِّ، ولا شكَّ أنَّ النَّظم على هذا أحكم، وأنَّ ترتيبَهُ على هذا النَّحْوِ ألزمُ، وهذا نَصُّ آيتي سورة الصَّفِّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصّف: 10- 11].

فسمَّى جميعَ العمل الصَّالح تجارةً، والعمل الصَّالِحُ مِنْ جملَةِ أفرادِ الإيمانِ والتِّجارة تقتضي اللَّجأَ إلى الله بالإخلاص وصدق التَّوكُّل، فقدَّم ذِكْرَ سبيل الله؛ لأنَّه المصحِّح للعمل المربِّح له، وليس وراءَ إعجازِ القرآن إعجازٌ ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود: 1 - 2]، وسبحان من هذا كلامه.

﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٤٢﴾ [التّوبة: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـرّبـط بين العـتـاب على التّخلّف عن الجهاد، وبين التّبكيت والتّقريع على التّقاعس عنه

"لمَّا كان هذا العتابُ مؤذِنًا بأنَّ فيهم من تَباطأ عن الجهاد اشتغالًا بنحو الأموال والأولاد؛ كان ما اشتملت عليه هذه الآياتُ من الأوامر والزَّواجرِ والمواعظ، جديرًا بأن يخفِّف كلَّ متثاقلٍ، وينشِّط كلَّ متكاسلٍ، فالتفت من لطف الإقبالِ إلى تبكيت المتثاقلين، بأسلوب الإعراض المؤذِنِ بالغضب المحقَّق، للسَّخط المبيِّن لفضائحهم"[1].

وفي مناسبة الآية لِما قَبْلها وجهٌ آخرُ، وهُوَ أنَّهُ "لمَّا بالغ في ترغيبهم في الجهاد، وأمرهم بالنَّفير؛ عاد إلى تقرير كونهم متثاقلين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَرَضٗا﴾: العَرَض - محرَّكةُ الرَّاءِ بالفتح -: ما يَعرِض ويزول، ممَّا لا ثبات له، فإذا سُكِّنت الرَّاءُ؛ ذهب المعنى إلى خلاف الطُّول، وهو في الآية على معانٍ منها: المطلبُ السَّهل[3]، والغنيمةُ الباردة[4]، والمتاع العارض لصاحبه[5] حقيقة أو تفكُّرًا، ومنه: المحمود والمذموم، ويحتملهما اللَّفظ في الآية، ويذهب المعنى تبعًا للهِمَّة والنِّيَّة، ومن المتمحِّض معنى في الممدوح قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الأنفال: 67]، فهو مشورةُ الصِّدِّيق رضي الله عنه، وفعلُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/322.
(2) ابن عادل، اللُّباب: 10/99.
(3) الرَّاغب، المفردات: (عرض).
(4) الدَّامغانيّ، الوجوه والنَّظائر: 2/75.
(5) الهابط، معاجم ألفاظ القرآن الكريم: 2/758.

والآية نزلت في صنيعهم بأسرى بدر، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: لم أكن أظنُّ أحدًا من أصحاب محمَّدٍ يريد الدُّنيا حتَّى نزلت: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]، فذَكَرَ ما نزل في أُحُدٍ بعد الأولى بسنة؛ فلم يعهد الصحابيُّ من معنى الأولى عرَضًا منقوصًا أو مغموصًا على أصحابه، بل لِما ذُكِرَ في المشورة وأمضاه رسول الله ﷺ وكلُّه ممدوح، والمقابلة بين الدُّنيا والآخرة لا تقتضي خلافًا لِما تقدَّم؛ فتقديم بعض الأجر في الدُّنيا وتأخير بعضه في الآخرة هو خيرٌ، كما لو ادُّخِر كلُّه وبقي، لا سيَّما مع الضَّرورة الملجِئَة والحاجة الشَّديدة والجهد المضني، وفي قول النَّبيِّ ﷺ لعمر رضي الله عنه: «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللّه أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1]، دليلٌ على تحقُّق ما أراد اللّه لهم من الآخرة، فاجتمعت لهم الحُسْنَيَان.

2) ﴿قَاصِدًا﴾: "القَصْد: استقامةُ الطريق، يقال: قصدتُ قصدَهُ، أي: نحوتُ نحوهُ، وقوله: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: سفرًا متوسِّطًا، غير متناهي البُعد، وربَّما فُسِّر بقريب"[2]، والصَّحيح الأوَّلُ، والمعنى الذي تدورُ عليه مادَّةُ القافِ والصَّادِ والدَّال: هُو "توسُّط الشَّيء في حاله، أو توسُّطُهُ بالأَمِّ والاتِّجاه، ومنه: سفَرٌ قاصدٌ: سهلٌ قريب، فهو متوسِّط ليس بعيدًا ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾، وطريق قاصدٌ: سهلٌ مستقيمٌ، أي: فهو أقرب"[3].

3) ﴿بَعُدَتْ﴾: "البُعْد: ضدُّ القُرب، وليس لهما حدٌّ محدودٌ، وإنَّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، يُقال ذلك في المحسوس وهو الأكثر، وفي المعقول نحو قول اللّهِ ﷻ: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾ [النساء: 167]، وقوله ﷻ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: 44]، يُقال: بَعُد إذا تباعد، وهو بعيدٌ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: 83] وأكثرُ ما يُستعمَلُ الفعْلُ (بَعِدَ) في الهلاك، نحو قول اللّه تعالى: ﴿بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾"[4]، ومعنى: "بَعُدَت: صارت بعيدة، ﴿وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾"[5] أي: رأوا السَّفر شاقًّا، فتعلَّلوا بمشقَّته.

4) ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾: مِنْ شَقَّ، والشَّقُّ: الخَرْمُ الواقعُ في الشَّيءِ، كقول اللّه تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا

(1) رواه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (3007)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2494).
(2) الرّاغب، المفردات: (قصد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قصد).
(4) الرّاغب، المفردات: (بعد).
(5) الهابط، معجم ألفاظ القرآن الكريم: 1/144.

﴿ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾، والشَّقُّ بتشديدِ الشِّين مفتوحَةً ومكسورةً: المشقَّة والانكسار الَّذي يلحق النَّفسَ والبدنَ، وذلك كاستعارة الانكسار لها، قال اللّه ﷻ: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: 7]، والفَتْحُ والكسر مصدران بمعنى واحدٍ هو المشقَّة، أو بالفتح: المصدر، وبالكسر: اسمٌ بمعنى النِّصف، كأنَّه ذهب نصف قُوَّتِه من النَّصب والتَّعَب، وبفتح الشِّين قرأ أبو جعفر، وبكسرها باقي العشرة[1]، والشُّقَّةُ: النَّاحيةُ التي تَلْحَقُكَ المشقَّةُ في الوصول إليها، وقال ﷻ: ﴿بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾، والشِّقاق: المخالفة"[2]؛ لِما يوجِبُ من النَّفرة المفضية إلى التَّجافي والتَّباعد.

5) ﴿يُهۡلِكُونَ﴾: مِنْ هَلَكَ، والمصدرُ: الهلاكُ، والهلاكُ يَرِدُ على أوجهٍ: افتقاد الشيءِ عنك، وهو عند غيرك موجود، كقوله جلَّ وعلا: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29]، وهلاكُ الشَّيءِ: باستحالة وفساد، كَقوله سبحانَهُ: ﴿وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ [البقرة: 205]، ويَرِدُ الهلاكُ بمعنى الموت، كقوله جلَّ شأنُهُ: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النساء: 176]، ويُقال للعذاب: هلاكٌ، ومنهُ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ [الكهف: 59][3].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

لـو كـان الـغـزو غنيمة بـاردة، لسارعوا إليها، ولكن لمّا كثرت المشاق، انعدم الاشتياق

لو كان ما دعوتَ إليه المنافقين المتخاذلين عنِ الخُروج معك لغزو الرُّوم غنيمةً باردة أو سفرًا قاصدًا لا يَلْقَوْن فيه كَيْدًا، ولا يُواجهون فيه عدُوًّا، لأجابوك إلى ما دَعَوْتَهم، إيهامًا منهم أنَّهم مِنْكُم، غيرَ أنَّه لما اشتطَّ المقصد، ونأت الغايةُ، وطال السَّفر المقتضي بُطْءَ العودة؛ جَبُنوا عنِ الخروج، وأخلدوا إلى ما هُم فيهِ

(1) ابن الجزريّ، النَّشر في القراءات العشر: 2/302.
(2) الرَّاغب، المفردات: (شقق).
(3) الدامغاني، الوجوه والنظائر: 2/303، 302، 301.

من متاعٍ زائل وعرَضٍ حائل، وسيحلفون لك عند عودتك مُتَنَصِّلين: أنْ ما كانوا مستطيعين الخروجَ بغاية الجهد والطَّوق والكُلفة غير مبالين بما يُعَرِّضون أنفسَهم للعذاب والتَّلف جرَّاء التَّخلُّف عنك، والكذب عليك، وما فاتهم من شرف الصُّحبة وبركة الأسوة وعزَّة الاجتماع والاتِّباع.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ بأسلوب الشَّرط:

المنافقون يستحقُّون تخصيصَهم بخطابٍ وحدهم

الجملةُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾، "استئنافٌ لابتداءِ كلامٍ على حالِ المنافقين، وغزوة تبوك، حيثُ تخلَّفوا، واستأذن كثيرٌ منهم في التَّخلُّف، واعتلُّوا بعِلَلٍ كاذِبَةٍ، وهذا الاستئناف ناشئٌ عن قوله سُبحانَهُ: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ [التّوبة: 38]"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط (لو):

استحالةُ بذلِ الجُهدِ من المنافقين، لانعدام الوازع، وغياب الحافز

صُدِّرَت الآيَةُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ بأسلوب الشَّرط بحرف الامتناع للامتناع (لو)؛ للتَّنبيهِ على استحالة اتِّباعهم رسولَ اللّه ﷺ، لاستحالة دعوته إلى العَرَض القريب، والمَغْنَم السَّهل المحَصَّل دون بذلِ الجهد، فهو بيانٌ للامتناع مبنيٌّ على امتناع ما عُلِّق عَلَيْه.

نُكتةُ إضْمارِ اسم كان:

ما لم يحصل في الواقع؛ يُحذَفُ في البنيةِ اللُّغويَّةِ

(كان) مِنْ قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ ناقصةٌ، اسمها محذوفٌ، والأصلُ: لو كان المدعوُّ إليه عرضًا، إلَّا أنَّ اسم كان حذِفَ ههنا، وفي حَذْفِه إشارةٌ إلى عدم وجودِ هذا المدعوِّ في الواقع أبدًا، فحُذِفَ مِنَ اللَّفظِ لملاءمةِ البناءِ للواقع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/208.

سِرُّ التَّعبيرِ بخبر كان نكرةً موصوفةً:

بيانُ حقارة المنافقين، وخسَّة غايتهم

جاء خبرُ كان ﴿عَرَضًا﴾ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا﴾ نكرةً، وهو ما يَعرض من منافع الدُّنيا، وتنكيرُهُ للتَّحقير والتَّقليل كيفًا وكمًّا، واصْطُفِيَ هذا الاسمُ دون المتاع مثلًا؛ لبيان خُلُوِّه مِن أيِّ قيمةٍ، وعدَمِ حصولِ أيِّ متعةٍ به كشفًا عن دناءة نفوسِهم، وسُفول هِمَّتهم، ثمَّ زاد التَّحقيرَ تحقيرًا بالوصف ﴿قَرِيبٗا﴾ أي: سهلُ المأخذِ قريبُ المنال، وكلُّ ذلك زيادةٌ في التَّحقير، وكلُّ تحقيرٍ في المرغوب فيهِ مِن المنافقين يعود بالتَّحقير عليهم أنفسِهم؛ إذِ النَّاسُ يُقاسون بما يَطْمَحون إليه.

سرُّ العطفِ على خبر كان:

التَّأكيدُ على حقارة هِمَّةِ المنافقين

عُطِفَ على خبرِ (كان) نكرةٌ موصوفةٌ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾؛ تأكيدًا على حقارة هِمَمِهم، ودناءة غايتهم، إذ يَخْلُدون إلى تحصيل العرَض بالرَّاحة والدَّعَة، والتَّنكيرُ يُرادُ به التَّقليل، ووُصِفَ بـ ﴿قَاصِدٗا﴾ أي: ذا قصد بين القريب والبعيد، والتَّعبيرُ هنا مجازٌ فيما سَهُلَ حصولُه[1].

جوابُ الشَّرط ودلالتُهُ:

استحالَةُ اتِّباع المنافقين لرَسولِ الله ﷺ

بُعَيْد أن بُسِطَ القولُ في بيان المعلَّق عليه؛ وقع الجوابُ موجزًا بليغًا ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ مؤكَّدًا، فقال سُبحانَهُ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾، وفي ذلك تأكيدٌ لعدم اتِّباع المنافقين رسولَ اللّه ﷺ؛ لاستحالة ما عُلِّقَ عليه الاتِّباعُ، كما أنَّ في إطلاقه إشارةً لاستحالة اتِّباعهم على الإطلاق، "وتعليقُ الاتِّباعِ بكِلا الأمرين يدلُّ على عدَمِ تحقُّقه عند توسُّطِ السَّفر فقط"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، 10/208.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم، 4/67.

الرِّسالةُ واحدةٌ والرَّسولُ واحدٌ، من حين بُعِث وإلى قيام السَّاعة

دلالةُ إفرادِ خاتم النَّبيين، بضَمير الخطابِ:

إفرادُ النَّبيِّ صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم بالخطابِ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ فيه إثباتُ نبوَّته، وتعيينه وحدَه من قِبَلِ مُرْسِله، وأنَّه العَلَمُ الفَرْدُ، فلا يلتبِس على أحدٍ بغيره، وأنَّه لا يَسَعُ أحدًا إلَّا اتِّباعه، وكفايته وحده للبلاغ، وسعة هديه، ومأثور سننه، والأسوةُ الحسنة فيه وحدهُ.

وفي إفرادِ ضميرِ الخطابِ أيضًا: استحقاقُ رسولِهِ ﷺ التَّبجيلَ والتَّعظيم باعتناء اللّه بخطابه، وتأنيسه ومواساته عن مفارقةِ مَنْ فارق، وأنَّه لا يضرُّ المفارِقُ إلَّا نفسَهُ، وفيه تقريرُ الشَّرف في اتِّباعه، وفوات المزيَّة عليهم لعدم اتِّباعهم، وانضمام اللّه مع رسوله في موقف انصرافهم عنه وقعودهم إخلادًا دونه، وتولِّي اللّه المنافحةَ عنه بالتَّنديد على المتثاقلين بالتَّوبيخ، وانحصار الإمامة العامَّة التَّامَّة للكافَّة من الأمَّة قاصيها ودانيها فيه من وقت بعثته وإلى أبد الدَّهرِ وانقضاء الدُّنيا، وأنه المرضيُّ من ربِّه، المنصور به على كل من ناوَأ وخالف ولو داهنَ أو هادنَ نفاقًا، وانحصار سبيل النَّجاة والظَّفر في الولاءِ له وصدق اتِّباعه.

الإعـراضُ عن توجيه الخطاب للمقصِّرين، بخطاب الحضور، إشارةٌ إلى كُره حضورهم

بلاغةُ الالتفاتِ:

من قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ﴾، إلى قوله: ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾، "انتُقِلَ مِنَ الخطاب إلى الغَيبة؛ لأنَّ المُتَحَدَّثَ عنهم هنا بعض المتثاقلين لا محالة، بدليل قوله بعد هذا: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾"[1]، فهو صرفٌ للخطاب عنهُم، وتوجيهٌ لهُ إلى رسول اللّه ﷺ تعديدًا لِما صدر عنهم مِن الهَنَاتِ قولًا وفعلًا عن طريق المُبَاثَّة، وبيانًا لدناءة هممهم، وسائر رذائلهم"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/208.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/67.

دلالةُ الواو، في قوله: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ﴾:

موقعُ الواوِ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ ذو دلالةٍ بديعة، "والواو حاليَّة"[1]، والحال هنا كاشفٌ عن حقيقة تثاقلِهم والدَّاعي إلى عدم خروجهم، فهو تمهيدٌ لِما بَعْدَهُ، وتقريرٌ لما قبله لتقييد عدم خروجهم وسببه بحال واحدة لا سواها، والمعنى: "لم يتَّبعوك تثاقُلًا إلى الأرض، ورضًى بالفاني الحاضر، من الباقي الغائب فحسبُ، ولكن بعُدت عليهم المسافةُ التي تُطوى بالمسير، فيحصُل بها النّكال والمشقَّة، فلم يُوازِ ما يحصل لهم بها من التَّعَب ما يرجونَهُ من العرَض فاستأذنوك، وفي هذا إشارةٌ إلى ذمِّهم بسفُول الهمم، ودناءة الشِّيَم بالعجز والكسل، والنَّهَم والثِّقل وإلى أنَّ هذا الدِّين متينٌ لا يحملُه إلَّا ماضي الهمّة، صادقُ العزم"[2].

هذا الدِّينُ لا يحملُه إلَّا ماضي الهِمَّةِ، صادقُ العزم

سِرُّ التَّعبير بحرف الاستدراكِ (لكنْ):

عبَّر في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ بحرف (لكن) وهو حرف استدراك، لإلغاء كلِّ تعلُّلٍ يَتَعَلَّل به المنافقون، وبيان ما دفعهم إلى عدم الخروج حقيقة، وفي هذا فضحٌ لِما في قلوبهم، وبيانٌ لحقيقة أمرهم، وفي هذا نصْرٌ للأمَّة ببيان حقيقة رجالها، لئلَّا يُستعانَ بأمثالهم في نصرة دين اللّه تعالى، وحتى يحذرَ النَّاس منهم.

بيانُ حقائق ما في النُّفوس، تمييزٌ للخبيثِ من الطَّيِّب

وفيهِ أَعْلى مقاصدِ الاستدراك في هذا المقام؛ وهُو تأسيفُهم وتنديمهم على قعودهم، وبيان أنَّ ما فاتهم من الخيريَّة والصُّحبة والفضل لا يُلْحَقُ نَفْسُهُ، ولا يُسْتَعاض عنه بغيره.

وفيه معجزةٌ أخرى من معجزات القرآن العظيم، تثبت - إلى غيرها - أنَّه من عند اللّه وحده العليم بذات الصُّدور وخبيء الطَّوايا

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/104.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/323.

ومُسْتَتِرِ الأنفس، وبواطن الأمور، حيثُ أخبرَ عنهم بما في أنفسِهم؛ وأنَّهم سيحلفون؛ فما أنكروا، ولا أعذروا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل اللَّازم ﴿بَعُدَتۡ﴾:

الهممُ الحقيرة لا تطيقُ الأشياء، ومن فتر عزمه، ضعفت همّته

الشُّقَّةُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾: هي المسافة الشَّاقَّة، ومشَقَّتها هي بحسب استصعابِ النَّاظر فيها واستِسْهاله، فاصطفاءُ النَّظمِ الكريمِ التَّعبيرَ بالفعل اللَّازمِ هنا له دلالةٌ عجيبة؛ إذْ هو يصوِّر المكانَ نفسَهُ بكُرْهِهم، فابتعد عنهم، والسَّفر كأنَّه هو الكارِهُ تَلَبُّسَهُم به، فَبعُد عنهم، لتعاظمه عليهم، فهم لا همَّة لهم به، ولا نيَّةَ لهم فيه، فالذي بَعُد هو السَّفرُ والمسافةُ، فكأنَّهم أحقرُ من أن يَبْعُدوا عن الجدِّ، ولكنَّ الجدَّ هو الذي يَبْعُدُ عنهم.

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الجرِّ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾:

المشقَّةُ تستعلي على الهمم الصِّغار

في قولِ اللهِ سُبحانه: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ عُبِّر بحرف الجرِّ (على)؛ لتضمُّن (بَعُد) معنى (ثَقُل)، ولذلك حَسُنَ الجمعُ بين فعل (بَعُدَت) وفاعله (الشُّقَّة) مع تقارب معنييْهما، كأنَّه قيل: ولكن بعُد منهمُ المكان؛ لأنَّه شقَّةٌ، فشَقَّ عليهم السَّفر، فجاء الكلام موجزًا[1]، ويمكن أن يكونَ وراء اصطفاء النَّظمِ الكريمِ حرفَ الاستعلاء: تصويرٌ اسْتِعارِيٌّ لاستعلاء السَّفر عليهم، وقهرِه لنُفوسِهم؛ إذْ هي بِجِبلَّتها خَسيسَةٌ، والسَّفر مشقَّةٌ وقطعةٌ من العذابِ، لا تنهض له النُّفوس الصِّغار.

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل:

البغيضُ إلى النُّفوس يُؤَخَّر في الكلام، للكشف عمَّا في النَّفس

قُدِّم الجارُّ والمجرور في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ وأُخِّر الفاعلُ؛ للكَشْفِ عن سرٍّ عجيبٍ؛ إذْ باعدَ بين الفعل والفاعل دلالةً على بُعْدِه عليهم، فقدَّم ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ تأكيدًا لمعنى القَهْرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/209.

والاستعلاء، وأُخِّر ما أخَّرته نفوسُهم وَهِمَمُهم، ولم تُطِق ذِكْره، فلاءم التَّرتيبُ في التَّركيبِ التَّرتيبَ في أحوال النَّفس.

وفي ذِكْرِ ما يفيد بُعْدَهُ عليهم على هذا النَّحو استجلاءٌ لحقيقة انفرادهم بالنَّظر في الاختيار لأنفُسِهم بحسب الاعتبارات البشريَّة والظُّروف الأرضيَّة، دون اعتبارٍ للرِّضا بخيرة اللّهِ ورسولِه لهم، ودون اعتبارٍ للاستعانة بالخالق أو اللَّجأ إليه، عياذًا باللّه من ذلك، ولذلك عُدَّت بعيدة عليهم هم دون رسولِ اللّه صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم وَمَن شَهِدَها معَهُ مِن أصحابه، ومَن خَلَّفه رسولُ اللّه ﷺ على المدينة، ومَن أتَوْهُ ليحمِلَهُم، وتولَّوا، وأعينُهم تفيض من الدَّمع حَزَنًا أن لم يجدوا ما ينفقون في الغزو، فرضي اللّه عنهم جميعًا.

بلاغة تأكيدِ الذَّمِّ بما يُشبهُ المدحَ:

ضَعْفُ الهِمَمِ حِطَّةٌ، ومِنَ الأعذار ما هو أقبحُ مِنَ الصَّنائع

قولُ المولى جلَّ وعلا: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ فيهِ النَّعيُ عليهم بالخَوَرِ والوهن، والنُّكول، والجبن، والاستصعاب، والاستبعاد، والتَّوجُّسِ، وضعفِ العزيمة، وانحطاط الهمَّة، وعجزِ الرَّأي، وذهابِ الحيلة، وتلاشي المحاولة، وضيق الصَّدر، وعدمِ القدرة، وقفرِ المدارك، وفقْدِ البسالة، والشَّجاعةِ، والمروءة، والنَّخوة، والجِدِّ، والفروسيَّة، والفدائيَّةِ، والتَّضحية، والشَّهامة، والعزَّة، والكرامة، وإباء الضَّيم، والنُّفور من المعرَّةِ والعار؛ إذْ بَعُدَتْ عليهم وحدهم دونَ غيرِهم، ومع ذلك فإنَّ أسلوب القرآن العظيم أكَّد عليهم هذه المذامَّ التي فيهم بما يشبه المدح، كأنَّهم ما عاقهم، ولا قَعَدَ بهم إلَّا بُعْد الشُّقَّة التي تعكس ضعفَ الاحتمالِ، ورَهَقَ النَّفسِ، وعدمَ القدرة، فكأنَّه برغم ما شنَّع عليهم؛ رفَق بهم وستر عليهم وعاملهم بالحلم والإغضاء لتُصيبَهم رحمةُ النَّبيِّ ﷺ الرَّحمةِ للعالمين وَفقَ مُراد اللّه ومنَّته برسالته وبعثته، حتَّى يفسحَ المجال لمن أراد أن يتذكَّر ويُنيب، فيراجعَ ويقول: إنَّه لن يتخلَّف من بعدُ ثانية؛ إذْ لولا ضعفٌ به لا يلام

أصحابه عادةً عليه، إذ القدرة نِسبيَّة، والاحتمال نسبيٌّ، فيتذرَّع عن معرَّة الماضي، ويتورَّع في مكرَّة المستقبل، ومَنْ تاب؛ تابَ اللهُ عليه.

وبلوغ الغاية مع بُعْدِ الشُّقَّة توفيقٌ، ورحمة متدارِكَة، ونعمة مُفاضَة، وشرف وسُؤدد، ونصر مبين، وعزٌّ بالغٌ، وتضحية في ذات الله، وقد شرَّف الله بها الخلصاء بالعمل، والخلصاء بالنِّيَّة، حتى قال لهم النَّبيُّ ﷺ في تبوك: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ»[1]، فمَدارُ الأمرِ على القلوب وصدق النِّيَّةِ، وما النَّصرُ إلَّا من عند الله.

دلالةُ الواو، في قوله: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾:

التَّأكيدُ على حقيقةِ مانِعِهِم مِنَ الخروج، بما سيكون مِنْ أفْعالِهم

الواو في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ استئنافيَّةٌ[2]، والاستئناف هنا يحقِّق معنى الكشف عن حقيقة ما في نفوسهم في الجملة السَّابقة، وإزهاق كلِّ أعذارهم، فجاء هذا الاستئنافُ بما سيكشف عَنْهُ واقعُ فعالِهم على حقيقة مانِعِهِم من الخروج؛ لكبير دلالة كلِّ بلاغٍ على ما أُورِدَ له؛ إذِ الاكتفاءُ بخبر الله وتصديقه واليقين من حصوله على نحو ما قال اللهُ تعالى يُحَقِّقُ مخالطةَ بشاشةِ الإيمان القلوبَ، وذلكم الإيمان بالغيب، وحصول حلفهم بعد توقُّعه وترقُّبه على النَّحو المُخْبَرِ به.

بلاغةُ التَّعبير بالمستقبل:

الإخبارُ بالغيب فيه تعجيلٌ بفضح المنافقين، وبشارة للمؤمنين

في التعبير بما سيكون في قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ إعجازُ الإخبارِ بالغيب، واصطفاء حرف الاستقبال (السّين) يدلُّ على قرب وقوع ما سيكون، وهو حافزٌ للتَّرقُّب العاجل، وفيه راحةٌ للمؤمنين، بقرب كشفِ الخبيث عن نفسه، وإبانته عن حقيقةِ أمره، حتَّى يُعْلَمَ الرِّجالُ من غيرهم، والنَّاصرون من الخاذلين، فالتَّعبيرُ بالمستقبل فيه إعجاز بفضحِ المنافقين أنفسَهم، وفيه بشارةٌ للمؤمنين.

(1) رواه البخاري في صحيحه، برقم: (4161) واللفظ له، ومسلم في صحيحه، برقم: (1911).

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/104.

بلاغةُ إيرادِ لفظ الحلف دون القسم:

لمَّا آثر القرآنُ الكريم - في قوله ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ﴾ - اقترانَ الفعل بسينِ الاستقبال القريب، لم يكن لمادَّة القسم لفظًا أَنْ تدخل؛ إذِ اللَّفظ يكون عندئذٍ (وسَيُقْسِمون)، وفيه من الثِّقل والوعورة والنُّبوِّ ما يأنف البيانُ منه ويَنِدُّ - إلَّا متكرِّهًا - عن سماعِه، فتَلَطَّف القرآنُ بالحاسَّة وأشبع الذَّوق البيانيَّ حلاوة وطلاوةً ولذاذة، هذا برغم أنَّه أورد المادَّة حيث تَخِفُّ، ولا تثقل، فقال: ﴿وَأَقۡسَمُواْ﴾، ﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ﴾، هذا من جهة.

للقرآنِ انفرادَتُهُ بالعذوبة والحلاوة، وبُعدِ المفادات

ومن جهةٍ ثانية؛ فإنَّ في مادَّة القسَمِ اشتراكًا لفظيًّا مُنبِئًا عن معنى القسمة، فيَحْسُنُ استعمالُ القسم حين يكون لما يقتضيه الاشتراكُ من القسمةِ وجودٌ، ويَشِفُّ ذلك، ويَخِفُّ، ويلطف، حتى لا يكاد في الأغلب الأعمِّ، وسواءٌ أكان المراعى فيه ذلك قسيمًا أم مقسومًا، فهذا وجهٌ ثانٍ معجزٌ؛ إذْ لا قسمةَ هنا يُقْسَمُ عليها ولا تقسيم، فكان العدولُ عن اللَّفْظِ إلى ما يُغني عنه في المقام عدولًا يقتضيه أرجحيَّةُ البيان، لعدم المناسبة.

ومن جهة ثالثة؛ فقد كان الذين تخلَّفوا - وسيحلفون من بَعْدُ تَنَصُّلًا - منهم عِلْيَةٌ رؤوسٌ، ومنهم أذنابٌ وذيول وأعقاب، وشأنُ الكبراء والسَّادة أن يجريَ على لسانهم (القَسَم)؛ لأنَّه أرقى في التَّعبير، وأخصُّ بطبقة الكبراء وأساليبهم المتناغمة مع طبقتهم، المتخيِّرة من صنوف القول وتصاريفه، أمَّا الدَّهماء والغوغاء والسَّفلةُ، مِنَ الأذناب والأعقاب والذُّيول؛ فيجري على ألسنتهم الحَلِفُ؛ لأنَّه أكثر شيوعًا وأفشى استعمالًا مِنَ القسم، فيشبه أن يكون العدول عن مادَّةِ القَسَم إلى مادَّة الحلف تنزيلًا للكبراء على مألوف الدَّهماء؛ لأنَّهم تَسَفَّلوا فيما يُتَكَلَّف فيه، ويُتَصَنَّعُ له، ويُعْتَنى به من الفعل، فكانوا مع القاعدين مِنَ الصِّبية والضَّعفة والنِّساء،

وكان اللَّفْظُ الواحد مؤذِنًا بِضَعَتهم وحقارتهم وخِسَّتهم ونقص موازينهم، ما تؤذن به الجملةُ، وتأمَّلْ في هذا المقام كيف قُرِنَت آيةٌ نزلت في مقام آخرَ ومناسبةٍ مغايرةٍ مُنْذُ عهدٍ بعيدٍ، بين ﴿حَلَّافٍ﴾ و﴿مَّهِينٍ ١٠﴾ [القلم: 10]، مصدِّرةً اللَّفظَ الأوَّلَ بجعله مضافًا إليه، والمضافُ لفظُ ﴿كُلَّ﴾ المؤذِنُ بأنَّ ذلك سَتَتَعَدَّد صُوَرُه وتكثر أمثاله، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ١٠﴾ [القلم: 10]، فلمَّا رضوا لأنفسهم الدُّونَ مِنَ الدُّنيا الدَّنِيَّة؛ كان كلُّ ما اتَّصلَ بِهِم لفظًا ومعنًى مُشْعِرًا لهم بذلك، ولغيرهم عنهم أنَّهم كذلك.

وانظر كيف جاء التَّعبيرُ بالقسم دون الحلفِ حين انفرادِ الكبراء بتصريف القول في مقام العدَّةِ بما يكون من الملأِ الذين يحقُّ عليهم القولُ في مواقفه الحاسمة، وينظر ما قولهم في الخطب الجديد: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور: 53].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمحلوف عليه:

تأكيدُ عُذرِهم الكاذبِ، بِجَعْلِ اليمين وسيلةً لِذَٰلِكَ

(باللَّه) مِنْ قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ متعلِّقٌ بـ (يحلفون)، وقوله: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ مقولُ قولٍ محذوفٌ، منصوب على الحال، أي: قائلين، وعليه تكون جملة ﴿لَخَرَجْنَا﴾ سادَّةً مسدَّ القسَم والشَّرْطِ جميعًا، و﴿مَعَكُمْ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ (خرجنا)[1]، هذا التَّركيبُ الكثيف العجيب الَّذي اقترن فيه القسمُ بالشَّرط ورَدَ بيانًا؛ تأكيدًا للعُذر الكاذب بجعل اليمين جِسْرًا لذلك، وتعليق عدم الخروج على عدم الاستطاعة، وربط وجوده بوجودها؛ بيانًا لاستحالة خروجهم لامتناع استطاعتهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالظَّرف:

في قوله: ﴿مَعَكُمْ﴾، تعليقُ خروجهم بكونه معهم، "وتقييده

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/104.

النِّفاقُ يَقْعُدُ بالهِمَمِ عن مطامحِ الشَّرف

بالمعيَّة إشعارٌ بأنَّ أمر الغزو لا يُهِمُّهم ابتداءً، وأنَّهم إنَّما يخرجون - لو خرجوا - إجابةً لاستنفار النَّبيِّ ﷺ خروجَ النَّاصر لغيره"[1]، من غير أن يكون ذلك مُهِمًّا له أو يعنيه في نفسه.

موقعُ قوله: ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ ودلالته:

تعزيزُ المعاني والعبارة واحدة، بلاغة آسِرة

الهلاكُ يُطلق في الأصلِ على الأضرار الجسميَّة، وإيقاعه على الأنفسِ مفعولًا به مبينٌ عن أخطر الأضرار، و"في هذه الجملة ثلاثةُ أوجهٍ، كلُّها من الوجوه النَّحويَّة لعلاقتها بما قبلَها، بما يجعلها جزءًا من الجملة السَّابقة:

أحدها: أنَّها حال من فاعل ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾، والمعنى: أنَّهم سيحلفون مُهْلِكين أنفسَهم بهذه الأَيْمان الفاجِرة، وهلاكُها تعريضُها لبأس اللّٰه وغضبه وعقابه وأليم عذابه.

ثانيها: أنَّها بدلٌ من الجملة قبلَها، وهي ﴿سَيَحۡلِفُونَ﴾.

ثالثُها: أنَّها حالٌ من فاعل ﴿لَخَرَجۡنَا﴾ والمعنى: لخرجنا مهلكي أنفسنا.

وقد قالوا بمرجوحيَّةِ الوجه الثَّاني؛ لِبُعْدِه؛ إذِ الإهلاك ليس مرادفًا للحَلفِ، ولا نوعًا منه، ويُجابُ بإمكانِ اعتباره بدلَ اشتمال؛ لأنَّ الحَلفَ سببٌ للإهلاك، فهو مشتمِلٌ عليه، فأبدل المسبَّبَ من سببه لاشتماله عليه.

واسْتُبْعِدَ الثَّالث؛ لكونه جاريًا على ضمير التَّكلُّم في ﴿لَخَرَجۡنَا﴾، والقولُ بأنَّه جاء بِهِ على لفظ الغائب بعيدٌ؛ لأنَّه ليس مخبرًا عنهم بقول: ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا﴾، بل هو حاكٍ لفظَ قولهم، والحال ينبغي أن يكونَ من جُمْلَةِ كلامِهم المحكيِّ[2].

والوجهُ الأوَّلُ - وإن كان هو الأَوْجَه - لشِدَّة ظهوره، وسطوع نوره،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/209.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 10/525، 524، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/75، 74، والسّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/55، 54.

واقتضاب عبارته، ووضوح إشارته، واستبانته على وجازته، إلَّا أنَّ كُلَّ هذه المعاني وغيرِها مِن مِثْلِها ممكنةُ الاجتماع دون مزاحمةٍ، والمعنى ورود الهلاك عليهم بما كسبت أيديهم دون مُراحَمةٍ، فالحَلفُ سببُ الهلاك، والحَلفُ بعد العودة مِنَ الغزوة سَيُقارِنُه الهلاكُ، فيكون القولُ تهديدًا لَهُم، والهلاك مُسْتَشْعَرٌ مخوف أنْ سيقارن خروجهم لا محالة، فلذا امتنعوا عن الخروج بحسب ما قام بأنفسِهم مِنَ التَّوهُّم الذي أبداه اللّه؛ فقد ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التوبة: 46]، وإرادته سبحانه ماضية كما شاء دون تَخلُّف، وكل هاتِيك المعاني المتضافِرة المتكاثِرة، والجملةُ واحدةٌ لكن اختلاف مَطَارِحِ النَّظَر، ومطامح الفِكَرِ، في تعيين مواقعِ الإحالة المنتخَبَةِ في بِنْيَةِ الجملة على هذا النَّحو غزَّر الدَّلالات في اجتماعٍ بديعٍ، وهو من أعلى طبقات الإيجاز، وآيات الإعجاز.

وثَمَّ وجه رابعٌ: أنَّ تكونَ جملةً استئنافية أخبر اللّه عنهم بذلك[1]، وعليه فلا تكون الجملة من حكاية كلامهم، ويكون الاستئنافُ مسوقًا للتَّهديد والوعيد.

بلاغةُ الخَتْمِ بالجملة الحاليَّة:

أمـرُ المنافقين مفضوحٌ، وفعلُهم مرصودٌ

الواو في قولِ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ واو الحال، والمعنى: "والحالُ أنَّ الملك الأعظم المحيط علمًا وقدرة سبحانه ﴿يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، فقد جمعوا بين إهلاك أنفسهم، والفضيحة عند اللّه بعلمه بكذبهم في أنَّهم غيرُ مستطيعين"[2].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الأعظم، مُسْنَدًا إليه خبره:

تأكيدُ علم الله زيادةٌ في التَّهديد والوعيد

جاءتِ الجملةُ الحاليَّةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ جملةً اسميَّة، وجاء الاسم الجليل مُسْنَدًا إليه؛ لإدخال المهابة على القلوب، وهو

---

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 6/55، 54.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/323.

المناسب للحديث عن المنافقين الذين يتصرَّفون كأنَّ الله لا يطَّلع على ما أسرُّوا في أنفُسِهم، واسْتَكْتَموا في صدورِهم، أو يَرُوجُ عليه جلَّ وعزَّ باطِلُهم وزيفُهم وإن واراهُ حسنُ كلامهم، وسَوَّقَ تعلُّلاتهم.

ووقعَ الخبر ﴿يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ جملةً فعليَّةً فعلُها مضارع إلماعًا إلى استمرار عِلْمِهِ سُبحانَهُ منذُ الأزلِ وإلى الأبَدِ، كلَّما أحدثوا شيئًا؛ فهُو لهم بالمرصادِ، وهذا الملائم لمقام الوعيد.

كما أنَّ في تقديم المُسْنَد إليه على خبره الفعليِّ تأكيدًا بإسناد العِلْم مرَّتين للاسم الجليل؛ مرَّةً بكون الخبَرِ جملةً فعليَّةً مضارعيَّة، وأخرى بكون فاعل (يعلم) ضميرًا مستترًا يعود على الاسم الجليل.

نكتةُ كسرِ همزة (إنّ) بعدَ فِعْلِ العلمِ المضارع:

تَيْئيسُ المُنافِقين والغِلْظَة عليهم وتَقْريعُهم

كان فتحُ همزةِ (أنَّ) بعد الفعلِ المضارع (يعلم) مُرْتَقَبًا مُتوقَّعًا، لكنَّ البلاغ المفحِم، والبيان المعجز، والنَّظم الموحى عدَلَ عنه لنُكْتَة بيانيَّةٍ بالغة الحُسْن، فائقة التَّأثير، ذلك ليُضَمَّن العلم معنى القسم، فيكون كلُّ معلومِهِ تعالى المخبر به منزَّلًا منزلة المُقْسَم عليه تأييدًا وتوكيدًا، وتعلية وتقوية، ويكون - هنا - أبلغَ في تيئيس المنافقين، وأمثلَ في الغلظة عليهم، وأحمى في دفعهم وقرعهم؛ لإيغالهم في السَّفهِ.

ولأنَّ المنافقين أهلُ شكٍّ وريب؛ كان توكيدُ الكلام بشتَّى المؤكِّدات، كاسميَّة الجملة، والفِعْلِ (يعلم)، والفِعْل (يُقْسِم)، وكلُّ هذه المؤكِّدات في جملة واحدة، تجدَّد كُلُّ ذلك مع تجدُّدِ إحداثهم التَّوكيد الدَّاخل على المسند إليه، واللَّام الدَّاخلة على الخبر، ومجيء الخبر اسمَ فاعل.

سِرُّ توكيدِ الجملةِ التّي سدَّت مسدَّ مفعولَيْ: ﴿يَعۡلَمُ﴾:

للمنكرين نَمَطٌ في الخطاب، يُبَيِّنُ حقيقةَ وصفِهم

جاءتِ الجملة في قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ مؤكَّدةً بمؤكِّداتٍ شتَّى، وهو الملائمُ لخطاب المنكرين؛ لِما تَرْجَمَتْهُ

أفعالُ المنافقين وأقوالُهم الدَّالَّةُ على أنَّهم يُنْكِرون علمَ اللهِ بِكَذِبِهم، وقُبْحِ مطاوي أنفسِهم، لذا أُكِّدَ الكلام بـ (إنَّ) واسميَّة الجملة التي تنتج معنى نفي الشَّكِّ في أنَّ الكذبَ صِفَتُهم المستمرَّة، وذلك لِما في اسميَّة الجملة مِنَ التَّجرُّد لبيان المعنى دون ارتباط بزمن، ثُمَّ جاءتِ اللَّام مؤكِّدًا ثالثًا، والقَسَمُ المقدَّر، واسمُ الفاعل في المسند الدَّالِّ على اطِّراد الوصف مستقبلًا دائمًا، ووقوعُ الجملةِ معمولًا لخبر الجملة الاسميَّة المصدَّرة بالاسم الأحسَن (الله)، وكونُ المتكَلِّم بذلك هو الله، أهل الصِّدق كلِّهِ، وكونُ الخبرِ أُذيعَ وأُشيع في المعيَّنين، فَلَم يُنْكِر أحدٌ منهم، فهذه جملةٌ من المؤكِّدات الأسلوبيَّة اللَّفظيَّة والمعنويَّةِ ما لا يوجَدُ لَهُ نظيرٌ فيما عُهِدَ من البلاغةِ والبيانِ.

بلاغةُ التَّعريضِ بالتَّهديد:

الإعلامُ بِتَحقُّق سبب العقاب، أبلغُ في التَّهديد مِن التَّصريح بالعقاب

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾، القولُ كلُّه تعريضٌ بتهديدِ المنافقين؛ لأنَّ المرادَ ما يترتَّب على علمِهِ سُبحانَهُ بكذبهم، وإنَّما لم يَقُلْ: واللهُ سيعذِّبهم على كذبهم؛ لأنَّ المذكورَ الذي عليهِ النَّظم أوقعُ في التَّهديد، وأشدُّ في الوعيد؛ لِما في ذِكْرِ السَّبب مِنْ قطع تعلُّق النَّفس بِجَدْوى مُحاولة نَفْيِه، ولِما في ذلك مِنَ التَّنديد عليهم به، ولِيَنْكَفُّوا عن محاولة الظُّهور بمظهر المُتَنَصِّل أمامَ رسولِ اللهِ ﷺ ومن مَعَهُ من أَتْباعه.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٤٣﴾ [التّوبة: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين إنكار تخلُّفهم بالمعاذير الوهميّة، وعتاب الرّسول على الإذن لهم بذلك

لمّا بكّتهم على وجه الإعراض لأجل التّخلُّفِ والحلْفِ عليه كذبًا؛ أقبلَ عليه ربُّه سبحانه وبحمده مهنِّئًا بالعَودِ الحميد والعزم الحديدِ، مقدِّمًا الدُّعاء ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ على العِتاب لشدَّةِ الاعتناء بشأنه، واللُّطفِ به ﷺ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَذِنتَ﴾: أذِن: استمَع، ومِنْهُ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾، ويُستعمَل ذلك في العلم الذي يُتَوَصَّلُ إليه بالسَّماع، نحو قوله: ﴿فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، والاستئذانُ طلبُ الإذن، ومِنْهُ قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ [النّور: 58][2]، وتَرِدُ أَذِن، بمعنى: أباح ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ﴾[3]، و"الإِذْنُ بالكَسْرِ، بمعنى: الإباحةِ أو القبول والتّمكين، استأذنَ فلانًا في أمْرِ كذا، فأذِنَ له فيه، أي: أباحَه"[4]، وهو المعنى المرادُ هنا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عِتابٌ مُفْتَتَحٌ بالعفو عن النّبيّ الأكرم، على قبوله أعذارهم قبل التّحقُّق من صحّتها

عفا اللّهُ عنك - أيُّها النَّبيُّ الكريمُ - عمَّا وقع منك مِن تَرْك الأَوْلى والأكملِ، وهو إذنُك للمنافقين في القُعود عن الجهاد، لأيِّ سبَبٍ أَذِنْتَ لهؤلاء بالتّخلُّف عن الغَزْوَةِ؟ ما كان يَنْبَغي أن تأذَنَ لَهُم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/323.
(2) الرّاغب، المفردات: (أذن).
(3) عبد الباقي، معجم ألفاظ القرآن الكريم: 2/43، 42.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (أذن).

في التَّخَلُّف عنك؛ إِذْ قالوا لك: (لو استطعنا لخرجنا معك)، حتَّى تَعْرِفَ مَن له العذْرُ منهم في تخَلُّفِه، ومَن لا عُذْرَ لَهُ مِنْهُم، فيكونَ إِذْنُكَ لِمَنْ أَذِنْتَ له مِنْهُم على عِلْم مِنْكَ بِعُذْرِه، وتَعْلَمَ مَنِ الكاذبُ مِنْهُمُ المُتَخَلِّفُ نفاقًا وشكًّا في دينِ اللّهِ سُبحانَهُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة موقع الجملةِ ممَّا قبلَها:

الإشارة إلى إكرام اللهِ تَعالى وتوقيرِه نبيَّهُ ﷺ ولطفُهُ به

ذكرَ العلماءُ لطائفَ في سِرِّ افتتاح الآية بالدُّعاء على وجهِ التَّلطُّف، منها: أنَّ اللّه تَعالى وقَّر نبيَّهُ ﷺ، وعظَّم أمرَه، ورفع شأنَهُ "بافتتاحِهِ الكلامَ بالدُّعاء له، كما يقول الرَّجلُ لمخاطِبه إذا كان كريمًا عنده: عفا اللّه عنك، ما صنعتَ في حاجتي؟ ورضي اللّه عنك ألا زرتني"[2]، "وفي تصدير فاتحةِ الخطاب ببشارةِ العفوِ دون ما يُوهِم العتابَ من مراعاة جانبهِ ﷺ، وتعهُّده بحسن المفاوضةِ، ولُطْف المراجعةِ ما لا يخفى على أولي الألباب"[3]، وفيه "إكرامٌ عظيمٌ، ولطافةٌ شريفةٌ، فأَخْبَرَهُ بالعفو قبل أن يباشرَهُ بالعتاب، وفي هذا الافتتاح كنايةٌ عن خِفَّةِ موجبِ العتابِ؛ لأنَّه بمنزلةِ أن يُقال: ما كان ينبغي"[4]، ويمكن أن يكون معناه: "أدامَ اللّه لك العفوَ"[5]، فهي جملة دعائيَّةٌ، وإِنْ كانَ لفظُها خبرًا[6].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاستفهام الإنكاريّ:

زيادةُ التَّلطُّفِ بالنَّبيِّ ﷺ، مزيدٌ مِنَ التّكريم والتّعظيم

الاستفهامُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ إنكاريٌّ، وفيه تلطُّفٌ بالنَّبيِّ الكريم ﷺ على نهج العبارة المتقدِّمَة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، فقد "ألقى إليه العتابَ بصيغة الاستفهام عنِ العلَّة؛ إيماءً إلى أنَّه ما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/272 - 273، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 194.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 13/390.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/69.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/210.
(5) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 13/391، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/227.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/104.

أَذِنَ لهم إلَّا لسببٍ تأوَّلَه، ورجا مِنْهُ الصَّلاح على الجملة، وهذا من صِيَغ التَّلطُّف في الإنكار أو اللَّوم ؛ بأَنْ يَظْهَرَ المُنْكِرُ نفسُه كالسَّائلِ عنِ العِلَّةِ التي خَفِيَتْ عليه"(1)، ومِن براعة الاستفهام أنَّه جاء في الإذن على العموم، فقولُه: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ "ليسَ فيه ما يدلُّ نصًّا وتصريحًا على أنَّ الإذن في أيِّ شيءٍ؟"(2)، وقرائنُ السِّياق والسِّباق معلنةٌ عن الإذنِ؛ وأنَّ المرادَ بهِ: الإذنُ في القعود والتَّخلُّف(3).

والضَّمير في ﴿لَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى مَنْ استأذن للقعود أو التَّخلُّف، ولكنَّه جاء عامًّا دون نصٍّ على الإذن المعاتَب عليه صراحةً؛ زيادة تلطُّفٍ بالنَّبِيِّ الكريم ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾:

في بيان العللِ والغاياتِ، رِفقٌ وتـلـطُّـفٌ بسيّد السّادات

يجوز في ﴿حَتَّىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أن تكون غايةً للفعل ﴿أَذِنتَ﴾؛ لأنَّه لمَّا وقع في حيِّز الاستفهام الإنكاري كان في حكم المنفيِّ، ويكونُ المرادُ لا مقتضي للإذن لهم إلى أن يتبيَّنَ الصَّادِقُ مِنَ الكاذبِ.

وخُصَّت ﴿حَتَّىٰ﴾ بالاستعمالِ في هذا المقام؛ لدلالتها على المُهلة والأجلِ، والتَّبيُّن الذي دلَّ عليه قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾؛ فإنَّ التَّبيُّنَ ممدودٌ إلى أجل مجيء الوحي إلى النَّبِيِّ صلَّى اللّه عليه وآله وسلَّم به، وبما عُطِفَ عليه مِنَ العلم، وعلمُه كلُّه وحيٌ، بل عِلْمُ أصحابه في هذا الشَّأن كذلك كلِّه؛ لعموم إفادة قوله سبحانه: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64]، فتكشف أقوالهم وأفعالهم عن مكنونات صدورهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/210.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/301.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/210.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجارّ والمجرور، وتقديمه على الفاعل:

في التَّقديم والذِّكر زيادةُ عنايَةٍ وملاطفة للرَّسولِ الكريم

في تقديم ﴿لَكَ﴾ عنايةٌ بالرَّسول الكريم ﷺ؛ لأنَّه المقصودُ بهذا كلِّه، كما أنَّ في ذِكْرِه زيادةَ ملاطفةٍ بأنَّ العتاب ما كان إلَّا عن تفريطٍ في شيءٍ يعود نفعُه إليه[1].

ثُمَّ إنَّ من مفادات التَّقديم أَنَّ التَّبيُّن المرادَ تبيُّنٌ خاصٌّ به ﷺ لا يشركه غيره فيه إلَّا بلاغًا منهُ، وذلك التَّبيُّنُ هو بالوحي، فذلك سِرُّ التَّقديم هنا.

وفي التَّقديم نُكْتَةٌ أُخْرى؛ وهي بيانُ أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ سَيَكْشِفُ المعتذرين المبطلين له بالوحي اعتناءً بذلك، ولتبرئة الذين صدقوا ممَّن لَمَزَهم المنافقون، كما دلَّ على ذلك قولُ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التوبة: 79].

وأيضًا؛ فَلِما في التَّقديم من معنى الاختصاص، كان ذلك رَمْزًا إلى معنًى يختَصُّ به النَّبيُّ ﷺ وَحْدَهُ، ويتوقَّف العِلْمُ به لدى سائر أصحابه على جهته، وهذا يُخْرِج التَّبيُّنَ وما عُطِف عليه عن أن يكون مُدْرَكًا بالحواسِّ من رؤية واستماع واستنباط بملكَةٍ إلى ما يكون خاصًّا بالنَّبيِّ ﷺ وحده وهو الوحيُ من اللّه تَعالى، وما يتعلَّق به ممَّا هو مختصٌّ برسول اللّه ﷺ، كأسماء المنافقين، وعِلْم ما أسَرُّوا في أنفسهم ممَّا يحذرون خروجَه إلى دائرة العِلْم وميادين القول والتَّحادث به.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ عن الصّادقين، ﴿وَتَعۡلَمَ﴾عن الكاذبين:

التَّبيُّن يكون بما يظهر في السُّلوك، والعلم بما تتمخض عنه الأدلَّة

التَّعبيرُ عن ظهور الصِّدق بالتَّبيُّن، وعمَّا يتعلَّق بالكذب بالعلم في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ لِما هو المشهور مِن أنَّ مدلولَ الخبر هو الصِّدق، والدَّلالات والوقائع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/211.

طريقُها التَّبيُّن، والكذب احتمالٌ عقلِيٌّ، والاحتمالاتُ والأدلَّة طريقها العلمُ، وفي إسناد التَّبيُّنِ إلى الأوَّلين وتعليق العلم بالآخرين؛ لِما في الفريق الأوَّل من تصرُّفات وأعمال تظهر، فتدلُّ على حقيقة أمرهم، وأمَّا الفريقُ الثَّاني؛ فطريقُ معرفةِ حقيقتهم العلمُ[1].

سِرُّ تغييرِ الأسلوب بالتَّعبير:

استمرارُ الكَذِبِ في أَهْلِ القعود عن الجهادِ

في قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ عُبِّر عنِ الفريقِ الأوَّلِ بالاسْم الموصول الذي اقْتَضى فِعْلًا دالًّا على الحدوث، وعُبِّر عنِ الفَريق الثَّاني باسْمِ الفاعل المفيدِ الدَّوامَ، وذلك للإيذان بأنَّ ما ظهر مِنَ الأوَّلين صدقٌ حادث في أمرٍ خاصٍّ غير مصحِّحٍ لنظْمِهم في سلك الصَّادقين، وأنَّ ما صدرَ مِنَ الآخرين - وإن كان كذبًا حادثًا متعلِّقًا بأمر خاصٍّ - لكنَّه أمرٌ جارٍ على عادتهم المستمرَّة، ناشئٌ عن رُسوخِهم في الكذبِ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/69.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/69، 68.

﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ٤٤﴾ [التّوبة: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين الملاطفة العاتبة على الإذن بالتّخلُّف، ووصف المبادرين للجهاد دون تردّد

وقعتِ الآيةُ الكريمة بعد الملاطفةِ في عتابِه ﷺ على إذْنِه لَهُم قبل تَبيُّن الصّادق من الكاذب، فجاءتِ الآية الكريمة بالأوصاف الكاشفةِ عمَّا في الضّمائر، ببيان أنَّ من عادة المؤمنين باللّه واليوم الآخر ألَّا يستأذنوا في أَنْ يُجاهدوا بأموالهم وأنفسِهم، وإنَّما يبادرون إلى ذلك كُلَّما دعا داعي الجهاد في سبيل اللّه فـ"لمّا فاته ﷺ معرفتهم بهذا الطَّريق؛ شرعَ العالمُ بما في الضَّمائر يصفهم له بما يُعوِّض عن ذلك، فقال على طريق الجواب للسُّؤال: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ أي: يطلب إذنَك بغاية الرَّغبة"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾: الهمزةُ والذّال والنُّون تدورُ تصريفاتُها على أصلَيْن متقاربَيْن مَعْنًى، متباعدَين لفظًا، فالأوَّلُ: الأُذُن؛ كلُّ ذي أُذُن، والآخر: العِلْمُ، تقول: فعلَ فلانٌ كذا بإذْني، أي: بعِلْمي، ويجوزُ: فعلَهُ بأَمْري، ووجهُ التَّقارُب بينَ الأصلَيْن المذكورَيْن في المَعنى: أنَّ بالأُذُنِ يَقعُ عِلْمُ كلِّ مسموعٍ[2]، واستأذن: طَلَبَ الإذْنَ، ومِنْهُ قول اللّه تعالى: ﴿فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ [النّور: 59]، وقولُهُ ﷻ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/327.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(3) عبد الباقي، معجم ألفاظ القرآن الكريم: 1/44، 43.

❁ المَعنى الإِجْماليُّ:

"إنَّ الذين يؤمنون باللّه واليوم الآخر لا يستأذنونك في القعود عن الجهاد؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ الجهاد فريضةٌ، ولأنَّهم أعزَّاء في ذات أنفسهم، ولأنَّهم يعلمون أنَّ اللّه تعالى مُبتليهم بالخوف والجوع ونقص مِنَ الأموال والأنفُس، ولأنَّهم يصبرون في الشَّدائد، ولأنَّهم يعلمون أنَّهم في الجهاد يفوزون بإحدى الحُسنيَين: النَّصْرِ أو الشَّهادة، وفيهما الخير كلُّه، ولأنَّهم يعلمون أنَّ الدُّنيا متاعها إلى أجل محدود، وأنَّ الآخرة خيرٌ وأبقى، ولذا ذُكِرَ الإيمانُ باليوم الآخر بجوار الإيمان باللّه اعتمادًا على القويِّ المتين، والإيمانُ بالآخرة إيمانٌ بالجزاء والعِوض عن الحرمان والشَّهادة"[1].

مَن عمّر قلبه بالإيمان، من المؤمنين الصّادقين، لم يستأذن في الجهاد، بل سارع إليه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الجملة، بين البيان والتّعليل والاستئناف:

الجملَةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ﴾ "واقعةٌ موقعَ البيان لجملة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، وموقعَ التَّعليل لجملةِ ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾، أو هيَ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لِما تثيرُه جملة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، والاعتبارات متقاربةٌ، ومآلُها واحدٌ"[2]، وهذا التنوُّع يثري المعنى، فهذه الجملة تبيِّن الصَّادقين، وقد وقعت موقعَ التَّعليل للاستفهام، والمعنى: لمَ أذنت لهم؟ والمؤمنون الحقُّ لا يستأذنون، وإنَّما يلبُّون دعوة الجهاد إيثارًا للآخرة على الدُّنيا، ويصحُّ أن تكون استئنافًا بيانِيًّا، كيف يتبيَّن لي الصادقُ من الكاذب؟ فجاء الجواب.

دقّة الاستعمال لإبراز المراد، ممّا يُدرك ويُستفاد

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل المنفيّ:

آثَر النَّظمُ الكريم تصديرَ الآيةِ الكريمة: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3317.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/211.

واقعُ حال المؤمنين عدمُ الاستئذان، والسّعي بلا تقاعس للجهاد

﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ بالفعلِ المنفيِّ؛ لبيان حقيقة المؤمنين الواقعة، فليس من شيمتهم الاستئذانُ في الخروج للجهاد، فصيغةُ الخبر أدلُّ على التصاقهم بهذه الصِّفة حتى صارت واقعًا يُخْبَرُ به عنهم، فـ "ليس من عادةِ المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخُلَّصُ من المهاجرين والأنصار يقولون: لا نَستأذِنُ النَّبيَّ ﷺ أبدًا، ولنُجاهدنَّ معه بأموالنا وأنفسنا"[1]، فطابق الإخبارُ عنهم، قال الزَّجَّاج: "أعلم اللّهُ ﷻ نبيَّهُ ﷺ أنَّ علامةَ النِّفاق في ذلك الوقت الاستئذانُ"[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ:

مُبادَرَةُ أَهْلِ الإيمانِ الصَّادِقينَ لإجابَةِ داعي الجِهادِ

عُبِّرَ بالفِعْل المضارِع ﴿يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾ لإفادَةِ التَّجدُّدِ والاستِمْرارِ، والمرادُ استمرارُ النَّفيِ لا نفيُ الاستِمْرارِ، بقرينَةِ مَدْحِهِم وتعليقِ الفِعْلِ بوصفِهِم بالإيمانِ، والمرادُ: أنَّهم مستمرُّونَ على تركِ الاستئذانِ في الجهادِ، بَلْ كُلَّما سمعوا داعيَهُ؛ أجابوا.

بلاغةُ تنوُّعِ مُتَعَلِّقِ الإذن:

تنوُّعُ التَّعلُّق يكسب مدح المؤمنين

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ قيل: لا يستأذِنونَ في التَّخلُّف عَنِ الجهادِ، بَلْ يَخْرُجون للجهادِ، ويُبادرونَ إليهِ مِنْ غيرِ تعَلُّلٍ بالأعذارِ، ويجوزُ أن يكونَ مُتَعَلِّقُ الاستئذانِ الجهادَ، والمعنى: لا يستأذنونك في الجهاد، بل يَمضون فيه غير متردِّدين، وهذا والذي قَبْلَهُ متآيلانِ.

ويَحْتَمِلُ أَنْ يكونَ مُتَعَلِّقُ الاستئذانِ محذوفًا، ويكونُ قولُهُ: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ مفعولًا مِن أجله، تقديره: لا يستأذنك المؤمنون في القعود؛ كراهةَ أن يجاهدوا، بل إذا أمرتهم بشيءٍ بادروا إليه، أو أن التَّقدير: لا يستأذنك هؤلاء في ألَّا يجاهدوا، إلَّا أنَّه حُذِفَ حرفُ النَّفْيِ، كما حُذِفَ في قولِه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾ [النساء: 176]، ويدلُّ على هذا

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/527.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/445.

المحذوفِ أَنَّ ما قبلَ الآيةِ وما بعدها يَدُلُّ على أنَّ هذا الذَّمَّ إنَّما كان على الاستئذان في القعود[1].

سِرُّ تقديمِ المفعولِ به على الفاعل:

تميّز الرّسول الأكرم، بكونه الآذِنَ في الجهاد، والمقصودَ بالخِطابِ

قُدِّم المفعولُ به، وهو الضَّميرُ العائد على الرَّسول الكريم ﷺ في قوله: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾؛ لِمَزيد العناية به؛ إذ هو الدَّاعي إلى الجهاد، الآذِنُ فيه، فهو المقصودُ الأوَّل بالحديث، فقُدِّم على الفاعل تنبيهًا على أهمِّيَّته، وعِظَم مكانته في الجهادِ في سبيل اللّهِ تَعالى.

نُكْتَةُ التَّعبير بالفاعل اسمًا موصولًا:

إطالةُ صيغةِ المدحِ تعظيمٌ للمَمْدوحينَ

جاء الفاعلُ في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾ اسمًا موصولًا؛ لتَنْبَنِي عليهِ جُمْلَةُ الصِّلَةِ؛ وهي مناطُ الرِّفْعَةِ وعِظَم المكانة، وجاءت جُملة الصِّلة فِعْلًا مُضارِعًا إشارةً إلى تَجَدُّد إيمانِهم واستمرارِه.

دلالة تَقْييدِ الإيمان باللهِ واليوم الآخَرِ:

الإحاطةُ في الوصفِ بأركان الإيمان دالٌّ على عِظَمِ قَدْرِ الموصوفين

قُيِّدَ فِعْلُ الإيمانِ بالاسْمِ الأَحْسَنِ (اللّه) في قول اللّهِ تَعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾ تَعْظيمًا لِقَدْرِ إيمانهم، ولكونه الرُّكْنَ الأوَّلَ من أركان الإيمان، ثُمَّ عطفَ عليه (اليوم الآخر) وهو الرُّكن الخامسُ، وسِرُّ التقييد بذلك الإيماءُ إلى أنّهم أحاطوا بأركان الإيمان؛ لكونِ الإيمانِ باللّه ﷻ إيمانًا بالمبدأ، والإيمانِ باليوم الآخر إيمانًا بالمَعَادِ؛ فَهُمَا الطَّرَفانِ، وما سِوَاهما داخلٌ فيهما، على قاعدةِ: أَنَّ البَيْنَ مُسْتَحْضَرٌ في الطَّرفَيْنِ، وفي ذلك مدْحٌ لهم، وبيانٌ لعظيم قَدْرِهم.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/527، وابن عادل، اللّباب: 10/104، 103، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/229. والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/57، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/211.

نُكْتَةُ تقديم الجهاد بالمال، على الجهادِ بالنَّفس:

من صفاتِ المؤمنين بذلُ المال الذّي تتعلّقُ به النَّفسُ، في سبيل اللهِ تَعالى

في إضافة الأموال والأنفس إليهم في قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ﴾ تخصيصٌ، وفي تقديمِ الأموال على الأنفس مع أنَّ بَذْلَ النَّفس هو الأشرفُ ؛ تنبيهٌ على إيثارهم أُخْراهم على دُنياهم، وعادةُ القرآنِ الكريم تقديمُ المال في الحديثِ عن زينة الحياة الدُّنيا، حتى إِنَّهُ قُدِّمَ عَلى البَنين؛ وذلك لِما جُبلت عليه النُّفوس من حبِّهِ والتَّعلُّق به، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [الكهف: 46]، و﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ﴾ [التوبة: 85].

سِرُّ خَتْمِ الآيةِ بعِلْم الله بالمتقين:

شهادةٌ بأنَّهم انتظموا في سِلْكِ المتَّقين، لينالوا جزاءهم يوم الدّين

خُتِمَت هذهِ الآيَةُ بقولهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ تأكيدًا لمضمون الآية الكريمة "وتقريرًا لمضمون ما سبق، كأنَّهُ قيل: واللّٰهُ عليمٌ بأنَّهم كذلك، وإشعارًا بأنَّ ما صدَرَ عنهم مُعلَّلٌ بالتَّقوى"(1)، وَخُتِمت الآية الكريمة بالجملة الاسميَّة، ووقع المسند إليه بالاسم الجليل (اللّٰه) إشعارًا بالمهابة والجلال.

ووقع المسندُ صِفَةً من صفاتِه جلَّ وعزَّ، وهذه الصِّفةُ تناسبُ السِّياق؛ إذِ الحديثُ جارٍ في مطاوي النُّفوس وخبايا القلوب، ووقع الجارُّ والمجرور صِفَةً عُلْيا من صفات المؤمنين، وهذا الختمُ "شهادةٌ لهم بالانتظام في زمرة المتَّقين، وعِدَةٌ لهم بأجزل الثَّواب"(2).

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/527، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70.

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التّوبة: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

علاقة المقابلة بين المؤمنين الّذين يجاهدون بلا استئذان، والمُخَلَّفينَ المرتابة قلوبهم

لمّا برَّأَ المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد؛ انتقل إلى بيان صفة المنافقين غير المؤمنين بالله واليوم الآخر، فالتَّناسب بين الآيتين تناسبُ تضادٍّ؛ وذلك لأنَّه لمّا "أخبر بالمتّقين عرَّف بغيرهم على وجه الحصر؛ تأكيدًا لتحقيق صِفَةِ العلم بما أخبر به سُبحانَهُ، فصار الاستئذان مَنْفيًّا عن المؤمنين مرَّتين، فثبت للمنافقين على أبلغ وجه ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱرۡتَابَتۡ﴾: مِنَ الرَّيب، وفِعْلُه: رابَ، وأرابَ، يقال: رابني كذا، وأرابني، "والرَّيْبُ: أن تتوهَّم بالشَّيءِ أمرًا ما، فينكشِف عمَّا تتوهَّمُهُ؛ ولهذا قال: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، والإرابة: أن تتوهَّم فيه أمرًا، فلا ينكشف عمّا تتوهَّمُه فيه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الحج: 5]؛ تنبيهًا أن لا ريبَ فيه. وقولُهُ: ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30]، سمَّاهُ رَيْبًا لا أنَّه مُشكِّكٌ في كَوْنه، بل من حيث تُشَكِّكَ في وقت حصوله، فالإنسانُ أبدًا في ريب المَنون من جهة وقتِه، لا من جهة كونِه، والارتيابُ يجري مجرى الإرابَة، ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ﴾ [النور: 50]، ونفى عن المؤمنين الارتيابَ، فقال: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾"[2]. والمعنى الذي تدورُ عليه هذه المادَّةُ: "أن يَنْزِلَ بالقارِّ السَّاكنِ ما يُزعجه، ولا يتمَيَّز له وجهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/327.

(2) الرّاغب، المفردات: (ريب).

الخلاص منه، ومنه الرَّيْبُ والرِّيبة: الشَّكُّ والظِّنَّةُ والتُّهمة، ينزل بالنَّفس السَّاكنة أمرٌ غيرُ مُتَبَيَّنِ الوجه، أو غير مُسَوَّغٍ، فيثيرها، أحقٌّ هو أم باطلٌ؟... وبهذا المعنى كلُّ (ارتاب) ومضارعها، و(مرتاب)، ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، والشَّكُّ المريب: هو الذي تَصْحَبُهُ شُبْهَةٌ تَزيد الإِلْباسَ"[1].

2) ﴿قُلُوبُهُمۡ﴾: مِنَ الفِعْل (قلَبَ)، يقالُ: قَلْبُ الشَّيءِ؛ وهُوَ "تصريفُهُ وصرْفُهُ عن وجهٍ إلى وجهٍ، كقَلْبِ الثَّوْبِ وقلب الإنسان، وَقَلْب الإنسان؛ قيل: سمِّيَ به لكثرة تَقَلُّبه، ويُعبَّرُ بالقَلْبِ عنِ المعاني الَّتي تختصُّ به من الرُّوح والعِلم والشَّجاعة وغير ذلك، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي: الأرواح، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37] أي: علم وفهمٌ"[2]. والمعنى المحوريُّ لمادَّةِ القافِ واللَّامِ والباءِ: باطن الشَّيءِ ولُبُّهُ، ومِنْهُ: القلوب، وأكثَرُ "ما في القرآن الكريم من كلمة (قلب) وجمعُها؛ متعلَّق الكلام فيها هو ما أسنده القرآنُ إلى القلبِ مِن وظائفِ الفقه والتدبُّر والإيمان وضدِّه... وما إلى ذلك، عدا آيتي: الأحزاب ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10]، وغافر ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ [غافر: 18]، فالمقصود فيهما المضغةُ عينُها"[3].

3) ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾: مِنَ الرَّدِّ، وهو: "صَرْفُ الشَّيْءِ بذاته أو بحالةٍ من أحواله، ويقال: رددْتُه فارتدَّ، وردَّةُ الإبل أن تتردَّد إلى الماء"[4]. والمعنى المحوريُّ لمادَّةِ الرَّاءِ والدَّالِ: "صدُّ استرسالِ ما يمتدُّ أو ينتشرُ، فينعكس اتِّجاهه، أو يتراكم أو يتكاثفُ، وأرَدَّ البَحْرُ: كثُرت أمواجه وهاج؛ لارتداد أمواجه بأخرى أو بالرِّيح أو بالشاطئ"[5]، ويتردَّدون في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ معناها: يتحيَّرون.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّما يستأذنك المنافقون الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر في القعود عن الجهاد

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريب).
(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلب).
(4) الرّاغب، المفردات: (رد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ردد).

منتحِلين الأعذارَ، مُقْسِمين أحرجَ الأيمانِ وأغْلَظَها، واللّهُ يعلم إنَّهم لكاذبون، وهذا يقتضي عدمَ الإذن لهم بسرعة، فهم قدِ ارتابت قلوبهم، ومُلِئت شكًّا ونفاقًا، وهم في رَيْبِهِم يتردَّدون[1].

المتخلّفون عن الجهاد، لا إيمان لهم، لما في معاذيرهم من زَيْف، وما في قلوبهم من حَيْف

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

شبهُ كمالِ الاتِّصال ودلالة السّياق على الاستئناف البيانيّ:

وقعت هذه الجملةُ ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ ممَّا قبلَها موقعَ الجوابِ عن سؤالٍ مقدَّر، أثارته الجملةُ السَّابقة، والتَّقديرُ: مَنِ الذي يستأذن؟ فجاءَ الجواب في قولِه: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾، فـ "الجملةُ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، نشأ عن تبرئة المؤمنين من أن يستأذنوا في الجهاد، ببيان الذين شأنُهم الاستئذان في هذا الشَّأن"[2].

براءةُ المؤمنين يؤكِّدها ذِكْرُ صفةِ غيرهم

بلاغةُ أسلوبِ القصر:

تمكينُ معنى استئذانهم الكاشفِ عن نفاقهم

جاء التَّعبيرُ بأسلوب القصر في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ لقوَّة المعنى وتمكينه؛ لأنَّ القصرَ يفيد مفاد خبرين: بإثباتِ أمْرٍ، ونفي غَيْرِه، فهي تؤكِّد جملةَ ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ﴾، وقد كانت هذه الجملة مُغْنِيَةً عنِ الجملة السَّابقة، إلَّا أنَّ في ذِكْرِها تنويهًا بفضيلة المؤمنين[3]، ألا ترى أنَّه لو قيل عقب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾؛ لأفاد أنَّ المؤمنين ليس من صفاتهم الاستئذانُ، لكن ما جاء عليه النَّظم الكريم نوَّه بفضيلة المؤمنين مرَّتين؛ الأولى بالتَّصريح، والأخرى: بالإشارةِ والتَّلميح، وكلُّ فضيلة تُذْكَرُ للمؤمنين تزيد المنافقين قُبْحًا، فإنَّ كثرة المحاسن في طرفٍ تَكْشِفُ كثرةَ القبائح في مقابله.

---

(1) محمود حجازي، التفسير الواضح: 10/80.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/212.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/212.

سِرُّ التَّعبيرِ بأداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾:

الاستئذانُ من صفاتِ المنافقين التي لا تُنْكَرُ

من بلاغة النَّظم الكريم أنِ اصطفى أداةَ القصر (إنَّما) في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾، والمقرَّر عند البلاغيِّين أنَّ من مقاماتها الذِّكْرَ فيما لا يُنْكِرُه المخاطَب، ودلالتها في هذا الموضع نفيسةٌ؛ لأنَّها صوَّرت استئذانَ المنافقين في صورة الحقيقة النَّاصعة الواضحة التي لا تَحْتاجُ تأكيدًا، فاستئذانُهم وصفٌ ثابتٌ بيقين، معروف لكلِّ النَّاس.

دلالةُ حذف مُتَعَلِّقِ الاستئذان:

في الحذف تعميمٌ؛ لقصدِ التَّنفير مِنَ الاستئذان في الجهادِ

حُذِفَ مُتَعَلِّقِ الاستئذان في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾؛ لإرادةِ العموم، تَرْهيبًا مِنَ الإذن في الجهاد بوجهٍ عامٍّ، والمتعلِّق قُدِّر في قوله تَعالى قَبْلُ: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ بما يُلائم صفةَ المؤمنين المبادرين إلى الجهاد، الباذلين في سبيله المالَ والنَّفس، فقُدِّر على مُوجب السِّياق من المدح، ولكنَّ السِّياق في قوله سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ سياقُ ذمٍّ، بقرينةِ نفي الإيمان عنهم، وتمكُّن الشَّكِّ في قلوبهم، فيقدَّر المتعلِّق الاستئذان على الذَّمِّ بمعونةِ السِّياق، "والمعنى: إنَّما يستأذنك في التَّخلُّف مطلقًا، أو لكراهة الجهاد"[1].

سِرُّ تقديم المفعول به على فاعلِه:

الرَّسولُ الكريم ﷺ، هو موضِعُ خوفِ المنافقين

قُدِّم المفعولُ به في ﴿يَسْتَـْٔذِنُكَ﴾ على الفاعل، فقال سُبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ لبيان أنَّ المصطفى ﷺ هو موضِعُ خَوْفِ المنافقين؛ إذ هو الظَّاهر أمام أعينهم، والنَّفع والضُّرُّ مِنْهُ عِنْدَهُم، فلا التفات عندهم لله سُبحانَهُ، لكنَّ التفاتَهم وعنايتهم بالظَّواهر، كما قالَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/212.

اللّهُ تَعالى في نُظرائِهم: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 108].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفاعل اسمًا موصولًا:

المبالَغةُ في تَقْبيحِ المنافقين وذَمِّهم

التَّعبيرُ بالاسم الموصول في قول اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ اقتضى ذِكْرَ جملةِ الصِّلة، وهي المناطُ والدَّافع لكلِّ أفعال القُبْح، كما أنَّ في التَّعبير بالموصول إطالةً للكلام بذِكْرِ ما يُقَبِّحُ الفاعل، ويعود عليه بالذَّمِّ، تأمَّلْ كلِّ ذلك سيفوتُ لو قيل: إنَّما يستأذنُك المنافقون الذين ارتابت قلوبهم، وقد جاءت جملة الصِّلة "﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾بصيغة المضارع للدِّلالة على تجدُّد نفي إيمانهم"[1].

نُكْتَةُ تخصيص الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾:

الإيمانُ باللهِ واليوم الآخر، الباعثُ عَلى الجهادِ والإصلاح والتّقوى

خُصَّ الإيمانُ باللّه واليوم الآخرِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ إيذانًا "بأنَّ الباعث على الجهاد ببذلِ النَّفس والمال، إنَّما هو الإيمانُ بهما؛ إذْ به يَتَسَنَّى للمؤمنين، استبدال الحياة الأبديَّة والنَّعيم المقيم الخالد بالحياة الفانية والمتاع الفاسد"[2].

بلاغةُ المقابلة:

المقابلةُ تميِّزُ بوضوحٍ الخبيثَ من الطَّيِّب

قابل النَّظْمُ الكريم بين هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، والآية السَّابقة ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، فنُفِيَ الاستئذانُ قَبْلُ في ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾، وهنا أثبتَهُ بتمكُّن ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾، وأثبتَ في الآية المتقدِّمَة الإيمانَ باللّه واليوم الآخر ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، ونفاهُ ههنا في قولِه: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، والمقابلةُ أسلوبٌ يمتِّن ترابطَ المعاني، ويجعل المعنيَين يُنظران في مرآةٍ واحدة، تعكس التَّمييزاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/213.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70.

والعلاماتِ الفارقاتِ بين الفريقين، وذلك له أثرٌ بالغ في التَّعجيل بالإقلاع عنِ الخسيس والاسْتِمْساكِ بالرَّفيع.

سِرُّ العطفِ على جملة الصِّلة:

تمكُّنُ الرَّيْبِ في قلوبِ المنافقين مِنْ ظهور أمْرِ النَّبِيِّ الأكرم

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ "عطفٌ على الصِّلة، وإيثار صيغة الماضي؛ للدِّلالة على تحقُّق الرَّيب وتقرُّره"[1]، وهذا العطفُ "يدلُّ على أنَّ المراد بالارتيابِ الارتيابُ في ظهور أمر النَّبِيِّ ﷺ، فلأجل ذلك الارتياب كانوا ذوي وجهين معه، فأظهروا الإسلامَ؛ لئلَّا يَفوتَهُم ما يحصُل للمسلمين مِنَ العِزِّ والنَّفع على تقديرِ ظهورِ أمر الإسلام، وأبطنُوا الكفرَ حفاظًا على دينِهم الفاسد، وعلى صلتهم بأهل ملَّتهم"[2].

نُكتَةُ إسنادِ الارتيابِ إلى القُلوبِ:

الارتيابُ مستقِرٌّ في القلب استقرارًا مَكِينًا

في إسناد الارتياب إلى القلوب في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ مجازٌ عقليٌّ، من إسناد الفعلِ إلى مكانه، فالقلبُ هو محلُّ الطُّمأنينة، وموضع الرِّيبة، وذلك ممَّا يدلُّ على استقرار الرَّيب وتمكُّنه في قلوبهم، فهو محرِّكُهم ودافِعُهم في كلِّ تصرُّفاتهم.

بَراعَةُ التَّفريعِ:

ربْطُ الأسبابِ بِمُسَبَّباتِها، يؤكِّد تفسيرَ التَّصرُّفات

"فُرِّع قولُه: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ على قوله: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ تفريعَ المسبَّب على السَّبب؛ لأنَّ الارتيابَ هو الشَّكُّ في الأمر بسبب التَّردُّد في تحصيله، فَلِتَرَدُّدِهم لم يصارحوا النَّبِيَّ ﷺ بالعصيان لاستنفاره، ولم يَمْتَثِلوا له، فسلكوا مَسْلَكًا يصلُح للأمرين، وهو مسلك الاستئذان في القُعود، فالاستئذانُ مسبَّبٌ على التَّردُّد، والتَّردُّد مُسبَّبٌ على الارتياب، وقد دلَّ هذا على أنَّ المقصود مِن صِلَة الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/213.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/213.

هو قوله: ﴿وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ لأنَّه المنتج لانحصار الاستئذان فيهم"[1].

بلاغةُ الاستعارة في حرف الجَرِّ (في):

الشَّكُّ المحيطُ بالنَّفس، يُغيِّبُها عن حقائق الأشياء

استُعيرَ حرف الجرِّ (في) في قول اللّه تعالى: ﴿فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾؛ لِما في معناه من الإحاطةِ والتَّمكُّنِ، وفي الاستعارة تصويرٌ للمعاني المعقولة في مبانٍ محسوسةٍ، ممَّا يمكِّن المعنى ويقوِّيه، فقد أحاط بهم الشَّكُّ من كُلِّ جانب إحاطةَ الظَّرف بمظروفه، فلا خلاصَ لهم منه ولا مَخْرَجَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالكناية في ثوب الاستعارة التَّمثيليَّةِ:

الحَيْرَةُ صفةٌ دائمةٌ مستمرَّةٌ للمنافقين

جاء قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ فعلًا مضارعًا؛ وهُوَ دالٌّ على استمرارِ حَيْرَتِهم وتجدُّدِها، وذِكْرُ التَّردُّدِ كنايةٌ عَنِ الحيرة والتَّشتُّتِ، "فإنَّ التَّردُّد دَيْدَنُ المُتحيِّر، كما أنَّ الثَّبات دَيْدَنُ المُستبصر"[2]، وقد جاءت هذهِ الكِناية في ثوب الاستعارة التَّمثيليَّةِ؛ "فالتَّردُّد حقيقتُه: ذَهابٌ ورجوعٌ متكرِّرٌ إلى محلٍّ واحدٍ، وهو هنا تمثيلٌ لحال المتحيِّر بين الفعلِ وعدمه بحال الماشي والرَّاجع، وقريبٌ منه قولهم: يُقدِّم رِجلًا ويُؤخِّر أخرى"[3]، وفي ذلك مِنْ إبرازِ المعاني المعقولَةِ في قالبِ الصُّورِ المحسوسَةِ؛ ترسيخًا لهذه المعاني في نفوسِ المُتلقِّينَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/213.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/70.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/214.

﴿* وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۝٤٦﴾ [التّوبة: 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرّبـط بـينَ الادّعاء والواقع، وأنّهم ما أرادوا الخروج ولا أعدّوا له، فثبّطهم الله

هذه الآيةُ جاءت لتؤكّدَ معنى الآية السَّابقة، وَتُبيِّن علامةَ استئذان المنافقين، فلقد كانت الآية السَّابقة عليها كاشفةً عنِ العلَّة الباطنةِ في الخُروج، فبيَّنت هذه الآيةُ العلامةَ الظَّاهرةَ الكاشفةَ عنِ العلَّة الباطنة، فاتَّسقت في التَّرتيب بعدها، فكانَتْ تمامًا لمعناها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُدَّةً﴾: العِدَّةُ - بِكَسْرِ العين - هي الشَّيءُ المعدود، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ [المدثر: 31] أي: عددهم، وقوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184] أي: عليه أيامٌ بعدد ما فاتَه من زمان آخرَ غير زمان شهر رمضان، والعِدَّة: عِدَّة المرأة، وهي الأيَّامُ التي بانقضائها يحِلُّ لها التَّزوُّجُ. والعُدَّة - بضَمِّ العين -: أُهْبةُ السَّفَرِ، وما يحتاجه المجاهدُ في سبيل اللّه مِنَ المال والسِّلاح، والإعداد الذي هو تهيئةُ النَّفْسِ، وله عُدَّةٌ، أي: شيءٌ كثيرٌ يُعدُّ من مالٍ وسلاحٍ وغيرها[1].

2) ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾: أصلُ البَعْثِ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يقال: بعثتُه فانبعث، وقوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي: تَوَجُّهَهُم للخروج ومُضيَّهُم"[2].

3) ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: أي: ثقَّلَ عليهم الخروجَ، وحَبَسَهم عنه، قال اللّه تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾: حبسهم وشَغَلَهُم، يُقال: ثَبَّطَهُ المرضُ وأثبطه؛ إذا حبسه، ومنعهُ، ولم يكد يفارقه"[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدد). والرّاغب، المفردات: (عدّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بعث)، والكفويّ، الكلّيات، ص: 202.
(3) الرّاغب، المفردات: (ثبط).

4) ﴿ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾: قعَد: القعود يُقابلُ به القيام، والقَعْدَةُ للمَرَّة، والقِعْدَةُ: للحال التي يكون عليها القاعد، والقعود قد يكون جمع قاعِد، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ [النساء: 103]، ويُعبَّرُ عن المتكاسلِ في الشَّيءِ بالقاعدِ، نحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: 95]، والقاعدةُ: مَن قعَدت عن الحيض والتّزَوُّج، والقواعد: جمعها، قال تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: 60][1].

۞ المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

كشف نيّة المنافقين بعدم النّية وعدم الاستعداد للخروج، والإعتذار بما ليس بحقّ

المنافقون لم يريدوا الخروجَ ابتداءً، ولو أرادوا الخروجَ لبَدَتْ أماراتُه فأعدُّوا العدَّة والسِّلاح، وما تحتاجُ إليه حربٌ شديدةٌ، وكره اللّه تَعالى أن يخرجوا لَمَّا علم أنَّهم يُريدون الخَبَال والاضطراب للمُؤْمِنين، فخذَلَهم، وأوقع في نُفوسِهم نزوع الكَسَل والضَّعف، وأزال رغبتهم في النُّهوض إلى النَّفير مع جَيْشِ الإيمان، وما ذلك إلَّا للمَصْلَحَةِ المترتِّبة على مَنْعِهم مِنَ الخروج، فكانتِ المصلحَةُ في ألَّا يخرجوا حمايةً لجيش الإيمان من الفتن، وإثارة الخلاف[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

موقعُ الواو ودلالته:

التَّعليلُ للمعنى بالعِلَلِ البيِّنة إقناعٌ وإمتاعٌ

الواوُ في قول اللّهِ تَعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ﴾ إمَّا أن تكون عاطفةً ما بعدَها على ما قبلها من باب عطف المعنى على المعنى، ويكون المرادُ: الذين يستأذنونك لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر، ولا يستعدُّون للخروج، ولا يُعِدُّون له العدَّة.

وإمَّا أن تكون استئنافيَّةً، ويكون المعنى: لا يستأذنك إلَّا الذين لا

(1) الرّاغب، المفردات: (قعد).

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير، ص: 3320.

يؤمنون باللّه واليوم الآخر، وعلامةُ ذلكَ ودليلُهُ: عدمُ استعدادِهم للخروج، ولا التأهُّل لذلك الخروج، وما يحتاجه من الأُهْبَةِ والسِّلاح وغيرهما، والاستئنافُ أوقعُ مَعْنًى مِنَ العطف، وإنْ كانا غيرَ متعارِضَيْن، فيجوزُ حَمْلُ اللَّفظِ عليهما معًا، ويكونُ هذا مِنْ بابِ الإيجازِ والإعجازِ.

نُكْتَةُ تعليقِ الشَّرْطِ بـ (لوْ):

المعلَّق على المَمْنوعِ ممنوعُ الحُصولِ

عُبِّر بأسلوب الشَّرْطِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، واصطفى من أدواته (لو)؛ لبيان استحالَةِ خُروجِهم، وذلك لاستحالَةِ اسْتِعْدادِهم وأُهبتهم، والمعلَّقُ على الممتنع ممتنعٌ مِثْلُهُ، وأسلوبُ التَّعليق هو الملائِمُ لتَحْقيقِ الإقْناعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل الماضي:

امتناعُ الإرادة أبلغُ مِن امتناعِ الفعل

اخْتير الفعلُ الماضي ﴿أَرَادُواْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ مبالغةً في بيانِ امتناعِهم عنِ الخروج، ولو ورد النَّظْمُ القرآنيُّ: (ولو خرجوا)، لفاتَتْ هذه الدِّلالَةُ، إلَّا أنَّهُ أرادَ نفيَ أَدْنى درجاتِ الهَمِّ مِنْهُم، وهو الإرادَةُ، فإذا نُفيَتْ عنهم الإرادَةُ؛ كان نفيُ الفِعْلِ عَنْهم مِنْ بابِ أَوْلى وأَحْرى.

براعةُ التَّعبيرِ بالمفعول به مُعَرَّفًا باللَّام:

المنافقون أحقرُ مِن أَنْ يُشاركوا في أيِّ خروجٍ مَمْدوحٍ

جاء المفعولُ به (الخروج) مِنْ قول اللّهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ معرَّفًا باللَّام؛ للدَّلالة على خروجٍ معروفٍ، فاللَّام لِلعهد العِلْميِّ؛ وهو الخروجُ لغزوةِ تبوكَ، ولم يُنَصَّ على هذا الخروج بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ولو أرادوا الخروج لتبوك)؛ لِشُهْرَته ومعرفته، وللدَّلالة على أهمِّيَّته، وحاجة المسلمين للتَّكثير، كما أنَّ في الإطلاق إيذانًا بأنَّهم أقلُّ من أن يكونوا أهلًا لأيِّ خروجٍ مَمْدوحٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالجواب:

وقعتِ اللَّامُ في جواب الشَّرط في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ

الإعدادُ يَتِمُّ قبلَ الخروج، لا في وقت حصوله

﴿ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، وجاءَ التَّعبيرُ بالفعل (أَعَدّوا) ماضيًا؛ للإشارَةِ إلى أنَّ العَزْمَ على الخروج يَقْتَضي سَبْقَ الإعداد؛ لأنَّ الإعدادَ يكونُ قَبْلَ حُلول وقته، فَتَرْكُهُمُ العُدَّةَ دليلٌ وأمارةٌ على إرادتَهم التَّخَلُّفُ، ويَحْتَملُ أن يكونَ في هذا إيماءٌ إلى أنَّهم كانوا قادرين على تحصيل الأُهْبَة والعُدَّة، ولكنَّهم تَرَكوا ذلك[1].

نُكْتَةُ تقديم الجارِّ والمجرور على المفعول بِهِ:

تحديدُ الأغراضِ والمقاصد، ضرورةٌ في إتقان العمل وإنجازه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على المفعول به ﴿عُدَّةٗ﴾ في قول اللّه سُبحانه: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾؛ لبيان الاهتمام بالغرض مِنَ الإعداد، وذلك لِما للأغراض والمقاصد مِنَ التَّأثيرِ في الاستعداد لها، والضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يعود للخروج.

سِرُّ تنكيرِ المفعولِ بِهِ:

بذلُ الوُسْعِ، وصدْقُ العزم، مقدَّمٌ على العمل

وقعَ المفعولُ بِهِ ﴿عُدَّةٗ﴾ مُؤَخَّرًا ونكِرَةً في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾، وفي التَّنكير بيانُ أنَّ المطلوب في العُدَّة بذلُ الجهدِ على قَدْرِ الباذلِ، فلا يُكلَّف أحدٌ بما فوق وُسْعِه، كما أنَّه جاء مُؤَخَّرًا تقديمًا للغَرَضِ على المطلوبِ تحقيقُه؛ لبيانِ مكانة صِدْق العزمِ مِنَ العمل.

دلالةُ الواو، وسِرُّ العطف على محذوفٍ:

بيانُ أسبابِ الامتناع الحقيقيَّةِ، فَضْحٌ للمنافقين

الواو في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ عاطفةٌ على محذوفٍ، كأنَّه قيل: "ما خرجوا، ولكن كرِهَ اللّه انبعاثهم"[2]، والعطفُ هُنا لربْطِ سبَب عدم إعدادِهِم العُدَّةَ، ودافِعِهم إلى الامتناعِ عنِ الخروج والتَّخلُّف.

وسِرُّ حذف المعطوفِ عليه الإيماءُ إلى عدَمِ إثبات أيِّ عزمٍ لَهُمْ

---

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 16/80.

(2) ابن عادل، اللّباب: 10/105، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/58، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71.

على الخروج، ولَوْ كان الفعلُ مَنْفيًّا، ففي الحذفِ مبالغةٌ في بيان تخلُّف المنافقينَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ:

عُبِّرَ في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ بالفعل (كَرِهَ)، للدَّلالَةِ على أنَّهم ليسوا أهلًا لهذا الشَّرف؛ لِما سبق في عِلْمِ اللّهِ تعالى أنَّهم كذلك.

ما سبقَ في علمِ اللهِ تعالى، لا سبيلَ لمخالفتهِ

وفي إسنادِ الفِعْلِ للاسم الجليل (اللّه) إدخالٌ للمَهابَةِ والجلالِ في النُّفوس.

سِرُّ التَّعبيرِ بالانْبِعاثِ دونَ الخُروجِ:

كان مقتضى الظَّاهر أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (ولو أرادوا الخروج لأعدُّوا له عدَّة، ولكن كره اللّه خروجهم)، ولكن عُدِلَ عَنْ ذلكَ، وعُبِّر بالانْبعاثِ، فقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾، والأبلغُ ما جاء عليهِ النَّظْمُ الكريم، لأنَّه إثباتٌ لكُرْهِ اللّهِ سُبحانَهُ لأيِّ حركَةٍ للمنافقين، وفيهِ مِن تقبيح صورَتِهم ما فيه؛ لأنَّ أصلَ البَعْثِ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُه، يقال: بَعَثْتُه فانْبَعَثَ، ففيهِ مِن عموم الحركةِ، فالتَّعبيرُ بالانْبعاثِ إيماءٌ إلى أنَّ الموتَ أَوْلى بِهِم، وأنَّ السُّكون طَبْعُهم ودَيْدَنُهم.

كُلُّ تحرُّكٍ للمنافقين، منبوذٌ مِن ربِّ العالمين

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالفاءِ:

الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ عاطفةٌ، وهي لِلعطف الرُّتبي، فهو انتقال عاجلٌ دون مُهْلَةٍ من رتبةِ البُغْضِ إلى الفعل المُبين عنِ الكُره.

الكُرْهُ يعقبُه أثرٌ سريعٌ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

عُبِّرَ بالفعل الماضي (ثبَّط) مِنْ قولِ اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ تأكيدًا لتَحقُّق ذلك كُلِّه قبل الدَّعوة للخروج؛ لِما ثَبَتَ في عِلْمِ اللّهِ سُبحانَهُ مِن كون

المنافقون ممنوعون من نيل الفضائل منعًا لا زوالَ لَهُ

طبائعهم مستعصيةً على نَيْلِ الشَّرف، واصطفى النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ (ثَبَّط) وهو مِن فرائد السُّورة الكريمة؛ لدلالته على الحبْس غيرِ المُفارَق والمنع التَّامِّ، فهو أبلغُ مِمَّا لو جاءَ النَّظْمُ القرآنِيُّ بـ (فَحَبَسَهُم) أو (كسَّلَهُمْ).

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالفعل المبنيِّ للمَفْعولِ:

المنافقُ يُطيعُ كُلَّ قائلٍ يَدْعوهُ إلى القُعود

عُبِّرَ بالفعل المبني للمفعول (قيلَ) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾؛ ليَحْتَمِل التَّقديرُ كلَّ فاعلٍ ممكنٍ، ويجوزُ أن يكون القائلُ هُنا الشَّيطان عن طريقِ الوَسْوَسَة، فهو إمامهم في الحياة وقائدهم في كلِّ مساعيهم، ويجوزُ أن يكون القائلُ بَعْضَهُم لبعضٍ، فَبَعْدَ ما خلا الشَّيطان بأفرادهم؛ حَمَلَهُم على الاجتماع؛ لِيَقولَ بَعْضُهُم لبعضٍ ذلك القولَ أو ما في معناه، ويجوزُ أن يكون القائلُ هُو سيِّدُنا رسولُ اللّه ﷺ، وفيه بيانٌ لمعنى الإذْنِ على سبيل السُّخْرِيَّة بالمنافقينَ، وكأنَّهم ذهبوا إليه لِيستأذِنوهُ مِن بَعْدِ ما تَشاوَروا. ويَحْتَمِلُ أن يكون القائلُ هُو اللّهَ تعالى على سبيلِ الزَّجر والتَّوبيخ(1). ولا تنافيَ بينَ كلِّ هذهِ المعاني، بَلْ إنَّ بعضَها يأخذُ بِحُجَزِ بعضٍ ويُقَوِّيهِ ويؤكِّدُهُ. كما أنَّ في التَّعبير بالبناء للمفعول "إشارةً إلى أنَّهم يُطيعون الآمِرَ بالقعود حقيقةً أو مجازًا، كائنًا مَن كان"(2)، ولو صُرِّحَ بالفاعل؛ لفاتَتْ كُلُّ هذه المعاني، لكنَّها بلاغةُ الإيجازِ والإعجازِ.

دِلالةُ الأمْرِ:

التَّوبيخ بتوجيه الأمـر بالفعل المذموم، زاجرٌ للمأمورِ مِنْهُ

فعلُ الأمر في ﴿ٱقۡعُدُواْ﴾ مِنْ قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ خرجَ عن أصلِ دلالتِهِ؛ وهو الإلزامُ بالفِعْلِ، إلى مَعْنًى مجازيٍّ؛ وهُوَ التَّوبيخ والزَّجر؛ وذلك لِما في القعود مِن الذَّمِّ الذي

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/446، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/82، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/40، وابن عادل، اللّباب: 10/107.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/491.

يُلازِمُه غالبًا، ولا يدلُّ على غير المعنى المذموم إلَّا إذا قارَنَهُ ما يَدْفَعُ عَنْهُ الذَّمَّ، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ [النساء: 95].

براعَةُ أسلوبِ التَّتْميم:

المبالغةُ في ذَمِّ المنافقين، بِنَظْمِهِم في سِلْكِ مَن شَأْنُهُم القُعود

خُتِمَت هذه الآيةُ بقول اللّهِ تعالى: ﴿مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾؛ تبكيتًا لِلمُنافِقين، ففيهِ ذمٌّ لهم، وتعجيزٌ، وإلحاقُهُم بِمَنْ شأْنُهم القعود، وفي هذا كنايةٌ عَن تَباطُئِهم عَنِ داعي الخَيْرِ، وأنَّهم تشبَّهوا بالنِّساء والصِّبيان[1]، وفي هذا التَّبكيت ما لا يَعْلَمُ مقدارَهُ إلَّا أولو الهِمَمِ العليَّة والأنفس الأبيَّة، وكان الاكتفاءُ بقوله: ﴿ٱقْعُدُوا۟﴾ ممكنًا لإفادَةِ أَصْلِ المَعْنى؛ لكنْ لَو اقْتُصِر على الأَمْرِ بالقعودِ؛ لم يدُلَّ على مَعْنى نَظْمِهِم في سِلْكِ النِّساء والصِّبيان والمرضى والزَّمْنى والمعتوهين[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/276، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/429، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 3/469، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/210.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/109.

﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ [التّوبة: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بين تبكيتِ المخلَّفين، وبين كونِ خروجِهم فتنةً وضلالًا وتثبيطًا

جاءتِ الآيةُ الكريمة لبيان الحكمة في أنَّ اللّٰهَ سُبحانَهُ ثبَّطهم، فلم يخرجوا، فقال سبحانه: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ أي: لو خرجوا في جَمْعِكُم المؤمنِ المجاهد، وساروا لا يُجاهِدون، ولَكِنْ يَسيرون على ما كانوا عليه بَيْنَكُم مِنَ التَّشكيك في خُروجِكُم وفي قُوَّتِكُم، وفي ذلك إشاعَةُ العَناء والخورِ والضَّعف[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَبَالٗا﴾: الخبالُ: الفسادُ الذي يَلْحَقُ الحيوانَ فيُوَرِّثُه اضْطِرابًا، كالجنون والمرض المُؤَثِّر في العقل والفِكْرِ، وقوله: ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ أي: فَسادًا وشَرًّا، وأصلُ مادَّةِ الخاءِ والباءِ واللَّام: يدلُّ على فَسادٍ[2].

2) ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ﴾: الوضع: أعمُّ مِنَ الحطِّ، ومنه الموضعُ، قال اللّٰهُ تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النّساء: 46]، وَوَضَعَتِ الدَّابَّةُ تَضَعُ في سَيْرِها: أَسْرَعَت، ومِنْهُ قولُ اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾، والوضعُ في السَّيْر: استعارةٌ، كقولهم: ألقى باعَهُ وثِقَلَهُ[3].

3) ﴿خِلَٰلَكُمۡ﴾: الخلَلُ: فُرْجَةٌ بين شَيْئَيْن، وجمعه: خِلالٌ، كخلَلِ الدَّار والسَّحاب والرَّمادِ ونحوها، قال تعالى في صفة السَّحاب:

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3322، 3321.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خبل).
(3) الرّاغب، المفردات: (وضع).

﴿فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [النور: 43]، وقال سُبحانَهُ: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ [الإسراء: 5]، وقال اللّه ﷻ: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي: سَعَوا وسطَكم بالنَّميمة والفساد، والخلل في الأمر كالوَهْن فيه، تشبيهًا بالفرجة الواقعة بين شَيْئَين[1].

4) ﴿يَبۡغُونَكُمُ﴾، أي: يطلبون لكم ما تُفتَنُون به، والباء والغَيْنُ والياءُ تدورُ تصريفاتُها على مَعْنى طلب الشَّيءِ، ومنه قولُهُمْ: بَغَيْتُ الشَّيءِ أبغيه، أي: طَلَبْتُه[2].

5) ﴿ٱلۡفِتۡنَةَ﴾: الفاء والتَّاء والنُّون تدورُ تصريفَاتُهَا علَى إذابة مادَّةِ باطنِ الشَّيءِ وتحويلِها؛ بإدخالها نارًا حارَّةً، ومِنْهُ إذابة الذَّهب والفضَّة، ومِنْهُ: تحويلٌ معنويٌّ؛ كالافتتان بالنِّساء، وذلك برِقَّةِ القلوب نحوهِنَّ حتَّى يقع المرءُ في المحظورِ[3]، والفتنةُ في قول اللّه تعالى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾: الشِّركُ والنِّفاقُ[4].

6) ﴿سَمَّٰعُونَ﴾، أي: مطيعون قابلون لكلامهم، أو عيونٌ يتجسَّسون لهم الأخبار، ويَنْقُلُونها إليهم، وأصل (سمع) يدلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذن[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خروج المنافقين شـرّ لازب، ومفسدة محقّقة، ولذلك لم يوفّقهم الله إليه

لو خرجوا معكم - أيُّها المؤمنون - فلن يزيدوكم بخروجهم إلَّا شرًّا وفسادًا، وإيقاعَ الاضطرابِ بينَكُم، وَلَأَسْرَعوا المشْيَ بَيْنَكُم بالنَّميمة والبغضاء، وفيكم - يا أهلَ الإيمانِ - مَن يَسْمَعُ كلامَهم، فيقبلُهُ، ويستجيبُ له، ويطيعُه، واللّهُ عليمٌ بالظَّالمين، ولِعِلْمِهِ الأزَليِّ بهم مَنَعَهُم الخروجَ معكم.

(1) الرّاغب، المفردات: (خلّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي)، والرّاغب، المفردات: (بغي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/473.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سمع).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصْلِ قوله: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ﴾ عمَّا قَبْلَهُ:

في تقرير المفاسدِ، تأكيدٌ لبيانِ المصلحة في عدم الخروج

قولُ اللّه تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ جملَةٌ مستأنَفةٌ؛ لبيان أنَّه معنًى جديدٌ، والكلام مسوقٌ لتقرير المفاسد المترتِّبَةِ علَى خروجهم، والمرادُ التَّأكيدُ على أنَّ الخير في عدم خروجهم، فالجملة "استئنافٌ بيانيٌّ لجملة ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾؛ لبيان سِرِّ كراهيَةِ اللّه انبعاثَهم، وهي إرادةُ اللّهِ سلامةَ المسلمين[1].

نُكْتَةُ تعليق الشَّرطِ بـ (لو):

امْتَنَعَ فسادُ المنافقين لامتناع خُروجِهم

عبَّر النَّظْمُ الكريم بأسلوب الشَّرط في قولِ اللّه تعالى: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ عَقِبَ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرْطِ وبالأداة نفسِها في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾؛ لمُتابعَةِ أُسْلوبِ الإقناع بطريقِ الاحتجاجِ بأُسْلُوب التَّعليق، وباسْتِخْدام أداة الامتناع للامتناع، مِمَّا يُؤَكِّد أنَّ المصلحةَ كانت في مَنْعِ المنافقين مِنَ الخُروج مع المسلمين.

سِرُّ إيثار التَّعبير بـ (في)، دون (مَع):

الإفسادُ مِنَ الدَّاخلِ أثرُهُ أَخْطَرُ

عَبَّر النَّظْمُ الكريم بحَرْفِ الجرِّ (في) دُونَ الظَّرْفِ (مع)، فقال سُبحانَه: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾؛ لبيانِ تخلُّلهم في المسلمين وانغماسِهم فيهم، ممَّا يجعلُ أثرَهم الفاسدَ بَالغًا داخلَ القوم، والفسادُ حينما يَحْصُلُ في القَلْبِ مِنَ الجيش يُفْسِدُه كلَّهُ.

كما يوحي اصطفاءُ حَرْفِ الجرِّ (في) بعناية المنافقين بفساد الجَمْعِ، ويؤكِّد هذا المعنى دخولُ (في) على ضمير المخاطَبين ﴿فِيكُم﴾ أي: لأنَّكم مقصودُهم مِنَ الخروج، وليس الغزوَ ولا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/216.

الجهادَ، فهم لا يخرجون إلَّا لتعمُّد إفْسادِكُم. وشبهُ الجملةِ "﴿فِيكُم﴾: حال، وتقدير المعنى: مُخالطين لكم"(1).

بلاغةُ التَّعبير بجواب الشَّرط، في ثوب أسلوبِ القصر:

تعظيمُ المصالح بيانٌ لنعمة الله على المسلمين، بمنع المنافقين مِن الخروج

جاءَ التَّعبيرُ بأسلوب القَصْرِ في جملَةِ جواب الشَّرط في قول اللّهِ تَعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾، وهو أسلوبٌ يُفيد تمكينَ المعنى وقُوَّتَه؛ لأنَّه بمنزلَةِ جُمْلَتَيْنِ، مع ما فيه مِنَ الإيجاز، وفي ذلك تأكيدٌ لبيان ثبوتِ المصلحةِ في مَنْعِهم مِنَ الخروج. وقدِ اصْطُفِيَ مِنْ طرُقِ القَصْرِ النَّفيُ والاستثناء، وهو الملائِمُ لِما يُنْكِرُهُ المخاطَبُ، وله أثرُه في إزالَةِ الإنكار.

دلالةُ الاستثناء بين الانقطاع والاتِّصال:

تَنَوُّعِ المعاني القُرآنيَّةِ، بِتَنَوُّعِ الاعتبارات اللَّفظيَّة

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ استثناءٌ مُفرَّغ، وهو إمَّا أن يكون مُنْقَطِعًا، وتقدير المعنى: ما زادوكم خيرًا ولا قُوَّةً إلَّا خبالًا؛ لأنَّ الاستثناء المنقطعَ يكون المستثنى مِنْ غَيْرِ جِنْسِ المستثنى مِنْهُ، وهذا يُبْعِد أَن يُراد المسلمون بزيادَةِ الخبال، ويكون المرادُ مِن قوله سُبحانَهُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي: جواسيسُ.

وعلى اعتبار كونه استثناءً مُتَّصلًا؛ يكون المستثنى منه مَحْذوفًا أَيْضًا، ويُقدَّرُ عامًّا، والمعنى: ما زادوكم شَيْئًا إلَّا خبالًا، وهذا يُدْخِلُ بعضَ المسلمين في زيادة الخبالِ، ويُؤَيِّد هذا المعنى ما جاء بعدُ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾(2)، ويكون المرادُ بالضَّمير في ﴿وَفِيكُمْ﴾ بَعْضَ المسلمين، وفي هذا الموقع إثْراءٌ للمعنى مَع وَجَازةِ الأسلوب.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمستثنى منكَّرًا:

جيءَ بِصيغة التَّنكير في المستثنى ﴿خَبَالًا﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَوْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/448، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/83، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/40، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/58، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71.

﴿خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ للدَّلالة على عمومِ الفساد بكُلِّ معانيه، وفي التَّعميم زيادةٌ في بيانِ فَضْلِ اللّهِ تَعالى على المسلمين؛ إذْ وقاهُمْ شرَّ هذا الخبالِ المُستطير.

التَّعميمُ يزيدُ النِّعمة فَضْلًا

مع ما في التَّعبير بلفظِ الخبالِ مِنْ مَعْنًى دقيقٍ؛ إذِ الخبالُ هُوَ الفساد الذي يلحقُ الحيوانَ، فَيُوَرِّثُه اضطرابًا، كالجنون والمرض المُؤَثِّر في العقل والفِكْرِ، وهذا المعنى يفوت لو عُبِّر بدلَ الخبالِ بـ: ضعفًا أو فسادًا، ولم ترد لفظة (خبالًا) في القرآن إلَّا في موضعين: سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ [آل عمران: 118]، وفي هذا الموضع.

دِلالةُ العطفِ في الآية:

بيانُ وجوهِ الخَبالِ والفسادِ، تَفْصيلٌ لِلْمُجْمَلِ المستفاد

قولُ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ معطوفٌ على جوابِ الشَّرْطِ ﴿مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾، وهذا العطفُ يبيِّن وجوهَ الخبالِ الذي كان مِنَ المنافقين لو خرجوا، وفي تفصيل وجوهِ الفساد العامِّ تأكيدٌ لِنِعْمَةِ اللّهِ تَعالى على المسلمين في مَنْعِهِ المنافقين مِنَ الخروجِ.

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّةِ:

تجسيدُ فتنةِ المنافقين، وإيراد المعاني في قالب المحسوساتِ، يَكْشِفُ خطورتهم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ استعارةٌ تمثيلية "لحالة المنافقين حين يبذلون جُهدهم لإيقاع التَّخاذلِ والخوف بين جيش المؤمنين، وإلقاءِ الأخبار الكاذبة عن قوَّة العدد، بحال من يُجْهِدُ بعيرَهُ بالسَّير لإبلاغ خبرٍ مهمٍّ، واختير هُنا ذِكْرُ الإيضاع؛ لعِزَّةِ هذا المعنى، ولِما فيه مِنَ الصَّلاحيَّة لتفكيك الهيئة، بأَنْ يُشبَّهَ الفاتِنون بالرَّكْبِ، ووسائل الفتنة بالرَّواحل.

وفي ذكر ﴿خِلَٰلَكُمۡ﴾ ما يَصْلُحُ لتشبيه استقرائِهم الجماعاتِ والأفرادَ بِتَغَلْغُلِ الرَّواحل في خلال الطُّرق والشِّعاب"[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/217، 21، باختصار.

نُكْتَةُ حذف المفعول به:

الإسراعُ في إلقاء الفتنة بين المسلمين، دَأْبُ المنافقين

في حذف مفعولِ الفعل (أوضع) مِنْ قول اللّه تعالى: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ "إشارةٌ إلى أنَّ مُرادَهم الإيضاعُ نفسُهُ، لا بِقَيْدِ دابَّة، وعُبِّر بالإيضاع؛ لأنَّه للرَّاكب، وهو أَسْرَعُ للماشي"[1]، ففي حذف المفعول بِهِ توفيرٌ لِلعِنايَةِ عَلى الفِعْلِ في حدِّ ذاتِه، والمرادُ: المبالغة في الإسراع بالنَّمائم"[2]، وكلُّ ذلك تجسيدٌ لعَمَلِ المنافقين في المسلمين لَو خَرَجوا، وفيهِ مِنْ بيانِ فَضْلِ اللّهِ سُبحانَهُ على المسلمين ما فيه.

سِرُّ تقييدِ الإيضاع بالجُمْلَةِ الحاليَّة:

القَيْدُ يحَدِّد مقصدَ الفاعل، ويكشِفُ هَدَفَهُ الحقيقيَّ، ويُبَصِّرُ المسلمين بالخَطَرِ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ جملة حاليَّةٌ من فاعلِ (أوضعوا)، والمعنى: لأَسْرَعوا فيما بينَكُم باغينَ الفتنَةَ، وهذا القَيْدُ حدَّد مَقاصِدَ المنافقين، وبيَّنَ الحالَ التي يتلبَّسون بها حينَ خُروجِهم، مِمَّا يُبصِّر المسلمين بِخَطَرِهم.

فائدَةُ حَذْفِ حرْفِ الجَرِّ مِنَ الفعل:

شدَّةُ مَكْرِ المنافقين بِأَهْلِ الإِسْلامِ

قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَبۡغُونَكُمُ﴾ أصله: يبغونَ لَكُمْ، لَكِنْ حُذِفَ الجارُّ، وفي حذْفِهِ وَتَوْجيهِ الفِعْلِ للمفعول بِهِ مباشرةً؛ بيَّنَ مقاصد المنافقين، فالمسلمون كلُّهم مَقْصودونَ لَهُم، فَهُمْ يُريدونَ أن يكونَ المسلمون هُمُ الفِتْنَةَ نَفْسَها.

دلالة الواو بينَ الحالِ والاستئناف:

دأبُ المنافقين التَّجَسُّسُ، وضَعْفُ بَعْضِ النُّفوس يَجْعَلُها عُرضَةً لسماع المنافقين

الواوُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ إمَّا أن تكون واوَ الحالِ[3]، فتكون الجملةُ الاسميَّةُ حالًا من المفعول به في ﴿يَبۡغُونَكُمُ﴾ أو من فاعله، والمعنى: وفيكم سمَّاعون لهم يتجَسَّسون عليكم، وينقُلون إِلَيْهِم أخبارَكم، ويَكْشِفون لهم خُطَطَكم، ومجيءُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/491.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/63، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/71، وابن عادل، اللّباب: 10/107.

(3) ابن عادل، اللّباب: 10/109 والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/61.

جملة الحالِ اسميَّةً يبيِّن أنَّ دأبَ المنافقين إيقاعُ الفِتْنَةِ بالتَّجَسُّس والعَمَلِ بالنَّمائم.

ويجوز أن تكون الواوُ استئنافيَّةً[1] وتكون في بعض المسلمين، وعليه تكون الجملة "اعتراضًا؛ للتَّنبيه على أنَّ بَغْيَهم الفتنةَ أشدُّ خَطَرًا عَلى المسلمين؛ لأنَّ في المسلمين مَن تَنْطَلي عليهم حِيَلُهم"[2]، ومن بديعِ البلاغة أنَّ الجملة واحدةٌ، وَلَكِنَّ موقعَها الإعرابيَّ بيَّن تعدُّدَ معانيها حَسَبَ مَوْقِعِها، وهو ضَرْبٌ مِنَ الإيجاز، لتعَدُّد المعنى، والرَّسْمُ واحدٌ.

بلاغةُ تقديم الخبر على المبتدأ:

زيادةُ التَّحذير، تَقْتَضي تقديمَ المُحذَّر مِنْهُم

قُدِّمَ الخبرُ على المبتدأ في قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ﴾ لبيانِ انغماس المنافقين في المسلمين، ومبالَغَتِهم في معرفة دَواخلِ نُفوسِهم، وفي التَّقديم إشارةٌ إلى شِدَّةِ الحذَرِ مِنْهُم، ومعاملتهم ظاهرًا دون مخالطتهم، واستخدام حَرْفِ الجرِّ (في) يُرَشِّح القول بأنَّ المرادَ بهِمُ المنافقون لا بعضُ المسلمين الذين خُدِعوا بمقالاتِ المنافقينَ؛ لأنَّه لو كان مُرادًا؛ لجاء النَّظْمُ القرآنيُّ: (ومنكم سماعون لهم).

وجاء قوله: ﴿سَمَّٰعُونَ﴾ بصيغة المبالغة للدَّلالة على أنَّ اسْتِماعَهُم تامٌّ، وهو الاستِماعُ الذي يقارنه اعتقادُ ما يُسْمَعُ[3].

بلاغةُ التَّذييلِ:

تقريرُ المعنى المتقدِّم وتأكيدُه، يَزيدُ النَّفْسَ قناعةً ويقينًا

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذْييلٌ يُقَرِّر كُلَّ ماضٍ، ويؤكِّدُه، فهُوَ جلَّ وعزَّ يَعْلَم أحوالَهم ظاهرَها وباطنها، ويُحيط بِضَمائِرِهم، وما فعلوا فيما مَضى، وما يَتَأَتَّى مِنْهُم فيما سيأتي، والمقصود من هذا التَّذييل "إعلامُ المسلمين بأنَّه يعلَمُ أحوالَ

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/109، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/61.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/218، بتصرف.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/218.

المنافقين الظَّالمين، ليكونوا منهم على حَذَرٍ، وليتوسَّموا فيهم ما وَسَمَهُم القرآنُ به، ولِيَعْلَموا أنَّ الاستماعَ لَهُمْ ضربٌ مِنَ الظُّلم"[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

إحاطةُ اللهِ بالظَّالمين ثابتةٌ مُستمِرَّةٌ، وعِلْمُهُ بحقائِقِهم دائمٌ لا يَنْقَطِع

اخْتيرتِ الجملةُ الاسميَّةُ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للدَّلالة على ثبوت علمه بِظُلْمِهم، وإحاطته بهم، وقد عُبِّر بالاسم الأحْسَن (اللّه) لِإدخالِ المهابَةِ والجلال.

وقَدَّمه على الخَبَرِ تعجيلًا لِتلكَ المهابة، وجيءَ بِالخبر وَصْفًا جليلًا للاسْمِ الجليلِ بما يُلائم مقامَ التَّخويف والتَّحذير.

نُكْتَةُ وضعِ المُظْهَرِ موضعَ المُضْمَرِ:

التَّسجيلُ عليهم بوصفِ الظُّلْمِ، يحقِّقُ الوعيدَ والتَّهديدَ

قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وُضِعَ المُظْهَرُ موضِعَ المضمر في قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وكان مقتضى الظَّاهر أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (واللّه عليم بهم)، لَكِن عُدِلَ عَنْ ذلك إلى الإظْهار؛ للتَّسْجيل عليهم بالظُّلم، والتَّشْديدِ في الوعيد، بترَتُّبِه على الظُّلم، ويكونَ شامِلًا للفريقَيْنِ: السَّمَّاعين والقاعدين[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/218، بتصرف.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم، 4/71.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التّوبة: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بين تقاعُسِ المنافقين وفتنتِهم المتأصِّلةِ، حتّى جاء الحقُّ والنّصرُ على كُرْهٍ منهم

لَمَّا تقدَّمَ الآيةَ الكريمة تسليتُهُ ﷺ، بقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التّوبة: 47] في أمرٍ لم يكن واقعًا؛ عقَّب بأمر واقعٍ شاهد؛ ش لأنَّ التَّسليةَ بالواقع أقوى منها بالمقدرة، فهي تقريرٌ لما قُرِّر وقوعُهُ(1)، فذكرَ في هذه الآيةِ نوعًا آخرَ مِن مَكْرِ المنافقين وخُبْثِ باطنهم(2)، وهي أيضًا تعليلٌ لقوله: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التّوبة: 47]؛ لأنَّها دليلٌ بأنَّ ابتغاءهم الفِتْنةَ للمسلمين ديدنٌ لهم من قَبْلُ وعادة(3).

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱبْتَغَوُا۟﴾: بَغَيْتُ الشَّيءَ أَبغيه بُغاءً، وابتغيته: طلبتُه(4)، فأصلُ الابتغاءِ الدَّلالةُ على طلب الشَّيء، وكذلك صيغة (بَغَى) الَّتي ليست لمعنى التَّجاوز. "بَغَى الضَّالَّةَ والحاجة، وكذلك ابتغى الشَّيء، وتبغَّاه، واستبْغاه، والبُغْية - بالكسر والضّم -: الحاجة المَبْغيَّة"(5).

وقد خُصَّ الابتغاءُ بالاجتهاد في الطَّلب، فمتى كان الطَّلب لشيء محمودٍ، فالابتغاء فيه محمودٌ(6)، ومتى كان لمذمومٍ كما في (ابتغاء الفِتْنة) هنا؛ فهو مذمومٌ.

2) ﴿وَقَلَّبُوا۟﴾: القلبُ: باطنُ الشَّيء ولُبُّه، وقَلْبُ الأرض إخراجُ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/311.
(2) الفخر الرَّازي، مفاتيح الغيب: 16/65.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/219.
(4) الخليل، العين: (بغي).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصّل: (بغى).
(6) الرّاغب، المفردات: (بغي).

لباطنها، ومنه الدَّلالة "على ردِّ شيء من جهة إلى جهة"[1]. فقَلْبُ الشَّيء: تصريفُهُ وصرْفُهُ عن وجه إلى وجه، كقلْبِ الثَّوب، وقلب الإنسان، أي: صرفُه عن طريقته، وسمِّي القلبُ قلبًا لكثرة تقلُّبه[2]، وتقليب الأمر في الآية: تصريفُه وترديدُه لأجل التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ فيه[3]، والاجتهادِ في المكر والحيلة، يُقالُ للرَّجل المتصرِّف في وجوه الحِيَل: حُوَّلٌ، وقُلَّبٌ أي: اجتهدوا، ودبَّروا لك الحِيلَ، والمكايدَ، ودوَّروا الآراءَ في إبطال أمرك[4].

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ عن تخلُّف المنافقين، وسعْيِهم إلى الفِتْنةِ باطِّرادٍ

الآيةُ تحريضٌ للنَّبيِّ ﷺ على المنافقين بأنَّهم أعملوا فكرَهم، وأجالوا آراءَهم في كيدك وكيد أصحابِك وخذلان دينك، وذلك في أوَّلِ مَقْدَم النَّبيِّ ﷺ المدينة رُميَ عن قوس واحدةٍ، وحاربتْهُ يهود المدينة ومنافقوها، فلمَّا نصرَهُ اللّٰه يوم بدر وأعلى كلمته، قال عبد اللّٰه بن أُبيٍّ وأصحابه: هذا أمر قد تَوَجَّه، فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلَّما أعزَّ اللّٰه الإسلام وأهله؛ غاظَهم ذلك، وساءهم[5].

وهي أيضًا تسليةٌ "للرَّسول ﷺ والمؤمنين عن تخلُّف المتخلِّفين، وبيانُ ما ثبَّطهم اللّٰه تعالى لأجله، وهتَك أستارَهم، وكشَفَ أسرارَهم، وإزاحةِ أعذارِهم تداركًا لما عسى يفوت بالمبادرة إلى الإذن، وإيذانًا بأنَّ ما فات بها ليس ممَّا لا يمكن تلافيه تهوينًا للخَطب"[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قلب).
(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/65.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/72.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/161.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/72.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ اللَّامِ في قولِه: ﴿لَقَدِ﴾:

التَّوطِئةُ للقسَمِ والتَّأكيدِ، تجليةٌ لبيانِ الآيةِ الكريمةِ

قد يُستغنى بجواب القَسَم عنِ القَسَم، فيكونُ الجوابُ دليلًا على القَسَم المحذوفِ، وتدلُّ عليه اللَّامُ الواقعةُ في جواب القَسَم المصدَّرِ بفعل ماضٍ غير جامد، فيكون الجواب باللَّام مع (قد) مُفيدًا توكيدَ التَّقرير والإثبات، وتحقيق معنى الجملة، وإزالة الشَّكِّ؛ والموطن هنا فيه ردٌّ وإنكارٌ على طلبهم الشَّديد لإشاعة الفِتْنة بين المسلمين.

سِرُّ الافتتاحِ بحرف التّحقيقِ (قد):

طلبُهم الفِتْنةَ واقعٌ متحقِّقٌ، رسخ في عقيدتِهم وأفعالِهم

لا ينفكُّ التّحقيقُ عن (قد)، إذا دخلَتْ على الفعل الماضي، ومعنى التَّحقيق ههنا: أنَّ ابتغاءَهم الفِتْنةَ واقعٌ، وثابتٌ، ومتيقَّنٌ، ومتحقَّقٌ لا محالةَ، ذلك أنَّهم مارسوه فعلًا من قبلُ، ورسخ فيهم صنيعًا.

سِرُّ إيثارِ ﴿ٱبۡتَغَوُاْ﴾ دونَ غيرِه:

تجاوزُهم في فتنتِهمُ الحدَّ، طيشٌ وجهْلٌ بالعواقِبِ

الابتغاءُ: طلبُ تجاوزِ الاقتصاد فيما يُتحرَّى، يُقال: بغَيْتُ الشَّيءَ؛ إذا طلبتُ أكثرَ ما يجبُ، والابتغاءُ مذمومٌ إذا تجاوز الحقَّ إلى الباطل؛ كما في طلب المنافقين الشَّديدِ للفتنة، والسَّعْيِ الحثيثِ إليها، والإصرار القويِّ عليها.

نُكتةُ عودِ الضَّميرِ في ﴿ٱبۡتَغَوُاْ﴾، وأثرُه في المعنى:

التَّكنيةُ عنهم حطٌّ لقدْرِهم، وازدراءٌ لحالهم التّعيسِ

الضَّميرُ يعود إلى الَّذين استأذنوا من النَّبيِّ ﷺ، وثبَّطوا المؤمنين، وهم المنافقون[1]، والتَّعبيرُ عنهم بالإضمار بدلَ التَّصريح تقليلٌ لشأنهم، وحطٌّ من قدْرِهم.

نُكتةُ استعمالِ ﴿يَبۡغُونَكُمُ﴾ و﴿ٱبۡتَغَوُاْ﴾:

البيانُ بعد الإجمال، توخٍّ للمشابهةِ، وإبرازٌ للدّلالةِ

قال قبل هذه الآية: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾، وقال هنا: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾، فعبَّر أوَّلًا بالأصلِ، وهنا بالمطاوع، والسِّرُّ في ذلك أنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3323.

(ابتغى) أخصُّ من (بغى)؛ فعبَّر بالإبغاء في الأولى، وبالأخصِّ في الثَّاني ليكون بيانًا عَقِيبَ إجمالٍ[1].

دَلالةُ لفظ ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾:

فتنتُهم تخذيلٌ وصَدٌّ، وردٌّ إلى الكُفرِ والنُّكرانِ

ذهبَ القونويُّ إلى أنَّ المرادَ بالفِتْنة في هذه الآية دون ما ذُكرَ فيما سبق، موضِّحًا تفسيرَ البيضاويِّ للفتنة بـ(تشتيت أمرك، وتفريق أصحابك)، أي: طلبوا صدَّ أصحابِك عن الدِّين وردِّهم إلى الكفر، وتخذيل النَّاس عنك قبل هذا اليومِ[2].

وَجهُ إفرادِ ﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾ وجمعِ ﴿ٱلْأُمُورَ﴾:

أسبابُ الفِتْنةِ عند المنافقين متعدِّدةٌ، تتجدّدُ بتجدُّدِ مآربِهم الخَسيسةِ

الأصلُ إفرادُ الأمور وجمعُ الفِتْنة؛ لأنَّ الفِتْنةَ مصدرٌ محدودٌ بالتَّاء الدّالّة على الواحدة، والأمرُ جنس فيه، ويدلُّ على القليل والكثير، لكنَّه عكس؛ لأنَّ الأمرَ أسبابٌ للفتنة، والفِتْنة غَيْرٌ عنها[3]. واختلاق الأسباب متعدِّدٌ لديهم، متنوِّعةٌ وجوهُه.

بَلاغةُ الإيجازِ:

تأريخُ المنافقين مُخزٍ شنيعٌ، منذُ انبثاقِ الدَّعوةِ النَّبويّةِ، في المدينةِ المرضيّةِ

المرادُ بقوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبْلِ غزوةِ تبوكَ الّتي كانت آخرَ غزوة غزاها رسول اللّه ﷺ، أي: إنَّ ما صدر عن هؤلاء المنافقين من مسالكَ خبيثةٍ خلال هذه الغزوة ليس هو الأوَّل من نوعه؛ إذ لهم في هذا المضمار تاريخٌ مُظلم مُخزٍ، بدأ منذ أوائل عهدِ الدَّعوة الإسلاميَّة بالمدينة المنوَّرة[4].

دَلالةُ الواو العاطفةِ، في: ﴿وَقَلَّبُواْ﴾:

العطفُ على ما قبلَها، لتأكيدِ إصرارِهم على الفِتْنةِ، وتشبُّثِهم بها

الواو لُمطلَق الجمعِ، وتقتضي ههنا تحقيقَ فعل ابتغاءِ الفِتْنة المتقدِّم، وتأكيدَ إصرارِهم على إيقاعها بين المسلمين، وفيه مزيدُ التَّقرير لسوء صنيعِهم.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/312.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/83، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 9/244.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/312.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/311.

تَوجيهُ التَّشديدِ في لفظة ﴿وَقَلَّبُواْ﴾:

تفنُّنهم في إبداء وُجوه الأذَى، دليلٌ على كُفرهم وسَفهِهم

وقولُه تعالى: ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ بتشديد اللَّام، مضاعفُ (قلب) المخفَّفِ، والمضاعفةُ للدَّلالة على قوَّة الفعل، وإصرارهم عليه، ومبالغتهم فيه وتمعُّنهم في القيام به[1]. وتقليبُ الأمر: تصريفُه، وترديدُه، وإجالةُ الرَّأي فيه، والنَّظرُ إليه من كلِّ نواحيه: لمعرفة أيِّ ناحيةٍ منه توصلُ إلى الهدف المنشود، ليكون فعلُهم بيانًا لتفنُّنهم في وجوه الأذى للنَّبيِّ ﷺ[2]. وممالأة الكافرين، ومعاونتهم على مبتغاهم.

دلالة وجه المبالغةِ:

الدَّلالةُ على مبالغتِهم في تقليب الأمورِ، كمًّا أو شكلًا

يجوز في ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ أنْ يكونَ حقيقةً من قلَّبَ الشَّيء؛ إذا تأمَّل باطنَهُ وظاهرَه ليطَّلِع على دقائق صفاتهِ، فتكونُ المبالغةُ راجعةً إلى الكمِّ، أي: كثرة التَّقليب، أي: تردَّدوا آراءهم، وأعْمَلوا المكائد والحيل للإضرار بالنَّبيِّ ﷺ والمسلمين، ويجوز أن يكونَ ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ مبالغةً في قلب الأمر؛ إذا أخفى ما كان ظاهرًا منه، وأبدى ما كان خفيًّا، كقولهم: قلبَ له ظهرَ المِجَنِّ[3].

بَلاغةُ الاستعارة أوِ المجاز:

التَّفتيشُ يُشابهُ التَّقليبَ، في الإحاطةِ والتّنقيبِ

ويجوزُ أن يكون ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ من (قلَّبَ) بمعنى: فتَّش وبحث، استُعيرَ التَّقليبُ للبحث والتَّفتيش؛ لمشابهة التَّفتيش للتَّقليب في الإحاطة بحال الشَّيء، كقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ [الكهف: 42]، فيكون المعنى: أنهم بحثوا وتجسَّسوا للاطِّلاع على شأن المسلمين وإخبار العدوِّ به[4]، ويحتمل قوله: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ﴾، أي: المكايد، وتقليبها مجازٌ عن تدبيرها، أو الآراء وهو مجازٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/219.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/311.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/219.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/219.

عن تفتيشها، وإجالتها، أي: دبَّروا لك المكايدَ والحيل، أو دوَّروا الآراء في إبطال أمرك[1].

توجيهُ قراءةِ ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ بتخفيف اللَّام:

الدِّلالةُ على واقع المنافقين من تغييرِ الحقائقِ قولًا وفِعْلًا

قرأ مَسْلمةُ بن مُحارب ﴿وَقَلَّبُواْ﴾ بتخفيف اللَّام[2]، أي: أداروا الأمور؛ ليصيرَ ظاهرُها باطنًا، وباطنُها ظاهرًا.والتَّعبيرُ بصيغة (فعَل) في هذه القراءة يشير إلى مآل تدبيرِهم ومكرهم وما تآمروا عليه، فكم من مرَّةٍ تسبَّبوا في إيذاء الرَّسول ﷺ والمسلمين، قولًا وفعلًا! كخذلانهم يوم الأحزاب، وتآمرهم مع اليهود ضدَّهم.

فكأنَّ القراءةَ المتواترة تقصُّ حالَ المنافقين، حين تآمرهم وكيدهم ومكرهم، وسعيهم ضدَّ المسلمين، والقراءة الأخرى تشير إلى ما انتهى إليه تآمرُهم من نكثِ العهد معهم، وخذلانهم.

دَلالةُ اللَّامِ في: ﴿لَكَ﴾:

التَّعليلُ لبيان تعمُّدِهم الإضرارَ بالنَّبيِّ ﷺ والمؤمنين

اللَّام في قوله: ﴿لَكَ﴾ على وجهَي الحقيقَةِ، في قلَّبوا، والاستعارة والمجاز لام العلَّة، أي: لأجلك، وهو مجملٌ يبيِّنُه قوله: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾، فالمعنى: اتَّبعوا فتنةً تظهر منك، أي: في أحوالك، وفي أحوال المسلمين[3].

دَلالةُ التّعريفِ:

الجمعُ والعمومُ تلميحٌ بالذَّمِّ، وكشفٌ لما يَنفثونَه من سُمٍّ

﴿ٱلۡأُمُورَ﴾ جمع أمْرٍ، وهو اسمٌ مُبْهَمٌ مثلُ (شيء)، والألف واللام فيه للجنس، أي: أمورًا تعرفون بعضَها، ولا تعرفون بعضَها الآخر[4].

والجمع تلميحٌ بالذَّمِّ؛ بما يُشير إليه من تكرار المحاولات، وكثرة اختلاقِ المكايد، والدَّسائس، والحِيَل.

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 4/331، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/304، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/430.

(2) هي قراءة شاذّة، ينظر: ابن خالويه، المختصر، ص: 53، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/42، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/50.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/219.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/220.

وَجْهُ التَّعبيرِ بـ﴿حَتَّىٰ﴾ دونَ (إلى):

الـدَّلالـةُ على اعتيادِهم الفِتْنةَ وتقليبَ الأمورِ، وتمادِيهم في ذلك المِضمارِ

وجاءت ﴿حَتَّىٰ﴾ هُنا على قاعِدتها في كَوْن ما بعْدَها وقَع عليه الحُكمُ الّذي وقَع على ما قبلَها، وفي كَون ما بعْدَها آخرًا لما قبلها، وأقلَّ منه في الكمِّيَّة[1]، معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا أنَّ تقليبهم الأمور وتآمرهم ومكرهم لم ينتهِ برغبتهم، لولا مجيءُ الحقِّ وظهورُ أمر اللّه؛ لاستمرُّوا في ذلك؛ لأنَّ مخزون الغلِّ والحقد في قلوبهم جدٌّ كبير.

ولم تكن (إلى)؛ لأنَّها لانتهاء الغاية، إشارةً إلى تعوُّد ذواتهم على ذلك عند ظهوره، وأنَّهم لم يرتدعوا حتى ظهرَ أمرُ اللّه[2]، وفي هذا ترسيخٌ للذَّمِّ، والتَّحقير البادي من سوء صنيعهم.

وتحتمل (حتى) أن تكونَ حرفَ ابتداءٍ، تُستأنف بعده الجملة كما في هذه الآية[3].

عِلَّةُ التَّعبيرِ عن مجيءِ الحقِّ، وظهورِ أمرِ الله بـ﴿جَآءَ﴾:

مجـيءُ الـحقِّ، وظهورُ أمرِ الله، واقعٌ لا محالةَ

يدلُّ التَّعبيرُ بالماضي على وقوع الفعل، وحتميَّةِ تحقُّقه، فدلَّ مجيءُ الحقِّ وظهورُ أمر اللّه تعالى على حصولهما واستقرارهما، وناسب التَّلميحَ بزوال ضعف المسلمين وانكشاف أمر المنافقين[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ المجيءِ ﴿جَآءَ﴾، دون (أتى):

يُـعـبَّرُ بالمجيءِ اعـتـبـارًا بالحُصولِ، وقد تـحقَّقَ مجيءُ الحقِّ بالظّهورِ والانتصارِ

ذكر أبو حيَّانَ أنَّ لفظة ﴿جَآءَ﴾ مشعِرةٌ بأنَّ الأمرَ كان قد ذهب[5]، وذلك يوحي بشدَّةِ سعيهم إلى معاداة دين اللّه، وقوَّةِ محاولاتهم إفشالَ الرِّسالة - خابوا وخسئوا - ولذلك عبَّرَ بفعل المجيء ماضيًا؛ لكونهِ أعمَّ من الإتيان، فهو قد يُقال باعتبار القصدِ، وإن لم يكن منه

(1) ابن فرحون، العُدّة: 2/459.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/312.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/354.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/220.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/52.

الحصولُ، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصول[1]، وهو ما ترسَّخَ بصيغة الماضي الدَّالِّ على تحقُّق مجيئه، ووقوعه.

إيثارُ لفظِ ﴿وَظَهَرَ﴾:

دينُ اللهِ غالبٌ على الدِّين كلِّه، وعنايةُ الله تَقيه منَ الاضمِحلالِ

ووُصِفَ أمرُ الله بالظُّهور؛ لأنَّه كان كالمستور، أي: غلب وعلا دينُ الله[2]، ويُستعملُ لفظ الظُّهور في كلِّ بارز مُبْصَرٍ بالبَصَرِ والبصيرة، وعلى كل كثيرٍ شائعٍ غالب[3]. وذلك حقيقٌ بوصف دين الله تعالى تجليًّا، وانكشافًا، وشيوعًا، وعلوًّا، وتمكُّنًا في الأرض.

سِرُّ تعريفِ الأمرِ بالإضافة إلى اسمِ الجلالة:

دينُ الله عالٍ شأنُه، بسبب نِسبتِه إلى جنابِ المولَى العليّ

المرادُ بظهور أمرِ الله نصرُ المسلمين، وغلبتُهم بفتح مكَّةَ ودخولِ النَّاس في الدِّين أفواجًا، وذلك يكرهُه المنافقون[4]. وإضافتُه إلى اسم الله الأعظم تشريفٌ لهذا الدِّين، وإعلاءٌ لشأنه، وإيذانٌ بانتشاره، وظهوره على الدِّين كلِّهِ، ولو كره المشركون، ودبَّروا الحيلَ والمكائد.

دَلالةُ (الواو) على الحال:

كُرْهُ المنافقين للحقِّ ولِدِين الله، هو حالُهمُ الثّابتُ، ودَيْدَنُهم الرّاسخُ

قوله: ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾، (الواو) حاليَّةٌ، وهي تدلُّ على الاجتماع؛ إذ كان حُكمُ الحال أنْ تكون مصاحبةً لذي الحال، فهي مجتلبةٌ لضمِّ جملةٍ إلى جملةٍ، وتفيد أنَّ اتِّصاف الحالِ بالموصوف أمرٌ ثابتٌ؛ فالكُرهُ للحقِّ ولأمرِ الله، حالتُهم المستقرَّة قبلًا، وأنَّ تلكَ الحال المستمرَّة الدَّائمة من الكُرْه هي سببُ سعيهم إلى الإرجاف، والنِّفاق، والفِتْنة، فضلًا عن دلالة جملة الفاصلة الاسميَّة على مجيء الحقِّ، وأمر اللهِ، وهم في حالٍ كارهون فيها هذا الأمرَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/52.
(3) الرّاغب، المفردات: (ظهر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/220.

سِرُّ صَوْغِ جملةِ الفاصلةِ اسميَّةً لا فعليّةً:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ دالَّةٌ على الثُّبوت؛ والتَّعبيرُ عنها بصيغة الجملةِ الاسميَّةِ للدَّلالة على تمكُّن كرههم، أي: كرهًا لا محبَّةً بعده؛ ذلك أنَّهم لمّا تكرَّر منهم الكُرهُ بما أظهروهُ من تجدُّد فتنتِهم؛ صارَ كالوصف الثَّابت فيهم، وجعل كالحال المستمرَّة الملازمة لهم؛ فهم قومٌ عادتهم الكرهُ، وديدنهم البغضُ.

والمراد بيانُ كمال وصفهم بالكُره لِمَا أنزل اللّه تعالى، وسعيهم إلى خلق الفِتْنة بين المسلمين.

تـمـكُّـنُـهـم في الـكُـرْه، حتّى وصلوا مبلغًا لا يعرفون الحُبَّ من بعدِهِ

نُكتةُ التَّعبيرِ عن كُرْههم، بصيغة اسْمِ الفاعلِ:

رسَّخ وصفُ ﴿كَـٰرِهُونَ﴾ المُصاغ باسم الفاعل ديمومةَ صفةِ الكراهية وثباتِها فيهم، وأنَّ أمرَ الكُره بمنزلة الحاصلِ الثابتِ المستقرِّ، وأنَّ حالَ هؤلاء النَّاس حالُ إعراضٍ دائم عن الحقِّ، فليس كرهُهُم لمجيء الحقِّ، وظهور دين اللّه أمرًا عارضًا لحالٍ وقتيَّة اقتضته، بل الكُرهُ صفةٌ مستمرَّةٌ لهم لا تنفصلُ دائمًا عن تفكيرهم.

مـآلُ الإعـراضِ الـدَّائـمِ عـنِ الحقِّ، التّلبُّسُ بـالـكُـرهِ لـه، والأيـلـولـةُ إلى الهلاك

بَلاغةُ حذْفِ متعلَّقِ الكُرهِ:

يحتمل الاستغناءُ بالمذكور، وحذْفُ ما يكرهونه فضلًا عن المذكور من ظهور الحقِّ وأمر اللّه؛ إعمامَ كرههم ليتعدَّاهما إلى بغضِهم كلَّ شأنٍ يخصُّ المسلمين.

عمومُ كُرْهِهم كـلَّ شـأنٍ لـلـمسلمين، دليلٌ على مرضِ قلوبِهم

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الابتغاءُ والطّلبُ:

"الطَّلَبُ: مُحاولةُ وجدانِ الشَّيء، والطِّلبة: ما كان لك عندَ آخَر من حقٍّ تُطالِبهُ بِه"[1]. فالطَّلب ابتغاءٌ مجرَّدٌ للحاجة دون قيد

اجـتـهـادُهـم في طلب الفِتْنة، تـصـويـرٌ لـسـوءِ طـبـاعِـهـم، وشنيعِ أفعالِهم

(1) الخليل، العين: (طلب).

الاجتهاد، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ [الكهف: 41].

أمَّا الابتغاءُ؛ فقد خُصَّ بالاجتهاد في الطَّلب، فيما كان خيرًا أو شرًّا، وقد تقدَّم أنَّه طلبُ تجاوزِ الاقتصاد فيما يُتحرَّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزْه[1].

ومن خلال بيانِ الفروق يتبيَّن دقَّةُ اختيار لفظ الابتغاء؛ لكونه يتضمَّنُ الاجتهادَ في طلب الفِتْنة، ليناسبَ قديمَ فعلهم، وإصرارَهم بتقليب الأمور، وكرههم لمجيء الحقِّ، وظهور أمر اللّٰه تعالى.

دينُ اللّٰه الإسلامُ بيِّنٌ عالٍ، وغالبٌ قويٌّ، جعله اللّٰه ظاهرًا على كلِّ الأديان

الظُّهورُ، والبروزُ، والتَّجلِّي، الجهرُ:

الظُّهور: أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على انكشافٍ بقوّةٍ وبروزٍ[2]، ويُلمَح في الظُّهور صفاتُ التِّبيان، والغلبة، والعلوِّ، والشِّدَّة، والقوَّة، والقهر[3]، وقد يكون بِقصدٍ وَبغير قصد، تَقول: استتر فلَانٌ ثمَّ ظهر، وَيدلُّ هَذَا على قصد للظُّهور، وَيُقَال: ظهرَ أَمرُ فلَانٍ، إِن لم يقْصد لذَلِك، وقد يدلُّ على الحدوث، كقَوْله تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وَكَذَلِكَ قَوْلك: ظَهرت فِي وجههِ حُمرَةٌ، أَي: حدثت، وَلم يعنِ أَنَّهَا كَانَت فِيه، فظهرت[4].

والبروزُ: الظُّهور بعد الخفاء، والخروجُ، والبُدوُّ[5]، وهو: خلوصُ الشَّيء أو ظهورهُ ظهورًا قويًّا، أي: نفاذه من بين ما يكتنفُهُ بجَهدٍ وقوَّة: كما يخلصُ الذَّهب ممَّا هو شديدُ الامتزاج به[6].

والجَهْر: عُمُوم الإِظْهَار وَالْمُبَالغَة فِيهِ، ألا ترى أَنَّك إِذا كشفت

(1) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (بغي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287.
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (برز).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (برز).

الْأَمر للرَّجل وَالرَّجلَيْنِ قلتَ: أظهرْتَه لَهما، وَلَا تَقول: جهرْتُ بِهِ، إِلَّا إِذا أظهرتَهُ للْجَمَاعَة الْكَثِيرَة، فيزول الشَّكُّ، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةً﴾، أَي: عيَانًا لَا شكَّ مَعَه، وَأَصله: رفْعُ الصَّوْت، يُقَال: جهر بِالْقِرَاءَةِ؛ إِذا رفع صَوته بهَا، ولذلك كان نقيضًا للهمس.

والبُدُوُّ: مَا يكون بِغَيْر قصد، تَقول: بدا الصُّبْح، وبدتِ الشَّمْس، وبدا لي فِي الشَّيء؛ لِأَنَّك لم تقصد للبدوِّ[1].

وعمومُ دلالة الظُّهور، واجتماعُ دلالات: التِّبيان، والغلبة، والعلوِّ، والشِّدَّةِ، والقوَّةِ، والقهر فيه فضلًا عن الحدوث يجعله أنسبَ لاصطفائه في مقام الحديث عن ظهور دين الله المتَّصف بتلكم الصِّفات.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 286.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٩﴾ [التوبة: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين ابتغاء المنافقين الفتنةَ، والاستئذانِ للتخلّفِ بدعوى الفتنةِ بالخروج

أصَّلتِ السُّورةُ الكريمةُ حديثَها عن هؤلاء المنافقين، فحكت جانبًا من أعذارِهم الكاذبة، ومن أقوالِهم الخبيثة[1]، ذلك أنَّهم لما أجْمَلُوا في هذا الحكم، وكان قد أشير إلى أنَّ منهم مَنْ كان قد استأذن في الخروج توطئةً للاعتذار عنه، شرعَ بتفصيلهم، وبدأ بمَنْ صرَّح بالاستئذان[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَقَطُواْۗ﴾: "السِّين والقاف والطَّاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الوقوع، وهو مطَّرد"[3]. وهو طرحٌ للشَّيء من مكان عالٍ إلى مكان منخفضٍ كسقوط الإنسان من السَّطح[4]، ومعنى اللَّفظة: وقعوا في الفِتْنة بنفاقهم، وأُلقوا في الهلاك[5].

المَعنى الإجْمالِيُّ:

التّعلّلُ بالاحتْرازِ مِنَ الوقوعِ في الفِتْنةِ، وهُم واقعون فيها، بتخلُّفِهم عن أمرِ الله

المعنى: ومن هؤلاءِ المنافقين الَّذين لم ينتهِ الحديثُ عنهم بعد ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لك: يا محمَّد ﴿ٱئۡذَن لِّي﴾ في القعود بالمدينة، ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾، أي: ولا تُوقِعْني في المعصيةِ والإثم بسببِ خُروجي معك إلى تبوكَ، ومُشاهدتي لنساء بني الأصفر، نزلت في الجدِّ بن قيسٍ المنافقِ، قال رسولُ الله ﷺ: "هل لك في جهادِ بني الأصفر؟ يعني: الرُّومَ، تتَّخذ منهم سراريَ ووُصفاءَ.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/312.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سقط).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/502، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/65.

فقال: ائذن لي في القعود عنك، ولا تَفْتنِّي بذكر النِّساء؛ فقد علمَ قومي أنِّي مغرمٌ بهنَّ، وأنِّي أخشى ألَّا أصبرَ عنهنَّ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصل:

تفصيلُ ما أُجمِلَ الحديثُ عنه، في مـدْرجِ السّياق السّابقِ

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾، عُطِفَ على قوله: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ﴾، شروعًا في تفصيل ما أُجمِل الحديثُ عنه من ابتغاء الفِتْنة، وتقليب الأمر، وبدأ المفصلين بمن صرَّح بالاستئذان في القعود[2]، ويصحُّ أن تكون الواوُ للاستئناف، والجملةُ مستأنفةً.

سِرُّ التَّعبير بقولِهِ: ﴿وَمِنۡهُم﴾:

إنصافُ القرآنِ في الأحكامِ، وبيانُ أصنافِ المنافقين الشّائنين

(من) هاهنا تبعيضيَّةٌ، وفيها إشارةٌ إلى أنَّ مَنْ طلبَ الإذنَ عددٌ منهم، وليس كلَّهم، وهذا إنصافٌ منَ القرآن لهؤلاء المنافقين؛ فمهما يكنْ من خلافٍ بينَهم وبين المسلمين؛ فإنَّ سيِّئاتِ بعضِهم لا تعمُّهم، وهو ما يرجِّحُ روايةَ سبب النُّزول بأنَّ الطَّالبَ الإذنَ هو الجِدُّ بنُ قيس الأنصاري، وضمير الجمع المجرور عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: 45].

نُكتةُ التَّعْبيرِ عن فعلِ القولِ بصيغة المضارع:

تـجـدُّدُ الـقـولِ والفعلِ، دليلُ قُبْحِ خصالِهم، وسَيِّءِ طباعِهم

قولهُ تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾، أي: "في جبلَّتِه تجديدُ هذا القول من غير احتشام"[3]، فهو مستمرٌّ على تَكرارِه فعلًا وقولًا، مصرٌّ على ذلك مواربةً من غيرِ حياءٍ، أو تأدُّبٍ في الخطاب.

وقد عَبَّر عن قولِه بالفعل المضارع لاستحضار تلك الحالِ لغرابتها، فإنَّ مثلَهُ في نفاقهِ وفجوره لا يخشى على نفسِه إثمَ الافتتان بالنِّساء؛ إذ لا يجد من دينه مانعًا من غشيان الشَّهوات

(1) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/502.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.

الحرام بالتَّمتُّع بهنَّ، وهو يحبُّهنَّ، بل شأن ذلك أنْ يكون مُرغِّبًا له في هذه الغزوة[1].

دَلالةُ الطَّلبِ في فعلِ الأمر ﴿ٱئۡذَن لِّي﴾، والنَّهي ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾:

تخريجُ الأمرِ على الدُّعاءِ أوِ الرَّجاءِ، للتّعبيرِ عنِ المرادِ منَ السّياقِ

الطَّلبان: ﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ ظاهرهُما أنَّهما أمرٌ، ولكنَّهما هنا ليسا أمرًا؛ لأنَّ الأمرَ إذا جاء من الأدنى إلى الأعلى؛ فلا يُقال: إنَّه أمرٌ، بل هو دعاء أو رجاء، وإنْ جاء من المُساوي يُقال: (مُساوِ له)، أمَّا إنْ جاء من الأعلى إلى الأدنى؛ فهو الأمرُ، وكلُّها طلبٌ للفعل[2].

بَلاغةُ المجاز العقليّ:

من سوءِ الأدبِ، إسنادُ الفِتْنةِ إلى السّببِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾، إسنادُ الفِتنة إلَى النَّبيِّ ﷺ مجازٌ عقليٌّ من قبيل الإسناد إلَى السَّبب؛ أي: لا تكُنْ سببًا لوقوعي في الفِتْنة، أي: العصيان؛ بألَّا تأذن لي[3]، وذلك سوءُ أدبٍ في خطاب النَّبيِّ ﷺ.

فائِدةُ التَّصدير بـ (ألا):

حقَّقت (ألا) سقوطَهم، ونبَّهت على عجيبِ حالِهم الدَّاعي إلى التَّأمُّلِ

أفاد تصديرُ جملة ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ بأداة التَّنبيه تحقيقَ سقوطهم في الفِتْنة؛ ذلك أنَّها تدلُّ على تحقُّق مضمون ما بعدها إنْ كان خبرًا لتوجيه السَّمع والقلب له[4]، وفي الإتيان بأداة الاستفتاح أيضًا تنبيهٌ على أنَّ ما بعدها من عجيب حالهم الدَّاعي إلى التَّأمُّل؛ إذ عاملهم اللّٰه بنقيض مقصودِهم، فهم احترزوا عن فتنة، فوقعوا في الفِتْنة[5].

دَلالةُ (في) على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ:

انغماسُهم في الفِتْنةِ، وكأنَّها وعاءٌ لهم ومُستقرٌّ

أفادت (في) في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ الظَّرفيَّة

---

(1) رضا، تفسير المنار: 10/412.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5169.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على البيضاويّ: 9/246.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/264، ورضا، تفسير المنار: 10/412.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.

المكانيَّةَ؛ فصارت ظرفًا لهم، فوضعوا أنفسَهم بذلك في جهنَّمَ[1]، فكأنَّها صارت محلًّا لهم، ووعاءً يضمُّهم، وسقوطهم واقعٌ فيه مكانًا، ومستقرًّا.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفعل:

الـدَّلالـةُ على حصْرِ سقوطِهم في الـفـتـنـة، وصيرورةِ المنجَى مَهلَكًا

وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلْفِتْنَةِ﴾ على عامله ﴿سَقَطُواْ﴾ إيذانٌ بأنَّهم وقعوا فيها، وهم يحسبون أنَّها منجى من الفِتْنة، وللدَّلالة على الحصر، والتَّخصيص، أي: فيها لا في غيرها قد سقطوا، وأنَّ عملهم مقصورٌ على الفِتْنة، ولا يكون غيرها؛ لأنَّ عذرهم كاذبٌ ساقطٌ في ذات نفسه، وبهذا القول هوَوا إلى قاع سحيق[2]، وتردَّوا في هاوية الفِتْنة بأوسع معناها، لا في شيء آخر من شبهاتها أو مشابهاتها، من حيث يزعمون اتِّقاء التعرُّض لشبهةِ نوعٍ من أنواعِها، وهو الإثمُ بالنَّظرِ إلى جمال نساء الرُّوم، واشتغال القلب بجمالهنَّ، فتردَّوا في شرٍّ ممَّا اعتذروا به[3].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ (الفِتْنة):

ورودُ البـيـانِ بـالمـشـاكـلـةِ لـعُـذْرِهـم، والـفَـضْـحِ لكَذِبِهم

يُشير الطّيبيّ إلى أنَّ " أصلَ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ لتظهر جودتُه من رداءته، واستُعمل في إدخالِ النَّاسِ النَّارَ، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ١٣﴾ [الذاريات: 13]، وسُمِّي ما يحصل عنه العذاب فتنةً، قال تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة: 49]، ويُستعملُ في الاختبار، قال تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ [طه: 40]، وجُعِلتِ الفِتْنةُ كالبلاء في أنَّهما يُستعملان فيما يُدفع إليه الإنسان من شدَّةٍ ورخاء، وهما في الشدَّةِ أكبرُ معنًى وأكثر استعمالًا، وقد قال تعالى فيهما: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35]، وقال في الشَّرِّ: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/264، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/431، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3325.

(3) رضا، تفسير المنار: 10/412.

﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾، أي: يبتليهم، ويعذِّبهم"[1]. ويبيِّن هذا التفصيلُ علَّةَ إيثار لفظ الفِتْنة في موطنِ الشِّدَّة الّذي أوقعوا أنفسَهم فيه؛ تخلُّفًا، وظهورًا لكفرهم، ونفاقهم.

الإرشادُ إلى عِظمِ الفتنةِ، وخطَرِ فُشوِّها في الصّفوفِ

دَلالةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾:

التَّعريفُ في الفِتْنة ليس تعريفَ العهد؛ إذ لا معهود هنا، ولكنَّه تعريفُ الجنس المُؤْذِن بكمال المعرَّف في جنسه، أي: في الفِتْنة العظيمة سقطوا، فأيُّ وجهٍ رشحَ في المراد من الفِتْنة حين قال قائلهم: ﴿وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ﴾ كان ما وقع فيه أشدَّ ممَّا تفصَّى منه وأعظم، فإنْ أراد فتنةَ الدِّين؛ فقد وقع في فتنة الشِّرك والنِّفاق، وإنْ أرادَ فتنة سوء السُّمعة بالتخلُّف؛ فقد وقع في أعظم منه بافتضاح أمر نفاقِهم، وإنْ أراد فتنةَ النَّكد بفراق الأهلِ والمال؛ فقد وقعَ في أعظم نكدٍ بكونه ملعونًا مبغوضًا للنَّاس[2].

لفظُ السُّقوطِ دلالةُ تَردِّيهم، وانحطاطِ منزلتِهم بلُزومِ الفِتْنةِ

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿سَقَطُواْۗ﴾:

يُنبئُ التَّعبيرُ عنِ افتتانهم بالسُّقوط تمكُّنَ وقوعِهم في الفِتْنة، والمبالغةِ في ذلك[3]؛ إذ يدلُّ اللَّفظُ على لزومهم الفِتْنة، وانتشابهم في أشراكها انتشابًا سريعًا قويًّا؛ وصار يَعْسُر خلاصهم معه[4].

وفي التَّعبيرِ عن (الافتتان) بالسُّقوط في الفِتْنة، تَنَزُّلٌ لها منزلةَ المهواة المُهلكة، المفصحةِ عن تردِّيهم في درجات الرَّدى أسفل سافلين[5]؛ لما في اللَّفظة من احتمال دلالة الانحطاط والتَّردِّي وعدم الفائدة، ومنه قولهم: "سَقَطَ المتَاع"، أي: رَدِيئُه وحَقِيرُه[6].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/547.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/432، ورضا، تفسير المنار: 10/412.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/494.
(5) القاسميّ، ومحاسن التّأويل: 5/431.
(6) ابن الأثير، النّهاية: (سقط).

بلاغةُ الاستعارةِ التّبعيّة:

قوله: ﴿سَقَطُواْۗ﴾، السُّقوط مُستعمَلٌ مجازًا في الكَوْنِ فجأةً على وجه الاستعارةِ التَّبعيَّةِ؛ شُبِّهَ ذلك الكونُ بالسُّقوط في عدم التَّهيُّؤ له، وفي المفاجأة باعتبار أنَّهم حصلوا في الفِتْنة في حال أمنِهم من الوقوع فيها، فهم كالسّاقط في هوَّةٍ على حين ظنَّ أنَّه ماشٍ في طريق سهل[1].

السّقوطُ في الفتنة، هو الهُوِيُّ من غير تحسُّبٍ لذلك أو تهيُّؤٍ

بَلاغةُ المجازِ:

في قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتهُ الحاليَّةُ، أي: في جهنَّمَ، فأُطلق الحال وأُريد المحلُّ؛ لأنَّ الفِتْنَةَ لا يسقط فيها الإنسان؛ إذ هي معنى من المعاني، وإنَّما يحلُّ في مكانها، فاستعمال الفِتْنة في مكانها مجازٌ أُطلق فيه الحال، وأُريد المحلُّ[2].

أُطلِقَ لفظُ الفِتْنةِ، وأُريدَ جهنَّمُ

دَلالةُ استعمالِ الدّليلِ المستدلِّ به للنّقض، من باب قلْبِ النُّكتةِ:

يذهبُ ابن عرفةَ إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ "من باب قلب النُّكتةِ، وهو أن يستدلَّ الخصمُ بدليل، فيأخذَ خصمَهُ بذلك الدَّليل، ويستدلَّ على نقض مُدَّعاه، كقوله تعالى: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾"[3]. إذ نُقِضَ ادِّعاؤهم بما استدلُّوا به ليتخلَّفوا، فوقعوا فيما هو أشدُّ منه.

نقْضُ ادِّعائِهم بما استدلُّوا به، من بلاغةِ السّياقِ

نُكتةُ لفظ ﴿لَمُحِيطَةُۢ﴾، بين المجازِ والحقيقةِ:

إحاطةُ جهنَّمَ بهم إمَّا يومَ القيامة، وإمَّا في الدُّنيا على سبيل المجاز؛ لأنَّ أسبابَ الإحاطة معهم، فكأنَّهم في وسطها، أو لأنَّ مصيرهم إليها[4]. ووجهُ إحاطة أسبابِها بهم في الدُّنيا النَّعيُ عليهم بالنِّفاق وإفشاء الأسرار وهتك الأستار وتحقير المقدار، وأمَّا

إحاطةُ جهنَّمَ بهم حقيقيَّةٌ في الآخرة، أو مجازٌ في الدُّنيا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/356.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/312.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/432.

في الآخرة فلمآلِ حالهم إلى الدَّرك الأسفل من النَّار[1]. أو تكون (محيطة) مَجَازًا، من حيثُ استعمالها في الاسْتِقْبَال؛ إذ إنَّ اسمَ الفَاعل حَقيقَةٌ في الحال؛ فيكون مَجَازًا لغويًّا في جهنَّم، ذكر المسبَّب، وأُريد السَّببُ، ولا يبعد أن يكون مَجَازًا في الحذف[2]، ويصحُّ حملُها على الحقيقةِ؛ لأنَّ جهنَّم محيطةٌ بالكافرين على الحقيقةِ.

بَلاغةُ الكنايةِ في لفظِ ﴿لَمُحِيطَةُۢ﴾:

وجْهُ الإحاطةِ عدمُ الإفلات، واستحالةُ التَّداركِ بعْدَ الفوات

وإحاطةُ جهنَّم مرادٌ منها عدمُ إفلاتِهم منها، فالإحاطةُ كنايةٌ عن عدم الإفلات[3]، فهي مُحدِقةٌ بهم من جوانبها كلِّها، فلا قدرةَ على التَّفلُّت منها، أو الهروب، أو المحيص.

بَلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ المحتملة:

شبَّهَ جمعَ النَّار إياهم بحَيْثُ لا يُرجَى خلاصُهم

ويذهب القونويّ إلى أنَّ الأظهرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كونُه اسْتِعَارَةً تمثيليَّةً شبَّهَ جمعَ النَّار إيَّاهم بحَيْثُ لا يُرجى خلاصُهم بجمع المحيطِ المُحاطَ بحَيْثُ لا يقدِّر الخلاص، فاستعمل اللَّفْظ المركَّب الموضوع للمشبَّه به في المشبه، ووجه الشَّبه عدم التمكُّن من النَّجاة والسَّلامة[4]؛ إذ لا يكون لهم منها مهربٌ أو مفرٌّ.

وقد يُشبَّه حالُهم في إحاطة الأسباب بحالهم عند إحاطةِ النَّار، وكون الأعمال التي هم فيها هي النَّار بعينها، لكنَّها ظهرت بصورة الأعمال في هذه النَّشأة، وتظهر بالصورة النَّارية في النشأة الأخرى، كما قيل نظيره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾[5] [النّساء: 10].

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/480.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/247.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/247.
(5) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/356.

سِرُّ العُدولِ عنِ الضّميرِ إلى الاسْمِ الظَّاهِرِ:

بيانُ سببِ عذابِ الكافرين، للتَّنبيهِ على شَناعةِ الكُفرِ المهينِ

في قوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ العُدولِ عنِ الإتيانِ بالضّمير المعبِّرِ عنهم، إلى الإتيان بالاسم الظَّاهر: ﴿بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ لبيان أنَّ سببَ هذا العذاب الأليم هو الكفر[1]، وإثبات إحاطة جهنَّم بهم بطريق شبيه بالاستدلال؛ لأنَّ شمولَ الاسم الكليِّ لبعض جزئيَّاته أشهرُ أنواع الاستدلال[2]. فهو تعميمٌ وتنبيهٌ على الوصف الذَّميم الَّذي حملهم على ذلك[3]، ووعيد لهم على الفِتْنة الَّتي تردَّوا فيها، وَضَعَ فيه المُظهَر موضعَ ضميرهم، للنصِّ على أنَّ عقابهم بإحاطة جهنَّم بهم عقاب على الكفر الَّذي حملهم على ذلك الاعتذار، الَّذي هو ذنبٌ في نفسهِ كان أقصى عقابِهِ مسَّ النار دون إحاطتها، لو لم يكن سببُهُ الكفرَ بتكذيب الرسول ﷺ فيما جاء به من حكم الجهاد وثوابه والعقاب على تركه، أو الشَّكِّ[4].

دَلالةُ ورودِ لفظِ (الكافرين)، بصيغة الجمع:

بيانُ إحاطةِ جهنَّمَ، ودفعُ التّوهُّمِ أنَّ إحاطتَها بالقليلِ لا بالكثيرِ

جاء بلفظ (الكافرين) على طريق جمع السَّلامة؛ لأنَّ المرادَ بهم جميعُ الكافرين؛ ولدفع توهُّم أنَّ الإحاطةَ تكون بالقليل لا بالكثير، ويندرجُ في ضمنهم المتحدَّث عنهم لثبوت كفرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التّوبة: 45][5].

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ الكافرين باسْمِ الفاعل:

الدّلالةُ على سببِ عذابِهم، وسوءِ مَصيرِهم في جهنّم

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أُوثِرَ التَّعبيرُ بصيغة اسمِ الفاعل في (الكافرين)؛ ليكونَ دالًّا على سبب استحْقاقِهم العذابَ، وملازمتِهم الكفرَ حياتَهم كلَّها ومفارقةِ الدُّنيا وهم كافرون، فلم يتوبوا، ولم يرجعوا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3325.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/495.
(4) رضا، تفسير المنار: 10/412.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.

وفي ذلك إشارةٌ إلى عدلِ اللّه تعالى، ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ۝٤٤ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٥﴾ [الرُّوم: 44- 45].

دَلالةُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ:

تأكُّدُ دخولهم النَّارَ، حتَّى كأنَّه واقعٌ مُشاهَدٌ، لا مناصَ عنه ولا فرارَ منه

وعبَّر عن إحاطة جهنَّم بهم وجمعِها لهم يومَ القيامة بصيغة اسم الفاعل الدّالِّ على الحال ﴿لَمُحِيطَةُۢ﴾؛ لإفادة تحقُّقِ ذلك حتَّى كأنَّه واقعٌ مُشاهَد[1]، أي: إنَّهم مؤكَّدون داخلون فيها، وستحيط بهم يوم القيامة، وذكرت الآن لتأكُّد وقوعها، كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، فهو تأكيدٌ لما سيقع بتصويره كأنَّه واقعٌ وقوعًا مؤكَّدًا[2].

تَوجيهُ إعرابِ جملةِ الفاصلةِ:

مصيرُ الكافرين النَّارُ، وبئسَ القرارُ

وجملةُ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ معترضةٌ، والواو اعتراضيّةٌ، أي: وقعوا في الفِتْنة المُفضيةِ إلى الكفر، والكفرُ يستحقُّ جهنَّم[3].

بَراعةُ التَّعبيرِ عنِ الوقوعِ في جهنَّمَ، بحشْدِ المؤكِّداتِ:

حشدُ المؤكِّدات، تحقيقٌ راسخٌ لمصيرهم في الآخرة

وقد أكَّد ﷻ الوقوعَ في جهنَّم يومَ القيامة بحشْدٍ من المؤكِّدات: "أوّلها: الجملةُ الاسميَّة، ثانيها: (إنَّ) الدَّالَّة على توكيد الخبر، وثالثها: بيان أنَّها محيطةٌ بهم إحاطة الدَّائرة بقُطْرها لا يخرجون عمَّا تحيط به، ورابعها: باللَّام المؤكَّدة في قوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةُۢ﴾"[4].

(1) رضا، تفسير المنار: 10/413.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3325.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/221.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3325.

﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ٥٠﴾ [التّوبة: 50]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبْطُ بين تفاصيلِ عداوةِ المنافقين، وإظهارِهم الفرحَ لما يسوءُ الرّسولَ والمؤمنين

هذا نوعٌ آخر من كيْدِ المنافقين ومن خُبْثِ بواطنهم[1]، فبعد أنْ بيَّن الحقُّ ﷻ كيف حاول المنافقون الهروبَ من الحرب مختلقين أعذارًا متعدِّدة، أراد ﷻ أن يزيد الصُّورة توضيحًا في إظهار الكراهية الَّتي تُخفيها قلوب المنافقين بالنِّسبة للمؤمنين[2]، فبيَّن تعالى عدواتَهم، زيادةً في تشهير مساوئهم[3]. فالجملةُ بمنزلة البيان لجملة ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ﴾ [التوبة: 45]، وما بين الجملتين استدلالٌ على كذبهم في ما اعتذروا به، وأظهروا الاستئذانَ لأجله، وبيَّن هنا أنَّ تردُّدَهم؛ لكونهم يخشون ظهورَ أمر المسلمين، فلذلك لا يصارحونهم بالإعراض، ويتمنَّونَ خيبةَ المؤمنين، فلذلك يكرهون الخروج معهم[4].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسُؤۡهُمۡۖ﴾: ساءه يسوؤُه سوءًا: شانَه، وأحزنَه، وفَعَل به ما يكرهُ، وهو نقيضُ سَرَّهُ[5]. فالسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسان من الأمور الدُّنيويَّة، والأخرويَّة، ومن الأحوال النَّفسيَّة، والبدنيَّة، والخارجة، من فوات مال، وجاهٍ، وفقْدِ حميم[6]. ومعناه في الآية: (تحزنهم، وتغمُّهم)، قبالةَ فرحهم؛ إذا ما سمعوا بمصاب المسلمين.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/66.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 9/5171.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/431.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(6) الرّاغب، المفردات: (سوأ).

2) ﴿أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا﴾: هذا الاستعمالُ فريدٌ في القرآن؛ فلم يرد أَخْذُ الأمْرِ بمعنى الاستعداد والتَّلاقي إلَّا في هذا الموضع، وقريبٌ منه أَخْذُ الحِذْرِ[1]، وأصل (الأَخْذ): حَوْزُ الشَّيْءِ وَجَبْيُهُ وَجَمْعُهُ، تَقُولُ: أَخَذْتُ الشَّيْءَ آخُذُهُ أَخْذًا، قَالَ الْخَلِيلُ: هُوَ خِلَافُ العَطَاءِ، وَهُوَ التَّنَاوُلُ[2]، وَالأَمْرُ: الحَالُ المُهِمُّ صَاحِبَهُ، أَيْ: قَدِ اسْتَعْدَدْنَا لِمَا يُهِمُّنَا، فَلَمْ نَقَعْ فِي المُصِيبَةِ، وذكر الفيروزآبادي أوجهَ الأَخْذِ المذكورة في القرآن[3]، وكلُّ ذلك وغيرُه يرجع إلى أصل الأَخْذِ، وهو حوْزُ الشَّيء وتناولُه حقيقةً أو مجازًا، كما سنبيِّنه بعدُ إن شاء اللّه.

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الكلامُ موجَّهٌ لرسول اللّه ﷺ: إِنْ يُصِبْكَ في بعض غزواتك ظفرٌ وغنيمةٌ؛ تَسُؤْهُمْ لفرط حسدهم، وَإِنْ يُصِبْكَ في بعضها كسرٌ أو شدَّةٌ، كما أُصيبَ يوم أُحُد تبجَّحوا بانصرافهم، واستحمدوا رأيهم في التَّخلُّف، وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ مسرورون[4]، فلا انتماء للإسلام، ولا مبالاةَ بشأنه، ولا اهتمام بأمره، ولا بادرة للإيمان به ونُصْرته، فحالهُم نفاقٌ وإرجاف.

لا يَحزنُ لما يَسُرُّ، ويَفرحُ بما يُسيءُ، المؤمنينَ البررةَ، إلّا المنافقون الفَجرةُ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التَّعبيرِ بـ(إنْ) دون (إذا):

لا تُستعمَلُ (إنْ) الشَّرطيَّةُ إلّا مع المشكوك فيه، وغيرِ المتيقَّن

التّأثّرُ بما ليس متحقِّقَ الوقوعِ، أملٌ في سرابٍ لا يُلحقُ

---

(1) وقد ورد الأمر بأخْذ الحِذْر في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ٧١﴾ [النساء: 71]، وقوله: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٠٢﴾ [النساء: 102].

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).

(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 2/104، وخلاصته: أنَّ الأَخْذَ قد ورد في القُرْآنِ على خَمْسَةِ أَوْجُهٍ: الأَوّل بمعنَى القَبُول، كقوله: ﴿وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ﴾، والثَّاني، بِمَعْنى الحَبْس، كقوله: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾، والثَّالِث بِمَعْنى العَذابِ والعُقُوبة، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]، والرَّابِع بِمَعْنى القَتْل، كقوله: ﴿وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ﴾ [غافر: 5]، والْخَامِس بِمَعْنى الأَسْرِ، كقوله: ﴿فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ﴾ [التوبة: 5].

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/84.

حصولُهُ. وأُوثِرَ استعمالُها هنا دون (إذا)، إشارةً إلى تأثُّرهم، ولو بما لا يتحقَّقون من وقوعه[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بلفظِ (الإصابة) دونَ (المسِّ):

الحديثُ عنِ الخيرِ والشَّرِّ، يناسبُ لفظَ الإصابةِ

الإِصابةُ أعمُّ منَ (المسِّ)؛ لاستعمالها في الحسِّيِّ، وفي المعنويِّ، و(المسُّ) خاصٌّ بالمحسوسات[2]، فالمسُّ اتِّصالُ أحدِ شيئين بآخرَ على وجه الإحساس، فهو أقلُّ تمكُّنًا من الإصابة بوصفه أقلَّ درجاتها. وأصلُ الإصابة من إصابة السَّهم، ثم اختصَّت بالنائبة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشُّورى: 30]، وتُستعمل الإصابةُ في الخير والشَّرِّ كالآية هنا؛ فالإصابةُ في الخير اعتبارًا بالصَّواب، أي: المطر، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابةِ السَّهم، ومنه يُعلم أنَّ الإصابةَ أبلغُ من المسِّ؛ لأنَّه وإنِ اعتُبِرَ فيه التَّأثيرُ، لكنَّ تأثيرَ هذا لَمَّا كان كالمطر أو السَّهم؛ كان أقوى وأشدَّ[3]، والحديثُ في الآية الكريمة عن تحقُّق النَّصر، والتَّعرُّض للانكسار، أي: الخير والشَّرُّ، وهو ما يناسبهُ لفظ الإصابة، فضلًا عن أنَّ حزنهم، وفرحهم مرتبطٌ بتحقُّق الأمريْن فعلًا موجبًا للتَّأثير.

وَجْهُ التَّعبيرِ بلفظَي (الحسنة) و(المصيبة) وتنكيرِهما:

الدَّلالةُ على تأثُّرِهم، بأدنى وُجوهِ نصْرِ المؤمنين وغلَبِهم

الحسنةُ هي الحادثةُ الَّتي تحسنُ لمن حلَّت به واعترتْه، والمرادُ بها في الآية النَّصرُ، والغلبةُ، والغنيمة، والمرادُ بالمصيبة الغلبةُ، والهزيمةُ وخُصَّتْ في اللّغة بالحادثة الَّتي تعتري الإنسانَ فتغمُّه، والنَّازلة الَّتي تسوؤه، والشِّدَّة الَّتي تُحزنه، ولذلك عبَّر عنها بالسَّيِّئة في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ [آل عمران: 120]. وأصلها من (أصاب)، ولكنَّها بالتَّاء غلبت في الشَّدائد، والكوارث،

(1) البسيليّ، التّقييد الكبير، ص: 564، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(2) البسيليّ، التّقييد الكبير، ص: 564.
(3) الشّهاب، عناية القاضي: 2/190، والسّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/53.

والنّكبات[1]. ونكَّر الحسنة والمصيبة تقليلًا، مشيرًا إلى تأثُّرهم لأدنى شيء من وجوههما[2].

نُكتةُ تقديمِ (الحسنةِ)، على (المصيبة):

رفْعُ المؤلِم، آكدُ من جلْبِ المُلائِم

وقدَّم الحسنةَ؛ لأنَّ تأثُّرَ العدو بالحسنة الّتي تحصلُ لعدوِّه أشدُّ من فرحته لمصيبةٍ نزلت به؛ لأنَّ رفْعَ المؤلمِ آكدُ من جلب المُلائم[3].

تَوجيهُ المقابلةِ بين جُملتَي الشَّرْطِ:

بيانُ فرطِ تَشفِّيهم بالمؤمنين، وما تُخفيهِ صدورُهم مِنَ الحسدِ الدّفين

جعلَ الحسنةَ موجِبةً لوصْفٍ واحدٍ ﴿تَسُؤۡهُمۡۖ﴾، وجعل المصيبةَ موجِبةً لوصفَيْن (القول، والتَّولِّي فرحين)؛ لأنَّ الإنسان إذا علِمَ بحسنةٍ نالت عدوَّهُ؛ فإنَّه يغتمُّ لذلك، ويتألَّم، ويُخفيه، ولا يتحدَّث به حسدًا له، وإذا علم بمصيبةٍ نالت عدوَّهُ؛ فإنَّه يفرح لذلك، ويُظهره للنَّاس قولًا وفعلًا تشفِّيًا فيه[4].

فضلًا عمَّا يحتملُه الموقف من المبالغة في فرط سرورهم مع الإيذانِ بأنَّهم في معزل عن إدراك سوء صنيعِهم لاقتضاء المقام ذلك، أو إنَّ إسنادَ المساءة إلى الحسنة والمسرَّة إلى أنفسهم؛ للإيذان باختلاف حالهِم حالتي عروضِ المساءة والمسرَّة بأنَّهم في الأولى مُضطرُّون، وفي الثَّانية مُختارون[5].

بيانُ المتشابِهِ اللَّفظيّ:

لا تزيدُ الشِّدَّةُ رسولَ الله إلَّا ثباتًا وثوابًا

في قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾ قُوبلتِ الحسنةُ بالمصيبة، ولم تُقابل في قوله سبحانه في سورة [آل عمران: 120]: ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾؛ " لأنَّ الخطابَ هنا للنَّبيِّ ﷺ وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3326.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313، و(الملائم): اسم فاعل من لاءم، والمُلائِم: هو ما يلائم الإنسانَ من الأعمال الصالحة وتحصيل الخير، وهو دينيٌّ أو دنيويٌّ.
(4) البسيليّ، التّقييد الكبير، ص: 564، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/305.

هناك للمؤمنين، وفرَّق بين المخاطَبَين، فإنَّ الشِّدَّةَ لا تزيده ﷺ إلَّا ثوابًا، فإنَّه المعصومُ في جميع أحوالِهِ ﷺ، وتقييد الإصابة في بعض الغزوات لدلالة السِّياق عليه، وليس المراد به بعضًا معيَّنًا هو هذه الغزوة الّتي استأذنوا في التَّخلُّف عنها"[1]. ممَّا يعني أنَّ المصيبة أشدُّ وقعًا، وأقوى تأثيرًا من السَّيئة.

بَلاغةُ الاستعارة:

بيانُ الاغترارِ بتمكُّنِ المنافقين منَ الاحتياط من قبلُ، بالتّخاذُلِ والتّخلُّف

الأَخْذُ في قولهم: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ حقيقتُه التَّناوُلُ، وهو هنا مستعارٌ للاستعداد والتّلاقي، والابتهاجِ بموافقة أعمالهم ما فيه سلامتُهم، فيزعمون أنَّ يقظتَهم وحزمَهم قد طابقا المِحَزَّ؛ إذِ احتاطوا له قبلَ الوقوع في الضُّرِّ[2].

نُكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾:

بيانُ شدَّةِ الإعراضِ والجُرأَةِ في غيرِ الحقِّ، الّتي اتّسَمَ بها المنافقون

يصحُّ أن يكونَ ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ بمعنى: يُعرضوا عن الرَّسول ﷺ، غيرَ مُقبلين عليه مُظهرين خبيئةَ نفوسِهم، وفي هذا ما يفيد أنَّهم جرؤوا عليه، وحسبوا أنَّ الغدَ لهم، وما هي إلَّا جولةٌ، حتّى يكون الغَلَبُ لهم[3].

بَلاغةُ الاستعارة التّمثيليَّة:

بيانُ شِدَّةِ فرحِهم بسلامتِهم، ظنًّا أنّهم نجَوا بصورةٍ دائمةٍ

التَّولّي حقيقتهُ الرَّجوعُ، وهو هنا تمثيلٌ لحالهم في تخلُّصِهم منَ المصيبة الَّتي قد كانت تحلُّ بهم لو خرجوا مع المسلمين، بحال مَنْ أشرفوا على خطر، ثم سَلِمُوا منه، ورجعوا فَرِحين مسرورين بسلامتهم وبإصابة أعدائهم[4].

وَجْهُ عطْفِ جملةِ التّولّي، على جملة القولِ:

قوله تعالى: ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾، معطوفٌ على ﴿يَقُولُواْ﴾، أي: وينصرفون

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/305.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3327.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/222.

كشفُ بواطنِهم، بالصَّوت قولًا، وبالصُّورة إعراضًا وفعلًا

إلى أهليهم وأصحابهم يتحدَّثون في أمر هذه النَّكبةِ، وهم في فرحٍ بها؛ لأنَّها أصابت هوًى في نفوسِهم، فلم يكتفوا بالقول حسبُ، أو التَّولي من غير كلام، وإنَّما جمعوا بين الإعراضِ والقول، وفي ذلك إصرارٌ على الغيِّ، وإظهارٌ للعيِّ بعدم الاهتداء لوجه المراد، ولذا قال تعالى: ﴿وَهُمۡ فَرِحُونَ﴾، أي: والحال أنَّهم فرحون فرحًا غمرهم[1].

سِرُّ تقديمِ فعلِ القولِ على فعلِ التَّولّي:

القولُ السَّيِّئُ أبينُ من تولّي المنافقين، وأعظمُ أثرًا في نفوس المُصابين

قدَّمَ فعلَ قولِهم على فعل تَولّيهم؛ لبيان شدَّة فرحهم، وعِظَم سرورِهم حتَّى سبقَ إلى أفواههم القولُ الَّذي هو أيسرُ إجراءً، وأقوى بدارًا، وأظهرُ بيانًا من الفعل، والقولُ أيضًا أدلُّ على خبايا السَّرائر، وما تُخفيه الأنفسُ، وبه تتَّضح، وتُستبانُ. وقولُ المنافقين هنا ذو أثرٍ بالغٍ في نفوس المؤمنين المصابين؛ إذ إنَّه جمعَ بين الخُذلان والشَّماتةِ، في الوقت الّذي ينتظرُ فيه المصابُ التَّعزيةَ والتَّسريةَ، فكان تقديمُ القول على فعل التّولّي تسليةً للنَّبيِّ ﷺ ومَنْ معه من المؤمنين، وإخبارًا بأنَّ اللّه مطَّلِعٌ على أخباركم، وسيجزي هؤلاءِ وهؤلاء عمَّا قريبٍ.

دَلالةُ (الواو) على الحالِ في جملةِ الفاصلةِ:

دَيْدنُ المنافقين الفرحُ بمُصابِ المسلمين، والتّنصّلُ منهم عند الأزماتِ

قوله: ﴿وَهُمۡ فَرِحُونَ﴾، (الواو) حاليَّةٌ، وهي تدلُّ على الاجتماع، وتفيدُ هنا أنَّ اتِّصاف الحال بالموصوف؛ ففَرَحُ المنافقين بما يسوء النَّبيَّ ﷺ والمسلمين من الأذى والهزيمة؛ حالهُم وديدنهم المتكرِّر المُلازِم لضُرِّهم وأذاهم وغَلَبَتهم، وأنَّ حال تولِّيهم المصحوب بقولهم، والمقترن بحديثهم، كان حال فرحٍ وسعادة وحبور، قال الآلوسيُّ: "والجملةُ في موضع الحال من الضَّمير في ﴿يَقُولُواْ﴾، و﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾؛ فإنَّ الفرحَ مقارنٌ للأمرين معًا"[2].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3327.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/305.

تَوجيهُ اسميَّةِ جملةِ الفاصلة، وأثرُها في المعنى:

جاءت جملةُ الفاصلة ﴿وَهُمۡ فَرِحُونَ﴾ اسميَّةً دلالةً على الثُّبوت؛ لإظهار تمكُّنِ فرحِهم، والدّلالةِ على كمال وصْفِهم بالفرح؛ فهم قومٌ عادتُهم الفرحُ بأذى المسلمين.

دأبُ المنافقِ الشَّماتةُ في المؤمنين، والتَّشفّي بما يقع لهم، بين الحينِ والحين

نكتة التَّعبيرِ عن الفرحِ بصيغة (فَعِل):

يُلجَأ إلى التَّعبير بصيغة (فَعِل) في المعاني العارضةِ لِلّذات غيرِ الرّاسخِ أو المستقرِّ فيها، فهو عارضٌ، ثمَّ يذهب، أي: يحصلُ، ويسرع زواله، ويلمح فيه الاتّسام بظاهرة الهَيَج، والخفَّة[1]. وهو اختيارٌ بليغٌ مقصودٌ في هذا الموضع بقوله: ﴿فَرِحُونَ﴾؛ إذ يُلمح فيه خفَّةُ عقولهم، واضطراب مشاعرهم، وسوء سرائرهم ونيَّاتِهم، و"هكذا صفةُ الحسود، يتصاعد أنينُ قلبهِ عند شهود الحسنى، ولا يسرُّ قلبَهُ غيرُ حلول البلوى، ولا دواء، لجروح الحسود، فإنَّه لا يرضى بغير زوال النِّعمة،... وإنَّ اللّه تعالى عجَّل عقوبةَ الحاسد، بحزن قلبهِ بسلامة محسوده"[2]، وكذلك هو حال غبطتِهم، وفرحُهم وإن كان عادةً لهم إلا أنَّه وقتيٌّ ملازمٌ لضرر المسلمين وأذاهم، وسرعان ما سيزول بنصرهم وتمكينهم وتوكُّلهم على اللّه، ومن هنا يُؤذنُ التَّعبير بأنَّهم سيعيشون هذا الأذى النَّفسيَّ، والحال الشَّقيَّة باستمرار؛ لأنَّ نصْرَ اللّه تعالى مُحقَّقٌ واقع؛ فلن يُخلف اللّه وعْدَه، وأنَّ المؤمنَ متوكِّلٌ على ربِّه موقنٌ أنَّ كلَّ أمرِه له خيرٌ، فإذا علموا أنَّ النَّبيَّ ومَنْ معه من المؤمنين لن يحزنوا لما أصابهم - بحسب ما سيتبيَّن في الآية القادمة - زال فرحهم.

حالُ سرورِهم وقتيٌّ، مُلازمٌ لمصاب المسلمين

الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفرحُ، والسّرورُ، والسّعادةُ، والحُبورُ، والاستبشارُ:

الفرحُ: انشراحُ الصَّدر بلذَّةٍ عاجلة، وأكثرُ ما يكون ذلك في

فرحُ المنافقين زائلٌ ومُؤذٍ، ليس فيه نفعٌ ولا لذَّةٌ

(1) السّامرائيّ، معاني الأبنية في العربيّة: 81 - 82.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/33.

اللَّذات البدنيَّةِ الدُّنيوية[1]، فهو لازمٌ لذهاب الغلظ والثِّقل من النَّفس أو القلب، فينشرحُ الصَّدرُ، وقيل: إنَّه نقيض الحزن[2]. والصَّواب أنَّ الحزنَ نقيضٌ للسُّرور؛ لأنَّه يكون بالفوائد وما يجري مجراها من الملاذ.

أمَّا الفرحُ؛ فنقيضه الغمُّ؛ فقد يغتمُّ الإنسان بضررٍ يتوهَّمُه من غير أن يكون له حقيقةٌ.

فالسُّرُور: ما ينكتم من الفرح، وهو الأمرُ الخالي من الحزن[3]. ولا يكون إلَّا بما هو نفعٌ أو لذَّةٌ على الحقيقَةِ، وقد يكون الفرحُ بما ليس بنفع ولا لذَّة، كفرح الصَّبي بالرَّقص والعَدْوِ والسِّباحة وغير ذلك ممَّا يتعبُه، ويؤذيه[4].

أمَّا السَّعَادَةُ؛ فأصلها يدلُّ على خير وسرور، وهو خلافُ النَّحس[5]. وهي: معاونةُ الأمور الإلهيَّة للإنسان على نيل الخير، ويضادُّه الشَّقاوة، وهي في الأصل ضربان: سعادة أخرويَّة، وسعادة دنيويَّة، ثمَّ السَّعادة الدُّنيويَّة ثلاثة أضرب: سعادةٌ نفسيَّة وبدنيَّة وخارجيَّةٌ، وكذلك الشَّقاوةُ على هذه الأضرب[6].

والحبورُ: الأثر المُستحسَن، والنِّعْمَة الحسَنَة، وهو السُّرور من قَوْلك: حبَّرتُ الثَّوْبَ؛ إذا حسَّنْتَهُ، وقوله ﷻ: ﴿فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ١٥﴾ [الرُّوم: 15]، أي: يُنعَّمون، ويُكرَّمون، ويُسرُّون، ويفرحون حتى يظهر عليهم حَبارُ نعيمهم[7].

والجذلُ: هُوَ السُّرُور الثَّابِت مَأْخُوذ من قَوْلك: جاذلٌ منتصبٌ ثَابت لَا يبرح مَكَانَهُ، وجذْلُ كلِّ شَيْءٍ أَصلُهُ[8].

والاستبشارُ: هُوَ السُّرُور بالبشارة وصيغة الاستفعال للطَّلب، والمستبشِرُ بِمَنْزِلَة مَنْ طلب السُّرُور فِي البشَارَة فَوجدَه، وأصل البِشارَة من ذَلِك؛ لظُهُور السُّرُور فِي بَشَرَةِ الوَجْه[9].

(1) الرّاغب، المفردات: (سعد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سعد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سعد).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص 266.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعد).
(6) الرّاغب، المفردات: (سعد)، و(شقا).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (حبر)، والعسكري، والفروق اللّغويّة، ص: 266.
(8) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 266.
(9) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 265.

ولا يخفى انطباقُ دلالةِ الفرح على صفات المنافقين، وصنيعِهم مع المسلمين؛ إذا أصابتهم مصيبةٌ؛ بما تتضمَّنه اللفظة من معنى انشراح الصَّدرِ بلذَّة عاجلة بَدَنِيَّةٍ دنيويَّة تتعبُه، وتُؤذيه، ليس فيها نفعٌ.

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١﴾ [التّوبة: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ الجوابِ على قول المنافقين، بإعلان التّوكّل على الله الواقي من كلِّ أذًى

الآيةُ الكريمةُ تلقينُ جوابٍ لقولهم: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ المُنبِئ عن فرحِهم بما ينال المسلمين من مصيبة؛ بإثبات عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة وانتفاء حزنِهم عليها؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ ما أصابهم ما كان إلَّا بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تسليمُ الأمرِ لله، والتَّوكُّلُ عليه، حمايةٌ من كلِّ منافقٍ حاقدٍ

أرشدَ اللّهُ تعالى رسولَه صلواتُ الله وسلامُه عليه إلى جواب هؤلاء المنافقين الذين تُفرحُهم مصيبتُه، وتسوؤهم نعمتُه وغنيمتُه، بالقول: لن يصيبنا إلَّا ما كتبه اللّهُ لنا، وأوجبه علينا بوعده في كتابه، وتقديرُهُ لنظام سننِهِ في خلقه، من نصرٍ وغنيمة وتمحيص وشهادةٍ، وضمان لحسن العاقبة هو وحدَه مولانا يتولَّانا بالتَّوفيق والنَّصر، ونتولَّاه باللُّجوء إليه، والتَّوكُّل عليه، فلا نيأس عند شدَّةٍ، ولا نبطر عند نعمة[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ الافتتاح بفعل الأمرِ ﴿قُلْ﴾:

تحقيقُ التَّوكُّل والتَّسليم، ودفعُ شُبهةِ بَشريَّةِ القول عنِ الرّسول الكريم

شاءَ اللّه تعالى أن يبلِّغَ خطابَهُ سبحانه للخلق عن طريق رسوله اللّه ﷺ، وهو الأمينُ في البلاغ عن اللّه تعالى، لا يترك كلمةً واحدة من الوحي دون أن يبلِّغَها للبشر، وما دام الحقُّ ﷻ هو الَّذي أمره، فهو يبلِّغ ما أُمِرَ به، حتى لا تُحرَمَ آذانُ خلقِ اللّه تعالى من كلِّ لفظٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/413.

صدرَ عن اللّه سبحانه[1]، والأمر هنا منه تعالى تحقيقٌ لحكم التَّوكُّل والتَّسليم، ودفعٌ لشبهة بشريَّةِ القول بوصفه تقريرًا لحكم غيبيٍّ، لا يعلم كُنْهه إلَّا الخالقُ جلَّ في علاه.

نُكتةُ النَّفْيِ بـ﴿لَّن﴾:

تأكيدُ التَّسليمِ والانقيادِ، إلى حقيقةِ وقوعِ ما كتبَ الله وقدّرَ

تدخلُ (لن) على الفعل المضارع، فتخلِّصُه للاستقبال، وتنْفيه نفيًا مؤكَّدًا مشدَّدًا، ونفيُ المستقبل بها قد يكون ممتدًّا متطاولًا كما في جملة: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، فإيثارُ استعمالها هاهنا لتأكيد التَّسليم بأنَّ المكتوبَ مِنَ اللّه واقعٌ، مُحقَّقٌ، مُتمكِّنٌ منهم.

إيثارُ لفظِ الإصابةِ بقوله: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾:

توكُّلُ المؤمنين على الله مُطلَقٌ، مهما يكنْ عِظَمُ المصيبةِ وهولُها

عبَّرَ بلفظ الإصابة؛ لكونها تُستعمَلُ في الخير والشَّرِّ - كما مرَّ آنفًا؛ فالإصابةُ في الخير اعتدادٌ بالصَّواب، أي: المطر، وفي الشَّرِّ اعتبارٌ بإصابة السَّهم، وهي مظنَّةُ التَّأثيرِ القويِّ والشَّديدِ، ومن هنا كانت مناسبةً لاصطفائها في هذا المقام بوصف المكتوب متضمِّنًا للخير، ولما يُظنُّ أنَّه شرٌّ مع أنَّه للمسلم خير، فضلًا عمَّا يتضمَّنُه السِّياق، ومعنى لفظ الإصابة من الدَّلالة على مطلق التوكُّل، فهم متوكِّلون على اللّه ربِّهم مهما عظُمَ تأثيرُ المصيبة.

وَجْهُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

زمنُ الإصابةِ ممتدٌّ، لِيشملَ الحالَ والاستقبالَ

في قوله: ﴿يُصِيبَنَآ﴾، التَّعبيرُ عنِ الفعل مضارعًا فيه دلالةٌ على امتداد زمن الإصابةِ مِنَ الحال، وخلوصِه إلى الاستقبال بأمارة (لن)، فأنَّى تكرَّرت مستقبلًا؛ فإنَّ التَّسليمَ واقعٌ، والتَّوكُّلَ حاضرٌ.

بَلاغةُ الإيجاز بالحذفِ:

تعدُّدُ دلالاتِ تقديرِ المكتوب، أمارةُ التَّسليمِ المطلَقِ

أوجزَ في التَّعبير مكتفيًا بالمذكور تاركًا تقديرَ المكتوب ممَّا يصيبُ محتملًا مختلفَ الدّلالات، أوجزها الرَّازيّ بثلاثة أقوال:

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/5905.

أوَّلها: أنَّه لن يصيبنا خيرٌ ولا شرٌّ، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدَّةٌ ولا رخاء، إلَّا وهو مقدَّرٌ علينا مكتوبٌ معلوم عند الله، مقضيٌّ به عنده. وثانيها: أنَّه لن يصيبنا في عاقبة أمرنا بعد الغمِّ والهمِّ إلَّا الظَّفرُ بالعدوِّ، والاستيلاءُ عليهم وحكمهم؛ فيكون ذلك اغتياظًا للمنافقين، وردًّا عليهم في ذلك الفرح. وثالثها: إذا صرنا مغلوبين؛ صرنا مستحقِّين للأجر العظيم، والثَّواب الكثير، وإن صرنا غالبين؛ صرنا مستحقِّين للثَّواب في الآخرة، وفُزنا بالغنائم والثَّناء الجميل في الدُّنيا، وعليه فإنَّ المصائب والمحزِنات كلَّها مُتحمَّلة في جنب هذا الفوز بهذه الدَّرجات العالية[1].

بَلاغةُ القصْرِ بالنَّفْيِ والاستثناء:

في الحصْرِ مبالغةٌ في التَّوكُّل، إذ لا مُتوكَّلَ عليه سِوى الله تعالى

أدَّتِ الجملةُ المتضمِّنةُ للنَّفي بـ(لن)، والاستثناءِ بـ(إلا) ههنا معنى قصْرِ الإصابة على ما كتبَ الله تعالى بما تدلُّ عليه بالوضع اللُّغويِّ، والغرض المبالغةُ في التَّوكُّل على الله تعالى، والتَّسليم له، والتَّعريض بالمنافقين من حيث حزنُهم؛ إذا أُنعِمَ على المسلمين، وفرحهم؛ إذا أصابهم سوءٌ، في حين أنَّ المسلم متوكِّلٌ على الله في رخائه وشدَّتِه، فهو في رضًا دائم.

عِلَّةُ التَّعبيرِ عنِ الكتابة بالفعل الماضي:

وقوعُ ما كتبَ اللهُ محقَّقٌ ثابتٌ، من كلِّ نازلٍ أو نابتٍ

اخْتُلِفَ في تأويل معنى الكتابة بالجعلِ والقضاء بين المثبَّت في اللَّوح المحفوظِ ممَّا هو كائنٌ، أو المذكور في القرآن الكريم[2]، والتَّعبيرُ عنه ههنا بصيغة الماضي يدلُّ على وقوع الكتابة، وصدق تحقُّق حدثها، ولزوم الإصابة بما دُوِّن منها بمشيئة الله تعالى، واختياره، وعلمه، وإرادته جلَّ في علاه.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/67.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/272.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَنَا﴾ ودَلالةُ اللَّامِ:

وذكر (لَنَا) في قوله: ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾، ولم يقل: (علينا)؛ تنبيهًا على أَنَّ كلَّ ما يصيبُنا نعدُّه نعمةً لَنَا، ولا نعدُّه نقمةً علينا[1]. "فلم يكتب سبحانه الأمور علينا، بل لنا، و(لنا) تفيد الملكية؛ إمَّا: تأديبًا وإمَّا تكفيرًا عن ذنوب، وإمَّا اتِّجاهًا إلى الحقِّ بعد زيغ الباطل، وكلُّ ذلك لصالحنا"[2]. واللَّام مفيدةٌ معنى الاختصاص، كأنَّه قيل: لن يُصيبنا إلَّا ما اختصَّنا اللّه به بإثباته وإيجابه من النُّصرةِ عليكم أو الشَّهادة[3]. "فهو نفعٌ محضٌ كما تدلُّ عليه تعديةُ فعلِ (كَتَبَ) باللام المؤذنة بأنَّه كتبَ ذلك لنفعهم"[4].

كلُّ ما يصيبُ المسلمَ نفعٌ محضٌ له، مهما آلمَهُ أو حرمَه

بَلاغةُ الفصْلِ، في جملةِ: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾:

قصرُ الولايةِ في قوله: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ﴾ عليه ﷻ بتقديمِ الضَّمير (هو)، وهي جملةٌ في موضع الحال من اسم الجلالة، أو معترضةٌ، أو تعليليَّة، أي: لا يصيبنا إلَّا ما قدَّره اللّه لنا، ولنا الرَّجاء بأنَّه لا يكتب لنا إلَّا ما فيه خيرُنا العاجل أو الآجل؛ لأنَّ المولى لا يرضى لمولاه الخزي[5].

لن يكتبَ اللهُ للمسلمِ إلَّا ما فيه خيرُهُ ونفعُه، وصلاحُ أمرِه

إيثارُ لفظِ ﴿مَوۡلَىٰنَاۚ﴾، في السّياق:

أي: متولٍّ أمورَنا الدِّينيَّةَ والدّنيويّةَ، ومعتمَدُنا في جَلْبِ المصالحِ، ودَفْعِ المَضارِّ، وثقتنا في تحصيل المطلوب، ومَن حالُهُ كذلك لزامٌ عليه الرِّضا بأقداره، والتَّسليم لمشيئته، فليس في يديه منَ الأمر شيءٌ[6].

الإقرارُ بالولاية، أمارةُ التّسليم، لقدَرِ اللهِ الحكيمِ

عِلَّةُ الإظهارِ، في مقامِ الإضمار:

أظهرَ الاسمَ الجليلَ في مقامِ الإضمارِ؛ لقصد التبرُّكِ به،

إظهارُ اسمهِ الأعظمِ جلَّ شأنُهُ، قرينُ مواضعِ القُدرة

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5179.
(2) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 4/332.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/278.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/223.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 339 - 340.

والتَّلذُّذِ بذِكْره[1]، وفيه دلالةٌ على زيادة التَّفخيم؛ إذ من عادات القرآن قصْدُ إظهار اسمِهِ الأعظم في مواطن القدرة، والإمكان، والجلال باستحضار عظمةِ اللّه تعالى بما يحويه اسمُ الجلالة من معاني الكمال، ولتكونَ الجملة مستقلَّةً بنفسها، فتكون جاريةً مجرى الأمثال والكلم الجوامع[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالموصول (ما):

لا يَـقـدرُ على كتابة تفاصيلِ القدَرِ، إلّاخالقُ الـوجـودِ، وربُّ البشرِ

المكتوب عامٌّ غيرُ مخصَّص بتفصيل، مجهولٌ غير معلومٍ عند البشر، ولذلك اختيرَ الموصولُ الَّذي يُناسبه، الدَّالُّ على الاستغراق، والعمومِ، وإجراء الوصف بالموصولِ على اسم الجلالة لزيادة التَّفخيم؛ لأنَّ كتابةَ كلِّ شيءٍ، ما دقَّ منه، وتناهى في الصِّغر صفةٌ عظيمة لا يقدر عليها إلَّا اللّه تعالى. وللتَّنبيهِ على أنَّ التَّوكُّل من آثارِ رحمته، ومظاهرِ عنايته، وكمال قدرتهِ.

تَوجيهُ العطفِ بالواو، في جملةِ التوكُّلِ على الله الأجلِّ:

جملةُ التَّوكُّلِ تحتملُ الإخبارَ المباشرَ، أو أنَّها تـتـمَّـةٌ لجملة القول

وجملةُ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يجوزُ أن تكونَ معطوفةً على جملةِ ﴿قُل﴾؛ فهيَ من كلام اللّه تعالى خبرًا في معنى الأمر، أي: قل ذلك، ولا تتوكَّلوا إلَّا على اللّه دون نُصْرة هؤلاءِ، أي: اعتمدوا على فضلهِ عليكم.

ويجوز أن تكونَ معطوفةً على جملة ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾، أي: قل ذلك لهم، وقل لهم: إنَّ المؤمنين لا يتوكَّلون إلَّا على اللّه، أيْ: يؤمنون بأنَّه مؤيِّدهم، وليس تأييدهم بإعانتكم، وتفصيلُ هذا الإجمال في الجملة الَّتي بعدها[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/358.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.

سِرُّ تقديمِ شِبْه الجملةِ، على طرفَيِ الإسنادِ الفعلِ والفاعلِ:

توكُّلُ المسلمين في جميع الأمورِ، مختصٌّ باللهِ وحده دونَ سواه

قدَّمَ الجارَّ والمجرور ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾، على الفعلِ وفاعلِه ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لإفادة القصْرِ، والحصْرِ[1]. والتَّوكُّلُ على الله تفويضُ الأمور إليه، والمعنى: أنَّ من حقِّ المؤمنين أنْ يجعلوا توكُّلهم في جميع أمورهم مختصًّا بالله سبحانه لا يتوكَّلون على غيره[2]. وهذا كالتَّنبيهِ على أنَّ حال المنافقين بالضِّدِّ من ذلك، وأنَّهم لا يتوكَّلون إلَّا على الأسباب الدُّنيويَّةِ واللَّذات العاجلة الفانية[3].

دَلالةُ الفاءِ، في الفعْل ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾:

سببيَّةُ الفاءِ توجبُ التَّوكُّلَ، وجزائيَّتُها تُشعِرُ بالتَّرتُّبِ

الفاءُ في ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ سببيَّةٌ، والأصلُ: ليتوكَّلْ، وأُدخلت ههنا للدَّلالة على إيجابِهِ تعالى للتوكُّل، كما في قوله: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ﴾[4]. وهي تدلُّ على محذوف مفرَّعٍ عليه اقتضاه تقديمُ المعمول[5]، ولفصلِ فعل الأمر عن الإخبار[6].

ويرى الطِّيبيُّ أنَّ الفاءَ جزائيَّةٌ تُشعر بالتَّرتُّب، أي: إذا كان لن يصيبنا إلَّا ما اختصَّنا الله تعالى به من النُّصرةِ أو الشَّهادة، وأنَّه يتولَّى أمرنا، فلنفعل ما هو حقُّنا من اختصاصه بالتَّوكُّل، كأنَّه قابلَ قولَ المنافقين: (قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا الذي نحن متَّسمون به من الحذرِ والتيقُّظ والعمل بالحزم)، بدأب المؤمنين على ألَّا يتوكَّلوا على حزْمِهم وتيقُّظ أنفسِهم، كما هو دأبُ المنافقين ذلك، بل أن يتوكَّلوا على الله وحده، ويفوِّضوا أمورهم إليه[7].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67.
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/223.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3328.
(7) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/267.

نُكتةُ التَّعبيرِ عنِ التَّوكُّل، بصيغة المضارع المسبوقِ بلام الأمر:

عِـــزَّةُ المـؤمـنِ بـالـتَّـوكُّـلِ على الله تعالى، ومَنْ توكَّلَ عليه كفاه وحمَاه

قوله: ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾، تعبير عنِ التّوكُّل على اللّه بصيغة أمرِ المؤمنين؛ ربْطًا على قلوبهم، وتثبيتًا لنفوسِهم لكيلَا يأسَفوا من أذى المنافقين؛ فإنَّ ذلك لن يضرَّهم؛ فإنَّ عزَّة المؤمن ونصرَهُ وتمكينَهُ بالتَّوكُّل على اللّه[1].

بديعُ إيثارِ المُظْهَرِ على المُضْمَرِ:

التوكُّلُ لا يَنفكُّ عنِ الإيمان، بل إنّ التّوكّلَ مَظهرٌ من مظاهرِه

وضعَ المؤمنين على إرادةِ الجنس موضعَ ضميرِ المتكلِّم، فأظهرَ اللَّفظَ، ولم يقل: وعلى اللّه فليتوكَّلوا؛ ليؤذِنَ بأنَّ شأنَ المؤمن، وديدنه، ومعتادَ فِعْلِه اختصاصُ التوكُّل باللّه[2]. ولما في لفظ (المؤمنون) من العموم الشَّامل للمخاطَبين وغيرهم، ولتكونَ الجملةُ مستقلَّةً، فتسري مسرى المثل[3].

وَجْهُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وجمعِه:

شـأنُ الـتـوكُّـلِ يــخــصُّ كــلَّ مؤمنٍ، ويهمّه ويُهمّه في عاجلِ أمـرِه وعـاجـلـه وآجلِه

(أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ جنسيَّةٌ، رسَّخ دلالتَها على الشُّمول جمعُ السَّلامة، فشأنُ التَّوكُّلِ على اللّه، والتسليم له، والخضوع لأمره يخصُّ كلَّ المؤمنين، بل تخصُّ عموم المخاطَبين بحسب ما ذُكرَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.

(2) الطّيبّي، فتوح الغيب: 7/267.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/282.

﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢﴾ [التوبة: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ جوابٌ ثانٍ عن فرح المنافقين بمصائبِ المؤمنين بما يُخرسُ ألسنتَهم، ويُزيلُ فرحتَهم[1]؛ إذ تتنزَّل منزلةَ الإيضاح، والكشف، والبيان لما تضمَّنته جملةُ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[2]. فلمَّا تبيَّن لهم أنَّ سرَّاءهم وضرَّاءهم لهم خيرٌ من حيث إنَّ الرِّضا بمرِّ القضاء موجبٌ لإقبال القاضي على المقضيِّ عليه بالرَّأفة والرَّحمة، صرَّح بذلك في قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ﴾[3].

العلاقةُ بين اليقينِ بنفْعِ الله وحدَه وضُرِّه، وبين مصيرِ منْ آمن، وجزاءِ منْ كفرَ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرَبَّصُونَ﴾. التَّربُّص بالشَّيْء هُوَ انتظارك بِالرَّجلِ خيرًا أَو شرًّا يحلُّ بِهِ[4]. فـ" الراء والباء والصاد أصل واحد يدلُّ على الانتظار"[5]. والمُكْث، والانْتِظار بالشَّيء، سلعةً كانت يقصد بها غلاءً، أو رخصًا، أو أمرًا يُنتظر زوالُه، أو حصولُه[6]، وسائر ما جاء في القرآنِ من التَّركيب؛ فهو بمعنى الثَّبات انتظارًا مع حدَّة[7]، وشيء مِنَ الترقُّب والتَّوتُّر.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/67، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/314.
(2) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/319، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/497.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ربص).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربص).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن الأثير، النّهاية: (ربص).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/745.

المَعنى الإجْماليُّ:

تحقيقُ إحدى الحُسنيَين أمنيَّةُ المؤمنين، والدَّحْرُ والخسارُ للكفرةِ المارقين

يقول تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: قُلْ لهؤلاء المنافقين الَّذين وصفتُ لك صفتَهم، وبيَّنت لك أمرَهم: هل تنتظرون بنا إلَّا إحدى الخلَّتين اللَّتين هما أحسن من غيرهما: إمَّا ظفرًا بالعدوِّ، وفتحًا لنا بما فيها من الأجر والغنيمة والسَّلامة، وإمَّا قتلًا من عدوِّنا لنا، ففيه الشَّهادة، والفوزُ بالجنَّة، والنَّجاة من النَّار، وكلتاهما ممَّا نُحبُّ، ولا نكرهُ، ونحن ننتظر بكم أن يصيبكم اللّه بعقوبةٍ من عنده عاجلةٍ، تهلككم، أو بأيدينا؛ فنقتلَكم؛ فانتظروا إنَّا معكم منتظرون ما اللّه فاعلٌ بنا، وما إليه صائرٌ أمرُ كلِّ فريقٍ منَّا ومنكم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفصْل في الآيةِ:

الآيةُ بيانٌ لما قبلَها، وفيها إبرازُ كمالِ العنايةِ بالمأمورِ به

تُنَزَّلُ الآيةُ منزلةَ البيان لما تضمَّنتْه جملةُ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ في الآيةِ السَّابقةِ هو علَّةُ فصلِها عنها، والعُدولُ عن عطفها عليها، والمبين هو إجمال ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ [التوبة: 51][2]. فالجملةُ إن كانت من تمام الكلام المأمورِ به؛ لإبراز كمالِ العنايةِ بشأن المأمورِ به والإشعارِ بما بينه وبين ما أُمر به أوَّلًا من الفرق في السِّياقِ؛ إذ فيها نوعُ بيانٍ لما أُبهَم في الجوابِ الأوَّل، وكشفٌ لحقيقة الحالِ بإعلام أنَّ ما يزعُمونه مضرَّةً للمسلمين من الشَّهادة أنفعُ مما يعُدُّونه منفعةً من النَّصر والغنيمةِ[3].

عِلَّةُ الافتتاحِ بفعل القولِ ﴿قُلْ﴾:

اللّهُ تعالى فوق الجميعِ، ولا يكونُ نفعٌ أو ضررٌ، إلّا بحكمةٍ وقدَرٍ

أمرَ اللّه تعالى نبيَّه أنْ يقولَ لهم هذا القولَ، ولم يسندْهُ تعالى إلى نفسه؛ لأنَّه فوق الجميعِ، إنَّما جعلَ الرَّسولَ يُسنِده

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/73.

إلى نفسه؛ لأنَّه من أحد الفريقَيْن المتربِّصيْن، وإن كان اللّه تعالى مع المؤمنين[1].

نُكتةُ العُدولِ عنِ العطف بالواو:

دفعُ التّوهُّم بتلافي العطفِ، وتأكيدِ مصدرِ الإصابةِ بالخير أوِ الشّرِّ

لم تُعطَفِ الآيةُ بالواو، وهو من تمام قولِه تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾؛ لأنَّك إذا قلتَ: إنْ جاءك زيدٌ؛ فأعطِه درهمًا، أو أكرمه؛ اقتضى الجمع والإفراد، وهنا لو عطف بالواو؛ لتُوهِّمَ أنَّه يخرج من عهدته، بأن يقولَ: هم أشدُّ الشَّيئَيْن فقط[2].

سِرُّ العُدولِ من صريحِ النَّفْيِ إلى الاستفهام:

الاستفهامُ يَقتضي الموافقةَ، ويُسفِرُ عنِ المعنى في إطار تنويعِ الأسلوبِ

وعدل من صريح النَّفْيِ بـ(لن) في الآية السَّابقة إلى مجازِه المستفادِ منَ الاستفهام؛ لأنَّ الاستفهامَ يقتضي الموافقةَ، إذ لَا يقول: هل زيد إلَّا قائمٌ؟ إلّا مَنْ يعلم أنَّه يوافقك[3].

إيثارُ حرفِ الاستفهام (هل):

تربّصُ المؤمنين لإحدى الحُسنَييْن، مقابلَ تربُّصِهم لأعدائِهم بأحدِ الهلاكَيْن

أوثِرَ استعمال حرف الاستفهام (هل) إشارة إلى تحقيق مدخولها: إمَّا النَّصر المؤزَّر، وإمَّا الفوزُ بأسمى أماني المجاهدين في سبيل اللّه، وأعلى درجاتهم ألا وهي الشَّهادة[4]. والنَّفي بـ (هل) ليس نفيًا محضًا، بل هو استفهامٌ أُشرِب معنى النَّفي المصحوب بالتّعجُّب والاستنكار، "فقوله تعالى مثلًا: ﴿هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ يختلف عن قولنا: (ما تربَّصون بنا إلَّا إحدى الحُسنين) فإنَّ الأُولى ليست نفيًا خالصًا، فإنَّ فيها من التَّحدِّي والاستخفاف ما لا يؤدِّيه النَّفي المحضُ"[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/17.
(5) السّامرائي، معاني النّحو: 4/243.

سِرُّ العُدولِ من صريحِ النَّفْيِ وحقيقتِه إلى مجازِه:

التّعبيرُ بالاستفهامِ بإشراكِ المخاطَبِ في الأمر، بانتظارِ الجوابِ منه

وعدلَ من صريح النَّفيِ وحقيقتِه إلى مجازِه؛ لأنَّ الاستفهامَ يَقتضي أنَّ المُسْتَفْهِمَ موافقٌ، ألا ترى أنَّه لَا يجابُ بنعم، ولا بلا، فلا تقول: هل زيد إلَّا قائمٌ؟ إلّا لمن تعلم أنَّه يوافقك، فإن لم يوافقك، قلت: ما زيدٌ إلَّا قائم، والمنافقون يوافقون على أنَّهم ما يتربَّصون بهم إلَّا لأحد أمرين[1]. ثم إنَّ النَّفيَ الصَّريح إنَّما هو إقرارٌ من المخبر، فإذا قلت: (ما تربَّصون بنا إلا إحدى الحُسنيَيْن)، كان هذا إخبارًا من المتكلِّم، أمَّا إذا قلتَهُ بطريق الاستفهام، فإنَّ المقصودَ إشراك المخاطَب في الأمر، فهو يريدُ الجواب منه، فالنَّفي ابتداءً يفيد أنَّ المتكلِّم يقول الأمر من نفسِه، وأمَّا في الاستفهام؛ فإنَّه يدع ذلك للمخاطَب ليقولَهُ[2].

بَلاغةُ الاستفهامِ:

توبيخُهم والإنكارُ عليهم التّربّصَ بأذى المؤمنين

الاستفهامُ في الآية للتَّقريع والتَّوبيخ مع الإنكارِ، وهو مستعمَلٌ في النَّفيِ بقرينة الاستثناء، ومعنى الكلام توبيخُهم، وتخطئة تربُّصهم؛ لأنَّهم يتربَّصون بالمسلمين أن يُقتلوا، ويغفلون عن احتمال أن يُنصروا، فكان المعنى: لا تتربَّصون بنا إلَّا أن نُقتلَ أو نُغلبَ، وذلك إحدى الحُسنيين[3].

والإنكارُ الحصريُّ ظاهرٌ فيه؛ فليس أمام المؤمنين في جهادهم إلَّا النَّصرُ أو الشَّهادة، وهما أمران بلغا الغايةَ في الفضل والكمال، وقد يترتَّبُ على هذا إفحامُ الخصم، وتبكيتُهُ، وردُّ كيده في نحره[4].

من دلالاتِ الاستفهامِ التّسهيلُ والتّخفيفُ

والاستفهامُ مُستعمَلٌ أيضًا في التَّسهيلِ والتَّخفيف، أي: هَلْ تَنْتَظِرُونَ أَنْ يَنَالَنَا إلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ: الشَّهادة وهي لطيفة النّزع، أو النَّصر وهو سَليلُ السَّعة والتيسير؟

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/314.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/17.

ويحتمل الاستفهامُ أيضًا التَّقريرَ والتَّحقيق، أي: هل تربَّصون بنا أيُّها الجاهلون إلَّا إحدى العاقبتيْن اللَّتيْن كلٌّ واحدة منهما حُسْنى العواقب وفُضلاها: النُّصرةُ المضمونة للجماعة، والشَّهادةُ المكتوبة لبعض الأفراد[1].

مِنْ دلالاتِ الاستفهامِ التَّقريرُ والتَّحقيقُ

إيثارُ لفظِ التَّربُّصِ على الانتظارِ:

التَّربُّص: طولُ الانتظار، ويُسمَّى المتربِّص بالطّعام وغيره متربِّصًا؛ لأنَّه يُطيل الانتظار لزيادة الرِّبح[2]، وهو التمكُّثُ مع انتظار مجيءِ شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا[3]، والتمهُّل في انتظار ما يُرجى، أو يُتمنَّى وقوعُه[4]، والتمسُّك بما يُنتظر به مجيءُ حينِه، ولذلك قيل: فلانٌ يتربَّص بالطعام؛ إذا تمسَّك به إلى حين زيادة سعره، وكثرَ اقترانُه بالشَّرِّ، يُقال: فلانٌ يتربَّص بفلان الدَّوائر، وإذا كان ينتظرُ وقوعَ مكروهٍ به[5].

التَّربُّصُ: طولُ الانتظار، مُقترنًا بالشَّرِّ والبَوارِ

وأكثرُ استعماله؛ أنْ يكون انتظارَ حصولِ شيءٍ لغير المُنْتَظِر، ولذلك كثرَتْ تعديةُ فعل التربُّصِ بالباء؛ لأنَّ المتربِّص ينتظر شيئًا مصاحِبًا لآخرَ هو الّذي لأجله الانتظارُ[6].

بيانُ التَّعبيرِ عنِ التَّربُّص، بصيغةِ التَّفعُّلِ:

والتَّربُّص: الانتظارُ انتظارًا عظيمًا[7]، تفعُّلٌ من الرَّبص حُذِفَت إحدى التَّاءيْن في تربَّصون، وهذا الحذفُ يؤذِنُ بتعجُّلهم خبرَ ما يحسبونه أذًى للمؤمنين، وتلهُّفهم إلى سماعه فرحين به.

شِدَّةُ انتظارهم، أَمارةُ تعجُّلِهم خبرَ الأذَى

(1) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/73.
(4) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/497.

مآلُ مَنْ ضحّى بنفسِه في سبيل الله، فوزٌ محقَّقٌ بإحدى الحُسْنيَيْن عند مَولاه

بَلاغةُ الاستثناء:

قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾ مُستَثْنى من عموم الأحوال التي في سياق النَّفي؛ إذ (هل) للاستفْهَام الإنكاريّ[1]، والجملةُ تفيدُ الحصرَ، أي: لا شيءَ يُنتظر لنا غيرُ هاتيْن العاقبتيْن ممَّا كتب لنا ربُّنا، وأنتم تجهلون[2]. فـ" قُصِرَ الموصوفُ، وهو مآلُ المجاهدين في سبيل اللّه تعالى على صفة الحُسن البالغ، والكمال الكريم"[3].

حالُ المنافقين غيرُ مُنحصرٍ، في أنْ يُصيبَهمُ العذابُ

عِلَّةُ الإتيانِ بأداة الحصرِ، مع الحُسنيَيْن دونَ الإصابةِ:

أتى في الأوَّلِ بأداة الحصر دون الثَّاني، فقال: ونحن نتربَّصُ بكم من غير حصْرٍ؛ لأنَّ المسلمين لا يخرج حالهم عن إحدى الحُسنيَيْن: النَّصرِ أو الشَّهادةِ، أمَّا المنافقون؛ فحالهم غيرُ منحصرٍ في أنْ يصيبَهم العذاب؛ إذ قد يقولون: فلا يصيبهم العذابُ بوجهٍ، أو أن يُسْلِمُوا، فيَحْسُنَ حالهم[4]؛ "لجواز أنْ يتُوبُوا عن نفاقهم، ويصحَّ إيمانهم، وقد تاب بعضهم، واعترفوا بما كانوا عليه بعد ظهور أمرِهم، كالَّذين أخبرَهم النَّبيُّ بما ائتمروا به من اغتياله ﷺ، ومن المعقول أن يكونَ أكثرُ الباقين قد تابوا بعد أنْ أنجزَ اللّهُ لرسوله جميعَ ما وعده به، ووقع ما كانوا يحذرونه من تنزيل سورةٍ تُنَبِّئُهم بما في قلوبهم، ومنها فضيحتُه تعالى لزعيمهم الّذي مات على كفره، ولو ذكرَ ذلك في التَّنزيل بصيغة الحصرِ؛ لكان خبرًا بخلاف ما سيقع، وهو هلاكهم بكفرِهم بدون الشَّرط الّذي بُيِّنَ"[5].

الحذفُ لـلإثـباتِ، من براعةِ النَّظْمِ في السّياقِ القرآنيّ

بَلاغةُ الاحتباكِ:

في الآية فنُّ الاحتباك؛ إذ حذفَ أوَّلًا الإصابةَ للدَّلالة عليها

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/414.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313، 314.
(5) رضا، تفسير المنار: 10/415.

بما أثبت ثانيًا، وحذفَ ثانيًا إحدى السَّوْءَيَيْنِ للدَّلالة عليها بإثبات الحُسنيَيْن أوَّلًا[1].

وَجهُ تأنيثِ لفظِ الحُسْنى:

الانتظارُ يُلائمُ العاقبةَ، ممّا يُناطُ في المنتهَى بالأجيالِ المتعاقبةِ

وجهُ التأنيث في الحسنى؛ لكونها صفةً للعاقبة، ويجوز كونُها صفةً للخصلة أو الحالة، وكونُها صفةً للعاقبة أمسُّ بالمقام، فإنَّ الانتظارَ يلائمُ العاقبةَ[2].

بيانُ وجْهِ الأحسَنيَّةِ بين المصيرَيْن:

القصدُ بيانُ أحْسَنيَّةِ كلِّ مصير، وهو قدرٌ محتومٌ لا مفرَّ منه

الحُسْنيان مُثَنَّى الحسنى، وهي اسم التّفضيل للمؤنَّث، ولذلك تقتضي التَّفضيلَ بأنَّها أحسنُ العواقب، لكنَّهما ههنا مستويان؛ فالمقصودُ بيانُ أحسنيَّةِ كلٍّ منهما مع جميع ما عداه من العواقب الكائنةِ في الحروف، ولا يلزم أن يكونَ كلٌّ منهما أحسنَ من الآخر من وجهٍ، ويجوز أن يكونَ أحدُهما أفضلَ، وهو الموتُ مجاهدًا[3].

بَلاغةُ الكنايةِ، في التَّعبيرِ عنِ الحُسْنيَيْن:

في الوصْفَيْن تشريفٌ وتفخيمٌ وتنبيهٌ

كنَّى عنِ التَّعبيرِ بالشَّهادةِ، أو النَّصرِ بلفظ ﴿ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ﴾، لما في الوصف من تشريفٍ، وتكريم، فالتَّعبيرُ بإحدى الحسنيَيْن عَلَى إطلاقه مع أنَّ المُرَاد (النُّصرة أو الشَّهادة)، فيه ما لا يخفى من التَّفْخيم والتَّنْبيه، عَلَى أنَّها ممَّا لا يدخل تحت وصفِ الواصفين[4]، ففي الأولى إحرازُ الغنيمة، والظَّفر بالأعداء، وفي الثّانية إبقاءُ الذِّكْر والفوز بنعيم الآخرة[5].

عِلَّةُ وصْفِ حالَتَي المؤمنين دونَ المنافقين:

لم يُدرِك المنافقون كُنْهَ الحُسْنيَيْن، ولا أنَّ الشَّهادةَ حياةٌ أبديَّةٌ

وصفَ حالتَي المؤمنين بالحُسْنيَيْن، وعيَّنَ حالتَيْ حالِ المنافقين،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/314، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.
(5) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/482 - 483.

ولم يصفهما بـ(السَّوءَتَيْن)، أو(السَّوءَيَيْن) تثنية (سَوْءَى)، مؤنَّثُ (أسوأ) كحُسنى؛ لأنَّ المنافقين كانوا يزعمون أنَّ موتَ أحد المؤمنين ليس بِحَسَنٍ، وكذلك ظَفَرُهم بالمؤمنين، فعبَّر عن هذيْن الوصفيْن الأخيريْن بالحُسنيَيْن، ولما كان نفسُ الوصفيْن الأخيريْن غيرَ قبيحيْن عند المنافقين؛ لم يحتج إلى وصفها بالقبيحيْن اكتفاءً بنفْيهما[1].

العُدولُ عن المقابلة، لغرَضِ التَّخصيصِ، والتَّعيينِ:

السّوءُ وصفٌ مشتركٌ بين جميع القبائحِ المعهودةِ لدى العُصاةِ

غيَّرَ الأسلوبَ مغادرًا حسنَ المقابلة؛ لكونِ السُّوء وصفًا مشتركًا بين جميع القبائح؛ فعدل إلى ما المُرَاد من التَّفْصيل والتَّعيين، لانتفاء نُكتة الإبهامِ في الجملة[2].

بَلاغةُ العطفِ بالواو:

بين الفريقين بَونٌ شاسِعٌ، في عاقبةِ الحرْبِ

وجملةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ معطوفةٌ على جملة الاستفهام؛ عطفَ الخبر على الإنشاء: بل على خبرٍ في صورة الإنشاء، فهي من مَقول القول، وليس فيها معنى الاستفهام، والمعنى: وجودُ البوْن بين الفريقيْن في عاقبة الحربِ في حالتَي الغلبةِ والهزيمة[3].

نُكتةُ تقديمِ الضَّميرِ ﴿وَنَحْنُ﴾:

حصرَ التّربُّصَ بهم، وقوَّى الحُكمَ، لمزيدِ منَ البيانِ والإيضاحِ

تقديمُ الضَّمير (نحن) في قوله: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ عَلَى الخبر الفعلي، إمَّا للحصر؛ فيكونُ تغييرُ الأسلوبِ للتَّفنُّن الَّذي من شُعَبِ البلاغة، وإمَّا لتقوية الحكم فقط، فأمْرُ التَّغيير واضح[4].

سِرُّ التَّعبيرِ عن تربُّصِ المؤمنين، بالجملةِ الاسميَّةِ:

التّربُّصُ المذكورُ ثابتٌ على الدّوام، في كلّ العصورِ

وجُعِلَتْ جملةُ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾ اسميَّةً؛ فلم يَقُلْ: (ونتربَّص بكم)، بخلاف الجملة المعطوف عليها: لإفادة تقويّة التربُّص ثباتًا، وقوَّةَ رجاءٍ، وديمومةَ حالٍ.

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/313، 314.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224 - 225.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/250.

بلاغةُ الكنايةِ:

تقويةُ التّربُّصِ، تُفيدُ قوّةَ الرَّجاءِ

وجملةُ ﴿وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ﴾ كنايةٌ عن تقوية حصول المُتربَّص؛ لأنَّ تقوية التَّربُّص تفيد قوَّةَ الرَّجاءِ في حصول المتربَّص؛ فتفيد قوَّةَ حصوله، وشدَّةَ وقوعِه، وهو المُكنَّى عنه[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بشِبْهِ الجملةِ ﴿بِكُمۡ﴾:

نـزولُ الـعذابِ بهـم، هو جـزاءٌ لِفعلِهم

عبَّرَ بشبْهِ الجملة ﴿بِكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ما ينزل بهم عقابٌ في مقابلِ ما حَكى عنهم في قوله تعالى: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل:

الكلامُ مخصَّصٌ لحدَثِ الإصابة فحَسْبُ

المصدر المؤوَّلُ يفيدُ الدَّلالةَ على الزَّمن، بخلاف المصدر الصَّريحِ، ودخولُه على المضارع ﴿يُصِيبَكُمُ﴾ يدلُّ على الحال، أو الاستقبال، فضلًا عن دلالته على مجرَّدِ معنى الحدث دون احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي ﴿أَن﴾ تحصينٌ من الإشكال، وتخليصٌ له من شوائب الإجمال[3]. فالتَّربُّصُ أن يصيبَهم العذابُ بالمصدر المؤوَّل مخصَّصٌ في حدث الإصابة حسبُ، ولو عُبِّرَ عنه بالمصدر الصَّريح (إصابتكم)؛ لاحتملَ الكلامُ معاني التَّربُّص بكيفيَّات الإصابة، وحالاتها، سرعتِها، أو بُطئِها...إلخ، وهو ما لا فائدةَ فيه في هذا الموضع؛ إذِ المقصودُ الحدثُ.

وَجْهُ إظهارِ اسْمِ الجلالة (الله):

تهويلُ عذابِهم المرتقبِ، جزاءُ الانحراف وسوءِ الأدبِ

أُظهرَ لفظُ الجلالة (اللّه) في موضع العذاب، وأكَّدَ إصابتَهم به ﴿مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ تفظيعًا لهذا العذاب المُرتقب، والعقاب المستحقِّ، وتهويلًا لشأنه[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(3) السّامرائي، معاني النّحو: 147 - 148.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.

تَوجيهُ التَّنكيرِ، في لفظِ ﴿بِعَذَابٖ﴾:

نكَّرَ العذابَ في قوله: ﴿بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾؛ ليدلَّ على عموم معنى العذاب، وواسعِ مُحتملاته، واستغراقه لجميع صنوفهِ؛ كالموت بأخَذاتِ الأسف، أو نازلة منَ السَّماء كصاعقة ثمودَ وريحِ عادٍ، ويحتمل أن يكون توعُّدًا بعذاب الآخرة، أو يريد أنواع المصائب والقوارع[1].

زيادةُ التَّفظيعِ، وتنويعِ العذابِ، في سياقِ الآيةِ البليغةِ

تَوجيهُ إضافةِ العذابِ إليه تعالى:

وإضافةُ العذابِ إليه ﷻ، ينزلُه من عندِه فيه إظهارٌ لغضبه تعالى، وسخطِه عليهم، الّذي يبوؤون به، كما باءَ من قبلُ إخوانٌ لهم في النِّفاق من اليهود ومَنْ يواليهم، والأمر الثّاني عذابٌ من المؤمنين يُنزلونه ظافرين بهم، بتمكين اللّه تعالى منهم[2].

إظهارُ الله تعالى غضبَهُ، على أهلِ النّفاقِ والكفرِ، للتّخويفِ منَ المصيرِ

بَلاغةُ الكنايةِ في ﴿مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾:

وكونُه من عنده تعالى كنايةٌ عن كونهِ منه جلَّ شأنُه بلا مباشرة البشر، ويُظهر ذلك المقابلةُ بقوله سبحانه: ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾[3]، وتحتملُ عنديَّتُه متنوِّعَ التَّأويلات، ومتعدِّدَ الدّلالات: غضبًا، وسخطًا، ونوعَ عذاب سيحلُّ بهم.

تحتملُ العنديَّةُ تنوُّعَ العذابِ المتوقَّعِ

توجيهُ العطفِ بـ(أو):

العطفُ بـ (أو) يفيدُ فصْلَ العذاب الَّذي من عند اللّه منَ العذاب الَّذي يقعُ بأيدي المسلمين، ولو عطفَ بالواو؛ لاحتملَ أن تكون إصابةُ العذابِ واحدة، وسبيل تحقُّقها أيدي المسلمين، فالعطفُ بـ(أو) فرَّق صنفي العذاب.

في تغايُرِ العذابَيْن مزيدُ ذمٍّ، للتّذكيرِ بهولِ المصيرِ

دَلالةُ جملة: ﴿بِأَيۡدِينَاۖ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾، يريد: القتلَ[4]، والإشارةُ فيه إلى

تأييدُ المؤمنين وتمكينُهم، من مُعاقبةِ المنافقين

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/44، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/251.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3329.
(3) الآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/44.

القتال - الَّذي يكون بالأيدي الّتي تبطشُ - إقرارٌ بقوَّة المؤمنين المؤيَّدة بنصر اللّه تعالى العزيز الحكيم، وتشريفٌ لهم بإظهار هذه القدرة والتَّمكين من لدن اللّه تعالى[1].

بَلاغةُ المجازِ المرسَلِ:

إطلاقُ الجُزءِ، وإرادةُ الكلِّ، من بليغِ البيانِ

في قوله تعالى: ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ﴾ مجازٌ مرسلٌ علاقتهُ الجزئيَّةُ؛ إذ أُطلق الجزء (الأيدي)، وأُريدَ الكلُّ، ولهذا الجزء مزيدُ اختصاصٍ بالعذاب؛ لأنَّ اليدَ هي الّتي تحملُ السِّلاح، وتستعملُه في المعركة[2].

تَوجيهُ الحذْفِ في جملةِ ﴿بِأَيۡدِينَاۖ﴾:

إظهارُهم الكفرَ عِـلَّـةُ عذابِهـم بأيْدي المؤمنين

المرادُ بقوله تعالى: ﴿بِأَيۡدِينَاۖ﴾ تقدير معنى: (بعذاب كائن بأيدينا كالقتل على الكفر إن ظهر نفاقكم)؛ لأنَّ نفاقَهم إذا ظهر؛ كانوا كسائرِ المشركين في كونهم حربًا للمؤمنين[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم لا يُقتلون حتى يُظهروا الكفرَ، ويُصرُّوا عليه؛ لأنَّ المنافق لا يُقتل مع إظهاره الإيمانَ[4].

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾:

عاقبةُ المؤمنين الـحُـسـنَـى، وعاقبةُ المنافقين السّوءى

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ فاءُ الإفصاح المنبِّهةُ عن شرط مُقدَّر، أي: إذا كان هذا أمرنا، وأمركم في التَّربُّص، فتربَّصوا بنا ما هو عاقبتُنا وعاقبتكم؛ إن أصررتم على كفركم، وظهر أمركم، ممَّا نحن فيه على بيِّنة من ربِّنا، ولا بيِّنة لكم، فلن نشاهد إلَّا ما يسوؤكم، ولن تشاهدوا إلَّا ما يسرُّنا، وفي هذه الجملة تهديدٌ لهم بسوء عاقبتهم، وبيان حسن عاقبة المؤمنين، فاللّه تعالى بعزَّته ناصرُ جنده، وخاذلُ عدوِّه[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3330.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68.
(4) الآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/74، والآلوسيّ، رُوح المعاني: 5/306، ومحمد رضا، تفسير المنار: 10/415، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3330.

تَوجيهُ الأمرِ في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾:

ترقُّب المصيبةِ وانتظارُها، أشدُّ على النُّفوس وأنكى

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ للتَّحضيض المجازيّ، ومع إفادته قلَّةَ الاكتراث بتربُّصهم، إلا أنَّه يحتمل التَّهديد، والوعيد، والتَّحسير؛ لأنَّ ترقُّبَ المصيبة، وهولَ شرِّها أنكى على النُّفوس من وقوعها، فهو كالموت البطيء في شدَّةِ الإيلام[1].

دلالةُ المعيَّةِ:

المعيَّةُ للمشاركةِ في وصفِ التّربُّصِ المذكورِ في السّياقِ

المعيَّةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ معيَّةٌ في التَّربُّص، أي: صائرون معكم في التَّربُّص، أو معيَّةٌ في زمانه، فهي للمشاركة في وصف التَّربُّص[2].

تَوجيهُ الفصلِ في جملةِ الفاصلةِ:

الجملةُ علَّةٌ للحضِّ على التّربّصِ المذكورِ في السّياقِ

وفُصِلَتْ جملةُ ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ عن الجملة الَّتي قبلَها، ولم تُعطف؛ لأنَّها كالعلَّة للحضِّ[3].

سِرُّ التّوكيدِ في جملةِ الفاصلةِ:

تنزيلُ غيرِ المُنكِر مَنزلةَ المُنكِر

وتأكيدُ الخبر بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾؛ لتنزيل المخاطَبين منزلةَ مَنْ يُنكرُ أنَّه يَتَرَبَّصُ بهم كما يَتربَّصُون به؛ لأنَّهم لغرورهم اقتصروا على أنَّهم يتربَّصون به ليروا هلاكَه، فهذا من تنزيل غير المُنكِر منزلةَ المُنكِر[4].

بَلاغةُ جِناسِ الاشتقاقِ:

في المحسَّنِ البديعيِّ شوقٌ وترقُّبٌ، إلى ما سيُصارُ إليه

ووجْهُ إعادةُ لفظة التّربُّص هنا أربع مرات: ﴿تَرَبَّصُونَ﴾، و﴿نَتَرَبَّصُ﴾، و﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾، و﴿مُّتَرَبِّصُونَ﴾، وحُسنُ الإفادةِ في الجناس هنا يكمن في مؤدَّى الكلمة المكرَّرة لمعنى جديد، مع أنَّ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/18.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225، و27/63.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/62.

الصُّورةَ توهمُ السَّامع في أوَّل أمرِها أنَّها لم تأتِ بجديد، وأنَّها مكرِّرةٌ لمعنى سابقتها، وفي ذلك متعةٌ للنَّفس، وحمْلٌ للسَّامع على الإصغاء، وميلٌ إلى المقيلِ[1]. وترقُّبٌ إلى ما سيقع، ولهفةٌ مع الانتظار، وشوقٌ إلى ما سيُصار، أضفاه لفظ (التَّربُّص) وتَكراره.

فنُّ التّعطُّف أوِ المشاركةِ[2]:

في التَّكرارِ تفنُّنٌ في النَّظْمِ، وبراعةٌ في البيانِ

فقد أتى التعطُّفُ من صدر الآية في قوله ﴿تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾، ومن عجُزِها في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ مع تجنيس الازدواج[3]، فأفادَ الفنُّ ما أفاد الجناس من تشويقٍ إلى المآل، بما تحمله اللَّفظةُ المكرَّرة من معنى جديد.

بَلاغةُ المقابلةِ المعنويَّةِ:

الاستغناءُ بالمذكور، اقتصادٌ في اللَّفظ، وتكثيفٌ للمعنى

في الآية الكريمة مقابلةٌ معنويَّةٌ، خرج الكلامُ فيها مخرجَ إيجاز الحذف، فإنَّ مقتضى البلاغة أن يكونَ تقديرُ ترتيبِ اللَّفظ (قُلْ: هل تربَّصون بنا إلا إحدى الحسنييْن: أن يُصيبنا اللّه بعذاب من عنده أو بأيديكم، ونحن نتربَّص بكم أن يُصيبَكم اللّه بعذابٍ من عندِه أو بأيدينا)، فحُذِفَ لتوخِّي الإيجازِ تفسيرَ الحُسنييْن من الجملةِ الأولى، وأثبتَه في الجملة الثَّانية فرارًا من تكرار اللَّفظ وتكثيره، كما حذف الحُسنييْن من الجملة الثَّانية استغناءً بذكرها أوَّلًا طلبًا للاختصار والإيجاز، فحصلَ في الآية المقابلةُ والإيجاز والتَّفسير، فاكتملت فيها أربعةُ أضرب من البديع مع فنِّ التَّعطُّف[4].

(1) المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ: 2/441.
(2) تحرير هذا الفنِّ هو: أنْ يُعْلِنَ المتكلِّمُ لفظة من الكلام بمعنى، ثم يردَّها بعينها ويعلِّقها بمعنى آخر، وهما مفترقتان، كلُّ لفظة منهما في طرف من الكلام.
(3) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، ص: 259، وصافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/360.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/360 - 361.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

التربُّصُ، والانتظارُ، والتَّرقُّبُ، والتّرصُّدُ:

وقـوعُ المصائبِ عـلى فـتراتٍ، مَـظِـنَّـةُ طـولِ الانتظارِ

تقدَّم أنَّ التَّربُّص: طولُ الانتظار في خيرٍ وشرٍّ، والثَّباتُ انتظارٌ مع حدَّةٍ، والتَّمهُّل في انتظار ما يُرجى، أو يتمنَّى وقوعه والتلبُّث في انتظاره طويلًا(1)، وأكثرُ استعماله أنْ يكون انتظارَ حصولِ شيءٍ لغير المُنْتَظِر، فالمتربِّص ينتظر شيئًا مصاحبًا لآخرَ هو الّذي لأجله الانتظار(2).

ورقبَ الشَّيءَ، وتَرَقَّبَ: انتظر، ورصدَ راقبًا متوقِّعًا، محترزًا، مراعيًا له وحاذرًا منه، وحارسًا له، وحافظًا(3).

والتَّرصُّدُ: الاستعداد للتَّرقُّب، مع تحفُّزٍ للأَخْذ أو الإصابة(4).

والانتظارُ: طلبُ مَا يُقدَّر أَن يَقع، وهو مقرونٌ بما يقعُ فيه النَّظر، وَيكون في الخَيْرِ والشَّرِّ، وَيكون مَعَ شكٍّ ويقين؛ لأنَّ أصلَه من تقليب البَصَرِ والبصيرةِ لإدرَاكِ الشَّيءِ ورؤيَتِه، وقد يُرادُ به التَّأَمُّلُ والفَحْصُ(5).

ومن هنا يتبيَّن أنَّ التربُّص أنسبُ لسياق الآية من حيثُ إنَّ المصائب في الغالب لا تقع دفعةً واحدة، وإنَّما تقع على فتراتٍ، وذلكم مظنَّةُ طول الانتظار، مع دلالة الثَّبات الّتي تلمح بحتميَّةِ تحقُّق ما يُتربَّصُ به.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76، ورضا، تفسير المنار: 10/414، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربص).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/224.
(3) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (رقب).
(4) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رصد).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75 - 76، والرّاغب، المفردات: (نظر).

﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ٥٣﴾ [التّوبة: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بين ما يتربّصُ له الطّرفان، ومآلِ التّقاعُسِ بردِّ صدقاتِهم، ووصْفِهم بالفِسْقِ

لَمَّا ذكرَ اعتذارَ المنافقين بالمعاذير الكاذبة، وتعلُّلاتِهم الباطلةِ، في التَّخلُّف عن القتال، وذكرَ ما يجولُ في نفوسِهم بتربُّصهم بالمؤمنين؛ أردف ذلك ببيان أنَّ نفقاتهم على الجهاد في هذه الحال، طوعًا أو كرهًا، لن يتقبَّلها اللّه تعالى، ولا ثوابَ لهم عليها، لما يبطنونه في صدورهم من الكفر والفسوق عن أمر اللّه تعالى[1]. وكذلك لَمَّا كان جملةُ ما يصيبُهم من العذاب الإنفاقَ بتزكية ما طهر من أموالهم بإعانة المسلمين، في جهادهم في سبيل اللّه؛ خوفًا من اتِّهامهم بالنِّفاق في أقوالهم ليفتدوا أنفسَهم به من السَّفر معهم، قال: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ﴾[2].

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

لا يَقبلُ الله تعالى إلّا الطَّيِّبَ، ولا معنى للإنفاقِ، مِنَ العُصاةِ الفُسّاقِ

رُوي أنَّ المستأذنَ في التّخلُّف هو الجَدُّ بن قيس، من بني سَلِمة، قائلًا: (وأنا أُعينُكَ بمالي)، وكان منافقًا، فجاءهُ الجوابُ على لسان رسول اللّه ﷺ أمرًا من ربِّه: أنفقوا من أموالكم ما شئتُم في الجهاد، أو في غيره من النَّفقات الَّتي أمر اللّه بها، وحثَّ في شرعه عليها حال التَّطوُّع تقيةً وحفظًا للنَّفس وكرهًا وخوفًا من العقوبة، فمهما أنفقتم، فلن يُتقبَّلَ منكم ما دمتم في شكٍّ ممَّا جاء به الرَّسول من الدِّين والجزاء على الأعمال في الآخرة؛ لأنَّكم قومٌ فاسقون، أي: خارجونَ من دائرةِ الإيمانِ، واللّه إنَّما يتقبَّل مِن المؤمنين[3].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/278.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/84، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/291.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ العُدولِ عنِ العطف:

القولُ جوابٌ عمَّن استأذنَ بالتّخلُّفِ

فصل مستغنيًا عن العطف مع أنَّه إرشادٌ بالقول على صيغة الأمر (قل)؛ لكونِه جاء جوابًا عن قول بعض المستأذنين منهم في التَّخلُّف[1].

تَوجيهُ التَّعبيرِ بالأمرِ ﴿أَنفِقُواْ﴾:

ذكرَ البلاغيُّون أنَّ صيغةَ الأمر موضوعةٌ لطلب الفعل استعلاءً لتبادر الذِّهن عند سماعِها إلى ذلك، وتوقُّف ما سواه على القرينةِ، وقد تُستعمل صيغةُ الأمر في غير طلب الفعل بحسب مناسبةِ المقام، كما في الصِّيغة المستعملة في قوله: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، فقد حُمِلت على الوجوه الآتية:

الأمرُ بمعنى الشَّرطِ والجزاء

إنَّه لفظُ أمْرٍ ومعناه معنى الشَّرط والجزاء، والمعنى: إنْ أنفقتُم طائعين، أو مُكرَهين؛ فلَنْ يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ، ومثل هذا من الشِّعر قولُ كُثَيِّرٍ[2]:

أَسِيئي بنا أَو أَحْسِنِي لا مَلومةً *** لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةً إنْ تَقَلَّتِ

فلمْ يأمرْها بالإساءَة، ولكن أعلَمَها أنَّها إن أساءَت، أو أحسَنَتْ؛ فهو على عهدِهَا، فإنِ قال قائلٌ: كيف كان الخبرُ في معنى الأمر؟ قيل: هو كقولك: غفر اللّه لزيدٍ، ورحم اللّه زيدًا. فمعناه: اللّهمَّ ارحمْ زيدًا[3]. وردَّه أبو حيَّانَ لعدم وجودِ الفاء في جواب الشَّرط؛ لأنَّ (لن) لا تقع جوابًا للشَّرط إلا بالفاء، فكذلك ما ضُمِّن معناه[4].

الأمرُ بمعنى الخبرِ

وذهب الزّمخشريُّ إلى أنَّه أمرٌ في معنى الخبر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ﴾، ومعناه: لن يَتقبَّلَ منكم نفقاتِكم، سواء أنفقتم طوعًا أو كرهًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/225.
(2) ديوان كُثيّر عزّة، ص: 101.
(3) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/453، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/421.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/433.

فائدةُ معنى الخبر نفيُ التّفاوت، والمبالغةِ في تَساوي الإنفاقَيْن

وجوَّزَ نحوَ هذا دلالةُ الكلام عليه، كما جاز عكسُهُ في قولك: (رحم الله زيدًا، وغفر له)، والنُّكتةُ هي توخّي إظهارِ نَفْيِ أن تتفاوت الحالُ في أمرٍ ثابتٍ يزاول المخاطَبُ خلافه[1]. وفائدته: المبالغةُ في تساوي الإنفاقيْن في عدم القبول، كأنَّهم أمروا بأن يُمتحَنوا، ويُجرِّبُوا؛ فينفقوا في الحاليْن، وينظروا هل يُتَقبَّل منهم؟ فيشاهدوا عدمَ القبولِ[2].

خرجَ لفظُ الأمرِ، إلى التّوبيخِ والوعيدِ

وذهبَ آخرون إلى أنَّه ليس أمرًا بالإنفاق، بل هو: توبيخٌ، وتهديدٌ، ووعيدٌ، مثلما تقول لإنسانٍ: اصبرْ، فذلك ليس أمرًا بالصَّبر، ولكن تهديد بمعنى: اصبر، فَسترى منّي هولًا كثيرًا. وهذا مثلُ قولهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ [الطُّور: 16][3].

نُكتةُ العطفِ بـ(أو):

المبالغةُ في تساوي الإنفاقَيْن، في عدمِ القَبولِ

أفادت (أو) هاهنا: التَّخييرَ؛ وفَائدَةُ تعبير الخبرِ بالأمر مع ذكر الحاليْنِ المُخالفَيْنِ بلفظة (أو): المُبَالَغَةُ في تساوي الإنفاقيْن في عدم القَبول[4].

توجيهُ القراءة في ﴿كَرۡهٗا﴾:

الكُرْهُ بالضَّمِّ المشقَّةُ، وبالفتحِ ما أُكرهتَ عليه

قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وخلفُ (كُرْهًا) بضمِّ الكافِ ها هنا، وفي النِّساء والأحقاف، وقرأ عاصم وابن عامر، ويعقوب، وابن ذكوان في الأحقاف بالضَّمِّ من المشقَّة، وفي النِّساء والتَّوبة بالفتح من الإكراهِ، والباقون بفتح الكاف في جميع ذلك، والكُرهُ بالضَّمِّ: المشقَّةُ، وبالفتح ما أُكرِهتَ عليه[5]، وتحتمل اللَّفظةُ في الآية الدِّلالتيْن، فهم مُكرَهون، مُنفِقون في مشقَّةِ الإلزام.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/279، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/270.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/84، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/307.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/433، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5182.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/251.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/68، وابن الجزريّ، النّشر: 2/248.

بَلاغةُ الاستعارة، في جُملة الأمرِ:

شبَّهَ حالَهم في النَّفقة بحالِ مَن يُؤمرُ بفعْلٍ لِيجرِّبَه، فيظهرُ له عدمُ جَدْواه

في جملة الأمر استعارةٌ تمثيليَّةٌ شُبِّهتْ حالُهم في النَّفقة، والهيئة المنتزعةِ من إنفاقهم طوعًا أو كرهًا وعدمِ قَبولها بوجه من الوجوه؛ لانتفاء شرطها؛ بحال مَنْ يُؤْمَر بفعل ليجرِّبَهُ، فيظهرُ له عدمِ جدواه، فلا يتوهَّم أنَّه إذا أُمر بالإنفاق؛ كيف لا يُقبل؟ أو بحال من أُمرُوا بالإنفاق لا لطلب الفِعْل منهم، بل ليمتحنوا، فينفقوا، هل يُتقبَّل منهم أم لا[1]؟

دَلالةُ التَّعبيرِ عنِ الطّواعيةِ والكُرهِ بالمصدرِ:

أفادَ التَّعبيرُ بالمصدريَّةِ، المبالغةَ والتّوسُّعَ في المعنى

أشار معظمُ المفسِّرين إلى أنَّ قولَهُ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، معناهُ: (طائعين أو كارهين) أي: هو بمعنى المشتقِّ[2]، لكن يبدو أنَّ المصدرَ هنا مرادٌ لغرضيْن[3]:

الأوَّلُ: المبالغةُ، فإنَّ المصدرَ هو الحدثُ المجرَّدُ، والوصف هو الحدث مع الذَّاتِ، فـ(طائع) و(كاره) يدلَّان على الحدث وذات الفاعل، أمَّا المصدر (طوع)، و(كره)؛ فهو الحدث المجرَّدُ من الذَّات والزَّمن، والمعنى: أنَّهم لو تحوَّلوا إلى إنفاقِ كَرْه أو طَوْع، ولم يبقَ فيهم شيءٌ من عنصر الذَّات، بل تحوَّلوا إلى حدث مجرَّدٍ؛ فلن يُقبل منهم، وفي هذا مبالغةٌ.

والثّاني: التوسُّع في المعنى، وذلك أنَّك إذا عبَّرت بالوصف؛ فقد أردت معنى واحدًا ليس غيرُ، ولكن إذا عبَّرت بالمصدر اتَّسع المعنى، وكسبتَ أكثر من قصدٍ وغرض، فقد تكسب معنى المصدريَّة والحاليَّة؛ فقوله: ﴿كَرْهًا﴾ يحتملُ المفعوليَّةَ المطلقة، ويحتمل الحاليَّة، فقد كسبتَ معنييْن مُراديْن معًا، قال ابن عاشور: "وانتصب ﴿طَوْعًا﴾

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/251، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/307.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/279 - 280.

(3) ذكر فاضل السّامرائيّ في كتابه معاني النّحو: 2/288 - 290: "غرضَيِ العُدول من الوصف إلى المصدر، وأفيدَ ممّا ذكر في توجيه قصديَّة استعمال المصدر في الآية".

أو ﴿كَرۡهٗا﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق بتقدير: إنفاقِ طوعٍ، أو إنفاقِ كرهٍ، ونائب فاعل يُتقبَّل: هو ﴿مِنكُمۡ﴾، أي: لا يُتقبَّل منكم شيءٌ، وليس المقدَّرُ الإنفاقَ المأخوذَ من أنفقوا؛ بل المقصودُ العمومُ"[1].

علَّةُ تسميّةِ الإلزام إكراهًا:

إلزامُ الله تعالى إيَّاهم الإنفاقَ شاقٌّ عليهم كالإكراهِ

وسُمِّيَ الإلزامُ كُرهًا؛ لأنَّهم منافقون، فكان إلزامُ الله تعالى إيَّاهم الإنفاقَ شاقًّا عليهم كالإكراهِ[2]، فهم ليسوا كالمؤمنين في أنْ يُنفقوا عن طوعٍ ورغبة ونشاط قلبٍ، بل هم كالمُكرَهين فيه[3]، والكُره أشدُّ الإلزام، وبينه وبين الطَّوع مراتبُ تُعلَمُ إرادتُها بالأَوْلى[4].

نكتةُ النَّفْيِ بـ﴿لَّن﴾:

أكَّدَ نفْيَ تقبُّلِ ما يُنفقون رياءً على الدَّوامِ

دخولُ (لن) على فعل التَّقبُّل المضارع المبني للمفعول أخلصَهُ للاستقبال الممتدِّ المتطاول، ونفاه نفيًا مؤكَّدًا مشدَّدًا، فإيثارُ استعمال ﴿لَّن﴾ ههنا لتأكيد نفي تقبُّل اللّه ما ينفق المنافقون رياءً على الدَّوام، طوعًا كان إنفاقهم، أو كرهًا.

سِرُّ الاستغناءِ عنِ الفاءِ في ﴿لَّن﴾:

سببُ الإعراضِ عنهم، كفرُهُم لا ما يُنفقونَ

لم يربط الجوابَ بالفاء بل قال: ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾؛ لأنَّ سببَ الإعراض عنهم كفرُهُم لا إنفاقهم، أي: لن يقع تقبُّلٌ لشيءٍ، يأتي من قِبَلِكم أصلًا من أحدٍ كائنًا مَنْ كان[5].

سِرُّ تشديدِ فعْلِ عدمِ التَّقبُّل:

التَّشديدُ للمبالغةِ، في نفْيِ قَبولِ الإنفاقِ

التَّعبيرُ بصيغة التَّفعُّل يرادُ بِهِ المبالغةُ في نفي التَّقبُّل، والتَّشديدُ على عدم قَبول ما يُنفقونه بوجهَيْه، أو كأنَّ قبولَه منهم كان ظاهرًا لا باطنًا[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/280، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/69.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/271.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.

غَرَضُ نفْيِ التّقبُّلِ، والتَّعبيرِ عنه بالمبني للمجهول:

نفيُ التَّقبُّلِ يحتملُ عدمَ الأخذِ منهم، أو عدمَ الإثابةِ عليه

والغَرَضُ في نفْيِ التَّقبُّل تركُ رسول اللّه ﷺ تقبُّلَه منهم، وردُّ ما يبذلون منه عليهم، أو هو غيرُ مقبولٍ عند اللّه تعالى ذاهبًا هباء لا ثواب له[1]، أي: إنَّ نفي التَّقبُّل يحتمل أنْ يكون بمعنى عدم الأخذ منهم، ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه، وكلٌّ من المعنيَيْن واقعٌ في الاستعمال، فقبولُ الناس له أَخْذُه، وقَبول اللّه تعالى ثوابُه عليه. ويجوز الجمع بينهما[2]، ولذلك عبَّرَ عنه بالمبنيِّ للمفعول لعدم قَبوله من الاثنيَن، وبناه للمفعول أيضًا؛ لأنَّ قلوبَهم كارهةٌ ليست لها نيَّةٌ صالحة في الإنفاق ولا في غيره[3].

وَجْهُ الفصْلِ في جملةِ الفاصلةِ:

بيانُ التّعليل لما قبلَها؛ من ردِّ الإنفاقِ، ونفْيِ التّقبُّلِ

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ جملةٌ منفصلة عن سابقتها؛ لأنَّها تعليلٌ لها، ووجهُ التَّعليل ردُّ الإنفاق، ونفي التقبُّل؛ ولأنَّ الجملةَ الأولى طلبيَّةٌ، والثانية خبرية[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ(إنَّ):

الكافرُ لا يُتقبَّل منه عملُ البِرِّ

وقعت (إنَّ) المفيدةُ لمعنى فاء التَّعليل في جملةِ ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ الواقعةِ في موضع العلَّةِ لنفي التَّقبُّل؛ لأنَّ الكافر لا يُتقبَّلُ منه عملُ البِرِّ[5].

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ (كان):

صفةُ الفسوقِ مركوزةٌ في نفوسِ المنافقين

يدلُّ قولُه تعالى: ﴿كُنتُمۡ﴾ على الحصول المطلق، وعلى الاتِّصاف بالحدث في الزَّمن الماضي على وجه الثُّبوت، واستمرار مضمون الخبرِ، وحيث أخبرَ به عن صفات الآدميِّين، فالمرادُ التَّنبيهُ على أنَّ

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/279 - 280.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 3/84، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/307.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/307، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.

هذه الصِّفاتِ طبيعةٌ فيهم، مركوزة في نفوسهم، فهم قوم متَّصفون بالفسقِ، ركزَ في نفوسِهم، وتمكَّن منهم، فعَمُوا عن الحقِّ، وصمُّوا، وأنَّ الفسق فيهم جبلَّةٌ وطبْعٌ(1).

عِلَّةُ استِحْضارِ لفظِ القومِ منكَّرًا:

الفُسوقُ من مُقوِّمات قوميَّتهم، تأصَّلًا، ومخالطةً للنَّفس

إجراءُ الوصْفِ على لفظ قوم يومِئُ إلى أنَّ ذلك الوصفَ سجيَّةٌ فيهم، ومن مكمِّلات قوميَّتهم، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تميِّزها، وتشتهر بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التَّوبة: 56]، واستحضارُهم بعنوان القوميَّة في الفسق يؤذن بأنَّ الفسوقَ من مقوِّمات قوميَّتهم، أي: تأصَّل فيهم، وخالط نفوسَهم، فدفعهم إلى أمثال تلك الأقوال، والأفعال(2)، وزاد التَّنكيرُ وجهَ الحطِّ من قدرهِم، والاستهانةِ بهم.

دَلالةُ الفِسقِ:

تنوُّعُ دَلالاتِ الفِسْقِ، ومآلُها كلُّها إلى الكُفرِ

اختُلِفَ في دَلالةِ الفِسق في الآية، فقيل: إنَّه العُتوُّ والتّمرُّد، ويُعترضُ عليه: أنَّه عُلِّلَ مع الكفرِ بالفسقِ الَّذي هو دونه، وكيف صحَّ ذلك مع التَّصريح بتعليلِه بالكفر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾؟ وقد يرادُ به ما هو الكامل، وهو الكفرُ، ويكون هذا منه تعالى بيانًا وتقريرًا لذلك(3)، أو يرادُ بهِ: الخروجُ، وهم بالحكم عليهم بأنَّهم فاسقون، يكون محكومًا عليهم بأنَّهم خارجون عن الجماعة بشعورهم، وإنْ كانوا فيها بأجسامِهم، وذلك مع كفرهم(4). وذهب الشَّيخ الشعراويُّ إلى أنَّ الفسق في هذه الآية الكريمة، ليس هو الخروج عن مُطلَقِ الطّاعةِ، ولكنَّه فسقٌ من نوع خاصّ؛ لأنَّ هناك فسقًا محدودًا، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/89.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/307، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.

أن يخرج الإنسانُ عن مجرَّدِ تكليفٍ، ولكنَّ الفسقَ الكبير هو أن يكفرَ الإنسان بالله، ولذلك جاءت بعد هذا الآيةُ الكريمة: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾[1].

سِرُّ العُدولِ عن لفظِ الكافرين إلى الفاسقين:

الفاسقونَ يُظهرون الإسلامَ، ويُضْمِرون الكُفرَ

وإنَّما اختيرَ وصفُ الفاسقين دون الكافرين؛ لأنَّهم يُظهرون الإسلامَ، ويُبطنون الكفر، فكانوا كالمائلين عن الإسلام إلى الكفر، والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاعِ بما بذلوهُ من أموالِهم، فلعلَّهم كانوا يحسبون أنَّ الإنفاق في الغزو ينفعهم على تقدير صدق دعوة الرَّسول ﷺ، وهذا من شكِّهم في أمر الدِّين، فتوهَّموا أنَّهم يعملون أعمالًا تنفع المسلمين يجدونها عند الحشر على فرض ظهورِ صدْقِ الرَّسولِ، ويبقون على دينهم، فلا يتعرَّضون للمهالك في الغزو ولا للمشاقِّ، وهذا من سوء نظرِ أهل الضَّلالة، كما حكى اللهُ تعالى عن بعضهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧﴾ [مريم: 77]؛ إذ حسب أنَّه يُحشَرُ يوم البعث بحالته التي كان فيها في الحياة؛ إذا صدقَ إخبارُ الرَّسول ﷺ بالبعث[2].

تَوجيهُ التَّعبيرِ بحشْدِ المؤكِّدات:

فِسْقُهم راسخٌ فيهم فعلًا، ودَيْمومةً

وقد أكَّد الله ﷻ ذلك الحكمَ بعدَّة مؤكِّدات، أوَّلُها بالجملة الاسميّة، وثانيها بـ (إنَّ) الحرف الدَّالِّ على التَّوكيد، وثالثها بـ (كان) الدالَّةِ على استمرارهم في الفسق والخروج عن الجماعة وعدم الشُّعور بشعورها[3]. ورابعها: التَّعبيرُ باسم الفاعل المجموع الدَّالِّ على ديمومة فسقهم وعراقتهم فيه بالغين أنهى غاياته[4].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/226.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكُرهُ، والغصبُ، والقهرُ:

تقدَّم أنَّ الكَرْهَ: المشقَّةُ التي تنال الإنسان من خارجٍ فيما يحمل عليه بإِكْرَاهٍ، والكُرْهُ: ما يناله من ذاته، وهو يعافه، والإِكْرَاهُ: يُقال في حمْلِ الإنسان على ما يكرهه[1]، وأنَّ معناه أشدُّ الإلزام.

الكُره: حمْلُ المرءِ على ما يَكرهُ، أو ما ينالُه من ذاتِهِ وهو يَعافُه

والغَصْبُ: أخْذُ شيءِ الآخَرِ والاستيلاء ظلمًا، وقهرًا، وعدوانًا[2].

والقهرُ: الغلبة، والأخذُ من فوق، يُقالُ: أخذهم قَهْرًا، أيْ: من غير رضاهم، فأصلُ الكلمة يدلُّ على غلبة وعلوٍّ، وتذليل معًا، ويُستعمل في كلِّ واحدٍ منهما[3]، فالقهرُ غلبةٌ، وإكراهٌ مع تسلُّطٍ.

يتبيَّن أن في الكُرْه دلالتَيْن محتملتَيْن: حملُ المرءِ على ما يكره، أو ما يناله من ذاته، وهو يعافه. والمعنيان يحتملُهما السِّياقُ بحسب ما مرَّ من توجيهِ قراءتَيْ فتحِ الكاف، وضمِّها. أمَّا الغصبُ، والقهرُ؛ فلا يحتملان إلَّا دلالةً واحدة؛ قوامُها تسلُّطٌ خارجيٌّ فيه غلبةٌ، واستيلاءٌ على الحقوق.

(1) الرّاغب، المفردات: (كره).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (غصب).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قهر).

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ [التّوبة: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ تقريرٌ للمانعِ منَ القَبولِ، بعد بيانِ علّةِ المنعِ منَ الكُفرانِ والامتنانِ

لّما وضّح في الآية السَّابقة أنَّ عراقتَهم في الفسق وبلوغَهم أنهى غاياتهِ في الخروج عن الطَّاعة؛ بيَّنه في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ﴾، أي: باطنًا[1].

وجعل الفسقَ في الآية السَّابقة علَّةً في عدم القبول، وقرَّر هنا المانع من القبول، فالمنع من وجودِ المفسدةِ أقوى من العلَّة في عدمها؛ لأنَّ المانع دافعٌ لها بعد أن كانت في مادَّةِ الثُّبوت، ولهذا استدلَّ بثلاثة أمور، وهي: الكفر، والكسل في الصَّلاة، وكراهة الإنفاق[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

فُقدانُ شروطِ القَبولِ، يمنعُ صاحبَه منَ القَبولِ، ومن فقدَ الإخلاصَ، حُرِمَ الخلاصَ

وما منع هؤلاء المنافقين أن تُقبَلَ منهم نفقاتُهم الّتي ينفقونها في سفرهم معك، وفي غير ذلك من السُّبل إلا كفرُهم باللّٰه ورسوله، وإتيانهم الصَّلاة متثاقلين بها؛ لأنَّهم لا يرجون بأدائها ثوابًا، ولا يخافون بتركِها عقابًا، وإنَّما يُقيمونها مخافةً على أنفسِهم بتركها من المؤمنين، فإذا أَمِنُوهم لم يُقيموها، ولا يُنفقون من أموالهِم شيئًا في الوجه الَّذي ينفقونه فيه، ممَّا فيه تقويةٌ للإسلام وأهله، إلَّا وهم كارهون أن ينفقونَهُ[3]. فلمَّا "فقدوا الإخلاصَ في أموالهِم؛ عدموا الاختصاصَ في أحوالهم، وحرموا الخلاصَ في عاجلِهم وفي مآلهِم"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/498.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/315.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/294 - 250.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/35.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بواو العطفِ:

تتميمٌ للسَّببِ الّذي منعَ تقبُّلَ ما يُنفقون

وُصلت هذه الآيةُ الكريمة بالآية السَّابقة بالعطف على جملة ﴿إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾؛ لأنَّها تتميمٌ للسَّبب الَّذي منعَ تقبُّل ما يُنفقون[1]، ببيان ما في التَّعليل بالفسق من إجمال[2]، وبيان تعليل عدم قَبولِ نفقاتِهم بزيادة ذكر سببيْن آخريْن مانعيْن من قبولِ أعمالهم هما من آثار الكفرِ والفسوق، وهما: أنَّهم لا يأتون الصَّلاة إلا وهم كسالى، وأنَّهم لا يُنفقون إلا وهم كارهون[3].

بيانُ الفرقِ بين ﴿يُتَقَبَّلَ﴾، و﴿تُقۡبَلَ﴾:

الظّنُّ بأنَّ أيَّ إنفاقٍ يقدِّمونه، يُتقبَّلُ برغبةٍ من النَّبيِّ وأصحابه

أُوثرَ التَّعبيرُ هنا بقوله تعالى: ﴿أَن تُقۡبَلَ﴾؛ للدَّلالة على علَّة عدم قَبولِ نفقاتهم، فتخفيف الفعل ﴿تُقۡبَلَ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ عنِ المنع، فلم يكن لهم أدنى قَبولٍ.

وفي الآية السَّابقة بقوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ﴾ بصيغة ﴿يُتَقَبَّلَ﴾؛ للدَّلالة على استنفادِ الطَّاقة، واستفراغ الوُسع، وجَهْدِ محاولاتهم في أن تُتَقَبَّل منهم صدقاتُهم، ولأنَّهم كانوا يظنُّون أنَّ أيَّ إنفاقٍ يُقدِّمونه؛ يُتقبَّلُ برغبةٍ من النَّبيِّ وأصحابه، فإنَّ صيغة التَّقبُّل تدلُّ على القبول برغبةٍ، كما قال تعالى في نَذْر مريم: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ﴾[4].

دَلالةُ فعْلِ ﴿أَن تُقۡبَلَ﴾:

سببُ منْعِ قَبولِ النّفقاتِ، هو أصلُ القَبولِ المعبَّرِ عنه بأصلِ الفعلِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ﴾، وفيه نجد أنّ فعل القَبول في هذه الآية: ﴿تُقۡبَلَ﴾ من أصل القبول، وسببُ المنع هو أصلُ القبول، ولو كان المنعُ من التَّقبُّل؛ لكان أصلُ القبولِ غيرَ ممنوع[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/416.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/227.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3332.

تَوجيهُ القراءةِ في: ﴿أَن تُقۡبَلَ﴾:

قرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم: ﴿أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ﴾، وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلف فيما روي عنه: ﴿أَن يُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ﴾ بالياء[1]. ووجه القراءة بالياء أنَّ النَّفقات في معنى الإنفاق، كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ﴾، ووجهُ مَنْ قرأ بالتَّأنيث أنَّ الفعل مُسنَدٌ إلى مؤنَّث[2]، أيْ: إنَّ القراءةَ بالياء على التَّذكير؛ لأنَّ تأنيث النَّفقات غيرُ حقيقيٍّ، والباقون بالتَّاء على التَّأنيث، أي: تأنيثُ النَّفقات لفظيٌّ لا حقيقيّ، فيجوزُ تذكيرُ فعلهِ؛ لأنَّ جمْعَ غيرِ المؤنث الحقيقيِّ يجوز فيه التَّذكيرُ وضدُّه[3].

النَّفقاتُ في معنى الإنفاقِ، أو أنَّ الفعلَ مُسندٌ إلى مؤنَّث

سِرُّ بناءِ فعل ﴿أَن تُقۡبَلَ﴾ للمفعول:

بناءُ فعل التَّقبُّل على هيئة ما لم يُسمَّ فاعلُه، تركيزٌ للعنايةِ بحدث عدمِ قَبولِ إنفاقِهم بصرف النَّظر عن مُحْدِثه، أو نوع النَّفقة وهيئةِ إنفاقها؛ فالمقصود ردُّ نفقاتهم، وكشْفُ نِيَّاتِهم، وذمُّهم وتقبيح صنيعهم، فضلًا عمَّا يوحي به فعل التَّقبُّل وعدمه من تعليق قَبول العمل على ما ينطوي عليه القلبُ من إخلاصٍ، وصدقٍ، وتقوى.

قَبولُ العملِ معلّقٌ على ما يَنطوي عليه القلبُ، من إخلاصٍ وتَقوى

علَّةُ العُدولِ عن المفعولِ الصَّريح إلى المؤوَّل:

المصدر المؤوَّلُ ﴿أَن تُقۡبَلَ﴾ يفيدُ الدّلالة على الحدث مقترنًا بالزَّمن الماضي وممتدًّا إلى المستقبل، فضلًا عن دلالتهِ على مجرَّد معنى حدث عدم التَّقبُّل دون احتمالٍ زائد عليه، فالتَّعبيرُ عن الحدث بالمصدر المؤوَّلِ خصَّصَ التَّعبير في حدث عدم القبول حَسْبُ، ولو عُبِّرَ عنه بالمصدر الصَّريح (قبول)؛ لاحتملَ الكلامُ معاني كيفيَّاتِ عدمِ التَّقبُّل، وحالاتِها، وهو ما لا فائدةَ فيه في هذا الموضع.

الدّلالةُ على حدَثِ عدمِ التَّقبُّل، مع كونِه مجرَّدًا من أيِّ احتمالٍ زائدٍ عليه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/45، وابن الجزريّ، النّشر: 2/279.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/70.
(3) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/621.

دَلالةُ تَعْدِيَة فعلِ التقبُّل بالحرف (مِن):

بيانُ أنّه لم تُقبلْ نفقاتُهم منهم ابتداءً

وفعل (قَبِلَ) يتعدَّى بـ (من) الابتدائيَّة، كما في الآية هنا، ومنه قوله: ﴿فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا﴾ [آل عمران: 91]، فيفيد معنى الأخذِ للشَّيء المقبولِ، صادرًا من المأخوذ منه[1]، وأفادت هنا عدمَ قبولِ نفقاتِهم ابتداءً.

نُكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ على النَّفقاتِ:

خُصِّصَ عدمُ التَّقبُّلِ بهم

وقدَّمَ شِبْهَ الجملة منَ الجارِّ والمجرور: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على ﴿نَفَقَٰتُهُمۡ﴾ لتخصيص عدمِ التّقبُّل بهم، فهم المقصودون بعدم القبول، والمعنيُّون بالأمرِ، وفي ذلك ذمٌّ لهم، وحطٌّ من شأنهم، وخسارة بالمال والمآل.

علَّةُ جمْعِ النَّفقاتِ، ونِسبتِها إلى المنافقين:

التَّقليلُ من شأنِ ما ينفقون، تهوينٌ من شأنِهم

جمعُ المؤنَّث السَّالم من جموع القلَّةِ، وجمعُ النَّفقاتِ على هيئةِ الجمعِ هذه في الآية يدلُّ على التَّقليل من شأنِ ما ينفقون، وقلَّة جدواه، ونفعه للمسلمين، وخصَّص النَّفقات بنسبتها إليهم؛ ليدلَّ أنَّ غير المتقبَّل من النَّفقات هو العائدُ إليهم.

التَّعبيرُ عن كُفرِهم بالتَّأويلِ بالمصدرِ:

المجيءُ بعلَّةِ عدمِ قبولِ نفقاتِهم مُؤكَّدًا

عدل عنِ المصدر الصَّريح (إلَّا كفرُهم) إلى المصدر المؤوَّل ﴿إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ﴾ للمجيء بعلَّة عدم قبولِ نفقاتهم مؤكَّدًا بأنَّ وجملتِها الاسميَّة الدَّالَّة على الثُّبوت، والمُصاغة بهيئة المصدر المؤوَّل الدّالِّ على التوكيد، والحصر بأداة الاستثناء، وهيئة الماضي الدّالِّ على وقوع الفعل، وتحقُّقِه.

إظهارُ اسْمِ الجلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾:

تعظيمُ جُرْمِ المنافقين، وفسادِ غرائزِهم بيقينٍ

قولهُ تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾، أيْ: الّذي له جميعُ صفاتِ الكمال من الجلالِ والجمال، وإظهارُ اسمه الأعظم بيانٌ لفساد جبلّاتهم وسوء غرائزهم، وفيه مذمَّتُهم، وتقبيحُ فعلهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/89.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/499.

علَّةُ تَكرارِ حرف الجرِّ (الباء):

إشعارٌ بأنَّ كلًّا مِنَ الكُفرِ باللهِ تعالى وبرسولِه الأكرمِ، مانعٌ للقَبولِ

ولَمَّا كان قبولُ النَّفقات مُهَيِّئًا للطهارة التي هي عمادُ الصَّلاة؛ كان السِّياقُ لعدم قبولها أبلغَ؛ لأنَّه أدلُّ على الخبث، مع الإلماح بأنَّ ذلك سببٌ للنَّهي عنِ الصَّلاة عليهم؛ فأكَّد كفْرَهم بزيادة الجارّ (الباء) إشعارًا بأنَّ الكفر باللّه تعالى وبرسوله ﷺ كلٌّ على حياله مانعٌ؛ فالكفرُ باللّه كفرٌ، والكفر بالرَّسول كفرٌ أيضًا، فقال: ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾[1].

بيانُ المتشابهِ اللَّفظيِّ في باء ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾:

الإيجابُ بعد النَّفيِ، مَظنَّةُ توكيدِ الخبرِ

زاد (باءً) في قوله: ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾، وحذَفَها من قوله: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التّوبة: 80، و84]، وكلاهما في السُّورة نفسها؛ لأنَّ الكلامَ في الآية الأولى إيجابٌ بعد نفيٍ، فصار الخبرُ أوكدَ، وإلى أمارتِه أحوجَ، وهو الغايةُ في باب التَّأكيد، فأكَّد أيضًا المعطوفَ على اللّه بتكرار (الباء)؛ ليكونَ الكلُّ على منهاج واحد، وليس كذلك الآيتان بعدهما، فإنَّهما خَلَتا من التَّأكيد بالإيجابِ بعد النَّفي[2].

دَلالةُ عطفِ أعمالِهم بالواو:

الجمعُ بين الأعمالِ الثَّلاثةِ نفاقٌ: (الكفرُ، والكسلُ عن الصّلاة، وكراهةُ الإنفاق)

ذكرَ السَّببَ الّذي هو بمفردِه مانعٌ من قَبولِ نفقاتِهم، وهو الكفرُ، وأتبعَهُ بما هو ناشئٌ عنِ الكفرِ ومستلزمٌ له، وهو دليلٌ عليهِ، وذلك هو إتيانُ الصَّلاة وهم كسالى، وإيتاءُ النَّفقة، وهم كارهون، فعطف بالواو للدَّلالة على أنَّهم جمعوا بين هذه الأعمالِ، فالكسلُ في الصَّلاة وتركُ النَّشاط إليها وأخذها بالإقبال من ثمرات الكفر، فإيقاعُها عندهم لا يرجون به ثوابًا، ولا يخافون بالتَّفريط فيها عقابًا، وكذلك الإنفاقُ للأموال لا يكرهون ذلك إلَّا وهم لا يرجون به ثوابًا[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/499.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/671 - 672، والكرمانيّ، غرائب التّفسير: 1/456.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/435.

عِلَّةُ التَّخصيصِ بالصَّلاةِ والنَّفقةِ:

الصَّلاةُ أشرفُ الأعمالِ البدنيّةِ، والنَّفقةُ أشرفُ الأعمالِ الماليّةِ

ذَكَرَ مِن أعمال البِرِّ العملَيْن الجليلَيْن: الصَّلاةَ والنَّفقةَ، واكتفى بهما، وإن كانوا أفسدَ حالًا في سائر أعمال البِرِّ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أشرفُ الأعمال البدنيَّة، والنَّفقة في سبيل الله أشرفُ الأعمال الماليَّة، وهما وصفان المطلوب إظهارُهما في الإسلام، ويُستدلُّ بهما على الإيمان[1].

إيثارُ لفظِ ﴿وَلَا يَأۡتُونَ﴾:

الدَّلالةُ على تثاقُلِهم عن قصْدِ الصَّلاةِ ابتداءً

منَ المعلوم أنَّ الإتيانَ قد يُقالُ باعتبار القصْدِ، وإن لم يكن منه الحصولُ، والمجيء يُقال اعتبارًا بالحصول[2]، ولذلك كان اختيارُ إتيان الصَّلاة تعبيرًا عن تثاقلهم وتقاعسهم عن قصد الصَّلاة ابتداءً قبلَ الدُّخول فيها، وأدائها، وذلك أبلغُ في الإنكار عليهم، وذمِّهم، وتشنيع فعلهم.

بَلاغةُ تغييرِ الأسلوبِ منَ الماضي إلى المضارع:

إفادةُ الاسْتمْرَارِ التجدُّديِّ، أو لحكايةِ الحالِ الماضيةِ

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وما عُطِفَ عليه مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿كَفَرُواْ﴾، وتغييرُ الأسلوب بالتَّعبير عن كفْرِهم بالماضي وعن إتيانهم الصَّلاةَ كسالى بالمستقبل يحتمل أن يكونَ لإفادة الاستمْرَار التَّجدُّديّ أو لحكاية الحال الماضية واستحْضَارها، فمهما تجدَّدت صلاتُهم؛ فإنَّ التَّثاقلَ حالهُم الثَّابتةُ في أدائها، فجملةُ ﴿وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ مؤوَّلة بالمفرد، أيْ: متثاقلين[3].

إيثارُ لفظِ الكسلِ هيئةً، وجمعًا:

حالُ كسَلِهم عارضةٌ أثناءَ الصَّلاةِ؛ دلالةٌ على سوءِ بواطنِهم، وحقيقةِ نفاقِهم

الكَسَلُ: التَّثاقلُ عمَّا لا ينبغي التَّثاقلُ عنه، والقعودُ عن إتمامه أو عنه، أوِ الفتورُ في أدائه، ولأجل ذلك صار مذمومًا[4]، فالكسلان:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/435.

(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 9/252 - 253.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كسل).

الهابطُ الحركةِ، المتثاقلُ عمَّا ينبغي النَّشاط فيه[1]، وتقاعسُه أنَّه يأتي الصَّلاةَ على كُرْهٍ لا عن طيبةِ نفس ورغبة؛ إذ لا يرجو على فعلها ثوابًا، ولا يرهبُ من تركها عقابًا، وفعلُهُ بزِنَة فَرِحَ، أي: كَسِلَ، الدَّالُّ على الحال العارضة المتَّسمة بالهيجان، والخفَّة، والمستعملة فيما يُكرَهُ أمرُهُ في الغالب كعَسِر، وشَكِس، وأَشِر، وقَلِق... وغيرها، وفي استحضار الفعل على هذا الوزن مجموعًا ههنا ﴿كُسَالَىٰ﴾ دلالةٌ على أنَّهم ليسوا بكسالى؛ لكنَّها حالٌ عارضة تُصيبهم أثناء إتيانِهم الصَّلاةَ، ليعبِّر عن سوء بواطنهم، وحقيقة نفاقهم. وذكرَ الكسلَ في الصَّلاة مع أنَّه لا صلاةَ لهم أصلًا؛ لأنَّ الذَّمَّ واقعٌ على الكفر الَّذي يبعثُ على الكسلِ، فإنَّ الكفرَ مُكَسِّلٌ، والإيمانَ مُنَشِّطٌ[2].

بَلاغةُ الكِنايةِ في لفظِ ﴿كُسَالَىٰ﴾:

ملمحُ الكنايةِ عنِ السَّآمةِ والإكراه، بلفظِ الكسلِ

يحتمل لفظُ ﴿كُسَالَىٰ﴾ الكنايةَ عن السَّآمةِ والملالة والإكراه؛ لكونها من لوازمِه وروادفه، ومظاهر الاتِّصاف به.

وجهُ التَّعبيرِ عنِ الإنفاقِ بالمضارعِ:

مهما تجدَّدَ إنفاقُهم؛ فإنَّ الكُرهَ حالُهمُ الثَّابتةُ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾، عَبَّر عنِ الإنفاق بالمضارع بما يُفيدهُ منَ الاستمرار التَّجدُّديِّ، فضلًا عنِ استحضار حالِهم يفيد أنَّهم مهما يكن من تجدُّدِ إنفاقِهم، فإنَّ الكرهَ حالهم الثَّابتةُ.

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالاستثناءِ المفرَّغِ:

فضْحُ طويَّتِهم، وكشْفُ بواطنِهم الفاسدةِ حالَ إنفاقِهم وصلاتِهم

وقد رسَّخَ الاستثناءُ المفرَّغُ بأداة الحصرِ، وتصديرُ الجملة بالضَّمير (هم) الدّالِّ على التَّخصيص، والتَّعبيرُ عنِ الكُرْهِ بصيغة اسم الفاعل؛ الدَّلالةَ على ثبوت صفةِ كراهة الإنفاق فيهم، ودوامها، وتمكُّنها منهم، وذكر ابن عرفة أنَّ فائدةَ الحصر: احتمالُ كون

(1) رضا، تفسير المنار: 5/382، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 1/438.
(2) الخلوتيّ، روح البيان: 3/448.

المانع من القبول قصدَهم بالنَّفقة الرِّياءَ والسُّمعة، مع كفرِهم وكسلهم في الصَّلاة[1].

علَّةُ الاقتصارِ على ذكْرِ فعلَيْن مع الكُفرِ:

ذِكْرُ الكُفرِ بيانٌ لذكْرِ الفُسوق، والتَّكاسُل لتهاوُنِهم، وكراهيَةِ الإنفاق لعدمِ إخلاصِهم

والكفرُ وإنْ كان وحدَهُ كافيًا في عدم القَبول، إلا أنَّ ذِكْرَ وصْفَي التَّكاسلِ في الصَّلاة، وكرهِ الإنفاق؛ إشارةٌ إلى تمكُّن الكُفر من قلوبهم وإلى مذمَّتِهم بالنِّفاق الدَّالِّ على الجُبن والتَّردُّد، فذِكْرُ الكفرِ بيانٌ لذِكْر الفسوق، وذِكْرُ التَّكاسلِ عنِ الصَّلاة لإظهار أنَّهم متهاونون بأعظم عبادة، فكيف يكون إنفاقُهم عن إخلاصٍ ورغبة، وذِكْرُ الكراهية في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه الخصلةِ المتحدَّثِ عنها[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكسل، والثقل، والقعس:

التَّثاقُلُ عنِ الصَّلاةِ، فتورٌ عمَّا لا ينبغي التَّثاقُلُ عنهُ، بوصْفِها عمودَ الدِّين

الكَسَلُ: التَّثاقُلُ والفتورُ عمَّا لا ينبغي التَّثاقلُ عنه، والقعودُ عن إتمامه أو عنه، ولأجل ذلك صار مذمومًا[3]، وتَقَاعَسَ الرَّجلُ عنِ الأمر، أي: تأخَّرَ، ولم يتقدَّم فيه[4].

والتَّثاقُلُ التَّباطُؤ، والفتور[5]، وتثاقلَ القَوْمُ: استُنهضوا لنجدةٍ، فلم ينهضوا إِلَيْهَا، وجاء في التَّنْزِيل: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38]، بمعنى: فَقْدِ الحماسِ للجهاد، والميل إلى الدُّنيا[6].

ومن هنا فإنَّ دلالةَ لفظ الكسل أنسبُ لحكم أداء الصَّلاة بوصْفِها عمودَ الدِّين، والفيصلَ بين الإيمان والكفر، والتَّثاقُلُ عنها فتورٌ عمَّا لا ينبغي التَّثاقُلُ عنه.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/315.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/227.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كسل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (قعس).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (ثقل).
(6) ابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثقل).

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٥٥﴾ [التّوبة: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبـطُ بـينَ فـضـحِ صفاتِ المُـنـافـقـينَ، والتَّنبيه إلى أنَّ حالَهُم استدراجٌ لِلهلاكِ

هذه الآيةُ مُرتبِطةٌ تمامًا بالسِّياقِ السَّابقِ في الحديثِ عنِ المُنافقينَ وصفاتِهم وفضحِهم وكشفِ مَواقفِهِم، وقد أمرَ اللّه نبيَّهُ ﷺ في الآياتِ السّابقة بأن يبلِّغَهُم بأنَّ إنفاقَهُمُ الطَّوعيَّ أو الإلزاميَّ لن يُقبلَ منهُم: ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ٥٣ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التّوبة: 53 - 54]، فجاءَت هذه الآيةُ؛ لِتُحذِّرَ المؤمنينَ مِنَ الاغترارِ بوفرةِ أموالِ المُنافقينَ، وتَوفُّرِ أسبابِ الدُّنيا بينَ أيديهم، فما كانَ ذلكَ لهُم إلَّا تعجيلًا في عذابِهم وهلاكِهم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تُعۡجِبۡكَ﴾: من (عجب)، والتَّعجُّبُ حالةٌ تعرضُ للإنسانِ عندَ الجهلِ بسببِ الشَّيءِ، ولهذا قِيلَ: العَجبُ مَا لا يُعرَفُ سببُهُ، وقِيلَ: لا يَصحُّ على اللّهِ التَّعجُّبُ؛ إذ هو علَّامُ الغيوبِ، لا تخفى عنه خافيةٌ.. ويُقالُ: أعجبني كذا؛ أي: راقني[1]، وقالَ بعضُهُم: التَّعجُّبُ زيادةٌ في وصفِ الفاعلِ خَفيَ سببُها، وخَرجَ المُتعجَّبُ منهُ عن نظائرِهِ[2].

والعجيبُ: الأمرُ يُتَعَجَّبُ منهُ، وكذلك العُجابُ بالضَّمِّ، والعُجَّابُ بالتَّشديدِ أكثرُ منهُ، وكذلك الأعجوبةُ، وقولُهُم: (عَجَبٌ عاجِبٌ)، كقولِهِم: (ليلٌ لائلٌ) يُؤَكَّدُ به، والتَّعاجيبُ: العجائبُ، لا واحدَ لها من

(1) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (عجب).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (عجب).

لفظِها[1]، وزعمَ الخليلُ أنَّ بينَ العجيبِ والعُجابِ فَرقًا، فَأمَّا العَجيبُ والعَجَبُ مِثلُه فَالأمرُ يُتَعَجَّبُ مِنهُ، وأمّا العُجَابُ فالَّذي يُجَاوِزُ حدَّ العَجيبِ، قَالَ: وَذلكَ مِثلُ الطَّويلِ والطُّوَالِ[2]، وأعجبَني هذا الشَّيءُ، وقد أُعجبتُ بهِ، وشَيءٌ مُعجِبٌ؛ إذا كانَ حَسَنًا جدًّا.

2) ﴿وَتَزْهَقَ﴾: زهقَتْ نفسُهُ زُهُوقًا: "خرجَت وهَلَكَت، وماتَت (كزَهِقَت، كسَمِعَ)، لغتان ذكرَهُما ابنُ القُوطِيَّةِ والهَرَويُّ، ورجَّحا الكسرَ، وأبو عبيدٍ رجَّحَ الفتحَ، وفي حديثِ الذَّبيحةِ: «وأقِرُّوا الأنفُسَ حَتَّى تَزْهَقَ»[3]؛ أي: حتَّى تَخرُجَ الرُّوحُ منها، ولا يَبقَى فيها حركةٌ، ثمَّ تُسلَخُ، وتُقطَعُ"[4]، وقولُه تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ [التّوبة: 55]، يُقالُ: زَهَقَت نفسُهُ؛ أي: فاضَت أسفًا[5]، والمعنى هنا: أنَّ اللّهَ يقولُ لِنبيِّه: لا تُعجِبْكَ كثرةُ أموالِ هؤلاءِ المُنافقينَ، ولا كثرةُ أولادِهِم، فاللّهُ يريدُ أن يعذِّبَهم بها في الدُّنيا، فَتَجِدُهُم في تعبٍ وضنكٍ وإرهاقٍ، ويبتليهم خلالَها بالمَصائبِ الَّتي تُصَبُّ عليهم صبًّا، ثمَّ لا يلبثونَ إلَّا قليلًا، حتَّى يَموتوا على كفرِهم، فينصرمَ وجودُهُم في هذه الحياةِ، وتُزهَقَ نفوسُهُم، وتخونَهُمُ الأيَّامُ، فلا يرون فيها سرورًا ولا حبورًا.

المَعْنى الإِجْمالِيُّ:

التَّحذيرُ مِنَ الإعجابِ بِزخرفِ الأولادِ والأموالِ؛ لأنَّها استدراجٌ ووبالٌ

تذكيرُ الرَّسولِ الأكرمِ ﷺ كي لا ينساقَ وراءَ الانبهارِ بما يحوزُ هؤلاءِ الكفرة مِن أموالٍ، وما عندَهُم من أولادٍ، ومَا يَرتعونَ فيهِ مِن نَعماءَ وخيراتٍ، فإنَّها ستكونُ عليهم حسراتٍ، لا يَنتفعونَ بها في دنياهُم، ولا في أُخراهُم، ثمَّ يميتُهُمُ اللّهُ على الكفرِ، فتُزهَقُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (عجب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجب).

(3) من حديث عثمان بن عفّان رضي الله عنه: أَمر مُنادِيًا فَنادَى: «أَنَّ الذَّكاة في الحَلقِ واللَّبَّةِ لمن قدر، وأقرُّوا الأَنْفس حَتَّى تزهق». يُنظر: أبو بكر بن أبي شيبة، الكتاب المُصنّف في الأحاديث والآثار: رقم: (19832): 4/255، وابن قتيبة، غريب الحديث: 2/68.

(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (زهق).

(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (زهق).

أرواحُهُم، وهُم في الغيِّ يَعمهونَ، وسوف يُفارقونَ الحياةَ، وهُم في الباطلِ يَرتعونَ، فيكونُ ذلك أشدَّ نكالًا في العاجلةِ، وأعمقَ إيلامًا في الآجلةِ؛ لأنَّ بهرجَ الأموالِ، وعزوةَ الأولادِ، إنَّما هي بلاءٌ شديدٌ، وامتحانٌ مَديدٌ، واستِدراجٌ مُرْدٍ، ومَصيرٌ بائسٌ، لِمَن فارقَ الحياةَ على الكفرِ، ولم يرجعْ عن غيِّهِ وسفاهتِهِ وسُوءِ أعمالِهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ (الفاءِ) وأثرُها في: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

النَّهيُ عن الاغترارِ بظاهرِ الأحوالِ، إذا لم تُقبَلْ حصائِلُ الأعمالِ

قولُهُ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ تفريعٌ على مَذمَّةِ حالِهِم في أموالِهِم، وأنَّ وفرَةَ أموالِهِم لا تُوجِبُ لَهُم طُمَأنينَةَ بَالٍ[1]، والفاءُ للإفصاحِ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، يَقتضيهِ سياقُ البيانِ؛ أي: "إن كانَت هذه الأموالُ لا يُنفقونَها في سبيلِ اللّهِ - ذكرَهُما ابنُ القوطيَّةِ والهرويُّ - فلماذا يُعطونَها؟ فقالَ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ الآيةَ؛ أي: لا يُثِرْ عجبَكَ كثرَةُ أموالِهِم وأولادِهِم وأنصارِهِم، ممَّا أُعطوا مع كفرِهِم ونفاقِهِم واستهانتِهِم بالحقِّ والتَّنفيرِ منهُ، وتأليبِ المُبطلِينَ، لا يُغرنَّكَ هذا.. إنَّما هي فِتنَةٌ لَهُم واستدراجٌ[2]، وعليه فالفاءُ إمَّا استئنافيَّةٌ، وإمّا رابطةٌ لجوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ: (إنْ نظرتَ إليهم؛ فلا تعجبْكَ أموالُهُم)[3]، ولا شكَّ أنَّ هذا الرَّأيَ وَجيهٌ، ويتلاءَمُ مع السِّياقِ؛ فقد قالَ بعدَها: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، فكأنَّها جاءَت تَعليلًا لِلأمرِ بتركِ النَّظرِ إلى ظاهرِ أحوالِهِم.

بلاغةُ التَّلميحِ والتَّعريضِ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾:

ظاهرُ النَّهيِ في الآيةِ الكريمةِ مُوجَّهٌ لِلنَّبيِّ ﷺ، ولكنَّ القرائنَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/227.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3335.

(3) صافي، الجدول: 10/363.

المعنويَّةَ المتعلِّقةَ بمَقامِ النُّبوَّةِ عندَ اللهِ تعالى، تَستوجِبُ حملَ الخطابِ إلى أمَّتِه، وهو بابٌ مِن أبوابِ التَّعريضِ أو التَّلميحِ، ينطبقُ عليهِ قولُهم: (إيَّاكِ أعني، واسمعي ياجارة)(1)، وعليه "فالخطابُ للرَّسول ﷺ، أو لكلِّ مَن سمعَ القولَ أو بلَغَهُ، والكلامُ مُرتَّبٌ على ما قبلَهُ، كأنَّهُ يقولُ: إذا كانَ هذا شأنُهم في مظنَّةِ ما يَنتفعونَ بهِ مِن أموالِهم، لا يقبلُ اللهُ منهُ صَرفًا ولاعَدلًا، فلا تُعجبْكَ أيُّها الرَّسولُ، أو أيُّها السَّامعُ، أموالُهُم ولا أولادُهُم الَّتي هي في نفسِها مِن أكبرِ النِّعَمِ وأجلِّها، ولا تَظُنَّ أنَّهُم - وقد حُرِموا مِن ثوابِها في الآخرةِ - قد صَفَا لَهُم نعيمُها في الدُّنيا"(2).

النَّهيُ مُوجَّهٌ لإرشادِ المُؤمنينَ؛ لِتصحيحِ الفهمِ، وحُسنِ العَملِ

دلالةُ النَّهي في: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾:

الأصلُ حمْلُ النَّهي على وجوبِ التَّركِ على جهةِ الاستعلاءِ، ولكن لكونِ الإعجابِ أمرًا قلبيًّا، ولكون ظاهرِ الخطابِ في الآيةِ الكريمةِ موجَّهًا لِلنَّبيِّ ﷺ، ولِلفئةِ المُؤمنةِ معه، فلا مانِعَ مِن حمْلِ النَّهي حينَئذٍ على معنى الإرشادِ والتَّوجيه، أو الاستدامةِ على امتثالِهم لِمضمونِ هذا النَّهي، وهذا المَلمَحُ في النَّهي شبيهٌ بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ١٣١﴾ [طه: 131]، أو قولِه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197].

النَّهيُ بغرضِ الإرشادِ والتَّوجيهِ إلى دوامِ التَّركِ لِلمَنهيِّ عنهُ

نكتةُ تقديمِ الأموالِ على الأولادِ:

وذلك في قولِه: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ ولكن مِن عادةِ القرآنِ الكريمِ أنَّهُ يُقدِّمُ فتنةَ المالِ على فتنةِ الأولادِ في كُلِّ

اشتغالُ النَّاسِ بأموالِهم أكبرُ، وفتنةُ الأولادِ في الحياةِ أخطرُ

(1) وهو شطرٌ مِن بيتِ شعرٍ يُنسَبُ لسهلِ بنِ مالكٍ الفزاريِّ:
يا أختَ خَيرِ البَدوِ والحَضارَهْ *** كَيفَ تَرَينَ في فَتَى فَزارَهْ
أصبَحَ يَهوَى حُرَّةً مِعطارَهْ *** إيّاكِ أعني واسمَعِي يا جارَهْ
يُنظر: النّيسابوريّ، مَجمَع الأمثال: 1/49.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/418.

المَواضِعِ الَّتي يجتمعان فيها، نحو قولِه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ: 37]، وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: 9]، وقولِه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التّغابن: 15]، وقولِه: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]؛ وذلك لأنَّ فتنةَ المالِ أعمُّ مِن فتنةِ الأولادِ، وأثرها يعمُّ الأولادَ وغيرَهُم، بل هي السَّببُ في الرَّغبةِ في الحصولِ على الأولادِ، ولم يتقدَّمْ ذكرُ الأولادِ على المالِ إلَّا في قولِه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]؛ لأنَّها جاءَت في وصفِ أصولِ الزِّينةِ الَّتي جَبَلَ اللهُ النَّاسَ عليها؛ لذلك بُنِيَ فعلُ الزِّينةِ فيها لِمَا لَم يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّ أصلَ تزيينِها في النُّفوسِ مِنَ اللهِ، ثمَّ يأتي دورُ الشَّيطانِ بعدَ ذلكَ في جعلِها سببًا في الفتنةِ والإغواءِ، فبناءُ الفعلِ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه بلاغةٌ في تركِها بحسبِ المُزيَّن، وقد جاءَ فيها تقدُّمُ ذكرِ زينةِ البنين على المالِ؛ لأنَّ الإنسانَ بطبعِهِ لا يُقدِّمُ المالَ على بنيه، بل يَحرِصُ على جمعِهِ لأجلِ إسعادِهِم، وهُوَ على استعدادٍ لِأنْ يَفتديَهُم به، فجاءَ التَّرتيبُ بحسبِ الأصلِ، وما يتَّفِقُ معَ الفطرةِ.

نكتةُ إعادةِ ذكرِ حرفِ النَّفي ﴿وَلَآ﴾:

التَّكرارُ في القرآنِ يُنشِئُ معنًى جديدًا؛ إذْ هو ليسَ ترديدًا

أعادَ القرآنُ ذِكْرَ ﴿وَلَآ﴾ النَّافية بعدَ حرفِ العطفِ مع الأولادِ في قوله: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾؛ لِلإشارةِ إلى استقلالِ كُلِّ فتنةٍ عنِ الأخرى، وبأنَّها لا تَقلُّ خطرًا عنها، وقيلَ: إنَّ تَكرارَها كانَ لِلإيماءِ بأنَّ ذِكرَ الأولادِ كانَ كالتَّكملةِ والاستطرادِ[1]، ثمَّ إنَّ كِليهما نعمةٌ وفتنةٌ، والنَّاسُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/228.

مُتفاوتونَ فيهما، فهُناكَ مَن ابتُلِيَ بفتنةِ المالِ، فعصى به الخالقَ، وطغى بِهِ على الخلائقِ، وهناك مَن ابتُلِيَ بفتنةِ الأولادِ، فهامَ بحبِّهِم في كُلِّ وادٍ، ونسيَ مِن أجلِهِم ربَّ العبادِ، واجتلبَ لَهُمُ العيشَ الكريمَ مِن حلِّ الرِّزقِ وحرامِهِ إرضاءً لَهُم، وتلبيةً لِمَرغوباتِهِم، فَهَلَكَ بِذلِكَ، وهناك مَنِ ابتُلِيَ بفتنةِ المالِ والأولادِ معًا، فكانَت نعمتُهُ أكثرَ، وفتنتُهُ أكبرَ، ونموذجُ ذلك واضحٌ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ الَّذي قرَّعَهُ السِّياقُ القرآنيُّ؛ لأنَّهُ كَفَرَ مَعَ اكتمالِ النِّعمةِ بوجودِ المالِ والولدِ عندَهُ، قالَ تعالى: ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ١١ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ١٢ وَبَنِينَ شُهُودٗا ١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ١٤ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ١٥ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ١٦﴾ [المدّثّر: 11 - 16].

بلاغةُ الحذفِ في ذكرِ الأموالِ والأولادِ:

فتنةُ الأموالِ والأولادِ شديدةٌ ومُتشعِّبةٌ

قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾، دلَّ ذِكرُ الأموالِ والأولادِ على مَحذوفاتٍ؛ تقديرُها: فَلا تُعجِبْكَ كثرةُ أموالِهِم، ووفرَتُها بينَ أيديهِم، وسهولةُ تحصيلِها، وتنوُّعُ أصولِها وفصولِها، ولا كثرةُ أولادِهِم وقُوَّتُهُم ومُناصرتُهم لهم، وهكذا تذهبُ النُّفوسُ في تقديرِ هذه المحذوفاتِ كُلَّ مَذهَبٍ.

نكتةُ الفصلِ في الآيةِ:

الجملةُ التَّعليليَّةُ تُبيِّنُ المعنى المتضمّنَ في سياقِها

قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فُصِلَت هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ لأنَّها جاءَت استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ: (لماذا كانَ النَّهيُ عنِ الإعجابِ بها؟)، فهي جملةٌ تعليليَّةٌ لهذا النَّهيِ، ويُضافُ إلى ذلك أنَّها جملةٌ خبريَّةٌ، وما سبقَها جملةٌ إنشائيَّةٌ؛ فالفصلُ مُتحقِّقٌ لكمالِ انقطاعِها عنها.

بلاغةُ أسلوبِ القصرِ:

تضمَّن قولُه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ قصرًا بـ(إنَّما) الَّذي يُؤتَى بِهِ لغيرِ المُنكِرِ، أو لِمَن يُنزَّلُ هذه المنزلةَ، والخطابُ هنا لِلنَّبيِّ

الإشـــــارةُ إلى طمأنةِ المؤمنينَ، وتثبيت قلوبِهم بهلاكِ أعدائِهم

ﷺ، وللفئةِ المؤمنةِ معهُ، وهُم يَعرفونَ هذا، ولا يُنكِرونَهُ، وهو قصرُ موصوفٌ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ وفرَةَ هذه الأموالِ والأولادِ بينَ أيديهم له حِكَمٌ أخرى، غيرُ ما ذُكِرَ، ويمكنُ حملُهُ على قصرِ القلبِ؛ لأنَّ وفرةَ هذه الأموالِ والأولادِ بينَ أيدي المنافقينَ، لم تكنْ إلَّا وَبالًا عليهم، وليسَ كما هو ظاهرٌ لَهُم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّةِ في ﴿يُرِيدُ﴾ و﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾:

سنَّةُ الله في تعذيبِ المنافقينَ ماضيةٌ إلى يومِ القيامةِ

دلَّ التَّعبيرُ بالفعلَين المُضارعَين على استحضارِ صورتِهم، وهُم يظنُّونَ أنَّ أموالَهُم وأولادَهُم ستكونُ سببًا في عزَّتِهم، وعلوِّ شأنِهم، فإذا بها تكونُ سَببًا في شقائِهم، فضلًا عن دلالةِ المضارعِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، لهذه السُّنَّةِ الإلهيَّةِ في كلِّ حينٍ حتَّى قيامِ السَّاعةِ، ومن شأنِ هذه الجملةِ الخبريَّةِ حينَئذٍ أن تثبِّتَ قلوبَ المؤمنينَ.

نكتةُ حذفِ مفعولِ الإرادةِ:

فعلُ الإرادةِ هنا تعبيرٌ عن يقينِ وقوعِ مُرادِ المريدِ، فيما يُريدُ

قولُهُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ تقديرُ الكلامِ: إنَّما يريدُ اللهُ إعطاءَهُم الأموالَ والأولادَ ليعذِّبَهُم بها، فالحذفُ لِلإيجازِ لِوجودِ مَا يدُلُّ عليه، واللَّامُ هنا للتَّعليلِ[1]؛ أي: لأجلِ أن يعذِّبَهُم بها، واللَّامُ تغني هنا عن مَفعولِ الإرادةِ، ويكثرُ وقوعُها بعدَ فعلِ الإرادةِ[2]، كقولِهِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النِّساء: 26].

معنى (الباء) في: ﴿بِهَا﴾:

أبلغُ العذابِ أن تصبحَ المنحةُ محنةً، وأن تصيرَ النِّعمةُ عذابًا

الباءُ هنا سببيَّةٌ؛ أي: بسببِ كثرةِ الأموالِ والأولادِ، والمُرادُ بالعذابِ المُلمَحِ إليه بقولِهِ: ﴿بِهَا﴾: ما ينالُهُم مِنَ المَشقَّةِ في تحصيلِها، والسَّعيِ الشَّديدِ في ذلك.. فالأموالُ والأولادُ قد صارَت وَبالًا عليهم، ومِن وبالِها تعلُّقُ قلوبِهم بها، وارتباطُ إرادتِهم بها،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/171.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/229.

فتكونُ مُنتهى المطلوبِ، وغايةَ المرغوبِ، بحيث لا يبقى في قلوبِهِم لِلآخرةِ نَصيبٌ، فيكونُ زُهَقُ أنفسِهِم بانتقالِها إلى الآخرةِ، وهُمْ على الكُفرِ[1].

نكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾:

تثبيتُ أفئدةِ المؤمنينَ مَقصدٌ مُهمٌّ في السِّياقِ المبُينِ

يحتملُ أن يكونَ نظمُ الآيةِ في أصلِ التَّرتيبِ: فلا تعجبْكَ أموالُهُم ولا أولادُهُم في الحياةِ الدُّنيا، فيتعلَّقُ قولُهُ: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بقولِهِ: ﴿تُعْجِبْكَ﴾، فيكون تقديمُ قولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ من بابِ تعجيلِ المَسرَّةِ لِلمُؤمنينَ، ويحتملُ أن تكونَ الآيةُ على نظْمِها الَّذي جاءَت عليهِ، ويكونَ عذابُهُم حينَئذٍ في الدُّنيا قبلَ الآخرةِ، ويكونَ تعلُّقُ شبهِ الجملةِ بقولِهِ: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾ لِما أنَّهم يُكابِدونَ المَتاعبَ بجَمعِها وحِفظِها، ويُقاسُونَ فيها الشَّدائدَ والمَصائبَ، وليسَ عندَهُم مِنَ الاعتقادِ بثوابِ اللّٰه تعالى ما يُهَوِّنُ عَلَيهِم مَا يَجِدُونَهُ، أو يُعذِّبهم بها في الدُّنيا، بأخذِ الزَّكاةِ منهُم والنَّفقةِ في سبيلِ اللّٰه، مع عدمِ اعتقادِهِمُ الثَّوابَ على ذلك، أو تَعذيبُهُم بأن تكونَ أموالُهُم غنيمةً لِلمُسلمينَ، وتعذيبُهُم بأولادِهم بأنَّهم قد يُقتَلونَ في الحربِ، فَيَجزَعونَ لِذلكَ أشدَّ الجَزعِ، حيثُ لا يَعتَقِدونَ شَهادَتَهم، أو تعذيبَهُم بهم، بأن يكونَ أولادُهُم سببًا في قتلِهِم إنْ أظهَرُوا الكفرَ[2]، وفي هذا أيضًا تسريةٌ عَنِ المؤمنينَ ووَعيدٌ لِلمُنافقينَ.

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾:

الحياةُ الدُّنيا بـرقٌ خُـلَّـبٌ، والعذابُ فيها شقاءٌ وبلاءٌ وضيقٌ

عهديَّةٌ يُرادُ بها الحياةُ الأولى الَّتي يعيشونَها على الأرضِ، والَّتي أبرزَها السِّياقُ بالتَّعريفِ والوصفِ، والحياةُ الدُّنيا نعمةٌ، والمالُ والبنونَ نعمةٌ أيضًا، ولكنَّها قد تَطغى على الشُّعورِ الإنسانيِّ عندَ المُؤمِنِ، فينشغلُ بالنِّعمةِ، وينسى المُنعِمَ، وقد يؤولُ ذلك إلى الكفرانِ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 340 (بتصرّف).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/171.

وتركِ الشُّكرانِ، والمالُ والولدُ في الحياةِ الدُّنيا قد يكونان سببين في أن يخافَ الإنسانُ تَرْكَ الدُّنيا. ... والَّذي لا يُؤمنُ باليوم الآخرِ؛ فالدُّنيا هي كلُّ زمنِه؛ وإنْ فاتَها كانَ ذلك مصيبةً له، وإنْ فاتَتْهُ كانَ ذلك مُصيبةً عليه[1]، فأمرُهُ كلُّهُ مُتعلِّقٌ بهذهِ الحياةِ الفانيةِ الَّتي طالما سرَّت وغرَّت، ثمَّ انقلبَت على صاحبِها، فضرَّت.

فائدةُ العطفِ ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾:

وبالُ فتنةِ المالِ والأولادِ راجعٌ بالمساءةِ في الدُّنيا وعندَ المَعادِ

الواو عاطفةٌ، والجملةُ مَعطوفةٌ على قولِه: ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾، وهي داخلةٌ معَها في حيِّزِ الإرادةِ والتَّعليلِ؛ فاقتضَت إرادتُهُ أن يُعذِّبَهم بأموالِهم وأولادِهم، وأن يموتوا على الكُفرِ، فكلُّ أفعالِ العبادِ خيرِها وشرِّها، إنَّما تقعُ بمشيئةِ اللّه وإرادتِه، لكنَّ الأفعالَ القبيحةَ منها تقعُ بإرادتِه سبحانَهُ دونَ مَحبَّتِه ورضاه؛ فالأفعالُ منَ اللّه خَلْقًا ومنَ العبادِ اكتِسابًا، كما هو مُقرَّرٌ في عقائدِ أهلِ السُّنَّةِ[2].

بلاغةُ الكنايةِ في: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾:

زُهوقُ الأنفسِ مُفارقةُ أرواحِهم أجسادَهم بمشقَّةٍ وعسرٍ

مادَّةُ (زهق) تقومُ على المضيِّ والذَّهابِ بمَشقَّةٍ، ولم تَرِدْ في القرآنِ الكريمِ إلَّا في ثلاثةِ مَواضِعَ: مَوضِعان منهما تقدَّمَ الحديثُ عنهما في هذه السُّورةِ، والمَوضِعُ الثَّالثُ في سورةِ الإسراء في قولِهِ: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١﴾ [الإسراء: 81]؛ أي: مُضمحِلًّا لا ثباتَ لهُ في كلِّ آنٍ[3]، فقولُهُ في آيتَي سورةِ التَّوبةِ ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾، هو كنايةٌ عن موتِهم بسببِ مُضيِّ أرواحِهم ونفوسِهم بمَشقَّةٍ.

غرضُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ في: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾:

السِّياقُ الفعليُّ يُعينُ على تجليَةِ المعنى، وإبرازِ بيانِه

دلَّ الفعلُ المضارعُ هنا على استحضارِ صورتِهم لحظةَ النَّزعِ من ناحيةٍ؛ لِمَا تدُلُّ عليه لفظةُ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ من معاني خروجِ الرُّوحِ بشدَّةٍ

(1) الشَّعراويُّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5191.
(2) الأشعري، الإبانة، ص: 187، وابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل: 1/68.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 16/205.

وضيقٍ مِنَ الجسدِ، وتدُلُّ كذلكَ على تجدُّدِ الموتِ فيهم، واستمراريَّتِه على حالِهم هذه.

نكتةُ المجازِ العقليِّ في إسنادِ الزَّهقِ إلى الأنفسِ:

في إسنادِ الفعلِ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ إلى الأنفسِ مَجازٌ عقليٌّ أو حكميٌّ، فإزهاقُ هذه الأنفسِ مِن فعلِ اللّٰه، وليسَ مِن فعلِها، وإنَّما أسندَهُ إليها؛ لأنَّها مَحلُّ وقوعِ إرادةِ اللّٰه فيها.

اللّٰهُ يَتوفَّى الأنفسَ، وإليه الرُّجعى والمصير

معنى الواوِ في قولِه: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ الواو حاليَّةٌ؛ والمعنى: تَزهَقُ أنفسُهم، وحالُهُم أنَّهُم على الكُفرِ، والجملةُ الاسميَّةُ بعدَ الواوِ في محلِّ نصبٍ؛ حال من ضميرِهِم المضافِ إليهِ في قولِهِ: ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾.

الجملةُ مُنبِئةٌ عن حالِ مُعتقدِهِم حينَ زهْقِ أنفسِهِم

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّةُ على ثباتِهِم على الكُفرِ، وإصرارِهِم على النِّفاقِ، حيثُ تَزهَقُ أنفسُهُم، فيأتي عليهم الموتُ وهُم كافرونَ، فيكونون مُنشغلِينَ بالتَّمتُّعِ عنِ النَّظرِ في العاقبةِ، فيكونُ ذلك لهم نقمةً لا نعمةً.

الثَّباتُ على الكفرِ قلَّةٌ في العقلِ، وجهلٌ بالعواقبِ

بلاغةُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ بين آيتيِ التَّوبة:

يَتشابهُ نظمُ هذه الآيةِ، وهي قولُهُ تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، مع قولِهِ تعالى في السُّورةِ نفسها: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥﴾ [التّوبة: 85]، خلا أنَّ الآيةَ الثَّانيةَ كانَ العطفُ فيها بالواوِ دونَ الفاءِ الَّتي جاءَت هنا مُتناسِبةً مع الآيتَينِ السَّابقتَينِ اللَّتينِ تحدَّثتا عن نفقاتِهِم وعدمِ قبولِها منهُم بسببِ كفرِهِم باللّٰه ورسولِهِ، وفعلِهُمُ الطَّاعاتِ وسائرَ النَّفقاتِ، وهُم كارهون، فجاءَت هذه الآيةُ مُتفرِّعةً عمَّا تقدَّمَها، أو جاءَت رابطةً لجوابِ شرطٍ مُقدَّرٍ،

ورودُ كُلِّ آيةٍ منهما مُتناسِبةً في نظمِها، معَ السِّياقِ الَّذي وردَت فيهِ

كما تقدَّمَ، بخلافِ المَوضعِ الثَّاني، حيثُ جاءَت مُجرَّدَ عاطفةٍ بينَ صفاتِهم ومَواقفِهم المُختلفةِ، لذا لم تحظَ الآيةُ الثَّانيةُ بمزيدٍ مِنَ التَّوكيدِ بإعادةِ حرفِ النَّفي بعدَ العطفِ، كما في الأولى، وبلامِ التَّعليلِ، وبذكرِ الموصوفِ، وهو ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ﴾؛ لِتقدُّم ذكرِهِ في الأولى، ولأنَّه سَبقَها قولُه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ [التّوبة: 84]، فقد أشارَت إلى حالِهم في الحياةِ، فلم يكُنْ هناك داعٍ لإعادتِها في الآيةِ الَّتي تلَتها.

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الموتُ والوفاةُ والقتلُ والهلاكُ والإزهاقُ:

تشتركُ ألفاظُ الموتِ في ذهابِ القوَّةِ مِنَ الجسدِ، وتختصُّ كلُّ لفظةٍ بما يوافقُ سياقَها

الموتُ: ذهابُ القوَّةِ مِنَ الشَّيءِ[1]، وقد سمَّاهما اللهُ تعالى مَماتًا، واشتقَّ منها، كما في قولِه تعالى: ﴿إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ﴾ [الإسراء: 75]. فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ [الأنعام: 60]، وعلى هذا فالموتُ يأتي على معنى فقدانِ الحياةِ مِنَ الحيِّ، ويأتي على معانٍ مَجازيّةٍ أخرى[2]، وأمَّا الوفاةُ فتدلُّ على الإتمامِ والكمالِ، ومنه: الوفاةُ تكونُ لاستيفاءِ المدَّةِ الَّتي قدَّرَها اللهُ[3]، وأمَّا القتلُ فأصلُ القَتْلِ عندَ الرَّاغبِ: إزالةُ الرَّوحِ عنِ الجسدِ كالموتِ، لكنْ إذا اعتُبِرَ بفعلِ المُتَولِّي لِذلكَ؛ يُقالُ: قَتْلٌ، وإذا اعتُبِرَ بِفوتِ الحياةِ يُقالُ: مَوتٌ[4]، وقد جمعَ اللهُ بينَ لفظتَي القتلِ والمَوتِ في أكثرِ مِن مَوضعٍ في سورةِ آلِ عمرانَ: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران: 157]، وقولِه: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ١٥٨﴾ [آل عمران: 158]. والهلاكُ: يَدُلُّ عَلَى كَسْرٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) الرّاغب، المفردات: (موت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) الرّاغب، المفردات: (قتل).

وسُقوطٍ[1]، والهلاكُ: الموتُ، كقولِهِ: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ﴾ [النّساء: 176][2]، ويأتي الهلاكُ في القرآنِ الكريم وَصفًا لِمَن مَاتَ، وليسَ له وَارثٌ مِن صُلبِهِ، أو مَن ماتَ ولم يتركْ وراءَهُ مَن يُكمِلُ مَسيرَتَهُ، فقد قالَ عنِ الكلالةِ: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ [النّساء: 176]، وقوله على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعونَ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾ [غافر: 34]، فظاهرٌ مِن كلامِهِ انقطاعُ دعوةِ يُوسفَ ﷺ وزوالُ أثرِها، وبهذا يتَّضحُ أنَّ لفظةَ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ قد جاءَت هنا لِتُعبِّرَ عَنِ الموتِ أو الهلاكِ الَّذي أصابَهُم مِن خلالِ مُفارقةِ نفوسِهِم لِأجسادِهِم مَع ضيقٍ وأسفٍ؛ لأنَّهم لم يُحقِّقُوا مَا طمحُوا إليه بكثرةِ أموالِهِم وأولادِهِم، فجاءَ هذا اللَّفظُ دونَ غيرِهِ كنايةً عنِ الموتِ؛ لأنَّه الأليقُ بالسِّياقِ ومعنى الآياتِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).

(2) الرّاغب، المفردات: (هلك).

﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التّوبة: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقةُ بينَ وصفِ المنافقين ومصيرِهم، وبينَ زيفِ أيمانِهم وادّعائِهم الإيمانَ

هذه الآيةُ معطوفةٌ على الآيةِ السَّابقةِ، ضِمنَ سياقٍ طويلٍ، كشفَ زيفَ هذه الشَّخصيَّةِ المنافقة، وفَضَحَ مواقفَها ومُعتقداتِها، وأبرزَ سلوكاتِها وانفعالاتِها إزاءَ المواقفِ المُختلفةِ الَّتي عُرِضَت لها، وقد ناسبَ تقريرَ السِّياقِ السَّابقِ في نفي قَبولِ نفقاتِهم وسائر طاعاتِهم، لِكفرِهم وإكراهِهم على فعلِها، ونهى المؤمنينَ عنِ الاغترارِ بها؛ ناسبَ ذلكَ كلَّه أن يبيِّنَ حرصَهُم على إثباتِ ولائِهم لِلمُؤمنينَ من خلالِ حَلِفِهِم الكاذبِ لَهُم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾: أصلٌ يدُلُّ على المُلَازمَةِ؛ لأنَّ الحَلِفَ يقتضي الالتزامَ به[1]، والمعنى المحوريُّ الَّذي تدورُ عليه الاستعمالاتُ اللُّغويَّةُ لهذه المادَّةِ هو: حدَّةٌ في الشَّيءِ تكونُ من ظاهرِهِ (خارجه)، ومِن ذلك المعنى المحوريُّ: "الحِلْفُ - بالكسرِ: العَهْدُ بينَ القومِ، والمحالفةُ: مُعاقدةٌ ومُعاهدةٌ "على التَّعاضدِ والتَّساعُدِ، والحَلِفُ - بالكسرِ وككتف -: القَسم، وهو تقويَةٌ للكلامِ؛ أي: لمحتواهُ بشيءٍ خارجٍ عنه، وهو اليمينُ[2]، ولم تبتعدِ المعاني الاصطلاحيَّةُ عن هذا في تعريفِهم الحَلِفَ بالقسَمِ[3]، وقد نهى الشَّرعُ عن الحَلِفِ الكاذبِ، وخصوصًا في البيعِ، فقالَ ﷺ، يقولُ: «**إيَّاكم وكثرةَ الحَلِفِ في البيعِ**، فإنَّه يُنفِّقُ، ثمَّ يَمحَقُ»[4]، وقالَ: «إنَّ هذا البَيْعَ يَحْضُرُهُ الحلِفُ والكَذِبُ، فشوبُوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلف).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حلف).

(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (حلف).

(4) الحديث أخرجهُ مُسلم، برقم: (1607)، ويُنظر: المخلّص، المخلصيَّات وأجزاء أخرى: 1/403.

بالصَّدقةِ»[1]، وسُمِّي الحَلِفُ يمينًا؛ لأنَّ المتحالِفَين كأنَّ أحدَهما يُصفِّقُ بيمينِه على يمينِ صاحبِه[2].

2) ﴿يَفۡرَقُونَ﴾: مِنَ الفرَقِ؛ بمعنى: الفَزَع، وأصلُه: يدُلُّ على تَمييزٍ وتَزييلٍ بَينَ شَيئَينِ، من ذَلِكَ الفرقُ: فَرْقُ الشَّعرِ، يُقالُ: فَرَقْتُهُ فَرْقًا، والفِرقُ: القَطيعُ مِنَ الغَنَمِ[1]، والفرقُ يقاربُ الفلَقَ، لكنَّ الفلقَ يُقالُ اعتدادًا بالانشقاقِ، والفرْقَ يُقالُ اعتدادًا بالانفصالِ، ومِنَ الأصلِ "الفرَق - محرَّكةً -: الفزع ﴿قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾: يَفزعون؛ لأنَّ الفَزِعَ الخائِفَ يُفارِقُ ما يخافُهُ؛ أي: يهربُ، ولا يواجهُهُ[2]، تقولُ: فَرِقتُ منكَ، ولا تقُل: فَرِقتُكَ، وامرأةٌ فَروقةٌ، ورجل فروقة أيضًا، ولا جمعَ له، وفي المثل: "رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيثًا، ورُبَّ فَروقَةٍ يُدعى ليثًا"[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيـانُ حقيقةِ تظاهرِ المنافقينَ بالإيمانِ، وهُم أهلُ شكٍّ وخداعٍ وكفرانٍ

يخاطبُ اللّه المؤمنينَ بأنَّ هؤلاءِ المنافقينَ لشدَّةِ خوفِهم وهلعِهم يَحلفونَ لَهُم كَذبًا وزُورًا بأنَّهُم منهُم، والحقُّ أنَّهم ليسوا منهم، ولكنَّهم قومٌ جبناءُ، لا يستطيعونَ مُصارحتَهُم بالعداوةِ، ولا يجرؤون على مجابهتِهم بما تخفيهِ قلوبُهُم لَهُم مِن بغضاءَ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

النِّفاقُ آفةٌ كبرى وجريمةٌ

الواو هنا عطفَت هذه الآيةَ على ما تقدَّمَها في الإخبارِ عن أحوالِ المنافقينَ وصفاتِهم الَّذين أخذَتِ السُّورةُ على عاتقِها

(1) الحديث أخرجه الحميديّ في مسنده: 1/208، والتّرمذيّ في البيوع: 3/505، وأبو داود في البيوع: 3/242، والنّسائيّ في الإيمان: 7/14، والبيوع أيضًا: 7/247، وابن ماجة في التّجارات: 2/725، وأحمد في مسنده: 4/6، 280، والحاكم في مستدركه: 2/5، والخطّابيّ، غريب الحديث: 2/280.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلف).
(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فرق).
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/321.

فضْحَ أساليبِهم، وتعرية شخصيَّتِهم أمامَ المؤمنين؛ لِمَا تمثِّلُه هذه الشَّخصيَّةُ من أثرٍ كبيرٍ في زعزعةِ أمنِ المجتمعِ المُسلم.

نكتةُ التَّعبير بالفعلِ المضارعِ ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾:

الإكثارُ من الأيمانِ شأنُ المنافقين في كلِّ الأزمانِ

الحَلفُ يمينٌ فيه التزامٌ من جهةِ الحالِفِ، لذا يكثرُ استعمالُه في سياقِ الكلام عنِ المنافقينَ في القرآنِ الكريم، دونَ ألفاظِ القسم الأخرى؛ لأنَّ الحَلِفَ فيه معنى الحدَّةِ والقطع، فكأنَّ الحالِفَ بيمينِه يقطعُ الخصومةَ، والمنافقونَ يَلجؤونَ لهذه الأيمانِ؛ لتوكيدِ أقوالِهم، وقطعِ دابرِ الشَّكِّ فيها، وجاءَت مادَّةُ (حلف) هنا بالمضارعيَّةِ؛ لاستحضارِ صورتِهم في تأديتِهم هذه الأيمان، ولبيانِ تجدُّدِ هذه الأيمانِ واستمراريَّتِها معَهُم، كلَّما دعَت إليها حاجةٌ.

بلاغةُ الإضمارِ:

الإيجازُ، والإشارةُ إلى التَّقليلِ مِن شأنِهم، والتَّهوينِ من أمرِهم

الآيةُ مُرصَّعةٌ بضمائرِ الغَيبةِ والخطابِ الَّتي تعودُ على المنافقين والمؤمنين، ولو أُظهِرَتِ الضَّمائرُ لطالتِ الآيةُ، ولكنَّ مُقتضى بلاغةِ القرآنِ، تقتضي إضمارَ ما يدُلُّ السِّياقُ عليه إيجازًا، إضافةً إلى أنَّ الإشارةَ إلى المنافقين بضمائرِ الغيبةِ فيه، تقليلٌ مِن شأنِهم، وتهوينٌ مِن أمرِهم، فطوى التَّصريحُ باسمِهم قولَهُ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمۡ﴾، ﴿هُم﴾، ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ﴾، ﴿يَفۡرَقُونَ﴾.

الباء بين التَّعديَةِ وللسَّببيَّةِ في قولِهِ: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الحَلِفُ باللهِ يمينٌ، لاينكثُهُ إلَّا مُنافِقٌ مُهينٌ

الباءُ للتَّعديةِ أو للنَّقلِ، وهي كالهمزةِ في تصييرِها الفعلَ اللَّازمَ مُتعدِّيًا؛ فيصير بذلك الفاعلُ مَفعولًا، والمعنى: أنَّهم أحلفوا اللهَ، بأنَّهم لَمِنَ المؤمنين، ويمكن أن تكونَ باءُ السَّببيَّةِ على معنى أنَّهم يحلفونَ لِلمُؤمنينَ - بسببِ اللهِ الَّذي شرعَ لهم الأيمانَ - إنَّهم لمنهم.

نكتةُ فصلِ جملةِ ﴿إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾:

هذه الجملةُ هي جوابُ حَلِفِهم لِلمؤمنينَ، ويمكنُ أن تكونَ

فُصِلَت عن سابقتِها؛ لأنَّها وقعَت جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: ماذا حلفوا لِلمؤمنين؟ فيكون الفصلُ للاستئنافِ البيانيِّ.

قَسَمُ المنافقين بأنَّهم مؤمنون تبرئةٌ لأنفسِهم مِنَ الكُفرِ

غرضُ تتابعِ المؤكِّداتِ في قولِهِ: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾:

حظيتِ الجملةُ السَّابقةُ بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ: (إنَّ، الجملة الاسميَّة، اللَّام المُزحلَقة)، فضلًا عن وقوعِها في جوابِ حَلفِهِم؛ وذلك لرغبةِ المُنافِقينَ الجامحةِ في الدِّفاعِ عن أنفسِهِم باستعمالِ سائرِ المُؤكِّداتِ والأيمانِ؛ وذلك لِتيقُّنِهِم بأنَّهُم في مَوضِعِ الشُّبهةِ أمامَ المُؤمنينَ، ممَّا يَستوجِبُ عليهِم أن يُدافِعُوا عن أنفسِهِم، وأن يُقدِّمُوا ما يلزمُ ذلك مِن أساليبِ التَّوكيدِ المُمكنةِ[1].

السِّياقُ يُعالِجُ عدمَ الثِّقةِ بالنَّفسِ، ويزيلُ الشُّكوكَ مِن نفوسِ المؤمنِينَ

معنى (من) التَّبعيضيَّة في: ﴿لَمِنكُمْ﴾:

(من) هنا تبعيضيَّةٌ، والهدفُ منها أن يُؤكِّدَ المنافقونَ لِلمُؤمنينَ بأنَّهُم جزءٌ منهُم، وعلى هذا فَهُم يتَّصفونَ بالإيمانِ مثلَهُم، وبهذا يسعَونَ لإبطالِ شكوكِهِم بهِم، ويُبعِدونَ عن أنفسِهِم نظراتِ الرِّيبةِ الَّتي تلاحقُهُم[2].

تجسيدُ حرفِ المعنى (من) لدقَّةِ القرآنِ وإعجازِهِ

معنى (الواو) في: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾:

الواو هنا حاليَّةٌ، والجملةُ بعدَها في محلِّ نصبٍ على الحالِ[3]، والمعنى: يَحلفونَ إنَّهُم لَمنكُم، والحالُ أنَّهُم لَيسُوا مِنكُم؛ أي: إنَّهم "يَحلِفونَ أنَّهُم مِنَ المؤمنينَ في الدِّينِ والشَّريعةِ، ثمَّ أخبرَ تَعالى عنهُم عَلى الجملةِ لا على التَّعيينِ، أنَّهُم لَيسُوا مِنَ المؤمنينَ، وإنَّما هُم يَفزَعُونَ مِنهُم، فَيُظهِرُونَ الإيمانَ، وهُم يُبطِنُونَ النِّفاقَ"[4].

مَنْ أسرَّ سريرةً ألبسَهُ اللهُ رداءَها

دلالةُ التَّخصيصِ في ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾:

مُقرَّرٌ في علم المعاني، أنَّ النَّفيَ إذا تقدَّمَ المُسنَدَ إليه والمسندَ

ليس الإيمانُ بالادِّعاء، ولكن بالإخلاصِ والصَّفاءِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/229.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 5/229.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/116.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/45.

الفعليَّ، فإنَّهُ يُفيدُ التَّخصيصَ؛ أي: نفيُ كونِهم مِنَ المؤمنينَ، وإثباتُ هذه الصِّفةِ لِغيرِهِم؛ والمعنى: ليسُوا مُؤمِنينَ منكُم، ولكنَّ غيرَهُم مُؤمِنٌ.

معنى الواوِ في: ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾:

ظاهرةُ النِّفاقِ نبتَت في أوجِ قوَّةِ الإسلامِ خوفًا مِنَ المواجهةِ

الواو هنا عاطفةٌ، عطفَت هذه الجملةَ على سابقتِها، فكانَ المعنى: "لَيسُوا على دينِكُم، ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ القَتلَ، فَأظهرُوا الإيمانَ، وأسَرُّوا النِّفاقَ، وهو كقولِه تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [البقرة: 14][1].

معنى ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ﴾، وبلاغةُ الحذف في: ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾:

كلَّما كانَ الإيجازُ بارزًا في السِّياقِ كانَ الكلامُ أدقَّ وأفصحَ

(لكنّ) حرفٌ مشبَّهٌ بالفعلِ يُفيدُ الاستدراكَ، وهو مِنَ النَّواسخِ[2]، مِن أخواتِ (إنَّ)، واسمُها الضَّميرُ العائدُ إلى المُنافِقينَ، وخبرُها ﴿قَوۡمٞ﴾، و﴿يَفۡرَقُونَ﴾ نعتٌ، ومُقتَضى الاستدراكِ هُنا في أنَّهم لَيسُوا منهُم؛ أي: إنَّهم كافرون، فَحُذِفَ المُستَدرَكُ اكتفاءً بأداةِ الاستدراكِ، وذُكِرَ مَا هُوَ كالجوابِ عَن ظاهرِ حالِهِم مِنَ الإيمانِ، بأنَّهُ تَظاهُرٌ بَاطِلٌ، وبأنَّ الَّذي دَعاهُم إلى التَّظاهُرِ بالإيمانِ في حالِ كفرِهِم: هو أنَّهم يَفرَقُونَ مِنَ المؤمِنينَ، فَحَصَلَ إيجازٌ بَديعٌ في الكلامِ؛ إذِ استُغنِيَ بالمَذكورِ عَن جملتَينِ مَحذُوفتَينِ[3].

نكتةُ مادة الفَرَق والمضارعيّة:

نكتةُ التَّعبيرِ بـ (يفرقون) مادَّةً وصيغةً

في قوله تعالى ﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾، دلَّت مادَّةُ (فرق) على التَّمييزِ والفصلِ بينَ الأشياءِ الحسِّيَّةِ والمعنويَّةِ، ودلَّت هنا على مُفارقةِ القلبِ مِن حالةِ الأمنِ إلى حالةِ الخوفِ، أو هُوَ انزعاجُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/74.
(2) صافي، الجدول: 5/365.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/230.

النَّفسِ بِتَوَقُّعِ الضَّرَرِ[1]، فالفَرَقُ: شدَّةُ الخوفِ، والتَّعبيرُ بالمضارعِ هو لاستحضارِ الصُّورةِ ولِلتّجدُّدِ الاستمراريِّ.

فائدةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿يَفۡرَقُونَ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَفۡرَقُونَ﴾ لِلدَّلالةِ على لزومِهم حالةَ الفَرَقِ، وكأنَّهُ فِعلٌ لازمٌ، وللإشارةِ إلى عُمومِ خوفِهِم؛ لِمَا في قلوبِهِم مِنَ النِّفاقِ المُناقِضِ لِلفطرةِ السَّليمةِ، أو لِظهورِهِ؛ أي: يَخافُونَ مِن عَداوَةِ المُسلمينَ لَهُم، وقِتالِهِم إيَّاهُم أو إخراجِهِم[2]، أو: يَخافونَ مِنكُم أن تَفعَلوا بِهِم مَا تَفعَلوهُ بالمُشرِكينَ، فَيُظهِرُونَ الإسلامَ تَقيَّةً، ويُؤَيِّدُونَهُ بالأيمانِ الفاجِرَةِ[3].

الإسلامُ يريدُ قلوبًا خاشعةً، لا قوالبَ خاضعةً

الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الحَلِفُ والقَسَمُ واليمينُ:

القَسَمُ أبلغُ من الحَلِفِ؛ لِأَنَّ معنى قَوْلنا: أقسَمَ بِاللّه، أَنَّه صارَ ذا قسم بِاللّه، والقسَمُ النَّصيبُ، والمرادُ أَنَّ الَّذي أقسمَ عليهِ مِنَ المالِ وغَيرِهِ، قد أحرزَهُ، ودفعَ عَنهُ الخَصمَ بِاللّه، والحَلِفُ من قَولِك: سيفٌ حَليفٌ؛ أَي: قاطعٌ ماضٍ، فَإِذا قلتَ: حلفَ بِاللّه، فكأنَّك قُلتَ: قطعَ المُخاصمَةَ بِاللّه، فالأوَّلُ أبلغُ؛ لأَنَّهُ يتضَمَّنُ معنى الآخرِ، مَعَ دفعِ الخصمِ، فَفيهِ مَعنيانِ، وقولُنا: حَلَفَ يُفيدُ معنًى واحِدًا، وهوَ قَطعُ المُخاصمَةِ فَقَط"[4]، فعَبَّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ بالحَلفِ؛ تعبيرًا عن أنَّهُم أرادُوا قَطعَ المُخاصَمةِ بإظهارِ أنفسِهِم مَظهرَ الصَّادِقِ.

القَسَمُ أبلغُ مِنَ الحَلِفِ دلالةً، والحَلِفُ أنسبُ في المُخاصمَةِ مُمارَسةً

الفَرَقُ والخوفُ والكلماتُ المقاربةُ:

استعملَ القرآنُ الكريم ألفاظًا كثيرةً للتَّعبيرِ عن هذا الخوفِ،

(الفرَق) معنًى بينَ (الفزعِ) و(الخوفِ)، وقد وردَ في القرآنِ مرَّةً واحدةً بصيغةِ الفعلِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/172.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/230.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/230.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.

وعندَ التَّدقيقِ في دلالاتِهَا المعجميَّةِ واستعمالاتِها السِّياقيَّةِ في القرآنِ الكريمِ، نجدُ أنَّ لكلِّ لفظةٍ منها خصوصيتَّها الَّتي تميِّزُها عمَّا تشتركُ بهِ مع غيرِها، ومِن هذه الألفاظِ الَّتي استعملَها القرآنُ الكريمُ:

الرَّهبةُ: الرَّهبةُ طولُ الخوفِ واستمرارُهُ، ومِن ثمَّ قِيلَ لِلرَّاهبِ: راهِبٌ؛ لأنَّهُ يُديمُ الخوفَ(1)، والرَّهْبةُ مَخافَةٌ مَعَ تَحَرُّزٍ واضطرابٍ(2).

الجَزَعُ: هو حُزنٌ يَصرِفُ الإنسانَ عمَّا هُوَ بصَدَدِه، ويَقطَعُهُ عنهُ، وأصلُ الجزعِ: قَطعُ الحبلِ مِن نِصفِهِ، يُقالُ: جزعتُهُ، فانجزَعَ، وهو خلافُ الصَّبرِ(3).

الحذرُ: والحذرُ توقِّي الضَّررِ سواءٌ كانَ مَظنونًا أومُتيقَّنًا، والحذرُ يَدفعُ الضَّررَ، والخوفُ لا يدفعُهُ(4)، فهُوَ احترازٌ عَن مُخيفٍ، يُقالُ: حَذِرَ حَذَرًا، وَحَذرتُهُ، وحَذارِ؛ أي: احذَرْ(5).

الخَشيةُ: خَوفٌ يَشُوبُهُ تَعظِيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علمٍ بما يُخشَى منهُ(6).

الخوفُ: تَوقُّعُ مَكروهٍ عن أمَارَةٍ مَظنُونةٍ أو مَعلُومَةٍ، كما أنَّ الرَّجَاءَ والطَّمعَ تَوقُّعُ مَحبُوبٍ عن أمَارَةٍ مَظنُونَةٍ أو مَعلُومَةٍ، ويُضَادُّ الخوفَ: الأمنُ، ويُستعمَلُ ذلكَ في الأمورِ الدُّنيَوِيَّةِ والأُخرويَّةِ، قالَ تعالى: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: 57]. والخوفُ مِنَ اللهِ لا يُرَادُ بِه مَا يَخطُرُ بالبَالِ مِنَ الرُّعبِ، كاستشعَارِ الخَوفِ مِنَ الأسدِ، بَل إنَّما يُرَادُ به الكَفُّ عنِ المَعاصِي، واختيارُ الطَّاعاتِ؛ ولِذلكَ قِيلَ: لا يُعَدُّ خائفًا مَن لم يكُنْ لِلذُّنوبِ تَارِكًا. والتَّخويفُ مِنَ اللهِ تعالى: هو الحَثُّ على التَّحرُّزِ، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ [الزُّمَر: 16](7).

الرُّعبُ: الانقطاعُ مِنِ امتلاءِ الخَوفِ، يُقال: رَعَبتُهُ فَرَعَبَ رُعبًا، فَهُوَ رَعِبٌ، والتِّرعابَةُ: الشَّديدُ الخوفِ والفزعِ، وقد جاءَ هذا اللَّفظُ في القرآنِ في خمسةِ مَواضِعَ فقط، منها: قولُهُ تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ [آل عمران: 151](8).

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 271.
(2) الرّاغب، المفردات: (رهب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جزع).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 270.
(5) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(6) الرّاغب، المفردات: (خشي).
(7) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(8) الرّاغب، المفردات: (رعب).

الرَّوعُ: إصَابَةُ الرَّوعِ (القلب)، واستُعملَ فيما أُلقِيَ فيهِ مِنَ الفَزَعِ، يُقالُ: رُعْتُهُ ورَوَّعْتُه، وريعَ فُلانٌ: فَزِعَ، والأروَعُ: الَّذي يَرُوعُ بحسنِهِ، كأنَّهُ يُفزِعُ، وقد جاءَ هذا اللَّفظُ في القرآنِ مرَّةً واحدةً، وذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ [هود: 74]؛ أي: الخوف[1].

الفرَقُ: الفزَعُ، وتَفرُّقُ القلبِ مِن شدَّةِ الخوفِ، يُقالُ: فَرِقَ فلانٌ؛ إذا جزِعَ، واشتدَّ خوفُهُ، وقد جاءَ هذا اللَّفظُ في القرآنِ مرَّةً واحدةً بصيغةِ الفعلِ، وذلك قولُهُ سبحانَهُ في وصفِ المنافقينَ: ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التّوبة: 56]؛ أي: يَخافونَ أن يُظهِروا مَا هُم عليهِ[2].

الفزَعُ: الفَزَعُ مفاجأةُ الخَوفِ عِندَ هجومِ غارةٍ أو صَوتِ هدَّةٍ، وما أشبهَ ذلك، وهوَ انزعاجُ القلبِ بتوقُّعِ مَكروهٍ عاجلٍ، وانقباضٌ ونِفارٌ يَعترِي الإنسانَ مِنَ الشَّيءِ المُخِيفِ، وهُوَ مِن جنسِ الجَزَعِ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: 103]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النَّمل: 87][3].

الهلَعُ: أسوأُ الجزعِ والضَّجرِ، وهذا اللَّفظُ لم يَرِد في القرآنِ إلَّا مرَّةً واحدةً فقط، وذلك قولُهُ تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج: 19][4].

الوجفُ: الاضطرابُ، وسُرعَةُ السَّيرِ[5]، يُقالُ: وَجَفَ الشَّيءُ يَجِفُ وَجفًا: اضطربَ، ووجفَ القلبُ: خفقَ؛ ووجَفَ فلانٌ؛ إذا سقطَ مِنَ الخَوفِ، فهو وَاجِفٌ، وهذا اللَّفظُ بهذا المعنى، لم يَرِدْ في القرآنِ إلَّا مرَّةً واحدةً فقط، وذلك قولُهُ تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾﴾ [النّازعات: 8]، وأمَّا قولُهُ تعالى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: 6] فالمرادُ بـ (الإيجاف) هنا: الإسراعُ في السَّيرِ، يُقالُ: وجَفَ الفرسُ يجِفُ وَجِيفًا، وهو: سرعةُ السَّيرِ؛ وأوجفَهُ صاحبُهُ؛ إذا حملَهُ على السَّيرِ.

الوَجَلُ: استشعارُ الخَوفِ، يُقالُ: وَجِلَ يَوْجَلُ وَجَلًا: خَافَ وفزِعَ، فهو وَجِلٌ، قالَ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر: 52]، وقالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: 60][6].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (روع).
(2) الرّاغب، المفردات: (فرق).
(3) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(4) ابن الأثير، النّهاية: 5/269.
(5) الرّاغب، المفردات: (وجف).
(6) الرّاغب، المفردات: (وجل).

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ [التّوبة: 57]

العلاقةُ بينَ اضطرابِ المنافقينَ وتوصيفِ شدَّةِ خوفِهِم، وتداعيَاتها

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيةُ متَّصلةٌ تمامًا بالآيةِ السَّابقةِ؛ لأنَّها جاءَت مُبيِّنةً لِلخوفِ الَّذي وُصِفُوا بِهِ، فهي مُفسِّرةٌ لِفرَقِهم، ومُوضِّحةٌ لهُ بالتَّمثيلِ على شدَّةِ هذا الخوفِ الَّذي يعيشُهُ المنافقونَ، "وهُم يَضيقونَ بكُم، ويَكرهونَ معاشرتَكُم، ولو يَجدون حصنًا أو سراديبَ في الجبالِ، أو جُحورًا في الأرضِ يَدخلونَ فيها؛ لانصرفوا إليها مُسرِعينَ"(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَلْجَـًٔا﴾: اللَّجَأُ والمَلجَأُ: المَكانُ يُلتَجَأُ إِلَيه(2)، والملجأُ: المعقلُ، وهو ما يتحصَّن به قلعةً ونحوها، ويُطلَقُ على الأناسيِّ أيضًا، فيُقالُ: فلانٌ مَلجَأُ فلانٍ؛ أي: يحوطُهُ ويحويه، ويُقالُ: لجأْتُ إليه ألجأُ لجَأً - بفتحِ العينِ - وملجَأً، والتجأْتُ إليه بمعنى الأوَّلِ، والمَوضِع: لجَأٌ ومَلجَأٌ. والتَّلجِئَةُ: الإكراهُ، وألجأْتُه إليه: أكرهتُه عليه، وألجأتُ أمري إلى الله: أسندتُه إليه؛ فلجأ مَنقولٌ، إمَّا مِنَ المصدرِ أو مِنَ المكانِ(3)، وقالوا: اللَّجأُ: الموضعُ المنيعُ مِنَ الجبلِ، والجمع: ألجاءٌ، والملاجىء، الواحد: مَلجَأٌ، وهو كلُّ ما لجأْتَ إليهِ من مكانٍ أو إنسانٍ(4).

2) ﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾: جمع مَغارة، وهي الكهفُ في الجبلِ، وما يغرُّ فيه مِنَ الأرضِ؛ أي: يُدخَلُ، ويُستتَرُ بهِ، وكلُّ ما دخلتَهُ لِيَقيك؛ فهو غارٍ ومغارٍ، المعنى المحوريُّ لمادَّة: (غور)، كما جاء في المعجم الاشتقاقيِّ:

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 269.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لجأ).
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (لجأ).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (جلواي).

هو الغؤور والدُّخولُ بامتدادٍ ودقَّةٍ، ويلزمُهُ اللُّصوقُ والتّغطّي، كما أنَّ التَّلاصُقَ صورةٌ من صوَرِ تداخلِ المتلاصقين بعضهما في بعضٍ، وكما في الغارِ: المغارة في الجبلِ[1]، والمعنى في الآية: لو تَجدونَ جُبًّا أو تَغورونَ فيه، وتَستترونَ به.

3) ﴿مُدَّخَلًا﴾: مُفتعلٌ مِنَ الدُّخولِ، نقيضُ الخروجِ، ويُستعمَلُ ذلكَ في المكانِ، والزَّمانِ، والأعمالِ، المعنى المحوريُّ: وُلوجُ الشَّيءِ أو تغلغلُهُ في أثناءِ شيءٍ، ومِن ذلك: داخِلةُ الأرض: خَمَرُها وغامِضُها، (يُدخَلُ فيها فتَسْتُر، أو تَسترُ ما وراءَها، كأنَّه دخلٌ فيها)، وداخلُ كلِّ شيءٍ: باطنُهُ، والدُّخولُ: نقيضُ الخروجِ. ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: 36]، ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ۝٥٧﴾ [التَّوبة: 57]: نَفَقًا يندسُّونَ فيهِ[2].

4) ﴿يَجْمَحُونَ﴾: مِنَ الجِماح، وهوَ ذَهابُ الشَّيءِ قُدُمًا بِغَلَبَةٍ وقُوَّةٍ، يُقالُ: جَمَحَ الدَّابَّةُ جِمَاحًا؛ إذا اعتَزَّ فارِسَهُ حَتَّى يَغْلِبَهُ[3]، والفرسُ الجَموحُ يندفعُ ولا يلينُ؛ والمعنى: أنَّهم يُسرِعونَ إسراعًا لا يردُّهم شيءٌ[4]، وجَمَحَتِ السَّفينةُ جُمُوحًا: تَرَكَت قَصدَها، فلم يَضبطْها الملَّاحون، وكلُّ شيءٍ مَضَى لوجهِهِ على أمرٍ فقد جَمَحَ، قيل:

إذا عَزَمْتَ عَلَى أَمْرٍ جَمَحْتَ بِهِ *** لا كالَّذي صَدَّ عَنْهُ ثُمَّ لَمْ يَثِبِ[5]

وقالَ الفرَّاءُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ أي: ولُّوا إليه مُسرِعينَ، وقالَ الزَّجّاجُ: وهُم يَجمَحُونَ، قالَ: يُسرِعونَ إسراعًا لا يردُّ وجوهَهم شيءٌ، وقالَ أبو زيد: جَمَحَتِ المرأةُ مِن زوجِها تَجمَحُ جِماحًا، وهو خروجُها مِن بيتِهِ إلى أهلِها قبلَ أن يُطَلِّقَهَا، وَمِثلُهُ طَمَحَتْ طِمَاحًا[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ هؤلاءِ المنافقين من شدَّةِ خوفِهِم يَتمنَّون لو يَجدونَ حصنًا يَلتجِئُون إليه، أو مغاراتٍ

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (غور)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غور).
(2) الرّاغب، المفردات: (دخل)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دخل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جمح).
(4) النَّسفي، تفسير النّسفي: 1/687.
(5) البيتُ لايوجدُ له قائلٌ، واستُشهِدَ به في لسانِ العربِ، غير مَنسوبٍ إلى أحدٍ. ينظر: الخليل، العين: (جمح).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جمح).

تصويرُ فرارِ المنافقينَ مِن بأسِ المؤمنين، كأنَّهُ لجوءٌ للكهوفِ والمغَاراتِ

يَستخفُّونَ فيها، أو سردابًا في الأرض يَنجحرونَ فيه؛ لأقبلوا نحوَهُ مُسرعِينَ أشدَّ الإسراعِ دونَ أن يردَّهُم شيءٌ، كالفرس الجموحِ الَّذي عجزَ صاحبُهُ عن منعِهِ مِنَ النُّفورِ والعَدوِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ الفصلِ في: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾:

استعمالاتُ الفصلِ والوصلِ، تضبطُ المعنى وتجلِّيه

قولُهُ تعالى: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾، لم تُعطَفْ هذه الآيةُ على الآيةِ السَّابقةِ؛ لأنَّها مُتَّصلَةٌ بها تمامًا، مِن حيثُ كونُها جاءَت مُفسِّرةً لمعنى الفَرَقِ والخَوفِ الَّذي وصفَتهُم بهِ الآيةُ السَّابقةُ، ويمكنُ أن يكونَ سببُ فصلِها أنَّها جاءَت استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ بعدَ الآيةِ السَّابقةِ: كيفَ يكونُ خوفُهُم؟ أو ما دليلُ خوفِهم؟ فجاءَت هذه الآيةُ لِتُبَيِّنَ حالَهُم.

معنى ﴿لَوۡ﴾ في: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾:

جوابُ الشَّرطِ مُعلَّقٌ على وقوعِ فعلِ الشَّرطِ

(لو) حرفُ شرطٍ غير جازم، كما هو مُقرَّرٌ في علمِ النَّحو، حيث يُعلِّقُ جوابُ شرطِهِ على حدوثِ فعلِ الشَّرطِ، ويدخلُ على الماضي والمُستقبلِ، وقد يفيدُ مع عملِهِ هذا معنى التَّمنِّي؛ لإبرازِ المُتمنَّى بصورةِ الأمرِ صعب الوقوعِ، كما هو مُقرَّرٌ في علمِ المعاني، وقد أفادَ هنا تمنِّيَهُم أن يَجدُوا ما يَلوذونَ بِهِ مِن شدَّةِ الخوفِ، فامتنعَ عليهم الالتجاءُ لامتناعِ المَلاذِ عنهُم.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ:

دلَّ أسلوبُ الشَّرطِ على استحالةِ تحقُّقِ أمنيَّتِهم

في قوله تعالى ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾ وقوله سبحانه ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾، علَّقت (لو) تولِّيهم إلى الملجأ والمغارات على عِلْمِهِم بوجودِ الملاذِ لَهُم في المُستقبلِ، فامتنعَ جوابُ الشَّرطِ لامتناعِ فعلِه، وأفادَ الشَّرطُ هنا معنى التَّمنِّي، ولكنَّهُ - التَّمنِّي - صعبُ الوقوعِ أو محالُهُ؛ إذ لا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/321.

عاصمَ يعصمُهُم مِن أمرِ اللهِ إنْ وَقَعَ عليهم، فدلَّ هذا الأسلوبُ على أنَّ أمنيَّتَهم عزيزةٌ، ولا يمكنُ أن تتحقَّقَ لهم.

فائدةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَجِدُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

خوفُ المنافقين يدفعُهُم إلى اللُّجوءِ إلى أماكنَ آمنةٍ

يأتي الوجودُ في اللُّغةِ دالًّا على الوجودِ الحسِّيِّ، بإحدى الحواسِّ الخمسِ، ويأتي بمعنى الوجودِ العقليِّ بمعنى العلمِ، فيتعدَّى بالمعنى الثَّاني إلى مفعولَين[1]. ولا مانعَ في الآيةِ هنا مِن حملِه على المعنيَيْن: المادِّيِّ والمعنويِّ، فمِن شدَّةِ خوفِهِم يتمنَّونَ أن يجدوا بحواسِّهِم أو بعلمِهِم الملاذَ الآمنَ الَّذي يحميهم.

والتَّعبيرُ بصيغةِ المضارعيَّةِ، يُفيدُ استحضارَ صورتِهِم، وهُم يَفرُّونَ إلى هذه المَلاجِئِ فضلًا عن إفادةِ تجدُّدِ هذه الأمنيةِ فيهم.

فائدةُ التَّرتيبِ بينَ المَلَاذاتِ الثَّلاثةِ:

لا مَلجَأَ ولا مَنجَى مِنَ اللهِ إلَّا إليه

في قوله: ﴿مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ بدأتِ الآيةُ بذكرِ المَلجَأ، ثمَّ المَغاراتِ، ثم المُدَّخَلِ، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك أنَّها جاءَت مِنَ الأعمِّ إلى الأخصِّ، فهُم يَتمنَّونَ ابتداءً أيَّ مكانٍ يَلوذونَ به، فإنْ لم يكُنْ فمَغارةٌ في جبلٍ أو أيُّ مُدَّخَلٍ يختبئُونَ فيه، وهذا التَّرتيبُ يدلُّ على شدَّةِ فَزعِهم وخوفِهِم.

معنى ﴿أَوۡ﴾ وتكراره:

الفِرارُ مِنَ الحقِّ النَّاصحِ مِن سَفَهِ الرَّأيِ، وقلَّةِ العقلِ

أفادَت ﴿أَوۡ﴾ في قوله: ﴿أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ معنى العطفِ والتَّخييرِ بينَ المعطوفاتِ؛ بمعنى: "لو وجدوا مَفرًّا، يَتحصَّنونَ فيه آمنينَ على أنفسِهم منكُم، لَفرُّوا إليهِ ولَفارقوكُم، ولو وجدوا مَلجَأً؛ أي: مَكانًا يَتحصَّنُ فيه أو مغارةً؛ أي: كهفًا في الجبالِ، أو مُدَّخَلًا؛ أي: سربًا تحتَ الأرضِ كالآبارِ والقنواتِ، لولَّوا إليه؛ أي: رجعُوا إليهِ مِن أحدِ هذه المَواضعِ، مع أنَّها شرُّ الأمكنةِ"[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (وجد).
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/255.

تصويرُ نفسيَّةِ المنافقينَ عندَ الخوفِ وتمنِّي الفِرارِ

نكتةُ إفرادِ ﴿مَلۡجَـٔا﴾ ﴿مُدَّخَلٗا﴾ وجمعِ ﴿مَغَٰرَٰتٍ﴾:

الملجأُ والمُدَّخلُ، إمَّا أن يكونا مَصدرَين أو اسمَي مكان، فعلى المصدريَّة فإنَّ الإفرادَ فيه والجمعَ سواءٌ، في دلالتِه على معاني الالتجاءِ والدُّخولِ، أمَّا المغاراتُ فهو جمعُ مؤنَّثٍ سالمٌ، ويدلُّ على تمنِّيهم كثرةَ هذه المغاراتِ، وربَّما كانَ ذلك لِرغبتِهم في أن يكونَ لها أكثرُ مِن مَدخَلٍ ومَخرَجٍ، حتَّى يتمكَّنوا فيه مِنَ الدُّخولِ والخروجِ بأريحيَّةٍ تامَّةٍ، وهذا يَليقُ بطبيعةِ النِّفاقِ، وسببُ الاشتقاقِ لاسمِهم مِن نافقاءِ اليربوعِ الَّذي يحفرُ لنفسِهِ في الأرضِ مَداخلَ عِدَّةً، كما هو حالُ الشَّخصيَّةِ المُنافِقةِ في تعاملاتِها، وقد تكونُ نكتةُ الجمعِ بينَ صيغِ الإفرادِ والجمعِ في شأنِ المَلاذاتِ، ناشِئةً عن رغبتِهم بالاحتماءِ بأيِّ نوعٍ من أنواعِ الملاذاتِ الَّتي يَتمنَّونَ الفِرارَ إليها عندَ خوفِهم.

فائدةُ تنكيرِ ﴿مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾:

كلُّ المخابئِ قد تحمي مِنَ البشرِ، ولكنْ مِنَ اللهِ لا مَفرَّ

أفادَ التَّنكيرُ هنا التَّعميمَ أو التَّحقيرَ؛ ليشمَلَ كلَّ ما مِن شأنِهِ أن يكونَ كذلك، حتَّى يحتموا به، مهما يكنْ حقيرًا، ويمكن حملُ التَّنكيرِ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ لأمنيَّتِهِم بأن يكونَ هذا المَلاذُ عظيمًا لِيحقِّقَ الأمنَ لَهُم.

معنى اللَّامِ في: ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾:

مَن ولَّى إلى مَلجَأٍ غيرِ اللهِ باءَ بالفشلِ وخابَ مَسعاهُ

هي اللَّامُ الواقعةُ في جوابِ الشَّرطِ، ولا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وتُفيدُ التَّوكيدَ، ومعنى ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾: (وَلَّوا)؛ أي: انطلقوا إليه، وقد شغلَهُمُ الإسراعُ للذَّهابِ إلى المكانِ عن أيِّ شيءٍ آخر[1]، أو "لَصَرَفُوا وجوهَهُم، وأقبَلُوا، وقُرِئَ (لوالَوا)؛ أي: لالتجأوا ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ أي: إلى أحدِ مَا ذُكِرَ"[2] مِنَ المَلاجئِ الَّتي يَظنُّونَ أنَّها سوفَ تحميهم، وتقيهم مِن مَغبَّةِ نفاقِهِم البئيسِ.

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5209.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/75.

نكتةُ إفرادِ الضَّميرِ وتذكيرِه: ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾:

إفرادُ الضَّميرِ وتذكيرُهُ هنا؛ لأنَّهُ يعودُ على أحدِ الملاذاتِ الثَّلاثةِ، وليسَ على مجموعِها؛ لأنَّ (أو) أفادَت معانيَ التَّسويةِ والتَّخييرِ، وأمَّا تذكيرُهُ فبحسبِ الغالبِ منها، والجملةُ هنا جوابُ الشَّرطِ، والضَّميرُ في قولِه: ﴿إِلَيۡهِ﴾ يربطُ بِهِ المعنى بينَ السِّياقِ السَّابقِ واللَّاحقِ، والمعنى: أنَّهم "يَتمنَّونَ الفِرارَ منكُم، والعيشَ في مكانٍ يَعتصمونَ فيهِ مِن انتقامِكُم منهم، فلو استطاعوا السُّكنى في الحصونِ والقلاعِ، أو في كهوفِ الجبالِ ومَغاراتِها، أو في أنفاقِ الأرضِ وأسرابِها، لَوَلَّوا إليها مُسرعِينَ، كالفرسِ الجموحِ لا يردُّهُم شيءٌ"[1].

مراعاةُ التَّغليبِ في التَّذكيرِ مِن أساليبِ العربِ الفصيحةِ

دلالةُ توجيهِ القراءاتِ في: ﴿أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾:

قرأَ يعقوبُ بفتحِ الميمِ وإسكانِ الدَّالِ (مَدۡخَلا)، على أنَّهُ مَصدرٌ أو اسمُ مَكانٍ، وقرأَ البَاقونَ بضمِّ الميمِ وفتحِ الدَّالِ، مع تشديدِها ﴿مُدَّخَلٗا﴾[2]، فهو اسمُ مكانٍ، لكنَّ قراءةَ التَّشديدِ أفادَت معنى الافتعالِ والمبالغةِ في اللُّجوءِ.

مِن شروطِ صحَّةِ القراءةِ المتواترةِ أن توافقَ العربيَّةَ ولو بوجهٍ

معنى الواوِ في: ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾:

الواو حاليَّةٌ، والجملةُ الاسميَّةُ بعدَها: في محلِّ نصبٍ على الحالِ؛ أي: لولَّوا، والحالُ أنَّهم يَجمحونَ، وتفصيلها أنَّ قولَهُ: ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ مُكوَّنةٌ مِنَ الواوِ الحاليَّةِ، وجملةُ ﴿يَجۡمَحُونَ﴾ خبرُ المبتدأ، والجملةُ الاسميَّةُ ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ[3].

لا أصلحَ مِنَ الجملةِ الحاليَّةِ في وصفِ صاحبِ الحالِ

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾:

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ في فاصلةِ الآيةِ معنى التَّوكيدِ والثَّباتِ في وصفِهم بهذهِ التَّوصيفاتِ، ومعنى: ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾؛ أي: "يُسرِعونَ الخُطا لِشدَّةِ خوفِهم، وعظيمِ بُغضِهِم لِلإسلامِ وأهلِه.. (ثمَّ) إنَّ

مَن لم يَخفِ اللهَ خوَّفَهُ اللهُ مِن كلِّ شيءٍ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1293.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/279.

(3) الدّعّاس وآخران، إعراب القرآن الكريم: 1/463.

هذه الأماكنَ الَّتي ذكرَها القرآنُ، هي شرُّ الأماكنِ وأضيقُها، ومع هذا لو وجدَ المنافقونَ واحدًا منها لأسرَعوا إليهِ، واختفوا فيه، وهذا تصويرٌ في مُنتهَى الرَّوعةِ؛ لتوضيحِ مَدى حنقِهم على المُسلمينَ، وخوفِهم منهُم"[1]، وهو ما يتلاءمُ مع قولِهِ تعالى: ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾.

إشعارُ التَّولِّي مع الجماحِ بكمالِ عتوِّهِم وطغيانِهم

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَجْمَحُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أفادَتْ مادَّةُ (جمح) معانيَ الاندفاعِ بسرعةٍ وقُوَّةٍ؛ لشدَّةِ الفزعِ، والتَّعبيرُ بالمضارعِ أفادَ معانيَ استحضارِ صورتِهم أثناءَ جماحِهم، فضلًا عن تجدُّدِ هذا الفعلِ فيهم؛ كلَّما دعَت إليه حاجةٌ.

سياقُ القرآنِ إيجازٌ وإعجازٌ وبيانٌ

بلاغةُ الاستعارةِ: ﴿يَجْمَحُونَ﴾:

شبَّهتِ الآيةُ الكريمةُ سرعةَ المنافقين في تولِّيهم، مع شدَّةِ خوفِهم بحالِ الفرسِ إذا جَمَحَتْ، بجامعِ النُّفورِ والاضطرابِ على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، وهذا الاستعمالُ البديعُ للَّفظِ ﴿يَجْمَحُونَ﴾ من أروعِ التَّصويرِ؛ إذ لو قال: (لَولَّوا مُسرِعينَ مُصمِّمينَ غيرَ مُنثَنِينَ)[2] لَما عبَّرَ بتلك الألفاظِ جميعِها عن لفظٍ واحدٍ، هو ﴿يَجْمَحُونَ﴾ الَّذي استوفى المعنى بدقَّةٍ وبلاغةٍ.

---

(1) الكواريّ، تفسير غريب القرآن: 9/57.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/46.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨﴾ [التّوبة: 58]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ ما سَلَفَ مِن حالِ المنافقينَ بسُوءِ تصرُّفاتِهِم معَ النَّبيِّ الكريمِ

الآيةُ مَعطوفةٌ على ما سبقَها مِنَ الآياتِ في وصفِ حالِ المنافقينَ، وفي بيانِ مَواقفِهم إزاءَ التَّحدِّياتِ والمؤثِّراتِ المختلفةِ الَّتي يمرُّون بها، ومِن ذلك أنَّ بعضَ هؤلاء المنافقين لا يفتؤونَ يعيبونَ الرَّسولَ ﷺ بالطَّعنِ عليهِ في قسمةِ الصَّدقاتِ والغنائمِ؛ إذ لا همَّ لَهُم إلّا حُطامُ الدُّنيا، فإن أعطيتَهُم ما يَرغبونَ منها رضوا عن عملِك، وإنْ لم تُعطِهم تعجَّلُوا بالسُّخطِ عليك.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلۡمِزُكَ﴾: اللَّمْزُ هوَ العَيْبُ[1]، واللُّمَزَةُ: الكثيرُ اللّمزِ، واللَّمزُ: الاغتيابُ وتتبُّعُ المعايبِ، والمعنى المحوريُّ: الدَّفعُ في البدنِ بشدَّةٍ وحِدَّةٍ، ومنه قِيلَ: "لَمَزَهُ: عابَهُ ووقعَ فيه" ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾ [الهُمزة: 1]. ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التّوبة: 58]؛ أي: مَن يعيبُك في قَسْمِ الصَّدقاتِ، وهي نزغةُ مُنافِقٍ مُتَعَلَّقُه تحميل الدُّنيا ومحبَّة المالِ[2]. "اللَّمْزُ، كالغمزِ في الوجهِ تَلمِزُهُ بفيكَ بكلامٍ خفيٍّ، وقولُهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾؛ أي: يُحَرِّك شفتيهِ بالطَّلبِ، ورجلٌ لُمَزَةٌ: يعيبُكَ في وجهِك لا مِن خلفِكَ، وهو مِنَ اللّمزِ، ورجلٌ هُمَزَةٌ: يعيبُكَ مِن خلفِكَ"[3].

2) ﴿ٱلصَّدَقَٰتِ﴾: الصَّادُ والدَّالُ والقافُ أَصلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمز).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لمز).
(3) الخليل، العين: (لمز).

الشَّيءِ قولًا وغيرَهُ، مِن ذَلِكَ الصِّدقُ: خِلافُ الكَذِبِ، سُمِّيَ لِقوَّتِهِ في نَفسِهِ، ولأَنَّ الكَذِبَ لا قُوَّةَ لَهُ، هوَ بَاطِلٌ، وأَصلُ هذا مِن قَولِهِم: شَيءٌ صَدقٌ؛ أَي: صُلبٌ. ورُمحٌ صَدقٌ، والصَّدَاقُ: صَدَاقُ المَرأَةِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِقُوَّتِهِ، وأَنَّهُ حَقٌّ يَلزَمُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾ [النّساء: 4]، ومِنَ البابِ الصَّدَقَةُ: ما يَتَصَدَّقُ بِهِ المَرءُ عَن نَفسِهِ ومالِهِ[1]، لكِنَّ الصَّدَقَةَ في الأَصلِ، تُقالُ لِلمُتَطَوِّعِ بِهِ، والزَّكاةُ لِلواجِبِ، وقد يُسمَّى الواجِبُ صَدَقَةً إذا تَحَرَّى صاحِبُها الصِّدقَ في فِعلِهِ[2].

3) ﴿يَسۡخَطُونَ﴾: السُّخطُ: ضِدُّ الرِّضا، سخِطَ الشَّيءَ: كَرِهَهُ، تسخَّطَ عطاءَه: استقلَّهُ، كلَّما عملتُ له عملًا؛ تسخَّطَهُ؛ أي: لم يرضَهُ، والمعنى المحوريُّ: الغضبُ (الشَّديد) استنقاصًا لِما يُقَدَّمُ من عملٍ أو عطاءٍ، والسُّخطُ: الكراهةُ المُفرِطةُ[3]، فالسُّخطُ اصطلاحًا: الغضبُ الشَّديدُ المُقتَضي لِلعقوبةِ[4]، وسَخِطَ؛ أي: غَضِبَ، وبابُهُ طَرِبَ؛ فهو سَاخِطٌ، وأسخَطَهُ: أغضَبَهُ، وتَسَخَّطَ عَطاءَهُ: استَقَلَّهُ[5]، وفي حديث هرقل: «**وسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعدَ أَنْ يَدخُلَ فيهِ؟**»[6]، السَّخَطُ والسُّخطُ: الكراهيةُ لِلشَّيءِ وعدمُ الرِّضا بِهِ، ومنه الحديثُ: «**إنَّ اللهَ يَسخطُ لَكُم كَذا**»[7]؛ أي: يَكرَهُهُ لَكُم، ويمنعُكُم منهُ، ويُعاقِبُكُم عليهِ، أو يَرجِعُ إلى إرادةِ العُقوبَةِ عليهِ[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خاطبَ السِّياقُ نبيَّ الرَّحمة، فقالَ لهُ: يا محمَّدُ، مَن يُعيبُكَ، ويَطعنُ عليكَ في قِسمةِ الصَّدقاتِ والغنائم، ويَزعمُ أنَّك لَستَ عَادِلًا في قسمتِكَ، إنَّما هُمُ المنافقونَ، الَّذين إذا أعطيتَهُم مِن تلكَ الصَّدقاتِ رضوا عنكَ، وإنْ لَم تُعطِهم منها سَخطُوا عليكَ، واتَّهمُوك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق).
(2) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سخط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سخط).
(5) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (سخط).
(6) هذا الحديث الطّويل ذكرَهُ البخاريّ، عن عبدالله بن عبّاس، سألَ فيه أبا سفيان بن حربٍ عن حوارِهِ مع هرقل عظيمِ الرّومِ: (باب الإيمان)، الحديث رقم: (58)، وابن الأثير، النّهاية: (سخط).
(7) هذا الحديث ذكرَه مُسلم في الصّحيح، عن أبي هريرة، كتابُ الأقضيةِ، باب النّهي عن كثرةِ المسائلِ مِن غير حاجةٍ، والنّهي عن منع وهات، وهو الامتناعُ من أداءِ حقٍّ لزمَهُ أو طلبِ ما لا يستحقُّه. الحديث رقم: (4481).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (سخط).

زورًا وبُهتانًا، "وهُم لا يَفعلونَ ذلك سخطًا لِلدِّينِ، ولا غيرةً على مَصلحةِ المُسلمينَ، وإنَّما يَفعلونَهُ سعيًا وراءَ مَنافعِهم الخاصَّةِ، ومزاياهُمُ الذَّاتيَّةِ، واللهُ يَعلمُ خباياهم، ويُطلعُكَ عليها"[1].

التَّنديدُ بالطَّاعنينَ في توزيعِ رسولِ اللهِ ﷺ للصَّدقاتِ لأطماعِهم فيها

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بحرفِ (الواو)، وأثرُها في المعنى:

الواو في قولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ عاطفةٌ، وهي من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ؛ لأنَّ الآياتِ لا زالَت تتحدَّثُ عنِ المُنافقينَ وصفاتِهم، والمقصودُ من هذا شرحُ نوعٍ آخرَ من قبائحِهم وفضائحِهم، وهو طعنُهُم في الرَّسولِ ﷺ بسببِ أخذِ الصَّدقاتِ منَ الأغنياءِ، ويَقولونَ: إنَّهُ يُؤثِرُ بها مَن يَشاءُ من أقارِبِه وأهلِ مَوَدَّتِه، ويَنسُبُونَهُ إلى أنَّهُ لا يُراعي العَدلَ[2].

بيانُ اللَّمزِ المشينِ بالطَّعنِ في أمانةِ النَّبيِّ الأمينِ

معنى (مِن) في قولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾:

(مِن) هنا: تبعيضيَّةٌ على معنى: أنَّ بعضَهم مَن يفعلُ هذا، وبعضهم يفعلُ غيرَهُ، وهذا الَّذي لمزَ النَّبيَّ ﷺ، وَرَدَ عن أبي سعيد الخدريِّ، قال: بينا النَّبيُّ ﷺ يَقسِمُ، جاءَ عبدُ اللهِ بن ذي الخُويصرة التَّميميُّ، فقال: اعدلْ يا رسولَ اللهِ، فقالَ: «ويحَكَ، ومَن يعدلُ؛ إذا لم أعدلْ»، قال عمر بن الخطاب: ائذنْ لي، فأضربَ عُنُقَهُ، قالَ: «دَعْهُ، فإنَّ لهُ أصحابًا يَحقِرُ أحدُكُم صلاتَهُ مع صلاتِه، وصيامَهُ مع صيامِه، يَمرُقونَ منَ الدِّينِ كما يَمرُقُ السَّهمُ منَ الرَّميةِ»[3].

مَن تجرَّأ على رسولِ اللهِ ﷺ باللَّمزِ خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ

معنى الموصولِ ﴿مَّن﴾ وصلتِهِ في قولِه: ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾:

﴿مَّن﴾ هنا اسمُ موصولٍ بمعنى: (الَّذي)، والاسمُ الموصولُ مُبهَمٌ

ذمُّ المنافقينَ، والنَّعيُ عليهم؛ لِما بَدَرَ منهُم من لَمزٍ أثيمٍ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1294.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/755.
(3) الحديثُ مَرويٌّ عن أبي سعيد الخدريّ، أخرجه البخاريّ، الحديث رقم: (3610)، ومُسلم، الحديث رقم: (1064)، ورُوِيَ أيضًا عن جابر بن عبد الله، أخرجه: ابن ماجة، سننه، الحديث رقم: (142)، ويُنظر في أسبابِ نزولِ الآيةِ: المزينيّ، المحرّر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التّسعة: 1/589.

مُفتقِرٌ إلى جملةِ صلةِ الموصولِ الَّتي تُزيلُ إبهامَهُ، كما أنَّهُ مُفتَقِرٌ إلى عائدٍ ظاهرٍ أو مُقدَّرٍ يعودُ عليهِ، وأفادَ الاسمُ الموصولُ هنا معنى الذَّمِّ والتَّحقيرِ لهذا الصِّنفِ مِنَ المنافِقينَ، والجملةُ هنا صلةُ الموصولِ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، والعائدُ فيها ضميرٌ مُقدَّرٌ يعودُ على هذا الصِّنفِ اللَّامزِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿مَّن يَلۡمِزُكَ﴾:

استبشاعُ لمزِ النَّبيِّ الأمينِ، مُتجدِّدٌ في كلِّ عصرٍ وحينٍ

قولُهُ: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، واللَّمزُ يشمَلُ العيبَ باللَّفظِ الصَّريحِ، ويشمَلُ العيبَ بالتَّعريضِ والتَّلميحِ، ويشمَلُ كذلك الوخزَ في الكلامِ.. وقالوا: إنَّ اللُّمَزَةَ مَن يعيبُ في وجهِ مَن يعيبُهُ، ولو بلَحْنِ القولِ، وقد استعملَ السِّياقُ الفعلَ المضارعَ لِلدَّلالةِ على بشاعةِ التَّطاولِ على مَقامِ النُّبوَّةِ السَّاميِّ، ودلَّ التَّعبيرُ بالمضارعِ، هنا على استحضارِ صورتِهِم القبيحةِ، وهُم يَلمزونَ الرَّسولَ والمؤمنينَ، فضلًا عن دلالتِها على تجدُّدِ هذا اللَّمزِ فيهم، واستمراريَّتِهِ عندَهُم.

بلاغةُ الحذفِ في: ﴿يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

دلَّ السِّياقُ على عمومِ طعنِهِم في شأنِ الصَّدقاتِ على إطلاقِها

أُدخِلَت ﴿فِي﴾ على الصَّدقاتِ، وإنَّما اللَّمزُ في توزيعِها لا في ذواتِها؛ لأنَّ الاستعمالَ يدُلُّ على المرادِ، فهذا شائعٌ مِن إسنادِ الحُكمِ إلى الأعيانِ، والمُرادُ أحوالُها[1]، وعلى هذا فيكونُ تقديرُ الجملةِ: ومنهُم مَن يلمزُكَ في شأنِ الصَّدقاتِ، أو في قسمتِها، ولكنَّ إسنادَ الحرفِ (في) إلى الصَّدقاتِ أفادَ عمومَ لَمزِهِم في كافَّةِ شؤونِها.

معنى (ال) في: ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾:

العِبرَةُ بعمومِ لفظِ الصَّدقاتِ لا بخصوصِ سببِ النُّزولِ

يحتملُ أن تكونَ (الـ) هنا عهديَّةً، والمرادُ بها الصَّدقاتُ المعروفةُ الَّتي وزَّعها النَّبيُّ ﷺ على بعضِهم، في مُناسبةٍ مُحدَّدةٍ، تبعًا لِمَا جاءَ في مُناسباتِ نزولِ هذه الآيةِ، والأَولَى حمْلُها على الجنسِ لِيُرادَ منها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/232.

كافَّة الصَّدقاتِ الَّتي يتصرَّفُ فيها النَّبيُّ ﷺ، والَّذي يُؤكِّدُ هذا الرَّأي مجيئُها على هيئةِ الجمعِ دونَ الإفرادِ.

معنى الفاءِ في: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ﴾:

جوهرُ الإيمانِ الرِّضا بأحكامِ اللهِ في العطاءِ والمَنعِ

الفاءُ عاطفةٌ أفادَتِ التَّفريعَ والتَّعقيبَ، و"(الفاء) تدُلُّ على أنَّ ما بعدَها بيانٌ أو إشارةٌ إلى نوعِ عينِهِم، وهو بيانٌ لنفوسِهِم، إنْ أُعطوا مِنَ المالِ بحقٍّ؛ رضوا واطمأنُّوا، وقالُوا: إنَّها قِسمةٌ عادلةٌ، واستقامُوا على الطَّريقة، وإنْ لم يُعطوا لِعدمِ استحقاقِهِم سَخِطوا، فهُم طامعونَ في أن يأخذوا بغيرِ حقٍّ"[1].

دلالةُ (إنْ) الشَّرطيَّة:

أسوأُ الرِّضا ما كانَ مَشروطًا بالعطاءِ، وجودًا وعدمًا

أفادَ استعمالُ (إنْ) في قوله: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ﴾ معنى الشَّرطِ، ويُؤتَى بها لإبرازِ فعلِ الشَّرطِ، على أنَّه في حكم نادرِ الوقوعِ، أو ما هو في حكمِهِ، كما هو مُقرَّرٌ في علم المعاني، فدلَّ استعمالُها هنا على أنَّ إعطاءَهُم ينبغي أن يكونَ لهُ حكمُ النَّادرِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّةِ في: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا﴾:

ربطُ صفاتِ المنافقينَ ومواقفِهِم بالاشتراطِ تماشيًا مع نفسيَّاتِهم

أفادَ استعمالُ الجملةِ الشَّرطيَّةِ هنا الدَّلالةَ على ربطِ مواقفهِم وردودِ أفعالِهِم، بأسبابٍ مُحدَّدةٍ، ومُقدِّماتٍ مُقرَّرةٍ، فهذا الأسلوبُ يُصوِّرُ نفسيَّاتِهِم الَّتي تربطُ الأسبابَ بالنَّتائج، فقد ربطَتِ الآيةُ هنا رضاهم بإعطائِهِم الصَّدقاتِ، ويكثرُ استعمالُ أسلوبِ الشَّرطِ في سياقِ الحديثِ عنِ المنافقينَ، ولاسيَّما في هذه السُّورة، كما في قولِهِ: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ [التَّوبة: 42]، وقولِهِ: ﴿۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ [التَّوبة: 46]، وقولِهِ: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3339.

[التَّوبة: 47]، وقولِه: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ [التَّوبة: 50].

نكتةُ بناءِ صيغةِ الفعلِ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه في ﴿أُعۡطُواْ﴾:

المنافقونَ أشدُّ حرصًا على المَكاسِبِ مِنَ الانشغالِ بمَن يُقدِّمُها

دلَّ بناءُ الفعلِ لغيرِ فاعلٍ مُعيَّنٍ على أنَّهم يَطلبونَ حصولَ هذا الفعلِ لهم دونَ النَّظرِ إلى فاعلِه، فالمهمُّ في الأمرِ أن يتحقَّقَ إعطاؤُهُم دونَ الاهتمامِ بنوعِ المُعطِي، وهذا يكشفُ نفسيَّتَهُم في طلبِ المَنافعِ والسَّعي لها.

دلالةُ عودِ الضَّمائرِ في الجملةِ الشَّرطيَّةِ:

تنوُّعُ مآلاتِ الضَّمائرِ، يُكسبُها معانيَ كثيرةً

الظَّاهرُ أن تعودَ الضَّمائرُ في ﴿أُعۡطُواْ﴾و﴿رَضُواْ﴾ إلى اللَّامِزين أنفسِهم؛ أي: إنْ أُعطي اللَّامِزُونَ رضوا، ويحتملُ أن تعودَ إلى الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَمِنۡهُم﴾؛ أي: إلى مجموعِ المنافقين، فيصير المعنى: إنْ أُعطِيَ المُنافقونَ رَضِيَ اللَّامِزُونَ، وإنْ أُعطِيَ غيرُهم سَخِطُوا؛ فالمعنى: أنَّهُم لا يُريدونَ الصَّدقاتِ إلَّا إلى فقرائِهِم[1].

معنى (من) في: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ﴾:

هوى النَّفسِ الغلَّابُ يقودُ العبادَ إلى ما يُعابُ

(مِنْ) هنا يمكنُ أن تكونَ تبعيضيَّةً على معنى: إنْ أُعطوا بعضَ الصَّدقاتِ، وهو الظَّاهرُ، ويمكنُ أن تكونَ بيانيَّةً تبيِّنُ ما يُرضيهم[2]، "إذًا: فموازينُهم مُختلَّةٌ، وليسَت موازينَ حقٍّ ثابتٍ، بل هي موازينُ هوى النَّفسِ، لكنَّ موازينَ الحقِّ لا تتبَعُ، ولا تَتوقَّفُ على هوى النَّفسِ، بل هي موازينُ ثابتةٌ، يعدلُ فيها الإنسانُ حتَّى مع ألدِّ أعدائِهِ"[3].

سرُّ استعمالِ صيغةِ الماضي ﴿رَضُواْ﴾:

الإسلامُ رضًا وإقناعٌ، وليس مُقايضةً للانتفاعِ

للدَّلالةِ على أنَّ الرِّضا وإظهارَ الإسلامِ، كان يكونُ لأجلِ العطاءِ في وقتِهِ، وينقضي، فلا يعدُّونَهُ نعمةً يتمنَّونَ دوامَ الإسلامِ لِدوامِها[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/232.
(2) صافي، الجدول: 5/366.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/232.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 10/421.

و"هؤلاء النَّاسُ تختلفُ انفعالاتُهُم باختلافِ مَصلحتِهِم، إذا أَخَذوا رضوا، وإذا مُنِعوا سخِطوا؛ لأنَّ ميزانَهُم هو المصلحةُ الخاصَّةُ البعيدةُ عن كلِّ عَدلٍ"[1].

سرُّ الحذفِ في التَّركيبِ، وعلاقتُهُ بالإيجازِ والتَّعميمِ:

التَّقديرُ تنويعٌ للتَّعبيرِ، وتحريكٌ لسوانحِ التَّفكيرِ

لم يقلِ القرآنُ: رضوا عنك، أو رضوا عنِ المؤمنين؛ لأنَّه مفهومٌ مِنَ السِّياقِ، فالحذفُ لِلإيجازِ، ويمكن أن يكون الحذفُ؛ لأنَّهم في حقيقةِ الأمرِ مهما أُعطُوا فلن يرضَوا عنِ النَّبيِّ ولا عنِ المؤمنينَ، فعبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن ذلكَ بحصولِ حالةِ الرِّضا عندَهُم بسببِ الإعطاءِ لا بسببِ المُعطِي، أو أنَّ الفعلَ أُجرِيَ مَجرَى اللَّازمِ؛ أي: صارَت لهم حالةٌ مِنَ الرِّضا.

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ﴾:

مَلمَحُ الإطنابِ والاحتراسِ في السِّياقِ

جاءتِ الجملةُ الشَّرطيَّةُ الثَّانيةُ في قوله: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ﴾ معطوفةً على الأولى بحرفِ الواو؛ لمزيدِ البيانِ في وصفِ حالِهِم في حبِّ الأخذِ دونَ العطاءِ؛ ليبيِّنَ موقفَهُم السَّاخطَ في حالِ عدمِ إعطائِهِم؛ لأنَّه قد يظنُّ ظانٌّ أنَّهُ إذا أُعطوا رَضوا، وإذا لم يُعطَوا قد لا يَرضون، ولا يَسخطون، فبيَّنَ حصولَ السُّخطِ منهم، فالعطفُ للإطنابِ والاحتراسِ.

بلاغةُ إعادةِ التَّعبيرِ بالشَّرطيَّةِ ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا﴾ ﴿وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ﴾:

تتغايرُ ردودُ الأفعالِ بتغايرِ الأحوالِ

عَبَّرَ عن حالِهِم في حالِ عدمِ إعطائِهِم مِنَ الصَّدقاتِ، بما عَبَّرَ فيهِ عن حالِهِم حالَ إعطائِهِم، بنفسِ النَّظمِ وأسلوبِ الشَّرطِ؛ لِلدَّلالةِ على تغايُرِ ردودِ أفعالِهِم بناءً على تغايرِ أحوالِهِم.

بديعُ المقابلةِ:

إظهارُ التَّقلُّبِ في أحوالِ المنافقينَ حسبَ الهوى والمَنفعةِ

قولُه: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾، هناك مقابلةٌ بين الإعطاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا﴾، والمنعِ في

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5217.

قولِه: ﴿وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ﴾، وبينَ الرِّضا في قولِه: ﴿رَضُواْ﴾، والسُّخطِ في قولِه: ﴿يَسۡخَطُونَ﴾ على التَّرتيبِ؛ لِلدَّلالةِ على شدَّةِ سيطرةِ المالِ على قلوبِهم؛ وتلوُّنِهم حسبَ الهوى.

معنى ﴿إِذَا﴾ الفجائيَّةِ في: ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾:

سُخطُ المنافقينَ لا مَنطقَ لهُ، فلا غرابةَ في غرابتِهِ

﴿إِذَا﴾ هنا فجائيَّةٌ، وتدلُّ على أنَّ سَخَطَهُم هنا أمرٌ يُفاجِئُ العاقلَ حِينَ يَشهَدُهُ؛ لأنَّه يكونُ في غيرِ مَظِنَّةِ سَخَط، وشأنُ الأمورِ المُفاجِئَةِ أن تكونَ غَريبةً في بابِها[1]، "و (إذا) - تدلُّ على أنَّ سخطَهُم أمرٌ لا يرتبطُ بمنطقِ الأمورِ، فهُم فاجَؤوا أهلَ الحقِّ به، والدَّليلُ على المفاجأةِ (إذا)؛ فهي تدلُّ على المفاجأةِ. والمفاجأةُ تدلُّ على أنَّهُ غيرُ مَنطقيٍّ؛ لأنَّ مَن يَرضَى بالحقِّ عندَ العطاءِ، لا يصحُّ أن يغضبَ إنْ مُنِعَ بحقٍّ"[2].

موقعُ جملةِ ﴿هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾ في سياقِ الآيةِ الكريمةِ:

للضَّمائرِ دورٌ أساسيٌّ في ربطِ اللَّاحقِ مِنَ الجُملِ بالسَّابقِ

دلَّ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿هُمۡ يَسۡخَطُونَ﴾ على استقرارِ هذا الوصفِ فيهم، حتَّى باتَ اسمًا لهم؛ فالجملةُ الاسميَّةُ تدلُّ على الثَّباتِ، وتفيدُ التَّوكيدَ أيضًا؛ لِتكرُّرِ ذكرِ المُسندِ إليه فيها مرَّةً بكونِهِ المبتدأ ﴿هُمۡ﴾، ومرَّةً بكونِهِ فاعلَ الفعلِ ﴿يَسۡخَطُونَ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَسۡخَطُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارعِ لاستحضارِ الصُّورةِ، وتجدُّدِ الفعلِ واستمراريَّتِهِ

دلَّ الفعلُ المضارعُ هنا على استحضارِ حالةِ السُّخطِ عندَهُم، فضلًا عن دلالتِها على تجدُّدِ فعلِ السُّخطِ فيهم عندَ كُلِّ مَنعٍ، فعَبَّرَ عَن سُخطِهِم بـ(إذا) الفُجائيَّةِ، وبِفعلِ المُضارعِ؛ للدَّلالَةِ على سُرعَتِهِ واستِمرارِهِ، وهَذا دَأبُ المُنافِقينَ وخُلُقُهم في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ، كَما نَراهُ بالعيانِ، حتَّى مِنْ مُدَّعي كَمالِ الإيمانِ والعِلمِ والعِرفانِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/232.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3340.

(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/421.

❁ الفروقُ المُعجَمِيَّة:

الهَمْزُ واللَّمزُ:

عبَّر القرآنُ عن اللَّمزِ بالطَّعنِ جهارًا في شأنِ تقسيمِ النَّبيِّ للصَّدقاتِ

فرَّق القرآنُ بينَ الهمزِ واللَّمزِ، لمّا جَمَعَ بينَهُما في قولِه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾ [الهُمزة: 1]، ورأى أبو هلالٍ العسكريُّ أنَّ الهمزَ هوَ أَن يهمزَ الإنسانُ بقولٍ قَبيحٍ من حَيثُ لا يسمعُ، أَو يحثّهُ، ويوسِّده على أَمرٍ قَبيح؛ أَي: يغريه بِهِ، واللَّمزُ أَجهَرُ مِنَ الهَمزِ، وفي القُرآن ﴿هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧﴾ [المؤمنون: 97]، ولم يقُل: لمزاتٌ؛ لأَنَّ مكايدةَ الشَّيْطان خفيَةٌ[1]. فاللَّمزُ: العيبُ والطَّعنُ في الوجهِ، والهمزُ: الطَّعنُ في الغَيبةِ، وأصلُهُ الإشارةُ بالعينِ ونحوها، فهو أخصُّ مِنَ الغمزِ؛ إذ هوَ الإشارةُ بالعينِ ونحوها، سواءٌ كان على وجهِ الاستنقاصِ أم لا، وأمَّا اللَّمزُ فهو خاصٌّ بكونِهِ على وجهِ العيبِ[2].

السُّخط والغضب:

السُّخط غضبٌ لاحتقارِ أمرٍ ما، فناسبَ الغضبَ على الصَّدقاتِ هنا

فرَّق بينهما أبو هلال؛ بأَنَّ الغَضَبَ يكونُ مِنَ الصَّغيرِ على الكَبيرِ، ومِنَ الكَبيرِ على الصَّغيرِ، والسُّخطُ لا يكونُ إلَّا مِنَ الكَبيرِ على الصَّغيرِ، يُقالُ: سَخِطَ الأَميرُ على الحاجِبِ، ولا يُقالُ: سَخِطَ الحاجِبُ على الأَمير، ويُستَعملُ الغَضَبُ فيهما، والسُّخطُ إِذا عدَّيتَهُ بِنَفسِهِ؛ فَهوَ خلافُ الرِّضا، يُقالُ: رضيه، وسَخِطه، وإِذا عدَّيتَهُ فَهو بِمَعنى الغَضَب، تَقول: سخِطَ الله إِذا أَرادَ عِقابَهُ[3]، والَّذي يظهرُ أنَّ السُّخطَ مِن أشدِّ أنواعِ الغضبِ، وهو ناشِئٌ عنِ استقلالِ ما يُقدَّمُ لصاحبِهِ واستحقاره، فبينَ اللَّفظَتَينِ عمومٌ وخصوصٌ.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 53 - 54.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 11/314.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 114.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ٥٩﴾ [التّوبة: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربطُ اللَّمزِ في الصَّدقاتِ بالاكتفاءِ بأحكامِ اللهِ ورسولِه في كلِّ الحالاتِ

هذه الآيةُ معطوفةٌ على الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التّوبة: 58] باعتبارِ ما تفرَّعَ عليها مِن قولِه: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾، عطفًا يُنْبِئُ عنِ الحالةِ المَحمودَة، بعدَ ذِكرِ الحالةِ المَذمُومَة[1]؛ أي: ذكرتِ الآيةُ هنا ما كانَ ينبغي أن يفعلوهُ، بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السَّابقةُ قُبحَ ما فعلُوهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَسْبُنَا﴾: كافينا، يُقالُ: أحسبَني الطَّعامُ يحسبني إحسابًا؛ إذا كَفاني، ومِن ذَلك قَولهُم لِلظَّالم: حسيبُك اللّهُ؛ أَي: كافيك، وقد قِيلَ فيه: محاسبُك اللّهُ[2]، و﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: محسبُنا وكافينا، والدَّليل على أنَّهُ بمعنى المحسِبِ: قولهُم: (هذا رجلٌ حسبُك)، على أنَّه صفةٌ للنَّكرةِ؛ لكونِ الإضافةِ غيرَ حقيقيَّةٍ، وهي إضافةُ اسمِ الفاعلِ إلى معمولِه، وقولُهُ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٦﴾ [النّساء: 6]؛ أي: محاسِبًا وكافيًا[3]، ومِن ذلك قولُ امرئِ القيسِ:

فَتَملأُ بَيتَنا أَقِطًا وسَمنًا *** وحَسبُكَ مِنْ غِنًى شِبَعٌ وَرِيُّ[4]

أي: يكفيك الشَّبعُ والرِّيُّ، ومنه قولُهُ ﷻ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ٣٦﴾ [النّبأ: 36]؛ معناه: عطاءً كافيًا[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/233.
(2) الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاريّ ومسلم، ص: 338.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 398.
(4) البيتُ لامرئ القيس، ورد في ديوانه، ص: 137، ويُنظر: ابن سلّام، طبقات فحول الشعراء، ص: 81، وابن قتيبة، الشّعر والشّعراء، ص: 105، والسيوطي، شرح شواهد المغني، ص: 21.
(5) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 398.

2) ﴿رَٰغِبُونَ﴾: ذكرَ ابنُ فارس أنَّ الرَّاءَ والغينَ والباءَ أصلان: أحدُهما طلبٌ لِشيءٍ، والآخرُ سَعَةٌ في شيءٍ، فالأوَّلُ الرَّغبةُ في الشَّيءِ: الإرَادةُ لَهُ. رغِبتُ في الشَّيءِ، فإذا لم تُرِدْهُ قلتَ: رغبتُ عنه، والآخرُ الشَّيءُ الرَّغيبُ: الوَاسِعُ الجَوفِ، يُقالُ: حَوضٌ رَغيبٌ، وسِقَاءٌ رَغيبٌ، وَيُقالُ: فَرَسٌ رَغِيبٌ، والجمعُ رَغَائِبُ، والرَّغَابُ: الأرضُ الوَاسِعَةُ[1]، والرَّغبةُ: العطاءُ الكثيرُ؛ إمَّا لكونهِ مَرغوبًا فيه، فتكونُ مُشتقَّةً منَ الرَّغبةِ، وإمَّا لِسعتِهِ، فتكونُ مُشتقَّةً مِنَ الأصلِ[2]، ويمكنُ القولُ بأنَّ المادَّةَ تدورُ حولَ "قَبولِ الجوفِ رِخْوًا مُستحبًّا بكثرةٍ"[3]، ومِن ذلك الرَّغبَةُ: الحرصُ على الجمعِ، والطَّمعُ في الشَّيءِ، ورَغِب فلانٌ (فرح ورَغْبة): حَرَص على شيءٍ، وطَمِع فيه، (طلبَ أخذَهُ في حوزَتِه)، وأمَّا رَغِب عنِ الشَّيءِ: تركَهُ مُتعمِّدًا، وزَهِد فيه، فهذا المعنى يرجِعُ إلى معنى المجاوزةِ في (عن)، كأنَّه طلبَ شيئًا آخرَ مُتجاوزًا هذا، قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130][4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

لو رضيَ المنافقون بما قَسَمَ اللهُ لـهـم، وكـمـا طبَّقَهُ رسولُهُ؛ لكانَ خيرًا لَهُم

ولو أنَّ هؤلاءِ الَّذين يَعيبونَكَ في قِسمةِ الصَّدقاتِ؛ رَضوا بما قسَمَ اللّهُ ورسولُهُ لَهُم، وقالُوا: حسبُنا اللّهُ، سيُؤتينا اللّهُ من فضلِه، ويعطينا رسولُهُ ممَّا آتاهُ اللّهُ، إنَّا نرغبُ أن يُوسِّعَ اللّهُ علينا، فَيُغنينا عَنِ الصَّدقةِ، وعن صدقاتِ النَّاسِ، لو فعلوا ذلك؛ لكانَ خيرًا لهم وأجدى[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾:

الرِّضا بحُكْمِ اللهِ فيما شرعَ وأبانَ خيرٌ وأنفعُ للإنسانِ

الواو في قولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾ عاطفةٌ؛ عُطِفت هذه الآيةُ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رغب).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رغب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رغب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رغب).
(5) نخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 196.

الآيةِ السَّابقةِ، وهدفُ العطفِ أن تجمعَ لهم بينَ حالَين: حالٍ وقعُوا فيه، وهو رضاهُم عندَ العطاءِ، وسخطُهُم عندَ المنعِ، وبينَ حالٍ كانَ الأصلُ أن يفعلوهُ بأن يَرضوا في الحالَين.

معنى ﴿وَلَوْ﴾ في: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ﴾:

في حرفِ الشَّرطِ (لـو)، يمتنعُ الجوابُ لامتناعِ الشَّرطِ

(لو) حرفُ شرطٍ غير جازم، كما هو مُقرَّرٌ عندَ النُّحاةِ، حيث يعلِّقُ جوابُ شرطِه على حدوثِ فعلِ الشَّرطِ، ويدخلُ على الماضي والمُستقبلِ، ويكونُ المعنى: لو أنَّ هؤلاءِ المنافقين، كانوا راضينَ بما قَسَمَ اللّهُ لهم، وهو قسمةُ رسولِه، تطبيقًا لأحكامِ اللّهِ، وطابَت نفوسُهُم به، لكانَ خيرًا لهم، وقدِ امتنعَ جوابُ الشَّرطِ لامتناعِ فعلِه، فامتنعَ عودُ الخيريَّةِ عليهم، لِامتناعِ رضاهُم بما آتاهُمُ اللّهُ ورسولُهُ.

بلاغةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ في سياقِ الآيةِ:

الحـذفُ إيجازٌ لِلعلمِ بالمحذوفِ، والدَّلالةِ على التَّعظيمِ والتَّهويلِ

يقولُ الرَّازيُّ: واعلمْ أنَّ جوابَ ﴿وَلَوْ﴾ محذوفٌ، والتَّقديرُ: لكانَ خيرًا لهُم وأعودَ عليهم؛ وذلك لأنَّهُ غَلَبَ عليهمُ النِّفاقُ، ولَم يَحْضُرِ الإيمانُ في قُلوبِهم، فيَتَوَكَّلُوا على اللّه حَقَّ تَوَكُّلِه، وتَرْكُ الجَوابِ في هَذا المَعرِضِ أَدَلُّ على التَّعظيمِ والتَّهويلِ، وهو كَقَولِكَ لِلرَّجُلِ: لَو جِئتَنا، ثُمَّ لا تَذكُرُ الجَوابَ؛ أَي: لَو فَعَلتَ ذَلِكَ لَرَأَيتَ أمرًا عَظيمًا[1]، وإنَّما حُذِفَ جَوابُ الشَّرطِ لِلعِلمِ بِهِ مِنَ القَرينَةِ، وتَفصيلُ المَعنَى: ولَو أنَّهُم رَضوا مِنَ اللّهِ بِنعمَتِه، ومِنَ الرَّسولِ بِقسمَتِه، وعَلَّقوا أَمَلَهُم ورَجاءَهُم بِفَضلِ اللّهِ وكِفايَتِه، وما سَيُنعِمُ اللّهُ بِهِ في المُستَقبَلِ، وبِعَدلِ الرَّسولِ ﷺ في القِسمَةِ، وانتَهَت رَغبَتُهُم في هَذا وغَيرِهِ إلى اللّهِ وحدَهُ، لكانَ خَيرًا لَهُم مِنَ الطَّمَعِ في غَيرِ مَطمَعٍ، ولَمزِ الرَّسولِ المَعصومِ مِن كُلِّ مَلمَزٍ ومَهمَزٍ، صَلواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليهِ[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/76.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/422.

نكتةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾:

في قولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ﴾ جاءَ فعلُ الشَّرطِ جملةً اسميَّةً مُؤكَّدةً بـ(أنَّ)؛ لِيتناسبَ ذلكَ مع شكِّهم وقلَّةِ إيمانِهم باللّه؛ فإنَّ المؤكِّداتِ يُؤتَى بها لِلشَّاكِّ أو المُرتاب، بحسبِ مِقدارِ شكِّه، وحالُهُم هنا كما وصفَتهم الآيةُ السَّابقةُ، أنَّهُم قدِ ارتبطَ رضاهُم وسخطُهُم بما يُعطَى لَهُم، مع أنَّ الأصلَ أن يَرضوا في الحالتَين.

التَّعامُلُ مع أحكامِ الشَّرعِ تُبنَى على اليقينِ لا على الشَّكِّ

دلالةُ ﴿مَآ﴾ الموصولةِ في: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾:

(ما) في قولِه: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ﴾ موصولةٌ، وجملةُ ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾ جملةُ صلةِ الموصول، لا محلَّ لها منَ الإعراب[1]، وغرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ هنا يفيدُ التَّعميمَ والإبهامَ؛ ليشمَلَ القليلَ والكثيرَ؛ لأنَّ (ما) مِن ألفاظِ العُموم، وإنْ كانَ السِّياقُ يخصِّصُ هذا العمومَ بالصَّدقةِ أو الغَنيمةِ[2]، ويمكن حملُهُ على التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فكلُّ عطاءِ اللّهِ شأنُهُ كذلك.

حرفُ المعنى قد يفيدُ معانيَ مُتنوِّعةً بحسبِ السِّياقِ

نكتةُ تقديمِ المفعولِ بِهِ:

قولُهُ: ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ تقدَّمَ المفعولُ به، وهو الضَّميرُ العائدُ عليهم على الفاعلِ، وهو لفظُ الجلالةِ وما عُطِفَ عليه؛ وذلك لأنَّ مدارَ الحديثِ عنهُم وعن مواقفِهم وصفاتِهم، فتقديمُهُم لِلامتنانِ عليهم بحصولِ العطاءِ مِنَ اللّهِ ورسولِه.

تتلاءمُ رتبةُ اللَّفظِ في التَّركيبِ تقديمًا وتأخيرًا مع أهمِّيَّتِه في السِّياقِ

فائدةُ عطفِ لفظِ ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ على لفظِ الجلالةِ:

عطفتِ الجملةُ الرَّسولَ على لفظِ الجلالةِ، إمَّا للإشارةِ إلى أنَّ له إيتاءً خاصًّا غيرَ إيتاءِ اللّهِ، بما يؤتيهم مِنَ الغنائم، والصِّلات، والعطايا، غيرَ إيتاء اللّهِ لهم مِنَ الصَّدقاتِ، وإمَّا أن يكونَ إيتاؤُهُ لَهُم هو عينُ إيتاءِ اللّهِ تعالى لَهُم، ويكون غرضُ العطفِ المُشعِرِ

عطاءُ الرَّسولِ ﷺ مصدرُهُ نعمةُ اللّهِ وعطاؤُهُ

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/117، وصافي، الجدول: 5/396.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/174.

بالتَّغايرِ هنا الإشارةَ إلى أنَّ ما عيَّنَهُ الرَّسولُ لَهُم، هو عينُ ما عَيَّنَهُ اللّٰهُ لَهُم[1].

بلاغةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾:

الجملةُ داخلةٌ في حيِّزِ الشَّرطِ للجمعِ بينَ رضا القلبِ، ورضا القولِ

الجملةُ مَعطوفةٌ على قولِه: ﴿رَضُواْ﴾، فتكونُ داخلةً في حيِّزِ الشَّرطِ، على معنى: (فلو أنَّهم رَضوا وقالوا)، فيكونُ غرضُ العطفِ الجمعَ بينَ الرِّضا القلبيِّ، والرِّضا القوليِّ، "(وقالوا: حسبنا اللّٰهُ)، سيؤتينا اللّٰهُ مِن فضلِه، ويعطينا رسولُهُ ممَّا آتاهُ اللّٰهُ، إنَّا نرغبُ أن يوسِّعَ اللّٰهُ علينا، فيغنينا عنِ الصَّدقةِ، وعن صدقاتِ النَّاسِ، لو فعلُوا ذلك؛ لكانَ خيرًا لهم وأجدى"[2].

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عنِ الرِّضا بالقول:

جـعَـلَ مـا يـدلُّ على الرِّضا مِنَ القولِ دلالةً على الرِّضا

القولُ هنا مُرادٌ به الكلامُ مَعَ الاعتقادِ، فهوَ كِنايةٌ عنِ اللَّازمِ مَعَ جَوازِ إرادةِ المَلْزُومِ، فَإذا أضمَرُوا ذلكَ في أنفسِهم؛ فَذَلِكَ مِنَ الحالَةِ المَمدُوحَةِ، ولَكِنْ لَمَّا وَقَعَ هَذا الكلامُ في مَقابَلةِ حِكايةِ اللَّمزِ في الصَّدقاتِ، واللَّمزُ يكونُ بالكلامِ دَلالةً على الكَراهيةِ؛ جَعَلَ ما يدلُّ على الرِّضا مِنَ الكلامِ كِنايةً عنِ الرِّضا[3].

معنى قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾:

الجملةُ الاسميَّةُ إقـرارٌ بـضـرورةِ الاكـتـفـاءِ بـمـا قَسَمَ الله

وَ(حَسْبُ) اسمُ فِعلٍ بِمَعنَى كَفَى... ومَعناها: إنَّهُمُ اكتَفَوا باللّٰه ناصِرًا، وإنْ كانُوا في قِلَّةٍ وضَعفٍ[4]، ومعنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّـهُ﴾: "إنَّ اللّٰهَ كافينا، أعطانا هنا ما رَضينا به، وسيعطينا إنِ احتجْنا، وما أخذناهُ يكفينا... وفيه مِن معاني التَّفويضِ والتَّوكُّلِ على اللّٰهِ ورجاءِ ما عندَهُ ما لا تُدركُهُ إلَّا القلوبُ المؤمنةُ المتبتِّلةُ الضَّارِعةُ له ﷻ وحدَهُ"[5]، وجملة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/234.
(2) نخبة من الأساتذة، التفسير الميسر: 1/196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/234.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/170.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3342.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ دلَّت على الثُّبوتِ، وهي جملةُ مَقولِ القولِ مُكوَّنةٌ مِن مبتدأ وخبر يَصحُّ كلٌّ منهُما أن يكونَ في مَوضِعِ الآخرِ[1].

علّة فصلِ: ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾:

فُصِلَ قوله: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ عمّا سبقه؛ إمَّا لكمال اتِّصالِه به؛ لأنَّه مُفسِّرٌ لقولِهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ أو مُؤكِّدٌ لِمَضمونِه، وإمَّا لأنَّه وقعَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: (كيف سيكفيكُمُ اللّه؟).

كمالُ الاتِّصالِ والاستئنافِ البيانيّ ذاتُ أثرٍ في الإبانةِ عنِ المرادِ

نكتةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ في: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ﴾:

تقدَّمَ ضميرُهم العائدُ عليهم في قولِهم: ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾ على الفاعلِ، وهو لفظُ الجلالةِ؛ لأنَّه جاءَ في مَعرِضِ حديثِهم عن أنفسِهم، وما يحصُلُ لَهُم مِنَ المَنافعِ، وقولُهُ: ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾ هذه الجملةُ عبَّرَت عنِ اعتبارِ ما كانَ يجبُ أن يُقالَ، وذلكَ لو أنَّهُم رَضوا، ولكنَّهُم مَوصوفونَ بغيرِ ذلكَ، فهُم لَمَّازون سَاخطونَ، وليسُوا شاكرينَ أوَّابينَ، وهُم لا يَعرفونَ للّهِ وَقارًا، ولذلكَ كانَ سياقُ كلامِهم على منوالِ عادتِهم في تقديمِ الضَّميرِ الدَّالِّ على الذَّاتِ.

مَن آتاهُ اللهُ كفاهُ، ومَن أعطاهُ أغناهُ

معنى حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

في قوله: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يمكنُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ هنا ابتدائيَّةً على معنى أنَّ الإيتاءَ يبدأُ مِن فضلِ اللّه، أو تبعيضيَّةً على معنى أنَّ الإيتاءَ هو بعضُ فضلِ اللّه.

فضلُ اللهِ عطاءٌ بكمالِه، لا نهايةَ لأفضالِه

نكتةُ إضافةِ الفضلِ إلى لفظِ الجلالةِ:

قولُهُ: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾، إضافةُ الفضلِ إلى لفظِ الجلالةِ، مِن بابِ التَّشريفِ لهذا الفضلِ، وهو من إطلاقِ المصدرِ وإرادةِ المفعولِ؛ أي: المُعطَى.

فضلُ اللهِ على قدرِ تفضُّلِه، وفضلُهُ واسعٌ كريمٌ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/117.

فائدةُ مجيءِ شبهِ الجملةِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

الإيتاءُ يكونُ بفضلِ اللهِ لا باستحقاقِ البشرِ

شِبهُ الجملةِ هنا مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿سَيُؤۡتِينَا﴾؛ فهي صفةٌ مُوضِّحةٌ لهذا الإيتاءِ، وليسَت قيدًا له مفهوم مخالفة، على معنى أنْ يكونَ هناك إيتاءٌ مِن غيرِ فضلِ اللّه، ولكنَّها مِن بابِ الوصفِ المقارَنِ غالبًا لهذا الإيتاءِ.

نكتةُ عطفِ الرَّسولِ على لفظِ الجلالةِ:

عطاءُ الرَّسولِ فيضٌ مِن فيوضاتِ عطاءِ اللهِ المُتدفِّقِ

عُطِفَتِ الجملةُ ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ على لفظِ الجلالةِ؛ إمَّا للإشارةِ إلى أنَّ له إيتاءً خاصًّا مُستقلًّا غيرَ إيتاءِ اللّهِ، بما يؤتيهم مِنَ الغنائم، والصِّلاتِ، والعطايا، وإمَّا أن يكونَ إيتاؤُهُ لَهُم هو عيْنُ إيتاءِ اللّهِ تعالى لَهُم، ويكون غرضُ العطفِ المُشعِرِ بالتَّغايرِ هنا الإشارةَ إلى أنَّ ما عيَّنَهُ الرَّسولُ لهم هو عيْنُ ما عيَّنَهُ اللّهُ لَهُم.

غرضُ الحذفِ في قولِه: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾:

إيتاءُ الرَّسولِ مَدَدٌ مِن عطاءِ اللهِ المأمولِ

قولُهُ: ﴿سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ يمكنُ أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مَعطوفًا مُباشرةً على لفظِ الجلالة، وتقدَّمَ عليه شبهُ الجملةِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾؛ لبيانِ صفةِ هذا الإيتاء، وإمَّا أن يكونَ قولُهُ: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ مبتدأً، وخبرُهُ محذوفٌ إيجازًا، وتقديرُهُ: ورسولُهُ سَيُؤتينا كذلك.

الموقعُ البيانيُّ لقولِه: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾:

الفصلُ بغرضِ تعليلِ الجملةِ السَّابقةِ مِن فصيحِ البيانِ

الجملةُ مَفصولةٌ عن سابقتِها؛ لأنَّها وقعَت تعليلًا لها على سبيلِ الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لماذا نقولُ ذلكَ؟ لأنَّنا نظنُّ أنَّنا إلى اللّهِ راغبون.

نكتةُ تتابعِ المؤكِّداتِ:

الرَّغبةُ إلى اللهِ غايةُ المأمولِ، ومنتهى السُّؤلِ

أُكِّدَت فاصلةُ الآيةِ في قولِه: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ بـ(إنَّ) والجملةِ الاسميَّةِ؛ لأنَّها جاءَت لِتقرِّرَ لَهُم ما ينبغي أن يقولوهُ، ويفعلوهُ عندَ توزيعِ الصَّدقاتِ، ولِتحملَ في طيَّاتها معانيَ الأمرِ لَهُم، بأن يكونَ هذا ديدنَهم وشأنَهُم في أن يَرغبوا إلى اللّهِ لا إلى سِواهُ.

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملةِ:

تقديمُ شبهِ الجملةِ في قولِهِ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ يفيدُ القصرَ؛ أي: إلى اللّه رَاغِبونَ لا إلى غيرِهِ، والكلامُ على تقديرِ مَحذوفٍ هو المضافُ، وتقديرُهُ: إنَّا رَاغِبونَ إلى ما عيَّنَهُ اللّه لَنا، لا نَطلُبُ إعطاءَ ما ليسَ مِن حَقِّنا[1].

مَن رغِبَ إلى اللهِ لم يَلتفتْ إلى سِواهُ

غرضُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾:

دلَّتِ الجملةُ الاسميَّةُ على معنى الثَّباتِ والدَّوامِ في الرَّغبةِ إلى اللّه، والَّتي ينبغي أن يدومَ عليها حالُهُم، والجملةُ الاسميَّةُ دعوةٌ "بأن يوجِّهَ المخاطَبُ قلبَهُ إلى ربِّه، ولا يرغبُ إلَّا إليهِ في شيءٍ مِن رغائبِهِ الَّتي وراءَ كسبِهِ وحقوقِهِ الشَّرعيَّةِ"[2].

دوامُ الرَّغبةِ إلى اللهِ أمانٌ وضمانٌ واطمئنانٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/234.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/422.

﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التّوبة: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبةُ بينَ لَمْزِ المنافقينَ في الصَّدقاتِ، وتفصيلِ مصارفِها بالزَّكاةِ

يقولُ البقاعيُّ: ولمَّا أخبرَ عَن لَمْزِهم في الصَّدقاتِ، وقرَّرَ مَا هو خيرٌ لَهُم إرشادًا إلى النَّجاةِ، علَّلَ فعلَ رسولِ اللّهِ ﷺ فيها، وبيَّنَ أنَّهُ لا يَفعلُ غيرَهُ؛ لأنَّهُ الحقُّ الَّذي لا يَجوزُ في شرعِهِ الأكمَلِ غيرُهُ، لَمَزوا أو رَغِبوا، فقالَ مُعبِّرًا بأداةِ القصرِ على ما ذُكِرَ: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾؛ أي: هذا الجنسُ بجميعِ ما صَدَقَ مِن أفرادِهِ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا﴾: عرَّفَهُمُ الرَّاغبُ بأنَّهُمُ المُتَوَلُّونَ على الصَّدقةِ[2]، أو السُّعاةُ لِجبايَةِ الصَّدَقةِ، وهَؤلاءِ يُعطَونَ مِنَ الصَّدَقاتِ بِقَدرِ أُجورِ أَعمالِهِم[3].

2) ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾: الهَمزَةُ واللَّامُ والفاءُ أَصلٌ واحِدٌ، يدُلُّ على انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، وهي الأَشياءُ الكَثيرَةُ أَيضًا، وكُلُّ شَيءٍ ضَمَمتَ بَعضَهُ إلى بَعضٍ فَقَد أَلَّفتَهُ تَأليفًا[4]، و﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ هُمُ الَّذينَ تُؤَلَّفُ؛ أَي: تُؤَنَّسُ نُفوسُهُم لِلإسلامِ مِنَ الَّذينَ دَخَلوا في الإِسلامِ بِحِدثانِ عَهدٍ، أَو مِنَ الَّذينَ يَرغَبونَ في الدُّخولِ في الإِسلامِ؛ لأَنَّهُم قارَبُوا أَن يُسلِمُوا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/504.
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/85.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألف).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/236.

3) ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: الرِّقابُ جمعُ رقَبة، وهي: اسمٌ لِلعضوِ المَعروفِ، ثمَّ يُعبَّرُ بها عنِ الجملةِ، وجُعِلَ في التَّعارُفِ اسمًا للمماليك، كما عُبِّرَ بالرَّأسِ وبالظَّهرِ عنِ المَركوبِ، وفي الرِّقابِ؛ أي: المُكَاتبِين منهم، فَهُمُ الَّذين تُصرَفُ إليهمُ الزَّكاةُ[1].

4) ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾: الغَينُ والرَّاءُ والميمُ أَصلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على مُلازَمَةٍ ومُلَازَّةٍ، مِن ذَلِكَ الغَريمُ، سُمِّيَ غَريمًا لِلُزومِهِ وإِلحَاحِهِ..وغُرمُ المالِ من هَذا أَيضًا، سُمِّيَ لأَنَّهُ مالُ الغَريمِ[2]، والغارِمُونَ: المَدينُونَ الَّذينَ ضاقَت أَموالُهُم عَن أَداءِ ما عَلَيهِم مِنَ الدُّيونِ، بِحيثُ يُرزَأُ دائِنوهُم شَيئًا مِن أَموالِهِم، أو يُرزَأُ المَدينونَ ما بَقيَ لَهُم مِن مالٍ لإقامَةِ أَوَدِ الحَياةِ، فَيَكونُ مِن صَرفِ أَموالٍ مِنَ الصَّدَقاتِ في ذلكَ رَحمَةٌ لِلدَّائِنِ والمَدينِ[3].

5) ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: السَّبيلُ هو الطَّريقُ، قالَ تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: 108]، ويُعبَّرُ بِهِ عنِ المَذهَبِ، ومنهُ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [العنكبوت: 12]؛ أي: طريقتنا في ديننا[4]، وقِيلَ: المقصودُ بقولِه: ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: هُمُ المجاهدونَ في سَبيلِ اللَّهِ؛ أَي: يُصرَفُ مِن أَموالِ الصَّدَقاتِ ما تُقامُ بِهِ وسائِلُ الجِهادِ مِن آلاتٍ وحِراسَةٍ في الثُّغورِ، كُلُّ ذَلِكَ بَرًّا وبَحرًا[5].

6) ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ﴾: هو المسافِرُ: جُعِلَ ابنَ الطَّريقِ لِمُلازمتِهِ إِيَّاهُ[6]، وابنُ السَّبيلِ: الغَريبُ بِغَيرِ قَومِهِ، أُضيفَ إلى السَّبيلِ، بِمَعنَى الطَّريقِ؛ لأَنَّهُ أَولَدَهُ الطَّريقُ الَّذي أَتَى بِهِ، ولَم يَكُنْ مَولودًا في القَومِ، فلِهَذا المَعنَى أُطلِقَ عليهِ لَفظُ (ابنِ السَّبيلِ)[7].

7) ﴿فَرِيضَةً﴾: الفاءُ والرَّاءُ والضَّادُ أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تَأثيرٍ في شَيءٍ مِن حَزٍّ أو غَيرِهِ، فالفَرضُ: الحَزُّ في الشَّيءِ، يُقالُ: فَرَضتُ الخَشَبَةَ، والحَزُّ في سِيَةِ القَوسِ: فَرضٌ، حَيثُ يَقَعُ الوَتَرُ، والفَرضُ: الثُّقبُ في الزَّندِ في المَوضِعِ الَّذي يُقدَحُ مِنهُ، والمِفرَضُ: الحَديدَةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (رقب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/237.
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/237.
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/237.

التي يُحَزُّ بها، ومِنَ الباب اشتِقاقُ الفَرضِ الَّذي أَوجَبَهُ اللهُ تعالى، وسُمِّيَ بذلِكَ؛ لأنَّ لَهُ مَعالِمَ وحُدودًا[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ مصارفِ الزَّكاةِ الشَّرعيَّةِ الثَّمانيَةِ بالتَّرتيبِ حسب الأولويَّةِ

بيَّن اللهُ ﷻ أنَّ الصَّدقاتِ الَّتي يَتطلَّعُ إليها المنافقونَ، والَّتي كانُوا يلمزونَ بها المؤمنين، ينبغي أن لا تُعطَى إلَّا لِلأصنافِ الثَّمانيَةِ الَّتي ذكرتهُمُ الآيةُ، فذكرتِ الآيةُ هنا المَصارفَ الَّتي يجبُ أن تتوجَّهَ إليها الصَّدقاتُ دونَ غيرِها، فريضةً مِنَ اللهِ الَّذي يتَّصفُ بالعلمِ والحكمةِ، فيعلمُ ما يُصلِحُ شأنَ عبادِهِ، ويضعُ الشَّيءَ في مَوضعِهِ الأحقِّ بهِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

آيةُ المصارفِ استطرادٌ اعتراضيٌّ أثناءَ الحديثِ عنِ المُنافقينَ

هذه الآيةُ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وجملةِ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، وهو استطرادٌ نشأَ عن ذكرِ اللَّمزِ في ذكرِ الصَّدقاتِ أُدمِجَ فيه تَبيينُ مَصارفِ الصَّدقاتِ[2]، فهذه الآيةُ توسَّطتِ الآياتِ الَّتي تتحدَّثُ عن صفاتِ المنافقينَ ومواقفِهم المختلفةِ، جاءَت على سبيلِ الاعتراضِ الإطنابيِّ، في بيانِ حقيقةِ الوجوهِ الَّتي ينبغي أن تُنفَقَ فيها الصَّدقاتُ الَّتي لمزوا بها. ويمكنُ على معنًى مِنَ المعاني أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ بعدَ الآيةِ السَّابقةِ، تقديرُهُ: لماذا يجبُ أن يَرغبوا إلى اللهِ، ويُسلِّموا أمرَ توزيعِ الصَّدقاتِ إليهِ؟

بلاغةُ القصرِ الإضافيِّ ونوعِه:

التَّعبيرُ عن مصارفِ الزَّكاةِ بالقصرِ؛ لضبطِ مَصارفِ إنفاقِها

في قولِهِ: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفاتٍ ثمانيَةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ أي: لا ينبغي أن تُصرَفَ هذه الصَّدقاتُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرض).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/234.

إلَّا لِمَن كانَ وصفُهُ أحدَ هذه الأصنافِ الثَّمانيةِ دونَ غيرِهم، يقولُ الزَّمخشريُّ: قصرٌ لجنسِ الصَّدقاتِ على الأصنافِ المعدودة، وأنَّها مُختصَّةٌ بها لا يتجاوزُها إلى غيرِها، كأنَّه قِيلَ: إنَّما هِيَ لَهُم لا لغيرِهِم[1]، وجاءَ القصرُ هنا بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ غيرِها؛ لأنَّ هذا الأمرَ ثابتٌ مُقرَّرٌ، لا ينبغي الشَّكُّ فيه مِن قبلِ المُخاطَبينَ، وفي توجيهِهِ لِلمُنافقينَ يكونُ قصرَ قلبٍ لمعتقداتِهِم، في أنَّه ينبغي أن تكونَ هذه الصَّدقاتُ لهم.

معنى (ال) في: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ﴾:

الصَّدقاتُ لأصحابِ الحاجاتِ، كما فصَّلَ في المصارفِ المذكوراتِ

أفادَت (الـ) هنا الجنسَ؛ أي: جنسُ الصَّدقاتِ كُلِّها، ويمكن حمْلُها على العهديَّةِ في أنَّها يُرادُ بها الصَّدقاتُ الَّتي تقدَّمتِ الإشارةُ إليها بقولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ عنِ (الزَّكاةِ) بلفظِ ﴿ٱلصَّدَقَٰتُ﴾:

الزَّكاةُ صدقةٌ لِما فيها مِن معاني الصِّدقِ والإحساسِ الإنسانيِّ

يقولُ الشَّعراويُّ: ما دامَ الحقُّ ﷻ، قد حدَّدَ لها مصارفَ، فهي الزَّكاةُ، ولسائلٍ أن يَسأَلَ: لماذا لم يَقُلِ الحقُّ ﷻ: الزَّكاة، وقالَ: الصَّدقة؟

ونقولُ: ألَا ترى - في المجتمعاتِ غيرِ الإيمانيَّةِ المُلحدةِ - أنَّ مِنَ النَّاس مَنْ يفكِّرونَ في إنشاءِ مُؤسَّساتٍ اجتماعيَّةٍ لرعايةِ الفقراءِ؟ إنَّ عطْفَ الإنسانِ على أخيهِ الإنسانِ، هو أمرٌ غريزيٌّ خلقَهُ اللهُ فينا جميعًا، ولذلك كان يجبُ أن نفهمَ أنَّ الزَّكاةَ صدقةٌ، ولو لم يُشرِعْها اللهُ لكانَ يجبُ أن يُقدِّمَها الإنسانُ لأخيه الإنسانِ، وحوادثُ الكونِ كلُّها تدُلُّ على صِدقِ وصفِ الحقِّ ﷻ للزَّكاة بأنَّها صَدقةٌ؛ لأنَّها تأتي تَطوُّعًا مِن غيرِ المؤمنِ، وغيرِ المُلتزمِ بالتَّشريعِ، ويحسُّ القادرُ بالسَّعادة، وهو يعطي لغيرِ القادرِ، وهي غريزةٌ وضعَها اللهُ في خلقِهِ؛ لِيخفِّفَ مِنَ الشَّقاءِ في الكونِ[2].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/282.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5220 - 5221.

معنى اللَّامِ في: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾، اللَّامُ هنا يمكنُ أن تفيدَ معنى الاستحقاقِ أو التَّخصيصِ أو التَّمليكِ بناءً على المعاني الَّتي يمكنُ أن تُحمَلَ عليها الآيةُ، وعلى حقيقةِ القصرِ فيها، ولذلك تنوَّعَت آراءُ الفقهاءِ في معناها[1].

الفقيرُ مَن له أدنى شيءٍ، وهو مَن لا يملكُ قوتَ عامِهِ

معنى(أل) في لفظَي: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ و﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾:

الأفضلُ حملُها على الجنسِ؛ أي: جنس الأصنافِ المذكورةِ لِمَن انطبقَ عليهم هذا الوصفُ، لا أن يُرادَ بهم فئاتٌ مُحدَّدةٌ مَعروفةٌ؛ فإنَّ العِبرَةَ بعمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّببِ.

العِبرَةُ بعمومِ اللَّفظِ، لا بخصوصِ السَّببِ

الموقعُ الصَّرفيُّ لِلأصنافِ الخمسةِ:

قولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾، هذه الأسماءُ الخمسةُ، هي صفاتٌ مُشبَّهةٌ وأسماءُ فاعلين، جاءَت في حالةِ الجمعِ؛ أي: المتَّصفينَ بالفقرِ أو المَسكَنَةِ، أو العملِ عليها وغير ذلك.

تُصرَفُ الصَّدقاتُ لِلأصنافِ المذكورةِ، كما تفصِّلُهُ السُّنَّةُ المأثورةُ

نكتةُ استعمالِ الحرفِ (على) في: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾:

اختيارُ حرفِ (على) في هذا المقامِ لِما يُشعِرُ به أصلُ مَعناهُ مِنَ التَّمكُّنِ؛ أي: العامِلينَ لأجلِها عملًا قويًّا؛ لأنَّ السُّعاةَ يَتجَشَّمونَ مَشقَّةً وعملًا عَظيمًا، ولعلَّ الإشعارَ بذلِكَ لِقصدِ الإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ استحقاقِهِم مُركَّبةٌ مِن أمرَينِ: كَونُ عملِهِم لِفائدةِ الصَّدقةِ، وكَونُهُ شاقًّا، ويَجوزُ أن تكونَ (على) دالَّةً على الاستعلاءِ المَجازيِّ، وهو استعلاءُ التَّصرُّفِ، كَما يُقالُ: هُوَ عامِلٌ على المدينةِ؛ والمعنى هنا: أي: العامِلينَ لِلنَّبيِّ أو لِلخليفةِ على الصَّدقاتِ؛ أي: مُتَمَكِّنينَ مِنَ

لِلعامِلينَ على الزَّكاةِ الثَّمن منها، لِما يَتجشَّمونَهُ مِن مَشقَّةٍ

(1) الفقراءُ والمساكينُ في هذه الآيةِ صنفانِ مُتفاوتانِ، فالفقيرُ أشدُّ حاجةً مِنَ المسكينِ، لأنَّ اللهَ بدأَ بهم، ولا يبدأُ إلَّا بالأهمِّ فالأهمِّ، ففُسِّرَ الفقيرُ بأنَّه الَّذي لا يجدُ شيئًا، أو يجدُ بعضَ كفايتِهِ دونَ نصفِها. والمسكينُ: الَّذي يجدُ نصفَها فأكثر، ولا يجدُ تمامَ كفايتِهِ، لأنّه لو وجدَها لكانَ غنيًّا، فيعطون مِنَ الزّكاةِ ما يزولُ به فقرُهُم ومَسكَنَتُهُم. ينظر: السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 341.

العملِ فِيها[1]، ولا شكَّ أنَّ حرفَ الاستعلاءِ فيهِ توجيهٌ لِلعاملِينَ عليها بضرورةِ التَّمكُّنِ منها والسَّيطرةِ على مَداخلِها ومَخارجِها؛ لأنَّها حقٌّ للَّهِ في مالِ الأغنياءِ، ويُعطى لِلمُستحقِّينَ.

نكتةُ بناءِ ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾:

الإسلامُ تأليفُ قلوبٍ، لا إخضاعُ جوارح

بُني قولُهُ: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ﴾على المفعولِ، و﴿قُلُوبُهُمۡ﴾نائبُ فاعلٍ؛ وذلك لأنَّ الفاعلَ مَعروفٌ مُقرَّرٌ، فاللّه تعالى يقولُ: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 63]؛ فحذْفُ الفاعلِ للإيجازِ، وللانشغالِ بهذهِ الصِّفةِ دونَ النَّظرِ لِمَن وصفَهُم بها.

نكتةُ العدولِ مِن استعمالِ اللَّامِ إلى استعمالِ (في):

تغايرُ استعمالِ الحروفِ، يدلُّ على قوَّةِ استحقاقِ كلِّ صنفٍ منهم

ذكر صاحبُ (إعراب القرآنِ وبيانه) في قولِه تعالى: ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾: أنّه عدلَ عنِ (اللَّام) إلى (في) في الأربعة الأخيرة، وذلك لسرٍّ يخفى، وهو أنَّ الأصنافَ الأربعةَ الأوائلَ - وهُمُ الفقراءُ، والمساكينُ، والعاملونَ عليها، والمؤلَّفةُ قلوبهم - مُلَّاكٌ لما عساهُ يَدفعُ إليهم، فكانَ دخولُ اللَّامِ لائقًا بهم، وأمَّا الأربعةُ الأواخرُ فلا يملِكونَ ما يُصرَفُ نحوهم، بل ولا يُصرَف إلى أيديهم ولكن يُصرف في مَصالحَ تتعلَّقُ بهم، فالمالُ الَّذي يُصرَفُ (في الرِّقاب) إنَّما يتناوَلُهُ السَّادةُ المُكاتبونَ والبائِعونَ، فلَيسَ نَصيبُهُم مَصروفًا إلى أيديهم، حتَّى يُعَبَّرَ عن ذلكَ باللَّامِ المُشعِرَةِ بتملُّكِهم لِمَا يُصرَفُ نحوَهُم، وإنّما هُم مَحالٌّ لِهذا الصَّرفِ والمصلحة المتعلِّقة به، وكذلك (الغارمون) إنَّما يُصرَفُ نَصيبُهُم لِأربابِ دُيُونِهم تخليصًا لِذِمَمِهِم لا لَهُم، وأمَّا ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فواضحٌ فيه ذلك، وأمَّا ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ فكأنَّهُ كانَ مُندرِجًا في سبيلِ اللّهِ، وإنَّما أُفرِدَ بالذِّكر تنبيهًا على خُصُوصيَّتِهِ[2][3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/236.

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/4436.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/118 - 119، ويُنظر: محمد رضا، تفسير المنار: 10/4436.

وقد ذكرَ الزَّمخشريُّ نكتةً أخرى لهذا العدولِ في استعمالِ الحرفَين، فقال: "فإنْ قلتَ: لمَ عدلَ عن اللّامِ إلى (في) في الأربعةِ الأخيرةِ؟ قلتُ: للإيذانِ بأنَّهُم أرسخُ في استحقاقِ التَّصدُّقِ عليهم ممَّن سبقَ ذكرُهُ؛ لأنَّ (في) للوعاءِ، فنبَّهَ على أنَّهُم أحقَّاءُ بأن تُوضعَ فيهم الصَّدقاتُ، ويُجعلوا مظنَّةً لها ومَصبًّا، وذلك لِما في فكِّ الرِّقابِ مِنَ الكتابةِ أو الرِّقِّ أو الأسرِ، وفي فكِّ الغارمينَ مِنَ الغُرمِ مِنَ التَّخليصِ والإنقاذِ، ولجمعِ الغازي الفقيرِ أو المُنقَطِعِ في الحجِّ بينَ الفقرِ والعبادةِ، وكذلك ابنُ السَّبيلِ جامعٌ بينَ الفقرِ والغربةِ عنِ الأهلِ والمالِ"[1].

نكتةُ حذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مكانَهُ في ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾:

الإسلامُ صفَّى نظامَ الرِّقِّ تدريجيًّا، وشجَّعَ على تحريرِ العبيدِ

قولُهُ: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ هناك مضافٌ محذوفٌ لدلالةِ المضافِ إليه عليه، وهو (فكُّ)، وتقديرُهُ: (وفي فكِّ الرِّقابِ)، وحذفُهُ للإيجازِ. "ونقولُ: لم يأتِ الإسلامُ بالرِّقِّ؛ لأنَّ الرِّقَّ كانَ موجودًا قُبيلَ البعثةِ المحمَّديَّةِ، وجاءَ الإسلامُ بالعتقِ ليُصفّى الرِّقُّ، فجعلَ من فكِّ الرَّقبةِ كفَّارةً لبعضِ الذُّنوبِ، وجعلَ من مَصارفِ الزَّكاةِ عتقَ العبيدِ، وقد نَزَلَ القرآنُ وقتَ أن كانَت منابعُ الرِّقِّ مُتعدِّدَةً"[2].

نكتةُ عدمِ تَكرارِ ﴿وَفِى﴾:

التَّلميحُ إلى أنَّ (سبيل الله) أوكدُ في استحقاقِ الصَّدقةِ

يقولُ الزَّمخشريُّ: وتكريرُ (في) في قولِهِ: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾، فيه فضلُ ترجيحٍ لهذين على الرِّقابِ والغارِمينَ[3]، ومعنى كلامِهِ أنَّ الكلامَ كانَ يمكنُ أن يكونَ: وفي الرِّقابِ والغارِمينَ وسبيلِ اللهِ وابنِ السَّبيلِ، فلمَّا جيءَ بـ (في) مرَّةً ثانيةً، وفُصلَ بها بينَ الغارِمينَ وبينَ سبيلِ اللهِ، عُلِمَ أنَّ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أوكدُ في استحقاقِ النَّفقةِ.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/283.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5223.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/283.

نكتةُ عطفِ ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ على: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

يُصرَفُ لابنِ السَّبيلِ مِنَ الزَّكاةِ، ولو كانَ غنيًّا في بلادِهِ

قالَ الآلوسيُّ: وأمَّا ابنُ السَّبيلِ فكأنَّهُ كانَ مُندرجًا في سبيل اللّه، وإنَّما أُفرِدَ بالذِّكرِ تنبيهًا على خصوصيَّتِهِ مع أنَّهُ مُجرَّدٌ مِنَ الحرفَينِ جميعًا[1]، ويُعمَّمُ في ذلك الحكم، فابنُ السَّبيل هو كلُّ غريبٍ صادفَتْهُ ظروفٌ صعبةٌ، ولا يجدُ ما يعودُ به إلى بلدِهِ[2]، فالمفروضُ أن تُمدَّ له يدُ المعونةِ، ولو كان غنيًّا في بلدِهِ؛ لأنَّه ربَّما انقطعَت به السُّبلُ، ولا مالَ لهُ، فلا معنى لِغناهُ في بلدِهِ، إذا كانَ لا يملِكُ ما يُنفقُ، في مكانِ إقامتِهِ في حالِ سفرِهِ.

نكتةُ إفرادِ ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾:

إفرادُ ابنِ السَّبيلِ يدلُّ على مصاعبِ غربتِهِ

جاءَ ابنُ السَّبيلِ في قولِهِ: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ مُفردًا دونَ بقيَّةِ الأصنافِ في الآيةِ الكريمةِ، وقد علَّلَ ابنُ عرفةَ ذلك بقولِهِ: فإنْ قلتَ: لِمَ جمعَ الكلَّ، وأفردَ ابنَ السَّبيلِ؟ قلْنا: لِكثرتِهِم باعتبارِ الوجودِ الخارجيِّ، وقلَّةِ ابنِ السَّبيلِ[3]. ويقولُ الآلوسيُّ: ابنُ السَّبيلِ؛ أي: المُسافرُ - كما قالَهُ مجاهد - وسُمِّي بذلكَ لِمُلازمتِهِ الطَّريقَ في السَّفرِ أو لأنَّ الطَّريقَ تبرزُهُ، فكأنَّها ولدَتْهُ، وكأنَّ إفرادَهُ لانفرادِهِ عن أحبابِهِ ووطنِهِ وأصحابِهِ، فهو أبدًا يَتوقُ إلى الجمعِ، ويَشتاقُ إلى الرَّبعِ، والكريمُ يحنُّ إلى وطنِهِ حنينَ الشَّارفِ إلى عَطَنِهِ، أو لأنَّه لمَّا لم يكُنْ بينَ أبناءِ السَّبيلِ والمُعطيَ تَعارُفٌ غالبًا، يَهُونُ أمرُ الإعطاءِ، ويرغبُ فيه أفرادُهم لِيهونَ أمرُ إعطائِهِم، ولِيشيرَ إلى أنَّهم وإنْ كانُوا جمعًا ينبغي أن يُعتَبروا كنفسٍ واحدةٍ، فلا يضجرُ مِن إعطائِهِم لِعدمِ مَعرفتِهِم، وبُعدِ مَنفعتِهِم، فَلْيُفهَمْ[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/180.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5228.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/210.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/443 - 444.

استعمالُ المجازِ في السِّياقِ، يزيدُ الصُّورةَ جمالًا ووضوحًا

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾:

إضافةُ الابنِ هنا للسَّبيلِ مجازيَّةٌ؛ حيثُ شبَّهتِ الآيةُ السَّبيلَ بالأمِّ الَّتي تَلِدُ بجامعِ المُلازمةِ وعدمِ المفارقةِ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّخييليَّةِ.

دلَّ التَّرتيبُ في ذكرِ الأصنافِ الثَّمانيةِ على تقديمِ الأهمِّ فالأهمِّ

بلاغةُ التَّرتيبِ بينَ الأصنافِ الثَّمانيةِ:

يقولُ صاحبُ (تفسير المنار): "والتَّرتيبُ في هَذِهِ الأَصنافِ لِبَيانِ الأَحَقِّ فالأَحَقِّ لِلصَّدَقاتِ، على القاعِدَةِ الغالِبَةِ عِندَ فُصَحاءِ العَرَبِ في تَقديمِ الأَهَمِّ فالأَهَمِّ على ما دونَهُ في المَوضوعِ، وإِنْ كانَتِ الواوُ لا تُفيدُ التَّرتيبَ في مَعطوفاتِها، فالفُقَراءُ والمَساكينُ أَحَقُّ مِن غَيرِهِم بِهَذِهِ الصَّدَقاتِ؛ لأَنَّهُمُ المَقصودونَ بها أوَّلًا وبالذَّاتِ، بِدَليلِ الحَديثِ المُتَقَدِّمِ: «**تُؤخَذُ مِن أغنيائِهِم**، فَتُرَدُّ في فُقَرائِهِم»، ويَليهِمُ العامِلونَ عليها؛ لأَنَّهُم هُمُ الَّذينَ يَقومونَ بِجَمعِها وحِفظِها، وقالَ بَعضُ الفُقَهاءِ: إِنَّهُم أَوَّلُ مَن يُعطَى عُملَتَهُ مِنها إِلَّا إِذا كانَ لَهُم رَواتِبُ مِن بَيتِ المالِ، أَو رَأى وليُّ الأَمرِ إِعطاءَهُم عمالَتَهُم مِنهُ، ويَليهِمُ المُؤَلَّفَةُ قُلوبُهُم عِندَ الحاجَةِ إِلَيهِم، وهُم يُعطَونَ مِنَ الغَنائِمِ أَيضًا، فالحاجَةُ إِلَيهِم عارِضَةٌ لا كالعامِلِينَ على الصَّدَقاتِ، ويَليهِم مَصلَحَةُ فَكِّ الرِّقابِ والعِتقِ، وهيَ المَصالِحُ مِنَ الاجتِماعيَّةِ الكَماليَّةِ لا الضَّروريَّةِ، فإِنَّ تَأخيرَها لا يُرهِقُ مَعوزًا كالفَقيرِ، ولا يُضَيِّعُ مَصلَحَةً تَشتَدُّ الحاجَةُ إِلَيها كَتأليفِ القُلوبِ، ويَليها مُساعَدَةُ الغارِمِ على الخُروجِ مِن غُرمِهِ، فَهوَ دونَ مُساعَدَةِ الرَّقيقِ على الخُروجِ مِن رِقِّهِ، ويَليهِمُ المَصلَحَةُ العامَّةُ المُعَبَّرُ عنها بِسَبيلِ اللَّهِ، فهيَ مِن قَبيلِ العامِّ الَّذي يُرادُ بِهِ ما وراءَ ذَلِكَ الخاصِّ مِمَّا قَبلَها الَّذي تَكثُرُ الحاجَةُ إِلَيهِ، وأَمَّا ابنُ السَّبيلِ فهو دونَ جَميعِ ما قَبلَهُ لِنُدرَةِ وُجودِه"[1].

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/436.

دلالةُ الموقعِ النَّحويِّ والصَّرفيِّ لقولِه: ﴿فَرِيضَةٗ﴾:

معنى (فريضة) على وزنِ (فعيلة) بمعنى (مَفعولة)؛ أي (مَفروضة)

قولُهُ: ﴿فَرِيضَةٗ﴾ هنا مَفعولٌ مطلقٌ لفعلٍ محذوفٍ؛ أي: فرضَ اللّهُ ذلك فريضةً، ويجوزُ إعرابُها حالًا مِنَ الفقراءِ ومَن بعدَهُم؛ أي: إنَّما الصَّدقاتُ كائنةٌ لهم حالَ كونِها فريضةً، وهي فعيلةٌ بمعنى مَفروضة، وإنَّما دخلَتها التّاءُ، وحقُّها أن يَستويَ فيها المذكَّرُ والمؤنَّثُ؛ لِجريانِها مَجرَى الأسماءِ كالنَّطيحةِ[1].

معنى ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾:

كلُّ ما فرضَهُ اللّهُ رحمةٌ وحكمةٌ ونفعٌ

﴿مِّنَ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ على معنى أنَّ هذه الفريضةَ ابتدأَت مِنَ اللّه، ومَوقعُ شبهِ الجملةِ هنا على أنّها صفةٌ لِلفريضةِ، و"هذا التَّشريعُ، هو فرضٌ مُحكَمٌ فرضَهُ اللّهُ على المُسلمينَ، وأوجبَ عليهم أداءَهُ، على هذا الوجهِ الَّذي شرعَهُ"[2].

معنى الواو في: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾:

علمُ اللهِ وحكمتُهُ، يُعطي اليقينَ بصلاحيَّةِ أحكامِهِ لِمقاصدِهِ

الأظهرُ أن تكونَ الواو هنا لِلحالِ على معنى: أنَّ ما تقدَّمَ مِن توزيعِ أنصبةِ الزَّكاةِ كانَ فريضةً مِنَ اللّه، والحالُ أنَّهُ عليمٌ فيما يُصلِحُ أحوالَكُم، حكيمٌ في تقديرِ هذه الأنصبةِ، يضعُ الشَّيءَ في مَوضِعِهِ.

نكتةُ التَّذييلِ بـ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾:

إتمامُ الخطابِ بشمولِ علمِهِ بالمَصارفِ، وعلوِّ حكمتِهِ بأحكامِهِ

التَّذييلُ بصفةِ العلمِ ناسبَ علمَهُ ﷻ بما يُصلِحُ شأنَ عبادِهِ، وعِلمَه بما يَلمزُ بهِ المنافقونَ في شأنِ الصَّدقاتِ، وأمَّا صفةُ الحكمةِ فهي الأليقُ بتقسيمِ الصَّدقاتِ إلى ثمانيةِ أقسامٍ جاءَت وَفقَ هذا التَّرتيبِ.

نكتةُ تقديمِ العلمِ على الحكمةِ وتنكيرِهِما:

العلمُ والحكمةُ صفتان لله تمثِّلانِ كمالَ الوصفِ، وروعةَ الإيجازِ

تتقدَّمُ صفةُ العلمِ على صفةِ الحكمةِ في أغلبِ مَواضِعِ اقترانِهما

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/118.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/820.

في القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ العلمَ يسبقُ الحكمةَ، ويتقدَّمُ عليها، والحكمةُ لا تكونُ إلَّا وفقَ علمِ اللهِ الأزليِّ، ونذكرُ هنا أيضًا تنكيرَ الاسمَين الجليلَين، وقد أفادَ تنكيرُ هذَين الاسمَين هنا معانيَ التَّعظيمِ لِلعليِّ العظيمِ.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ [التّوبة: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ بيانِ اللَّمزِ في الصَّدقاتِ، ومَصارفِ أدائِها، نـدَّدَ بمَن يُؤذي رسولَهُ

يقولُ البقاعيُّ: ولمّا بيَّنَ الصِّنفَينِ السَّالفَينِ، وختَمَ أمرَهُما بصفتَي العلمِ والحكمة، أتبَعَهُما بصنفٍ آخرَ يُؤذي بما يَجعَلُهُ نَقصًا في صِفاتِ الرَّسولِ ﷺ، فَلْيَزَمُ الطَّعنَ في عِلمِ مُرسلِهِ وحِكمَتِهِ فقالَ: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾؛ أي: الّذي أعلى اللّهُ مِقدارَهُ، فَهو يُنبِئُهُ بما يُريدُ سبحانَهُ مِن خَفايا الأسرارِ[1]. فالآيةُ هنا مَعطوفةٌ على ما سبقَها مِن صفاتِ المنافقينَ ومَواقِفِهم مِن عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، فهي مَعطوفةٌ على قولِهِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، وآيةُ مَصارفِ الزَّكاةِ الَّتي توسَّطَت بينَ الآيتَينِ كانَتِ اعتراضًا كما تقدَّمَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤْذُونَ﴾: مِنَ الأذى، وهوَ الشَّيءُ تَتَكَرَّهُهُ، وَلا تَقِرُّ عليهِ، تَقولُ: آذَيتُ فُلانًا أوذِيهِ، ويُقالُ: بَعيرٌ أَذٍ وَنَاقَةٌ أَذِيَةٌ؛ إذا كانَ يَقِرُّ في مَكانٍ مِن غيرِ وَجَعٍ، وكأَنَّهُ يَأذَى بِمَكانِهِ[2]. والأذى عندَ الرَّاغبِ: ما يَصِلُ إلى الحيوانِ مِنَ الضَّررِ، إمَّا في نفسِهِ أو جسمِهِ أو تَبعاتِهِ دُنيَويًّا كانَ أو أُخرَويًّا[3].

2) ﴿أُذُنٌۚ﴾: الهَمزَةُ والذَّالُ والنُّونُ أَصلانِ مُتَقارِبانِ في المَعنَى، مُتَباعِدانِ في اللَّفظِ، أَحَدُهُما أُذُنُ كُلِّ ذي أُذُنٍ، والآخَرُ العِلمُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/508.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذي).
(3) الرّاغب، المفردات: (أذى).

وعَنهُما يَتفرَّعُ البابُ كُلُّه، فأمَّا التَّقارُبُ فبالأُذُنِ يَقَعُ عِلمُ كُلِّ مَسموعٍ. وأمَّا تَفرُّعُ البابِ فالأُذُنُ مَعروفةٌ مُؤَنَّثةٌ. ويُقالُ لِذي الأُذُنِ: آذَنُ، ولِذاتِ الأُذُنِ: أذناءُ، ويُقالُ لِلرَّجُلِ السَّامِعِ من كُلِّ أَحدٍ: أُذُنٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ﴾ [التَّوبة: 61][1]، والأذنُ الجارحةُ يُعبَّرُ بها عمَّن كَثُرَ استماعُهُ وقَبولُه لِما يُقالُ لهُ. فيُقالُ: فلانٌ أذنُ خيرٍ لكُم؛ أي: يقبلُ مَعاذيرَكم، ويصفحُ عن مُسيئِكُم، كأنَّهُم يَقولونَ: إذا بلغَهُ عنَّا ما يكرهُهُ؛ حَلفنا لهُ، فَيَقبَلُنا، فإنَّما هو أُذُنٌ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ومِن هؤلاءِ المنافقين: قومٌ يُؤذونَ النَّبيَّ ﷺ فيقولونَ عنهُ: إنَّهُ كثيرُ السَّماعِ والتَّصديقِ لكلِّ ما يُقالُ لهُ بدونِ تمييزٍ بينَ الحقِّ والبَاطِلِ، وقولُهُ: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾ ردٌّ عليهم بما يُخرِسُ ألسنتَهُم، ويُكبتُ أنفسَهُم، والمعنى: قُلْ لهم يا محمَّدُ على سبيلِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ: سلَّمنا كما تَزعمونَ أنِّي كثيرُ السَّماعِ والتَّصديقِ لِما يُقالُ، لكنَّ هذه الكثرةَ ليسَت لِلشَّرِّ والخيرِ بدونِ تمييزٍ، وإنَّما هي لِلخيرِ، ولِما وافقَ الشَّرعَ فحسب[3].

النَّبيُّ أُذُنُ خيرٍ، وقُدوةُ هدايةٍ، ومَن آذاه ذاقَ العذابَ الأليمَ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

هذه الآيةُ معطوفةٌ بحرفِ الواوِ، لكنَّها ليسَت معطوفةً على الآيةِ السَّابقةِ، لِعدمِ تعلُّقِها المباشِرِ بها، ولكنَّها معطوفةٌ على قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، أو إنَّها معطوفةٌ على أحوالِ المُنافقينَ الَّذين أكثرت السُّورةُ مِن ذكرِها، وهو كما يُسمَّى مِن عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ.

تجلِّي ملامحِ التَّعبيرِ الفنِّي في السِّياقِ في عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أذن).
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أذن).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/333.

معنى الحرفِ (من) في: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

إيذاءُ النَّبيِّ الأكرمِ نكرانٌ لِنعمةِ اللهِ ببعثتِهِ

أفادَتْ (من) هنا معنى التَّبعيضِ؛ أي: بعضُهم مَن فعلَ ذلك، ويؤيِّدُ ذلك أنَّ السَّورةَ الكريمةَ فَصَّلَت في أحوالِهم وأنواعِهم إزاءَ المَواقِفِ المختلفةِ، ويقصدُ أنَّ "مِنَ المنافقينَ جماعةً يَتعمَّدونَ إيذاءَ النَّبيِّ عليه السلام، فيتَّهمونَهُ بأنَّه يَسمعُ مِن كلِّ أحدٍ ما يقولُه، ويُصدِّقُه، وأنَّهُ يُخدَعُ بما يَسمَعُ"[1].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾:

الوصفُ بإيذاءِ النَّبيِّ تلويحٌ بفعلِهِمُ القبيحِ

الاسمُ الموصولُ (الَّذي) مبتدأٌ مُؤَخَّرٌ، و﴿يُؤۡذُونَ﴾ جملةُ صلةِ الموصولِ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وشبهُ الجملةِ ﴿وَمِنۡهُمُ﴾ خبرٌ مُقدَّمٌ أو مُتعلِّقةٌ بخبرٍ مُقدَّمٍ، والغرضُ البيانيُّ مِن مجيءِ الاسمِ الموصولِ هو الذَّمُّ والتَّحقيرُ لَهُم.

غرضُ تقديمِ الخبرِ الجارّ والمجرور ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾:

تقدُّمُ ضميرِ المنافقينَ لِتخصيصِهِم بالنَّعيِ والذَّمِّ

تقدُّمُ الخبرِ على المبتدأِ هنا لإبرازِ مَواقفِ المنافقينَ وفضائِحِهم في السُّورةِ الكريمةِ، فمَدارُ الاهتمامِ في التَّقديمِ؛ لأجلِ أنَّ السِّياقَ الطَّويلَ الَّذي جاءَت فيه الآيةُ، إنَّما هو في الحديثِ عنهُم، وعن مَواقفِهِم وأصنافِهِم وسائرِ أحوالِهِم، فقدَّمَ الضَّميرَ العائدَ عليهم؛ لأنَّهم مدارُ الكلامِ ومناطُهُ، ويمكنُ أن يكونَ تقديمُها مُفيدًا لِلتَّخصيصِ على معنى أنَّ مَن يفعلُ هذا الفعلَ القبيحَ منهم لا مِن غيرِهِم.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعيَّةِ في جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿يُؤۡذُونَ﴾:

أهمِّيَّةُ الفعلِ المضارعِ في الاستحضارِ أو التَّجدُّدِ أو هما معًا

التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ على أمرٍ قد مضى في أذاهُم للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إنَّما يفيدُ أوَّلَ ما يفيدُ استحضارَ صورتِهم القبيحةِ، وتصويرَها للقارئِ كأنَّها رأيُ عينٍ، فضلًا عن أنَّ مِن أغراضِها الأخرى بيانَ استمراريَّةِ هذا الأذى، مِن قِبَلِ المنافقينَ في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ، حتَّى

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/148.

مَعَ النَّبيِّ ﷺ، مِن خلالِ ذمِّهِ ومحاربةِ سنَّتِهِ وأوليائِه، بدليلِ أنَّهُ قالَ بعدَها: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾، فعبَّرَ بالمضارعِ في زمانِ قولِهِم.

معنى(أل) في لفظِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

الأذيَّةُ باللِّسانِ مِن أشقِّ ما يتحمَّلُهُ الإنسانُ

أفادَت (أل) هنا العهدَ الصَّريحَ، والمُرادُ به النَّبيُّ ﷺ؛ لِتقدُّم ذكرِهِ في قولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، وفي السِّياق تصريحٌ بكونهم "استمرُّوا على إيذاء النَّبيِّ ﷺ بأقوالٍ كاذبةٍ، ويفتُّونَ في عَضُدِ الجماعةِ الإسلاميَّة، ويَشيعونَ فيها بما يفرِّقُها، ويَرجعون بالقولِ، فإذا تَسامعَ النَّاسُ بها، وعلموا أنَّها وصلَت إلى مَسامعِ النَّبيِّ ﷺ لا يُبالونَ، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾"[1].

نكتةُ الإظهارِ في مَوضِعِ الإضمارِ في لفظِ ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾:

عَمِلَ السِّياقُ على إبرازِ شناعةِ القولِ، والتَّعريضِ ببشاعةِ الفريةِ

كانَ مُقتضى الظَّاهرِ أن يُقالَ: (ومِنهُمُ الَّذينَ يُؤذُونَكَ)، فَعَدَلَ عنِ الإضمارِ إلى إظهارِ وصفِ النَّبيِّ؛ للإيذانِ بشناعةِ قولِهِم، ولِزيادةِ تنزيهِ النَّبيِّ بالثَّناءِ عليه بوصفِ النُّبوَّةِ، بحيثُ لا تُحكى مقالَتُهم فيهِ إلَّا بعدَ تقديمِ ما يُشيرُ إلى تنزيهِهِ، والتَّعريضِ بِجُرمِهِم فيما قالُوهُ[2].

معنى (الواو) في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ﴾:

أهمِّيَّةُ السِّياقِ في كونِهِ عَطفًا لِلخاصِّ على العامِّ

الواو هنا عاطفةٌ، عطفَتِ الخاصَّ على العامِّ؛ فإنَّ قولَهُم: هو أذنٌ، ما هو إلَّا بعضُ أذاهُم، لكنَّ عطفَ الخاصِّ على العامِّ، يكونُ لِلإشادةِ بالخاصِّ، بإنزالِ التَّغايرِ العنوانيِّ مَنزِلَةَ التَّغايرِ الذَّاتيِّ؛ فقولُهُم هذا هو مِن أشدِّ الأذى بحقِّ النَّبيِّ ﷺ.

بلاغةُ الكنايةِ والمَجازِ المُرسَلِ في قولِهِ: ﴿هُوَ أُذُنٌۚ﴾:

أرادُوا بقولِهِم هذا الإخبارَ بأنَّه آلةُ سَمعٍ، فهو يُصدِّقُ كلَّ ما يَسمعُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3350.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/241.

مِن دونِ تمييزٍ بينَ المقبولِ والمردودِ، فهي كنايةٌ عَن صفةٍ، ويمكنُ أن تكونَ مَجازًا مُرسَلًا حيثُ أطلقَ الجزءَ، وأرادَ الكُلَّ، أو مجاز مرسل علاقتُهُ الإطلاقُ والتَّقييدُ؛ إذ إنَّه أبطلَ أن يكونَ (أُذُنٌ) بالمعنى الّذي أَرادوُهُ مِنَ الذَّمِّ؛ فإنَّ الوصفَ بالأُذنِ لا يَختصُّ بمَن يَقبَلُ الكلامَ المُفضيَ إلى شَرٍّ، بل هُوَ أعمُّ مِن ذلكَ، فَلِذلكَ صَحَّ تَخصيصُهُ هنا بِما فيهِ خَيرٌ، وهذا إعمالٌ في غيرِ المُرادِ منهُ[1].

وَصفُ المنافقينَ النَّبيَّ بأنَّه أُذُنٌ مِنَ التَّطاولِ المقيتِ

بلاغةُ التَّشبيهِ البليغِ في: ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾:

يُسمَّى هذا التَّشبيهُ في علمِ البيانِ بحسبِ ما استقرَّ عليهِ رأيُ المتأخِّرينَ بالتَّشبيهِ البليغِ؛ وذلكَ لِحذفِ أداةِ التَّشبيهِ ووجهِ الشَّبهِ، فهو أبلغُ مِن ذكرِهما؛ لأنَّهُ يجعلُ المُشبَّهَ كأنَّهُ عينُ المُشبَّهِ بهِ دونَ حاجزٍ بينَهُما، ووجهُ الشَّبهِ تَذهَبُ النَّفسُ في تقديرِهِ هنا كلَّ مَذهَبٍ، فقد يكونُ باجتماعِ المُشبَّهِ بالمُشبَّهِ بهِ في سرعةِ النَّقلِ والتَّمريرِ، أو بعدمِ الإفادةِ ممَّا يُسمَعُ؛ لِكونِهما آلةَ نقلٍ فقط.

التَّشبيهُ بالأُذنِ مِنَ المنافقينَ، كانَ لِلذَّمِّ والقدحِ المهينِ

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿أُذُنٞ﴾ في سياقِ الآيةِ:

أفادَ تنكيرُ ﴿أُذُنٞ﴾ على لسانِ المنافقينَ الذَّمَّ والتَّحقيرَ لِمقامِ البشيرِ النَّذيرِ، وهُم قدِ استصغروا هيبةَ النُّبوَّةِ، وازدروا صاحبَها في سَفهٍ ولجاجةٍ وسُوءِ أدبٍ، واتَّهمُوهُ بأنَّهُ "يَسمَعُ كلَّ ما قِيلَ مِن غيرِ أن يتدبَّرَ فيهِ، ويُميِّزَ بينَ ما يَليقُ بالقَبُولِ، لِمُساعدةِ أَماراتِ الصِّدقِ لَهُ، وبينَ ما لا يَليقُ بهِ، وإنَّما قالُوهُ؛ لأنَّه ﷺ كانَ لا يُواجِهُهم بِسُوءِ ما صَنَعُوا، ويَصفَحُ عنهُم حِلمًا وكَرَمًا، فَحَمَلُوهُ على سَلامَةِ القلبِ، وقالُوا ما قالُوا"[2].

إيذاءُ النَّبيِّ والتَّعريضُ به، نكسةٌ لِلعقلِ، ونكبةٌ لِلضَّميرِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِم: ﴿هُوَ أُذُنٞ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ بزعمِهِم، معنى الثَّباتِ والدَّوامِ؛

الرَّسولُ لم يكُنْ أُذُنًا، وقد كانَ مُنزَّهًا بالعصمةِ عن كُلِّ نقيصةٍ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/182 - 183، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/242.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.

فشأنُه ثابتٌ مُستقرٌّ على هذا الوصفِ لا يَنزاحُ عنهُ، "وإنَّما قالُوا ذلكَ؛ لأنَّه كانَ ﷺ، يعاملُهُم بأحكامِ الشَّريعةِ، كما يُعامِلُ عامَّةَ المؤمنينَ بالبناءِ على الظَّاهرِ"[1]، وقد كانَت أخلاقُه جميلةً، وشمائلُهُ جليلةً، وكانَت مُلازِمةً له في كُلِّ مَراحلِ عمرِه، وما حادَ عنها، ولا بدَّلَها تبديلًا، فكانَ ظاهرُهُ كباطنِه، ومعاملاتُهُ لا تصنُّعَ فيها، ولا تكلُّفَ، فتوهَّموا أنَّهُ كما وَصفُوهُ، ولكن حاشاهُ أن يكونَ كذلك.

الرَّسولُ الكريمُ أُذُنُ خيرٍ وهدًى لِلعالَمينَ على المَدَى

نكتةُ الفصلِ في: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾:

الجملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا على طريقةِ المقاولةِ والمُحاورةِ؛ لإبطالِ قولِهم بقلبِ مَقصدِهِم إغاظةً لهم، وكمدًا لِمَقاصدِهِم، والجملةُ ردٌّ على ما قالُوهُ بأفواهِهِم، ولاكوهُ "كما تلوكُ الكلابُ قِطَعًا مِنَ العظمِ الرَّميمِ..فكانَ ذلك فَضحًا لَهُم على الملأِ، وخزيًا مُتنقِّلًا معَهُم في كلِّ مَكانٍ، يُنادَى عليهم بالذِّلَّةِ والمَهانةِ والصَّغارِ"[2].

فحوَى البَلاغِ الدَّقيقِ لِلمُنزَلِ على مَنْ هو بِهِ حقيقٌ

دلالةُ الأمرِ بالفعلِ ﴿قُلۡ﴾:

أفادَ الأمرُ هنا العنايةَ بمضمونِ ما يأتي بعدَهُ، وهو أسلوبٌ يكثُرُ في القرآنِ الكريمِ، يهدفُ إلى أنْ يتولَّى النَّبيُّ ﷺ الأمرَ بنفسِه، لا أنْ يَكِلَهُ لِغيرِهِ، وهذا يدلُّ على مدى عنايةِ القرآنِ الكريمِ بمضمونِه.

دلالــةُ الإيجازِ وسرعةُ الرَّدِّ على المتقوِّلين علَّةٌ لِلحذفِ

غرضُ حذفِ المسندِ إليه في: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾:

قولُهُ: ﴿أُذُنُ﴾: خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: هو أو النَّبيُّ، والحذفُ هنا أفادَ الإيجازَ من ناحيةٍ لتقدُّمِ ذكرِه، وأفادَ من ناحيةٍ أخرى سرعةَ الرَّدِّ وإيجازَهُ؛ ليكونَ قويًّا حاسمًا مُلاصقًا لِقولِهِم، فما احتاجَ إلى إعادةِ ذكرِهِ سرعةً في الرّدِّ وحَسمًا لِلتُّهمةِ، وقَطعًا لِدابرِها على الفَورِ.

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/147.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/821.

بلاغةُ الأسلوبِ الحكيمِ في قولِه: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾:

يُعَدُّ الرَّدُّ عليهم بهذه الطَّريقةِ مِنَ الأسلوبِ الحكيمِ الَّذي يحملُ فيه المُخاطَبُ كلامَ المُتكلِّمِ على غيرِ ما يريدُهُ؛ تنبيهًا لهُ على أنَّهُ الأَولى بأن يُرادَ؛ فاقتضى الأسلوبُ الحكيمُ مُوافقتَهُم في وصفِ أنَّه ﴿أُذُنٞ﴾، ولكنَّهُ حملَها على مَحمَلِ الخيرِ لا على المعنى الَّذي أرادُوه.

ردُّ القرآنِ على المنافقين بأنَّ النَّبيَّ أُذُنُ خيرٍ

معنى اللَّامِ في ﴿لَّكُمۡ﴾ مِن قولِه: ﴿قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾:

اللَّامُ الجارَّةُ هنا يمكنُ أن تكونَ لامَ التَّخصيصِ؛ أي: إنَّهُ أُذُنٌ مُخصَّصٌ لكُم، ويمكنُ أن تفيدَ الاستحقاقَ أيضًا، وقد انتفعوا بهذا التَّخصيصِ في قولِه: ﴿لَّكُمۡ﴾، "ومعنى ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ﴾: أنَّهُ يَسمعُ مَا يَبلُغُهُ عنكُم، ولا يُؤاخِذُكُم، ويَسمَعُ مَعاذيرَكُم، ويَقبَلُها مِنكُم، فَقَبُولُهُ ما يَسمعُهُ يَنفَعُكم، ولا يَضُرُّكم، فَهَذا أُذُنٌ في الخيرِ؛ أي: في سَماعِهِ والمعامَلَةِ بِهِ، وليسَ أُذُنًا في الشَّرِّ"[1].

النَّبيُّ الخاتمُ رحمةٌ مُهداةٌ، ونعمةٌ مُسداةٌ

نكتةُ الفصلِ في: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

فُصِلَت هذه الجملةُ عن سابقتِها؛ إمَّا لاتِّصالِها التَّامِّ بها؛ لأنَّها مُفسِّرةٌ لِكونِهِ ﷺ أُذُنَ خيرٍ، وإمَّا أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا؛ لِكونِها جاءَت في مَقامِ التَّعليلِ والإجابةِ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: كيفَ كانَ أُذُنَ خيرٍ لكُم؟

الفصلُ بينَ الجملِ إمَّا لكمالِ اتِّصالِها وإمّا لشبهِهِ، وإمّا لِكمالِ انفصالِها

نكتةُ مجيءِ ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾:

قولُهُ: ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ﴾ تمهيدٌ لقولِهِ بعدَها: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ إذ هوَ المقصودُ مِنَ الجوابِ لِتمحُّضِهِ للخيرِ وبُعدِهِ عنِ الشَّرِّ، بأنَّهُ يُؤمنُ باللهِ، فَهُوَ يُعامِلُ النَّاسَ بما أمَرَ اللهُ بهِ مِنَ المعامَلةِ بالعفوِ والصَّفحِ، والأمرِ بالمعروفِ، والإعراضِ عنِ الجاهِلِينَ، وبألَّا يؤاخِذَ أحدًا إلَّا ببيِّنَةٍ[2]، ومعنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱللَّهِ﴾ الباءُ هنا للتَّعديةِ والنَّقلِ.

الرَّسولُ أوَّلُ المؤمنين، وأكثرُهُم عبوديَّةً للهِ ربِّ العالَمين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/242.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.

الاختلافُ في استعمالِ الحروفِ مع الإيمانِ ناشئٌ عنِ المعنى المرادِ منهُ

نكتةُ العدولِ في الحروفِ في: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الإيمانُ لِلمُؤمنينَ هنا؛ يعني: تصديقَهُم فيما يُخبرونَهُ، وهو معنًى مغايرٌ لمعنى الإيمانِ باللّٰه، لِذلكَ عُدِّيَ باللَّامِ دونَ الباءِ، كما في قولِهِ تعالى على لسانِ إخوةِ يُوسفَ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17]، فتصديقُه إيَّاهُم؛ لأنَّهم صَادِقونَ لا يَكذِبونَ؛ لأنَّ الإيمانَ وَازِعٌ لَهُم عَن أن يُخبِرُوهُ بالكذبِ، فقولُهُ: ﴿وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ثناءٌ عليهِ بذلكَ[1]، يقولُ الرَّازيُّ: فَإِنْ قِيلَ: لِمَ عَدَّى الإيمانَ إلى اللّٰه بالباءِ، وإلى المُؤمِنينَ باللَّامِ؟

قُلْنا: لِأَنَّ الإيمانَ المُعَدَّى إلى اللّٰه المُرادُ منهُ التَّصديقُ الَّذي هوَ نَقيضُ الكُفرِ، فَعَدَّى بالباءِ، والإيمانُ المُعَدَّى إلى المُؤمِنينَ، مَعناهُ الاستِماعُ مِنهُم، والتَّسليمُ لِقَولِهِم، فَيَتَعَدَّى باللَّامِ، كما في قَولِهِ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾ [يوسف: 17]، وقولِهِ: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ [يونس: 83] وقولِهِ: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾ [الشُّعراء: 111]، وقولِهِ: ﴿ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [الشعراء: 49][2].

الرَّسولُ رحمةٌ لِلعالَمِينَ، وهو بالمؤمنِينَ رَؤوفٌ رحيمٌ

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾:

يمكن أن تكونَ معطوفةً على قولِهِ: ﴿أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ﴾، أي: هو أُذُنُ خيرٍ ورحمةٍ[3]، ويمكنُ أن تكونَ معطوفةً على جملتَي ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّ كونَهُ رحمةً للَّذينَ يُؤمنونَ بعدَ علمه بنفاقِهِم أثرٌ لإغضائِهِ عَن إجرامِهِم، ولِإمهالِهِم حتَّى يَتَمَكَّنَ مِنَ الإيمانِ مَن وفَّقَهُ اللّٰه لِلإيمانِ منهُم[4].

الاختلافُ ناشئٌ عن وجهِ العطفِ، وكلتا القراءتَينِ تعضدُ الأخرى

توجيهُ القراءاتِ المتُواترةِ لِقولِهِ: ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾:

قرأَ حمزةُ بكسرِ التَّاءِ فيها معَ التَّنوينِ (ورَحْمَةٍ)، وقرأَ الباقونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/90.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/184.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/243.

بضمِّ التَّاءِ معَ التَّنوينِ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾[1]، وحجَّةُ مَن كسرَها أنَّهُ عطفَها على ﴿خَيْرٍ﴾؛ أي: أذنُ خيرٍ ورحمةٍ، وحجَّةُ مَن رَفعَها: أنَّه جَعَلَها مَعطوفةً على ﴿أُذُنُ﴾؛ أي: هو أذنُ خيرٍ ورحمةٌ، ويمكنُ أن تكونَ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ، والتَّقدير: (وهو رحمةٌ لكُم)، والمعاني مُتقاربةٌ على اختلافِ القراءاتِ.

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾:

الرَّسولُ رحيمٌ بكلِّ مَن أظهرَ الإيمانَ

اللّامُ هنا يمكنُ أن تكونَ للتَّخصيصِ أو الاستحقاقِ، فالرَّحمةُ لا تكونُ إلَّا لَهُم لا لِغيرِهم مِنَ الكفَّارِ، وهُم يَستحقُّونَها أيضًا، "وخصَّصَ الرَّحمةَ لِلَّذينَ آمَنوا؛ إذ هُمُ الَّذين نَجَوا بالرَّسولِ، وفَازُوا بِهِ"[2]، وقد يكونُ المعنى: "هو رحمة بطريقِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعلِ للمبالغةِ ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾؛ أي: لِلَّذين أظهرُوا الإيمانَ مِنكُم، وهُمُ المنافقونَ، حيثُ يقبلُهُ منهُم، لَكِن لا تصديقًا لَهُم في ذلكَ، بل رِفقًا بهم، وتَرَحُّمًا عَليهم، ولا يَكشِفُ أسرارَهُم، ولا يَهتِكُ أستارَهُم"[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿لِّلَّذِينَ﴾:

أفادَ الاسمُ الموصولُ هنا معنى المدحِ والثَّناءِ

أفاد التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا الثَّناءَ والمدحَ والتَّعظيمَ لِلمُؤمنينَ؛ لأنَّ الاسمَ الموصولَ اقتضى إبهامًا، ثمَّ إعلامًا، فَتَشَوَّقَتِ النَّفسُ إلى مَعرفةِ هذا المُبهَمِ، فجاءَت جملةُ صلةِ الموصولِ ﴿ءَامَنُوا۟﴾ لِتُزيلَ هذا الإبهامَ، ولِتثنيَ عليهم بصفةِ الإيمانِ.

فائدةُ مجيءِ جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فعليَّةً:

مَن أخلصَ الإيمانَ نالَتهُ رحمةُ اللهِ بسيِّدِ ولدِ عدنانَ

أفادتِ الجملةُ الفعليَّةُ معنى تجدُّدِ الإيمانِ وزيادتِهِ فيهم؛ فالإيمانُ يزدادُ بالطَّاعاتِ، ويَنقصُ بالمعاصي، "وإسنادُ الإيمانِ

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 315 - 316، وابن الجزريّ، النّشر: 2/280.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/53.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/457.

إليهم بصيغةِ الفعلِ بعدَ نِسبتِهِ إلى المؤمنينَ بصيغةِ الفاعلِ المُنبِئَةِ عَنِ الرُّسُوخِ والاستِمرارِ؛ لِلإيذانِ بأنّ إيمانَهُم أمرٌ حَادِثٌ، ما لهُ مِن قَرارٍ"[1]، فإنِ التزمُوا به، وتابُوا توبةً نصوحًا؛ فهُم مِنَ المؤمنين، وتُبَدَّلُ سَيِّئَاتُهُم حسناتٍ، وإنْ لم يكُنْ ذلك، فَيعاملونَ بحقيقةِ إيمانِهم.

معنى (مِن) في: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾:

مَن كانَ مِنَ المؤمنين عُومِل بظاهرِ ما عُلِمَ منهُ

الظَّاهرُ أنَّها تبعيضيَّةٌ بمعنى أنَّ بعضَكم مَن آمنَ، وبعضَكم مَن كَفرَ، ويمكنُ أن تكونَ ابتدائيَّةً على معنى: لِمَن آمنَ ابتداءً منكُم، وقِيلَ: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾؛ "أي: مِن أهليكُم وذوي قرابتِكُم، ومَن كانوا في الأصلِ منكُم، وهداهُمُ اللّهُ تعالى، فلا يَكشِفُ عن نفاقِكُم بإظهارِ القَبولِ لِكلامِكُم، وإن كانَ يعلمُ أنَّكُم لَكاذِبونَ لِكيلا يُضارَّ هؤلاءِ"[2].

بلاغةُ العطفِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

أفادَ السِّياقُ هنا بحكمِ العطفِ تغايُرًا في الوصفِ والأثرِ

قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ معطوفٌ على قولِهِ: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾، والأصلُ في العطفِ أن يقتضيَ التَّغايرَ، وظاهرُ الأمرِ أنَّه لا يوجدُ تغايرٌ بينَهُما، لكنَّهُ لمَّا طالَ الفاصِلُ عن بيانِ جزاءِ مَن يُؤذِي النَّبيَّ؛ جاءَ بالواوِ مع إعادةِ مَضمونِ الجملةِ وتغييرِ وصفِ النُّبوَّةِ بالرِّسالةِ، فالعطفُ هنا اقتضى تغايرًا بينَ الجملتَين؛ فالأولى بيَّنَت أنَّ مَن يُؤذونَ النَّبيَّ منهُم لا مِن غيرِهِم، وهنا بيَّنَت أنَّ مَن يُؤذونَ رسولَ اللّه لهم عذابٌ أليمٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ﴾:

مَن يُهِنِ اللهُ فما لَهُ مِن مُكرِمٍ سِواهُ

أفادَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ هنا التَّحقيرَ والذَّمَّ لَهُم، وذَكَرَهُم بالاسمِ الموصولِ دونَ وصفِهِم أو اسمِهِم، حتَّى لا يُبْرِزَ لهم قيمةً، ولا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/77.

يَرفعَ لهم شأنًا، "وإيذاءُ المنافقين لِرسولِ اللّه ﷺ لم يكُنْ بالمواجهة؛ لأنَّهُم أعلنوا كلمةَ الإيمانِ، وكانَ الإيذاءُ لِرسولِ اللّه ﷺ مِنَ المنافقينَ في قلوبِهِم، وفيما بينَهُم في مجالسِهِم، ولِذلكَ لم يكُنِ الإيذاءُ منهُم مباشرةً قطُّ"(1).

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في جملةِ صلةِ الموصولِ ﴿يُؤۡذُونَ﴾:

سيبقى إيذاءُ النَّبيِّ الخاتمِ في كلِّ عهدٍ، يتجدَّدُ ولا يتبدَّدُ

المضارعُ هنا يقتضي استحضارَ صورتِهم لِلقارئ، كما يقتضي تجدُّدَ هذا الفعلِ فيهم، وعدمَ انقضائِهِ حتَّى بعدَ وفاةِ النَّبيِّ ﷺ، ولا شكَّ أنَّ الإيذاءَ قد وَاكبَ الدَّعوةَ الإسلاميَّةَ منذُ نباتِها في بيئةِ الكفرِ الغالبةِ، ولمّا كَثُرَ عددُ المسلمينَ ازدادَ البلاءُ، وكَثُرَتِ التَّقوُّلاتُ، وردَّ القرآنُ على كلِّ الأباطيلِ والشُّبهاتِ، وبَقِيَ الإيذاءُ للنَّبيِّ الأكرمِ في العصورِ اللَّاحقةِ، ولا تزالُ رماحُ الإيذاءِ مُشرعةً إلى عصرِنا هذا، ولن تنتهيَ المواجهةُ الشَّرسةُ ما دامَ الصِّراعُ قائمًا بينَ الحقِّ والباطلِ، وهذا أمرٌ قدريٌّ لا نهايةَ لهُ.

نكتةُ العدولِ عن وصفِ النُّبوَّةِ إلى وصفِ الرِّسالةِ:

وصفُ النُّبوَّةِ في القرآنِ يَتعلَّقُ بالمكانةِ، ووصف الرِّسالة بالوظيفة

يقولُ الآلوسيُّ: وإيرادُهُ ﷺ بعُنوانِ الرِّسالةِ، مَعَ الإضافةِ إلى الاسمِ الجليلِ لِغايةِ التَّعظيمِ والتَّنبيهِ على أنَّ أذيَّتَهُ ﷺ رَاجعةٌ إلى جَنابِهِ ﷻ، مُوجِبةٌ لِكمالِ السُّخطِ والغَضَبِ منهُ سبحانَهُ(2)، ويمكنُ أن يُقالَ: إنَّ الأذيَّةَ الأولى بقولِهِم: ﴿أُذُنٞۚ﴾ كانَت في حياتِه ﷺ، وأنَّ الوعيدَ هنا على مُطلَقِ الإيذاءِ لهُ بوصفِ الرِّسالةِ قائمٌ حتَّى قيامِ السَّاعةِ.

فائدةُ إضافةِ الرِّسالةِ إلى لفظِ الجلالةِ في ﴿يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾:

رسالةُ محمَّدٍ مِنَ اللهِ أكسبَتْهُ مكانةً لم ينلْها أحدٌ سِواهُ

إضافةُ لفظِ ﴿رَسُولَ﴾ في الآيةِ إلى لفظِ الجلالةِ أفادَ تشريفًا ما بعدَهُ تشريفٌ لِمقامِ النُّبوَّةِ مِن ناحيةٍ، وأفادَ وَعيدًا لِمَن يُؤذونَ مَقامَ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5253.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/185.

رسولِهِ ﷺ، وضمُّ وصفِ الرَّسولِ بالرِّسالةِ إلى اللّهِ تنبيهٌ إلى أنَّ اللّهَ هو الَّذي أرسلَهُ إلى البشريَّةِ قاطبةً بالهدى ودينِ الحقِّ، وأنَّ إيذاءَ الرَّسولِ هو إيذاءٌ للّهِ ربِّ العالَمين، وهو أمرٌ مَعهودٌ في كلِّ الأعرافِ في الدُّنيا: أنَّ الرَّسولَ يُكرَمُ ولا يُؤذَى، فما بالُكَ إذا كانَ هذا الرَّسولُ مُبلِّغًا عنِ اللّهِ، وكانَ لهُ مكانُ التَّميُّزِ والعلوِّ، وأُوتيَ ما لم يُؤتَ أحدٌ منَ العالَمينَ؟ وقد قالَ حسَّانُ بن ثابتٍ:

وضَمَّ الإلَهُ اسمَ النَّبيِّ مَعَ اسمِهِ *** إذا قالَ في الخَمسِ المُؤذِّنُ: أَشهَدُ
وشَقَّ لَهُ مِن اسمِهِ لِيُجِلَّهُ *** فَذو العَرشِ محَمودٌ وهَذا محُمَّدُ[1]

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في فاصلةِ الآيةِ:

صيغةُ استمرارِ الوعيدِ وتجدُّدِهِ، ترويعٌ وتقريعٌ لأهلِ الأذى

أفادتِ الجملةُ الاسميَّةُ الَّتي خبرُها جملةٌ اسميَّةٌ كذلك معانيَ الثَّباتِ والتَّوكيدِ في وعيدِ مَن يفعلُ ذلكَ، وعليه فالَّذين "يُؤْذونَ رَسولَ اللّه؛ أي: بأيِّ نوعٍ مِنَ الإيذاءِ كانَ، وفي صيغةِ الاستقبالِ المُشعِرَةِ بترتُّبِ الوَعيدِ على الاستمرارِ على ما هُم عليه، إشعارٌ بِقَبولِ تَوبتِهِم ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾"[2]، وذِكرُ العذابِ الأليمِ إشارةٌ إلى احتمالِ بقائِهِم على الإيذاءِ، وعدمِ توبتِهِم إلى ربِّ الأرضِ والسَّماءِ.

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ في قولِهِ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾:

بئسَ العاقبةُ عندَ العظيمِ المصيرُ إلى العذابِ الأليمِ

أفاد توكيدُها تعجيلَ المضرَّةِ والإنذارِ لهم، ولا مسوِّغَ لحملِهِ على التَّخصيصِ، فالوعيدُ في كتابِ اللّه جاءَ لَهُم ولِغيرِهِم، "وفي تَكريرِ الإسنادِ بإثباتِ العذابِ الأليمِ لَهُم، ثمَّ جَعَلَ الجملةَ خَبَرًا ما لا يَخفَى مِنَ المبالغةِ"[3]، والآيةُ هاته جملةٌ مُستقلَّةٌ هي خبرٌ لِما قبلَها، وفي هذا تأكيدٌ لِمضمونِهَا، قالَ صاحبُ (المنارِ): "والآيةُ وما في معناها دليلٌ

(1) البيتان لحسّان بن ثابت الأنصاريّ، ينظر: ديوانه، ص: 338، والبخاريّ، التّاريخ الصّغير: 1/13، والزّرقانيّ، شرح الزّرقانيّ على المواهب اللّدنيّة بالمنح المحمديّة: 8/111.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/317.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/317.

على أنَّ إيذاءَ الرَّسولِ ﷺ كفرٌ، إذا كانَ فيما يتعلَّقُ بصفةِ الرِّسالةِ؛ فإنَّ إيذاءَهُ في رسالتِهِ يُنافي صِدقَ الإيمانِ بطبيعتِهِ"[1].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾ مِن قولِهِ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

العذابُ الأليمُ لاحقٌ كلَّ مُؤذٍ للنُّبوَّةِ أثيمٍ

أفادَ تنكيرُ لفظةِ ﴿عَذَابٌ﴾ معنى التَّعظيم، وقد يفيدُ التَّنويعَ أيضًا على معنى أنَّه عذابٌ ليسَ كأيِّ عذابٍ آخر يعرفونَهُ، والتَّنكيرُ يُفسِحُ الدِّلالةَ لاستحقاقِ كلِّ مَن يعتدي على المقامِ المحمَّديِّ، لِما يناسبُ جرمَهُ مِنَ العذابِ الأليم، فقد " صرَّحَ بعضُ العلماءِ بأنَّ إيذاءَهُ ﷺ بعدَ انتقالِهِ إلى الرَّفيقِ الأعلى، كإيذائِهِ في حالِ حياتِهِ الدُّنيا، ومنه: نِكاحُ أزواجِهِ مِن بعدِهِ، قالَ بعضُهُم: ومنه: الخوضُ في أبويهِ وآلِ بيتِهِ، بما يعلمُ أنَّه يؤذيهِ لو كانَ حيًّا، ولكنَّهُم جعلوهُ ذنبًا لا كفرًا"[2].

نكتةُ وصفِ العذابِ بأنَّهُ ﴿أَلِيمٌ﴾:

الوصفُ بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ مصروفٌ عن مُؤلِمٍ

(أليم) على وزن (فعيل)؛ مَصروفٌ عنِ اسمِ الفاعلِ (مُؤلم)، والأَليمُ: هوَ المُوجِعُ، ومَعناهُ: ولَهُم عَذابٌ مُؤلِمٌ، فَصَرَفَ (مُؤلم) إلى (أَليم) كَما يُقالُ: ضَربٌ وجيعٌ بمَعنَى مُوجِعٍ[3]، "والأليمُ فعيلٌ بمعنى مَفعول؛ لأنَّ الأكثرَ في هذه الصِّيغةِ أنَّ الرُّباعيَّ بمعنى مُفْعَل، وأصلُهُ عذابٌ مُؤلَمٌ بصيغةِ اسم المفعول؛ أي: مُؤلَم مَن يُعذَّبُ بهِ على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ المُؤلَمَ هو المعَذَّبُ دونَ العذابِ، كما قالوا: جدَّ جَدُّه، أو هو فعيلٌ بمعنى فاعل، من أَلَمَ بمعنى صارَ ذا ألم، وإمَّا أن يكونَ فعيل بمعنى مُفْعِل؛ أي: مُؤْلِمٌ بكسرِ اللَّامِ[4]، وأُوثِرَ وصفُ العذابِ بكونِهِ أليمًا؛ ليكونَ الجزاءُ مِن جنسِ العملِ؛ فقد آلَمُوا النَّبيَّ ﷺ في نفسِهِ وأهلِهِ وأصحابِهِ.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/449.
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/449.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 1/291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/282.

التّغايرُ في ذكرِ أوصافِ العذابِ، يجعلُ كلَّ صفةٍ تلائمُ السّياقَ الّذي وردَت فيه

بلاغةُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في وصفِ العذابِ:

وردَت مادَّةُ (عذب) ومُشتقَّاتُها في القرآنِ الكريمِ، ما يزيدُ عن (370) مرَّةً، وجاءَ هذا العذابُ مَوصوفًا بصفاتٍ كثيرةٍ، بعضُها أكثرُ ورودًا مِن بعضٍ، ومِن هذه الصِّفاتِ: (العذابُ العظيمُ، الأليمُ، الشَّديدُ، المهينُ، القريبُ، المقيمُ، النُّكرُ، القريبُ) وغيرها، ومِن حيثُ المبدأُ يمكنُ أن نقولَ: إنَّ كلَّ صفةٍ مِن هذه الصِّفاتِ تُغايرُ أختَها، فلا تَرادُفَ بينَها ألبتَّةَ، ولا تَسدُّ صفةٌ منها مَسدَّ أختِها، وليس التَّغايرُ في ذكرِها تلوينًا في الخطابِ، ولا افتنانًا في الكلامِ، إنَّما تأتي كلُّ صفةٍ منها مُتلائمةً مَعَ السِّياقِ الَّذي جاءَت فيه، فمثلًا جاءَ وصفُ العذابِ بأنَّهُ (مُهين) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ [الأحزاب: 57]، في سياقِ الحديثِ عمَّن اجترؤوا فيه على اللهِ ورسولِه، فظنُّوا أنَّهُم مِنَ العظمةِ والكِبَرِ، بحيثُ يَقدِرونَ على فِعلتِهم هذه، فجاءَ العذابُ مِن جنسِ العملِ، ووُصِفَ بأنَّهُ عذابٌ مُهينٌ؛ لِينزِعَ عنهُم كلَّ ذرَّةٍ مِن كِبرٍ وخُيلاءٍ، وجاءَ وصفُ العذابِ بالعِظَمِ في مَواضِعَ استوجبَت ذلكَ مِن مثلِ قولِه تعالى في شأنِ قصَّةِ الإفكِ حولَ أمِّ المؤمنين: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٤ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾ [النّور: 14 - 16]. فالبُهتانُ العظيمُ شأنُهُ عندَ اللهِ عظيمٌ؛ لذا استوجبَ هذا العذابَ العظيمَ، وجاءَ وصفُهُ بالشّدَّةِ في سياقاتٍ استوجبَت هذا الوصفَ مِن مثلِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشّورى: 16]، فمثلُ

هذه المُحاجَّةِ بعدَ أن استُجيبَ لَهُ، تَستوجبُ عذابًا يُوسَمُ بالشّدَّةِ، وفي الآية هنا استوجبَ العذابُ وصفَهُ بالشّدَّةِ؛ لأنَّهُم جمعُوا بينَ الاعتداءِ والاحتيالِ، وعدم الاستجابةِ لِلوعظِ، وكذلك الحالُ في وصفِهِ بـ(أليم)، مِن مثلِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [النّحل: 116 - 117]، فإنَّك مهما تأمَّلتَ وصفًا للعذابِ يفوقُ كونَهُ أليمًا لهذه المَواضعِ، فلن تجدَ، وكذلك الحالُ في وصفِهِ بالقُربِ، كقولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النّبأ: 38 - 40]، فالتَّذكيرُ بمشاهدِ الآخرةِ في سياقِ إبرازِ النَّدمِ على ما فاتَ مِنَ الأعمالِ في يومٍ لا ينفعُ فيهِ مثلُ هذا النَّدمِ، يناسبُهُ وصفُ العذابِ بالقُربِ؛ لِتنزجرَ النُّفوسُ، ولا تغترَّ بالمتاعِ سريعِ الانقضاءِ.

﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [التّوبة: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين تنزيه النّبيّ عن الأباطيل، وتقبيح زيف المُنافقين وحلفهم الكاذب

لمّا ذكرَ من أخلاقِ المُنافقين شَنائعَ، أَتبَعها بشَنيعةٍ أفظعَ وهي استهانَتُهم باللّه ورسُولِه، بالحَلِفِ كذبًا وزورًا لقصْدِ إرضاءِ المُؤمنين لتعَلُّقِ مصالحِهم بهم، والاسْتِهتارِ بالتَّبرّعِ بأيْمانِ اللّه دونَ طلَبٍ منهم. "وهذا نوعٌ آخرُ من قبائحِ أفعالِ المُنافقين، وهو إقدامُهم على الأيمانِ الكاذبة"(1).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡلِفُونَ﴾: "الحلِفُ - بِالكَسْرِ، ككَتِفٍ -: القَسَمُ، تَقْوِيَةُ لِلْكَلَام، أي: لِمُحتَواهُ بشيءٍ خارجٍ عنه، وهو: اليمينُ. ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ يُؤَكِّدُونَ بِالحَلِفِ إنكارَهم أنَّهم آذَوْا الرّسولَ ﷺ، أو يُؤَكِّدُونَ بِالحَلِفِ أنّهم كانوا ذَوِي أَعْذارٍ في التّخلُّف عن تبوكَ، أو أنّهم مع المُؤمنين في كلِّ أمْرٍ وحربٍ"(2).

"والحَلِفُ أصلُه اليمينُ الذي يأخذُ بعضُهم من بعضٍ بها العهْدَ، ثمّ عبّرَ به عن كلِّ يمينٍ، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾ [القلم: 10]، أي: مِكثارٌ للحَلِفِ، وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ [التوبة: 74]... والمُحَالَفَةُ: أن يحلِفَ كلٌّ للآخَرِ، ثم جُعلتْ عبارةً عنِ المُلازمةِ مُجرّدًا، فقيلَ: حِلْفُ فلانٍ وحَليفُه، وقال ﷺ: «لا حِلْفَ في الإسلام»"(3).

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/131.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حلف).
(3) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [النساء: 33] برقم: (2294).

2) ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾: أي: لِيُقنِعوكم، "ورِضَا العبدِ عنِ اللّه: ألا يكرهَ ما يجري به قضاؤُه، ورِضَا اللّه عنِ العبدِ هو أن يراه مُؤتمِرًا لأمره، ومُنتهيًا عن نهْيه"[1]، و"الرِّضَا – مقصورٌ-: ضِدُّ السَّخَطِ. وَفي حَدِيثِ الدُّعَاءِ: اللهمَّ إِنّي أَعوذُ بِرِضاكَ مِنْ سَخَطِكَ[2]، والرِّضَا؛ والسَّخَطُ مِنْ صِفَاتِ القَلْبِ"[3]، و"وأرضاه: أعطاه ما يُقنعه ويُرضيه، سبحان من أرضى العبادَ بما أراد حكمة"[4].

3) ﴿أَحَقُّ﴾: "الحَقُّ: خِلَافُ البَاطِلِ. وَهُوَ مَصْدَرُ حَقَّ الشَّيْءُ مِنْ بَابَيْ ضَرَبَ وَقَتَلَ، أي حقَّ يَحِقُّ، وحَقَّ يَحُقُّ: إِذَا وَجَبَ، وَثَبَتَ، وَحَقَّتِ القِيَامَةُ: أَحَاطَتْ بِالخَلَائِقِ، فَهِيَ حَاقَّةٌ، وَحَقَقْتُ الأَمْرَ أَحُقُّهُ إِذَا تَيَقَّنْتَهُ، أَوْ جَعَلْتَهُ ثَابِتًا لَازِمًا، وَفُلَانٌ حَقِيقٌ بِكَذَا بِمَعْنَى: خَلِيقٍ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الحَقِّ الثَّابِتِ، وَقَوْلُهُمْ: هُوَ أَحَقُّ بِكَذَا يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: اخْتِصَاصُهُ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مُشَارَكَةٍ، نَحْوُ: زَيْدٌ أَحَقُّ بِمَالِهِ، أَيْ: لَا حَقَّ لِغَيْرِهِ فِيهِ. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَفْعَلَ التَّفْضِيلِ؛ فَيَقْتَضِي اشْتِرَاكَهُ مَعَ غَيْرِهِ، وَتَرْجِيحَهُ عَلَى غَيْرِهِ"[5]. والحقُّ: "مُوجدُ الشّيءِ بسببِ ما تقتضيه الحِكمةُ"[6].

4) ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: "أصلُ الأَمْنِ: طُمأنينةُ النّفسِ وزوالُ الخوفِ، والأَمْنُ والأَمَانَةُ والأَمَانُ في الأصل مصادرُ، ويُجعلُ الأمانُ تارةً اسْمًا للحالة التي يكون عليها الإنسانُ في الأمن، وتارة اسْمًا لما يؤمنُ عليه الإنسانُ، وآمَنَ: إنّما يقال على وجهين: أحدُهما مُتعدٍّ بنفسه، يقال: آمنته، أي: جعلتُ له الأمنَ، ومنه قيل للّه: مُؤمنٌ، والثاني: غيرُ مُتعدٍّ، ومعناه: صار ذا أَمْنٍ، والإيمانُ: يُستعملُ تارةً اسْمًا للشّريعةِ التي جاء بها محمّدٌ ﷺ، ويُوصفُ به كلُّ من دخل في شريعتِه مُقرًّا باللّه وبنُبوّتِه، وتارةً يُستعملُ على سبيل المدْحِ، ويُراد به إذعانُ النّفسِ للحقّ على سبيل التّصديقِ، وذلك باجتماعِ ثلاثةِ أشياءَ: تحقيقٌ بالقلبِ، وإقرارٌ باللّسان، وعملٌ بِحسب ذلك بالجوارح، ويقال لكلِّ واحدٍ منَ الاعتقاد والقولِ الصّدقِ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (رضي).

(2) مسلم، صحيح مسلم، كتابُ الصّلاة، بابُ ما يُقالُ في الرُّكوع والسُّجود، الحديث رقم: (486).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (رضي).

(4) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (رضو).

(5) الفيّومي، المصباح المنير: (حقق).

(6) الرّاغب، المفردات: (حق).

والعملِ الصّالح: إيمانٌ، وجعلَ النّبيُّ ﷺ أصلَ الإيمان ستّةَ أشياءَ في خبرِ جبريلَ حيث سألَه فقال: ما الإيمانُ؟ والخبرُ معروفٌ. ويُقالُ: رجلٌ أَمَنَةٌ وأَمَنَةٌ: يثقُ بكلِّ أحدٍ، وأَمِينٌ وأَمَانٌ يؤمن به"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أقْبحُ أفعالِ المُنافقين اليمينُ الكاذبةُ، لِما فيها مِنَ الاسْتِهتارِ بالله، إرضاءً لسواه

الخطابُ للمُؤمنين خاصّةً بأنَّ المُنافقين إنّما يحْلِفون باللّه ليُرْضُوكم فيما بلغَكم عنهم من أذاهُم رسولَ اللّه ﷺ، وذِكْرِهم إياه بالطّعْنِ عليه والعَيْبِ له، والأيْمانِ الفاجرةِ، وأنّهم ما فعلُوا ذلك، وأنّهم لَعَلَى دينِكم ومعكم على من خالَفَكم[2]، يَبتغون بذلك رضاكُم، واللّه ورسولُه أحقُّ أن يَرضُوه بالتّوبةِ والإنابةِ ممّا قالوا ونطَقُوا إنْ كانوا مُصدِّقين بتوحيدِ اللّه، مُقرّين بوعدِه ووعيدِه[3]. و"كان المُنافقون يتكلّمون بالمطاعنِ، أو يَتخلّفون عنِ الجهاد، ثم يأتونَهم فيَعتذرون إليهم، ويُؤكِّدون معاذيرَهم بالحلِف، ليَعذُروهم ويَرضَوْا عنهم، فقيل لهم: إنْ كنتم مُؤمنين كما تزعُمون فأحقُّ من أرضَيْتُم: اللّهُ ورسولُه بالطّاعة والوفاقِ"[4]"وَفي الآيَةِ عِبرَةٌ لِلْمُنَافِقِينَ فِي زَمَانِنَا كَكُلِّ زَمَانٍ، وَعِبرَةٌ بِحَالِهِمْ لِمَنْ يَرَاهُمْ يَكْذِبُونَ وَيَحْلِفُونَ عِنْدَ الحَاجَةِ إلى تَأْكِيدِ أَخْبَارِهِمْ فِيمَا يُحَاوِلُونَ بِهِ إِرْضَاءَ النَّاسِ"[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الاسْتِئْنافِ في: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الحَلِفُ الكاذبُ نقيصةٌ تقتضِي التّأسيسَ

كانتِ الآياتُ السّابقةُ تَحكي قبائحَ شتّى لطوائفَ منَ المُنافقين، ثمّ "عَدَلَ عَنْ أُسْلُوبِ الحِكَايَةِ عَنْهُمْ بِكَلِمَةِ ﴿وَمِنۡهُمُ﴾؛ لِأَنَّ مَا حُكِيَ

(1) الرّاغب، المفردات: (أمن).

(2) وقيل: "نزلت في رهطٍ من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع رسول الله ﷺ مِن تبوك أتوا إلى المؤمنين يعتذرون إليهم من تَخَلُّفِهم، ويَعْتَلُّون ويحلفون، فأنزل الله تعالى ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾". ينظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 13/455.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/329.

(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 7/290.

(5) محمد رضا، تفسير المنار: 10/452.

هُنَا حَالٌ مِنْ أَحْوَالِ جَمِيعِهِمْ. فَالجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ اسْتِئْنَافًا ابْتِدَائِيًّا، لِإِعْلَامِ الرَّسُولِ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَحْلِفُونَ الأيمانَ الكَاذِبَةَ، فَلَا تَغُرُّهُمْ أَيْمَانُهُمْ. فَضَمِيرُ ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ عَائِدٌ إلى الَّذين يُؤْذُونَ النَّبِيءَ"[1].

عِلّة إيثارِ لفظ (الحَلِف):

المُنافقُ يَحلِفُ كاذبًا، والمُؤمنُ يُقْسِمُ صادقًا

درجَ الذِّكْرُ الحكيمُ على التَّعبيرِ عنِ اليمينِ الكاذبةِ الفاجرةِ بـ (الحَلِف)، ويصفُ به أَيْمانَ المُنافقين والكاذبين عُمومًا، وعلى التَّعبيرِ باليمين الصّادقةِ البارَّةِ بـ (القَسَم) ويُعبّرُ به عن أيْمانِ المؤمنين، وما يُنَزَّلُ منزلةَ الأيمانِ الصّادقةِ، وقد يُطلقُ على اليمينِ الكاذبةِ أيضًا[2].

فإذا آثرَ النظمُ الكريمُ هنا لفظَ (الحَلِف) فإنه يُؤْذِنُ ابتداءً بِكذِبِ الحالفين فيما يَحلِفون عليه أيًّا كان هو، ويُوحِي بأنَّ أَيْمانَهم فاجرةٌ وأنّهم يَشْترون بها ثمنًا قليلًا؛ فلا ينبغِي للمؤمنين أن يُصدِّقُوهم فيها، وأنّها ستظلُّ في حيِّزِ (الحَلِف) الفاجرِ مهما بالغُوا في توكيدِها، ومهما أظهرُوا أنّهم جادُّون فيها؛ لذلك - واللّه تعالى أعلم - لم يُعبَّرْ عن أيْمانِهم بالقَسَم فيقال: يُقْسِمون باللّه؛ فمادّةُ القَسَم تُستعملُ - كما سبَقَ القولُ - فيما يُطابقُ الواقعَ وما يُنَزَّلُ هذه المنزلةَ.

دَلالةُ التَّصريحِ بالمخلوفِ به (الله):

تَبشِيعُ الحَلِفِ الكاذِبِ، بالتّصريحِ بالمَحْلوفِ به

أكثرت هذه السُّورةُ الكريمةُ منَ التَّعبيرِ عن أَيْمانِ المُنافقين بصِيغةِ (الحَلف)، وكلُّها "تُندِّدُ بحلِف المُنافقين كذبًا لإرضاءِ رسول اللّه ﷺ والمُسلمين منها: ﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ [التوبة: 42]، ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/244.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5254.

﴿وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦﴾ [التوبة: 56]، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: 74]، ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ [التوبة: 95]"[1] فالتّصريحُ باسْم الجلالةِ مُباشرةً قد أحْدثَ في نفس التّالي والمُتلقِّي صَدْمةَ بشاعةِ الخطيئة، والفرقُ بين مواضع التَّصريح بالمَحْلوفِ به تعالى والمَوضع غيرِ المُصرَّحِ به فيه - واللّه تعالى أعلم بمراده - أنّ غايةَ المُنافقين؛ إذ صَرَّحوا ﴿بِٱللَّهِ﴾ كانت ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾، إرضاءً مُمْلًى عليكم، وأنَّ طريقَ ذلك النّصُّ على المحلوفِ به وذكرَه صراحةً: ﴿بِٱللَّهِ﴾، وفي الآخرِ كانت غايتُهم تحقيقَ رِضا المسلمين النّابعِ من نُفوسِهم ﴿لِتَرۡضَوۡاْ﴾، وذلك يقتضِي الاحْتِشادَ لليمينِ وبأيِّ صِيغةٍ أفلحتْ في تحقيقِ الغَرَض.

دَلالةُ التّعْبير بصِيغةِ المضارعةِ: ﴿يَحۡلِفُونَ﴾:

تجديدُ الحَلِفِ الكاذبِ، يزيدُ مِنَ المبالغةِ في وصْفِ النّفاقِ

صِيغةُ المضارعةِ هنا تُفصِحُ عن عدَمِ تورُّعِ المُنافقين، وعن تمادِيهم في الضّلالِ؛ لأنّهم يُجَدِّدون حَلِفًا ﴿بِٱللَّهِ﴾ تعالى كلّما تَجدَّدَ منهم ما يُوجِبُ شَكَّ المُسلمين في صِدْقِ كلامِهم وصدْقِ نِيَّتِهم، وأنّهم كلّما تَجدَّدَ ذلك منهم تَأصَّلَ فيهم، وكان مقتضَى تطاوُلِ ذلك منهم أن يُفِيقوا إلى الصّوابِ، وإلى التّوبة والإنابةِ.. وما أَخْطرَ الغفلةَ التي لا تنتفعُ بالإمْهالِ!

والتّعبيرُ بالمضارع؛ لأنّهم يَحْلِفون في الحالِ لا في الماضِي، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الحَلِفَ شأنُهم الدّائمُ المُتجدّدُ، وكلّما كذبُوا حلفُوا، وكلّما تخلّفُوا بأعذارٍ غيرِ صادقةٍ حلفُوا، فالحَلِفُ دَيْدَنُهم[2].

دَلالةُ العُدولِ عن أسلُوبِ التّصْنيفِ ﴿وَمِنۡهُم﴾ إلى ﴿يَحۡلِفُونَ﴾:

الحَلِفُ الكاذبُ، صِفةُ المُنافقين وطبعهم

عدلَ عن أسلوبِ الحكايةِ عنهم بكلمة (ومنهم)، كما قد ورد أوّلاً

(1) شحاتة، تفسير مقاتل بن سليمان: 1/385.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3354.

في قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التوبة: 61]؛ لأنَّ ما حُكيَ عنهم هنا حالٌ من أحوالِ جميعِ المنافقين(1).

نُكتةُ حذْفِ المحْلوفِ عليه:

المُنافقون جديرُون بالذّمِّ، لأنّهم كاذِبُون في كلِّ حَلِفٍ يؤدّون

أمسكتِ الآيةُ الكريمةُ عن ذِكْرِ المحْلوفِ عليه ماذا يكونُ؟ فأفادتْ بذلك الحذْفِ عُمومَ كذِبِ المنافقين في كلِّ يمينٍ، ومن ذلك محلوفُهم هنا وهو "أذاهُم رَسولَ اللّه ﷺ، وذِكرُهم إيّاه بالطّعن عليه والعَيْبِ له، ومُطابقتُهم سِرًّا أهلَ الكُفرِ عليكم"(2)، وصِدْقُ اعتناقِهم الإسلامَ وتصديقُهم الرّسولَ ﷺ؛ لأنّها قضيةُ القضايَا التي عليها مدارُ الدّينِ الجديدِ، وقرينةُ الإمساكِ عنها في اليمين لفظاً: العلمُ بها وتعيُّنُها. فتحقَّق - فضلًا عن إفادة شُيوعِ كذِبِهم في كلِّ أيْمانِهم - إيجازٌ يُوفِّرُ عِنايةَ المُتلقّي على البصَرِ بدواعِي ذمِّهم.

سِرُّ تقييدِ الحَلِفِ بالجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾:

غايةُ المُنافقين خِداعُ المُؤمنين، لا إرضاءُ ربِّ العالَمين

تَقييدُ الفعْلِ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ بالجارّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنّ مَن معهم مِنَ العُشراءِ والجيرانِ منَ المؤمنين همُ المقصودون(3). وهو يتناغَمُ بِقوَّةٍ مع اصْطفاءِ مادّةِ الحَلِفِ قبْلَه من جهةٍ، ومع عِلَّةِ الحَلِف بعده ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ منَ الجهةِ الأُخرَى؛ ذلك أنّهم أهلُ كتابٍ يعلمون أنّ اللّه يعلمُ كذِبَهم؛ ولذلك أنكرَ تعالى عليهم في الآيةِ الآتية، ذلك الحَلِفَ الكاذبَ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فتوجُّهُهم باليمين كان لأجْلِ المسلمين لا لأجْلِ الدّين، ولا لأجْلِ اللّه تعالى، ثم إنّ الجارَّ مع مجروره ﴿لَكُمْ﴾ يُهَيِّئُ بقوّةٍ للجارّ والمجرور المُؤَوَّل بعده ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾، أي: لإرضائكم. فالآيةُ بدون الجارِّ والمجرور الأوّلِ هكذا: يحلِفون باللّه ليُرضوكم تَفْتَقِدُ التّناسُبَ الجميلَ، فالحَلِفُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/244.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/329.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 6/3354.

مُوجّهٌ لهم والحَلِفُ كان لأجْلِ إرضائِهم، وبذلك تعاضدتِ العناصرُ اللّغويّةُ في الأسلوبِ على تقطيعِ الجُرمِ، وبيانِ وجْه الذّمِّ.

من بَلاغةِ القيْدِ ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾:

غايةُ المُنافقين دَنيئةٌ، ومقاصدهم وضيعة

هذا القيْدُ فصيحٌ في بيانِ عِلَّةِ الحَلِفِ الكاذبِ الصّادرِ منَ المنافقين للمسلمين، وهو عَلَمٌ في اخْتِلال وجْهةِ المنافق؛ إذ إنَّ وِجْهتَه لا تكونُ صحيحةً حين يجعلُ رضا النّاسِ غايتَه، بل لا بدَّ من مُراقبةِ الله تعالى واعْتبارِ رضوانِه غايةَ الغاياتِ مهما كانتِ اليمينُ مُوجَّهةً إلى مخلوقٍ. ولذلك لا يُقيمُ الدِّينُ وزنًا لقَبولِ العبْدِ يمينَ العبد أو ردَّه إياها؛ فَرِضَا العبادِ بالإيمان ليست غايةً وليست نهايةً؛ لذلك كان النّصُّ على غايةِ المنافقين هنا من أهمِّ العناصرِ التّركيبيّةِ على بيانِ الوجوه الكاشفةِ عن وجْهِ الإنكارِ وإيجابِ المَذمّةِ لهؤلاء واسْتِحقاقِهم الدّرْكَ الأسفلَ منَ النَّار - والعياذُ بالله تعالى من حالِ أهلِ النّارِ - .

دَلالةُ اللّامِ في لفظ ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾:

تعليل الحنث في القسم، بإرضاء المخلوق دون الخالق

ذكرَ الزّجّاجُ أنَّ بعضَ النّحويّين يرى أنّ هذه اللّامَ بِمعنَى القَسَم، أيْ: يَحْلِفُون بالله لكم لَيُرْضُنَّكُمْ. وردَّ قولَهم هذا؛ لأنهم إِنَّمَا حَلَفُوا أَنَّهُمْ مَا قالُوا ما حُكِي عنهُمْ لِيُرْضُوكُمْ باليمين، ولم يَحْلِفُوا أَنَّهُمْ يُرضُون في المستقبلِ[1]. وضعّفَ ابنُ الجَوزيِّ تَخطئةَ الزّجاجِ بناءً على ما ذكره مقاتلٌ: بأنّ عبدَ الله بنَ أُبيّ، حلَفَ لا يتخلّفُ عن رسولِ الله ﷺ ولَيكونَنَّ معه على عدوِّه[2].

والأرجحُ أنّها تعليليّةٌ، "أي: أنّ الباعثَ لهم على هذا الحلفِ الكذبِ إرضاؤكم، وإزالةُ الوحْشةِ بينكم وبينهم، وزوالُ النّفرةِ التي تحسُّونَها منهم"[3].

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/458.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/273.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3354.

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾:

تناسُبُ تجدُّدِ كلِّ حَلِفٍ، مع تجدُّدِ الرّغبةِ الدّنيئةِ، مُبالغةً في الذّمِّ

صياغةُ علّةِ الحَلِف ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ جُملةً مضارعةً مع إمكانها مُفرداً مُؤوّلاً (لإرضائكم) مع إيجازه، يُتيحُ جملةً منَ الدّلالاتِ الباهرةِ، المُتآزرةِ مع النَّظْم المُمتدِّ للآيةِ الكريمةِ.

ذلك أنَّ المُضارعةَ صِيغةٌ تُتيحُ تكافُؤَ الفعْلِ ﴿يَحۡلِفُونَ﴾، فيكونُ بإزاءِ كلِّ حَلِفٍ تَجَدُّدَ رَغْبَةٍ بإرضاءِ المنافقين لهم تتجدّدُ، كما تُتيحُ الجملةُ إسنادَ هذا الفعلِ الذّميم (يرضوا) إلى الفاعلِ الذّميم (ضميرِ جملةِ المنافقين)، ثمّ تتيحُ إيقاعَ ذلك الفعلِ على ضميرِ المخاطَبين فيتناغمُ السّياقُ بذكْرِ الجارِّ والمجرور الأوّل (لكم) وضميرِ المفعولِ ثانيًا ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾

سِرُّ التّعبيرِ بجُملةِ القيْدِ بالحالِ:

تأخيرُ البيانِ عن وقتِ الحاجةِ، وإيثارُ رضا غير اللهِ، كلاهما لا يجوزُ

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، وفيه أردفَ النّظْمُ الكريمُ جملةَ التّعليلِ ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ جُملةَ تصحيحِ الوجهةِ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾؛ لِتُبْطِلَ الثّانيةُ صِحَّةَ الأولى مباشرةً دون إمهالٍ، ولِتُثْبِتَ الحُكمَ الصّحيحَ لِوِجْهَةِ الإيمانِ وهو أنَّ الحقَّ الذي لا شكَّ فيه أنَّ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ أحقُّ بالإرضاءِ؛ وكذلك أُلْحِقتْ جملةُ الحال بِجملةِ الاستنكارِ؛ لأنّ تأخيرَ البيانِ عن وقت الحاجة لا يجوز - كما يقولُ الفقهاءُ - واللّه تعالى أعلم. ومجيءُ الجملةِ الحاليةِ لغَرَضِ توبيخِهم على إيثارِهم رضَا النَّاسِ على رضَا اللّه ورسولِه، أي: هم يَحلِفون لكم، والحالُ أنَّ اللّه ورسولَه أحقُّ بالإرضاءِ منكم؛ لأنَّ اللّه تعالى هو خالِقُهم ورازِقُهم ومالكُ أمْرِهم، وهو العليمُ بما ظهرَ وبطنَ من أحوالِهم، ولأنّ رسولَه ﷺ، هو المُبلِّغُ لوَحْيِه ﷻ"[1].

بَلاغةُ عطْفِ اسم الرّسول الأكرم، على اسْمِ الجلالةِ الأعظم:

العطْفُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ يُوحِي

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/336.

الرّسول المعصوم، مُبَرَّأٌ من الميَل إلى أهل الضَّلالِ، ومَن يُمالِئُونَهم

ببَراءتِه ﷺ من قَبولِ ذلك الحَلِفِ الكاذبِ منَ المنافقين، و"إنّما أفردَ إرضاءَهم بالتّعليل ﴿لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ مع أنَّ عُمدةَ أغراضِهم إرضاءُ الرّسولِ ﷺ للّه للإيذانِ بأنّ ذلك بمعْزِلٍ عن أن يكون وسيلةً لإرضائه ﷺ، وأنّه ﷺ إنّما لم يُكَذِّبْهم رِفقًا بهم، وسَترًا لعيوبِهم، لا عن رضًى بما فعلوا، وقبولٍ قلبيٍّ لِما قالوا"[1]، كما أنّ من المخاطَبين بهذا الذّكرِ الحكيم المسلمين الذين سيَتتابعون على حمْلِ الرّسالة إلى يوم القيامة، جيلاً بعد جيلٍ إزاءَ المنافقين إلى يومِ القيامةِ أيضًا جيلاً بعد جيل، ولن يكونَ الرّسولُ ﷺ ماثِلًا بينَهم كما كان بين ظَهرانيِّ صحابتِه الأطهار.

مَكانةُ الرّسولِ ﷺ عـالـيـةٌ، وشأنُه رفيعٌ

في توسيط لفظ: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، بين لفْظ الجلالة، وبين الخبر ﴿أَحَقُّ﴾ وتقديمه على الخبر، تنبيهٌ إلى مكانةِ الرّسولِ ﷺ عند اللّه تعالى، ولفْتٌ إلى تعظيمِه صلواتُ اللّه عليه، ورِفْعةِ شأنِه[2].

نُكتةُ حذْفِ المُسنَدِ الثّاني، وتوحيدِ الخبرِ في السّياق الكريم:

جعل إرضاء الرّسول الأكرم، إرضاء له تعالى، دليل مكانته عند ربّه

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾، ظاهرُ تركيبِ هذه الجملةِ يقتضِي إفرادَ خبرٍ خاصٍّ عنِ اللّه تعالى قبْلَ إيرادِ الخبرِ الخاصِّ بالرّسولِ ﷺ، لِيصيرَ النَّظْمُ - في غيرِ القرآن الكريم -: واللّه تعالى أحقُّ أن يُرضُوه، ورسولُه ﷺ أحقُّ أن يرضُوه أيضًا، أو أنْ يُثَنَّى الخبرُ عنه تعالى وعن الرّسولِ ﷺ فيكونَ مُطابقًا هكذا: واللّه ورسولُه أحقُّ أن يُرضُوهما، وإذا كان "الضَّمِيرُ مَوْضُوعًا مَوْضِعَ اسْمِ الإِشَارَةِ، وأنَّهُ يُشَارُ بِهِ إلى الوَاحِدِ وَالمُتَعَدِّدِ"[3]، أو كما قال بعضُهم بأنَّ "رجوعَ الضّميرِ على أحدِ المُتعاطفَين اكتفاءً به، لأَنَّ الآخَرَ مفهومٌ منه، أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ كثيرٌ في القرآنِ العظيم"[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/317.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/336.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/429.
(4) الشنقيطي، العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: 5/603.

فإنّ له هنا وجوهًا كثيرةً ودلالاتٍ غزيرةً، وكلُّها بارعةٌ ومُعتبَرةٌ، منها "تَعْظِيمُ الجَنَابِ الإِلَهِيِّ"(1)؛ لِـ "أَنَّهُ تعالى لَا يُذْكَرُ مَعَ غَيْرِهِ بِالذِّكْرِ المُجْمَلِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يُفْرَدَ بِالذِّكْرِ تَعْظِيمًا لَهُ، ومنها أَنَّ المَقْصُودَ بِجَمِيعِ الطَّاعَاتِ وَالعِبَادَاتِ هُوَ اللّه فَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِهِ"(2)، فلا يُشرِكُ معه أحدٌ في ضميره، ومنها أنَّ الحقَّ واحدٌ هو للّه تعالى، وأنَّ مَهمّةَ الرّسولِ ﷺ تنْضوِي تحت مِظلّةِ حقِّ اللّه تعالى، وتسعَى إلى تحقيقه وإقامته، وأنّه ﷺ لا ينفردُ بِحَقٍّ، وأنّه "وُحِّدَ الضّميرُ؛ لأنّه لا تَفَاوُتَ بين رضَا اللّه تعالى ورضَا رسولِه ﷺ، فكانا في حُكمِ مَرْضِيٍّ واحدٍ"(3)، و"لأنَّ إرضاءَ الرّسولِ ﷺ لا ينفكُّ عن إرضاء اللّه تعالى ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]؛ فَلِتَلَازُمِهما جُعلا كشَيءٍ واحدٍ، فعاد إليهما الضّميرُ المفرد"(4).

تقديم إرضاء الرسول ﷺ مفتاح باب مرضاة الله

ومنها أنّ تقديمَ ذكْرِ الرّسولِ ﷺ على الخبرِ يُوحِي بـ "أهمّيةِ إرضاءِ رسولِ اللّه ﷺ؛ خَشيةَ أن تنصرفَ النّفوسُ إلى إرضاء اللّه تعالى وتتوانَى في شيءٍ من أمْرِ رسولِ اللّه ﷺ، فنبّهَ بهذا التّقديمِ على أهمّيةِ إرضاءِ رسولِ اللّه ﷺ، وأنّه ﷺ منَ اللّه تعالى بمكانٍ"(5)، فـ "أدخلَ اللّهُ تعالى رسولَه في الخبرِ عنه تعالى تعظيمًا للنّبيّ ﷺ"(6)، أو أنَّ الضّميرَ راجعٌ إلى الرّسولِ ﷺ لِـ "أنّ الكلامَ إنّما هو في إيذاء الرّسولِ ﷺ وإرضائه، فذكرَ اللّهَ تعظيماً لجانبِ الرّسولِ"(7)، وهذا تعظيمٌ ما بعْدَه تعظيمٌ.

ومنها "أَنَّ العَالِمَ بِالأَسْرَارِ وَالضَّمَائِرِ هُوَ اللّه تعالى، وَإِخْلَاصُ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 2/429.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/91.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/285.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 5/317.
(5) أبو موسى، خصائص التراكيب - دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، ص: 275.
(6) ابن الأنباري، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، ص: 189.
(7) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/399.

القَلْبِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّه، فَلِهَذَا السَّبَبِ خَصَّ تعالى نَفْسَهُ بِالذِّكْرِ"(1)، واللّه تعالى أعلم.

وقد يقول قائلٌ: كان يكفي اسْمُ الجلالة مُنفردًا في المبتدأ ليكونَ بإزاءِ توحيدِ الخبرِ ﴿أَحَقُّ﴾ مُنفردًا.. وجوابُ ذلك أنّ عَطْف الرّسولِ ﷺ في شِقِّ المبتدأ يَتَّسقُ مع قولِه تعالى في السّياقِ الآخَرِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: 7]، كذلك يُوحِي ذكرُ الرّسولِ ﷺ بين لفْظ الجلالةِ وخبرِه بـ "أنّ في رضَى اللّه تعالى رضَى الرّسولِ ﷺ، ومعناه: واللّه أحقُّ أن يُرضُوه، ورسولُه أحقُّ أن يُرضوه"(2).

توحيد الضمير (يرضوه) دليل على وحدانية التشريع وترسيخ عظمته في النفوس

ولو ثُنِّيَ الضّميرُ عنهما معا، أو ذُكِرَ المُسنَد الثّاني، وأُفرِدَ كلّ من اللّه تعالى ورسوله ﷺ بِخبرٍ خاصٍّ لِتَتَحَقَّقَ المطابقةُ، لارتُكِبتْ محاذيرُ خطيرةٌ، منها: أنّ الفصل بين كلا الحَقَّيْن سيُوحِي بأنَّ لكلٍّ منهما حقًّا مُستقلًّا قد يختلفُ عنِ الحقِّ الآخَرِ، وذلك فاسدٌ، أو أنّ إرضاءَ كلٍّ منهما في غير ما يكون به إرضاءُ الآخَر، فضلًا عمّا فيه من الرّكاكةِ والتّطويل(3).

ومنها تَسويّةُ حقِّ الرّسولِ ﷺ مع حقِّ اللّه تعالى الخالقِ العظيم، لو ثُنِّي الخبرُ عنهما في مثْلِ: اللّه تعالى ورسولُه ﷺ أحقُّ أن يُرضوهما، وذلك أيضًا قبيحٌ مردودٌ، واللّه تعالى أعلم.

سِرُّ التّعبيرِ بمادّةِ التّفضيلِ ﴿أَحَقُّ﴾، صيغةً ومادّةً لُغويةً:

الجديرُ بالحقِّ في الإرضاءِ باليمينِ، هو اللّه تعالى ربّ العالمين

تُوحي صيغة التفضيل ﴿أَحَقُّ﴾ بأن إرضاء المنافقين المسلمين حقٌّ، وأن الأحقَّ منه إرضاءُ اللّه تعالى ورسوله ﷺ. لكن صيغة التفضيل هنا تتمحّض للمعنى الآخر المفرَّغ من دلالة التفضيل،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/92.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/69.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 10/451.

وهو "اخْتِصَاصُهما بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِ مُشَارَكَةٍ"[1]، وأن المعنى المقصود: أن إرضاء اللّه تعالى ورسوله ﷺ هو الحق المقبول لدى اللّه تعالى ورسوله ﷺ، والمقبول لدى المسلمين. وقد قالت عائشة رضي اللّه تعالى عنها: «مَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللّه، وَكَلَهُ اللّه إلى النَّاسِ، وَمَنْ أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا اللّه كَفَاهُ اللّه النَّاسَ»[2].

أمّا كلمة ﴿أَحَقُّ﴾ فأفصحُ، وأوضحُ في وجوبِ ذلك الحقِّ - أي الإرضاء - للّه تعالى ولرسولِه ﷺ؛ لأنَّ اللّه تعالى هو الحقُّ الثّابتُ الذي لا يتغيّرُ، وأنَّ دينَ اللّه تعالى هو الحقُّ الثّابتُ الذي لا يتغيّرُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: 85].

بَلاغةُ القيْدِ بالشّرطِ في جُملةِ: ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾:

الإزراءُ على المُنافقين، ببيانِ أنّ إيمانَهم مَشكوكٌ فيه

وجملةُ القيْدِ ﴿إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أتاحتِ النَّصَّ على التّقييدِ بـ ﴿إِن﴾ القائلةِ بالشكِّ في حصولِ الإيمانِ للمنافقين، وأنّه منهم لا يُتصوَّرُ إلَّا على سبيلِ الافتراضِ؛ وفي ذلك إزراءٌ عليهم، وحطٌّ من شأنِهم، وهمُ الذين يَرون أنفُسَهم خيْرَ النّاسِ بانتمائِهم إلى أمّةِ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

من بَلاغةِ القيْدِ بالماضِي في ﴿كَانُوا۟﴾:

الشّكُّ في الحدَثِ الماضِي، تحفيزٌ على تحْقيقِه في الحاضرِ

القَيْدُ بماضي (الكون) كثيرٌ في فواصلِ آيِ الذِّكرِ الحكيم؛ وأحسبُ أنَّ دَلالتَه المقصودةَ هي إثباتُ الحدَثِ المتعلِّقِ به أو نفيُه في الزّمنِ الماضي، والحدَثُ هنا هو الإيمانُ، وكأنّي بصيغةِ الماضي تُشيرُ إلى اسْتبعادِ حصولِ الإيمانِ منهم في المستقبَلِ كما عُدِمَ منهم في الماضِي، وفي ذلك إلْهابٌ لهم واسْتثارةٌ لكامنِ الإيمانِ في قلوبِهم، واسْتِحثاثٌ لهم نحوَ الإيمانِ النّقيِّ الصّافِي الخالي مِنَ النّفاقِ.

---

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (حقق).

(2) رواه ابن الجعد في مسنده، الحديث رقم: (1593)، من حديث عائشة رضي الله عنها، موقوفًا عليها، وإسناده صحيح.

يَنبغي ألّا يَنصرفَ الإيمانُ حين يُذكَرُ، إلّا إلى اللهِ تعالى الواحدِ الأكبر

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلَّق الخبر: ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾:

لم يُفصِحِ الذّكرُ الحكيمُ عن مُتعلَّقِ الإيمانِ في الخبرِ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ ما هو؟ وقد قدَّرَ العلماءُ أنّه "توحيدُ اللّه تعالى ووعدُه ووعيدُه"[1]، لكنَّ الذِّكرَ الحكيمَ طواه لِما في طَيِّه وعدَمِ التّصريحِ به منَ الإيحاءِ بتَعَيُّنِه، وأنّه حين لا يُذْكرُ لا ينصرفُ الذِّهنُ إلّا إليه، وأنَّ مفهومَ الإيمانِ الصّادقِ النّقيِّ لا ينبغي إلّا له.

حذْفُ الجوابِ إذا كان في الكلامِ السّابقِ ما يَدلُّ عليه، فصيحٌ مفيد

بَلاغةُ الإيجازِ بحذْفِ جوابِ شرْطِ ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾:

"جَوَابُ ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ مَحْذُوفٌ، تقديره: (إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَلْيُرْضُوا اللّه وَرَسُولَهُ)"[2]، فإنّهما أحقُّ بالإرضاءِ بما ذُكِرَ، فحذفَ جوابَه تعويلاً على دَلالةِ ما سبَقَ عليه[3]. ومثلُ هذا الأسلوبِ في الذِّكرِ الحكيمِ يَكتفي بما قبْلَ جُملةِ الشّرطِ عن ذِكرِ جُملةِ الجزاءِ؛ لأنَّ ما يسبقُ الشَّرطَ يتضمّنُ معنى الجزاءِ فيُغْنِي عن ذِكرِه.. وما دامَ الكلامُ السّابقُ - على الشّرطِ - يُغنِي عن ذِكرِ الجزاءِ فيكونُ ذكرُه عبثًا لا داعيَ له، وهو ما يَعُدُّه البلاغِيّون في دواعِي الحذْفِ احْترازًا عنِ العبَثِ بناءً على الظّاهرِ.

ومن فضائلِ ذلك الحذْفِ هنا توفيرُ عِنايةِ صاحبِ التّلاوةِ والمُتلقّي على تدبُّرِ جُملةِ الشّرطِ المذكورةِ دون انْشغالٍ بجملةِ الجزاءِ المحذوفةِ؛ لِما يُقصَدُ في الشّرطِ من إلهابٍ واستثارةٍ يَفْتُران وتنحلُّ عُقَدَتُهما في النّفسِ بذِكْرِ جُملةِ الجزاءِ؛ لأنها تُشْغَلُ حينئِذٍ عنهما، وتأخذُ منَ الذّهنِ مساحةً يَحرِصُ النَّظْمُ الكريمُ على توفيرِها؛ لِيَتَحَقَّقَ التّأثُّرُ المطلوبُ بجُملةِ الشّرطِ المذكورةِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/329.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 2/429.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/78.

تَواثُقُ العناصرِ اللّغويّة:

ترابُطُ التّراكيب وتواثُقُها، سِمةُ في التّظاهُرِ على بيانِ المعاني

وهكذا جاءتِ الآيةُ الكريمةُ مُتواثِقةَ العناصر، مُجتمعةَ التّركيب، تبدأُ برأس الجُملةِ ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ ثم تُتْبِعُها بجُملةِ قيودٍ، حتى تنتهيَ بجُملةِ شرطٍ أغنتْ عن ذِكْرِ جوابها، فجاءت - وهي اثنتَا عشْرةَ كلمةً - بخلافِ الحروفِ الرّوابطِ من باءِ قسَم ولام تعليلٍ، وواوِ عطْفٍ، إلخ - جاءت كالكلمةِ الواحدة، مُتّسقةً التّركيبِ مُتواثقةَ البناءِ، مُتناغمةَ المعاني، مُحقّقةً الغرَضَ؛ حتى لَتُوضَعُ في النّفسِ وَضْعًا واحدًا، وتُفرغُ في القلْبِ إفراغًا واحدًا.. وهذا من سِماتِ الذِّكرِ الحكيم، وسُبحانَ مَن هذا كلامُه!

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القسَمُ والحَلِفُ:

القسم يمين بالله لتأكيد أمر أو نفيه، وهو أبلغ من الحلف

"أَنَّ **القسم** أبلغُ منَ الحَلِفِ؛ لِأَنّ معنَى قَوْلنَا: أُقسمُ باللّه أَنّه صَار ذَا قسَم باللّه، وَالقسمُ: النَّصِيب، وَالمرَادُ أَنّ الَّذِي أقسمَ عَلَيْهِ من المَال وَغَيره قد أحرزَه وَدفع عَنهُ الخصْمَ بِاللّه. وَالحلِفُ من قَوْلك: سيفٌ حَلِيفٌ أَي: قَاطعٌ مَاضٍ، فَإِذا قلتَ حلَفَ بِاللّه فكأنّك قلتَ: قَطَعَ المُخَاصمَةَ بِاللّه. فَالأول أبلغُ؛ لِأَنَّهُ يتضَمَّن معنى الآخَرِ مَعَ دفْعِ الخصْم فَفِيهِ مَعْنيانِ. وَقَوْلُنَا: حَلَفَ يُفِيد معنى وَاحِدًا وَهُوَ قطعُ المُخَاصمَة فَقَط"[1]، فضلًا عمّا أشيرَ إليه آنفًا من أنّ اليمينَ الكاذبةَ الفاجرةَ يُعبّرُ عنها بـ (الحَلِف)، ويُعبّرُ عنِ اليمينِ الصّادقةِ البارّةِ بـ (القسَم)، وقد يُطلقُ على اليمينِ الكاذبةِ أيضًا، ولمّا كان السّياقُ في حلِفِ المُنافقين الكاذبِ ناسبَ اختيارَ لفْظِ الحَلِف.

الإسْلامُ والإيمانُ:

الإيمان الهدى واليقين، وهو أبلغ في الشّمول من الإسلام

"الإسلامُ أعمُّ منَ الإيمانِ مُطلقًا، إنّ الإيمانَ يشاركُ الإسلامَ، والإسلامُ لا يشاركُ الإيمانَ، والإسلامُ: شهادةُ أن لا إله إلا اللّه،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 56.

والتّصديقِ برسولِ اللّه ﷺ، به حُقنتِ الدماء، وبه جرتِ المناكحُ والمواريثُ، وعلى ظاهرِه جماعةُ النّاس. والإيمانُ: الهُدى، وما يثبتُ في القلوب من صِفةِ الإسلام وما ظهرَ منَ العمل، والإيمانُ: أرفعُ منَ الإسلام بدرجةِ أنَّ الإيمانَ يشاركُ الإسلامَ في الظّاهرِ، والإسلامَ لا يُشاركُ الإيمانَ في الباطنِ وإن اجتمعَا في القولِ والصّفةِ"[1]، ولأنّ صدّقَ القولِ، والإخلاصَ في العمل - اللذينِ من مصاديقِهما صدّقُ اليمينِ، ورضَا اللّه ورسولِه قبْلَ رضا النّاسِ - مَظِنّةُ صفاءِ الباطن قبْلَ الظّاهر كان وصْفُ الإيمان أليقَ لسِياق الآيةِ، وأنسبَ لمقامِها.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 317، 318.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٣﴾ [التّوبة: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الحلِفُ بالكذب والافتراء، يلائمُه التّقريعِ والتّوبيخ الوارد في الآية

هذه الآيةُ الكريمةُ شديدةُ الارتباطِ بالّتي قبلَها؛ لأنّ هذه تقريعٌ وتوبيخٌ للمنافقين الذين يحلِفون كذبًا لإرضاء النّاسِ، وهو ما فضحَتْه الآيةُ السّابقةُ من أمرِ المنافقين، قال ابنُ عاشور: "هَذِهِ الجُمْلَةُ تَتَنَزَّلُ مِنْ جُمْلَةِ ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ مَنْزِلَةَ التَّعْلِيلِ"، والتّعليلُ شديدُ الارْتباطِ وثيقُ المُناسبةِ بالمُعلَّلِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُحَادِدِ﴾: "الحدُّ: الحاجزُ بين الشّيئين الذي يمنعُ اختلاطَ أحدِهما بالآخَر، يقال: حَدَدْتُ كذا: جعلتُ له حدًّا يُميّزُ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: 5]، أي: يمانِعون، فذلك إمّا اعتبارًا بالمُمانعة وإمّا باستعمالِ الحديدِ، والحديدُ معروفٌ"[1]، و"المُحَادَّةُ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الحَدِّ وَهُوَ طَرَفُ الشَّيْءِ، كَالمُشَاقَّةِ مِنَ الشِّقِّ، وَهُوَ بِالكَسْرِ: الجَانِبُ، وَنِصْفُ الشَّيْءِ المُنْشَقِّ مِنْهُ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى المُعَادَاةِ مِنَ العُدْوَةِ وَهِيَ بِالضَّمِّ جَانِبُ الوَادِي؛ لِأَنَّ العَدُوَّ يَكُونُ في غَايَةِ البُعْدِ عَمَّنْ يُعَادِيهِ عَدَاءَ البُغْضِ وَالشَّنَآنِ، بِحَيْثُ لَا يَتَزَاوَرَانِ وَلَا يَتَعَاوَنَانِ، فَشُبِّهَ بِمَنْ يَكُونُ كُلٌّ مِنْهُمَا في حَدٍّ وَشِقٍّ وَعُدْوَةٍ، كَمَا يُقَالُ: هُمَا عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ، وَكَذَلِكَ المُنَافِقُونَ يَكُونُونَ فِي الحَدِّ وَالجَانِبِ المُقَابِلِ لِلْجَانِبِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ وَالرَّسُولُ لِأُمَّتِهِ مِنَ الحَقِّ وَالخَيْرِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ"[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (حدّ).

(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/452.

و"المُحَادَّةُ: المُخَالَفَةُ، وَمَنْعُ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ"[1]، و"حادَّه: غاضَبه وعصاه، عاداه وخالَفه ومنه قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾"[2]، فَحَادَّهُ: "شَاقَّهُ وَحَارَبَهُ وَخَالَفَهُ، وَكَانَ فِي حَدٍّ وَاللّه وَرَسُولُهُ فِي حدٍّ".

2) ﴿جَهَنَّمَ﴾: "جَهَنَّمُ: من أسماءِ النّارِ التي يُعذّبُ بها اللّه تعالى عبادَه، ولا يجري للمعرفة والتأنيث. ويقال هو فارسيٌّ معربٌ"[3]، و"جَهَنَّمُ - كَ: عَمَلَّسٍ - أَي: بَعِيدَةُ القَعْرِ"[4]، والعياذُ باللّه تعالى منها.

3) ﴿خَٰلِدًا﴾: "الخُلُودُ: هو تَبرّي الشّيءِ مِن اعتراضِ الفسادِ، وبقاؤُه على الحالة التي هو عليها، وكلُّ ما يتباطأُ عنه التّغييرُ والفسادُ تصفُه العربُ بالخلود، ويقال: خَلَدَ يَخْلُدُ خُلُودًا، والخُلُودُ في الجنّة: بقاءُ الأشياءِ على الحالةِ التي عليها من غير اعتراضِ الفسَادِ عليها، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39]"[5].

4) ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾: "خَزِيَ الرّجلُ: لحقَه انكسارٌ، إمّا من نفْسِه، وإمّا من غيرِه. فالذي يَلحَقُه من نفسِه هو الحياءُ المُفرطُ، ومصدرُه الخَزَايَةُ، ورجلٌ خَزْيَان، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعُه خَزَايَا. وفي الحديثِ: «اللهمّ احْشُرنا غيرَ خزايا ولا نادمين»[6]، والذي يلحقُه من غيره يقال: هو ضربٌ منَ الاسْتخفافِ، ومصدرُه الخِزْيُ، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [المائدة: 33]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل: 27]، وقولُهم: ذلّ وهان، متى كان من الإنسان نفسِه يقال له: الهَوْنُ والذُّلّ، ويكونُ محمودًا، ومتى كان من غيره يقال له: الهُونُ، والهَوَانُ، والذُّلّ، ويكونُ مذمومًا"[7].

5) ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾: "عَظُمَ الشّيءُ أصلُه: كَبُر عظْمُه، ثم استُعير لكلّ كبيرٍ، فأُجرِي مَجراه - محسوسًا كان أو معقولًا، عينًا كان أو معنى - قال اللّه تعالى: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣﴾ [الزمر:

(1) الرازي، مختار الصحاح: (حدد).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حدد).
(3) الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: (جهنم).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (جهنم).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلد).
(6) رواه أحمد، المسند، الحديث رقم: (15492)، بلفظ: «وَأَلْحِقْنَا بِالصَّالِحِينَ غَيْرَ خَزَايَا وَلَا مَفْتُونِينَ».
(7) الرّاغب، المفردات: (خزي).

13]، ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾ [ص: 67]، والعظيمُ إذا استُعمِل في الأعيان فأصلُه: أنْ يُقالَ في الأجزاءِ المتَّصِلة، والكثيرُ يُقالُ في المُنْفَصِلة، ثمّ قد يُقالُ في المنفصِل: عظيمٌ"(1).

المَعْنى الإجْماليُّ:

من حادَّ الله ورسُولَه، فمآلُه جهنَّم، مع الخِزيِ العظيمِ

هَذِهِ الآيَةِ بيانٌ لعقوبة المُنَافِقِينَ، والمعنى: "أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ المُنَافِقُونَ أَنَّ الشَّأْنَ وَالأَمْرَ الثَّابِتَ الحَقَّ هُوَ: أَنَّ مَنْ يُعَادِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِتَعَدِّي حُدُودِ اللَّهِ، أَوْ بِلَمْزِ الرَّسُولِ فِي أَعْمَالِهِ كَقِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ أَوْ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ كَقَوْلِهِمْ: هُوَ أُذُنٌ - فَجَزَاؤُهُ أَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا يَوْمَ القِيَامَةِ خَالِدًا فِيهَا لَا مُخْرِجَ لَهُ مِنْهَا، ذَلِكَ الخِزْيُ العَظِيمُ. أَيْ: ذَلِكَ الصَّلْيُ الأَبَدِيُّ هُوَ الذُّلُّ وَالنَّكَالُ العَظِيمُ، الَّذِي يَتَضَاءَلُ دُونَهُ كُلُّ خِزْيٍ وَذُلٍّ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا"(2)، "وكان النّبيُّ ﷺ طالَ مُكْثُه فيهم، وكثُر تحذيرُه إياهم عنِ المعصيةِ، وترغيبُه في الطّاعةِ"(3) فلم يَنتفِعُوا بذلك.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾:

زَجْرُ المُنافقِين عن سُلوكِهم الماثل، في الحَلِفِ بالباطل

الآيةُ السّابقةُ كانت جُملةً خبريّةً، تكشفُ للمسلمين حقيقةَ أنَّ المُنافقين يحلفون لكم ليرضوكم، ثم جاءت هذه الآيةُ إنشائيةً استفهاميّةً تُنكرُ على المنافقين تلك الجريمةَ المُركَّبَةَ منَ الحَلِفِ الكاذبِ، وابتغاءِ رضَا غيرِ اللّه تعالى بهذا الحَلِفِ.

وقدِ اقتضَى ذلك التّغايُرُ بين الأسلُوبَين الفصْلَ بينَهما كما جاءتِ التِّلاوةُ الكريمةُ، ويُعرف ذلك بكمالِ الانقطاعِ بين الجُملتَين، وهو انقطاعٌ في الظّاهر فقط؛ لأنّ الآيتين مُتواثقتان في الهدف،

(1) الرّاغب، المفردات: (عظم).
(2) محمد رضا، تفسير المنار: 10/452.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 3/496.

مُتعاضدَتان على تحقيقِه، والهدفُ زَجْرُ المنافقين عن هذا السّلوكِ المُشين لينتهُوا، وقد جاءت هذه الآيةُ - كما سبقَ عنِ ابنِ عاشورٍ - تعليلًا للآيةِ السّابقةِ، فصار بينَهما بهذا الاعتبارِ كمالُ اتِّصالٍ، وسُبحانَ من يجمعُ كلامَه بين الكمالَيْن.

الغَرَضُ منَ التَّعبيرِ الإنشائيِّ بطريقِ الاسْتِفهامِ المجازيّ:

التّسْجيلُ عليهم إيقاظٌ لهم من الغفلة، وتعليمهم من الجهالة

كان بالإمكانِ صياغةُ الفكرةِ في صُورةٍ خبريةٍ مثل: إنّه من يحاددِ اللّهَ ورسولَه فإنَّ له نارَ جهنّمَ؛ فيطّردُ الأسلوبُ منَ الآيةِ الخبريّةِ السّابقةِ إلى هذه الآية. غيرَ أنَّ التَّحوُّلَ بالأسلوبِ إلى الاستفهام يُوقِظُ المُتلقّي؛ فيجعلُه شريكًا في الكلام؛ لأنّه أسلوبٌ طلَبيٌّ يطلبُ إليه تنفيذَ شيءٍ، حتى، وإنْ خرجَ عن غَرَضِ الاسْتفهامِ الحقيقيِّ إلى غرضٍ آخرَ كما هنا؛ إذ إنَّ غرَضَ الاسْتفهامِ هنا مَجازيٌّ لا يَطلبُ جوابًا بتحصيلِ صُورةِ المُستفْهَمِ عنه؛ لأنَّ السّائلَ هنا تعالى لا تخفَى عليه خافيةٌ فيَستفهمُ، فالغَرضُ "التّوبيخُ على ما أقْدمُوا عليه مِنَ العظيمةِ مع علْمِهم بما سمِعُوا منَ الرّسولِ ﷺ بوخَامةِ عاقبتِها"[1] لِعدمِ جدوَى العلْمِ فيهم، والتقريرُ لهم بالعلْمِ بعقوبةِ مَن يُحادُّ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ، وهم أهلُ كتابٍ يعلمون عقوبتَه لا شكَّ، إن لم يكن من ديانتِهم فمِن ديانةِ النّبيّ ﷺ الذي مكث فيهم يدعُوهم ويعلّمُهم عددَ سنينَ، والمُرادُ توبيخُ المنافقين الّذين يحلِفون كذِباً لإرضاءِ النّاس في مغضبةِ اللّه تعالى، والمُسْتَنْكَرُ عليهم أهلُ كتابٍ لديهم عِلمٌ بِعُقوبة ذلك، وهم أعلمُ - حينئذٍ - بأنَّ مَن يُحادِدِ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ فإنّ مأواه جهنّم خالداً فيها، فالاستفهامُ يُلزِمُهم الحُجّةَ، ويُحقّقُ عليهم جريمتَهم، ويُوقظُها في نفوسِهم، ويَستدعِي عِلْمَهم الّذي صار وَبالًا عليهم.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/318، وخان، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/335.

سِرُّ التّعبيرِ بالمُحاددَةِ في الفعل: ﴿يُحَادِدِ﴾:

المـنـافـقـون يُواجهون الدِّينَ والأمّـةَ، بكلِّ حدَّةٍ وشِدَّةٍ

معنى يُحادِدُهُ أي: "يُجانِبُه ويُعادِيه، وحقيقتُه أنه يُقال: حادَّ فلانٌ فلاناً، أي: صار في حَدٍّ غيرِ حَدِّه"[(1)]، ويعني أيضًا: "مجاوزة حدودِها"[(2)]، فمن إشاراتِ مادّةِ (حادَدَ) - وهي مصوِّرةٌ بطبْعِها اللُّغويِّ المجرَّدِ - أنّها تُقيمُ في النّفسِ صورةَ حَدٍّ فاصلٍ بين جهتَيْن، وتجعلُ المنافقين في الجهةِ المُعاديةِ لدينِ اللّه تعالى ولرسولِه ﷺ، وتجاوُزِهم تلك الحدودَ. إلى ما في مادّةِ (حادد) من معنى الحدِّ الصّارمِ، كما يتجلَّى في وَصِيَّة الرّسولِ اللّه ﷺ في مُدْيَةِ التَّذْكِيَة: «ولْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَه، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَه»[(3)].

بَلاغةُ المَجازِ المُرسَلِ، في لفظِ ﴿يُحَادِدِ﴾:

لا أضرَّ على الأمّةِ والـدِّيـنِ، من خيانةِ المُنافقين المرجفين

ومن إشاراتِ إيثارِ لفْظِ المُحاددَةِ أيضًا أنّها: "مأخوذٌ من حديدِ السّلاحِ لاستعمالِه في المُعاداةِ"[(4)]، ففيها مجازٌ مرسلٌ علاقتُه الآليّةُ، وهي بهذا المفهوم تستجمعُ صُورتَين: اللُّغويّةَ المُجرّدةَ والبيانيّةَ المُصوِّرةَ، وهكذا المنافقون يَحتدُّون ضِدَّ الدِّين، ويُعادونَه بحدٍّ بَتّارٍ.. ولا يكونُ شيءٌ أحدَّ وأقطعَ للدِّين والأمّةِ ولا أضرَّ عليهما من خيانةِ المُنافقين، وتدبيرِهم بِخُبْثٍ خَفِيٍّ لا يَفْطِنُ له المسلمون، والمسلمون بِخاصَّةٍ لِبَرَاءَةِ نفوسِهم، وغفْلَتِهم عن نفاقٍ لَمْ يُجرِّبوه.

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ في لفْظِ ﴿يُحَادِدِ﴾:

المنافقُون بمنأى عن حدِّ الرُّسل الـكـرام، وهـم منهم برآء

في قولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ اسْتعارةٌ؛ إذ إنّ المُحاددَةَ على الحقيقةِ هي التّقارُبُ بالحدودِ، وذلك من صفاتِ الأجسامِ ذواتِ الحدودِ والأقطارِ، فالمرادُ بالمُحاددَةِ هنا كونُ الإنسانِ

(1) مكيّ، الهداية الى بلوغ النهاية: 4/3055.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/378.
(3) مسلم، الجامع الصحيح، بابُ الأمر بإحسان الذّبح والقتل، وتحديد الشّفرة، الحديث رقم: (1955).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/378.

في غير الحدِّ الّذي فيه رُسُلُ اللّه تعالى؛ فكأنّه في حدٍّ ورسلُ اللّه في حدٍّ آخرَ(1).

سِرُّ التّعْبيرِ بضَميرِ القِصّةِ قبْلَ بيانِها:

التّعظيمُ والتّهويلُ، بيانٌ لشأنِ المُعظَّمِ

ضميرُ القصّةِ هنا في كلمةِ ﴿أَنَّهُۥ﴾ من جُملةِ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾ وإلى هنا ليس للضّميرِ المُتّصلِ بِـ (أنّ) مَرْجعٌ يعودُ عليه، ممّا يَستفزُّ ذهنَ تالي الذِّكرِ الحكيم وذهنَ مُتَلَقّيه ومُسْتمعِيه، ويَستثيرُه نحو معرفةِ هذا المجهولِ الذي يتحدّثُ عنه قبْلَ تحديدِه ماذا يكونُ؟ وهذا من لَطائفه؛ "وفائدُتُه إلى ذلك مَزيدُ التَّعظيم والتَّهويلِ" للشّأنِ المقصودِ والقصّةِ قبْلَ إيرادِها، ولذلك يُؤْتَى به في المَقاماتِ المُهمّة، بلِ المُهمَّةِ جدًّا، مثلِ قولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: 1]، فلا أهمَّ من قضيّةِ التّوحيدِ، التي من أجلِها خلَقَ اللّه تعالى الثَّقَلين المُكلَّفين ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذّاريات: 56]، وكذلك الأمرُ هنا خطيرٌ؛ فهو مُعاداةٌ ومُحادَّةٌ لدِين اللّه تعالى ولرسولِ اللّه ﷺ.

سِرُّ خطابِ المسلمين، بوعيدِ المنافقين دونَهم، وهُمْ بين أَظْهُرِهم:

المنافقون جديرون بالتَّجاهُلِ من المُسلمين دوما

هذا الاسْتفهامُ الإنكاريُّ التّوبيخيُّ حقُّه أن يُصَبَّ فوق رؤوسِ المنافقين خطابًا لهم مُباشِرًا، وبخاصّةٍ أنّهم مُنْدَسُّون بين المسلمين، لكنَّ الذّكرَ الحكيمَ يَحُطُّ من شأنِهم بصرْفِ الخطابِ عنهم وإنْ كان وعيدًا ويَعتبِرُهم غائبين؛ إبعادًا لهم عن ساحةِ الطُّهْرِ، وإقصاءً لهم إلى حيث يَستحقّون هنالك في أوديةِ النّفاقِ المَقيتةِ، ولقد ظلَّ هذا النّمَطُ المُخْزي للمنافقين - من أهل الكتاب - في تراكيبِ السّورةِ الكريمةِ - التي تُسَمَّى سورةَ المنافقين الكبرى(2) - قبل هذه

(1) محمد عفيف، الشامل في بلاغة القرآن: 2/494.

(2) قال الثعلبي: "كانت تسمى هذه السورة الفاضحة والمثيرة والمبعثرة، أثارت مخازيهم ومثالبهم. قال الحسن: كان المسلمون يسمّون هذه السورة الحفّارة، حفرت ما في قلوب المنافقين فأظهرته". ينظر: الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: 5/64.

الآيةِ الكريمةِ بصفحاتٍ إلى نهاية السّورةِ الكريمةِ - في حوالي اثنتي عشرةَ صفحةً، كلِّها حَديثًا مُوجَّهًا إلى الرّسولِ ﷺ وصحابتِه الأخيارِ ما بين توجيهٍ وإرشادٍ، وما بين أمرٍ ونهْيٍ، وما بين تعريضٍ بالمنافقين وتصريحٍ بمخازِيهمُ الشّنيعةِ دون توجيهِ الخطاب لهم، وفي ذلك التّجاهُلِ لشأنِهم وَجْهُ تناسُبٍ بين طيِّهم خُبْثَهم وعقوبتِهم العاجلةِ بإهمالِهم طيَّ النّسيانِ؛ ولا شكَّ أنَّ لهذا الإبعادِ أثرًا نفسيًّا يذبحُهم، وبخاصّةٍ وهم يَرون أنفُسَهم هم النّاسَ، وأنّهم أهلُ العلْم وأهلُ الكتابِ المُتميّزون بين أهل الدّين الجديدِ الأُمِّيّين البُدَاةِ، ولذلك يقولُ القُشَيريُّ: "من كفر باللّه وأشرك في توحيده بإثبات موهوم اسْتَحقَّ ما هو حقٌّ للّه؛ تَعَجَّل عقوبتَه في الحال بِالفُرْقَة، وفي المآلِ بالخلودِ في الحُرْقَة"[1]، "وقُرئَ (أَلم تعلموا) بالتّاء على الالتفاتِ؛ لِزيادة التّقريعِ والتّوبيخ إذا كان الخطابُ للمنافقين لا للمؤمنين"[2]، وكلُّهم - طبعًا - عربٌ يفهمون مراميَ الكلام، ويقفون فيه بالفِطرةِ على أضعافِ ما نقفُ نحن بالتّعلُّم، و"(أَلم تعلم) خِطابٌ لِمن عَلِم شيئًا ثمّ نَسِيَه، أو أنكره، فيقال له: ألم تعلم أنّه كان كذا وكذا؟ ولَمَّا طال مُكْثُ رسولِ اللّه ﷺ بين أظهُرِ المؤمنين والمنافقين وعلَّمَهم مِن أحكام الدِّين ما يحتاجون إليه؛ خاطبَ المُنافقين بقوله: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾"[3].

بَلاغةُ التَّعريفِ بالموصولِ ﴿مَن﴾:

في التَّعريفِ بالاسْم الموصولِ (مَنْ) في قولِه تعالى: ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فضيلةٌ بلاغيّةٌ لا يُتيحُها غيرُه من أدواتِ التّعريفِ، هي كونُه يَفتحُ بابَ التّركيبِ لصياغةِ جُملةٍ جديدةٍ ذاتِ تفاريعَ دلاليةٍ ثَريّةٍ، تَطوي إشاراتٍ معنويةً فاعلةً في تعزيزِ الأغراضِ،

التّعبيرُ بالموصولِ، مفْضٍ إلى أنّ المحاددة هي مَحلُّ الجُرْمِ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/42.

(2) الآلوسي روح المعاني: 5/318.

(3) الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 2/378.

فالموصولُ هنا أتاحَ صِيغةَ المضارعةِ بعطائِها الحيِّ المُتجدِّدِ، الذي يكشفُ عن تتابُعِ المُعاداةِ وتَجدُّدِها منَ المنافقين المُبغِضين لدينِ اللّه تعالى ولرسولِه الكريم ﷺ ولصحْبِه الأخيار. وقد امتدَّت منهم تلك المُحادَدَةُ إلى سنواتٍ حتى تَطهَّرت منهمُ المدينةُ المنوّرةُ، واستتبَّ لها النّظامُ والأمانُ، كما أتاح الموصولُ تعميمَ الحُكمِ: ﴿مَن يُحَادِدِ﴾، وتثبيتَه لكلِّ مَن يستحقُّه، كذلك هيَّأ ذكرُ الموصول لصِيغةِ المضارع التي تستحضرُ علمَ المنافقين بأنَّ محادَّةَ دينِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ تُوجبُ لهم نارَ جهنّمَ، وما تَستلزمُه مِنَ الخزيِ العظيمِ.

فكُّ الإدغامِ يُناسبُ تعديدَ المُنافقين

وَجهُ فَكِّ الإدغامِ في ﴿يُحَادِدِ﴾:

في فكِّ إدغامِ الدّالِ المُشدّدةِ في ﴿يُحَادِدِ﴾ تَناسُبٌ جَليٌّ لِتعديدِ المنافقين وتَكريرِهم أيْمانَهم الكاذبةَ، ويُؤازرُ صِيغةَ المضارعةِ التي صُبَّت فيها مادّةُ المُحاددة. "وَلَمْ يُدْغَمَا لِأَنَّهُ وَقَعَ مَجْزُومًا، فَجَازَ فِيهِ الفَكُّ وَالإِدْغَامُ، وَالفَكُّ أَشْهَرُ وَأَكْثَرُ فِي القُرْآنِ، وَهُوَ لُغَةُ أَهْلِ الحِجَازِ، وَقَدْ وَرَدَ فِيهِ الإِدْغَامُ نَحْوَ قَوْلِه: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:4] فِي قِرَاءَةِ جَمِيعِ العَشَرَةِ وَهُوَ لُغَةُ تَمِيمٍ"[1].

مُعاداةُ دينِ اللّه، ورسولِه المبلّغ الأمين، مُعاداةٌ للّه ربّ العالمين

براعةُ حذفِ المضافِ، وإقامةِ المُضافِ إليه مَقامَه:

لا أحدَ يَجرُؤُ على أن يُحادِدَ اللّه تعالى، أو أنْ يحاددَ عبادَ اللّه، ومن يحاددُهم في المدينةِ المنوّرةِ - مثلًا - «أَذَابَهُ اللّهُ فِي النَّارِ ذَوْبَ الرَّصَاصِ، أَوْ ذَوْبَ المِلْحِ فِي المَاءِ»[2]، فلا يقدرُ أحدٌ على مُحادّة اللّه تعالى، غيرَ أنّ إيقاعَ الفعلِ ﴿يُحَادِدِ﴾ على لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ - وهو في الحقيقةِ إنّما يُوقَعُ على دينِ اللّه تعالى وعلى رسولِ اللّه ﷺ وعلى عبادِ اللّه - يَنْقُلُ القضيّةَ إلى أُفُقٍ لا طاقةَ لأحدٍ به؛ فناسبَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/246.

(2) مسلم، صحيح مسلم، بابُ فضل المدينة...، وبيان تحريمها، وتحريم صيدها وشجرها، وبيان حُدُود حرمها، الحديث رقم: (3163).

حذْفُ المُسنَد إليه وربطُ المُحادّةِ باللّه تعالى مباشرةً فظاعةِ الجُرْم؛ لأنّ دينَ اللّه تعالى ولأنّ رسولَ اللّه ﷺ ولأنّ عبادَ اللّه أجمعين إنّما يَستمدُّون خَطَرَ الاعتداءِ عليهم من إضافتِهم ونِسْبَتِهم إلى اللّه تعالى؛ فكان في حذْفِ المضاف وإقامةِ المُضاف إليه مقامَه تفظيعٌ لهذا الصّنيعِ العظيمِ يحملُ على مُجانبتِه والحذَرِ منه.

بَلاغةُ عطْفِ الرّسولِ ﷺ على لفْظِ الجلالةِ:

اللّـه تعالى يحفظُ رسولَه الخاتم، ويُحيطُه بالمَهابةِ والتّكريم

العطفُ في جُملة: ﴿يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ من تكريم اللّه تعالى لرسولِه ﷺ، وقد تكرّرَ في الذّكرِ الحكيم حوالَيْ ثمانينَ مرّةً، وفي ذلك العطفِ - فضلًا عن كونِه تَشريفًا وتكريمًا لرسولِ اللّه ﷺ - إضفاءٌ للهيْبةِ على الرّسولِ ﷺ، وإبرازُ هيبَتِه ﷺ يكونُ في كلِّ مقامٍ بحسبِه، فالهيْبةُ هنا وعيديّةٌ تهديديّةٌ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ [البقرة: 279]. وقد تكونُ الهيبةُ تكريميةً كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 20]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبة: 29]، ولو ذُكِرَ المضافُ فكان السّياقُ: من يحادِدْ دينَ اللّه، أو: من يحادِدِ الدّينَ والرّسولَ لَافْتُقِدَتْ تلك الهيبةُ، مع كونِه رسولًا مُكرَّمًا، لكنّها تَعْظُمُ حين يُحيطُ ذِكْرُ اللّه تعالى باسْمِ رسولِه ﷺ من جهتَيْه: مرَّةً قبْلَه بالاسْمِ الظّاهرِ ﴿ٱللَّهَ﴾، ومرّةً بعدَه بالضّميرِ ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾، وكأنّها الحصانةُ والأمانُ يَحُوطانِه ﷺ ويَشملانِه ويُضْفيانِ عليه المَهابةَ ﷺ.

دَلالةُ (الفاءِ) الدّاخلة على أداة التّوكيد ﴿فَأَنَّ﴾:

استحقاقُ الخُلود في النّارِ، بما كسبَتْه أيْدِي المنافقين والكفّار

العطفُ بالفاء في ﴿فَأَنَّ﴾ للإيذان بأنّ ما بعدَها مُسبّبٌ عمّا قبْلَها، فالخلودُ في نارِ جهنّمَ اسْتحقَّ عليهم بما قدّمُوه من نفاقٍ ومُحادّةٍ للّه ورسولِه(1).

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

من بَلاغةِ التّوكيدِ في الجُملةِ المصدّرة بلفظ ﴿فَأَنَّ﴾:

النّفاقُ متأصِّلٌ في المنافقين، فنُزِّلوا مَنزلةَ من يجهلُ الحقائقَ

قالُوا هنا: "لَمَّا طالَ الكلامُ أُعيدَ ﴿فَأَنَّ﴾ ليكونَ أوْكدَ، ويجوزُ كَسْرُ (فإنّ) على الاسْتِئناف بعدَ الفاء"[1]، على أنّه منَ المعلوم أنّ "البُعْدَ لَا يَمْنَعُ مِنْ صِحَّةِ العَطْفِ"[2]، وعليه فإنّ النَّظْمَ الكريمَ قد آثرَ تَكرارَ التَّوكيدِ ليتكاثرَ في العبارةِ، ولِتتآزرَ عناصرُه فيَتقرَّرَ الحُكمُ على المنافقين، ولعلَّه يكونُ أجْدَى في إزاحةِ الخُبْثِ من نفوسِهم؛ فتستقرَّ حياةُ المسلمين، وتطهُرَ الأمَّةُ من شرورِهم، ولكنْ هيهاتَ! وبهذا يكشفُ اللّه تعالى للأمّة تَمَكُّنَ النّفاقِ من نفوسِ المنافقين برغْم تكاثُفِ عناصرِ التّوكيدِ في معْرِض تهديدِهم وزجْرِهم. وتوكيدُ الخبرِ بـ (أنّ) واسْميّة الجملة؛ لأنَّ المنافقين مع علْمِهم بهذه الحقيقةِ نُزِّلُوا منزلةَ من يجهلُها ويُنكرُها لعدَمِ جَرْيِهم في الاعتقادِ والسّلوكِ وَفْقَ ما يَقتضيه علْمُهم[3].

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾:

الحُكمُ على المُنافقين بالنّارِ، مُحقَّقٌ لا شكَّ فيه

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، التّقديمُ هنا يَقْضِي في ظاهرِه باختصاصِ هذا الذي يُحادِدُ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ بالنَّارِ، وقَصْرِها عليه دونَ سِواه، وهذا صحيحٌ إنْ مات كافرًا ولم يَتُبْ من نفاقِه، وأصلُ التّركيبِ لُغويًّا: فإنَّ نارَ جهنّم له؛ أي: مُستحَقّةٌ ثابتةٌ مقطوعٌ له بها، غيرَ أنَّ النَّظْمَ الحكيمَ تصرَّفَ في ترتيب تلك العناصرِ بما يَدْعمُ الغَرضَ؛ فقدّم الجارَّ والمجرورَ ﴿لَهُۥ﴾، وكأنَّ نارَ جهنّمَ إنّما خُلقت له وحْدَه، وخُصَّتْ به لا يُشاركُه فيها غيره.

والقرآنُ الكريمُ يقولُ صراحةً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾، لكنْ باعتبارِ أنَّ النّارَ أيضًا عقوبةٌ

(1) الواحديّ، التفسير البسيط: 10/531.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/91.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

تَهْذيبٍ للمُوحِّدِ العاصِي - واللّهَ تعالى نسألُ العفْوَ والمغفرةَ لنا جميعًا - يكونُ عطاءُ التّقديمِ توكيدَ تعذيبِ المُنافقِ، والقطعَ له بذلك بِغَضِّ النَّظرِ عن غيرِه، وأنّه لن ينجُوَ منَ النّارِ بِحالٍ. وقد بدأ اللّه تعالى بالمنافقين في الحُكْمِ بالنّار في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140] والعِياذُ باللّه من حالِ أهلِ النّارِ.

وجْهُ المناسبةِ بين لفْظِ ﴿جَهَنَّمَ﴾، وجريمةِ النِّفاقِ ومُقترفِها:

النّفاقُ مَخفيٌّ في سُوَيْداءِ القلْبِ فيَستحقُّ عقوبةً في قاعِ النّارِ

قال ابنُ عاشورٍ: "وَجَهَنَّم عَلَمٌ عَلَى دَارِ العِقَابِ المُوقَدَةِ نَارًا... مُشْتَقٌّ مِنَ الجَهْمِ وَهُوَ الكَرَاهِيَةُ"[1]، و"أَهْلُ اللُّغَةِ يَحْكُونَ عَنِ العَرَبِ أَنَّ البِئْرَ البَعِيدَةَ القَعْرِ تُسَمَّى الجِهِنَّامَ عِنْدَهُمْ، فَجَازَ فِي جَهَنَّمَ أَنْ تَكُونَ مَأْخُوذَةً مِنْ هَذَا اللَّفْظِ، ومعنى بُعْدِ قَعْرِهَا: أَنَّهُ لَا آخِرَ لِعَذَابِهَا"[2].

فإيثارُ النّظْمِ الكريمِ هنا اسْمَ ﴿جَهَنَّمَ﴾ - دونَ غيرِه من أسماءِ النّارِ - يُحقِّقُ المناسبةَ بين طبيعةِ الجريمةِ المُستكِنّةِ في قلوبِ المنافقِين وبين تَغْيِيبِهم في قاعِ الجحيمِ، ويتَّسقُ مع ذلك تمامَ الاتّساقِ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]، وكذلك يُحقّقُ المُناسبةَ بين معنى الجهْمِ - وهو الكراهيةُ - وبين ذميمِ النّفاقِ الكريهِ لدى اللّه تعالى ولدَى رسولِه ﷺ ولدى المسلمين جميعًا، والعياذُ باللّه تعالى.

سِرُّ القيْدِ بالحالِ ﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾:

المُنافقُ خالدٌ في نـارِ الآخِـرةِ، لا يُفارِقُها قطُّ

هذا القيْدُ بالحالِ يَتَّسِقُ - في دَلالةِ القطْعِ بالخُلودِ في نارِ جهنَّمَ للمنافقين - مع دَلالةِ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾، ويُوَجِّهُ دَلالةَ تقْديمِه إلى إفادةِ القصْرِ، وأنَّ الخلودَ في نارِ جهنَّمَ مُختصٌّ بمن يُحادِدِ اللّه تعالى ورسولَه ﷺ؛ لأنَّ الخلودَ فيها - كما سبقَ القولُ -

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/271.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/92.

يَختصُّ بالكافرِ المُعادِي لدين اللّه تعالى ولرسولِ اللّه ﷺ، لا يَتعدَّاه إلى المُوَحِّدِ العاصِي، الذي قد يُغْمسُ في النّارِ للتَّطْهيرِ لا للتَّخْليد.

نُكتةُ إفرادِ ﴿لَهُۥ﴾ و﴿خَٰلِدٗا﴾:

الإفرادُ في ﴿لَهُۥ﴾ و﴿خَٰلِدٗا﴾ من قولِه تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ﴾ مرادٌ به العمومُ؛ إذِ المُعوّلُ عليه في هذا المصيرِ المُؤلمِ هو الصّفةُ، فمن تحقّقتْ فيه فهو المُتوعَّدُ بالخلودِ في نارِ جهنّم(1).

من تحقّقتْ فيه صفةُ النّفاقِ، فإنَّ مصيرَه إلى النّارِ، وبئس القرار

عِلّةُ صياغةِ الحالِ ﴿خَٰلِدٗا﴾ اسمَ فاعلٍ:

آثرَ النّظْمُ الكريمُ اسْمَ الفاعل ﴿خَٰلِدٗا﴾ دونَ اسْمِ المفعول: مُخَلَّدًا؛ وذلك يُلْمِحُ إلى أنّ هذا المنافقَ هو من اسْتوجبَ بنفسِه لنفسِه الخلودَ في النّارِ، وأنّها لم تُفْرَضْ عليه قَسْرًا من قِبَلِ اللّه تعالى؛ فلا يَتَعَلَّلَنَّ أحدٌ بأنّ الخلودَ في النّار مكتوبٌ مقدورٌ عليه، وأنّه جُبِرَ عليه جبْرًا ولا ذنْبَ له فيه، وهكذا وردَ كلُّ قيدٍ بالحال في الذّكرِ الحكيم مُشابِهًا لهذا القيْد، جمْعًا كان أو مُفردًا، جمْعًا: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾، ومُفردًا: ﴿خَٰلِدٗا فِيهَاۚ﴾، وسواءً أكان هذا الحالُ من أصحاب الجنّةِ أم كان من أصحابِ النّارِ؛ وكأنّي بتلك الصّيغةِ تُحِيلُ على صاحبِها سَببيَّةَ خلودِه في النّارِ إن كان السّياقُ للتّعذيبِ، وتُحيلُ على صاحبِها سببيَّةَ خلودِه في الجنّةِ إن كان السّياقُ للتّكريم، فضْلًا عن دَلالتِه، أي: (اسم الفاعل: خالدا) على حالة الخلودِ، والبقاءِ الأبديِّ بما يتضمّنُه اسْمُ الفاعل من معنَى الدّوامِ التّجدُّديِّ، وتَجَدُّدِ الحدوثِ وتَكرارِه.

المُنافقُ هو الّذي اسْتوجبَ النَّارَ بنفْسِه، ولم تُفرَضْ عليه

دَلالاتُ عَوْدِ الضّميرِ المجرورِ ﴿فِيهَاۚ﴾:

ضَميرُ المؤنّثِ المجرورِ في لفْظِ: ﴿فِيهَآ﴾ يُطابقُ الـ ﴿نَارَ﴾ كما يُطابقُ ﴿جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ كلتيهما تُوصَفان بالمؤنّث، قال تعالى: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ [النساء: 93]، وقال اللّه تعالى: ﴿تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ٤﴾

الهَلكةُ والضَّياعُ مآلُ المنافقين، بما اقترفوا من إثم مبين

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19.

[الغاشية: 4]، وإمكانُ تطابُق ضميرِ المؤنّث: ﴿فِيهَاۖ﴾ لِهذين العُنْصُرَين يَجعلُ الـ ﴿نَارَ﴾ مُستقرًّا لِخلوده كما يجعلُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مُستقرًّا لخلوده، وذلك يَقضِي عليه بالهَلَكةِ والضَّياعِ قطْعًا؛ وهذا التَّضافُرُ يتآزرُ مع بقيّةِ عناصرِ التّركيبِ، في تقريرِ الحُكمِ؛ فهو إذن من خصائصِ التّركيبِ الخادمةِ بقُوّةٍ.

بَلاغةُ الفصْلِ في: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

تقريرُ الإهانةِ والافْتِضاحِ، جزاء نفاقهم بالغدوِّ والرّواح

هذه "الجملةُ تذييلٌ لِمَا سَبقَ"[1]، فُصِلتْ عمّا قبْلَها لِما بينَهما مِن كمالِ اتِّصالٍ في المعنَى؛ لأنَّ معنَى الجُملةِ الثّانيّةِ منهما مُقَرِّرٌ لِمعنَى الأُولَى؛ إذِ الأُولَى تُفيدُ خُلودَ المنافقِ المُحادِدِ في نار جهنّم، والثّانيّةُ تُفيدُ أنَّ ذلك الخلودَ فيها هو الخِزيُ العظيمُ، فالتقتِ الجُملتان على تقريرِ تعذيبِه وإهانتِه وافتضاحِه، وكذلك بينَهما من وجْهٍ آخرَ كمالُ انْقطاعٍ في اللّفظ؛ إذِ الأُولَى إنشائيّةٌ نوعُها اسْتفهامٌ، والثّانيّةُ خبريّةٌ، فتبايَنَتا من هذا الوجْهِ فوجبَ كذلك الفصْلُ بينَهما لكمالِ الانقطاعِ.

دَلالةُ الإشارةِ في: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ﴾:

اختصارٌ بالإشارة لِمَا مضَى، ومبالغة في فظاعةِ الخِزيِ وهوله

من فضائلِ اسْمِ الإشارةِ (ذا) أنّه يَجمعُ أطرافَ الحديثِ السّابقِ مهما تكاثرتْ، ويَضغطُها كلَّها في حرفين (ذا) لِيُصَبَّ عليها كلِّها الحُكمُ بالخبرِ دَفْعةً.

والذي سبقَ هنا هو تفاصيلُ وعيدِ المنافقين، والحُكمُ هو خلودُهم في نار جهنّم؛ فجاءتِ الإشارةُ لِتُلَمْلِمَ تفاصيلَ ذلك، وتُفرِغَ عليه الحُكمَ عن قُربٍ بأنّه خزيٌ، بل ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ المَهُولُ، والعياذُ باللّه تعالى من حالِ أهلِ النّارِ. وفي ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ﴾، إشارةٌ بالبعيد دونَ القريبِ؛ لتهويلِ الخِزْيِ، وللإيذان ببُعْدِ درجتِه في الشّناعةِ والفظاعةِ، وبلوغِه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/319.

الغايةَ فيهما، وقد قامَ اسْمُ الإشارةِ مَقامَ العاطفِ الرّابطِ بين جوابِ الشّرطِ المُتقدّم على هذه الجُملةِ وبيّنَها[1].

نكتة إيثارِ لفظ ﴿ٱلْخِزْىُ﴾:

(الخِزْيُ) أشدُّ منَ الذُّلِّ وأقسَى، وفيه معنى الهوان والضّعة

"الخِزْيُ بِالكَسْرِ ذُلٌّ فِي النَّفْسِ طَارِئٌ عَلَيْهَا فَجْأَةً لِإِهَانَةٍ لَحِقَتْهَا، أَوْ مَعَرَّةٍ صَدَرَتْ مِنْهَا، أَوْ حِيلَةٍ وَغَلَبَةٍ تَمَشَّتْ عَلَيْهَا وَهُوَ اسْمٌ لِمَا يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ"[2]، ولمَّا كان ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ يَحملُ معنَى المَهانةِ والانْكسارِ والانقماعِ كانتْ مادَّته اللّغويّةُ، مادّةً مُصَوَّرةً بطبيعتها المجرّدةِ منَ التَّصويرِ البَيانيِّ؛ فهي تُقيمُ في النّفسِ صورةَ شخصٍ مُنكسِرٍ مقْموعٍ؛ ولذلك كان الخِزْيُ فوقَ الذُّلِّ افتِضاحًا وهَوانًا؛ كما يقولُ صاحبُ الفُروقِ.

نُكتةُ تعريفِ ﴿ٱلْخِزْىُ﴾، ودلالته:

جزاءُ المُنافقِ (الخِزْيُ) يومَ القيامةِ الّذي لا يُقارَنُ

تعريفُ ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ في هذا المقام - مقام مُحادَدَةِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ - قائلٌ: إنّه أقصَى ما يُمكنُ أن يكونَ من أنواعِ الخِزْيِ والذُّلِّ والهَوانِ وأقْسَاه على النّفوسِ، وذلك هو ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ الذي يَتجرّعُه المنافقُ، والتّعريفُ يُوحِي بأنَّ خِزْيَ هؤلاءِ هو ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ الذي لا خِزيَ فوقَه، وأنّ أنواعَ ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ كلَّها إذا قِيسَتْ به لا تُعَدُّ خِزْيًا؛ لذلك وَصفَه النّظمُ الكريمُ - هنا بخاصّةٍ - بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كما سيأتي بيانُه قريبًا إن شاءَ اللّه تعالى.

سرُّ وصْفِ ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾:

الحَلِفُ بالعظيم كَذِبًا، يَجرُّ إلى الخِزْيِ (العظيم)

وصَفَ الذّكرُ الحكيمُ ﴿ٱلْخِزْىُ﴾ هنا بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، ولم يرِد موصوفًا به إلّا في هذا الموضعِ؛ لأنّه المَقامُ الذي جَمعَ بين ذِكرِ مُحادَّةِ اللّه تعالى ورسولِه ﷺ - والمُحادّةُ في الأصل عملُ الكفَّارِ المُتبجِّحين

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/19، ومحمّد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/494.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/591.

بكُفرِهم[1] - وبين الحَلِفِ كذبًا نِفاقًا للمسلمين وعدَمِ اكتراثٍ بِجلالِ اليمينِ من قِبَلِ المنافقين - وهم أهلُ كتابٍ يُفترَضُ أنّهم يعلمون خطَرَ الاسْتهانةِ بيمين اللّه تعالى - وهما أعظمُ جريمتَيْن تكونان من مخلوقٍ تجاهَ الخالقِ العظيم تعالى؛ لذلك جَمعَ النّظمُ الكريمُ لهما ﴿ٱلۡخِزۡيُ﴾ مع وصْفِ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾، ووصْفُ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ يَرِدُ في الذّكرِ الحكيمِ لِلفَوْزِ والنَّعيم، كما يقعُ للخزيِ والعذاب، فإذا وقع للفوزِ والنّعيمِ انصرفَ إلى معنى العَظَمَةِ والجمالِ، وإذا وقع للخِزيِ والعذابِ انصرف إلى مع معنى العِظَمِ والخطورةِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخِزْيُ والذّلُّ:

الخِزْيُ مَهانةٌ مـع انْـقِـمـاعٍ وافْـتِـضـاحٍ، والـذّلُّ خضوع واستكانة

الخِزْيُ ذلٌّ مع افتضاحٍ، وقيل هو الانقماعُ لِقُبحِ الفعلِ، والخزايةُ: الاسْتحياءُ؛ لأنه انْقماعٌ عنِ الشّيءِ لِما فيه منَ العيْبِ، وهو: الإقَامَةُ على السُّوءِ"[2].

ويَحْملُ الخِزْي معنَى المَهانةِ والانكسارِ والانْقِماعِ، أمّا الذُلُّ: فأصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخضوعِ، والاسْتكانةِ، واللّينِ، والانقيادِ كرهًا، وهو ضدُّ العزّ[3].

وبهذا يتبيَّنُ أنّ دلالةَ الخِزْيِ أقوَى في الذّمِّ، وأشدُّ في العقوبةِ؛ ولأجل ذلك اصْطُفِيَ في الآيةِ الكريمةِ زيادةً في ذمِّ من يُحادِدِ اللّه ورسولَه؛ ولِيُناسبَ شنيعَ فعْلِهم.

(1) أحمد سعيد، من لطائف الملاءمة بين المقال والمقام في وصْفَي العذاب بالمهين والأليم في الذّكر الحكيم، مجلة قطاع كليات اللغة، العدد الثاني، 2008، ص: 1045.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 215.

(3) ابن فارس مقاييس اللّغة: (ذل)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 250.

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التّوبة: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُتابَعةُ كشفِ خبايَا المُنافقين، وتحذيرهم من مغبّة الاستهزاء بالدّين

ما زال السِّياقُ الكريمُ يُتابعُ كشْفَ خبايَا المُنافقين للمسلمين، ويُعَرِّي لهم جرائمَ نفاقِهم التي حاولُوا طويلًا تَغطيتَها ولو بالإيمانِ الكاذبةِ إرضاءً للمسلمين، حتى يبلغَ السّياقُ هنا مبلغَ التّصريحِ بذكْرِ المُنافقين مباشرةً - وَقَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى - بعدَما طالَ الحديثُ عنهم بطريقِ الكنايةِ بذكْرِ قبائحِهم واحدةً واحدةً، وبعدَ تَكرارِ ذِكْرِ صنوفِهم المَقيتةِ بِلفْظِ: ﴿وَمِنۡهُم﴾ من يفعلُ كذا ﴿وَمِنۡهُم﴾ من يفعلُ وكذا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡذَرُ﴾: "الحَذَرُ: احترازٌ من مُخيفٍ، يقال: حَذِرَ حَذَراً، وحذرتُه، قال تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9]، وقال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: 71] أي: ما فيه الحَذَرُ مِنَ السّلاحِ وغيرِه"(1).

و"رجل حَذِرٌ وحَذُرٌ أَي: متيقّظ متحرّز... وقد وردَ الحَذَرُ في القرآن على ثلاثةِ أَوجُه: الأَوّلُ بمعنى الخوفِ والخطر ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ [آل عمران: 28، 30] أَي: يُخوِّفُكم. الثَّانى: بمعنى الإِباءِ والامْتناعِ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة: 41] أَي: امتنعُوا. الثّالثُ: بمعنى كِتمانِ السّرِّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64] أَي: مَظهرٌ ما تكتمُون"(2).

2) ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: يُقال: "نَفَقَ الشَّيءُ: مَضَى ونَفِدَ، والنَّفَقُ، يَدلّ

(1) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(2) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (حذر).

على إخفاءِ الشيءِ وإغْماضِه.والنِّفَاقُ، وهو الدّخولُ في الشَّرْعِ من بابٍ والخروجُ عنه من باب، وعلى ذلك نبَّه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ [التوبة: 67] أي: الخارجون منَ الشَّرْعِ، وجعل اللّه المُنافقين شَرّاً منَ الكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]"(1).

3) ﴿سُورَةٌ﴾: "السُّورَةُ: المنزلةُ الرّفيعةُ... وسُورُ المدينةِ: حائطُها المُشتمِلُ عليها، وسُورَةُ القرآن تشبيهًا به لكونِها مُحاطًا بها إحاطةَ السُّورِ بالمدينةِ، أو لكونِها منزلةً كمنازلِ القمرِ، ومن قال: سُؤرةٌ فمن أسأرتُ، أي: أبقيتُ منها بقيّةً، كأنّها قطعةٌ مُفردةٌ من جُملةِ القرآن، وقولُه: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: 1]، أي: جُملةٌ من الأحكامِ والحِكَمِ، وقيل: أسأرتُ في القدحِ، أي: أبقيتُ فيه سؤرًا، أي: بقيّةً"(2).

و"سورةٌ - بالهمز وبتركه -، بغير الهمْز من سَوْرة الأَسد، وسَورةِ الشّرابِ، بمعنى القُوّةِ؛ لأَنَّ قوَّةَ السُّورةِ أَكثرُ من قوّة الآيةِ؛ أَو منَ السُّور بمعنى الجماعةِ، يقال: لفلانٍ سُورٌ منَ الإبل أَي: جماعة؛ لأَنَّ السُّورةَ مُشتمِلةٌ على جماعة الآياتِ، أَو منَ السُّورِ المحيطِ بالأَبنيّةِ؛ لأَنَّ السُّورةَ مُحيطةٌ بالآياتِ، والكلماتِ، والحروفِ، مُشتملةٌ على المعاني منَ الأَمرِ والنَّهْي، والأَحكام، وإذا قلتَ بالهمْز فيكونُ من سُؤرِ الكأْس - وهو ما يبقَى فيه منَ الشّراب - لأَنَّ كلَّ سُورةٍ منَ القرآن بقيَّةٌ منه. ويُقالُ: إنَّ السُّورَ (بلا همز) بمعنى الرَّفعةِ والمنزلةِ، وسُوَرُ القرآن هكذا مُتفاوتةٌ: بعضُها فوق بعضٍ من جهة الطُّولِ، والقصْرِ، وفي الفضلِ، والشّرفِ، والرُّتبةِ"(3)، وسُورةٌ هنا تعي: "قطعةٌ منَ القرآن شديدةُ الانتظام"(4).

4) ﴿تُنَبِّئُهُم﴾: "**النَّبَأُ**: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علْمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتى يتضمّنَ هذه الأشياءُ الثّلاثةُ، وحقُّ الخبرِ الذي يقالُ فيه نَبَأٌ أن يَتعرَّى عن الكذبِ، كالتّواتُرِ، وخبَرِ اللّه تعالى، وخبرِ النّبيِّ ﷺ. ولِتضمُّن النَّبَإِ معنَى الخبرِ يقالُ: أَنْبَأْتُهُ بكذا كقولك: أخبرتُه بكذا، ولِتضمُّنِه معنى العِلْمِ قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلَمْتُه كذا. قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص: 67، 68]... فتنبيهُ أنّه

(1) الرّاغب، المفردات: (نفق)، والفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: (نفق).
(2) الرّاغب، المفردات: (سور).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/84.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/515.

إذا كان الخبرُ شيئًا عظيمًا له قدْرٌ فحقُّه أن يتوقّفَ فيه، وإن علِمَ وغلَبَ صِحّتَه على الظّنِّ حتى يُعادَ النّظرُ فيه، ويتبيّنَ فضلَ تبيُّنٍ، يقال: نَبَّأْتُه وأَنْبَأْتُه. قال تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: 31]... ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣﴾ [التحريم: 3]، ولم يقُلْ: أَنْبَأني، بل عَدَلَ إلى نَبَّأَ الّذي هو أبلغُ تنبيهًا على تحقيقِه وكونِه من قِبَلِ اللّه، وكذا قولُه: ﴿قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾"(1).

5) ﴿قُلُوبِهِمۡۚ﴾: جمعُ قَلْبٍ، و"قَلْبُ الشّيءِ: تصريفُه، وصَرْفُه عن وجه إلى وجهٍ... والانْقِلابُ: الانصرافُ، قال: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [آل عمران: 144]... وقَلْبُ الإنسانِ قيل: سُمّيَ به لكثرةِ تَقَلُّبِه، ويُعبَّرُ بالقلْبِ عنِ المعاني التي تختصُّ به منَ الرُّوحِ والعِلْمِ والشّجاعةِ وغيرِ ذلك، وقولُه: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي: الأرواحُ. وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37] أي: علْمٌ وفهْمٌ... وتَقْلِيبُ اللّه القلوبَ والبصائرَ: صرْفُها من رأيٍ إلى رأيٍ، قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [الأنعام: 110]، وتَقْلِيبُ اليدِ: عبارةٌ عنِ النّدمِ ذكْرًا لحالِ ما يوجدُ عليه النّادمُ، قال: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ [الكهف: 42] أي: يُصفّقُ ندامةً"(2).

6) ﴿ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾: "الهُزْءُ: مَزْحٌ في خِفْيَة، تقول: هَزِئْتُ من فُلانٍ، وهزِئْتُ بِه... هُزْءاً وهُزُؤاً، سَخِرْتُ. وهَزَأْتُ به أيضاً، وقد يُقال الهُزْؤ لِمَا هو كالمَزْح؛ فممّا قُصِدَ به المَزْحُ قولُه تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ﴾ [البقرة: 67]، وقولُه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: 9]، عَظَّمَ تَبْكِيتَهم ونَبَّهَ على خُبْثِهم من حيثُ إنَّه وصَفَهم بأنَّهم بعْدَ العِلْمِ بها والوُقوفِ على صِحَّتِها يَهْزَؤُون بها.

وإن كان قد يُعَبرُّ به عن تَعاطِي الهُزْءِ، كالاستِجابَةِ في كَوْنِها ارْتِياداً للإجابة، وإن كان قد يَجْرِي مَجْرَى الإجابةِ. وقال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التوبة: 65]"(3).

7) ﴿مُخۡرِجٞ﴾: "خرَجَ فلانٌ وغيرُه: بَرَزَ من موْضِعِه أو مَقرِّه وظهرَ، ضدُّ دخَلَ:

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).

(3) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (هزء).

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: 58]، وخرَجَ العملُ إلى النُّور: ظهرَ، وأخرجَ الشَّيءَ: أبرزَه وأظهرَه... وأخرجَ اللّهُ ما في قلبه: أظهره: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمد: 29]"[1]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ أي: مُظهِرٌ ما تكتمون"[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

يترقَّبُ المُنافقون فضْحَ سَرائِرِهم، بالوحي الكاشف للاستهزاء الخفيّ

معنَى الآيةِ الكريمةِ: يترقَّبُ المُنافِقون بتَوَجُّسٍ أن يَفضَحَ اللّه تعالى سرائرَهم، وأن يَكشفَ للمسلمين قبائِحَهم، في سُورة - يُنَزِّلُها على رسولِه ﷺ - تَصُبُّ عليهم الخِزيَ والعارَ؛ وقد كانوا "يَقُولُونَ القَوْلَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَى اللّه أَلَّا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا"[3]؛ فهدّدَهم اللّه تعالى بأمرٍ غاضبٍ ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ بأنّه "سَيُنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحُكُمْ بِهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ"[4].

وكان ذلك التّهديدُ جديرًا بأن يرُدَّهم عنِ الكيْدِ للدّين، ولكنَّ النّفاقَ أعمَى قلوبَهم حتى تحقّقَ فيهم التَّهديدُ، وأظْهرَ اللّه تعالى أضْغانَهم، فأجْلاهُمُ الرّسولُ ﷺ منَ المدينةِ المنورةِ، ومَزَّقهم أشتاتًا إلى حيث يَستحِقُّون.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاسْتئنافِ بلفظ ﴿يَحۡذَرُ﴾:

إظهارُ الإيمانِ بالمُعجزاتِ، يَكشفُ خوْفَ المُنافقين منَ الفَضْحِ

فُصِلتْ جُملةُ ﴿يَحۡذَرُ﴾ عن جُملةِ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿يَحۡذَرُ﴾ خبرٌ، والسّابقةُ كانت إنشاءً نَوْعُه استفهامٌ، كذلك جُملةُ ﴿يَحۡذَرُ﴾ "اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ لِذِكْرِ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ جَمِيعِ المُنَافِقِينَ...

(1) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خرج).
(2) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (حذر).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/170.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/171.

وَهُوَ إِظْهَارُهُمُ الإيمانَ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَإِخْبَارُ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ بِالْمُغَيَّبَاتِ"[1]؛ لذا وجبَ الفصْلُ لكمالِ الانقطاعِ.

بَلاغةُ الكِنايةِ في لفْظةِ ﴿يَحْذَرُ﴾:

المُنافِقُونَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الدِّينَ حَقٌّ، وَلَكِنَّ العِنَادَ غَشَّى على بصائرهم

جُملةُ "﴿يَحْذَرُ﴾ خبرٌ عن حالِ قلوبِهم، أو عمَّا يُظهرونَه للمسلمين تَصنُّعًا، وحَذَرُهُم إنّما هو أن تُتلَى سُورةٌ، ومُعتقدُهم أتَنْزِلُ أم لا؟ ليس بِنَصٍّ في الآيةِ لكنّه ظاهرٌ، فإن حُمِلَ على مُقتضَى نِفاقِهم واعتقادِهم أنّ ذلك ليس من عندِ اللّه تعالى فوجْهٌ بَيِّنٌ، وإن قيل: إنّهم يعتقدون نزولَ ذلك من عندِ اللّه وهم يُنافقون مع ذلك فهذا كُفْرُ عِنادٍ"[2]. قال الطّبريُّ: "المنافقون كانوا إذا عابُوا رسولَ اللّه ﷺ وذكرُوا شيئًا من أمرِه وأمْرِ المسلمين قالوا: لعلَّ اللّه لا يُفشي سِرَّنا؛ فنزلتِ الآيةُ في ذلك"[3]، "وهذا يقتضِي أنّه كفرُ العِنادِ"[4]، ففي كلمةِ ﴿يَحْذَرُ﴾ كنايةٌ عن أنّهم مُوقِنون بأنَّ هذا الدّينَ من عندِ اللّه تعالى قطْعًا، وأنَّ محمّدًا رسولُ اللّه حقًّا.. فهم إذن لا يُكذِّبون بالدِّين، وإنّما يَجْحَدون رسولَ اللّه ﷺ، ويَرفضُون قَبولَ الإسلامِ؛ لأنّه لم يَنزِلْ فيهم على رجلٍ منهم.

إيثَارُ لفْظِ ﴿تَحْذَرُونَ﴾ دُونَ غيرِه:

المُنافقون عاجزون عن النّجاةِ بأنفُسِهم

وآثرَ النَّظمُ الكريمُ مادّةَ الحَذَرِ التي تُفيدُ أنّهم يعيشون التّوتُّرَ الظّاهريَّ كما يعيشون الخوفَ والتّوجُّسَ الدّاخليَّ، وقد "كانوا يَستهزئون بالإسلامِ وأهلِه، وكانوا يَحذَرون أن يفضَحَهمُ اللّه تعالى بالوحْيِ فيهم، حتى قال بعضُهم: واللّه لا أُرانا إلا شرَّ خلْقِ اللّه، لَوَدِدْتُ أنّي قُدِّمتُ فجُلِدتُ مائةَ جلدةٍ، وألّا ينزلَ فينا شيءٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/247.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/54.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/331.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/55.

يفضَحُنا"[1]، وذلك يُقرِّرُ تصديقَهم الرّسولَ ﷺ في دعواهُ الرّسالةَ السّماويّةَ، وأنّه حقًّا رسولٌ يُوحَى إليه منَ اللّه تعالى، وإلا فماذا يَخْشَوْن من رَجُلٍ لا يَطَّلِعُ على أخبارِهم، ولا يَكشفُ اللّه تعالى له خبايَاهُم، ولا يُطْلِعُه على ذمِّهم إيّاه، ولَمْزِهم دينَه الجديدَ الذي يزعُمُ إن كانوا صادقِين؟ وهكذا يَنْتَقِي الذّكرُ الحكيمُ ألفاظَه المُصَوِّرَةَ بطبْعِها، والحذرُ وإن كان يدفعُ الضَّرَرَ - وَلِهَذَا يُقَال: خُذْ حِذْرَك[2] - فإنَّ المنافقين معه إزاءَ تَنَزُّلِ سُورةٍ تفضحُهم عاجزون عنِ التَّوَقِّي والنّجاةِ؛ لأنَّ الأمرَ فوق أنْ يَتَوَقَّوْه؛ لأنّه ينزلُ منَ السماء.

نُكتةٌ صَوتيّةٌ تتعلّق بالفعْلِ ﴿يَحۡذَرُ﴾:

البِناءُ الصّوتيُّ يَحكي تَردُّدَ المُنافقين ويُصوِّرُ توتُّرَهم

وإلى ذلك يُحِسُّ المُتلقِّي أنَّ الإيقاعَ الصّوتيَّ للفعل ﴿يَحۡذَرُ﴾ يُناسبُ حالتَهم، ويَختلفُ أكثرَ عنِ الإيقاعِ الصّوتيِّ للفعل: يخافُ؛ في أنَّ السّكونَ في وسَطِ ﴿يَحۡذَرُ﴾ يَحكِي التّوتّرَ والتّردُّدَ الذي يعالجُه المنافقون ويعانونَه في دواخِلِهم، أمّا الفعلُ يخاف فوسَطُه مَدٌّ يُتيحُ تنفيسَ قَدْرٍ منَ ذلك التّوتّرِ والرُّعبِ، وإخراجَ بعْض كُرْبتِهم المكبوتة.

سِرُّ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارع ﴿يَحۡذَرُ﴾:

المُنافِقُون أَضْعَفُ النَّاسِ، وَإِنْ أَبْدَوا التَّجَلُّدَ

المضارعةُ هنا تُصوِّرُ تيقُّظَ المنافقين المتجدِّدَ، بِلا فتورٍ ولا توقُّفٍ؛ ترقُّبًا لِنزولِ أخبارٍ منَ السّماءِ تفضَحُهم وتكشفُ سَترَهم للرّسولِ ﷺ والصّحبِ الأخيارِ، فلا قرارَ لهم ولا راحةَ، وقد وقعُوا في رسولِ اللّه ﷺ، وفي دينِه الحنيفِ، وفي أتباعِه المؤمنين، جُبْنًا وضآلةً، وتلك حالةُ المنافقين أبدًا؛ يُكابدون إخفاءَ نفاقِهم وحقْدِهم وإن أظهرُوا للمؤمنين التّجلُّدَ، وذلك دليلُ ضعْفِهم وجُبْنِهم.

الغرَضُ من وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ:

منَ اللّافتِ أنَّ المنافقين لم يُذكَروا في القرآنِ الكريمِ ضميرًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/286.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.

أَعْظَمُ جُرْمٍ لِلْمُنَافِقِينَ، الإستهزاء بدين الله تعالى لإرْضَاءِ المَخْلُوقِينَ

مُتّصلًا بالفعل هكذا: الّذين نافقوا إلّا في موضعَيْن فقط[1]، أمّا في غيرِهما فقد وردَ ذِكرُهم بالاسْم الصّريحِ المنافقون، والمنافقات، وبلغَ ذلك حوالي إحدى وثلاثين مرّةً.

في حين جاء ذكرُ الكافرين في القرآن الكريم ضميرًا مُتّصلًا بالفعلِ هكذا: الذين كفروا كثيرًا[2]، وأكثرُ منه وردَ ذِكرُ المؤمنين ضميرًا متّصلًا بالفعْلِ هكذا: الذين آمنوا[3].

وهذا هو الموضعُ الأوّلُ الذي يُذكرُ فيه المنافقون صراحةً في سُورةِ التّوبةِ، بعد أنْ عرَّض الذّكرُ الحكيمُ بهم دونَ تصريح مِن بدايةِ السّورةِ الكريمةِ، وكأنّهم هنا قد بلغُوا الذّروةَ في الجُرْم بالحَلِفِ الكاذبِ، مُسْتهينِين بأيمانِ الله تعالى لِغايةٍ دنيئةٍ هي إرضاءُ المخلوقين في مغضَبَةِ الله تعالى، وإن كانوا صحابةَ رسولِ الله ﷺ.

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الفاعل المصوغ من النّفاق في السّياق:

الثّبات على النّفاقِ، أقْبحُ وصْفٍ، وأسوأ خلق

تَذكُرُ السّورةُ الكريمةُ المنافقين باسْمِهم الصّريح - ذُكُورَهُم وإناثَهم - في هذه الصّفحةِ وحدَها ستَّ مرّات، وكلُّها بِصيغةِ اسْمِ الفاعلِ القائلِ بالثَّبَات على مبدأِ النِّفاقِ، بحيث إنّهم لا يَنفكُّون عنه ولا ينفكُّ عنهم على امتدادِ سنواتِ الرّسالةِ في المدينةِ المنوّرةِ، بل إنَّ القرآن الكريمَ يَقطعُ في هذا الحُكم العامِّ الصّريح بأنّ هذا دَيْدَنُ المنافقين ما بَقِيتِ الدّنيا، حتى لَيَقولَ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 67]، وكأنّهم يتناسلونَ النّفاقَ، ويَتوارثونَه كما يتناسلُونَ الذّراري: ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ويَستبعدُ النّظمُ الكريمُ هنا التّعبيرَ عنهم بالضّميرِ المتّصلِ بالفعْلِ؛ لأنَّ الفعلَ لا يُترجِمُ عن تَرَسُّخِ النّفاق في نفوسِهم، وتَشَبُّعِ نفوسِهم وقلوبِهم به تشبُّعًا يَجْعلُه

(1) هما قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ﴾ [آل عمران: 167]، وقوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحشر: 11].

(2) في حوالي مائتي موضع بحسب العدّ الآلي.

(3) في حوالي مائتين وستة وستين موضعًا بحسب العدّ الآلي أيضًا.

مخلوطًا بخلايا عقولِهم ونفوسِهم، بحيثُ يَصعُبُ تغْييرُه، ولا يُناسبُه أن يُعبِّرَ عنه بالضّميرِ المتَّصلِ بالفعل؛ لأنّ الفعلَ فيه عُنصرُ الزّمن، "وَالزَّمَان غيرُ قَارِّ الذَّاتِ"[1] ولا مُستقرِّها.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالمجازِ، في الفعلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾:

نُـزُولُ الـقُـرْآنِ الكَرِيمِ بِفَضَائِحِ المُنَافِقِينَ، شَدِيدُ الوَطْأَةِ عَلَيْهِمْ

التَّنزيلُ في أَصْلِ وضعِه اللّغويِّ يُستعملُ في المحسوسات، يقال: "نَزَّلَ الشَّخصَ، ونَزَّل الشَّيءَ: أنزلَه، وجعله يَهْبِطُ، ونَزّلَ الصَّغيرَ مِن فوقِ الدّراجةِ، ونَزّل اللهُ المطرَ، ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ [ق: 9]"[2]، لكنّ القرآنَ الكريمَ يَستعملُه كثيرًا في المعقولات كما هنا؛ فيُضْفي عليها صِفَةَ المحسوسات؛ ويمنحُها صفةَ التّجسيدِ؛ لِيُحقّقَ المبالغةَ في تَمَايُزِ المُنَزَّلِ الشّريف، ويُجَلِّيَه أمامَ بَصر القلوبِ، فيصيرَ كأنّه كُتْلَةٌ محسوسةٌ تُدرَكُ بالحواسِّ الظّاهرة.

وفي ذلك التّصويرِ هنا مَزيدُ تَهديدٍ للمنافقين؛ بِتَجْسيدِ السّورة - التي يَحذرون أنْ تُنَزَّلَ عليهم لِتفضَحَهم - بتشبيهِها بالشّيءِ الحِسِّيِّ الثَّقيلِ، الذي يَسقطُ مِن عُلْوٍ؛ فيَكسرُ ما يُنَزَّلُ عليه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾، مُضعّفًا بالتّشديدِ:

التَّـضـعِـيـفُ يَـحـكِي شِـدّةَ المُـنَزَّلِ، فضْحًا للمنافقين

والتَّشديدُ في الفعْلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾ يَحكي ثِقلَ المُنَزَّلِ وشِدَّةَ وطْأته عليهم، وما يسبِّبُه من إهلاكِهم، والإهلاكُ هنا يُحتملُ أن يكون حقيقيًّا بأنْ يقتلَهم الرّسولُ ﷺ، ويُزهقَ أرواحَهم، وهذا ما لم يفعَلْه الرّسولُ ﷺ رحمةً بهم برغْمِ تَفاقُمِ جرائمِهم؛ وحتى لا يَمحُوَ أمّةً قد يُخرجُ اللّٰه تعالى مِن أصلابِهم مَن يُوَحِّدُه، ويُحتملُ أن يكونَ قتلًا معنويًّا، بأنْ يُخرجَهم من أرضِهم وديارِهم وأموالِهم، ويَكشفَ سَترَهم ويُخزيَهم - كما فعل ﷺ بهم - وحكاه القرآن الكريم: ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢٧﴾ [الأحزاب: 27].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 827.

(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نزّل).

بلاغة حذْفِ الفَاعِلِ فِي ﴿تُنَزَّلَ﴾:

المُخزِي خوف المُنَافِقِينَ مِن الفَضِيحَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ لَا الأُخْرَوِيَّةِ

منَ المسلَّم أنَّ الذي يُنَزِّلُ السّورةَ باعتبار الأمْرِ هو اللّه تعالى، وباعْتِبارِ التّنفيذِ هو سفيرُ الوحْيِ جبريلُ، وعليه فلا داعِيَ لذِكْرِ فاعلِ التّنزيلِ، فحُذفَ الفاعلُ وبُنيَ الفعلُ لغيْرِ فاعلِه، ومنَ الإشاراتِ البلاغيّةِ لبناء الفعل ﴿تُنَزَّلَ﴾ لغيْرِ فاعلِه - إلى ذلك - أنَّ المنافقين ليسُوا منَ الشَّرَفِ والمكانةِ بحيث يُنَزِّلُ اللّه تعالى عليهم شيئًا، حتى إنّهم ليسُوا منَ الشّرفِ بحيث يُنَزِّلُ عليهم جبريلُ - وهو أمينُ الوحْيِ - شيئًا، وإن كان هذا الشيءُ سُورةً تفضَحُهم، فاستبعدَ النّظمُ الكريمُ نسبةَ تنزيلِ السّورةِ عليهم إلى فاعلِه الحقيقيِّ حتى ولو كانت سُورةً فاضحةً، أو كانت بمثابةِ قذيفةِ عذابٍ مُهلكةٍ، وإلى ذلك أيضًا يُفسِحُ حذفُ الفاعل للذِّهْنِ ليركِّزَ على المفعول به الـ ﴿سُورَةٌ﴾ الذي صار نائبَ فاعلٍ؛ لأنَّ المحذورَ هنا هو المنزَّلُ لا المنزِّلُ؛ فحُذفَ الفاعلُ للعنايةِ بإبرازِ الخطرِ المُتأججةِ نارُ حذرِه في نفوسِهم إزاءَ تلك الـ ﴿سُورَةٌ﴾ المحذورة.

بَلَاغَةُ التّعبيرِ بالمَجَازِ المُرسَلِ، فِي تَنْزِيلِ السُّورَةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

المُنَافِقُونَ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِن اللهِ تعالى

تنزيلُ السُّورةِ لا يكونُ حقيقةً إلّا على الرّسولِ ﷺ؛ لأنّه النَّبيُّ المُرسَلُ، والمنافقون - كما سبقَ قريبًا - ليسُوا منَ الشّرف بمثابةِ أن يُوقِعَ النّظمُ الكريمُ التّنْزيلَ عليهم من قِبَلِ اللّه تعالى ولو كان المُنَزَّلُ عليهم من قِبَلِه تعالى عقوبةً، فأصلُ هذا التّركيبِ: أنْ تُنَزَّلَ بسببِهم على رسولِ اللّه ﷺ سُورةٌ تفضحُهم، فَزُحْزِحَ التّنزيلُ مِن أنْ يكونَ على رسولِ اللّه ﷺ إلى أن يكون عليهم، فَفِي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مَجازٌ مرسَلٌ عَلاقتُه السَّببيَّةُ؛ لأنهم سَببُه.

و"السُّورَةَ إِذَا نَزَلَتْ فِي مَعْنَاهُمْ فَهِيَ نَازِلَةٌ عَلَيْهِمْ"[1]؛ فما دام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/93.

غايةُ تنزيلِ الـ ﴿سُورَةٌ﴾ أن تفضحَهم، وقد تتسبَّبُ في قتْلهم حِسِّيًّا أو معنويًّا بإخراجهم خَزايَا مِن أرضِهم وديارِهم وأموالِهم - كما حدث بالفعل - فإنّها ليستْ سورة تشريفٍ وإنّما هي سورة عُقوبةٍ، والعقوبةُ حقُّها أن تنزَّلَ عليهم هم مباشرةً؛ فكان في التَّعبيرِ عن ذلك المعنى بأن تُنزَّلَ السّورةُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ هُمْ مناسِبًا مُتَّسقًا أتمَّ مَناسبةٍ وأبْيَنَها.

تحقُّقُ الرُّعبِ في نفوسِ المنافقين، واهتزاز موقفهم مع المؤمنين

بَلَاغَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

يتآزرُ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿سُورَةٌ﴾ مع عطاءِ التّركيبِ في لَفْتِهم ابتداءً قَبْلَ ذِكرِ المُنَزَّلِ، وفيه عِدَّةُ إشاراتٍ كلُّها فاعلةٌ في نفوسِ المنافقين:

إحْدَاها: أنّ هذا السّاقطَ من أعلَى سيكونُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ هم دونَ المؤمنين؛ إذ كانوا يُشيعُون أنّهم أهلُ الحقِّ وأهلُ الجنّةِ، وأنَّ المسلمين هم أهلُ الباطلِ وأنّهم أهلُ النّارِ الهالكون، فقلَبَ عليهمُ الذّكرُ الحكيمُ ذلك الزّعْمَ.

ثانيتُها: تقريرُ نسبةِ الإيقاعِ أنّه ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ هم وتأكيدُه قبْلَ الوصولِ على المنزَّلِ، وأنّهم لا مناصَ لهم منَ الفضيحةِ، وربّما منَ الهلاكِ أيضًا.

ثالثتُها: أنّ الأخْذَ بأبصارِهم إلى الأعلَى - من خلال حرفِ الاسْتِعلاء على - يُحقِّقُ الرُّعبَ في نفوسِهم، ويُفيضُ التّوتّرَ على ظواهرِهم؛ إذ يأخذُ بأبصارِهم إلى أعلَى، ويشدُّها إلى فوقٍ، وكأنّ شيئًا خطيرًا سيسقطُ عليهم ويُهلكُهم.

المنافقون أهلُ فزَعٍ وهلَعٍ، من أقلِّ شيءٍ يقع

سِرُّ التّنكيرِ في لفظ ﴿سُورَةٌ﴾:

السورة "قطعةٌ منَ القرآن شديدةُ الانتظام"[1]، وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بها هنا لما تُوحِي به منَ الإحاطةِ بكلِّ ما في قلوبِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/515.

إحاطةَ السُّورِ بما يُسوِّره، بحيث لا يَبقَى في قلوبهم شيءٌ مخفيٌّ لا يُفضَحُ، وذلك ممّا يُضاعفُ على المنافقين الضّغطَ لينتهُوا عن نفاقِهم، ويُخلصُوا للّه تعالى دينَهم، وقد جاءت مُنكّرةً؛ لبيانِ أنَّ أقلَّ قدْرٍ يُخيفُهم، وأنّهم أهلُ فزعٍ وهلَعٍ.

سِرُّ القَيْدِ بِجُمْلَةِ الصِّفَةِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

تفاصِيلُ وصْفِ السُّورةِ، زيادةٌ تفزيعٍ للمنافقين الفجرة

جُملةُ القيْدِ بالصّفةِ ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تتضمّنُ فضلًا عن وصْفِ السّورةِ غايةَ إنزالِها، وتتَّسِعُ لِتستوعبَ جُملةً أصغرَ في حيِّزها هي جملةُ الصِّلةِ ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وكلتاهما تتآزرانِ على بيانِ مُحتوَى الـ ﴿سُورَةٌ﴾ ومهامِّها بتفاصيلَ بارعةٍ في تحقيقِ الغرَضِ.

الدِّقَّةُ في اصْطِفاءِ كلمةِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

أَحْقَادُ المُنَافِقِينَ مِـنَ الـقُـلُـوبِ فِي الـسُّـوَيْـدَاءِ؛ تَفْجَؤُهُمْ بوحي من السَّمَاءِ

جُملةُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ جملةُ صِفةٍ، وهي جُملةٌ كبرَى وقعَ في حيِّزها جملةٌ صُغرَى، لذلك صارتْ متكاثفةَ الدَّلالاتِ والإشاراتِ، فالفعلُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ يقرِّرُ أنَّ الـ ﴿سُورَةٌ﴾ سَتكشِفُ للمنافقين منَ المعاني الخبيثةِ المُستكنّةِ في قلوبهم ما يُفاجِئُهم؛ لأنّها ليست أخبارًا مُعتادةً، وإنّما هي أنباءٌ تُبهرُهم بدقائقَ لا يعلمُها إلا هم؛ لأنّهم "لم يُظهرُوا عليه أحدًا من غيرهم، أو أحدًا مُطلقاً، ولعلَّ هذا الصّنفَ كانوا يُسلفون الأيمانَ لعلّها تُشكِّكُ بعضَ الناس أو تخفِّفُ عنهم إذا نزلَ ما يَهتكُهم"[1].

قال أبو السّعود: "ومعنى تَنْبِئَتِها إيّاهم بما في قلوبهم مع أنّه معلومٌ لهم - وأنَّ المَحذورَ عندهم اطِّلاعُ المُؤمنين على أسرارِهم لا اطلاعُ أنفُسِهم عليها - أنّها تُذيعُ ما كانوا يُخفُونه منْ أسرارِهم فتنتشرُ فيما بين النّاسِ فيسمعونَها من أفواه الرِّجالِ مُذاعةً، فكأنّها تُخبرُهم بها، أوِ المرادُ بالتَّنْبِئَةِ المبالغةُ في كوْنِ السّورةِ مُشتملةً على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/515.

أسرارِهم كأنّها تَعلمُ من أحوالِهم الباطنةِ ما لا يعلمونَه فتُنبِّئُهم بها، وتَنْعِي عليهم قبائِحَهم"[1].

فكان اصْطفاءُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ دون (تُخبرُهم) أنّ السّورةَ تغوصُ على تلك الخبيئاتِ في أعماقِهم، ولذلك "كان المسلمون يُسمُّون هذه السّورةَ الحفَّارَةَ، حفرت ما في قلوبِ المنافقين وأظْهرتْه"[2]؛ وهم لِشدّةِ إخفائِهم تلك الدّقائقَ الماكرةَ لا يتوقّعون أن يُمكنَ الوصولُ إليها، لكنّها وإن كانت ممّا يخفَى على النّاسِ قطْعًا لا تخفَى على اللّه تعالى، الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفَى، فمهما يُخْفُوا تلك القبائحَ فإنّها تظهرُ، وتتجلَّى، ويَفضَحُها اللّه تعالى، ويَكشِفُها حتى يكونَ في كشْفِها مفاجأةٌ لهم لا يتوقّعونَها، وبها تنزلُ السّورةُ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمضارع، في الفِعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

تتناغمُ المضارعةُ في الفعل ﴿يَحۡذَرُ﴾ مع سِياقِ الآيةِ الكريمةِ؛ إذ تُترجِمُ عن أنّ الحَذَرُ لدى المنافقين يَتجدَّدُ، وأنَّ التّوتّرَ والتّوجُّسَ فيهم يتصاعدُ، وأنّ السورة تكشِفُ في المقابلِ خِزَاياتِهم، وتَفْضَحُ مُضْمراتِهم الدّنيئةَ أوّلًا بأوّلٍ، وأنّه كلّما تجدَّدت فيهم أو لدَيْهم خبيثةٌ جَدَّدتِ السورة لها فضْحًا، وكأنّ السورة لن تتوقّفَ عن التنزُّلِ بفضائِحِهم. فالمضارع لِذلك عنصرٌ يُثيرُ في نفوسِهم الذُّعْرَ لِينتهُوا عن إضمارِ مكائدَ للإسلام أو تدبيرًا ضِدَّ المسلمين.

الــسُّــورَةُ الـفَـاضِـحـةُ المُرْتَـقَـبَـةُ مِـنَ المُـنَـافِـقِـيـنَ، لَاتـتـأخّـرعَـنْ فَضْحِهِمْ

المَجَاز العَقْلِيّ فِي إِسْنَادِ الفِعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ لـ ﴿سُورَةٌ﴾:

معنى ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ "تُذِيعُ أَسْرَارَهُمْ إِذَاعَةً ظَاهِرَةً، فكأنّها تُخبرُهم"[3]، ففي إسنادِ الفعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ لـ ﴿سُورَةٌ﴾ مَجازٌ عَقْلِيٌّ علاقتُه السّببيَّةُ؛ لأنّ الذي يُنبِّئُهم حقيقةً هو الرّسولُ ﷺ بِخَبَرٍ ينزلُ في السّورة منَ اللّه تعالى. والنّبيُّ ﷺ هو الذي يُوحَى إليه

الإذاعةُ الظّاهرةُ لِما في قلوبِهم، أبلغُ فاضِحٍ لخباياهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/79.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/516.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/93.

لا المنافقون، والسّورةُ إنّما تُنَزَّلُ على رسولِ اللّه ﷺ بما فيها من تفاصيلِ خبيئاتِهم الشّنيعةِ، ممّا يَحيكُونَه بينَهم، وتكونُ السّورةُ السببَ المباشرَ في وقوف النّبيِّ ﷺ على تلك المَخازي، ومحلًّا لتلك التّفاصيلِ، وكأنّ السّورةَ لِقُوَّة بيانِها عن جرائمِهم المَخْفيَّة في قلوب المنافقين صارت بحيث تَنطقُ وتُنَبِّئُ وتَفضحُ قبْلَ أن يُنَبِّئَهم رسولُ اللّه ﷺ بما فيها، و"كأنّها تقولُ لهم: في قلوبكم كَيْتَ وكَيْتَ، يعني أنّها تُذيعُ أسرارَهم عليهم حتى يسمعُوها مُذاعةً مُنتشرةً فكأنّها تُخبرُهم بها"[1].

مَعرفةُ بواطنِ المنافقين، أصلٌ - في معاملتِهم - مكينٌ

بَلاغةُ الاسْتعارة، في كون السّورة تنبّئهم:

في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ "اسْتعارةٌ؛ لأنّ السّورةَ نُطقُها من جهة البَرهانِ لا من جهةِ اللّسانِ، فكأنّه سُبحانه أراد أنّ النّاسَ يعلَمون بهذه السّورةِ النّازلةِ في المنافقين بواطِنَ نفوسِهم، وعقائدَ قلوبِهم"[2].

المنافقون لهم تاريخٌ أسودُ يَخشَوْن افْتِضاحَه

سِرُّ القيْدِ بالجارِّ والمجرورِ في جُملةِ ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

عبّرَ النّظمُ الكريمُ بالاسْمِ الموصولِ (ما) وهو أعَمُّ الموصولاتِ، وأدخَلُها في الإبهامِ، وفيه منّ التّهديدِ بالفضْحِ الشّاملِ التّامِّ ما فيه، وقد حذَفَ متعلّقَ الجارِّ، وتقديرُه استقرَّ أو مُستقرٌّ، وفي الحذْفِ إيجازٌ، وفي هذا النّمَطِ منَ البناءِ كشْفٌ عنِ اطْمئنانِ المنافقين لِما استقرَّ في قلوبِهم، وتَوهُّمِ عدَمِ كشْفِه وبيانِه من أحدٍ.

قُلُوبُ المُنافِقِينَ أَوْعِيَةٌ تَحْوِي أَقْذَارَ النِّفَاقِ، مِنَ الكَرَاهِيَةِ وَالكَيْدِ

دَلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الوِعاءِ ﴿فِي﴾:

الظّرفيّةُ في الجارِّ والمجرور ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ يُصوِّرُ قلوبَ المنافقين أوعيةً عميقةً، يُخبِّئون فيها أحقادَهم المَقيتةَ على الدّينِ الحنيفِ وعلى الرّسولِ ﷺ وعلى المؤمنين، وكأنَّ السّورةَ التي تُنَزَّلُ عليهم

---

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/286.

(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/146.

صارتْ دَلْوًا يَمْتَحُ مِن صديدِ قلوبِهم العَفِنةِ، وينْشرُ من فضائحِهم أمامَ النّاس ما استقرَّ في أعماقِها - والعياذُ باللّه تعالى - منَ النّفاقِ وأهْلِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿قُلُوبِهِمۚ﴾ جمْعًا:

المُنَافِقُونَ عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ

جَمَع النّظمُ الكريمُ ﴿قُلُوبِهِمۚ﴾ لِيُفيدَ عُمومَ الحُكم جميعَهم، وأنّهم وإن تعدّدت ﴿قُلُوبِهِمۚ﴾ على المنهجِ نفسِه منَ النّفاقِ والمكرِ والخِداعِ، وذلك لا يَدَعُ أحدًا منهم بِمأمنٍ منَ الافتضاحِ في الـ ﴿سُورَةٞ﴾ المُرتقَبة، ولا يَستثني أحدًا منهم منَ الحذرِ والخوفِ الذي أُفرغَ في هذه القلوب إلى ما في التّطابُقِ بين جمْعِهم في أوَّلِ الآيةِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ وجمْعِ ﴿قُلُوبِهِمۚ﴾ هنا؛ ممّا يُقرِّرُ أنَّ أفرادَهم وجماعاتِهم مُتورِّطون في اقترافِ تلك المخازِي.

دَلالةُ الاسْتِئنافِ بـ: ﴿قُلِ﴾:

تـهـديـدُ الـلـه ووعــيــدُه لـلـمستهـزئين بـآيـات الـلـه ورُسلِه

فُصِلتْ جملةُ ﴿قُلِ﴾ عمّا قبْلَها لاختلافِ طبيعتَيْهما، فهذه أمرٌ والسّابقةُ خبرٌ، وكذلك هذه تُعدُّ استئنافًا بيانيًّا بتنزيلِها منزلةَ جوابٍ لِسؤالٍ مُقدَّرٍ ينشأُ في قلْبِ المخاطَبِ تقديرُه: وما الموقفُ منهم وما العملُ معهم يا ربُّ؟ أو: وما الحُكمُ فيهم يا ربُّ؟ فأتى الجوابُ: ﴿قُلِ﴾.

بلاغةُ الأَمْرِ بالفعل ﴿قُلِ﴾:

ٱلذِّكْرُ الحَكِيمُ يُكَرِّمُ الرَّسُولَ الأَمِينَ، بِتَفْوِيضِهِ بتَهْدِيدِ المُنَافِقِينَ

كان يُمكنُ صِياغةُ السّؤالِ بالأمْرِ لهم صياغةَ المضارع الغائبِ هكذا: فلْيَستهزئوا كما جاء في الآيةِ السّابقة، غيرَ أنّ ردَّ اعتباره ﷺ وردَّ اعتبار أصحابِه الأبرارِ ناسبَه صدورُ التّهديدِ منه ﷺ مباشرةً للمنافقين، وأن يواجهَهم هو ﴿ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ تهديدًا ووعيدًا، وإلى ذلك نلمسُ في الأمر ﴿قُلِ﴾ أنّ القضيّةَ قطعيّةٌ، وأنّها ليستْ اجتهاديّةً من رسولِ اللّه ﷺ أو أنّها مجرَّدُ توقُّعٍ وانتظارِ أن تُنَزَّل ﴿سُورَةٞ﴾ بل إنّ الأمر جدٌّ بموجبِ التّوكيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ﴾.

أبلغُ التَّهديدِ، ما كان من جنْسِ العملِ

بَلَاغَةُ الأَمْرِ في لفظ ﴿ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾:

الأمرُ في ﴿ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ "لفظُه الأمرُ ومعناه التَّهديدُ"(1)، فخرجَ عنِ الغرَضِ الأصليِّ للأمرِ إلى أغراضِ التّهديدِ بالفضْحِ، والوعيدِ بالعذابِ؛ ليَزدجِروا عن سلوكِهِمُ المُشينِ منَ الاستهانة بيمينِ اللّه تعالى، والتّخلُّفِ عنِ الغزْوِ بدون أعذارٍ، والذّمِّ في الرّسول ﷺ... إلخ.

على أنّ فعْلَ الاستهزاءِ لم يَسبقْ له ذِكرٌ، وإنّما هو توصيفٌ لِمكائدِهم السّابقةِ التي اعتذرُوا عنها بعُذْرٍ أقبحَ منها فقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾، وهو منَ الآيةِ التّاليةِ التي تَضْطلِعُ بِوَجْهٍ من وُجوه الإعجازِ - هو الإخبارُ بالغيب، وأنّهم سيقولون ذلك القولَ في دفاعِهم التُّهمةَ لهم بالاستهزاء -، "وَإِنَّمَا العَجَبُ مِنْ أَمْرِهِمُ اسْتِمْرَارُهُمْ عَلَيْهِ مَعَ هَذَا الحَذَرِ"(2).

تتابعُ التّهديدِ يخلعُ القلوبَ، وترتعدُ منه الفرائس

وَجْهُ الفَصْلِ بَيْنَ جُمْلَةِ التَّذْيِيلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾:

جُملةُ الفاصلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المَثَلِ لارتباطه بسِياقه ومقامِه، وفُصِلتْ هذه الجُملةُ عمّا قبْلَها؛ لأنّ السّابقةَ إنشاءٌ ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ وهذه خبرٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾، وهكذا يتماوجُ السّياقُ بين الخبر والإنشاء ثم الخبرِ وهكذا، ومع ذلك تُعدُّ جُملةُ الفاصلةِ التّذييليَّةِ بمثابة جوابِ الأمرِ، أي: استهزئوا يُخْرِجِ...؛ لأنّه لا يُعطَفُ الجزاءُ على الشّرط.

اِفْتِضاحُ المُنافِقِينَ يقين، ما لَم يَتُوبُوا، وإنْ سُتِرُوا حينا من الدّهر

بَلَاغَةُ تَوْكِيدِ جُمْلَةِ الفَاصِلَةِ التَّذْيِيلِيَّةِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾، أُكِّدَتْ جملةُ الفاصلةِ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسْمِيَّةِ الجملة، واسْميّةِ الخبر ﴿مُخۡرِجٞ﴾؛ ليتقرّر القطْعُ بوقوع هذا الوعيدِ -وقد كان-، والاسْمُ ﴿مُخۡرِجٞ﴾ يُمَحِّضُ الإخراجَ للاستقبال.

---

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/54.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/455.

وفي هذا التّوكيدِ إيحاءٌ بأنّه مهما تَطاوَل بهم الزّمنُ مستورين فإنَّ الإخراجَ والكشْفَ عن فضائحِهم واقِعٌ لا محالةَ، وكان ذلك داعيًا المنافقين إلى التّوبةِ والإنابةِ، لكنّهم لم يتوبُوا؛ - تصديقًا عمليًّا عِنادُهم سَببٌ فيه - لإعجاز القرآنِ الكريمِ الذي أخبرَ بهذا المستقبَلِ قبْلَ وقوعِه، وقد بَقَوْا فِعلًا عاجزين عن تكذيبه بالتّوبة برغم توفُّرِ حُرِّيةِ الاختيارِ لهم في هذه الدّنيا، وما زالتِ الفُرصةُ لائحةً لكلِّ منافقٍ إلى يوم القيامةِ فهلّا اقْتَنَصُوها!

بَلَاغَةُ إِسْنَادِ الخَبَرِ ﴿مُخۡرِجٌ﴾، إلى اسْمِ الجَلَالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُبَاشَرَةً:

اللهُ تعالى لِلْمُنَافِقِينَ بِالمِرْصَادِ؛ في الدّنيا، ويوم المعاد

بينما يَطوِي النّظمُ الكريمُ فاعلَ ﴿تُنَزَّلَ﴾ هناك يُصرِّحُ بالمُسنَدِ اليه ﴿ٱللَّهَ﴾ تعالى هنا، وقد رأينا البلاغةَ هناك تَكْمُنُ في الحذف، في حين لا تتحقَّقُ البلاغةُ هنا إلا بالذّكر؛ لأنّ ذكرَه تعالى يُقرِّرُ حصولَ الإخراجِ، و"أَنَّهُ مُخْرِجُهُ الآنَ بِتَنْزِيلِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي لَمْ تَدَعْ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْئًا مِنْ مُخَبَّآتِ نِفَاقِهِمْ إِلَّا أَخْرَجَتْهُ وَأَظْهَرَتْهُ لَهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ"(1)؛ وهو تعالى لا يُخْلِفُ الميعادَ، فإذا أُسنِد إليه الإخراجُ صراحةً تأكّدَ الحصولُ، وتقرَّرَ الحدَثُ مُستقبَلًا كما تقرَّر ماضيًا.

بَلَاغَةُ التَّصْوِيرِ البَيَانِيِّ فِي الخَبَرِ ﴿مُخۡرِجٌ﴾:

ما يَستره المنافقون، سيُخرجُه الله مُجسَّدًا مُحدّدًا واضحًا

الإخراجُ يكونُ لِشيءٍ محسوسٍ، لكنّه هنا مُستعمَلٌ في الأمرِ المعقولِ - وهو مُضمراتُ نفوسِ المنافقين - فهُو مستعمَلٌ في معنى (الوصْفِ)؛ لِيُضفِي على مُضمراتِهم ثوبَ التّشخيصِ؛ لِيُفهِمَهم أنَّ ما يُخفونَه في نفوسِهم مِنَ التَّميُّزِ والتَّحَدُّدِ بمكانٍ، وكأنَّ مُضمراتِهم صارت مُشَخَّصَاتٍ يَقعُ عليها الإخراجُ، وهم وإن كانوا يَفهمون أنَّها إنّما تُحكَى وتُوصَفُ لكنَّ التّعبيرَ بالإخراجِ يَزيدُها حتْمًا وُضوحًا، وكأنّها صارت جُسومًا لن تَخفَى معالِمُها ولا تَشْتَبِهُ أوصافُها أمامَ النّاسِ.

---

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/455.

سرّ التّعبير باسْمِ الفاعل ﴿مُخۡرِجٞ﴾:

لله تعالى القُدرةُ المطلَقةُ على إظهارِ الحقائقِ، والأسرارِ

عُبّر باسْمِ الفاعل ﴿مُخۡرِجٞ﴾ المُنكّر دونَ المضارع (يُخرجُ) ناسبًا الإخراجَ إليه تعالى باسْمِه الصّريحِ الأعظَمِ الدّالِّ على كمالِ قُدرتِه، ليدلَّ على قُدرتِه المطلَقةِ المُستمرّةِ على إظهارِ الحقائقِ، والأسرارِ مهما خَفيتْ.

ثم إنَّ ﴿مُخۡرِجٞ﴾ اسْمٌ والاسْمُ يدلُّ على الثُّبوت؛ فجاء بالصِّيغةِ الاسْميّة لِما تقتضِيه من دَلالةِ ثُبوتِ صفةِ قُدرتِه المُطلقةِ على إخراجِ خفايَا النّفوسِ، وخبايَا أسرارِها.

سِرُّ إِيثَارِ الاسْمِ الموْصُولِ ﴿مَا﴾:

أَضْغَانُ المُنَافِقِينَ جَمِيعُهَا عُرْضَةٌ لِلافْتِضَاحِ، طال الزّمان أو قصر

من فضائلِ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول ﴿مَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ أنّه يَستوعبُ كلَّ ما يدخلُ تحت جُملةِ صِلتِه، وهو هنا يُلَمْلِمُ كلَّ "الشَّرِّ الَّذِي يُسِرُّونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَالْأَضْغَانِ الَّتِي يُخْفُونَهَا فِي قُلُوبِهِمْ"[1]، ولا يَدعُ منها شيئًا يَندُّ عنِ الافتضاح، وذلك يزيدُهم فَرَقًا ورُعْبًا، كما أنّ من لطائفِ هذا " العُدولِ إلى التَّعْبِيرِ بِالْمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّا تَحۡذَرُونَ﴾... أَنَّ الْأَهَمَّ مِنْ تَهْدِيدِهِمْ هُوَ إِظْهَارُ سَرَائِرِهِمْ لَا إِنْزَالُ السُّورَةِ، فَذِكْرُ الصِّلَةِ وَافٍ بِالْأَمْرَيْنِ: إِظْهَارِ سَرَائِرِهِمْ، وَكَوْنِهِ فِي سُورَةٍ تَنْزِلُ، وَهُوَ أَنْكَى لَهُمْ، فَفِيهِ إِيجَازٌ بَدِيعٌ"[2].

بَلَاغَةُ رَدِّ العَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ:

رَبْطُ أطرافِ الكلامِ، يُوثِّقُ عُراه، ويُقوِّي رَوابطَه

رَدُّ العَجُزِ على الصّدْرِ هنا كفيلٌ بأن يَجمَعَ أطرافَ الكلامِ ويَربط آخرَها إلى أوّلِها، يُوثِّقُ عُرى الكلامِ، وبه يَشتدّ وَثاقُه؛ فيوضعُ في النّفسِ وضعًا واحدًا، ويُفرَغُ إفراغًا واحدًا.. العجُزُ هنا ﴿تَحۡذَرُونَ﴾ في آخرِ الآيةِ الكريمةِ، وهو يَرتبطُ ارتباطًا لفظيًّا جَليًّا بصدْرِها ﴿يَحۡذَرُ﴾، ومن دقيقِ بلاغتِه أنّ الصّدرَ والعجُزَ كليهما فعلان،

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/454.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/249.

وكلاهما مُضارعان، وفاعلُ كليهما واحدٌ هو المنافقون؛ لذا كان رابطًا قويًّا بين طَرَفَي الآيةِ الكريمةِ؛ حتى صارتْ كالكلمةِ الواحدةِ لا يُمكنُ الاستغناءُ عن أيٍّ من عناصرِها.

لم يَنفعِ الحَذرُ مـن إخـراجِ المُضْمَرِ، فالله مخرج

دَلالةُ تَكرارِ فعْلِ الحذرِ مضارعًا، وحذْفِ مُتعلّقِه:

وفائدةُ تَكرارِ فعْلِ الحذرِ بصيغةِ المضارعِ تقريرُ أنّ تجدُّدَ حَذرِهم لم ينْفعْهم في إخفاءِ ما تُكنُّ قلوبُهم، وما تكتمُه سرائرُهم، وأنّه تعالى مُظهرٌ ذلك ومُخرجُه. وناسبَ صِيغةَ المضارعِ حذْفُ متعلّقِه لِيدلّا معًا على الاستغراقِ في إرادة تصويرِ إظهارِ ما يَحْذرونَه، واسْتِحضارِه في ذهنِ السّامعِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوف تَوقُّعُ الضَّرَر، والحذرُ تَوقِّيه، والاحترازُ التَّحفُّظُ ممّا يسبّبه

الخَوْفُ والحَذَرُ والاحْتِرازُ:

"إنّ الخَوْف تَوقُّعُ الضَّرَر المَشْكُوكِ في وُقُوعه، وَمن يتَيَقَّن الضَّرَرَ لم يكن خَائفًا لَهُ. وَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ لَا يكونُ إِلَّا مَعَ الشَّكِّ، وَمن تَيَقّن النَّفْعَ لم يكن راجيًا لَهُ. والحذرُ: تَوقِّي الضَّرَر، وَسَوَاءً كَانَ مظنونًا أَو مُتيقَّنًا، والحذرَ يدفعُ الضَّرَر، وَالخَوْفُ لَا يَدْفَعُهُ؛ وَلِهَذَا يُقَال: خُذْ حِذْرَك، وَلَا يُقَال: خُذْ خوفَك"[1]. أمّا الاحترازُ فهو: "التَّحفُّظُ من الشَّيْءِ المَوْجُودِ والحَذرُ هُوَ التَّحفظُ مِمَّا لم يكن إِذا عُلِمَ أَنّه يكونُ، أَو ظُنَّ ذَلِك"[2].

ولمّا كان الحَذرُ توقِّيًا للضَّرَر، سَوَاءً كَانَ مظنونًا أَو مُتيقَّنًا اصْطُفيَ لفظًا في الآيةِ الكريمةِ ليدلَّ على خوف المنافقين، وخَشْيتِهم من انكشافِ ما في قلوبِهم.

الاسْتهزاءُ مَظِنّةُ التَّحقيرِ، المُزاحُ لَا يَقْتَضِي ذلك

المُزاحُ والاسْتهزاءُ:

" المُزاحُ لَا يَقْتَضِي تحقيرَ مَن يمازحُه، وَلَا اعْتِقَادَ ذَلِك؛ أَلا ترَى

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.

أَنَّ التَّابِعَ يُمازِحُ المَتْبُوعَ منَ الرّؤساءِ والملوكِ وَلَا يقتضِي ذَلِك تحقيرَهم، وَلَا اعْتِقَادَهم تحقيرَهم، ولكن يَقْتَضِي الِاسْتِئْنَاسَ بهم... والاستهزاءُ يَقْتَضِي تحقيرَ المُستهزإِ بِهِ واعتقادَ تحقيرِه"[1]. ولمّا كان في صنيعهم تحقيرٌ للرّسولِ ﷺ بأذيّتِه، فضلًا عن محاداتّه اللّهَ تعالى ورسولَه ﷺ، كان لفظُ الاستهزاءِ أنسبَ للسّياقِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التّوبة: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الرّبط بين خشية الافتضاح، وادّعائهم الخوض واللّعب بآيات الله

"لَمَّا وصَفهم بالنّفاقِ حقَّقه بِعدَمِ مُبادرتِهم إلى التّوبةِ الّتي هي فعْلُ المؤمنين، وباجْترائِهم على الإنكارِ مع كوْنِ السّائلِ لهم مَنْ بلغَ الغايةَ في الجلالِ والوقارِ والكمالِ، فقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ أي وأنتَ مَن يَجبُ أن يُصَدِّقَه مَسؤولُه عمّا أخرجتِ السّورةُ ممّا أظهرُوا بينَهم مِنَ الكفرِ، وذلك حين قال بعضُهم: انظرُوا إلى هذا الرّجلِ يَظنُّ أنّه يَفتحُ قصورَ الشّامِ وحصونَها! هيهاتَ هيهاتَ! فأعلَمَه اللّه تعالى"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿نَخُوضُ﴾: الخَوْضُ "هو الشّروعُ في الماءِ والمُرورُ فيه، ويُستعارُ في الأمورِ، وأكثرُ ما ورد في القرآن ورد فيما يُذمُّ الشّروعُ فيه، نحوَ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: 65]"[2]، "والخَوْضُ... من الكَلام: مَا فِيه الكَذِبُ والبَاطِلُ"[3]، وفي الأساسِ: "ومِنَ المجاز: خاضُوا في الحديث وتخاوضُوا فيه، وهو يخوضُ مع الخائضين أي: يُبْطِلُ مع المُبْطِلِين"[4]، فمرادُهم بـ ﴿نَخُوضُ﴾: "نهزلُ غيرَ جادّين في سلوكنا"[5].

2) ﴿وَنَلْعَبُ﴾: لعِبَ الشَّخصُ: عمِل عملاً لا ينفعُ، وعكسُه: جَدَّ. وقوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ [الزخرف: 83]، و﴿مَا يَأْتِيهِم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/516.
(2) الرّاغب، المفردات: (خوض).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (خوض).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خوض).
(5) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: (لعب).

﴿مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٢﴾ [الأنبياء: 2]، أي: يَستهزؤون، ويَهزلون، ولعِبَ الصبيُّ: تسلّى وقام بما يُلْهيه، لعب مع أصدقائه[1].

3) ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾: الآيات جمعُ: الآية، و"الآيةُ: العَلامةُ، والآيةُ: مِن آيات الله، والجميعُ: الآيُ... والآياتُ"[2]، "وآياتٌ بيّناتٌ: أي: علاماتٍ وحُجَجًا، والآيةُ منَ القرآن: كلامٌ متَّصِلٌ إلى انقطاع، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾ [آل عمران: 41] أي علامةً: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾: علامتُك. والآيةُ: الشّيءُ العجبُ من قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: 13]، أي: عجائبَه، يقال: فلانٌ آيةٌ منَ الآيات أي عَجَبٌ منَ العَجَبِ"[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

الاعتذارُ بالمُمازحةِ والمُداعبةِ، لايُعفي منَ التّبعة والعقابِ

"ولئن سألتَ يا محمّدُ هؤلاء المنافقين عن سببِ اسْتِهزائِهم بتعاليم الإسلام لَيقولُنَّ لك على سبيل الاعتذار: إنّما كنّا نفعلُ ذلك على سبيل المُمازحة والمُداعبةِ لا على سبيلِ الجِدِّ... فقل لهم يا محمّدُ - على سبيل التَّوبيخِ والتَّجهيل - ألم تجدُوا ما تَستهزئون به في مُزاحِكم ولَعِبِكم - كما تزعمون - سوى فرائضِ الله تعالى وأحكامِه وآياتِه ورسولِه الذي جاء لهدايتِكم وإخراجِكم منَ الظّلماتِ إلى النّورِ؟"[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سَوْقُ الأخبارِ مَظنّةُ الوصْلِ، واستجلاء الكوامن المخبوءة

سِرُّ عطْفِ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ﴾، على قوله ﴿يَحۡذَرُ﴾:

عُطِفتْ جملةُ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ﴾ على التي قبلَها للتّوسُّطِ

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لعب).
(2) الخليل، العين: (أيا).
(3) البَندنيجي، التّقفية في اللغة، ص: 705.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/340.

بين الكمالين - كمالِ الاتّصال وكمالِ الانقطاع -؛ لأنهما خبريَّتان يسوقُهما الذّكرُ الحكيمُ إلى النّبيِّ ﷺ من أخبار المنافقين، ويقولُ له: هؤلاء من أخبارِهم كذَا وكذَا.

بَلاغةُ التّعبيرِ بالقسَمِ، وجوابِه:

المنافقون لن يتردّدُوا بالكذِبِ، لأنّهم ألفوه واستمرؤوه

أسلوبُ القسَمِ في ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ﴾ وتوكيدُ الجوابِ في ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ هو للنّعْيِ من أوّلِ الأمرِ على المنافقين، بأنّهم لن يتردّدُوا في الكذبِ الذي هو بضاعتُهم الرّائجةُ مع تغليظِ ذلك الكذبِ؛ بإخراجِه في أسلوبٍ قصْريٍّ مُؤكَّدٍ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾[1].

سِرُّ تَقْييدِ سُؤَالِهِ تعالى بَأَدَاةِ الشَّكِّ (إنْ):

لا ينبغي للمُسلمِ أن يُضيِّعَ وقْتَه مع المنافقين، إذْ لا أمل في هدايتهم

أداةُ الشّرطِ إنْ مِنَ المرونةِ بحيثُ تتفاعلُ مع المَقاماتِ والسّياقاتِ بما يُحقّقُ الأغراضَ، وهنا يُقيِّدُ النّظمُ الكريمُ سؤالَ الرّسولِ ﷺ المنافقين بِإنْ التي تُوحِي بدَلالتَيْن جَليلَتَيْن:

الأُولى: موافقةُ حالِ الرّسولِ ﷺ في التّعاملِ مع المُسيئين إليه مِن غَضِّ الطرْفِ وعدَمِ الاسْتقصاءِ، وقَبولِ الأعذارِ، ففيها حكايةُ طبيعتِهِ وأخلاقِه ﷺ، فقد كان حَييًّا لا يجرحُ أحدًا ولا يُخزيه بما فيه، ولعلّ هذا ما أغراهُم أنْ يقولوا: ﴿هُوَ أُذُنٞۚ﴾؛ ولأنّه ﷺ كان يقبلُ الأعذارَ ولا يتتبّعُ الأسرارَ.

الثّانيةُ: نَشْتَمُّ من إنْ توجيهًا قرآنيًّا مُغلَّفًا للرّسول اللّه ﷺ بعدَمِ تضْييعِ وقْتِ الدّعوةِ الثّمينِ في عتابِ المنافقين، بل عليه عدَمُ الاكتراث بهم، وإهمالُ شأنِهم؛ لأنّهم ليسُوا جديرين بالتّقدير، ومجرَّدُ تَوَجُّهِ الرّسول ﷺ إليهم بالسّؤالِ شرفٌ لا يَرْقَوْن إليه.

سِرُّ التّوكيدِ في جُملةِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

توكيدُ جوابِ الشّرطِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ مِن جهتَيْه - باللّام في أوّله

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/20 - 21.

القسَمُ يَشحذُ الذِّهنَ ويجعلُ النّفسَ أكثرَ ترقُّبًا

وبالنّون المُشدّدةِ في آخره - يَجعلُ مِن مَقولِ هذا القول جريمةً عظيمةً، ويَشحذُ الذِّهْنَ ويَشحِنُ النّفسَ لترَقُّبِ القولِ ماذا يكونُ؟ وإحاطةُ قوْلِهم من حواليَه بالتّوكيدِ يُزيلُ كلَّ احتمالٍ بطُهرِ نفوسِهم بأيِّ قَدْرٍ منَ الطُّهر، وذلك ممّا اقتَضَى حذْفَ المسؤولِ عنه قبْلَه كما سيأتي إنْ شاء اللّه تعالى.

بَلاغةُ حذْفِ المسؤول عنه في سياق السّؤال:

العِللُ الكاذبةُ يُناسبُها الحذْفُ لا الذِّكرُ

جُملةُ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾، وفيه "حُذِفَ مُتَعَلِّقُ السُّؤَالِ لِظُهُورِهِ مِنْ قَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾. وَالتَّقْدِيرُ: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ عَنْ حَدِيثِهِمْ فِي خَلَوَاتِهِمْ، أَعْلَمَ اللّه رَسُولَهُ بِذَلِكَ وَفِيهِ شَيْءٌ مِنْ دَلَائِلِ النُّبُوءَةِ. وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ الآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُمُ الرَّسُولُ، وَأَنَّهُ لَمَّا سَأَلَهُمْ بَعْدَهَا أَجَابُوا بِمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الآيَةُ"[1].

فسياقُ الآيةِ الكريمةِ قرينةُ الحذْفِ هنا؛ ففي الآياتِ السّابقةِ صرَّحَ النّظمُ الكريمُ بأنّهم يَحلِفون كذبًا، والسُّنّةُ الشّريفةُ تُعيِّنُ المحلوفَ عليه، وهو تَعلُّلُهم بِعَلَلٍ كاذبةٍ في التَّخلُّف عنِ الغزوِ مع الرّسولِ ﷺ، وذِكْرُهم الرّسولَ ﷺ وأصحابَه الأطهارَ بالسُّوء، وبالكذبِ في أيمانِهم، والظّاهرُ أنَّ المسؤولَ عنه هنا طُوِي ولم يُذكَرْ للمُسارعة إلى ذِكْرِ العُذرِ الذي هو أقبحُ منَ الذَّنْبِ، وهو قولُهم ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾.

الغرَضُ منَ التَّعبيرِ بأسلوبِ القصْرِ:

المنافقُ لا يجدُ ما يَسترُ به كذِبَه إلّا الكذِبَ

قوله تعالى على لسانهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾، هذه الجملةُ مقولُ قولِهم المُؤكَّدِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾، وهي جُملةُ اعتذارٍ يَعتذرُ بها المنافقون عمّا أظهرَه القرآنُ الكريمُ من تورُّطِهم في الأيمان الكاذبةِ وغيرِها، وهذا عُذْرٌ أقبحُ مِن ذنبٍ - كما سبق -، و"هكذا المنافقُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/250.

لا يجدُ ما يسترُ به نِفاقَه إلا الكذبَ، فهو كذِبٌ يَسترُ كذِبًا، ونفاقٌ يُداري نفاقًا"[1].

ويزيدُ هذا الاعتذارَ قُبْحًا تصديرُه بأداة القَصْرِ ﴿إِنَّمَا﴾ إذ تُفيدُ أنَّ ما كان منهم لم يَخرج عن كونِه ثرثرةَ مَسيرٍ "كَمَا يَخُوضُ الرَّكْبُ لِقَطْعِ الطَّرِيقِ"[2]، "وَأَنَّهُ مِمَّا يَحْتَاجُهُ الْمُتْعَبُ مِنَ الِارْتِيَاحِ إلى الْمَزْحِ وَالْحَدِيثِ فِي غَيْرِ الْجِدِّ"[3]، فلا أساسَ له من واقعٍ قلبيٍّ، كما تفيدُ ﴿إِنَّمَا﴾ إلى ذلك أنَّ كوْنَ ما ظاهرُه إساءةٌ ما هو إلَّا خوضٌ ولعبٌ، وأنَّ ذلك أمرٌ بيّنٌ لا يُشكُّ فيه، وأنّه منَ الأمور المُقرّرة في مثلِه؛ وعليه لم يحتشِدُوا له بالتّوكيد بطريق النّفْيِ والاستثناءِ مثلًا.

والقصرُ هنا للقلب؛ لأنَّ المنافقين يَردُّون به اعتقادَ الرّسولِ ﷺ وأصحابِه ويعكسُونَه، ويُنفون التّهمةَ بأنّهم كانوا جادّين قاصدين إساءةَ الأدب، واختلاقَ العُذرِ للتخلُّف عنِ الغزو وغيرَهما، فضلا عمّا رآه التّحرير والتّنوير من أنّ "القَصْر هنا لِلتَّعْيِينِ: أَيْ: مَا تَحَدَّثْنَا إِلَّا فِي خَوْضٍ وَلَعِبٍ دُونَ مَا ظَنَنْتَهُ بِنَا مِنَ الطَّعْنِ وَالْأَذَى"[4].

دَلالةُ التّعبير بالفعْلِ ﴿كُنَّا﴾ في سياق الآية:

المنافقون يُراوِغون في كلامِهم؛ فيجبُ التّيقُّظُ لمَرامِي كلامِهم

جُملةِ ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾، يبدو أنَّ خُبْثَ المنافقين استَجْلبَ الفعلَ الماضي ﴿كُنَّا﴾ الّذي يفيدُ الإسهامَ في إبعاد زمن الجرائم، وأنّه كان ولم يَعُدْ له في نفوسهم أثرٌ، وأنّهم استقامُوا على الطريقة، وإلّا لَقالوا: إنّما نخوضُ ونلعبُ بالمضارعة المَحْضة، وذلك ما يَتَحاشَوْنَه ولا يُريدون إشعارَ المخاطَبين منَ المؤمنين به؛ لِذلك زادُوا في الكلام الفعلَ ﴿كُنَّا﴾.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/834.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/94.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/251.
(4) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 10/250.

المنافقون لا يُوفَّقون في الاعْتِذارِ دائمًا

بَلاغةُ الاسْتعارةِ التّبَعيّةِ في لفظةِ: ﴿نَخُوضُ﴾:

في لفظ ﴿نَخُوضُ﴾ اسْتعارةٌ تبعيّةٌ شَبَّه فيها لهْوَهم، ولعِبَهم بالاغتيابِ الآثم والاسْتهزاءِ الشّنيعِ بالخوضِ في الماء بجامعِ التّسليةِ، والعبَثِ، والمَرَحِ في كلٍّ منهما(1).

و"أصلُ الخوْضِ الدّخولُ في مائع مثلِ الماءِ والطّين، ثمّ كثُر حتى صار اسْمًا لِكلِّ دخولٍ فيه تلويثٌ وإيذاءٌ، فالمنافقون أرادوا: إنّما نلعبُ ونتلَهّى لِتَقْصُرَ مسافةُ السّفرِ بالحديثِ والمداعَبةِ كما يفعل الرّكْبُ ذلك لِقطْعِ الطَّريق، ولم يكنْ ذلك منَّا على طريق الجِدِّ"، فاسْتعارُوا الخوضَ لِتجاذُبِ أطْرافِ الحديثِ على سبيل الفَضفَضةِ غيرِ مُنْعَقِدَةِ النيّةِ والقصدِ على ما يكون فيها من حديثٍ.

ولأنّ الخوضَ "لا يُستعملُ مجازًا إلّا في الباطل؛ لأنّ التّصرّفَ في الحقِّ إنّما هو على ترتيبٍ ونظامٍ، وأمورُ الباطل إنّما هي خوضٌ"(2)؛ ولأنّ "الخَوْضُ... في الكَلامِ مَا فِيه الكَذِبُ والبَاطِلُ"(3) - لذلك يُعدُّ اعتذارُهم بِلفظ الخوْض جريمةً في حدِّ ذاته، وكأنّهم لِسُوء نيَّتِهم وتغلغُلِ الكذب في نفوسهم قد ذهلُوا - أمام صدمةِ المُفاجأةِ بكشْفِ أسرارِهم - فلم يُحسنوا اختيارَ لفْظِ الاعتذار؛ وسبقَ لسانُهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ تعبيرًا عمّا تحُوكُه دواخِلُهم، وَيُضْمِرُه وجدانُهم، ولا شكّ أنّهم عربٌ يفقهون دلالاتِ الكلمات؛ ولا يفوتُهم جُرمُ الخوضِ (المجازيّ) الذي صاروا إليه؛ فما كانوا ليقولوه واعين.

تَشتيتُ القضيّة، وصرْفُ المخاطَب عنها، منهجُ المنافقين

بَلاغةُ التّوكيدِ، بعطْفِ ﴿وَنَلۡعَبُۚ﴾ على ﴿نَخُوضُ﴾:

مِن خُبث المنافقين في قولِهم ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ محاولةُ التّمويهِ بتشتيتِ التُّهمِ.. فبدأوا بالفعْلِ ﴿كُنَّا﴾ - كما سبق

---

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/21.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/57.

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (خوض).

التّوضيحُ-، ثم ثَنَّوْا بالفعْلِ ﴿نَخُوضُ﴾، ثم ثَلَّثُوا بالفعْلِ ﴿وَنَلۡعَبُۚ﴾.. يُحاولون بذلك حَلَّ عُقدةِ الإشكالِ القائمِ بتشتيتِ التّركيزِ، وإلا فعَطْفُ ﴿وَنَلۡعَبُۚ﴾ على ﴿نَخُوضُ﴾ يَزيدُهم ورْطةً بعد ورطةٍ؛ فقد أذنبُوا ثمّ حلَفُوا كذِبًا، ثم اعتذرُوا قُبحًا، ثمّ زادوا الطّينَ بِلَّةً بِعطْفِ اللَّعِبِ على الخوْضِ، ولا يُتوقّعُ منهمُ الغباءُ بِتوريطِ أنفُسِهم إلى هذا الحدِّ المُزْرِي.

وجْهُ الفصْلِ في جُملةِ المصدّرة بلفظ ﴿قُلۡ﴾ والاستفهام:

بيانُ وجْهِ الجُرمِ الحقيقيِّ رادِعٌ للمُجرمين

فُصِلتْ جملةُ ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ﴾... ﴿تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ عمّا قبلَها للاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ يُوجِّهُ اللّه تعالى رسولَه ﷺ إلى الردِّ الأمْثلِ على اعتذارهم المُخادعِ، إذ يُثِيرُ الكلامُ السّابقُ في نفس الرّسول ﷺ سُؤالًا: وما الحُكْمُ فيهم؟ أو: وما العملُ معهم حين يقولون ذلك؟ فجاء الجواب: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ﴾.

من بلاغةِ الاستِفهامِ ﴿أَبِٱللَّهِ﴾ في السّياق:

الاستِهزاءُ بآياتِ اللّه تعالى، استهزاءٌ بالله تعالى، وهو أمرٌ عظيمٌ

يُنكر على المنافقين استهزاءَهم ذلك، ويوبِّخُهم عليه، مُعَنِّفًا "أفهذا مقامٌ يخوض فيه الخائضون ويلعبُ اللّاعبون؟"[1]، والمنافقون لم يستهزئُوا باللّه تعالى، وإنّما كانت استهانتُهم بالأيمان الكاذبة؛ وبـ "القُرْآنُ، وَسَائِرُ مَا يَدُلُّ عَلَى الدِّينِ"[2]؛ إرضاءً للمؤمنين.

تَوجيهُ حذْفِ المضافِ في الآيةِ:

مَن يَستهزئُ بالرّسولِ الكريم، فقد استَهزأَ بالله العظيم

أصلُ التّعبيرِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ﴾: أَبِيَمينِ اللّه... تستهزئون؟ لكنَّ النّظْمَ الكريمَ آثرَ حذْفَ المضافِ وإدخالَ همزةِ الاستفهامِ الإنكاريِّ التّوبيخيِّ على المضافِ إليه مسبوقًا بحرف الجرِّ ﴿أَبِٱللَّهِ﴾ مباشرةً، وذلك مع تقديمه يُفاقِمُ على المنافقين التّوبيخَ، ويُحقِّقُ عليهمُ الجريمةَ الكبرَى بذكْرِ لازمِ الاستهزاءِ بالأيمانِ -

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/834.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/95.

وهو الاستهزاءُ باللّه تعالى - وهكذا يُوحِي حذفُ المضافِ وإقامةُ المضاف إليه مَقامَه بأنَّ مَن يستهزئُ بيمين اللّه تعالى ومن يَستهزئُ برسولِ اللّه ﷺ يكونُ حُكمُه حُكمَ مَن استهزأ باللّه تعالى مباشرةً؛ فـ "الِاسْتِهْزَاءُ بِاللّه وَبِآيَاتِهِ إِلْزَامٌ لَهُم؛ لأنّهم استهزأوا بِرَسُولِهِ وَبِدِينِهِ، فَلَزِمَهُمُ الِاسْتِهْزَاءُ بِالَّذِي أَرْسَلَهُ بِآيَاتِ صِدْقِهِ"[1].

بَلاغةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور، في السّياق:

الاستهزاءُ بآياتِ الله تعالى، من أَسْوأِ الذّنوبِ الّتي يَرتكبُها المنافقون

أصلُ تركيبِ هذه الجملةِ: قل أكنتم تَستهزئون باللّه وآياته ورسولِه؟ غيرَ أنَّ جُرمَ الاستهزاءِ وخُطورتَه إنّما يتضاعفُ حين يتعلّقُ الاسْتهزاءُ بهذا المتعلِّق بخاصّة: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ "كَأَنَّهُ يَقُولُ هَبْ أَنَّكَ قَدْ تُقْدِمُ عَلَى الِاسْتِهْزَاءِ وَلَكِنْ كَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى إِيقَاعِ الِاسْتِهْزَاءِ فِي اللّه"[2]، فكان صدْرُ الجملةِ عقيبَ همْزةِ الاستفهام مكانَه الأنسبَ؛ لذلك وَلِيَ الهمزةَ مباشرةً.

ومنَ اللّافتِ أنّهم لم يقولوا: كنّا نَستهزئُ.. لِيأتي اللّومُ: كنتم تَستهزئون، وإنّما ذُكرَ لازمُ الخوضِ واللّعِبِ وهو الاسْتهزاءُ من بابِ الكنايةِ عنِ الصّفةِ؛ لأنّ أمرَ الدِّين جِدٌّ كلُّه لا يحتملُ الخوضَ واللّعبَ.. فإذا خاضُوا ولعبُوا وأقرُّوا بذلك اعتذارًا قبيحًا كان دليلَ الاسْتهزاءِ وعدَمِ التّقدير، ولا حولَ ولا قوّةَ إلّا باللّه العليّ العظيم.

ويُفيدُ تقديمُ المُتعلِّقِ ﴿أَبِٱللَّهِ﴾ عقبَ همزةِ الاسْتفهامِ الإنكاريِّ التّوبيخيِّ قلْبَ دعواهُمُ الخوضَ واللّعبَ ويُقرّرُ كذبَهم؛ في مقابلةِ قصْرِهم ما كان منهم على الخوضِ واللّعبِ، وقد سبقَ أنَّ قَصْرَهم في ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ كان للقلْب.

نُكتةُ التّقابُلِ بين ﴿كُنَّا نَخُوضُ﴾، و﴿كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

جاءتِ التّلاوةُ الكريمةُ بتقديمِ الفعْلِ ﴿كُنتُمۡ﴾ في جُملةِ ﴿كُنتُمۡ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/251.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/94.

اللّومُ والتّوبيخُ علـى وَفْـق الاعتذارِ الكاذبِ

﴿تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ليكونَ بإزاءِ تقديمِهم الفعْلَ ﴿كُنَّا﴾ حيث قالوا: ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾؛ فوقع اللّومُ والتّوبيخُ على وَفْقِ الاعتذارِ الكاذب؛ لذا فإنَّ هذا التّقديمَ يُشيرُ إلى مَكْمنِ الخطرِ في استهزائِهم، ويُفْصحُ عن أنَّ الاقترابَ من هذه المنطقةِ محظورٌ، وكيف يَتجرّؤون على الاسْتهزاءِ بيمينِ اللّه تعالى، وبآياتِه الكريماتِ، وبرسولِه ﷺ؟ وهذا النّسَقُ النّظميُّ يتضمّنُ مَنهجًا في حوارِ الخُصوم، هو التقاطُ خيوطِ توريطِهم وإلزامِهم الحُجّةَ من كلامِهم؛ إذ لمّا قدّموا ﴿كُنَّا﴾ قدّم جوابًا عليهم ﴿كُنتُمۡ﴾، وهذا يذكّرنا بمَنهجِ رسولِ اللّه ﷺ إذ كان لا يَلتمسُ إسكاتَ الخصْمِ إلا بما يَعرفُه الخصْمُ[1].

(1) الرافعي، السُّمُوُّ الرّوحيّ الأعظمُ والجمالُ الفنّيُّ في البلاغة النّبويّة، ص: 13.

﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾ [التّوبة: 66]

عاقبةُ الاستمرارِ في الأكاذيبِ، التّيئيسُ الصّارم من قبولِ الاعْتِذارِ

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

"لَمَّا كَانَ قَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ [التَّوْبَة: 65] اعْتِذَارًا عَنْ مُنَاجَاتِهِمْ، أَيْ إِظْهَارًا لِلْعُذْرِ الَّذِي تَنَاجَوْا مِنْ أَجْلِه، وَأَنَّهُ مَا يَحْتَاجُهُ الْمُتْعَبُ: مِنَ الِارْتِيَاحِ إِلى الْمَزْحِ وَالحَدِيث في غَيْرِ الجِدِّ، فَلَمَّا كَشَفَ اللّه أَمْرَ اسْتِهْزَائِهِمْ، أَرْدَفَهُ بِإِظْهَارِ قِلَّة جَدْوَى اعْتِذَارِهِمْ إِذْ قَدْ تَلَبَّسُوا بِمَا هُوَ أَشْنَعُ وَأَكْبَرُ مِمَّا اعْتَذَرُوا عَنْهُ، وَهُوَ التِبَاسُهُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِظْهَارِ الإيمان. فَإِنَّ اللّه لَمَّا أَظْهَرَ نِفَاقَهُمْ، كَانَ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ أَهْوَنَ"[1]، أي: لَمّا حقَّقَ استهزاءَهم أنتجَ قولَه: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ الآية، وبعد أنْ كشفَ فضائحَهم في الحلِفِ الكاذبِ وأعقبَه بالكذبِ في اعتذارِهم، جاء بهذه الآية تيئيسًا لهم ممّا طلبُوه من رضا الخلْقِ بالحلِفِ الكاذبِ، والاعتذارِ الكذوبِ.

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾: "العُذْرُ: تحرّي الإنسانِ ما يمحُو به ذنوبَه - ويقال: عُذْرٌ وعُذُرٌ - وذلك على ثلاثة أضْرُبٍ: إمّا أن يقول: لم أفعل، أو يقولَ: فعلتُ لأجلِ كذا، فيذكرَ ما يُخرجُه عن كونِه مُذنبًا، أو يقولَ: فعلتُ ولا أعودُ، ونحوَ ذلك منَ المقال. وهذا الثالثُ هو التّوبةُ، فكلُّ توبةٍ عُذْرٌ وليس كلُّ عُذْرٍ توبةً، واعْتذَرْتُ إليه: أتيت بعُذْرٍ، وعَذَرْتُهُ: قَبِلْتُ عُذْرَهُ. قال تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ﴾ [التوبة/94]، والمُعْذِرُ: من يرى أنّ له عُذْراً ولا عُذْرَ له. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة/90]، وقرئ ﴿ٱلۡمُعۡذِرُونَ﴾"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/251.

(2) الرّاغب، المفردات: (عذر).

2) ﴿طَآئِفَةٖ﴾: "الطَّوْفُ: المشيُ حولَ الشّيءِ، طاف حول الكعبةِ يطُوفُ طَوْفًا وطَوافًا وطَوَفانًا... والطائفةُ منَ الشّيءِ: القطعةُ منه. وقولُه تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، قال ابنُ عبّاس: الطائفةُ: الواحدُ فما فوقَه، فمن أَوقعَ الطَّائفةَ على الواحد يريدُ النّفسَ الطّائفة. وقال مجاهدٌ: الطائفةُ: الرّجلُ الواحدُ إلى الأَلْف. وقال عطاءٌ: أَقلُّها رجلان"[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المعاذيرُ الكاذبةُ غيرُ مقبولةٍ، ومن أصرّ على النّفاق جوبه بالعذاب

الخطابُ للمنافقين، وتحريرُه: "لا تشتغلُوا بتلك المعاذيرِ الكاذبةِ فإنّها غيرُ مقبولةٍ؛ لأنّكم بهذا الاستهزاءِ باللّه تعالى وآياتِه ورسولِه قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ. أي: قد ظهرَ كُفرُكم وثبتَ، بعد إظهاركم الإيمانَ على سبيل المُخادَعةِ، فإذا كنّا قبْلَ ذلك نُعاملُكم معاملة المسلمين بمقتضَى نُطقِكم بالشّهادتَيْن فنحن الآنَ نُعاملُكم معاملةَ الكافرين بسببِ اسْتهزائِكم باللّه تعالى وآياتِه ورسولِه ﷺ... إنْ نَعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ - أيها المنافقون - بسببِ توبتِهم وإقلاعِهم عنِ النّفاق - نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ أخرى منكم بسببِ إصْرارِهم على النّفاق، واسْتمرارِهم في طريقِ الفُسوقِ والعِصيانِ"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مَوقعُ جملةِ ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ من سابقتها:

التّوبيخُ معنًى قائمٌ برأسِه، مستقلّ بذاته

"جُمْلَةُ ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ﴾ مِنْ جُمْلَةِ القَوْلِ الَّذِي أُمِرَ الرَّسُولُ ﷺ أَنْ يَقُولَهُ، وَهِيَ ارْتِقَاءٌ في تَوْبِيخِهِمْ، فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ تَوْكِيدًا لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التَّوْبَة: 65]، مَعَ زِيَادَةِ ارْتِقَاءٍ في التَّوْبِيخِ، وَارْتِقَاءٍ في مَثَالِبِهِمْ بِأَنَّهُمْ تَلَبَّسُوا بِمَا هُوَ أَشَدُّ وَهُوَ

---

(1) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (طاف).

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/341.

الكُفْرُ، فَلِذَلِكَ قُطِعَتِ الجُمْلَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، عَلَى أَنَّ شَأْنَ الجُمَلِ الوَاقِعَةِ فِي مَقَامِ التَّوْبِيخِ أَنْ تُقْطَعَ وَلَا تُعْطَفَ؛ لِأَنَّ التَّوْبِيخَ يَقْتَضِي التَّعْدَادَ، فَتَقَعُ الجُمَلُ المُوَبَّخُ بِهَا مَوْقِعَ الأَعْدَادِ المَحْسُوبَةِ نَحْوَ وَاحِدٌ، اثْنَانِ، فَالمَعْنَى لَا حَاجَةَ بِكُمْ لِلِاعْتِذَارِ عَنِ التَّنَاجِي فَإِنَّكُمْ قَدْ عُرِفْتُمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَشْنَعُ"[1].

بَلاغَةُ النَّهْيِ والفصل: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ﴾:

ليس بعْدِ الكُفرِ ذنْبٌ؛ استهزاءً كان أو غيرَه

"لَمَّا كَشَفَ اللّه أَمْرَ اسْتِهْزَائِهِمْ، أَرْدَفَهُ بِإِظْهَارِ قِلَّةِ جَدْوَى اعْتِذَارِهِمْ، إِذْ قَدْ تَلَبَّسُوا بِمَا هُوَ أَشْنَعُ وَأَكْبَرُ مِمَّا اعْتَذَرُوا عَنْهُ - وَهُوَ التِبَاسُهُمْ بِالكُفْرِ بَعْدَ إِظْهَارِ الإيمان -، فَإِنَّ اللّه لَمَّا أَظْهَرَ نِفَاقَهُمْ كَانَ مَا يَصْدُرُ عَنْهُمْ مِنَ الاسْتِهْزَاءِ أَهْوَنَ، فَجُمْلَةُ لَا تَعْتَذِرُوا مِنْ جُمْلَةِ القَوْلِ الَّذِي أُمِرَ الرَّسُولُ أَنْ يَقُولَهُ، وَهِيَ ارْتِقَاءٌ فِي تَوْبِيخِهِمْ، فَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ تَوْكِيدًا لِمَضْمُونِ جُمْلَةِ ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، مَعَ زِيَادَةِ ارْتِقَاءٍ فِي التَّوْبِيخِ وَارْتِقَاءٍ فِي مَثَالِبِهِمْ بِأَنَّهُمْ تَلَبَّسُوا بِمَا هُوَ أَشَدُّ وَهُوَ الكُفْرُ، فَلِذَلِكَ قُطِعَتِ الجُمْلَةُ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا، عَلَى أَنَّ شَأْنَ الجُمَلِ الوَاقِعَةِ فِي مَقَامِ التَّوْبِيخِ أَنْ تُقْطَعَ وَلَا تُعْطَفَ؛ لِأَنَّ التَّوْبِيخَ يَقْتَضِي التَّعْدَادَ، فَتَقَعُ الجُمَلُ المُوَبَّخُ بِهَا مَوْقِعَ الأَعْدَادِ المَحْسُوبَةِ نَحْوَ وَاحِدٌ، اثْنَانِ، فَالمَعْنَى لَا حَاجَةَ بِكُمْ لِلِاعْتِذَارِ عَنِ التَّنَاجِي فَإِنَّكُمْ قَدْ عُرِفْتُمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ وَأَشْنَعُ"[2].

والاعتذارُ منَ الذّنْبِ والتّوبةُ منه أمرٌ مندوبٌ إليه، تضافرتْ عليه النّصوصُ الشّرعيّةُ، وتواترتْ به. وعلى ذلك فالنّهيُ عنه هنا يكونُ خارجًا إلى غرَضٍ بلاغيٍّ هو هنا التّيئيسُ من قَبولِه، والتّنبيهُ على أنّ الاعتذارَ لن يُفيدَهم شيئًا، وقال بعضُهم: "النَّهْيُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّسْوِيَةِ وَعَدَمِ الجَدْوَى"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/251.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.

والنّهْيُ عنِ الاعتذارِ يُفيدُ بمفهومِ المُخالَفةِ أنّهم توقّعُوا الفتْكَ بهم فجاؤوا مُعتذرين، ومجيؤُهم مُعتذرين كان جديرًا بإقالتِهم مِن عَثْرَتِهم، أمّا وقد نهاهُم عنِ الاعتذارِ فقد دلَّ على أنّه اعتذارٌ كاذبٌ، لم يخرجْ منَ القلب على سبيل التّوبةِ النّصوحِ، وإنّما هو في حدِّ ذاتِه ضربٌ آخرُ من ضروبِ الخِداعِ التي زادت طينتَهم بِلَّةً.

دَلالةُ وصْفِ الاسْتهزاءِ بالكفرِ:

كلمةِ الكُفرِ، جدّها جدّ، وهزلها جدّ

الحُكمُ على الاستهزاء بأنّه كُفرٌ "يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ: الكُفْرُ لَا يَدْخُلُ إِلَّا في أَفْعَالِ القُلُوبِ"[1]، و"الجِدُّ واللّعِبُ في إظهارِ كلمةِ الكُفرِ سواءٌ، ولا خلافَ بين الأئمّة في ذلك"[2]، "قَالَ الحَسَنُ: المُرَادُ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمُ الَّذِي أَظْهَرْتُمُوهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: ظَهَرَ كُفْرُكُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ أَنْ كُنْتُمْ عِنْدَهُمْ مُسْلِمِينَ، وَالقَوْلَانِ مُتَقَارِبَانِ"[3].

بَلَاغَةُ تَوْكِيدِ الخَبَرِ بـ ﴿قَدْ﴾ فِي السّياقِ:

الاسْتهزاءُ اسْتِخفافٌ، ومُرتكزُ الإيمانِ التّعظيمُ

﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾، اقتضى مقامُ توهُّمِ المنافقين قَبولَ أعذارِهم الكاذبةِ وأيمانِهم الفاجرةِ؛ توكيدَ الحُكمِ عليهم بالكفرِ حُكمًا قطعيًّا، بـ ﴿قَدْ﴾ التي دخلت على الماضي ﴿كَفَرْتُم﴾ فتآزرَا على القطعِ بتحقّقِ الكُفرِ فيهم، والقطعِ بوقوعه لهم.. ومعلومٌ أنّ "الاِسْتِهْزَاءَ يَدُلُّ عَلَى الاِسْتِخْفَافِ، وَالعُمْدَةُ الكُبْرَى فِي الإيمانِ تَعْظِيمُ اللّه تعالى بِأَقْصَى الإِمْكَانِ، وَالجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُحَالٌ"[4].

سِرُّ تَقْيِيدِ الفعْلِ بالظّرفِ ﴿بَعْدَ﴾:

الانتكاسُ إلى الكُفرِ بعد الإيمانِ، جُرمٌ خطيرٌ، وخِذلانٌ كبيرٌ

تقييدُ كُفرِ المنافقين بالظّرفِ ﴿بَعْدَ﴾ في قولِه تعالى ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْۚ﴾ وإن فسَّره العلماءُ بأنّ معناه: "بعد إظهارِكمُ الإيمانَ"[5]؛ فإنَّ ظاهرَه يزيدُهم توبيخًا؛ إذ يُصرّحُ بأنَّ كفرَهم كان

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/95.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/320.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/96.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/95.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/286.

بعد مخالطةِ الإيمانِ قلوبَهم؛ فيُسجِّلُ عليهم جريمةَ الانتكاسِ.. ففيه تصريحٌ بأنّ الكُفرَ بعد مخالطةِ الإيمانِ القلوبَ وتذوُّقِ طعْمِه بِلسان القلْبِ جُرمٌ خطيرٌ وخِذلانٌ كبيرٌ، لا يُضاهيه جُرمٌ ولا خِذلانٌ؛ و"التّعبيرُ بذلك أشنعُ في الذّمِّ، ولا سيّما عند العربِ؛ لأنّهم يتمادَحون بالثَّباتِ على أيّ أمرٍ اختارُوه، ويتذامُّون بالطّيشِ"(1).

تَوجِيهُ الإضافةِ في ﴿إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾:

المنافقون لهم إيمانُهمُ الصُّوريُّ، وهو عكس الإيمانِ الصّادقِ

قيل إنّ المنافقين "لَمْ يُؤْمِنُوا إِيمَانًا صَادِقًا، وَالْمُرَادُ بِإِيمَانِهِمْ: إِظْهَارُهُمُ الإيمانَ، لَا وُقُوعُ حَقِيقَتِهِ. وَقَدْ أَنْبَأَ عَنْ ذَلِكَ إِضَافَةُ الإيمان إلى ضَمِيرِهِمْ دُونَ تَعْرِيفِ الإيمان بِاللَّامِ الْمُفِيدَةِ لِلْحَقِيقَةِ، أَيْ: بَعْدَ إِيمَانٍ هُوَ مِنْ شَأْنِكُمْ، وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِأَنَّهُ الإيمانُ الصُّورِيُّ غَيْرُ الحَقِّ"(2). فما أضيفَ إليهم من إيمانٍ يفيدُ أنّه إيمانٌ خاصٌّ بهم، ليس إيمانَ الرّسولِ ﷺ وصحْبِه الكرامِ، الإيمانَ الصّحيحَ الذي يرضاهُ اللّه تعالى لعباده. كما يُوحِي ظاهرُ إضافةِ الإيمان إليهم بمزيدِ التّوبيخ؛ من حيث إنّه كان يُفترضُ أنّهم أحقُّ به وأوْلى؛ فهُم أهلُ كتابٍ؛ ولذلك أتَى به اسْمًا في مقابلَة الكُفرِ فعْلًا: ﴿كَفَرۡتُم﴾... ﴿إِيمَٰنِكُمۡۚ﴾، ولم يَقُل كفرتُم بعد أن آمنتُم، وهذا ممّا يضاعفُ جرائمَهم التي اقْترفوها، وهكذا يُسجِّلُ القرانُ الكريمُ عليهم الجرائمَ المُتراكبةَ المَقيتةَ.

نُكتةُ التّقْييدِ بـ ﴿إِن﴾:

عفْوُ الله تعالى عنِ العاصِي، لائحٌ لمن يَصْدُقُ التّوبةَ، وإنْ كان مُنافقًا

قُيِّدَ العَفْوُ بأداةِ الشّرطِ المُشكِّكِ ﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾: لتحقيقِ مَزيدٍ منَ الضَّغطِ على المنافقين للعودةِ إلى حظيرةِ الإيمانِ النّقيِّ الصّافي. وبرغْم ما في هذا الخبرِ منَ التّلويحِ بمُواربةِ بابِ التّوبةِ واحتمالِ العفْوِ عن بعضِهم؛ تُرسلُ ﴿إِن﴾

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/519.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.

إشارتَها بأنّ حصولَ العفْوِ عن طائفةٍ منهم يَظلُّ في حَيِّزِ البعيدِ المشكوكِ في حصولِه، وهذا يثيرُ في نفوسِهم الأملَ واليأسَ معًا، ويجعلُهم متردِّدين بين الخوفِ والرّجاء، وبهذا تدفعُهم ﴿إِن﴾ نحوَ التّوبةِ النّصوحِ دفعًا، واللّه تعالى يحبُّ لعبادِه النّجاةَ، ويدعُوهم إلى الخيْرِ، فمنِ اهتدَى فلنفْسِه ومن ضلَّ فإنّما يَضلُّ عليها.

دَلالةُ حذْفِ جوابِ الشَّرْطِ:

الإخبارُ بما يدُلُّ علَى الجزاءِ، أعلَى منَ الإخبارِ بالجَزاءِ

قوله ﷻ: ﴿إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾، فإنْ قيل: "كيف يصحُّ أن يكونَ ﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾ جوابًا للشّرْط ﴿نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ﴾... فالجواب أنَّ الجزاءَ محذوفٌ مسبَّبٌ عنِ المذكور، أي: فلا ينبغِي أن يَفترُوا أو فلا يَفتروا فلا بدَّ من تعذيب طائفةٍ... فإنْ قيل: هذا التّقديرُ لا يفيدُ سببيّةَ مضمونِ الشَّرطِ لمضمونِ الجزاء. قلتُ: يُحملُ على سببيّتِه للإخبار بمضمونِ الجزاءِ أو سببيّتِه للأمْرِ بعدمِ الاغترارِ قياسًا على الإخبار"[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالجارِّ والمجرور، وسر التعبير بالعفو:

تغليبُ جانبِ العفْوِ على جانبِ التَّعذيبِ فضْلٌ من ربِّ العالَمِين

وهنا يبدُو تغليبُ جانبِ العفْوِ من الرّحمن الرّحيم عنِ المُذنِبين على جانب التَّعذيب فذُكِر الجارُّ والمجرور ﴿مِّنكُمۡ﴾ في جُملة الشّرطِ ﴿نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ﴾، وحُذِف منَ الجُملةِ الثّانيةِ جُملةُ الجواب ﴿نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ﴾، ولم يُقيّد بـ ﴿مِّنكُمۡ﴾ وكأنَّ الطّائفةَ المُعذَّبةَ ليست منهم، وذلك يُعرِّضُ بفتح بابِ الأملِ في النّجاة، ويَستثيرُ العَشمَ في نفوسِهم في نَيْل عفْوِ الرحمن الرحيم؛ فيُسرعُ بهم ذلك إلى التّوبةِ والإنابة، فإذا لم يتوبُوا بعد ذلك ويعودُوا إلى اللّه تعالى دلَّ على تملُّكِ النّفاقِ قلوبَهم وتغلغُلِه في نفوسِهم كالمرض حين يَفْتِكُ بالجسْمِ ويَتمكّنُ فلا يُجدِي معه علاجٌ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/320.

العفوُ محضُ فضلٍ، وتَعذيبُ المُجرمين مَحْضُ عدلٍ منه تعالى

بَلاغةُ التّضادِّ بين ﴿نَّعۡفُ﴾ و﴿نُعَذِّبۡ﴾:

يَنُصُّ النّظمُ الكريمُ على فِعْلَي العفْوِ والعذاب مُتطابقَيْن متواجهَيْن، فيمنحُ عقولَ المنافقين وقلوبَهم فرصةَ المُوازَنةِ بين هذين الضِّدَّيْن عن قُربٍ؛ لعلّهم يَفزعون إلى التّوبةِ يرجُون أن يدخلُوا في طائفةِ العفْوِ، وينجُوا من أن يكونوا من طائفة العذاب؛ والمقصودُ "إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ بإحداثِهم التّوبةَ وإخلاصِهم الإيمانَ بعد النّفاقِ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ"[1].

استِحضارُ الحالِ، خيْرُ مُعينٍ على الارْتِداعِ

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع، في ﴿نَّعۡفُ﴾، و﴿نُعَذِّبۡ﴾:

المضارعةُ هنا تستحضرُ للمنافقين المَآلَيْن: مآلَ العفْوِ، ومآلَ التّعذيب، وتصوِّرُ لهم تجدُّدَ هذا وتجدّدَ ذاك، كلٌّ على طائفته وكلٌّ بحسبه، فهذا يُنَعّمُ ويتجدّدُ تَنعُّمُه بالعفْوِ، وهذا يصْطلِي العذابَ ويتجدّدُ اصْطلاؤُه بالعقوبة.

مقامُ العفْوِ مُعظّمٌ، ومقامُ العذابِ مَهُولٌ

نُكتةُ إسْنادِ العفْوِ والعذابِ، إليه تعالى:

وأسندَ اللّه ﷻ كلًّا منَ (العفوِ)، و(العذابِ) إليه سُبحانه تعظيمًا لمقامِ العفْوِ، وتشريفًا لأهلِه، وبِشارةً، وتهديدًا بأهلِ العذابِ، وتَهويلًا لشأنِه[2].

الفضْلُ لله وحدَه، والتَّوفيقُ منه وحدَه

بَلاغةُ أسلُوبِ الاكْتفاءِ، في السّياق الحكيم:

اكْتفاءُ النّظْم الكريمِ بِذِكْرِ سببِ عدَمِ العفْوِ عنِ الطّائفةِ الثّانيةِ عن ذكْرِ سببِ العفْوِ عنِ الطّائفةِ الأُولَى؛ ببيانِ أنَّ عدمَ العفْوِ عنِ الثّانيّةِ أنّهم كانوا مُجرمين - وذلك مذكورٌ في الآيةِ الكريمةِ -، وسببُ العفْوِ عنِ الطّائفةِ الأُولى أنّهم أحدثُوا التّوبةَ؛ وهذا لم يُذكرْ؛ تنويهًا بأنَّ الفضْلَ إنّما هو للّه تعالى، وأنَّ سببَ العفْوِ في الأصلِ توفيقُ اللّه تعالى إيّاهم إلى التّوبةِ النّصوحِ، ويصيرُ العفْوُ محضَ

---

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/286.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3362.

كرمٍ منه تعالى، ومع ذلك يكونُ للعفْوِ عن طائفةٍ سببُه التّوفيقُ، ولتعذيب الأخرَى سببُه الإجرامُ؛ فـ"المَقَامُ دَالٌّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ عَبَثًا وَلَا تَرْجِيحًا بِدُونِ مُرَجِّحٍ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنَّ طَائِفَةً مَرْجُوَّةٌ الإيمان، فَيُغْفَرُ عَمَّا قَدَّمَتْهُ مِنَ النِّفَاقِ، وَأُخْرَى تُصِرُّ عَلَى النِّفَاقِ حَتَّى المَوْتِ، فَتَصِيرُ إلى العَذَابِ"(1).

و"الذي عُفِيَ عنه رجلٌ واحدٌ وهو مَخْشِيّ بنُ حُمَيِّر الأشْجعيُّ... كان يضحكُ، ولا يخوضُ، وكان يَمشي مُجانباً لهم ويُنكرُ بعضَ ما يسمعُ... ولعلّه أُطلقَ الطائفة عليه تعظيماً له، وسَتراً عليه، وتبشيراً بتوبة غيره، ولعلَّ مَخشيًّا كان مؤمناً، ولكنْ كان إيمانُه مُزلزلاً فلذا عبَّرَ هنا بقولِه ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾"(2).

وفي النّصِّ على العفْوِ والتّعذيب معًا دلالةٌ "عَلَى أَنَّ مَنْ خَاضَ فِي عَمَلٍ بَاطِلٍ، فَلْيَجْتَهِدْ فِي التَّقْلِيلِ فَإِنَّهُ يُرْجَى لَهُ بِبَرَكَةِ ذَلِكَ التَّقْلِيلِ أَنْ يَتُوبَ اللّه عَلَيْهِ فِي الكُلِّ"(3)، و"إشارةٌ إلى أنّ بابَ التّوبةِ والقَبولِ لا يُقفلُ أبدًا... وأنَّ هؤلاء المنافقين الذين كفرُوا بعد إيمانِهم ليسُوا على حالٍ... فالذين يتوبون إلى اللّه تعالى، ويَرجعون إليه مِن قريبٍ مِن هؤلاء المُنافقين سيلْقَون منَ اللّه سبحانَه، عفوًا، ومغفرةً، وأنّ الذين يُصرّون على هذا النّفاق الذي هم فيه سيلْقَون منَ اللّه ما أعدَّ للكافرين والمُنافقين من عذابٍ ونَكالٍ"(4).

لَطيفةٌ في وصْفِ لفظ ﴿طَآئِفَةً﴾ الثّانيةِ بالإجرامِ:

في التَّخصيصِ بالوصْفِ، تغليظٌ وتَقبيحٌ

في تخصيصِ الطّائفة الثّانيّة بالإجرام "تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ جُرْمَ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ كَانَ أَغْلَظَ وَأَقْوَى مِنْ جُرْمِ الطَّائِفَةِ الأُولَى، فَوَقَعَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/519.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/96.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقران: 5/836.

التَّعْلِيلُ بِذَلِكَ الجُرْمِ الغَلِيظِ، وَأَيْضًا فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الجُرْمَ بَقِيَ وَاسْتَمَرَّ، وَلَمْ يَزَلْ، فَأَوْجَبَ التَّعْذِيبَ"[1].

معنَى الباءِ في لفظ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ من سياق الآية:

إجرامُهم عِلّةُ تَعذِيبِهم، وذلك عدل الله تعالى

(الباء) في مطلع جُملةِ الفاصلةِ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾؛ للسّببيّة[2]، تُظْهرُ عِلّةَ تعذيبِ المنافقين، وتَنفي الظّلْمَ عنه سُبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١٨﴾ [النَّحل: 118].

دَلالةُ الختْمِ بالفاصلةِ:

مَنِ اعتذرَ عنِ الكذبِ بالكذِبِ لا يُغفَرُ له، وإنّما يُغفرُ للصّادقِ

تأتي فاصلةُ الآيةِ الكريمةِ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾، كاشفةً عن سببِ تعذيبِ الطّائفةِ المُعذَّبَةِ، وتُصرِّحُ بأنّ إجرامَهم هو سببُ تعذيبِهم؛ فقد كانوا مُجرمين في إضْمارِهم النّفاقَ، ومجرمين في أيمانِهم الفاجرةِ التي هي من لوازمِ الاسْتهزاءِ بالرّسول ﷺ وبالدِّين، وذلك بدورِه من لوازمِ الاسْتهزاءِ باللّه تعالى، ومُجرمين بتخلُّفِهم عنِ الغزوِ في سبيلِ اللّه تعالى، إلى آخرِ ما فضحتْه هذه السّورةُ الفاضحةُ من مخازيهم المَخفيّةِ. و"في هذه الآيةِ يأخذُ اللّه تعالى المنافقين بِنِفاقِهم، فلم يَقبلْ لهم عُذرَهم الذي اعتذرُوا به؛ لأنّه كذبٌ إلى كذِبٍ، ونفاقٌ إلى نفاقٍ"[3]، أمّا الذين يتوبون بصدْقٍ فأولئك الذين وعدَهم اللّه تعالى بالعفْوِ.

بَلاغةُ حشْدِ المُؤكِّداتِ، في جُملةِ الفاصلةِ:

إجرامُ المنافقين مُترسِّخٌ، مُستمِرٌّ

بيّن سُبحانَه العذابَ، بقولِه تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ الذّنْبَ الكبيرَ الذي يكون له جِرمٌ، وتفعلُه الجوارحُ، وتكتسبُه النّفسُ، مُشيرًا سُبحانَه إلى أنّهم مُستمرّون على إجرامِهم ولم يتوبُوا، ولذلك يتأكّدُ إجرامُهم واسْتمرارُهم عليه، وعدمُ انخلاعِهم منه، وذلك بتأكيدِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/253.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/835.

الإجرام بالجُملةِ الاسْميّةِ، و(أنَّ) الدّالّةَ على تأكيدِ ما بعدَها، و(كان) التي تُؤكّدُ القولَ، وتدلُّ على استِمرارِه[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعل ﴿مُجۡرِمِينَ﴾:

تَجذُّرُ النّفاقِ فيهم، واسْتقرارُهُ وثبَاتُهُ

إجرامُهم ثابتٌ مُتجذِّرٌ فيهم تجذُّرَ نفاقِهم، وهم مُداوِمون على النّفاقِ والإجرام لا يتوبون منهما، وأنّ أمْرَ إجرامِهم بمنزلةِ الحاصلِ الثّابتِ المُستقرِّ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَبَثُ واللّعِبُ واللهوُ:

اللّعِبُ واللهوُ انْشغالٌ بما لا يُغْنِي، والعبث إضاعة الوقت بلا فائدة

"العَبَثُ: مَا خلا منَ الإرادات إِلَّا إِرَادَةَ حُدُوثه فَقَط، وَاللهوُ واللّعبُ يَتَنَاوَلهَا غيرُ إِرَادَةِ حُدوثهما إِرَادَةً وَقعَا بهَا لهوا وَلَعِبًا، أَلا ترى أَنه كَانَ يجوزُ أَن يقعا مَعَ إرادةٍ أُخْرَى فيخرجَا عَن كَونِهمَا لهوًا وَلَعِبًا، وَقيل اللّعبُ: عملٌ للذّةٍ لَا يُرَاعى فِيهِ دَاعِي الحِكْمَة كعملِ الصَّبِيّ لِأَنَّهُ لَا يعرفُ الحَكِيمَ وَلَا الحِكْمَةَ وَإِنَّمَا يعمل للذّة"[2].

و"اللّهْوُ واللّعِبُ يَشْتركانِ في أنّهما اشْتِغالٌ بِمَا لَا يعْنِي من هَوًى أَو طَرَبٍ حَرَامًا أَو لَا، قيلَ: واللّهْوُ أَعَمُّ مُطْلقاً، فاسْتِماعُ المَلاهِي لَهْوٌ لَا لَعِبٌ، وقيلَ: اللّعِبُ مَا قُصِدَ بِهِ تَعْجيلُ المَسَرَّةِ والاسْتِرْواحِ بِهِ، واللّهْوُ مَا شغلَ من هَوًى وطَرَبٍ وَإِن لم يُقْصَد بِهِ ذلكَ"[3].

قال العسكريُّ: "اللهو: ما يُشغلُ الإنسانَ عمّا يُعنيه ويُهمُّه، واللّعبُ: طلبُ المزْحِ بما لا يحسُنُ أن يُطلَبَ به. قيل: واشتقاقُه اللّعابُ، وهو المرورُ على غير استواءٍ كلُعَابِ الطّفلِ"[4]، وفي الكلّياتِ: "اللهو: صرفُ الهَمِّ بِمَا لَا يحسُنَ أن يُصرفَ بِهِ، واللّعبُ: طلبُ الفرحِ بِمَا لَا

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3362.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254.

(3) الزبيدي، تاج العروس: (لهو).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 470.

يحسُنُ أَن يطّلب بِهِ. وَقيل: اللهوُ الِاسْتِمْتَاعُ بلَذّاتِ الدُّنْيَا، واللّعبُ: العَبَثُ، وَقيل: اللهوُ: الميْلُ عَنِ الجِدِّ إلى الهزْلِ، واللّعبُ: تركُ مَا ينفعُ بِمَا لَا ينفعُ. وَقيل: اللهوُ: الإعراضُ عَنِ الحقِّ، واللّعبُ: الإقبالُ على البَاطِلِ"[1].

ولمّا كان اللهوُ عمَلَ لذّةٍ لَا يُرَاعى فِيهِ دَاعِي الحِكْمَةِ، ويَشتركُ مع اللهْوِ في أنّهما اشْتِغالٌ بِمَا لَا يُعْنِي من هَوًى، وهزْلٍ، وعبثٍ اصْطُفيا في الآية تعبيرًا تعذَّرَ به المنافقون عن حَلِفِهم.

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 799.

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ [التّوبة: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تعليلُ عدَمِ العفْوِ، ببيانِ الطّبائعِ المُحقّقة، في المُنافقين الفسقة

"لما بيَّن تعالى أفعالاً وأقوالاً لطوائفَ منَ المنافقين - منهم من كان معه ﷺ في العسكرِ - هي في غايةِ الفسَادِ، كان ذلك ربّما اقتضَى أنْ يُسألَ عنِ المُتخلّفين لو خرجُوا ما كان يكونُ حالُهم؟ فقال جواباً عن ذلك واستِدلالاً على أنَّ إجْرامَ الذين لم يَعْفُ عنهم منهم خُلُقٌ لازِمٌ: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾، أي: الذين أظهرُوا الإيمانَ وأبطنُوا الكفرانَ"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأۡمُرُونَ﴾: يقال: "أمَرْتُه: إذا كلّفتُه أنْ يفعلَ شيئًا، وهو لفظ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ كلِّها، وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: 123]، ... والأمرُ: التّقدُّمُ بالشّيءِ سواءً كان ذلك بقولهم: افعلْ وليَفعلْ، أو كان ذلك بلفظِ خبرٍ نحوَ: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]، أو كان بإشارةٍ أو غيرَ ذلك، ألا ترى أنّه قد سَمّى ما رأى إبراهيمُ في المنام من ذبْحِ ابنِه أمرًا حيث قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: 102]"[2].

2) ﴿بِٱلۡمُنكَرِ﴾: "المُنْكَرُ: كلُّ فِعلٍ تَحكُمُ العقولُ الصّحيحةُ بقُبحِه أَو تتوقَّفُ في اسْتِقباحِه العقولُ فتحكمُ الشّريعةُ بقُبْحِه، وإلى هذا

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/519.
(2) الرّاغب، المفردات: (أمر).

القَصْدُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: 112]"[1]، "وكلُّ مَا نفرتَ مِنْهُ وكرهْتَه فَهُوَ مُنكرٌ"[2].

3) ﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾: "النّهيُ: الزّجْرُ عنِ الشّيءِ، قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق: 9 - 10]، وهو من حيث المعنَى لا فرْقَ بين أن يكونَ بالقول أو بغيره، وما كان بالقولِ فلا فرْقَ بين أن يكون بلفظةِ افعلْ نحو: اجتنبْ كذا، أو بلفظة لا تفعلْ. ومن حيثُ اللّفظُ هو قولُهم: لا تفعلْ كذا، فإذا قيل: لا تفعلْ كذا فنَهْيٌ من حيث اللّفظُ والمعنَى جميعًا. نحوَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]... وكذا النّهيُ عن المنكرِ يكونُ تارةً باليد، وتارةً باللّسان، وتارةً بالقلب. قال تعالى: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: 62] وقولُه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [النحل: 90]، أي: يحثُّ على فعْلِ الخيرِ ويزجُرُ عنِ الشّرّ، وذلك بعضُه بالعقل الذي ركّبَه فينا، وبعضُه بالشّرع الذي شرعَه لنا، والانتهاءُ: الانزجارُ عمّا نهَى عنه، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]... والنُّهيَةُ: العقلُ النّاهِي عنِ القبائح. جمْعُها: نُهًى. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ۝٥٤﴾ [طه: 54]"[3].

4) ﴿ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: "العُرْفُ: ما استقرَّت النّفوسُ عليه بشهادةِ العقولِ، وتلقّته الطبائعُ بالقبول"[4]، "والمَعْروفُ: ضِدُّ المُنْكَرِ"[5]، "وَعُرْفُ الشَّرْعِ: مَا فَهِمَ مِنْهُ حَمَلَةُ الشَّرْعِ وجعلوه مَبْنَى الأَحْكَامِ"[6].

5) ﴿وَيَقۡبِضُونَ﴾: "القَبْضُ: تناول الشيء بجميع الكفّ. نحو: قَبَضَ السّيفَ وغيرَهُ. قال تعالى: ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ﴾ [طه: 96]، فَقَبْضُ اليدِ على الشّيءِ جمعُها بعد تناوُلِه، وقَبْضُهَا عنِ الشيء جمْعُها قبل تناوُلِه، وذلك إمساكٌ عنه، ومنه قيل لإمساك اليدِ عنِ البذْلِ: قَبْضٌ. قال تعالى: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ [التوبة: 67]، أي: يمتنِعون منَ الإنفاق، والانْقِبَاضُ: جمْعُ الأطرافِ، ويُستعملُ في ترْكِ التّبسُّطِ"[7].

---

(1) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (نكر): 5/120.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 804.
(3) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (نهى).
(4) الجرجاني، التعريفات، ص: 149.
(5) الفِيروزاباديّ، القاموس المحيط: (عرف).
(6) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 617.
(7) الرّاغب، المفردات: (أمر).

6) ﴿نَسُواْ﴾: "النِّسيانُ: تَرْكُ الإنسان ضَبْطَ ما اسْتُودِعَ، إمّا لضَعْفِ قَلْبِه، وإمّا عن غَفْلَةٍ، وإمّا عن قَصْدٍ حتى يرتفعَ عنِ القَلْبِ ذِكْرُه. نَسِيتُه نِسْياناً وتَناسَيْتُه، وأَنْسانِيهُ شَيْطانٌ ونَسّانِيه، قال تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: 115]، وقوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦﴾ [الأعلى: 6] إخبارٌ وضمانٌ منَ اللّه تعالى أنَّه يجعلُه بحيث إنَّه لا يَنْسَى ما يسمعُه منَ الحقِّ.

وكلُّ نِسْيان منَ الإنسان ذمَّهُ اللّه تعالى به فهو ما كان أَصلُه عن تَعَمُّدٍ منه لا يُعْذَرُ فيه، وما عُذِرَ فيه فإنَّه لا يُؤاخَذُ به نحوَ قولِه ﷺ: «رُفِعَ عن أُمَّتي الخَطَأُ والنِّسيانُ»[1]، فهو ما لم يكن سببُه منه. وقولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَآ﴾ [السجدة: 14] هو ما كان نَسْيُه عن تعمّدٍ منهم وتركُه على طريقِ الإهانة. وإذا نُسِب ذلك إلى اللّه تعالى فهو تَرْكُه إيّاهم استهانةً بهم ومُجازاةً لما تركوه... ويُقال: نسيتُ الشَّيءَ أَي: تركْتُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾"[2].

7) ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾: "**الفِسْقُ**: العِصْيَانُ وَالتَّرْكُ لأَمر اللّه ﷻ وَالخُرُوجُ عَنْ طَرِيقِ الحَقِّ"[3]، "وَهُوَ فِي القُرْآن على وُجُوه بِمَعْنى الكفْرِ نَحْوَ: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ [السجدة: 18] وَالمَعْصِيَة نَحْوَ: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾ [المائدة: 25]، وَالكذب نَحْوَ: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [النور: 4]... وَالإِثْم نَحْوَ: ﴿وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ﴾ [البقرة: 282]، وَالسّيِّئَات نَحْوَ: ﴿وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ﴾ [البقرة: 197]. وَكلُّه رَاجعٌ فِي اللُّغَة إلى الخُرُوج من قَوْلهم: فسقتِ الرّطبَة عَن القشْرِ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ﴾ [الأنعام: 121]: أَي خُرُوجٌ عَنِ الحق. وَيخْتَلف الخُرُوجُ فَتَارَة خُرُوجٌ فعلًا، وَأُخْرَى خُرُوجٌ اعتقادًا وفعلًا"[4].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

المنافقون بعضُهم "يُشبهُ بعضًا في الشّكِّ والنّفاقِ والارتيابِ، ولكن لا صلةَ بينهم ولا تآلُفَ؛ إذِ الولايةُ والصّلةُ والأخوّةُ هي من صفاتِ المؤمنين أصحابِ العقائدِ الرّاسخة،

---

(1) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه، الحديث رقم: (2043) من حديث أبي ذرّ بلفظ: «إنّ الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه»، والعلماء بين مصّحح له ومضعّف.

(2) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (نسى).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (فسق).

(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 692.

المنافقون على شاكلة واحدة، أمرًا بالمنكر، ونهيًا عن المعروف

ولذا يقولُ اللّه فيهم: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ ولايةَ النُّصْرةِ في الدّفاعِ عنِ الحقِّ...، وبالعكسِ المنافقون يأمرون بالمنكرِ وينهَوْنَ عنِ المعروفِ، ولا غرابةَ فهاتان الصّفتانِ من أبرزِ صفاتِ المؤمنين"[1] أنّهم "يأمرون غيرَهم بكلِّ ما تستنكرُه الشّرائعُ، وتستقْبِحُه العقولُ، وينهونَه عن كلِّ أمْرٍ دعتْ إليه الأديانُ، وأحبَّتْه القلوبُ السّليمةُ... بخلاءُ أشحَّاءُ عن بَذْلِ المالِ في وجوهِ المشروعةِ... تركُوا طاعةَ اللّه وخَشيتَه ومراقبتَه، فتركَهم سبحانه وحرمَهم من هدايتِه ورحْمتِه وفضْلِه... فهمُ الكاملون في الخروجِ عن طاعةِ اللّه، وفي الانْسلاخِ عن فضائلِ الإيمان، ومكارمِ الأخلاق...، إنَّ تلك العقوبةَ الشّديدةَ كافيةٌ لإهانتِهم وإذلالِهم بسببِ فسوقِهم عن أمْرِ ربّهم... فطردَهم وأبعدَهم من رحْمتِه ولُطفِه، ولهم عذابٌ دائمٌ لا ينقطعُ، فهمُ في الدّنيا يعيشون في عذابِ القلَقِ والحذَرِ من أن يطّلِعَ المسلمون على نفاقِهم، وفي الآخرةِ يذوقون العذابَ الذي هو أشدُّ وأبقَى، بسببِ إصْرارِهم على الكُفرِ والفسُوقِ والعِصيانِ"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الفصْلِ:

العفْوُ لايَطالُ كلَّ المنافقين، وبيانُ أحوالِهم يُؤكِّدُه

"يظهرُ أن تكُون هذِهِ الآيةُ احتِراسًا عن أن يظُنّ المُنافِقُون أنّ العفو المفرُوض لِطائفة مِنهُم هُو عفو ينالُ فريقًا مِنهُم باقِين على نِفاقِهم، فعقّب ذلِك بِبيانِ أنّ النِّفاق حالة واحِدة وأنّ أصحابهُ سواء؛ لِيُعلم بِذلِك أنّ افتِراق أحوالِهِم بين عفو وعذاب لا يكُونُ إِلّا إِذا اختلفت أحوالُهُم بِالإيمان والبقاءِ على النِّفاقِ.

(1) حجازي، التفسير الواضح: 1/905.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 6/343.

إلى ما أفادتهُ الآيةُ أيضًا مِن إيضاحِ بعضِ أحوالِ النِّفاقِ وآثارِهِ الدّالّةِ على استِحقاقِ العذاب، ففصل هاتِهِ الجُملة عنِ الّتي قبلها: إمّا لِأنّها كالبيانِ لِلطّائِفةِ المُستحِقّةِ العذاب، وإمّا أن تكون استِئنافًا ابتِدائِيًّا في حُكمِ الِاعتِراضِ كما سيأتِي عِند قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [التّوبة: 69] وإمّا أن تكون اعتِراضًا هِي والّتِي بعدها بين الجُملةِ المُتقدِّمةِ وبين جُملةِ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾ [التَّوْبَة: 69]"(1).

نُكتةُ الالْتفات:

وهنا يَلتفتُ السّياقُ من خطابِ المنافقين إلى خطابِ الرّسولِ ﷺ وأصحابِهِ ﷺ، ويُغيِّبُ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾، ويَذكُرُهُم بأسلوبِ الغائبِ، وبوصفِ النِّفاقِ الصّريحِ؛ ليُثْبتَ لهم جرائمَ جديدةً بعد الأخبارِ السّابقةِ.

بَعْدَ الإخبارِ بجرائِمِهِم السّابقةِ، أثبتَ لهم جَرائمَ جديدَةً

عِلّةُ التّصريحِ بذكْرِ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

ومِنَ اللّافتِ هنا التّصريحُ بذكْرِ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وعطْفِهنّ على ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، وكان يُفترضُ أن يُغلَّب لفظُ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيُطلقُ على أهل النّفاقِ رجالًا ونساءً؛ لذلك كان النّصُّ على ذكْرِ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بعدَهم يُشيرُ إلى خطورتِهنّ أيضًا في باب النّفاقِ أيضًا، فهنّ يُعاوِنَّ الرّجالَ على اسْتِكمالِ خُططِ النّفاقِ، واسْتِوائِهن مع الرّجالِ في الإضرار بالدِّين، وكذلك يُوحِي التَّصريحُ بذكْرِهنّ باستواءِ مصيرِهم جميعًا في الدّركِ الأسفلِ منَ النّارِ.

النِّساءُ يُعادِلْنَ الرّجالَ في خطَرِ الإضْرارِ بالدِّينِ

دَلالةُ التّعبيرِ بالجُملةِ الاسْميّةِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

الجُملةُ الاسْميّةُ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ تُفيدُ ثبوتَ المنافقين على نفاقِهم، ودوامَهم عليه؛ وذلك لأنّ الزّمن - غيرَ القارِّ - لا يدخلُ فيها؛ فتتمحّضُ للحدَثِ الثّابتِ بلا تغيُّرٍ،

النّفاقُ مُتمكِّنٌ مِنَ المنافقين، ثابتٌ فيهم، دائمٌ عليهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/253 - 254.

والحدَثُ هنا هو النِّفاقُ، وهو مأخوذٌ "مِنْ نُفَقاءِ اليربوعِ، وهو حيوانٌ يُشبهُ الفأرَ ويسكنُ في الصّحراء ويحفِرُ لنفسِه نفقًا في الأرض؛ له بابان، وإنْ ترصَّدَ له الصّائدُ عند أحدِهما خرجَ منَ الثّاني، وهكذا ترى أنّ المنافقَ له وجْهانِ"[1]. وصفاتُ المنافقِ مجموعةٌ في الحديث الشّريف: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذا وَعَدَ أَخلَفَ، وَإِذَ خَاصَمَ فَجَرَ، وَإِذَا عَاهَدَ نَقَضَ، لَا يَأْتِي الصَّلَاةَ إِلّاَ دُبُراً وَلَا يَذْكُرُ اللّه إِلّاَ هَجْراً»[2].

دَلالةُ تعريفِ المُسنَدِ إليه ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾:

المنافقون والمنافقاتُ أعلامٌ في بابِ النّفاقِ

تعريفُ المُسنَدِ إليه ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ يُوحِي بأنّهم كاملُو النّفاقِ، بالغون فيه مبلغَ الأعلامِ في بابِهم، الذين اشتهرُوا في تخصُّصاتِهم، وصارُوا بحيث إذا ذُكرَ وصفُهم انصرفَ إليهم فورًا دونَ سِواهم.

دَلالةُ عطْفِ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ على ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

خطرُ (المنافقات) و(المنافقين) سيّان، وكلاهما يعاقب في الدّارين

و"ذِكْرُ ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ خصوصًا، بعد المنافقين عمومًا تَنْصِيصٌ عَلَى تَسْوِيَةِ الأَحْكَامِ لِجَمِيعِ المُتَّصِفِينَ بِالنِّفَاقِ: ذُكُورِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ، كَيْلَا يَخْطُرَ بِالبَالِ أَنَّ العَفْوَ يُصَادِفُ نِسَاءَهُمْ، وَالمُؤَاخَذَةَ خَاصَّةٌ بِذُكْرَانِهِمْ، ولِيَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّ لِنِسَاءِ المُنَافِقِينَ حَظًّا مِنْ مُشَارَكَةِ رِجَالِهِنَّ فِي النِّفَاقِ فَيَحْذَرُوهُنَّ"[3].

دَلالةُ الإطْنابِ في صِيغةِ الخبَرِ:

تناقُلُ النّفاقِ بين أهلِه، مِثْلُ تناسُلِ الذّرّيّةِ بين النّاسِ

من لطائفِ التَّعبيرِ بهذه الصِّيغةِ المُطْنَبَةِ ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ - مع إمكانِ اسْتِبدالِها بصِيغةٍ أوْجزَ هي (متشابهون) - تحقيقُ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5267.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/380، هكذا هو عند الماوردي عن مكحول عن أبي الدّرداء. والمشهورُ الصّحيحُ منه ما في صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، الحديث رقم: (2459)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، مرفوعا: «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/254.

الاتّساقِ والتّناسُبِ بين اللّفظِ والمعنى؛ ذلك أنّ المعنَى هنا صريحٌ في تَناسُلِ شَيءٍ من شَيءٍ، وتَولُّدِ شيءٍ من شيءٍ، واللّفظُ بإزائه تمامًا، بأداةِ التّبعيض ﴿مِّنۢ﴾، الفصيحةِ في انفصالِ جُزءٍ من كلٍّ؛ لذلك كان التّعبيرُ ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ دقيقًا ومُنسجِمًا، ومُصوِّرًا للمعنى بهذه اللّغةِ المُجرّدة، فتناقُلُ النّفاقِ بين أهلِه مثلُ تناسُلِ الذّرّيةِ بين النَّاسِ. والمنافقون ليسُوا منَ المؤمنين في شيءٍ،

"لَمَّا تقدّمَ قبلُ ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾ حسُنَ هذا الإخبارُ"[1]، فكوْنُ بعضِ المنافقين من بعضٍ يُلمِحُ إلى أنّهم "ليسوا منَ المؤْمنين؛ لأنّ المنافقين... يأمرون بالكُفرِ بالنّبيِّ ﷺ... وينهوْنَ عنِ الإيمان به... ولا يتصدَّقون ولا يُزَكُّونَ"[2]، فبعضُهم من بعضٍ في "الحُكم والمنزلةِ منَ الكُفرِ"[3] وهذا أمرٌ مَعنويٌّ، مثلَ أنَّ أفرادَ الجِنْس بعضُهم منسولٌ من بعضٍ، وهذا أمرٌ حسّيٌّ.

دَلالةُ التّبعيضِ في ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾:

المـنـافـقـون مُـتـنـاسِـلُـو الأفكارِ، مُتوالدُو الأحـقـادِ على الدِّين والأمّة

التّعبيرُ بـ ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾ تُفيدُ أنّ المنافقين مُتناسلُو الأفكار، متوالدُو الأحقادِ على الدّينِ والأمّة، "متشابِهُون في النّفاقِ كتشابُهِ أبعاضِ الشّيءِ الواحدِ"[4] وكأنَّ حامضَ النّفاقِ النّوويَّ يُتوارَثُ فيما بينَهم تَوَارُثَ حامضِ البَشرِ النّوويِّ، "والمرادُ الاتّحادُ في الحقيقةِ والصّفة"[5].

"هكذا همُ المنافقون، وذلك هو مجتمعُهم، لا ينضحُ بغيرِ الإثمِ والمنكرِ، ولا يلدُ إلّا البغْيَ والفجورَ، فـ ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾، أي: على طبيعةٍ سواءَ يجمعُهمُ النّفاقُ، ويؤلّفُ بينهم، من رجالٍ ونساءَ، حتى لكأنّهم أفرادُ أسرةٍ واحدة، تجمعُها لُحمةُ النّسبِ والقرابة،

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/56.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/460.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/322.
(5) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/450.

وتُؤلّفُ بينها مشاعرُ الحبِّ والولاءِ.. وذلك أنذَ المنافقَ لا يجدُ المرعَى الخصيبَ الذي يُغذّي فيه نِفاقَه، ويُحقّقُ به وجودَه، ويُرضي فيه مشاعره، إلّا في بيئةٍ مُنافِقةٍ، تتجاوبُ معه، وتُروِّجُ لهذه البضاعةِ التي يتعاملُ بها"(1).

فـ"بعضُهم يأخذ نفاقَه من بعضٍ"(2)، و"المنافقُ بالمنافقِ يتعاضَدُ، وطيورُ السّماء على أُلّافِها تقعُ، فالمنافقُ لصاحبِه أُسٌّ، بِه قِوامُه، واصِلٌ به قيامُه، يُعينُه على فسادِه، ويُعَمّي عليه طريقَ رشادِه"(3)، ويترتّبُ على ذلك أنّ بعضَهم من بعضٍ "في الحُكمِ والمنزلةِ منَ الكُفرِ"(4).

موقعُ جُملةِ ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ ودَلالتُه:

أخطرُ جرائمِ النّفاقِ، مُعاداةُ الخيْرِ، ومُعاضَدةُ الشّرِّ

هذه الجُملة واللّتان بعدَها أحوالٌ منَ المنافقين والمنافقات، وهو كلامٌ "مُسۡتَأۡنَفٌ مُفَسِّرٌ لِمَا قَبۡلَهٌ"(5)، "مُفسِّرٌ لِمُضادّةِ حالِهم لحالِ المؤمنين، وكذا ما عُطِف عليه"(6)، وهذه الجُملةُ والتي بعدَها تُلخِّصان أفظعَ جرائم المنافقين؛ إذ إنّهما دليلُ انتكاسِ الفِطرة - التي فطرَ اللّه تعالى النّاسَ عليها - فيهم، وأنّ المنافقين قد بلغُوا منِ اختلالِ المنهجِ وخُبْثِ النّفوسِ بحيث يدْعُون النَّاسَ بل يأمرونَهم أمْرًا بعملِ المُنكرِ، وينهَونَهم نهْيًا عن عملِ المعروف، وذلك دليلُ خُلُوِّ قلوبِهم من أيِّ خيرٍ، وآيةُ عُمْرانِها بالنّفاقِ وإرادةِ الضَّرِّ للحقِّ وأهلِه، والنّصُّ على ذلك هنا وعلى ضدّه للمؤمنين - بعد صفحةٍ - يَعقِدُ المقابَلةَ الكاشفةَ عن بُعْدِ ما بينَهما؛ هؤلاء في الشّرِّ وأولئك في الخيْرِ، فـ "وصَفهم بما يدلُّ على مُضادَّةِ حالِهم لحالِ المؤمنين

(1) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/836.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/379.
(3) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/43.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.
(5) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/650.
(6) الهمذانيّ، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/293.

﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ بالكُفرِ والمعاصِي ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ عنِ الإيمانِ والطّاعاتِ ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾ شُحًّا بالمَبارِّ والصّدقاتِ والإنفاقِ في سبيلِ اللّه تعالى"(1).

مِن بلاغةِ تعريفِ ﴿ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، و﴿بِٱلۡمُنكَرِ﴾:

المعروفُ ما عرّفَه الشّرعُ وحسَّنَه، والمُنْكَرُ ما أنكرَه الشّرعُ وقبَّحَه

يُوحِي تعريفُ المنكر والمعروف هنا بمعنَى العُموم والاسْتِغراقِ والجِنْسِ، فكلُّ خيرٍ، وكلُّ معروفٍ تعارف عليه النّاسُ، وعرّف الشّرعُ الحنيفُ حُسْنَه وتحسينَه وقَبولَه فإنّ المنافقين له بالمرصادِ، وهذا الذي وصلُوا إليه منَ الضّلال يُفقدُ الثّقةَ في صلاحِهم، ويُؤْذِنُ بمصيرِهم الأليم، المذكورِ في الآية الاتيةِ؛ فهذه الآيةُ تُبِينُ عن نهايةِ النّهايةِ في الضّلالِ الذّاتي للمنافقين؛ وتكشفُ عن مدَى انتكاسةِ الفِطرةِ لديهم، وأنّها انْحطّتْ إلى أحطِّ دركاتِ الضَّلالِ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾:

المنافقون لا يألُون جُهْدًا، في الكيْدِ للدِّين وأهْلِه

تُشيرُ صِيغةُ المضارعةِ في ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾ إلى تجدُّدِ نشاطِ المنافقين في تفعيلِ باطلِهم في واقعِ النّاسِ، وعدَم توانِيهم في نشْرِ أباطيلِهم، بل وفرْضِها فرضًا على المجتمع بقوّة الأمْرِ ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، والنّهي ﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾.

سِرُّ التّعْبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿بِٱلۡمُنكَرِ﴾:

نصيحةُ المنافقين مدخولةٌ، وتوجيهاتُهم مَسمومَةٌ

إنّ "بضاعةَ المنافقين بضاعةٌ خبيثةٌ، وطعامٌ فاسدٌ عَفِنٌ لا تقبلُه إلّا النّفوسُ المريضةُ، ولا تستطعِمُه إلّا الطّبائعُ الخبيثةُ، إنّه عُمْلَةٌ زائفةٌ، لا تروجُ إلّا في الظّلام، ولا يتعاملُ المُتعاملون بها إلّا في أوكارِ اللُّصوصِ"(2)، فما يُقدِّمُ المنافقون للأمّةِ إلّا الخرابَ والضَّياعَ، نُصحًا كان، أو أمْرًا، أو نهيًا؛ فنصيحتُهم مدخولةٌ، وتوجيهاتُهم مَسمومَةٌ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّف عن حقائق غوامض التّنزيل: 2/287.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/837.

بَلاغةُ إيثارِ الأمْرِ والنّهيِ الصّريحَيْن:

من علاماتِ المنافقين الأمْرُ بالمُنكرِ، والنّهيُ عنِ الخيْرِ، والإمسَاكُ عنه

في صورةِ الأمْرِ والنّهي الصّريحَيْن المعكوسةِ المنكوسَةِ إيذانٌ بأنّ للمنافقين سُلطانًا على الدَّهماءِ بفصاحةِ ألسنَتِهم، وربّما بكثرةِ أموالِهم؛ وبذلك يتضاعفُ جُرْمُهم. بل إنّ المنافقين والمنافقات يغلِبُهم نفاقُهم قطْعًا فيَكشِفُهم؛ وذلك بأنّ نفاقَهم يحملُهم حمْلًا على الأمرِ بالمنكرِ والنّهيِ عنِ المعروف بصورةٍ، أو بأخرَى، وكأنّي بالقرآن الكريم هنا يُوجّهُ المؤمنين إلى أبرزِ علامةٍ من علاماتِ النّفاقِ التي يمكنُ أن يَستدلّوا بها على كلّ منافقٍ ومُنافقةٍ، إنَّ المنافقين والمنافقات "لا يهنؤُهم هذا الطّعامُ الخبيثُ العَفِنُ - طعامُ النّفاقِ - حتى يَستكثرُوا له منَ الأيْدِي التي تُشاركُهم فيه، ومنَ الأفواهِ التي تمضَغُه معهم... ومن دعا إلى مُنكرٍ وأمَرَ به، وحرَّض عليه، فهو ناهٍ - ضِمْنًا بمفهوم المخالفة - عن معروفٍ، صادٌّ عن خيْرٍ، ولكنَّ القومَ لا يقِفون عند هذا، بل إنّهم حين يدْعُون إلى المنكرِ، يقومُون بدعوةٍ أخرى، هي تَبْغِيضُ الحلالِ إلى النّاسِ، وتزهيدُهم في الخيْرِ، وذلك إذا تأبَّوْا عليهم ولم يَستجيبُوا لدعوتِهم إلى المُنكرِ، وحسبُهم في هذا أن يَصْرِفوا وجوهَ المؤمنين عنِ الإيمان، ويكُفُّوا أيدِيَهم عنِ التّعامُلِ بالخيْرِ"[1].

بَلاغةُ المقابَلةِ بين الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر:

المنافقون لا يكْتفُون بالأمْرِ بالمنكرِ، حتّى ينهَوا عنِ المعروفِ

بين الجُملتَين: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ مقابَلةٌ تزيدُ الجُرمَ بشاعةً؛ إذ لا يكتفِي ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بأمْرِ النّاسِ بالمنكرِ حتى يَنهوْهم عنِ المعروف، وفي ذلك حَرْبٌ صريحةٌ ضدَّ دين الله تعالى ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين في كلّ زمانٍ ومكانٍ، ومُناهضةٌ لكلِّ قِيَم الحقِّ والمُثُل القويمةِ.

وإذا بلغَ المنافقُ هذا المبْلَغَ من أمْرِ غيرِه بِتَبَنِّي المُنكرِ، واحتضانِه،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/837.

والدّعوةِ إليه، والذَّوْدِ عنه، وأمْرِه بمحاربةِ المعروفِ، والكيْدِ له، فهذا دليل خُلوصِه للشّرِّ، وتغلغُلِ الفسادِ في نفسِه، وعدَمِ الطّمعِ في عودتِه إلى الحقِّ، وذلك يُؤذِنُ بالنّهايةِ الأليمةِ التي تجلَّت في الآيةِ الآتية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

بَلاغةُ حذْفِ مفعولِ ﴿يَأۡمُرُونَ﴾ و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾:

المنافقون يُطلِقون حمْلةَ الأمْرِ بالمُنكرِ والنَّهيِ عنِ المعروف

لم يُفْصِحِ النّظمُ الكريمُ عن مأمورِ المنافقين ومَنْهيِّهم؛ وذلك لِتوفيرِ عنايةِ التّالي والمُستمعِ على تأمُّلِ ما وصلُوا إليه من انْحطاطٍ، ولِتوثيقِ نسْبَةِ الأمْرِ بالمنكرِ والنّهْيِ عنِ المعروف إليهم بِغَضِّ النّظرِ عن إيقاعِهما على مأمورٍ معيَّنٍ، وعلى مَنهيٍّ معيَّنٍ، وللإيحاءِ بأنَّ ذلك منهم مُتحقِّقٌ لكلِّ مَن يُتاحُ لهم أمرُه ونهيُه.

فكلُّ أحدٍ من أهل الصَّلاحِ، وكلُّ باب من أبواب الخيْرِ مَحَلٌّ لأمْرِهم بالمنكرِ ونهْيِهم عنِ المعروف، ويَتّخذون في سبيل تحقيق أهدافِهم المشؤومةِ كلَّ وسيلةٍ وكلَّ تدبيرٍ، فما أعْجبَ اجتهادَ أهْلِ الضّلالِ في نشْرِ ضلالِهم!

بَلاغةُ الكِنايةِ في قبض اليد عن الشّح:

المنافقون يُفْرِطُون في نشْرِ كلِّ شرّ، ويُمْسِكون عن فِعْلِ أيِّ خير

قوله تعالى: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾، هو الجملةُ الثّالثةُ من أحوال المنافقين المُتعاطفة، و"قبْضُ اليدِ كنايةٌ عنِ الشُّحِّ"[1]، "كما أنَّ بسْطَها كنايةٌ عنِ الجُودِ؛ لأنَّ من يُعطي يَمُدُّ يده بخلافِ مَن يمنعُ"[2]، والشُّحُّ هو البُخلُ في أقبحِ صُوَرِه؛ فلمّا كان البَسْطُ أمارةَ الجُودِ جُعِلَ القَبْضُ دليلَ الإمساكِ والشُّحِّ؛ ولذلك لم يُذْكرِ القبضُ مع بسْطِ اللّه تعالى الرّزقَ لعبادِه في القرآن الكريم قطُّ؛ لأنَّ اللّه تعالى لا يقبضُ حتى عنِ الكافرِ، وإنّما يَقْدِرُ أي: يُنزلُ الرّزقَ بحسبِ مصالحِ العبادِ بتقديرِ الحكيمِ الخبيرِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/80.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/451.

وللعلماء في المقبوضِ عنه معانٍ: منها القبضُ "عنِ الإنفاق في سبيل اللّه تعالى... وعن كلِّ خيرٍ...، وعنِ الجهادِ مع النّبيِّ ﷺ...، وعن رفْعِها في الدّعاء إلى اللّه تعالى"[1].

سِرُّ البدْءِ بالأمْرِ بالمنكرِ، على النّهي عنِ المعروف:

الأمرُ بالمنكرِ أمَسُّ بطبيعةِ المنافقين وأحوالهم

لَفْظُ المُنْكَرِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ قبيحٍ، وذميم إلّا أنَّ المنكرَ الأعظمَ هاهنا تَكْذِيبُ الرَّسُولِ ﷺ، والنَّهيُ عَنِ المَعْرُوفِ، وَلَفْظُ المَعْرُوفِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ حَسَنٍ إِلَّا أَنَّ المعروفَ الأَعْظَمَ هاهنا الإيمانُ بِالرَّسُولِ ﷺ[2].

ويُلْمِحُ تقديمُ الأمْرِ بالمنكرِ على النّهي عنِ المعروف إلى أنّ طبيعةَ النّفسِ المنافِقةِ تقفزُ على باب الشّرِّ أوّلًا، تأمرُ به، وتدعُو إليه، وتزيّنُه. وأنَّ منطقةَ المنكرِ أحبُّ إليها منَ الاقتراب من ساحةِ المعروفِ ولو على سبيلِ النَّهْيِ عنه، إنّها هنالك حيثُ الكيدُ للدِّين، والإضرارُ بعبادِ اللّه تعالى الصّالحين، كذلك يُحقِّقُ هذا التَّقديمُ التّوازيَ الأسلوبيَّ بين صفات المنافقين هنا وصفاتِ المؤمنين هناك؛ فالمنافقون يأمرون أوّلًا ثمّ ينهَون ثانيًا، وفي المقابل نجدُ المؤمنين يأمرون أوّلًا وينهَوْن ثانيًا كذلك، لكنْ شتَّانَ بين أمرِ هؤلاء ونَهْيِهم، وأمرِ أولئك ونَهْيِهم!

بَلاغةُ التّعبيرِ بالمجازِ في ﴿نَسُواْ﴾:

تقبيحُ التّركِ بوصْفِه بالنِّسْيانِ

ذِكرُ اللّه تعالى "مُستلزمٌ لإطاعتِه؛ فجعلَ النّسيانَ مجازًا عن التّرك، وهو كنايةٌ عن تركِ الطّاعةِ"[3]، فقد "تركُوه حين تركوا نبيَّه وشرْعتَه؛ فتركَهُم حين لم يَهْدِهم، ولا كفاهُم عذابَ النّارِ، وإنّما يُعبَّرُ بالنّسيان عنِ التّركِ مبالغةً إذا بلغَ التّركُ الوجهَ الذي يقترنُ

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/379.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/97.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/451.

به نسيانٌ"[1]، و"إِنَّمَا حَسُنَ جَعْلُ النِّسْيَانِ كِنَايَةً عَنْ تَرْكِ الذِّكْرِ لِأَنَّ مَنْ نَسِيَ شَيْئًا لَمْ يَذْكُرْهُ، فَجَعَلَ اسْمَ الْمَلْزُومِ كِنَايَةً عَنِ اللَّازِمِ"[2].

من بلاغةِ المجازِ والمُشاكلةِ، في سيّاق الآية الكريمة:

الجزاءُ من جِنْسِ العمَلِ، ومَنْ يعملْ سُوءًا يُجْزَ به

قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾، في هذه الجملة مُشاكلةٌ بديعةٌ، والمعنى: "فتركَهُم من رحْمته وفضْله وخَذَلَهم، والتَّعبيرُ عنه بالنِّسيانِ للمُشاكلة"[3]، فأسندَ النِّسيانَ إلى اللّه تعالى - و﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52] - لوقوعِ مُجازاته في صُحبةِ نِسيانِهم إيّاه، وإنّما "جُعِلَ النِّسيانُ مَجازًا لاستحالة حقيقتِه عليه تعالى، وامتناعِ المُؤاخذة على نسيانِ البشَرِ"[4]، "ولا بُدَّ من حمْلِ الكلامِ على المجازِ المُرسَلِ والعلاقةِ اللّازميّة، فالمرادُ لازمُ النِّسيانِ وهو التّركُ، أي أنّهم أغفلُوا ذِكْرَ اللّه تعالى فتركَهُم من رحمته وفضْله، أو يقال: فيه فنُّ المشاكلة؛ لأنَّ النِّسيانَ الحقيقيَّ لا يصحُّ إطلاقُه على اللّه تعالى، وإنّما أُطلقَ عليه هنا من باب المُشاكلةِ، أي تركُوا ما أمرَهُم به فتركَهم من رحْمَتِه وفضْله"[5]. ونسيانُ اللّه تعالى إيّاهُم مَجازٌ عن أنّ اللّه تعالى يُخَلِّيهم إلى أنفُسِهم، ولا يمنحُهمُ التّوفيقَ، ولا يُسدّدُهم، بل يُهملُ شأنَهم ويُغَيِّمُهم في عذاب النَّفْسِ الّتي تُعاني عبءَ النّفاقِ في الدّنيا، ولا يتداركُهم برحْمته وعفْوه ومغفرَته في الآخرةِ، "فنَسِيَهُمْ أي: منَ الخيْرِ، ولم ينْسَهُم منَ الشّرِّ"[6].و"جازاهُم على نِسيانِهم، فسمّى جزاءَ النِّسيانِ نِسيانًا..﴿وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ۝١٧﴾ [البقرة: 17]"[7].

---

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/56.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/97.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/80.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 5/451.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/130.
(6) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/56.
(7) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/43.

الفِسْقُ في أقبَحِ صُوَرِه، دليلُ النّفاقِ وعلامةُ أهْلِه

دلالة موقع الجُملةِ المؤكّدة بـ ﴿إِنَّ﴾، ممّا قبْلَها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، فُصِلتْ هذه العبارةُ عمّا قبلَها؛ لأنّها تُنزَّلُ منها مَنزلةَ التّوكيدِ منَ المُؤكّد، فلا حاجةَ إلى رابطٍ يربطُهما وهذه المرّةُ الثّالثةُ لذكْرِ المنافقين في هذه الآية الكريمةِ والرّابعةُ في الصّفحة نفْسِها من بين ستّةِ مواضعَ في نفْسِ الصّفحة، وبهذا العددِ لم يجتمعْ للمنافقين ذكرٌ في القرآن الكريم قطُّ وذلك يَعني أنّهم هنا بلغُوا الذّرْوةَ في الفسادِ والإفسادِ وفي خراب النّفوسِ، وتَخريبِ نفوسِ غيرِهم، والعِياذُ باللّه من حالِ أهلِ النّارِ.

الـفُـسـوقُ في المنافقين، أعلى منه في المُنافقاتِ

نُكتةُ الاقتصارِ على (المنافقين) دونَ (المنافقات):

منَ اللّافتِ هنا بقوّةٍ أنَّ النَّظمَ الكريمَ يُثبتُ الفسوقَ للمنافقين، دونَ المنافقات، برغْمِ أنّه ذكرهُنَّ معهم في أوّل الآيةِ الكريمة، وسيَذكرُهنَّ معهم في الآيةِ الكريمةِ الآتية، وذلك من دِقّةِ القرآن، ووُجوهِ إعجازِه.

ولعلّ وجْهَ المناسبةِ في السّكوتِ عنِ المنافقات هنا في سِياقِ ذكْرِ الفُسوقِ وذكْرِ المنافقين فقط، هو ما يُمثّلُه الفرقُ بين طبيعةِ الرّجالِ المنافقين، وما يختصّون به من فجورِ الفُسوقِ، وتبجُّحِ الخروجِ، دونَ النّساءِ المنافقاتِ، إذ إنّ المرأةَ المنافقةَ مهما كانت ستظلُّ في الأغلبِ الأعمِّ امرأةً، تتّصفُ بضعْفِ بدنِها، وخَوَرِ عزيمتِها، ورجْفةِ قلبِها في الشّدائدِ طبعًا وعادةً، وليس كذلك الرّجلُ المنافقُ طبعًا وعادةً؛ لذلك اختصَّه الذّكرُ الحكيمُ بِنسبةِ الفُسوقِ إليه وإثباتِه له.

التَّقريرُ وتأكيدُ المعنَى، يُناسبُه الإظْهارُ

بَلاغةُ إظْهارِ اسْمِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، في مَوضِعِ الإضْمارِ:

الموضعُ هنا لذكْرِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ بالضّميرِ (هم) فيقال - في غيرِ القرآن الكريم -: أولئك همُ الفاسقون - مثلًا -، غير أنّ النَّظمَ الكريمَ آثرَ التَّعبيرَ بالاسْمِ الظّاهرِ مباشرةً "لزيادةِ التَّقريرِ"[1] -

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/80.

تقريرِ نسْبةِ الفسوقِ في أفْظعِ مُستوياتِه على الإطلاقِ إليهم؛ ولذلك أيضًا دعَّمَ التّقريرَ بضميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾.

من بلاغةِ القصْرِ الإدّعائيّ في جُملةِ الفاصلةِ:

﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، وفيه أنّ ضميرَ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾، يتآزرُ مع تعريفِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾، في توكيدِ الخبرِ، وهو من باب القصْرِ، وهو "قَصْرٌ ادِّعَائِيٌّ لِلْمُبَالَغَةِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا بَلَغُوا النِّهَايَةَ فِي الفُسُوقِ، جُعِلَ غَيْرُهُمْ كَمَنْ لَيْسَ بِفَاسِقٍ"[1]، ويُشيرُ إلى أنَّ فِسْقَهم في ميزانِ الشّرعِ، هو الفِسقُ، بحيث إذا قِيس به كلُّ فسقٍ غيرُه، لم يُعَدَّ فِسْقًا، وأنّهم دون سواهُم "هُمُ الكَامِلُونَ في الفِسْقِ"[2]، كلُّ هذا وغيرُه ممّا يفوحُ به ضميرُ الفصْل، مع التّعريف.

الفِسْقُ البالغُ مستوى كبيرًا، دليلُ النّفاقِ وسوءِ الأخلاقِ

سِرُّ التّعبيرِ بوصْفِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

الفِسقُ في الدِّين هو "التّمرُّدُ في الكفرِ، والانْسِلاخُ عن كلِّ خيْرٍ، وكفَى المسلمَ زاجرًا أن يُلِمَّ بما يُكسِبُه هذا الاسْمُ الفاحشُ، الذي وصفَ اللّه تعالى به المنافقين حين بالغَ في ذمِّهم، وإذا كرِهَ رسول اللّه ﷺ للمسلمِ أن يقول (كسلت)؛ لأنّ المنافقين وُصِفُوا بالكسلِ في قوله تعالى: ﴿كُسَالَىٰ﴾ [النساء: 142]، فما ظنُّك بالفِسْقِ؟"[3].

النّفاقُ يُفسدُ صاحبَه، كما يُفسِدُ الثّمرةَ خروجُها من قِشْرتِها

بَلاغةُ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

التَّعبيرُ باسْمِ الفاعلِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ يقْطعُ بأنَّ الفِسْقَ صارَ مُلازِمًا لهم، مُتمكِّنًا منهم، مُختلِطًا بخلايا أبْدانِهم وعقولِهم ونفوسِهم بحيث لا يَنفكُّ عنهم.. وهكذا تتضافرُ كلُّ هذه العناصرِ - من: إنّ، واسْميّةِ الجُملةِ، وضميرِ الفصْلِ، وصِيغةِ اسْمِ الفاعل في الكافرون وفاسقون - على تقريرِ الحُكمِ عليهم، واقتضاءِ العقوبةِ لهم، وذلك منَ التّناسُبِ في الصّميمِ؛ بما تكاثفَ في نفوسِهم منَ الشّرِّ والضّلالِ والإضْلالِ.

الفِسْقُ ثابتٌ فيهم، مُتمكِّنٌ منهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/255.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/97.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 5/451.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الفِسْقُ والظُّلْمُ والكُفْرُ والفُجُورُ:

الـفِـسْـقُ إقـرارٌ بـحُـكْـمِ الـشّـرْع وإخـــــلالٌ بمقاصده

إنَّ الفِسْقَ أعمُّ منَ الكُفرِ، والفِسقُ يقعُ بالقليلِ منَ الذّنوبِ وبالكثيرِ، لكنْ تُعُورف فيما كان كثيرًا، وأكثرُ ما يقالُ الفاسقُ لمن التزم حُكْمَ الشّرعِ وأقرَّ به، ثم أخلَّ بجميع أحكامِه أو ببعْضِها، وإذا قيلَ للكافرِ الأصليِّ: فاسقٌ، فلأنه أخلَّ بحُكْمِ ما ألزَمَه العقلُ واقتضتْه الفِطرةُ، فالفاسقُ أعمُّ منَ الكافرِ، والظّالمُ أعمُّ منَ الفاسقِ، والفاجرُ يُطلقُ على الكَافِرِ وَالفَاسِق(1).

ولِعُموم لفْظِ الفِسْقِ ودَلالتِه على الإخلالِ بحُكْمِ الشّرعِ مع معرفتِه به ناسبَ أن يُختارَ في الآية وصْفًا للمنافقين والمنافقات بوصْفِهم يأمرُون بالمنكرِ، وينْهَون عن المعروف مع معرفتِهم بمنْعِ الشّارعِ له، وحجْمِ ضررِه.

---

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 693.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التّوبة: 68]

الرّبط بين مواصفات المنافقين، ومآلهم في اللّعنة وسوء العذاب

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا بيّنَ كثيرًا من أحوالِهم اشتدَّ التّشَوّفُ إلى مآلِهم، فجاءتِ الآيةُ الكريمةُ مُبيِّنةً مآلَهم، وأنّهم في الآخرةِ هُمْ والكفّارُ سواءٌ في الخلودِ في جهنّمَ والمقامِ الدّائمِ في العذابِ.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعَدَ﴾: "الوَعْدُ يكون في الخير والشّرّ. يقال وَعَدْتُه بنفْعٍ وضُرٍّ وَعْداً ومَوْعِداً ومِيعَاداً، والوَعِيدُ في الشّرِّ خاصّةً. يقال منه: أَوْعَدْتُهُ"[1]، "قال الفرّاءُ: إذا أَسْقَطُوا (المفعول وهو)[2] الخيرَ والشَّرَّ قالوا في الخَيْرِ: المَوْعِد والعِدَة، وقالوا في الشرّ: الوَعِيدُ والإِيعاد"[3].

2) ﴿حَسْبُهُمْۚ﴾: "حسبُ: في أَسماءِ اللَّه تعالى الحَسِيبُ: هُوَ الكَافِي، فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِل، مِن أَحْسَبَنِي الشّيءُ إِذَا كَفاني... وحَسْبُه، أَي: قَدْرُه، وكَقَوْلِكَ: عَلَى حَسَبِ مَا أَسْدَيْتَ إِلَيَّ يكون شُكْرِي لَكَ. تَقُولُ أَشْكُرُكَ عَلَى حَسَبِ بَلَائِكَ عِنْدِي، أَي عَلَى قَدْرِ ذَلِكَ. وحَسْبُ - مَجْزُومٌ، أي: ساكن الوسط - بِمَعْنَى كَفَى؛ قَالَ سِيبَوَيْه: وأَمَّا حَسْبُ، فَمَعْنَاهَا الاكْتِفاءُ. وحَسْبُكَ دِرْهَمٌ أَي كَفاكَ، وَهُوَ اسْمٌ"[4].

3) ﴿مُّقِيمٌ﴾: أي دائمٌ ثابتٌ، يقال: "قَامَ كذا، وثبتَ، وركزَ بمعنًى. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة: 125]... والإِقَامَةُ

(1) الرّاغب، المفردات: (وعد).

(2) هذه الزيادة كما في كتاب: مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 16/32.

(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وعد) ولم يوقف على ما عُزِي إلى الفراء في كتابه معاني القرآن.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (حسب).

في المكان: الثّباتُ، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عنِ الدّوام، نحوَ: ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: 39]، وقُرِئَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مُقَامٍ أَمِينٍ ﴿٤٨﴾﴾ [الدخان: 48][1]، أي: في مكانٍ تدومُ إقامتُهم فيه... والمُقَامةُ: الإقامةُ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [فاطر: 35] نحو: ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصّلت: 28]"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المـنـافـقـون جزاؤهم الخُلودُ في العـذاب الهون، في الدّرك الأسفل من النّار

"حملتْ هذه الآيةُ أشدَّ وعيدٍ لأهلِ النّفاقِ والكُفرِ؛ إذ توعَّدهمُ الربُّ تعالى بنارِ جهنَّمَ خالدين فيها، وبالعذابِ المُقيم، الذي لا يُبارِحُهم، ولا يتركُهم لحظةً أبدَ الأبَدِ، وذلك بعْدَ أن لعنَهمُ اللّه تعالى، فأبعَدَهم، وأسحقَهم من كلِّ رحْمةٍ وخيْرٍ، وفي ذلك ما يَعمُرُ النّفوسَ بُغْضًا للنّفاقِ والمنافقين، وما يَحملُ النّاسَ على الخوفِ منه، والحذَرِ منهم، وما هو كفيلٌ بِتَثْبيتِ الفزَعِ والفرَقِ في نفوسِ المنافقين من هذا الوعيدِ الشّديدِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الاسْتِئنافِ في: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾:

تَمَسُّكُ المنافقين بِنفاقِهم، مع العلْمِ بِعُقوبتِه، يَستحقُّ الوَعْدَ بها

"هَذِهِ الجُمْلَةُ... اسْتِئْنَافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عَنْ قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، ... ومُبَيِّنَةٌ لجملة ﴿فَنَسِيَهُمْۗ﴾؛ لِأَنَّ الخُلُودَ فِي جَهَنَّمَ وَاللَّعْنَ بَيَانٌ لِلْمُرَادِ مِنْ نِسْيَانِ اللّه إِيَّاهُمْ"[3].

"وَالوَعْدُ أَعَمُّ مِنَ الوَعِيد، فَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الإِخْبَارِ بِالتِزَام المُخْبِرِ لِلْمُخْبَرِ بِشَيْءٍ فِي المُسْتَقْبَلِ نَافِعٍ أَوْ ضَارٍّ... وَالوَعِيدُ خَاصٌّ بِالضَّارِّ"[4]، وآثرَ النّظمُ الكريمُ الوعْدَ مع تمحُّض السّياقِ للشّرِّ فكان بالوعيدِ أَوْلى - لاستعمالِ الوعْدِ هنا في التّهكُّم الذي اقتضاه رِضاهُم

(1) ابن الجزري، النشر: 2/371، وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر، وبحسب العد المدني.
(2) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/255.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/255.

بالنّفاقِ والكُفرِ، وكأنّهم ينتظرون الشّرَّ مكافأةً، فكافأَهُمُ اللّه تعالى به وحقّقَه لهم، بذلك المصيرِ الأليمِ مصيرِ النّفاقِ الذّميم.

التَّعبيرُ بالماضي ﴿وَعَدَ﴾، في سيّاق الآية الكريمة:

آجلُ عذابِ المنافقين الحُرَقةُ، وعاجلُ عذابِهم الإبعادُ والفُرقة

التّعبيرُ بالماضي يُرَسِّخُ في النّفسِ ثُبوتَ الحُكْمِ على المنافقين بالخلودِ في العذابِ؛ فصِيغةُ المُضيّ تقولُ بتحقُّقِ الوقوعِ، وإلى ذلك إذا كان الفعلُ صادرًا عنِ اللّه تعالى فسيزدادُ القطْعُ بالحُكْمِ قطعًا؛ ممّا يَقرّرُ أنّه تعالى "وعدَهمُ النّارَ في الآخرةِ، ولهمُ العذابُ المقيمُ في الحاضرةِ، فمؤجَّلُ عذابِهم الحُرَقةُ، ومُعجَّلُه الإبعادُ والفُرقةُ"[1].

ووعيدُ اللّه تعالى لا يَتخلَّفُ، قال ابنُ عاشورٍ: "وفعْلُ المُضيّ هنا: إمّا للإخبار عن وعيدٍ تقدّمَ وعَدَه اللّه المنافقين والمنافقات تذكيرًا به لزيادة تحقيقِه وإمّا لصَوْغِ الوعيدِ في الصِّيغةِ التي تَنْشأُ بها العقودُ مثل (بعت ووهبت) إشعارًا بأنّه وعيدٌ لا يتخلّفُ مثلُ العَقْدِ والالتزام"[2].

بَلاغةُ الإظْهارِ، في مقامِ الإضْمارِ:

المُجتمعُ اليَقِظُ الواعِي، يَعرفُ المنافقين فيَحذرُهم

أظهرَ في مَقَامِ الإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾؛ مع سبْقِ الحديثِ عنهم طويلا؛ "لِزِيَادَةِ تَقْرِيرِهِمْ فِي الذِّهْنِ لِهَذَا الحُكْمِ، وَلِتَكُونَ الجُمْلَةُ مُسْتَقِلَّةً حَتَّى تكونَ كالمَثَلِ"[3]، وعن "ابن عبّاسٍ: كان المنافقون بالمدينةِ منَ الرّجالِ ثلاثَمائة، ومنَ النّساء سبعين ومائةَ امرأة"[4]، أي: أنّهم كانوا معلومين لدَى المؤمنين بنفاقِهم مُعيَّنةً أفرادُهم؛ وذلك من سُوءِ النِّذارةِ لهم بمكانٍ.. ونسألُ اللّه تعالى العظيمَ صدْقَ الإيمان، وسَتْرَ الآثام، وفلاحَ الحالِ والمآلِ.

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/44.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/255.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/379.

الكُفّارُ والمنافقون في سُوءِ العاقبةِ سَواءٌ، والمنافقون همُ الأسْوأُ

سِرُّ زيادةِ ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾:

و"زِيَادَةُ ذِكْرِ ﴿وَٱلْكُفَّارَ﴾ هُنَا لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا بِأَهْوَنَ حَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ إِذْ قَدْ جَمَعَ الْكُفْرُ الفَرِيقَيْنِ"[1]، ويُفهَمُ من هذا التّرتيبِ أنَّ المنافقين أعْرقُ في الكيدِ للإسلام وأهلِه؛ إذِ الكافرُ يُواجِهُ فيُفطَنُ له ويُحذَرُ، وقد يكونُ الكافرُ عقيدةً فيما بينه وبين ربِّه تعالى مُسالمًا للمسلمين، أمّا المنافقُ فظاهرُهُ سَلامٌ، وباطنُه تدبيرٌ كائدٌ.

وتلتقي مع هذا التّرتيبِ آيةُ سورةِ النّساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ [النساء: 140]. وكان مُقتضَى تقديمِ الكُفرِ بالآيات ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ في الآيةِ الكريمةِ على الاستهزاءِ - الذي هو من صفاتِ المنافقين ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ - كان مقتضَى هذا التّرتيبِ أن يُقدَّمَ الكافرون في العقوبةِ على المنافقين، لكنَّ النّظْمَ الكريمَ قدَّمَ المنافقين وبهم بدأ فقال: ﴿جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لكوْنِهم أعظمَ كُفرًا، وأخبَثَ عقيدةً، وهذا يتناسَبُ بوضوحٍ مع الزّجِّ بالمنافقين في الدّركاتِ السُّفلَى تحت الكافرين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ١٤٥﴾ [النساء: 145]، والعياذُ باللّه تعالى من مصيرِهم جميعًا.

عذابُ المنافقين مُتكاثفٌ خطيرٌ، لا يُطاقُ ولايفتر

وَجْهُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ مُضافًا:

"هذا هو الجزاءُ الذي أعدّه اللّه لأهْلِ النّفاقِ والكُفرِ، ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾"[2]، وأضاف ﴿نَارَ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ وإن كانت إحداهُما لَكافيةً؛ لكونِه العذابَ المتكاثفَ المُتراكبَ، الذي لا يُطاقُ؛ ولأنّه لا يقومُ له

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/838.

شيءٌ يَجعلُ اللّه تعالى أجسامَ أهلِ النّار عظيمةً، كما جاءت به السّنّةُ الشّريفةُ؛ إذ يقولُ الرّسول ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَعْظُمُونَ فِي النَّارِ حَتَّى يَصِيرَ أَحَدُهُمْ مَسِيرَةَ كَذَا وَكَذَا، وَإِنَّ ضِرْسَ أَحَدِهِمْ لَمِثْلُ أُحُدٍ»[1]، وعن ابن مسعود: «لَا يَكُونُ رَجُلٌ يَكْنِزُ فَيَمَسُّ دِرْهَمٌ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارٌ دِينَارًا، يُوَسَّعُ جِلْدُهُ حَتَّى يُوضَعَ كُلُّ دِينَارٍ وَدِرْهَمٍ عَلَى حِدَتِهِ»[2]. وهذا الخبرُ ممّا لا يُجتهدُ فيه؛ فلا بُدَّ من أنْ يكون له أصلٌ في الدّين استنْبطَه منه ابنُ مسعودٍ، وتعظيمُ جسْمِ الكافر لازِمٌ توسيعَ جِلْدِهِ في نار جهنّمَ، وإنّ جلْدَه لَيُوسَّعُ حتى لَتُرَصَّ الدّراهمُ صغيرةُ القيمةِ لتكثُرَ - لا الدّنانيرُ عظيمةُ القيمةِ فتقلَّ - على جلْدِه بحيث يكونُ بينها مسافاتٌ - كنايةً عن عِظَمِ جسْمِه، وضخامةِ بنيتِه، فهنالك فقط يتهيّأُ حطبًا لـ ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾، والعِياذُ باللّه من حالِ أهْلِ النّارِ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالحالِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾:

الخلودُ في النّارِ، مَصيرُ المنافقين والكُفّارِ، وبئس القرار

صِيغةُ اسْمِ الفاعل ﴿خَٰلِدِينَ﴾ تشتملُ على سببيّةِ المنافقين أنفُسِهم في خلودِهم في النّارِ، وأنّهم لا يكونون مُخلَّدين بفَرْضٍ يُفرضُ عليهم كما يزعُمُ بعضُ النّاسِ، وإنّما يكونون خالدِين بفعْلِهم هم، وكأنَّ الخلودَ صارَ رغبةً منهم واختيارًا لهم، وذلك يتّسقُ مع نصوصِ الشّرعِ المُتكاثرةِ على أنَّ ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الإسراء: 15]، و﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46].

وَجْهُ التَّعبيرِ بحرفِ الظّرفيّةِ (في):

نارُ جهنّمَ، ستكونُ لأهلها وِعاءً عَميقًا، لا يُمكنُهمُ الخروجُ منه

التَّعبيرُ بحرف الظّرفيّة (في) صريحٌ في أنّ النّارَ تصيرُ بِجِبالِها،

(1) ابن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، كِتَابُ ذِكْرِ النَّارِ، مَا ذُكِرَ فِيمَا أُعِدَّ لِأَهْلِ النَّارِ وَشِدَّتِهِ، الحديث رقم: (34153): 7/53، وإسناده ضعيف، لضعف أبي يحيى الطويل، وأبي يحيى القتات.

(2) الهيثميّ، مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، كتاب الزكاة، بَابُ فَرْضِ الزَّكَاةِ، الحديث رقم: (4349): 3/65، من حديث ابن مسعود، موقوفا عليه. قال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ، وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ". وأما مرفوعا فلا يصحّ.

وأَوْدِيتها ومجاهِلِها وظُلمَتِها وِعاءً عميقَ القاعِ للمنافقين والمنافقات خصوصًا والكُفّارِ عُمومًا، بحيث تَسقطُ فيها أصنافُهم ولا يُمكنُهمُ الخروجُ منها أبدًا.

عذابُ المنافقين والكفّارِ، لا يزولُ عنهم، ولا يَنفكّونَ عنه

سِرُّ إيثارِ لفْظِ ﴿حَسۡبُهُمۡۚ﴾:

"جُملةُ ﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ في محلِّ نصْبِ حالٍ من نار جهنّمَ"[1]، وفي إيثارِ النّظْم الكريم مُفردةَ (حَسْب) إشارةٌ إلى "أَنَّهَا مُلَازِمَةٌ لَهُمْ. وَأَصْلُ حَسْبُ أَنَّهُ بِمَعْنَى الكَافي، وَلَمَّا كَانَ الكَافي يُلَازِمُهُ الْمُكَفِّي كُنِّيَ بِهِ هُنَا عَنِ الْمُلَازَمَةِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَسْبُ عَلَى أَصْلِهِ، وَيَكُونُ ذِكْرُهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ تَهَكُّمًا بِهِمْ، كَأَنَّهُمْ طَلَبُوا النَّعِيمَ، فَقِيلَ: حَسْبُهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ"[2]. ففي كلمةِ ﴿حَسۡبُهُمۡۚ﴾ "دلالةٌ على عِظَمِ عذابِها، وأنّه لا شيءَ أبلغَ منه، وأنّه بحيث لا يُزادُ عليه"[3].

المُنافِقونَ وَالكُفّارُ، مَحَلُّ سُخْرِيةٍ وَتَهَكُّمٍ يَوْمَ القِيَامَةِ

بَلاغةُ الاسْتِعارةِ التَّهكُّميّةِ في ﴿حَسۡبُهُمۡۚ﴾:

"﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ أي: هي كلُّ ما لهم عندَ اللّه تعالى"[4]، و"كأنْ يكونَ هناك إنسانٌ شرِّيرٌ وأنت تريدُ أن تؤدِّبَه، فيأتي إنسانٌ قويٌّ ويقولُ لك: اتركْه لي، أنا وحدي كفيلٌ أن أؤدّبَه. فتقولُ: هذا حسْبُه، أي يكفيه هذا؛ لِيتمَّ التأديبُ المطلوبُ. كذلك النّارُ"[5]، فـ "لو تمنّى أحدٌ لهم عذابًا لكان ذلك عندَه حسْبًا لهم"[6] وفي ذلك تهكُّمٌ بهم، وإزراءٌ عليهم، ممّا يتوافقُ مع قولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين: 34 - 36]. وهذا يَشفِي صدورَ المؤمنين فوْقَ كونِه يَغْلِي في قلوبِ المنافقين؛ لِفظاعةِ ما عانَوْه منهم، و"إذا قيلَ للمعذّبِ:

(1) صافي محمود، الجدول في إعراب القرآن: 10/385.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/287.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/838.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5272.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.

كفَى، دلَّ على أنّه بلغَ غايةَ النِّكايةِ"[1]، فهذه النّارُ "كافيةٌ لإهانَتِهم وإذلالِهم بسببِ فُسوقِهم عن أمْرِ ربّهم"[2].

سِرُّ عطْفِ جُملةِ ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

معنَى "﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أبْعدَهُم من رحمتِه وأهانَهم"[3]، و"طردَهم من طاعته، فلا يَقبلُ لهم توبةً ولا عودةً؛ لأنّ مكانَ التّوبة هو الدّنيا، وأمّا بعدَ الموت والآخرةِ فلا محلَّ فيهما لتوبةٍ ولا رجوعٍ عن معصيةٍ"[4]، و"لا فرَجَ لهم"[5]؛ منَ العذابِ و"التَّحْقِيرِ وَالغَضَبِ"[6]، و"الذَّمّ"[7]، وهذه الجملةُ "بيانٌ لبعض ما تضمّنَه الخلودُ في النّارِ، فإنّ النّارَ المخلَّدَ فيها مع كوْنِها كافيةً في الإيلام - تتضمَّنُ شدائدَ أُخَرَ منَ اللّعنِ والإهانةِ وغيرِهما"[8]، فقد "جعلَهم مذمومين، مُلحَقين بالشّياطين المَلاعين"[9].

للمنافقين عذابان حِسّيٌّ في النّار، ومَعنويٌّ باليأْسِ منَ الفرار

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعْلِ الماضي ﴿وَلَعَنَهُمُ﴾:

"فِعْلُ الْمُضِيِّ هُنَا إِمَّا لِلْإِخْبَارِ عَنْ وَعِيدٍ تَقَدَّمَ وَعَدَهُ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ تَذْكِيرًا بِهِ لِزِيَادَةِ تَحْقِيقِهِ، وَإِمَّا لِصَوْغِ الوَعِيدِ فِي الصِّيغَةِ الَّتِي تَنْشَأُ بِهَا العُقُودُ مِثْلَ (بِعْتُ وَوَهَبْتُ) إِشْعَارًا بِأَنَّهُ وَعِيدٌ لَا يَتَخَلَّفُ مِثْلَ العَقْدِ وَالِالتِزَامِ"[10].

لعْنُ الله تعالى المُنافقين والكافرين، مَقطوعٌ به لا مَحالةَ

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾، مُسْنَدًا إليه:

لم يبنِ النّظْمُ الكريمُ فعْلَ اللّعنةِ للمفعول كما في قولِه تعالى - مثلًا -: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي

إيقاعُ اللّعْنِ منَ الله تعالى، يَقطعُ بعذابِ الملعونين الشّديدِ الدّائم

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 4/341.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/344.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 9/5272.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/521.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/98.
(8) حقّي، روح البيان: 3/461.
(9) النّسفي، مدارك التّنزيل وحقائق التأويل: 1/692.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/255.

﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النّور: 23]؛ لكوْنِ إسْنادِ اللّعْنِ إلى اللّه تعالى مباشرةً يُقرّرُ ضَياعَهم، ودوامَ العذابِ عليهم، ففيه مِن عِظَمِ التَّخويفِ والزَّجْرِ ما شأنُه أنْ يَرُدَّ عنِ النّفاقِ في الدّنيا؛ لأنّ الذي يَلعنُهم هو اللّه تعالى. فـ "في إظْهارِ الاسْمِ الجليلِ منَ الإيذانِ بشدّةِ السُّخطِ ما لا يَخفَى"[1].

تَوجِيهُ الختْمِ بالعذاب المقيم:

عـذابُ المنافقين لا يَـنـقـطـعُ، جَزعٌ في الدّنيا، وجـحـيـمٌ في الآخرة

في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾، لفظ الـ ﴿مُّقِيمٞ﴾ هو الـ "مؤبّدُ الذي لا نقلةَ له"[2]، و"لا ينقطعُ"[3]. وخُتِمتْ جملةُ العقوبات بوصْفِ العذاب بالـ ﴿مُّقِيمٞ﴾ تيْئيسًا للمنافقِ منَ الخلاص منه، مهما طالتْ عليه الأحقابُ والتَّغييبُ هنالك في مجاهلِ أوْديةِ الجحيم إلى غيرِ نهايةٍ، ممّا يُكبِّدُه المعاناةَ النّفسيّةَ هنا قبْلَ أن يَرحلَ إلى ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾.. ثمّ إنّ للمنافقِ من وراء جهنّمَ وعذابِها لعْنةَ اللّه القائمةَ عليهم، وعذابًا مقيمًا لا يُفتَّرُ عنهم، وهم فيه مُبلِسون[4]. "وَالعَذَابُ المُقِيمُ: إنْ كَانَ المُرَادُ بِهِ عَذَابَ جَهَنَّمَ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِقَوْلِهِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾ لِدَفْعِ احْتِمَالِ إِطْلَاقِ الخُلُودِ عَلَى طُولِ المُدَّةِ، وَتَأْكِيدٌ لِلْكِنَايَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ﴾، وَإِنْ كَانَ المُرَادُ بِهِ عَذَابًا آخَرَ تَعَيَّنَ أَنَّهُ عَذَابٌ فِي الدُّنْيَا وَهو عَذَابُ الخِزْيِ وَالمَذَلَّةِ بَيْنَ النَّاسِ"[5].

عِلّةُ تقديمِ المُسنَدِ ﴿وَلَهُمۡ﴾، على المُسنَدِ إليه ﴿عَذَابٞ﴾:

العـذابُ المقيمُ مُقرَّرٌ للمنافقين والـكُـفّـارِ، ولا مندوحة عنه ولا فرار

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿عَذَابٞ﴾ يُفيدُ القصْرَ الحقيقيَّ التّحقيقيَّ؛ لأنّه لا يَخلُدُ في النّارِ إلّا المنافقون والمنافقات والكفار، وأنَّ ذلك لا يتجاوَزُهم إلى غيرِهم من عُصاةِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/56.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/451.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 5/839.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/256.

الموحِّدين، الذين قد يُغمسُ بعضُهم في العذابِ للتَّطهيرِ لا للتَّخليدِ، وأدلَّةُ الشّرعِ تواترتْ بهذا الحُكم، كما في الحديثِ الشّريفِ الذي يرويه أبو هريرة ﵁ عنِ الرّسول ﷺ: «فَيَخْرُجُونَ قَدْ امْتُحِشُوا وَعَادُوا حُمَمًا، **فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرِ الحَيَاةِ**، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»[1].

نُكتةُ تَنكيرِ المُسنَدِ إليه ﴿عَذَابٌ﴾:

عـذابُ المنافقين والـكـافـريـن، مَـنْـكـورٌ نَـكـارةَ نِفاقِهم وكُفْرِهم

يُفيدُ تنكيرُ لفْظِ ﴿عَذَابٌ﴾ تهويلَ شأْنِ العذابِ، وخُطورةَ النّارِ التي سيخلُد فيها المنافقون والمنافقاتُ والكافرون، وأنّها نارٌ مُستفْظَعَةٌ منكورةٌ، لا عهْدَ لهم بها، ولا قِبَلَ لهم بها؛ فتنكيرُه ناسبَ نَكارةَ نفاقِهم وكُفرِهم من جهةٍ، كما ناسبَ جهْلَهم بِكُنْهِه وفظاعَته مِنَ الجهةِ الأُخرَى.

سِرُّ وصْفِ الـ ﴿عَذَابٌ﴾ بـ ﴿مُّقِيمٌ﴾:

عـذابُ المنافقين مُـقـيـمٌ عليهم فـمُـعـجّـلٌ في الدّنيا، ومُؤجّلٌ في الآخرة

وصْفُ العذابِ هنا بـ ﴿مُّقِيمٌ﴾ يَقتضيه السّياقُ اقتضاءً واضحًا؛ إذ إنّ نِفاقَهم مُترسّخٌ فيهم، متمكِّنٌ منهم، ملازمٌ لهم. وهو في حدِّ ذاته ﴿عَذَابٌ﴾ "مقيم معهم في الدّنيا، لا يَنفكُّ عنهم، وهو ما يقاسُونَه من تعبِ النِّفاقِ الذي هم منه في بَليَّةٍ دائمة، لا يأمَنون ساعةً من خوفِ الفضيحةِ ونُزولِ العذابِ إنِ اطَّلعَ عن أسرارِهم"[2] أحدٌ، وبخاصّةٍ من له سُلطانٌ عليهم مثلُ الرّسولِ ﷺ.

وقد ذُكرَ وصْفُ ﴿مُّقِيمٌ﴾ بعد الحالِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ "تأكيدًا له؛ لأنَّ الخلودَ والدّوامَ بمعنًى واحدٍ"[3]، فلا تَكْرارَ؛ ولأنَّ المقصودَ "أَنَّ لَهُمْ نَوْعًا آخَرَ مِنَ العَذَابِ المُقِيمِ الدَّائِمِ سِوَى العَذَابِ بِالنَّارِ وَالخُلُودِ المَذْكُورِ أَوَّلًا، وَلَا يَدُلُّ قوله: لهم نار جهنم عَلَى أَنَّ العَذَابَ بِالنَّارِ

(1) البخاري، الجامع الصّحيح، الحديث رقم: (6560).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(3) حقّي، اسماعيل، روح البيان: 3/461.

دَائِمٌ. أما قَوْلُهُ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ فيَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُمْ مَعَ ذَلِكَ نَوْعًا آخَرَ مِنَ العَذَابِ... أو أن العذاب المقيم هو العَذَابُ العَاجِلُ، الَّذِي لَا يَنْفَكُّونَ عَنْهُ. وَهُوَ مَا يُقَاسُونَهُ مِنْ تَعَبِ النِّفَاقِ، وَالخَوْفِ مِنِ اطِّلَاعِ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى بَوَاطِنِهِمْ، وَمَا يَحْذَرُونَهُ أَبَدًا مِنْ أَنْوَاعِ الفَضَائِحِ"[1]، و"ما هم مقهورون به من سطْوةِ الإسلامِ وجنودِه الكرامِ الأعلامِ، وفي الآخرة بما لا يعلَمُه حقَّ علْمِه إلّا اللّه تعالى"[2].

الغَرَضُ منَ المجازِ العقليّ ﴿مُّقِيمٞ﴾:

عـذابُ المنافقين والـكـافـريـن مُتعشِّقٌ لهم، مُتشَبِّثٌ بهم

العذابُ لا يُقيمُ ولا يَدومُ مِن تِلقائِه على المنافقين، وإنّما يُقيمُه اللّه تعالى عليهم؛ غيرَ أنّ إسْنادَ الإقامةِ إلى العذابِ يُعطي إيحَاءَ أنّ العذابَ نفسَه مُغْتاظٌ منهم؛ فهو مُتشبِّثٌ بهم، لا يريدُ ترْكَهم هانِئين لحظةً بدونِ تألُّمٍ ومعاناةٍ، والعياذُ باللّه تعالى من حالِ أهلِ النّارِ. والمجازُ في وصْفِ العذابِ بـ ﴿مُّقِيمٞ ٦٨﴾ "عقليٌّ... فهي كما في قولِه تعالى: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ [الحاقة: 21] والمجازُ هنا في وصْفِ العذابِ بالإقامةِ"[3] "فهم في الدّنيا يَعيشون في عذابِ القلَقِ والحذَرِ من أن يطَّلِعَ المُسلمون على نفاقِهم، وفي الآخرةِ يَذوقُون العذابَ الذي هو أشدُّ وأبْقى، بسببِ إصْرارِهم على الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ"[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/98.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/521.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/385.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/344.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٩﴾ [التَّوبة: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مناسبة الوعيد بعذاب المنافقين، وكونهم كالكفّار السّابقين حالا ومصيرا

لَمَّا بيَّن ﷻ في الآيات السَّابقة العقاب الشَّديد الّذي يستقبلُ الكافرين، ومنهم المنافقون؛ لأَنَّهم كفَّارٌ أَخِسَّاءُ حرصوا على طلب الدُّنيا وأَعرضوا عن الآخرة، بيَّن في هذه الآية حصول المشابهة بين الفريقين في طلب الدُّنيا والإعراض عن الآخرة وتكذيب الأنبياء والمكر والخديعة بهم، وفي العقاب الأُخرويِّ بحُبُوطِ أعمالِهم وخسرانِها.

ومن المناسبة أَنَّه لَمَّا كانَ حالُ المنافقين - فيما تقدَّم - الإقبالَ على العاجلةِ؛ لكونِها حاصلة، والإعراضَ عنِ الآخرة؛ لأنَّها غائبةٌ، مشابهًا لحالِ مَنْ كانَ قبلَهم منَ الأُمَمِ الخاليةِ والقرونِ الماضية، بيَّن لهم ذلكَ في هذه الآية، وختمَ ببيانِ سوءِ أحوالِهم وقُبْحِ مآلهم بتلاشي أعمالِهم، فقال: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الآية، مُلتفتًا إلى أسلوبِ الخطاب؛ لأنَّه أوقعُ في بابِ العتاب، وأقْعدُ في اسْتجلابِ المصالحِ للمتاب[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَشَدَّ﴾: الشَّدُّ: العَقدُ القويُّ، يُقالُ: شدَدْتُّ الشَّيء: قوَّيتُ عَقْدَه، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾ [الإنسان: 28]، وقالَ سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمَّد ﷺ: 4]. والشِّدَّةُ تُستعملُ في

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/522.

العُقَد، وفي البَدَن، وفي قُوَى النَّفس، وفي العذاب، قالَ تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ﴾ [فاطر: 44]. وأَشدُّ: صيغةُ مبالغة[1]، وهي هنا كذلك في قولِه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾، أي: أولئكَ الكفَّارُ من قبلُ كانوا أشدَّ قوَّةً من هؤلاءِ المنافقينَ والكفَّارِ المعاصرينَ للنَّبيِّ ﷺ[2].

2) ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ﴾: المُتوعُ: الامْتدادُ والارْتفاع، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ ومَتَعَ النَّبات: إذا ارتفعَ في أوَّلِ النَّهار. والمتاعُ: انْتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يُقالُ: مَتَّعهُ اللّٰهُ بكذا، وأَمْتَعَه، وتمتَّعَ به، قالَ تعالى: ﴿وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾ [يونس: 98]. وكلُّ موضعٍ ذُكرَ فيه (تمتَّعوا) في الدُّنيا فعلَى طريقِ التَّهديد، وذلكَ لما فيه من معنى التَّوسُّع، قالَ تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التَّوبة: 38]. واسْتمتَعَ: طلبَ التَّمتُّعَ[3]، كما هنا في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾، أي: تمتَّعوا بنصيبِهم وملذَّاتِ الدُّنيا الَّذي قدَّره اللّٰهُ لهم، ورضوا بها عوضًا من الآخرة[4].

3) ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾: الخَلاقُ: "النَّصيب الَّذي هو عند صاحبه وافرُ الحظِّ"[5]. أو ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بِخُلُقِه، ويُطْلَقُ على النَّصيبِ؛ لأنَّه قد قُدِّرَ لكلِّ أحدٍ نصيبُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77][6]. ومنه قولُه تعالى هنا: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾[7].

4) ﴿وَخُضۡتُمۡ﴾: الخَوْضُ: هو الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُستعارُ في الأمور، وأكثرُ ما وردَ في القرآنِ ورَدَ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه[8]، كما في قولِه تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ أي: شَرعتُم في المنكراتِ والضَّلالاتِ كما شَرعوا فيها من قبل، وخُضْتُم مِثلَهم في الكذِبِ والباطل[9].

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 447، وابن منظور، اللّسان: (شدد).
(2) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 757، وابن منظور، اللّسان: (متع).
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/263، وابن جرير، جامع البيان: 10/175.
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/460.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/214، والرَّازيّ، مختار الصِّحاح: (خلق).
(7) تقدَّمَ بيانه في المفردة السَّابقة: (فاسْتمتعوا).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/229، والرّاغب، المفردات، ص: 302.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/335، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.

5) ﴿حَبِطَتْ﴾: جذرُه (حبط)، وهو أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على بُطلانٍ أوْ ألم، وأصل الحَبْطِ من الحَبَطْ: أن تُكثِر الدَّابَّة أكلًا حتى ينتفخ بطنها؛ فتموت، يُقالُ: أَحْبَطَ اللّٰهُ عملَ الكافر، أي: أَبْطَلَه، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [المائدة: 54][1]. وحَبْطُ العملِ على أَضْرُب؛ الأَوَّل: أن تكون الأعمال دنيويَّةً فلا تُغْني في القيامة غناءً كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23].

الثَّاني: أن تكون أعمالًا أُخرويَّةً لكن لم يَقْصدْ بها صاحبها وجه اللّٰه تعالى، كما في الحديث في شأن الَّذي يقاتل والمُتَصَدِّق وقارئ القرآن، وكلُّ ذلك لغير وجه اللّٰه فيُؤْمَر بهم إلى النَّار.

الثَّالث: أن تكون أعمالًا صالحةً ولكن بإزائها سيئات تزيد عليها، وذلك هو المُشار إليه بِخِفَّةِ الميزان[2].

ومعنى قولِه تعالى - هنا - : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ أي: بَطَلَتْ أعمالُهم بعدَ التَّعبِ فيها، فأصابَهمُ المَقتُ من المؤمنين في الدُّنيا، وفسدتْ أعمالُهم عليهم، وفي الآخرةِ بأن لا تنفعَهم؛ بل يقعُ عليهم جزاؤها[3].

6) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: جذرُه (خسر)، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على النَّقص، أي: انتقاص رأس المال، ويُنْسَبُ ذلك إلى الإنسان، ويُقال خَسِرَ فلانٌ، وإلى الفعل فيُقال: خَسِرَتْ تجارتُه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ١٢﴾ [النّازعات: 12]، ويُسْتَعْمَلُ ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسيَّة كالصِّحَّةِ والسَّلامة والعقل والإيمان والثَّواب، وهو الذي جعله اللّٰه تعالى الخُسرانَ المبينَ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ١٥﴾ [الزُّمر: 15][4]. و﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: المتمكِّنونَ في الخُسران الكاملونَ به في الدُّنيا والآخرة[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.
(3) الرّاغب، المفردات: (حبط).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/182، والرّاغب، المفردات: (خسر).
(5) الشَّوكانيُّ، فتح القدير: 2/540.

حالُ المنافقينَ كحالِ مَنْ سبقوهم في الكُفْرِ والنِّفاقِ، وسوء العاقبة

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يقولُ تعالى واصفًا حالَ المنافقين: إنَّ حالَكم - أيُّها المنافقون- كحالِ أمثالِكم ممَّن سبقوكم إلى النِّفاقِ والكفرِ، وقد كانوا أشدَّ بأسًا منكم وأقوى عَريكةً، وأكثرَ أموالًا وأولادًا، اسْتمتَعوا بنصيبِهمُ الَّذي قدَّره اللهُ لهم من حظوظِ الدُّنيا ومُتَعِها، وأعْرضوا عن ذكرِ اللهِ وتقْواه، وقابَلوا أنبياءَهم بالاسْتخفاف، وصدُّوا عن سبيل اللهِ. وقدِ اسْتمتعتُم بما قُدِّرَ لكم من ملاذِّ الدُّنيا، كما اسْتمتَعوا، وخُضْتُم فيما خاضوا من الفجورِ والمنكَرات. وكما بَطَلتْ أعمالُهم فلم تنفعْهم شيئًا في الدُّنيا والآخرة، فأنتُم كذلكَ مثلُهم في سوءِ الحالِ والمآل[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ فصلِ الآيةِ عمَّا قبلَها:

مشابهة المنافقين بالكفرة السّابقين، في الحاضر والمصير

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ عمَّا سبق؛ لأنَّه من بقيَّةِ القولِ المأمورِ الذي يُبلِّغُه النَّبيُّ ﷺ إيَّاهم من قولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥﴾ [التَّوبة: 65]، فيكونُ ما بينهما اعتراضًا بقولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾ [التَّوبة: 67].

دلالة الخطاب على تشبيه الحال في المآل:

ذِكْرُ الكُفَّار والمنافقين مع فَنَائهم، يُومئ إلى أنَّهم جميعا إلى فَناء

قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ الخطابُ للكفَّار والمنافقين، وذِكرهم مع فَنَائِهم، يُومئ إلى أنَّهم سيكونون مِثْلهم في الفَنَاء، وأنَّ الحياة الدُّنيا الّتي آثروا مُتَعَها فانية، ويكون الكلامُ على مُقتضَى الظَّاهرِ بدونِ التفات، والكلامُ مَسوقٌ لتشبيهِ حالِهم في مصيرِهم إلى النَّار[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/335، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 294.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.

نكتةُ الالتفاتِ في الضَّمائرِ على أحدِ الوجوهِ:

إبراز القصدِ إلى الموعظةِ، والتّنبيه إلى عدمِ الاغْترارِ بالإمهالِ

الخطابُ في الآيةِ التفاتٌ عن ضمائرِ الغَيبَةِ الرَّاجعةِ إلى المنافقين، إلى خطابِهم لقصدِ التَّفريعِ والتَّشديدِ والتَّهديدِ بالموعظة، والتَّذكير عنِ الغُرورِ بما هُم فيه من نعمةِ الإمهالِ بأنَّ آخرَ ذلكَ حَبْطُ الأعمالِ في الدُّنيا والآخرة، وأنْ يحقَّ عليهمُ الخُسران[1].

بلاغةُ الموقع الإعرابيّ لكاف التَّشبيه:

التَّشبيه بذميم الصِّفات مدعاةٌ للذَّمِّ والتّقريع

كافُ التَّشبيهِ في قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾، في موضعِ الخبرِ عن مبتدأٍ محذوفٍ دلَّ عليه ضميرُ الخطاب، تقديرُه: أنتم كالَّذين من قبلِكم، أو الكافُ في موضعِ نَصْبٍ بفعلٍ مقدَّر، أي: فعلتُم كفعلِ الَّذينَ من قبلِكم، فهو في موضعِ المفعولِ المطلَقِ الدَّالِّ على فعلِه[2]. والتَّعبير بكاف التَّشبيه إيماءٌ بوجود صفاتٍ مشتركة بين المُشبَّه، والمُشبَّه به بأسلوب جليٍّ موجز، وهو في الآية مبعثُ ذمٍّ.

سرُّ التَّعبير بحرف (الكاف):

بيان أنّ الشَّبه بين الطَّرفين، في بعض الوجوه لا كلِّها

آثرَ التَّعبير بالكاف في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ دون (مِثْل)؛ لوجود فَرْق بينهما؛ فالمثليَّة تعني الاتفاق في الذَّات والصِّفة، وهذا غير مُراد في هذا السِّياق لعدم تحقُّق ذلك، أمَّا الكاف فتعني التَّشبيه بين الطَّرفين في بعض الوجوه، ولا يلزم في الوجوه كلِّها؛ لذلك كان التَّعبير بالكاف هو المناسب في تشبيه حال الكافرين والمنافقين بحال مَنْ سبقَهم من الأمم في الكُفر والنِّفاق والاستمتاع بالدُّنيا والإعراض عن الآخرة؛ لأنَّه الغرض المنشود من التَّشبيه وليس كل الوجوه الَّتي تعني المثليَّة.

بلاغة التَّشبيه التّمثيليّ، في مطلع الآية الكريمة:

إبراز حال المنافقين البئيسة، وعاقبة الكافرين التّعيسة

تظهر بلاغة التَّشبيه في مطلع الآية، بأنَّه تفسيرٌ لشُبَهِهِم،

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/456، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/256.

(2) النَّحّاس، إعراب القرآن: 2/127، والزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/201.

أي: للَّذين كانوا قبلَهم، وتمثيلٌ لفِعْلِهم بفعلِهم، فهو تشبيهٌ تمثيليٌّ يوضِّحُ حالَ هؤلاء بأنَّه كحالِ أولئكَ الَّذينَ من قبلِهم[1] في الاسْتمتاعِ والخَوْض، والغفلة.

نكتةُ حذفِ المُشبَّه، في سياق الآية الكريمة:

التَّشبيه بالحال دون الشُّخوص، موعظةٌ وتذكير بعدم الاغترار

لم تذكرِ الآية المُشبَّهَ وإنَّما جاءَ مُقدَّرًا بـ (أنتُم كالَّذين) أو (فعلتُم كفعلِ الَّذين)؛ لأنَّ المنافقينَ لمَّا تقدَّمَ التَّصريحُ بهم أغنَى ذلك عن إعادةِ ذِكْرِهم، وهم أقلُّ شأنًا من التَّصريحِ بهم مرَّةً ثانية[2]؛ وأيضًا؛ لأنَّ القصدَ من هذا البيانِ هو التَّشبيهُ لتمثيلِ حالِهم بحالِ مَنْ كانَ قبلَهم تهديدًا لهم بالموعظة، وتذكيرًا لهم بأنْ لا يغتَرُّوا بالإمهالِ فيغفلوا عن حقيقةِ المآل.

سرّ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول (الَّذين):

الاسْمُ الموصولُ أشملُ للأممِ المتقدِّمة، وأدْعَى للاعْتبارِ بهلاكِهم

الإتيانُ بالاسْمِ الموصولِ (الَّذين) في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾؛ لأنَّه أَشْمَلُ وأَجْمَعُ للأُمم الَّتي تقدَّمتْ مثلَ: عادٍ وثمود، ممَّن ضُرِبَ بهمُ المثلُ في القوَّة، فلْينظروا نَظَرَ اعْتبارٍ إلى مآلِهم، فإنِ اسْتمرَّ هؤلاء على ما هم عليه من الكفرِ والنِّفاقِ فسيكونُ مآلُهم كمآلِ مَنْ سَبقَهم[3].

معنَى ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

ينطبق على المنافقين، حالُ مَنْ سبقهم بالاستمتاع

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ بيانيَّةٌ تفسيريَّة، أي: أنتم مِثْلُ الَّذين من قَبلِكم[4]، ومن جنسهم، ويجوز أن تكون ابتدائيَّة، ويكون المُراد: أنتم كالَّذين سبقوكم بالكفر والطُّغيان من بني إسرائيل وإن لم يَجرِ لهم ذِكْر، لكن ينطبق عليهم الاستمتاع بالمال والولد والكفر والنِّفاق، وممّا يؤكّد ذلك أنَّ القَبْلِيَّة في قوله تعالى:

(1) الفرَّاء، معاني القرآن: 1/446، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 5/456.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.
(4) الزَّمخشريُّ، الكشَّاف: 2/201، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574.

﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ يجوز إطلاقها على الزَّمان والمكان؛ فمن ناحية الزَّمان تَصْدُق عليهم، ومن ناحية المكان تَصْدُق عليهم.

دلالةُ اعتراضيَّةِ جملةِ، اعتبارهم أشدّ منهم قوّة:

المخاطَبون أوْلى وأحقُّ، بأنْ يُصيبهم ما أصابهم

جملةُ: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾ اعْتراضيَّةٌ، بين قولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وهي تفسيرٌ للتَّشبيه؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ تشبيهٌ مُبهَم، لم يُعلم فيم شُبِّهوا بمن قبلهم فبيَّن بقوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾ الآية، ووجهُ الشَّبَهِ هو القوَّة والمال، ولبيان وجه الشَّبَه بين المخاطَبين ومَنْ قَبلهم فلا محلَّ لها من الإعراب، وفيه إيذانٌ بأنَّ المخاطَبين أوْلى وأحقُّ بأنْ يُصيبَهم ما أصابَهم[1].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كَانُوٓاْ﴾، على المُكْنة الحضاريّة:

صيغة الماضي إشارة إلى قوّة العمران عبر الزّمان

دلّ التَّعبير بالفعل ﴿كَانُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾، على شِدَّة تَمَكُّنِ الأمم السَّابقة في هذا الوصف، وأنَّه متأصِّلٌ فيهم؛ فهم أشدُّ قوَّةً وأكثرُ أموالًا وأولادًا منكم، يؤكِّد هذا قول الله تعالى عن قوم عاد: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، ووصفهم بقوله: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ١٢٩﴾ [الشعراء: 128 - 129]، ومن ذلك كلام القرآن عن فرعون ومَلَئِه بكثرة أموالهم وأولادهم، وآيات القرآن في هذا واضحة.

سرُّ التَّعبير بـ: ﴿أَشَدَّ﴾:

يتضمَّن لفظ (أشدَّ) معنى المبالغة في القوَّة، في الجوهر والهيئة

عبَّر بقوله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمۡ﴾ للدَّلالة على بيان فَرْط قوَّتهم، وللإشارة إلى أنَّه لا يقصد وصف الشِّدَّة بذاتها، بل وصف القوَّة؛ فكأنَّ المعنى: الأمم الَّتي قبلكم قوّتها أشدُّ، واختار ﴿أَشَدَّ﴾ لِتَضمُّنها معنى المبالغة في القوَّة في الجوهر والهيئة؛ ولأنَّ الشِّدَّة ليست من

---

(1) الطِّيبيُّ، فتوح الغيب: 7/300، والآلوسيُّ، روح المعاني: 10/34.

قبيل القدرة، ولهذا لا يُقال: (اللّه شديد)، أمَّا القوَّة فهي من قبيل القدرة، قال تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، وقال تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 58][1].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿مِنكُمْ﴾:

اختصاص المخاطَبين بالتَّشبيه والتَّنبيه، مزيد من البيان والتّوضيح

قُدِّمَ شبهُ الجملةِ ﴿مِنكُمْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾؛ لأنَّ المنافقينَ المخاطَبينَ هُمُ المَعنيُّون بهذا التَّشبيه، فقُدِّموا بقولِه: ﴿مِنكُمْ﴾ لاخْتِصاصِ السِّياقِ بهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم أضعفُ قوَّةً، أو أقلُّ بأسًا، ممَّن كانَ حالُهم كحالِهم، ومع ذلكَ ما أَغْنَى عن أولئكَ قوَّتُهم شيئًا، لَمَّا كانوا مخالفينَ لأمرِ اللّه، مغرورينَ بإمهالِ اللّهِ لهم.

دلالة التَّنكيرُ للألفاظ: ﴿قُوَّةً﴾ و﴿أَمْوَٰلًا﴾ و﴿وَأَوْلَٰدًا﴾:

أسباب القوّة بلا إيمان، نكال ووبال وهوان

هذه الألفاظ جاءت منصوبةً على التَّمييز؛ فقولُه: ﴿قُوَّةً﴾ تمييزٌ بـ ﴿أَشَدَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾، وقولُه: ﴿أَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ تمييزٌ عُطف على ﴿أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾[2].ودلَّ التَّنكيرُ فيهم على شدَّة القوَّة وتَنَوُّعِها وكثرة المال والولد وهما من أسباب القوَّة.

سرُّ إيثار: ﴿وَأَكْثَرَ﴾ مع الأموال والأولاد:

لفظ (الأكثر) مناسبٌ للمال والولد، باعتبار العدد

اختار القرآن الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿وَأَكْثَرَ﴾ مع الأموال والأولاد، دون غيره؛ لأنَّ الكثرة تكون فيما له عدد، وهو المناسب هنا لذِكرِ المال والولد باعتبار العدد فيهما.

توجيه التَّعبير بـ ﴿وَأَكْثَرَ﴾، على زِنَة أَفْعَل التَّفضيل:

بيان كثرة أموال المنافقين والكَفَرَة، سابقًا ولاحقًا

عبَّر القرآن الكريم بلفظ ﴿وَأَكْثَرَ﴾ بصيغة أفعل التّفضيل دون (كثير)؛ للدّلالة على إثبات الأموال والأولاد للسّابق واللَّاحق من الكَفَرة والمنافقين؛ لكنهما مع السّابقين أكثر، وهذا دليلٌ على صدق القرآن الكريم في عرض تاريخ الأمم ردًّا على مقولة المشركين

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 22.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257، ودرويش، إعراب القرآن: 4/129.

المعاصرين لرسول الله ﷺ عندما قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥﴾ [سبأ: 35].

نكتةُ ورود (الأموالِ والأولادِ) بصيغة الجمع:

الإشارة إلى كثرة الأموالِ والأولادِ، لتلوّن أسبابِها، وتنوّع مواردها

جُمعتِ (الأموالُ) و(الأولادُ) في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾؛ لكَثرةِ مواردِها وأسبابِها، فكثرةُ الأموالِ من أسبابِها طيبُ الأرضِ للزَّرعِ والغَرْسِ ورَعْيِ الأنعام، وَوَفْرةُ التِّجارة، واشتمالُ الأرضِ على المعادنِ من الذَّهبِ والفِضَّةِ والحديد، والموادِّ الصِّناعيَّةِ والغذائيَّةِ من النَّباتِ بأنواعِه الكثيرة.

وكثرةُ الأولادِ تأتي أيضًا من الأمْنِ بسببِ بقاءِ الأنفُس، ومن الخِصْبِ المؤثِّرِ، وقوَّةِ الأبدانِ والسَّلامةِ من المجاعات، والأَوْبئةِ المُهلِكة(1).

وفيه إشارة إلى اجتماع زينة الحياة الدُّنيا لهم، قال تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: 46].

سرّ تقديم (الأموال) على (الأولاد):

الأموال هي الأساس في تحقيقِ ملذّاتِ الدُّنيا وشهواتها

لَمّا شبَّهَ تعالى المنافقينَ في عُدولِهم عن طاعةِ اللهِ تعالى لأجلِ طلبِ لذّاتِ الدُّنيا بمَن قبلَهم، وصفَهم بحيازتِهم ما يُحقِّقُ لهم تلكَ اللَّذاتِ، وأوَّلُ ما يحقِّقُها هو كَثْرةُ الأموال، وهي الَّتي تكونُ سببًا للزَّواجِ ثمَّ الإتيانِ به بالأولاد، ولذلك جاءَ التَّرتيبُ بتقديمِ (الأموالِ) على (الأولادِ) مراعاةً لهذه الأَوْلَويَّةِ في واقعِ الحال(2).

سرُّ التّعبير بلفظ (الأولاد)، دون لفظ (الأبناء):

خصوص دلالة لفظ (الولد)، على مظنّة رفاهية عيشهم وهنائه

آثرَ التَّعبيرَ بـ(الأولاد) دون (الأبناءِ) في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾؛ لوجود فرق بينهما؛ فالابن أعمُّ من الولد؛ لأنَّه يُطلَق على كلِّ ما ترتَّبَ على غيرِه بالسَّببيَّة أو التبعيَّة أو الملازمة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/257.

(2) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 16/98.

أو المشابهة، و(الابن) يُفيد الاختصاصَ ومداومةَ الصُّحبة، ولهذا يُقال: (ابن الفَلاة) لِمَن يُداوم سلوكها، و(ابن اللَّيل) لِمَنْ يُكثر السَّير فيه، وقولنا: "هو ابن فلان" يقتضي أنَّه منسوبٌ إليه، ولهذا يُقال: "النَّاس بنو آدم"؛ لأنَّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل، أمَّا (الولد) فيُطلَق على كلِّ ما وُلِدَ: ذكرًا أو أنثى، والولد يقتضي الولادة ويقتضي والدًا، وهذه المعاني لا تتأتَّى في الابن[1].

وبناءً على هذا فاختيار التَّعبير بالأولاد دون الأبناء؛ دلالةٌ على كثرة النّسل عن طريق الزّواج، وفي هذا إشارة إلى رفاهية الحياة الَّتي كانوا يعيشون فيها وقوَّة أبدانهم.

فائدةُ حذفِ شِبْه الجملةِ ﴿مِنكُمۡ﴾، مع الأموالِ والأولاد:

اكْتفيَ بذِكْر ﴿مِنكُمۡ﴾ من قبل، لأنّه معلوم من السّياق

حُذِفَ شبهُ الجملةِ ﴿مِنكُمۡ﴾ مع الأموالِ والأولادِ، اكْتفاءً بذِكْرِه من قبلُ في قولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنكُمۡ﴾، فهو معلوم من السّياق، وأيضًا لاندراجِ الأموال والأولاد في القوَّة الّتي سبق ذكرُها.

سرُّ ذِكْرِ (الأموال والأولاد) بعد ذِكْر (القوّة) في السّياق:

الأموال والأولاد، من مظاهر القوّة والعزوة، في الحياة الدّنيا

ذكرت الآية القرآنيّة كثرة أموالهم وأولادهم مع سبْق ذِكر شدَّة قوَّتهم في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾؛ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ فالأموال والأولاد جزءٌ من القوَّة؛ لأنَّها تكون بالقوَّة البدنيَّة والقوَّة المعنويَّة.

نكتة استخدام (الفاءِ) التّفريعيّة، في قوله: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ﴾:

لا يمنع التّفريع بالفاء، أن يكون المقصدُ هو التَّشبيه

آثرَ التّعبير بالفاء دون غيرها، في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾؛ لأنّها دلّت على تفرُّعِ قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ على ما أفادَه حرفُ (الكاف) بقولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من معنَى التَّشبيه، ولذلك لم تُعطَفْ جملةُ ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ بواوِ العطف؛

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 315.

لأنَّها لا تؤدِّي هذا المعنى، فإنَّ هذه الجملةَ هي المقصدُ من التَّشبيهِ وما تفرَّعَ عليه[1]. ويجوز أن تدلَّ على ترتيب ما بعدها على ما قبلها تَرَتُّبَ محاكاةٍ واتِّباعٍ؛ فطلبتم ما طلبوا وحاكيتموهم فيما فعلوا، ولذلك قال بعدها: ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾[2].

دلالة التَّعبير بلفظ: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾:

المبالغة في التمتّع، وإدامة مظاهره، ملمح للبيان والتّذكير

جاء التّعبير بقولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ الَّتي جاءت على صيغة الاستفعال دون (تمتَّعوا) للمبالغةِ في قوَّةِ تمتُّعِهم، وأنّ حصولَ التَّمتُّعِ من جهتِهم لجميعِ لذائذِ الدُّنيا دونَ اكْتراثٍ منهم لما أُحِلَّ أو حُرِّمَ من تلكَ اللَّذائذ، ففي صيغةِ (الاسْتفعال) ما ليس في صيغةِ (التَّفعُّل) من الاسْتزادةِ والاسْتدامةِ في التَّمتُّع[3]، فهم مستزيدون من تلكَ المُتَعِ دائبون عليها.

دلالة الطّلب بالفعل (استمتع)، في السّياق:

الإشارة إلى السّعي إلى التمتّع بالملذّات بأنفسهم

وفي دلالة الطَّلب الّتي هي مِن أهمِّ معاني صيغة الزِّيادة هذه بـ (الألف، والسِّين، والتَّاء)، ما يدلّ على أنّهم طلبوا التَّمتُّع، وسَعَوْا إليه، وبالغوا في تحصيل موارده، وأسبابه، طلبًا للدُّنيا وهروبًا مِنْ تكاليفِ الدّينِ.

دلالة (الباء)، في: ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾:

التّمسّك بملذّات الدّنيا، يفضي إلى الإعراض عن الآخرة

الباءُ في ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ تدلّ على الإلصاق؛ لأنّ ما يستمتعون به ملاصقٌ لهم لا ينفكُّ عنهم، والمعنى: فاستمتعتُم بنصيبِكم من ملذّاتِ الدُّنيا كما اسْتمتَعوا، للدَّلالةِ على حرصهم التّامِ وعدم انفكاكهم عن لذائذِ الدُّنيا وانْصرافِهم بها عن طلبِ الآخرةِ والعملِ لها، واسْتعلائهم بها على الرّسل دون توظيف لها في طاعة اللّه تعالى واتِّباع رسله في الإيمان بشرع اللّه.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3267.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.

نكتةُ إضافةِ (خَلاقِ) إلى الضَّميرِ (هم):

بيانُ حالةِ التَّشبيهِ، بِمَنْ تقدَّمَهم من الكُفّار

أُضيفتْ كلمةُ (خلاق) إلى الضّميرِ (هم) في قوله تعالى: ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ دون التّعبير بالظّاهر (الكفّار)؛ لأنَّ المقصودَ إدخالُ (الخَلاقِ) في الحالةِ المشبَّهِ بها وهم القومُ الَّذين سبقوهم بالكُفْرِ والاسْتمتاعِ بنصيبِهمُ الَّذي قدَّرَه اللّهُ لهم من مُتَعِ الحياةِ الدُّنيا دون الالتفاتِ لأوامرِ اللّهِ، وطلب الآخرة[1]. وفي إضافةِ (خَلاقِ) إلى الضَّمير (هم) أيضا، ذمُّ الأوَّلينَ باسْتمتاعِهم بحظوظِهمُ الخَسيسةِ من الشَّهواتِ الفانيةِ والتهائِهم بها عنِ النَّظرِ في العواقبِ الحَقَّةِ واللَّذائذِ الحقيقيَّة، تمهيدًا لذمِّ المخاطَبين بمُشابهتِهم إيّاهم واقْتفائهم أَثَرهم[2].

نكتةُ إضافةِ (خلاقِ)، إلى ضميرِ المخاطَبين ﴿بِخَلَٰقِكُمۡ﴾:

ذمُّ اتِّباعِهم سَنَنَ مَنْ قبلَهم، في المادّة لا في القيم

دلّت الإضافة إلى ضميرِ المخاطَبينَ، في قوله: ﴿بِخَلَٰقِكُمۡ﴾، على ذمّ المُخاطَبينَ بمُشابهتِهم إيّاهم، واقْتفائِهم أَثَرهم[3]، واتِّباعِهم سَنَنَ مَنْ قبلَهم، في طلبِ الدُّنيا والإعراضِ عن الآخرة.

نكتةُ الإطْنابِ، في تكرارِ لفظ الاسْتمتاعِ:

ذمُّ الأوَّلينَ بانْغماسِهم في مَلاذِّهم، ومَنْ تَبِعوهم ورَضوا بفعلِهم

في تكرارِ الاسْتمتاعِ مع الأوَّلينَ مرَّتَيْن ومعهم مرَّةً واحدةً في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ فائدةٌ جليلةٌ وحكمةٌ مفيدة، وهي أنَّ اللّهَ أرادَ أنْ يُبالغ ذمَّ الأوَّلينَ بالاسْتمتاعِ بما أُوتوا من حُظوظِ الدُّنيا ورِضاهم بها، والتهائِهم بشهواتِهمُ الفانيةِ عنِ النَّظرِ في العاقبةِ وطلبِ الفلاحِ في الآخرة، وأنْ يُخسَّ أمرَ الاسْتمتاعِ ويُهجِّنَ أمرَ التَّراضي به، ثمَّ يُشبِّهَ بعدَ ذلكَ حالَ المخاطَبينَ بحالِهم، كما تريدُ أنْ تُنبِّهَ بعضَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/258.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.

الظَّلَمةِ على سَماجةِ فعلِه فتقول: أنت مِثْلُ فرعونَ، كان يقتلُ بغيرِ جُرْمٍ ويُعذِّبُ ويَعسِفُ وأنت تفعلُ مِثْلَ فِعْلِه[1]. " ففي التّكرير تأكيدٌ ومبالَغةٌ في ذمّ المخاطبين، وتقبيحِ حالِهم واستهجانِ أمرِهم"[2].

دلالة تَكرار التَّشبيه، في سياق الآية الكريمة:

نبّة على جزء مخصوص من التّشبيه، تقعُ فيه الموعظةُ والتَّذكير

تكرَّرتِ الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ تأكيدًا للتَّشبيهِ الواقعِ في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ذلكَ الجزءَ بخصوصِه من بين الحالةِ المشبَّهةِ والحالةِ المشبَّهِ بها، هو محلُّ الموعظةِ والتَّذكير، فلا يُغْرِهم ما هم فيه من نعمةِ الإمهالِ والاسْتدراج، فقدَّم قولَه: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ وأتى بقوله: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ مؤكِّدًا له دونَ أن يقتصرَ على هذا التَّشبيهِ الأخير؛ ليتأتَّى التَّأكيدُ، ولأنَّ تقديمَ ما يُتمِّمُ تصويرَ الحالةِ المشبَّهِ بها المركَّبةِ قبلَ إيقاعِ التَّشبيه، أشدُّ تمكينًا لمعنَى المشابهةِ عند السّامع[3].

فائدةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، في السّياق:

قلّة النَّظر إلى النَّفس مُستَلْزِمٌ لِقِلَّةِ العقل

أفاد التَّعبير بإظهارِ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ فلم يقُلْ: (كما استمتعوا) فائدةً جليلةً، وهي التَّنبيهُ على ذمِّهم بقلَّةِ النَّظرِ لنَفْسِهم المُسْتلزمِ لقلَّةِ عقولِهم؛ إذ كانوا دونَهم في القوَّةِ أبدانًا وأموالًا وأولادًا لم يكفّوا عنِ الاستمتاعِ والخَوْضِ خوفًا ممّا محق أولئكَ الأحزابَ على قوَّتِهم من العذابِ من غيرِ أن ينفعَهم سببٌ من الأسباب، وفي ذلكَ أيضًا دَلالةٌ على التَّحقيرِ لشأنِ المذكورين، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾ [مريم: 44][4].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/456.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 10/387.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 10/258.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، والبقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/522 - 523، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.

نكتةُ إضافةِ الألف والسّين والتّاءِ، في الفعل ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾:

بيانُ شغف المتقدّمين لِمُتَعِ الدُّنيا، ومُداومتهم عليها، وانْغماسِهم فيها

قد مرّ ذِكرُ أنَّ إضافةَ الألف والسّين والتّاءِ، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَمۡتَعَ﴾ للمبالغةِ، ولبيانِ أنَّ المتقدِّمينَ طلبوا المتاعَ والانْتفاعَ في الدُّنيا بغايةِ الرَّغبةِ والاسْتزادةِ والاستدامةِ مُعرِضينَ عن العُقبَى[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المبالغةُ في ذمِّ حالِ المتقدّمين، وفي مشابهةِ المتأخّرينَ لهم

عبَّر القرآن الكريم بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ﴾، للمبالغةِ في ذمِّ حالِهم، وسوءِ أفعالِهم، وإظهارِهم بمظهرِ مَن خَفَّتْ عقولُهم، مع ما أعطاهُمُ اللّهُ من قوَّةِ الأجسادِ وكَثْرةِ الأموالِ والأولاد، وفيه إشارة إلى تشخيصهم وتعيينهم بهذه الحالة في الاستمتاع بملذَّات الدَّنيا، والإعراض عن الآخرة.

دلالة المبالغة لبيان المشابهة، في السّياق:

بيانُ وجه المشابهة مع السَّابقين، في سوءِ الحالِ والمآل

قوله تعالى: ﴿كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم﴾، جاءَ وصفُهم بهذه المبالغةِ في الآية الكريمة؛ لبيانِ مشابهةِ هؤلاءِ المتّبِعينَ بأولئكَ المتَّبَعينَ في سوءِ الحالِ والمآل[2].

دلالة ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾:

أزمنة المشبَّهين في السّياق، بعضٌ من الزّمان المنصرم

ذمَّ الأوَّلين والمخاطَبينَ لاشْتراكِهم في الانْغماسِ في مُتَعِ الدُّنيا. ولمَّا كان المُرادُ القرونَ الَّتي تَقدّم ذِكر إهلاكها، وكانت أزمنتهم بعض الزّمان الماضي، وليس كلّها أتى بالجارِّ فقال: ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

سرُّ التَّعبير بـ(الخَلاق):

إلفُ النّعمة، حجاب دون شكر المنعم

آثرَ القرآن الكريم التَّعبير بـ ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ ثلاث مرّات في الآية، مع اختلاف المُخاطَب فيها دون التَّعبير بالنَّصيب؛ لأنَّهم كانوا حريصين على الاستمتاع بملذّات الدّنيا مُعرضين عن الآخرة؛ فلا يسعون لها

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/522، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/574.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/522.

ولا يطلبونها، وهذا دليلٌ على سوء أخلاقهم؛ لذلك ناسب التَّعبير بـ ﴿بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ للدّلالة على أنَّ ذلك نابع من أخلاقهم، وصار طبعًا لهم.

بلاغةُ العطفِ بالواو، في قولِه: ﴿وَخُضۡتُمۡ﴾:

مبالغتهم في خوض الباطلِ، كمبالغتهم في اتِّباعِ الشَّهوات

قولُه تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ معطوفٌ على ما تقدَّمَه، وذلك لبيان مُبالغتِهم في الدُّخولِ في الباطلِ وخوضِهم في الكفرِ ومحادَّةِ اللّٰهِ ورسولِه ﷺ، فهم قد اسْتغرَقوا في الشَّهواتِ ولذائذِ الدُّنيا وزادوا عليها خوضَهم في الضَّلالِ والبُعدَ عنِ الهُدَى[1].

بلاغةُ تشبيهِ الخوض في الباطل، من اللّاحقين بالسّابقين:

أحوال المنافقين المعاصرين، تشبه أحوال الغابرين، في الخوض المهين

قوله تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾، في الآية تشبيهٌ لخوضِ المنافقينَ بخوضِ أولئك، وهو الخوضُ الَّذي حُكيَ عنهم في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ [التَّوبة: 65] والمعنى: تشابهت أحوالكم مع أحوال مَنْ سبقوكم في الخوض في آيات اللّٰه والاستهزاء برسوله.

بلاغة الإيجاز في التَّشبيه:

سرعة الوصول إلى المُراد، من بيان السّياق القرآنيّ

جاء التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ موجزًا دون إطناب كما في قوله: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾؛ لبساطة هذا التَّشبيه؛ لذلك لم يُؤْتَ فيه بمثلِ الأسلوبِ الَّذي أُتيَ به في التَّشبيهِ السّابقِ له، بأنْ يُقال: وخُضتُم في الكُفرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّٰهِ ورسولِه كالخَوْضِ الَّذي خاضوه في ذلك، فأنتم وهُم سواء، فيوشِكُ أنْ يحيقَ بكم ما حاقَ بهم. وفيه إشارةٌ إلى سهولة التَّعبير ليفهمه التَّالي ويعقله السَّامع دون صعوبةٍ في معرفة المقصود منه[2].

بلاغةُ الاسْتعارةِ في لفظِ الخَوْض:

الخوضُ في الباطل، مسلك مريب، مآله الصّراع والهلاك

قولُه تعالى: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ مُستعارٌ من الخَوْضِ في الماء، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الباطل؛ لأنَّ التَّصرُّفَ في الحقِّ إنَّما هو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.

خوض، فَمَن يخوضُ في الماءِ قد يغرقُ ويهلك، وكذلك مَنْ يخوضُ في أمورِ الباطلِ ويَدَعُ أمورَ الحقِّ سَيهلِكُ لا مَحالة[1]، والخوضُ في الباطلِ مُستعارٌ من الخوضِ في الماء بجامعِ المآل وهو الهلاك.

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ المفرد ﴿كَٱلَّذِى﴾:

عائدُ الصِّلةِ ضميرُ جمعٍ، فتأوَّلَ الَّذي بالجَمْعِ، في السّياق

جاءَ التَّعبيرُ بالاسْمِ الموصولِ المفردِ، في قولِه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾، فلم يقُل: (وخُضْتُم كخوضِهم)، ذلكَ أنَّ عائدَ الصِّلةِ هنا ضميرُ جمعٍ تعيَّنَ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿كَٱلَّذِى﴾ تأويله بالفريقِ أوِ الجَمْعِ، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَٱلَّذِى﴾ هنا أَصْلُه (الَّذين) فخُفِّفَ بحذفِ النّونِ على لغةِ هُذَيْل وتَميمَ. ويمكنُ أنَّ (الَّذي) معَ ما بعدَها يُسْبَكُ منهما مصدَر، أي: كخوضِهم[2]. ويكون التّركيز على خوضهم، لا عليهم أنفسهم؛ فالأصل الأعمال لا الأشخاص.

بلاغةُ توالي التَّشبيهاتِ:

بيان سوء حال المنافقين، في اتّباعهم لَمَنْ سبقهم من الكافرين

توالتِ التَّشبيهاتُ في الآيةِ الكريمة، وهذا التَّوالي يدُلُّ على أمرَيْن جديرَيْنِ بالانْتباه، أحدُهما: بيانُ سوءِ حالِ المنافقينَ في اتِّباعِهم لسَنَنِ مَنْ سَلَفَهم من الكافرينَ في الانْغماسِ في الشَّهواتِ والملذَّاتِ الدُّنيويَّةِ والخَوْضِ في الاسْتهزاءِ بآياتِ اللّهِ ورسولِه. والآخر: التَّنبيهُ على أنَّهم بسببِ ما ذَكَرَه اللّهُ من وصْفِ حالةِ المُشَبَّهِ بهم من الأُممِ البائدةِ كانوا جديرينَ مع مَنْ شابَهَهم ممَّن أتى بعدَهم بإحْباطِ أعمالِهم وخُسرانِهم[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿وَخُضْتُمْ﴾:

الخوض في آيات الله، ينطبع في العقل والنّفس، حتّى يصير طبعًا لهم

آثر القرآن الكريم التّعبير بالفعل الماضي ﴿وَخُضْتُمْ﴾، مع المخاطبين دون المضارع للدّلالة على تمكُّنهم في فعل الخوض في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/523.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/457، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/259.

آيات اللّه والاستهزاء بِرُسُله، وثبوت ذلك الخوض لهم، وأنَّ ذلك صار من طبائعهم.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

بيانُ عاقبةِ الانْغماس في الدُّنيا، والعزوف عن الآخرة

فُصل قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بيانًا لعاقبةِ أمرِهم ونتيجةً لازمةً لمقدِّماتها السّابقةِ؛ لذا جاءَت هذه الجملة بيانًا لفسادِ أعمالِهم وبُطلانِها بزوالِها عنهم في الدُّنيا ونسيانِ لَذَّاتِها، وفي الآخرةِ سيُحاسبونَ عليها ويُعذَّبونَ بها[1].

ولأنَّ هذه الجملة جاءت بذكر الجزاء المُعدِّ لهؤلاء المخاطبين، تُرِكَ العطفُ وفُصِلَت الجملة عمَّا قبلها.

فائدةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تحقير شأن الموصوفين، وتوبيخهم بما يستحقّون

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ باسْم الإشارةِ للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لتقريرِ وبيانِ أنَّ مَنْ تقدَّمتْ أوصافُهم من المُشَبَّهِينَ والمُشبَّه بهم همُ البُعداءُ من الخير، والمُقْصَوْنَ عن رحمةِ اللّه[2].

دلالة التَّعبير بالمفرد، في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الجمْعُ بين المُشبَّهين والمُشبَّه بهم

جاء التَّعبير القرآنيُّ مفردًا في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى المتَّصفين بالأوصاف المعدودة من المُشبَّهين والمُشَبَّه بهم، لا إلى الفريق الأخير فقط؛ فإنَّ ذلك يقتضي أن يكون حُبُوط أعمال المُشبَّهين وخُسرانهم مفهومينِ ضمنًا لا تصريحًا؛ لذلك كان التَّعبير بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دون (أولئكم)[3].

بلاغةُ الاسْتعارةِ في حَبْطِ الأعمال، في سياق المَقال:

تشبيهُ أصحاب الأعمال المستقبحة، بالأنعامِ الَّتي ماتت بِأكلها النّهَم

الحَبْطُ: الزَّوالُ والبُطلانُ وأصلُه من الحَبَطِ - بفتح الباء - وهو انْتفاخٌ في بُطونِ الإبلِ من كَثْرةِ الأكلِ، فتموتُ من ذلك، فإطلاقُهُ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/523.

(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 8/523، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.

على إبطالِ الأعمالِ تمثيل؛ لأنَّ الإبِلَ تأكلُ الخَضِرَ شَهوةً للشِّبَع فيؤولُ عليها بالموت، فشبَّهَ حالَ مَنْ عملَ الأعمالَ الصّالحةَ لنفعِها في الآخرة، فلم يجدْ لها أَثَرًا بالماشيةِ الَّتي أكلتْ حتَّى أصابَها الحبَط، ولذلكَ لم تُقيَّدِ الأعمالُ بالصّالحاتِ لظهورِ ذلكَ التَّمثيل(1).

بلاغة الخطاب في صلاحيّته لتعدّد المراد:

الإشارةُ إلى كلا الفريقيْن، والتّعريضُ بكلِّ مَن يصلُحُ للخطاب

تظهر بلاغة الخطاب في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾، في صلاحيّته لتعدُّد المُراد به؛ فيجوز أن يكون موجَّهًا إلى الرّسول ﷺ، ويكون الغرض منه تسليّته ﷺ على موقف هؤلاء من دعوته، ويجوز أن يكون لكلِّ مَنْ يَصلح له الخطاب، ويكون الغرض منه تحذيرهم من سلوك مَسلكهم، ويكون المعنى: أولئكَ الموصوفونَ بما ذُكِرَ من الأفعالِ الذَّميمة، وفي هذا كلِّه تذكِرةٌ للنَّبيِّ ﷺ والمؤمنينَ بأنْ لا يظنّوا أنَّ اللّهَ لّمّا أمهلَ المنافقينَ فقد أَعْرضَ عنهم(2).

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حَبِطَتۡ﴾:

لا تقبل الأعمال من غير إسلام، مهما عظم شأنها في الأنام

دلّ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿حَبِطَتۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ على تحقُّق وقوع الحُبُوط. وفي ذلك زجرٌ للمعاندين من أهل الكُفر عمّا يتوهّمون في قبول أعمالهم الّتي كانوا يعملونها من عمارة المسجد الحرام وسُقيا الحجيج من غير إسلام؛ فجاء التّعبير بالماضي ليقطع هذا التوهّم عندهم. يؤكِّد هذا قوله تعالى في حقِّهم: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ الآية.

دلالة إيثار التَّعبير: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

خُلوُّ الأعمال من الإيمان، يفرغها من روحها، وبركة نفعها

آثر التّعبير بالأعمال دون غيرها كالأفعال في قوله تعالى: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾؛ لوجود فَرْق بين الأفعال والأعمال من ناحية

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/332.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/574، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

العموم والخصوص؛ إذ يتميّز العمل بالقصد وامتداد الأثر؛ لذلك كان المراد لأعمالهم الَّتي كانوا يستحقُّون بها أجورًا حسنة لو كانت مبنيَّة على الإيمان؛ لكنها لَمَّا خلت من الإيمان ضاعت وبطلت بالكلِّيَّة ولم يترتّب عليها أثرٌ صالحٌ لهم في الدُّنيا والآخرة.

دلالة الإضافة في: ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾:

خَصُّ بطلان الأعمال بالكافرين، لأنّ الكفر محبط للعمل

دلّتِ الإضافة على خصوصية بطلان أعمالهم دون أعمال المؤمنين الّذين آمنوا باللّه ورسله، وفي هذا ذمٌّ للكافرين وبشارة للمؤمنين.

فائدةُ ذكرِ: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

زوالُ آثارِ الأعمالِ، يكونُ في الدُّنيا والآخرة

لَمّا ذكرَ بيانُ اللّهِ تعالى حَبَطَ الأعمال، وهذا يعني زوالَ آثارِها المجهولةِ مُرتَّبةً عليها شرعًا، فشملَ بذلكَ آثارَها في الدُّنيا؛ لأنّ ما يترتّب على أعمالهم فيها من الصّحة والسّعة وغير ذلك حسبما يُنبئُ عنه قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥﴾ [هود: 15] ليس ترتُّبه عليها على طريقة المثوبة والكرامة بل بطريق الاستدراج، وأمَّا في الآخرة فالأمر ظاهرٌ[1]؛ لذلكَ خُتِمَ حَبَطُ الأعمالِ بقولِه تعالى: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[2].

دلالة التَّعريف بـ (الْ)، في لفظي: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

المُراد باللّفظين (الدُّنيا والآخرةُ)، المعهودتان عند النّاس

الدُّنيا والآخرةُ كلاهما اسْما عَلَم: الأولى هي الدُّنيا المعهودةُ عند النّاس، وهي وعاءُ الأحداث والأزْمانِ والأمكنةِ الحاضرةِ الموجودةِ على سطحِ الأرضِ الَّتي تضمُّ الأُمَمَ والبَشَر، سواءٌ أكانوا نُصراءَ أم أعداء.

والثّانية: الآخرةُ وهي الدّار الغائبةُ ولكنَّها المعهودةُ الَّتي تكونُ فيها نهايةُ البشرِ وخاتمتُهم وجزاؤهم وحسابُهم بما أخبرَنا به اللّهُ تعالى في كتابِه، والرَّسولُ ﷺ في سُنّته، وكلاهما وحيٌ من اللّه.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/81.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 2/332.

نكتةُ الطِّباقِ، في قولِه: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

سرُّ التَّقابل اختلافُ آثارِ الأعمالِ في الدُّنيا، وثوابِها في الآخرة

جاءَ الطِّباق[1] في مُفرَدَتي: الدُّنيا والآخرة، لتقابلِهما في المعنى، واختلافِ كلٍّ منهما عن الأُخْرى، والمرادُ هنا: اخْتلافُ آثارِ الأعمالِ في الدُّنيا وثوابِها في الآخرة، وهو سرُّ التَّقابل هنا في قولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ ففي الدُّنيا الأعمال، وفي الآخرةِ الحسابُ على تلكَ الأعمال، وأولئك المنافقون المتَّبِعونَ لسَنَنِ مَنْ قبلَهم أتعبوا أنفسَهم بأعمالٍ مخالفةٍ لشرعِ اللّه، فحبِطتْ وضاعت، وخسِروا ثوابَها في الآخرة[2].

فائدةُ العطْفِ في جملة الإشارة، للوصف بالخسارة:

بيانُ ما ترتَّب على المُقدِّمات السَّيِّئة، من نتائجَ أسوأ

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ عطفٌ على جملةِ الجزاءِ الأوَّل، وهو قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ إذِ الأمورُ بخواتمِها، فقد ترتَّبَ على ما تقدَّمَ على الاسْتمتاعِ بشهواتِ الدُّنيا بلا حساب، والخوضِ في النِّفاقِ والكفرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّهِ ورسولِه ﷺ أمران: حَبَطُ الأعمال، والخُسْران[3].

فائدةُ إعادةِ ذِكْرِ اسْمِ الإشارةِ للبعيد:

سببُ خُسرانهم، هو سوءُ أعمالهم، وتلك نتيجة حتميّة

أعادَ القرآن الكريم اسْمَ الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للاهْتمامِ بتمييزِ المُتحدَّثِ عنهم لزيادةِ تقريرِ أحوالِهم في ذِهْنِ السّامع، وجاءتِ الإشارةُ للبعيدِ لبيانِ أنَّهم بُعداءُ من الخَيْر بسَبب ما تقدَّمَ من حالِ انْغماسِهم في لذائذِ الدُّنيا، وتركِهم لطلبِ الآخرة، وخَوْضِهم مع الخائضينَ في الكُفْرِ والاسْتهزاءِ بآياتِ اللّه[4]، وأنَّهم أحْرياءُ بالعقوبة الّتي ذكرها القرآن لهم.

---

(1) الطِّباق: هو الجمعُ بين لفظَين مُتقابلَيْن في المعنى، وهو نوعان: حقيقيٌّ واعْتباريٌّ، ولكلٍّ منهما أنواعٌ تدخل تحته، ويكون الطِّباق بين: اسْمَيْن: كالدُّنيا والآخرة، والأوَّل والآخر، والظّاهر والباطن. وبين فعلَيْن: كأضحكَ وأبْكى. وبين حرفين: كـ(لهُنَّ) و(عليهن)، و(لها) و(عليها)، يُنظر: ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر: 1/251، والخطيب القَزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/110.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/332.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/333.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

تكرار إيرادِ اسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، في الموضِعَيْن:

تقبيح أفعال المنافقين والكافرين، في كلّ الأزمنة

تكرَّرَ اسْمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ للإشعارِ بعِلّيَّةِ الأوصافِ المُشارِ إليها للحُبوطِ في أعمالِهم وخُسرانِهم[1]. وأيضًا للاهتمام بتمييز المتحدَّث عنهم لزيادة تقرير أحوالهم في ذهنِ السَّامع.

سِرُّ التَّعبير بالاسْميَّةِ، دون الفعليَّة، في السّياق:

ثباتُ وصفِ حالةِ خُسرانِهم، ومُلازمتِها لهم

خُتمتِ الآيةُ الكريمةُ بالجملةِ الاسميَّة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ دون الفعليَّة (خسروا)، للدَّلالةِ على ثباتِ هذا الوصفِ في حقِّهم، وأنَّ حالَتَهم في تلكَ الخسارةِ حالةٌ لازمةٌ لهم لا تنفكُّ عنهم، وللتَّعبير عن عموم الخسارة وشيوعها فيهم وعدم تقييدها بزمن.

بلاغةُ القَصْرِ بضميرِ الفصل ﴿هُمُ﴾، وتعريف طرفِي الإسناد:

المبالغةُ في وصفِهم بالخسارة في الدَّارين، مفصحة عن المقصد

في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: لَمّا كانَتْ خسارتُهم جَسيمةً جُعِلَ غيرُهم من الخاسرينَ كَلا خاسرين، فَحُصِرَتِ الخسارةُ في هؤلاءِ دونَ غيرِهم بضميرِ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ وتعريفِ طَرفِي الجُملةِ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرًا مقصودًا به المبالغةُ في وصفِهم بالخسارة[2].

سِرُّ التَّعبير بالخُسران في الفاصلة:

سُوء أفعالهم عصف بأعمالهم، فضرّهم ولم ينفعهم

آثر القرآنُ التَّعبير بالخُسران دون غيره، في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنَّه يأتي بمعنى النَّقص والضَّلال، وهو ما يتوافق مع سياق الآيات في فعل المنافقين والكافرين من الأفعال المذمومة والصِّفات السَّيئة الَّتي ذهبت برؤوسِ أموالهم الَّتي هي أعمالهم فيما ضرَّهم ولم ينفعهم قطّ، ولو أنَّها ذهبت فيما لا

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

يضرُّهم ولا ينفعهم لكفى به خسرانًا؛ فكيف إذا كان فيما يضرُّهم ولا ينفعهم، فذلك هو الخسران المبين.

❁ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاسْتمتاعُ والانْتفاعُ:

الاسْتَمتاعُ بمُتعِ الدُّنيا ولذائذِها، والانْتفاعُ ما يُسْتَعانُ به في الوصولِ إلى الخير العميم

الاسْتمتاعُ: الانْتفاعُ بما قدَّرَه اللّهُ من مُتعِ الدُّنيا ولذائذِها، وذلك إنَّما يكون بوجود اللَّذة أو بما يكون معه، نحو المال الجليل والمُلك النَّفيس. والمتاعُ أيضًا: انْتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يُقالُ: متَّعهُ اللّهُ بكذا، وأَمْتَعَهُ، وتمتَّعَ به، قالَ تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ [التَّوبة: 69] أي: تمتَّعوا بنصيبِهم من لذائذِ الدُّنيا[1].

والنَّفعُ هو: ما يُسْتَعانُ به في الوصولِ إلى الخيرات، وما يُتوصَّلُ به إلى الخيرِ فهو خير، فالنَّفعُ خيرٌ، وضدُّه الضُّرّ، قالَ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188][2]. وقد يكون النَّفع بما تتأجَّل به اللَّذة نحو إصلاح الطَّعام وتبريد الماء لوقت الحاجة إلى ذلك[3]. ولمّا كان الاستمتاع قرينَ الانتفاع بمتاع الدّنيا المقدّر من اللّه تعالى أُختيرَ في الآية لمناسبته ما رُزقوا من أموال وأولاد، وغير ذلك ممّا يُنتفع به.

الخَلاقُ والنَّصيبُ:

فالخلاقُ الحظّ اللّائق بالخُلُق، والنَّصيبُ الحظُّ المُعيَّن، وهو أعمّ وأشمل

الخلاق: النَّصيبُ الوافرُ من الخيرِ خاصَّة، أو هو النصيب من العمل الصَّالح؛ لذا كثر استعماله في الجزاء بالجنَّة في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: 200] إلى غير ذلك من الآيات، واستعماله في الخير؛ لأنَّه مشتقٌّ ممّا اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقه؛ فالخلاقُ: الحظّ اللّائق بالخُلُق، وخلاق

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 757، وابن منظور، اللِّسان: (متع).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 819، وابن منظور، اللِّسان: (نفع).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 222.

المرء: الشَّيء الّذي هو به خَليق، وقد يُستعمل في مَنْ ترك نصيبه من الآخرة واستمتع بخلاق الدُّنيا كما في هذه الآية: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ الآية، وهذا ما اسْتمتعَ به المنافقون بما يُسخِطُ اللّه.

والنَّصيبُ: الحظُّ المنصوب، أي: المُعَيَّن، ويكونُ في المحبوبِ والمكروه، يُقالُ: وفّاهُ اللّهُ نصيبَه من النَّعيم أو مِنَ العذاب، والنَّصيبُ: ما نُصِبَ له لينالَه سواءٌ أكانَ محبوبًا أَم مكروها. والنَّصيبُ: ما يُصيبُ الإنسانَ من مُقاسَمة، سواءٌ ارْتفعَ به شأنُه أمْ لا.

واستُعمل (النَّصيب) في القرآن في آيات المواريث، وعلى هذا فالنَّصيب أعمُّ من الخلاق؛ لأنَّه يأتي في الجزاء بالأجر والثَّواب في قوله تعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ﴾ [النساء: 85] وفي الجزاء بالعذاب، قال تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾ [غافر: 47]، وعلى هذا فالنَّصيب يكون في المحبوب والمكروه[1].

ويهدي هذا الاستقراء إلى أنَّ الخلاق إذا فُسِّرَ بالنَّصيب بمعنى القَدْر، فملحوظٌ فيه خصوص دلالته على جزاء ما يكسب الإنسان بخُلُقِه ومسعاه. ويكون النَّصيب بدلالة أعمَّ، فيأتي بمعنى القَدْر من كسب الخُلُق والعمل، ويأتي كذلك بمعنى القَدْر المفروض، والحظِّ المقسوم[2]. ولخصوص دلالة الخلاق على جزاء ما يكسب بمسعاه اصطُفي في الآية ليُناسب لفظ الاستمتاع الدّالّ على طلب التّمتّع والسَّعي إليه.

البُطلانُ، والحُبُوطُ:

الحبوط أَصْلٌ يدلُّ على البُطلان، الّذي هو فسادٌ يُظنّ به صلاح الأمر

يُقالُ: أَحْبَطَ اللّهُ عملَ الكافر، أي: أَبْطَلَه، قالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [التّوبة: 69] أي: بَطَلَتْ أعمالُهم بعدَ التَّعَبِ فيها[3].

(1) الدّوريّ، دقائق الفروق اللُّغوية في البيان القرآنيِّ، ص: 146.
(2) عائشة عبد الرَّحمن، الإعجاز البيانيُّ للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص: 404.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/129، والرّاغب، المفردات، ص: 216.

وعلى هذا فالحُبُوط يدور على أمرين: بطلان العمل وسبب ذلك أنَّه بُنِيَ على غير أساس صحيح ولا أصلٍ ثابت، والثَّاني: فساده بعد الوقوع والصِّحَّة، ومنشأ الحبوط هنا، فسادٌ في الشّيء الصَّالح يأتي عليه من وجهٍ يُظنُّ به صلاحُه.

أمَّا البُطلان: فهو عامٌّ في العملِ وفي غيرِه، في الاعْتقادِ والقضاء، قالَ تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: 191]. وذلك لأَنَّ الباطلَ: نقيضُ الحقِّ، وهو ما لا ثَباتَ له عندَ الفحص عنه، قالَ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحجّ: 62][1].

ولأنَّ الاستمتاع بملذَّات الحياة أموالًا، وأولادًا، وزينةً لا أصلَ ثابتًا له مع كونها من حاجات الحياة الأساس من حيثُ لم تُستثمر في سبيل مرضاة اللّه تعالى، ونُصرة دينه. كان لفظ البُطلان أنسب من غيره في التَّعبير عن هذا المعنى بوصفه فسادًا في الشّيء الصَّالح يأتي عليه من وجهٍ يُظنّ به صلاحه.

---

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 129، وابن منظور، لسان العرب: (بطل).

﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التَّوبة: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين تشبيه المنافقين ومن سبقهم، بذكر نماذج ستّة منهم

لَمَّا شبَّه اللّهُ تعالى المنافقينَ بالكُفّارِ المُتقدِّمينَ في الرَّغبةِ في الدُّنيا، وفي تكذيبِ الأنبياءِ، والمبالغةِ في إيذائهم، وكان في لفظ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ إبهامٌ، بيَّنَ في هذه الآيةِ الكريمةِ أولئكَ الكفّارَ المتقدِّمين بذكرِ هؤلاءِ الطَّوائفَ السِّتَّة في هذه الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبَأُ﴾: النَّبأ: خبرٌ ذو فائدة، عظيمٌ يحصل به علمٌ أو غلبة ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل (نبأ) حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثلاثة، وحقُّ الخبر الَّذي يُقال فيه (نبأ) أن يتعرَّى عن الكذب كالتَّواتر، وخبر اللّه تعالى، وخبر نبيه ﷺ، ولتضمُّن النَّبأ معنى الخبر، يُقال: أنبأته بكذا، كقولك: أخبرتُه بكذا، ولتضمُّنه معنى العِلم: أنبأته بكذا[1].

2) ﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾: مَدْيَنُ: اسْمُ قريةِ نبيِّ اللّهِ شُعَيبٍ عليه السلام وأصحابُ مَدْيَن: هم قومُ شُعَيب عليه السلام فإضافةُ (أصحابِ) إلى (مَدْيَنَ) باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ (مَدْيَنَ) على الأرضِ الَّتي كان يقطنُها بنو مَدْيَن، فكما أنَّ (مَدْيَن) اسْمٌ للقبيلةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ [الأعراف: 85]، كذلكَ هو اسْمٌ لموطنِ تلك القبيلة[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (مدن)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

3) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾: الإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وَجْهِه الَّذي يَحِقُّ أنْ يكونَ عليه، ومنه قيل للرّياحِ العادلةِ عن المَهابِّ: مُؤتَفِكَة، قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾ [النّجم: 53] وقالَ ﷻ: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقّة: 9]، ومنه الإفكُ الَّذي اسْتُعمِل في أشدِّ الكَذِبِ، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ [النّور: 11][1].

وقولُه في الآية: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ مدائنُ وقُرَى قوم لوطٍ عليه السلام وقد كانوا يَسكنونَ في مدائن، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾ [النّجم: 53] أي: الأمَّةَ المؤتَفكةَ وهي سَدوم، أهلَكهمُ اللّهُ بأنْ قَلَبَ عاليَ أرضِهم سافلَها[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر طوائف من الكفّار الهالكين، وظلمهم أنفسهم، بتكذيب المرسلين

يقولُ اللّهُ تعالى واعظًا هؤلاءِ المنافقينَ المكذِّبينَ للرُّسُل في هذه الآية: أَلَمْ تُخبَروا خبرَ مَنْ كانَ قبلَكم من الأُمَمِ المَكَذِّبةِ للرُّسلِ: ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ وما أصابَهم من الغرَقِ العامِّ لجميعِ أهلِ الأرضِ إلّا مَنْ آمنَ بعبدِه ورسولِه نوحٍ عليه السلام، وعادٍ كيفَ أُهلكوا بالرّيحِ العقيم لمّا كذَّبوا هودًا عليه السلام، وثمودَ كيف أخذتْهُمُ الصَّيحةُ لمّا كذَّبوا نبيَّهم صالحًا عليه السلام وعَقَروا النّاقة، وقومِ إبراهيمَ كيف نصَرَه اللّهُ عليهم، وأيَّدَه بالمعجزاتِ الظّاهرةِ وأَهْلَكَ مَلِكَهم نمرودَ بنَ كنعانَ بن كُوش الكنعانيّ - لعنَه اللّه -، وأصحابِ مَدْيَنَ وهم قومُ شُعَيبٍ عليه السلام وكيفَ أصابتْهمُ الرَّجفَةُ وعذابُ يوم الظُّلَّة، والمؤتفكاتِ قوم لوطٍ، وقد كانوا يسكنونَ في مدائن، وكيف أَهلَكهمُ اللّهُ عن آخرِهم بتكذيبِ نبيِّهم وإتيانِهمُ الفاحشةَ الَّتي لم يسبقْهم إليها أحدٌ من العالمين، أَتَتْهُمْ رُسلُهم بالحُجَجِ والدَّلائلِ القاطعات، فما كانَ اللّهُ ليظلِمهمْ بإهلاكِه إيّاهم؛ لأنَّه أقامَ عليهمُ الحُجَّةَ بإرسالِ الرُّسُلِ وإزاحةِ العِلَل، ولكنَّهم

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 79.

(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/99.

ظلموا أنفُسَهم بتكذيبِهمُ الرُّسُلَ، ومُخالفتِهمُ الحقَّ، فصاروا إلى ما صاروا إليه من العذابِ والدَّمار[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبلها:

فُصِلتْ هذه الآيةُ عمَّا قبلها؛ لأنَّها استئناف ابتدائيٌّ عاد الكلام فيه على المنافقين؛ فضمير قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ عائدان إلى المنافقين الَّذين عاد عليهم الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾.

تقريرُ خسارة المنافقين والكافرين، ومَنْ على شاكلتهم في كلّ حين

بلاغةُ الاسْتفهامِ في صدرِ الآيةِ الكريمة.

صُدِّرتِ الآيةُ بالاسْتفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾ لَمَنْ نزَلَتْ فيهم الآياتُ من الكفَّار والمنافقين تحذيرًا لهم، بحيثُ يكونُ كالاسْتشهادِ عليهم بأنَّهم أتاهم نبأُ الَّذين من قبلِهم، فلا مناصَ لهم في عَدَمِ العِظَةِ والاعْتبار[2]، وفي هذا دليلٌ على تأكيدِ الخبر.

إقامةُ الحُجَّة على المخاطَبين، بتلقّيهم البلاغ المبين

نكتةُ الالتفاتِ من ضمائرِ الخطابِ، إلى ضمائرِ الغَيْبةِ:

تحوَّلتِ الضَّمائرُ في هذه الآيةِ إلى الغَيْبَةِ بعد أنْ كانتْ في صدرِ الآيةِ السّابقةِ للخطاب؛ إذِ اكْتُفيَ بالإشارةِ لما مضى من حالِ تلكَ الأمم فيما حلَّ بها من العذابِ والعقابِ والاسْتئصالِ، وعَوْدُ الكلامِ على المنافقينَ في قولِه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾، و﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ بالغيبة، ومجيئُها على الغَيْبةِ مع ذكرِ عذابِ اسْتئصالِ تلكَ الأقوامِ المحادَّةِ المكذِّبةِ للّهِ ولرسُله، تعبيرٌ عن ازْدرائهم وقلَّةِ شأنِهم عند اللّهِ تعالى، وكذلكَ هو حالُ المنافقينَ المتَّبعينَ لهم، ليس لهم عندَ اللّهِ تعالى شأنٌ، وهُم أَجْدَرُ بالاسْتهانةِ والازْدراءِ والتَّبكيت[3].

ازدراءُ المنافقينَ والاسْتهانةُ بهم، بذكر اتّباعهم للهالكين

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/540 - 541.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

حصول النّبأ ووقوعُه بعدَ أنْ لم يكن، من بليغ البيان

بلاغةُ الاسْتعارةِ في تشبيهِ، بلوغِ النَّبأِ بإتْيانِه:

الإتْيانُ هنا مُستعملٌ في بلوغِ الخير؛ كقولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: 41]، وهو استعارةٌ؛ فقد شُبِّه حصولُ الخيرِ عند المُخبَرِ بإتيانِ الشَّخص، بجامعِ الحصولِ بعدَ عَدمِه، ومن هذا القبيلِ قولُهم: (بَلَغَه الخبرُ)، قالَ تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19][(1)].

تفخيم شأن ما حلّ بتلك الأقوام، من هلاك وآلام

بلاغة المَجاز العقليّ في إسناد (الإتيان)، إلى (النَّبأ):

"إسناد الإتيان إلى النَّبأ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مجاز عقليٌّ؛ لأنَّ النَّبأ طريقه السَّماع والرِّواية النَّاقلة، وعلاقته المفعوليَّة. وسرُّه البلاغيُّ تعظيم وتفخيم شأنِ ما حلَّ بتلك الأقوام حتَّى لكأنَّه يسعى بنفسه لِيَرْوِيَ حكايتَه لهم"[(2)].

أمرُ الإنباء عن الأمم السَّابقة يسيرٌ، وخاصّة إذا كان وحيا من العليم القدير

نكتة التّعبير بـ(الإتيان)، دون غيره من الألفاظ:

آثَرَ القرآن الكريم التّعبير بـ(الإتيان) دون غيره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾؛ للإشارة إلى سهولة الإنباء عمّا حدث للأمم السَّابقة مع امتداد الزَّمان وتعدُّد المكان، وفي هذا ردٌّ على مَنْ يستبعد أمر الإنباء لصعوبة حصوله.

هلاك الأمم السَّابقة، يحمل معنىً عظيمًا، لم يدركه الكافرون والمنافقون

سرُّ التّعبير بـ(النَّبأ) دون (الخبر):

آثَرَ التّعبير بـ(النَّبأ) دون (الخبر)، في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنَّه يحمل معنىً عظيمًا في هلاك الأمم السَّابقة لم يطّلع عليه الكافرون والمنافقون في عهده ﷺ إلا من خلال إخبار القرآن عن أحوال هذه الأمم مع رسلهم؛ لذلك كان التَّعبير بالنَّبأ هو المناسب للسِّياق.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/260.

(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.

وجه إضافة (النّبأ) إلى الموصول الظّاهر دون المُضمَر:

هلاك السّابقين، لكونهم كذّبوا، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا

جاء التّعبير بقوله تعالى: ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دون (نبئهم)؛ ليشمل ما فعلوه وما فُعل بهم؛ فهم فعلوا التّكذيب وفُعل بهم الهلاك[1]. والإضافة للاختصاص، أي: النَّبأ الخاصّ بهم[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المبالغةُ والتَّأكيدُ في نبأِ المتقدِّمين، من البيان المبين

جاءَ التَّعبير بالاسْم الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ للمُبالغة في وصفِ شأنِ المُتقدِّمين وتأكيدِ تَنبئِهم فيما فعلوه من المنكراتِ واعْتقادِ الكُفْرِ باللّهِ ورسُلِه، وما حلَّ بهم من العذاب والهلاك[3]، وهذا المعنى لا يتأتَّى من غير استعمال اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ ففيه إثباتُ النَّبأ إلى مَنْ قبلهم؛ زيادةً في تقرير ذمّهم.

معنَى ﴿مِن﴾، في قوله ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾:

بيانُ حال الأقوام السَّابقة، وما حدث لهم، للعبرة والادّكار

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ تفسيريَّةٌ بيانيَّة، أفادتْ بيانَ حالِ الأقوامِ السّابقينَ مع أنبيائهم، في تكذيبِ دعوتِهم وإيذائِهم لهم، وما أصابَهم من العذابِ الوَبيلِ واسْتئصالِ شَأْفَتِهم. ويجوز أن تكون ابتدائيَّة، ويكون المعنى: ألم يأتهم نبأ الَّذين من قبلهم ليشمل الحديث بأحوال بني إسرائيل وما حدث لبعضهم من مسْخٍ ورفع الجبل فوقهم، ونحو ذلك مِمَّا أصابهم من العقاب، وإنْ كان ليس استئصالًا كما كان مع الأمم المذكورة في الآية.

موقعُ قولِه: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ ممَّا تقدَّمها:

من مظاهر البيانِ التَّفصيلُ بعد الإجمال

جملةُ ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ اعتراضيَّةٌ فصَّلتْ ذكرَ إجمال الأقوامِ السّابقين بين الاسْتفهامِ الَّذي صُدِّرت به الآيةُ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾

(1) الجمل، حاشية الجمل: 2/298.

(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/540 - 541.

وجملةِ: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ الَّتي عادَ الضَّميرُ فيها (هُم) على هذه الأُمَم المذكورة.

وجميع مَنْ ذُكر في قوله تعالى: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ في موقعِ البَدَلِ من قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] بدل بعضٍ من كلٍّ؛ فقوله تعالى: ﴿وَعَادٍ﴾ إلى آخره معطوفات كلُّها على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ لا على ﴿نُوحٍ﴾ إلا ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ فهي على حذف مضاف؛ لأنَّها ليست من الَّذين خلوا حتى تكون من جملة البدل[2].

نكتةُ حذفِ ﴿قَوْمِ﴾، مع ﴿وَعَادٍ﴾ و﴿وَثَمُودَ﴾:

تقدّمُ الذِّكر أغنى عن الإعادة، وأجزأ عن الإطناب

حُذِفَ لفظُ ﴿قَوْمِ﴾ مع عادٍ وثمود؛ لأنَّه لَمّا ذُكِر قومُ نوحٍ عليه السلام من قبلُ أغنَى ذلكَ عن إعادةِ ذِكْره مع ما عُطِفَ عليه، فَفُهِم من السّياق أنَّ المُرادَ: قومُ نوحٍ وقومُ عادٍ وقومُ ثمود.

فائدةُ إضافةِ كلمةِ ﴿وَأَصْحَٰبِ﴾ إلى ﴿مَدْيَنَ﴾ دونَ غيرِها:

(مَـدْيَـنُ) هي الأرضُ الَّتي كان يَقطنُها بنو مَدْيَن

إضافةُ ﴿وَأَصْحَٰبِ﴾ إلى ﴿مَدْيَنَ﴾ باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ مَدْيَنَ على الأرضِ الَّتي كان يَقْطُنُها بنو مَدْين، فكما أنَّ مَدْيَنَ اسْمٌ للقبيلة، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85] كذلك هو اسْمٌ لموطنِ تلكَ القبيلة[3]. مَدْيَنُ: اسْمُ قريةِ نبيِّ اللّهِ شُعَيْبٍ عليه السلام. وأصحابُ مَدْيَن: هم قومُ شُعَيب عليه السلام فإضافةُ (أصحابِ) إلى (مَدْيَنَ) باعْتبارِ إطلاقِ اسْمِ مَدْيَنَ على الأرضِ الَّتي كان يقطنُها بنو مَدْيَن، فكما أنَّ مَدْيَن اسْمٌ للقبيلةِ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، كذلكَ هو اسْمٌ لموطنِ تلكَ القبيلة[4].

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/58، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540.
(2) حاشية الجمل: 2/298.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (مدن)، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/201، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

معنَى (أل) للتّعريف والعهد، في لفظ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾:

بيان نبأ القُرى الّتي خُسِفَ بها للتّذكير، لأنّه معروفٌ مشهورٌ

(أل) في قولِه: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ للتَّعريفِ والعهدِ بتلكَ القُرَى الَّتي انقلبَتْ على أهلِها حيث خُسِفَ بها وصارَ عاليَها سافلَها، ونبأُ هؤلاءِ معروفٌ مشهورٌ، وهو خبرُ هلاكِهم واسْتِئصالِهم بحوادث مَهولة[1].

نكتةُ ذكرِ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾:

قُرَى قومِ لوط عليه السلام هي الّتي انقلبتْ رأسًا على عَقِب

اكْتفَى بيانُ اللّهِ بذِكْرِ ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ دون ذِكْر (أصحاب) أو (قوم) كما تقدَّمَ في ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾ و﴿وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ﴾؛ لأنَّ المرادَ: القُرى نفسُها الَّتي انقلبَتْ على أهلِها فاستأصلَ اللّه شأفتَهم بذاك الانْقلابِ بجعلِ عاليَ أرضِ تلك القُرى سافلَها، وذلك بسببِ إعراضِهم عن صيانةِ أعراضِهم في اتِّباع لذائذِ أغراضهم، فأَثْمَرَ لهم فعلُهم بعدَ الخَسْفِ عمومَ انْقراضِهم[2]. ويجوز أن يكون المُراد: قرى المكذِّبين المُتمرِّدين مطلقًا، ويكون الائتفاك من باب المَجاز، والمُراد: انقلاب حالها من الخير إلى الشَّرِّ على طريق الاستعارة[3].

فائدة التَّرتيب في ذكرِ الأقوامِ السّابقة:

تـرتـيـبُ ذِكْـرِ الأقوامِ بناءً على التَّرتيبِ الزَّمنيّ، مراعاةً لأحوالهم وظروفهم

جاءَ ترتيبُ ذكرِ الأقوامِ السّابقة - قومِ نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وقومِ إبراهيمَ، وأصحابِ مَدْينَ، والمؤتَفِكات - مراعاةً للتَّرتيب الزَّمنيِّ في تعاقُبهم إثْرَ بعضِهم إلا أصحاب مَدْين فقُدّمت على قوم لوط وهُم بَعدَهم في الزَّمان؛ لأنَّ هذا في شأن مَنْ وُصفوا بأنَّهم لم يجدوا ما يحميهم ممَّا هم فيه من العذاب. وممَّا يُذكر في سرِّ التَّرتيبِ أنَّه بدأ بقوم نوح، لطول أعمارهم وامتداد آثارهم، وثَنَّى بقوم عادٍ لقوَّة أبدانهم وعظيم شأنهم في بُنيانهم ومصانعهم، وذَكَر بعد ذلك ثمود لتمكُّنهم من نحت الجبال، وقوم إبراهيم في مُلك جميع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/540، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/135.

الأرض، وأصحاب مدين في جمع الأموال ومدِّ الآمال ونقص الميزان والمكيال، والمؤتفكات في إعراضهم عن صيانة أعراضهم؛ فالمُلاحَظ أنّ التَّرتيب رُوعي فيه ما تميزَّ به كلُّ قومٍ عن غيرهم(1).

سرّ تخصيص هؤلاء الأقوام بالذِّكْر:

أخبار القوم معروفة؛ لقُرْب ديارهم، وتواتر آثارهم

خصَّ القرآن ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ﴾ بالذِّكر، لمعرفة العرب بأخبارهم وأحوالهم وقُرب ديارهم منهم. فضلًا عن عجيب شأنهم، وتنوُّع أخبارهم، وغرابة الأحداث الَّتي عاشوها، وصلاحيتها لِلعظة، والعبرة.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾:

مهامُّ الرُّسل الإتيانُ بدلائل الصِّدقِ والحقّ

جاءتْ جملةُ ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ استئنافًا بيانيًّا نشأَ عن قولِه تعالى: ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: أَتَتْهم رُسُلُهم بدلائلِ الصِّدقِ والحقّ، ويمكنُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ تعليلًا لِما تقدَّمها في الآيةِ(2).

سِرُّ التَّعبير بالإتيان: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾:

منهجُ الرُّسل مناسب للفطرة، والإتيان بالمعجزات دعمٌ للرّسالات

جاء التَّعبير بالإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ للدّلالة على سهولة منهج الرُّسل في حدِّ ذاته، فضلًا عن سهولة الإتيان بالمعجزات الَّتي طلبوها وهي خارقة للعادة، كما طلب قوم ثمود من صالحٍ النَّاقةَ وأجابهم إلى ذلك.

إيثار لفظ (الرُّسل) دون (الأنبياء):

رسلُ الله ذوو مقامات عالية، وهم جاؤوا بمبادئ سامية

جاء التَّعبير القرآنيُّ بلفظ الرّسل دون الأنبياء في قوله تعالى: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾؛ للدّلالة على عُلوّ شأن الرُّسل ورفعة مكانتهم فيما أَمَروا به قومهم من التَّشريعات الإلهيَّة الَّتي كَذَّبوا بها، بل وآذوا الرُّسل ورفضوا دعوتهم؛ بخلاف لفظ الأنبياء فلا يتأتَّى معه التَّشريعات الإلهيَّة، بل يدعون إلى شريعة مَنْ كان قبلهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 3/356 - 357.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.

فائدةُ إضافةِ (الرُّسُلِ)، إلى ضميرِ (هم): ﴿رُسُلُهُم﴾:

أُسندَتْ كلمةُ (الرُّسُل) إلى الضَّمير (هم) لإثباتِ إرسالِ رسولٍ إلى كلِّ أُمَّةٍ من الأُمَم، مِصداقُ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النَّحل: 36][1]. وفيه إشارة إلى مزيد العناية بهم من حيث إنّ الرُّسل جاءت إليهم خاصَّة وخاطبتْهُم بما يهديهم إلى الحقّ.

ما مِنْ أُمَّةٍ إلّا خَلا فيها نذير، وجاءها بالهداية بشير

معنَى (الباء) في: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾:

الباءُ في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ للمُصاحَبة، أي: أَتَتْهُم رُسُلهم مُتلبِّسينَ بالبيِّنات، أي: مُصاحبينَ لها، حيث إنَّ البيِّناتِ هي الحُجَجُ الواضحاتُ والمعجزاتُ الباهراتُ المؤيِّداتُ للرُّسُلِ في صِدْقِ دعواهُمُ الرِّسالة[2].

مجيء الرّسل قرينٌ بالبيّنات الظّاهرة، والمعجزات الباهرة

سِرُّ التَّعبير بلفظ (البيِّنات):

آثر التَّعبير بالبيِّنات دون المعجزات؛ لأنَّ المراد هنا المعجزات الواضحات جدًا بسبب أنهم ارتكبوا من القبائح ما أوجب دمارهم، ولأنَّ بعض المعجزات قد تكون خفيَّة على بعض النَّاس، والمقام هنا مقام إظهار وإعلان فناسبَهُ التّعبير بالبيِّنات.

اقتضى مقام الإظهار التَّعبير بالبيِّنات

دلالة (الفاء) في سياق نفي الظّلم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾:

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ للتَّفريع، أي: تفريعُ جملتِها على جملةِ ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾[3]. ويجوز أن تكون الفاء للعطف على مُقدَّرٍ ينسحب عليه الكلام، ويستدعيه النِّظام. تقديره: (فكذَّبوهم فأهلكهم اللّه تعالى) ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾[4].

احتمال الفاء للتَّفريع أو العطف، دليل على تنوّع المعنى

دَلالةُ الجملة - بعد الفاء - في سياق الآية الكريمة:

قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾، لَمّا كانتِ الفاءُ للتَّفريع، جاءتِ

ظلمُ الأقوامِ لأنفسهم بالكفرِ وتكذيبِ الرُّسُل، سفهٌ منهم وطيشٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/541.
(2) سامي القدّوميّ، التَّفسير البيانيّ، ص: 89.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261 - 262.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/135.

الجُملةُ بعدَها تفريعًا على جُملةِ ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾، والمفرَّعُ هو مجموعُ الجُملةِ إلى قولِه: ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ لأنَّ الَّذي تفرَّعَ على إتْيان الرُّسُل: أنَّهم ظلموا أنفُسَهم بالعنادِ والمكابرة، والتَّكذيبِ للرُّسُل، وصَمِّ الآذانِ عنِ الحقّ، فأخذهمُ اللّهُ بذلك[1].

نكتةُ تقديمِ النَّفيِ على المُسنَدِ إليه، والمُسنَد الفعليّ:

تأكيدُ نَفْيِ الظُّلمِ عنِ اللهِ تعالى، بأبلغِ وجه، وأوفى عبارة

تقدَّم النَّفيُ على المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ الفعليِّ في قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ لتأكيدِ نفيِ الظُّلم عنِ اللّهِ تعالى بأبلغِ وَجْه، وتحقيق نَفيِ هذا الظُّلمِ في أيِّ وجهٍ من الوجوهِ الَّتي يمكن أنْ تخطُرَ على الذِّهن[2].

فائدةُ دخولِ فعلِ الكَوْنِ، على لفظِ الجلالةِ في نَفْيِ الظُّلم:

المبالغةُ في نَفْيِ ظُلمِ اللهِ لهم، لأنّه منزّه، ولا يظلم أحدا

جاءَ نظمُ الكلامِ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ على هذا الأسلوبِ البديع؛ للمبالغةِ في تنزيهِ اللّهِ تعالى عن الظُّلم، أي: ما صَحَّ وما استقامَ له تعالى أنْ يظلمَهم ولكن ظلموا أَنفُسَهم[3]، وهذه المبالغة دلَّ عليها الإتيان بفعل (كان) الَّذي يدلُّ على استمرار نفي الظُّلم؛ فليس من شأن اللّه تعالى أن يظلمهم.

فائدةُ دخولِ لامِ الجُحودِ، بعد فعلِ الكَوْنِ المنفيّ:

نَفْيُ الظُّلم عن اللهِ تعالى نفيًا قاطعًا، أمر معلوم محتوم

اقترن النَّفيُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بما النَّافية ثمَّ بلامِ الجُحودِ في قولِه: ﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾، وهذا يُعدُّ أبلغَ وَجْهٍ من وجوهِ نَفْيِ الظُّلمِ عنِ اللّهِ تعالى نفيًا تامًّا قاطعًا[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ، في السّياق:

الاستمرارُ في نفي ظُلم اللهِ لهم، إذ يستحيل في حقّه الظّلم

صيغَ الظُّلمُ بصيغةِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/261.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

﴿لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكرُّر، أي: اسْتمرارِ عدمِ ظُلمِ اللّهِ لهم، ودوام تنزُّهه[1].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَٰكِن﴾:

ما بعد الاستدراك مُحقّقٌ على ما قبله

(الواو) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ عطفَتْ جُملةَ الاسْتدراك على ما تقدَّمَها وأفادتْ تحقُّقَ ما بعدَ الاسْتدراكِ على ما قبلَه[2].

بلاغةُ القَصْرِ، في ثنايا سيّاق الآية الكريمة:

قصرُ الظُّلمِ على الأقوامِ الَّتي كذبت رُسُلَ الله

في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ جاءَ القَصْرُ في ذَيْلِ الآيةِ مُبتدِئًا بقولِه: ﴿فَمَا كَانَ﴾ ومنتهيًا بقولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ لقَصْرِ المظلوميَّة التّامَّة الكاملةِ عليهم، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ [النَّحل: 33]، وآياتٌ كثيرةٌ غيرَها نَزَّه اللّهُ نَفْسَه فيها عنِ الظُّلمِ وقصَرَ الظُّلمَ على تلكَ الأممِ المكذِّبة لِرُسُلِه[3].

دلالة الاستدراك بـ ﴿وَلَٰكِن﴾:

تسجيلُ فَرْط ظُلمِهم لأنْفُسِهم

جاءَ الاسْتدراكُ بـ ﴿وَلَٰكِن﴾ لِيُسجِّل بيان اللّهِ فَرْطَ ظُلمِهم لأنْفُسِهم، وذلك بسوءِ صنيعِهم من كِبْرِهم وعنادِهم حتَّى جُعِلَ ذلكَ كلُّه هو المفرَّعُ عليهم والمُتلَبِّسُ بهم في صورةِ الاسْتدراك[4].

فائدةُ دخولِ فعلِ الكَوْنِ الماضي في جملة الفاصلة:

تمكُّنُ الظُّلمِ منهم منذُ أمد مديد

في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أثبتَ بيانُ اللّهِ ظُلْمَهم أنفُسَهم بأبلغِ وجهٍ؛ إذْ أُسْنِدَ إليهم بصيغةِ الكَوْنِ الماضي الدّالِّ على تمكُّنِ الظُّلمِ منهم وتحقُّقِه فيهم منذُ زمانٍ مضَى[5].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/476.
(2) الدَّرويش، إعراب القرآن: 4/133.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

نكتةُ تقديمِ المفعولِ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾:

اختصّت أنفُسُهم بالظُّلم حدّ التلبُّس

قُدِّمَ المفعولُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾، وحقُّهُ التَّأخيرُ للاهْتمامِ به، ولبيانِ اخْتصاصِ أَنْفُسِهم بالظُّلم، لا غيرَ أنفسهم وتلَبُّسِ الظُّلمِ بأَنْفُسِهم مع مراعاةِ الفاصلةِ في الآيةِ القرآنيَّة[1]، ولبيان شناعة ما يفعلونه بأنفسهم وهو ما استحقوا به العقاب، فوبالُ ظلمِهم راجعٌ إليهم.

سرّ الجمعِ بينَ صيغتيِ الماضي والمضارعِ، في الآية:

إفادة استمرارِ ظُلمِهم وتمكُّنِه منهم

جمعَ القرآن الكريم بين صيغتيِ الماضي والمضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ للدَّلالةِ على اسْتمرارِ ظُلمِهم من الزَّمانِ الماضي إلى حاضرِهم؛ إذ لم يزالوا يُعرِّضونها للعقابِ بالكُفرِ والتَّكذيب[2].

توجيه التَّذييل بجملة الفاصلة:

نفيُ ظلمهم، يستلزم تسبيب ما حلَّ بهم بأيديهم

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ "تذييلٌ مُقرِّرٌ لمعنى الكلام قبله؛ لأنَّ نَفْيَ ظلمهم عن اللّٰه يقتضي أنَّهم هم الذين استوجبوا بكفرهم ما حلّ بهم من كوارث"[3].

بلاغة المجاز في تسميّة العقاب ظلمًا:

عقابهم كان سببُه ظلم أنفسهم، وذلك أسوأ الظّلم

"وفي تسمية العقاب ظلمًا مجاز مرسل باستعمال السّبب في المسبَّب؛ لأنَّ عقابهم كان سببه ظلم أنفسهم بكفرهم وتكذيبهم رسل اللّٰه إليهم"[4].

بيانُ المتشابه اللَّفظيِّ بين آيتي: التوبة وإبراهيم:

تشابهت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576.
(2) المطعنيّ، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/22.
(3) أبو السُّعود إرشاد العقل السّليم: 2/576، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/576، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

التَّعبير بالغيبة أمارة الإعراض عنهم بما أعرضوا عن الهدى

رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التَّوبة: 70]، مع قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [إبراهيم: 9]. فالنَّاظر في الآيتين يجد بينهما تشابهًا في الأسلوب واختلافًا في بعضه، وذلك أنَّ آية سورة التَّوبة جاءت بأسلوب الغيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ في حين موضع سورة إبراهيم جاء بالخطاب ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾، بالمجيء بدلًا من الإتيان في قوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾، ولعلَّ السَّبب في ذلك يظهر من السِّياق؛ فسياق سورة التَّوبة عُدِل فيه عن الخطاب إلى الغيبة، بسبب ما فعلوه من الصِّفات الذَّميمة والأفعال القبيحة، فأدَّى ذلك إلى الإعراض عنهم فناسَبَه التَّعبير بالغيبة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ﴾.أمَّا موضع سورة إبراهيم فيسبقه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم: 8] فهو مبنيٌّ على الخطاب من موسى عليه السلام لقومه، فناسب التَّعبير بالخطاب بعده لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾. وأمَّا عن سرِّ التّعبير بالإتيان في قوله تعالى: ﴿أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ في التَّوبة والمجيء في سورة إبراهيم بقوله تعالى: ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ أنَّ السِّياق في سورة إبراهيم أعمُّ منه في سورة التَّوبة؛ لذلك ناسبه التَّعبير بالمجيء الَّذي هو أعمُّ من الإتيان.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ [التَّوبة: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المقابلة بين وعيد المنافقين بالعذاب، ووعد المؤمنين برحمة الله العزيز الحكيم

لَمّا وصف اللّهُ تعالى المنافقينَ في الآيةِ السَّابقةِ بالأعمالِ الفاسدةِ والأفعالِ الخبيثة، ثمَّ ذكرَ عَقيبَه أنواعَ الوعيدِ في حقِّهم في الدُّنيا والآخرة، ذكرَ بعدَه في هذه الآية كونَ المؤمنينَ موصوفين بصفاتِ الخيرِ وأعمالِ البرِّ، على ضدِّ صفاتِ المنافقين، ثمَّ ذكرَ تخصيصهم برحمته، وذلك بما أعدَّه لهم من الثَّوابِ الدّائم والنَّعيم المقيم[1].ومن المناسبة أيضًا أنَّه لمّا بيَّن سبحانه فيما سبق أنَّ المنافقين والمنافقات بعضُهم من بعض في ارتكاب الصِّفات الذَّميمة والأفعال القبيحة بيّن في هذه الآية حال المؤمنين والمؤمنات وأنّ بعضهم أولياء بعض يتحابُّون في اللّه ويتعاطفون فيما بينهم، وذلك بصفاتهم الطَّيِّبة وأفعالهم الحسنة الّتي ذكرَتها الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾: ولي: الواوُ واللَّامُ والياءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على قُرْب، ويُطلَق على الصَّاحب والحليف. والوَلْيُ: القُرْب، يُقال: تباعَدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُرب، والصّاحبُ، والحليفُ، وابنُ العمِّ، والنّاصرُ، والجارُ، كلُّ هؤلاء من الوَلْي، وهو القُرب، وكلُّ مَنْ وَلِيَ أمرَ آخرَ فهو

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/100.

وليُّه[1]. وقولُه تعالى هنا: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ أي: متناصرون، مُتحابُّون، مُتعاطفون[2].

2) ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾: المعروفُ: اسْمٌ لكلِّ فعلٍ يُعرَفُ بالعقلِ أوْ بالشَّرعِ حُسْنُه، وهو ضدُّ المنكَر[3]، كما قالَ تعالى هنا: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ أي: بما هو معروفٌ في الشَّرعِ غيرُ منكرٍ من توحيدِ اللهِ وعبادتِه دون سواه[4]. ويُطلقُ المعروفُ على الاقْتصادِ في الجودِ والإحسان، كما قالَ تعالى: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾. ويُطلق المعروفُ كذلكَ على ما تطمئنُّ إليه النَّفْسُ وتَسْكُن، وسُمّي بذلكَ العُرْفُ معروفًا؛ لأنَّ النَّفْسَ تسكُنُ إليه[5].

3) ﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾: نكر: النّونُ والكافُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خلافِ المعرفةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القلب. ونَكِرَ الشَّيءَ وأَنْكَرَه: لم يقبلْه قلبُه، ولم يعترفْ به لسانُه. والإنكارُ: ضدُّ العِرفان. والمُنْكَرُ: كلُّ فعلٍ تحكُمُ العقولُ الصَّحيحةُ بقُبحِه، أو تتوقَّفُ في اسْتقباحِه واسْتحسانِه العقول، فتحكُمُ بقُبحِهِ الشَّريعة، وإلى ذلكَ قُصِدَ بقوله: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التَّوبة: 112]، وقوله - هنا -: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[6].

4) ﴿عَزِيزٌ﴾: عزَّ، يَعِزُّ، عِزًّا، والعِزُّ: ضدُّ الذُّلِّ. والعِزَّةُ: حالةٌ مانعةٌ للإنسانِ من أنْ يُغلَب، من قولِهم: أرضٌ عَزاز، أي صُلبة، قالَ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النِّساء: 139]. وقالَ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8][7]. والعزيزُ: الغالبُ على كلِّ شيءٍ القادرُ عليه، وهو الَّذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَر، وهو معنَى قولِه هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[8].

5) ﴿حَكِيمٌ﴾: حكم: الحاءُ والكافُ والميمُ أصلٌ واحدٌ، وهو المَنْع، وأوَّلُ ذلكَ الحُكْم، وهو المنعُ من الظُّلم، ويُقالُ: حكَمتُ السَّفيهَ وأَحْكَمْتُه: إذا أخذتُ على يَدَيْه، ومنه سُمِّيَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 6/141، وابن منظور، اللِّسان: (وَلِيَ).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 561.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 10/179.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 4/281، والرّاغب، المفردات، ص: 561.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 5/476، والرّاغب، المفردات، ص: 823، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542.
(7) الرّاغب، المفردات، ص: 563، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (عزز).
(8) الرّاغب، المفردات، ص: 563، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202.

اللِّجام: حَكَمةَ الدّابَّة؛ لأنَّها تمنعُها. والحكمةُ: هذا قياسُها؛ لأنَّها تمنعُ من الجَهْل، والمُحَكِّمُ: المُجرِّبُ المنسوبُ إلى الحكمة. والحِكْمةُ: إصابةُ الحقِّ بالعلمِ والعقل، فالحكمةُ من اللّهِ تعالى: علمُ الأشياءِ وإيْجادُها على غايةِ الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجوداتِ وفعلُ الخَيْرات[1]. وقولُه تعالى - هنا -: ﴿حَكِيمٌ﴾ واضعٌ كلًّا مَوْضِعَه على حَسَبِ الاسْتحقاق[2].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

المــؤمــنــون يــتــنــاصــرون، ويتعاونون على الـبرّ والـطّـاعة، فتشملهم رحمة الله

بيّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ المؤمنين والمؤمنات يتناصرونَ ويتعاضدون فيما بينهم، فهم كالجَسَدِ الواحدِ في توادِّهم وتراحُمِهم، ويأمرونَ بالمعروف الَّذي في الشَّرْعِ أنَّه معروف، ويَنْهونَ عن المنكَرِ الَّذي أنكرَه الشَّرْع، ويُقيمونَ الصَّلاةَ حقَّ إقامتِها، ويُؤدّون الزَّكاةَ حقَّ أدائها في مصارِفها الَّتي بيَّنها الشَّرع، ويُطيعونَ اللّهَ ورسولَه حقَّ الطّاعةِ في الأمرِ والنَّهي[3]. وقد جعل اللّه للمُتّصفينَ بهذه الصِّفات الجزاءَ العظيمَ فيرحمُهمُ ويُعِزُّهم في الدُّنيا والآخرة، وهو ﷻ عزيز لا يُغلب، حكيمٌ في قِسمتِه هذه الصِّفاتِ لهؤلاءِ المؤمنين والمؤمنات[4].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عَطْفِ الآيةِ على ما تَقَدَّمها:

بيانُ حُسْنِ حالِ المؤمنين، إثْـرَ بيانِ سوءِ حالِ المنافقين

قولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ الآية، عَطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ [الآية: 67] والجامع بينهما التّضادُّ في الأقوال والأفعال وما بينَهما جُمَلٌ تَسَلْسَلَ بعضُها عن بعض، والغرض

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 2/91، والرّاغب، المفردات، ص: 248 - 249.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336.

بيانٌ لحُسْنِ حالِ المؤمنينَ والمؤمناتِ، حالًا ومآلًا إِثْرَ بيانِ قُبْحِ حالِ أضدادِهم عاجلًا وآجلًا[1].

بلاغةُ المقابَلاتِ بين جُمَلِ هذه الآية، والَّتي تقدَّمتْها:

رِفعةُ أهلِ الإيمان، وخسَّةُ أهلِ النِّفاق

بينَ هذه الآيةِ والآيةِ (67) المتقدِّمةِ مجموعةٌ من المقابَلاتِ الَّتي تدلُّ على بلاغةٍ جليلةٍ فائقةٍ، فقد جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، مقابلَةَ قولِه: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ﴾، وقولُه: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ مُقابِلٌ قولَه في المنافقين: ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾، وقولُه تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ مقابلٌ قولَه: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وزِيدَ في وصفِ المؤمنين هنا ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تنويهًا بأنَّ الصَّلاة هي أعظَمُ المعروف. وقولُه تعالى: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ مُقابِلٌ قولَه في المنافقين: ﴿وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ﴾. وقولُه تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ مُقابِلٌ قولَه في المنافقين: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنَّ الطّاعةَ تَقْتضي مُراقبةَ المُطاعِ، فهي ضدُّ النِّسيانِ. وقولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ مُقابِلٌ قولَه في المنافقين ﴿فَنَسِيَهُمۡۚ﴾[2]. والتَّقابلُ الدّلاليُّ بين هذه التراكيب يُجلِّي بوضوحٍ صورتي الذَّمّ، والمدحِ لكلٍّ من المنافقين والمؤمنين، وكونهما على طرفي نقيض. ويُرسِّخ أحقِّيَّةَ الموصوفين بما كِيل لهم من صفاتٍ تستوجب الذَّمَّ، وخصالٍ تستحق الثناء.

بلاغةُ الطِّباقِ بين ألفاظِ هذه الآية الكريمة:

التَّحفيزُ للاتِّصافِ بصفاتِ المؤمنينَ والمؤمنات

جاءَ الطِّباقُ في قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ وهو من المحسِّناتِ البديعيَّةِ - بذكرِ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ و﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ بيانًا لحالِهم من الإيمانِ بما جاءهم عن ربِّهم ترغيبًا في التَّوبةِ وطمعًا في مِثْلِ حالِهم للاقتداء بهم، فإنَّ الإيمانَ باللّه تعالى رأسُ الأمرِ كلِّه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/543، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/263.

المؤمنون متعاضدون في نَهيهم عن المنكر، لا يُحابُون أحدًا

ومن الطِّباق في الآية قوله تعالى ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، أنَّه جاءَ بوصفَيْن مُتقابلَيْن من أوصافِ أهل الإيمان ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ لبيانِ أنَّ كلَّهم قائمونَ على وجهٍ من التَّعاضُدِ والتَّناصُرِ بالمعروف، والنَّهيِ عن المنكَرِ لا يُحابونَ أَحَدًا[1].

دلالة (أل) في ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾:

استغراق المدح جنس المؤمنينَ والمؤمناتِ استحقاقًا

(أل) في ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ موصولة لدخولها على اسم الفاعل، والمُراد جنس المؤمنين والمؤمنات الَّذين تَمكّن فيهم الإيمان فتفرّعت عنه تلك الصِّفاتُ الواردةُ في الآيةِ الكريمة.

سرُّ التَّعبير بـ (الإيمان):

في لفظ الإيمان حَـيْدةٌ لأهل النِّفاق

آثر القرآن الكريم التَّعبير بـ ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، دون (المسلمين والمسلمات)؛ لأنَّ بعض المنافقين يُعلنون أنَّهم من أهل الإسلام، ومع ذلك يأمر بالمنكر، وينهى عن المعروف ولا يقوم إلى الصَّلاة إلّا وهو كسلان، ويبخل بالزَّكاة ويتخلَّف بنفسه عن الجهاد، وإذا أمره الله تَثبّط وثبّط غيره، أمَّا المؤمنون والمؤمنات فصفاتهم ضدَّ هذه الصِّفات؛ لذلك كان التَّعبير بالإيمان لإخراج أهل النِّفاق.

نكتةُ تغايُرِ وصفِ المؤمنين، عن وصفِ المنافقين:

ولايةُ المؤمنينَ والمؤمناتِ لا تَنْفصِمُ عُراها، بخلافِ ولايةِ المنافقين

النَّاظر في الآية القرآنيَّة في جانبِ المؤمنينَ والمؤمناتِ يجد وصفهم بأنَّهم ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ في حين وُصِفَ المنافقون بأنهم ﴿بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ﴾؛ لأنَّ الولاية تقتضي المحبَّة والنُّصرة، وهذا يعني أنَّ اللُّحْمةَ الجامعةَ بينَهم هي وَلايةُ الإسلام، فهُم فيها على السَّواء، ليس واحدٌ منهم مُقلِّدًا للآخَرِ ولا تابعًا له على غيرِ بصيرة، لما في معنَى الوَلايةِ من الإشْعارِ بالإخلاصِ والتَّناصُرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/543 - 544.

بخلافِ المنافقين لا يُحبُّون أحدًا ولا يُوالون غيرهم، بل يتربَّصون بالنَّاس الدَّوائر، فلا ولاية بينهم ولا شفاعة لهم ولا يدعو بعضهم لبعض فكأنَّ بعضَهم ناشئٌ من بعضٍ في مَذامِّهم[1] وهذا يدلُّ على أنَّ نفاق الأتباعِ وكفرهم حصل بسبب التَّقليد لأولئك الأكابر في زعمهم من أهل الكفر والنِّفاق[2].

دلالة الجَمْع بين المؤمنين والمؤمنات:

تكاليف الله للجميع واحدة، إلّا ما استثني بالخصوصيّة

آثرَ التَّعبير القرآنيُّ الجمع بين المؤمنين والمؤمنات في هذه الآية ولم يكتفِ بذكر المؤمنين فقط للدّلالة على مساواة النِّساء للرِّجال في أمر الإيمان والالتزام بصفاته، وهذا يعني أنَّ التَّكاليف في شرع اللّه للرَّجل والمرأة على حدٍّ سواءٍ إلا فيما استثناه الشرَّع من أمور خاصة بالنِّساء، كأمر الصَّلاة والجهاد ونحو ذلك.

دلالة حذف متعلَّق الوَلاية، في ثنايا الآية:

أفاد الحذف عموم الولاية، فضلًا عن خصوصها

حُذف متعلَّق الوَلاية في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ لإفادة العموم، فتشمل الولاية بمعناها العامِّ ومعناها الخاصِّ من ولاية الأخوَّة والمودَّة والنّصرةِ مع التأكيد على أنّ نصرة النِّساء تكون فيما دون القتال من إنفاق للأموال، ومساعدة للجَرْحى ونحو ذلك.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾:

رباط المؤمنين متين، وتعاونهم فيما بينهم مكين

آثرَ القرآن الكريم التّعبير بوصف الأولياء في قوله تعالى: ﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ دون غيره؛ لإفادة العموم فهو يشمل النّصرة وغيرها، وللإشارة إلى أنّ المؤمنين والمؤمنات جَمعتْهم المودَّة والرَّحمة والإخلاص للّه تعالى ولحقِّ هذه الأمَّة على المؤمنين. وفيه دلالة على أنَّ الرِّباط بينهم رباطٌ قويٌّ لا تنفصم عُراهُ؛ لأنَّه مربوطٌ بالعروة الوُثقى لا انفصام لها[3].

---

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/58، والدُّرُّ المَصون: 6/85، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/262.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/70.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/371.

بلاغة الاستئناف البيانيّ، في جملة الأمر والنّهي:

تحقُّق الإيمان بفعل المعروف، وترك المنكر

قولُه تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا لسؤال استدعاه السِّياق؛ فكأنَّ سائلًا سأل عن دليل تحقُّق ولاية المؤمنين بعضِهم لبعض فكان الجواب قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، فهذان الرُّكنان من أعظم لوازمِ الإيمان، فكلُّ ما ذكرَ اللّهُ في القرآنِ من الأمرِ بالمعروف فهو دعاءٌ من الشِّرك إلى الإسلام، وكلُّ ما ذُكِرَ من النَّهْيِ عنِ المنكَرِ فهو نَهْيٌ عن عبادةِ الأَوْثانِ والشَّياطين(1).

دلالة البدء بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر معًا:

أثر الأمر والنّهي، في صلاح الفرد والمجتمع

بدأ القرآن الكريم بهما دون غيرهما من بقية الصِّفات؛ لأنَّهما من أخصّ صفات المؤمنين الّتي يمتازون بها على المنافقين وعلى غيرهم من الكُفَّار؛ فهما سياج لحفظ الفضائل ومنع وقوع الرَّذائل، وفضَّل اللّه بهما أُمَّة محمد ﷺ على سائر الأمم؛ فقال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110].

فائدةُ تقديمِ الأمرِ على النَّهي:

تحقُّقُ الأمرِ بالمعروفِ، سبيلٌ لانْتفاءِ المنكَر

الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ كلاهما مطلوبٌ لذاتِه، وهما فضيلةٌ كالصِّدق والعَدلِ والحقّ؛ بل هذه الأمورُ بدأ بها الكتابُ والسُّنَّة آمرًا بها ناهيًا عن خلافِها، ولذلك كانَ الأمرُ بالمعروفِ مُقدَّمًا على النَّهيِ عن المنكر؛ لأنَّه الأصل ولعموم معناه؛ فإذا تحقَّق قيامُ الرُّكنِ الأوَّلِ انْتفَى الثّاني ولو كان تدريجيًّا؛ فهما السّياجان اللَّذان يُحيطانِ بالإيمانِ ويُحافظانِ عليه(2)، وللدّلالة على مدح المؤمنين والمؤمنات في العمل على حفظ المجتمع من السُّوء، وهذا دليل على الدَّور العمليِّ الذي يقوم به أهل الإيمان.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/179، وابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم: 6/1831، كلاهما عن أبي العالية، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/58.

(2) الزُّهيريّ، شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة للّالكائي: 22/24.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾وغيرها:

أثر تجدُّد معاني هـذه الأفعـال واسـتـمـرارها بـين المؤمنـينَ والمؤمناتِ

اصطفى بيانُ اللّهِ الأفعالَ المضارعةَ ﴿يَأۡمُرُونَ﴾، و﴿وَيَنۡهَوۡنَ﴾ والأفعالَ المعطوفةَ عليها؛ لأنَّها تفيدُ التَّجدُّدَ والتَّكرارَ والاسْتمرار، وهذه كلُّها تُجلِّي حالَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، فهم يَدأَبون على الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المنكرِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاة، هذا همُّهم وهذا شُغلُهُمُ الشّاغل، وحياتُهم قائمةٌ على أمرِ اللّهِ في كلِّ شيء، كما قالَ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾ [الأنعام: 162 - 163]، وهذا يعني أنّ مسألة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر خصوصًا لها دور رئيس في حماية المجتمع كلَّما جدَّ ما يدعو لذلك قاموا به على الوجه الأكمل، وفي هذا حفظ للدِّين من التَّحريف والتَّبديل، وأمَّا بقية ما ذُكر بعدهما فهو مبنيّ على التَّجدُّد والاستمرار في ذاته وقد يتعدَّى لغيره.

دلالة (أل) في ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ و﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

المعروفُ والمنكَرُ يـشـمـلان كـلَّ أوامـر الـشّـارع ونواهيه

دلّت (أل) في ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ و﴿ٱلۡمُنكَرِ﴾ وما عُطِفَ عليهما على الاستغراقِ الَّذي يُفيدُ العمومَ بحَسَبِ ما ينتهي إليه العِلمُ والمقدرة، فيشبهُ الاسْتغراقَ العُرفيّ[1]، فالمعروفُ يشملُ كلَّ ما أمرَ به الشّارع، والمنكَرُ يشملُ كلَّ ما نَهى عنه الشّارع، وبابُ الأمرِ والنَّهي فيهما لا يَختصّانِ بجانبٍ واحدٍ من الحياة؛ بل يَعُمّانِ جوانبَ الحياة جميعَها[2].

الاسْتغراق يُفيدُ عُموم الصَّلواتِ الـمـفـروضـةِ، ومصارف الزّكاة

و(أل) في الصَّلاةِ والزَّكاةِ لاستغراق الصَّلواتِ المفروضةِ والمسنونةِ والتَّطوُّع، والزَّكاةُ بمصارفِها وزكاةِ الفريضةِ والفِطْرِ والصَّدقاتِ باعتبارِ أنَّ فيها تزكيةً للمالِ بالمعنَى العام، ويكون المُراد

(1) ابن عاشور، التَّنوير والتَّحرير: 4/40.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 7/105، والعمريّ، الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ص: 52، وأحمد الزّهرانيّ، التَّفسير الموضوعيّ للقرآن الكريم، ص: 116.

الصَّلاةُ المعهودةُ بأركانِها وشُروطِها وهيئاتِها وسُنَنِها، والزَّكاةُ المعهودةُ بمصارفِها وشروطِها ونِصابِها.

معنَى (الباء) في لفظ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، من الآية الكريمة:

أفعالُ أهلِ الإيمان مقترنة بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ للمُلابَسة، وهذا يعني أن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر مُلابِسانِ لأهل الإيمان لا ينفكّانِ عنهم؛ فهم يأمرونَ النّاسَ بما عليه الشَّرعُ الحنيف، وما تعرفه العقولُ السّالمةُ المجرَّدةُ من الانْحيازِ إلى الأهواءِ أوِ العاداتِ أوِ التَّعاليم الضّالَّة، وذلك هو الحُسْنُ المعروف، وإذا قلنا: الشّرع، فهذا يعني: ما جاءَ به الشَّرعُ نصًّا أو قياسًا أو اقتضَته المقاصدُ الشَّرعيَّةُ أو المصلحةُ العامَّةُ الَّتي ليس في الشَّرعِ ما يُعارضُها[1].

علَّةُ التَّعبير عن أداءِ الصَّلاةِ بالإقامة:

صفة المؤمن الحقّ، كمال أداء الصَّلاة في الظَّاهر والباطن

جاءَ التَّعبيرُ عن أداءِ الصَّلاةِ بالإقامةِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لبيانِ الصِّفةِ المترسِّخةِ في المؤمنينَ والمؤمناتِ من أنَّهم يؤدّون الصَّلاة على صفةٍ تقتضي قيامَها بجميعِ أركانِها وشروطِها وحدودِها مراقبةً لربِّهم واسْتعانةً بذلك على جميعِ ما ينوبُهم، وفي هذا التَّعبيرِ كذلكَ تنويهٌ وتنبيهٌ على ضرورةِ إقامةِ الصَّلاةِ على تلكَ الشّاكلةِ لعموم المؤمنينَ والمؤمناتِ ممَّن يُقصِّرونَ في أدائها على الوجهِ المطلوب[2].

فائدة التَّنصيص على إقامة الصَّلاة والزَّكاة:

علاج المجتمع من الهموم والآفات، بما في العبادة من تجلّيات

نصّ القرآن الكريم على إقامة الصَّلاة والزَّكاة بعد الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وذلك لما لهم من أساسٍ في تحقيقهما في المجتمع؛ فالصَّلاة والزَّكاة علاجٌ لما في جِبلّة الإنسان من الهلع والجُبن الحاجِم له عن الإقدام في الدِّفاع عن الحقِّ وإعلاء كلمة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/643.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/544.

اللّه ومن الشُّحِّ الصّادِّ له عن الإنفاق في سبيل اللّه، ولذلك كان المنافقون أجبنَ النَّاس وأبخلهم.

سِرُّ تخصيص هذه الصِّفات بالذِّكر دون غيرها:

الصّفات الأربع عون للمؤمنين، على التزام الشّرع المستبين

اختار القرآن هذه الصِّفات الأربع؛ لأنَّها كانت عونًا للمؤمنين في الإذن لهم بقتال مَنْ يُقاتلونهم ويُعادونهم في الدِّين وسببًا لنَصْرهم وتَمكينهم في الأرض بالمُلك والسِّيادة، يؤكِّد ذلك ما قاله اللّه تعالى في الإذن لهم بالقتال بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: 41] فبهذه الصِّفات فتح المسلمون الفتوحاتِ ودانت لهم الأمم[1].

علّة استحضار الطَّاعة، بعد ذِكْر الفرائض السَّابقة:

المؤمنون مُقبِلون على ربِّهم مُطيعون لأوامره

جاء التَّعبير بقوله تعالى: ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ بعد ما سبق من الفرائض؛ لتشمل النَّوافل والمندوبات، وللدَّلالة على أنَّهم يؤدُّون هذه الفرائض بحبٍّ ورضا؛ فقلوبهم مطيعةٌ قبل جوارحهم يُنفِّذون أوامر اللّه ونواهيه دون تلكُّؤ أو تمَلمُل.

دلالة الفَصلِ في الجملة المصدّرة بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

مَنْ تحقَّقتْ فيهمُ الصِّفاتُ الواردةُ، فهم أهلٌ لرحمةِ اللهِ بهم

فَصَلَ البيان القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ عمّا سبقه، إشارةً إلى مكانةِ تلكَ الصِّفاتِ الفاضلةِ الَّتي تحلَّى بها المؤمنونَ والمؤمناتُ، ولبيانِ أنَّ تحقُّقَهم بتلكَ الصِّفاتِ يستدعي إحاطتَهم برحمةِ اللّهِ الغامرةِ وتأييدَهم بنُصرته ونِعَمه الوافرة.

دلالة التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ على البعيد:

إلماح السّياق إلى علوِّ درجةِ المؤمنينَ والمؤمناتِ، بصفاتِهم في الفَضْل

في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ اسْتخدمَ البيان القرآنيُّ الإشارةَ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للبعيد؛ وذلكَ لأنَّ معنَى البُعدِ فيه للإشعارِ ببُعدِ درجتِهم في الفضلِ وعُلوِّها في المنزلةِ بما اتَّصفوا به من الصِّفاتِ الجليلةِ الحميدة[2].

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/472.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575.

نكتةُ دخولِ (السِّينِ)، على الفعلِ ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ﴾:

صُدِّرَ فعلُ الرَّحمةِ بالسِّين في قولِه تعالى: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ لتأكيدِ حُصولِ الرَّحمةِ ووقوعِها في المستقبلِ لا مَحالة، فحرفُ الاسْتقبالِ يدلُّ على تخليص المضارع للاستقبال، ولمّا كانت الرَّحمة هنا عبارة عمّا يترتَّب على تلك الأعمال الصَّالحة من الثَّواب والعقاب في الآخرة؛ أتى بالسِّين الّتي تدلُّ على استقبال الفعل، وهي تفيدُ مَعَ المضارعِ ما تُفيدُ (قد) مع الماضي من التَّحقُّق، كقولِه تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضُّحى: 5]؛ فهي رحمةٌ خاصَّة، وهي ما خبَّأه اللّهُ لهم في الآخرة[1].

تأكيدُ وقوعِ الرَّحمةِ تفضُّلًا من الله العليّ الأعلى

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارعةِ في ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ﴾:

كما هو المعهودُ في الفعلِ المضارعِ في أنَّه يفيدُ التَّجدُّدَ والاسْتمرار، فكذلكَ هنا ما يُفيدُه الفعلُ ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ﴾ من تجدُّدِ واسْتمرارِ الرَّحمةِ بهم من اللّهِ تعالى، وهذه الرَّحمةُ حاصلةٌ في الدُّنيا، وذلك بتآزرهم وتوادِّهم ومظلِّلةٌ لهم في الآخرة.

رحمة الله بالمؤمنين والمؤمنات، متجدّدة دوما، ولا تنقطع

سِرُّ التَّعبيرِ بالرَّحمة دون المغفرة:

آثر القرآنُ التَّعبير بالرَّحمة في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾؛ لأنَّ الرّحمة أخصُّ من المغفرة، فكلُّ رحمة من اللّه تتضمَّن المغفرة، ولأنَّ المقام هنا مع الرَّاسخين والرَّاسخات في صفة الإيمان فناسب الإيمان أن يتنزّل عليهم بالرَّحمة، ولأنَّ المغفرة تَخْلية والرَّحمة تَحْلية، فناسَب هنا مقام التَّحلية.

الرَّحمة تُناسب وصف الإيمان

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾، في سِياق الرّحمة:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾، عبّر القرآن الكريم بلفظ الجلالة في للدّلالة على عظمة هذه الرَّحمة وجلالها في تحقُّقها في

لا يردّ عطاءَ الله أو يمنعه مانعٌ، فكلّ شيء بأمره وتدبيره

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/58، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/71، والسَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 6/85، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/263.

الدُّنيا والآخرة، وفي هذا طمأنةٌ للمؤمنين والمؤمنات بأنَّ عطاء اللّه لا يمنعه مانعٌ ولا يُعارضه مُعارضٌ؛ لأنَّه صاحب العطاء.

بلاغةُ فَصْلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

نُصرة اللهِ لأوليائه على أهل الكفر والنِّفاق، وعد لا يتخلّف أبدًا

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تَذْييلا قُصِدَ منه خَتْمُ الآيةِ بما يُشيرُ إلى أنَّ الَّذينَ يُوالونَ اللّهَ وحِزبَه لا يزالونَ منصورينَ على كلِّ مُفْسِدٍ ظالمٍ مُتكبِّرٍ ما داموا على هذه الخِلالِ من الموالاةِ وما معها من حميدِ الخصال، حكيمٌ في أفعالِه وأحكامِه لا يقدِرُ أحدٌ على نَقْضِ ما يُحكِمُه، ويَحْكُمُ به، وحلِّ ما يُبرِمُه[1].

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ، في فاصلةِ الآية:

مهابتُه تعالى، نابعة من جلال عزّته، وكمال حكمته

أفادَ إظهارُ الاسْمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دون أن يُذكَرَ بالضَّميرِ الَّذي يعودُ إليه؛ لبيانِ أنَّ الموالاةَ فقيرةٌ إلى الإعانة، ولا أحدَ قادرٌ عل على إعانةِ أوليائه إلّا اللّهُ ﷻ، وهي تفيدُ المبالغةَ في إحاطةِ اللّهِ الكاملةِ بكلِّ شيءٍ، فهو غالبٌ غيرُ مغلوب، قادرٌ على نَصْرِ مَنْ يُواليه، وفي إظهارِ لفظِ الجلالةِ ما فيه من المهابةِ، والَّذي يُضْفي على سياقِ الآيةِ جَلالَ عزَّتِه وكمالَ حكمتِه ﷻ[2].

نكتةُ التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ والاسْميَّةِ في الفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

تأكيدُ عزَّةِ اللهِ وحكمتِه ﷻ

حرفُ ﴿إِنَّ﴾ يفيدُ تأكيدَ ما يدخُلُ عليه، وخاصَّةً أنَّه - هنا - قد أُخبرَ عن لفظِ الجلالةِ باسْمَيْنِ جليلَيْنِ من أسمائِه الحُسْنَى ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ فاجتمعَ مؤكِّدان: الأوَّلُ: ﴿إِنَّ﴾، والثّاني: الجملةُ الاسْميَّةُ الَّتي تفيدُ التَّأكيدَ والثَّباتَ لعزَّتِه وحِكْمتِه؛ لأنَّ العزيز هو الذي لا يُمنع من مُراده في عباده من رحمة أو عقوبة، والحكيم هو المُدبِّر أمر عباده على ما تقتضيه الحكمة[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.
(3) ابن عادل، اللُّباب: 10/144.

فائدةُ التَّذييلِ باسْمَيْنِ جليلَيْن، هما ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾:

تعليلٌ لوعدِ اللهِ برحمتِه لأوليائه، ووعيدِهِ لأعدائه

قولُه تعالى في خاتمةِ الآية: بذِكْرِ هذَيْن الاسْمَيْن الجليلَيْن العظيمَيْن تعليلٌ لجملةِ ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ تعليلٌ للوَعد، أي: قويٌّ قادرٌ على إعزازِ أوليائِه وقهرِ أعدائِه، حكيمٌ يبني أحكامَه على أساسِ الحكمةِ الدَّاعيةِ إلى إيصالِ الحقوقِ من النِّعمةِ والنَّقمةِ إلى مُستحقِّيها من أهلِ الطّاعةِ وأهلِ المعصية، وهذا وعدٌ للمؤمنينَ مُتضمِّنٌ لوعيدِ المنافقين(1).

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التّوبة: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمّا أعقب المنافقين والمنافقات فيما سبق بذكر عقابهم بنار جهنَّم، أعقب المؤمنين والمؤمنات بذِكْر ما وعدهم من نعيم الجنَّات؛ فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

العلاقة بين أوصاف المؤمنين المرضيين، وجزائهم بالجنّات والرّضوان

وأيضًا لمَّا ذكر صفات المؤمنين والمؤمنات ورحمته لهم بالإجمال بيَّن ما وعدهم في هذه الآية من الجزاء المُفصَّل برحمته في مقابلة ما أوعد به المنافقين والكفَّار فيما سبق[1].

ومنها لمَّا ختمَ البيانُ القرآنيُّ الآيَةَ السّابقةَ بوصفِ العزَّةِ والحكمةِ المناسبِ لافْتتاحِها بالموالاةِ وتعقيبِها بآيةِ الجهاد، وذلكَ بعدَ الوعدِ بالرَّحمةِ إجمالًا، أتبعَها بما هو أشدُّ التئامًا بها بيانًا للرَّحمةِ وتفصيلًا لها، ترغيبًا للمؤمنينَ بالإنعام عليهم بكلِّ ما رامَهُ المنافقونَ بنفاقِهم في الحياةِ الدُّنيا، وزادَهم بأَنَّه دائم، وأخبرَ بأنَّ ذلكَ هو الفوزُ لا غيره، وأيُّ فوزٍ أعظمُ وأَمتعُ من جنّاتِ الإقامةِ الدّائمةِ وفوقها وأعلى منها ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلا يسخطُ عليهم بعدَه أبدًا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾: السُّكونُ: ثبوتُ الشَّيء بعد تحرُّك، ويُستعمَلُ في الاسْتيطان، نحو: سكنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: اسْتوطنَه، واسْمُ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/423.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

المكان: مَسْكن، والجمعُ: مساكن، قالَ تعالى: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: 25]، ويُقالُ: سَكَنْتُه، وأَسْكنتُه، قالَ تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37][1]. ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي: قصورًا ومنازلَ طيِّبةَ القَرار[2].

2) ﴿طَيِّبَةً﴾: طابَ الشَّيءُ يطيبُ طَيْبًا، فهو طيِّبٌ، والطّيبُ: ضدُّ الخَبيث، قالَ تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النِّساء: 3]، وأصلُ الطَّيِّب: ما تستلذُّه الحواسّ، وما تستلذُّه النَّفس، قالَ تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: 172]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾، أي: طاهرةً زكيَّةً مُستلذَّة[3].

3) ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾: الجنَّةُ: كلُّ بستانٍ ذي شجَرٍ يسترُ بأشجارِه الأرض، وتُسمَّى الأشجارُ السّاترةُ: جَنَّة[4]. وعَدَنَ بمكانٍ كذا: استقرَّ وأقامَ به، ومنه المَعْدِنُ: لمستقرِّ الجواهر[5]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾، أي: اسْتقرارٍ وثباتٍ وإقامةٍ دائمة[6].

4) ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾: الفَوْزُ: الظَّفَرُ بالخيرِ مع حصولِ السَّلامة، يقالُ: فازَ يفوز، إذا نَجا، وهو فائز، وفازَ بالأمر، إذا ذهبَ به وخلص، ويُقالُ لمن ظَفَرَ بخيرٍ وذهبَ به، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185][7]، ومنه قولُه تعالى - هنا -: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي: دونَه كلُّ فَوْزٍ ممّا يعدُّه النّاسُ فَوْزًا[8].

المَعْنى الإجْماليّ:

يُخبرُ اللّهُ تعالى في هذه الآية بما أعدَّه للمؤمنينَ والمؤمناتِ من الخيراتِ والنَّعيمِ المقيم في جناتٍ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها، ومساكنَ حَسَنةَ البناءِ طيِّبةَ القَرار،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 417، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/337.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 3/435، والرّاغب، المفردات، ص: 527.
(4) الرّاغب، المفردات، ص: 204، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (جنن).
(5) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/263 - 264.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 10/179، والرّاغب، المفردات، ص: 553، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (عدن).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: 4/459، والرّاغب، المفردات، ص: 647.
(8) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/542.

ورِضَا اللّهِ عنهم أكبرُ وأجلُّ وأعظمُ ممّا هم فيه من النَّعيم، وذلكَ هو الفوزُ الَّذي لا يُضاهيه فوزٌ ويَقصُرُ عنه أيُّ فَوْزٍ(1).

ما أعدَّه الله لعباده في الجنَّة، يُبْهِرُ العقول، ويبلغ المؤمن به منتهى السُّول

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ فصلِ هذه الآيةِ عن سابقتِها:

جملةُ قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ اسْتئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [التَّوبة: 71] وفي هذا الاستئنافِ نشوءُ وعدٍ عن وعدٍ سابقٍ مؤكِّدٍ لمكانةِ المؤمنينَ والمؤمناتِ ورفيعِ منزلتِهم عندَ اللّهِ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ(2).

تأكيدُ وعدِ اللهِ للمؤمنينَ والمؤمنات، بعُلُوِّ منزلتهم

بلاغةُ التَّقابُلِ بين صفات المؤمنين وصفات المنافقين:

جاءَ قولُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ الآية، في مقابَلةِ قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ﴾ [التوبة: 68]، وذلكَ ترغيبًا للمؤمنينَ بكلِّ ما رامَه المنافقونَ بنفاقِهم في الحياةِ الدُّنيا، وبما سيكونُ عليه مآلُهم وحالُهم في نارِ جهنَّمَ خالدينَ فيها ولهم فيها عذابٌ مقيمٌ، في حين جاءَ الوعدُ بالرَّحمةِ بما هو أشدُّ التئامًا بها بيانًا لتلكَ الرَّحمةِ وتفصيلًا له وتحفيزًا للمؤمنينَ والمؤمناتِ ليكونوا من أهلِ هذه الرَّحمة المستحقّينَ لها الحائزينَ على نعيمِها الدَّائم(3).

ترغيبُ المؤمنينَ في رحمةِ اللهِ، وتنفيرُهم من مسالكِ النّفاق

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿وَعَدَ﴾، في السّياق:

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالوعد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ حثًّا لهم في الالتزام بأوامر اللّه ونواهيه حتى تتحقَّق لهم الرَّحمة الّتي وُعِدوا بها والنَّعيم كما ذكرته الآية.

تحفيز السَّامع على بذل الجهد، لنيل الخير الثّمير، والمقام الأثير

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/336 - 337.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/263.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَعَدَ﴾:

تأكيدُ تحقُّقِ الوعدِ للمؤمنينَ والمؤمناتِ، بدخولِ الجنَّاتِ

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بالفعلِ الماضي ﴿وَعَدَ﴾، إمّا لأنَّه إخبارٌ عن وَعْدٍ تقدَّمَ في آيِ القرآن، قُصِدَ منه الإخبارُ والتَّذكيرُ به لتحقيقِه، وإمّا أن يكونَ قد صيغَ هذا الوعدُ بلفظِ المُضيِّ على طريقةِ صيَغِ العقود، مِثل: (بِعتُ، تصدَّقتُ) لكونِ تلكَ الصّيغةِ معهودةً في الالتزامِ الَّذي لا يتخلَّف. والأمرانِ كلاهما سائغانِ علَّةً للتَّعبيرِ بالفعلِ الماضي في ﴿وَعَدَ﴾، والنَّتيجةُ فيهما واحدةٌ وهي تحقُّقُ وَعْدِ اللّه، ووعدُ اللّهِ تعالى لا يتخلَّف[1].

دلالةُ إسناد الوعد للفظ الجلالة في السّياق:

عظمةُ الوعدِ وعلوُّ قدْره، بنسبته إلى من لا يخلف الميعاد

أُسْنِد الوعدُ في قوله سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ إلى لفظ الجلالة لتأكيد عظمته؛ لأنَّه جاء من العظيم سبحانه، وأنَّه واقعٌ لا محالة لعدم تعرُّضِه للموانع الّتي تعتري فعل البشر لعجز أو لضعف، أمَّا وعد اللّه فلا يتخلَّف لقدرته وعزَّته.

دلالة التَّعبير بالاسميَّة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾:

رسوخ صفة الإيمان فيهم، تكرمة وعلوّ

جاء التَّعبير القرآنيُّ بالجملة الاسميَّة ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ دون الفعليَّة لما تحمله من كمال الإيمان ورسوخه في قلوبهم، وثباتهم عليه. وهذا هو المناسب لهذا النَّعيم الَّذي أعدَّه اللّه لهم، أمَّا التَّعبير بـ (الذين آمنوا) فإنه يدلّ على مَنْ اتّصف بالإيمان ولو كان إيمانه قليلًا.

علّة الإظهارِ في مَوْضعِ الإضمارِ:

زيادةُ التَّقريرِ بعليَّةِ وصفِ الإيمانِ، لحصول متعلَّقِ الوعد

جاءَ بيانُ اللّهِ بذكرِ المؤمنينَ والمؤمنات، وكانَ يمكنُ أنْ يُقال: (وعدَهمُ اللّهُ)، فجاءَ الإظهارُ في مقامِ الإضْمار، لتقريرِهم في ذهنِ السّامعِ؛ ليتمكَّنَ تعلُّقُ الفعلِ بهم فَضْلَ تمكُّنٍ في ذهنِ السّامع، وليعلمَ مكانةَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ومقامَهم عندَ اللّهِ تعالى،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

وفي ذلك زيادةُ التَّقريرِ والإشعارُ بعليَّةِ وصفِ الإيمانِ لحصولِ ما تعلَّقَ به الوعد[1].

دلالة جمع والتنكير ﴿جَنَّٰتٍ﴾:

كثرة الجنان على حسب استحقاق العاملين

جاء التَّعبير القرآنيُّ بصيغة الجمع لكلمةِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ نكرةً لتُفيدَ عمومَ الجنّات، فهي مُشتملةٌ على جنانٍ كثيرةٍ مُرتَّبةً على حَسَب اسْتحقاقاتِ العاملينَ، لكلِّ طبقةٍ منهم جنّاتٌ من تلك الجِنان[2]، فهي ليستْ جنَّةً واحدة، وإنَّما هي جنّاتٌ: جنَّةُ الفِرْدوس، وجنَّةُ عَدَن، وجنَّةُ النَّعيم، وجنَّةُ دارِ الخُلْد، وجنَّةُ المأوَى، وجنَّةُ دارِ السَّلام، وجنَّة علّيين[3].

بلاغة المجاز في إسناد الجري إلى الأنهار:

جريان النّهر صورة جميلة، تبين المتعة بالجزاء، في قمّة العطاء

أُسنِد الجري إلى الأنهار، في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، مع أنَّ الّذي يجري في الحقيقة هو الماء؛ لأنَّ النَّاظر إلى الماء، وهو يجري لا يرى النَّهر، ولكن يرى الماء، ولذلك اختفى النَّهر في جريان الماء، وأصبح النَّاظر لا يرى غير الماء، وهذا الإسناد من باب المجاز.

فائدةُ وصفِ الجنّات، بجريان الأنهار:

دوامُ خُضرة الجنّات، تأمين لدوام المتعة بها

في قولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ كنايةٌ عن دوامِ خُضرتِها، وبَهجتُها نَضرةٌ تسُرُّ أهلَها وسُكّانَها تمامَ السُّرور وغايةَ الحُبور[4].

فائدةُ الفعل المضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾:

جريانُ الأنهارِ من تحتِ الجنّاتِ، دائمٌ لا ينقطع

دلَّ استعمال البيانِ الإلهيِّ للفعلِ المضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾ على دوامِ واسْتمرارِ جريانِ الأنهارِ من تحتِ الجنّات، وهذا يدلُّ على تمامِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/575، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/257.
(3) الرّاغب، المفردات، ص: 204.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545.

النَّعيمِ ودوامِه؛ فالنَّفس لا تَملُّ ولا تسأم من رؤية الأنهار؛ لأنَّ المتعة فيها متجدِّدةٌ، وفيها إشارةٌ علميةٌ إلى أنَّ الجري للأنهار العذبة يحافِظ عليها من التَّعَفُّن.

معنَى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

من صور مُتعة الرَّائي استحضارُ صورة جَرْي الأنهار

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ ابْتدائيَّة، فهي إمّا من تحت أشجارِها وإمّا من تحتِ عليّاتِها، وإمّا من تحتِها بالإضافة إلى مبدأ، أي: مَبْدئِها، كما تقولُ في دارَيْنِ متجاورتَيْنِ متساويتي المكان: هذه تحت هذه، وفيها إشارة إلى تصوير حالة الرَّائي بمُتعته في استحضار صورة جَرْي الأنهار، ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِن﴾ بيانيَّةً، أي: بيانَ وجودِ هذه الأنهار[1].

دلالة الضَّمير في: ﴿تَحۡتِهَا﴾:

تصوير الجنّات تقريبيّ، وحقيقتها مالا يخطر على بال

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿تَحۡتِهَا﴾ على الجنّات أي: تجري الأنهارُ من تحتِ الجنّات، وذلكَ باعْتبارِ مجموعِها المشتَمِلِ على الأشجارِ والأرضِ النَّابتةِ فيها، ويجوزُ عَوْدُ الضَّميرِ إلى الجنَّاتِ باعْتبارِ الأشجار؛ ولأنَّها أهَمُّ ما في الجنَّات[2].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

إرادةُ جميع أنهارِ الجنَّة، تشويقٌ لنعيمها اللّامحدود

في تعريفِ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بـ (أل) إفادةُ إرادةِ الجِنْس، كما تقولُ: لفلانٍ بستانٌ فيه الماءُ الجاري والتِّينُ والعِنَبُ وألوانُ الفواكه، تُشيرُ إلى الأجناس الَّتي في علم المخاطَب، أو يرادُ: أنهارُها، فعوَّضَ التَّعريفَ باللّامِ من تعريفِ الإضافةِ كقولِه تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: 4].

أو يُشارُ باللّامِ إلى الأنهارِ المذكورةِ في قولِه تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 3/58.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/354.

﴿مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٖ وَأَنْهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ [محمّد ﷺ: 15][1]؛ فتكونُ اللّامُ لامَ التَّعريفِ العَهديّ، أي: ما عُهِدَ من أنهارِ الجنَّةِ المذكورة، ويمكنُ أنْ يكونَ الدّاعي إلى التَّعريفِ هو التَّفنُّن؛ لئلّا يُعادَ التَّنكيرُ مرَّةً ثانيةً، فَخولِفَ بينَهما في اللَّفظِ اقْتناعًا بسُورَةِ التَّعريف[2].

فائدةُ ذِكْرِ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

نعيمُ أهلِ الجنَّةِ لا يكمُلُ إلّا بدوامِه

لَمَّا كانَ النَّعيمُ لا يكمُلُ إلّا بالدَّوام، قالَ ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ تطمينًا لأهلِ الجنَّةِ ونُزلائها بأنَّ هذا النَّعيمَ الَّذي أقامَهم اللّهُ فيه هو نعيمٌ موصولٌ لا يَنفصِل، ودائمٌ لا يَنقطِع، وذلكَ تفريقًا بين نعيم الدُّنيا ونعيم الآخرة؛ لأنَّ نعيم الدُّنيا مُعرَّضٌ للانقطاع؛ لذلك كانَ موقِعُ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالًا من ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لأصحاب الجنَّة، مُعبِّرًا عن إقامتِهمُ الدّائمةِ فيها، لا كَرْبَ فيها ولا تَنْغيصَ من أحد[3].

عَوْدُ الضَّمائرِ في: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾:

المؤمنونَ والمؤمناتُ، يُتمُّ اللهُ عليهم النّعمةَ بالخلودِ في الجنّات

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ إلى المؤمنينَ والمؤمنات، ويعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿فِيهَا﴾ إلى الجنّات، أي: المؤمنونَ والمؤمناتُ خالدون في جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار.

معنَى الظَّرفيَّة (في)، في هذا الموضع:

الظَّرفيَّة مكانيَّةٌ، وهي داخلَ الجنّات

أفادَ حرفُ (في) معنَى الظَّرفيَّةِ المكانيَّة، بدليلِ ما تَقدَّمَه من ذكرِ الموضعِ وهو: ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، وهذا دليلٌ على تمكُّنهم من النَّعيم وتمكُّن النَّعيم منهم كتَمَكُّنِ الظَّرف في المظروف.

فائدةُ عَطْفِ جملة ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾، على الجنَّات:

عطفَ بيانُ اللّهِ قولَه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ على

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/259.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/355.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/545، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/134.

في الجنّات قصورٌ ومساكنُ طيِّبة، تزيد في المتعة بالجنّة

قولِه: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ للمؤمنينَ والمؤمناتِ في الجنّاتِ قصورًا ومساكنَ طيِّبةً[1]، وفي هذا إشارة إلى أنَّ هذا العطف يُفيد أنَّ ذِكْر الجنَّات بما فيها من جَرْيِ الأنهار والخضرة للرفاهيَّة، أمَّا المساكن فتأتي للخصوصيَّة؛ فكأنَّ الآية تشير إلى أنَّ المؤمن له في الجنَّة مكان رفاهيَّة، ومكان سكنٍ خاصٍّ يأوي إليه.

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾، وجمعِها:

الدَّلالةُ على عمومِ وتنوُّعِ المساكن، في جنّات الله العامرة

جاءَ التَّنكيرُ والجمعُ في ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾ للدَّلالةِ على عُمومِها وكثرتِها وتنوُّعِها؛ فهي قصورٌ ومنازلُ ودورٌ من اللُّؤلؤِ والزَّبرجَدِ والياقوتِ الأحمر[2].

فائدةُ وصفِ المساكنِ بأنَّها طيِّبةٌ:

مساكنُ الجنَّة تستطيبُها النُّفوس، ليس فيها خُبثٌ ولا نَجَسٌ

وصفَ بيانُ اللّهِ مساكنَ الجنَّةِ بأنَّها طيِّبةٌ فقالَ تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ للدَّلالةِ على أنَّ منازلَها تستطيبُها النُّفوس، ويَطيبُ فيها العيش، وليس فيها شيءٌ من خُبْثِ المساكنِ من الأوْساخ وآثارِ علاجِ الطَّبخِ ونحوِه، نَظير قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ [البقرة: 25][3].

دلالة إعادة ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾:

التَّفنُّنُ بالتَّعبيرِ والتَّنويهِ بالجنَّات، وبيانُ شأنِها العظيم

ذَكرَ بيانُ اللّهِ ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ بهذا اللَّفظِ من الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ إذْ تقدَّمَ ذِكرُها من قبلُ مع التَّفنُّنِ في التَّعبيرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/464.

(2) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وورد في حديث رسولِ اللهِ ﷺ ما يدلُّ على ذلك بما رواه أبو هريرة وعمرانُ بن حُصَين عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهما قالا: سألنا رسولَ الله ﷺ عن ذلك، أي: عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ [التوبة: 72] فقال ﷺ: «قصرٌ في الجنَّة من لؤلؤةٍ فيه سبعون دارًا من ياقوتةٍ حمراء، في كلِّ دارٍ سبعون بيتًا من زُبُرْجُدَةٍ خضراء، في كلِّ بيتٍ سبعون سريرًا، على كلِّ سريرٍ سبعون فراشًا من كلِّ لونٍ...» الحديث، أخرجه ابن المبارك في الزُّهد، ص: 550، والطَّبرانيّ في المعجم الكبير: 18/160، الحديث رقم: (353)، وأورده المنذريّ في التَّرغيب والتَّرهيب: 4/285، وقال الهيثميّ في مجمع الزَّوائد: 7/31، وفيه جسر بن فرقد، وهو ضعيف، وقد وثَّقه سعيد بن عامر، وبقيَّةُ رجال الطَّبرانيِّ ثقات.

(3) أبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

والتَّنويهِ بالجنّات، وزيادةِ الاهْتمامِ بها لشأنِها العظيمِ ومُقامِها الكريم، ولذلك لم يَقُل: (ومساكنَ طيِّبةً فيها)[1].

نكتةُ إضافةِ الجنّاتِ إلى ﴿عَدۡنٍۚ﴾:

الجنّات خُلودٌ دائمٌ لا ينقطع، ونعمة مستقرّة لا تنتهي

أضافَ بيانُ اللّهِ الجنّاتِ إلى ﴿عَدۡنٍۚ﴾ فقالَ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾. وهذه الإضافةُ تدلُّ على أنَّ هذه الجنّاتِ هي دارُ الخُلدِ والاسْتقرارِ المستمرِّ مع صحَّةِ البدن وطيبِ المَقرِّ والموطنِ والمَنبت[2].

فائدةُ العطفِ في قولِه تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ﴾:

الجمع بين الحُسْنَيَيْن، من إغداق المنعم على أهل الجنّة

عطفَ بيانُ اللّهِ تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ على قولِه تعالى في صدرِ الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾؛ لبيان أنَّه كما وعدَ اللّهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار، كذلك وعدَهم رضوانًا منه ﷻ، فهو وعدٌ بوعدَيْن[3].

نكتةُ العُدولِ الإعرابيِّ في لفظ ﴿وَرِضۡوَٰنٌ﴾:

الرِّضوان قُصارَى ما ترقَى إليه آمالُ النُّفوس

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ﴾ بالرَّفعِ وحقُّه النَّصب؛ لأنَّه معطوفٌ على ﴿جَنَّٰتِ﴾ الَّذي هو مفعولٌ به مبتدأ، وساغَ الابْتداءُ به؛ لأنَّه وُصِفَ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَكۡبَرُۚ﴾: خبرُه، ولم يَسلُكه في نظامِ الموعودِ به؛ لأنَّه متحقِّقٌ في ضمنِ كلِّ موعودٍ، ولأنَّه قُصارَى ما ترقَى إليه آمالُ النُّفوس[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿وَرِضۡوَٰنٌ﴾:

تعظيمُ رِضوانِ اللهِ، من حيث أنّه الرّضوان على الحقيقة

تنكيرُ قولِه تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٌ﴾ للتَّنويع، يدُلُّ على جِنْسِ الرِّضوان، وإنَّما لم يُقْرَنْ بلام تعريفِ الجِنْسِ ليُتَوسَّلَ بالتَّنكيرِ إلى الإشعارِ بالتَّعظيم، فإنَّ رضوانَ اللّهِ تعالى عظيم[5].

---

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/134.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/264.

إنَّ شيئًا يسيرًا من رضوانٍ، أكبرُ من نعيم الجِنان كلّه

دلالة ﴿مِّنَ﴾ في: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيَّةٌ بيانيَّةٌ، فمبدأُ الرِّضوانِ من اللّهِ، وبيانٌ أنَّ شيئًا يسيرًا من رضوانٍ أكبرُ من ذلك كلِّه؛ لأنَّ رضاهُ تعالى هو سببُ كلِّ فَوْزٍ وسعادة؛ ولأنَّهم ينالونَ برضاهُ عنهم تعظيمَه وكرامتَه، والكرامةُ أكبرُ أصنافِ الثّواب، ولأنَّ العبدَ إذا علمَ أنَّ مولاهُ راضٍ عنه، فهو أكبرُ في نفسِه ممّا وراءه من النِّعم، وإنَّما تتهنَّأُ له هذه النِّعمُ برضاهُ ﷻ[1].

المقامُ مقامُ تشريفٍ وتكريم

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ (الله) في موضعِ إضمارِه:

أظهرَ بيانُ اللّهِ لفظَ الجلالةِ الكريمِ (اللّه) بقولِه: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وكانَ يمكنُ إضمارُه فيقولُ: ورضوانٌ منه أكبر؛ وذلكَ لأنَّ المقامَ هنا مَقامُ تشريفٍ وتكريمٍ وتعظيم، واللّهُ ﷻ هو أصلُ الخيرات، ورضوانُه أعظمُ وأكرمُ وأشرفُ مَطْلبٍ ومَنال.

متعلَّقُ (أكبر) ظاهرٌ من المقام، فهو أكبرُ من الجنّات

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿أَكۡبَرُۚ﴾:

قولُه تعالى: ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ تفضيلٌ لم يُذكرْ معه المفضَّلُ عليه لظُهورِه من المَقام، أي: أكبرُ من الجنّات؛ لأنَّ رضوانَ اللّهِ أصلٌ لجميعِ الخيرات، ولا شيءَ من النِّعمِ وإنْ جلَّتْ وعَظُمتْ يماثلُ رِضوانَ اللّه، وفيه دليلٌ جَليٌّ على أنَّ السَّعاداتِ الرّوحانيَّةَ أَعْلَى وأَشْرفُ من الجُثمانيَّة[2].

تقريرُ ما تقدَّمَ في سياقِ الآية، وتأكيدُه

نكتةُ فَصلِ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾:

جاءَ فصلُ: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لتقريرِ ما تقدَّمَه وتأكيدِه

---

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/202، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/577، وأخرج البخاريُّ ومسلم رحمهما الله من حديث أبي سعيد الخدريّ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يقول لأهل الجنَّة: يا أهل الجنَّة، فيقولون: لبَّيكَ ربَّنا وسَعْدَيْك والخيرُ في يَدَيْك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضَى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلْقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: يا ربَّنا وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك؟ قال: أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»، يُنظر: صحيح البخاريّ: الحديث رقم: (7518)، وصحيح مسلم: 9/2829.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/542، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/265.

من أنَّه هو الفوزُ العظيمُ لا غيرُه، والخَتْمُ بهذا التَّقريرِ للتَّشويقِ إلى القيامِ بما يُحقِّقُ هذا الفوزَ العظيم، وفيه ترغيبٌ في الجهادِ المأمورِ به بعدَها؛ لكونِه من أفرادِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر، والدّاعيَ الأَعْظمَ إلى الموالاة، ودخولِ الجنّاتِ والفوزِ بالرِّضوان[1].

دلالة التَّعبير باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تفخيم النَّعيم وتعظيمه، من مقاصد المعنى هنا

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إشارةٌ إلى جميعِ ما ذُكِرَ من الجنّاتِ والمساكنِ وصفاتِهما والرِّضوانِ الإلهيّ، وما فيه من معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ درجتِه في العِظَمِ والفخامة[2]. وعلوِّ مكانتِه، وارتفاعِ درجتِه.

بلاغةُ القَصْرِ في فاصلةِ الآية:

الفَوْزُ العظيم لا فوز بعده

وردَ القَصْرُ في فاصلةِ الآيةِ الكريمةِ بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ وتعريفِ طرفي الجملةِ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾، و(أل) التَّعريف في ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ و﴿ٱلْعَظِيمُ﴾، فكانتْ هذه الأركانُ كلُّها محقِّقةً لمفهومِ القَصْرِ ومعناه؛ وهو قصرٌ حقيقيٌّ باعْتبارِ وَصْفِ الفَوْزِ بعظيم[3]، والمعنى: لا فوز للمؤمنين والمؤمنات أعظم من هذا الفوز.

دلالة وَصْفِ الفَوْزِ بالعظيم:

بيان أنّ الفوز، يقصُرُ أمامَه كلُّ فَوْزٍ ويُسْتَصْغَر

جاءَ وصفُ الفَوْزِ بأنَّه عظيمٌ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لبيانِ أنَّه وحدَه هو الفَوْزُ دون ما يعدُّه النّاسُ فَوْزًا من حظوظِ الدُّنيا الَّتي تُسْتَصغَرُ أمامَه، وتهونُ في كلِّ شيءٍ من أمورِها مُقابلَ عَظَمتِه وجليلِ شَأْنِه[4].

ولمّا كان رضوان اللّه تعالى هو قِمَّة الفوز الَّذي لا فوز غيره ناسبه التَّعبير بقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾؛ بخلاف وصف

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546، وأبو السُّعود، الإرشاد: 2/577.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/265.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/202، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/546.

الفوز بالكبير الَّذي جاء في سورة البروج بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج: 11] فإنَّه جاء مناسبًا لقصَّة أصحاب الأخدود الَّذين حشروا المؤمنين والمؤمنات في حفرة ضيِّقة صغيرة؛ فناسَبَ التَّعبير أن يوسِّع اللّٰه عليهم في الجنَّات بالفوز الكبير مناسبة للحفرة الضَّيِّقة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ٧٣﴾ [التوبة: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأَمْرُ بِصدِّ أهلِ الكُفْرِ والنِّفاقِ عن الاعتداء وزرعِ الشِّقاق

لمّا حفَّز اللهُ سُبحانَهُ المؤمنينَ على موالاةِ بعضِهم بعضًا، وذكر ما أعدَّ لهم من جنَّات ورضوان وفوز، وأقرَّ ذلك في آياته البليغة، في مثل قولِه تعالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ﴾ [التوبة: 71]؛ أعطى للمؤمنين حقَّ الدِّفاعِ عن أنفسهم، ودفْعِ صولةِ من يجتاح بلادهم، أو يمسُّ مقدَّساتهم، أو يعتدي على حرماتهم، على نحو ما تقرُّه مواثيقُ العلاقات الإنسانيَّة، في الجمع بين التَّعايش الإيجابيِّ من جهة، والمحافظة على كيان الأمَّة واحترام قيمها وسيادتها من جهة أخرى، وذلك بالأمر الإلهيِّ، بأن يدفع النَّبيُّ والمؤمنون معه الاعتداءَ الجائر، والاكتساح الغادر، باتِّخاذ ما يلزم من طُرق المجاهدةِ الشَّريفة، والدِّفاع عن الدِّيار، والذَّود عن الغمار، بما يقتضيه ذلك من قوَّةٍ ماديَّة أو معنويَّة، تحفظ للأمَّة هيبتَها، وللدِّين وقارَهُ، دون عدوان ولا هوان، ممَّا يتناسب مع سماحة الإسلام وعزَّتِه، وذلك منهجٌ فريدٌ في حفظ العلاقات، وصدِّ الاعتداءات، بعيدًا عن الظُّلم المشين، وتحسُّبًا للعدوان الجائر المهين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهِدِ﴾: الجيمُ والهاءُ والدَّالُ تَدُلُّ تصريفاتُهُ على المشقَّة[1]، ويأتي بِمَعْنى الطَّاقةِ والوُسْعِ[2]، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرْعِ على استِفْراغِ الوُسعِ في مُدافَعَةِ العَدوِّ، وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).

الظَّاهِرِ، ومُجاهَدَةُ الشَّيطان، ومجاهدةُ النَّفس[1]. وغالبُ مُراداتِ الشَّرع في الجهادِ: أنَّهُ محاربةُ أهل الكفر والعدوان، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لِما فيهِ مِنِ استِفْراغِ ما في الوُسع والطَّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[2]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النُّفوس، ومادَّة (جَهَدَ) حيثما وُجِدت، ففيها معنى المبالغةِ[3]، وهو في الشَّرع: عبارةٌ عن قتال من يمثِّل خطرًا على الأمَّةِ، أو يبادرها باعتداء، أو يضطرُّها لدفع صولته، أو اتِّقاء بأسه، وذلك لنصرة الدِّين، وحماية بيضةِ المسلمين، وفي الحديث: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وَإِذا اسْتُنْفِرْتُمْ؛ فانْفِروا»[4]، والمراد بالنِّيَّة: إخلاصُ العمل للّه تعالى[5]، وقولهم: جاهدَ في سبيل اللّه: جادَ بنفسه، قال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة: 54]، ومجاهدةُ النَّفس: جهادٌ روحيٌّ للنَّفس بفطامِها عن الشَّهوات، والرِّضا بمشيئة اللّه ربِّ الأرض والسَّماوات[6]، والغاية هي إصلاحُ المجتمعات، وردع النَّزوات، وكفُّ الاعتداءات، وتحقيقُ العدل والمساواة، وحمايةُ القيم والمعتقدات.

2) ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾: الغَيْنُ واللَّامُ والظَّاءُ تدلُّ اشْتِقاقاتُها على عِظَمِ الجِرْم وتَجَسُّمِه مَعَ صَلابَة، ويدلُّ لازِمُهُ علَى الشِّدَّةِ والقوَّة[7]. وأَصْلُ الغِلْظَةِ اسْتِعْمالُها في الأَجْسام، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ لِلمَعاني، كقَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التّوبة: 123]، أي: خُشُونَةً[8]، والغِلْظَةُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، هي الشِّدَّةُ البالِغَةُ مَعَ الحِدَّةِ[9]، ونقل ابنُ سيده قولهم: أغلظَ له في القول: خشَّنَ، وهو مجاز، ولا يقال فيه: غَلَّظ[10]، وأغلظ لفلانٍ في القول: خاطبه بعبارات جافَّةٍ وقاسيَةٍ، وغليظٌ جمعُه غلاظٌ، وهو القاسي الشَّديد، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]، فالأصلُ اللِّين وخفضُ الجناح، من رسول الرَّحمة والسَّماح، ولا شدَّةَ إلَّا مع المفسدين، قال الشَّاعر:

---

(1) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (جهد).
(3) شمس الدّين البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 247.
(4) الحديث رواه البخاريّ، برقم: (2783)، وذكر أحمد بن حنبل مطلعه بدون زيادة العبارة آخره، يُنظر: المسند: 17/258.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهد).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جهد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(8) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (غلظ).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غلظ).

وَما هوَ إِلَّا الوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ *** تُميلُ ضُبَاهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مائِلِ
فَهذا دَواءُ الدَّاءِ منْ كُلِّ عالمٍ *** وذاك دَواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جاهِلِ[1]

3) ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾: الهَمْزَةُ والواوُ والياءُ تَدورُ تصريفاتُها على مَعْنَيَيْنِ؛ هُما: التَّجمُّع، والإِشْفاقُ[2]، ومِنَ الأوَّلِ: التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلَى بعضٍ[3].

والمَأْوى: المكانُ الذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[4]، ليلًا أو نهارًا، وقد أوى فلان إلى منزله يأوي أُوِيًّا، على فُعُولٍ، وإواءً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43][5]، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ للأَنْصار: «أُبايعكُم على أَن تُؤْوني وتنصروني»[6]، وَقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، أَيْ: مَساكِنُهُم فيها، يَأْوونَ إِلَيْها، ويَرْجِعونَ يَوْمَ القيامَة[7].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

بَيانُ حُكْمِ المنكرين والمخاتلين في الدُّنْيا، ومآلهِمِ المخزي في الآخِرَةِ

يوجِّهُ السِّياقُ الأمرَ إلى النَّبيِّ الكَريم ﷺ، بأن يحميَ حمى الدِّين، وأن يذبَّ عن أكناف الأمَّةِ، فيواجهَ من يضرُّ بالكيان، ويصدَّ من يريد هدْمَ الأركان، من الكفَرَةِ الجاحدين، وأهل النِّفاق المتآمرين، بكلِّ وسائل الرَّدعِ المتاحة له، بالمواجهة والسِّنان، وبالمحاجَجَةِ والبرهان، ليمنعَ عدوان هؤلاء، ويحصِّنَ الأمَّة من سموم أولئك في حزمٍ زاجر، وخطاب قاهرٍ، يحولُ بينهم وبين ما يسعَون إليه من مفاسدَ ماحقةٍ، أو ضلالات ساحقة، علمًا بأنَّهم سيؤولون إلى مأوًى

(1) البيتان لأبي تمَّام من قصيدته في مدح المعتصم، الدّيوان: 3/79، والتي مطلعها:
غَدا المُلْكُ مَعْمورَ الحِمَى والمنازلِ *** مُنَوَّرَ وَحْفِ الرَّوْضِ عَذْبَ المَناهِلِ
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (أوى).
(4) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (أوا).
(6) الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث والأثر: 1/64.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 14/360.

في الآخرة بئيس، وإلى مصير في النّار تعيسٍ، ليُعذَّبوا فيها أبدًا، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآية عَمّا قَبْلَهَا:

الانتقالُ من بَيانِ ولاية أَهْلِ الإيمانِ إلى التَّحفيز عَلى مدافعة أهل الكفران

فُصِلَ قولُ اللّه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا ابتدائيًّا؛ إذِ المَقْصودُ مِنْهُ الإقبالُ على خطاب النَّبيِّ ﷺ بأَمْرٍ يتعلَّقُ بأحْوال الكفَّار والمنافِقينَ بَعْدَ أَن كانَ الكلامُ عَن ولاية أَهْلِ الإيمان بَعْضِهم بَعْضًا، وما وعدهم اللّهُ تعالَى به من الجَزاء، وقد كان الفصل أيضًا، لعلَّةِ الإشعار بأهمِّيَّة هذه المواجهة بين الكفرِ والفسقِ والنِّفاق من جهةٍ، وبين الإيمان والالتزام بفضائل الأخلاق من جهةٍ أخرى، فجاء السِّياق ليفصلَ بين الحالين، ويستأنفَ الكلام بما يقتضيه المقام.

نُكْتَةُ النِّداءِ بـ(يا) في: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ، تتجلَّى في عظمة خطابه لأوليائه وأعدائه

جاء التَّعبيرُ في النِّداء بـ (يا) في قولِ اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وهيَ في الأصل لِنِداء البَعيدِ، ونداءُ اللّه ﷻ لرُسله وأنبيائِه، نداءٌ مِنَ الخالق إلَى المَخْلوقِينَ، فقَمِنٌ أن يكونَ بأداةِ النِّداء المكرَّسة للبعيد، وَفي التَّعبير بها نِكاتٌ: أولها: بُعْدُ ما بَيْنَ الخالِقِ والمخلوق مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نِداء من الخالق سُبحانَهُ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العلوِّ. وثالِثُها: عِظَمُ شَأْنِ موضوع النِّداء؛ وهو الكلامُ عن جِهادِ المُنابِذينَ لشرع اللّهِ تعالى المُعادينَ إيَّاهُ، فإنَّ لَهُ شأنًا خَطيرًا، واهتمامًا جديرًا، علمًا بأنَّ نداءَ اللّه لنبيِّه وحيٌ يوحى، وأحكامٌ تشرَّعُ، وتبيانٌ منه تعالى لما تقتضيه العبوديَّةُ للّه، من التزام بأحكامه، وتطبيق لمراده في التَّعامل مع المؤالفِ والمخالف، لضمان استقرار المجتمع الإسلاميِّ وتوازنه في العلاقات الدَّاخليَّة والخارجيَّة.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

مُضاعَفَةُ التَّنْبيهِ إيماءٌ إلى عَظَمَةِ مضمونِ النِّداءِ وأَهَمّيَّتِهِ

في قولِ اللّهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، نجدُ النِّداء قد جاء متميِّزًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ مصدَّرة لسياق الآية الكريمة، وبها افتُتِحت الجملة، وفي ذَلكَ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلكَ: أنَّ لفظ (أَيّ)، تُعربُ منادًى نكرة مقصودة، وهو مبنيٌّ على الضَّمِّ، في محلِّ نصبٍ، ولا يُفْهَمُ المرادُ بها إلَّا باسم بعدَها يُزيلُ غُموضَها، ويكون بدلًا من (أيٌّ)، أو عطفَ بيان يتبعه في الرَّفع لفظًا، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهامِ إلى الإيضاحِ والبَيانِ، وذلكَ ضربٌ مِنْ ضُروبِ التَّوكيدِ، وفي اقترانِ (أَيّ) بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأَصْلِ يُرادُ به التَّنبيهُ، فاجتمَعَ في هذا النِّداءِ الخاصِّ تَنْبيهانِ؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ مضمونِهِ وكبيرِ أهمِّيَّتِهِ.

سِرُّ النِّداءِ بالوَصْفِ دونَ الاسم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

بيانُ جلالِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ عِنْدَ رَبِّهِ الرَّحمن

مِن طرائقِ القُرآن الكريم في نداء النَّبيِّ ﷺ: أن يُنادَى بالوَصْف لا بالاسم، فلَم يَرِد في النَّظم القرآنيِّ قطُّ: (يا مُحَمَّدُ)، وإنَّما يَرِدُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، وذلكَ لبيانِ رفعَةِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ عند ربِّهِ سُبْحانَهُ، وبيانِ عَظيم كرامَتِهِ عنده[1]، وفيهِ أيْضًا تَعْليمُ العبادِ الأدبَ معَهُ ﷺ، وقد ذكر علماءُ الشَّمائل: أنَّ نداء النَّبيِّ بالصِّفة دون الاسم، تأكيدٌ على أنَّه مخلوق أزلًا لمهمَّة البلاغ عن اللّه، وقد كان مخصوصًا بأنَّه آخرُ أُذُنٍ استمعت إلى وحي اللّه بالحقِّ، ولسانُ الصِّدق الَّذي بلَّغ عن الحقِّ مراده من الخلق، بينما نُوديَ الرُّسل بأسمائهم، فقيل: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وقيل: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ [هود: 48]، وقيل: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾، [الصَّافات: 104 - 105]، وقيل: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5328.

﴿١٠﴾ [النّمل: 10]، وقيل: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55]..

وهكذا دواليك.

نُكْتَةُ وَصْفِ النَّبيِّ بالنُّبوَّةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

الـتَّرْغـيـبُ في التَّلَقِّي مِنَ النَّبيِّ الرَّسول لإنبائهِ بِكُلِّ مَعْنًى جَليلٍ

في قولِه سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وصْفٌ بالنُّبوَّةِ دون الرِّسالة، معَ تحقيقِ الوصفَيْنِ لِمقصد بَيانِ منزلة النَّبيِّ ﷺ الرَّفيعَة؛ لكون لفظ النُّبوَّة مُشْعِرًا بأنَّه ﷺ مُنَبَأٌ من اللهِ سُبحانَهُ، وفي هذا إيماءٌ إلى التَّرغيبِ في التَّلقِّي منه ﷺ؛ إذْ إنَّ اللهَ سُبحانَهُ، قد أنبأه بكلِّ جليلٍ من المعاني، فمعنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: أيُّها العالي المكانَةِ بما لا يزالُ يتجَدَّدُ لَهُ من الله سُبحانَهُ من الأنباء والمعارف الإيمانيَّة(1)، وهو يمتاز مع ثلَّةٍ من الرُّسلِ الَّذين جمعوا بين النُّبوَّةِ والرِّسالة، بأفضليَّةٍ ومكانة، تتناسب مع عظم المهمَّة المنسوبة إليه، والَّتي تحمَّلها بجدارة ومهارة، ونجح في المواءمة بين الصِّفتين، وهما صفتا كمالٍ وجلال، تؤهِّلانه للاصطفاء والشَّفاعة، وقد قيل: (كلُّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا).

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

تـفـرُّدُ الـنَّـبـيِّ مُحَمَّدٍ بالنُّبوَّةِ وَقْـتَ الـنُّـزولِ، مُغْنٍ عَنْ تَعْيين اسمه المنقول

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، نجد اللَّامَ في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ مِنَ الآية الكريمة، دالًّا على العهد العلميِّ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، ويجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ للعهد الحضوريِّ، أي: النَّبيُّ الحاضِرُ وقت نزولِ هذا الخِطابِ، ومن المعلوم أَنْ لا نَبيَّ في الأرض حيٌّ وقتَ نُزولِ هذا الخِطاب إلَّا محمَّدٌ ﷺ، والوجهان متآيلان.

دِلالَةُ تَخْصيص النَّبيِّ بالخِطاب:

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: خُصِّصَ النَّبيُّ ﷺ بالخطاب؛ لكونه قائدَ الأمَّةِ، ومبلِّغَ شَرْعِ اللّه تعالى إليها، وإلَّا فإنَّ أمَّتَهُ مِن بَعْدِهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.

خطابُ النَّبيِّ ﷺ يطالُ أُمَّتَهُ باعتبارِهِ القدوةَ

داخلةٌ في هذا[1]، ويكون الأَمْرُ في قوله سُبْحانَهُ: ﴿جَٰهِدِ﴾ مرادًا به العُمومُ؛ لخُروجِ ضمير الخطاب المُسْتَتِر عن أصله في الدِّلالَة علَى المُعَيَّن إلَى إرادَةِ العُموم علَى سبيل البَدَليَّةِ لا على سبيل التَّناوُلِ، دَفْعَةً واحِدَةً، ولا حاجَةَ - على هذا - إلى تَقْديرِ مَحْذوفٍ، وهوَ: جاهِدْ بالمُؤْمنينَ الكُفَّارَ[2]؛ لإغناء التَّوجيه السَّابق عنه من غير افتِقارِهِ إلَى هذا المَحْذوفِ، لا سيَّما وأنَّ دَعْوى الحَذْفِ علَى خِلافِ الأَصْلِ، ناهيك عن كون الصِّراع مع فئتَي الكفر والنِّفاق، هو صراع خطير وكبير، يقتضي تضافرَ الجهود، وتجميع طاقات الأمَّة، لتحقيق مراد الله في استئصال شأفةِ المرض العقديِّ المستشري في المجتمع المسلم، والَّذي يجب أن يعالَجَ ابتداءً بالدَّعوة والحوار، وتقديم طرائقِ الإقناع، فإذا انسدَّتِ الأبوابُ، وكَبُرَ الخطرُ، وتعاظم الضَّررُ، فلا مندوحة آنئذٍ من استعمال وليِّ الأمر للوسائل الشَّرعيَّة والقانونيَّة الَّتي تفرض الأمن، وتتيح للكافر أن يرتدعَ، وإلى المنافق أن يندحرَ، وهو أمرٌ حرصَ عليه النَّبيُّ في الأوان الأوَّل، وأعانه عليه جيلُ الصَّحابة الرَّائد، مع ضمان آليَّات ذلك في ظلِّ العدل والإنصاف، وتحرِّي مراحلِ العلاج للظَّواهر الثَّابتة، والقضايا المتجدِّدة والثَّابتة، ممَّا تعانيه الأمَّة في كلِّ العصور، فيكون الحلُّ متدرِّجًا في أناة وثقة، حتَّى إذا بلغ السَّيلُ الزُّبى، ووصل الحزام الطُّبيَين؛ كان آخرُ الدَّواء الكيَّ.

دِلالَةُ الحقيقة والمجاز في قَوْلِه: ﴿جَٰهِدِ﴾:

كَفُّ النَّبيِّ عن العقاب، حتَّى لا يُتَّهم بأذيّة الأصحاب

الجِهادُ في قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، يَخْتَلِفُ معناه باختلاف مُتَعَلَّقِهِ، وذلك أنَّه تَعَلَّقَ بطائفتين: إِحْداهُما: الكفَّار. والأُخْرَى: المُنافِقون. والمُرادُ بِهِ في جانب الكُفَّار هو المَعْهودُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/204.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/204.

في خطاب الشَّرْعِ عند إِطْلاقِهِ، وهو جهادُ المواجهة بالسِّنانِ، بِخِلافِهِ في المُنافقين؛ فإنَّ المُرادَ به جهادُ الحُجَّة والبيانِ؛ لِما عُلِمَ في الشَّرْعِ مِن كفِّ النَّبيِّ ﷺ عَن مناجزة المُنافِقينَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُظَنَّ أَنَّه يَقْتُلُ أَصْحابَهُ؛ لخفاءِ كُفْرِ المنافقين، وعلى هذا؛ فاللَّفظ مُسْتَعْمَلٌ في حَقيقَتِهِ ومجازه[1]، وهو ضَرْبٌ مِن استعمال اللَّفظ المُشْتَرَكِ في معانيه، ولكنَّنا لا نفتأ نذكِّر بأنَّ الإسلام دينُ سلام، وأنَّه يقدِّم الحوارَ على النِّفار، وأنَّه لم يُقْدِم على حرب في مسار الغزوات النَّبويَّة إلَّا دفعًا لمظلمة، أو ردًّا لغبن، أو دفعًا لصولة صائل، أو صونًا للدِّين من هجمات الغادرين، ولذلك قيل: (الإسلامُ انتصر على السَّيف، ولم ينتصر بالسَّيف)، والدَّليل على ذلك أنَّ ما يقرب من ثلثي العالم الإسلاميِّ الآنيِّ، في أقصى آسيا وبلاد الأناضول، وأدغال إفريقيا، لم يدخلْها الإسلامُ بالجنود الغزاة، بل دخلها بالتُّجار الدُّعاة، حيثُ كانت الأخلاق العالية، والشَّمائل الزَّاكية، والمعاملة الطَّيبة، وإبداء اللُّطف والرِّفق، والتزام الأمانة والصِّدق، هي السَّبب في دخول شعوبٍ بأكملها إلى الإسلام.

سِرُّ الجَمْعِ بَيْنَ لفظي ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ وَ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

مجابهةُ المُنافِقينَ تقطَعُ دابِرَهُمْ، وتكْسِرُ شَوْكَتَهُمْ

في قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فائدةُ الجَمْعِ بين الكُفَّار والمُنافقين في هذا النَّصِّ المتين، وهو لإخافتهم وزلزلةِ كيانهم، وإشعارهم بأنَّ مكرَهم معلوم، وكيدهم مكشوفٌ، عند من لا تخفى عليه خافيةٌ، ولا شكَّ أنَّ استثمارَ دور اللِّسان في مواجهة المنافقين، فيما يسمَّى في عصرنا بالحرب الإعلاميَّة، له دورٌ كبير في هذا الصِّراع المرير بين الحقِّ والباطل، ومطلوبٌ منه أن يكون صادقًا معهم، فلا يقابل نفاقًا بنفاق، بل إنَّ من أُسس مجابهة أهل النِّفاق: "ألا يبشَّ لهم، حتَّى يطمعوا في خداعه، بل يشعرهم بأنَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/266.

في حَذَرٍ منهم.. يستنكر أفعالهم بيده، فإن لم يستطعْ فَباكْفِهرار وجهه، وفي الجملة يسدُّ عليهم بابَ خديعتهم"[1]، خصوصًا وأنَّ كُلَّ واحِدٍ منهم يخشى أن يُفْضَحَ أَمْرُهُ، فيُعامَلَ مُعامَلَةَ الكفَّار الحربيِّين، فيكونُ الأَمْرُ بِذلك كاسِرًا شَوْكَتَهُمْ[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الكُفَّارِ عَلَى المُنافِقينَ:

المُنافِقونَ أَضْعَفُ وَأَهْوَنُ من أن يَتَجاسروا عَلَى إِظْهارِ المُخالَفَةِ

في قول اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، قُدِّم لفظُ ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ علَى ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، لكون السِّياق في الأَمْرِ بالمجالدة الحربيَّة، وهي أَدْخَلُ في المُصارِحينَ بالمُخالَفَة، فكانَ الكُفَّارُ أولَى بذلك؛ لشدَّة شَكيمَتِهم، وقوَّة أَنْفُسِهم، ولِذا بُدِئَ بِهِمْ في الذِّكْر، ثُمَّ ثُنِّيَ بالمُنافِقينَ؛ لكونهم أَخْوَفَ وأَضْعَفَ نَفْسًا، وأَهْوَنَ قَدْرًا، ولِذا فإنَّهم لَم يَجْرُؤوا علَى إظْهارِ المُخالَفَة[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظَي الجمع: ﴿ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

الأَمْـرُ بِمجالدة الكُفَّار والمُنافِقينَ، لدفع الخطر، واجتناب الضَّرر

الألف واللَّامُ في لفظَي ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ و﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، يُرادُ بها الاستغْراقُ، أي: جاهِدْ جميعَ أهل الكفر والنِّفاق، وَيَجوزُ أن تكونَ اللَّامُ للكمال، والمعنى: جاهِدِ الكفَّارَ الكامِلينَ في الكُفْرِ الرّاسِخينَ فيهِ - فيَخْرُجُ مِنْهُ مَنْ لَيْسَ كامِلًا في الكُفْرِ، وهوَ كُلُّ مَن تلَبَّسَ بشيءٍ مِنْ أفرادِ الكُفْرِ الأَصْغَرِ - وجالِدِ المُنافِقين الكامِلينَ في النِّفاقِ المُغْرِقينَ فيه، فَلا يَتناوَلُ الخطابُ مَنْ ليس كامِلًا في النِّفاق؛ وهوَ كُلُّ مَن وَقَعَ في بَعْضِ خِصالِ النِّفاق الأصغر، أو وقع منه سهوٌ أو خطأ غير متعمَّد، ممَّا تقتضيه ممارسةُ الحياة، وتداعياتُ الصِّراع الَّتي تتماوج بها مشاكل النَّاس تموُّجًا، وتمور به معاملاتهم مورًا، ومثال ذلك ما روي في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3375.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/266.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.

الحديث الشَّهير: «نافق حنظلة...»[1]، ولا تَعارُضَ بين المعنيَين، بل تجوز إرادَتُهما معًا، ويكون المعنى: جاهِدْ جَميعَ الكُفَّار والمُنافِقين الكامِلين في الكفر والنِّفاق.

دِلالَةُ الأَمْرِ بِالغِلْظَةِ بَعْدَ الأمر بالجهاد:

إبـــرازُ عَـظَـمَـة رِفْـقِ النَّبـيِّ ﷺ وَرَحْمَتِهِ

في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾، ذُكِرَ الأَمْرُ بالغِلظة بعد الأمر بالجهاد في هذه الآيةِ الكريمة، مع أنَّ الجهادَ ملازِمٌ عادةً للغِلْظَة؛ لكون النَّبيِّ ﷺ مَطْبوعًا على الرِّفقِ مجبولًا على الرَّحمة، فأُمِرَ هَهُنا بالتَّخلِّي عن جِبِلَّتِه في حقِّ الكفَّار والمُنافقين، وألَّا يُعامِلَهُمْ بمِثْلِ ما يعاملُهُم به من اللِّين، وألَّا يُغْضيَ عنهم، كما كان شَأْنُهُ مِنْ قَبْلُ[2]، وعلَّة الأمر بمواجهة ظاهرةِ الكفر والنِّفاق: أنَّ مواجهةَ استشراءِ هذا الدَّاءِ العضال، لا بدَّ منها، وهي سنَّةٌ كونيَّةٌ نافذة، لا مفرَّ منها، ولا مندوحةَ عنها، وقد أمر اللهُ بمواجهة المشركين الكفرةِ، وتغليظِ القول للمنافقين الفَجَرَة، ويكون التَّغليظُ لإيضاح المصير الَّذي ينتظرهم؛ لأنَّ الكافرَ عابدٌ للدُّنيا، ويخاف أن تضيعَ منه؛ لأنَّه لا يؤمن بالآخرة، وما فيها من حسابٍ وعذابٍ، وعليه فيُغْلِظُ عليه في التَّخويف والنِّذارة بالآخرة، وما ينتظر الكافرَ والمنافق من عذاب وهوان، سوف تشيب من هوله الولدانُ، فيكون تخويفُهُ والتَّشديدُ عليه، وتهويل الأمر له؛ ردعًا

---

(1) الحديث بنصّه هو: عن حنظلة الأسيديّ قال: - وكان من كتَّاب الوحي للرَّسول ﷺ -: «لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتَّى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، قال أبو بكر: فو الله! إنَّا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتَّى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافقَ حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله! نكون عندك تذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتَّى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، فنسينا كثيرًا، فقال النَّبيُّ ﷺ: والذي نفسي بيده! أن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر، لصافحتكم الملائكة على فرشِكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلةُ! ساعة وساعة»، [أخرجه مسلم في صحيحه: باب فضل دوام الذّكر، حديث رقم: (4937)].

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/267.

لكفران من كفر، وزجرًا لنفاق من تلوَّنَ بالنِّفاق وفجر، خصوصًا وأنَّه ليس خالدًا في هذه الدُّنيا الغرور، وما ينتظره في الآخرة قاصمٌ للظَّهر من العذاب المهول[1]، ومعاملة العدوِّ المحارب باللِّين والرَّحمة، وضع لهاتين الصِّفتين في غير موضعهما، قال الشَّاعر:

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ في العُلا ***

مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى[2]

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

الْمُـبـالَـغـةُ في الـتَّـغـلـيـظ عـلـى الـكُـفّـارِ والْـمُـنـافِـقـيـنَ، لـردعـهـم عن غوايتهم

الغِلْظَةُ نقيضُ الرِّقَّة، والأصلُ استعمالُها في الأجسام، وهي في قول اللّه ﷻ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ مُسْتَعْمَلَةٌ في المعاني[3] على جهة الاستِعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، وفي ذلكَ: إخْراجٌ للمعاني المَعْقولَةِ في قالب الصُّوَرِ الحسِّيَّة؛ زيادَةً في الأَمْرِ بالشِّدَّة عليهم، ومُبالَغَةً في إلقاء الرُّعْبِ في قلوب الكُفَّار والْمُنافقين.

دِلالَةُ الوَصْلِ (بالواو) في: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

اجتِماعُ عَذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخِرَةِ من أشنع البلاء

الواوُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ استئنافيَّةٌ، والجُمْلَةُ بَعْدَها مُسْتَأْنَفَةٌ لبيان آجلِ حالهم، بَعْدَ بيان عاجله في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾[4]، وجُمْلَةُ ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ مَحْمولَةٌ على المعنى؛ وهو أنَّهُ قد اجتَمَعَ لهم عذابُ الدُّنيا بالجهاد والغِلْظَةِ، وعذابُ الآخِرَةِ بكون جَهَنَّمَ مَأْواهُم، ويُحْتَمَلُ أَنْ تكون الواوُ حاليَّةً، والجملةُ بعدها حالٌ، والمعنى: جاهِدْهُم، واغْلُظْ عليهم في حال استحقاقهم جَهَنَّمَ، ويَجوزُ أن تكون الواو مُنَبِّهَةً على إرادة فِعْلٍ مَحْذوفٍ، والتَّقديرُ: جاهِدْهُم واغْلُظْ عليهم، واعْلَمْ أَنَّ مأواهم جهنَّم[5].

(1) لمزيد من التَّوضيح في هذا الملمح، ينظر: تفسير الشّعراويّ: (الخواطر): 9/5335.
(2) الواحديّ، شرح ديوان المتنبّي، ص: 266، رضا، تفسير المنار: 10/474.
(3) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 5/327.

دِلالَةُ التَّقْدِيمِ والتَّأْخيرِ في: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

بَيانُ عَظيمِ جَزاءِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ وَشَناعَةِ مَآلِهِمْ

المُخْتارُ أَنْ يكون لفظ ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ مُبْتَدأً مُؤَخَّرًا، و﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ خَبَرًا مُقدَّمًا في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾؛ لكون المأوى أعمَّ، وجهنَّمَ أخصَّ، ففيه تقديمٌ لِما حقُّه التَّأخيرُ، والمرادُ القصرُ والحَصْرُ، والمعنى: لا مأوى لهم إلَّا جَهَنَّم، وفي هذا بيانٌ لِعَظِيم جَزائِهم وشَناعَةِ مَصيرِهِم ومُسْتَقَرِّهم؛ حَيْثُ لَم يَكُنْ لَهُمْ مُسْتَقَرٌّ ومأوًى إلَّا النَّار[1]، "والمعنى: أنَّه قد اجتمع لهم عذاب الدُّنيا بالجهاد والغلظة، وعذاب الآخرة، فيجعل جهنَّمَ مأواهم، قال السَّمين: ولا حاجة إلى هذا كلِّهِ بل هذه جملةٌ استئنافيَّة"[2]، وكونها استئنافيَّةً، فهي تقرِّر أنَّ المأوى هو جهنَّم، وهو بذلك مرعبٌ للنُّفوس الَّتي تنتظر المأوى الحسن هناك، فتُفْجَعُ بتأكيد سوءِ المصير، خصوصًا وأنَّه آخر المطاف، ونهاية التَّطواف، وأنَّه لا مقامَ بعده، ولا فرصة للتَّحوُّل منه، ولا للنَّأي عنه، ولكون مأواهم جهنَّم، فهو رمزُ المعاناةِ اللَّامتناهيَةِ، والعذاب الخالد المقيم.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّهَكُّمِيَّةِ في: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾:

التَّهكُّمُ مِنْ أَشَدِّ أَلْوانِ العَذابِ النَّفْسيِّ

أصلُ المأوى: المكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[3]، وإنَّما يُؤْوَى إلى مكانٍ فيه استقرارٌ وراحَةٌ واطمئنانٌ، فمجيءُ التَّعبيرِ القرآنيِّ عن جهنَّم بالمأوَى في قوله سُبْحانَهُ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ من باب الاسْتِعارَةِ التَّهكُّميَّةِ[4]، وهذا أشدُّ وقعًا على النُّفوسِ؛ لِما فيه مِنَ الإنزال لِقَدْرِ المخاطَب، والحطِّ مِنْهُ[5]؛ لأنَّ المأوى يأوي إليه الإنسان، ليجد فيه المستقرَّ والرَّاحة والاطمئنان، فذِكْرُ المأوى في هذا المقام

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/319.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/350، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/86.
(3) ابن أبي نصر الحُمَيْديّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين، ص: 266.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3377.
(5) يحيى العلويّ، الطِّراز لأسرار البلاغة: 1/127.

تهكُّمٌ عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ [آل عمران: 21][1]، وكذلك ما ورد في سورتَي [التّوبة: 34] و[الانشقاق: 24] بنفس اللّفظ والمعنى.

نُكْتَةُ الجَمْعِ بَيْنَ المأْوَى والمَصيرِ في: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

التّأكيدُ على سوءِ عاقبةِ الكُفّارِ والمُنافِقينَ وَقَبيحِ مَآلِهِمْ

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، جُمِعَ بينَ المَأْوَى والمَصير، والمأوَى: هوَ المَكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إِلَيْه، ويُقامُ فيه[2]، والمَصيرُ: هو المكان الَّذي يَصيرُ المَرْءُ إليه، أي: يَرْجِعُ، فالاختلاف بين المَأْوَى والمَصير، هو بالاعتبار فَحَسْبُ، فيكون الجَمْعُ بَيْنَهُما مِن بابِ التَّفَنُّنِ في التَّعْبير[3]، والتأكيد على سوء مصيرهم وشَنيعِ عاقِبَتِهِمْ.

بَراعَةُ التَّذْييل: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

المُبالَغَةُ في تَهْديدِ الكُفّارِ والمُنافِقينَ وَوَعيدِهِمْ، مفيدٌ في بابه

قَوْلُ اللّه ﷻ: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تَذْييلٌ غَيْرُ جارٍ مَجْرى المثل؛ لعدم استغنائه عَمَّا قَبْلَهُ في إدراك تَمام المُرادِ مِنْهُ، وهو تقرير الجَزاءِ المَذْكورِ قَبْلُ في قوله تَعالَى: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ وتَثْبيتُهُ في الأَذْهانِ؛ زِيادَةً في الوعيد والتَّهديد، والمَخْصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، والتَّقديرُ: بِئْسَ المَصيرُ جَهَنَّمُ[4]، وعليه فإنَّهم "لا مأوى لهم يلجؤون إليه إلَّا دار العذاب الَّتي لا يموتُ من أوى إليها، ولا يحيا حياةً طيِّبة، وبئس المصيرُ هي، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٦٦﴾ [الفرقان: 66][5].

المتشابِهُ اللّفظيُّ:

دِقّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في انتِقاءِ الأَلْفاظِ وَحُروفِ المَعاني المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

قال اللّهُ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾، وقال سُبْحانَهُ: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197]، ووَجْهُ المغايرة بينهما أنَّ آية آل عمران تقدَّمها قولُ اللّه تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦﴾ [آل عمران: 196]، فلمَّا كانت

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3377.
(2) ابن أبي نصر الحُمَيْديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/267.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/164.

شِدَّةُ التَّقَلُّبِ تجعل أصحابَها في حاجَةٍ إلى مكان يكون مُمَهَّدًا لَهُمْ لأجل الرَّاحة، وكانت جَهَنَّمُ هي مهادهم؛ ناسَبَهُ قَوْلُهُ سُبْحانَهُ: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٩٧﴾ [آل عمران: 197]، بخلافِ آية التَّوبة؛ فإنَّها قَد صُدِّرت بقول الله تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾، فلَمَّا كان بين قوله تَعالَى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ﴾ اتِّصالٌ مِنْ جِهَةِ كونهما خِطابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، وحَديثًا عَن الكُفَّار والمنافقين، وانفصالٌ من جِهَةٍ أخرى لاختلاف الجملتين خَبَرًا وإنْشاءً؛ عُطِفَ بَيْنَهُما بالواو، ولَمَّا كانَ مَن أَوَى إلَى مَكانٍ قَد يَصيرُ إلَى غيره، وكانَتْ جَهَنَّمُ هيَ مصيرهم الأبدي؛ ناسَبَهُ قولُ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وعُطِفَت آيةُ آل عمران بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأَنَّ تَقَلُّبَ الكفَّار في البلاد يَسْتَغْرِقُ زَمَنًا، وإنْ كانَ قَليلًا، فَذُكِرَ حَرْفُ العطف الدَّالُّ على التَّراخي، وَهوَ (ثُمَّ)، بخلاف آية التَّوبة، فقد عُطِفَت بالواوِ؛ لأنَّها لم تَتَضَمَّنْ ما يدُلُّ عَلَى التَّراخي أو وجود فاصِلٍ زَمَنيٍّ، فكانَ الأَنْسَبُ العَطْفَ بالواو[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المأْوَى والمثْوَى:

المَأْوى أَعَمُّ مِنَ المَثْوى عُمومًا مُطْلَقًا، وفي كليهما معنى الإيواء

ذهَب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المأوَى والمَثْوَى بمعنًى واحِدٍ[2]، وفرَّق بينهما جَماعَةٌ، وحاصِلُ الفرقِ بَيْنَهُما مِن وَجْهَيْنِ: أحدهما: أنَّ المأوى أعمُّ من المثوى؛ لأنَّ المثوى يتضمَّنُ معنى الإقامة، بخلاف المأوى[3]؛ فقد يدلُّ على معنى الإقامة، وقد لا يدلُّ عَلَيْها؛ ولذا قد يأوي الإنسانُ إلى مكانٍ عارضٍ، ولذا جاء في الحديثِ قولُ النَّبيِّ

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 592.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/77، والواحديّ، التفسير البسيط: 20/232، والدَّقيقي، اتفاق المباني وافتراق المعاني، ص: 255.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/301، ومحمّد الأمين الهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/222.

ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوا المَبيتَ إِلَى غارٍ»[1] - في القصَّة المَشْهورَةِ - فعبَّر عَن مَبيتِهم العارِضِ في غارٍ بالإيواءِ، والآخَرُ: أَنَّ الإقامةَ التي دلَّ عليها لفظُ (المَأْوَى) تُفارق الإقامةَ الَّتي يدلُّ عليها لفظُ (المَثْوَى)؛ لأَنَّ الإقامةَ في المثوَى إقامةٌ مع دوام، بخِلافِها في المأوى[2]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طَويلَةً، ولكنَّ المثوَى يقتضي الإقامةَ الدَّائمةَ[3]، وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثْوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قول اللّه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكْر المثوى بعد المَأْوَى إشارةٌ إلى خُلودِهِمْ، ولذا قُدِّم المَأْوَى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيبِ الوُجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يَأْوي ثُمَّ يَثْوي[4].

(1) رواه البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2272)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (100)، واللفظ للبخاري.
(2) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروقُ اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 167 - 168.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1450.
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/352.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤﴾ [التوبة: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سَوْقُ الأَدِلَّةِ عَلى ضلال النِّفاقِ، ومفاسدِ مَن لم يتب من أهل الشِّقاق

في مُناسَبَةِ هذِهِ الآيَةِ لِما قَبْلَها وَجْهانِ: أحدهما: أنَّ اللّه ﷻ لمّا ذَكَرَ الدَّليلَ العامَّ على إجرامهم وأنَّ فيهم كُفْرًا عَظيمًا ونفاقًا، أَتْبَعَهُ بذِكْرِ الدَّليلِ الخاصِّ على ذلك الإجرام، فقالَ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾[1]. والآخَرُ: أنَّه لَمَّا كان مُعْظَمُ ما أُخِذَ عَلَى أَهْلِ النِّفاقِ كَلِماتٍ دالَّةً علَى الطَّعْنِ في النَّبيِّ ﷺ وَفي أَهْلِ الإيمان، ونَحْوِ ذلك من أدلَّة الكفر، وكانوا إذا نُقِلَ عَنْهُم ذَلِكَ؛ أَنْكَروا نِسْبَتَها إِلَيهِم بالأَيْمانِ الكاذِبَةِ؛ أَعْقَبَ اللّهُ تعالَى آيَةَ الأَمْرِ بمجالدتهم، بِالتَّنْبيهِ علَى أنَّ إِنْكارَهُم كان كاذِبًا، وأنَّهُ لا ثِقَةَ بأَيمانهم، وأنَّ ما صَدَرَ منهم هوَ صَريحُ الكُفْرِ، ومحض الضَّلال[2]، ولا عبرةَ بحلفانهم، ولا بغليظ أيمانهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحْلِفُونَ﴾: الحاءُ واللَّامُ والفاءُ، تَدُلُّ تَصْريفاتُها علَى مَعْنَى المُلازَمَةِ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: حالَفَ فُلانٌ فلانًا؛ إذا عاهَدَهُ، وذَلِكَ لِما في المُعاهَدَةِ مِن معنى المُلازمَةِ، ومن هذا المعنى: الحَلِفُ بِمَعْنَى القَسَمِ؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/268.

لأنَّ الإنْسانَ؛ إذا أقسَمَ؛ لزِمَهُ الثَّباتُ على ما أقسم به[1]، وأَصْلُ الحَلِفِ: اليَمينُ الذي يَأْخُذُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ بِها العَهْدَ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَت في كُلِّ يَمينٍ، ومنه قول اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝﴾ [القلم: 10]، أَيْ: كَثيرِ الحَلِفِ - وَهوَ القَسَمُ - ومنه قول اللهِ ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾[2].

2) ﴿وَهَمُّواْ﴾: الهاءُ والميمُ تَدورُ اشْتِقاقاتُها على ذوبان شَيْءٍ مُتَسَيِّبًا مِمَّا يَجْمَعُهُ لحرارة أو شِدَّة، ومِنْهُ الهَمُّ: وَهوَ الحُزْنُ، سُمّي بذلِك؛ لأنَّه يُذيبُ الإنسانَ، ومِنْهُ قَوْلُهُم: هَمَّ بالشَّيءِ؛ إذا نَواهُ وعزَمَ عليه، وسُمِّيَتِ الإرادَةُ والعَزيمَةُ هَمًّا؛ كأنَّما تَحَلَّبَت إرادتهُ وهَواه بشدَّة نَحْوَ أمرٍ ما، كَما يَسيلُ اللُّعابُ إلَى الطَّعامِ شَهْوَةً، وأهمَّني كذا، أي: حملني على أن أهمَّ به، قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: 154][3]، وهمَّ بالشَّيء همًّا؛ إذا خطر بباله أن يفعلَهُ، ولم يعزِمْ، قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: 122][4]، ومِنْ هذا قَوْلُ اللهِ ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[5].

3) ﴿يَنَالُواْ﴾: النُّونُ والواوُ واللَّام، تَدُلُّ اشْتِقاقاتُها على معنى الإعطاء، تَقولُ: نوَّلْتُهُ، أَيْ: أَعْطَيْتُه، والنَّوالُ هو العَطاءُ[6]، وحَقيقَتُه: ما ينالهُ الإنْسانُ من الصِّلة[7]، نالهُ ينالُه نَيْلًا؛ إذا أصابه، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ [التّوبة: 120][8]، والمُرادُ بِقَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾: هَمُّوا وعزَموا عَلَى شَيْءٍ لَم يُحَصِّلوهُ، وَلَمْ يُمَكَّنوا مِنْهُ.

4) ﴿نَقَمُوٓاْ﴾: النُّونُ والقافُ والميمُ، تَدورُ تَصْريفاتُها عَلَى إِنْكارِ شَيْءٍ وَعَيْبِه، تَقولُ: نَقَمْتُ عليه؛ إذا أَنْكَرْتَ عليه فِعلَهُ، ومِنْهُ: النِّقمةُ مِنَ العَذابِ، والانتقام، قيلَ لَهُ ذلك؛ لِأنَّه كالذي أَنْكَرَ ما عليه، فَعاقَبَهُ[9]، ويَرِدُ فِعْلُ نَقَمَ يَنْقِمُ بمعنى: العِتابِ والكَراهةِ والإِنْكارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلف).
(2) الرّاغب، المفردات: (حلف).
(3) سميح عاطف الزّين، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: (همم).
(4) نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (همّ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (همّ)، والرّاغب، المفردات: (همم)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (همم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نول).
(7) الرّاغب، المفردات: (نيل).
(8) نشوان، شمس العلوم: (نال).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقم).

والسُّخْطِ[1]، والنِّقمة: المكافأة بالعقوبة، والجمع: نِقَمٌ، وقال ابن جني: نِقمةٌ، ونِقَمٌ: وكان القياسُ أن يقولوا في جمع: نقمة: نَقِم، على حدِّ: كلمة وكَلِم، فعدلوا عنه إلى أن فتحوا المكسور، وكسروا المفتوح[2]، وقولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ معناهُ: وَما أنكَروا، ولا عابوا إلَّا ما هوَ قَمِنٌ بالمدح والثَّناءِ؛ وهو إغناء اللهِ تعالَى لهُمْ مِنْ فضْلِه[3].

5) ﴿وَلِيّ﴾: الواوُ واللَّامُ والياءُ، تدلُّ اشتقاقاتُها على معنى القُرْبِ، وَمِنْهُ: الوَلْيُ وهو القُرْبُ، تقولُ العربُ: تباعَدَ فلانٌ بعد وَلْيٍ، أي: بعد قُرْبٍ، وجلسَ ممَّا يَليني، أي: يُقاربُني، ومنه المولى، وهوَ يُطْلَقُ على معانٍ، مِنْها: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والحليفُ، والنَّاصر، والجار، وفي كلِّها معنى القُرْبِ كما هوَ بَيِّنٌ[4]، ومِن أسماءِ اللهِ سُبحانَهُ: الوَليُّ، ومَعْنَاهُ النَّاصِرُ، أَوْ هوَ المتوَلِّي لأمور الخلائق القائمُ بها[5]. والوَليُّ في قول اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، بمعنى: المُنْقِذ، والمرادُ: ما لَهُم مِن مُنْقِذٍ يُنْقِذُهُم ولا نَصيرٍ يَنْصُرُهُم.

6) ﴿نَصِيرٍ﴾: تَدورُ مادَّةُ النُّون والصَّاد والرَّاء، حول معنى إتيان خيرٍ وإيتائه بما فيه زيادةُ مناسبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[6]، وَمِنْهُ سمِّيَ المطرُ: نصرًا[7]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها؛ بقوَّةِ النَّاصر وغَلَبَتِه[8]، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، ونُصراءُ: صيغةُ مبالغةٍ من نصَرَ: كثير التَّأييد والعون بدعم وقوَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]، والنَّصيرُ: اسمٌ من أسماء الله الحسنى، ومعناه: الذي لا يخذل وليَّهُ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُقْسِمُ المُنافِقونَ باللهِ سُبْحانَهُ: إِنَّهُم ما قالوا شيئًا يُسيءُ إلى رسول الله ﷺ وإلى

(1) بطّال الرَّكبيّ، النّظم المستعذب في تفسير غريب ألفاظ المهذّب: 2/256.
(2) ابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم: (نقم).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/437.
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: (ولي)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(5) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (ولي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (نصر).
(7) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(9) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نصر).

تَـهْـديـدُ أهـلِ النِّفاق بِالعَذابِ الموجِعِ في الدُّنيا، وَبِنارِ جَهَنَّمَ في الآخِرَةِ

المُؤْمنين، والحالُ أَنَّهُم قالوا ذلك، وإِنَّهُمْ لكاذبون، وقدِ ارتدُّوا بمَقالتهم هَذِهِ عَنِ الإِسْلام.

وقَدْ عَزموا على الإضرار برَسولِ اللّه ﷺ، فلم يُمَكِّنْهُمُ اللّهُ ﷻ من ذلك، وَلَم يجد هَؤُلاءِ المُنافقونَ شَيْئًا يَعيبونَهُ، وينتقدونه، إِلَّا أَنَّ اللّهَ سُبْحانَهُ تَفضَّل عليهم، فَأَغْناهُم بما فتح على نَبيِّه ﷺ مِنَ الخير والبركة، فَإِنْ يَرْجِعْ هَؤُلاءِ الكفَّارُ إِلَى الإيمان والتَّوبة؛ يكُنْ خَيْرًا لهم، وإِنِ اسْتَمَرُّوا عَلَى حالهم في الإِعْراض، يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ تَعالَى العَذابَ الموجِعَ في الدُّنْيا علَى أَيْدي عباده المُؤْمنينَ، وَفي الآخِرَةِ بنارِ جهَنَّمَ، ولَيْسَ لَهُمْ مُنْقِذٌ ينقذهم، ولا ناصِرٌ يَدْفَعُ عنهم العذاب[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ أسلوب الفَصْلِ في: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾:

بَيانُ عِلَّةِ الأَمْرِ بِجِهادِ المُنافِقينَ والإِغْلاظِ عليهم

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا بيانيًّا، فيكون بين الجُملَتينِ شِبْهُ كمالِ الاتِّصالِ، وذلك لأنَّ قول اللّهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ يَبْعَث في نَفْسِ المُتَلَقِّي سؤالًا؛ وهوَ: أَمَّا جِهادُ الكُفَّار؛ فالأَمْرُ فيه ظاهِرٌ، وأمَّا المنافقون؛ فما صورَةُ جهادِهِم؟ وهُم يتكلَّمون بلفظ الإيمان، ويُظهرون أفعالَ المُسلِمين، مع مُشاهدَةِ ظاهِرِ أحوالهم، مِنَ التَّنصُّل مِمَّا نُقِلَ عَنْهُم، فجاءَ الجَوابُ: لأنَّهم يحلفون كذبًا إِنَّهم ما تلفَّظوا بما يُحْكَمُ به عَلَيهم بالكُفْر، والحالُ أنَّهم قَد قالوا ذلِكَ، وكَفروا، بعد إِظْهارِهِمُ الإسلامَ[2]. ويجوز أن تكونَ الجملَةُ لبيانِ عِلَّةِ الأَمْرِ بجهادِهِم، إن جُعِلَ المَقْصود مِنَ الجملَةِ قولَهُ تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، وإنَّما أُخِّرَ اهتمامًا بتكذيبِهِم ابتداءً، ويقوِّي هذا الوجهَ أنَّ ما في هذه الجملَةِ، هوَ أدلَّةُ كُفْرِهِم ونقضِهِم عَهْدَ

---

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.

الإسلام؛ وذلك لأنَّه لو كان المقصودُ بيانَ خصوصِ تكذيبِهم فيما أَقْسَموا عليه؛ لكان الأنسبُ الاقتصارَ على إِثْبات مُقابِله، وهو ﴿وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾، ولَم يكن لِما بعْدَهُ تَعَلُّقٌ به، وعَلى كِلا الوجهين؛ فإنَّ قولَهُ سُبْحانَهُ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، مستحقٌّ الفصْلَ دونَ الوصل بالواو[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَحْلِفُونَ﴾:

جَراءَةُ المُنافِقينَ عَلَى اللهِ ﷻ بِالحَلِفِ الكاذِبِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، عُبِّر بالفعل المضارع ﴿يَحْلِفُونَ﴾، مع أنَّ حَلِفَهُم متقدِّمٌ على نُزول الآيَةِ الكريمَةِ؛ لاستحضار حالهم العجيبَةِ من الجراءة على اللّه تعالى، بالحَلِف الكاذِب، وللإيماءِ إلى تَكْرار هذا الفعل منهم[2]، وأنَّ طَبْعَهُم القسَمُ الكاذب، وإذا كان يَصْدُر مِنْهُمُ الكَذِبُ مقرونًا بالقسم، فكَيْفَ يوثقُ بما قالوه من غير قسم أصلًا؟ والَّذين يحلفون كذبًا وزورًا، هم عبد اللّه بن أبيٍّ بن سلول، وأضرابه، وهم كثر، ولكنَّهم معروفون عند الرَّسول ﷺ، وهم نماذج لمسوخ بشريَّةٍ، لا همَّة لهم ولا نخوة، ولا إيمانَ لهم ولا ضميرَ، وهم يفعلون الأفاعيل، ويتكلَّمون بأبشع الأقاويل، ولا يتورَّعون عن الكذب الصُّراحِ، ولا عن العمل الوقاح، ويفيد الفعلُ المضارع ﴿يَحْلِفُونَ﴾ تجدُّدَ القول منهم في زمان تنزُّلِ القرآن، وتجدُّد الفعل في كلِّ عصرٍ وأوان.

بلاغةُ إسْنادِ فِعْلِ الحَلِفِ إِلَى ضَميرِ الجَمْعِ في: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾:

الرَّاضي بِالجُرمِ كفاعِلِه، وإن لم يكن في الأصلِ فاعلًا

أُسْنِدَ فِعْلُ الحَلِف إلَى ضمير الجمع - واو الجماعة - في قولِ اللّه ﷻ: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾؛ لأنَّ هذا الحَلِفَ صَدَر من جماعةٍ، كما جاءَ في بعض الأخبار في سَبَبِ نُزول هذه الآية، فالإسنادُ إلى الجماعةِ ظاهِرٌ بيِّنٌ، وأمَّا إذا كان الحالِفُ واحدًا - كما في رواياتٍ أخرَى - فيكونُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.

(2) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/328.

إِسْنادُ فِعْل الحَلف إلى الجَماعة عَلى خلاف الظَّاهِر، لأنَّ الحالفَ - وإن كان واحدًا - إلَّا أنَّ الباقينَ راضونَ بذلكَ الحَلِفِ الكاذِبِ، مع عِلْمِهم بكَذِبِه، فيَكون هذا مجازًا عقليًّا، من إسناد الفِعْلِ إلى سَبَبِه، ويجوزُ أن يكون قد نُزِّلَ رضاهُمْ به منزلَةَ فِعْلِهم لَهُ[1]، فيَكونُ هَذا من قَبيل الاستعارة؛ إذْ شُبِّهَ رضاهُم بالفِعْلِ بجامِعِ وجودِ الإرادَةِ في كُلٍّ مِنْهُما، فحذِفَ المشبَّهُ به وصُرِّحَ بالمشبَّهِ على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالِاسْمِ الأَعْظمِ (اللهِ) في: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾:

التَّشْنيعُ على المُنافِقينَ في الحَلِفِ باللهِ تَعالَى كَذِبًا وبهتانًا

جاءَ التَّعبير بالاسم الأَحْسَنِ (الله) في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾ وهو الاسْمُ الجامِعُ لِصفاتِ الجلال والجمال، ومزايا العَظَمَةِ والكَمال، تَشْنيعًا للحلفِ الصَّادر مِنْهُم، وأنَّه بَلَغَت بِهِمُ الجراءَةُ والجُرْمُ، أنْ تجرَّؤوا على مَقام الألوهيَّة، فأقْسَموا باسم اللّه تَعالى العَظيم بالكذب والمين، والَّذي يفتري على اللّه الكذب، لا يؤمن باللّه جبَّارًا، ولا يرجو له وقارًا، وقد اصطدمَ الجُلاسُ بن سويد بن الصَّامت، وقيل: معه وديعةُ بن ثابت، مع عامرِ بن قيس، حيث احتكمَ معه إلى رسول اللّه، فأنكرَ الجُلاسُ ماقاله من قبلُ، وحلف كاذبًا، بأنَّه ما قال ذلك إطلاقًا، فرفع عامرُ بن قيس يديه إلى السَّماء، وقال: (اللهمَّ أنزل على عبدك ونبيِّك تصديقَ الكاذبِ، وتكذيبَ الصَّادقِ)[2]، فنزل هذا المقطع القرآنيُّ بهذا السِّياق البليغ في أوانه، ليبقى خالدًا مخلَّدًا إلى أن يقومَ النَّاسُ لربِّ العالمين، وفيه تبكيتٌ لهذا الكذوبِ الكنودِ الَّذي أنكر فعلتَهُ، وتنصَّل من جرمه وجريرته[3].

(1) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/328.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.

(3) "وقيل: إنَّ هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبيٍّ رأس المنافقين، لَمَّا قال: ما مثلنا ومثل محمَّدٍ إلَّا كما قال القائل: سمِّن كلبَك يأكلْكَ، لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فأُخبِرَ النَّبيُّ ﷺ بذلك، فجاء عبد الله بن أبيّ فحلف إنَّه لم يقله". ينظر: القِنَّوجي، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/351. وكان هذا قبل توبته، فقد رُوِي أنه تاب وحسنت توبته، يُنظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى: 4/314، وابن حجر: الإصابة: 1/599.

سِرُّ حَذْفِ مُتَعَلَّقِ الفِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، حذْفٌ لمتعَلَّق فعل القول، وهو المفعول، وإنَّما حُذِفَ لدلالةِ قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾عليه[1]، ويجوز أن يكون الفعل المُتَعَدِّي ﴿قَالُواْ﴾ مُنَزَّلًا مَنْزِلَةَ اللَّازم، فمعنى ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، أي: ما صدر منهم قولٌ، والنُّكْتَةُ في ذلك: تعميمُ المفعول، للإيماءِ إلى أنَّهم مهما عُنِّفوا على مقالةٍ ما أيًّا كانَتْ؛ فإنَّهم يُبادِرونَ إلى القَسَم الكاذِبِ على نَفْيه؛ لأنَّهُمْ جُبِلوا على أَعْلى الكَذِبِ وأعظمه[2]. ويجوزُ وجهٌ ثالثٌ؛ وهو تقدير المفعول في قوله: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ﴾، أي: ما قالوا فيكَ شَيْئًا يَسوؤُكَ[3]، ونكْتَةُ حذفِه: شناعَتُهُ وقُبْحُهُ، فطوَى اللّهُ سُبحانَهُ ذِكْرَهُ حفْظًا لمقام النُّبوَّة، وتعليمًا للعبادِ ألَّا يُشيعوا المقالاتِ الباطلَةَ في حقِّ النَّبيِّ ﷺ.

> المُنافِقونَ مَجْبولونَ عَلَى الكَذِبِ، ولا يَرونَ فيه غضاضةً

دلالَةُ (الواوِ): ﴿وَلَقَدۡ﴾:

الواوُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ حاليَّةٌ، والجملة بعدها في محلِّ نَصْبِ حالٌ، والغرضُ من تَعْقيبِ الجُمْلَةِ الأولَى بجُملةِ الحالِ، إثباتُ كَذِبهم وافْترائهم وجَراءَتِهم في قَسَمِهم على نفي قولهم المقالةَ الباطِلَةَ[4].

> كَذِبُ المُنافِقينَ وافْتراؤُهُم وجراءَتُهُم في حَلِفِهِمْ، سوءُ طبعٍ وخُلقٍ

سِرُّ التَّأكيدِ في: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾:

أُكِّدَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ بالقسَم المحذوف، واللَّام، وقَدْ؛ وذلِكَ لِنُكْتَتَيْنِ: إحداهُما: تحقيقُ تكذيبهم في الَّذي أَنْكَروه[5]، والأخرى: تأكيدُ صدورِ كَلِمَةِ الكُفْرِ مِنْهُم؛ ليُناسِبَ تأكيدُهُم نفْيَ صدورها منهم، ولذا جاءَ التَّأكيدُ بالقَسَمِ؛ ليكونَ

> تَحْقيقُ إثْباتِ كَذِبِهِمْ فيما أَنْكَروهُ مِنْ مَقالَةِ الكُفْرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.
(3) جمال الدّين القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/456.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/383.

تكذيبُ مقالتهم مساويًا لقولهم في تأكيد نفيها، بَلْ إنَّ جملة ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، زادَتْ عليها في التَّوكيدِ باللَّام وقد[1]، وهو" عرضٌ لحالٍ من أحوال المنافقين، وكشْفٌ لوجهٍ من وجوههم المنكرة..وهو أنَّ من دأبهم أن يحلفوا كذبًا وزورًا، أنَّهم ما قالوا هذا القول المنكرَ الَّذي كان سرًّا بينهم، ففضحَهم اللّه به، وأطلعَ النَّبيَّ والمسلمين عليه"[2]، وفي ذلك فضيحةٌ سافرة، لتعرية نيَّاتِهم السَّيِّئة، وأقوالهم المسمومة الَّتي ما أرادوا بها إلَّا أذيَّةَ الرَّسول ﷺ، وبَثَّ البلبلةِ في المجتمع المسلم النَّقيِّ لبلوغ مآربِهم الآثمة.

دلالَةُ الطِّباقِ بين: ﴿مَا قَالُواْ﴾، و﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ﴾:

النِّداءُ عَلَى المُنافِقِينَ بِالكَذِبِ والإِفْتِراءِ للتَّحقيرِ والإِزْراء

في قول اللّه ﷻ: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، طباقُ سَلْبٍ بينَ ﴿مَا قَالُواْ﴾، وهو منفيٌّ بـ ﴿مَا﴾، وبينَ ﴿قَالُواْ﴾ الأخرى، وهي مثبتَةٌ، والتَّعبيرُ بالطِّباقِ ههنا مُنادٍ عَليهم بالكذِبِ، وأنَّ ما أثبتَ اللّهُ سبحانَهُ أنَّهم قالوُه، هوَ عَيْنُ الَّذي حلَفوا باللّهِ تَعالى كذبًا وبهتانًا أنَّهُمْ لَمْ يقولوهُ؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّ الَّذي أثبتَهُ اللّهُ ﷻ غيرُ الَّذي نَفَوْهُ.

دِلالَةُ لَفْظِ ﴿كَلِمَةَ﴾ بَيْنَ الحَقيقَةِ والمَجَازِ:

إذا أَمْكَنَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى مَعْناهُ الحَقيقيِّ مِنْ غَيْرِ تكلُّفٍ؛ تَعيَّنَ ذَلِكَ

أصلُ الكلِمَة: قولٌ مفردٌ، أو هي لفظ دالٌّ على مَعْنًى مُفْرَد، والكلمة في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، يُرادُ بها الكلامُ المفيدُ؛ لظهور أنَّهُمْ لم يتلفَّظوا بكلمة واحدة؛ لعدم تمام الإفادة بها، فضلًا عَنْ أن يُحكَمَ عليهم بسَبَبِها بالكُفْرِ، فيكونُ في الآيةِ مجازٌ مرسَلٌ، علاقتُهُ الجزئيَّةُ، والتَّحقيقُ أنَّ إطلاقَ الكلمَةِ على الكلامِ هوَ حقيقةٌ لغويَّةٌ[3]، وأمَّا إطلاقُ الكلمةِ مُرادًا بها القولُ المفردُ؛ فهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.

(3) ابن تيميّة، مجموع الفتاوى: 12/103 - 105، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.

اصطلاحٌ حادِثٌ بعد زمَنِ التَّنزيل، وجُعِلَ ذلِكَ اصطلاحًا للنُّحاة ومَن شاكلهم، فلا يَصْلُحُ حَمْلُ النَّصِّ القرآنيِّ على هذا المعنى، بل يُحْمَلُ على المعنى الَّذي تَعْرِفُه العرَبُ في لسانها، وهو الكلام، فيَكونُ استعمال لفظ الكَلِمَةِ في الآيةِ، مِن قَبيلِ الحقيقَةِ اللُّغويَّةِ، وإن كانَ ذلك مجازًا عُرْفيًّا خاصًّا في عُرْفِ النُّحاة.

نُكْتَةُ الإضافَةِ في: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾:

(كَلِمَةُ الكُفْرِ) جِنْسٌ لكلِّ تكذيبٍ للنَّبيِّ ﷺ

إضافَةُ الكَلِمَةِ إلى الكُفْرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، يُرادُ به الجنسُ، الشَّامِلُ لكلِّ كلامٍ فيه تكذيبٌ للنَّبيِّ ﷺ، كما أُطْلِقَتْ كلمَةُ التَّوحيدِ على شَهادَةِ أَن لا إلهَ إلَّا اللّهُ، فما يَصْدُرُ مِنَ المُنافِقين مِنْ كلماتٍ على اختلافِها، ما هيَ إلَّا أفرادٌ من هذا الجنس، ويجوزُ أن تكون الإضافَةُ للعَهْدِ؛ لِما تقرَّر من أنَّ الإضافَةَ تنقسم إلى ما تَنْقَسِمُ إليه اللَّام، فكما أنَّ اللَّامَ تَرِدُ للعهد؛ فإنَّ الإضافة كذلك تَرِدُ له، والمرادُ بكلمة الكفر: كلمةٌ مخصوصةٌ صدرت من بعض المنافقين، فيها إخْلالٌ بمقامِ النُّبوَّةِ، وما تَقْتَضيهِ مِن وُجوبِ الإيمانِ[1].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡكُفۡرِ﴾:

مَنْ تَنَقَّصَ مِنْ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ؛ فقَدْ تلبَّس بالكُفْرِ

اللَّام في ﴿ٱلۡكُفۡرِ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، يَجوزُ أَن تَكونَ دالَّةً على العموم، وذلك لأنَّ مَن أخلَّ بمقامِ النُّبوَّة، فكذَّبَ ما يجب الإيمانُ به، أو تَنَقَّص من قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ؛ قدِ ارْتَكَب كُلَّ كُفْرٍ[2]، ويجوز أَن تَكون اللَّامُ دالَّةً على الكمال، والمعنى: ولقد قالوا: كلمَةَ الكُفْرِ الَّذي لا أَكْبَرَ في الكُفْرِ منه؛ وهو تكذيبُ رسول اللّه ﷺ[3]، وهي كافيةٌ لطردهم من رحمة اللّه، واستحقاقهم نارَ جهنَّم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/269.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/552.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/548.

وهي الكلمةُ الَّتي أوقعتهم في حضيض الكفر"[1]، "والمرادُ بكلمة الكفر، هو الكلام الَّذي تحدَّثوا به فيما بينهم، وتناولوا فيه النَّبيَّ بالهزءِ والسُّخريَّة، وقالوا حين سُئلوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾ [التّوبة: 65]، وذلك منهم هو الكفر الصُّراح.. فلو كان في قلوبهم شيءٌ من الإيمان، لما حدَّثتهم أنفسُهم بهذا السُّوء، ولما طاوعتهم ألسنتُهم على النُّطق بهذا المنكرِ من القول"[2].

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي في: ﴿وَكَفَرُواْ﴾:

تَحَقُّقُ كُفْرِ المُنافِقينَ وَثُبوتُهُ لَهُمْ من مقاصدِ السِّياق

جاءَ التَّعبيرُ عَن كُفْرِ المنافِقينَ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَكَفَرُواْ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾؛ للإشارَةِ إلى تحقُّقِ كُفْرِهِم وثبوته لهم، ولفظ ﴿وَكَفَرُواْ﴾ يشير إلى أنَّ " في التَّعبيرِ عن كلمات السُّوء بكلمة الكفرِ، إشارةً إلى أنَّ حصيلة هذا الكلام الكثير الَّذي دار على ألسنتهم، هو كلمةٌ واحدة، هي الكفر، الَّذي دُمِغوا به ظاهرًا، بعد أن كان يعيشُ في كيانهم متخفِّيًا مستبطِنًا[3].

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾:

يَتَرَتَّبُ الحُكْمُ الأُخْرَوِيُّ على الكفرِ الظَّاهر والباطن

قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، أي: أظهروا كُفْرَهُم، وإلَّا فإنَّ المُنافِقين كفَّارٌ في حقيقةِ الأمرِ، ولكِنَّهم أَخْفَوا هذا الكُفر، حتَّى ظهَرَ على فَلَتاتِ أَلْسِنَتِهِم، فَيَكون في قولِه ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، مجازٌ بالاستعارَة؛ إذ قد شُبِّهَ إظهارُهُمُ الكفرَ الَّذي أبطنوه قَبْلُ بالكفر الَّذي أَنْشَؤوهُ، بجامع أنَّ كلَيْهما يترتَّب عليهِ الحُكْمُ الأخرويُّ عندَ اللّهِ سبحانَهُ، فيكون ذلك اسْتِعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، والنُّكْتَةُ في ذلكَ المبالَغَةُ في إظهار شناعَةِ صنيعِهم؛ حيثُ إنَّ الَّذي يكفُرُ بعد إسلامٍ، أقبَحُ ممَّن

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3378.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/846.

يُظْهِرُ كُفْرًا كامِنًا في نفسه؛ لأنَّ الأوَّل ذاقَ مِن حلاوة الإيمان ما يَنْبَغي أن يردَعَهُ عَنِ الارْتِدادِ عَنْهُ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالإسْلامِ دونَ الإيمانِ في: ﴿إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾:

ما يُظْهِرُهُ المُنافِقونَ مِنْ أَفْعالٍ وَأَقْوالٍ، صُوَرٌ زائِفَةٌ مصطنعةٌ

قال اللّه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، فجاء التَّعْبيرُ بالإسلام دونَ الإيمانِ؛ إذْ لم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَكَفَروا بَعْدَ إيمانِهِمْ)؛ للإيماء إلى أنَّ إقْرارَهُم بالإيمان في الظَّاهر كذبٌ، وأنَّ أفعالَهُمْ صوَرٌ لا حقائقَ لها، وأنَّ ما صدر منهم هو شَيْءٌ لم يتجاوَزْ ألسنتَهُم، فكان معنى قوله سُبْحانَهُ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾: أنَّهم أظهَروا الكُفْرَ بِما ظهر من قبيح أفعالِهم وشَنيع أقوالِهم[1]، ذلك " أنَّهم أظهروا الكفر بالقول، وهمُّوا بشرٍّ ما يغري به من الفعل، وهو الفَتْكُ برسول اللّه ﷺ، وقد أظهره اللّه على ذلك، وأنبأه بأنَّهم سينكرونه إذا سألهم عنه، ويحلفون على إنكارِهم ليُصدَّقوا كدأْبِهم الَّذي سبق"[2].

دِلالَةُ الإضافَةِ في ﴿إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾:

الإسْلامُ الَّذي يُظْهِرُهُ المُنافِقونَ، هوَ صورَةُ الإسْلامِ لا حَقيقَتُهُ

أُضيفَ الإسْلامُ إلى الضَّمير الرَّاجع إلى المنافقين في قولِ اللّه سُبحانه: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ للدِّلالة على أنَّه ليس الإسلامَ المطلوبَ مِنْهُم شرعًا، وإنَّما المعنى: بعدَ إظْهارِهمُ الإسلامَ، ولِذا لم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ في هذا الموضع، مُعَرِّفًا لَفْظَ الإسلام باللَّام المفيدَةِ الحقيقةَ، والمرادُ في الآيَةِ: بعد إسلام، هو من شأنكم وعادَتِكُم، وهوَ تعريضٌ بأنَّه إسلامٌ صوريٌّ غيرُ الإسلام الحقِّ[3]، وقوله: ﴿بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾، ولم يقل بعد إيمانهم؛ لأنَّ ذلك لم يتجاوز ألسنتهم[4]، ولطالما سترهم النَّبيُّ الأكرم، وتجاوز

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/60، والبقاعيّ، نظم الدرر: 8/549.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/476.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/252.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/60.

عن أقوالهم وتصرُّفاتهم، لعلَّهم يرعوون عن غيِّهم، ولكنَّهم ازدادوا كفرًا، وزاغوا، فأزاغ اللّه قلوبهم، وعرَّى نيَّاتِهم، وأبان عن دواخلهم، فأصبحوا كالإبل الجُرْب، لا يحظونَ بودٍّ ولا قربٍ، ويكفيهم عارًا وشؤمًا أن خلَّد اللّه مساءتهم، وأبان عن مثالبهم في القرآن المحفوظِ بحفظ اللّه إلى يوم القيامةِ، وذلك أكبرُ الخزي، وأشنعُ العار.

بَراعَةُ الإيجازِ في: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾:

شَناعَةُ كُفْرِ المُنافِقينَ بِسَبَبِ أَقْوالِهِمْ وَأَفْعالِهِمُ المستقبحة

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ إيجازٌ بالحَذْفِ، وذلك أنَّه لم يَقَعْ منهم حقيقةُ الإسلام أصلًا، بَلْ صورتُه فحسبُ، فكان معنى ﴿بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ أي: بعد الحُكْم بإسلامِهم، وفي إيقاع إسلامهم محلَّ الحُكْم به: زيادَةُ تشنيع كُفْرِهم؛ بِسَبَبِ مقالَةِ السُّوء الَّتي قالوها وأفعالِ الضَّلال الَّتي ارْتَكَبوها[1]، والآفة فيما وصفوا به من النِّفاق، هو أنَّهم أظهروا ما في قلوبِهم منَ الكفر، وما في بواطنهم من الضَّغينة بعد إظهارِهم الإسلامَ، وادِّعائهم أنَّهم دخلوا فيه، وعُدُّوا من أهليه، ولكنَّهم كانوا على العكس من ذلك، يشبهون الأجسامَ الغريبةَ النَّشازَ، وسط النَّسيج المتضامِّ المتراصِّ، وكفْرُهم بعد الإسلام يزيد من مسؤوليَّتهم الأدبيَّة، ومن تفاقم دورهم التَّخريبيِّ؛ لأنَّهم يهدِّدون حصونَ الأمَّة من الدَّاخل، ويسعون في الأرض فسادًا، واللّه لا يصلح عملَ المفسدين.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَهَمُّواْ﴾:

اجْتِماعُ أَنْواعِ الكُفْرِ القَوْليَّةِ والفِعْليَّةِ والاعْتِقاديَّةِ في المُنافِقينَ

جاء التَّعْبيرُ بالفِعْلِ الماضي ﴿وَهَمُّواْ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾، للدِّلالة على تحقُّق صُدورِ هذا الهمِّ مِنْهُم، وتردُّدِه في نفوسِهم، ورغبتِهم في تنفيذِه، وذلك أنَّ أَعْلى شَغَفِ الإنسانِ بأمرٍ ما أن تُحدِّثَهُ نفسُهُ فيه بما لا يصِلُ إليه، فيكونُ ذلك لَوْنًا مِن ألوانِ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/207.

الهَوَسِ، وفي ذِكْرِ الهمِّ بعد ما تقدَّمَ إشعارٌ بأنَّهم جمعوا أنواعَ الكُفْرِ كُلَّها؛ قولًا وفعلًا واعتقادًا[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالِاسْمِ المَوْصولِ: ﴿بِمَا﴾:

حِفْظُ النُّبوَّة مِنْ كيد المُنافِقينَ المهين بكيده تعالى المتين

(ما) في قول اللّه سُبحانه: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾ اسمٌ موصولٌ بمعنَى الذي، وفي الاسم الموصولِ إبهامٌ، ولذا يفتقِرُ إلى الصِّلة لرفع إبهامِهِ، ولم يُصرَّح بالذي هَمُّوا به - وهو الفَتْكُ برسولِ اللّهِ ﷺ [2] - استعظامًا للتَّصريح بهِ، وإيماءً إلى أنَّه بعيدُ المنالِ عنهم، فكما لم يُذكر ذَلكَ لَفْظًا؛ فلَن يتحقَّق واقِعًا، والمقصود بقوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ﴾، هو الشُّروع في تنفيذ الجريمة الَّتي خطَّطوا لها من قبلُ، وهي الفتْكُ برسول اللّه ﷺ، متى صعد على العقبة باللَّيل، وهو شروعٌ في القتل، مع سبق الإصرار والتَّرصُّد، ولكنَّ اللّهَ حمى نبيَّه، وفشلت هاته العمليَّة فشلًا ذريعًا، وأصيب منفِّذوها بخيبة الأمل، وحمى اللّه نبيَّه من كيدِ أعداء اللّه ورسوله، وكان في ذلك إعلانٌ صريح، بأنَّ اللّه عاصمُ نبيِّه من أذى البشر، فلا يقدرون على أذاته، وقد عصمَهُ اللّه من كيد أعداء الدِّين[3].

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ﴾:

تَصَرُّفاتُ المُنافِقينَ مُنْبِئَةٌ عَنْ كَراهِيَّتِهِمْ لِلْإِسْلامِ وَأَهْلِهِ

الواوُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ عاطفَةٌ، فقد عَطَفَت هذه الجملَةَ على جملةِ الحالِ في قوله سُبحانه قبلُ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾، والمعنى: وكَفَروا بعد إسلامهم وهَمُّوا بقَتْلِ رَسولِ اللّهِ ﷺ، والحالُ أنَّهم ما يَنْقِمون على النَّبيِّ ﷺ، ولا على دُخولِ الإسلام المدينَةَ شيئًا يَدْعوهم إلى هذا الَّذي يصدُرُ منهم من آثار الكراهيَّة والعداوَةِ إلَّا أَن أَغْناهُمُ اللّهُ ورَسولُه من فَضْلِه[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/291.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.

بَلاغَةُ تَأْكيدِ المَدْحِ بِما يُشْبِهُ الذَّمَّ:

الدِّينُ الإسلاميُّ خَيْرٌ عميمٌ، وعطاءٌ كريم

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، تأكيدٌ للمَدحِ بِما يُشبِهُ الذمَّ[1]، كما قال الشّاعر:

وَلا عَيۡبَ فيهِمۡ غَيۡرَ أَنَّ سُيوفَهُمۡ *** بِهِنَّ فُلولٌ مِنۡ قِراعِ الكَتائِبِ[2]

وذلك أنَّ الاستثناءَ في الآيةِ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعَمِّ المفاعيل، أَيۡ: وما كَرِهوا شَيۡئًا مِنَ الأَشۡياءِ الَّتي أَتَتۡهُم مِنَ اللهِ سُبحانَهُ إلَّا ما حقُّه أن يُشۡكَرَ[3]، وهو إغناءُ اللّهِ تَعالى إيَّاهُم، وهَذا مِن تَأۡكيدِ المَدۡحِ بِما يُشۡبِهُ الذَّمَّ؛ وذلكَ لأنَّ اللّهَ تَعالى نَفى أَن يَكونَ عندهم شيءٌ يصلحُ أن يَنۡقِموا به، ولازمُ هذا مدحُ ما جاءَهُم به اللّهُ تَعالى مِنَ الإيمان وتوابِعه، فلمَّا جاءَ حرفُ الاستثناء (إلّا) كان السَّامعُ مُتَرَقِّبًا شيئًا يُمكنُهم أن يَنۡقِموا به فيكون ذمًّا للإيمان وتوابِعِه، لكنَّ الواردَ بعدَ حرف الاستثناء مدحٌ آخَرُ، وهو قولُه: ﴿أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، فكانَ في هذا تأكيدٌ للمدۡحِ بما يُشبه الذَّمَّ، فهو كقولهم: ما لي عندكَ مِنۡ ذنبٍ إلَّا أنَّني أحسنتُ إليكَ[4]، ونُكۡتَةُ ذلك: إظۡهارُ أَنَّ المتكلِّمَ كأنَّه يبحث عن شيءٍ ينقضُ به حكمَهُ الخبريَّ ونحوَهُ، فيوردُ أمرًا آخرَ هوَ من

---

(1) أوَّل من انتبه إلى هذا اللَّون من البديع المعنويِّ، عبد الله بن المعتزِّ، وعدَّه من محاسن الكلام، وسمَّاه: (تأكيد المدح بما يشبه الذَّمَّ)، ومن البلاغيين من يسمِّيه: (الاستثناء)، ناظرين إلى أن حُسْنه ناشئ من أثر أداة الاستثناء الَّتي يبنى عليها، وتسميَةُ ابن المعتزِّ أدلُّ، ومن أمثلته البديعة قول حاتم الطَّائيِّ:

وما تَشْتَكيني جارَتي غَيْرَ أَنَّني *** إذا غابَ عَنها بَعْلُها لا أَزورُها
سَيَبْلُغُها خَيْري وَيَرْجِعُ أَهْلُها *** إِلَيها وَلَمْ تُقْصَرْ عَلَيَّ سُتورُها

يُنظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع، (فصل تأكيد المدح بما يشبه الذّمّ).

(2) البيت للشَّاعر النَّابغة الذُّبيانيِّ، والشَّاهد النحوي في البيت نصب: (غير) على الاستثناء المنقطع، وهو موجود في همع الهوامع: 1/232، وخزانة الأدب: 3/327، وشرح أبيات المغني: 3/16، وكذلك: شرح الشَّواهد الشِّعريَّة في أمَّات الكتب النَّحويَّة: 1/168.

(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 3/60، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/105، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.

(4) الآلوسيُّ، روح المعاني: 5/329.

مؤكِّدات الحُكْم ومثَبِّتاتِهِ للإشعار بأنَّه قدِ اسْتَقْصَى، فَلَم يجِدْ ما يُبْطِلُ ذلك الحُكْمَ[1].

دِلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ في قَوْلِه: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾:

إغناءُ اللهِ سُبْحانَهُ لِخَلْقِهِ؛ عطاء ممدودٌ بلا حدود

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لبيان عَظَمَةِ هذا الإغناءِ وشرفه، إذ هوَ إغْنَاءٌ صادِرٌ عَمَّنْ له جميعُ صفاتِ الجلالِ والجمال والكمال، وهوَ الغنيُّ عنِ العالَمين، وجميعُ ما يَصْدُرُ مِنَ العظيم عظيمٌ[2].

سِرُّ الإضافَةِ في: ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾:

بَيانُ عَظَمَةِ النَّبيِّ وقدره، وَرِفْعَةِ شَأْنِهِ عِنْدَ رَبِّهِ

في قولِه: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ أُضيفَ لفظُ الرَّسولِ إلى الضَّمير الرَّاجعِ إلى اللهِ ﷻ في الآية الكريمة، تعظيمًا لَه ﷺ، وبيانًا لرفعةِ شأنه وقدره عند ربِّهِ سُبحانَه؛ إذْ هوَ ﷺ أحقُّ الخلقِ بحيازة عَظَمةِ الإضافةِ إلى اللّهِ ﷻ[3]، وبالنَّظر إلى حال المخاطَبين، فهم ما عابوا من رسول اللّه إلَّا أن أغناهمُ اللّه من فضله الواسع، وعطائه المتدفِّق، بعد أن كانوا فقراءَ معوزين، وهذا من عجيب التَّعامل، وغريب التَّصرُّف، أن يستهينوا بمن كان سببًا لإخراجهم من الظُّلمات إلى النُّور، وانتشالهم من الفقر والكآبة إلى الغنى والرَّحابة، فهل حقُّه عليهم إلَّا أن يجازوه بالتَّعظيم، ويكافئوهُ بالتَّكريم، فيؤمنوا بهديه المنَزَلِ، ويعرفوا له قدرَهُ ومقامه، وفضلَهُ ومكانه؟ فاجتمع بذلك، الدَّاعي الدِّينيُّ من جهةٍ، وداعي المروءة الإنسانيَّة من جهةٍ أخرى[4].

دِلالَةُ عَطْفِ الرَّسولِ عَلى الِاسْمِ الأعْظم في قَوْلِه: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾:

النَّبيُّ ﷺ سَبَبٌ في إغْناء المسلمين وعزوتهم

عُطِفَ الرَّسولُ عَلى الِاسْمِ الأَعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ في فعل الإغناءِ في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.

(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/344.

قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾؛ لكونه السَّبَبَ المباشرَ الظَّاهرَ لهذا الإغناء، واللّهُ ﷻ هو المقدِّرُ ذلكَ ومسبِّبُهُ، وَوَجْهُ كَوْنِ النَّبيِّ ﷺ سَبَبًا في ذلك أنَّ اللّهَ ﷻ أغناهُم بما جَلَبَهُ حلولُ النَّبيِّ ﷺ بينهم، مِن أَسْباب الرِّزْقِ بِكَثْرَةِ عمَلِ المُهاجرينَ، ووَفْرَة المغانم في الغزوات، وبالأَمْنِ الَّذي جاء به الإسلامُ؛ إِذْ صيَّر المؤمنينَ إخوةً، فزالَتْ بينهمُ الأحقادُ والثَّاراتُ[1].

دِلالَةُ ﴿مِن﴾ في: ﴿إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾:

صاحِبُ الفَضْلِ يُعْطي الجَزْلَ ويوفي البذل

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ دالٌّ على مَعْنى الابتداء، أي: إنَّ هذا الإغْناءَ مُبتدَأٌ مِنْ فضل اللّه ﷻ، وفي جَعْلِ هذا الإغْناء مِنَ الفَضْلِ كنايَةٌ عَن وفرةِ ما أُغْنيَ به؛ وذلك لأنَّ صاحِبَ الفضْلِ يُعْطي الجَزْلَ[2].

نُكْتَةُ تَأْخيرِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾:

دِقَّةُ البَيانِ القُرآنيِّ في التَّصَرُّفِ بالأَلْفاظِ تَقْديمًا وَتَأْخيرًا

لَمّا كانَ قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾ واردًا على سَبيلِ الذَّمِّ لِلمُنافقينَ؛ أخِّر الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾؛ لكونِ هذا التَّأخيرِ أَدْخَلَ في ذمِّهِمْ وَأَقْعَدَ[3].

سِرُّ إِفْرادِ الضَّميرِ في: ﴿فَضۡلِهِۦۚ﴾:

الفَضْلُ للهِ ﷻ وَحْدَهُ في كلِّ نعمةٍ ومنَّةٍ

أُفرد الضَّميرُ في ﴿فَضۡلِهِۦۚ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، وكان مُقْتَضى الظَّاهرِ: (إلَّا أن أَغْناهُمُ اللّهُ ورَسولُهُ مِن فَضْلِهما)، للإشْعارِ بأنَّ الفَضْلَ فضلُ اللّهِ سُبْحانَهُ وحْدَهُ، وما كانَ لِلنَّبيِّ ﷺ من الفضلِ؛ فهو من فضْلِ اللّه ﷻ[4]، ومعنى ذلك: وَما عابوا عليه إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللّه وَرَسولُهُ من فضْلِه، أي: أثراهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/270.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/549.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5344.

بالغنائم بعد شدَّةِ حاجتهم[1]، و"هو تسفيهٌ لهم، واستنكار لهذا المنكر الَّذي هم فيه.. وأنَّهم لم يتَّخذوا هذا الموقف المنحرف اللَّئيم من اللّه ورسوله، إلَّا لِما أفاءَ اللّه ورسوله به عليهم، من فضله.. وهكذا أصحاب الطِّباع السَّيِّئة، والنُّفوس المريضة، تنقلب حقائقُ الأشياء عندهم، فإذا النُّور ظلامٌ، والحقُّ باطلٌ، والنِّعمةُ نقمةٌ"[2].

الجَمْعُ بَيْنَ الوَعْدِ والوَعيدِ، والتَّرْغيبِ والتَّرْهيبِ، من بيان القرآن

دِلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَإِن﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾، دالَّةٌ على التَّفريع، فَجملةُ ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾، تَفْريعٌ على قولِه سبحانَهُ قَبْلُ: ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، على عادَةِ القُرْآن الكَريم في إيرادِ الوعيدِ بعد الوعْد، والعكس؛ وذلكَ أنَّ اللّهَ ﷻ، لمّا أمرَ بجهادهم والغِلْظَةِ عليهم، وهدَّدهُم بالنَّار وتوعَّدهم بِها؛ فرَّع على ذلك الإخْبار بأنَّ بابَ التَّوبةِ مَفْتوحٌ لَهُم، وأنَّ بإمكانهم استدراكَ حالهم؛ إذِ القَصْدُ مِنَ الأمْرِ بجِهادهِم والغلظَةِ عليهم هو قَطْعُ دابرِ مضرَّتهم، أو أن يصلُحَ حالُهُم[3].

شِدَّةُ الانْحِرافِ عَنِ الحَقِّ، لا تَمنعُ من الرُّجوعِ إلَيْهِ

دِلالَةُ تَعْليقِ الشَّرْطِ بِـ(إنْ) في: ﴿فَإِن﴾:

عُلِّق الشَّرطُ بـ (إِنْ) في قول اللّه سُبْحانَهُ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ لكون (إِنْ) مفيدَةً عدمَ القطْعِ بوقوع مَدْخولِها، وهي جاريَةٌ على أصلِها في هذه الدِّلالَةِ؛ لأنَّ توبَتَهُمْ ليس مَقْطوعًا بها؛ إذ قد يَسْتَمِرُّونَ في باطلهم ونِفاقِهم، وكذا الشَّأْنُ في تَولِّيهم عَنِ التَّوبة واستمرارهم في كُفْرِهِم؛ فإنَّه مَشْكوكٌ بِهِ؛ إذ قد تَحْصُلُ منهم التَّوبةُ والرُّجوعُ عن ذلك إلى طاعةِ اللّه سُبْحانَهُ واتِّباعِ رَسولِه ﷺ، والإقلاع عن نفاقِهِم، ثُمَّ إنَّ استعمالَ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/309.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/847.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.

حَرْفِ الشَّرط (إنْ) هوَ الملائمُ لبابَي الوَعْدِ والوعيدِ؛ لإبقاءِ ما يترتَّب على كلٍّ مِنَ التَّوبة والتَّولِّي مُمْكِنَ الحصولِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ التَّوْبَةِ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾ على التولي ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ﴾:

قُدِّم ذِكْرُ التَّوبة على ذِكْرِ التَّولِّي في قول اللّٰه ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ للإشْعار بأنَّ أمرَ اللّٰهِ تَعالى نبيَّه ﷺ بجهادهم والصَّرامة معهم، وأَنَّ ما توعَّدَهُمُ اللّٰهُ تعالى بِهِ من عذاب النَّار، ليس مَقْصودًا به ذواتُهُم، بَل بسبب ما هم عليه مِنَ الضَّلال والانحرافِ، وأنَّ الشَّرعَ يتشوَّفُ إلى توبتهم ورجوعهم إلى الحقِّ مع ما يَتَرَتَّب عَلى ذَلِكَ مِنَ الخَيْرِ العَظيم لَهُم أَكْثَرَ مِن ترقُّبِهِ استمرارَهُم على باطِلِهم.

الشَّرْعُ يَتَشَوَّفُ إلى تَوْبَةِ المُخالِفينَ وَرُجوعِهِمْ إلى الحَقِّ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِفِعْلِ الكَوْنِ في: ﴿يَكُ﴾:

جيءَ بفِعْلِ الكَون في جَواب الشَّرط، فقال اللّٰهُ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾، دون أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (**فَإِنْ يَتوبوا فهو خيرٌ لَهُم**)؛ وذلكَ لِقَصْدِ توكيدِ وُقوعِ الخير عند إيجادهمُ التَّوبةَ، والإيذانِ بأنَّ الخيرَ لا يكونُ إلَّا عِنْدَ التَّوبةِ، وذَلك لأنَّ فِعْلَ الكَوْنِ مُشْعِرٌ بذلكَ[1]، و" هو تنبيهٌ لهؤلاء الضَّالِّين، وإشارة مضيئةٌ تطلع في ليلهم المطبق عليهم، رجاء أن يتوبوا إلى اللّٰه، ويستقيموا على طريقِ الحقِّ، فإن فعلوا؛ رشدوا، وأَمِنوا، وإن أَبوا؛ ضلُّوا، وهلكوا"[2].

لا خَيْرَ للإنسان إلَّا في التَّوْبَةِ وَطاعَةِ الدَّيان

بلاغةُ الاقْتِطاعِ في: ﴿يَكُ﴾:

في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾، ضربٌ مِن ضُروب إيجاز الحَذْفِ، وهوَ المسمَّى: الاقتطاعَ[3]، وذلك في حَذْفِ النُّون من

شَدُّ ذِهْنِ السَّامِعِ إلى مَعْرِفَةِ حالِهِ في التَّوْبَةِ مهمٌّ في البيان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 5/848.

(3) والاقتطاع: حقيقتُهُ: حذف بعض حروف الكلمةِ، وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي، كقوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، فقيل: إنّ الباء هنا أوّل كلمة: (بعض)، ثمّ حذف الباقي. ينظر: إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 3/83.

وقيل: "ومن أقسام الحذف: الاقتطاع: وهو ذكر حرف من الكلمة وإسقاط الباقي، وقد جعل منه بعضهم فواتح السُّور، لأنَّ كلَّ حرف يدلُّ على اسم من أسماء الله تعالى". يُنظر: الكفويّ، الكلّيات، ص: 385.

﴿يَكُ﴾؛ إذِ الأصلُ: يكُنْ، فحُذِفَتِ النُّونُ تخفيفًا، وحسَّنَ هذا الحَذْفَ أنَّ المقامَ فيه ما يشُدُّ السَّامِعَ إلى معرفة حاله فيه، فكان في حَذْفِ النُّونِ تنبيهٌ عَلى ذَلك[1]، وتعجيلٌ للمسرَّةِ الحاصلَةِ بسبَبِ التَّوبةِ، وللإيضاح فيما روي في الرِّوايات الصِّحاح، "قيل: لمَّا تلاها رسول الله ﷺ، قال الجُلاسُ: يا رسولَ اللهِ لقدْ عرض اللهُ عليَّ التَّوبةَ، والله لقد قلت وصدق عامرٌ، فتاب الجلاسُ وحسُنت توبتُه"[2].

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ وَوَجْهِ تَذْكيرِه في: ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

فائدةُ عَوْدِ الضَّميرِ عَلى مُذَكَّرٍ لَفْظًا وَمَعْنًى أَوْ لَفْظًا فقط

اسمُ كانَ مِن قول اللهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، ضميرٌ مستترٌ تقديرُهُ: هوَ، راجعٌ إلى ﴿يَتُوبُواْ﴾ باعْتِبار المَصْدَرِ المستَكِنِّ في الفِعْلِ لا إلى ذات الفعلِ؛ إذْ لا يَكونُ مَرْجِعُ الضَّميرِ فعلًا، فالمعنى: تَكنِ التَّوبةُ خيرًا لهُمْ، وقُدِّر الضَّميرُ (هوَ) مذكَّرًا؛ لأنَّه الملائمُ لتذكير الفعل ﴿يَكُ﴾، وفي ذلكَ تَخْريجاتٌ: أَوَّلُها: أنَّ مرجعَ الضَّميرِ مذكَّرٌ، وهو التَّوْبُ، والتَّقدير: فإن يَتوبوا؛ يكُ التَّوبُ خيرًا لَهُم، والتَّوبُ مصدرٌ كالتَّوبة. وثانيها: أنَّ مرجِعَ الضَّمير هوَ التَّوبة، ولا يَضُرُّ تذكيرُ الفعلِ مع ما هو مؤنَّثٌ لفظًا؛ لأنَّ مثلَ هذا مغتفَرٌ في المصادِرِ. وثالثُها: أن يكونَ تذكيرُ الفعل باعتبار الخَبَرِ لا باعتبارِ الاسم، والخبَرُ وهو ﴿خَيْرًا﴾ مُذَكَّرٌ[3].

دِلالَةُ الخَبَرِ في: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾:

إحسانُ اللهِ بفتحِ بابِ التَّوْبَةِ للأنامِ، رغم جرائمهم العِظامِ

قولُ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ جُمْلَةٌ خبريَّةٌ؛ إذِ التَّحقيقُ في جملة الشَّرْطِ، أنَّهُ يُنظَرُ إليها باعتبار جوابِها، فإنْ كانَ جوابُها خبرًا؛ فهي خبريَّةٌ، وإنْ كانَ جوابُها إنشاءً؛ فهي إنشائيَّةٌ، والجوابُ في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ خبرٌ، فالجملَةُ خبريَّةٌ، والقَصْدُ من

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/329.

الخبر استعطافُ قلوبِهم بَعْدَ ما صدَرَ عَنْهُم من الجناياتِ العَظيمَة، وهَذا من عَظيم إحْسانِ اللّه تعالى إليهم ورِفْقِه ولُطْفِه بِهِم؛ حيثُ فَتَحَ لَهُم بابَ التَّوبةِ بعد جرائمهم العِظام[1]، فقد"دعاهم تعالى إلى التَّوبة بقوله: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ﴾، أي: من الكفر والنِّفاق، ﴿يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ﴾"[2].

نُكْتَةُ تَضْعيفِ الفِعْلِ ﴿يَتَوَلَّوۡاْ﴾:

في النُّفوس داعيَةٌ شَديدَةٌ - بِأَصْلِ الفِطْرَة - إلى التَّوْبَةِ

ضُعِّفَ الفِعْلُ ﴿يَتَوَلَّوۡاْ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾؛ لأنَّ في النُّفوس مِنْ أصلِ فطرَتِها الأولى داعية شَديدةً إلى التَّوبةِ، وفي القُرآنِ الكريم زاجرًا عظيمًا عَنِ الانحراف، فكانَ في تَضْعيفِ الفِعْلِ ﴿يَتَوَلَّوۡاْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ العدول عن التَّوبة، لا يكونُ إلَّا بِمُخالَفَةِ داعية النَّفْسِ، وزَواجر القُرآن الكريم، ولا يكونُ هَذا إلَّا بأَنْ يُكَلِّفوا أنفسَهُم الإعراضَ عن التَّوبة[3].

دِلالَةُ الإيجازِ بِالحَذْفِ في: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾:

شَناعَةُ الإعْراضِ عَنِ التَّوْبَةِ والإيمانِ

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، إيجازٌ بالحَذْفِ، فقد حُذِفَ متعلّقُ الفعلِ ﴿يَتَوَلَّوۡاْ﴾، والتَّقدير: فإن يتولَّوا عن التَّوبةِ والإيمانِ[4]، وفي حذْفِ ذلكَ إشعارٌ بشناعَةِ ما يصْنَعونَهُ مِنَ الإعراضِ والتَّولِّي، وأنَّه أمرٌ لا يَحسُنُ ذِكْرُه في اللَّفظ، فكيف حالُهُ إذا صار واقعًا؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، حَذْفٌ من جهة أخرى، وذلك لأنَّ اللّه تَعالى ذكرَ احتمالَ تولِّيهم عَنِ الإيمانِ، ولازِمُ ذلكَ إصرارُهم على الكُفْرِ والنِّفاق، فمعنى قوله سبحانَهُ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ﴾، أي: إن يُعْرِضوا عنِ التَّوبة والإيمان، ويُصِرُّوا على النِّفاقِ والكُفْرِ[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/105، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/466.
(2) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 5/458.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/280.
(5) الخازن، لباب التّأويل: 2/386.

دِلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ:

بيانُ عَظَمَةِ العَذابِ الَّذي يُعَذَّبُ بِهِ المُخالِفونَ لِرُسُلِ الله

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، عُرِّفَ المسندُ إليه بالعلَميَّةِ في قول اللّه سُبحانَهُ: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ وهو أعرف المعارف؛ لأنَّه علمٌ على واجب الوجود، بكلِّ معاني الكمال فيه، وقد جيء به لبيانِ عَظَمَةِ هذا العذابِ وشدَّتِه، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدُّنْيا بالقتل والهمِّ والغمِّ، والآخِرَةِ بالنَّارِ وغيرها من ألوان العذابِ الصَّاعقة لمن يصطلي به[1]؛ إذْ هوَ عذابٌ صادرٌ مِن عِنْدِ مَنْ جَمَعَ صفاتِ الكمالِ والجلالِ، وهوَ المحيطُ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعلمًا بحَوْلِهِ وقوَّتِهِ[2].

دِلالَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿عَذَابًا﴾:

بيانُ شِدَّةِ العَذابِ الأُخْرَوِيِّ المهولِ الَّذي يَنالُ المُنافِقينَ

نُكِّرت كلمةُ ﴿عَذَابًا﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لإفادَةِ التَّعظيم، فهوَ عذابٌ عظيمٌ شديدٌ، ويجوزُ أَن يَكون التَّنكيرُ لبيانِ النَّوعيَّةِ، أي: يُعذِّبهُم اللّهُ سبحانَهُ عذابًا لَيْسَ من جِنْسِ العذاب الَّذي أَلِفوه، ولا تعارُضَ بينَ الدِّلالَتَيْنِ، بَل إحْداهُما تقوِّي الأخرى، ووَصْفُ العذابِ بالأليم في قَوْلِه ﷻ: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، بمنزلةِ التَّأكيدِ المعنويِّ؛ لأنَّ شدَّة العذابِ وإيلامَهُ وشدَّته، مستفادَةٌ من تنكيرِ لفظِ العذاب.

دِلالَةُ الطِّباقِ في: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾:

العذابُ الشَّديدُ عَلى المُنافِقينَ مُتواصِلٌ في الدَّارين

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ طباقُ إيجابٍ بينَ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾، وفيه إشعارٌ باسْتِمْرار العَذابِ الشَّديد عليهم وعدم انقطاعه عنهم، بَل فيه إيماءٌ إلَى أنَّهم يُعذَّبونَ أيضًا في قبورهم، إمَّا لكون العذاب في القُبور مِن أحوالِ الآخرةِ، أَوْ لأنَّ أحوالَ القبرِ بَرْزَخٌ بينَ الدُّنيا

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/458.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.

والآخرَةِ، والقاعدَةُ تقتضي أنَّ البَيْنَ مستحضَرٌ في الطَّرفين، فذِكْرُ الدُّنيا والآخرةِ يقتضي أنَّ ما بينَهُما داخِلٌ فيهما.

دِلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَا لَهُمۡ﴾:

يُغْتَفَرُ في التَّوابِعِ ما لا يُغْتَفَرُ في المَتْبوعاتِ

الواوُ في قول اللّهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ عاطفَةٌ؛ عطفَت ما بعدها عَلى جُملة: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾، فتكون جوابَ شَرْطٍ ثانيًا، ولا يُشْكِلُ عَلى هَذا كَوْنُ الجملة اسميَّةً، ولم تقتَرِنْ بالفاءِ الرَّابطَةِ؛ لأنَّه يُغْتَفَرُ في التَّابع ما لا يُغتفَرُ في المَتْبوع، فإنَّ حرفَ العطفِ يَكفي في رَبْطِ الجُملَةِ تبعًا للجُمْلَةِ المعطوف عليها[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِلفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

سُفولُ هِمَمِ المُنافِقينَ وانْحِطاطُ عَزائِمِهِم دليلٌ على هوانِهِم

في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، نجد لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، وفيه الإيماءُ إلى سُفول هِمَمِ المنافقينَ وانحطاطِ عزائمهم[2]، والمُرادُ بالأرضِ: الدُّنيا، أي: ما لَهُم في هَذه الدُّنيا من وليٍّ ولا نصيرٍ، ووجهُ انعدامِ الوليِّ والنَّصيرِ عَنْهُم: أنَّ أخَصَّ ما يتميَّز به المنافق، هو فُقْدانُهُ الإخلاص، فلا يُخلِصُ لأحدٍ قريبًا كانَ أو بعيدًا، ولذا لا يكونُ أحدٌ وليًّا له ونصيرًا؛ لأنَّ ذلكَ لا يكونُ إلَّا بالثِّقَةِ، ولا يوثَقُ بمنافقٍ[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

لا منقذَ لِلمُنافِقينَ مِنَ العَذابِ لا بِالشَّفاعَةِ ولا بالغِلابِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ اللَّامُ في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الآية الكريمة، لامُ الجنسِ المفيدَةُ عمومَ البقاعِ المُندرجة في لفظها، وفي هَذا دِلالَةٌ عَلى حُلول العَذاب الشَّديد عَلى المُعْرِضينَ عن التَّوبةِ المتولِّين عَنِ الإيمانِ، وأن لا ناصرَ لهم ينقذهم من العذاب بالشَّفاعةِ أو المُدافعة، فقولُهُ ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/271.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/550.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3381.

أي: ليسَ لَهُم في الأرض مع سَعَتِها وتباعُد أَقْطارِها، وكَثْرةِ أهلِها، مَن يُنْقِذُهم مِن العَذاب[1].

دِلالَةُ ﴿مِن﴾:

لا تغني الشَّفاعةُ في المصير، ولا ينفع وليٌّ ولا نصير

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، صِلَةٌ يُرادُ بها تأكيدُ عُموم النَّفْي، ونقلُهُ مِنَ الظُّهورِ إلى النَّصِّيَّةِ، وذلك لأنَّه لو ورد النَّظْمُ القرآنيُّ: (وما لَهُم في الأَرْضِ وَليٌّ ولا نصيرٌ)؛ لأفاد هذا العُمومَ الظَّاهِرَ، مع احتمالِ إرادَةِ الخصوصِ، لكن لَمَّا دخلَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) نقَلَ هذا العمومَ من كونه ظاهرًا في العموم، إلى كونه نصًّا فيه، فلا يحتَمِلُ إرادَةَ الخصوصِ، فكان في قولِه سُبحانه: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، التَّصريحُ بنفي الشَّافع للمنافقينَ، والمدافع عنهم نَفْيًا قاطِعًا.

نُكْتَةُ عَدَمِ ذِكْرِ السَّماءِ: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

انْحِطاطُ شَأْنِ المُنافِقينَ نتاجُ سوءِ تقدير العواقب

صُرِّحَ بِذِكْرِ الأرض، ولم تُذكَرِ السَّماء في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾؛ لأنَّ المُنافِقينَ أقَلُّ شأنًا مِن أن يَطْمَعوا من السَّماء بوليٍّ أَوْ ناصرٍ، وأغْلَظُ فِكْرًا مِن أن يرتَقيَ بهم فِكْرُهُم إلى ما في السماء مِنْ عجائبَ وما بها مِن جُنودٍ[2]، ولأنَّ طلبهم النُّصرة، إنَّما يكون من الأرض لا من السَّماء؛ لأنَّ اعتقادهم في نصرة السَّماء كان معدومًا، وكانوا يرون الاتِّصال المباشر باللّه مستحيلًا، وأنَّهم يعبدون الأصنام لتقرِّبهم إلى اللّه زلفى، وهم القائلون: ﴿۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 36 - 37]، ولذلك تلاءم التَّعبيرُ عن الأرض دون السَّماء، مع المراد في السِّياق.

سرُّ انقطاعِ الولاية بين غير المؤمنين:

قوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾، يُشيرُ إلى أنَّ اللّهَ تعالى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85، والآلوسي، روح المعاني: 5/329.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/551.

من اعتصمَ بغير اللهِ؛ ضلَّ، ومن احتمى بغيره؛ ذلَّ

حصر ولاية الأخوَّة والمودَّة وولاية النَّصر في المؤمنين والمؤمنات دونَ المنافقين والمنافقات، فلَنْ يجدوا بعد الآن أحدًا من المسلمين يتولَّاهم، أو ينصرُهم بما يظهرون من النِّفاق، ولا من عصبيَّةِ الجاهليَّة، فقد أبطلَها الإسلامُ، ولا من الجوار والحلف فقد ضاع أدراجَ الرِّياح، ولا من أهل الكتاب، فقد ضاعَ سلطانُهم، وتلاشوا في تلافيف الزَّمان، وليس لهم ذلك في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، وهو من بليغِ التَّعبيرِ، وجميلِ الإشارة إلى التَّغيُّرات الكبرى في المصائرِ والعلاقات، والجزم بما هو منطوٍ في تلافيفِ الغيبِ، ممَّا لا يحيط به إلَّا علَّامُ الغيوب، ولذلك انتهت الآية بهذا النَّفي الجازم الفصيح، لتيئيسِ الكفرةِ والمنافقين، من أيِّ ولاية أو نُصرةٍ، قد يطمعون في اللُّجوء إليها؛ إذا حلَّ بهم العقابُ في الدُّنيا، أو قدموا للعذاب في الآخرة[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

نَقَمَ وأَنْكَرَ:

الفِعْلُ (نَقَمَ) أخصُّ من الفعل (أَنْكَرَ)، وفي النِّقمة إرادة العقوبة دون الإنكار

بين (نَقَم) و(أنكرَ) عمومٌ وخصوص مطلق، فالفعل (نَقَمَ) أخصُّ من (أَنْكَرَ)؛ وذلك أنَّ قولَ القائلِ: أَنكرتُ منْهُ كذا، يَدلُّ على أنَّه لم يُجَوِّزْ صنيعَهُ، ويُفيدُ أيضًا أنَّ المُنْكرَ بيَّنَ أنَّ ذلك ليس بصَلاحٍ، بخلافِ قَوْلِ القائلِ: نَقَمَ منْهُ، فإنَّه يدلُّ على أنَّه أَنْكَرَ عليه إنكار مَنْ يُريدُ العقابَ، ويدلُّ لذلكَ قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: 8]؛ فإنَّهُم أنكروا منهم توحيدَهُمُ اللّهَ تعالَى، وعذَّبوهُم عَلى ذَلك في الأُخْدودِ، ويدلُّ لِذلك أيضًا قولُ اللّه ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، فإنَّهم أَنْكَروا ما جاءَهُمْ به الرَّسولُ ﷺ باطنًا، وهمُّوا بقتله أو إخراجه[2].

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/481، (بتصرّف).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 47.

﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾

[التّوبة: 75 - 77]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِمَا قَبْلَها:

عِظَمُ بُخلِ المُنافِقينَ وَجراءَتِهِمْ عَلى أَقْبَحِ الكَذِبِ وَأَشْنَعِهِ

لَمَّا أقامَ اللّهُ ﷻ الدَّليلَ الخاصَّ على إجرام المنافقِين، وخَتَم ذلكَ بأنَّه أغناهُمْ من فضلِهِ؛ أتبعَ ذلكَ بإقامة الدَّليلِ علَى هذا الإغْناءِ، وأنَّهم لم يَقوموا فيهِ بحقِّ اللّهِ سبحانَهُ، وأنَّهم قابلوا إنْعامَ اللّهِ تَعالى عليهم بِقَبْضِ أيديهم عَنِ الإنفاق واجترائهم عَلى أَقْبَحِ الكَذِبِ وأشنعه، فقال ﷻ: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[1]، والحال أنَّ "من المنافقين من أعطى اللّه عهدَهُ وميثاقه، لئن أغناه اللّه من فضله، وأعطاه مالًا وثروةً، ليشكرَنَّ اللّه على نعمتهِ بالصَّدقَةِ منها، وليعملنَّ عمل أهل الصَّلاح، من صلةِ الرَّحم والإنفاق في سبيل اللّه"[2]، لكنَّه أخلفَ الوعد، ولم يلتزم بالعهد، وأظهر نفاقَه وكَذِبَهُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰهَدَ﴾: أصلُ العَهْدِ: حِفْظُ الشَّيءِ ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ[3]، وهذه المُراعاةُ حالًا بَعْدَ حالٍ هيَ الَّتي عبَّر عَنْها الخليلُ بقولِهِ: إحداثُ العَهْدِ بالشَّيءِ[4]، ومِنْ هذا البابِ: العهدُ الذي هو الوصيَّةُ[5]؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/268.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير: 13/11.
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، ص: 591، والسَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفّاظ: (عهد).
(4) الخليل بن أحمد، العين: (عهد).
(5) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيَّة: (عهد).

لكونها مِمّا تُحْفَظُ، وتُراعى حتَّى تَنْفُذَ، وللعهد معانٍ كثيرةٌ جدًّا، منها: الأمانُ، واليَمينُ، والذِّمَّة، ورعاية الحقِّ، والمَنْزِل[1]، وكلُّها راجعةٌ إلى الأصل المذكور، والمُعاهَدَةُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ معاقَدَةٌ بعزيمةٍ تتحقَّق بذِكْرِ اللّه تعالى[2]، والعَهْدُ العقدُ، يُقال: عاهَدَ، أي: عقد عقدًا أوجب على نَفسه القيامَ به، وهو عكسُ الغدر[3]، العهد هُنا الميثاقُ، ومنه قوله تعالى: "﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: 34]، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ﴾ [التّوبة: 4]، والعهد: الحفظ، ورعايةُ الحقِّ، وهو مصدر، وفي الحديث: «أنَّ عجوزًا دخلت على النَّبيِّ ﷺ، فسألَ بها وأحفى، وقال: إنَّها كانت تأتينا أيامَ خديجة، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان»[4].

2) ﴿بَخِلُوا۟﴾: الباءُ والخاءُ واللَّام، تَدورُ تَصريفاتُها عَلى معنى إمساكِ ما يُتَطَلَّبُ، ويُمْكِنُ إِخْراجُهُ[5]، وحقيقةُ البخل - كما قال الرَّاغِبُ -: إِمْساكُ المُقْتَنَياتِ عمَّا لا يَحِقُّ حَبْسُها عنه[6]، ويُعرَّفُ أيضًا بأنَّهُ: مَنْعُ الواجِب في دينٍ أو مُروءةٍ أو عادة[7]، وقد (بَخِلَ) بكذا من باب فَهِمَ وطَرِبَ، وبُخلًا أيضًا بالضَّم، فهو باخلٌ وبخيل، وبخَّلَهُ نسبَهُ إلى البُخْل[8]، ويقال: «الولدُ مبخلةٌ مجبنةٌ»[9]، والبُخْلُ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾، هوَ إمساكُهُم فضلَ اللّهِ تعالى الَّذي آتاهُم، فَلَمْ يتصدَّقوا مِنْهُ، ولَم يَصِلوا بهِ قرابةً، ولم يُنْفِقوا منه في حَقٍّ من حُقوق اللّهِ سُبْحانَهُ[10].

3) ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾: العَيْنُ والقافُ والباءُ، تدُلُّ اشْتقاقاتُها عَلى معنيَين كُلِّيَّيْنِ؛ أحدُهما:

(1) القاسم بن سلّام، غريب الحديث: (عهد)، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (عهد)، ونشوان الحِمْيَريّ، شمس العلوم، (عهد).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 10/558.
(3) الميورقيّ، تفسير غريب ما في الصّحيحين البخاريّ ومسلم، ص: 426.
(4) أخرجه الحاكم في المستدرك: 1/15 - 16، والشّهاب القضاعيّ في مسنده، الحديث رقم: (971)، والحديث مذكور في النّهاية: 3/325، وذكره كذلك: نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: (عهد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بخل).
(6) الرّاغب، المفردات: (بخل).
(7) أبو موسى المديني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: (بخل).
(8) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (بخل).
(9) والحديث ورد بهذه الصّيغة، وبصيغة فيها زيادة، وهي قوله: «الوَلَد مَبْخَلَة مَجْبَنَة مَحْزَنَة مجهلَة»، وقد رواه بصيغته المختصرة ابن ماجه عن عبد الله بن سلام، قال: جاء الحسن والحسين يستبقان إلى النّبيّ ﷺ فضمّهما إليه، وذكره، وللعسكريّ والحاكم عن الأسود بن خلف أنّ النّبي ﷺ أخذ حسنًا فقبّله، ثمّ أقبل عليهم، فقال: «إنّ الولد مجبنة مبخلة»، ينظر: الثّعالبيُّ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: 5/440.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 14/369.

تأخيرُ شَيْءٍ ومجيئُه بَعْدَ غيره، والآخرُ: ارتفاعٌ وشِدَّةٌ وصُعوبةٌ[1]، ومِنَ الأوَّل قَوْلُهم: أَعْقَبَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ؛ إذا صارَ مكانَهُ؛ لأنَّه يَكونُ متأخِّرًا عَنْهُ[2]، ومِنْهُ سمِّيتِ العقوبةُ بذلكَ؛ لأنَّها تَكون آخرًا بعد الذَّنْبِ[3]، وقد قال الشَّاعر:

كَمْ مِنْ عَزيزٍ أَعْقَبَ الذُّلُّ عِزَّهُ *** فَأَصْبَحَ مَرْحومًا وَقَدْ كانَ يُحْسَدُ[4]

"وكلُّ شيءٍ يعقُبُ شيئًا، فهو عقيبُه، كقولك: (خَلَف يخلُفُ) بمنزلة اللَّيل والنَّهار، إذا قضى أحدهما عقب الآخر، فهما عقيبان، كلُّ واحدٍ منهما عقيبُ صاحبه، ويعتقبان، ويتعاقبان: إذا جاء أحدُهما؛ ذهب الآخر، وقولُ اللّه ﷻ: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا﴾، أيْ: عوَّضهم، وأبدلَهُمْ عقوبةً لَهُمْ"[5].

4) ﴿نِفَاقٗا﴾: النُّون والفاءُ والقافُ، تَدُلُّ تَصْريفاتها على أَصْلَيْن؛ أحدُهما: انقطاعُ الشَّيء وذهابُه، والآخَرُ: إخفاءُ شَيْءٍ وإغماضُهُ[6]، ومِنَ الثَّاني: النِّفاقُ؛ وهوَ إظهارُ الإسْلام مَعَ إبْطانِ الكُفْرِ وإخفائِه[7]، وهو مأخوذٌ مِن نافِقاء اليَرْبوع؛ وهو جُحْرٌ يَخْرُجُ مِنْهُ إذا سُدَّ الجُحْرُ الَّذي دخل مِنْهُ بِحَجَرٍ، فيُقال: نَفَقَ ونافقَ، فشُبِّهَ فعلُ المنافق بفعل اليَرْبوع؛ لأنَّه يدخُل مِن باب، ويَخْرُج مِن آخرَ، وكذلكَ المُنافقُ يَدْخُل في الإسلامِ باللَّفْظِ، ويَخْرُج مِنْهُ بالاعْتِقادِ[8].

المَعْنى الإجْماليّ:

يذكر السِّياقُ أنَّ مِن هَؤلاءِ المُنافقين جماعَةً مِنَ الفُقَراء، يَقولُ أحدهم: لَئِنْ أَعْطانا اللّهُ تعالى مِن فَضْله، ورَزَقَنا مالًا، لَنُخْرِجَنَّ الصَّدقةَ من ذَلِكَ المالِ الَّذي رَزَقَنا إيَّاه، ولَنَعْمَلَنَّ فيه بعَمَل أهلِ الصَّلاح بأَمْوالِهم، من صِلَةِ الرَّحم به، وإنْفاقه في سَبيلِ اللّهِ تَعالى، فلمَّا رزقهم اللّه، وآتاهُم مِن فَضْلِهِ؛ لَم يتصدَّقوا مِنْهُ، ولم يصلوا مِنْهُ قرابةً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (عقب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(4) الخليل بن أحمد، كتاب العين، وابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(5) ينظر: كتاب العين: (عقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفق).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نفق).
(8) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 29.

ولم يُنْفِقوه في أوجُهِ الخير، وأدبروا عن عَهْدِهم، فكانَ جزاءُ بُخْلِهِم بحقِّ اللّهِ تعالى الّذي فرضه عليهم، فيما آتاهُم مِن فَضْلِه، وإخْلافِهم الوعْدَ الّذي وعدوا اللّه تعالى، ونَقْضِهِم عَهْدَه في قلوبهم: أَن زادَهُم نِفاقًا عَلى نفاقهم، لا يَقْدِرون على الانفكاك منه إلى أن يَلْقَوُا اللّهَ عَلى تلك الحال، وذَلك بِسَبَبِ إِخْلافِهِمُ العَهْدَ الّذي عاهَدوا اللّهَ تَعالى عليه؛ مِنَ التَّصدُّق والإنْفاقِ في سَبيلِه، وبسبب نفاقهم وكَذِبِهم في قيلِهم[1].

المُـنـافِـقـونَ أَكْـذَبُ النَّـاسِ في الـقَـوْلِ، وَأَشَدُّهُمْ خُلْفًا وغدرًا

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دِلالَةُ الواوِ: ﴿وَمِنْهُم﴾:

الواوُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ بعدَهُ استئنافٌ[2] يُرادُ به بيانُ صِنفٍ مِن أصنافِ المنافقينَ، بعد الأمر بجهاد عامَّتِهم والغِلْظَةِ عليهِم.

بَيانُ حال صِنْفٍ مِنْ أَصْنافِ أَهْلِ النِّفاقِ

دِلالَةُ (مِنْ) في: ﴿وَمِنْهُم﴾:

حرفُ الجَرِّ (مِنْ) في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ دالٌّ على التَّبعيضِ، والضَّميرُ (هُمْ) راجعٌ إلى المنافقينَ، وفي استعمال حَرْف الجرِّ (مِنْ) إيماءٌ إلى أدبٍ قرآنيٍّ راقٍ، وهوَ الإنصافُ ولَو مَعَ المخالفينَ المعادينَ لنا، فاللّهُ سُبحانه يُعلِّمنا الصِّدقَ في الأَحْكام والإنصافَ فيها؛ لئلَّا نُسْرِفَ في القولِ، فنُعَمِّم القولَ في المَقاماتِ الخاصَّةِ[3].

أمرُ اللهِ تَعالى بـالـصِّـدْقِ في الأَحْـكـامِ والإِنْصافِ فيها

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالاِسْمِ الأَعظمِ ﴿ٱللَّهَ﴾:

عُلِّقَ فعلُ المعاهدَةِ على الاسم الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾ في قول اللّه ﷻ: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾؛ تعظيمًا لهذه المعاهدَةِ؛ إذ هي مُعاهدَةُ

شَـنـاعَـةُ نَـقْـضِ العَهْدِ المُبْرَمِ مَعَ اللهِ ﷻ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/369 - 370، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/138.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3382.

الجامعِ لصِفات الجَلال والجمال والكمال، والعظيم الَّذي لا أعظمَ منه[1]، ويترتَّب عَلى هذا تشنيعُ نقضهم لهذا العَهْدِ، وتَبْشيعُ خُلْفِهِمْ لهذا الوعد.

دِلالَةُ اللَّامِ في ﴿لَئِنْ﴾:

اضطرابُ قُلوبِ المُـنـافِـقـينَ في اليقين بعظمةِ ربِّ العالمين

اللَّامُ في ﴿لَئِنْ﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ موطِّئةٌ لقسَم مقدَّرٍ، وجوابُ القسم قولُه: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[2]، ففيه تأكيدٌ مِنْهُم للعهد الَّذي عاهدوا اللّهَ تعالى عليه، حيثُ بالغوا في العَزْم عَلى الوفاءِ بهِ بالقسَم، ومعَ هَذا التَّأكيدِ الشَّديدِ إلَّا أنَّهم نَقَضوهُ، وخالَفوهُ؛ لعدَمِ استقرارِ عظَمَةِ اللّهِ تعالَى في قُلوبِهِمْ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالإيتاءِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا﴾:

طَمَعُ المُنافِقينَ في عَظيمِ العَطاءِ، وامتدادُ أملِهم فيه بالرَّجاءِ

جاء التَّعبيرُ بالإيتاءِ دونَ الإعطاء في قول اللّه سُبْحانه: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ لنكتتين:

إِحْداهُما: تعظيمُ هذا العَطاءِ؛ لأنَّ الإيتاءَ في الاستعمال القرآنيِّ لا يكون إلَّا للشَّيءِ الكثيرِ والعَظيم القدْرِ، كالقُرآن، والتَّوراة، والمُلْك، والرَّحمَة، بخلاف الإعطاءِ[3]، فكأنَّهم طَمِعوا في عطاءٍ عظيمٍ يَصْلُحُ معَهُ التَّعبيرُ بالإيتاءِ لِعَظَمَتِه، والأخرى: إيهامُ استحقاقهم فضْلَ اللّهِ سبحانَهُ، وأنَّهم له أهلٌ، ووجهُ ذَلِكَ: أنَّ الإيتاءَ يَرِدُ لِما يكون فيه العطاءُ عَن طيب نَفْسٍ.

دِلالَةُ الجارِّ والمجرورِ: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾:

لا يَـجِـبُ عَـلى اللهِ العليِّ، إلَّا ما أَوْجَـبَـهُ عَلى نَفْسِهِ في قَـدَرِه الأزَليِّ

قولُ اللّه ﷻ: ﴿۞وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾، فيه قوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، وهو اعترافٌ مِن هَؤلاءِ المُنافقين، بأنَّ عطاءَ اللّهِ سُبحانه لعبادِهِ، لم يكن عَلى سبيل الإلزام عليهِ والإيجابِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/552.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/358.
(3) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

والمعلومُ عقيدةً وواقعًا أنَّه لا يَجِبُ عَلى اللّهِ ﷻ، إلَّا ما أوجبه سُبحانَهُ عَلى نفسه، وأنَّ ذلك العطاء منه تكرُّمٌ وتفضُّلٌ، وهو متناسبٌ مع لفظ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾، وفي ذلك إيماءٌ مِنۡهُمۡ إلَى تنوُّعِ عطاءِ اللّه ﷻ، وأنَّهم من المفروض أن يَرْضَوا به عن طواعية وسماحة، سواءٌ أكانَ عَن طَريق تِجارةٍ، أو غنيمةٍ، أو زراعَةٍ، أو نَحْوِ ذلك، أو كان تفضُّلًا منه دون سببٍ ظاهر، فعطاؤه كثيرٌ، وإنعامه أثيرٌ، وفضله لا نهاية له، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النَّحل: 18].

سِرُّ التَّأْكيدِ في: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾:

الكاذِبُ يُبالِغُ في التَّأْكيدِ لِظَنِّهِ أنَّ النَّاسَ تُكَذِّبُهُ

في قولِ اللّهِ ﷻ حكايةً عَن مقالةِ طائفةٍ مِنَ المُنافِقين: ﴿لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾ تأكيدٌ باللَّام الموطِّئة للقَسَم، وبالقَسَمِ المَحْذوفِ، وبنونِ التَّوكيد الثَّقيلةِ أيضًا، وإنَّما كَثُرَ التَّأكيدُ في مقالةِ المنافقينَ؛ لأنَّهم كذَبَةٌ مارقون، وقَدْ جَرَتِ العادَةُ أنَّ الكاذب يظُنُّ أنَّ النَّاس يُكذِّبونَهُ[1]، فيُبالِغُ في دَفْعِ هذا ابتداءً لتَروجَ مقالَتُهُ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ(نَصَّدَّقُ) دونَ (نَتَصَدَّقُ):

مَنِ ادَّعى الإحسانَ؛ كذَّبته شواهدُ الامتحان

عُبِّرَ بالفِعْلِ (نصَّدَّقُ) في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ﴾، دونَ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لَئِنْ آتانا مِن فَضْلِه لنتصدَّقَنَّ)؛ لنكتتين: إحْداهما: كَوْنُ الأوَّلِ أَخَفَّ بالإدغام[2]، بخلافِ الآخَرِ ففيهِ ضربٌ مِنَ الثِّقَلِ، عِنْدَ اقترانِهِ بنونِ التَّوكيد الثَّقيلَةِ، والأخرى: أنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ فيهِ إيماءٌ إلى أنَّه تصدُّقٌ خالصٌ خالٍ مِنَ الرِّياء، وأَشْعَرَ بذلك الإدغامُ؛ إذ أصل (نصَّدَّق): (نَتَصَدَّقُ)، فأُخْفيَ حرفُ التَّاءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.

بالإدغام[1]، فأشارَ هذا الإخفاءُ إلى إخفاء العمل عن المَخْلوقينَ، وهذه حقيقةُ الإخلاصِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِفِعْلِ الكَينونة: ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾:

دَعْوَى المُنافِقينَ أَنَّهُمْ مَجْبولونَ عَلى الخَيْرِ، باطِلٌ وسفاهةٌ

جاء التَّعبيرُ بفعل الكون (نَكونَنَّ) في قول اللّه ﷻ: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، للإيهام بأنَّهم مَجْبولونَ على الخَيْرِ مطبوعونَ عليهِ[2]، والكينونة الَّتي يحملها لفظ (نَكونَنَّ)، تفيدُ تزييفَ الواقع الَّذي يعصف بوجدان المنافقين، ويوهم من يسمع كلامَهم أنَّهم جادُّون في التَّوق إلى الصَّلاح، والواقع غير ذلك، والدَّليل على زيف تلك الأقوالِ ما وقع منهم من سوء الأفعالِ.

نُكْتَةُ العُدولِ عن (وَلَنَكونَنَّ صالِحينَ):

اعْتِرافُ المُنافِقينَ الضِّمنيُّ، بِأَنَّهم غَيْرُ صالِحينَ

قال اللّهُ ﷻ حكايةً لِمقالة المنافقينَ: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، دون أن يَرِدَ النَّظم القرآنيُّ: (وَلَنَكونَنَّ صالِحينَ)؛ لبيانِ أنَّهم يَعْلَمونَ من أنفسِهم كونهم ليسوا صالِحينَ، وإن أرادوا الإيهامَ بأنَّهم مجبولونَ على الخَيْرِ باستعمال فعل الكون، ولكنَّ حقيقةَ أَمْرِهِم أنَّهم يَشْعرونَ بأنَّهم ليسوا كذلك، وأنَّهم يَرْغَبون في العدولِ عَنِ الحالِ غير الصَّالحة إلى حالٍ أخرَى غير حالهم، فَيَنْدَرِجون في سِلْكِ الصَّالحينَ بَعْدَ أن لَم يَكونوا مِنْهُمْ[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾:

ادِّعاءُ المُنافِقينَ بُلوغَهُمْ أَعْلى المَراتِبِ الفاضِلَةِ زيفٌ وتضليلٌ

في قولِهِ: ﴿وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، الألف واللَّامُ في ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، من قول اللّه ﷻ: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يُرادُ بها الكَمالُ، والمعنى: لنَكونَنَّ في زُمْرَةِ الصَّالحين الكامِلينَ في الصَّلاحِ الرَّاسِخينَ فيه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3385.

دِلالَةُ (الفاءِ) في: ﴿فَلَمَّآ﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، دالَّةٌ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، كما هو أصلُ دلالَتِها، فأفاد ذلكَ سُرعةَ استجابة اللّهِ سُبْحانه لهم؛ ليَظْهَرَ للنَّاس كَذِبُهُم في قيلِهم وخُلْفُهُم في وَعْدِهم ونقضُهم لِعَهْدِهم، وفيهِ ترتيبُ الإخلاف بالعهد؛ لأنَّ الحَلِفَ لا يَزيدُ أهلَ النِّفاقِ إلَّا خداعًا، ولا يُصيِّرُهُ مؤدِّيًا لِلْحَقِّ، فَحالُه على ضدِّ ما يوجبُهُ الإيمانُ؛ إذ الإيمانُ يوجِبُ الوفاءَ، والنِّفاقُ يوجبُ الإخلافَ[1].

الإيمانُ يوجِبُ الوَفاءَ، والنِّفاقُ يوجِبُ الإخْلافَ

نُكْتَةُ تَكْرارِ ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾؛ كُرِّر الجارُّ والمجرور ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾، تقريرًا لما قالَهُ المعاهِدُ، وزيادَةً في تأكيدِ الإعلام، بأنَّ إعْطاءَ اللّهِ سُبحانَهُ أحدًا من عباده، هو محضُ تفضُّلٍ منه ﷻ وتكرُّم[2]؛ إذْ لا يجبُ على اللّهِ سُبحانَهُ شيءٌ، إلَّا ما أوجبه هو تعالى عَلى نفسه تفضُّلًا منه وتكرُّمًا.

عَطاءُ اللّهِ سُبْحانَهُ لِعِبادِهِ، مَحْضُ تَفَضُّلٍ وَتَكَرُّمٍ

دِلالَةُ الفِعْلِ المُضَعَّفِ ﴿وَتَوَلَّواْ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ﴾. عُبِّر بالفعل ﴿وَتَوَلَّواْ﴾، دلالة على أنَّهم كلَّفوا أنفسَهُمُ الإعْراضَ عَن طاعَةِ مَن تفضَّلَ عليهم بالعَطاءِ، مع معرفتهم قُبْحَ نَقْضِ العَهْدِ وخُلْفِ الوَعْدِ[3]، "أي: أدبروا عن طاعةِ اللّه، وعن فعلِ الخير، وهم قومٌ دأبُهم التَّولِّي عن سماعِ الحقِّ، وشأنهم الانقيادُ للهوى والشَّيطان"[4].

نفوسُ المُنافِقينَ ليست مَجْبولَةً عَلى الانْقيادِ إلى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها

نُكْتَةُ ذِكْرِ الإِعْراضِ بَعْدَ التَّوَلِّي: ﴿وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

نُصَّ عَلى الإِعْراضِ بَعْدَ ذِكْرِ التَّولِّي في قول اللّه ﷻ: ﴿وَتَوَلَّواْ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.
(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/553.
(3) البقاعيّ، نظم الدرر: 8/553.
(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 6/358.

جمعُ المُنافِقينَ بين الانْحِرافِ بالقلب، والإعْراض بالجوارح

﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّ التَّولِّيَ لمَّا كان قد يُطْلَقُ عَلى ما يَكونُ بالجسد فحسبُ؛ أُتْبِعَ بذِكْرِ الإعراضِ؛ لبيانِ أنَّ ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ بأَبْدانِهم، وأَعْرَضوا بقُلوبِهم[1]، فجمعوا في انحرافهم بينَ أعْمالِ القُلوب وأعمالِ الجَوارِح.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

الإعْراضُ وَصْفٌ لازِمٌ لِلمُنافِقينَ؛ فَهُمْ لا ينفكُّون عنه

جاءَ التَّعْبيرُ بالجملة الاسميَّة، في قول اللّه ﷻ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ الإعراضَ صفةٌ لازمَةٌ لَهُمْ، وليسَ وصفًا مُتجدِّدًا فيهم، فهوَ طَبْعٌ لَهُمْ وسجيَّةٌ، وقَد جرَتْ عادتُهُم عَلى الإعراض عن الطّاعات، فلا يُستَنْكَرُ منهم هذا[2].

دِلالَةُ (الواوِ): ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾:

ديدنُ المُنافِقينَ، تَوَلِّيهِم بِإجْرامِهِمْ، وإعْراضُهُم بِقُلوبِهِمْ

الواوُ في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملَةُ بَعْدَها مستأنَفَةٌ، ويجوزُ أن تَكونَ الواوُ حاليَّةً، والمعنى: تولَّوا بإجْرامِهم، والحالُ أنَّهم مُعْرِضونَ بقلوبِهم[3]، ويجوزُ أن تَكونَ هذهِ الجُمْلَةُ معترِضةً؛ لبيانِ عُموم حالهم وشأنهم، أي: تولَّوا وهُمْ قَوْمٌ عادَتُهُم الإعْراضُ[4].

بَراعَةُ التَّصْويرِ:

المُنافِقُ دائِمُ الانْفِلاتِ، فَلا ارْتِباطَ لَهُ بِوَعْدٍ وَلا عَهْدٍ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾، تصويرٌ بديعٌ لنفسِ البخيلِ الَّذي يُؤتيه اللّهُ سُبحانَهُ من فضلِه، بعد أن أَخَذَ العَهْدَ بأنَّه يتصدَّقُ ويفعَلُ في هذا العطاءِ فِعْلَ أهلِ الصَّلاحِ، ووثَّقَ ذلك بأغلَظِ الأيمانِ، ثمَّ يكون مآلُهُ إلى نَقْضِ ذلك العَهْدِ، وخُلْفِ ذلكَ الوَعْدِ بخلًا بالمالِ وشُحًّا به،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553، والآلوسي، روح المعاني: 5/333.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 5/333.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/85.

فالمنافق لا يرتَبِطُ بوعْدٍ، ولا يلتَزِمُ بعَهْدٍ، بل نفسُهُ دائمَةُ الانفلات، عديمَةُ الاستقرار[1].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ التَّرَقِّي:

جاءَ قولُ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، بعد تقدُّمِ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ﴾، وذلك على سبيلِ التَّرقِّي؛ ووجهُ ذلك: أنَّ في الأولَى ذِكْرًا لكُفْرانِ نِعْمَةِ الغَنيِّ ﷻ، مِنْ غيرِ تقدُّمِ عهد منهم، وفي الثانية انْتُقِلَ إلَى الكلامِ عن كُفْرانِ نِعْمَةِ اللّهِ سُبحانَهُ مع سبق عهد منهم على خلافِ ذلك؛ فكانَ هذا انتقالًا مِنَ الشَّديد والقبيحِ إلَى الأَشَدِّ والأَقْبَحِ[2].

كُفْرانُ نِعْمَةِ اللهِ تَعالى مَعَ تَقَدُّمِ العَهْدِ بِحِفْظِها، أَشَدُّ منه مَعَ عَدَمِ ذلك

دِلالَةُ (الفاءِ) في: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، حرفٌ دالٌّ على التَّرتيب والتَّعقيب على ما هو الأصلُ فيه، وأفادَ ذلك تعجيلَ اللّهِ ﷻ لَهُم العُقوبَةَ؛ لأنَّهم لمّا سارعوا في نقض عهدِهم، وخُلْفِ وعْدِهم الَّذي دلَّ عليه قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾؛ عجَّلَ اللّهُ تَعالى لهم العقوبةَ، إذِ الجزاءُ مِنْ جنسِ العمَلِ[3].

الجَزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ، وكما يدين الفتى يدان

بلاغَةُ التَّضْمينِ في: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾:

الفعلُ (أَعْقَبَ) يتعدَّى لمفعولٍ واحدٍ، تقول: أعقبَ الشَّيءُ الشَّيءَ، ولكنَّه وردَ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، مُعَدًّى إلى مفعولين اثنين؛ إذ الأصلُ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (أعقبَهُمْ بِنِفاقٍ)، فيتعدَّى للثَّاني بحرف الجرِّ لا بنفسِه، وإنَّما تعدَّى لمفعولَيْن؛ لأنَّه ضُمِّنَ مَعْنَى الفعل (آتَى) أو (أَعْطَى)[4]، فلمَّا آتاهُمُ اللّهُ سبحانَهُ

مقابلةُ الإتيانِ بالكُفْرانِ، جزاؤهُ غرسُ النِّفاقِ في الوجدانِ

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/553.

(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3384.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.

مِنْ فضلِهِ، فَبَخِلوا بهِ؛ كان الأنسَبُ لحالِهِمْ أن يُؤتوا شيئًا آخرَ يصلُحُ لهم، وهوَ النِّفاقُ، فهو إيتاءٌ بدلَ إيتاءٍ.

بَيانُ مَرْجِعِ الضَّميرِ في: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾:

زيادَةُ التَّرْهيبِ مِنْ عَواقِبِ النِّفاقِ، والتَّخْويفِ مِنْ مغبَّاتِهِ ومفاسده

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾، ضميرٌ مستترٌ في محلِّ رفعِ فاعلٌ، ومرجعُ الضَّميرِ هو: الاسمُ الأحْسَنُ (اللّه)، أي: فأعقبَهُمُ اللّهُ نفاقًا في قلوبهم، ويُؤيِّدُهُ قولُه سبحانه بعدُ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ فإنَّ الضَّميرَ هنا يَرْجِعُ إلى اللّهِ تَعالى؛ إذِ اللِّقاءُ الأُخْرَويُّ إذا أُطْلِقَ؛ انصرفَ الذِّهْنُ إلى لقاء اللّه تعالى للحساب والجزاءِ، ويجوزُ أن يَعودَ الضَّمير على التَّمادي في البُخْلِ[1]، أي: إنَّ تماديَهُم على البُخْلِ؛ أورثَهُمْ نفاقًا مضافًا إلى نفاقِهِمْ، فيكون إسنادُ الإعقابِ إلَيْهِ مجازًا عقليًّا[2]، والأظهَرُ الأوَّلُ[3]؛ لأنَّ حملَ الكلامِ على الحقيقةِ مُمْكِنٌ، وفيه زيادَةُ ترهيبٍ وتخويفٍ وتعظيمٍ لهذا الإعقابِ؛ حيثُ صدرَ مِنَ الَّذي لا أعظمَ مِنْهُ، والَّذي يَصْدُرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿نِفَاقٗا﴾:

المَعْصيَةُ تولِّدُ المَعْصيَةَ، والنِّفاقُ يورِثُ النِّفاقَ

نُكِّرَ لَفْظُ النِّفاقِ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾، تعظيمًا لهُ، فالمعنى: أنَّ اللّهَ ﷻ أورثَهُمْ نِفاقًا عَظيمًا، ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالتَّنكيرِ الدِّلالَةُ على أنَّه نفاقٌ جديدٌ[4]؛ لأنَّه قَدْ تقدَّم بيانُ أنَّ هؤلاءِ منافقونَ، فلم يحصُلْ لَهُم أصلُ النِّفاقِ عقبَ فَعْلَتِهِم تلكَ، وإنَّما طرأَ عَليهِم نفاقٌ آخرُ عَلى نفاقِهِم الَّذي كان حاصِلًا وثابتًا، ولا تنافيَ بَيْنَ الدِّلالَتَيْنِ؛ لأنَّه يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ أنَّ اللّهَ ﷻ أعقبَهُمْ نفاقًا آخرَ زائدًا عَلى النِّفاقِ الَّذي كانوا متلبِّسين به، وهذا النِّفاق الجديدُ نفاقٌ عظيمٌ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/272.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿فِى﴾:

أثرُ استِقرارِ النِّفاقِ في قُلوبِ المنافقين، وتَمكُّنِه مِنْها بعمق

حرفُ الجرِّ ﴿فِى﴾ من قول اللّه ﷻ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، دالٌّ على الظَّرفيَّةِ، وفيه إشارَةٌ إلى أنَّ النِّفاقَ الذي أعقبهم اللّهُ سبحانَهُ إيَّاهُ في قُلوبِهِم نفاقٌ ساكِنٌ قلوبَهُمْ متمكِّنٌ مِنْها؛ بألَّا يزالوا يَقولونَ ما لا يَفْعَلونَ[1]، فيكون المعنى: "وأورثهم ذلك البخلُ والتَّولِّي والإعراضُ عن الحقِّ والخير، نفاقًا راسخًا في قلوبهم، وممتدًّا في نفوسهم، إلى اليوم الَّذي يلقون فيه ربَّهم، فيعاقبهم عقابًا أليمًا على سوء أعمالهم"[2].

بَلاغَةُ الكِنايَةِ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾:

التَّخويفُ مِنْ موافاةِ اللّهِ تَعالى يَوْمَ القيامَةِ بِقَلْبٍ مُلِئَ نِفاقًا

المرادُ باليومِ الَّذي يَلْقَوْنَ فيه اللّهَ سبحانه الوارِدِ في قوله ﷻ: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾، هو يومُ الحَشْرِ؛ لأنَّه يومُ لقاءِ اللّهِ تَعالى للحسابِ والجَزاءِ[3]، فَفي ﴿يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ كنايةٌ، ونُكْتَةُ العدولِ عنِ التَّصريح بأنَّه يومُ الحَشْرِ إلى التَّعبير بيَوْمِ لِقاءِ اللّهِ تَعالى: ما في التَّعبيرِ الكِنائيِّ مِنَ الرَّهْبَةِ والجلالِ والتَّخويفِ؛ إذ هو اليومُ الَّذي يَلْقى العبدُ فيهِ مَنْ له جَميعُ صفاتِ الجلالِ والكَمال، فكَيْفَ يَكون حالُ العبد؛ إذا وافَى اللّهَ تعالَى بِنِفاقٍ عظيمٍ متأصِّلٍ في قلبِه، متمكِّنٍ مِنْهُ؟

دِلالَةُ (الباءِ) في: ﴿بِمَآ﴾:

أثَرُ حُروفِ المَعاني في بَيانِ الدّلالاتِ القُرْآنيَّةِ

الباءُ في قول اللّه ﷻ: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ دالٌّ على السَّببيَّةِ أو التَّعليل، أي: إنَّ اللّهَ سُبحانه أورثَهم نفاقًا في قُلوبِهم بسببِ إخلافِهم وَعْدَ ربِّهم تعالَى وبِسَبَبِ كذبِهِمْ[4]، وقوله: ﴿بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: أخلفوا الوعدَ الَّذي وعدوه للّه تعالى، وجعل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 6/359.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/273.

الإخلافَ للّه ابتداءً لبيانِ جرمِهم فيما فعلوا؛ إذ إنَّهم أخلفوا اللّه تعالى خالقَهم وبارئَهم ومالك أمرهم، وأيُّ نُكرٍ أشدُّ من ذلك؟

بَلاغَةُ الإظْهارِ في محلِّ الإضْمارِ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ﴾:

أَقْبَحُ صُوَرِ إخْلافِ الوَعْدِ، هي إخلافُ الوعدِ مَعَ اللهِ سُبْحانَهُ

في قول اللّه ﷻ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾، إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ؛ لأنَّ مقتضى الظَّاهِرِ أن يرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (بما أخْلَفوهُ ما وَعَدوهُ)؛ لأنَّه قَدْ تقدَّم ذِكْرُه صراحَةً في قولِه: ﴿۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، ثمَّ أُعيدَت عليهِ الضَّمائرُ بعدُ: ﴿لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾، فلمَّا جاءَ هذا الموضِعُ وهو قولُهُ سُبحانَهُ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ﴾ أوردَ اسمًا مُظْهَرًا؛ لأنَّ التَّصريحَ به يُدْخِلُ المهابَةَ على نفسِ السَّامِعِ، ولبيانِ عظيمِ جرمِهم؛ لأنَّهُ إذا كان خُلْفُ وعد آحاد النَّاسِ قبيحًا، فكيف حالُ هؤلاءِ، وقدَ أخلفوا الملِكَ الأَعْظَمَ الَّذي لا أعظمَ مِنْهُ، وهو الجامعُ لِصفاتِ الجَلالِ والكمالِ والجمالِ؟

نُكْتَةُ الجمْعِ بَيْنَ إخْلافِ الوَعْدِ والكَذِبِ:

مُخْلِفُ الوَعْدِ لا يَتَحاشى الكَذِبَ عادَةً

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾، ذَكَرَ اللّهُ سُبْحانَهُ سَبَبَيْنِ لإعْقابِهِمُ النِّفاقَ في قُلوبِهِم؛ أَحَدُهُما: إخْلافُهُمُ الوَعْدَ، والآخَرُ: الكَذِبُ، فقال ﷻ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾، وإنَّما نُصَّ على الكذِبِ بَعْدَ إخلافِ الوَعْدِ؛ لأنَّ إخلافَ الوَعْدِ لَمَّا كان شديدَ القُبْحِ، وكان مرتكبُه لا يتحاشَى عادةً من مُطْلَقِ الكذب؛ قُرِنَ به[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾:

تَجَدُّدُ الكَذِبِ مِنَ المُنافِقينَ، يكون مَقْرونًا بِالوَعْدِ أَوْ مُنْفَكًّا عَنْهُ

في التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ دونَ الماضي: (كَذَبوا) مِنْ قول اللّه ﷻ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.

إشعارٌ بأنَّ الكذبَ مِنْهُم يتجدَّدُ دائمًا، سواءٌ أكان مقرونًا مَعَ الوَعْدِ أَمْ مُنْفكًّا عَنْهُ[1].

سِرُّ التَّعْبير بِفِعْلِ الكَوْن ﴿كَانُواْ﴾:

تَمَكُّنُ الكَذِبِ في المُنافِقين غايَةَ التَّمَكُّنِ، شقاوةٌ ونكبة

في التَّعبير بفِعْلِ الكَوْنِ ماضيًا في قول الله ﷻ: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ إيماءٌ إلى كونِهم مُسْتَمِرّين عَلى الكذبِ في جميعِ المقالاتِ، ومِنْ جملتِها: وعدُهُم المذكورُ[2]. وفي قولِهِ: ﴿كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ جمعٌ بَيْنَ صيغتَي الماضي - ﴿كَانُواْ﴾ - والمُضارِعِ - ﴿يَكۡذِبُونَ﴾ - فالماضي دالٌّ على أنَّ الكَذِبَ كائنٌ فيهِم ومُتَمكِّنٌ مِنْهُم غايَةَ التَّمكُّنِ، والمضارع مفيدٌ تكرُّرَهُ وتجدُّدَهُ فيهم؛ فبَلَغوا بذلكَ أسوأَ مراتبِ الكذِبِ[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإيتاءُ والإعْطاءُ:

الإيتاءُ لا مُطاوِعَ لفعله، ويرتبط بالثَّبات والتَّملُّك بخلاف الإعطاءِ

الإيتاءُ والإعْطاءُ مَعْناهُما واحدٌ عندَ كَثيرٍ من أَصْحاب المعجمات[4]، وفرَّق آخرونَ بينَهُما، وحاصِلُ التَّفريقِ راجعٌ إلى ثلاثةِ أوجهٍ[5]: أَحَدُها: أنَّ الإيتاءَ لا مُطاوِعَ لفعله، فتقول: آتاني شيئًا فأخذتُه، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ له مطاوعًا، فتقول: أعطاني شيئًا فَعَطَوْتُهُ، ويترتَّب على هذا أَنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاء؛ لأنَّ المتقرِّرَ أنَّ ما له مطاوِعٌ مِنَ الأفعال أَضْعفُ في إثْباتِ مَفْعوله مِمَّا لا مطاوِعَ له. ثانيها: أنَّ الإيتاءَ يُستعمَلُ غالبًا فيما له ثباتٌ وقرارٌ، بخلاف الإعطاءِ فإنَّ الغالبَ استعمالُهُ فيما يَنتقلُ مِنْهُ بعد قضاء الأَرَبِ منهُ. ثالِثُها: أنَّ في الإعْطاءِ دليلًا على التَّمَلُّكِ بخلاف الإيتاءِ. وأمَّا في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86، والآلوسي، روح المعاني: 5/334.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/273، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3386.

(4) الخليل بن أحمد، العين: (أتى)، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أتى).

(5) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 87، وأبو البقاء الكفويّ، الكلّيّات، ص: 212.

خصوصِ الاسْتِعْمالِ القُرآنيِّ للفظتَي (الإيتاء) و(الإعْطاء)؛ فإنَّ بينَهُما فرقًا مِن جِهَتَيْنِ[1]: إحْداهُما: أَنَّ الإيتاءَ لَم يُستعملْ إلَّا للشَّيءِ الكَثيرِ والعظيمِ الشَّأْنِ، كالقرآنِ الكريمِ، والتَّوراةِ، والمُلْكِ، والرَّحمةِ، بخلافِ الإعطاءِ؛ فإنَّهُ يُستعمَلُ لِلشَّيْءِ القليلِ، ولم يَرِدِ الإعطاءُ مرادًا به الشَّيءُ الكثيرُ إلَّا بقيدِ ما يدلُّ على الكثرَةِ. والأخرى: أنَّ الإيتاءَ إذا صدَرَ مِنَ العَبْدِ يكون عَنْ طيبِ نَفْسٍ، بخلافِ الإعْطاءِ؛ فَهوَ مُطْلَقٌ.

البُخْلُ والشُّحُّ والضِّنُّ:

البخلُ متعلِّقٌ بالمادِّيَّاتِ، والضِّنُّ بالمعنويَّاتِ، والشُّحُّ حِرْصٌ في النَّفس على النَّفيس

هذه الألفاظُ الثَّلاثة تَرِدُ في الاستعمالِ القرآنيِّ مرادًا بِها معانٍ مختلفةٌ، فالبخلُ يَرِدُ في الجانِب الماديِّ، وهوَ العرَضُ مِنْ أعراضِ الدُّنيا، بخلاف الشُّحِّ فإنه يُستعمَلُ لما يَنْبَعِثُ عن النَّفس مِنَ الحِرْصِ عَلى مَنْعِ الخير، وأمَّا الضِّنُّ؛ فهوَ بُخْلٌ معنويٌّ ناشِئٌ عَن نفاسة الشَّيْءِ المبخول به، فالبُخْلُ في اللُّغَةِ: منعُ الرَّجلِ سائلَهُ ما لديهِ من فضلٍ، وأمَّا في العُرْفِ الشَّرعيِّ؛ فهو منعُ الواجبِ، ومنهُ: منعُ الزَّكاةِ، ويُؤيِّدُ كونَ البُخْلِ شرعًا مَنْعَ الواجبِ، ترتيبُ العقابِ الأخرويِّ عليه، ويدلُّ على أنَّ البخلَ يُستعمَلُ في المادِّيَّاتِ قولُ اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾ [اللّيل: 8]، فإنَّ المرادَ بِه البخلُ بالمالِ؛ لأنَّه وردَ مقابِلًا للعطاءِ في قوله قبلُ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥﴾ [اللّيل: 5]، ثُمَّ جاءَ التَّصريحُ في القرآنِ الكريم بأنَّ البخيلَ لا يُغْني عنه مالُهُ إذا دخل النَّار، فقال ﷻ: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾ [اللّيل: 11]، أمَّا الشُّحُّ؛ فهو أعمُّ من أن يُبْخَلَ بالمالِ؛ إذْ هو أمرٌ يتعلَّق بالنَّفس الَّتي تَكونُ مطبوعَةً عليهِ في مَنْعِ الخير، سواءٌ أكان ذلكَ من مالِ العَبْدِ نفسهِ أَمْ مِنْ مال غيرِه، ويدلُّ لذلك اقترانُ الشُّحِّ بالنَّفسِ في مواضعَ من القرآنِ الكَريمِ، منها قولُ

(1) محمّد محمَّد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 27 - 29.

اللّه سُبحانَهُ: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النّساء: 128]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 9].وأمَّا الضِّنُّ؛ فهو مختصٌّ بالجانب المعنويِّ دون المادِّيِّ، واختصَّ بالمعنويِّ، ليكونَ دالًّا علَى نفاسة الشَّيءِ المبخول به، وقد وردَ لفظُ الضِّنِّ في القرآنِ الكَريمِ، في مَوۡضِعٍ واحدٍ للدِّلالةِ على البُخۡلِ بالعِلۡمِ، وهو قولُ اللّهِ سُبحانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾[1] [التّكوير: 24].

(1) محمَّد ياس خضر الدّوريّ، دقائق الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 198 - 200.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ٧٨﴾ [التّوبة: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين الإعقابِ بنفاق القلوبِ، وإحاطةِ عِلم علَّام الغيوبِ

لَمّا كانت مُعاهَدَةُ المنافِقينَ سَبَبًا لِإغْناءِ اللّهِ تعالَى لَهُمْ في الظَّاهِرِ، ورُبَّما توهَّمَ مَنْ لا عِلْمَ عِنْدَهُ أنَّ ذلك كانَ بسببِ خفاءِ أمرِ البواطنِ عليهِ ﷺ، وكانَ اللّهُ سُبحانَهُ قد عاقبَهُمْ بأَنْ أورَثَهُمُ النِّفاقَ في قلوبِهم على وجهٍ لا يقدرونَ عَلى التَّخلُّصِ مِنْهُ، فكان في هذا أعظمُ دليلٍ على أنَّه ﷺ أعلَمُ بما في كُلِّ قلبٍ مِن صاحبِ القَلْبِ نفسِهِ؛ - لَمَّا كان كذلك - أعقبَه بالإنكارِ على مَن لا يعْلَمُ هذا، وتوبيخِهِ وتقريعِهِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِرَّهُمۡ﴾: السِّين والرَّاء تدور تصريفاتُها على إخفاءِ الشَّيءِ، ومنه السِّرُّ، وهوَ ضدُّ الإعْلانِ[2]، والسِّرُّ هو الحَديثُ المَكْتومُ في النَّفْسِ[3]، والسِّرُّ: ما أسررْتَ، والسَّريرةُ: عملُ السِّرِّ من خيرٍ أو شَرٍّ، ويقال: سريرته خير من علانيَتِه. وأسررْتُ الشَّيءَ: أظهرته، وأسررْتُه: كتمْتُهُ[4]، والسِّرُّ: الَّذي يكتم، والجمع الأسرار. والسَّريرةُ مثله، والجمع السَّرائر. وفي المثل: (ما يومُ حليمةَ بسرٍّ)[5]، و"في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(4) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (سر).
(5) المثل: (ما يوم حليمة بسرٍّ): يُضرب لكلِّ أمر متعالم مشهور، وهي حليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغسَّانيّ، لأنَّ أباها لما وجّه جيشًا إلى المنذر بن ماء السَّماء، أخرجت لهم طيبًا في مركن فطيَّبتهم به، فنسب اليوم إليها، ينظر: الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: 2/681.

التَّنزيل ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ [يونس: 54]، أي: أظهروها، وقال ثعلب: معناهُ أسرُّوها من رؤسائِهم، والأوَّل أصحُّ، وسارَّهُ مسارَّةً وسرارًا: أعلمَهُ بسرٍّ[1]، وهوَ المَعْنَى المراد بقول اللّه ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾؛ فإنَّ معناه: ما يَكونُ في نفوسِهم، ويَجْري في أذهانِهمْ[2].

2) ﴿وَنَجْوَىٰهُمْ﴾: النُّون والجيمُ والحرف المعتلُّ تدلُّ تصاريفُها على أَصْلَيْنِ كُلِّيَّيْن، أحدهما: الكَشْطُ والكَشْفُ، والآخَرُ: السَّتْرُ والإخفاءُ[3]، والنَّجْوى: السِّرُّ الذي يكونُ بينَ اثْنَيْنِ[4]، وتخصيصُها بالاثْنَيْنِ جَرْيٌ على الغالِب، وإلَّا فقد تَردُ لأكثَرَ مِنْ ذلك، كما يدلُّ لذلك قول اللّه ﷻ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: 7]، و(انتجاه) خصَّهُ (بمناجاته)، والاسم (النَّجوى)، وقولهُ تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: 47]، جعلهم هم النَّجوى، والنَّجوى فعلهم.. و(النَّجيُّ) على فعيل: الَّذي تُسارُّهُ والجمع (الأنجيَة)، قال الأخفش: وقد يكون النَّجيُّ جماعة كالصَّديق، قال اللّه تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80][5]، والنَّجْوى في الآية قيدِ التَّفسير: هيَ مسارَّةُ بعضِهمْ بعضًا، بالكلام الهامسِ، والصَّوت الخافتِ، دون المجاهرة به للآخرين.

3) ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾: الغينُ والياءُ والباءُ، تدلُّ اشْتِقاقاتُها على تستُّر شيءٍ ما عنِ العيونِ، ومنهُ قَوْلُهم: غابَتِ الشَّمسُ؛ لكونِها عندَ مغيبِها تَسْتَتِرُ عَنِ العيونِ[6]. والغَيْبُ: مَصْدَرُ غابَ يغِيبُ غَيْبًا، ويُطلَقُ مرادًا به اسمُ الفاعِلِ، أي: الغائبُ[7]، وبِهذا المعنى يكونُ الغَيْبُ: كُلَّ ما غابَ عَنْكَ، وجمعُهُ: غُيوبٌ[8]. ويُطلق الغَيْبُ على المُطْمَئِنِّ مِنَ الأرضِ[9]، وهو ما انخفضَ مِنْها، وهو راجِعٌ إلى الأوَّلِ؛ إذِ الدَّاخِلُ في مُطمَئِنِّ الأرْض يكون غائبًا مَخْفيًّا

(1) ابن سيده المرسيّ، المحكم والمحيط الأعظم: (سرر).
(2) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3387.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجو).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(5) زين الدّين الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نجا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(7) يجوز أن يكون بمعنى اسم المفعول، أي: المُغَيَّب. ينظر: محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 1/36.
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: (غيب)، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).
(9) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).

عَنِ العيونِ[1]، والمُراد بالغُيوب في الآية، كلُّ ما غاب عن مدرك البشر وعلمهم، وعن إحساسهم وحواسِّهم، ممَّا لا يعلم حقيقتَهُ إلَّا علَّامُ الغيوب.

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ تَعالى بِالظَّواهِرِ والبَواطِنِ دليلٌ على عظمته وجلاله

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ألَم يَعْلَم هَؤلاءِ المُنافقونَ الَّذين يَكْفُرون باللّهِ تَعالى ورَسولِه سرًّا، ويُظْهِرون الإيمانَ بِهِما لأهْلِ الإيمانِ جَهْرًا: أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ يَعْلَمُ ما يُخْفونَه في أنْفُسِهم، وما يتحَدَّثون به خُفْيَةً في مجالسهم من الكيد والمَكْرِ لأهْلِ الإيمانِ، وأنَّ اللّهَ تَعالى علَّامٌ بما غابَ عَن أسماعِ الخَلْقِ وأبصارِهم وسائِرِ حَواسِّهم؟[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ في: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾:

إحاطَةُ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بالظَّواهِرِ والبَواطِنِ، أمرٌ متيقَّنٌ لا ريب فيه

فُصِلَ قَوْلُ اللّهِ ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾، عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِه اسْتِئْنافًا يُرادُ به تقريرُ المخاطَبِ عنهم؛ وذلكَ لأنَّ كونَهُمْ عالِمِينَ بذلك معروفٌ لدى كُلِّ أَحَدٍ[3].

دِلالَةُ الاسْتِفْهامِ في: ﴿أَلَمۡ﴾:

عَدَمُ اسْتِحْضارِ إحاطَةِ عِلْمِ اللهِ تَعالى، يُجَرِّئُ عَلى ارتكابِ الجرائرِ

الهمزةُ في ﴿أَلَمۡ﴾ مِن قول اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ للاستفهام، وهذا الاستفهامُ ليس جاريًا على حقيقتِهِ؛ لأنَّ حقيقةَ الاسْتِفْهامِ: طلبُ العِلْمِ بشيءٍ لَم يَكُن معلومًا مِن قبلُ، ومِنَ المعلوم أنَّ اللّهَ سُبحانَهُ وسِعَ علمُهُ كلَّ شيءٍ، ولا يخفى عليه شيء، والاسْتِفْهامِ في الآيةِ يُرادُ به الإنكارُ عَلى مَن لا يعلَمُ ذلك، وتوبيخُهُ وتهديدُهُ، أي: أَلَم يَعْلَموا ذَلِكَ حتَّى اجترَؤوا على ما فَعَلوهُ مِن عظائم الأمورِ[4]؟ ويجوزُ أن يكونَ الاسْتِفهامُ مرادًا به التَّقريرُ والتَّنبيهُ عَلى

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 1/84.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/381، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/274.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/554، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3387.

أنَّ اللّه ﷻ يُؤاخِذُهُم ويُجازيهم، بما عَلِمَهُ سُبحانَهُ من أَعْمالِهِم[1]، ولا تنافيَ بَيْنَ المعنَيَيْن؛ لجواز الجَمْعِ بينَهُما[2]، والنِّكاتُ البلاغيَّةُ تتوارَدُ، ولا تتزاحَمُ.

دِلالَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إلَيْهِ ﴿ٱللَّهَ﴾ بالعَلَميَّة:

عَظَمَةُ عِلْمِ اللهِ وكمالُ أوْصافِهِ، تَملأُ القلبَ خشيةً ورجاء

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾، عُرِّف المُسْنَدُ إليْهِ بالعَلَميَّة في هذه الآية الكريمة، لتعظيم قَدْرِ هذا العلم؛ إذ هوَ عِلْمُ مَن له جميعُ صفاتِ الجلالِ والكَمالِ والجَمالِ، وصفاتُهُ ﷻ - ومنْها عِلْمُه - لا مُنْتَهى لكمالِها.

سِرُّ إيرادِ المُسْنَدِ فِعْلًا: ﴿يَعۡلَمُ﴾:

أهمّيَّةُ تأكيدِ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بالسِّرِّ والنَّجْوى

جيءَ بالمُسْنَد فِعْلًا في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ لتأكيد نسبةِ عِلْمِ اللّه ﷻ بالسِّرِّ والنَّجْوَى، وذلك لتكرُّرِ النِّسْبَةِ، ووجهُ ذلك: أنَّ فِعْلَ العِلْمِ - ﴿يَعۡلَمُ﴾ - مسنَدٌ إلى الاسْمِ الأعظم ﴿ٱللَّهَ﴾، ومُسْنَدٌ أيضًا إلى فاعلِه، وهوَ الضَّميرُ المستترُ فيه، فكان في هذا تَكرارٌ للنِّسْبَةِ مرَّتينِ، وهو مفيدٌ التَّقوية والتَّأكيدَ.

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿يَعۡلَمُ﴾:

يَعلَمُ اللهُ ﷻ ما كانَ وما يَكونُ، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ

جاءَ التَّعبيرُ بالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡلَمُ﴾ من قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾؛ لإفادَةِ معنى الاستمرارِ والدَّوامِ، وذلك لأنَّ ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ تتجدَّدُ أفرادُها، فيتعلَّقُ عِلْمُ اللّهِ سُبحانَهُ بجميعِها، فالتَّجدُّدُ في أفرادِ السِّرِّ والنَّجْوى، وأمَّا علمُ اللّه سُبحانَهُ، فهو أَزَليٌّ يَعْلَمُ ما كانَ وما يكونُ.

دِلالَةُ إضافَةِ السِّرِّ والنَّجوى إلى الضَّميرِ: ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾:

إرادَةُ عُمومِ المُنافِقينَ، لانتشارِهِم وخطورتِهِم في كلِّ حين

أُضيفَ السِّرُّ والنَّجْوَى إلى الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى المُنافِقين في قولِ اللّه سُبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ لإرادَةِ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 5/334.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/359.

العمُوْم، أي: إنَّ اللّه ﷻ يَعْلَمُ جميعَ ما يُسرُّونَهُ مِنَ النِّفاق وغيرِه، ويعلَمُ جميعَ ما يتناجَوْنَ به، ويتحدَّثونَهُ فيما بينَهُمْ، مِنَ الطَّعنِ عَلى النَّبيِّ ﷺ، وعَلى أَصْحابه، وعَلى دينِ الإسْلام[1].

نُكْتَةُ تَقْديمِ السِّرِّ عَلى النَّجْوى: ﴿يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾:

العِلْمُ بالسِّرِّ أَعْظَمُ في بَيانِ القُدْرَةِ الإلَهيَّةِ مِنَ العِلْمِ بِالنَّجْوى

قُدِّم السِّرُّ على النَّجْوى في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ لِنِكاتٍ[2]: إحداها: كونُ العِلْم بالسِّرِّ أعظَمَ في الشَّاهدِ مِنَ العِلْم بالنَّجْوَى؛ لكونِ السِّرِّ أَخْفَى وأغمض، ثانيها: أنَّ في تقديم السِّرِّ وتَعليقِ العِلْم بِه تعجيلًا لإدخالِ الرَّوعَةِ والمهابَةِ عَلى قلوبِ المتلقِّينَ، وثالِثُها: تحقيقُ أنَّ نِسبَةَ علمِهِ المحيطِ بالسِّرِّ والنَّجْوَى واحدةٌ عَلى أبلغِ وجهٍ وأكمله وآكده. ورابعُها: الإيذانُ بأنَّ رتبةَ السِّرِّ متقدِّمةٌ على رُتبةِ النَّجْوَى؛ إذْ ما مِن شيءٍ يقَعُ به التَّناجي إلَّا وهو أو مبادئُهُ القريبةُ أوِ البعيدةُ مُضْمَرٌ مِنْ قَبْلُ في النَّفسِ، فَتَعَلُّقُ علْمِ اللّهِ ﷻ به في حالِه الأولى مُتَقَدِّمٌ عَلى تَعَلُّقهِ به في حالِه الثَّانيةِ، وفي عَطْفِ النَّجْوَى على السِّرِّ مع أنَّه أعمُّ: تنبيهٌ لَهُمْ باطِّلاعِه سُبحانَهُ عَلى ما يتناجَوْنَ بِهِ مِنَ المَكْرِ والكَيْدِ والطَّعْنِ[3].

نُكْتَةُ التَّأْكيدِ في: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

زيادَةُ تَقْريرِ عِلْمِ اللّهِ ﷻ بِما غابَ عَنْ حَواسِّ الخَلْقِ

قولُ اللّه سبحانَه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ معطوفٌ عَلى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾، أي: أَلَمْ يَعْلَموا أنَّ اللّهَ تَعالى علَّامُ الغُيوبِ؟ وأُكِّدَ ذلك بـ (أنَّ) لزيادَةِ تَقْريرِ عِلْمِ اللّه سُبحانَهُ بما غابَ عَن أَسْماعِ الخَلْقِ وأَبْصارِهِم وسائِرِ حَواسِّهِم، وأنَّه ﷻ يَعْلَمُ ما اسْتَكَنَّ في نُفوسِهِم مِن إرادَةِ الكَذِبِ والنِّفاقِ[4].

---

(1) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 5/355، ومحمّد الأمين الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 11/365.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/101، والآلوسي، روح المعاني: 5/334.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/334.
(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3387.

سِرُّ الإِظْهارِ في مَوْضِعِ الإِضْمارِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، إظهارٌ في مَوْضِعِ الإضْمارِ، وذَلِكَ لأنَّ مُقْتَضى الظَّاهِرِ أن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وأنَّه علّامُ الغُيوب)؛ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسم الأَحْسَنِ ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله سُبحانَهُ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾، وسِرُّ الإظهار: إلقاءُ الرَّوعَةِ وزيادَةُ المهابَةِ[1]؛ لتضمُّنِ الاسْمِ الأَحْسَنِ (اللّه) لصِفاتِ الكمالِ والجَمالِ والجَلالِ.

تَضَمُّنُ الاسْمِ الأَعْظَمِ (الله) لِصِفاتِ الجَلالِ والكَمالِ

دِلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُبالَغَةِ: ﴿عَلَّٰمُ﴾:

عُبِّر بصيغَةِ المبالغَةِ ﴿عَلَّٰمُ﴾ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، لتأكيدِ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ الَّذي لا يُغادِرُ صَغيرَةً ولا كَبيرَةً، وهوَ سُبحانَهُ يَعْلَمُ خافيَةَ الصُّدور، ومَكْنوناتِ النُّفوس، وإذا كانَ تَعالى عالمًا بجَميعِ الأشْياء، فكَيْفَ تَخْفى أحوالُ المنافقينَ عليه؟[2].

لا يَخْفى عَلى اللهِ سُبْحانَهُ مِنْ أَحْوالِ العِبادِ شَيْءٌ

سِرُّ التَّنْويعِ في التَّعْبيرِ عَنِ العِلْمِ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ ﴿يَعۡلَمُ﴾ ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

أوردَ العِلْمَ المتعَلِّق بسِرِّهم ونَجْواهُم بصيغَةِ الفعلِ ﴿يَعۡلَمُ﴾، والعِلْمُ المتعلِّقُ بالغُيوب الكثيرَةِ بالاسم ﴿عَلَّٰمُ﴾، فقال ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾؛ لإفادَةِ الحُدوث والتَّجدُّدِ في الأوّلِ، والدِّلالة عَلى الدَّوام والمبالغَةِ في الثَّاني، وفي ذَلك مِنَ الفَخامَةِ والجزالةِ الشَّيءُ الكثيرُ[3].

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنِيِّ في تَنْويعِ الصِّيَغِ، بِحَسَبِ مُقْتَضَياتِ الحالِ

بديعُ جِناسِ الاشتقاقِ بين ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ ﴿يَعۡلَمُ﴾ ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾:

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾، جناسُ الاشتقاقِ بَيْنَ ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿عَلَّٰمُ﴾[4]، وفي تَكْرارِ مادَّةِ العِلْمِ زيادَةُ تقريرٍ لِشُمولِ عِلْمِ اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

زِيادَةُ التَّقْريرِ بِإِحاطَةِ عِلْمِ اللهِ سُبْحانَهُ بِكُلِّ مَعْلومٍ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86، والآلوسي، روح المعاني: 5/334.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/388، ومحمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3387.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86.

(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 10/318.

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾:

عِلْمُ اللهِ ﷻ، لا يندُّ عنه غَيْبٌ في الوجود

اللَّامُ في ﴿ٱلۡغُيُوبِ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ لِلجِنْسِ، المفيدةُ استغراقَ جميعِ الأفرادِ المندرجَةِ تحتَها، فكلُّ ما يُسمَّى غَيْبًا؛ فإنَّ اللّهَ ﷻ عالمٌ بِهِ، على أتَمِّ وجهٍ وأكمَلِه، ومن جُمْلَةِ ذلكَ: عِلْمُهُ سُبحانَهُ بكلِّ ما هَمَّ به المُنافِقون، وأضْمَروهُ في أَنْفُسِهِم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّرُّ والنَّجْوى:

السِّرُّ والنَّجْوى يـدُلَّان عَـلى مَعْنى الخَفاء والخُفوت في حديث نفسِك أو غيرك

يَشْتَرِكُ السِّرُّ والنَّجْوى في أنَّ كِلَيْهِما يدُلُّ عَلى مَعْنى الخَفاء في أَصْلِ اللُّغة[2]، والعلاقَةُ بَيْنَهُما العُمومُ والخصوصُ الوجهيُّ؛ فيفترقانِ في وجهٍ، ويشتركانِ في آخَرَ، وذلكَ أنَّ السِّرَّ يختصُّ بحَديث النَّفْسِ، بخلاف النَّجْوَى؛ فَهوَ حديثُ الجَهْرِ، ويجتمعانِ فيما يُحدِّثُ به المَرْءُ بينَهُ وبين آخرَ بحَيْثُ لا يسمَعُهُما غيرُهُما[3]. ويُفرَّقُ بينَهُما مِن وجهٍ آخرَ: وهوَ أنَّ السِّرَّ قد يَرِدُ في غَيْرِ المعاني عَلى سَبيلِ المجازِ، يُقالُ: فَعَلَ سِرًّا، بخلاف النَّجْوى؛ فإنَّها لا تَكون إلَّا كَلامًا[4].

---

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/76.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سر)، (نجو).
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/320.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 63.

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩﴾ [التّوبة: 79]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أخبرَ اللّه ﷻ أنّهم لَم يَكْتَفوا بكُفْران نِعْمَةِ الغِنَى مِن غَيْرِ معاهَدَةٍ، حتَّى ارتكبوا كفرانَها معَ المعاهَدَةِ؛ بيَّنَ سُبحانَهُ أنَّهم لَم يكتفوا بذلك الإجْرام، حتَّى تَعَدَّوْهُ إلى عَيْبِ الكُرَماء الَّذين يبذلون ما لَيْسَ واجبًا عليهم، زيادَةً في التَّقرُّب إلى اللّهِ ﷻ، وحُبًّا في فِعْلِ الخير، ونفع النَّاس، فقال سُبحانَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[1].

العلاقةُ بين علمِ اللهِ بالسَّرائر، وتنديدِهِ بلمزِ المنافقين للمتصدِّق المبادِرِ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَلۡمِزُونَ﴾: اللَّامُ والميمُ والزَّاي تدلُّ تصريفاتُها على مَعْنَى العَيْبِ، يُقال: رجلٌ لَمّازٌ ولُمَزَةٌ، أي: عيَّابٌ[2]، واللَّمْزُ: الاغتيابُ وتتَبُّعُ المَعايبِ[3]، وذكر ابنُ سيدَه أنَّ اللَّمْزَ: هوَ العَيْبُ في الوَجْهِ بالعَيْنِ والرَّأْسِ والشَّفَةِ مع كلامٍ خَفيٍّ، ويقال: "تلمِزُه بفيك بكلامٍ خفيٍّ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التّوبة: 58]، أي: يحرِّكُ شفتَيه بالطَّلب، ورجل لُمَزَةٌ: يعيبُك في وجهك لا من خلفك، وهو من اللَّمْزِ، ورجلٌ هُمَزَةٌ: يعيبك من خلفك"[4]، واللَّمْزُ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ هو العَيْبُ، والمعنى: الَّذين يَعيبونَ على المُتَطَوِّعينَ[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمز).
(3) الرّاغب، المفردات: (لمز).
(4) الرّاغب، المفردات: (لمز).
(5) الخضيريّ، السّراج في بيان غريب القرآن، ص: 79.

2) ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾: الطَّاءُ والواوُ والعينُ تَدورُ اشْتِقاقاتُها على لُيونَةِ شَيْءٍ وتَأَتّيهِ لِما يُراد مِنْهُ، ومنهُ قولُهُمْ: لِسانُهُ لا يَطوعُ بكَذا، أي: لا يَنْقادُ لَهُ، فَيَنْطِقُ بما يُريدُه، ومنه التَّطوُّعُ، كما قالَ تَعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا﴾ [البقرة: 184]، أي: طَوَّعَ نفسَه، ولَيَّنها، ففَعَلَ مِن غَيْرِ أن يُطْلَبَ إِلَيْهِ زيادةً في الطَّاعةِ[1]. و﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ أصلُها: (المُتَطَوِّعينَ)[2]، والمطاوعةُ: الموافقةُ، والنَّحويُّون ربَّما سمَّوا الفعل اللَّازم مطاوعًا، ورجلٌ مطواعٌ، أي: مطيعٌ، وفلانٌ حسنُ الطَّواعيَة لك، مثال لفْظ الثَّمانية، أي: حَسَنُ الطَّاعةِ لكَ، وطاعَ له يطوعُ؛ إذا انقاد[3]، والمُتَطوِّعُ في الآيةِ: هو المُتَصدِّقُ تَطَوُّعًا، وقَد كانَ أَدَّى الفَرْضَ قَبْلُ[4].

3) ﴿جُهۡدَهُمۡ﴾: الجيمُ والهاءُ والدَّالُ تدلُّ تصريفاتُها على المشقَّة[5]، ويأتي بمَعْنى الطَّاقة والوُسْع[6]. ومِنَ الأوَّلِ الجَهْدُ - بفتح الجيم - وهو: المَشَقَّةُ، تقولُ: فَعَلْتُ هذا بِجَهْدٍ، أَيْ: بِمَشَقَّةٍ[7]. ومِنَ الثَّاني الجُهْدُ - بضمِّ الجيم - وهوَ الوُسْعُ والطَّاقَةُ[8]، والجهدُ أيضًا: "بلوغك غايةَ الأمرِ الَّذي لا تألو عن الجهد فيه، تقول: جهدْتُ جهدي، واجتهدت رأيي ونفسي، حتَّى بلغتُ مجهودي، قال ابن السِّكِّيت: الجهد: الغاية. وقال الفرَّاءُ: بلغتُ به الجهد، أي: الغاية، واجهد جهدَك في هذا الأمر، أي: أبلغ فيه غايتك"[9]، ومِنْهُ قول اللّهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ أي: يُخْرِجونَ في الصَّدقة ما اسْتَطاعوا[10].

4) ﴿فَيَسۡخَرُونَ﴾: السِّينُ والخاءُ والرَّاءُ تدلُّ اشتقاقاتُها على مَعْنَى الاحْتِقار والاستِذْلالِ[11]، ومِنْهُ قَوْلُهم: سَخِرْتُ مِنْهُ، أي: هَزِئْتُ به، وتهكَّمْتُ[12]. وقولُ اللّهِ ﷻ: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾، أي: يستَهزِئُونَ بِهم، ومعنى سُخْرِيَةِ اللّهِ تعالى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (طوع).
(2) اليَفُرَنيّ، الاقْتِضابُ في غريب الموطّأ وإعرابه على الأبواب: 1/204.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (طوع).
(4) محمّد أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3388.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهد).
(6) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 190.
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهد)، وأبو عبيد الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (جهد).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جهد).
(10) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 345.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(12) الخطابيّ، غريب الحديث: 2/289.

بالمُنافقينَ: أنَّه جعَلَ لَهُم في الدِّين مِنَ الأحْكامِ المُدْخِلَةِ لَهُم في عِدادِ مَن يشملُهُ اسمُ الإسْلامِ، مَعَ عِلْمِهِ سُبحانَهُ بكذبِهم، واطِّلاعِهِ عَلى خُبْثِ اعْتِقادِهم، فكانَ هذا مِن فِعْلِه بِهِم مُسْتَهْزِئًا، وبِهِم ساخرًا، فهو جَزاءٌ لَهُم عَلى سَبيلِ المقابلَةِ، ولَيْسَ هذا مِن بابِ المشاكَلَةِ في طَريقَةِ اعتقادِ أهلِ السُّنَّةِ والحديث(1).

المَعْنى الإِجْماليُّ:

مُجازاةُ اللهِ تعالى العِبادَ مِنْ جِنْسِ أَعْمالِهِمْ، حكمةٌ وعدلٌ

مَعَ بُخْلِ هؤلاءِ المُنافقينَ عَن بَذْلِ الخَيْرِ؛ فإنَّه لا يَسْلَمُ المتصدِّقون من أذيَّتِهم؛ فإنَّ المُنافِقينَ يَعيبونَ المُتَطَوِّعين، إذا تصدَّقوا عَلى أَهْلِ المَسْكَنَةِ والحاجَةِ بما لَم يوجِبْهُ اللّٰهُ تعالَى عليهم في أَمْوالِهِم، ويَطْعَنون فيها عليهم، فإذا تَصَدَّق الأغنياءُ بمالٍ كثيرٍ ادَّعوا أنَّهم مُراؤونَ، وإذا تصدَّق الفُقَراء بما في طاعَتِهم ووُسْعِهم؛ اسْتَهْزَؤوا بِهِم، وقالوا ساخِرينَ مِنْهُم: ماذا تُغْني صَدَقَتُهم هذه؟ فجَزاهُم اللّٰهُ تعالى عَلى سُخْرِيَتِهم أَنْ سَخِرَ اللّٰهُ تَعالى مِنْهُم، ولَهُم في الآخِرَةِ عذابٌ مُؤْلِمٌ موجِعٌ(2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ الفَصْلِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ﴾:

بَيانُ لونٍ آخَرَ مِنْ أَعْمالِ المُنافِقينَ القَبيحَةِ

فُصِلَ قَوْلُ اللّٰهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعِهِ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لبيانِ نوعٍ آخَرَ مِن أعمالِ المنافقينَ القبيحَةِ؛ وهوَ عيبُهُم وطعنُهُم في مَن يتصدَّقُ طَوْعًا(3)، "والمعنى: أنَّ المنافقين كانوا يعيبون المسلمين؛ إذا تطوَّعوا بشيءٍ من أموالهم، وأخرجوه للصَّدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى اللّٰه عن هذا! ويقولون: ما فعلوا هذا إلَّا رياء، ولم يكن للّٰه خالصًا"(4).

---

(1) عزّ الدّين مرير، عقيدة أهل السّنة والجماعة في صفات الله تعالى الواردة على سبيل المقابلة والرّدّ على المخالفين، ص: 393 - 394.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/381 - 382، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 199.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 16/110، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/274.
(4) القِنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/355.

تَخلُّقُ المُنافِقينَ بِالأَخلاقِ الذَّميمَةِ الَّتي جرَّأتهم على الطَّعنِ في المؤمنين

دِلالَةُ الاِسْمِ المَوْصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جيءَ بالمُسْنَدِ إِلَيْهِ اسمًا مَوْصولًا في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، ليعُمَّ جميعَ أفرادِ المُنافقينَ؛ إذ الاسْمُ المَوْصولُ يفيدُ العمومَ، فكان في التَّعبيرِ به تعبيرٌ بصيغةٍ تصلحُ لجميعِ ما مضَى مِنْ أصنافِهم؛ لبيانِ أنَّهم كُلَّهُمْ كانوا متخلِّقين بهذا الخُلُقِ الذَّميم، وإن لم يُصرِّحْ بِهِ نُطْقًا إلَّا بعضُهُمْ[1].

لَمْزُ المُطَّوِّعينَ مِنَ الأَوْصافِ الَّتي يَستَحِقُّ صاحبُها الذَّمَّ والتَّحْقيرَ

دِلالَةُ الإيجازِ في: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾:

الاِسْمُ المَوْصولُ في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ في محلِّ رفعٍ على أنَّه خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: هُمُ الذينَ، ويجوزُ أن يكونَ الاسْمُ المَوْصولُ في محلِّ نصبٍ على الذَّمِّ، والمَعْنى: أذمُّ الَّذين يَلْمِزونَ المطَّوِّعينَ، وثَمَّ وجهٌ آخرُ وهو أَن يَكونَ في محلِّ جَرٍّ، على أنَّه بدلٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾[2]، وهذه الأوجهُ لا تنافيَ بينَها، بل بعضُها يُكمِّلُ بعضًا، ويزيدُ دلالتَهُ قوَّةً.

اسْتِمْرارُ المُنافِقينَ عَلى الأَفْعالِ الشَّنيعَةِ صَيَّرَها طَبْعًا فيهم

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَلۡمِزُونَ﴾:

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، عُبِّرَ عَنْ فِعْلِ اللَّمْزِ بِصيغَةِ المُضارِعِ ﴿يَلۡمِزُونَ﴾، للإيماءِ إلى أنَّ لَمْزَ هؤلاءِ المُنافِقين لِلمُتَطوِّعين من أَهْلِ الإيمانِ وسُخريَتَهُمْ مِنْهُم متكرِّرةٌ حينًا بعدَ حينٍ[3]، وليسَتْ أمرًا عرضَ مرَّةً، وانقطعَ، بَلْ هَذا الخُلُقُ الذَّميمُ دأبُهُم وعادتُهُم، واللَّمزُ محرَّمٌ؛ لأنَّهُ لونٌ من الخديعة، تكون بخائنة الأعين، وبالإشارة الخفيَّة، بل هو من كبائرِ الذُّنوب في أمورِ الدُّنيا، وأمَّا اللَّمزُ في أمر الدِّين، ومتطلَّبات العبادةِ والطَّاعة، فأقبحُ وأقبح، ومنها: أنَّ من أطاع اللّهَ، وتطوَّع بخصلةٍ من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/86، والآلوسيُّ، روح المعاني: 5/335.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/275.

خصالِ الخير، فإنَّ الَّذي ينبغي هو إعانتُه، وتنشيطُه على عملِه، وهؤلاء قصدوا تثبيطَهم بما قالوا فيهم، وعابوهم عليه[1].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِـ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾:

إخفاءُ الأَعْمالِ الصّالِحَةِ عَنِ المَخْلوقينَ مبالغةٌ في الإِخْلاصِ

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾، جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ دونَ (المُتَطَوِّعين) في الآية الكريمة؛ لأنَّ في ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ إشعارًا بأنَّهم يتصدَّقون، ويُحِبّونَ إخفاءَ صدقاتِهِمْ، كما يومئُ إلَى ذلكَ الإدغامُ؛ فإنَّ حرفَ التَّاءِ أُخْفيَ فيه، فأشْعَرَ هذا الإخفاءُ بإخفاءِ العمَلِ عنِ المَخْلوقين، وهذه حقيقةُ الإخلاصِ[2]، لما في الإخلاص من فضلٍ، لأنَّ الرِّياء هو الشِّرك الأصغر، وهو يبطل الأعمال، ويمحقُ الأجرَ، وإنفاق الأموال أهمُّ ما تُبتلى فيه الأنفسُ، وقد مدح القرآن من تطوَّعَ بالإنفاق، مبتغيًا وجهَ اللّه دونَ سواه بقوله: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩﴾ [الإنسان: 8 - 9].

دِلالَةُ (ال)في لفظ ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾:

التَّنويهُ بالمُتَصَدِّقينَ بالكَثيرِ، توطئةٌ للتَّنويه بالمُتَصَدِّقينَ بالقَليلِ

اللَّامُ في ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ لاستغراق أفرادِ الجنسِ، فلفظُ ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ يعُمُّ كُلَّ متصدِّقٍ، سواءٌ أكان المتصدَّقُ بِهِ كثيرًا أو قليلًا، إلَّا أنَّ المرادَ ههنا - في قولِ بعضِ أهلِ العِلْم - هوَ الخصوصُ، وهُمُ المتصدِّقونَ بالكثيرِ، بدليلِ أنَّ اللّه سُبحانه عطفَ المتصدِّقين بالقليلِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾[3]، فيكون في قَوْلِ اللّه ﷻ: ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ، بعلاقةِ العموميَّة، ويجوزُ أن يَكونَ لفظُ ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ عامًّا باقيًا على عمومِه، وهذا أَظْهَرُ؛ إبقاءً لدِلالَةِ اللَّفظ عَلى حقيقتِه.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 10/275.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/63.

دِلالَةُ (ال) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ دالَّةٌ على الكَمالِ، فقوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، أي: الكامِلينَ في الإيمانِ الرَّاسِخينَ فيهِ[1].

الإيماءُ إلى كَمالِ الإيمانِ والرُّسوخِ فيهِ، مقابلَ النِّفاقِ والغلوِّ فيه

دِلالَةُ حَرْفِ الجَرِّ ﴿فِي﴾:

حَرْفُ الجَرِّ ﴿فِي﴾ مِنْ قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهي ظرفيَّةٌ مجازيَّةٌ، بتنزيلِ سَببِ اللَّمْزِ منزلةَ الظَّرْفِ للمُسَبَّبِ[2]، وفيه إيماءٌ إلى شدَّةِ هذا الطَّعْنِ وبُعْدِ غَوْرِه.

بيانُ مبالغةِ المُنافِقينَ في الطَّعْنِ عَلى أَهْلِ الإيمانِ

بلاغةُ الإِطْنابِ في: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾:

لفظُ ﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ في قولِ الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾، عامٌّ باقٍ على عمومِهِ في الأَظْهَرِ، فيشمَلُ المتصدِّقين طَوْعًا بالقَليلِ والكَثيرِ، فيعُمُّ الموسِرَ والمُعْسِرَ، ويكون الإطنابُ في قولِ اللهِ تَعالى بعدُ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾، وفيه تَنْصيصٌ على المُعسِرِ من بابِ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ تنبيهًا على زيادَةِ فضلِه، وشرَفِ منزلَتِه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الحثَّ على قليلِ الخير ويسيرِهِ كالحثِّ على كثيرِهِ وعظيمِهِ[3].

الحَثُّ عَلى قَليلِ الخَيْرِ وَيَسيرِهِ، كالحَثِّ عَلى كَثيرِهِ وَجَليلِهِ

دِلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَيَسۡخَرُونَ﴾:

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ دالَّةٌ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وذلك مُشْعِرٌ بمسارعةِ أهل النِّفاق إلى عَيْبِ المُؤمنين والطَّعْنِ فيهم، والسُّخريَةِ مِنْهُمْ، فَوْرَ تصدُّقِهم، وهذا دالٌّ على خُبْثِ

ازدراءُ النَّاسِ وَطَعْنُهُمْ طَبْعٌ مُتَأَصِّلٌ في نُفوسِ المُنافِقينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/275.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/469، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/555.

بواطِنِهِمْ، وأنَّ العَيْبَ والطَّعْنَ صارَ طبعًا لَهُمْ، بحيثُ لا يقدرونَ علَى كَتْمِهِ وإخفائِهِ، بل لا يقدرونَ على التَّريُّثِ في إبْدائِهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ في: ﴿فَيَسۡخَرُونَ﴾:

اسْتِمْرارُ المُنافِقينَ عَلى الأَفْعالِ المستقبحة، فسادٌ في الطَّبعِ والخُلقِ

عُبِّرَ عَن فِعْلِ السُّخريَةِ بِصيغَةِ المُضارِعِ (يَسْخرونَ) مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾؛ للإشْعارِ بأنَّ سُخْريَّةَ هؤلاءِ المُنافِقين بِالمُتَطوِّعين، من أهلِ الإيمان، واستهزاءَهُمْ بِهِمْ، متكرِّرةٌ حينًا بعدَ حينٍ[1]، وليسَتْ مِنَ الأمورِ العارِضَةِ الَّتي مِن شأنِها أَنْ تَنْقَطِعَ، بَلْ هذِهِ الأَخْلاقُ الذَّميمَةُ عادتُهُم ودأْبُهُمْ.

نُكْتَةُ تَعْريفِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ بِالعَلَمِيَّةِ (الله):

إظْهارُ فداحة السُّخْريَةِ بالمنافقين جرَّاءَ سُخْريَّتِهِمْ مِنَ المؤمنين

في قولِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾، عُرِّفَ المُسْنَدُ إِلَيْهِ بالعَلَميَّة في قول اللّه ﷻ: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾، لإظْهارِ عظَمَةِ هذهِ السُّخريَّةِ الَّتي يُقابَلونَ بها؛ إذ هيَ صادِرَةٌ مِمَّنْ له جميعُ صفاتِ الجلالِ والكمالِ والجمالِ، وصفاتُهُ جَلَّ جَلَالُهُ، ومِنْها ما يكونُ على وجهِ المقابَلَةِ - كمالٌ في حقِّهِ تعالَى، ولا مُنْتَهَى لكمالِها.

بَراعَةُ المُقابَلَةِ: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾:

إِثْباتُ السُّخْريَّةِ للهِ تَعالى كَمالٌ في حَقِّهِ سُبْحانَهُ

في قولِ اللّه ﷻ: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾، مقابلَةُ سخريَّةِ المُنافِقينَ مِنَ المُؤْمنينَ بِسُخْريَّةِ اللّهِ تعالَى مِنْهُمْ، ومَعْنَى سُخْريَّةِ اللّه ﷻ مِنْهُم: أنَّه جَعَلَ لَهُم في الدِّين مِنَ الأَحْكام المُدْخِلَة لَهُم في عِدادِ مَن يشملُهُ اسمُ الإسلام، مَعَ عِلْمِه سُبحانَه بكذبِهِم، واطِّلاعِهِ على خُبْثِ اعْتِقادِهم، فكانَ هَذا مِن فِعْلِه بِهِم مُسْتَهْزِئًا، وبِهِم ساخرًا، فهو جزاءٌ لَهُم عَلى سبيلِ المقابلَة، وليسَ هَذا من قَبيلِ المشاكَلَة، علَى ما هوَ الحقُّ، وهيَ طَريقَةُ أهلِ السُّنَّة والحديثِ[2]؛ لِما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/275.

(2) عزّ الدين مرير، عقيدة أهل السّنة والجماعة في صفات الله تعالى الواردة على سبيل المقابلة والرّدّ على المخالفين، ص: 393 - 394.

يترتَّب عَلى القولِ بالمشاكَلَةِ - بمعناها في اصطلاحِ البلاغيِّينَ - مِنَ الفسادِ العقَديِّ.

دِلالَةُ الخَبرِ في: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾:

لا تُخْرَجُ الجُمْلَةُ الخَبَرِيَّةُ عَنْ أَصْلِ دِلالَتِها إلَّا لِقَرينَةٍ تُفيدُ ذَلِكَ

قولُ اللّهِ تعالَى: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ جملَةٌ خبريَّةٌ لفظًا، يجوزُ أن تكونَ باقيةً على دِلالَتِها الخبَريَّة، ويَجوزُ أن تكون إنشائيَّةً مَعْنًى يُرادُ بِها الدُّعاءُ[1]، إلَّا أنَّ القولَ بإنشائيَّتِها يترتَّبُ عليهِ القولُ بجوازِ عطْفِ الخبَرِ على الإنشاءِ؛ لأنَّ اللّهَ سبحانه قال بعدُ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهي جملة خبريَّةٌ قَطْعًا إلَّا أنَّ هذا الإيرادَ يُدْفَعُ بأنَّ القولَ الصَّحيح جوازُ عطفِ الخَبَرِ على الإنشاءِ، والإنشاءِ على الخبَرِ، والقرآنُ الكريمُ طافحٌ بِهِ، ومع ذلك فحَمْلُ الجُمْلَةِ على كونِها خبريَّةً في المَعْنَى أَوْلى وأظهَرُ؛ لأنَّ إخراجَها عن هذا ضَرْبٌ من ضروبِ المجازِ، والحقيقةُ ههنا ممكِنَةٌ، فتَتَعَيَّنُ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ في: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

الإيماءُ إلى أَحَقِّيَّةِ المُنافِقينَ بِالعَذابِ الأَليمِ

قُدِّمَ مُتَعَلَّقُ الخبرِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لِلدِّلالةِ على الاختصاص، والإشارَةِ إلى كَوْنِهم أحقَّاءَ بالعَذابِ الأَليم؛ نَظَرًا لِاخْتِصاصِهِم بِجُرْمِ النِّفاقِ الَّذي فاقَ الكفرَ. فهذا النَّوْعُ مِنَ العَذابِ خاصٌّ بِهِمْ، ومَنْ دونَهُمْ مِنْ أصحابِ المَعاصي ممَّن تُوُعِّدَ بالعذابِ الأليمِ؛ لَهُمْ عَذابٌ دونَ عذابِ المُنافِقينَ.

سِرُّ تَنْكيرِ لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

فظاعةُ عَذابِ المُنافِقينَ عند الله يوم القيامة

نُكِّر لفظُ العذابِ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، للدِّلالةِ عَلى تَهْويلِ هذا العذابِ وتفخيمِه وتعظيمِه، أي: إنَّ للمُنافِقينَ عذابًا عظيمًا مَهولًا[2]، والَّذين يستحقُّون العذابَ، هم الَّذين عاقبهم اللّه بالسُّخريَّة منهم؛ لأنَّهم سخروا من المؤمنين، وقد كان ذلك الأمر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/64.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.

جزاءً وفاقًا، لما قدَّمت أيديهم، فسقاهم اللّه من نفس الكأسِ الَّتي كانوا يسقونَ النَّاس منها، فإذا سخر ساخرٌ من الصَّدقات، واستهزأ بأهلها، سخر اللّه منه، واستهزأ به.. إنَّه عدوٌّ للّهِ محاربٌ له، وحسب من يعادي اللّه ويحاربُه، ضياعًا، وهلاكًا، وسوء مصيرٍ"[1].

بَلاغةُ المَجازِ العَقْليِّ في: ﴿أَلِيمٌ﴾:

عـذابُ المُنافِقينَ غايةٌ في الإيلامِ، وعـدلٌ مـن ربِّ الأنام

قولُه: ﴿أَلِيمٌ﴾، من قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، واردٌ على وِزانِ (فَعيل)، وَتأتي هذه الصِّيغةُ (فعيلٌ)، بمعنى اسم الفاعل، وبمعنَى اسم المَفْعول، واللَّفْظُ في الآية يَحْتَمِلُ الوَجْهَيْن: أحدُهُما: ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى: مُؤْلِم، أي: هوَ عذابٌ يوجِعُ مَن يقَعُ عليه. والآخَرُ: ﴿أَلِيمٌ﴾ بمعنى مُؤْلَم، ويكون مَجازًا عقليًّا؛ لأنَّ المُؤْلَم هو المُعذَّبُ لا نفسُ العذاب، والقَصْدُ منْهُ الإيذانُ ببُلوغِ العذابِ الغايةَ في الإيلام، وكِلا الوَجْهَيْن حَسَنٌ، ولا مانِعَ من حَمْلِ لَفْظِ ﴿أَلِيمٌ﴾ عليهما معًا؛ حَمْلًا لِلْمُشْتَرَك على مَعْنَيَيْه.

دِلالَةُ الجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ في: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

تَعْذيبُ المُنافِقينَ أليـمٌ؛ لأنَّـه في الـدَّرك الأسفل من النَّار

عُبِّر عَن ثُبوت العذابِ الأليم للمُنافِقينَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، للدِّلالَةِ على الدَّوامِ والاسْتِمْرار، وأنَّ العذابَ الحاصل للمُنافقين في الآخِرَةِ لا انقطاعَ لَهُ[2]، ذلك أنَّهم لم ينقطعوا عن تثبيط المؤمنين عن فعل الخير بالتَّطوُّع بالصَّدقات، فتطاولوا بالقول على المعطي كثيرًا، واستهزؤوا بمن أعطى قليلًا، وهم على علم بأنَّ اللّهَ غنيٌّ عن صدقةِ المتصدِّق بالقليلِ والكثير، ولكنَّه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرونَ إليه، ونظرًا لما في قول المنافقين هذا، من التَّثبيط عن الخير بما هو ظاهر بيِّنٌ، فقد كان جزاؤهم أن سخرَ اللّه منهم، وكافأهم من جنس ما قالوا، وفعلوا، وجعل لهم العذابَ الأليمَ[3].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 5/854.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 345.

﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾ [التوبة: 80]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رُسوخُ المنافقين في الكُفرِ قيَمًا واعتقادًا

بَعدَ أنْ ذكر ﷻ بُخلَ المنافقين وشُحَّهُم بأموالِهم - حتّى بعدَ أنْ عاهدوا اللّهَ على الصَّدقةِ؛ إذا آتاهُم مِنْ فضْلِه - أَرْدفَ ذلك ببيانِ أنّهم لَمْ يقتصروا في جُرمِهم على هذا الحدّ، بلْ جاوَزوا ذلك إلى لَمزِ المؤمنين وذمِّهم في صدقاتِهم غنيِّهم وفَقيرِهم، وأنَّهم بهذا قد وصلوا إلى حدٍّ لَمْ يَعُدْ لهم فيهِ أدنى حظٍّ مِنَ الإسلام، ولا أدنى نَفْعٍ مِنِ استغفارِ الرَّسولِ ﷺ ودعائِهِ لهم؛ لِرسوخِهم في الكفْرِ باللّه ورسولِهِ وعدمِ الرَّجاءِ في إيمانِهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ﴾: الغَفْرُ في الأصْلِ: التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، ويُرادُ بها التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذةِ بِهِ، يُقالُ: غَفَرَ اللّه ذَنْبَهُ غَفْرًا وَمَغْفِرَةً وَغُفْرانًا، أيْ: سَتَرَها وتَجاوَزَ عنْها[2]. والغُفْرَةُ: ما يُغطَّى بِهِ الشَّيءُ[3]، والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال والفِعالِ، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللّه هو أنْ يَصونَ العَبدَ مِنْ أنْ يمسَّهُ العذابُ[4]. والمرادُ من الاستِغْفار في الآيةِ: طَلَبُ الغَفْرِ، أَي: السَّتْرِ لِلذُّنوبِ والتَّجاوز عنها.

2) ﴿مَرَّةٗ﴾: أَصْلُ المَرِّ يَدُلُّ على مُضيِّ شَيءٍ، مَرَّ الشَّيءُ يَمُرُّ، إذا مَضَى، ومَرُّ السَّحابِ: انْسِحابُهُ وَمُضيُّهُ[5]، والمَرَّةُ: فَعْلَةٌ مِنَ المُرورِ،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 10/170.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرَّ).

غَلَبَتْ على مَعْنَى الفَعْلَةِ الواحِدَةِ مِنْ عَمَلٍ مُعيَّنٍ يُعرَف بالإضافَة أَو بدلالَةِ المَقام[1]. ولَقيتُه مَرَّةً وَمَرَّتَيْن إنَّما هو عِبارةٌ عَنْ زَمانٍ قَدْ مَرَّ، وَيَقولونَ: لَقيتُه مَرَّةً مِنَ المَرِّ، ويَجْمَعونَ المَرَّةَ عَلَى المَرِّ[2]. والمقصود بالمرّة في الآية: الوَحْدَةُ مِنْ حَدَثٍ يَحدث.

3) ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾: أَصْلُ الفِسْقِ: الخُروجُ عَنِ الطّاعَةِ، ومنه قَوْلُهُم: فَسَقَ الرُّطَبُ، أيْ: خَرَجَ عن قِشْرِهِ[3]، والفِسْقُ: العِصْيانُ والخُروجُ عن الطَّاعَةِ، يُقال: فَسَقَ الرَّجُلُ، يَفْسُقُ، فِسْقًا، أيْ: عَصَى وأَذْنَبَ. والفِسْقُ: التَّرك لأمر اللّه[4]، وَكَذَلِكَ المَيْل عَن الطّاعَةِ إِلَى المَعْصيةِ كَما فَسَقَ إبْليسُ عنْ أَمرِ رَبِّه[5]، والمقصودُ بالفاسِقين في الآيةِ: الخارِجونَ عنْ حدودِ الدّينِ والشَّريعةِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا استغفارَ يُجدي مع الإصرارِ على النِّفاقِ

يُخاطِبُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ، قائلًا له: استغفِرْ لهم - يا مُحمَّدُ - أوْ لا تستغفِرْ لهم، فلنْ يَغفِرَ اللّهُ لهم، فقد سبَقَ القولُ عليهم لكفرِهمْ ونفاقِهمْ، بعدمِ المغفرَةِ لهم؛ لِأَنَّ اللّهَ تعالى لا يغفرُ الكفرَ بِهِ، فلا تُجهِدْ نَفسَكَ وتستهلكْ عزيزَ وقتِكَ في الاستغفارِ لهُمْ؛ لأنَّهُ مهما بلغَ عددُ استغفارِكَ لهُمْ، ولو كان كثيرًا جدًّا لا يكادُ يُحصى، فلنْ يغفرَ اللّهُ لهم ولنْ يَعْفوَ عنهم؛ ذَلك بسبَبِ نفاقِهم وكُفرِهم باللّهِ ورَسولِه، واللّهُ لا يوفِّقُ للإيمانِ به وبِرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُؤْثِرينَ للكُفرِ به، المصرّينَ على فِسْقِهم[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/134.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عمدة الحُفّاظ: (مرَّ - مرر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فسق).
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسق).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فسق).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 11/599، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 2/441، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 346.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الاستئنافِ في الآيةِ:

تَوجيهُ النَّبيِّ ﷺ بكلامٍ مستأْنَفٍ طلبًا بأنْ يتوقفَ عنِ الاستغفارِ للمُنافقينَ

قولُه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ "اسْتِئْنافٌ ابْتِدائيٌّ لَيْسَ مُتَّصِلًا بِالكَلامِ السّابِقِ، وإنَّما كانَ نُزولُهُ لِسَبَبٍ حَدَثَ في أَحْوالِ المُنافقينَ المَحْكيَّةِ بالآياتِ السّالِفَةِ، فَكانَ مِن جُمْلَةِ شَرْحِ أَحْوالِهِمْ وأَحْكامِهِمْ، وفي الآيَةِ ما يَدُلُّ عَلى أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَسْتَغْفِرُ لَهم"[1].

دلالةُ الأمرِ في: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ﴾:

النِّفاقُ خَصلةٌ تقتضي التَّيئيسَ

إنَّ الأمْرَ الموجَّهَ للرَّسولِ ﷺ هو في جوهَرِه خبرٌ قد جاءَ في صورةِ الأمرِ التَّخْييريِّ لهدفِ المبالَغةِ في التَّيْئِيسِ منَ المغفرةِ للمنافقينَ؛ إذِ القصدُ منْهُ: الإخبارُ بِأنَّ استغفارَه ﷺ لهُمْ وعدمَهُ سواءٌ[2]؛ وذلك ليَظهر عدمُ غفرانِه سبحانه لهُمْ غايةَ الظُّهورِ وعلى غايةِ التَّأْكيدِ[3]؛ وذلك لأنَّهُ إذا كانَ استغفارُه ﷺ لهُمْ مهما بلغَ لنْ ينفعَهم شيئًا، فماذا يُمكنُ أنْ ينفعَهم بَعد هذا؟

ومِنْ دواعي مجيءِ الخبَرِ في هذه الصّورَةِ الطَّلَبيَّةِ التَّخييريَّةِ "وتَصويرِه بصورةِ الأمرِ، المبالَغَةُ في بيانِ استوائهما، كأنَّهُ ﷺ أُمر بامتحانِ الحالِ بأنْ يَستغفرَ تارةً ويَترُكَ أخرى ليظهرَ له جليَّةُ الأمرِ"[4].

أثـرُ مـقـامِ التَّـعـليـلِ في الفَهمِ العُمَريِّ لآيةِ الاستغفارِ

وأمّا ما رُويَ مِنْ مُراجعةِ عمرَ رضي الله عنه للرَّسولِ ﷺ بقولِه: كَيف تَستغفر لِعَدوِّ اللهِ وَقَدْ نَهاكَ اللهُ عَنِ الاسْتِغْفارِ لَهُمْ؟

فَقالَ ﷺ: «ما نَهاني وَلَكِنَّهُ خَيَّرَني»[5]، فكَأَنَّ عمرَ قد فهِمَ مِنَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/276.

(2) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 3/288، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/471.

(3) التّفتازانيّ، حاشية السّعد على الكشّاف: 4/215.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.

(5) أخرجه البخاريُّ في الجنائز، بابُ الكفَن في القميصِ الّذي يكفّ أو لا يكفّ: (3/138)، وفي التفسير، سورة التوبة، بابُ ولا تُصلّ على أحد منهم: 8/337، واللّفظُ له، وفيه في قوله: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم: 8/333، وفي اللّباس، بابُ لبس القميص: 10/266، ومسلم في فضائل عمر: (نووي): 15/167، وفي صفات المنافقين: (نووي): 17/121، والتّرمذيُّ في تفسير القرآن: 4/343، وقال حسن صحيح، والنَّسائيُّ في المجتبى في الجنائز، بابُ القميص في الكفن: 4/36.

الآيةِ المذكورةِ ما هو الأكثرُ الأغلبُ مِنْ لسانِ العربِ مِنْ أنَّ (أو) ليستْ للتَّخييرِ، بل للتَّسويةِ في عدمِ الوصفِ المذْكورِ، أيْ: أنَّ الاستغفارَ لهُمْ وعدمَ الاستغفارِ سواءٌ. وفهِمَ عمرُ أيضًا مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ أنَّها للمبالغةِ، وأنَّ العددَ المُعَيَّنَ لا مفهومَ لهُ، بل المرادُ نفيُ المغفرةِ لهُمْ ولو كثُرَ الاستغفارُ، فيَحصلُ مِنْ ذلك النَّهيُ عنِ الاسْتغفارِ[1].

وليس ما فهِمَهُ عمرُ رضي الله عنه بعيدًا عن فهْمِ الرَّسولِ ﷺ - وحاشاه - ولكنَّهُ ﷺ فعلَ ذلك "إجراءً لَهُ على ظاهرِ حكمِ الإسلامِ... واسْتصْحابًا لظاهرِ الحُكمِ، ولِما فيه مِنْ إكرامِ ولدِهِ - أيْ: ولدِ هذا المنافقِ محلِّ الكلامِ - الَّذي تَحقَّقتْ صلاحيَتُهُ، ومصلحةِ الاستئْلافِ لقومِهِ... وقد كانَ ذلك قبلَ نزولِ النَّهيِ الصَّريحِ عنِ الصَّلاةِ على المنافقينَ"[2].

وقيلَ: لَفظُهُ أَمْرٌ وَمَعْنَاهُ الشَّرْطُ، بِمَعْنَى: إِنِ اسْتَغْفَرْتَ أَوْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ، فَيَكونُ مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: 53]، وَبِمَنْزِلَةِ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَسيئي بِنا أَوْ أَحْسِني لا مَلومَةً *** لَدَيْنا وَلا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ[3]

السرُّ في عدمِ التَّصريح بالنِّداء لنبيِّنا ﷺ:

تنزيهُ مقامِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ عن عدمِ الإجابة

ابتُدِئت الآيةُ الكريمةُ بالخطابِ المباشرِ للرَّسولِ ﷺ في قولِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾ دونَ ندائهِ ﷺ بنحوِ: (يا أيُّها النَّبيّ)، و(يا أيُّها الرَّسول)؛ لأسبابٍ أهمّها:

أولاً: تنزيهُ مقامِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ عنْ أنْ يكونَ في نداءٍ لا يُجابُ فيه

(1) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 8/335.
(2) ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 8/336.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/470، ديوان كُثَيِّر عزّة، ص: 101.

طلبُهُ ﷺ، وقد كانَ القرآنُ حريصًا في خطابِهِ للنَّبيِّ ﷺ وندائِهِ بـ(يا أيّها الرَّسول) أو (يا أيّها النَّبيّ)، على أنْ يلفتَ النَّظرَ إلى تشريفِهِ ﷺ بندائه بهذا النِّداءِ، مهْما كان الغرضُ والسّياقُ، ولو كانَ غرضُ الخطاب التَّكليفَ نحو: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: 67]، أو حتّى في مقامِ العَتْبِ، فإنَّه لا يخلو في خطابِهِ إيّاهُ منْ إشْفاقٍ عليه، كما في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التحريم: 1]، وأوضحُ من هذا وأجْلى، هذا المثالُ الّذي عزَفَ فيهِ الخطابُ القُرآنيُّ عنْ أنْ يَسلبَ عنهُ لَفظًا مُشْتقًّا منَ اليُمْنِ فقالَ له: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص: 44] ولَم يَقُل: (وما كنت بجانب الأيمن) مع أنَّهُ نَفْسُ الجانبِ الّذي قالَ اللّهُ تعالى فيهِ عنْ موسى عليه السلام: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: 52] حتّى سمَّى الزَّركشيُّ هذا: "أعْجبَ احْتراسٍ وَقَعَ في القُرآن"[1].

ثانيًا: تلقينُهُ ﷺ الردَّ المناسبَ لهؤلاءِ المنافقينَ الّذين قد يَسألونَهُ أنْ يستغفرَ لهُمْ، وإعلامُهُ - من أوّل الأمرِ - أنَّ استغفارَهُ لهُم وعدَمَهُ سواءٌ؛ لأنَّ اللّهَ لن يغفرَ لهمْ.

فالانتقالُ مِنَ الخبرِ عنهُمْ إلى خطابِه والحُكم عليهِمْ يُشير إلى هوانِهم وعدم الاعتناءِ بهِمْ من جهَةٍ، كما يدلُّ على تسْرِيَةِ النّبيِّ ﷺ من جهةٍ أُخرى؛ حتَّى لا يحزنَ عليهِمْ، فتَميلَ نفسُهُ المَجبولَةُ على الرّحمةِ إلى الإشفاقِ عليهِمْ.

ثالثًا: ويَحْتَمِلُ عدمُ التّصريحِ بالنّداءِ لنَبيِّنا ﷺ دفعَ الارتباطِ بين المنافقينَ والاِسْمِ الشَّريفِ.

إيثارُ لفْظِ الاستغفار:

آثرَ الخطابُ القُرآنيُّ لفظَ الاستغفارِ، لأنّ المغفرةَ فرْعُ الاهتداءِ[2] والتَّوْبةِ، فإذا سوَّى اللّهُ بين استغفارِهِ لهم وعدمِه، فإنَّهم مَحرومون ممّا سواهُ مِنَ التَّوبةِ، وغيرِ ذلك.

وربما كان السببُ في إيثارِ لفظِ (الاستغفار) راجعًا إلى واحدٍ ممّا يأتي: أوّلًا: أنْ يكونوا قد طَلبوا منْهُ ﷺ أنْ يَستغفرَ لهم على سَبيلِ الرّياءِ والخِداعِ، كي لا يُشك في أمرِهم، على طريقةِ حِرصِهم على القيامِ للصَّلاةِ، وأجسادُهم مُتَلبِّسَةٌ بالكسَلِ، وقلوبُهم

(1) الزَّركشيّ، البرهان: 3/66.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/308.

دَلالَةُ لَفظِ الاستِغفارِ على استحالةِ التَّوبَةِ

مُنطويَةٌ على الرّياءِ، وقد كشفَهم اللّهُ تعالى بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: 142] وكما قالَ أيضًا: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح: 11].

ثانيًا: أنْ يكونَ الاستغفارُ لهم بتنزيلِهم مَنزلةَ مَن طَلبوا منْهُ ﷺ ذلك، أيْ: على تقديرِ مجيئِهم تائبين معتذرين من جناياتِهم[1].

فائدةُ التّعديَةِ باللّامِ، والتّعبيرِ بالإضمارِ في: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾:

سيقَ الجمعُ بينَ الإضمارِ والتّعديَةِ باللّامِ للتَّخْصيصِ

التّعبيرُ بالإضمارِ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يدلُّ على أنّهم قومٌ مُعيَّنون، أمّا سَوقُ التّعديَةِ باللّامِ - تخصيصًا - فللدّلالَةِ على طلبِ هؤلاءِ القومِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ الاستغفارَ، والأقْرَبُ أنَّ الّذينَ كانوا يَلْمِزون هُمُ الَّذينَ طَلَبوا الاسْتِغْفارَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ[2].

نَوعُ ﴿أَوۡ﴾ وأثرُها في المَعنى:

التَّخييرُ بين أمرَيْن لا يستَلزِمُ قَبُولَ أحَدِهِما لانتفاءِ الفائدةِ مِنهُما

إنَّ ﴿أَوۡ﴾ للتَّخييرِ، دَلَّتْ عَلَى تَخْييرِ المُخاطَبِ في أَحَدِ الأَمْرَيْنِ مَعَ انْتِفاءِ الفائِدَةِ عَلَى كِلَيْهِما[3]، ويُحْتَمَلُ أَنْ تكونَ للتّسْويَةِ، ومعناها أنَّ الاسْتغفارَ وعدَمَهُ سواءٌ[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/308.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/112.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/278.

(4) وقد استشكل بعضُ العلماءِ حديثَ عمرَ وابنِه، واستبعدوا أنْ يَفهمَ النَّبيُّ ﷺ مِنَ الآية التَّخييرَ، لأنَّ الظّاهرَ أنَّ: (أو) للتَّسويَةِ في عدم النَّفعِ، وأنْ يَفهمَ منْ ذِكرِ السَّبعينَ التَّحديدَ، لأنَّ ظاهر السّياق أنّها للتَّكْثير، فقال بعضُهم: إنَّه خبرُ آحادٍ لا يعوّلُ عليه، وأنكر بعضُهم صحَّتَهُ. ينظر: ابن حجر العسقلانيّ، فتح الباري: 8/272 - 273.

وكلُّ هذا وذاك غيرُ سديد، فالحديث صحيح رواه البخاريّ، ومسلم، والنَّسائيّ، وابنُ ماجه - وقد سبق تخريجُه - وكفى بهم أئمَّةً.

قال أبو شهبة: "والذي ظهر لي - والله أعلم - بَعد النَّظر والتَّأملِ في الآية والأحاديث وما قاله الأئمَّةُ: أنَّ الآية تحتمل التَّسويَةَ، وهو الأظهرُ، وأنَّ المراد بالسَّبعينَ التَّكثيرُ لا التَّحديدُ، وهو الأظهرُ أيضًا، وفي رواية عمرَ السّابقةِ ما يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يرى ذلك، فقد قالَ: «لَوْ أَعْلَمُ أَنّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعينَ يُغْفَرُ لَهُ، لَزِدْتُ». وتحتملُ أيضًا التَّخييرَ في: (أو)، وتحتملُ التَّحديدَ في لفظِ السَّبعين، وهما مرجوحان قطعًا". ينظر: أبو شهبة، السّيرة النَّبويَّة على ضوء القرآن والسُّنَّة: 2/534.

دلالة ﴿لَا﴾ في الآيةِ:

تَرَدُّدُ (لا) بيْن النَّفْي والنَّهْي

إمّا أنْ تكونَ (لا) نافيَةً، ويكونَ جَزْمُ الفِعْلِ بَعْدَها لِكَوْنِه مَعْطوفًا عَلى فِعْلِ الأمْرِ، فَإنَّ فِعْلَ الأمْرِ مَجْزومٌ بِلامِ الأمْرِ المُقَدَّرَةِ عَلى التَّحْقيقِ، وهو مَذْهَبُ الكوفيّينَ واخْتارَهُ الأخْفَشُ مِنَ البَصْريّينَ، وابْنُ هِشامِ الأنْصاريُّ وأبو عَليّ ابْنُ الأحْوَصِ، شَيْخُ أبي حَيّانَ، وهو الحَقُّ لِأنَّهُ لَوْ كانَ مَبْنيًّا لَلَزِمَ حالَةً واحِدَةً، ولِأنَّ أحْوالَ آخِرِهِ جارِيَةٌ عَلى أحْوالِ عَلاماتِ الجَزْمِ فَلا يَبْعُدُ أنْ يَكونَ ذَلِكَ التَّقْديرُ مُلاحَظًا في كَلامِهِمْ فَيُعْطَفُ عَلَيْهِ بِالجَزْمِ عَلى التَّوَهُّمِ[1].

وإمّا أنْ تَكونَ صيغَةُ النَّهْيِ اسْتُعْمِلَتْ لِمَعْنى التَّسْويَةِ لِأنَّها قارَنَتِ الأمْرَ الدّالَّ عَلى إرادَةِ التَّسْويَةِ، ويَكون المَعْنى: أمْرُكَ بِالِاسْتِغْفارِ لَهم ونَهْيُكَ عَنْهُ سَواءٌ[2].

دلالَةُ الكِنايَةِ في: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾:

كِلا الفِعلَيْنِ لنْ يُغيّرَ مُرادَ اللهِ ﷻ فيهِمْ

دلَّتِ العِبارةُ على كَونِ ﴿لَا﴾ ناهيَةً وهو الأظهرُ؛ لجزْمِ المضارعِ بَعدَها، وتكونُ العبارةُ "كِنايَةً عَنْ كَوْنِ الآمِرِ والنّاهي لَيْسَ بِمُغَيِّرٍ مُرادَهُ فيهِمْ، سَواءٌ فَعَلَ المَأْمورُ أوْ فَعَلَ المَنهيُّ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ الفِعْلانِ مَعْمولَيْنِ لِفِعْلِ قَوْلٍ مَحْذوفٍ، والتَّقْديرُ: نَقولُ لَكَ: اسْتَغْفِرْ لَهم، أوْ نَقولُ: لا تَسْتَغْفِرْ لَهم"[3].

دلالَةُ تَكرارِ مادَّةِ الاسْتِغْفارِ:

تَكرارُ مادَّةِ الاسْتغفارِ إشارةٌ للحَثِّ عَلَيه

في تَكرارِ مادَّةِ الاسْتغفارِ إشارةٌ لِحَثِّ المنافقينَ على الاِسْتغفارِ، وذلك أنَّ تكرُّرَ اللَّفظِ وقرْعَهُ أسْماعَهُمْ، قد يُحدِثُ في وَعْيهم يَقظَةً وتنَبُّهًا نحْوَ الرُّجوعِ إلى ربِّهم والاسْتغفارِ منْ ذنوبِهم.

كما أنَّ في تكرارِه أيضًا دلالَةً على حِرصِ النَّبيِّ ﷺ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/278.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/278.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/278.

هدايتِهم، ولَوْ سألوهُ الاسْتغفارَ لهُم لَفعلَ، إلّا أنْ يكونَ هناك نَهيٌ صريحٌ.

الحرصُ النَّبَويّ على هدَايةِ النَّاس

في تَكرارِ لفْظِ الاسْتغفارِ مُتقلِّبًا بيْن الصِّيَغِ المذْكورَةِ لَونٌ مِنَ البديعِ يُعرف بـ(جِناس الاشْتقاقِ) الكائنُ في تَكرارِ لفْظِ الاسْتغفارِ للتَّأكيدِ على حِرصِ النَّبيِّ ﷺ على هدايتِهم، ولَوْ سألوهُ الاسْتغفارَ لَهُم لَفعَلَ إلّا أنْ يكونَ هناك نَهيٌ صَريحٌ.

فائدةُ تَكرارِ ﴿لَهُمۡ﴾:

تأكيدُ اخْتصاصِ المُنافقين بعَدَمِ المغْفرَةِ لَهُمْ، مع جَلالَةِ قَدْرِ المُسْتَغْفِرِ ﷺ

تكرَّرَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ أربعَ مرَّاتٍ في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ إشارةً إلى شِدّة غضبِ اللّهِ عليهم، وتأكيدًا على عَظيمِ حِرصِ النَّبيِّ ﷺ على هدايتِهم، فنَلْحظُ أنَّ الجارَّ والمجرورَ قد تعلَّقَ بفعْلِ الاسْتغفارِ المُسنَدِ إلى النَّبيِّ ﷺ ثلاثَ مرّاتٍ، وتعلَّقَ بالفعلِ ﴿يَغۡفِرَ﴾ المنفيِّ بـ(لن) مرَّةً واحدةً قاضيَةً عليهم.

معنى (لن) ودلالتُها:

المبالغةُ في الاستغفارِ لا تَستَلزِمُ المغفرةَ

حَرفُ النَّفي (لن) مِنْ أقوى أدواتِ النَّفْي دلالةً عليه، ومِنْ خصائصِهِ أنَّهُ يَدخُل على الفِعْلِ المُضارِعِ، فيُمحِّضُهُ لِلاسْتقبالِ مع تأكيدِ النَّفْي[1]؛ حتّى إنّه من شِدَّة دلالتِه على التَّأكيدِ، دَرَجَ الزَّمخشريُّ على جَعْلِه مفيدًا لتأْبيدِ النَّفْيِ، لا تأكيدِه فقط.

وفيه بَيانٌ لِعَدَمِ المَغْفِرَةِ وإنِ اسْتُغْفِرَ لَهم حَسْبَما أُريدَ إثْرَ التَّخْيير، أوْ بَيانٌ لِاسْتِحالَةِ المَغْفِرَةِ بَعْدَ المُبالَغَةِ في الِاسْتِغْفارِ إثْرَ بَيانِ الِاسْتِواءِ بَيْنَ الِاسْتِغْفارِ وعَدَمِه[2].

طِباقُ السَّلْبِ ودلالَتُهُ:

هدفُ طباقِ السَّلبِ في قوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾

(1) السّامرّائيّ، معاني النَّحو: 3/359.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/336.

التَّسويَةُ بيْن الضِّدَّين؛ وهما الاستغفارُ وعدَمُه، في تأْكيدِ انْتفاءِ حصولِ المغفرَة.

تأكيدُ نَفْي حُصولِ المغفرَة للمُنافقين حالَ القيامِ بالإسْتغفارِ لَهُمْ أَوْ عَدَمِهِ

وتفصيلُ ذلك: أنَّهُ جعلَ الاسْتغفارَ لَهُمْ حالَةَ كَونِهِ مَأمورًا بِهِ مُساويًا لِلاسْتغْفارِ لَهُمْ حالَةَ كَونِهِ مَنْهِيًّا عَنْهُ؛ أي: الأمرُ بِهِ مُساوٍ لِلنَّهْيِ عنْهُ في عدَمِ الفائدَةِ، وهو أقوى، ومُساواةُ الاسْتغْفارِ لِلعَدَمِ؛ لِأنَّ الأمرَ والنَّهْيَ ضِدّانِ، والأمرُ بِالاسْتغفارِ لِمَنْ لا ينفعُ فيهِ الاسْتغفارُ مُساوٍ لِلنَّهْيِ عَنِ الاسْتغفارِ له[1].

فائدَةُ الشَّرْطِ وبَلاغَتُهُ:

القَصدُ إلى تَقليلِ حُصولِ الاسْتغفارِ منْهُ ﷺ بَعدَ البَيانِ

تَصديرُ جُملةِ الشَّرطِ بـ ﴿إِن﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ دالٌّ على تقليلِ حُصولِ الاسْتغفارِ لَهُمْ منْهُ ﷺ، بَعدَ أنْ بانَ لَهُ الأمْرُ وعَلِمَ أنَّ اللّهَ تعالى لنْ يَغفرَ لَهُمْ بِحالٍ.

ومِن دلالاتِ الشَّرطِ كَذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ بَيانُ عَدَمِ المَغْفِرَةِ وإنِ اسْتَغْفَرَ لَهم، حَسْبَما أُريدَ إثْرَ التَّخْييرِ، أوْ بَيانٌ لِاسْتِحالَةِ المَغْفِرَةِ بَعْدَ المُبالَغَةِ في الاسْتِغْفارِ إثْرَ بَيانِ الاسْتِواءِ بَيْنَ الاسْتِغْفارِ وعَدَمِه[2].

تضمينُ الأمرِ بالاستغفارِ يستلزمُ التَّنبيهَ على قَصدِ عدمِ المغفرَة

وقيل: إنَّ الأَمْرَ إذا كانَ فيهِ مَعْنَى الشَّرْطِ كانَ الجَوابُ كَجَوابِ الشَّرْطِ، فَعَلَى هَذا يَقْتَضِي أَنْ يَكونَ التَّرْكيبُ ﴿فَلَن يَغْفِرَ﴾ بالفاءِ؛ لأَنَّ (لَنْ) لا تَقَعُ جَوابًا لِلشَّرْطِ إلَّا بِالفاءِ، فَكَذَلِكَ ما ضُمِّنَ مَعْناهُ[3].

إيثارُ ﴿إِن﴾:

القَصْدُ إلى مَنْعِ بيانِ وقوعِ ما يُتَوَهَّمُ وقوعُهُ

استُعمِلَتْ ﴿إِن﴾ بَدل (إذا)؛ لأنَّ الأمرَ محتَمِلٌ للشَّكِّ، فهيَ تَدخُلُ على ما يَمتنعُ أو يُتَوَهَّمُ وقوعُهُ، بِخلافِ (إذا) الّتي تَدخُلُ على المَجْزومِ بوقوعِهِ، أَوِ الرّاجِحِ وقوعُهُ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/320.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/336.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/434.

دلالَةُ لَفظِ ﴿سَبۡعِينَ﴾ وبَلاغَتُهُ:

في قولِه تعالى: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ بَيانٌ لِعَدَمِ المَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ لِلْمُنافِقينَ، وَإِنْ أَكْثَرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الاسْتِغْفارِ لَهُمْ، وَلَيْسَ المُرادُ مِنْ هَذا أَنَّهُ لَوْ زادَ عَلَى السَّبْعِينَ لَكانَ ذَلِكَ مَقْبولًا كَما في سائِرِ مَفاهِيمِ الأَعْدادِ، بَلِ المُرادُ بِهَذا: المُبالَغَةُ في عَدَمِ القَبولِ؛ فَقَدْ كانَتِ العَرَبُ تُجْرِي ذَلِكَ مُجْرَى المَثَلِ في كَلامِها عِنْدَ إِرادَةِ التَّكْثِيرِ، والمَعْنَى: أَنَّهُ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ وَإِنِ اسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ ﷺ اسْتِغْفارًا بالِغًا في الكَثْرَةِ غايَةَ المبالَغة. وفيه مُبالَغَةٌ في اليَأْسِ من طَمَعِ المَغْفِرةِ[1].

المُبالَغَةُ في عَدَمِ القَبولِ بِصيَغِ التَّكْثيرِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿مَرَّةٗ﴾:

تَعليقُ السَّبعينَ بالمَرَّةِ مِنْ إِضافَةِ الصِّفَةِ إِلَى المَوْصوفِ، والقصدُ إلى تمييزِ العدَدِ لِتأكيدِ نَفيِ المَرّاتِ مهما يَكُن عددُها بَلْهَ نَفيِ المُطلَقاتِ، أمّا إيرادُ المفعولِ المطلَقِ، فيُفيدُ تَأكيدَ نَفيِ مَعنى الفِعلِ دونَ تَعَدُّدِهِ وكَثْرَتِهِ؛ فلَيْسَ المرادُ انْتفاءَ فائدَةِ الاسْتِغفارِ المُتَنوّعِ، بل انْتفاءَ فائدَتِهِ مهْما تَكُنْ كثرَتُهُ.

المرادُ المبالَغةُ في تَكْثيرِ العَدَدِ، لا تَنوُّعُ صِيَغِ الاسْتِغْفارِ

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَلَن﴾:

الفاءُ لِرَبْطِ الجوابِ بالشَّرطِ، وتُفيدُ التَّرتيبَ والتّعقيبَ والتّوكيد[2] لقَصدِ تَوكيدِ عَدمِ المغفرَةِ مع كَثْرةِ الاسْتِغفارِ.

سِرُّ ابْتداءِ الجوابِ بـ ﴿فَلَن﴾:

ابْتدأَ الخِطابُ بـ ﴿فَلَن﴾؛ لأَنَّهُ من أقْوى حروفِ النَّفي؛ يَنفي المُسْتَقبَلَ القَريبَ والبَعيدَ؛ أيْ أنَّ اللهَ لنْ يَغفرَ لَهُمْ إذا لَمْ يَتوبوا، ويَرجِعوا عنْ نِفاقِهم وكُفرِهم[3].

نَفْيُ المَغْفِرَةِ مع الإغْراقِ في الاسْتِغْفارِ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 2/374.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/155.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/155.

سرُّ ذِكرِ اسْمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

القَصْدُ إلى تَقْرِيرِ الرَّوْعَةِ والمهابَةِ، والإشارَةُ إلى عَظيمِ جُرْمِ المنافقين

انْتِفاءُ المغفِرَةِ المُسْنَدَةِ إلى اللهِ تعالى، يَدلُّ على عَظيمِ جُرْمِ هؤلاءِ الّذينَ فقدوا رَحمةَ الرَّحيمِ ﷻ، واستحقُّوا شِدَّةَ غَضبِ الحَليمِ الغَفّارِ عليهم. وإظهارُ اسْمِ الجَلالَةِ لإدْخالِ الرَّوْعَةِ وتَربيَةِ المهابَةِ وتَأكيدِ عَدمِ هِدايتِه للفاسقين(1).

فَنُّ التَّسويَةِ في الآيَةِ:

تَصويرُ الاسْتِغْفارِ بِصورَةِ الأمْرِ لِلْمُبالَغَةِ في بَيانِ الاسْتِواءِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ إخْبارٌ باسْتواءِ الأمرَينِ - الاسْتِغفار لَهُمْ وتَرْكه - في اسْتحالَةِ المغفِرَة، وتَصويرُه بصورَةِ الأمرِ لِلمبالَغَةِ في بَيانِ اسْتوائِهما، كَأنَّهُ ﷺ أُمِرَ بِامتحانِ الحالِ بأنْ يستغفرَ تارَةً ويَترك أُخرى لِيَظهرَ له جَليَّةُ الأمرِ كَما ورَدَ في قولِهِ ﷻ: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ [التوبة: 53](2).

خروجُ الأمْرِ والنَّهْي عنْ معناهُما الأصْليِّ إلى معنًى آخَر:

أسرارُ العدولِ عَنْ مَعْهوداتِ صِيَغِ الأمْرِ والنَّهْي

صيغَةُ الأَمْرِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ﴾ مُسْتَعْمَلَةٌ في مَعْنَى التَّسْوِيَةِ المُرادُ مِنْها لازِمُها؛ وَهوَ عَدَمُ الحَذَرِ مِنَ الأَمْرِ المُباحِ، والمَقْصودُ مِنْ ذَلِكَ إِفادَةُ مَعْنَى التَّسْوِيَةِ الَّتي تَرِدُ صيغَةُ الأَمْرِ لإِفادَتِها كَثيرًا، وَعَدَّ عُلَماءُ أُصولِ الفِقْهِ في مَعاني صيغَةِ الأَمْرِ مَعْنَى التَّسْوِيَةِ، وَمَثَّلوهُ بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ [الطّور: 16]؛ وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فَمَوْقِعُهُ غَريبٌ، وَلَمْ يُعْنَ المُفَسِّرونَ والمُعْرِبونَ بِبَيانِهِ؛ فَإِنَّ كَوْنَهُ بَعْدَ (لا) مَجْزومًا يَجْعَلُهُ في صورَةِ النَّهْيِ، وَمَعْنَى النَّهْيِ لا يَسْتَقيمُ في هَذا المَقامِ؛ إِذْ لا يُسْتَعْمَلُ النَّهْيُ في مَعْنَى التَّخْييرِ والإِباحَةِ، فَلا يَتَأَتَّى مِنْهُ مَعْنًى يُعادِلُ مَعْنَى التَّسْوِيَةِ الَّتي اسْتُعْمِلَ فيها الأَمْرُ، وَلِذَلِكَ لَمْ نَرَ عُلَماءَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/151.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.

الأُصولِ يذكرونَ التَّسْويَةَ في مَعاني صيغَةِ النَّهْيِ كَما ذَكَروها في مَعاني صيغَةِ الأمْرِ[1].

دلالَةُ اسْمِ الإشارَةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تَعليلُ الامْتناعِ عَنِ المغفِرَةِ مع كَثرةِ الاسْتِغْفارِ

في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ إشارَةٌ إلى اسْتِبْعادِ المَغْفِرَةِ لَهُمْ ولَوْ بَعْدَ المُبالَغَةِ في الاسْتِغْفارِ، فَبَيَّنَ أنَّ العِلَّةَ الَّتي لِأجْلِها لا يَنْفَعُهُمْ اسْتِغْفارُ الرَّسولِ ﷺ لَهُم - وإنْ بَلَغَ سَبْعينَ مَرَّةً - هي كُفْرُهم وفِسْقُهم، أيْ: ذَلكَ الامْتِناعُ لَيْسَ لِعَدَمِ الاعْتِدادِ بِاسْتِغْفارِكَ، بل بسببِ أنَّهم ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[2].

فائدَةُ حَذْفِ المُشارِ إلَيْهِ بَعْدَ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

القَصدُ إلى الإيجازِ بحذفِ المعهودِ الذِّكريِّ لمُعلوميَّته

المشارُ إليهِ هُنا هو انْتفاءُ الغُفرانِ المستَفادُ مِن قولِهِ: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ﴾[3] أيْ هو مَدلولٌ عليْهِ في العِبارَةِ السّابِقةِ، ومَعهودٌ في الذِّكْرِ، بحيثُ لَمْ تَدْعُ حاجَةٌ إلى إعادَةِ ذِكْرِهِ والتَّصريحِ بِهِ.

فائدَةُ حَرْفِ الجرِّ الباءِ في: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

حَشْدُ المُؤَكِّداتِ بأنّ المنافقينَ جَحَدوا باللهِ

الباءُ في قولِه: ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ﴾ لِلسَّبَبيَّةِ، وهي كاشِفةٌ عَنِ السَّببِ الّذي مِن أَجْلِهِ أَبى اللّهُ ﷻ أنْ يَقبلَ فيهِمُ اسْتغفارَ رَسولِهِ ﷺ مع جَلالَةِ قَدْرِهِ عندَ ربِّهِ، وهو كَونُهم كُفّارًا، وقد قَضى اللّهُ تعالى بعَدمِ المَغْفِرَةِ لِلكافِرِ، وفيما يَخُصُّ هؤلاءِ المنافقينَ قد قَضى عَلَيْهم في نَصٍّ أَبْلَجَ واضِحٍ بِأنَّهم في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِنَ النّارِ، بقولِهِ فيهِمْ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

وعليْهِ: فإنَّ العِلَّةَ الَّتي لِأجْلِها لا يَنْفَعُهُمْ اسْتِغْفارُ الرَّسولِ ﷺ لَهُم - وإنْ بَلَغَ سَبْعينَ مَرَّةً - هي كُفْرُهم وفِسْقُهم. وهَذا المَعْنى قائمٌ في الزّيادَةِ عَلى السَّبْعينَ، فَصارَ هَذا القَليلُ شاهِدًا بِأنَّ المُرادَ إزالَةُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/277.

(2) أبو السّعود: إرشاد العقل السّليم: 4/87.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/279.

الطَّمَعِ أنْ يَنْفَعَهُمْ اسْتِغْفارُ الرَّسولِ ﷺ مَعَ إصْرارِهِمْ عَلى كُفْرِهِمْ، ويُؤَكِّدُ ذلك قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1].

دلالَةُ تَعدّي الفِعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾ بِالباءِ:

عِظَمَ كبيرةِ جريرتهم بالتأكيد

جاء لفظ (كفر) في القرآن الكريم لازمًا بلا تعدية في مواضع كثيرة، وفي مواضع أخرى جاء متعدّيا بالجارّ والمجرور، كما في قولِهِ تعالى: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ وفائدته تأكيد كُفرهم بِاللّهِ وجُحودِهم إيّاهُ. وهو ما كانَ علّةً لانْتفاءِ أنْ يَغفرَ اللّهُ لَهُم.

دلالَةُ عَدمِ دُخولِ حَرْفِ الباءِ على ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

سَوقُ الباءِ في المتعاطفَيْنِ لغايَةِ التَّوكيدِ وجودًا وعَدمًا

عُطِفَ لَفْظُ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على اسْمِ الجَلالَةِ دونَ إعادةِ الباءِ هُنا في قولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وكذا بَعدَ ثلاثِ آياتٍ في قولِهِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]؛ لأنّ الأمرَ فيهما لا يتعدَّى أنْ يكونَ تعليلًا لِما قَبْلَه، في حينِ دَخلتِ الباءُ على المَعْطوفِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: 54]؛ لِمناسَبَةِ التَّأْكيدِ الواردِ في السّياقِ غايَةَ التَّوْكيدِ، فأكَّد المتعاطفَين بالباءِ، لِيكونَ الكلامُ على نَسقٍ واحدٍ، بخلافِ الثّاني والثّالثِ لَمْ يتقدَّمْها ذلك[2].

دلالَةُ إيراد الجُملةِ الاسْميّةِ، مِن دون مؤكّداتٍ:

تَقريرُ أسْبابِ عَدَمِ المغفِرَةِ بما في عِلْمِ اللهِ مِن طَبائعِ المنافقين

التّصدير بلَفظِ الجَلالَة، باعتبارِهِ مُسنَدًا إليْه، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ دالٌّ على تَأكيدِ مَضْمونِ الجُمْلة، وإنْ وردتْ الجملة الاسمية بدون أساليب التأكيد، والتّصدير بلفظ الجلالة وحدَهُ يَكفي، في كَونِهِ سُبحانَهُ "لا يُقَدِّرُ لَهُم الهُدى إلى الإيمانِ لِأجلِ فِسقِهِمْ، أيْ: بُعدِهِمْ عَنِ التَّأَمُّلِ في أدلَّةِ النُّبوَّة، وعن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/112.

(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/231 - 232.

الإنْصافِ في الاعْترافِ بالحقِّ، فَمَنْ كانَ ذلك دَيْدنهُ طُبِعَ على قَلبِهِ فَلا يَقْبلُ الهُدى؛ فمَعنى لا يَهدي: لا يَخلُقُ الهُدى في قلوبِهِمْ"[1].

وفي ذلك تَمْهيدٌ لِعُذْرِ النَّبيِّ ﷺ في اسْتِغْفارِهِ قَبْلَ العِلْمِ بِالطَّبْعِ الَّذي لا يُمكِنُ مَعَهُ رُجوعٌ[2].

علاقَةُ تَذييلِ الآيةِ بمَعناها:

في قولِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ تذييلٌ مؤكِّدٌ لِما قَبلَهُ مِنَ الحُكم؛ فإنَّ مغفرةَ الكافرِ إنما هي بالإقْلاعِ عنِ الكفرِ والإقْبالِ إلى الحَقِّ، والمُنهَمكُ فيه المطبوعُ عليه بمَعْزِلٍ عن ذلك[3].

القَصدُ إلى تأكيدِ الأَحكَامِ مِن حيثُ عَدمُ المَغفِرَةِ مع وجودِ ما يَقتَضي

دلالَةُ حذف مُتعلّقِ الفِعلِ ﴿لَا يَهۡدِى﴾:

لَمْ يَقُلْ: (لا يهدي القوم الفاسقين إلى الإيمان)؛ ليُفيدَ نَفيَ عُمومِ الهِدايَةِ، ولإبرازِ أَثَرِ الفِعلِ، وهو عَدمُ هِدايَةِ الفاسِقينَ إلى أيِّ شيْءٍ نافِعٍ، دُنيويًّا كان أمْ أُخرويًّا.

عُمومُ نَفْيِ هِدايةِ الفاسِقينَ

دلالَةُ التَّعبيرِ بـ: ﴿لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾:

في ذِكرِ كلمَةِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ بدلًا من أنْ يُقالَ: (واللّه لا يهدي الفاسقين) بَيانٌ لِكونِ ما وُصفَ به القَومُ هو سَجيَّةٌ فيهِمْ، وأنَّهُ قد وَصلَ بِهِمْ مَرتبةَ الغُلوِّ المُفْرِطِ، وأنَّهُ مِن مُكمِّلاتِ قَوميَّتِهِمْ، "فإنَّ لِلقبائلِ والأُمَمِ خَصائِصَ تُمَيِّزُها وتَشْتَهِرُ بها، كَما قالَ تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ﴾ [التوبة: 56]"[4].

دَفعُ الرَّيبِ عن إدَانَةِ الفَاسِقِينَ بِوصفِ فِسقِ السَّجايَا

وفيهِ أيضًا: إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ بِهذا: أنَّهم قَومٌ مَخصوصون وهُمُ المنافِقون الّذين تمرَّدوا على الحقِّ وفَسقوا عنْ أمرِ ربِّهِم،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/280.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/561.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/87.

(4) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 2/89، مُستفاد منهُ رحمهُ اللهُ عندَ تفسيرِهِ لقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.. الآية [البقرة: 164].

وتَحالفوا على الضَّلالِ، وكُلَّما بَزغَ بيْنَهُم داعي هُدى أَسْكتوه، وكُلَّما ظَهرَ لَهُم نورُ الحقِّ أَطفَؤُوهُ، فهم قد تَعاونوا على الإثمِ والعُدوانِ[1].

إيثارُ لَفظِ الفاسِقينَ بدلًا مِن المنافِقينَ:

إيثارُ لَفظِ الفاسِقينَ في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لأنّهُ أنْسبُ لِحالِ المنافِقينَ هُنا؛ حيْثُ إنَّ لَفظَ (الفاسِقينَ) يَقْتَضي تَجديدَ الخُروجِ ممّا يَنبغي الاسْتقرارُ فيه[2]، وهو أَوْلى بِهِمْ؛ إذْ لَفْظُ الفِسْقِ أَعمُّ هَذهِ الأَلْفاظِ، فَكُلُّ كافِرٍ وَكُلُّ ظالمٍ فاسِقٌ، وَلا عَكْسَ[3].

الفِسقُ يَقتَضي الخُروجَ المُتجدِّدَ وعدَمَ الاسْتقْرارِ

لَفظُ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ بيْن العُمومِ والخُصوصِ:

وَصْفُهمْ بالفِسقِ إمّا مِن حَيْثُ هُم فاسِقونَ، وإمّا أنَّهُ لَفْظُ عُمومٍ يُرادُ بِهِ الخُصوصُ فيمَن يوافي عَلى كُفْرِهِ وفِسقِهِ، أَوْ عُمومٌ مُطلَقٌ على أنَّهُ لا هِدايَةَ مِن حيْثُ الفِسقُ[4].

الـقـصـدُ إلى تَثبيتِ الإدانَـةِ بِـعِلَّـةِ الفِسقِ عُـمُـومًـا أو خُصُوصًا

المُتَشابِهُ اللّفْظيُّ:

أمّا آيةُ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: 6] فظاهِرُها صَريحٌ في أنَّه لا يُغْفر لِلمنافِقينَ مُطلقًا.

مَجموعُ الآيَتيْنِ يُـفيدُ بِـلا مِـراءٍ نَفْيَ المغْفِرَةِ عن المُنافِقينَ مُطْلقًا

وأمّا ظاهِرُ آيَةِ التَّوْبَة: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80] فإنّهُ يوهِمُ الطَّمَعَ في غُفرانِهِ لَهُم، إذا اسْتَغْفَرَ لَهُم رَسولُهُ ﷺ فوقَ سَبْعينَ مَرَّةً.

ومِمّا قيلَ في الجَمعِ بينَهُما ما يَلي:

أ - قالَ قَتادَةُ: نَزَلَتْ آيَةُ (المُنافِقونَ) بَعْدَ قَوْلِه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ في سورَةِ التّوبَةِ وذلكَ لأَنَّها لَمّا نَزلَتْ، قالَ رسولُ اللّه ﷺ: «خَيَّرَني رَبِّي، فَلَأَزيدَنَّهُمْ عَلى السَّبْعينَ»، فَأَنزَلَ اللّهُ تَعالى: ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ [المنافقون: 6][5]

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3392.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/137.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 6/335.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/65.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 30/547.

أيْ: أنَّ قَتادةَ رحمَهُ اللّهُ يَرى أَنَّ آيةَ (المنافقون) مُبَيِّنَةٌ وكاشِفَةٌ عمّا أَثارَتْهُ آيَةُ (التّوبة) مِن ظَنِّ المغفِرَةِ لهُم لَو زيدَ عَلى السَّبعينَ.

ب - وقيلَ: الآيَةُ الأولى (التّوبة) نَزَلَتْ في اللّامِزينَ كَما ورَدَ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ وهو الأَوْفَقُ بِالسّياقِ، وهَذِهِ الآيَةُ (المنافقون) نَزَلَتْ في ابْنِ أُبَيٍّ وأَصْحابِهِ كَما نَطَقَتْ بِهِ الأَخْبارُ الصَّحيحَةُ ويَجْمَعُ الطّائِفَتَيْنِ النِّفاقُ. وعَلى هذا فَيَكونُ المُرادُ بِالآيَتَيْنِ هو عَدَمَ المَغْفِرَةِ لَهم مُطْلَقًا[1].

أَوْ يُقالُ: إنَّ آيَةَ (التّوبة): لَمّا نَزلتْ وحدَّدتْ سَبعينَ مَرَّةً؛ ظَنَّ رَسولُ اللّهِ ﷺ أَنَّهُ إذا زادَ عَنِ السَّبْعينَ قد يَقبلُ اللّهُ؛ فَجاءَتِ الآيَةُ في سورَةِ (المنافقون) بِحسْمِ الأمرِ: لَنْ يَكونَ هناكَ اسْتِغفارٌ مَقْبولٌ لهُم؛ مهْما كانَ عَدَدُهُ ونَوعُهُ إذا لمَ يَتوبوا تَوبَةً صادِقةً، أَوْ تَوبة نصوحًا[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاسْتِغفارُ والتَّوبَةُ:

لا شَكَّ أَنَّ الاسْتِغْفارَ جُزءٌ مِنَ التَّوبَةِ، وهو مِن مُقدِّماتِها، وذلكَ أنَّ "الاسْتِغفارَ طَلبُ المَغْفِرَةِ بِالدُّعاءِ والتَّوْبَةِ أَوْ بغيرِهما مِنَ الطّاعَةِ. والتَّوْبَةُ: النَّدمُ على الخَطيئَةِ مع العَزْمِ عَلى تَركِ المعاوَدَةِ، ومِنْ ثَمَّ لا يَجوزُ الاسْتِغفارُ مع الإِصْرارِ؛ لِأَنَّهُ مسْلَبَةٌ للّهِ ما لَيْس مِن حُكمِهِ ومَشيئَتِهِ"[3].

التَّوبةُ أعَمُّ مِن الاسْتِغْفارِ وهو مُتضمَّنٌ فيها

الفِسْقُ والنِّفاقُ:

الفاسِقُ: الخارِجُ عَنِ الحَقِّ، "الخارِجُ مِن طاعَةِ اللّه تَعالى، فَتارَةً يَكونُ ذلكَ بِكُفْرٍ، وتارَةً يَكونُ بِعصْيانٍ غيْرِ الكُفرِ"[4]، فَهو اسْمٌ

كُلّ نِفاقٍ فِسْقٌ، ولَيْس كُلّ فِسْقٍ نِفاقًا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/336.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/155.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 48.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/271.

عامٌّ يَشمَلُ الكُفرَ، والكَبائِرَ، وبَقيَّةَ المَعاصي، ولِذا يَقولُ الرّاغِبُ الأَصْفَهانيُّ: "والفِسْقُ يَقعُ بِالقَليلِ مِنَ الذّنوبِ والكَثيرِ"(1).

والنّفاقُ في الدّينِ: "أَنْ يُظهِرَ الإِسْلامَ مع خَواءِ قَلبِهِ أَوْ فَراغِهِ مِن الإيمانِ"(2).

وعَلى هذا، فالفِسقُ يَعني الخُروجَ عَنِ الحيِّزِ، وهو مَعنًى عامٌّ يَشْمَلُ ما هو حِسِّيٌّ ظاهِرٌ وما هو باطِنٌ، أمّا النّفاقُ فهو فَراغُ الباطِنِ مَعَ سَلامَةِ الظّاهِرِ.

وبِذلكَ يَظهرُ: أَنَّ النِّسْبَةَ بَيْنَهما هي العُمومُ والخُصوصُ المُطْلَق، فكُلّ نِفاقٍ فِسقٌ، وليْس كُلّ فِسقٍ نِفاقًا.

الفَرقُ بين الإرشَادِ والهِدَايَةِ كالفَرقِ بَينَ تَعبِيدِ المَسَالِكِ وبُلُوغِ الغَايَاتِ

(يَهْدي) و(يُرْشِدُ):

الرُّشدُ يُقابَلُ بالْغَيِّ، والهُدى يُقابَلُ بالضَّلالِ، قالَ تَعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف: 146]، فالْغَيُّ ضدُّ الرُّشدِ، والإِرْشادُ إلى الشَّيْءِ هوَ التّطريقُ إليْهِ والتَّبْيينُ لَهُ، والهِدايَةُ هِيَ التَّمَكُّنُ مِنَ الوُصولِ إليْه، وَقد جاءَتِ الهِدايَةُ لِلمُهتَدي في قَوْلِه تَعالَى ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، فَذَكرَ أَنّهم دَعَوا بِالهِدايَةِ وهم مُهْتَدونَ لا مَحالَةَ وَلَم يَجِئْ مِثلُ ذَلِك في الإِرْشادِ(3).

وَيُقالُ أَيْضًا: هداهُ إِلَى المَكْروهِ كَما قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: 23]، وَقالَ تَعالَى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: 67]، والهُدى الدّلالَةُ، فَإِذا كانَ مُسْتَقيمًا فَهوَ دلالَةٌ إِلى الصَّوابِ(4).

(1) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، ص: 572.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نفق).

(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 209.

(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 209.

﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ [التوبة: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

العَودُ إلى ذِكْرِ أَحوالِ الّذينَ تَخلّفوا عَنِ القِتالِ

بَعدَ أنْ ذَكَرَ اللهُ تَعالى بَعضَ سَوْءاتِ المُنافقينَ مِن اعْتذارِهم لِلمؤمِنينَ عَنِ الخُروجِ مَعهُمْ لِلقتالِ ولَمْزِهم في قِسْمَةِ الصَّدقاتِ وفي إعطائِها، عادَ إلى الكَلامِ في ذِكْرِ حالِ الّذينَ تَخَلَّفوا عَنِ القِتالِ في غَزْوةِ تَبوك وظَلّوا في المَدينَةِ[1]، واعْتَذَروا بِأعْذارٍ وعِلَلٍ كاذِبَةٍ، حَتّى أذِنَ لَهم، فَكَشَفَ اللهُ لِلرَّسولِ ﷺ عَنْ أحْوالِهِمْ وأعْلَمَهُ بِسوءِ فِعالِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ الآيَة، وبيَّنَ ما يَجِبُ مِن مُعامَلَةِ هؤلاءِ بَعدَ الرُّجوعِ إلى المدينة، وقد نَزَلَ ذلكَ في أثْناءِ السَّفَرِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَرِحَ﴾: أَصلُ الفَرَحِ: يَدُلُّ على خِلافِ الحُزْنِ، والفَرَحُ: السُّرورُ، يُقال: فَرِحَ، يَفْرَحُ، فَرَحًا: إذا سُرَّ، فهو فَرِحٌ وفَرْحانٌ. والفَرْحَةُ والفُرْحَةُ: المَسَرَّةُ، وضِدُّه: الحُزْنُ[3]، والمرادُ بالفَرَحِ في الآيَة: السُّرورُ مع الغرور.

2) ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾: أصلُ (خلف): خِلافُ قُدّامٍ[4]، ويُقالُ: خَلَّفوا أَثْقالَهُم تَخْليفًا: خَلَّوْهُ وراءَ ظُهورِهِم[5]، والتَّخَلُّفُ: التَّأَخُّر[6].

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 10/173.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/473.
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فرح).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (خلف).
(5) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (خلف).
(6) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).

والخالِفُ: المتأخِّرُ لِنُقصانٍ أوْ قُصورٍ كالمُتَخلِّفِ[1]. والـمُخَلَّفُ: المَتْروكُ، يُقالُ: خَلَّفَ فلانٌ فُلانًا وراءَهُ إذا تَرَكَهُ خَلْفَه[2]، وهذا هو المرادُ بـ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ في الآيَةِ.

3) ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: أصلُ القُعودِ: الجُلوسُ، وهو نقيضُ القيام. قَعَدَ يَقْعُدُ قُعودًا ومَقْعَدًا، أيْ: جَلَسَ[3] بعدَ قيام، والقَعْدَةُ: المَرَّةُ الواحِدةُ[4]، والقِعْدَةُ: للحالِ الَّتي يكونُ عليْها القاعِدُ[5]، والمَقْعَدُ: مكانُ القُعودِ، وجَمْعُه: مَقاعِد[6]، وهي: موضِعُ قُعودِ النّاسِ في الأَسْواقِ وَغَيْرِها[7]. والمَقْعَدُ هُنا مَصْدَرٌ ميميٌّ، أيْ: بِقُعودِهِمْ. والمقصودُ بـ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ في الآيَةِ: بجلوسِهِم في مَنازِلِهم[8].

4) ﴿خِلَٰفَ﴾: أصلُ (خلف): يدلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ، وقيامِه مَقامَه، والخَلَفُ: ما جاءَ بَعْدُ. تقولُ: قَعَدْتُ خِلافَ فُلانٍ، أيْ: بَعْدَهُ[9]. وخِلاف: مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِ القائِلِ: خالَفَ فُلانٌ فُلانًا فهوَ يُخالِفُهُ خِلافًا، كَما يُقالُ: قاتَلَهُ فهوَ يُقاتِلُهُ قِتالًا[10]. والمقصودُ بـ ﴿خِلَٰفَ﴾ في الآيَةِ: بَعْدَ. أيْ: بَعْدَ رَسولِ اللهِ ﷺ.

5) ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾: أصلُ (كره) يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الرِّضا والمَحَبَّةِ. يُقالُ: كَرِهْتُ الشَّيْءَ أَكْرَهُهُ كُرْهًا وكَرْهًا. والكُرْهُ الاسْمُ. والكَرْهُ: أَنْ تُكَلَّفَ الشَّيْءَ فَتَعْمَلَهُ كارِهًا[11]، والكَراهَةُ: المَشَقَّةُ والشِّدَّةُ، يُقالُ: قُمْتُ على كُرْهٍ، أَيْ: على مَشَقَّةٍ[12]، ومِنْهُ سُمّيَتِ الحَرْبُ: كَريهَةً[13]، والمَكارِهُ: الشَّدائِدُ، والمَكْروهُ: ما يَكْرَهُهُ الإِنْسانُ وَيَشُقُّ عليه[14]، والمقصودُ بالكَراهةِ في الآيَةِ: الكَراهيَةُ ونُفْرَةُ الطَّبْعِ مِنَ الشَّيْءِ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قعد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).
(6) الرّاغب، المفردات: (قعد).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (قعد).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 11/602.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 11/602.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كره).
(12) ابن منظور، لسان العرب: (كره).
(13) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كره).
(14) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (كره).

6) ﴿لَا تَنفِرُواْ﴾: أصلُ (نفر): يَدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[1]، وهو أيضًا: الإسْراعُ إلى الشَّيءِ، والانزِعاجُ عنِ الشَّيْءِ أَوْ إليْه[2]. يُقال: نَفَرَ، يَنْفِرُ، نُفورًا ونفارًا: إذا فَرَّ وذَهَبَ، وانطَلَقَ مُسرِعًا بِقوَّةٍ، ومنْهُ: نَفَرَ النّاسُ إلى العَدوِّ نَفْرًا: إذا أَسرَعوا في الخُروجِ لِقتالِه، والمقصودُ بالنَّفيرِ في الآيَةِ: الخُروجُ السَّريعُ - إلى الجِهادِ - مِنْ مَوْضِعٍ إلى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ[3].

7) ﴿ٱلۡحَرِّۗ﴾: أصلُ (حرر): خِلافُ البَرْدِ، يُقالُ: هذا يَومٌ ذو حَرٍّ، ويَومٌ حارٌّ. والحَرورُ: الرّيحُ الحارَّةُ تَكونُ بالنَّهارِ واللَّيْلِ[4]. والسَّمومُ: الرّيحُ الحارَّةُ بالنَّهارِ وقَدْ تَكونُ باللَّيْلِ، ومنْهُ الحِرَّةُ، وهو العَطَشُ[5]، والمرادُ بالحَرّ في الآيَةِ: نَقيضُ البَرْدِ.

8) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: أَصْلُ الفِقْه: الفَتْحُ والشَّقُّ، ومنه سُمِّيَ العِلْمُ: فِقْهًا؛ لأنَّهُ يَحْمِلُ معنى التَّعَمُّقِ في الأَمْرِ والتَّبَصُّرِ فيه كَمَن يَشُقُّ الشَّيْءَ لِيَكْتَشِفَ ما فيه[6]. ويأْتي الفِقْهُ بِمعنى الفَهْمِ[7]، يُقال: فَقِهْتُ الحَديثَ، أيْ: فَهِمْتُهُ. والفِقْهُ أيضًا: الإِدْراكُ والعِلْمُ بِالشَّيْءِ، يُقالُ: فَقُهَ الرَّجُلُ، فَقاهَةً وفِقْهًا، إذا صار الفقه سجيَّةً له، وفَقَّهَهُ اللّهُ وتَفَقَّهَ، أيْ: تَعَلَّمَ[8]، وكُلُّ عِلْمٍ بِشَيْءٍ فهو فِقْهٌ[9]، ثمَّ خُصَّ بِهِ عِلْمُ الدّينِ لِشَرَفِهِ على جَميعِ العُلومِ[10]، وقيل الفِقْهُ: إِدْراكُ دَقائِقِ الأُمورِ[11]. والمقصودُ بالفِقْهِ في الآيَةِ: فَهْمُ ما يَحتاجُ إلى إعمالِ فِكْرٍ.

المَعْنى الإِجْماليُّ:

يخبِرُ اللّهُ تَعالى أنَّ المنافقينَ الَّذين حَمَلهمُ الكسَلُ والنِّفاقُ على الاعْتذارِ الكاذِبِ عَنِ الخُروجِ إلى غَزْوةِ تَبوكَ، قَدْ فَرِحوا بِقعودِهم عَنِ الغَزْوِ بَعدَ خروجِهِ ﷺ وكَرِهوا أنْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفر).
(2) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 327.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/197.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حرر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).

وَصفُ حالِ المنافقينَ على جِهَةِ التَّوبيخِ واللَّومِ لَهُمْ

يُجاهِدوا بأَموالِهم وأَنفسِهم في سبيلِ اللّهِ، لا إيثارًا للرّاحةِ والسَّلامَةِ فحسْب، بَلِ استجابَةً أَيضًا لِما اسْتقرَّ في قُلوبِهِمْ مِنَ النِّفاقِ، الَّذي أَوْرَثَهُمْ بُغضَ الجِهادِ الَّذي تَتحقَّقُ به أَشرفُ الغاياتِ، ولَم يَكتفوا بتَخلُّفِهم عنِ الجِهادِ وفَرَحِهم بهذا القُبحِ، بَل كانوا يُثبِّطون غيرَهم عَنِ الخروجِ بقولِهم: لا تَخرجوا في الحرِّ وتَتركُوا بيوتَكم، فإنَّكم لا تُطيقونَ شِدَّتَهُ، فَأَمرَ اللّهُ رَسولَهُ ﷺ أَنْ يَرُدَّ على جَهلِهم: قلْ - يا محمَّدُ - لِهؤلاءِ المنافِقينَ: نارُ جهنَّمَ الّتي يَدخُلُها في الآخرةِ مَن خالَفَ أمْرَ اللّهِ، وعَصى رسولَ اللّه، أَشَدُّ حرارةً من حَرِّ الدُّنيا الَّذي لا تريدونَ النَّفرَ فيهِ، فاتَّقوها بالجِهادِ. ولكنَّهُم لا يَفقهونَ عنِ اللّهِ، فَهُم يَحذَرونَ من الحرِّ أَقَلَّهُ مَكروهًا وأَخَفَّهُ أَذًى، وهو حرُّ شَمسِ الدُّنيا، ويوافِقونَ أشدَّهُ مَكروهًا وأعظَمَه على مَن يَصلاهُ بلاءً، وهو حَرُّ نارِ جهنَّم(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ فَصلِ الآيَةِ عمّا قَبلَها:

بَيانُ حالِ المنافِقينَ إثْرَ تَخلُّفِهِم واسْتِغفارِ الرَّسولِ ﷺ لَهُمْ

تُعدُّ هذهِ الآيَةُ الكَريمةُ اسْتِئنافًا ابْتِدائيًّا؛ إذْ إنّها بيانٌ لحالِ المنافِقينَ عَقيبَ تَخلُّفِهم عَن رَسولِ اللّهِ ﷺ، واسْتغْفارِهِ لَهُم، فمُناسَبَةُ فَصلِ هذهِ الآيةِ عمّا قَبلَها ووقوعِها في هذا المَوْضعِ على اعْتبارِ أَنَّ فَرَحَ المنافقينَ بتَخلُّفِهِمْ قَدْ قَوِيَ لَمَّا اسْتَغْفَرَ لَهُمُ النَّبيُّ ﷺ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ اسْتَغْفَلوهُ، فَقَضَوْا مَأْرَبَهُمْ، ثُمَّ حَصَّلوا الاسْتِغْفارَ ظَنًّا مِنْهُمْ بِأَنَّ مُعامَلَةَ اللّهِ إِيَّاهُمْ تَجْري عَلَى ظَواهِرِ الأُمورِ(2).

سِرُّ الإخبارِ عنِ المنافِقينَ بأمورٍ غَيبيّة:

أَخبرَ اللّهُ تَعالى النَّبيَّ ﷺ بِأَحْوالِ المنافِقينَ القَلْبِيَّةِ؛ لِتَثْبيتِ قَلْبِه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/603، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/189، 191، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 346، ومجموعة من العلماء، التّفسير الوسيط: 3/1740.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/280.

ﷺ، لأنَّه ﷺ ما كانَ لَهُ أنْ يَعلَمَ بِحالِهِمْ لَولا الوَحْيُ، فَلَولا أنَّ اللَّهَ جَلَّى لَهُ أَمْرَهم لُطفًا بِهِ ﷺ، لَمَا عَلِم بِسَرائِرِهم أَحَدٌ. وفيهِ تَحذيرُ المؤمِنينَ مِنَ الوقوعِ في بَراثِنِ هؤلاءِ المنافقينَ.

تَكَشُّفُ المُغَيَّباتِ القَلْبِيَّةِ لِقَصْدِ دَفْعِ لَوازِمِها وتَأكيدِ أحكامِها

تَلوينُ الخِطابِ مِنَ الإنْشاءِ إلى الخَبَرِ:

انْتَقلَ الحَديثُ من خِطابِ رَسولِ اللّهِ ﷺ إلى الإخْبارِ عَن حالِ المنافِقينَ، فَقولُهُ: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ أُسلوبٌ في ظاهِرِهِ إنْشاءٌ؛ لِأنَّ فيهِ أمرًا ونهيًا، ولَكنَّهُ في الحقيقةِ إخبارٌ بأنَّ اسْتِغْفارَك لَهُم وعدَمَهُ سَواءٌ، فَهؤلاءِ المنافقونَ الّذين تَحرص - يا رَسولَ اللّهِ - على هِدايتِهم، وتَلِحُّ في الاسْتِغفارِ لهُم، لَن يَغفرَ اللّهُ لهُم، وانْظرْ إلى حالِهم بَعدَ تَخلُّفِهم عَنكَ، واسْتِغفارِك لَهُم، إنّهم فَرِحونَ بهذا التَّخَلّفِ والقُعودِ، فالانْتِقالُ من خِطابِ النَّبيِّ إلى الإخبارِ عَنهُم تَسْرِيَةٌ عَن قَلبِهِ الشَّريفِ؛ حتَّى لا يحزَنَ بَعدَ حُكمِ اللّهِ عَليهِمْ بعدَمِ المَغْفرَةِ، وبَيانٌ لِفسادِ قلوبِهم، وسوءِ طَويَّتِهم.

قَصدُ التَّسليَةِ بالانْتِقالِ مِن مُخاطَبَةِ النَّبيِّ الرَّحيمِ إلى الإخْبارِ عَن جِنسٍ لَئيمٍ

سِرُّ التّعبيرِ بِلَفظِ (الفَرَح) واسْتِعمالِ صيغَةِ الماضي:

في التَّعبيرِ بـ ﴿فَرِحَ﴾ بِصيغَةِ الماضي دلالَةٌ عَلى تَحقُّقِ وقوعِ الفَرَحِ بالتَّخلُّفِ في قُلوبِهم، الَّذي هو دَلالَةٌ عَلَى نِفاقِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ لَكانَ التَّخَلُّفُ نَكَدًا عَلَيْهِمْ وَنَغَصًا كَما وَقَعَ لِلثَّلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفوا فَتابَ اللّهُ عَلَيْهِمْ[1]، كما أن فيها دلالةً على انقضاء فرحهم وعدم دوامه في قلوبهم لأنه فرحٌ بمعصية اللّه تعالى.

دَلالَةُ الفَرَحِ بِصيغَتِهِ الماضيَةِ عَلى تَحقُّقِ وقوعِ الفَرَحِ في قُلوبِ المُنافِقِينَ وعدمِ دوامِهِ لأنه فرحٌ بمعصية

دلالَةُ (ال) في: ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾:

(ال) في قَولِهِ تَعالى: ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ لِلعَهْدِ، والمَعْهودونَ هُم قَومٌ مِنَ المُنافقينَ مَعروفونَ بأَعْيانِهِمْ قد تَخلَّفوا عَن رَسولِ اللّهِ ﷺ، في غَزْوةِ تَبوك[2] بادِّعاءِ أَعْذارٍ لا وجودَ لَها، فَأذِنَ لَهُم النَّبيُّ ﷺ، ثُمَّ فَرِحوا بِهذا التَّخَلُّفِ فيما كَشَفَه عَنهُمُ القُرآنُ الكَريمُ.

القَصدُ إلى كَشفِ حالِ المُنافِقينَ بالإحالَةِ على المَعهُودِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/280.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/698.

ومَع إرادَةِ العَهْدِ في (ال)، فهيَ مَوصولَةٌ بِمعنى (الَّذين)، وأوثِرَ التَّعبيرُ بها؛ لِدلالَتِها مَعَ اسْمِ المَفعولِ (مخَلَّفون) عَلى ثُبوتِ جَريمتِهم، وانْكِشافِ حالِهم، كَما دَلَّتْ عَلى تَحقيرِ المنافِقينَ، وإهمالِ شَأنِهم، حتّى لَكأنَّهم شَيْءٌ من سَقَطِ المتاعِ الَّذي يُخلَّفُ ويُترك ويُهْمَل؛ لأنَّه لا قيمَةَ لَهُ، أوْ لأنَّ ضَرَرَه أكْبرُ من نَفعِه،[1] فَخرَجَ من ذلكَ الثَّلاثَةُ وأَصْحابُ العُذْرِ[2].

إيثارُ لَفظِ ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ واسْتِعماله في صيغَةِ اسْمِ المفعولِ:

المَـتروكُ لا يَسْتَحقُّ شَرَفَ الجِهادِ مَعَ النَّبيِّ ﷺ

في التَّعبيرِ عَنهُم باسْمِ المَفعولِ تَنزيلٌ لَهُم مَنزلَةَ مَن طُرِدوا مِن الرَّكْبِ لِعَدَمِ الرَّغبَةِ فيهم. و﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ هُم الَّذين خُلِّفوا عَنِ الجِهادِ في غَزْوةِ تَبوك، وكانَت في أَشَدِّ الحَرِّ، وفي وَقتِ جَنْيِ الثِّمارِ والمَيْلِ إلى الرّاحَةِ في ظِلالِ الأشْجارِ، وهُم تَخَلَّفوا مُختارينَ، ولَم يَتَخَلَّفوا مُجبَرينَ، ولَكِنْ عبّرَ عَنهُم باسْمِ المَفعولِ لِلإشارَةِ إلى أنّ اللّهَ تَعالى لَم يُرِدِ انْبعاثَهمْ كَما قالَ تَعالى: ﴿۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾ [التّوبة: 46]؛ ولِذا قالَ تَعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾، ولَم يَقُل سُبحانَهُ: (المتخلفون)[3]، فحُرِموا شَرَفَ الجِهادِ مع النَّبيِّ ﷺ، وظَنّوا بِتَخلُّفِهم هذا أنّهم قَد مَكروا وخادَعوا، في حينِ أنّهم قد مُكِرَ بِهم، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54].

دلالَةُ الجارِّ والمجْرورِ ﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ﴾:

الـكَـشـفُ عن قَصدِ المُخالَفَةِ أصالَةً والقُعودِ عَنِ الغزْوِ تَبعًا

قولُهُ تَعالى: ﴿بِمَقۡعَدِهِمۡ﴾، أيْ: قُعودهِمْ عَن غَزْوةِ تَبوك، ولَعلَّهُ عبَّر بهذا المَصْدَرِ لِصَلاحِيَتِه لِمَوضعِ القُعودِ؛ لِيكونَ بِدلالَتِه عَلى الفرَحِ أَعْظَمَ دلالَةً على الفرَحِ بِالموضوعِ، وهو مَرْويٌّ عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما[4].

(1) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/366.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/65.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3392.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/561.

دلالَةُ المُفْرَدِ في: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾:

دلالَةُ المُقْعَدِ عَلى مَعنى القُعودِ أَوْ مَحلِّهِ تَجوّزًا

المَقْعدُ في قولِهِ تَعالى: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ مَصْدرٌ ميميٌّ بِمَعْنى القُعودِ، وهو قَولُ الأَكْثرينَ[1] أَوْ هو اسْمُ مَكانٍ، والمرادُ بِهِ المَدينةُ[2]، والتَّعبيرُ بِالمُفْرَدِ لإِرادَةِ المَصدرِ، فَيَشْمل المُخلَّفينَ جَميعًا.

إعْرابُ ﴿خِلَٰفَ﴾ وأَثَرُهُ عَلى المَعنى:

الأَوْجُهُ الإِعْرابيَّةُ المحتَملَةُ ودلالاتُها

قولُهُ تَعالى: ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فيهِ ثَلاثَةُ أَوْجُهٍ إعرابيّة:

أحدُها: أنّهُ مَنصوبٌ على المَصدَرِ بِفعلٍ مُقَدَّرٍ مَدلولٍ عَلَيهِ بِقَولِهِ: ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾؛ لِأَنَّهُ في مَعنى: تَخَلَّفوا، أَيْ: تَخَلَّفوا خِلافَ رَسولِ اللّهِ[3].

الثّاني: أنَّ ﴿خِلَٰفَ﴾ مَفعولٌ لِأَجلِهِ، والعامِلُ فيهِ إمّا (فَرِحَ) وإمّا (مَقْعَد)، أَيْ: فَرِحوا لِأَجلِ مُخالَفَتِهِم رَسولَ اللّهِ ﷺ، حيثُ مَضى هو لِلجِهادِ وتَخَلَّفوا هُمْ عَنْه. أَوْ بِقعودِهِم لِمُخالَفَتِهِم لَهُ، وإِلَيهِ ذَهبَ الطَّبريُّ والزَّجّاج، ويُؤيِّدُ ذلكَ قِراءَةُ مَن قَرأَ: (خُلُفَ رَسولِ اللّهِ بِضَمِّ الخاءِ واللّامِ[4].

الثّالثُ: أَنْ يَنْتَصِبَ عَلى الظَّرفِ. أَيْ: بَعدَ رَسولِ اللّهِ، يُقالُ: أَقامَ زَيدٌ خِلافَ القَومِ، أَيْ: تَخَلَّفَ بَعدَ ذهابِهِم، و(خِلاف) يَكونُ ظَرفًا، وإِلَيهِ ذَهبَ أبو عُبيدةَ وغيرُهُ، ويُؤيِّدُ هذا القِراءَةُ الشّاذَّةُ: (خَلْفَ رَسولِ اللّهِ) بِفتحِ الخاءِ وسُكونِ اللّامِ[5].

فَوائدُ إيثارِ لَفظِ ﴿خِلَٰفَ﴾ والعُدولِ عَن غَيرِهِ مِن مُرادِفاتِهِ:

استِنفَارُ النَّاسِ بِمَا يَدُلُّ عَلى مُخالَفَةِ المُرادِ الشَّرْعِيِّ

إنّ (خِلاف) لُغَةٌ في (خَلْف). يُقالُ: أَقامَ خِلافَ الحَيِّ بِمَعْنَى:

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/339.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/466.
(3) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 6/91، وسيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/365، وهي قِراءَةُ ابنِ عبّاسٍ، وأَبي حَيوَةَ، وعَمرِو بنِ مَيمون.

بَعْدَهُمْ، أيْ ظَعَنوا ولَمْ يَظْعَنْ، وَمِنْ نُكْتَةِ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿خِلَٰفَ﴾ دونَ (خَلْفَ) أنَّهُ يُشيرُ إلَى أنَّ قُعودَهُمْ كانَ مُخالَفَةً لإرادَةِ رَسولِ اللّه حينَ اسْتَنْفَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ لِلْغَزْوِ(1).

الجِناسُ بيْنَ ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ و﴿خِلَٰفَ﴾:

تأنُّقُ الخِطَابِ القُرآنيِّ بما يحقِّقُ الإذعَانَ

بَيْنَ قَولِه: ﴿ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ و﴿خِلَٰفَ﴾ مُحسِّنٌ بَديعيٌّ هو جِناسُ الاشْتقاقِ. وهو: سَوقُ المُتلاقيَينِ فيما يُشْبِه الاشتقاقَ مِن حيْثُ الجَمعُ بيْنَ لَفْظينِ وتَعليقُهما بِمَصْدرٍ واحِدٍ، وهذا مِن مُلحقاتِ الجِناسِ.

سِرُّ إيثارِ لَفظِ ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾:

التَّنبيهُ على مَقامِ الرِّسالَةِ الرَّبّانيَّةِ الَّتي أعرَضَ عَنها المنافِقون

أوثِرَ لَفظُ ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ على غيرِهِ للدَّلالَةِ عَلى لَطيفَةٍ تُحيلُ على مَقامِ الرِّسالَةِ الرَّبّانيَّةِ الَّتي تَقتضي إذْعانًا لَها وتعلُّقًا، وفي إعْراضِ المنافِقينَ عَن هذا المقامِ إعراضٌ عَنِ اللّهِ تَعالى.

المُقابَلَةُ المَعنويَّةُ بيْنَ ﴿فَرِحَ﴾ و﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾:

عَدمُ ثَباتِ قلوبِ المُنافقينَ بالإيمانِ هو سَبَبُ فَرَحِهِم بالقُعودِ وكَراهِيَتِهِمُ الجِهادَ

في مُقابَلَةِ فَرَحِ المنافِقينَ بِقعودِهم وكَراهِيَتِهِمُ الجِهادَ إيضاحُ لِسَببِ ذَينِكَ الأمرَينِ، وهو عَدمُ إيمانِهم باللّهِ تَعالى ورَسولِهِ ﷺ والدّارِ الآخرةِ؛ لأنَّ الفرَحَ مِنْ ثَمَراتِ المَحبَّةِ(2). وفرحُهم بالإقامَةِ يَدلُّ عَلى كَراهِيَةِ الذّهابِ(3).

عَطفُ جُملةِ ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾ على ما قَبلَها:

سَوقُ العَطفِ لِقَصدِ تَعديدِ خِصالِ المنافِقينَ

ذلكَ أنَّ هؤلاءِ المنافِقينَ المُخَلَّفينَ قدْ جَمَعوا بَينَ الفَرَحِ بالتَّخلُّفِ وكَراهِيَةِ الجِهادِ بِأَموالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبيلِ اللّه، فَكانَتْ تلكَ الكراهِيَةُ خَصْلَةً أُخْرَى مُسْتَقِلَّةً مِنْ خِصالِ النِّفاقِ؛ لأَنَّ اللّه أَمَرَ بِذَلِكَ في آيَةٍ مُتَقَدِّمَةٍ حيْثُ قالَ سبحانَهُ: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [التّوبة: 41]، وَلِكَوْنِها خَصْلَةً أُخْرَى جُعِلَتْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281 - 280.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/159.

جُمْلَتُها مَعْطوفةً، وَلَمْ تُجْعَلْ مُقْتَرِنَةً بِلامِ التَّعْليلِ مَعَ أَنَّ فَرَحَهُمْ بِالقُعودِ سَبَبُهُ هوَ الكَراهِيَةُ لِلْجِهادِ[1].

سِرُّ العدولِ عَنِ المصْدَرِ الصَّريحِ إلى المصْدَرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾:

الدَّلالَةُ عَلى كَراهِيَةِ المنافقينَ الجِهادَ الحَقيقيَّ المُسْتَمِرَّ

التَّعبيرُ بالمصْدَرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ فيهِ تَصويرٌ لحالِ كَراهِيَتِهِمْ لِلْمُشارَكَةِ في الجِهادِ والقِتالِ ومُعاناتِهِ مع المجاهِدينَ، وإنْ كانَتْ لَهم معَهُ مآرِبُ أُخرى منها: حِرصُهم عَلى وجودِ صورَتِهم مَع المجاهِدين؛ إذْ هُم حَريصونَ على الظُّهورِ؛ لِيوهِموا المؤمِنين أنَّهم مَعهمْ، لِيَنالوا مِن غنائِمهم حينَ النَّصْرِ، كَما كَشَفَهم اللّهُ تَعالى بِقولِه عَنهُم: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ [النساء: 141]، لكنَّهم في الواقعِ يَكْرهونَ أنْ يَكونوا مِنَ المجاهِدينَ حَقيقةً.

وكَذلك فَإنّ المصْدَرَ المؤَوَّلَ يَدفَع احْتمالَ الكَلامِ؛ فإذا قُلتَ: كَرِهوا مُجاهَدَتِهم، احْتَمَلَ أنْ تَكونَ نَفْسُ المجاهَدَةِ هي المكْروهَةَ، أَوْ أنْ يكونَ المكروهُ مُجاهَدَةً خاصَّةً ذاتَ هَيْئَةٍ مُحدَّدةٍ "ففيهِ تَحصينٌ لِلمَعنى مِنَ الإشْكالِ، وتَخليصٌ لَهُ مِن شَوائِبِ الاحْتِمالِ"[2] وكَأنَّ الاحْتِمالَ مَع المصْدَرِ الصَّريحِ يُمكِنُ أنْ يَكونَ قائمًا، فَدَفَعهُ بِالمصْدَرِ المؤَوَّلِ.

دلالَةُ الجِهادِ وصيغَةِ (يُفاعِل):

التَّحريضُ عَلَى المشارَكَةِ لِتَحصيلِ الرَّغائِبِ

قولُهُ تَعالى: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، إيذانٌ بِأنَّ الجهادَ في سَبيلِ اللّهِ مِن أَجَلّ الرّغائبِ وأَشْرفِ المطالِبِ الَّتي يَجِبُ أنْ يَتنافَسَ فيها المُتَنافِسون، ومَع ذلكَ هؤلاءِ قد كَرِهوهُ، كَما فَرِحوا بِأَقْبحِ القَبائحِ الَّذي هو القُعودُ خِلافَ رَسولِ اللّهِ ﷺ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/281.

(2) السّهيلي، نتائج الفكر في النّحو، ص: 97.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.

نُكْتَةُ إيثارِ كَلِمةِ ﴿يُجَٰهِدُواْ﴾:

قد يكونُ سوءُ الاختيارِ مَع وضوحِ القَرارِ

أوثِرَ ما في النَّظمِ الكريمِ، وهو التَّعبيرُ بالجهادِ ﴿يُجَٰهِدُواْ﴾ عَلى أنْ يُقال: و(كرهوا أنْ يَخرجوا) مع رَسولِ اللّهِ ﷺ، إيذانًا بأنَّ الجهادَ في سبيلِ اللّهِ تَعالى مَع كَونِه مِن أَجلِّ الرَّغائبِ الَّتي يَنبَغي أنْ يَتَنافَسَ فيها المُتَنافِسون، قد كَرِهوه، كَما فَرِحوا بِأقْبَحِ القَبائحِ، وهو القُعودِ خِلافَ رَسولِ اللّهِ ﷺ[1].

سِرُّ تَقْديمِ الأَموالِ على الأَنْفُسِ:

تَقديمُ المُجاهَدَةِ بِالأموالِ عَلى الأَنْفُسِ باعْتبارِ السَّبْقِ بِالسَّبَبِيَّةِ

قدَّمَ الأَمْوالَ على الأَنْفُس، لِما أنَّ المجاهَدَةَ بالأَمْوالِ أكثرُ وقوعًا وأتمُّ دفعًا لِلحاجَةِ حيْثُ لا يُتَصَوَّرُ المجاهَدَةُ بالنَّفْسِ بِلا مُجاهَدَةٍ بالمالِ[2]، ووَجهُ التَّقديمِ أنَّ الجِهادَ يَستَدعي تَقْديمَ إنفاقِ الأموالِ أوَّلًا؛ فهو مِن بابِ السَّبْقِ بالسَّببيَّةِ[3].

دلالَةُ الجَمْعِ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾:

بَذلُ المُنافِقِ الجهْدَ لِحفْظِ ما يَملِكُ إيماءً إلى بُخْلِهِ وجُبْنِه

في سَوقِ الجَمْعِ لِما يُبذَل في الجِهادِ مِن تَركِ الأموالِ والأَنْفُسِ جُمْلَةً وتَفْصيلًا، وبَذلِها كُلِّها لِلجهادِ في سَبيلِ اللّه، دلالَةٌ على بُخْلِهِم في كُلّ ما هو خَيْرٌ، وجُبْنِهم جَميعًا.

الفَرْقُ بَينَ الجَمْعِ بِ(الأَنْفُس) وبِ(النُّفُوس):

سَوقُ مَا يَدُلُّ عَلَى قِلَّةِ المُخَلَّفينَ

الأَنْفُسُ جَمْعُ قِلَّةٍ (إلى عَشرة)، أمّا النّفوس فجمْعُ كَثْرةٍ؛ ولمّا كانَ أولئكَ عَددًا قليلًا لا يُمَثِّلونَ ظاهِرَةً، إذا ما قيسوا بِجموعِ الصّحابةِ الَّذينَ كانوا يُقبِلون عَلى الجِهادِ مَع رَسولِ اللّهِ ﷺ غَيرَ هَيّابينَ المَوتَ ولا ضانّينَ بِالمالِ، اسْتَخْدَمَ (أنْفُس) جَمْعَ القِلَّة.

سِرُّ تَقديمِ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ على: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هنا:

لمّا كانَ هذا في سِياقِ الأَمْوالِ، تارَةً بِالرِّضا بِنَيْلِها والسَّخَطِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/339.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/37.

(3) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/256.

تَقديمُ الأَغْراضِ والحُظوظِ أوْ تأْخيرُها بِحَسبِ مَوضِعِها مِن الاهْتمامِ

بِحِرْمانِها، وتارَةً بِقَبضِ اليَدِ عَن بَذلِها، وتارَةً بِالاسْتِمْتاعِ بِالخلافِ الَّذي هو النَّصيبُ الأعمُّ مِن أنْ يَكونَ بالمالِ أوِ النَّفسِ، وتارَةً بِعَيبِ الباذِلينَ، وغيرِ ذلكَ مِن شَأنِها، قدّمَ قَوْلَهُ: ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ على قَولِهِ: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أيْ: طَريقِ المَلِكِ الَّذي لَهُ صِفاتُ الكَمالِ؛ لِأنَّهُ لَيْسَ فيهِمْ باعِثُ الإيمانِ وداعي الإيقانِ الَّذي بَعَثَ المُؤْمنينَ[1].

وقد جاء الحديث عن الجهاد في سبيل اللّه بالأموال والأنفس في آيات كثيرة من كتاب اللّه ﷻ، وتارة يقدّم فيها ذكر الجهاد بالأموال والأنفس على متعلق الجهاد: (في سبيل اللّه)، وتارة يؤخّر، فمن ذلك قوله تعالى في سورَةِ التّوبة: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81].

وقالَ تَعالى في سورَةِ الأَنْفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 72].

سورَة التّوبة قد تَقدَّم ذِكرُ الجِهادِ في سبيلِ اللّهِ مِن مثلِ قولِهِ تَعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ وقولِه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقولِه: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقدّمَ ذِكْر ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأموالِ والأَنْفُس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

وهو المناسِبُ هَهُنا لِلجِهادِ كما قدّمَ الأمْوال والأَنْفُس هُناك لِأنَّه المناسِبُ لِلأمْوالِ[1].

أمّا في سورَةِ الأنْفال فقد قدّمَ الأمْوال على ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّه تَقدّم ذكْرُ المالِ والفداءِ والغَنيمَة، في مِثل قولِه تَعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: 67]، وهو المالُ الَّذي فَدى بِهِ الأَسْرى أَنفُسَهم، وقولِه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 68]، أيْ: مِنَ الفداءِ، فقدّمَ المال هَهُنا؛ لِأنَّ المالَ كانَ مَطلوبًا لَهم، حتّى عاتَبَهُم اللّهُ في ذلكَ فطلبَ أنْ يَبْدَؤوا بِالتَّضحِيَةِ بِهِ[2].

وعلى هذا نَقولُ: إذا كانَ المقامُ في جَمعِ وحِفظِ الأموالِ يبدَأ بالتَّضحِيَةِ به بها، وإذا كانَ السّياقُ في القِتالِ وليْس في الأموالِ يقدّم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الأمْوالِ[3].

فائدَةُ استِعْمالِ المفْرَدِ ﴿سَبِيلِ﴾:

إيثارُ المفْرَدِ للدّلالَةِ على الانْفرادِ في الكَمالِ

وحّدَ الخِطابُ القُرآنيُّ سَبيلَهُ؛ لأنَّهُ في نَفسِه واحدٌ، لا تعدُّدَ فيه... كَما ثَبتَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَطَّ خطًّا، ثُمّ قالَ: «هذا سَبيلُ اللّه»، ثُم خَطَّ خطوطًا عن يمينِه وعَن يَسارِه، ثُمّ قال: «هذه سُبُلٌ، عَلى كُلّ سَبيل منها شَيطانٌ يَدْعو إلَيه»، ثُمّ قَرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: 153][4]، فسيقَ المفْرَدُ للدّلالَةِ على طَريقِ المَلِكِ الَّذي لَهُ صِفاتُ الكَمالِ[5].

دلالَةُ التّعريضِ بِجَميلِ صَنيعِ المؤمِنينَ في الآيَةِ:

التَّعريضُ بِشَرَفِ المؤمِنينَ مِن حيثُ إيثارُهُمُ النَّعيمَ الأَبْقى والمقامَ الأَنْقى

في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ تَعريضٌ

(1) السّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، ص: 48.
(2) السّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، ص: 48.
(3) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 729.
(4) ابن القيّم، طريق الهجرتين، ص: 177، والحديث صحيح الإسناد، رواه أحمد في المسند رقم: (4142، 4437).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

بِالمؤمنينَ وبِتحمُّلِهمُ المَشاقَّ العَظيمَةَ، أَيْ: كالمُؤْمنينَ الّذينَ بَذَلوا أَمْوالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ في الجِهادِ في سَبيلِ اللّه، وَآثَروا ذَلِكَ عَلَى الدَّعَةِ والخَفْضِ، وَكَرِهَ ذَلِكَ المُنافِقونَ، وَكَيْفَ لا يَكْرَهونَهُ وليس فيهم فيهِمْ ما في المُؤْمنينَ مِنْ باعِثِ الإيمانِ(1).

وَجْهُ العَطفِ في: ﴿وَقَالُواْ﴾:

سَوقُ ما يدُلُّ على إجْماعِ المُخَلَّفينَ على عدَمِ الخروجِ لِأَجْلِ (الحَرّ)

ورَدَ عَطفُ قولِهِ تَعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾، أي: قالَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ؛ وكانوا أَرْبَعَةً وثَمانينَ رَجُلًا. وقيلَ: قالوا لِلْمُؤْمِنينَ، فلَمْ يَكْفِهِمْ ما هم عَلَيْهِ مِنَ النِّفاقِ والكَسَلِ حَتّى أرادوا أَنْ يكْسِبوا غَيْرَهم ويُنَبِّهوهم عَلى العِلَّةِ الموجِبَةِ لِتَرْكِ النَّفْرِ. قالَ ابْنُ عَبّاسٍ، وأبو رَزينٍ والرَّبيعُ: قالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللّه، الحَرُّ شَديدٌ، فَلا تَنْفِر في الحَرِّ. وقالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: هو رَجُلٌ مِن بَني سَلَمَةَ. انْتَهى. أيْ: قالَ ذَلِكَ عَنْ لِسانِهِمْ، فَلِذَلِكَ جاءَ ﴿وَقَالُواْ﴾ بِلَفْظِ الجَمْعِ(2).

دلالَةُ الجَمعِ بيْنَ الأفْعالِ الثَّلاثَةِ في حَقِّ المنافقينَ: ﴿فَرِحَ﴾، ﴿وَكَرِهُوٓاْ﴾، ﴿وَقَالُواْ﴾:

ذِكْرُ الخِصالِ الّتي اتّصفَ بِها المنافقونَ يَنضَحُ بِقُبْحِ سَرائِرِهِمْ

جمعَ النَّظمُ في الآيةِ الكريمةِ بينَ الأفعالِ الثَّلاثَةِ المذكورة؛ للدَّلالَةِ على الخِصالِ الثَّلاثِ الّتي اتَّصفَ بها المنافقونَ من خِصالِ الكُفرِ والضَّلالِ، وهي الفرحُ بالقعودِ، وكَراهِيَةُ الجِهادِ، ونَهْيُ الغَيْرِ عَن ذلكَ(3).

فهَؤُلاءِ ضَمّوا إلى سُرورِهِمْ بِها كَراهِيَةَ الطّاعَةِ، وقَدْ يَكْرَهُ ولا يَنْهى غَيْرَهُ، ولكن هَؤُلاءِ جَمَعوا إلى ذَلِكَ كُلِّهِ نَهْيَ غَيْرِهِمْ(4).

دلالَةُ حَذفِ المخاطَبِ في قول المنافقين: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾:

قالَ المنافقونُ ما قالوهُ لإخوانِهِمْ تَثْبيتًا لَهُم عَلى التَّخَلُّفِ والقُعودِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/562.

حذفُ المخاطَب ليستغرقَ تَثبيتَ المنافقينَ لإخوانِهم وتَثبيطَهُم المؤمنين

وتَواصيًا فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ والفَسادِ، أوْ لِلْمُؤْمنينَ تَثْبيطًا لَهم عَنِ الجِهادِ، ونَهْيًا عَنِ المَعْروفِ، وإظْهارًا لِبَعْضِ العِلَلِ الدّاعيَةِ لَهم إلى ما فَرِحوا بِهِ مِنَ القُعودِ، فَقَدْ جَمَعوا ثَلاثَ خِلالٍ مِن خِصالِ الكُفْرِ والضَّلالِ وهي: الفَرَحُ بالقُعودِ، وكَراهيَةُ الجِهادِ، ونَهْيُ الغَيْرِ عَنْ ذَلِكَ[1].

دلالَةُ تَكرارِ لَفظِ (النَّفْر):

إثارةُ هِمَمِ المخاطَبينَ نَحْوَ النَّفيرِ في سَبيلِ اللهِ بِتَكرارِ ذِكرِه

سورَةُ التّوبَةِ هي أَكْثرُ سورَةٍ ذُكِرَتْ فيها لفظَةُ (النَّفْر)، مِن ذلكَ ﴿ٱنفِرُواْ﴾ [التوبة: 38]، ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ [التوبة: 39]، ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا﴾ [التوبة: 41]، ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التوبة: 81]، ﴿لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ﴾ [التوبة: 122]، وفي تَكرارِ الفِعلِ (نَفَرَ) الَّذي يَدلُّ عَلى الخُروجِ السَّريعِ مِن مَوْضِعٍ إلى غَيْرِهِ لِأَمْرٍ يَحْدُثُ، وأَكْثَرُ ما يُطْلَقُ عَلى الخُروجِ إلى الحَرْبِ، تَحريضٌ على الجِهادِ وتَنْديدٌ عَلى المُقصِّرينَ في شَأْنِه.

دلالَةُ النَّهْي: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾:

تَلقينُ الآخَرينَ عِلَّةَ النَّهْيِ لإمدادِهِمْ بِعُذْرِ التَّخَلُّفِ

ورَدَتْ صيغَةُ النَّهْيِ ومعها عِلَّتُها، للدَّلالَةِ عَلى الاسْتِعْذارِ بِشِدَّةِ الحَرِّ وسَبَبِ تَرْكِ النَّفْرِ، حيْثُ قَصدوا إلى أنْ يَكْسِبوا غَيْرَهم، ويُنَبِّهوهُم عَلى العِلَّةِ الموجِبَةِ لِتَرْكِ النَّفْرِ[2].

نوع (ال) في ﴿ٱلۡحَرِّۗ﴾، ودلالَتُها:

الإحالةُ على المَعهودِ لقصدِ البَيَانِ المُعجِز

تَعْريفُ (الحرّ) للدّلالة على مَعهودٍ؛ لِأَنَّ غَزْوَةَ تَبوكَ كانَتْ في وقْتِ شِدَّةِ الحَرِّ وطيبِ الثِّمارِ والظِّلالِ[3].

وَجهُ الرَّدِّ عَليهِمْ:

مَنْ تَصَوَّنَ مَشقَّةَ ساعَةٍ تَأَبَّدَتْ مَشقَّتُهُ

قولُه تعالى: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾ جُملَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ ابْتِدائيَّةٌ، خِطابٌ للنَّبيِّ ﷺ، والمَقْصودُ قَرْعُ أَسْماعِهِمْ بِهَذا الكَلامِ[4] وفي هذه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/474.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/65.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.

العبارَةِ اسْتِجهالٌ لِلمنافقينَ؛ لِأَنَّ مَن تَصوَّنَ مِن مشقَّة ساعَةٍ، فَوقَعَ بِسبَبِ ذلكَ التَّصوّنِ في مشقَّةِ الأَبَدِ، كانَ أَجهَلَ مِن كُلِّ جاهِلٍ[1].

الكِنايَةُ في: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾:

التّذكيرُ بِمَصيرِ المنافقينَ الحَتْميِّ بِدلالَةِ الكِنايَةِ العُرْضيَّةِ

قولُه تَعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾: تَذْكيرٌ بِطَريقِ الكِنايَةِ عَنْ كَوْنِهِمْ واقِعينَ في نارِ جَهَنَّم، لِأَجْلِ قُعودِهِمْ عَنِ الغَزْوِ في الحَرِّ، وهي كِنايَةٌ عُرْضيَّةٌ عَنْ كَوْنِهِمْ صائِرينَ إِلَى نارِ جَهَنَّمَ[2].

سِرّ اسْتِخدامِ اسْمِ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

تَوعُّدُ المُنافِقينَ بِالتَّجَهُّمِ فَوقَ العَذابِ بالأَلَمِ

قيلَ: إنَّ اسْمَ جَهَنَّمَ مُعَرَّبٌ وأَصلُهُ فارِسيٌّ[3] وعلى القَولِ بأَنَّهُ عَربيٌّ، فَهو مُشتَقٌّ مِنَ الجَهْمِ أَوِ الجُهومَةِ، وهو الشَّيْءُ المخوفُ العابِسُ الكَريهُ[4] وعِندئذٍ يَكونُ ما يَحمِلُه لَفظُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مِن معنى الكَراهيَةِ والبُغْضِ والخَوْفِ هو مُسَوِّغُ اخْتيارِهِ هُنا؛ فَلِكَونِهم كَرِهوا الاسْتِجابَةَ لِرَبِّهم، والجِهادَ في سَبيلِهِ مُتَذَرِّعينَ بِحَرِّ الدُّنيا عوقِبوا بـ ﴿جَهَنَّمَ﴾، فَلْيَتَحَمَّلوا حرَّ نارِ جَهَنَّمَ الَّتي يَحْمِلُ اسْمُها صِفَةَ التَّجَهُّمِ والعُبوسِ جَزاءً وِفاقًا.

سِرُّ مَجيءِ فِعلِ الأمْرِ ﴿قُلْ﴾ في صَدْرِ الرَّدِّ علَيهِم، ودلالَتُهُ:

تَصديرُ الأَمْرِ لِلإِحالَةِ عَلى الرّدودِ القَطْعيَّةِ إِفْحامًا لِلمنافقينَ وتَسْفيهًا لِأَحْلامِهم

الخِطابُ بِفِعلِ الأَمْرِ مُوجَّهٌ إِلى النَّبيِّ ﷺ تَفْنيدًا لِقَولِ المنافقينَ وتَسْفيهًا لِحُلومِهم[5].

فائدَةُ إِضافَةِ ﴿نَارُ﴾ إِلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

وَجْهُ إِضافَةِ ﴿نَارُ﴾ إِلى ﴿جَهَنَّمَ﴾ مِن بابِ إِضافَةِ المَوْصوفِ إِلى صِفَتِه؛ ولِهذا لا يُقالُ: جَهَنَّمُ نارٍ، ولَكِنْ يُقالُ: نارُ جَهَنَّمَ؛ فَجَهَنَّمُ عَلَمٌ مِن بابِ اللَّقَبِ، ومَعْلومٌ أَنَّ العَلَمَ اسْمٌ وكُنْيَةٌ ولَقَبٌ، فجَهَنَّمُ اسْمٌ عَلَمٌ،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/296.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.
(3) الرّاغب، المفردات، والجوهريّ، الصّحاح: (جهنم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/272، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 10/326، والشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 7/4138.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/491.

تَعليقُ المْوصوفِ بِصِفَتِهِ لِلدَّلالَةِ عَلى ما يُحقِّقُ الوَعيدَ المُرادَ

لَكِنَّه مِن بابِ اللَّقَبِ، والعَلَمُ اللَّقَبُ بِمَنْزِلَةِ الصِّفَةِ؛ يعني: بِمَنْزِلَةِ النَّعْتِ؛ لأَنَّ اللَّقَبَ ما أَشْعَرَ بِمَدْحٍ أو ذَمٍّ، وبناءً على ذلك يَتَبَيَّنُ أنَّ مثل هذا التَّركيبِ: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ من بابِ إضافَةِ المَوْصوفِ إلى صِفَتِه[1].

وإضافَةُ النّارِ إلى جَهنَّم فيهِ زيادَةُ تَرْهيبٍ وشِدّةُ تَخويفٍ؛ لاكْتِسابِ المُضافِ مَعنى المضافِ إليهِ، وجَهنَّمُ - والعياذُ باللّه - تَدلُّ عَلى شِدَّةِ بُعدِ قَعْرِها، وقد تَكرَّر في الأَحاديثِ وصْفُها بالعُمقِ السَّحيقِ، مِثْل قولِه ﷺ: «يَهوي بها سَبعينَ خَريفًا»[2]، وقَد سمّاها اللّهُ ﷻ: هاويَة، فقالَ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: 9]، "والهاوية: كُلُّ مَهْواةٍ لا يُدْرَك قعرُها"[3].

وفي إضافَةِ النّارِ إلى جَهنَّمَ إشارَةٌ إلى تَهديدِهم بالعذابِ المجانِسِ لِأَعْمالِهم، كَما ذَكَرَهُ اللّهُ تَعالى في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

دلالَةُ لَفظِ ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾:

مُقابَلَةُ الحُجَّةِ بِالحُجَّةِ ذاتِها عَلى وَجْهٍ يُدِينُ المنافِقينَ مِنْ أَفْواهِهِمْ

في قولِه ﷻ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ ردٌّ على أقْوالِ المنافقينَ القَبيحَةِ، وأفْعالِهِمُ الخَبيثَةِ، وقولٌ على سَبيلِ التَّهكُّم بهم والتَّحقيرِ مِن شَأنِهم، أيْ: أنَّ نارَ جَهنَّم أَشَدُّ حَرًّا من هذا الحرِّ الَّذي تَخشَونَهُ وتَرونَهُ مانِعًا مِنَ النَّفيرِ، بلْ هي أشدُّ حرًّا من نارِ الدُّنيا[4].

وكذلكَ في قولِهِ تَعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ اسْتِجهالٌ لَهُمْ، لِأنّ مَنْ تَصَوّنَ من مَشقَّةِ ساعَةٍ فوقَعَ بِسبَبِ ذلكَ التَّصَوّنِ في مَشقَّةِ الأَبَدِ، كانَ أجْهلَ من كُلّ جاهِلٍ[5].

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة فاطر، ص: 256.
(2) جزء من حديث أخرجه الترمذي، السّنن، برقم: (2314)، وأحمد، المسند، برقم: (7215).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هوي).
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/366.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/296.

فائدَةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿أَشَدُّ﴾:

حـذْفُ مُتعلّقِ (أَشَـدُّ) زيـادَة في التَّـهـويـل؛ لِيَشملَ النَّفْرَ في الحرِّ وغيرِه

إنّ نارَ جهنَّمَ أَشدُّ حرًّا ممّا يَحذَرُ المنافقونَ مِنَ الحرِّ المَعْهودِ ويُحذّرون النّاسَ مِنهُ[1] وَكَوْنُها أَشَدَّ حَرًّا مِنْ حَرِّ القَيْظِ أَمْرٌ مَعْلومٌ لا يَتَعَلَّقُ الغَرَضُ بِالإخْبارِ عَنْهُ[2].

وحذْفُ مُتَعلّقِ ﴿أَشَدُّ﴾ زيادَةٌ في التَّهويلِ؛ لِيشْمَلَ النَّفْرَ في الحرِّ، وهو المذْكورُ في قولِهم: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾، ويَشْمَلَ غيْرَ ذلكَ ممّا يُتَصوَّرُ مِن حرٍّ في الدُّنيا.

فائدَةُ ﴿لَّوْ﴾:

سَوقُ ما يَدلُّ في عِلمِ اللهِ عَلى امْتِناعِ تَحقُّقِ فِقْهِ المنافقين

أَوردَ الخطابُ حرفَ ﴿لَّوْ﴾ لِمُجرَّدِ التَّمَنّي المنبِئِ عَنِ امْتناعِ تَحقُّقِ مَدْخولِها[3].

فائدَةُ قولِهِ تَعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾، وبَلاغَتُهُ:

بَـلاغَـةُ الإخـبـارِ بِالمعْلومِ بَداهَةً

قولُهُ سبحانه: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ تَتْميمٌ، لِلتَّجْهيلِ والتَّذْكيرِ، أَيْ: يُقالُ لَهُمْ ذَلِكَ لَوْ كانوا يَفْقَهونَ الذِّكْرى، وَلَكِنَّهُمْ لا يَفْقَهونَ، فَلا تُجْدي فيهِمُ الذّكْرى والمَوْعِظَةُ؛ إذ لَيْسَ المُرادُ: لَوْ كانوا يَفْقَهونَ أَنَّ نارَ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا؛ لِأَنَّهُ لا يَخْفَى عَلَيْهِمْ؛ وَلَوْ كانوا يَفْقَهونَ أَنَّهُمْ صائِرونَ إِلَى النَّارِ وَلَكِنَّهُمْ لا يفقهونَ ذَلِكَ[4].

بَلاغَةُ الاعْتِراضِ التَّذييلِيّ في الآيَةِ:

دلالَـةُ التّأْكيدِ بِـالاعـتـراضِ الـتَّـذيـيـلِيِّ على صَنيعِ المُنافِقِين

قولُهُ: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ اعتراضٌ تَذْييليٌّ مِن جِهتِهِ ﷻ، غيرُ داخلٍ تَحتَ القولِ المأمورِ بِهِ، مؤكّدٌ لِمَضْمونِهِ[5].

دلالَةُ حَذفِ جوابِ الشَّرطِ لِفعْلِ الشَّرطِ: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾:

حُذِفَ جَوابُ (لَو) لِلإشارَةِ إلى أنَّ المنافقينَ سَيسْتَقبِلونَ هَولًا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/281.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.

عظيمًا يَنتَظرُهم. والتّقديرُ: لَو كانوا يَفقَهونَ الأمورَ، لَوازَنوا بيْنَ ما يَسْتقبِلهم في تَخلُّفِهم، واتّقاءِ حَرِّ الدُّنيا، وبيْنَ ما يَلقَونَهُ بَعدَ البَعثِ مِن عذابِ جَهَنَّمَ الشّديدِ حَرُّها، وإنَّهُ لآتٍ لا رَيْبَ فيه[1].

الدّلالَةُ على عِظَمِ الهَوْلِ الّذي يَجهَلُه المُخَلَّفون

دلالَةُ حذفِ مَفعولِ: ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

تَنزيلُ الفِعلِ المَتعدّي مَنزِلَةَ اللّازِمِ لِتَقريرِ نَفيِ صِفَةِ الفَهْمِ عَنِ المنافقينَ

حُذِفَ مَفعولُ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ لِصلاحيَةِ تَقديرِ لَوازمِ جَهلِهم بِما يَفقَهُهُ العُقلاءُ، أوْ تَنزيلًا لِلفِعلِ المُتَعَدّي مَنزِلَةَ اللّازِمِ؛ فَلا جَوابَ ولا مَفعولَ؛ ويَؤُولُ المَعْنى إلى أنَّهمْ ما كانوا مِن أهْلِ الفَطانَةِ والفِقْهِ، ويَكونُ الكَلامُ نَظيرَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، وهو خِلافُ الظّاهِرِ أيْضًا[2].

إيثارُ لَفظِ الفِقْهِ دونَ غَيْرِه مِن مُرادِفاتِهِ:

سَلبُ ثَمَراتِ الفَهمِ النّافِذِ إلى اللُّبابِ بإيثارِ لَفظَةِ الفِقْهِ

فُسِّرَ الفِقهُ بِالعِلْمِ بِالشَّيْءِ والفَهْمِ لَهُ، وَكَذا بِالفِطْنَةِ، ويُراد بِهِ نَوْعٌ خاصٌّ مِنْ دِقَّةِ الفَهْمِ والتَّعمُّقِ في العِلْمِ الَّذي يَتَرتَّبُ عَلَيْهِ الانْتِفاعُ بِهِ، وأُوثِرَ بالذِّكرِ دونَ غَيرِهِ في هذا الموضِعِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ المنافقينَ لَمْ يُدْرِكوا كُنْهَ المُرادِ مِمَّا نُفيَ فِقْهُهُ عَنْهُمْ، فَفاتَتْهُمُ المَنْفَعَةُ مِنَ الفَهْمِ الدَّقيقِ، والعِلْمِ المُتَمَكِّنِ مِنَ النَّفْسِ[3].

دلالَةُ صيغَةِ المُضارِعِ:

سوقُ ما يَدلُّ عَلَى تجدُّدِ الذَّمِّ واستمرارِ عدَمِ الفَهْمِ

أوثِرَ الفِعلُ المضارِعُ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ لِلدَّلالَةِ عَلى أنَّ عَدَمَ فِقهِهِمْ مُتَجَدِّدٌ ومُستَمِرٌّ.

سِرُّ العُدولِ عَن (لَوْ كُنتُمْ تَفْقَهونَ) إلى ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾:

تَحويلُ الخطابِ إلى الغَيبَةِ تَجاهُلًا لِوجودِ المُخلَّفينَ لِعدَمِ أهلِيَّتِهِم لِلخطابِ

﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ﴾: جُمْلَةٌ مُستَقِلَّةٌ، وتَعقيبٌ عَلى ما قالَ المُخلَّفونَ، وعَلى ما أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بِأنْ يَقولَهُ لَهُم، والظّاهِرُ: أنَّهُ تَحويلٌ لِلكلامِ مِنَ المخاطَبِ إلى الغائِبِ، تَجاهُلًا لِوجودِهِمْ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3393.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/352.

بِتنزيلِهم مَنْزِلَةَ غيرِ الموجودِ أصْلًا، لِكونِهم لَيسوا أَهلًا لِأَنْ يَتَشرَّفوا بِالخطابِ الشَّريفِ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفَرَحُ والضَّحكُ والسُّرورُ:

الـفَـرَحُ أَعَـمُّ مِـنَ الـسُّـرورِ، والضَّحِكُ ظُهورُ الثَّنايا مِنَ الفَرَحِ

لا شَكَّ أنَّ بيْنَ الفَرَح والسُّرور مُشْتَرَكًا وتَقارُبًا دلالِيًّا، ولَكِن مِن دَقيقِ الفُروقِ بَيْنَهُما:

أنَّ السُّرورَ لا يَكون إلَّا بما هوَ نَفْعٌ أَو لَذَّةٌ على الحَقيقَة، وَقد يَكونُ الفَرَح بِما لَيْسَ بِنَفْع وَلا لَذَّة، كَفَرحِ الصَّبيِّ بالرَّقْصِ والعَدْوِ والسِّباحَةِ وَغيرِ ذَلك، مِمَّا يُتْعِبُه ويُؤذيه، وَلا يُسمَّى ذَلك سُرورًا، ونَقيضُ السُّرور الحُزنُ، وَمَعْلوم أَنَّ الحُزْن يَكونُ بالمَرازِئِ، فَيَنْبَغي أَنْ يَكونَ السُّرورُ بالفوائِد، وَما يجْري مَجْراها مِنَ الملاذِّ، ونَقيضُ الفَرحِ الغَمُّ، وَقد يَغتمُّ الإنْسانُ بِضَرَرٍ يَتوهَّمهُ مِن غَيرِ أَنْ يَكونَ لَهُ حَقيقَة، وَكَذَلِكَ يَفرَحُ بِما لا حَقيقَةَ لَهُ[1].

في حينِ أنّ الضّحكَ: ظُهورُ الثَّنايا مِنَ الفَرَحِ[2]، وهو رَدُّ فِعلٍ خارِجيٌّ على مَوقِفٍ مُحدَّدٍ أَوْ شَيءٍ آخَر، ومِن ثَمّ فهناك فَرَح أَوْ سُرورٌ مِن دونِ ضَحِك، وضَحِكٌ مِن دونِ فَرَحٍ أَوْ سُرورٍ.

(الخالفونَ) و(القاعِدونَ):

القُعودُ لُصوقٌ بِـالأَرضِ، ومِـن لَـوَازِمِهِ التَّثاقُلُ عَــنِ الـقِـتـالِ والتَّخلُّفُ عَنْهُ

يُمكِنُ أنْ نُلَخِّصَ الفَرقَ بَينَ اللّفظتَينِ في أنَّ (القاعدينَ) جاءَتْ مَع ذِكرِ كَسَلِ المنافِقينَ وإيثارِهمُ القعودَ رَغْبةً مِنْهُمْ، وهوَ ما يُعَبَّرُ عَنهُ في اللّغَةِ بالقعود، فَوافَقَ بهذا الاستِعمالَ اللُّغويَّ، ولَفظُ (الخالفين) جاءَ في سِياقِ بَيانِ عُقوبَةِ اللّهِ تَعالى لِلمنافِقينَ بِإِلْزامِهمُ البَقاءَ مَع أَهلِ الأَعذارِ مَع رَغْبَتِهمْ في الخروجِ؛ فَلمّا لَم توجَدْ بَواعِثُ الكَسَلِ عُبّرَ بِـ(الخالِفينَ).

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 265.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضحك).

فالقُعودُ الرُّسوخُ واللُّصوقُ بالأَرْضِ، فَلَفظُ القعودِ يَدلُّ عَلى التَّثاقُلِ عَنِ القِتالِ والتَّخَلُّفِ عَنْهُ، والخالِفونَ الَّذينَ يَبْقَوْنَ بَعدَ الذّاهِبينَ إلى الغَزْوِ[1].

(خِلافَ) و(دونَ):

(دون) أَعمُّ مِن (خِلاف)

تَتَّسِع دلالاتُ لَفْظَةِ (دون) حتَّى تَصِلَ إلى مَعانٍ كَثيرَةٍ، يُحدِّدُها السّياقُ[2]، تَنسَجِمُ في بَعضِها معَ مَعنى (خِلاف)، ممّا يُحيلُ عَلى نِسْبَةِ العُمومِ والخُصوصِ المُطْلَقِ.

(بِمَقْعَدِهم) و(بِمَكانهم):

المكانُ أَوسَعُ مَعنًى، والمَقْعَدُ هو القُعودُ أَوْ مَوضِعُهُ

يَدلُّ المَقعدُ في القُرآنِ عَلى الثّبوتِ واللّبْثِ والاسْتِقرارِ، في حينِ أنَّ المكانَ مَفْعَلٌ مِنَ الكَونِ، ويَكونُ المقعدُ مَصدرًا أَوْ مَوضِعًا؛ وعَلَيه فإنّ الأَلْيَقَ بالمَعنى القُرآنيِّ المَقْصودِ إيرادُ (مَقْعَد) لِتشوّف المنافِقينَ إلى اسْتِقرارِهم وثُبوتِهِمْ مَع الخَوالِفِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلف) و(قعد).

(2) فَتأتي: (دون) اسم فِعلٍ بمعنى: الوعيد، كَقولِ السَّيِّد لخادمِه: دونَكَ عِصْياني، واسْم فِعلٍ بمَعنى: خُذْ، وتوصَل بِكافِ الخطابِ، فيُقال: دونَكَ الدِّرْهم، وظَرْف مكانٍ منصوبًا، وهو بِحسبِ ما يُضاف إليه، فيَكون بمَعنى: فوق. نحو: السَّماءُ دونَك، وبمعنى: قَبل. نَحو: دونَ قتْل الأَسَد أَهوالٌ، وبمعنى: تَحت، وأسْفل. كقولِك: دونَ قَدمِكَ بِساطٌ، وبمعنى: خَلْف. نَحو: جَلَسَ الوزيرُ دونَ الأَميرِ، وبمَعنى: أَمام. نَحو: سارَ الرّائدُ دونَ الجَماعَة.

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾

[التوبة: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإِخْبارُ عمّا يَؤولُ إليهِ حالُ المنافقينَ في الدّارَين بِحسبِ جِنْسِ أعْمالِهِمُ السّابِقَةِ

بَعدَ أَنْ ذَكرَ اللّهُ ﷻ ما كانَ مِن أَمرِ المنافقينَ مِنَ الفَرحِ بِالقُعودِ خِلافَ رَسولِ اللّهِ ﷺ وكَراهِيَتِهِم لِلجِهادِ مَعَهُ وتَثْبيطِهِم للمؤمنين، جاءَ الأَمْرُ إليهِمْ بِقِلَّةِ الضَّحِك في الحال وكَثرَةِ البُكاءِ في المآلِ بِحسبِ ما تَقْتَضيهِ حالُهُم، وتَسْتَوجِبُهُ جَريمتُهُمْ، ولَوْ كانوا يَفْقَهونَ ما فاتَهُمْ - بالتَّخَلُّفِ والخِلافِ - مِن أَجْرٍ، وما سَيحْمِلونَ في الآخِرَةِ مِن وِزرٍ، وما يُلاقونَ في الدُّنيا مِن خِزيٍ وضرٍّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾: أَصْلُ الضَّحِكِ: انبِساطُ الوَجْهِ وتكَشُّرُ الأَسنانِ مِنْ سُرورِ النَّفْسِ. واستُعيرَ الضَّحِكُ للسُّخرية، فقيل: ضَحِكْتُ منه، ورجلٌ ضُحَكَةٌ: يَضْحَكُ من النّاس، وضُحْكَةٌ: لمن يُضْحَكُ منه[1]. والضَّحْكَة: المَرَّة الواحِدَةُ[2]. الضَّحِكُ يَختصُّ بالإنسان، وليس يوجد في غيره من الحيوان؛ ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النّجم: 43][3]. والضَّحِكُ المقصودُ في الآيَةِ: كَيْفيَّةٌ في الفم تَتَمَدَّد منها الشَّفتانِ ورُبَّما أَسْفَرَتا عنِ الأَسنانِ، وهي حالةٌ تَعْرِضُ عند السُّرورِ والتَّعَجُّبِ مِنَ الحُسْنِ[4].

2) ﴿وَلۡيَبۡكُواْ﴾: أَصْلُ البُكاءِ: خُروجُ المائع مِنَ الجَوْفِ قَليلًا قَليلًا، يُقالُ: بَكَتْ عَيْنُهُ تَبْكي بُكاءً، أَيْ: خَرَجَ دَمْعُها، وبَكَتِ السَّماءُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ضحك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضحك).
(3) الرّاغب، المفردات: (ضحك).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.

أيْ: أمْطَرَتْ[1]، وهو أيضًا: سَيَلانُ الدُّموعِ بِسَبَبِ حُزْنٍ ونَحْوِهِ[2]، وَمِنْهُ البَكَى، وَهوَ: شَجَرٌ أَوْ نَبْتٌ إذا قُطِعَ خَرَجَ مِنْهُ سائِلٌ أَبْيَضُ، والتَّباكي: تَكَلُّفُ البُكاءِ، وتَباكَى الشَّخصُ إذا تَظاهَرَ بالبُكاء، والبَكِيُّ: الكَثيرُ البُكاء، على فَعيلٍ[3]. والمقصودُ بالبُكاء في الآيَة: كَيْفيَّةٌ في الوَجْه والعَيْنَيْن تَنْقَبِضُ بِها الوَجْنَتانِ والأساريرُ والأَنْفُ. ويَسيلُ بها الدَّمْعُ مِنَ العَيْنَيْن، وذلكَ يَعْرِضُ عند الحُزْنِ والعَجْزِ عن مُقاومةِ الغَلَبِ[4].

3) ﴿يَكۡسِبُونَ﴾: أصلُ الكَسْبِ: يَدُلُّ عَلَى ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإِصابَةٍ. يُقالُ: كَسبتُ الشَّيءَ، أيْ: طَلبتُهُ، ومنه سُمّي طلَبُ الرِّزق كَسْبًا واكتسابًا[5]. والكَسْبُ يُقال فيما أخذه لنفسِه ولغيرِه؛ ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولَين، فيُقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكْتِسابُ لا يُقال إلَّا فيما استفدتَهُ لنفسِكَ، فكلُّ اكْتِسابٍ كَسْبٌ، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا[6]. ويأتي الكَسْبُ بمعنى الشَّيءِ المُكتَسَب، وجمعُه: مَكاسِب. ويُطلَق أيضًا على الجَرح، أي: فِعل الشَّيءِ بالجارِحَة، والكواسِبُ: الجوارحُ مِن الإنسان والطَّير[7]. والمقصودُ بالكَسْبِ في الآية: ما يَنالُهُ المَرْءُ بسَعْيِه.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الوعيدُ بِسوءِ مَصيرِ المنافقينَ، والإخبارُ عَن عاجِلِ أمرِهِمْ وآجِلِه

يتوعَّدُ اللّهُ تعالى المنافقينَ في الآيةِ، بِأنَّهمْ وإنْ فرِحوا وضَحكوا طوالَ أعمارِهم في الدُّنيا، فهو قليلٌ بالنِّسبةِ إلى بُكائهم في الآخرةِ؛ لأنَّ الدُّنيا فانِيَةٌ والآخرةَ باقيةٌ، والمنقطعُ الفاني قليلٌ بِالنِّسبةِ إلى الدّائم الباقي[8].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (بكى).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكا).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بكى).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(6) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/367.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الفاءِ في قولِهِ تَعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾:

الفاءُ في قولِهِ تَعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾ لِلإفصاحِ، لأنّها تُفصِحُ عَن شرطٍ مُقدَّرٍ؛ لأنَّ المعنى العامَّ: إذا كانوا قَد فرّوا مِنَ الغَزوةِ اتّقاءً للحرِّ في الوقتِ القَصيرِ، وأَهمَلوا ما يَستَقبِلهمْ مِن حَرّ جهنَّمَ الأشدِّ الَّذي يكونُ جَزاءَ التَّخلُّفِ، فقَدِ اسْتبدَلوا البُكاءَ الطَّويلَ بِضَحِكٍ قَليلٍ[1].

لا يَستَبدِلُ العَاقِلُ البُكاءَ الطَّويلَ بِضَحِكٍ قَليلٍ

وقيلَ: لِسَبَبيَّةِ ما سَبَقَ لِلْإِخْبارِ بما ذُكِرَ مِنَ الضَّحِكِ والبُكاءِ لا لِنَفْسِهِما؛ إذْ لا يُتَصوَّرُ السَّبَبِيَّةُ في الأوَّلِ أصلًا[2].

دلالَةُ اللّامِ في الفِعْلِ: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾:

اللّام في قولِه ﷻ: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾ لامُ الأَمْرِ، والصُّورَةُ وإنْ كانَ ظاهِرُها أَمرًا، لَكنَّهُ في الواقِعِ إخبارٌ عمّا يَكونُ عَليْه حالُهُم حينَ يَبدو لَهمْ ما لَم يَكونوا يَحْتَسِبونَ، بِمُعايَنةِ جَهَنَّم، ثُمّ مواجَهَةِ مَصيرِهِمْ فيها.

لامُ الأَمرِ تُحيلُ المُضارِعَ إلى الأَمرِ، والأَمْرُ المُتَرَتِّبُ عَليْها في مَعْنى الإِخْبارِ

سِرُّ العدولِ عَنِ الأمْرِ بَصيغَةِ (افْعَل) إلى لامِ الأَمرِ:

إنَّ العُدولَ عَنِ الأمرِ الصَّريحِ بِصيغَةِ (افعَل) إلى صيغَةِ المضارِعِ المَسْبوقِ بِلامِ الأمرِ - فَضْلًا عَن كونِهِ يَدلُّ عَلى حَتْمِيَّةِ وقوعِ المَطْلوبِ، فيَشْتَرِكُ في ذلكَ مَع ما تُفيدُهُ صيغَةُ الأَمْرِ (افعَل) - فَإنَّهُ يُضيفُ كذلك بُعدًا آخَر، ويُفيدُ مَعنًى لا تُفيدُهُ صيغَةُ الطَّلَبِ (افعَل)، وهو إفادَةُ تَجَدّدِ وقوعِ الفِعْلِ المَطلوبِ وتَكَرُّرِه.

الجَمعُ بَيْنَ خُصوصِيَّةِ طَلبِ الفِعلِ، وتَكَرُّرِه وتَجَدُّدِه

فالآيَةُ إخبارٌ عمّا يؤولُ إليهِ حالُهم في الدُّنيا والآخِرةِ، أيْ: فسَيَضْحكونَ قليلًا، ويَبكونَ كثيرًا؛ إلّا أنّه أَخرَجَه على صيغةِ الأَمْرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه حَتْمٌ واجبٌ، لا يكونُ غيرُه، وعلى تَحتُّمِ وقوعِ المُخبَرِ بِه؛ فإنَّ أَمرَ الآمرِ المُطاعِ ممّا لا يَكادُ يَتخلَّفُ عنْهُ المأمورُ[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3394.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/88.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

وأيضًا فإنّ لَفظَ (اضحكوا) فِعلٌ كَلاميٌّ طَلَبيٌّ مُباشرٌ، غَرضُهُ الإنْجازيُّ التّهديدُ، تَضمَّن قوَّةً إنْجازيَّةً حَرفيَّةً بدخولِ لامِ الأمْر.

سرُّ العدولِ عَنِ الإخْبارِ إلى الإنْشاءِ في مَعنى الإخبارِ في الجُملَتَين:

﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾:

حَتْميَّةُ وقوعِ مَا تـوَعَّدَ به المَولَى ﷻ

ذلكَ أنّهُ قد يُقال: لِمَ لمْ يُخبرْ مُباشرَةً عَن ضَحكِهِمْ قَليلًا، وبُكائِهِمْ كَثيرًا، فيَقول: (فسَيضحكونَ قليلًا ويَبكونَ كثيرًا).

فالجوابُ عَن هذا: إنَّ ورودَ الخَبرِ في صورَةِ الإنْشاءِ يَدلُّ على حَتميَّةِ وقوعِه، تَمامًا كَما أنّ مَجيءَ الإنشاءِ في صورَةِ الخبرِ يَدلُّ على المبالَغَةِ في وجوبِهِ والامْتِثالِ لَهُ، حتّى لَكأنّهُ قد وَقَع.

النُّكَتُ لا تَتزاحَم

إضافَةً إلى ما تَقدَّم، هناكَ فائدَةٌ أُخْرى؛ وهي: الابْتعادُ بالخَبرِ عَن تَأويلِه بِغيرِ ما دَلَّتْ علَيه صِيغَةُ الإنْشاءِ؛ لأنّ الصّيَغَ الإنْشائيَّةَ لِذاتِها لا تَحتَمِل الصِّدقَ والكَذِبَ[1].

أمّا الخبرُ مِن حيْثُ هو خَبرٌ، فإنّهُ يَحتَمِلُ ذلكَ، وإنْ كانَ ذلكَ غيرَ وارِدٍ في أَخبارِ اللّهِ تَعالى مِن حيْثُ إنّها صادِرَةٌ عَمّن لا يَكذِب، لا مِن حيْثُ كونُها أخبارًا. وعَليْهِ؛ فإنّ الخَبرَ الوارِدَ بالصّيغَةِ الطّلَبيَّة يَكْتَسِبُ هذا البُعدَ الَّذي لا يُفيدُهُ الخَبرُ المَحْضُ.

سرُّ العدولِ عَن (فَلْيَفْرَحُوا) إلى ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ﴾:

إيــثــارُ لَـفـظِ الضّحِك لِقَصدِ تَـقريـرِ الـلَّـذاتِ العاجِلَةِ والرُّدودِ العارِضَةِ

الضَّحِكُ: رَدُّ فِعلٍ خارجيٌّ على مَوقِفٍ مُحدَّد أَوْ شيءٍ آخَر، ولَه هُنا إحدى دلالتَين؛ كونُهُ كِنايَةً عَنِ الفَرَح، أَوْ أنَّه أُريدَ ضَحِكُهم فَرَحًا لاعْتِقادِهِمْ تَرْويجَ حيلَتِهِمْ عَلى النَّبيِّ ﷺ إذْ أذِنَ لَهم بِالتَّخَلُّفِ[2]، ولكنَّ مآلَهُ إلى خِلافِ ما ظَهر في الآخِرة.

الخِلافُ في إعْرابِ ﴿قَلِيلٗا﴾ و﴿كَثِيرٗا﴾ وأَثَرُهُ على المَعنَى:

قولُهُ ﷻ ﴿قَلِيلٗا﴾، و﴿كَثِيرٗا﴾ فيهما وَجهانِ: أَظهَرُهُما: أنَّهما

(1) الشّهاب الخفاجي، حاشية الشّهاب: 4/350.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.

تَعَدُّدُ المَعاني بِتَعاوِرِ المَصْدَرِيَّةِ أو الإضافةِ جمعًا بين كَثْرَةِ البُكاءِ وقِلَّةِ الضَّحِك

مَنصوبانِ على المَصدَرِ، أيْ: ضحِكًا قليلًا وبُكاءً كثيرًا؛ فحذفَ الموصوف، وهو أَحدُ المواضِعِ المُطَّرِدِ فيها حذفُ الموصوفِ وإقامةُ الصِّفَةِ مَقامَهُ مُقامَهُ[1].

والثّاني: أنَّهما مَنصوبانِ عَلى الظَرفَية الزّمانية، أيْ: زَمانًا قليلًا، وزَمانًا كثيرًا، والأوَّلُ أوْلى؛ لأنَّ الفعل يَدلُّ على المَصدَر بشَيْئَين: بِلفظِهِ ومَعناهُ، بِخلافِ ظَرْفِ الزّمانِ فإنَّهُ لا يدلُّ علَيْه بِلَفظِه، بلْ بِهَيئَتِه الخاصَّة[2].

عطفُ المتلازماتِ لبَيانِ حصولها حتْمًا على الدَّوام

فائدَةُ عَطفِ جُملَةِ: ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾:

عطف جُملةِ ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ على ما قبلَها مِن عَطفِ اللّازِمِ عَلى المَلزوم، فالأمْرُ بِالضَّحِك وبِالبُكاءِ مُسْتَعْمَلٌ في الإخْبارِ بِحُصولِهِما قَطْعًا؛ إذْ جُعِلا من أمْرِ اللهِ، أوْ هو أمْرُ تَكوينٍ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ [البقرة: 243]، والمَعْنى أنَّ فَرَحَهم زائِلٌ وأنَّ بُكاءَهم دائِمٌ مِن غيرِ انْفكاكٍ. والحاصِل أنَّ جُملةَ ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ معْطوفَةٌ عَلى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا﴾؛ للدَّلالَة عَلى الدَّيمومَة[3].

القَصدُ إلى الخُسرانِ بمُقابَلَةِ الضَّحِكِ للبُكاءِ، والقَليلِ للكَثيرِ

بَلاغَةُ المُقابَلَة: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا﴾، ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾:

مِنَ المُحسِّناتِ البَديعيَّةِ المَعنويّةِ في هذه الآيَةِ سَوقُ مَعنيَين، فأَتى بِالضّحِكِ والقِلَّة، ثُمّ بما يُقابِلُهما مِنَ البُكاءِ والكَثْرةِ على التّرتيب، ولا شَكَّ أنَّ مُقابَلَةَ حالِهمْ في قِلّةِ ضحِكِهم بِحالِهِم في كَثْرةِ بُكائِهِمْ يَدلُّ على عَظيمِ خُسرانِهِمْ وشِدّةِ جَهلِهِمْ.

الجمْعُ بينَ دلالَةِ الفاءِ لِتقريرِ السَّبَبيَّة، وبينَ جَماليَّةِ الجمْعِ بينَ المُتضادَّين عَطفًا

سِرُّ دُخولِ الفاءِ في الفِعلِ الأوّلِ، وعَدمِ دخولِهِ في الآخرِ:

دَخلَتِ الفاءُ في قوله ﷻ: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا﴾ لِلكَشفِ عَن سَبَبيَّةِ ما سَبَقَ لِلْإخْبارِ بما ذُكِرَ مِنَ الضَّحِك والبُكاءِ لا لِنَفْسِهما، إذْ لا يُتَصَوَّرُ السَّبَبيَّةُ في الأوّلِ أصْلًا[4].

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/160.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/160.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.

وبما أنّ الجملتينِ اتَّفَقَتا إنْشاءً، ووُجِدَ الجامعُ بينَهما - وهوَ اتِّحادُ المُسْنَدِ إليهِ فيهما، وتَناسُبُ المُسْنَدَيْنِ لِما بينَ الضَّحِك والبُكاءِ من التَّضادِّ مَعَ عَدَمِ وجودِ مانعٍ من العَطْفِ - آثرَ البيانُ القرآنيُّ الجمْعَ بينَ الجملتَين بحرفِ العَطفِ؛ والحالُ أنّ التَّضادَّ جهةٌ جامعةٌ لأنَّ التَّضادَّ عندَ الوَهْمِ كالتضايُفِ عندَ العقلِ، فكما لا يَنْفَكُّ أحدُ المُتَضايفَيْنِ عن الآخَرِ عندَ العقلِ كذلكَ لا يَنْفَكُّ أحدُ المُتَضادَّيْنِ عن الآخَرِ عندَ الوَهْمِ؛ ولذلكَ الارتباطِ الوهميِّ تَجِدُ الضِّدَّ أقْرَبَ حضورًا في البالِ مَعَ الضِّدِّ الآخَرِ منْ سائرِ المغايراتِ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ:

دَلالَةُ (الضَّحِك) عَلى الفَرَحِ، و(البُكاء) علَى الغَمِّ، كِنايَةً

بيانُ ذلك: أنّه يَجوزُ أنْ يكونَ الضَّحِكُ كِنايَةً عَنِ الفَرَحِ والبُكاءُ كِنايَةً عَنِ الغَمِّ، والأَوَّلُ في الدُّنْيا والثّاني في الأُخْرى أيْضًا، والقِلَّةُ عَلى ما يَتَبادَرُ منها، ولا حاجَةَ إلى حَمْلِها عَلى العَدَمِ كما حُمِلَتِ الكَثْرَةُ عَلى الدَّوامِ[1].

بَلاغَةُ خُروجِ الخَبَرِ على هَيْئةِ الإنشاءِ (الأَمْر):

عُبِّرَ عَنِ الخَبَرِ بِالأمْرِ لإفادَةِ لُزومِهِ ووُجوبِهِ مُبالَغَةً

هَذانِ الأَمْرانِ مَعْناهُما الخَبَرُ، والمَعْنى: سَيَضْحَكونَ قَليلًا ويَبْكونَ كَثيرًا، وإنَّما جيءَ بِهِما عَلى لَفْظِ الأَمْرِ لِلدَّلالَةِ عَلى أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ مَحْتومٌ لا يَكونُ غَيْرُهُ؛[2] وذَلِكَ لِأَنَّ صيغَةَ الأَمْرِ لِلْوُجوبِ في الأَصْلِ والأَكْثَرِ، فاسْتُعْمِلَ في لازِمِ مَعْناهُ، أَوْ لِأَنَّهُ لا يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ والكَذِبَ بِخِلافِ الخَبَرِ[3].

العُدولُ بِالخَبَرِ إلى قَصْدِ الإنْشاءِ لِتَقريرِ الحَتْمِ الَّذي لا يَحتَمِلُ الصّدقَ والكَذِبَ

وقيلَ: إنَّ الأمْرَ في الآيَةِ جاءَ بمَعنى الخَبرِ، لأنّهُ إنذارٌ بالجَزاءِ لا تَكليفٌ، وفي فائِدَةِ هذا التَّعبيرِ عَنِ الخَبرِ بالإنْشاءِ دلالَتُهُ على حَتْميَّتِه، فهو لا يَحتمل الصِّدقَ والكذبَ لِذاتِه كَما هو شَأْنُ الخَبرِ؛ لأنّ الأَصْلَ في الأَمرِ أنْ يَكونَ للإيجابِ، وهو حَتْمٌ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/442.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/340.

تقريرُ مُقْتَضى الإنشاءِ بالخبرِ يُؤذِنُ بحَتْميَّةِ وقوعِ الفعلِ

ويمكن أنْ يُقالَ: إنّ الأمْرَ بما ذُكر يَتَضمّن الإخبارَ بِسَببِه فيَكون مؤكِّدًا لِلخبرِ بِبناءِ الحُكم عَليه، ويُقابِلُهُ التَّعبيرُ عَنِ الأَمرِ بِصيغَةِ الخَبرِ لِلتَّفاؤلِ بمِضْمونِه كأنَّه وَقَعَ بِالفعل[1].

إِعْرابُ كَلِمةِ ﴿جَزَآءَۢ﴾ ودلالَتُها:

الـدَّلالَـةُ على وَعيدِ الضَّحكِ القَليلِ والبُكاءِ الكَثيرِ

(جَزاءً) مَفْعولٌ لَهُ لِلْفِعْلِ الثّاني، أيْ: لِيَبْكوا جَزاءً، أو مَفْعولٌ لَهُ لِلْفِعْلَيْنِ، أَوْ مَصْدَرٌ مِنَ المَبْنِي لِلْمَفْعولِ حُذِفَ ناصِبُهُ؛ أيْ: يُجْزَوْنَ مِمّا ذُكِرَ مِنَ البُكاءِ الكَثيرِ أَوْ مِنْهُ ومِنَ الضَّحِكِ القَليلِ جَزاءً بِما اسْتَمَرّوا عَلَيْهِ مِنَ المَعاصي[2].

سرُّ اخْتِصاصِ سورَةِ التَّوبَةِ بِمجيءِ ﴿جَزَآءَۢ﴾ قَبْلَ ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

العُقوباتُ في كُلِّ بابٍ مِن جنسِ ما اكْتَسَبَ العِبادُ

مِنَ اللَّطائفِ المَنْثورَةِ على هامِشِ ذِكْرِ الجزاءِ مُرتبطًا بما كَسبَ المنافقونَ، القَصْدُ إلى بَيان أنّ الجَزاءَ مِن جنسِ ما اكْتَسبَ هؤلاءِ؛ فَقُوبِلَ ضَحِكُهم في الدُّنيا بالحِرمانِ منْهُ يومَ القيامَةِ مَع تَحرير مُسمّى الارْتباطِ السَّببيِّ بَينهُما.

ومِنَ النُّكتِ كَذلك: أنّ تقديمَ الجَزاءِ على ما اكتُسِب لَم يوقَّتْ إلّا مَع الكافِرينَ؛ لأنّهمْ ظنّوا أنّهمْ بما فَعلوه مِنَ الكُفرِ والمعاصي أنّهُم كَسبوا بِتَفلّتِهم مِنَ الدّين، وليسَ عَليهمْ أيُّ قَيدٍ أَوْ حَظرٍ، أمّا تَقديمُ الجزاءِ على العَمَلِ، فَلَم يَأتِ إلّا مَع المؤمنينَ، وذلكَ كَقولِه تَعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: 17].

الإشارَةُ إلى عُمْرِ الدُّنيا وعُمْرِ الآخِرَةِ في هذِهِ الآيَةِ:

الـدّلالاتُ الإشاريَّةُ المؤذِنَةُ بِعُمْرِ الدّنيا والآخِرَةِ

رويَ: أنَّ أهْلَ النِّفاقِ يَكونونَ في النّارِ عُمْرَ الدُّنيا، لا يَرْقَأُ لَهم دَمْعٌ، ولا يَكْتَحِلونَ بِنَوْمٍ. والظّاهِرُ أنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا﴾ إشارَةٌ إلى مُدَّةِ العُمرِ في الدُّنيا، وقولَهُ: ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ إشارَةٌ إلى تَأْبيدِ الخُلودِ[3].

---

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/492.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 5/475.

دلالة الباء على سببيّة الجزاء

دلالَةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِمَا﴾:

الباءُ في قولِهِ تَعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ لِلسَّبَبِيَّة، أيّ: جَزاءً على اسْتِمرارِ نِفاقِهِمْ وفِسْقِهِم(1). وقيلَ: لِلإلْصاقِ، والبَدليَّة(2).

الـدَّلالَـةُ على عُـمومِ مَعاصي المُنافقينَ إيجازًا

ما يَترتَّبُ عَلى دلالَةِ (ما) مِنَ المَعنى:

(ما) اسْمُ مَوصولٌ، أوْ مَصْدريَّةٌ(3)، واخْتيرَتْ في التَّعبيرِ عمّا كانوا يكسبونَ، وهو أَعمالُ نِفاقِهِمْ، لِأنَّها أَشملُ مَعَ الإيجازِ(4).

دلالَةُ (كان) على تَمكُّنِ النِّفاقِ مِنَ المنافقينَ

فائدَةُ دخولِ (كان):

أُثْبِتَتْ أفعالُهم لَهُمْ بِأَبْلَغِ وَجْهٍ؛ إذْ أُسْنِدَتْ إِلَيْهِمْ بِصيغَةِ الكَوْنِ الماضي، الدَّالِّ علَى تمكُّنِ النِّفاقِ مِنهُمْ مُنْذُ زَمانٍ مَضَى(5).

مُلازَمَةُ الكَسبِ لِعدالَةِ الجَزاءِ المُترتِّبِ

إيثارُ لَفظِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ دونَ مُرادِفاتِهِ:

قَوْلُهُ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ نَصٌّ في أنَّ التَكَسُّبَ هو الَّذي يَتَعَلَّقُ بِهِ الثَّوابُ والعِقابُ(6).

ثُمَّ إنّ الأصلَ اللُّغويَّ لِلكَسبِ يَدلّ على ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ، وهو فيما يتحرّاه الإنسانُ ممّا يَجلِب لَه النَّفعَ، وقد يُسْتَعمَلُ فيما تُظَنُّ مَنْفَعتُهُ، لَكنّه في حَقيقَتِه مضرّة؛ وقولُهُ تَعالى ها هُنا تهديدٌ لِلمنافقينَ الفَرِحينَ بِقعودِهِمْ عَنِ الجِهادِ مَع رَسولِ اللّهِ ﷺ، بِأنْ يَضحكوا في هذه الدّنيا الفانِيَةِ، فإنَّهمْ سَيَبكونَ طويلًا في الآخِرَةِ جَزاءَ ما كَسَبوهُ مِنَ الانْهِماكِ في اللَّذّاتِ والسُّرورِ بالشَّهَواتِ والمعاصي، فَقد ظنَّ المنافقونَ المُتَخلِّفونَ أنّ في قُعودِهم عَنِ الجِهادِ تَحصيلًا لِلرّاحَةِ والطّمَأنينَةِ، لَكنّ ما ظَنّوهُ خَيرًا قادَهُمْ إلى ذُلٍّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 8/74.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/157.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/157.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/282.
(5) التّحرير والتّنوير: 10/262.
(6) مجير الدّين المقدسيّ، فتح الرّحمن: 3/222.

الدّنيا وخَسارَةِ الآخرة، ومِن هُنا كانَ التّعْبيرُ بـ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ هوَ التَّعبيرَ الأَمثل عَن فِعلِهمْ.

أمّا قولُهُ تَعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: 14] و[الواقعة: 24]، فورَدَ في سِياقِ ثَوابِ المؤمنينَ الّذينَ اسْتَقاموا عَلى إيمانِهمْ، والفِعلُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ يَعمُّ كُلَّ فِعلٍ يُفعل في أَصلِ دلالَتِهِ اللّغَويَّة، سَواءٌ أَكانَ مِن أَفعالِ القُلوبِ أَمِ الجَوارِح، كما لا يَكونُ إلّا عَنْ قَصدٍ، وبَعد فِكرٍ ورويَّةٍ، ويَقْترنُ العَملُ بالعِلمِ، ولِهذا عرّفَهُ بَعضُهمْ بِقولِه: العَملُ ما دُبِّر بالعِلم، وهذه المَعاني المُختَصَّةُ بـ(العَمل) تَتلاءَمُ مَع ما قَدَّمَه المؤمنونَ في الدّار الدّنيا مِن صالحاتٍ، فَقدْ حقَّقَ المَوعودونَ بالجزاءِ المذكورِ في آيَتَي الأَحْقاف والواقِعَة الإيمانَ باللّهِ تَعالى بالقلبِ وصَدَّقَتْهُ الجوارحُ، وكانَ ما قدَّموهُ مِن عَملٍ صادرًا عَن نيَّةٍ صَحيحَةٍ؛ لِعِلْمِهم بِما أَعدَّه اللّهُ تَعالى لِأَهْلِ طاعَتِه؛ لِذا اخْتَصّتْ هاتانِ الآيَتانِ بِلَفظِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ دونَ (يَكسبون) الدّالِّ على تَحرّي النَّفع دونَ أنْ يُشتَرط حُصولُهُ عَن قَصدٍ ورويّةٍ.

دلالَةُ صيغَةِ المضارِعِ:

تَجدُّدُ خِصالِ المُنافقينَ بتجدُّدِ الأحداثِ والوقائع

جاءَ التّعبيرُ بِصيغَةِ المُضارِعِ لِلدَّلالَة عَلَى التَّجدُّدِ والتَّكرُّر، [1] أي اسْتِمرارِ هذا الَّذي كانوا يَكسبونَهُ، وتَجدُّدِه آنًا بَعدَ آنٍ كُلَّما كانَ أَمرٌ جامِع، وكُلَّما بَدا نِفاقُهم المُستَمرّ[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكَسْبُ والعَملُ:

الكَسْبُ يُقال بِاعْتِبارِ النَّتائِجِ، والعَمَلُ يَعُمُّ

الكَسبُ يُستعملُ فيما يُتَحرّى نَفعُهُ، وهذا هو الأَصْلُ فيهِ، وقدْ يُطلَقُ إِطلاقًا أَعمَّ لِيَشْمل: "الفِعْلَ العائِدَ على فاعِلِه بِنفْعٍ أو ضرّ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/262.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3395.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 137.

أمّا العَملُ فَيَعمُّ كلَّ فِعلٍ يُفعل، ولا يَصدُرُ إلّا عَن قَصدٍ[1]. وعَلى هذا؛ فالكَسبُ مَنظورٌ فيهِ إلى نَتيجَةِ مضمونِه، أمّا العَملُ فيُطلَق على مُجرَّدِ الفِعْل الَّذي يَقومُ بِه، ولا يُشتَرطُ في إطلاقِهِ لَحظُ نَتائِجِه.

البُكاءُ والصّراخُ والصّياحُ والتَّألُّمُ:

البُكاءُ دُموعٌ ورِقَّةٌ، والصّياحُ رَفعُ الصَّوتِ بِلا مَعْنى، والصُّراخُ شِدَّةُ الصّياحِ وارتِفاعُ الصَّوتِ، والتَّألّمُ التّوجُّعُ

البكاءُ هو: "انفِعالٌ باطِنيٌّ ناشِئٌ عَن حُزنٍ أوْ عَن خَوفٍ أوْ عَن شَوْقٍ"[2]، ويَكونُ بِدَمعِ العَيْنِ فقط، أوْ مَع صَوتٍ يَسيرٍ خَفيفٍ، وجاءَ: أنّ البُكى بِالقَصْرِ: خُروجُ الدَّمعِ مِنَ العَينِ بِلا صَوتٍ، والبُكاءَ بِالمدِّ: خُروجُ الدّمْعِ مَع الصّوتِ، قالَ الشّاعِرُ:

بَكَتْ عَيْني وحُقَّ لَها بُكاها *** وما يُغْني البُكاءُ ولا العَويلُ[3]

والصّياحُ رَفعُ الصَّوتِ بِما لا مَعنى لهُ، وربما قيلَ لِلنِّداءِ صياحٌ[4].

والصُّراخُ: صياحٌ حادٌّ نافِذٌ، كذلكَ الصّوتُ الَّذي يكادُ يَخرِق الأذُنَ، ومنهُ: أَصرَخَهُ: أغاثَهُ[5].

ومنْهُ قولُهُ تَعالى عَن أَهلِ جَهنَّم: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر: 37]، أيْ: يَصيحونَ بشدَّةٍ.

والتَّألُّم: التّوجُّعُ، والأليمُ: المؤلم الموجِعُ، فَإنَّ الأَلَمَ ضِدُّ اللَّذَّةِ. وَقَدْ عَرَّفَ الحُكَماءُ اللَّذَّةَ: بِأَنَّها الخَلاصُ مِنَ الأَلَم[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/235.

(3) البيت من بحر الوافر، لكعب بن مالك، وهو في الدّيوان، ص: 252، ينظر: المبرّد، الكامل: 2/221، وابن منظور، لسان العرب: (بكى).

(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 325.

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (صرخ).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/271.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣﴾ [التوبة: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اسْتِصحابُ خِصالِ المُنافقينَ يُوجِبُ عَدَمَ اصْطِحابِهِمْ في الجِهادِ

لَمّا ذَكرَ اللّهُ تعالى مَخازيَ المُنافِقينَ وسوءَ طَريقَتِهِمْ بَيَّنَ بَعْدَ ذلكَ أنَّ الصَّلاحَ في ألّا يَسْتَصْحِبَهم النَّبيُّ في غَزَواتِه؛ لِأَنَّ خُروجَهم مَعَهُ يوجِبُ أنْواعًا مِنَ الفَسادِ[1]؛ لأنهم ما كانوا يَخرجونَ إلّا كارهينَ لِلخروجِ، وكانوا فَرِحينَ بِالقعودِ والتَّخلُّف. والكارِهُ لِلشَّيءِ والمُكْرَهُ عَليهِ لا يُنتَظر مِنهُ الإخْلاصُ ولا يُرجى مِنهُ النَّفعُ، ولَمّا "كانَ هذا الدّينُ مبنيًّا على العِزّةِ والغِنى، أَتبَعَ ذلكَ بِقَولِه مُسَبَّبًا عَن فَرَحِهم بِالتَّخلُّفِ - وكَراهيَتِهم لِلخروجِ -: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَّجَعَكَ﴾: أصلُ الرُّجوعِ: العَوْدُ إلى ما كانَ مِنْهُ البَدْءُ، أوْ تَقديرُ البَدءِ مَكانًا كان أوْ فعلًا، أو قولًا، وبِذاتِه كانَ رُجوعُهُ، أو بجزءٍ مِن أجزائِه، أوْ بِفعلٍ مِن أَفعالِه. يُقال: رَجَعْتُ عن كذا رَجْعًا، ورَجَعْتُ الجَوابَ[3]. ورَجَعَ إلى مَكانِه، أيْ: عادَ إليْه، ومِن هُنا قيلَ: رَجَعَ في هِبَتِهِ: إذا أعادَها إلى مِلْكِه. وأمّا المَقْصودُ بقولِه: ﴿رَّجَعَكَ﴾ في الآيَةِ: فلَيْسَ المُرادُ منهُ الإرْجاعَ الحقيقيَّ، بَلِ المُرادُ المَجازيُّ، أيْ: تَكرُّرَ الخَوْضِ معهُم مَرَّةً أُخْرَى[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/114.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/564.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (رجع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.

2) ﴿طَآئِفَةٍ﴾: أصلُ (طوف) يَدُلُّ على دَورانِ الشَّيْءِ عَلى الشَّيْءِ، وأَنْ يُحَفَّ بِه. ثُمَّ يُحمَلَ عليْه، يُقالُ: طافَ بِهِ وبِالبَيْتِ يَطوفُ طَوْفًا وطوافًا، وأَطافَ بِهِ، واسْتَطافَ، ثُمَّ يُقالُ لما يَدورُ بالأَشياءِ ويُغَشّيها مِنَ الماءِ: طوفانٌ. وأَمّا الطّائِفَةُ مِنَ النّاسِ فَكأَنَّها جماعَةٌ تُطيفُ بِالواحِدِ أَو بِالشَّيءِ. ولا تَكادُ العَرَبُ تَحُدُّها بِعَدَدٍ مَعْلومٍ، والمُرادُ بِالطّائِفَةِ في الآيَةِ: جَماعَةٌ مِنَ المُخَلَّفينَ[1].

3) ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾: الإذْنُ: مَصدَرُ أَذِنَ، يَأْذَنُ، وأَصلُه: رَفْعُ المَنْعِ، وإِطلاقُ الفِعْلِ، والإِباحَةُ، يُقالُ: أَذِنْتُ لَهُ في شَيْءٍ، أَيْ: أَطْلَقْتُ له فِعْلَهُ[2]. ويُطْلَقُ الإِذْنُ على الإِعْلامِ، ومنه الأَذانُ: وهو الإِعْلامُ بِدخولِ الوقتِ، وأَذِنْتُ بِالشَّيْءِ: عَلِمْتُ بِه. والاسْتِئْذانُ: طَلَبُ الإِذْنِ[3]، والمرادُ بِالِاسْتِئْذانِ في الآيَةِ: طَلَبُ الإِذْنِ، أَي: في إِباحَةِ عَمَلٍ وتَرْكِ ضِدِّهِ؛ لأَنَّ شأْنَ الإِباحَةِ أَنْ تَقْتَضيَ التَّخْييرَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ مُتَضادَّيْنِ[4].

4) ﴿رَضِيتُم﴾: أَصلُ (رضي) يَدُلُّ على خِلافِ السُّخْطِ، تَقولُ: رَضيَ يَرْضَى رِضًا، وهو راضٍ، ومَفْعولُهُ: مَرْضيٌّ عَنْهُ[5]، والرِّضا: القَبولُ والموافَقَةُ، يُقال: رَضيَ بِالبَيْعِ، يَرْضَى، رِضًا ورِضْوانًا، أَيْ: قَبِلَ ووافَقَ[6]. ويأْتي بِمعنى الاِخْتيارِ والاِنْتِقاءِ، يُقال: رَضيَ بِهذا الطَّريقِ، أَي: اخْتارَهُ. والمُرادُ بالرِّضا في الآيَةِ: القَبولُ بالشَّيءِ.

5) ﴿بِٱلۡقُعُودِ﴾: أَصلُ القُعودِ: الجُلوسُ، وهو نَقيضُ القيامِ. قَعَدَ يَقْعُدُ قُعودًا ومَقْعَدًا، أَي: جَلَسَ[7]، والقُعودُ مَجازٌ عن الثَّباتِ في المَكانِ، والمُلازَمَةِ لَهُ؛ لِأَنَّ القُعودَ ثُبوتٌ شَديدٌ وَطَويلٌ[8]. والقَعْدَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ[9]. والقِعْدَةُ لِلحالِ الَّتي يكونُ عَليها القاعِدُ[10]، والمَقْعَدُ:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(2) المناويّ، التّوقيف على أمّهات التّعاريف، ص: 44، والزّبيديّ، تاج العروس: (أذن).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (أذن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/211.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رضي).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والفِيروزاباديّ، القاموس المحيط: (رضي).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/115.
(9) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات: (قعد).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعد).

مكانُ القُعودِ، وجمعُه: مَقاعِدُ[1]، وهي: موضِعُ قُعودِ النّاسِ في الأَسواقِ وَغَيْرِها[2]. والقعودُ في الآيَةِ: مَجازٌ عن الثَّباتِ في المَكانِ، والمُلازَمَةِ لَهُ، ومُستعملٌ في تَرْكِ الغَزْوِ تَشْبيهًا لِلتَّرْكِ بالجُلوسِ.

6) ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾: الخالِفُ: المتأخِّرُ لِنقصانٍ أو قصورٍ، ومَن يَخْلُف الرَّجلَ في مالِه وبيتِه[3]، والخالفُ أيضًا: الفاسِدُ مِنَ النّاسِ[4]. والخَوالِفُ: النِّساءُ المُتَخَلِّفاتُ في البُيوتِ، والخالِفَةُ: عَمودُ الخيمَةِ المتأخِّر، ويُكْنَى بها عَنِ المَرأةِ لِتَخلُّفِها عنِ المُرتَحلينَ[5]. والمقصودُ بالخالِفينَ في الآيَةِ: جَمْعُ خالِفٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ الغازِيَ في أَهْلِه، وكانوا يُتْرَكونَ لِذَلِكَ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

لَنْ تُفلِحَ مَكائِدُ المنافِقينَ أمامَ إرادَةِ اللهِ القاهِرَةِ

يَقولُ اللّهُ تَعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: إنْ أرجَعَك اللّهُ وردَّكَ - يا مُحمَّدُ - مِن غَزوةِ تَبوكَ، إلى جَماعةٍ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ - الّذينَ تخلَّفوا عَنك في المدينةِ بغَيرِ عُذرٍ، وفَرِحوا بذلك - فاستأذَنوك لِلخُروجِ مَعَكَ لِلجِهادِ في غزوةٍ أُخرَى؛ فقُل لَهُم: لَنْ تخرُجوا معيَ أبدًا، ولَنْ تُقاتِلوا معيَ عدوًّا؛ وذلكَ لأنَّكم رَضيتُم بالتخَلُّفِ عنِ الجهادِ، حينَ دُعيتُم أوَّلَ مَرَّةٍ للخُروجِ معَي إلى تَبوكَ، فاقعُدوا مَع المتخلِّفينَ عَنِ الجهادِ[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تَتابُعُ مُعاقَبَةِ المنافقينَ بسَوقِ دلالَةِ التَّفريعِ

دلالَةُ الفاءِ في ﴿فَإِن﴾ وسرُّ ربْطِ الجُملتَين بِها:

الفاءُ لِلتَّفْريعِ عَلى ما آذَنَ بِه قَوْلُهُ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة:

(1) الرّاغب، المفردات: (قعد).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (قعد).

(3) الرّاغب، المفردات: (خلف).

(4) ابن سيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).

(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/284.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 11/608، والواحديّ، التّفسير البسيط: 10/579، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/192.

81]؛ إذْ فُرِّعَ على الغضَبِ علَيْهِمْ وتَهْديدِهِمْ عِقابٌ آخَرُ لَهم، بِإبْعادِهِمْ عَنْ مُشارَكَةِ المُسْلِمينَ في غَزَواتِهِمْ(1).

إيثارُ (إنْ) على (إذا):

الــدّلالَــةُ على أنَّ ما احْتَمَلَ الهلاكَ لا تَتحتّمُ مآلاتُه

لَمّا كانَ في السَّفرِ مِنَ الخَطَرِ ما كانَ؛ فإنّهُ يُحتاجُ للرُّجوعِ منْهُ إلى تَأييدٍ إلَهيٍّ، ولِذا أوثرَتْ كَلِمةُ (إنْ) على (إذا)(2)؛ كما أنَّ (إنْ) مبيِّنَةٌ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَعْلَمُ بِمُسْتَقْبَلاتِ أمْرِهِ مِن أجَلٍ وغَيْرِهِ، إلّا أنْ يُعْلِمَهُ اللّه، ويُحْتَمَلُ أنْ يموتَ أولئكَ المنافقونَ قَبْلَ رُجوعِهِ(3).

سِرُّ التَّعبيرِ بـ: ﴿رَّجَعَكَ﴾:

صيغَةُ (رَجَعكَ) أبلَغُ في البَيانِ وأظْهَرُ

أوثرَ التَّعبيرُ بِالرّجوعِ؛ لِأنّهُ أَنسَبُ في التَّعبيرِ وأَدَلُّ، فإنّه يجوزُ أنْ تَرْجِعَهُ مِن غيرِ كارِهَةٍ لَهُ، قالَ اللّهُ تعالَى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾، وَلا يجوزُ أنْ تردَّهُ إلّا إذا كَرِهت حالَهُ(4).

وفِعْلُ (رَجَعَ) يَكونُ قاصِرًا ومُتَعَدّيًا مُرادِفًا لـِ (أرْجَعَ). وهو هُنا مُتعَدٍّ، أيْ: أرْجَعَكَ اللّه(5).

سِرُّ التَّعبيرِ بالإرْجاعِ إلى طائفَةٍ مِنهُمْ موجزًا غَيْرَ مُفصَّلٍ:

دَلالَــةُ الإرْجــاعِ عــلَى تَــكَــرُّرِ الــخــوضِ مع المُنافقين مَـرَّةً أُخْرى

وجُعِلَ الإرْجاعُ إلى طائِفَةٍ مِنَ المُنافِقينَ المُخَلَّفينَ عَلى وجْهِ الإيجازِ؛ لأنَّ المَقْصودَ الإرْجاعُ إلى الحَديثِ مَعَهم في مِثْلِ القِصَّةِ المُتَحَدَّثِ عَنْها بِقَرينَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾، ولَمّا كانَ المَقْصودُ بَيانَ مُعامَلَتِهِ مَعَ طائِفَةٍ، اخْتُصِرَ الكَلامُ، فَقيلَ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾، ولَيْسَ المُرادُ الإرْجاعَ الحَقيقيَّ كَما جَرَتْ عَلَيْهِ عِباراتُ أكْثَرِ المُفَسِّرينَ وجَعَلوهُ الإرْجاعَ مِن سَفَرِ تَبوكَ مَعَ أنَّ السّورَةَ كُلَّها نَزَلَتْ بَعْدَ غَزْوَةِ تَبوكَ بَلِ المُرادُ المَجازيُّ، أيْ: تَكَرُّرُ الخَوْضِ مَعَهم مَرَّةً أُخْرى(6).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(2) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/368.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/66.
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 114.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالمفْرَدِ ﴿رَّجَعَكَ﴾:

قالَ تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ﴾، وهوَ خِطابٌ لِلرَّسولِ ﷺ، لِقصْدِ الحديثِ مَع المنافقينَ بِقرينةِ: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾؛ فناسَبَ أنْ يكونَ التَّعبيرُ بِالمفْرَدِ[1]، أي: لِأنَّ حوارَ المنافقينَ ومُراجَعَتَهمْ واستئذانَهُمْ لِلقعودِ وكُلَّ مُعامَلاتِهِمُ الرّسْميَّةِ، لَم تَكنْ إلّا مَع الرّسولِ ﷺ، لا مَعَ الصّحابَةِ ﵃.

إفرادُ المخاطَبِ تَوطِئَةً إلى اسْتِئذانِ المنافِقينَ مِنْهُ ﷺ

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالفِعلِ الثُّلاثيّ ﴿رَّجَعَكَ﴾:

فِعْلُ (رَجَعَ) يَكونُ قاصِرًا ومُتَعَدّيًا مُرادِفًا لِـ (أَرْجَعَ). وهو هُنا مُتَعَدٍّ، أيْ: أَرْجَعَكَ اللّه[2].

حَملُ الرُّجوعِ على مُقتضَى ما قَضاهُ اللهُ تَعالى بِدلالَةِ الفِعلِ الثُّلاثيِّ المتعدِّي

وفي قولِهِ تعالى: ﴿رَّجَعَكَ﴾: الفاعلُ هُنا هو اللّهُ سُبحانه؛ أمّا (رجعتَ): فالفاعِلُ هو مُحَمّدٌ ﷺ. فكانَ التَّعبيرُ بالمُتَعدّي (رجَعَكَ) مَقصودًا، فهو يَدلُّ على أنَّ الأمرَ بيَدِ اللّهِ تعالى، ولا خيارَ للنَّبيِّ ﷺ. أيْ أنَّه سُبحانه قَدَّر لَهُ الرّجوعَ بَعدَ غَزوَةِ تَبوكَ إلى طائفَةٍ مِن المُخلَّفينَ (المنافقين)؛ الّذينَ لَم يَتوبوا بَعدَ رُجوعِهِ إلى المدينَةِ، واسْتَمَرّوا على نِفاقِهِم[3].

دلالَةُ التَّصريحِ بِاسْمِ الجَلالَةِ:

أظْهرَ اسْمَ الجَلالَةِ هُنا، لِيدلَّ على أنَّ زِمامَ مُحمَّدٍ ﷺ في الفِعلِ والتَّركِ لَيْس بِيَدِه، وكأنَّه ﷺ يُوضِّح: إيّاكُم أنْ تَنسِبوا الأَحداثَ إلى بَشريَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فإنَّ مُحمَّدًا ﷺ إذا ذَهَبَ إلى مَكانٍ، فاللّهُ هو الّذي أَذْهَبَهُ إليْه، وإنْ عادَ مِن مَكانٍ فهو لا يَعودُ إلّا إذا أَرْجَعهُ اللّهُ منْهُ[4].

إظهارُ اسْمِ الجَلالَةِ لِلدّلالَةِ على أنَّ زِمامَ الأفْعالِ والأقْوالِ بِيَدِ اللهِ سُبحانَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/158.
(4) الشّعراويّ، التّفسير: 9/5387.

إنْصافُ القُرآنِ في الحُكْمِ على المُخَلَّفينَ

دلالَةُ لَفظِ ﴿طَآئِفَةٖ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿طَآئِفَةٖ﴾للدّلالَةِ على إنْصافِ القُرآنِ في الحُكمِ على هؤلاءِ المُخَلَّفينَ، فلَيسوا جميعًا منافِقينَ، وليسوا جميعًا كانوا كاذِبينَ في اعْتِذارِهِمْ، فَإنَّ تَخَلُّفَ بَعْضِهِمْ إنّما كانَ لِعُذْرٍ عائِقٍ مَعَ الإسْلامِ، أوْ رجعكَ إلى مَن بَقيَ مِنَ المُنافِقينَ المُتَخَلِّفينَ بأنْ ذَهَبَ بَعْضُهم بِالمَوْتِ، أوْ بِالغَيْبَةِ عَنِ البَلَدِ، أوْ بِأنْ لَمْ يَسْتَأْذِنِ البَعْضُ، وعَنْ قَتادَةَ: أنَّهم كانوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، قيلَ فيهِمْ ما قيلَ[1].

دلالَةُ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ علـى طـائـفَـةٍ مَخصوصَةٍ مِنَ المُتَخَلّفينَ

فائدَةُ قَيْدِ الطّائِفَةِ بِـ: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

إنَّ الحقَّ ﷻ قيّدَ الطّائفَةَ بِقولِهِ: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾؛ لأنّه بِصدَدِ الحَديثِ عَنِ الطّائفَةِ الَّتي حَدَثَتْ منها المُخالَفةُ، فَهناكَ مَن بَقوا في المدينَةِ رَغمًا عَنهُمْ، ولَم يَكُنْ لَديْهِمْ ما يُنفِقونَهُ، أوْ لَم يَكن لَدى رَسولِ اللّهِ ﷺ ما يَحمِلُهمْ عَليه، كَذلك المَرْضى وكِبارُ السِّنّ الَّذين لا يَستَطيعونَ قِتالًا. وهؤلاءِ حَسُنَ إسلامُهُمْ وقَبِلَ اللّهُ ورَسولُهُ أعذارَهُمْ. ولَكنَّ الحقَّ سُبحانَهُ يَتحدَّثُ هُنا عَنِ الطّائفَةِ الَّتي تَخَلَّفَتْ عَنِ الجهادِ وهي قادِرَةٌ، والَّتي امْتَنَعَتْ عَنِ الخروجِ، وهي تملِكُ المالَ والسِّلاحَ وكلَّ مُقوّماتِ الجهادِ، هذِهِ الطّائفَةُ هي الّتي فَرِحتْ بِالتّخَلُّفِ عَنِ القِتالِ. أمّا الطّوائفُ الأُخرى؛ فكانَتْ عيونُها تَفيضُ بِالدَّمعِ مِنَ الحزنِ على عَدَمِ اشْتراكِهم في الجهادِ، إذن: فالحَقُّ يَقصِدُ هُنا طائفَةَ المنافقينَ الَّذينَ اسْتَمَرّوا على نِفاقِهِمْ، فمَن تابَ مِنهُم قَبلَ نزولِ هذِهِ الآيَةِ قُبِلَتْ تَوبَتُهُ، ومَن ماتَ مِنهُمْ قَبلَ نُزولِ هذه الآيَةِ فإنّما حِسابُهُ على اللّهِ. وبَقيَتْ طائفَةُ المنافقينَ الَّذينَ فرِحوا وضَحِكوا عِندما بَقوا في المدينَةِ، وكانَ عِقابُ اللّهِ لَهُم بِأنْ مَسَحَ أَسْماءَهم مِن ديوانِ المجاهدينَ في سَبيلِ اللّهِ، ومَنَعهُمُ الثَّوابَ الكَبيرَ لِلجهادِ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 9/5388.

دلالَةُ تَقييدِ الرّجوعِ بـ ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ﴾ دونَ البَلَدِ أوِ الجِهَةِ:

جُعِلَ الإِرْجاعُ إِلَى طائِفَةٍ مِنَ المُنافِقينَ المُخَلَّفينَ عَلَى وَجْهِ الإيجازِ؛ لِأَنَّ المَقْصودَ الإِرْجاعُ إِلَى الحَديثِ مَعَهُمْ في مِثْلِ القِصَّةِ المُتَحَدَّثِ عَنْها بِقَرينَةِ قَوْلِهِ: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾، ولَمَّا كانَ المَقْصودُ بَيانَ مُعامَلَتِهِ مَعَ طائِفَةٍ، اخْتُصِرَ الكَلامُ، فَقيلَ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ﴾[1].

العُدولُ إلى الطّائِفَةِ في مَعرِضِ الرّجوعِ إلى الحديثِ مَعَ أَفْرادِها إيجازًا

دلالَةُ الفاءِ الدّاخِلةِ على الفِعْلِ:

الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ لِلتّرْتيبِ والتّعْقيبِ، أيْ: أنّهُ بِمجَرَّدِ أنْ ترجِعَ إليهِمْ يُفاجِئُونَكَ بالاسْتِئذانِ كَعادَتِهم، وقدْ يُكرِّرونَ في هذهِ الحالِ مَعاذيرَهُمُ الكاذِبةَ، وهذا يَدلُّ على أنّ هذه الطّائفَةَ مِنهُمْ هي ذاتُ المعاذيرِ المُتَكَرِّرَةِ المُثَبِّطَةِ[2].

مُسارَعَةُ المُتَخَلِّفينَ إلى مَعاذيرِهِمُ الكاذِبَةِ

فائدَةُ مَجيءِ جُملَةِ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ بعدَ جُملَةِ: ﴿رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾:

يَدلُّ سياقُ الآيَةِ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ على أنّ الفاءَ لِلتَّفْريعِ عَلى ما آذَنَ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ﴾ [التّوبَة: 81]؛ إذْ فُرِّعَ عَلى الغَضَبِ عَلَيْهِمْ وتَهْديدِهِمْ عِقابٌ آخَرُ لَهم، بِإِبْعادِهِمْ عَنْ مُشارَكَةِ المُسْلِمينَ في غَزَواتِهِمْ؛ إِخْراجًا لَهم عَنْ ديوانِ الغُزاةِ، وإِبْعادًا لِمَحَلِّهِمْ عَنْ مَحْفِلِ صُحْبَةِ الرّسولِ ﷺ[3].

مُعاوَدَةُ عِقابِ المُنافِقينَ بإخْراجِهِمْ مِن ديوانِ الغُزاةِ

جوابُ الشّرطِ ودلالَتُهُ:

جوابُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ﴾ إهانَةٌ لِلمنافقينَ على أَتَمِّ وَجْهٍ[4]، وعُقوبَةٌ لَهم وإظْهارٌ لِدَناءَةِ مَنزِلَتِهِمْ وسوءِ حالِهِمْ[5] وإخراجٌ لهم عَن ديوانِ الغُزاةِ وإبعادٌ لِمحلّهِمْ عَن مَحفِلِ صُحبةِ النَّبيِّ ﷺ[6].

القَصْدُ إلى إهانَةِ المنافقينَ بِمَنْعِهِمْ مِنَ الخروجِ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ، عُقوبَةً لَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3396.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/341.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/476.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

دلالَةُ تَعْدِيَةِ الفِعلِ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ باللام:

إسقاطُ المنافقين مِنْ دِيوانِ الغُزاةِ عُقوبَةً لَهُم

عُدِّيَ الفعلُ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ باللّام دونَ (في) لِلدّلالَةِ على أنّهمْ طلبوا الإذْنَ للخروج بعدَ غَزْوَةِ تبوك، وليْس فيها، فالمَعنى: فاسْتأْذَنوك لِلْخُروج، يَعْني: إلَى غَزْوَةٍ بَعْدَ غَزْوَةِ تَبوكَ، وَكانَ إسْقاطُهُمْ مِنْ ديوانِ الغُزاةِ عُقوبَةً لَهُمْ عَلَى تَخَلُّفِهِمُ الَّذي عَلِمَ اللهُ تَعالَى أنَّهُ لَمْ يَدْعُهُمْ إلَيْهِ إلّا النِّفاقُ، بِخِلافِ غَيْرِهِمْ مِنَ المُخَلَّفينَ[1]، فاللّامُ بمعنى العِلّة، أيْ: لِأَجْلِ الخروجِ.

دلالَةُ صيغَةِ الجَمْعِ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾:

دلالَـةُ الطّائفَةِ على جَماعَةٍ مِنَ المُخَلَّفينَ جَريًا عَلى المَعهودِ اللُّغويِّ

دلالةُ الجَمعِ بصيغَةِ ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ﴾ جَريًا على مَعهودِ الخِطابِ اللُّغَويِّ في لَفظَةِ الطّائِفَةِ الدّالَّة على جَماعَةٍ مِنَ المُخَلَّفينَ دَلَّ عَلَيْها قَوْلُهُ: ﴿فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ﴾، أيْ: إلى طائِفَةٍ مِنهم يَبْتَغونَ الخُروجَ لِلْغَزْوِ[2]، والحَمْلُ على مَعنى الجَمعِ في ﴿طَآئِفَةٖ﴾ يُشيرُ إلى حِرصِ كُلِّ واحِدٍ من هذه الطّائِفَةِ على الاسْتِئذانِ، واجْتِماعِهِمْ عَليهِ.

إيثارُ النَّفيِ بـ ﴿لَّن﴾:

نَفْيُ خروجِ المنافقينَ إلى الغَزْوِ مَعَ المُسْلِمينَ مستقبلًا

تُفيدُ ﴿لَّن﴾ في قوله: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ﴾ نَفْيَ الخروجِ مُستقبَلًا، والجَمْعُ بَيْنَ النَّفْيِ بها وبَيْنَ كَلِمَةِ ﴿أَبَدٗا﴾ تَأْكيدٌ لِمَعْنى ﴿لَّن﴾؛ لِانْتِفاءِ خُروجِهِمْ في المُسْتَقْبَلِ إلى الغَزْوِ مَعَ المُسلِمينَ[3].

دلالَةُ تَكْرارِ ﴿لَّن﴾:

تَبْكيتُ المنافِقين بِتأكيدِ عَدمِ صُحْبَتِهِمْ

كُرِّرَتْ ﴿لَّن﴾ زيادَةً في تَبْكيتِهِمْ، وفي إهْمالِ شَأْنِهِمْ، وفي كَراهَةِ مُصاحَبَتِهِمْ، وذلكَ لِأَنَّهُمْ لَو خرجوا مَعَ المؤمنينَ ما زادوهُمْ إلّا خَبالًا، ولَو قاتَلوا مَعَهُم لَكانَ قِتالُهُمْ خالِيًا مِنَ الغايَةِ السّامِيَةِ الَّتي مِن أَجْلِها قاتَلَ المُؤمنونَ، وهيَ إعلاءُ كَلِمةِ اللّهِ، وكُلُّ قِتالٍ خَلا من تِلك الغايَةِ كانَ مآلُهُ إلى الهَزيمَةِ[4].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/297.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(4) طنطاويّ، التّفسير المحيط: 6/369.

إيثارُ لَفظِ الخروجِ على الذّهابِ:

الخروجُ يُراعى فيهِ بدايَةُ الانْطلاقِ، والذّهابُ يُراعى فيهِ مَوضِعُ الانْتِهاءِ

الذّهابُ: سَيرٌ يَبعُدُ بالسّائرِ قليلًا قليلًا حتّى يَمّحيَ شَخصُه، والخُروجُ: الِانْتِقالُ مِنَ المَقَرِّ إِلَى مَكانٍ آخر قَريبٍ أَوْ بَعيدٍ[1]، والخروجُ يَدلّ على تَحوّلٍ عَنِ الاتّجاهِ أو الحالِ إلى عَكْسِه[2]، ولمّا كانَ لَفظُ (الخروج) يُلْحَظ فيهِ بدايَةُ الانْطلاقِ، والذّهابُ يُراعَى فيهِ موضِعُ الانْتهاءِ، أوثِرَ التّعْبيرُ بِالخروجِ لِلمبالَغةِ في نَفْي قِتالِهمْ بنَفْي خروجِهم، ولِمُناسَبَتِه أَحوالَ المنافقينَ وصِفاتِهم، ولِأنّهُ شاعَ إطْلاقُ هذا المُصطلَحِ عَلى السَّفَرِ لِلْغَزْوِ[3].

دلالَةُ التّعبيرِ بِالمَصدَرِ الصَّريحِ ﴿لِلۡخُرُوجِ﴾:

دلالَةُ المَصْدَرِ الصَّريحِ على تَأْكيدِ المَعنى

الحرفُ المَصدريُّ أَضْعَفُ من صَريحِ المَصْدَرِ، وقَد نَصَّ ابنُ مالِكٍ، عَلى أَنَّ الحَرفَ المَصْدَريَّ لا يُؤَكّدُ بِهِ فِعلٌ[4]، فَأوثِرَ التَّعبيرُ بِالمَصْدَرِ الصَّريحِ (الخروج) لِلتّأْكيدِ، والتّنْبيهِ على علَّةِ اسْتِئْذانِهم.

بَلاغَةُ جِناسِ الاشْتِقاقِ في ﴿لِلۡخُرُوجِ﴾ و﴿لَّن تَخۡرُجُواْ﴾:

تَأَنُّقُ البَيانِ وتحميله عنصر المفاجأة

تَتَجَلَّى بَلاغَةُ جِناسِ الاشْتِقاقِ في لَفظَةِ ﴿لِلۡخُرُوجِ﴾ و﴿لَّن تَخۡرُجُواْ﴾ في أنّ البيانَ القُرآنيَّ أَخرَجَ الفِعْلَ من مَصدرِه لِيَحْمِلَ عُنْصُرَ المُفاجَأةِ موهِمًا السّامِعَ بِالتَّكرارِ، لِيُدرِك بَعدَ ذلكَ أَنَّ اللّفْظَ يَحْمِل مَعنًى غَيْرَ المَعْنى المُتَوَقَّعِ.

فهُمْ طَلَبوا الخُروجَ في اللَّفْظَةِ الأولى، ولَكِنَّهُمْ مُنِعوا مِنَ الخروجِ في الثّانِيَةِ عُقوبَةً[5].

فائدَةُ قَيْدِ الظّرْفيَّةِ ﴿مَعِيَ﴾، ومجيئه مضافًا إلى ضمير المُفْرَد:

نَفْيُ شَرَفِ المَعيَّةِ يُؤذِنُ بِحِرْمانِ المُنافِقينَ مِن مَزِيَّةِ مُلازَمَةِ الرَّسولِ ﷺ

التَّقْييدُ بِالمَعيَّةِ، كَما يُؤْذِنُ بِاسْتِثْقالِهِمْ، يُخْرِجُ ما كانَ بَعْدَهُ ﷺ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/481، 10/209.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رجع).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/209.

(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 407.

(5) عدد من المؤلّفين، مقال بعنوان: نماذج من جناس الاشتقاق في القرآن الكريم، المجلّة العالميّة للفكر الإسلاميّ، عام 2013م، العدد: 3، ص: 114.

مَعَ أصحابِهِ ﭬ من سَفَرِهِمْ وقِتالِهِمْ[1] والمَقْصودُ مِن خروجِهِمْ وقِتالِهِمْ أنْ يَكونوا مَعَ الرَّسولِ ﷺ، فهوَ يُرْشِدُهُمْ ويُدَبِّرُ شُؤونَهُمْ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأبَديَّةِ مَع لَفْظِ ﴿لَن﴾:

حَشْدُ ما يَدلُّ عَلى نَفْيِ المَعيَّةِ لِتَأكيدِ الحِرمانِ الأَبَديِّ

الجَمْعُ بَيْنَ النَّفْيِ بـ ﴿لَن﴾ وَبَيْنَ كَلِمَةِ ﴿أَبَدًا﴾ تَأْكيدٌ لِمَعْنَى لَنْ؛ لِانْتِفاءِ خُروجِهِمْ في المُسْتَقْبَلِ إلَى الغَزْوِ مَعَ المُسْلِمينَ[2]، وبيانٌ لعدم إرادة معنى التأبيد بـ: ﴿لَن﴾ كما هو قول جمهور العلماء.

والاكتِفاءُ بذِكرِ ﴿أَبَدًا﴾ في الجُملةِ الأولى دونَ إعادَتِها في الثّانيَةِ، لِكَونِها مَحْمولَةً عَليها، فمَعْناها سارٍ في الجُمْلَةِ الثّانيَةِ، خُصوصًا مَع قَرينَةِ تَكرارِ ﴿وَلَن﴾.

دلالَةُ تَقديمِ شِبْهِ الجُملَةِ ﴿مَعِيَ﴾ في المَوضِعَين:

اسْتِثْقالُ المُنافِقينَ بِحِرْمانِهِم مِنَ المَعيَّةِ الشَّريفَةِ قَيْدٌ يُخرِجُ ما كانَ بَعدَهُ ﷺ

التَّقْييدُ بِالمَعيَّةِ يُؤذِنُ بِاسْتِثْقالِ المنافقينَ، وبِحِرْمانِهم مِنَ التَّشَرُّفِ بِمُصاحَبَةِ رَسولِ اللّهِ ﷺ، وتَقديمُ شِبهِ الجُملةِ ﴿مَعِيَ﴾ يُخْرِجُ ما كانَ بَعْدَهُ ﷺ مَعَ أصْحابِهِ ﭬ مِن سَفَرِهِمْ وقِتالِهِمْ[3].

وفيهِ دلالَةٌ على أنَّ عدَمَ الخروجِ في صُحبَتِهِ ﷺ ومَعيَّتِهِ هو عُقوبةٌ كامِلةٌ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عمّا يَتْبَعها أوْ يُلابِسها مِن حِرمان مِنَ الغَنائِمِ، ووَضْعِهِ في مَوضِعِ التُّهَمَةِ، وغَيرِ ذلكَ.

دلالَةُ عَطْفِ جُملَةِ ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ﴾:

التَشَوّفُ إلى إظهارِ عدَمِ الحاجَةِ إلى المنافقينَ

عُطِفَتْ جُملَةُ ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ﴾ على ما قَبلَها لِلدّلالَةِ على أنَّ القِتالَ هو المقصودُ مِنَ الخُروجِ، فلَو اقْتصرَ على إحداهما كَفى إسْقاطًا لَهُم عَن مَقامِ الصُّحْبَةِ، ومقامِ الجهادِ، أوْ عَن ديوانِ الغُزاةِ، وديوانِ المجاهدينَ، وإظهارًا لِكراهَةِ صُحبَتِهِمْ، وعدمِ الحاجَةِ إلى عدِّهم

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/564.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/564.

مِنَ الجُندِ. أوْ ذكرَ الثّانية لِلتّأكيدِ، لأنَّه أَصرَحُ في المرادِ[1] وعلى هذا فقَد جُمع بينَ الجُملَتَين زيادةً في تَبْكيتِهم، وفي إهمالِ شَأنِهم، وفي كراهَةِ مُصاحَبَتِهم... فلَو أنَّهم خرجوا معَ المؤمنينَ ما زادوهُمْ إلّا خَبالًا، ولَو قاتَلوا معهُم، لَكانَ قِتالُهُم خاليًا مِنَ الغايَةِ السّاميَةِ الَّتي مِن أَجلِها قاتَلَ المؤمنونَ وهي إعلاءُ كَلِمةِ اللّهِ، وكلُّ قِتالٍ خَلا مِن تِلكَ الغايَةِ كانَ مآلُهُ إلى الهَزيمَةِ[2].

دلالَةُ صيغَةِ المُفاعَلَةِ:

إيثارُ صيغَةِ المفاعَلَةِ لِلدّلالَةِ على نَفْيِ شَرَفِ المُشارَكَةِ في القِتالِ

قولُهُ: ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ﴾ مِنَ المُقاتَلَة، لَفظٌ مِن أَلفاظِ المفاعَلَة، وهوَ بَحسبِ الدّلالَةِ اللُّغويَّةِ يَدلُّ على مُشارَكَةِ طَرَفين، فهناكَ مَن يُقاتِلُ ظُلمًا وعُدْوانًا وهناكَ مَن يُقاوِمُ هذا الظُّلمَ.

سِرُّ تَنكيرِ لَفظِ ﴿عَدُوًّا﴾ وإفْرادِه:

دلالَةُ تَنكيرِ العَدوِّ لِقَصْدِ التّهويلِ مِن كُلِّ أَنواعِهِ التَّصَوّرِيَّةِ

التّنكيرُ في لَفْظِ ﴿عَدُوًّا﴾ يُفيدُ التّهويلَ والتّعْظيمَ لِأَخْذِ الحَذرِ مِنْهُ، أمّا إفرادُهُ فراجِعٌ إلى كَوْنِه على وَزنِ (فَعُولٍ) مِثلِ قَبولٍ ونَحوِهِ مِن مَصادرَ قَليلَةٍ، ولكونِه عَلى زِنَةِ المَصادرِ عومِلَ مُعامَلَةَ المَصْدَرِ فاستَوى في الوَصفِ بِهِ المُذَكَّرُ والمُؤنَّثُ والواحِدُ والمُثَنّى والجَمْعُ[3].

خروجُ الإخْبارِ مَخرجَ النَّهْيِ:

صِدقُ الرِّسالَةِ المُحَمَّديَّةِ

خروجُ الإخْبارِ مَخرَجَ النَّهْيِ في قولِهِ تَعالى: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ﴾ وقوله: ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ﴾ لِلمُبالَغَةِ[4] وليَكونَ صِدقُ النَّبيِّ ﷺ في إِخْبارِه عَلَمًا مِن أَعْلامِ نُبوَّتِه وبُرْهانًا مِن بَراهينِ الرِّسالَةِ[5].

وذلكَ أنَّ قولَهُ تَعالى: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا﴾ معْناهُ: قُلْ لَهُم بِصورَةِ الإخْبارِ هذا القَولَ؛ غَيرَ أنَّهُ في واقِعِه

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 5/470.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/369.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/133.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/564.

مُتَضمّنٌ النَّهْيَ كَأَبْلَغِ ما يَكونُ، على ما هو مُقَرَّرٌ مِن كَونِ الخَبَرِ الَّذي يَأتي في مَعْنى الإنشاءِ أَبْلَغَ مِنَ الإنْشاءِ المَحْضِ، كَما مرَّ ذِكْرُه قريبًا في تَفسيرِ قَولِه: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾.

ويَدلُّ لِكونِه خَبرًا في مَعنى النَّهي ورودُ القَرينَةِ الدّالَّةِ عَليه في قولِه: ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾؛ فَإنّهُ لا يُلائِمُ الإخْبارَ بِأنّكُم لَم تَخرجوا، معَ أَنّهُمْ يُريدونَ الخروجَ، ويُؤَيِّدُهُ أَيْضًا التّعليلُ الآتي[1]، وهو قولُهُ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾.

سِرُّ فَصلِ جُملَةِ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم﴾:

تَعليلُ عَدَمِ الخُروجِ مَع رَسولِ اللهِ ﷺ

فُصلتْ جُملَةُ ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم﴾ عمّا قَبلَها لِبيانِ سَبَبِ النَّهي والاسْتِئنافِ؛ لِما بَيْنَها وبَينَ سابِقَتِها مِن (كَمالِ الاتِّصالِ)، أيْ: لَنْ يخْرُجوا مَع رَسولِ اللهِ ﷺ ولَنْ يُقاتِلوا مَعَهُ لِأَنَّهُم رَضُوا بِالقُعودِ والتَّخَلُّفِ أوَّلَ مَرَّة[2].

فائدَةُ الجُملَةِ التَّعْليليَّةِ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم﴾، ودلالَةُ التَّأكيدِ:

تَأكيدُ الخِطابِ عَلَى قَصْدِ الاسْتِزادَةِ مِنَ القُعودِ والتَّخَلُّفِ تَوبيخًا لِلمنافقينَ

جمْلَةُ: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تَعليلٌ لِما سَبَقَ مِنَ النَّهْي، فإنَّهُ يَتَضمَّنُ الإخْبارَ بِأنَّ مَنْعَكمْ ونَهْيَكُم عَنِ الخروجِ والقِتالِ حَسَنٌ لائِقٌ لِأَنّكُمْ رَضيتُمْ، ولِهذا صُدِّر بِكَلِمَةِ (إنَّ) واخْتيرَتِ الجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ[3]، وهِيَ مُسْتَأْنَفَةٌ لِلتَّعْدادِ عَلَيهِمْ والتَّوْبيخِ، أَيْ: إِنَّكُمْ تُحِبُّونَ القُعودَ وَتَرْضَوْنَ بِهِ فَقَدْ زِدْتُكُمْ مِنْه[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالرِّضا عَنِ القُعودِ:

الرِّضا بِالقُعودِ تَأْنَفُهُ الفِطرَةُ السَّليمَةُ

التَّعبيرُ بالرِّضا في قولِه تعالى: ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ يَدُلُّ عَلى أنَّ ما ارْتَكَبوهُ مِنَ القُعودِ عَمَلٌ مِن شَأْنِهِ أَنْ يَأْباهُ النّاسُ، حَتّى أُطْلِقَ عَلى

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/300.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/442.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/300.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.

ارْتِكابِهِ فِعْلُ (رَضيَ) المُشْعِرُ بِالمُحاوَلَةِ والمُراوَضَةِ، أيْ: أنَّهم جُعِلوا كالَّذي يُحاوِلُ نَفْسَهُ عَلى عَمَلٍ وتَأْبى حَتّى يُرْضِيَها[1].

التَّفريقُ في خِطابِ اللهِ لِلمؤمِنِ والمُنافِقِ:

عِتابُ المؤمِنِ يُظاهِرُ تَوبيخَ المُنافِقِ تَوقيعًا وإيقاعًا

شَتّانَ بَينَ خِطابِ اللهِ لِلمؤمِنِ وخطابِهِ لِلمنافِقِ: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [التوبة: 38] ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [التوبة: 83]، ففي قولِهِ تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ عِتابٌ لِلمُؤْمنينَ لِتَحْريضِهِم عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، بِطَريقَةِ العِتابِ عَلى التَّباطُؤِ بِإجابَةِ دَعْوَةِ النَّفيرِ إلى الجِهادِ[2]. أمّا في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [التوبة: 83] ففيهِ تَوبيخٌ لِلمُنافقينَ بِتَقريعٍ شَديدٍ.

الجِناسُ بَينَ ﴿بِٱلۡقُعُودِ﴾، و﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾:

تَفْريعُ الأَمْرِ بِالقُعودِ على مُسَمّى القُعودِ عُقوبَةً

بَيْنَ ﴿بِٱلۡقُعُودِ﴾، و﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾: جِناسٌ مُسْتَوفٍ؛ لِورودِ أَحدِ لَفظَيهِ اسْمًا في قَولِهِ ﷻ: ﴿رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ﴾ والآخَرِ فِعلًا ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ بِفاءِ تَفْريعِ الأمْرِ بِالقُعودِ بِطَريقِ العُقوبَةِ عَلى ما صَدَرَ عَنْهم مِنَ الرِّضا بِالقُعودِ، أيْ: إذْ رَضيتُمْ بِالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقْعُدوا مِن بَعْدُ[3].

دلالَةُ الفاءِ في: ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾:

العُقوباتُ عَلى مُقتَضى أجناسِ الأعمالِ

الفاءُ في ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ تَفْريعٌ عَلَى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ﴾، أيْ: كما اخْتَرْتُمُ القُعودَ لِأَنْفُسِكُمْ فاقْعُدوا الآنَ لِأَنَّكُمْ تُحِبُّونَ التَّخَلُّفَ[4].

دلالَةُ انْحصارِ ورودِ الفِعلِ ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ في سورَةِ التّوبةِ وَحدَها:

تَكثيرُ صيغَةِ القُعودِ أمرًا في سورَةِ التَّوبَةِ لإرادَةِ حِرْمانِهِم على الدَّوامِ

ورد لفظ (اقعدوا) في سورة التوبة ثلاث مرات وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ [التوبة: 5]، وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة: 46]، وقوله ﷺ: ﴿فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: 83].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/195.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/284.

والورودُ الحصري لهذا الفعلِ ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ في سورَةِ التَّوْبَة لِلدّلالَةِ على أنَّ هذه العُقوبَةَ خاصَّةٌ بِهؤلاءِ المُخلَّفين، الَّذين دَيْدَنُهُمُ القُعودُ والتَّخَلُّفُ دائِمًا، [1] فدلَّتْ صيغةُ الأمرِ على العُقوبةِ على ما صدرَ عنهُم مِنَ الرّضا بِالقعودِ، أيْ: إذْ رَضيتُمْ بِالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقعُدوا من بَعدُ[2].

تَشوّقُ الخِطابِ إلى تَشْديدِ النَّكيرِ على مَن أَعرَضَ عَن أَمرِ اللهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ

فائدَةُ قولِهِ: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾:

في قولِه تَعالى: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دلالَةٌ على الخَرْجَةِ إلى غَزْوَةِ تَبوكَ؛ كَأنَّهُ قيلَ: أوَّلَ خَرْجَةٍ دُعيتُمْ إليَها؛ لِأنَّها لَمْ تَكُنْ أوَّلَ خَرْجَةٍ خَرَجَها الرَّسولُ ﷺ لِلغَزاةِ، فَلا بُدَّ مِن تَقْييدِها؛ إذِ الأَوَّليَّةُ تَقْتَضي السَّبْقَ. وقيلَ: التَّقْديرُ: أوَّلَ خَرْجَةٍ خَرَجَها الرَّسولُ ﷺ لِغَزْوَةِ الرّومِ بِنَفْسِهِ. وقيلَ: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قَبْلَ الاسْتِئْذانِ[3].

تَركُ الأمرِ أوَّلَ مَرَّةٍ كَتَرْكِهِ كُلَّ مَرَّةٍ

فائدَةُ تَنكيرِ ﴿مَرَّةٍ﴾:

جاءَتْ ﴿مَرَّةٍ﴾ نَكِرةً لِلاسْتِغْراقِ، لِأنّها لَمّا كانَتْ في زَمَنٍ مَعْروفٍ لَهم وهو زَمَنُ الخُروجِ إلى تَبوكَ ضُمِّنَتْ مَعْنى الزَّمانِ[4].

حَذْفُ فِعلِ الشَّرطِ في (فاقعدوا) قَصدٌ إلَى بَيانِ التَّخَلُّفِ الدّائِمِ

دلالَةُ حَذْفِ فِعلِ الشَّرْطِ في: ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾:

دلالَةُ حَذْفِ فِعْلِ الشَّرطِ في ﴿فَٱقۡعُدُواْ﴾ لِبيانِ التّخَلُّفِ الدّائمِ؛ على معْنى: إذا رَضيتُمْ بِالقُعودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فاقْعُدوا مِن بَعْدُ ﴿مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ أيِ: المُتَخَلِّفينَ، الَّذين دَيْدَنُهُمُ القُعودُ والتَّخَلُّفُ دائِمًا[5].

إيثارُ القُعودِ لِلدَّلالَةِ على داعِيَةِ الكَسَلِ

سِرُّ التَّعبيرِ بِلَفْظِ القُعودِ دونَ التَّخلُّفِ:

عُبِّر بِلَفْظِ القعودِ ها هُنا؛ لأنَّ لَفظَ القُعودِ فيهِ مَعنى التَّثاقُلِ، وقد يُفَسرهُ قولُه تَعالى في مُعاتَبَةِ بَعضِ المؤمنينَ: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة: 38].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/476.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/283.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89.

فهذا التَّعبيرُ وارِدٌ في نفْسِ السّياقِ، وفي نَفْسِ الأشْخاصِ المُخلَّفينَ بِغيرِ عُذْرٍ في غزوَةِ تَبوك[1] فهُمُ المَعْنيّونَ بِهِ، فيَكونُ (التّثاقُلِ) تَفْسيرًا دَقيقًا لِلقعودِ المَذْكورِ.

وهو شَأْنٌ قَد تَميّزَ بِهِ المنافقونَ حتّى عِندَ أداءِ الصّلَواتِ تَظاهرًا مَعَ المؤمنينَ، فقَد كانوا يَقومونَ إليها مُتَثاقِلينَ كُسالى، كما أخبَرَ بذلكَ عَنهُم سُبحانه حين قال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: 142].

ومِن أَسرارِ التَّعبيرِ بِالقُعودِ كذلك أنّ الّذي حَدا بالمنافقينَ إلى تَرْكِ الجهادِ لَيْس ضَعْفَهم ولا قِلّةَ ما في أَيديهِمْ، بَل دَعاهُمْ داعي الكَسَلِ؛ فَرَكنوا إليْهِ فَلَم يُكلّفوا أَنْفُسَهم التَّظاهُرَ بالاسْتِعداد، لِيَشْفع لَهم بِقبولِ أَعْذارِهِمْ، وهذا مِن خِذلانِ اللّهِ لَهم، ولمّا كانَتْ عِلَّةُ التَّخَلُّفِ التَّكاسُلَ دونَ سِواهُ، ثَبَّطَهم، فقيلَ لهُم: ﴿ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ ذمًّا لَهُم وتَعجيزًا وإلحاقًا لَهم بمَن شَأْنُهم القعودُ مِنَ المَرْضى والضُّعَفاءِ[2].

العُدولُ عَن ﴿ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ إلى ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾:

العُدولُ إلى الخالِفينَ لِلدّلالَةِ على إلزامِهِمْ تَنْكيلًا لَهُمْ

عُبِّر بِلَفْظِ ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ ها هُنا لِأنّ تَخَلُّفَ المنافقينَ هذهِ المَرَّةَ عَن مَنْعٍ وإلْزامٍ، تَنْكيلًا بِهِمْ وإظهارًا لِدناءَةِ نُفوسِهِم، أيْ: أنَّهمْ أُلزِموا بِالبَقاءِ معَ أَهْلِ الأَعْذارِ مَع رَغْبَتِهِمْ في الخُروجِ، فَلمّا لَم توجَدْ بواعِثُ الكَسَلِ عُبِّرَ بِالخالِفينَ[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرّجوعُ والعَودَةُ والرَّدُّ:

إيثارُ الرَّجعَةِ لِقَصدِ تعميمِ العَودِ

(الرَّدُّ): إجبارُ الآخَرِ على العَوْدَةِ، حيْثُ لَم يَكُنْ مَحسوبًا ولا في الخطَّةِ، وإنّما يُكرَهُ عَلَيهِ لِأَمْرٍ ما ولَم يَكُن في الحسْبانِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/65.

(2) ريم القحيز، بلاغة المتشابه اللّفظيّ في سورة التوبة، ص: 123.

(3) ريم القحيز، بلاغة المتشابه اللّفظيّ في سورة التوبة، ص: 123.

أمّا (الرّجوعُ) فهوَ العَوْدَةُ مِن مهمّةٍ ما، ويكونُ فيما فيهِ قَصْدٌ في العَودَةِ وما لَيْس فيهِ[1]، ولِذا يُعبّر بهِ عنِ البَعْث، كقولِه تَعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة 28]، أيْ: أنّنا جميعًا سنُرْجَعُ إلى اللّهِ تعالى بَعدَ أنْ قُمنا بما هو مَطلوبٌ منّا وهو امتحانُ ربِّ العالمينَ لَنا أيُّنا أحْسَنُ عَملًا.

أمّا (العَودَةُ) فهي العَودةُ إلى حالَةٍ ما سابِقَةٍ كانَتْ قَبلَ هذه الحالِ، كَما جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29]؛ أيْ: أنَّنا سَنعودُ إلى الحالَةِ الّتي كنّا عَليها سابقًا وهي التُّرابُ.

(الطّائِفَةُ) و(الجَماعَةُ):

إيـثَـارُ الطَّائِفةِ لـلـدَّلالَـةِ علَى الـوَاحِـد أو الجمَاعَةِ

إنَّ (الطّائِفَةَ) في الأصْلِ: هي الجَماعَةُ الّتي مِن شَأنِها الطَّوفُ في البِلادِ لِلسَّفرِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ أَصْلُها الجَماعَةَ الّتي تَسْتوي بِها حَلَقَةٌ يُطافُ عليها، ثُمّ كَثُر ذلكَ حتَّى سُمّي كُلُّ جَماعَةٍ طائِفَةً[2]، وتُطلَقُ الطّائفَةُ على الواحِدِ فَصاعِدًا، إلَى الألْفِ، وأقلُّها رَجُلانِ أَوْ رَجُل، فَتكونُ بِمَعْنى النَّفسِ. والطّائفةُ إذا أُريد بِها الجَمْع فَجمْعُ طائفٍ، وَإذا أُريدَ بِها الواحِدُ فَيَصحُّ أَنْ تكونَ جَمعًا، وكُنِيَ بِهِ عنِ الواحِدِ[3].

و(الجَماعَةُ) في اللُّغةِ: المجتمِعونَ على الشَّيءِ، وجَمعُ الشَّيءِ عَنْ تَفْرِقةٍ، وأَصْلُ الكَلِمَةِ لإِفادَةِ مَعنى الاجْتِماعِ في مُقابلِ الافْتراقِ، وقدْ جاءَ في نُصوصِ القُرآنِ والحديثِ اسْتعمالُ كَلِمَةِ الجَماعَةِ ضِدَّ الفُرْقَةِ والاجْتِماعِ ضِدَّ الافْتراقِ.

---

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 303.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 334.

(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 585.

والجَماعَةُ أَعَمُّ مِنَ الطّائفَة؛ لأنّها تُطلق بِمَلحَظِ الاجْتماعِ فقط دونَ وَصفٍ زائدٍ على هذا. والطّائفَةُ أَخصُّ، فَقد تُطلَقُ على الواحِدِ والاثْنَين.

الخُروجُ والذَّهابُ:

الذَّهابُ أَوْسَعُ مَعْنًى ودلالَةً مِنَ الخُروجِ

(الخُروجُ) انْتِقالٌ مِنَ المَقَرِّ إلى مَكانٍ قَريبٍ أَوْ بَعيدٍ[1]، وهو يَدلّ على تَحوّلٍ عنِ الاتّجاه أو الحالِ إلى عَكْسِه[2]، و(الذَّهابُ) سيرٌ يَبْعُدُ بِالسائرِ قليلًا قليلًا حتّى يَمَّحيَ شخصُه. مأخوذٌ من ذَهابِ الشَّيْءِ بِمَعنى: مُضيّه. يُقالُ: ذَهَبَ يَذْهَبُ ذَهابًا وَذُهوبًا[3].

ويُقال: ذهبَ بِهِ: اسْتَصْحَبَهُ وَمضى مَعَه، وَذهبَ عَليهِ: نَسيَه. وَعنهُ: تَركه، وَإلَيْهِ: توجّهَ. وأذْهَبَهُ: أزالَهُ وَجعلَهُ ذاهِبًا[4].

وعلى هذا فالذّهابُ أَوْسَعُ معنًى ودلالَةً.

الرِّضا والإيثارُ:

(الإيثارُ) يَحمِلُ مَعْنى الاخْتيارِ والتَّقديمِ، و(الرِّضا) قد يكون عن غيرِ اختيارٍ

مَعنى (الرِّضا) سُكونُ النَّفسِ إِلَى الشَّيْءِ والارْتياحُ إِلَيْهِ[5]، و(الإيثارَ) على ما قيلَ هو: الاخْتيارُ المقدَّمُ، والشّاهد قولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾، أيْ: قدَّم اختيارَكَ عَلَينا، وذلكَ أَنَّهم كلَّهمْ كانوا مُختارينَ عِندَ اللهِ تعالى[6].

واخْتيرَ فِعْلُ ﴿رَضِيتُم﴾ دونَ نَحْوِ: (آثَرْتُمْ) أَوْ (فَضَّلْتُمْ) مُبالَغَةً في الإنْكارِ، لِأَنَّ فِعْلَ (رَضيَ بِكَذا) يَدُلُّ عَلَى انْشِراحِ النَّفْسِ[7].

وبِذلك يَظْهَرُ أنّ (الإيثارَ) يَحمِلُ مَعنى الاخْتيارِ والتّقديم، و(الرِّضا) قدْ لا يكونُ عَنِ اخْتيارٍ، ولَكن يَصْحَبُهُ قَبولٌ وارْتياحٌ كَمَن يَرضى - إيمانًا - بِالبَلايا لِكَونِها من قَدَرِ اللهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/481: 10/209.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (رجع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذهب).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 463.
(5) الحمويّ، إيضاح الدّليل في قطع حجج أهل التّعطيل، ص: 143.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، بترتيب وزيادة، ص: 87.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/198.

(القاعِدُ) و(الخالِفُ):

(الخالِفُ) أَعمّ مِنَ (القاعِدِ)، فالخالِفُ: الّذي يَخلفُ الرَّجُلَ في أَهْلِهِ ومالِهِ، ويُقال: الخالِفُ الّذي خالَفَ قَومَهُ، ويُقال: الخالِفُ الفاسِدُ، ويُقال: الخالِفُ المَرْأَةُ، والخوالِفُ: النّساءُ[1]، والقُعودُ مَجازٌ عن الثَّباتِ في المَكانِ، والمُلازَمَةِ لَهُ، لِأَنَّ القُعودَ ثُبوتٌ شَديدٌ وَطَويلٌ[2]، والمُرادُ: تَخَلُّفُهم عَنِ الغَزوِ واقْتِرانُ ذلكَ بِالكَسَلِ، والالتِصاقِ بِالأَرْضِ، والتَّمَكُّنِ مِنَ القُعودِ، فَيَأْبَى النُّهوضَ فَضْلًا عَنِ السَّيْرِ.

(الخالِفُ) أَوْسَعُ مَعنًى وأَعَمُّ مِنَ (القاعِدِ)

وبِذلكَ يَظْهرُ: أنّ مَعنى (الخالِفِ) أَوْسَعُ وأَعَمُّ مِنَ مَعنى (القاعِدِ).

الرّضا والقَبولُ:

(الرِّضا): هو قَبولٌ بِالشّيءِ عَن يَقينٍ وخلوٍّ مِنَ التَّردُّد أَوِ الشَّكِّ، وغالبًا ما يُرافِقُهُ السُّرورُ، و(القَبولُ): مُقَدَّمُ الشّيءِ الّذي يُتَّجَه إليهِ مِنْهُ؛ لِمُلاقاتِهِ أَوِ النّفاذِ فيهِ[3]، سَواء أكانَ بِسرورٍ أَمْ بِغيرِهِ.

القَبولُ أَعَمُّ مِنَ الرّضا

القعودُ والجلوسُ:

قَد فرّقَ بَيْنَهما بِأنّ الجلوسَ: هو الانْتِقالُ مِن سفْلٍ إلى عُلو، والقُعودَ: هو الانتِقالُ مِن عُلو إلى سفلٍ؛ فعَلى الأَوَّل يُقال لِمَن هو نائمٌ: اجْلِس، وعلى الثّاني يقال لِمَن هو قائمٌ: اقْعُد[4].

إيثارُ القُعُودِ لِلدَّلالَةِ علَى اتِّجاهِ الحَرَكَةِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/79.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/115.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (قبل).

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، بترتيب وزيادة، ص: 164.

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ٨٤﴾ [التوبة: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَجْديدُ الإهاناتِ لِمَن تَمَحَّضَ نِفاقُهُمْ

بَعدَ أنْ أَمَرَ اللّهُ رَسولَهُ بِإِهانَةِ المنافقينَ وإِذْلالِهِمْ بِمنعِهم مِنَ الخُروجِ مَعهُ إلى الغَزَواتِ، قَفّى عَلى ذلكَ بِذِكْرِ إهانَةٍ أُخْرى لَهُم، وهيَ مَنْعِ الرَّسولِ ﷺ أنْ يُصَلِّيَ عَلى مَن ماتَ مِنهمْ بَعدَ إعلامِهِ بِحقيقَةِ أَمْرِهِمْ، وفي مُقدِّمَتهم زَعيمُهُمُ الأَكْبَرُ عَبدُ اللّهِ بْنُ أُبَيّ والاثْنا عَشرَ الّذينَ أَرادوا اغْتيالَ الرّسولِ ﷺ [1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾: أصلُ الصَّلاةِ: الثَّناءُ والدُّعاءُ بالخَيْرِ، يُقالُ: صَلَّيتُ عليهِ، أيْ: أثنيتُ أو دَعوتُ لَهُ، ومنهُ سُمّيتِ الصَّلاةُ بذلكَ؛ لاشْتِمالِها عَلَيْهِما[2]. وقيلَ: مَأْخوذَةٌ مِنَ الصَّلا، وهو: العَظْمُ الَّذي عَلَيهِ الأَلْيَتانِ؛ لأَنَّ المصلّيَ يُحرِّكُ صَلَوَيْهِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ[3]. وقالَ الزَّجّاجُ: الأَصلُ في الصَّلاةِ اللُّزومُ[4]. وإليهِ ذَهبَ الأزهريُّ بقَولِهِ: إنَّما الصَّلاةُ لُزومُ ما فرضَ اللّهُ تعالَى، والصلاةُ مِنْ أعظمِ الفَرْضِ الَّذي أَمَرَ بلُزومِهِ[5].

2) ﴿وَلَا تَقُمْ﴾: أصلُ القيامِ: يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ. يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصبَ. والقَومَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ، ويَكونُ قامَ بمعنى العَزيمَةِ، كما يُقالُ: قامَ بهذا الأَمْرِ، إذا اعْتَنَقَهُ،

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 10/175، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/115.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (صلا).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلا).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/232.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صلا).

وقامَ فلانٌ بأمرِ فُلانٍ إذا كفاهُ أَمْرَهُ وتولّاه. وهُم يَقولونَ في الأَوَّلِ: قيامُ حَتْمٍ، وَفي الآخِرِ: قيامُ عَزْمٍ[1]. وضِدُّه: الجُلوسُ. ويأْتي القيامُ بمعنى الثَّباتِ، فيُقال: قامَ عِنْدَهُم الحَقُّ، أيْ: ثَبَتَ[2]، والمَقامُ: مَوْضِعُ القيامِ[3]. والمَقصودُ بالقيامِ في الآيَةِ: قيامُ عَزمٍ، أيْ: ولا تَقِف عَلى قَبرِهِ عِند الدَّفنِ أوْ بَعدَه بِقصْدِ الزّيارَةِ أو الدُّعاءِ لَهُ[4].

3) ﴿قَبۡرِهِۦٓ﴾: أَصْلُ (قبر): يَدُلُّ عَلَى غُموضٍ في شَيْءٍ وَتَطامُنٍ، مِنْ ذَلِكَ القَبْرُ: مَكانُ دَفَنِ الإِنْسانِ، يُقال: قَبَرْتُ المَيِّتَ، أَقْبُرُهُ، قَبْرًا، أيْ: دَفَنْتُهُ[5]. وكُلُّ مَكانٍ تُخْفَى فيهِ جُثَّةُ المَيِّتِ فهو قَبْرٌ، ولَو في البَحْرِ. وجَمْعُهُ: قُبورٌ. والمَقْبَرَةُ: مَوْضِعُ القُبورِ[6]. والمقصودُ بالقَبْرِ في الآيةِ: الحُفْرَةُ الَّتي يوضَعُ فيها المَيِّتُ.

۞ المَعْنى الإِجْماليُّ:

بَيانُ ما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى في شَأنِ مَنْ يَموتُ مِنْ هؤلاءِ المنافقينَ

أمرَ اللّهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أَنْ يَبْرأَ مِنَ المنافقينَ، وألّا يُصلّيَ على أحدٍ مِنهُم إذا ماتَ، أَوْ يقِفَ على قَبرِهِ، لِيَسْتَغفر لَهُ، أَوْ يَدعو لَهُ؛ لأَنَّهمْ كَفَروا باللّهِ ورَسولِهِ، وماتوا وهُمْ فاسِقونَ، وهذا حُكْمٌ عامٌّ في كُلِّ مَن عُرِفَ نِفاقُه[7].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وَجْهُ عَطفِ جُملَةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾:

الجَمْعُ بَيْنَ المُراداتِ عَطْفًا لتَشريكِها في الأَحكام

جُمْلَةُ ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ عَطْفٌ عَلى جُملَةِ ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ وهوَ عَطْفُ كلامٍ مُرادٍ إِلحاقُهُ بِكلامٍ آخَر؛ لأَنَّ القرآنَ يَنزِلُ مُراعًى فيهِ مَواقِعُ وَضْعِ الآيِ[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 217.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 6/370.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبر).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قبر).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 11/610، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/192.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/284.

دلالَةُ النَّهْي:

النَّهْيُ في الآيَةِ الكَريمَةِ نَهْيٌ عَن فِعْلٍ لَم يَأتِ زَمَنُه(1)، وهو عُقوبَةٌ ثانِيَةٌ وَخِزْيٌ مُتَأَبِّدٌ عَلَيهِم(2).

فائدَةُ اسْتِعْمالِ الماضي لِلدّلالَةِ عَلى المُسْتَقبلِ:

وإنَّما قيلَ: ﴿مَّاتَ﴾، و﴿وَمَاتُواْ﴾ بلَفْظِ الماضي - والمَعْنى على الاسْتِقبالِ - على تقديرِ الكونِ والوجودِ؛ لأنَّه كائنٌ موجودٌ لا محالة؛ فموتُهم غيرُ مَوجودٍ في حالِ التَّكلُّم ولا قَبْلَه، وإنَّما جيءَ بصيغةِ الماضي؛ تَنْبيهًا على تحقُّقِ وقوعِ الموتِ لا محَالَةَ(3).

سِرُّ تَنْكيرِ كَلِمَةِ ﴿أَحَدٍ﴾:

مَجيءُ كَلِمَةِ ﴿أَحَدٍ﴾ نَكِرَةً في سياقِ النَّهْيِ لِقَصْدِ إفادَةِ العُمومِ.

فائدَةُ قولِه: ﴿مِّنْهُمْ﴾:

قولُهُ: ﴿مِّنْهُمْ﴾ لِلإحالَةِ عَلى المنافقينَ الّذينَ عُرِفوا بسيماهُم وأَعْمالِهِمُ الماضِيَةِ الذِّكْر(4)، أيْ: مَن ماتَ حالَ كَوْنِهِ مِنهُم، أيْ: مُتَّصِفًا بِصِفَتِهِم وهي النِّفاقُ(5).

والشّاهِدُ: أنّه لمّا نَزلَتْ هذهِ الآيَةُ ما صَلَّى رَسولُ اللّهِ ﷺ عَلى مُنافِقٍ، ولا قامَ عَلى قَبْرِه بَعدَها(6).

السِّرُّ في اسْتعمالِ تعبيرِ: ﴿أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ في القرآن:

استعمل القرآن الكريم تعبير: ﴿أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ بإرجاع الضمير لِأَهلِ الإيمانِ، وذلكَ في قولِهِ ﷻ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: 136]، و﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84]، و﴿وَلَمْ

القَصْدُ إلى إيلامِ المنافقينَ بِذِكْرِ ما يَتشَوَّفُ إلَيهِ مِن عُقوباتٍ

اسْتِعْمالُ الماضي لِلدّلالَةِ على المُستقبلِ إيذانٌ بِتَحَقُّقِ المُسَمّى

سَوْقُ التَّنكيرِ لِتَعْميمِ التَّرْكِ عَلى كُلِّ تَقْديرٍ

القَصْدُ إلى تَعْميمِ الأَحكامِ على كُلِّ مُتَّصِفٍ بِصِفاتِ المُنافقينَ

اسْتِعمالُ ما يُفيدُ تَعْميمَ الأحْكامِ في الكُفرانِ أُسْوَةً بِما سِيقَ أَصالَةً في بابِ الإيمانِ

(1) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5390.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/477.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/89، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/478 - 477.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/284.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/342.
(6) القنوجيّ، فتح البيان: 5/362.

﴿يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [النساء: 152] مِن حَيْثُ إنَّ أَصْلَ (أحَد): وحَدٌ بِمَعْنى واحِدٍ.

وحَيْثُ وقَعَ في سياقِ النَّفْي عَمَّ واسْتَوى فيهِ الواحِدُ والكَثيرُ، وصَحَّ إرادَةُ كُلٍّ مِنهُما سواء كانوا أهل كفران أو أهل إيمان.

أمّا مَوْضع سورَةِ التَّوبَةِ في قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾؛ فسيقَ في مَعرضِ المَنْعِ مِنَ الصّلاةِ ومراسيمِها على المنافقين ومَنِ اتّصفَ بِصِفاتِهم[1].

التّوجيهُ الإعرابي لجُملَةِ ﴿مَّاتَ﴾:

ارْتِباطُ الصِّفاتِ بِالنّكِراتِ لِاسْتِغراقِ أَحْكامِ المتّصفين بِها

وقوع لفظ: ﴿مَّاتَ﴾ بَعدَ قولِه ﴿أَحَدٖ مِّنۡهُم﴾ جعله في مَوْضع جَرٍّ؛ لأنّه صِفَةٌ للنَّكِرَة، كَأنّهُ قيلَ: عَلى أَحَدٍ منهُمْ مَيّت[2]؛ ومجيئُها بَعدَ قولِه تَعالى: ﴿أَحَدٖ مِّنۡهُم﴾ لِلدّلالَةِ عَلى أنَّ الموتَ كانَ حالَ كونِ الواحِدِ منهُمْ، مُتّصفًا بِصفةِ النِّفاقِ كقولِهم: (أنتَ منّي)، يَعْني على طَريقَتي[3].

مُتَعلّقُ قولِه: ﴿أَبَدٗا﴾ وسِرُّ تأخيرِه:

تَأْخيرُ المُتَعَلّقِ لِقَصْدِ تَأْييدِ عَدمِ الصَّلَاةِ على المُنافِقين

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿أَبَدٗا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِه: ﴿تُصَلِّ﴾، والتَّقْديرُ: ولا تُصَلِّ أبَدًا عَلى أحَدٍ مِنهُم. ويَحْتَمِلُ تَأْبيدَ النَّفْي ويَحْتَمِلُ تَأْييدَ المَنفيِّ، والمَقْصودُ هو الأوَّلُ؛ لِأنَّ قَرائِنَ هَذِهِ الآياتِ دالَّةٌ عَلى أنَّ المَقْصودَ مَنْعُهُ مِن أنْ يُصَلّيَ عَلى أحَدٍ مِنهُم مَنعًا كُلّيًّا دائِمًا[4].

فائدَةُ عَطفِ جُملَةِ: ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾:

النَّهْيُ عَنِ الفِعْلِ يَسْتَلزِمُ تَرْكَ لَوازِمِهِ

عُطفَتْ جُملَةُ ﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ عَلى الّتي قبلَها لِلدّلالَةِ عَلى أنَّ الوقوفَ لِلمُشارَكَةِ في دَفْنِ المنافِقِ كَالصَّلاةِ عَلَيه؛ فَتَرْكُ النَّبيِّ ﷺ الصَّلاةَ عَلَيه وحُضورَ دفْنِه، إعلانٌ بِكُفرِ مَن ترك ذلكَ لهُ[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/393.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/582.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 6/94.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/116.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.

دلالَةُ تَكرارِ النَّهْيِ بـ ﴿وَلَا﴾:

إنَّ حِرصَ النَّبيِّ ﷺ عَلى إسْلامِهم، قد يَجعلَهُ يَميلُ إلَيْهمُ استِعطافًا لَهُم، فَجاءَ التَّحْذيرُ والنَّهيُ مُكَرَّرًا لِلتّأكيدِ، فَبَيَّنَ اللّهُ تَعالى أنّ كُلّ ما فَعَلوهُ لا يسوِّغُ العَطفَ عَليهِمْ، ولا رَجاءَ الخَيرِ مِنْهُم(1).

تَجديدُ تَكرارِ النَّهْيِ عَنِ استِعطافِ المُنافقِينَ لِقَصْدِ تَأْكِيدِ مُقْتَضاهُ

سِرُّ فَصْلِ جُملةِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ﴾:

جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تَعْليليَّةٌ، جاءَتْ لِتَعْليلِ المَنعِ مِنَ الصَّلاةِ والقيامِ بِما يَقْتَضي الامْتِناعَ، وهو الكُفْرُ والموافاةُ عَلَيْهِ؛ ولِذَلِكَ لَمْ تُعْطَفْ، وقَدْ أغْنى وُجودُ (إنَّ) في أوَّلِها عَنْ فاءِ التَّفْريعِ كَما هو الاسْتِعْمالُ(2).

كَمالُ الاتِّصالِ بَيْنَ كُفرِ المُنافِقِينَ والمَنْعِ مِنَ الصَّلاةِ عليهِم هوَ سِرُّ الفَصْلِ

دلالَةُ الانْتِقالِ مِنْ صيغَةِ المُفْرَدِ إلى صيغَةِ الجَمْعِ:

الانْتِقالُ مِنْ صيغَةِ المُفْرَدِ في ألفاظ: ﴿أَحَدٍ﴾، ﴿مَّاتَ﴾، ﴿قَبۡرِهِۦٓ﴾ إلى صيغَةِ الجَمْعِ في ألفاظ ﴿إِنَّهُمۡ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿وَمَاتُواْ﴾، ﴿وَهُمۡ﴾، وذلك أنّ الوَصفَ بالإفْرادِ في قَوْلِه: ﴿مَّاتَ﴾، ﴿قَبۡرِهِۦٓ﴾ جرى عَلى لَفْظِ المَوْصوفِ؛ لِأنَّ الأصْلَ في الصِّفَةِ مُطابَقَةُ المَوْصوفِ، والانْتِقالُ إلى صيغَةِ الجَمْعِ في قولِه تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿وَمَاتُواْ﴾، ﴿وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ لِكَونِها عائِدَةً إلى ﴿أَحَدٍ﴾ لِأنَّهُ عامٌّ؛ لِكَوْنِهِ نَكِرَةً في سياقِ النَّهْيِ، والنَّهْيُ كالنَّفْيِ(3).

الانْتِقالُ مِنَ الإفْرادِ إلى صيَغِ الجَمْعِ يَقْتَضي اجْتِماعَهُمْ على الكُفْرِ

وفي ذِكرِ الإفْرادِ - أوَّلًا - تَناسُبٌ مَعَ النَّهي ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾؛ إذ إنّهُ خِطابٌ لَهُ ﷺ، يتَّفِق وحرصَه على كُلِّ واحدٍ مِنَ الأمَّةِ، ولعلّ بعضَ المنافقينَ يَبقونَ بَعْدَكَ يا رَسولَ اللّهِ، ولَو قالَ: (ولا تُصل عليهم إذا ماتوا ولا تَقم على قبورِهم) لَكانَ حُكمًا عامًّا.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/401.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.

وفي ذِكْرِ الجَمْعِ بَعدَ ذلكَ في قَولِهِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ علَّةٌ للنَّهْيِ صَريحَةٌ في اجْتِماعِهِمْ عَلى الكُفْرِ.

وَجهُ عَطفِ قولِهِ: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ عَلى اسمِ الجَلالَةِ:

تَعْليلُ ما يُورِثُ الكُفْرَ إِفْرادًا أَوْ عَطْفًا

إنّ لِعَطْفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على اسْمِ الجَلالَةِ دلالَةً عَلى أنّ الكُفْرَ باللهِ هو الشِّركُ بِالَّذي لَهُ العَظَمَةُ كُلُّها. ولَمّا كانَ المَوْتُ عَلى الكُفْرِ مانِعًا مِنَ الصَّلاةِ عَلى المَيِّتِ بِجَميعِ مَعانيها، لَمْ يُحْتَجْ إلى التَّأْكيدِ بِإعادَةِ الجارِّ فَقيلَ: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، أيِ: الَّذي هو أَعْظَمُ النّاسِ نِعْمَةً عَلَيْهِمْ بِما لَهُ مِن نَصائِحِهِمْ بالرِّسالَةِ[1]؛ على معنى: أنّ الكُفْرَ بِرَسولِه ﷺ جُحودٌ بِرِسالَتِه، أيْ: أنَّ جاحِدَ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ يُطلَقُ عَلَيه كافِرٌ[2].

دلالَةُ عَدَمِ تَكرارِ حَرْفِ الباءِ في: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

طَلَبًا لِلاخْتِصارِ، ودَفْعًا لإيهامِ الفَصْلِ بَيْنَ المُتَلازِمَيْنِ

إذا تَكَرَّر حَرْفُ الجَرِّ فكَأَنَّهُ يُكَرِّرُ المَعنى، فَإذا قُلت مَثلًا: مَررْتُ بزيدٍ وعَمرٍو، فهذا مُرورٌ واحِدٌ كأنّما هُما في مَكانٍ واحِدٍ وأَنْتَ مَرَرْت بهما، لَكِنْ إذا قُلت: مَررْتُ بزيْدٍ وبِعَمرٍو فكَأنَّكَ مَرَرْت مُرورَيْنِ: مُرورًا بزَيدٍ مُرورًا بِعَمرٍو، وقَد يَكونُ الاثْنانِ في مَكانٍ واحِدٍ، لَكِنَّك تُريدُ العِنايَةَ والاهْتِمامَ بِكُلّ مِنهُما، وفي قوله تَعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ جَمْعٌ لِلكُفْرِ مَرَّةً واحِدَةً، وذلكَ لِطَلَبِ الاخْتِصارِ.

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَمَاتُواْ﴾، وأثَرُها في المعنى:

دَلالَةُ الآيَةِ عَلى اسْتِمرارِ ما كان عَلَيْهِ المُنافِقُون حتّى المَوْتِ

دلَّ دُخولُ الواوِ على الفعلِ في قولِه ﷻ: ﴿وَمَاتُواْ﴾ عَلى أنَّ المُنافقينَ اسْتَمَرّوا عَلى الكُفْرِ بِاللّه تَعالى ورَسولِهِ صَلّى اللّه تعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ مُدَّةَ حَياتِهِمْ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/566.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/279.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3400.

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَهُمْ﴾ وأثَرُها في المعنى:

دلَّ دُخولُ الواوِ على قولِه ﷻ: ﴿وَهُمْ﴾ عَلى أنّ المنافقينَ عَريقونَ في الفِسْقِ بِضَمائِرِهِمْ وظَواهِرِهِمْ[1].

إغْراقُ المنافقينَ في الفِسْقِ بِدلالَةِ دُخولِ الواوِ

سِرُّ الختمِ بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بالجُملَةِ الاسْمِيَّةِ في خِتامِ الآيَةِ الكريمَةِ ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾؛ لتأكيد فسقِهم حالَ موتِهم؛ فالتّعبيرُ بِها فيهِ تَأكيدٌ لِلحُكْمِ وإفادَةٌ لِلثُّبوتِ والدَّوام.

سَوقُ الجُملَةِ الاسْمِيَّةِ لِتَثْبيتِ قَضاءِ اللهِ في المُنافقين

إيثارُ لَفْظِ ﴿فَٰسِقُونَ﴾ دونَ غيرِه:

التَّعْبيرُ بـ ﴿فَٰسِقُونَ﴾ دونَ غيرِهِ تَفَنُّنٍ وتأنُّقٌ، والأَحْسَنُ أَنْ يُفَسَّرَ الفِسْقُ هُنا بالخُروجِ عَنِ الإيمانِ بَعْدَ التَّلَبُّسِ بِهِ، أَيْ: بِصورَةِ الإيمانِ فَيَكونُ المُرادُ مِنَ الفِسْقِ مَعْنًى أَشْنَعَ مِنَ الكُفْرِ ومن غيرِه[2].

التَّأنُّقُ في المُراوَحَةِ بَيْنَ الألْفاظِ باعْتِبارِ المعاني المُرادَةِ

توجيه المُتشابِهُ اللَّفْظِيُّ:

قدْ يَكونُ سياقُ الآيَتَينِ في قولِه: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، وقولِه: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، مِن بابِ التَّفَنُّنِ في العِبارَةِ واللَّفْظ؛ لِيَكون الفِسْقُ والكُفْرُ وَجْهَينِ لِمَعنًى واحِدٍ، وقدْ يَكونُ الفَرْقُ نِسْبيًّا بِاعْتِبارِ سياقِ الآيَتَيْن:

الخُلْفُ في مَعاني المُتَشابِهاتِ اللَّفْظِيَّةِ اعْتِباريٌّ

ففي قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خُروجٌ عَنِ الإيمانِ بَعدَ التَّلبُّسِ بِصُورَتِه عَلى وَجْهٍ يَكونُ أَشْنَعَ مِنَ الكُفْرِ ومِنْ غَيرِه[3].

وفي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة 124 - 125].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/566.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.

لَمّا أثْبَتَ الحقُّ سُبحانه أنَّ لِلسّورَةِ زيادَةً في إيمانِ بَعْضِ النّاسِ وأكْثَرَ مِنَ الزّيادَةِ - وهو حُصولُ البِشْرِ لَهم - ارْتُقيَ في الجَوابِ عَنْ مَقْصِدِهِمْ مِنَ الإنْكارِ بأنَّ السّورَةَ لَيْسَتْ مَنفيًّا عَنْها زيادَةٌ في إيمانِ بَعْضِ النّاسِ فَقَطْ، بَلِ الأمْرُ أشَدُّ؛ إذْ هي زائِدَةٌ في كُفْرِهِمْ، فالقِسْمُ الأوَّلُ المُؤْمِنونَ زادَتْهم إيمانًا وأكْسَبَتْهم بِشْرًا فَحَصَلَ مِنَ السّورَةِ لَهم نَفْعانِ عَظيمانِ، والقِسْمُ الثّاني الَّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ زادَتْهم رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ وماتوا وهم كافِرونَ[1]؛ مِن بابِ مقابلَةِ مَعنى زيادَةِ الكُفرانِ بِمَعنى زيادَةِ الإيمانِ.

تَوجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظيِّ:

بَيانُ ما شَرَعَهُ اللهُ في شَأْنِ مَنْ يَموتُ مِنَ المنافقينَ أُسْوَةً بما شَرَعَهُ في الأحْياءِ مِنْهُمْ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ تَصْريحٌ بِكَونِ النَّهْيِ عَنِ الصّلاةِ عَلَيهِم والوقوفِ عَلى قَبرِهِم مُعَلَّلًا بِكُفْرِهِم، وهذا بَيانُ ما شَرَعَهُ اللّهُ تعالى في شَأْنِ مَن يَموتُ مِنْ هؤلاءِ المنافقينَ، في إِثْرِ ما شَرَعَهُ في شَأنِ الأحْياءِ مِنْهُم، وهو كَسابِقِهِ خاصٌّ بِمَن نَزَلَتْ فيهِمُ الآياتُ، [2] وهُم الّذينَ ثَبَتَتْ أَدِلَّةُ كُفْرِهم؛ ومَوْتُهُمْ هُنا كانَ في حالِ خُروجِهِمُ السّابِقِ مِنْ حَظيرَةِ الإيمانِ، كَما تقدّمَ في قَوْلِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ حيثُ بَيَّنَ أنَّ العلَّةَ الّتي لِأَجْلِها لا يَنْفَعُهُمُ اسْتِغفارُ الرّسولِ ﷺ وإنْ بَلَغَ سَبعينَ مَرَّةً إنّما هي كُفْرُهُمْ وفِسْقُهُمْ.

في عَطْفِ الرَّسولِ عَلى اسْمِ الجَلالَةِ دونَ إعادَةِ الجارِّ إشارَةٌ إلى أمْرَينِ

أوَّلُهما: مَنْزِلَةُ الإيمانِ بِرَسولِ اللّهِ ﷺ، ومِصْداقُهُ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: 80]، ومَنْ يَكْفُرْ بالرَّسولِ فَقَدْ كَفَرَ باللّهِ.

والآخَر: لَمّا كانَ السّياقُ في بَيانِ عِلَّةِ النَّهْيِ عَنِ الصَّلاةِ عَلَيهِمُ اكْتُفيَ بِتأكيدِ كُفْرِهِمْ باللّهِ فَقالَ: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ ثُمّ عَطَفَ الرَّسولَ على اسْمِ الجَلالَةِ؛ إذْ إنّ كُفْرَهُم باللّهِ كافٍ، فقَد أَفْضَوا إلى ما قَدّموا، ويَدخُل فيهِ كُفْرُهم بِرَسولِ اللّهِ مِن بابِ أَوْلى.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/65.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 10/494.

وإعادَةُ الجارِّ في قولِه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: 54] يَدلُّ على تَعَلّقِ عَدمِ إيمانِهِمْ بِالرَّسولِ ﷺ بِعَدَمِ قَبولِ نَفَقاتِهم؛ إذْ إنّهُ المُبَلِّغُ عَن رَبِّه، والمُتَلقّي صَدَقاتِهم، فَلمّا أَعْلَن المنافقونَ رَفْضَهُم، وكَشَفوا عَنْ طَويَّتِهم وكُفْرِهم أُعيدَ الجارُّ في قَوله: ﴿كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾، وهو "استِثْناءٌ مِن أَعمِّ الأشياءِ، أيْ: ما مَنَعهم قَبولَ نَفَقاتِهم مِنْهمْ شيءٌ مِنَ الأَشْياءِ إِلّا كُفْرُهمْ"(1).

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أحدٌ، ورجلٌ، وفردٌ، وواحدٌ:

لَفْظُ (أحد) أَكْمَلُ مِن كُلِّ ما ذُكِر

جاءَ في (الإتقان) لِلسّيوطيِّ: قالَ أبو حاتمٍ في كِتابِ "الزّينَة": هو اسْمٌ أَكْمَلُ مِنَ الواحِدِ، ألا ترى أنَّكَ إذا قُلت: فُلانٌ لا يَقومُ لَهُ واحِدٌ، جازَ في المَعنى أَنْ يَقومَ اثْنانِ فأَكْثَر بِخِلافِ قَولِك: لا يَقومُ لَهُ أَحَدٌ.

وفي الأَحَدِ خُصوصيَّةٌ لَيستْ في الواحِدِ تَقولُ: لَيس في الدّارِ واحِدٌ فَيَجوزُ أَنْ يَكونَ مِنَ الدّوابِّ والطَّيْرِ والوَحْشِ والإِنْسِ، فَيَعُمّ النّاسَ وغيرَهُمْ بِخلافِ: لَيس في الدّارِ أَحَدٌ، فإنَّهُ مَخْصوصٌ بالآدَميّينَ دونَ غَيرِهِم(2).

ومِنَ الفروقِ بَيْنَ الواحِدِ والأَحَدِ: أنَّ الأَحَدَ بُنيَ لِنَفْيِ ما يُذْكَر مَعَهُ مِنَ العَدَدِ، تَقول: ما جاءَني أَحَدٌ، والواحِدَ اسْمٌ بُنيَ لِمُفْتَتَحِ العَدَد، تَقول: جاءَني واحِدٌ مِنَ النّاسِ ولا تَقول: جاءَني أَحَدٌ، فالواحِدُ مُنْفَرِدٌ بِالذّاتِ في عَدَمِ المِثْلِ والنَّظيرِ، والأَحَدُ مُنْفَرِدٌ بالمَعْنى.

أمّا الفَرْدُ فَيُفيدُ الانْفِرادَ مِنَ القَرينِ، والواحِدُ يُفيدُ الانفرادَ في الذّاتِ أَوِ الصِّفَةِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/74.

(2) السّيوطي، الإتقان: 2/169.

وأمّا الرّجُلُ، فَهو الذَّكَرُ مِنَ نَوعِ الإنْسانِ خِلاف المَرْأَة، وقيلَ: إنّما يَكونُ رَجُلًا فَوْقَ الغُلامِ، وذلكَ إذا احْتَلَم وشَبَّ[1].

وعليه: فإنّ الأنْسَبَ لِسياقِ الآيَةِ نَفيُ أَحَدٍ لِيَسْتَغرِق جَميعَ أَفْرادِهِ.

الصَّلاةُ والدُّعاءُ:

الصَّلاةُ: هيَ العِبادَةُ المَخْصوصَةُ بِأفْعالٍ وأقْوالٍ مُفْتَتَحةٌ بالتَّكبيرِ مُختَتَمَةٌ بالتَّسْليم وهذا التَّعريفُ يَشْمَل كُلَّ ما يُسَمّى صَلاةً، حتّى صَلاةَ الجنازَةِ المَعْنيَّة في الآيَةِ الكريمةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾، وقدْ بَيَّنَتِ الشَّريعَةُ الإسلاميَّةُ حُدودَ أوقاتِها؛ وَسُمّيَ الدُّعاءُ صَلاةً أيضًا؛ لِأَنَّهُ مِنْها، فبَيْنَهما عُمومٌ وخُصوصٌ مُطْلَقٌ، والصّلاةُ أَعَمُّ مُطلقًا باعْتِبارِ الحَقيقةِ الشَّرعيَّةِ.

الصّلاةُ والدُّعاءُ هما سَواء في الحقيقَةِ اللُّغويَّةِ، ثُمّ تَفْتَرِق عَنْهُ (الصَّلاة) في حَقيقَتِها الشَّرْعيَّةِ

المَوْتُ والوَفاةُ:

لَفْظُ المَوْتِ يَدُلُّ لُغَةً عَلَى ذَهابِ القوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[2] ولَفْظُ التَّوفّي مِنَ التَّوْفِيَةِ، والوافي: الّذي بَلَغَ التّمامَ. يُقال: دِرهمٌ وافٍ، وكَيلٌ وافٍ[3]، ومنهُ قيلَ لِلموتِ: وَفاة؛ لأنّهُ اسْتيفاءٌ لِلأَرْواحِ بِمَعْنى اسْتِعادَةِ اللهِ تعالى إيّاها[4].

والوَفاةُ مِن قَولِ القائلِ: وَفّى مالَهُ مِنَ الرَّجلِ، أي: اسْتَوفاهُ كامِلًا غَيْرَ مَنْقوصٍ، وقَبَضَهُ وأَخَذَهُ، ويُقال: تُوفّيَ فُلانٌ، كَأَنَّه قُبِضَتْ روحُهُ كامِلةً غَيرَ مَنْقوصَة.

لَفظا التّوفّي والمَوْتِ، كَلَفْظَي (الفَقير والمِسكين) إذا اجْتَمَعا افْتَرَقا وإذا افْتَرَقا اجْتَمَعا

والمَوتُ هوَ مُفارَقَةُ الحياة، وليْس فيه مَعنى القَبْضِ، ولِذلكَ يُسْتَعمَل لَفْظُ المَوتِ أَحيانًا اسْتِعمالًا مَجازِيًّا، يُقال: ماتَتِ الرّيحُ، أيْ: سَكَنَت وهَمدتْ، والّذي يَنامُ مُسْتَغرِقًا يُقال لهُ: ماتَ، إذا نامَ نَومًا عميقًا مُستغرقًا. هذا السّكونُ مشابهٌ لِلمَوْتِ كأنَّ هذا الشَّيءَ الّذي يُفارِقُ جَسَدَ الإنسانَ بِالمفارَقةِ مَوتٌ، والّذي تُوفّي تَقْبِضهُ مَلائكَةُ المَوْتِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (رجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(3) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (وفى).

الوقوفُ يَكونُ بَعدَ حَرَكَةٍ، والقيامُ يَكونُ مِن سُكونٍ أوْ جُلوسٍ

القيامُ والوقوفُ:

لا يَلْزَم مِنَ الوقوفِ القيامُ، بَلِ الوقوفُ هو التَّوَقُّفُ عَنِ الحرَكةِ فيَكونُ من مَسيرٍ أَوْ حَرَكةٍ، أمّا القيامُ فيَكونُ مِنْ جُلوسٍ أَوْ سُكونٍ.

القَبْرُ والجَدَثُ:

الجَدَثُ هو القَبرُ في لُغَةِ هُذَيْل وهو مُفرَدُ أَجْداثٍ، والجَدَث هو قَريبٌ مِن لَفْظِ (الجَدَثة) وهو صوتُ الحافِرِ والخُفّ وغيرِه على الأَرْضِ، وصَوتُ مَضْغِ اللَّحْمِ أيضًا. وربُّنا ﷻ لَم يَسْتعملِ الأَجداثَ إلّا عندما يخْرجونَ مِنَ القَبْرِ سِراعًا كَما قالَ تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: 7]، ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43]، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: 51]، يَنْسِلون يَعْني: يُسرِعونَ، فاسْتعملَ لَفْظَ الأَجْداثِ في خُروجِهِمْ مُسرعينَ، وهذا يُشْبِه صَوتَ الخُفِّ وصوتَ الحافِرِ عِند الرَّكضِ، وهنالكَ أَمرٌ آخَر: أنّ (الجَدَثة) هو مَضْغُ اللَّحْم فالمعنى: يَخرجونَ وقدْ مَضَغَتهمُ الأَرْضُ حَقيقَةً، يَخرجونَ مُسرعينَ وقدْ مَضَغتْهمُ الأرْضُ لَم يَبْقَ مِنْهُمْ شَيْءٌ.

في حينِ لَم يسْتَعملِ القَبْرَ في هذا مُطْلقًا، وإنّما يَسْتَعملُهُ في حالِ السُّكونِ والهمودِ في كُلِّ القُرآنِ كَما في قَوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ [الممتحنة: 13]، وقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: 22]، وقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ [الانفطار: 4] كما تَقول بُعثِرتِ الصّناديقُ، بُعْثِرتِ الحاجاتُ، فلَم يذْكرِ الخُروجَ مِنْها، وكذلكَ قولُهُ: ﴿۞أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [العاديات: 9]. أمّا الأَجْداثُ فقد ذُكِرَ الخُروجُ منها سِراعًا. فاسْتَعْملَ القُبورَ في حالَةِ الهمودِ والسُّكون، والأَجْداثَ في حالَةِ الإخْراجِ والعَدْوِ والسُّرْعَة[1].

(1) فاضل السّامرائيّ، الفرق بين القبر والجدث. من مقالة له في صحيفة: (الراية القطريّة)، عدد الجمعة، بتاريخ 14/1/2022.

﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ٨٥﴾ [التوبة: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَيانُ أَثَرِ حُبِّ المالِ في الإعْراضِ عَنْ آياتِ اللهِ

مُناسَبَةُ ذِكْرِ هَذا الكَلامِ هُنا: أَنَّهُ لَمّا ذَكَرَ ما يَدُلُّ عَلى شَقاوَتِهِمْ في الحَياةِ الآخِرَةِ كانَ ذَلِكَ قَدْ يُثيرُ في نُفوسِ النّاسِ أَنَّ الْمُنافِقينَ حَصَّلوا سَعادَةَ الحَياةِ الدُّنْيا بِكَثْرَةِ الأَمْوالِ والأَوْلادِ وخَسِروا الآخِرَةَ. ورُبَّما كانَ في ذَلِكَ حَيْرَةٌ لِبَعْضِ الْمُسْلِمينَ أَنْ يَقولوا: كَيْفَ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِالأَمْوالِ والأَوْلادِ وهم أَعْداؤُهُ وبُغَضاءُ نَبِيِّهِ؟! ورُبَّما كانَ في ذَلِكَ أَيْضًا مَسْلاةٌ لَهم بَيْنَ الْمُسْلِمينَ، فَأَعْلَمَ اللهُ الْمُسْلِمينَ أَنَّ تِلْكَ الأَمْوالَ والأَوْلادَ وإِنْ كانَتْ في صورَةِ النِّعْمَةِ فَهي لَهم نِقْمَةٌ وعَذابٌ، وأَنَّ اللهَ عَذَّبَهم بِها في الدُّنْيا بِأَنْ سَلَبَهم طُمَأْنينَةَ البالِ عَلَيْها؛ لِأَنَّهم لَمّا اكْتَسَبوا عَداوَةَ الرَّسولِ ﷺ والْمُسْلِمينَ كانوا يَحْذَرونَ أَنْ يُغْرِيَ اللهُ رَسولَهُ بِهِمْ فَيَسْتَأْصِلَهم، وحاصِلُ الْمُناسَبَةِ بَيْنَ الْمُتَأَخِّرِ والْمُتَقَدِّمِ: أَنَّهُ لَمّا كانَ مِن أَقْوى أَسْبابِ إِعْراضِ الْمُنافِقينَ عَنْ آياتِ اللهِ كَثْرَةُ المالِ وطُغْيانُ الغِنى بَيَّنَ سُبْحانَهُ سوءَ عاقِبَةِ المالِ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾: أَصلُ (عَجِبَ) يَدُلُّ عَلَى كِبْرٍ واسْتِكْبارٍ لِلشَّيْءِ، ومنه العُجْبُ، وهو أَنْ يَتَكَبَّرَ الإِنْسانُ في نَفْسِه. تَقولُ: هوَ مُعْجَبٌ بِنَفْسِه[2]. والمُعجَب: الإنسانُ المُعجَب بِنَفسِه أَو بالشَّيْء، تَقول: عجَّبتُ فلانًا بِشَيءٍ تعجيبًا فعجِب مِنْهُ[3]. والعَجَبُ: النَّظَرُ إِلى شيءٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/286.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عجب).

غَيْرِ مألُوفٍ ولا مُعتادٍ، والمقصودُ بالعَجَبِ في الآيَةِ: انفعالٌ يَعْرِضُ لِلنَّفْسِ عِندَ مُشاهدةِ أَمْرٍ غيرِ مألُوفٍ خَفِيَ سَبَبُهُ.

2) ﴿وَتَزۡهَقَ﴾: أصلُ (زهق): يَدُلُّ على تَقَدُّمٍ ومُضيٍّ وتَجاوُزٍ[1]. مِنْ ذلكَ: زَهَقَتْ نفسُه، وهيَ تَزْهَقُ زُهوقًا، أيْ: ذَهَبَتْ، وكلُّ شيءٍ هَلَكَ وبَطَلَ فقد زَهَقَ[2]. وزَهَقَ الباطلُ: إذا غَلَبَهُ الحقُّ[3]. ويُقالُ: زَهَقَ الفَرَسُ أَمامَ الخَيْلِ، وذلكَ إذا سَبَقَها وتَقَدَّمَها. ويُقالُ: زَهَقَ السَّهْمُ، إذا جاوَزَ الهَدَفَ. وَمِنَ البابِ الزَّهَقُ، وهو قَعْرُ الشَّيءِ؛ لأَنَّ الشَّيءَ يَزْهَقُ فيه إذا سَقَطَ، والزَّهوقُ، وهو البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[4]. والمرادُ بالزُّهوقِ في الآيَةِ: الخُروجُ بِشِدَّةٍ وضيقٍ. وقدْ شاعَ ذِكرُه في خُروجِ الرّوحِ مِنَ الجَسَدِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّهْيُ عَنِ اسْتِحْسانِ بَعْضِ مَظاهِرِ المُنافِقِينَ

لا تُفتَتَنْ أَيُّها العاقِلُ بِأَموالِ المنافقينَ الكَثيرَةِ، ولا تَسْتَحْسِنْ أَوْلادَهُمُ الَّذين يَعْتَزّونَ بِهِمْ، ولا يُداخِلْ قَلبَك شَيْءٌ مِنَ الإعجابِ بِما بَيْنَ أَيْديهِمْ مِنْ نِعَمٍ، فإنَّ هذه النِّعَمَ - الَّتي مِن أَعْظَمِها الأَموالُ والأَولادُ - إنَّما يُريدُ اللّٰهُ أنْ يُعذِّبَ المُنافقينَ بِها في حياتِهِمُ الدُّنيا، بِالهُمومِ والغُمومِ، بِأَخْذِ الزَّكاةِ مِنهُم، وبِما أُلْزِموا بالإنفاقِ فيه، وبِما يَعْتَري أموالَهُم وأولادَهمْ مِن مَصائِبَ وتعبٍ في جَمعِ الأَمْوالِ، ووَجَلٍ في حِفظِها، وخوفٍ مِن زَوالِها، وغَيرِ ذلكَ. ويريدُ اللّٰهُ أَنْ تَخرُجَ أرواحُ المُنافِقينَ مِنْ أجسادِهِمْ بشِدَّةٍ وضيقٍ، وهُم مُقيمونَ عَلى كُفرِهِمْ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زهق).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زهق).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (زهق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زهق).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 11/615، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/164، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/163، والسّعديّ، ص: 347، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/372.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

ناسَبَ السِّياقَ هُنا العَطْفُ بِالواوِ، وفي الأُخرى العَطْفُ بالفاءِ

الواوُ في قَوله: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ عاطِفَةٌ، فقَد عَطفَتْ جُملةَ النَّهْي هذه، عَلى جُملَةِ النَّهْيِ السّابِقَةِ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ﴾ فَأصْبَح لَدَيْنا ثَلاثَة أَفْعالٍ مُتَناسِقَةٍ مَسْبوقَةٍ بِنَفْسِ النَّهْيِ هي: ﴿وَلَا تُصَلِّ﴾ ﴿وَلَا تَقُمۡ﴾ ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ "وهذه الأفعالُ بِمُضيِّها وانْقِضائِها، لا تَكونُ شَرْطًا فَتُعقَبَ بِالفاءِ الّتي تَدلُّ عَلى الجَزاءِ، فَعُطفتِ الآيةُ بَعدَها على ما قَبلَها بِالواوِ، لِبُطلانِ المَعنى الّذي يَقْتَضي الفاءَ"[1].

وأمّا الآيَةُ الأُخْرى الوارِدُ فيها العَطْفُ بالفاءِ ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ﴾ [التوبة: 55]؛ فَهو أَنسَبُ، حَيْثُ عَطْفُهُ بِالفاءِ لِمناسَبةِ تَعْقيبِ قَولِه: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: 54] أَيْ: كارِهونَ لِلإنفاقِ، فَهُم مُعْجَبونَ بِكَثْرَةِ الأموالِ والأَوْلادِ فَلِذلكَ نَهاهُ عَنِ الإعْجابِ بِفاءِ التَّعْقيبِ لِهذِه المُناسَبَةِ[2].

صاحِبُ الخِطابِ في: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

سوقُ الخِطابِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ والقَصدُ إلى مُخاطَبَةِ المؤمنينَ

هذا الخِطابُ، وإنْ كانَ في الظّاهِرِ مُخْتَصًّا بِالرَّسولِ ﷺ، إلّا أنَّ المُرادَ مِنْهُ كُلُّ المؤمنينَ، أيْ: لا يَنْبَغي أنْ تُعجَبوا بِأَموالِ هؤلاءِ المُنافِقينَ والكافِرينَ، ولا بِأَولادِهِمْ ولا بِسائِرِ نِعَمِ اللّهِ عَلَيهِم، ونَظيرُهُ قولُهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ [طه: 131][3].

فائدَةُ التَّكرارِ في: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾:

التَّحذيرُ مِنَ الإعجابِ بِكَثرةِ الخَبيثِ

قَد أُعيدَ قَوْلُه: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ لأنّ تجدُّدَ النُّزولِ لَهُ شَأنٌ في تَقريرِ ما نَزَلَ لَهُ وتَأكيدِه، وإرادَةِ أنْ يَكونَ على بالٍ مِنَ المُخاطَبِ لا

---

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/715.
(2) السّمين، الدرّ المصون: 6/94.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/71.

يَنْساهُ ولا يَسْهو عَنْهُ، وأنْ يَعْتَقِدَ أنَّ العَملَ بِهِ مُهِمٌّ يَفْتَقِرُ إلى فَضلِ عِنايَةٍ بِهِ، لا سيَّما إذا تَراخى ما بَيْنَ النُّزولَيْنِ، فَأشْبَهَ الشَّيءَ الّذي أهمَّ صاحِبَهُ، فهوَ يَرْجِع إليهِ في أثْناءِ حَديثِه، ويَتَخَلَّصُ إليهِ، وإنّما أُعيدَ هذا المَعْنى لِقوَّتِه فيما يَجِبُ أنْ يُحذَّرَ منْهُ[1].

وقدْ يُنْظَر إلى المَوضِعَينِ على أنَّهُ لَيْس بَيْنَهما تَكرارٌ بالمَعْنى الّذي قَد يَسْبِقُ إلى الفَهْمِ من لَفْظِ التَّكرارِ، فَقدِ افْتَرَقَتِ الآيَتانِ تَرْكيبًا وسياقًا وبُعدًا زَمَنيًّا في نُزولِ كُلٍّ مِنْهُما. "وإنّ هذا الاخْتِلافَ في الألْفاظِ هو تَصْريفُ القَولِ الّذي هوَ مِنْ أَسْبابِ الإعجازِ البَيانيِّ، كَما قالَ تَعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ [الأنعام: 105]، فهَلْ يُعَدُّ هذا مِنَ التَّكْرارِ؟ نَقولُ: إنَّه يَكونُ مِنَ التَّكرارِ إذا كانَتِ المُناسَبَةُ الّتي ذُكِرتْ فيها الآيَتانِ واحِدَةً، أمّا إذا اخْتَلَفَتِ المُناسَبَةُ، فَإنّها تُغيِّرُ المَقْصودَ، وإذا تَغيّرَ المَقْصودُ لا يَكونُ المَعْنى واحدًا من كُلِّ الوجوهِ"[2].

وقدْ قيلَ: إنَّهُ أَرادَ بالآيَةِ الأولى قَومًا مِنَ المنافِقينَ كانَ لَهُم أمْوالٌ وأوْلادٌ عِندَ نُزولِها، وبالآيَةِ الأُخْرى أقْوامًا آخَرينَ مِنْهُم[3].

إيثارُ لَفْظِ العجبِ دونَ غَيرِه:

قَد تَستَحسِنُ العَينُ شَيئًا يُستَدرَجُ بِهِ صاحِبُهُ

أوثِرَ لَفْظُ الإعجابِ في الآيَةِ دونَ غَيرِه، لأنَّ وَصفَ العَجيبِ يُقال لِما لَم يُعْهَد مِثْلُهُ[4]، وفيهِ معْنى الاسْتِحْسانِ المَشُوبِ بالاسْتِغرابِ والسُّرورِ مِنَ المَرْئيِّ[5] وعَلَيْه، فَإيثارُ لَفْظِ الإعْجابِ هُنا؛ لأنَّ اعتِقادَ المُعْجَبِ بالشَّيْءِ أنَّ الشَّيْءَ طَريفٌ مُخالِفٌ لِلمَعْهودِ في بابِه[6].

الجَمْعُ بَيْنَ النَّهي عَنِ الإعْجابِ هُنا وإثْباتِهِ في سورَةِ المنافقينَ:

قَدْ يُعجِبُكَ المَظْهَرُ، فَلا يَغُرَّنَّكَ ما هُمْ فيهِ مِنْ أَمْوالٍ وأَوْلادٍ

في قولِه تَعالى: ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: 4]

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/299.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3401.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 2/393.
(4) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات، ص: 547.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (عجب).

أَثْبَتَ القُرآنُ أنّ المنافقينَ أحْسَنُ النّاسِ أجْسامًا؛ وأخْلَبُهم لِسانًا، وألْطَفُهم بَيانًا لِحُسْنِ مَنطِقِهِمْ وفَصاحَةِ كَلامِهِمْ؛ فالإعْجابُ في سورة (المنافقون) عَلى مُقْتَضى المَظاهِرِ؛ ولكنْ - في الواقِع - المنافقونَ أخْبَثُ النّاسِ قُلوبًا، وأضْعَفُهُم جَنانًا بما قَرَّرَهُ الشّرْعُ من أنّ مَظاهِرَهُم تُناقِضُ مَخابِرَهُم[1]، فَلا تَعارُضَ بَيْنَ إثْباتِ العجب هُناك، ونَفْيِهِ هُنا؛ لأنّ الجِهَةَ مُنْفَكَّةٌ؛ إذِ الإعْجابُ بِالمَظْهَرِ هناكَ خَبَرٌ يُرادُ مِنْهُ التَّحْذيرُ مِن حَقيقَتِهِمُ الفاسِدَةِ؛ لِدَفْعِ إيهامِ مَنْ يَغُرُّهُ ظاهِرُ صوَرِهِمْ.

ولِذا أُتْبِعَ انْتِفاءُ فِقْهِ عُقولِهِمْ بِالتَّنْبيهِ عَلَى عَدَمِ الاغْتِرارِ بِحُسْنِ صوَرِهِمْ، فَإنَّها أجْسامٌ خالِيَةٌ عَنْ كَمالِ الأَنْفُسِ[2].

سِرُّ تَقديمِ الأمْوالِ عَلى الأوْلادِ:

تَقْديمُ المَفْضول عَـلى الـفـاضِـلِ ضَرُورَة

قدّمَ الأمْوالَ عَلى الأوْلادِ؛ لأنَّ الأَموالَ تُلْهي أَكْثَرَ مِنَ الأَوْلادِ، فَإنَّ الانْشغالَ بها وبِتَنْميَتِها يَسْتَدعي وَقتًا طويلًا، وقَدْ يَنْشَغِلُ المَرْءُ بها عَنْ أَهْلِهِ، فَلا يَراهُمْ إلّا لِمامًا؛ فَقدّمَ الأَموالَ لِذلِكَ، أيْ: قدّمَ المَفْضول عَلى الفاضِلِ، فالأَوْلادُ أَفْضَلُ مِنَ الأَموالِ، لأنّ المالَ إنّما يَكونُ في خِدْمَتِهِمْ ويُتركُ لَهُم[3].

وهذا التَّرْتيبُ يَسْلُك مَنْهَجَ التَّرَقّي فَيَبْتَدِئُ بالأدنى ثُمّ يَتَرَقّى إلى الأَشْرَفِ، ولا شَكَّ أنّ الأوْلادَ أَشْرَفُ مِنَ الأمْوالِ، بَلِ الأَمْوالُ تُجمَعُ لِأَجْلِهِمْ، وقد تُسْتَباحُ الحُرُماتُ في سَبيلِ تَحْصيلِها لَهُمْ.

السِّرُّ في عَدَمِ إعادَةِ (لا النّافيَة) هُنا:

ذِكْرُ الأَوْلادِ اسْتِطْرادًا وتَكْمِلَةً لَيسَ كَذِكْرِهِمْ أصالَةً وأُسْوَةً بِالأَمْوالِ بِاعْتِبارِ النَّفْي

السِّرُّ في عَطْفِ الأوْلادِ عَلى الأَمْوالِ دونَ إعادَةِ لا النّافيَة هنا، وتَكْرارِها في قَولِه: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ [التوبة: 55] راجعٌ

(1) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 1/361.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/238.
(3) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة من نصوص التّنزيل، ص: 181.

إلى اخْتلافِ السِّياقِ بَيْنَ الآيَتَيْنِ؛ إذْ جاءَتِ الأولى في سياقِ القِتالِ والجِهادِ، أمّا الثّانِيَةُ فَهيَ في سياقِ الأمْوالِ والإنْفاقِ.

وذِكْر الأَوْلادِ في [الآيَة: 55] كان لُمجَرَّدِ التَّكْملَةِ والاسْتِطْراد؛ إذِ المَقامُ مَقامُ ذَمِّ أمْوالِهِمْ إذْ لَمْ يَنْتَفِعوا بها، فَلَمَّا كانَ ذِكْرُ الأَوْلادِ تَكْمِلَةً كانَ شَبيهًا بالأَمْرِ المُسْتَقِلِّ فَأُعيدَ حَرْفُ النَّفْيِ في عَطْفِهِم، بِخِلافِ مَقامِ هَذِهِ الآيَةِ فَإِنَّ أَمْوالَهُمْ وَأوْلادَهُمْ مَعًا مَقْصودٌ تَحْقيرُهُما في نَظَرِ المُسْلِمينَ[1].

فائدَةُ صيغَةِ الجَمْعِ في الأموالِ والأوْلادِ:

إيرادُ صيغَةِ الجَمْعِ في الأمْوالِ والأوْلادِ لاسْتيعابِ مُفْرَداتِها التَّصَوُّرِيَّةِ

صيغَةُ الجَمْعِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ﴾ مُؤَدّيَةٌ لِلمَعاني كُلِّها؛ لِأنَّ مِنْهُم مَنْ لَهُ مالٌ يَعتزّ بِهِ، ومِنهُمْ مَن لَهُ أَولادٌ كَثيرونَ هُم عِزَوَتُه، ومِنهُمْ مَن لهُ المالُ والوَلَدُ، لِذلكَ جاءَ القولُ بِصيغَةِ الجَمْعِ لِيَشْمَلَ مَن عِندهُ مالٌ فَقط، ومَن عِنْدَهُ أَوْلادٌ فقط، ومَن عِنْدهُ المالُ والولَدُ[2].

عِلَّةُ الفَصْلِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ﴾:

تَعليلُ أحكامِ اللهِ مُحالٌ

قَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم﴾ اسْتِئْنافٌ مُقَرِّرٌ ومُنَبِّهٌ عَلى أنَّ التَّعْليلَ في أحْكامِ اللّه تَعالى مُحالٌ، وأمّا عَنْ ورودِهِ باللّامِ في قَولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [التوبة: 55] فاللّامُ فيهِ لَيْستْ لِلتَّعليلِ، ولَكِنَّها في مَعْنى (أنْ) وذلكَ أنَّهُ أيْنَما ورَدَ حَرْفُ التَّعْليلِ فَمَعْناهُ (أنْ) كَقَوْلِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة: 5]، أيْ: وما أُمِروا إلّا أنْ يَعْبُدوا اللّه[3].

دلالَةُ التّأكيدِ بـ(إنّ)، وفائدَةُ (ما) الكافَّة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

حَشْدُ المُؤَكِّداتِ لِتَثْبيتِ المَعاني وحَصْرِها

(إنَّ) تُفيدُ تَوْكيدَ الكَلامِ، و(ما) الكافَّةُ تُقوّي هذا التَّوكيدَ، وتُثْبِتُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/287.
(2) الشّعراوي، تفسير الشعراوي: 9/5399.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/117.

مَعنى الكلامِ، فتُفيد ثبوتَ ذلك المَعنى المَذكورِ في اللَّفظِ خاصَّةً ثُبوتًا لا يُشاركهُ فيهِ غيرُهُ؛ أمَّا على قولِ الجمهورِ فإنَّ "ما" هي الكافَّةُ الّتي إذا دَخلتْ على "إنَّ " أفادَتِ الحصْرَ، هذا هو الصحيحُ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالإرادَةِ، وإسْنادِها إلى اسْمِ الجَلالَةِ:

تَعليقُ الأشْياءِ كُلِّها بِإرادَةِ اللهِ تَعالى

عَبّر البَيانُ القُرآنيُّ بـ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾؛ لِلدّلالَةِ على أنّهُ يوقِعُ الإرادَةَ لَهمْ بِها المَلِكُ الّذي لَهُ الإحاطَةُ بِجَميعِ الحِكْمَةِ كَما أنَّ لَهُ الإحاطَةَ بِتَمامِ القُدْرَةِ[2].

دلالَةُ صيغَةِ المضارِعِ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾:

القَصْدُ إلى تَجديدِ العَذابِ وتَنويعِهِ بِدلالَةِ المضارِعِ

عُبِّر بِصيغَةِ المضارِعِ هُنا للدّلالَةِ عَلى تَجدُّدِ العذابِ واسْتِمرارِهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الجَلالَةِ الكَريمِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عبّرَ القُرآنُ بالاسْمِ الجليلِ لِتَخويفِهِم وتَرْبِيَةِ المَهابَةِ في قُلوبِهِمْ عَسى أنْ يَنْتَبِهوا ويُفيقوا

أوثِرَ لَفْظُ اسْمِ الجَلالة الكَريم ﴿ٱللَّهُ﴾ دونَ لَفْظِ (الرّبّ)؛ لأنَّ الآيَةَ ذُكرتْ في مَقامِ التَّخويفِ الشّديدِ وفي مَقامِ التّكليفِ والتّهْديدِ، فتَناسَبَ ذِكرُ اسْمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مَعَها، أمّا كَلِمَةُ (الرّبّ) فتَأتي بِصفةِ المالِكِ والسَّيِّدِ والمُربّي والهادي والمُرشِدِ والمُعلِّم، وتَأتي عندَ ذِكرِ فَضلِ اللهِ على النّاسِ جميعًا مؤمنينَ وغيرَ مؤمنين فهو سُبحانه المتفضّلُ عَليهِم والّذي أنْشأهم وأوجَدَهم مِن عَدمٍ وأنْعَم عَليهِمْ[3].

المتشابِهُ اللَّفظيّ:

ذِكْرُ الألْفاظِ وسِياقاتِها بِحَسبِ مَقاماتِها

جاء التَّعبيرُ هُنا بِقَوله: ﴿أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ وهُناك بِقَوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: 55]، ونُكْتَةُ إضافة الحياة في الآيَة السّالِفَة هي أنّها ذَكَرَتْ حالَةَ أَمْوالِهِمْ في حَياتِهِمْ، فكانت هناك حاجةٌ إلى ذكر الحياة. وهُنا ذُكِرَتْ حالَةُ أَمْوالِهِمْ بَعْدَ مَماتِهِمْ لِقَوْلِه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ فَقَدْ صاروا إلى حَياةٍ

(1) ابن رجب الحنبليّ، التّفسير: 2/109 - 110.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/500.
(3) السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 586.

أُخْرى وانْقَطَعَتْ حَياتُهُمُ الدُّنْيا وأصْبَحَتْ حَديثًا فلم تكن حاجةٌ إلى ذكر الحياة هنا[1]:

دلالَةُ باءِ السَّبَبيَّةِ في: ﴿يُعَذِّبَهُم بِهَا﴾:

تَعذيبُ المنافقينَ بِما شَأنُهُ أنْ يَكونَ سَببًا لِنَعيمِهِمْ

بَيانُ ذلكَ: أنَّ اللّه كَشَفَ سِرًّا مِن أسْرارِ نُفوسِ المُنافِقينَ، بأنَّهُ خَلَقَ في نُفوسِهِمْ شُحًّا وحِرْصًا عَلى المالِ وفِتْنَةً بِتَوْفيرِهِ والإشْفاقِ مِن ضَياعِهِ، فَجَعَلَهم بِسَبَبِ ذَلِكَ في عَناءٍ وعَذابٍ مِن جَرّاءِ أمْوالِهِمْ، فَهم في كَبَدٍ مِن جَمْعِها. وفي خَوْفٍ عَلَيْها مِنَ النُّقْصانِ، وفي ألَمٍ مِن إنْفاقِ ما يُلْجِئُهُمُ الحالُ إلى إنْفاقِهِ مِنها، فَقَدْ أرادَ اللّه تَعْذيبَهم في الدُّنْيا بِما شَأْنُهُ أنْ يَكونَ سَبَبَ نَعيمٍ وراحَةٍ، وتَمَّ مُرادُهُ. وهَذا مِن أشَدِّ العُقوباتِ الدُّنْيَويَّةِ وهَذا شَأْنُ البُخَلاءِ وأهْلِ الشُّحِّ مُطْلَقًا[2].

تَوجيهُ التَّعبيرِ بِـ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾:

قَدْ يُغْني ذِكْرُ الصِّفَةِ عَنِ الموصوفِ بِما هو مَعهودٌ

أمّا قولُهُ تعالى في الآيَةِ الأولى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فَقد جَعلَ (الدُّنيا) صِفَةً لِلحياةِ، وقالَ في هذه الآيَةِ: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ فَأغْنى بذِكرِ الصِّفَةِ عَن ذِكرِ الموصوفِ؛ لأنَّ الثّانية لّما كانَتْ بَعد الأولى، وقد نبَّهَ في الأولى عَلى الموصوفِ، كانَ في ذِكرِهِ هُناك غنًى عَن ذِكرِهِ في هذا المكانِ، لا سيّما والدُّنيا كاسْمٍ عَلَمٍ لِلحياةِ الأولى ولِلدّارِ الدُّنيا، فَأغْنى كُلّ ذلك عنْ ذِكرِ الحياةِ، والإتيانِ بالمَوصوفِ هنا، وهذهِ حالُ الصِّفَةِ[3].

إهْمالُ لَفْظِ (الحَياةِ) والاقْتِصارُ عَلى لَفْظَةِ (الدُّنيا) لِلدّلالَةِ عَلى خِسَّتِها

وقد يَكونُ الفرْقُ في كَونِهِ ذَكَرَ في الآيَةِ الأولى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، وهَهُنا ذَكَر ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ وأسْقَطَ لَفظَ الحَياةِ؛ تَنْبيهًا عَلى أنَّ الحَياةَ الدُّنْيا بَلَغَتْ في الخِسَّةِ إلى أنّها لا تَسْتَحِقُّ أنْ تُسَمّى حَياةً، بَلْ يَجِبُ الاقْتِصارُ عِنْدَ ذِكْرِها عَلى لَفْظِ الدُّنْيا؛ تَنْبيهًا عَلى كَمالِ دَناءَتِها[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 10/287.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/228.
(3) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغرّة التّأويل: 2/718.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/117.

عَطفُ جُملة (وتَزهَق) على جُملَةِ (يُعذّبُهم) يَستغرِقُ التَّعذيبَ بالأمْوالِ والأوْلادِ

دلالَةُ الواوِ في ﴿وَتَزۡهَقَ﴾:

الواوُ في الآيةِ لِعَطفِ جُملة ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ على ﴿يُعَذِّبَهُم﴾ باعْتِبارِ كَوْنِه أرادَهُ اللّه لَهم عِنْدَما رَزَقَهُمُ الأمْوالَ والأوْلادَ، فيُعْلَم مِنهُ: أنَّهُ أرادَ مَوْتَهم عَلى الكُفْرِ، فيَسْتَغْرِقُ التَّعْذيبُ بِأمْوالِهِمْ وأوْلادِهِمْ حَياتَهم كُلَّها؛ لِأنَّهم لَوْ آمَنوا في جُزْءٍ مِن آخِرِ حَياتِهِمْ لَحَصَلَ لَهم في ذَلِكَ الزَّمَنِ انْتِفاعٌ ما بِأمْوالِهِمْ ولَوْ مَعَ الشُّحِّ[1].

التعبير بزُهوق النَّفْس لِلدّلالَةِ على شِدّةِ خروجها

إيثارُ لَفْظِ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾:

أوثِرَ لَفظُ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ لِلدّلالَةِ على خروجِ أرواحِهِمْ بِشِدَّةٍ وضيقٍ؛ والظّاهِرُ: أنَّ زُهوقَ النَّفْسِ هُنا كِنايَةٌ عَنِ المَوْتِ. قالَ ابْنُ عَطيَّةَ: ويُحْتَمَلُ أنْ يُريدَ: وتَزْهَقَ أنْفُسُهم مِن شِدَّةِ التَّعْذيبِ الَّذي يَنالُهم[2].

أُسنِدَ الفِعلُ (وتَزهَق) إلى الأنفس على سَبيلِ (المجازِ العَقليِّ)

فائدَةُ إسنادِ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ إلى ﴿أَنفُسُهُمۡ﴾:

أُسْنِد الإزهاقُ إلى الأَنْفُس على سبيلِ المجازِ العَقليِّ؛ وكَأَنّ الأَنْفُس هيَ الّتي سَعَت إلى أنْ تَزْهق وعانَتْهُ من أجْلِ التَّخلُّص من عذابِ الدُّنيا الّذي أَرادَهُ اللّهُ لَهُم، إمّا بِسَببِ أَموالِهِمْ وأَوْلادِهمْ والانْشغالِ بِهِمْ إلى حدَّ الهَمِّ الّذي يُكدِّرُ الصَّفْوَ ويُعَكِّرُ الأَمْزِجَة، وإمّا بِسَبب هموم أُخرى يُلْقيها اللّهُ عَلَيهم لِبُعْدهِمْ عَن نَعيم الطّاعةِ وجَنَّة القُرْبِ منْهُ سُبحانهُ، أوْ لِهذا كُلّه جميعًا ولِغَيره أيضًا، عندَئذٍ تَسْعى النَّفْس إلى المَوتِ وتَطْلُبهُ؛ ظنًّا منها أنَّ فيهِ الخلاصَ، كَما في قَول القائل:

أَلا مَوْتٌ يُباعُ فَأَشْتَريهِ *** فَهَذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فيهِ

ويُساعِدُ على هذا الفهْم ما في كَلِمةِ ﴿وَتَزۡهَقَ﴾ من دلالَة عَلى مَعنى المُعاناةِ، فيُقال: "زَهَقَتْ نفسُهُ: خَرجتْ مِنَ الأَسَفِ عَلى الشَّيْءِ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/437.

(3) الرّاغب، المفردات: (زهق).

ويَجوزُ أَنْ يَكونَ هذا الإِسْنادُ لِلدّلالةِ على أنّ المنافقينَ يَموتون على الكُفْرِ لِاشْتِغالِهِمْ بِالتَّمَتُّعِ بِالدّنيا والِالتِهاءِ عَنِ النَّظَرِ والتَّدَبُّرِ في العَواقِبِ[1]، حتّى إنّ نفوسَهُم تَزْهَق على هذه الحالَةِ مِنَ الانْشِغالِ عَنِ الموتِ، فَتَبدو لِعَدمِ الاعْتناءِ بِهِ وكَأنّها هي الّتي طَلَبَتْهُ.

مُناقَشَةُ دَعْوى التَّقديمِ والتَّأخيرِ في النَّظْمِ الكَريمِ:

الاتِّســاقُ في تَحْصيلِ مَعاني الـقُـرآنِ عَلى مُقْتَضى التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ

بَنى بَعضُ المُفسِّرينَ الآيَةَ ونَظيرتَها في نَفْسِ السُّورَةِ على التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ، فذَكروا أنَّ قولَهُ سُبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 55]. وقولَه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة 85] الأصلُ فيهما: (ولا تُعجبْكَ أموالهُم وأولادُهم في الدّنيا، إنّما يريدُ اللّهُ أنْ يعذّبهم بها في الآخرة)[2].

لَكنَّ القَوْلَ بِالتَّقديمِ والتَّأخيرِ دَعا القائلينَ بِهِ إلى تَقْديرِ مَحْذوفٍ يَلْتَئِمُ بِهِ الكَلامُ، حتّى يَظْهَرَ سِرُّ كَونِ الأَموالِ والأَوْلادِ عَذابًا لَهُم في الآخِرَة؛ أيْ: سَبَبًا في هذا العَذابِ.

وإذا قُدِّر هذا المَحْذوفُ لَم تَبْقَ فائدَةٌ لِلقَولِ بِالتَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ "لِأَنَّهُ يَصحّ أنْ يُقال: (يُريد اللّهُ أنْ يُعذِّبهم بها في الدُّنيا مِن حيْث كانَتْ سببًا لِلعذابِ)"[3]، فيُغْني تَقديرُ المَحذوفِ عَنِ القَولِ بِالتَّقديمِ والتَّأخيرِ.

كيفَ يُعذَّبُ المُنافِقُ بِمالِهِ ووَلَدِهِ في الدُّنيا؟

تَعْذيبُ المُنافقينَ بِالأَموالِ والأَوْلادِ مِن حَيْث الجَمْعُ والحِفْظُ والقِيامُ عَليها

"سَبَبُ كَونِ المالِ والوَلَدِ عَذابًا في الدُّنيا هو ما يَحصلُ مِنَ المَتاعِبِ والمَشاقِّ في تَحصيلِهما، فَإذا حُصِّلا ازْدادَ التَّعَبُ وتَحمُّلُ المشاقِّ في حِفْظهما، ويَزدادُ الحُزنُ والغَمُّ بِسَبَبِ المصائِبِ الواقِعَةِ فيهما"[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/90.
(2) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 131.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/72.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/371.

عَجيبُ تَزْكيَةِ ومُجاهَدَةِ المُنافقين:

وَجْهٌ آخَرُ في تَصْويرِ تَعْذيبِ المُنافِقينَ بِالأمْوالِ والأوْلادِ

قيل: تَعْذيبُهم في الدُّنْيا بالأمْوالِ لأخْذِ الزَّكاةِ منهم والنَّفَقَةِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى مَعَ عَدَمِ اعْتِقادِهِمُ الثَّوابَ عَلى ذَلِكَ، وتَعْذيبُهم فيها بِالأوْلادِ أنَّهم قَدْ يُقْتَلونَ في الغَزْوِ، فَيَجْزَعونَ لِذَلِكَ أشَدَّ الجَزَعِ، حَيْثُ لا يَعْتَقِدونَ شَهادَتَهم وأنَّهم أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقونَ، وأنَّ الاِجْتِماعَ بِهِمْ قَريبٌ، ولا كَذَلِكَ المُؤْمِنونَ فيما ذُكِرَ[1].

هَلِ العَذابُ بِالأمْوالِ والأوْلادِ في الدُّنْيا خاصٌّ بِالمنافقينَ؟

أورِد على هذا القولِ: أنّ هذا التَّعذيبَ حاصِلٌ لِكلِّ أحَدٍ مِن بني آدَمَ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهِمْ، فَما فائِدَةُ تَخْصيصِ المنافقينَ بهذا التَّعذيبِ في الدُّنيا؟

وأُجيبَ عَن هذا الإيرادِ: بِأنَّ المنافقينَ مَخصوصونَ بِزيادَةٍ مِن هذا العَذابِ؛ وهو أنَّ المؤمنَ قَد عَلِمَ أنّهُ مَخلوقٌ لِلآخِرَةِ، ويعتقدُ أنَّهُ يُثابُ بِالمصائِبِ الحاصِلَةِ لهُ في الدُّنيا فَلَم يَكُنِ المالُ والولَدُ في حَقِّهِ عَذابًا في الدُّنيا. وأمّا المنافِقُ؛ فإنّهُ لا يَعْتَقِدُ كَونَ الآخرَةِ لَهُ، وأنّهُ لَيْسَ فيها ثَوابٌ، فَبقِيَ ما يَحصلُ لَهُ في الدُّنيا مِنَ التَّعَبِ والشِّدَّةِ والغَمِّ والحزنِ على المالِ والوَلَدِ عذابًا عَليهِ في الدُّنيا، فَثَبَتَ بِهذا الاعْتِبارِ أنَّ المالَ والوَلَدَ عَذابٌ عَلى المنافقينَ في الدُّنيا دونَ المؤمنينَ[2].

السِّرُّ وراءَ ذِكْرِ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ وحَذْفِ (الآخِرَة):

مُناسَبَةُ مَذَمَّةِ المُنافِقينَ في الدُّنيا

ذِكْرُ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ دونَ (الآخرة) تأكيدٌ على مآلِ هؤلاءِ المنافقينَ مِن كلِّ ذلكَ المتاعِ مِنَ الأَموالِ والأوْلادِ، وأنَّ ما هُمْ فيهِ ما هُوَ إلّا مَتاعٌ مؤَقَّتٌ في دارِ الدّنيا، ولَيس مَحلَّ إعْجابٍ.

ولَم تُذْكرِ الآخِرَةُ؛ لأنّ سياقَ الآيَةِ في مذَمّة حالِ المنافقينَ في فَسادِ عَقيدَتِهِمْ، وعَدمِ إغْناءِ دُنياهمْ عَنْهم مِنَ اللهِ شيئًا.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/308.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/371.

الفِسْقُ خُروجٌ عَنِ الإيمانِ بَعْدَ التَّلَبُّسِ بِهِ

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بِالكُفْرِ هُنا وبِالفِسْقِ في الآيَةِ السّابقةِ:

أوثِرَ التَّعْبيرُ عَنِ المنافقينَ بِالكُفْرِ هُنا، وبِالفِسْقِ في الآيةِ السّابقةِ؛ لأنَّ جُمْلَةَ ﴿وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 84] مَعْطوفَةٌ عَلى عِلّةِ نَهْيِهِ عَنِ الصَّلاةِ عَلَيْهِمْ في قَوْلِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وقَدْ ذكرَ فيها لَفْظ الكُفْرِ، والفِسْقُ هُنا الخُروجُ عَنِ الإيمانِ بَعْدَ التَّلَبُّسِ بِهِ، أَيْ: بِصورَةِ الإيمانِ، فَيَكونُ المُرادُ مِنَ الفِسْقِ مَعْنًى أَشْنَعَ مِنَ الكُفْرِ[1]، وهو أَنْسبُ لِتَجْلِيَةِ عِلّةِ النَّهْيِ.

والتَّعبيرُ بِالكُفرِ في قَوله: ﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّ جُمْلَةَ: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ في مَوْضِعِ الحالِ مِنَ الضَّميرِ المُضافِ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ إذا زَهَقَتِ النَّفْسُ في حالِ الكُفْرِ فَقَدْ ماتَ كافِرًا[2]. وجمعَ بَيْنَهُما لِلزّيادَةِ في تَقْبيحِ أَمْرِهِمْ وتَحْقيرِ شَأْنِهِم؛ فَهُم لَم يَكْتَفوا بِالكُفْرِ وَحْدَه، وإنما أَضافوا إِلَيهِ الفِسْقَ، وهو الخُروجُ عَن كلِّ قولٍ طيِّبٍ وخُلقٍ حَسنٍ وفِعلٍ كَريمٍ[3].

كَشْفُ طَوِيَّةِ المنافقينَ وبَيانُ حُكْمِهِمْ لَو ماتوا عَلى ذلكَ

سِرُّ اخْتِصاصِ سورَةِ التَّوبَةِ بِورودِ: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾:

ورَدَ قَوله: ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ في سورَةِ التَّوبَةِ دونَ غيرِها مِن سوَرِ القُرآنِ الكَريمِ، في ثَلاثَةِ مواضِعَ:

الأوّل في قَوْلِه: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 55]

والثّاني في قَوله: ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 85].

والثالث في قَوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 125].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/285.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/371.

ونَلحظُ في المواضعِ الثّلاثةِ أنَّ جُملَةَ ﴿وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وقَعتْ حالًا؛ فهو حالُ المنافقينَ عند زُهوقِ أَنْفُسِهم ومَوتِهم، وفيهِ وَعيدٌ شَديدٌ لَهُم، لا يَكاد يَحْتَمِلُهُ أَحدٌ.

واخْتِصاصُ سورَةِ التّوبَة بورودِ ذلكَ؛ لِما فيهِ مِن بَيانِ حَقيقةِ هؤلاءِ المنافقينَ الّذينَ أضَرّوا بالمُسلمينَ، وما يَضرّونَ إلّا بِأَنْفُسهِمْ، وهُم لا يَشعرونَ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العجبُ والحُبُّ:

المَحَبَّةُ تَستلزِمُ الإعجابَ، أمّا الإعْجابُ فَقد لا تَصْحَبُهُ المَحَبَّةُ

العجبُ بالشَّيْءِ: شِدَّةُ السُّرورِ بِهِ حَتَّى لا يُعادلهُ شَيْءٌ عِنْد صاحبِه، تَقول: هوَ مُعجبٌ بفلانَة؛ إذا كانَ شَديدَ السُّرورِ بها، وَهوَ مُعجَبٌ بِنَفسِهِ؛ إذا كانَ مَسْرورًا بِخِصالها، وَلِهَذا يُقال: أَعْجَبهُ، كَما يُقال: سُرَّ بِهِ، فَلَيس العجبُ مِنَ الكِبْرِ في شَيْءٍ[1]، والإعْجابُ اسْتِحْسانٌ مَشوبٌ بِاسْتِغْرابٍ وَسُرورٍ مِنَ المَرْئِيِّ[2].

وأصْلُ المحبّةِ المَيْلُ لِما يُوافِقُ المحبوب[3]، والمحبّة: إرادَةُ ما تَراهُ أَوْ تَظنُّه خيراً[4]، والحُبّ يَدلّ على التَّجمُّعِ والتَّلازُمِ؛ إِذْ هو تعلُّقُ القَلبِ بالمحبوبِ، وملازَمَتُه إياهُ ماديًّا أَوْ فكريًّا[5]، والنَّهيُ عَنِ الإعجابِ هُنا هو الأَنْسَبُ لِلآيَةِ الكريمة؛ لِقَطْعِ طَريقِ الاسْتِحْسانِ؛ حتّى لا يَصِل إلى مَرْحلةِ الحُبّ والإرادَةِ.

والّذي يُمكِنُ اسْتنتاجُهُ من عَرْضِ المَعْنَيَين: أَنّ المَحبَّة تَسْتَلزِم الإعْجابَ، أمّا الإعْجابُ فَقد لا تَصْحَبُهُ المَحَبَّةُ؛ لأنَّ مُعتَمدَهُ الانْبِهارُ بِالشَّيءِ، وهو غَيرُ مُسْتَلزِمٍ لِمَحَبَّتِه.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 248.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/229.
(3) كما ذكره القاضي عياض.
(4) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (حب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حب).

(يُريد)، و(يَطْلبُ):

الإرادَةُ - على أحَد الاعْتبارات - مُلْزِمَةٌ باعتبارِها مَشيئَةً، وقدْ يَعتري الطّلَبَ التَّخَلُّفُ. وعَليه: فإنّ الألْيَقَ بالآيَةِ إيرادُ مُصْطَلحِ الإرادَةِ؛ حتَّى لا يَتَخَلَّفَ ما قَضاهُ اللّهُ ﷻ في حقِّ المنافقينَ.

كلُّ طَلَبٍ إرادَةٌ، ولَيسَت كُلُّ إرادَةٍ طلبًا

(تَزهق)، (تَخرج)، (تَهلك):

الزّهوقُ: الخُروجُ بِشِدَّةٍ وضيقٍ. وقدْ شاعَ ذِكرهُ في خُروجِ الرّوحِ من الجَسَدِ. والزّهوقُ هو الخروجُ بِصعوبَةٍ. فالفَرْق يَتَخرَّج عَلى أنَّ الخروجَ تَسْتوي فيهِ الشِّدَّة والسُّهولَةُ، أمّا الزّهوقُ فهو الخروجُ بِشِدّةٍ وضيقٍ؛ ويُحملُ الهَلاكُ على المَوتِ لِلإنْسانِ والفَناءِ لِلأشياءِ[1].

فالخُروجُ أَعَمّ مُطلقًا، والزّهوقُ أَخَصّ مُطلقًا، والهَلاكُ أعمّ من وَجهٍ وأَخصّ من وَجهٍ آخَر.

الزُّهوقُ خُروجُ رُوحٍ مَخصُوص

الفِسْقُ والكُفْرُ:

الفِسْق: خُروجٌ عَن الطّاعةِ وتَظاهُرٌ بالمعاصي وإصْرارٌ عَلَيها، وأمّا الكُفْر فهو جُحودٌ لا يُؤمِنُ صاحِبُهُ باللّهِ، أوْ لا يُؤمِنُ برَسولِه ﷺ. وعَليهِ فالفِسْقُ أَعَمّ مِنَ الكُفرِ، فَكُلّ كُفْرٍ فِسْقٌ، ولَيسَ كُلّ فِسْقٍ كُفْرًا.

الفِسْقُ أَعَمُّ مِنَ الكُفْرِ

الإرادَةُ والمشيئَةُ:

الإرادَةُ: هيَ العَزمُ على الفِعْلِ أوِ التَّرْك بَعدَ تَصوُّرِ الغايَةِ المُتَرَتِّبَةِ عَليهِ مِن خَيرٍ، أوْ نَفْعٍ، أو لَذَّة ونَحوِ ذلك، وهي أخصّ مِنَ المشيئَةِ بهذا الاعتبارِ، لأنَّ المشيئَةَ ابتِداءُ العَزمِ على الفِعلِ، فَنِسْبتها إلى الإرادَةِ نِسْبَةُ الضَّعفِ إلى القُوَّة، والظَّنِّ إلى الجَزم، فَإنّكَ ربّما شِئتَ شيئًا ولا تريدُهُ، لمانِعٍ عَقْليٍّ أوْ شَرْعيٍّ، وأمّا الإرادَةُ فَمَتى حَصلَتْ صَدَرَ الفِعلُ لا مَحالَةَ، وقد يُطْلق كُلٌّ مِنْهما عَلى الآخَرِ تَوسُّعًا[2].

الإرادَةُ أَعَمُّ مِنَ المَشيئَةِ باعتبار

كَما أنَّ الإرادَةَ تَكونُ لِما يَتراخى وَقتُهُ ولِما لا يَتراخى، والمشيئَةُ لِما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/37.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة، ص: 35.

لَم يَتراخ وَقتُهُ، وبهذا الاعتبارِ تكونُ الإرادةُ أعمَّ من المشيئةِ والشّاهِد أنَّك تَقول: فَعَلت كَذا شاءَ زيدٌ أَوَ أَبَى، فيُقابلُ بِها إباه، وذلكَ إنَّما يَكون عِند مُحاولَةِ الفِعلِ، وكذلكَ مَشيئَتُهُ إنّما تَكون بَدلًا مِن ذلك في حالِهِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة، ص: 35.

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٨٦﴾

[التّوبة: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللّهُ سُبحانه أنَّ المنافقينَ رَكبوا الحيَلَ والْتَمسوا المعاذيرَ لِلتَّخلُّفِ عَن رَسولِ اللّهِ ﷺ، والقعودِ عَنِ الغزْو، قفَّى عَلى ذلكَ بِذكْرِ دَقيقَةٍ أُخْرى أَبانَ فيها أنَّه إذا أُنْزِلتْ سورَةٌ فيها أَمْرٌ بالإيمانِ والجهادِ مَع الرَّسولِ ﷺ، اسْتأذَن أولو الثَّرْوةِ والقُدْرَةِ منهُمْ في التَّخلُّفِ عَنِ الغزْو، وقالوا لِرَسولِ اللّهِ ﷺ: دَعْنا نَكُنْ مَع الضُّعَفاءِ والزَّمْنى العاجِزينَ عَنِ القِتالِ، والسّاكِنينَ في البَلَدِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُورَةٌ﴾: أَصلُ كلِمةِ السُّورَةِ مِنَ السَّوْرِ، وهو العُلُوُّ والارْتِفاعُ، يُقالُ: سارَ يَسُورُ سَوْرًا، أَيْ: عَلا وارْتَفَعَ[2]. والسُّورَةُ: المَنْزِلَةُ والرِّفْعَةُ[3]، تقولُ: كانَتْ لَهُمْ سُورَةٌ جليلَةٌ، أَيْ: مَنْزِلَةٌ، والجَمْعُ: سوَرٌ، وَمِنْهُ سورَةُ القُرْآنِ لِأَنَّها مَنْزِلَةٌ بَعْدَ مَنْزِلَةٍ[4]، وَيَأْتي السّوْرُ بِمَعْنَى: الإحاطَة، وَمِنْهُ سُمّيَ الحائطُ سُورًا؛ لِارْتِفاعِهِ وَإِحاطَتِهِ بِالشَّيْءِ[5]، وَتَأْتي السُّورَةُ بِمَعْنَى: ما طالَ مِنَ البِناءِ وَحَسُنَ[6].

والمقصودُ مِنَ السُّورةِ في الآيةِ: طائفةٌ مُعيَّنَةٌ مِنْ آياتِ القُرآنِ ذاتُ مَبْدَأ وَنِهايةٍ.

2) ﴿أُوْلُواْ﴾: أولو بِمَعْنَى ذوو، لا يُفْرد لَهُ واحِدٌ ولا يُتَكَلَّمُ بِهِ إِلّا مُضافًا، كقولك: أولو بأْسٍ شَديدٍ وأولو كَرَم، كَأَنَّ واحِدَهُ أُلٌ، والواوَ لِلجَمْعِ، أَلا تَرى أَنَّها تَكونُ في الرَّفعِ واوًا وفي النَّصْبِ والجَرِّ ياءً؟[7]، وقيل: أُوْلُوْ، والمُؤَنَّثُ أُوْلاتُ، والواحِدُ: ذو[8]، وأُولاتُ لِلإِناثِ واحِدَتُها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/118، والمراغيّ، تفسير المراغي: 10/178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سور).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سور).
(4) ابن سيدَه، المحكم: (سور).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سور).
(6) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط، والزّبيديّ، تاج العروس: (سور).
(7) ابن سيدَه، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ألل).
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ألل).

ذاتُ، تَقولُ: جاءَني أولو الأَلباب وأولاتُ الأَحْمال[1]. ولا يُقال إلّا لِلجميع منَ النّاس وما يُشبِهُهُ[2]. والمقصودُ بـ ﴿أُوْلُواْ﴾ في الآيَةِ: ذَوو، بِمَعنى: أَصْحاب.

3) ﴿ٱلطَّوْلِ﴾: أصلُ (طول) يَدُلُّ عَلَى فَضْلٍ وامْتِدادٍ في الشَّيْءِ، يُقال: لِفُلانٍ على فُلانٍ طَوْلٌ، أي: زيادَةٌ وفَضْلٌ[3]، ويأتي الطَّوْلُ بمعنى الغِنَى وسَعَةِ المالِ[4]، ومنه سُمِّيَت القُدْرَةُ على الصَّداقِ طَوْلًا؛ لأنَّه إذا قَدِرَ على صَداقِها فقد طالَ عليها وزادَ، ويأتي بمعنى الفَضْل والمَنِّ[5]. والمقصودُ بالطَّولِ في الآيَةِ: السّعَةُ في المالِ. و﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ مُرادٌ بِهِم مَنْ لَهُ قُدْرَةٌ على الجِهادِ بِصِحَّة البَدَنِ[6].

4) ﴿ذَرْنَا﴾: أصلُ (وذر): القَذْفُ والتَّرْكُ[7]، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذفهُ لِقلَّة اعتدادِهِ به. فمعنَى قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: 91] أي: اقْذفهُم وألقِهمْ واتركهُم فلا اعتدادَ بهم. ومِن ذلكَ الوَذْرةُ: وهي قِطعةُ لحم صغيرةٌ سُمّيت بذلك لِقلَّة الاعتدادِ بها، والجمعُ: وُذَر[8]. والعَرَبُ قد أَماتتِ المَصْدرَ من (يَذر) والفِعْلَ الماضيَ، واسْتَعْملتْهُ في الحاضِرِ والأمْرِ، فإذا أرادوا المَصْدر قالوا: ذَرْهُ تَرْكًا[9]. والمقصودُ من ﴿ذَرْنَا﴾ في الآيَةِ: أمرٌ مِن فِعلٍ مُماتٍ وهو (وَذَرَ) استغنَوا عنهُ بمرادِفِه وهو (تَرَكَ).

المَعْنى الإجْماليُّ:

مِنْ عادَةِ المنافقينَ التَّهَرُّبُ مِنَ الجِهادِ

يقولُ اللّهُ تعالى لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ: وإذا أُنزِلَتْ سورةٌ مِن القُرآنِ أوْ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (ألل).
(2) الخليل، العين: (ألل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طول).
(4) الخليل، العين: (طول).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (طول).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/288.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (وذر).
(8) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وذر).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).

بعضُها فيها الأمرُ بالإيمانِ باللّهِ، وجهادِ الكُفّارِ مَعَ رَسولِ اللّهِ ﷺ، استأذَنَك في التَّخلُّفِ أصحابُ الأموالِ مِنَ المُنافِقينَ، وقالوا لكَ: يا مُحمَّدُ، اترُكْنا نكُنْ مع القاعدينَ في بُيوتِهم؛ مِنَ الضُّعفاءِ والمَرضى والعاجزينَ عن الجهادِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ الواوِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ﴾:

تَقسيمُ المُتخَلِّفينَ بعَطْفِ الأغْراضِ بَعْضِها على بَعْضٍ

جاءَتِ الواوُ لِعَطْفِ غَرَضٍ عَلى غَرَضٍ قُصِدَ بِهِ الانْتِقالُ إلى تَقْسيمِ فِرَقِ المُتَخَلِّفينَ عَنِ الجِهادِ مِنَ المُنافقينَ وغَيْرِهِمْ وبيانِ أنْواعِ مَعاذيرِهِمْ ومَراتِبِها في القَبولِ[2].

التَّعْبيرُ بِأداةِ الشَّرْطِ ﴿وَإِذَآ﴾ دونَ (إن):

القَصْدُ إلى حَتْميَّةِ الوقوعِ بِدلالَةِ (إذا)

أوثِرَت ﴿وَإِذَآ﴾ دونَ (إن) لإفادَةِ حَتْميَّةِ الحَدَثِ، وكَثْرَتِه، أوِ المرجَّحِ وقوعُه، ولا تَقْتَضي تكرارًا بِوَضْعِها[3].

تَوجيهُ اسْتِئْثارِ هذا المَوْضِعِ بِتَعْبيرِ ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ﴾:

زِيادَةُ التَّأكيدِ بِحَشْدِ (ما) بَعدَ (إذا) حالَ الإنْكارِ، وعَكْسُهُ بِعَكْسِه

الآيَةُ الّتي وَرَدتْ في خاتِمَةِ السّورَةِ الكريمَةِ جاءَتْ بزيادَةِ (ما) عَقِبَ (إذا) وزيادَتُها لِلتَّأكيد، أيْ: لِتَأْكيدِ مَعْنى (إذا) وهو الشَّرْطُ؛ لِأنَّ هَذا الخَبَرَ لِغَرابَتِهِ كانَ خَليقًا بِالتَّأكيدِ، ولِأنَّ المُنافِقينَ يُنْكِرونَ صُدورَهُ منهم بِخِلافِ هذه الآيَةِ لِأنَّ مَضْمونَها حِكايَةُ اسْتِئْذانِهِمْ وهم لا يُنْكِرونَهُ[4].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ ﴿أُنزِلَتۡ﴾:

صيغةُ الإنْزالِ تَدُلُّ على شَرَفِ القُرآنِ وعُلوِّهِ ورَبّانِيَّتِهِ

أوثِرَ التَّعبيرُ بِصيغَةِ الإنْزالِ دونَ التَّنْزيلِ في قَولِهِ: ﴿وَإِذَآ مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنّ إنزالَ السّورَةِ كانَ دَفْعيًّا لا تَدْريجيًّا،

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/615، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/68، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/223.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/287.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/95، ومحمد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 10/161.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/64.

ولعلَّ السِّرَّ في التّعبيرِ بالإنزالِ الّذي يُشعِر بالنُّزولِ معَ العُلوّ الإشارَةُ إلى أنَّ هذا القُرْآنَ مِن عِندِ اللّهِ تعالى دفعًا للحجّة الواهية القائلة بأنّ القرآن هو كلام محمّد ﷺ.

فائدَةُ التّعْبيرِ بِصيغَةِ المَبْنيِّ لِلمَفْعولِ:

دلالَةُ المَبْنيِّ لِلمَفْعولِ على شَرَفِ الفاعِلِ وعَظَمَتِهِ وتَفَرُّدِهِ بِإنْزالِ القُرْآنِ

مِن فوائِدِ بِناءِ الفِعلِ للمَفعولِ دلالَتُهُ على عِظَمِ الفاعِلِ، وهو اللّهُ ﷻ، وأنَّه لا يَقومُ بهذا الفِعلِ أحَدٌ سواهُ، والإعلامُ بأنَّه تَعالى مُتَفرِّدٌ بِإنزالِ السّوَرِ لا شَريكَ لَهُ في ذلك. وَيَكأَنَّ طَيَّ ذِكْرِ الفاعِلِ كالواجِبِ لِأَمْرَيْن:

أَحَدُهُما: أَنَّهُ إنْ تَعَيَّنَ الفاعِلُ وَعُلِمَ أَنَّ الفِعْلَ ممَّا لا يَتَوَلّاهُ إلَّا هوَ وَحْدَهُ كانَ ذِكْرُهُ فَضْلًا وَلَغْوًا؛ والثّاني: الإيذانُ بِأَنَّهُ مِنْهُ غَيْرَ مُشارَكٍ وَلا مُدافِعٍ مُدافَعٍ عَنِ الاسْتِئْثارِ بِهِ والتَّفَرُّدِ بِإيجادِهِ[1].

إيثارُ التّعْبيرِ بِلَفظِ ﴿سُورَةٌ﴾:

دلالَةُ السّورَةِ مَجازٌ مُتَّسَعٌ فيهِ كَإِطْلاقِ الكِتابِ على القُرْآنِ

السُّورَةُ: طائِفَةٌ مُعَيَّنَةٌ مِنْ آياتِ القُرْآنِ لَها مَبْدَأٌ وَنِهايَةٌ، وَلَمَّا كانَت أَلْفاظًا وَأَقْوالًا صَحَّ بَيانُها بِبَعْضِ ما حَوَتْهُ وَهوَ الأَمْرُ بِالإيمانِ والجِهادِ[2].

والمرادُ بها هذهِ السّورَةُ، أَيْ: سورَةُ بَراءَة، وإطلاقُ اسْمِ السّورَةِ عَليها في أَثْنائها قَبلَ إكْمالِها مَجازٌ مُتّسَعٌ فيهِ كَإِطْلاقِ الكِتابِ على القُرْآنِ في أَثْناءِ نزولِهِ في نَحوِ قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] وقولِه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 92]، فهذا الوصفُ وَصفٌ مُقَدَّرٌ شَبيهٌ بالحالِ المُقدَّرَة[3].

دلالةُ تَنْكيرِ ﴿سُورَةٌ﴾:

إمّا لِلتّفْخيمِ، أوْ لِيَشْمَلَ كلَّ سورَةٍ قُرْآنِيَّةٍ بلا تَعْيينٍ

جاءَتْ ﴿سُورَةٌ﴾ نَكِرَةً في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ لِإرادَة النَّوعِ، أَيْ: أيَّ سورةٍ كانَتْ. أَوْ أَنَّ المرادَ بها سورَةُ التّوبة وهو الأَرْجَحُ،

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/145.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/288.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/288.

وحينئذٍ يَكونُ التَّنْكيرُ لِتَفْخيم شَأْنِها، ويُؤَيِّدُه الجُملةُ التّفسيريَّةُ بَعدَها: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ﴾، فمَطلوبُ السّورَةِ أمرٌ عَظيمٌ، هو الإيمانُ باللّهِ، ومؤازَرَةُ الرّسولِ ﷺ بالخروجِ معَهُ لِلجهادِ.

دلالَةُ ﴿أَنۡ﴾ في ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ﴾ وأثَرُها في المعْنى:

تَـعـاوُرُ المَعاني بِـتَـنَـوُّعِ دلالَـةِ ﴿أَنۡ﴾

قولُه تعالى: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ﴾ فيهِ وجْهان: أحَدُهما: أنّها تَفسيريَّةٌ؛ لِأنَّ قَبْلَها شَرْطَ ذَلِك. والثاني: أنّها مَصدريَّةٌ على حَذْفِ حَرْف الجرِّ، أيْ: بأنْ آمِنوا، أيْ: بالإيمانِ[1].

بَلاغَةُ حَرْف الجرِّ المَحْذوفِ في ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ﴾:

حَذف الخافِضِ في (أن آمنـوا) تَشَوُّفٌ لِلإيجازِ المُعجزِ مَع سَعَةِ التَّقْديرِ

مَضى أنّ قولَهُ تعالى: ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ تَكونَ ﴿أَنۡ﴾ فيهِ تَفْسيريَّةً بِمَعْنى أيْ، لِأنَّ قَبْلَها شَرْط ذَلِك، فَهي - عَلى هَذا - لا مَوْضِعَ لَها، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ مَصْدَريَّةً حُذِفَ عَنْها الجارُّ؛ وتَظْهرُ في حَذْفِ الجارِّ بِجوارِ الإيجازِ والاختِصارِ أغْراضٌ بَلاغيَّةٌ يَتَطلَّبُها المَقامُ ويَقْتَضيها السِّياقُ؛ ولعلَّ أبْرَزَ سِمَةٍ أُسْلوبِيَّةٍ لِشواهِد نَزْعِ الخافِضِ المُطَّرِدِ مَعَ (أنَّ وأنْ) هي الإيجازُ في أغْلَبِ شواهِدِه، وإنْ ظَهرَ في قليلٍ مِن شواهِدِه تَكْثيرُ الدلالةِ تَبعًا لاختلافِ حَرْفِ الجرِّ المَحذوفِ[2].

سِرُّ تَقديمِ الأمْرِ بالإيمانِ على الأمْرِ بالجِهادِ:

تَقديمُ الإيمانِ عـلى الـجِـهـادِ وَضْعًا لِتَقَدُّمِه طَبْعًا

قُدِّمَ الأمْرُ بِالإيمانِ لِأنَّ الاشْتِغالَ بِالجهادِ لا يُفيدُ إلّا بَعْدَ الإيمانِ[3].

بَلاغَةُ الأمْرِ بالإيمانِ باللهِ والجِهادِ مَع رَسولِ الله ﷺ:

مُلازَمَةُ الجِهادِ لِمُسَمّى الإيمانِ إذْعانٌ لِلدّيّانِ وإعزازٌ لِلدّينِ

الأمْرُ بِالإيمانِ باللّهِ حقَّ الإيمانِ أمرٌ بالإذْعانِ لِكلِّ ما يُكَلِّفُهمْ إيّاهُ، وأنْ يَعلموا مؤمنينَ بِأنّهُ القادِرُ القاهِرُ النّاصِر، المُعِزُّ المُذِلُّ، العَليمُ الخَبير، أيْ: يؤمنونَ بأنّه واحدٌ في ذاتِه وصفاتِه الّتي هي الكَمالُ المُطلَق، وأنَّهُ لا يُعبَد غَيرُهُ[4]، فاللّهُ يُريد إيمانًا بِالقلبِ

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/95.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/90، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/479.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/444.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3402.

واللِّسانِ لِيَتّفق السُّلوكُ معَ العَقيدَةِ. والأمْرُ بِالجهادِ معَ رَسولِ اللّهِ لِإعزازِ دينِهِ وإعلاءِ كَلمتِهِ[1] وهو تَعْبيرٌ عَمَليٌّ عَنِ الإيمانِ، لِأَنَّ الجهادَ والقِتالَ في سبيلِ اللّهِ شَرَفٌ لهُ ثوابٌ عظيمٌ. والامتِناعَ عَنِ الجهادِ تَنازُلٌ عَنْ خيرٍ كبيرٍ، فالحَقُّ سُبحانَهُ يُعطي جَزيلَ الأَجْرِ لِمَن جاهَدَ جهادًا حقيقيًّا[2].

ومَعنى الأمْرِ لِلمؤمنينَ بالإيمانِ: الدَّوامُ عَلَيه والتَّمَسُّكُ بِهِ في مُسْتقبلِ الأوقاتِ، معَ أنّ هذا أمرٌ عامٌّ يَدخُل فيهِ أمرُ المنافقينَ بالإيمانِ، ثُمّ الجهادِ؛ لِأنّه لا يَنْفعهمْ ذلِك معَ النِّفاقِ[3].

التَّأنُّقُ البَيانِيّ بِتَقريرِ جَوابِ الشَّرْطِ بِأسلوبِ الالتِفاتِ

جوابُ الشَّرْطِ ودلالتُهُ:

في قَوله: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ﴾؛ التِفاتٌ مِن غَيْبةٍ إلى خِطابٍ، وذلِك أنّه قد تَقدَّم لفظُ ﴿رَسُولِهِۦ﴾، فلَو جاءَ على الأصْلِ لَقيلَ: اسْتَأذَنهُ[4].

دلالَةُ صيغَةِ الماضي على تَحقُّقِ الوقوعِ

سِرُّ التَّعبيرِ بِالماضي في: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ﴾:

التّعبيرُ بِالماضي في قَوله: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ﴾ دلالَةٌ عَلى تَحقُّقِ وقوعِ الحَدَثِ، حالَ نُزولِ السّورَةِ.

بَعْضُ الأَعْذارِ أَقْبحُ مِنَ الذّنوبِ

سِرُّ التّعبيرِ بِ: ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾:

أُولو الطَّولِ هم: ذَوو الفَضْلِ والسَّعةِ والقُدرَةِ عَلى الجهادِ بَدَنًا ومالًا[5]. أوثرَ التَّعْبيرُ بقولِهِ: ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾ وخصَّهم بالذِّكْرِ؛ لِسَبَبيْنِ: الأوّل: لأنَّ الذَّمَّ لَهمْ أَلْزَمُ لِأجْلِ كَوْنِهمْ قادرينَ عَلى السَّفَرِ والجهادِ، فَبوجودِ الطَّوْلِ انْتفى عُذرُهمْ، والثّاني: أنَّهُ تعالى ذَكَرَ ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ﴾؛ لِأنَّ مَن لا مالَ لَهُ ولا قُدْرَةَ عَلى السَّفرِ لا يَحْتاجُ إلى الاسْتِئْذانِ[6].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/90.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 9/5403.
(3) الواحدي، البسيط: 10/585.
(4) السمين، الدر المصون: 6/95.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/90.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/119.

إيثارُ لَفظِ ﴿أُوْلُواْ﴾:

إيثارُ لَفظِ (أولو) لِتعلُّقِهِ بالمَعْنويّاتِ

أوثِرَ لَفْظُ ﴿أُوْلُواْ﴾ دونَ غَيرِهِ لأنّ المضافَ إليْهِ شَيْءٌ مَعنويٌّ وهو الطَّولُ.

وأمّا التّعبيرُ بـ(أصحاب)، فَغيرُ مُناسِبٍ؛ لأنّ الصّاحِبَ هو الملازِمُ؛ إنسانًا كانَ، أو حيوانًا، أو مكانًا، أوْ زمانًا[1] ومن ثَمّ فما لَم تَكُن مُلازَمَةٌ، لا يُقالُ لها: صُحبَة، والطَّولُ - وهو القُدْرةُ البَدنيَّةُ والمادِّيَّةُ - شَيْءٌ عَرَضيٌّ، يَغدو ويَروحُ، ومَن سَرَّهُ بِهما زَمَنٌ ساءَتْهُ أزمانٌ.

فائدَةُ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

تَخصيصُ المنافقينَ بِالذِّكرِ لِلإغْراقِ في ذَمِّهِم

قولهُ تعالى: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ تَخصيصٌ لَهم بالذِّكرِ لِأنَّ الذَّمَّ لَهم ألْزَمُ ولا سيَّما بَعْدَ سَماعِ القُرْآنِ[2]، لِأنَّهُ كانَ المتوَقَّعُ مِنهُم أنْ يَتَقدَّموا صفوفَ المجاهدينَ، لِأنَّهُمْ يَملِكونَ وَسائِلَ الجهادِ والبَذْلِ، لا أنْ يتخاذلوا ويَعْتَذِروا، ويَقولوا ما قالوا مِمّا يَدلُّ على جُبْنِهِم والْتِوائِهِمْ[3].

وهذا لَو كانَ النَّظرُ فيهِ إلى الْمُتَخاذِلينَ مِنَ المنافقين وغيرِهِم؛ أمّا إذا كانَ المقصودُ خُصوصَ المنافقينِ، فَلا يُناسِبهُ هذا التّعليلِ، لِأنَّهم ما كانوا يَخرجونَ لِلجهادِ إلّا مُداراةً وطَمعًا في الغَنائمِ.

عَطْفُ جُملَةِ: ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا﴾ بالواوِ:

الزِّيادَةُ في المَعْطوفِ لِقَصدِ تَفْصيلِ المُجْمَلِ

عُطِفَت جُمْلَةُ ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ عَلَى ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ﴾ لِما بَيْنَهُما مِنَ الْمُغايَرَةِ في الجُمْلَةِ بزيادَةٍ في المَعْطوفِ؛ لِأَنَّ الاسْتِئْذانَ مُجْمَلٌ، وَقَوْلَهُمُ المَحْكيَّ فيهِ بيانُ ما اسْتَأْذَنوا فيهِ وَهوَ القُعودُ[4].

دلالَةُ الأَمْرِ في قولِهِ: ﴿ذَرۡنَا﴾ وبَلاغَتُهُ:

الكَشْفُ عَنِ اسْتِخْفافِ المُنافِقينَ بِأوامِرِ اللهِ وفَضْحُ طَوِيَّتِهِمْ

في قَولِهِمْ: ﴿ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ ما يَكشِفُ عَنِ اسْتِخفافِهِم

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 457.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/570.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 6/374.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/289.

بأمرِ اللّهِ، واسْتِرواحِهِمْ لِلتَّحَلُّلِ مِنْهُ، حتّى لَيَهْنَؤُهُمُ المقامُ، وتَطيبُ لهم الحياةُ، فيَقعدون مع القاعدينَ، ويَسمُرون مَعَ السّامرينَ، لاسيَّما مَعَ التَّعْبيرِ بِـ: ﴿ذَرۡنَا﴾ الَّذي تَدورُ مادَّتُهُ عَلى ما يُكْرَهُ[1].

تَلْفيقُ المنافقينَ لِلأعْذارِ الواهِيَةِ لِتَرْكِهِمْ في المَدينَةِ

الحاصِلُ: أنّ في نَظْمِ هذهِ الآيَةِ إيذانًا بِتَلْفيقِ مَعْذِرَتِهِمْ وأنَّ الحَقيقَةَ هي رَغْبَتُهم في القُعودِ، ولِذَلِكَ حُكيَ قَوْلُهم بأنِ ابْتُدِئَ بـ ﴿ذَرۡنَا﴾ المُقْتَضي الرَّغْبَةَ في تَرْكِهِمْ بِالمَدينَةِ بمَعيَّةِ القاعدينَ[2].

فائدَةُ قولِه: ﴿نَكُن﴾:

دلالَةُ صيغَةِ عُذْرِ المنافقينَ على ما يوافِقُ جِبِلَّتَهُمُ السَّيِّئَةَ

أحالتِ الآيَةُ على ما تَضَمَّنَهُ اسْتِئْذانُهم مِنْ رَذائِلِ الأَخْلاقِ ودَنايا الهِمَمِ المَحْكيِّ بِقَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ ذَرۡنَا﴾، أيْ: اتْرُكْنا ولَوْ عَلى حالَةٍ سَيِّئَةٍ ﴿نَكُن﴾ أيْ: بما يوافِقُ جِبِلّاتِنا ﴿مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾، فالتّعْبيرُ بـ ﴿نَكُن﴾ يوحي بِطَبيعتِهِم المائلَةِ إلى القُعودِ، وجِبِلَّتِهِم الرّاكِنَةِ إلى التَّثاقُلِ والكَسَلِ.

دلالَةُ الظَّرفِ ﴿مَعَ﴾:

دلالَةُ المعيَّةِ تُؤْذِنُ بِالإلْحاقِ والتَّبعِيَّةِ

لَفْظَةُ ﴿مَعَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ تُؤذِنُ بالإلحاقِ والتّبعيّةِ، أيْ: أنْ يَكون هؤلاءِ تَبَعًا لِلْقاعدينَ الَّذينَ فيهِمُ العُجَّزُ والضُّعَفاءُ والجُبَناءُ[3].

ويُحتمَل أيضًا أنْ يكونَ هذا القولُ مِنهُم - بإيثارِ ﴿مَعَ﴾ - تمويهًا وتحايلًا، على مَعنى: نَحن لا نَتَعَلَّلُ ولا نَخْتَلِقُ الأعذارَ، ولَيس قَصدُنا بالاستذان بالاسْتِئذانِ والقُعودِ التّخاذُلَ والرُّكونَ، بِدَليلِ أنّنا حالَ بَقائِنا في معيَّةِ القاعِدينَ، سَنَقوم بدورنا تُجاهَهُمْ، نَرعاهم ونَقوم على حِمايَتِهِمْ ونَكونُ لَهم سَنَدًا وعَضُدًا، ونَحو هذا مِنَ التَّبريراتِ الّتي يَسوقها أهلُ الخِذلانِ في المواقِفِ الجادَّةِ، لِيُبَرِّروا تَخاذُلَهُم وعدَمَ مروءَتِهِم.

(1) عبد الكريم يونس الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 861/4، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 570/8.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 289/10.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 289/10.

المتشابِهُ اللَّفْظيُّ:

أمّا قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ﴾ [التوبة: 124] فقد عُطِفَ عَلى قَوْلِه: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: 86]، وهذا عَوْدٌ إلى بَيانِ أحْوالِ المُنافِقينَ وما بَيْنَهُما اعْتراضاتٌ، وهَذِهِ الآيَةُ المعطوفةُ زيدَتْ فيها (ما) عَقِبَ (إذا) وزيادَتُها لِلتَّأْكيد، أيْ: لِتأْكيدِ مَعْنى (إذا) وهو الشَّرْطُ؛ لِأَنَّ هَذا الخَبَرَ لِغرابَتِهِ كانَ خَليقًا بِالتَّأْكيدِ، ولِأَنَّ المُنافِقينَ يُنْكِرونَ صُدورَهُ منهم بِخِلافِ الآيَةِ السّابِقَةِ؛ لِأَنَّ مَضْمونَها حِكايَةُ اسْتِئْذانِهِمْ وهم لا يُنْكِرونَهُ[1].

الزيادَةُ في مَباني الأخْبارِ لِتأكيدِ غَرابَتِها

وأمّا ما جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ نَّظَرَ بَعۡضُهُمۡ﴾ [التوبة: 127] فهو عَطْفٌ عَلى جُمْلَةِ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ [التوبة: 124]، وإنَّما أُعيدَتْ جُمْلَةُ الشَّرْطِ لِبُعْدِ ما بَيْنَ الجُمْلَةِ المَعْطوفَةِ وجُمْلَةِ الجَزاءِ، أوْ لِلْإِشارَةِ إلى اخْتِلافِ الوَقْتِ بِالنِّسْبَةِ لِلنُّزولِ الَّذي يَقولونَ عِنْدَهُ: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ﴾ [التوبة: 124]، وموجِبُ زيادَةِ (ما) بَعْدَ (إذا) في الآيَتَيْنِ مُتَّحِدٌ لِاتِّحادِ مُقْتَضيهِ[2].

إعادَةُ جُملَةِ الشَّرْطِ لِبُعدِ ما بَيْنَ الجُملةِ المعْطوفَةِ وجُملةِ الجَزاءِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنْزالُ والتَّنزيلُ:

الإنزالُ: دَفْعيٌّ، والتَّنْزيلُ: لِلتَّدْريجِ[3]، أيْ: أنّ كلمةَ (تنزيل) تَعْني النّزولَ عَلى عِدّةِ دُفْعاتٍ، وكلمةَ (إنزال) تَعْني: النّزولَ دُفْعَةً واحدَةً، والتّنزيلُ لِلتَّكريرِ والتَّكثيرِ مِنَ الإنزالِ[4].

الإنزالُ لِما يَكونُ دَفْعيًّا، والتَّنزيل لِما يَكونُ مُفرَّقًا مُتَدَرِّجًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/68.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة بترتيب وزيادة، ص: 76.
(4) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 1/252.

(أولو) و(ذَوو) و(أصحاب):

(أصحاب) يَكونُ لِلشَّيءِ المُلازِم، (وأولو) و(وذَوو) لِلعارِضِ

بتدبُّرِ الفَرْقِ بَيْنَ (أولو) و(أصحاب) نَجِدُ أنَّ ما أُضيف إلى (أولو) هي أشياءُ مَعنويَّةٌ، ولَيْست مادّيَّةً، مِثل الألْبابِ والعِلم والقُربى والأرْحام والنُّهَى، أمّا ما أُضيف إلى (أصحاب) فَأشْياءُ مادّيَّةٌ مِثل: أَصحابِ مَدْيَن، الحِجْر، الكَهْف، السَّفينَة، الفيلِ، وحتّى أَصْحاب السَّبْتِ.

أمّا لَفْظَةُ (ذوي) في قَولِه ﴿ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: 177] فقَدْ وَرَدتْ مَرَّةً واحِدةً، ولكنْ حينَ نَتدبَّرُ الصِّيَغَ الأُخْرى الّتي وَرَدتْ فيها نَجِدُ: ذو عِلم، ذو الفَضْل، ذو انْتِقام، ذو الرَّحْمة، ذو عَدْل، ونجِدُها جميعًا تَعْني: (الّذي لهُ كَذا أوِ الّذي عِنْدَهُ كذا) فَذو العِلم هو مَنْ لَهُ وعِندهُ عِلمٌ.

ونَخلُص إلى أنّ (الصّاحب) يُطلَق عَلى المُلازِم؛ إنْسانًا كانَ، أوْ حيَوانًا، أوْ مَكانًا، أوْ زَمانًا[1] ومِن ثَمّ فما لَمْ تَكُنْ مُلازَمَةٌ لا يُقال لَها: صُحْبَة. بِخلافِ (أولي، وذوي) فيُضافانِ إلى الأَشياءِ العَرَضيَّة، فيُقال: أولو الألْبابِ، وذَوو مالٍ، ونَحوُ ذلِك ممّا لا تُضمَن مُلازَمَتُه مُلازَمَةَ الصّاحِب.

الطَّوْلُ والغِنى:

الطَّوْلُ مُطلَقُ القُدرَةِ والتَّمَكُّنِ مِنَ الأشْياءِ

بَيْنَ الطَّولِ والغِنى عُمومٌ وخُصوصٌ مُطلَق؛ لأنّ مُسَمَّى الطَّوْل يَنْطَبِقُ على كلِّ مُفرداتِ الغِنى مِن حيْثُ كونُهُ زيادَةً وفَضْلًا، ويَرِد بِمعنى الغِنَى وسَعَةِ المالِ، ومنهُ سُمِّيَتِ القُدْرَةُ على الصَّداقِ طَوْلًا؛ لأنَّه إذا قَدِرَ على صَداقِها فقد طالَ عليها وزادَ، ويأْتي بِمعنى الفَضْلِ والمَنِّ.

(ذَرْ)، و(اتْرُكْ)، و(دَعْ):

الفِعلُ (ذرْ) يَدلّ على التّخلّي عَنِ الشَّيءِ إهمالًا لهُ؛ لِقلّة الاعتدادِ

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 457.

بهِ، يُقال: فُلانٌ يَذرُ الشَّيءَ، أيْ: يَقذِفُهُ لِقِلَّةِ الاعْتدادِ بِهِ، والوَذَرَة: قِطعَةُ اللّحْمِ، وتَسْميَتُها بِذلِك لِقِلّةِ الاعْتِدادِ بِها[1].

انتِخَابُ ما يُفيدُ التَّخَلِّيَ مع الإهمال

والفِعلُ (دعْ) يَدلّ على تَرْكِ الشَّيءِ معَ الاهْتمامِ بِهِ والحِرصِ عَليهِ، ومنهُ الإيداعُ، والوَديعَةُ.

والتَّرْك أَعَمُّ؛ فهو مُطْلَقُ التَّخلّي عَنِ الشَّيءِ، سَواء أَكانَ المُتَخلّي حَريصًا عَلَيهِ، أمْ زاهِدًا فيهِ.

والفِعلُ (ترَك) مُتَصرِّفٌ تَصَرُّفًا تامًّا، والفِعلانِ (ذرْ) و(دَع) جاءَ مِنهُما المُضارِعُ والأَمْرُ، ولَم يَأتِ مِنهما الماضي في اللُّغَةِ المَشْهورَةِ، وقدْ جاءَ الماضي (وَدَعَ) في قِراءَةٍ شاذّةٍ: (مَا وَدَعَكَ) بِفَتْحِ الدّالِ والعَيْنِ المُخَفَّفَتَين[2].

(1) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (وذر).

(2) هي قِراءَةٌ شاذّة، نُسِبتْ إلى عُروة بنِ الزّبير، وابنهِ هِشام وأبي حيوة وأبي بحرية وابنِ أبي عبلة ومقاتل ويزيد النّحويّ ومجاهد وأبي البرهسم، وابنِ عبّاسٍ - فيما رواهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ - وعمر بنِ الخطّاب وأَنَس وأبي العالية وابن يعمر وأبي حاتم عن يعقوب، ينظر: عبد اللّطيف الخطيب، معجم القراءات: 10/479.

المحتويات